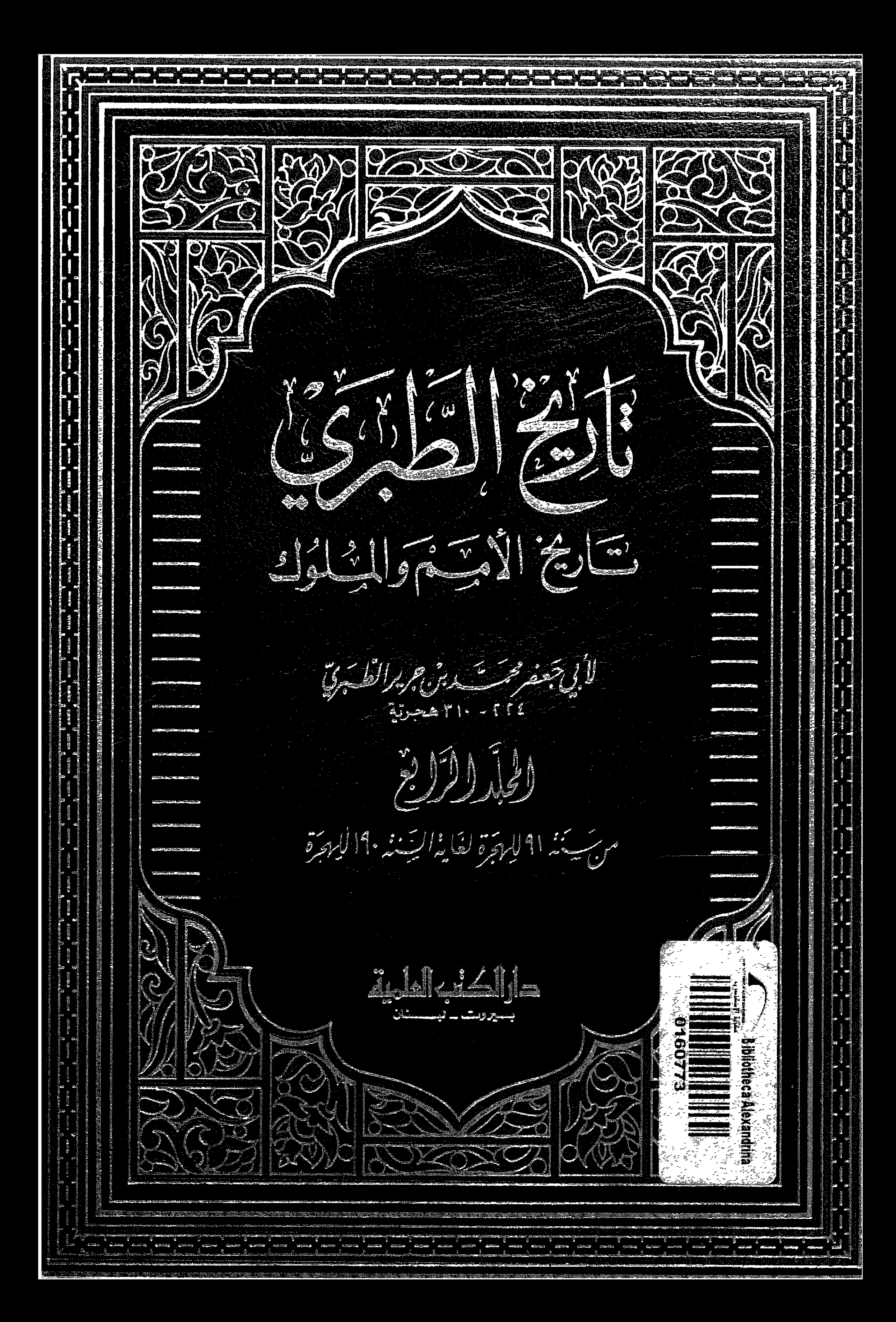


تاريخ الطبري
تاريخ الأمم والملوك
لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري
٢٢٤ - ٣١٠ هجرية
المجلد الرابع
من سنة ٩١ للهجرة لغاية السنة ١٩٠ للهجرة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان
Bibliotheca Alexandrina
0160773







تاريخ الطبري

تاريخ الأمم والملوك

لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري
٢٢٤ - ٣١٠ هجرية

المجلد الرابع

من سنة ٩١ للهجرة لغاية السنة ١٩٠ للهجرة

دار الكتب العلمية
بيروت . لبنان

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين

ذكر ما كان فيها من الأَحداث

ففيها غزا ـ فيما ذَكَر محمد بن عمَر وغيرُه ـ الصائفةَ عبدُالعزيز بن الوليد ، وكان على الجيش مَسلَمة بن عبدالملك .

وفيها غزا أيضاً مَسلَمة الترْك ؛ حتى بلغ البابَ من ناحية أذْرَبيجان ، ففُتِح على يديه مدائنُ وحُصون .

وفيها غزا موسى بن نُصَير الأندلس ، ففُتح على يديه أيضاً مَدائنُ وحصون .

وفي هذه السنة قَتَل قتيبةُ بنُ مسلم نِيزَكَ طَرْخان .

رجع الحديث إلى حديث علي بن محمد وقصّة نِيزك وظَفَر قُتيبة به حتى قتله . ولما قدم مَنْ كان قتيبةُ كَتَب إليه يأمره بالقُدوم عليه من أهل أبْرَشَهْر وبِيورْد وسرْخس وهَراةَ على قتيبة ، سار بالناس إلى مَرْوَرّوذ واستَخلَف على الحرب حمّاد بن مسلم ، وعلى الخَراج عبدالله بن الأهتم . وبلغ مَرزُبان مَرْوَرّوذ إقبالُه إلى بلاده ، فَهَرَب إلى بلاد الفُرْس . وقَدِم قتيبة مَرْوَرّوذ فأخذ ابنين له فقَتَلهما وصلَبهما، ثم سار إلى الطالَقان فقام صاحبُها ولم يحارِبْه ، فكفّ عنه ، وفيها لصوص ، فقتلهم قتيبة وصلبهم ، واستعمل على الطالقان عَمْـرو بن مسلم، ومَضى إلى الفارِياب ، فخرج إليه مَلِك الفارياب مُذْعِنا مقرًّا بطاعته ، فرضيَ عنه ، ولم يَقتل بها أحداً ، واستعمَل عليها رجلًا من باهِلةَ . وبلغ صاحبُ الجُوزجان خبرُهم ، فتَرك أرضَه وَخَرج إلى الجبال هارباً، وسار قتيبةُ إلى الجُوزجان فلقيه أهلها سامِعِين مطيعِين، فقَبِل منهم ، فلم يَقتُل فيها أحداً ، واستعمل عليها عامرَ بنَ مالك الحِمّانيّ ، ثمّ أتى بَلْخَ فلقيَه الأصبهْبَذ في أهل ِ بَلْخ ، فدخلها فلم يُقِم بها إلّا يوماً واحداً.

ثم مضى يَتبَع عبدَالرّحمن حتى أتى شعب خُلْم ، وقد مضى نِيزَك فعَسكَر ببَغْلان ، وخلف مُقاتِلةً على فم الشعب ومضايقهِ يمنعونه ، ووضَع مُقاتِلَةً في قَلْعة حصينة من وراء الشِّعب ، فأقام قتيبة أيّاماً يقاتلهم على مَضيق الشِّعب لا يقدر منهم على شيء ، ولا يَقدِر على دخوله ، وهو مَضيقٌ ، الوادي يجري وسَطَه ، ولا يَعرف طريقاً يُفضِي به إلى نِيزَك إلّا الشِّعب أو مفازة لا تحتَمل العساكر ، فبقي متلدِّداً يلتمس الحِيَل .

قال : فهو في ذلك إذْ قَدِم عليه الرّوْب خان مَلِك الرّوْب وسِمِنْجان ، فاستأمَنَه على أن يدلّه على مَدخلَ القَلْعة التي وراءَ هذا الشِّعب ، فآمنه قتيبةُ ، وأعطاه ما سأله ، وبعث معه رجالًا ليلًا ، فانتهى بهم إلى القَلْعة التي من وراء شِعْب خُلْم ، فطرَقُوهم وهم آمنون فقتَلوهم ، وهرب مَنْ بقيَ منهم ومن كان في الشِّعب ، فدخل

قتيبة والناسُ الشِّعب ، فأتى القلعة ثم مضى إلى سِمِنْجان ونيزَك ببَغْلان بعين تدعى فَنْج جاه ، وبين سِمِنْجان وبَغْلان مفازة ليست بالشديدة .

قال : فأقام قتيبة بسِمِنْجانَ أيّاماً ، ثم سار نِيزَك ، وقدّم أخاه عبدالرحمن ، وبلغ نيزَك فارتحَل من منزله حتى قطع واديَ فَرْغانة ، ووجّه ثَقَلَه وأموالَه إلى كابُل شاه ، ومضى حتى نَزَل الكرْز وعبدالرّحمن بن مسلم يَتبَعه ، فنزل عبدُالرحمن وأخذ بمضايق الكرز ، ونزل قُتيبة أسكيمشت بينه وبين عبدالرحمن فَرْسخان . فتحرّز نِيزَك في الكرز وليس إليه مَسلَك إلّا من وجه واحد ، وذلك الوجه صَعْب لا تُطيقه الدّوابّ ، فحصَرَه قتيبة شهرَين حتى قلّ ما في يد نِيزَك من الطعام ، وأصابهم الجُدَرِيّ وجُدِّر جبغويه ، وخاف قتيبة الشتاء ، فدعا سُليماً الناصح ، فقال : انطلِق إلى نِيزَك واحتَلْ لأنْ تأتيَني به بغير أمان ، فإنْ أعياكَ وأبَى فآمِنه ، واعلم أني إن عاينتُك وليس هو معك صلبتُك ؛ فاعمل لنفسك . قال : فاكتبْ لي إلى عبدالرحمن لا يُخالِفني ؛ قال : نعم . فكتب له إلى عبدالرحمن فقَدِم عليه ، فقال له : ابعثْ رِجالاً فليكونوا على فَم الشِّعب ، فإذا خرجت أنا ونِيزَك فلْيَعطِفوا من ورائنا فيَحُولوا بيننا وبين الشِّعب . قال : فبعث عبدُالرحمن خَيْلاً فكانوا حيث أمَرَهم سُلَيم ، ومَضَى سُليم وقد حمل معه من الأطعمة التي تبقى أياماً والأخْبِصة أوقاراً ، حتى أتى نِيزَك ، فقال له نِيزَك : خذلْتني يا سليم ، قال : ما خذلْتُك ، ولكنك عصيتَني وأسأتَ بنفسك ، خلعتَ وغدرتَ ، قال : فما الرأي؟ قال: الرأيُ أن تأتيَه فقد أمحَكْته ، وليس ببارح موضَعه هذا ، قد اعتزم على أن يَشتُوَ بمكانِه ؛ هلك أو سلم ؛ قال : آتيه على غيرِ أمان! قال: ما أظنه يؤمنك لما في قلبه عليك ، فإنك قد ملأتَه غيظاً ، ولكني أرى ألّا يَعلم بك حتى تَضعَ يدَكَ في يده ، فإني أرجو إن فعلتَ ذاكَ أن يستحيَ ويعفوَ عنك ، قال : أترى ذلك؟ قال: نعم ؛ قال : إنّ نفسي لتأبى هذا ، وهو إنْ رآني قتَلَني ، فقال له سليم : ما أتَيْتُك إلّا لأشيرَ عليك بهذا ، ولو فعلتَ لرجوتُ أن تَسلَم وأن تعودَ حالُك عندَه إلى ما كانت ؛ فأما إذْ أبيتَ فإني منصرِف . قال : فنغدّيك إذاً ، قال : إني لأظنكم في شُغْل عن تَهيئةِ الطعام ، ومعنا طعامٌ كثير .

قال : ودعا سليم بالغَداء فجاؤوا بطَعام كثير لا عَهدَ لهم بمثله منذ حصروا ، فانتهبَه الأتراك ، فغمّ ذلك نِيزَك ، وقال سليم : يا أبا الهيّاج ، أنا لك من الناصِحين ، أرى أصحابَك قد جُهِدوا ، وإن طال بهم الحصار وأقمتَ على حالك لم آمَنهمْ أن يستأمِنوا بك ، فانطَلِق وأتِ قُتيبة ، قال : ما كنتُ لآمَنه على نفسي ، ولا آتيه على غير أمان ؛ فإنّ ظنيّ به أنه قاتلي وإن آمنني ، ولكنّ الأمان أعذَر لي وأرجَى ، قال : فقد آمنك أفتتّهمني ! قال : لا ، قال : فانطلِق معي ، قال له أصحابه : اِقبَل قولَ سليم، فلم يكن ليقولَ إلّا حقًّا ، فدعا بدوابّه وخرج مع سليم ، فلما انتهى إلى الدرجة التي يُهبط منها إلى قرار الأرض قال: يا سليم ، من كان لا يَعلم متى يَموت فإني أعلَم متى أمُوت ، أموتُ إذا عاينْتُ قُتيبة ؛ قال : كلّا أيقتلُك مع الأمان! فركِب ومضَى معه جبغويه ـ وقد بَرَأَ من الجُدَرِيّ ـ وصُولُ وعثمانُ ابنا أخي نِيزَك ـ وصول طَرْخان خليفة جبْغويه ، وخنس طرخان صاحب شرطه ـ قال : فلما خرج من الشِّعب عطفت الخَيلُ التي خلفها سليم عَلى فوّهة الشعب ، فحالوا بين الأتراك وبين الخروج ، فقال نِيزَك لسُلَيم : هذا أوّل الشرّ ؛ قال : لا تفعل ، تخلُّف هؤلاء عنك خيرٌ لك .

وأقبَل سليم ونِيزَك ومن خرج معه حتى دخلوا على عبدالرحمن بنِ مُسلِم ، فأرسل رسولاً إلى قتيبة يُعلِمه ، فأرسَل قتيبةُ عَمرو بن أبي مِهْزَم إلى عبدالرحمن : أن أقدم بهم عليَّ ، فقَدِم بهم عبدُالرحمن عليه ،

فَحبَس أصحابَ نِيزَك ، ودفع نِيزَكَ إلى ابن بسّام اللّيثي ، وكتب إلى الحجّاج يستأذنه في قتل نِيزَك، فجعل ابن بسام نِيزَكَ في قُبّته ، وحَفر حولَ القبة خَنْدقاً ، ووَضع عليه حَرَساً . ووجّه قتيبةُ معاويةَ بن عامر بن علقمة العُلَيميّ ، فاستخرج ما كان في الكُرز مَنْ مَتاع ومن كان فيه ، وقَدِم به على قتيبة ، فحبسهم ينتظِر كتابَ الحجاج فيها كتب إليه ، فأتاه كتابُ الحجاج بعد أربعين يوماً يأمُره بقَتْل نِيزَك . قال : فدعا به فقال : هل لك عندي عَقْد أو عند عبدِالرحمن أو عند سليم؟ قال: لي عند سليم ؛ قال : كذبتَ ، وقام فدَخل وردَّ نِيزَكَ إلى حَبْسه ، فمكث ثلاثةَ أيام لا يَظهَر للناس . قال : فقام المهلب ابنُ إياس العدويّ ، وتكلّم في أمْر نِيزَك ، فقال بعضهم : ما يَحِلّ له أن يَقتُله ، وقال بعضهم : ما يَحِلّ له تَركُه ، وكثرت الأقاويلُ فيه .

وخرج قتيبة اليومَ الرابعَ فجلس وأذِن للناس ، فقال : ما تَروْن في قَتْل نِيزَك؟ فاختَلَفوا ، فقال قائلٌ : اقتلْه ، وقال قائل : أعطيتَهُ عَهْداً فلا تَقتُله ؛ وقال قائل : ما نأمنه على المسلمين . ودخل ضِرار بن حُصين الضَّبيّ فقال : ما تقول يا ضرار؟ قال: أقول: إنّي سمعتك تقول : أعطيتُ اللّهَ عَهْداً إنْ أمكَنَك منه أن تقتُلَه ، فإن لم تفعَل لا ينصرنك الله عليه أبداً . فأطرَق قُتيبةُ طويلاً ، ثمّ قال : والله لو لم يَبقَ من أَجَلي إلاّ ثلاث كلمات لقلتُ : اقتُلوه ، اقتُلوه ، اقتُلوه ؛ وأرسَل إلى نِيزَك فأمر بقتلِه وأصحابه فقتِل مع سبعمائة .

وأما الباهِليّون فيقولون : لم يُؤمنه ولم يُؤمنه سُلَيم ، فلما أراد قتلَه دعا به ودعا بسَيْف حَنَفيّ فانتضاه وَطوّل كميّه ثمّ ضرب عنقَه بيَده ، وأمَرَ عبدالرحمن فضَرَب عنقَ وصول ، وأمر صالحاً فقتَل عثمان ـ ويقال : شُقْران ابن أخي نِيزَك ـ وقال لبَكر بن حبيب السهْميّ من باهِلَة : هل بك قوّة؟ قال: نعم ، وأريد ـ وكانت في بكر أعرابيَّة ـ فقال : دُونَك هؤلاء الدّهاقِين . قال : وكان إذا أُتِيَ برجل ضَرَب عنقَه وقال : أوردوا ولا تُصدروا ، فكان مَن قتل يومئذ اثنا عشر ألفاً في قول الباهليّين، وصلب نِيزَك وابني أخيه في أصل عين تدعَى وَخْش خاشان في أسكيمشت ، فقال المغيرة بن حَبْناء يَذكُر ذلك في كلمة له طويلة :

لعَمْري لَنِعْمَتْ غَزْوةُ الجُنـد غَزْوةً ... قَضَتْ نَحْبَهَا من نِيـزكٍ وتَعَلَّتِ

قال علي : أخبرَنا مَصعَب بن حيّان ، عن أبيه ، قال : بعث قتيبة برأس نِيزَك مع محفَن بن جَزْء الكِلابيّ ، وسوّار بن زَهْدم الجَرْميّ ، فقال الحجاج : إن كان قُتيبة لحقيقاً أن يَبعَث برأس نِيزَك مع وَلَدِ مُسْلم ، فقال سَوَّار :

أقولُ لِمحفَنٍ وجَرى سنيحٌ ... وآخَرُ بارحٌ مِنْ عَنْ يَميني
وقَدْ جَعلَتْ بَوائقُ من أمورٍ ... ترفَّعُ حولَه وتكفّ دوني
نشدْتُكَ هَلْ يُسرّك أنّ سَرْجي ... وسَرْجك فوق أبغَل باذيين

قال : فقال مِحْفَن : نعم وبالصِّين .

قال علي : أخبرَنا حمزة بنُ إبراهيم وعلي بنُ مجاهد ، عن حَنْبل بن أبي حريدة ؛ عن مَرْزبان قهسْتان وغيرهما ، أنّ قتيبة دعا يوماً بنِيزَك وهو محبوس ، فقال : ما رأيُك في السُّبَل والشذّ؟ أتراهما يأتيان إن أرسلتُ إليهما؟ قال: لا ؛ قال : فأرسَل إليهما قتيبة فقدِما عليه ، ودَعا نِيزَك وجبغويه فَدَخلا ، فإذا السُّبَل والشذّ بين يديه على كرسيّين ، فجلسا بإزائهما ، فقال الشذّ لقتيبة : إن جبغويه ـ وإن كان لي عدوًا ـ فهو أَسَنّ منّي ، وهو المَلِك وأنا كَعَبْده ، فأذن لي أدنُ منه ، فأذِن له ، فدنا منه ، فقبّل يده وسجَد له ، قال : ثم استأذَنه في السُّبَل ،

فأذن له فَدَنَا منه فقبّل يده، فقال نيزك لقتيبة : ائذن لي أدن من الشذّ، فإني عَبْدُه ، فأذن له ، فدنا منه فقبّل يَده ، ثمّ أذن قتيبة للسَّبَل والشذّ فانصرفَا إلى بلادهما ، وضم إلى الشذّ الحجّاج القينيّ ، وكان من وُجوه أهلِ خُراسان . وقتل قتيبةُ نِيزَك ، فأخذ الزبيرُ مولَى عابس الباهليّ خُفًّا لنيزَك فيه جوهر ، وكان أكثرَ مَن في بلاده مالاً وَعقاراً ؛ من ذلك الجوهر الذي أصابه في خُفّه. فسَوّغه إياه قُتيبَة ، فلم يَزَل مُوسِراً حتى هَلَك بكابُل في ولاية أبي داود .

قال : وأطلَق قتيبة جبغويه ومَنَّ عليه ، وبعث به إلى الوليد ، فلم يزل بالشام حتى مات الوليد . ورجع قتيبة إلى مَرْوَ ، واستعمل أخاه عبدالرحمن على بَلْخ ، فكان الناسُ يقولون : غدَرَ قتيبة بنِيزَك ، فقال ثابتُ قُطنَة :

لا تَحْسَبَنَّ الغَـدْرَ حـزمـاً فـرُبَّمـا ... تَـرقَّتْ بـه الأقـدَامُ يـوْمـاً فـزَلَّتِ

وقال : وكان الحجّاج يقول : بعثتُ قتيبة فتًى غِرًّا فما زدتُهُ ذِراعاً إلاَّ زادني باعاً .

قال علي: أخبَرنا حمزةُ بنُ إبراهيم ، عن أشياخ من أهلِ خُراسان ، وعلي بن مجاهد ، عن حَنْبل بن أبي حريدة ، عن مَرْزُبان قُهِسْتان وغيرِهما ، أن قتيبة بنَ مسلم لما رجع إلى مَرْوَ وقَتل نِيزَك طَلَب مِلِكَ الجُوزجان ـ وكان قد هَرَب عن بلاده ـ فأرسَل يطلب الأمانَ ، فآمنه على أن يأتيَه فيصالحه ، فطلبَ رُهُناً يكونون في يديه ويُعطِي رهائن ، فأعطَىٰ قتيبةُ حبيب بن عبدالله بن عمرو بن حُصَين الباهلي ، وأعطى مَلِكُ الجوزجان رَهائنَ من أهل بيته ، فَخلّف مَلِك الجوزجان حبيباً بالجُوزجان في بعض حُصونه ، وقَدِم على قتيبة فصالَحه ، ثم رجع فمات بالطالقان . فقال أهلُ الجُوزجان : سمّوه ، فَقتلوا حبيباً ، وقتل قتيبة الرُّهُن الذين كانوا عندَه ، فقال نَهار بن تَوسِعة لقتيبة :

أراك الـلّهُ فـي الأتـراكِ حُـكـمـاً ... كـحُكْـمٍ في قُـرَيْـظَةَ والـنَّضِيـرِ
قـضَـاءُ مـن قُـتـيـبـةَ غَيْـرُ جـوْرٍ ... بـهِ يُشفَى الغليـلُ مـن الـصُـدُورِ
فـإن يـرَ نِـيـزَكٌ خـزيـاً وذُلاًّ ... فكمْ في الحَـرب حـمقَ مـن أميـرِ!

وقال المغيرة بنُ حَبْناء يَمدَح قتيبة ويذكر قتلَ نِيزَك ووصول ابن أخي نِيزَك وعثمان ـ أو شُقْران :

لِمَن الـدِّيـارُ عَفَتْ بسَفـح سَنَـامِ ... إلاّ بـقـيـةَ أيـصَـرٍ وثُـمـامِ
عصَفَ الـريـاحُ ذُيـولَهَـا فَمحَـونَهـا ... وَجَـرَيـنَ فـوق عِـرَاصِهَـا بـتَـمـامِ
دارٌ لِـجَـارِيَـةٍ كَـأَنَّ رُضـابـهـا ... مِـسْـكٌ يُشَـابُ مـزاجُـهُ بِـمُـدَامِ
أبـلغ أبـا حَفصٍ قُتَيبَـةَ مِـدحتِي ... واقـرأ عـلـيـه تـحـيَّـتِـي وسـلامِـي
يـا سيفُ أبـلغْـهـا فـإنَّ ثَـنـاءَهـا ... حَسَـنٌ وإنَّـك شـاهـدٌ لـمـقـامـي
يَسْمـو فتَتَّضِـعُ الـرِّجـالُ إذا سمـا ... لِقُتَيْبَـةَ الـحَـامِي حِـمَى الإسـلام
لأغـرَّ مُـنـتـجـبٍ لـكـلِّ عـظـيـمَـةٍ ... نَـخْـرٍ يـبـاحُ بـه الـعـدُوُّ لُـهـامِ
يمضي إذا هـابَ الجبـانُ وأحمِشَتْ ... حـربٌ تَـسَـعَّـرُ نـارُهـا بِـضِـرَامِ
تُـروَى الـقَنـاةُ مـع الـلواءِ أمـامـه ... تـحـتَ الـلوامـع والـنـحُـورُ دوَامِ

والهامُ تفريهِ السُّيوفُ كَأنَّهُ بالقاع حينَ تَراهُ قَيْضُ نَعَام
وترى الجيادَ مَعَ الجيَادِ ضَوامِراً بفنائه لِحَوادثِ الأيام
وبهنّ أنزَلَ نيزَكا من شاهق والكرزِ حَيْثُ يَرُومُ كُلِّ مرامِ
وَأخاهُ شقرَاناً سَقَيْتَ بكأسِهِ وسقَيْتَ كأسَهُما أخا باذام
وَتَركْتَ صولاً حِينَ صال مُجَدَّلا يركَبْنَهُ بدوابر وَحَوامِ

وفي هذه السنة ـ أعني سنة إحدى وتسعين ـ غزا قتيبة شُومان وكسّ ونَسَف غزْوَتَه الثانية وصالَحَ طَوخان .

ذكر الخبر عن ذلك :

قال علي : أخبَرنا بِشْر بن عيسى عن أبي صَفْوان ، وأبو السرِّي وجَبَلة بن فرّوخ عن سليمان بن مجالد ، والحسن بن رشيد عن طُفيل بن مِرْداس العميّ ، وأبو السريّ المَرْوَزي عن عمه ، وبشْر بن عيسى وعلي بن مجاهد ، عن حَنبل بن أبي حريدة عن مَرْزُبان قِهُسْتان ، وعيَّاش بن عبدالله الغَنَويّ ، عن أشياخ من أهلِ خُراسان ، قال : وحدَّثني ظَئْري ـ كلٌّ قد ذَكَر شيئاً ، فألفته ، وأدخلتُ من حديث بعضِهم في حديث بعض ـ أنّ فيلسنشب باذق ـ وقال بعضهم : قيسبشتان مَلك شومان ـ طرد عاملَ قتيبة وَمنَع الفِدْية التي صالح عليها قتيبة ، فبعث إليه قُتيبةُ عَيّاشاً الغَنَويّ ومعه رجلٌ من نُسّاك أهل خُراسان يدعوان مَلِك شومان إلى أن يؤدّيَ الفِدْية على ما صالح عليه قُتيبَة ، فقدِما البلدَ ، فخرجوا إليهما فرموهما ، فانصرف الرجلُ وأقام عَياش الغَنويّ فقال : أما ها هنا مسلمٌ ! فخرج إليه رجلٌ من المدينة فقال : أنا مسلم ، فما تريد قال : تُعينُني على جهادِهم ، قال : نعم ، فقال له عيّاش : كن خَلْفي لتمنَع لِي ظَهْري ، فقام خَلفه ـ وكان اسمُ الرجل المهلّب ـ فقاتَلهم عيّاش ، فحمَل عليهم ، فتفرّقوا عنه ، وحَمَل المهلّبُ على عياش مِن خلفه فقَتَلَه ، فوجدوا به ستّين جراحةً ، فغمّهم قتله ، وقالوا : قتلْنا رجلاً شجاعاً .

وبلغ قتيبة ، فسار إليهم بنفسهِ ، وأخذ طريقَ بَلْخ ، فلما أتاها قدّم أخاه عبدالرحمن ، واستعمل على بَلْخ عَمرو بن مسلم ، وكان مَلِك شومان صديقاً لصالح بن مسلم ، فأرسَل إليه صالح رجلاً يأمره بالطاعة ، ويَضمنُ له رِضا قتيبة إن رجع إلى الصّلح ، فأبى وقال لرسول صالح : ما تخوّفني به من قتيبة ، وأنا أمنعُ المُلوكِ حصْناً أرْمي أعلاه ، وأنا أشدّ الناس قوساً وأشدّ الناس رَمياً ، فلا تَبلغُ نُشابتي نصف حِصْني ، فما أخاف من قتيبة ! فمضى قتيبة من بلْخَ فعبَر النهر ، ثم أتى شومان وقد تحصّن مَلِكُها فوضع عليه المَجانِيقَ ، ورَمى حصنه فَهشَمه ، فلما خاف أن يَظهَر عليه ، ورأى ما نَزلَ به جَمَع ما كان له من مال وجَوْهر فَرَمى به في عَيْنٍ في وَسَط القلعة لا يُدرَك قعرُها .

قال : ثم فَتَح القلعة وخرج إليهم فقاتَلهم فقُتل ، وأخذ قتيبةُ القلعة عنوة ، فقتَل المُقاتلة وسَبَى الذرّية ، ثم رجع إلى باب الحديد فأجاز منه إلى كِسّ وَنَسف ، وكتَبَ إليه الحجاج ، أنّ كس بكسّ وانسِفْ نَسَف ، وإيّاك والتحويط . ففَتَح كسّ وَنَسف ، وامتَنَع عليه فِرْياب فحرّقها فسمِّيت المحترقة . وسرّح قتيبة من كِس وَنَسف أخاه عبدالرحمن بن مسلم إلى السُّغد ، إلى طرخون ، فسار حتى نزل بمَرْج قريباً منهم ، وذلك في وقت العَصْر ، فانتَبذ الناسُ وشَربوا حتى عبثوا وعاثُوا وأفسدوا ، فأمر عبدُالرحمن أبا مرضيّة ـ مولًى لهم ـ أن

يَمنع الناس من شُرْب العصير ، فكان يضربهم ويكسر آنِيتهم ويصبّ نبيذَهم ، فسال في الوادي ، فسُمِّيَ مَرْج النبيذ ، فقال بعضُ شعرائهم :

أَمَّا النَّبيذُ فلستُ أشرَبُه   أخشَى أبا مرضيَة الكَلْب
مُتَعَسِّفاً يَسْعَى بشِكَّتِه   يَتَوَثَّب الحِيطانَ للشُّرْب

فقَبَض عبدُالرحمن من طرخون شيئاً كان قد صالَحه عليه قُتيبة ، ودفع إليه رُهُناً كانوا معه ، وانصرف عبدالرحمن إلى قتيبة وهو ببُخارَى ، فرجعوا إلى مَرْو ، فقالت السُّغد لطَرخون : إنك قد رضيتَ بالذلّ واستطبْت الجزْية ، وأنت شيخٌ كبير فلا حاجةَ لنا بك . قال: فولُّوا من أحبَبْتم . قال : فوّلوا غَوْزَك ، وحَبَسوا طرخون ؛ فقال طرخون : ليس بعد سَلْب المُلْك إلاّ القتل ، فيكون ذلك بيَدي أحبّ إليَّ من أن يليَه مني غيري ، فاتّكأ على سيفه حتى خرج من ظَهْره . قال : وإنما صنعوا بطرخون هذا حين خرج قتيبةُ إلى سِجِستان وولوا غوزك .

وأما الباهليّون فيقولون : حَصرَ قتيبةُ ملك شومان ، ووَضع على قَلْعته المَجانيق ، ووَضع منجنيقاً كان يسميها الفَحْجاء ، فرَمَى بأوّل حَجَر فأصاب الحائط ، ورَمَى بآخر فوقع في المدينة ، ثم تتابعت الحجارةُ في المدينة فوَقع حَجَر منها في مجلس المَلِك ، فأصاب رجلاً فقتَله ، ففتح القلعة عَنْوَةً ، ثم رجع إلى كسّ ونَسَف ، ثمّ مضى إلى بُخارى فنزلَ قريةً فيها بيتُ نار وبيتُ آلهة وكان فيها طَواويس ، فسمُّوه مَنزل الطَّواويس ، ثم سار إلى طرخون بالسُّغْد ليقبِض منه ما كان صالَحه عليه ، فلما أشرَف على وادي السُّغْد فرأى حُسنَه تمثّل :

وَادٍ خَصِيبٌ عَشيبٌ ظلٌّ يمنَعُهُ   منَ الأَنِيسِ حذارُ اليوم ذي الرَّهَج
وَرَدْتُهُ بعَنَانيجٍ مُسَوَّمَةٍ   بَرْدِينَ بالشُّعْثِ سفَّاكِينَ للمُهَج

قال : فقَبض من طرخون صُلحه ، ثمّ رجع إلى بُخارَى فمَلّك بُخارَى خُذاه غلاماً حَدَثا ، وقَتل من خاف أن يُضادَّه ، ثمّ أخذ على آمُل ثمّ أتى مَرْوَ .

قال : وذكر الباهِليّون عن بشار بن عمرو ، عن رجل من باهِلَة ، قال : لم يَفرُغ الناسُ من ضَرْب أبنيَتهم حتى افتُتحت القلعة .

وفي هذه السنة ولّى الوليدُ بنُ عبدالملك مكةَ خالدَ بنَ عبدالله القَسْريّ فلَم يزلْ والياً عليها إلى أن مات الوليد . فذكَرَ محمد بن عمرَ الواقدي أنّ إسماعيلَ بن إبراهيم بن عُقْبة حدّثه عن نافع مولَى بني مَخزوم ، قال : سمعتُ خالدَ بنَ عبدالله يقول :

يأيّها الناس ، إنكم بأعظمِ بلادِ الله حُرمة ، وهي التي اختار الله من البُلْدان ، فوَضَع بها بيتَه ، ثم كتب على عباده حَجَّه من استطاع إليه سبيلاً . أيها الناس ، فعليكم بالطاعة ، ولزومِ الجماعة ، وإياكم والشبهات ، فإني واللّهِ ما أوتيَ بأحد يَطعَن على إمامهِ إلاّ صلبتُه في الحَرَم . إنّ الله جعل الخلافَة منه بالموضع الذي جَعلَها ، فسَلموا وأطيعوا ، ولا تقولوا كيْتَ وكَيْت . إنه لا رأيَ فيما كَتَب به الخليفة أو رآه إلاّ إمضاؤه ، واعلموا أنه بلغني أن قوماً من أهل الخلاف يقدمون عليكم ، ويقيمون في بلادِكم ، فإياكم أن تُنزلوا أحداً ممن تعلمون أنه زائغ عن الجماعة ، فإني لا أجد أحداً منهم في منزل أحد منكم إلاّ هدَمتَ منزله ، فانظروا من تنزلون في منازِلكم ، وعليكم بالجماعة والطاعة ، فإنّ الفُرقة هي البلاءُ العظيم .

قال محمد بن عمرو : حدَّثنا إسماعيلُ بنُ إبراهيمَ ، عن موسى بن عُقْبة عن أبي حَبيبة ، قال : اعتمرتُ فنزلتُ دورَ بني أَسد في منازل الزّبير ، فلم أشعر إلا به يدعوني ، فدخلت عليه ، فقال : من أنت؟ قلت : من أهل المدينة ؛ قال : ما أنزلَك في مَنازل المُخالِف للطاعة ! قلت : إنما مُقامي إن أقمتُ يوماً أو بعضَه ، ثم أرجع إلى منزلِي وليس عندي خلاف ، أنا ممن يُعظم أمرَ الخلافة ، وأزعُم أن من جَحَدها فقد هَلك . قال : فلا عَلَيكَ ما أقمتَ ، إنما يكره أن يُقيمَ مَن كان زارياً على الخليفة ، قلت : معاذ الله !

وسمعتُه يوماً يقول : واللّهِ لو أعلمُ أنّ هذه الوحْش التي تأمَن في الحَرَم لو نطقتْ لم تقِرَّ بالطاعة لأخرجتُها من الحَرَم . إنه لا يَسْكن حرمَ الله وأمْنَه مخالفٌ للجماعة ، زارٍ عليهم . قلتُ : وفق الله الأمير .

وحجّ بالناس في هذه السنة الوليدُ بنُ عبدالملك ، حدَّثني أحمدُ بن ثابت ، عمّن ذكره ، عن إسحاقَ بن عيسى ، عن أبي مَعشَر ، قال : حجّ الوليد بنُ عبدالملك سنة إحدى وتسعين .

وكذلك قال محمد بن عمَر : حدَّثني موسى بن أبي بكر ، قال : حدَّثنا صالح بنُ كَيْسان ، قال : لما حضر قدوم الوليد أمرَ عمرُ بنُ عبدالعزيز عشرين رجلاً من قريش يَخرجُون معه ، فيتلقَّوْن الوليدَ بنَ عبدالملك ، منهم أبو بكر بنُ عبدالرحمن بن عبدالحارث بن هشام ، وأخوه محمد بن عبدالرحمن ، وعبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفّان ، فخرجوا حتى بلغوا السوَيْداء ، وهم مع عمر بن عبدالعزيز ـ وفي الناس يومئذ دوابّ وخَيْلٌ ـ فلقوا الوليدَ وهو على ظَهْر ، فقال لهم الحاجب : انزِلوا لأمير المؤمنين ، فنَزَلوا ، ثمّ أمرهم فركِبوا ، فدعا بعمرَ بن عبدالعزيز فسايرَه حتى نزل بذي خُشُب ، ثم أحضِروا ، فدعاهم رجلاً رجلاً ، فسلموا عليه ، ودعا بالغَداء ، فتغدَّوا عندَه ، وراح من ذي خُشُب ، فلما دخل المدينةَ غَدا إلى المسجد يَنظُر إلى بنائه ، فأخرِج الناس منه ، فما تُرِكَ فيه أحدٌ ، وبقي سعيد بنُ المسيِّب ما يجترىء أحد من الحَرَس أن يخرجه ، وما عليه إلّا رَيْطتان ما تساويان إلّا خمسةَ دراهم في مُصَلّاه ، فقيل له : لو قمتَ! قال : والله لا أقوم حتى يأتيَ الوقتُ الذي كنتُ أقوم فيه . قيل : فلو سلّمتَ على أمير المؤمنين ! قال : واللّهِ لا أقوم إليه . قال عمرُ بنُ عبدالعزيز : فجعلتُ أعدِل بالوليد في ناحية المسجِد رجاءَ ألّا يرى سعيداً حتى يقومَ ، فحانت من الوليد نَظْرة إلى القِبْلة ، فقال : مَنْ ذلك الجالس؟ أهو الشيخ سعيدُ بنُ المسيِّب؟ فجعل عمرُ يقول : نَعَم يا أميرَ المؤمنين ومِنْ حاله ومِنْ حالِه . . . ولو علم بمكانِك لقامَ فسلّم عليك ، وهو ضعيف البَصَر . قال الوليد : قد علمتُ حالَه ، ونحن نأتِيه فنسلم عليه ، فدارَ في المسجد حتى وقَف على القبر ، ثم أقبل حتى وقف على سعيد فقال : كيف أنت أيها الشيخ؟ فوالله ما تَحرَّكَ سعيد ولا قام ، فقال: بخير والحمد لله ، فكيف أميرُ المؤمنين وكيفَ حالُه؟ قال الوليد : خير والحمدُ لله . فانصرَف وهو يقول لعمرَ: هذا بقيّة الناس ، فقلت: أجل يا أميرَ المؤمنين .

قال : وقَسّم الوليد بالمدينة رَقيقاً كثيراً عُجْماً بين الناس ، وآنيةً من ذهب وفضّة ، وأموالاً وخَطَب بالمدينة في الجُمُعة وصلى بهم .

قال محمد بنُ عمر : وحدَّثني إسحاقُ بن يحيى ، قال : رأيتُ الوليد يَخطب على مِنبرِ رسول الله ﷺ يومَ الجمعة عامَ حَجّ ، قد صَفّ له جُندُه صَفّين من المِنبر إلى جدار مؤخر المسجد ، في أيديهم الجِرَزَة وعُمُد الحديد على العواتق ، فرأيتُه طَلَع في دُرّاعة وقَلَنْسُوَة ، ما عليه رداء ، فصَعِد المنبرَ ، فلما صَعِد سلم ثم جلس فأذن المؤذِّنون ، ثم سكتوا ، فَخَطَب الخطبةَ الأولى وهو جالس ، ثم قام فخَطَب الثانية قائماً ، قال إسحاق : فلقيتُ

رَجاءَ بنَ حَيْوَة وهو معه ، فقلتُ : هكذا يَصنَعون! قال: نَعم ، وهكذا صَنَع معاوية فهلمَّ جَرّا ، قلتُ : أفَلا تكلّمه ؟ قال: أخبرَني قَبيصةُ بن ذُؤيب أنه كَلم عبدَالملك بنَ مروان فأبَى أن يَفعل ؛ وقال : هكذا خَطَب عثمان ، فقلتُ : والله ما خَطَب هكذا ، ما خَطَب عثمان إلاّ قائماً . قال رجاء : رُوي لهم هَذا فأخذوا به .

قال إسحاق : لم نَر منهم أحداً أشدّ تجبّراً منه .

قال محمد بن عمر: وقَدِم بِطيب مسجدِ رسولِ الله ﷺ ومَجمَره وبكسْوَة الكَعْبة فنُشِرَت وعُلقتْ على حبال في المسجد من دِيباج حَسَن لم يُرَ مثلَهُ قطّ، فنَشَرها يوماً وطُوي ورفع .

قال : وأقام الحجّ الوليد بن عبدالملك .

وكانت عمّال الأمصار في هذه السنة هم العمّال الذين كانوا عمالَها في سنة تسعين ، غير مكة فإنّ عاملَها كانَ في هذه السنة خالد بن عبدِالله القَسْريّ في قول الواقديّ .

وقال غيرُه : كانت ولايَة مكّة في هذه السنة أيضاً إلى عَمر بنِ عبدالعزيز .

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين

ذكر الأحداث التي كانت فيها

فمِن ذلك غَزْوة مَسلمةَ بن عبدالملك وعمر بنَ الوليد أرضَ الرّوم ، ففُتِح على يَديْ مَسلمةَ حُصون ثلاثة ، وجَلاَ أهلُ سُوسَنَة إلى جَوْف أرض الرّوم .

وفيها غزا طارِقُ بنُ زياد مولَى موسى بن نصير الأندلسَ في اثنيْ عشرَ ألفاً ، فلقي مَلِك الأندلس ـ زَعَم الواقديّ أنه يقال له أدرينوق ، وكان رجلاً من أهل أصبهان ، قال : وهم مُلوك عَجَم الأندلس ـ فزَحَف له طارق بِجَميع مَنْ معه ، فزحف الأدرينوق في سَرير الملك ، وعلى الأدرينوق تاجُه وقُفَّازُه وجميعُ الحِلْية التي كان يَلبسَها الملوك ، فاقتتَلَوا قِتالاً شديداً حتى قَتَل الله الأدرينوق ، وفَتحَ الأندلس سنة اثنتين وتسعين .

وفيها غَزَا ـ فيما زَعَم بعضُ أهل السيَر ـ قتيبةُ سِجِسْتانَ يريد رُتبيل الأعظم والزّابل ، فلما نَزَل سِجِسْتانَ تلقته رُسُلُ رُتبيلَ بالصُّلح ، فَقَبِلَ ذلك وانصرف ، واستعمَل عليهم عبد ربّه بن عبدالله بن عُمَير اللّيْثيّ .

وحَجّ بالناس في هذه السنة عمرُ بنُ عبدالعزيز وهو على المدينة ، كذلك حدَّثني أحمد بن ثابت عمّن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي مَعشَر .

وكذلك قال الواقدي وغيرُه .

وكان عُمّال الأمصار في هذه السنة عمّالها في السنة التي قَبْلَها .

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين

ذكر الأحداث التي كانت فيها

فممّا كان فيها من ذلك غَزْوة العبّاس بن الوليد أرض الرّوم، ففتح الله على يديه سَمَسْطِيَّة.

وفيها كانت أيضاً غَزْوة مَرْوان بن الوليد الرّومَ ، فبَلَغ خَنْجَرة .

وفيها كانت غزوةَ مَسلَمة بن عبدالملك أرضَ الرّوم ، فافتتح ماسةَ وحصنَ الحديد وغَزالةَ وبرجمَة من ناحيةَ مَلطية .

وفيها قَتَل قتيبة ملك خام جرد ، وصالَحَ ملك خُوارَزْم صُلْحاً مجدّداً .

ذكر الخبر عن سبب ذلك وكيف كان الأمر فيه :

ذَكَر عليُّ بنُ محمد أن أبا الذيّال أخبَرَه عن المهلّب بن إياس والحسَن بن رشيد ، عن طُفَيل بن بِرْداس العَميّ وعلي بن مجاهد ، عن حَنْبل بن أبي حريدة ، عن مَرْزُبان قُهِسْتان وكليب بن خَلَف والباهليّين وغيرهم ـ وقد ذَكر بعضُهم ما لم يَذكُر بَعض فألْفته ـ أنّ مَلِك خُوارزْم كان ضعيفاً ، فغَلَبه أخُوه خُرَّزاد على أمرِه ـ وخرّزاد أصغَر منه ـ فكان إذا بَلغه أنّ عند أحد ممن هو منقطِع إلى المَلِك جاريةً أو دابةً أو متاعاً فاخراً أرسَل فأخذَه ، أو بَلَغه أنّ لأحد منهم بنتاً أو أختاً أو امرأةً جميلة أرسل إليه فَغصَبه ، وأخَذَ ما شاء ، وحبس ما شاء ، لا يَمتنع عليه أحد ، ولا يَمنَعه الملكُ ، فإذا قيل له ، قال : لا أقوَى عليه ، وقد ملأه مع هذا غَيْظاً ، فلما طال ذلك منه عليه كَتَب إلى قتيبة يدعوه إلى أرضه يريد أن يسلِّمها إليه ، وبعث إليه بمفاتيح مدائنِ خُوارزم ، ثلاثة مفَاتيح من ذهب ، واشتَرط عليه أن يَدفَع إليه أخاه وكلَّ مَن كان يُضادّه ، يَحكُم فيه بما يَرَى . وبعث في ذلك رُسُلاً ، ولم يُطْلِع أحداً من مَرازِبته ولا دَهاقِينَه على ما كَتَب به إلى قُتيبة ، فقَدِمتْ رسلُه على قتيبةَ في آخر الشتاء ووقت الغَزْو ، وقد تهيّأ للغَزْو ، فأظهَر قتيبة أنه يريد السُّغْد ، ورجع رُسُل خوارزم شاه إليه بما يُحبّ من قِبَل قتيبة ، وسار واستخلف على مَرْوَ ثابتاً الأعوَر مولَى مُسلم .

قال : فجَمَع ملوكَه وأحبارَه ودَهاقِينه فقال : إنّ قتيبة يريدُ السُّغْد ، وليس بِغازيكم ، فهلمَّ نتنعَّم في ربيعِنا هذا . فأقبلوا على الشرب ، والتنعم ، وأمنوا عند أنفسِهم الغَزْو .

قال : فلم يشعروا حتى نزل قتيبةُ في هَزَارَسْب دُون النهر ، فقال خُوارَزْم شاه لأصحابه : ما تَرَوْن؟ قالوا : نَرَى أنْ نقاتِله ، قال : لكني لا أرى ذلك ، قد عجز عنه من هو أقوَى منا وأشدّ شوْكَةً ؛ ولكني أَرَى أن نَصرِفه بشيء نؤديه إليه ، فنصرِفه عامنا هذا ، ونرى رأيَنا . قالوا : ورأينا رأيك . فأقبَل خُوارَزم شاه فنَزل في

مدينة الفِيل من وراء النهر . قال : ومدائن خوارزم شاه ثلاث مدائن يطيف بها فارقين واحد ، فمدينة الفيل أحصنهن ، فنزلها خوارزم شاه ـ وقتيبة في هزارسب دون النهر لم يعبره بينه وبين خوارزم شاه نهر بلخ ـ فصالحه على عشرة آلاف رأس ، وعين ومَتاع ، وعلى أن يُعينَه على ملك خام جرد ، وأن يَفيَ له بما كَتَب إليه ، فقبل ذلك منه قتيبة ، ووَفى له . وبعث قتيبة أخاه إلى مَلِك خام جرد ، وكان يُعادي خوارزم شاه ، فقَاتلَه ، فقتَلَه عبدُالرحمن ، وغَلَب على أرضه وقَدِم منهم على قتيبة بأربعة آلاف أسير ، فقتَلَهم ، وأمر قتيبةُ لَمّا جاءه بهم عبدالرحمن بسريره فأخرِج وبَرَز للناس . قال : وأمر بقتل الأسرى فقتِل بين يديه ألف وعن يمينه ألف وعن يساره ألف وخَلْف ظهره ألف . قال : قال المهلَّب بن إياس : أخِذتْ يومئذ سيوف الأشراف فضُـرِب بها الأعناق ، فكان فيها ما لا يَقطَع ولا يَجرَح ، فأخذوا سَيْفي فلم يُضْرَب به شيء إلاّ أبانه ، فحَسَدني بعضُ آل قتيبة ، فغمز الذي يضرب أن أصفح به ، فصفَح به قليلاً ، فوقَع في ضِرْس المقتول فثلَمه .

قال أبو الذيال : والسيف عندي . قال : ودفع قتيبةُ إلى خوارزم شاه أخاه ومن كان يخالفه فقتَلَهم ، واصطفَى أموالَهم فبعث بها إلى قتيبة ، ودخل قتيبة مدينةَ فيل ، فقَبِل من خوارزم شاه ما صالَحه عليه ، ثم رَجَع إلى هزارسبَ . وقال كَعْب الأشْقريّ :

رَمَتْـكَ فِيـلٌ بمـا فيهـا ومَـا ظَلَمَتْ ورامَهـا قبلك الفَجْفَـاجَـةُ الـصَّلِفُ
لا يُجْـزِىءُ الثَّغْـرَ خَـوَّارُ القَنَـاة وَلاَ هَشُّ المكـاسِـر والقَلبُ الـذي يَجفُ
هـل تَـذكُـرونَ ليـالي التُـرك تَقتُلُهُمْ مـا دون كـازَةَ والفَجْـفَـاجُ مُلتَحِف
لم يَـركَبُـوا الخيـلَ إلا بعـدمـا كبروا فَـهمْ ثِـقَـال على أكتـافِهـا عُـنُـفُ
أَنـتم شـبـاس ومـرداذان مـحـتـقـرٌ وبسْخـرَاء قبُـورٌ حشـوُهَـا الـقُلَف
إنـي رأيـتُ أبـا حـفص تُـفَـضِّـلُهُ أيـامُـهُ وَمَسـاعِي النـاسِ تخْتَلِفُ
قَيْس صَريح وبعضُ النـاسِ يجْمَعُهُمْ قُـرًى وريف فمـنسـوبٌ ومُقْتَـرَف
لو كنتَ طاوَعت أهلَ العجز ما اقتَسَمُوا سبعِين ألـفـاً وعِزُ السّغْـدِ مُـزْتَـنِف
وفي سمـرقنـدَ أُخـرى أَنت قـاسِمُهَـا لئن تـأَخَّـر عن حـوبـائـك التَّلَفُ
مـا قَـدَّمَ النـاسُ من خيـرٍ سبقتَ بـه ولا يَفـوتُـك ممـا خـلَّفُـوا شَـرَفُ

قال : أنشدني علي بن مجاهد :

رَمَتْـك فيـلٌ بما دون كاز . . .

قال : وكذلك قال الحسنُ بنُ رشيد الجُوزجاني ؛ وأمَا غيرُهما فقال :

رمتك فيـلٌ بمـا فيهـا . . .

وقالوا : فيلُ مدينة سَمَرْقَنْد ؛ قال : وأثبتُها عندي قولُ علي بن مجاهد .

قال: وقال الباهليّون: أصاب قتيبةُ مِن خُوارزم مائة ألفِ رأس. قال: وكان خاصّةُ قتيبَة كلموه سنة ثلاث وتسعين وقالوا: الناس كانُون قَدِموا من سِجِسْتانَ فأجِمّهم عامَهم هذا، فأبى. قال: فلمّا صالح أهل خُوارزم سارَ إلى السّغد، فقال الأشقري:

لو كنتُ طاوعتُ أهل العَجْز ما آقْتَسموا سبعين ألفاً وعزُّ السُّغْد مُؤتَنف

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة غزا قُتيبة بنُ مُسلم منصرفَه من خُوارزم سَمَرْقند ، فافتَتحها .

ذكر الخبر عن ذلك :

قد تقدّم ذكرى الإسناد عن القوم الذين ذكر علي بن محمد أنه أخذ عنهم حين صالَح قتيبة صاحب خُوارزم ، ثم ذكر مدرجاً في ذلك أنّ قتيبة لمّا قبض صُلح خوارزم قَام إليه المجشّر بن مُزاحم السُّلَمي فقال : إنّ لي حاجةً ، فأخْلِني ، فأخْلاه ، فقال : إن أردتَ السُّغد يوماً من الدهر فالآن ، فإنهم آمنون من أن تأتيَهم من عامِك هذا ، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام . قال : أشار بهذا عليك أحد؟ قال : لا ، قال : فأعلمتَهُ أحداً؟ قال : لا ، قال : والله لئن تكلم به أحد لأضربنّ عنقَك . فأقام يومَه ذلك ، فلما أصبح من الغد دعا عبدَالرحمن فقال : سِرْ في الفُرْسان والُرامِية ، وقدّم الأثقالَ إلى مَرْو ، فوُجّهَتْ الأثقال إلى مَرْو ، ومضى عبدُالرحمن يَتْبع الأثقال يريدُ مَرْو يومَه كلّه ، فلما أمسَى كتب إليه : إذا أصبحتَ فوجِّه الأثقالَ إلى مَرْوَ وسرْ في الفُرسان والُمرامية نحو السُّغْد ، واكتُم الأخبار ، فإني بالأثَر .

قال : فلما أتى عبدَالرحمن الخبرُ أمَر أصحابَ الأثقال أن يمضوا إلى مَرْوَ ، وسار حيث أمرَه ، وخَطَب قتيبةُ الناسَ فقال :

إن الله قد فَتَح لكم هذه البلدة في وقت الغَزْوُ فيه ممكن ، وهذه السُّغد شاغرَةٌ برِجْلها ، قد نَقَضوا العَهْد الذي كان بيننا ، منعونا ما كنّا صالَحْنا عليه طرخونَ ، وصَنعوا به ما بَلَغكم ، وقال الله : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾[1] ، فسيرُوا على بَرَكة الله ، فإنّي أرجو أن يكون خَوارزم والسُّغد كالنَّضير وقُرَيظة ، وقال الله : ﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقدرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾[2] .

قال : فأتى السُّغْد وقد سَبقَه إليها عبدُالرحمن بن مسلم في عشرين ألفاً ، وقَدم عليه قتيبةُ في أهل خُوارزم وبُخارَى بعد ثلاثة أو أربعة مِن نزولِ عبدالرحمن بهم ، فقال : إنا إذا نَزَلنا بِسَاحة قوم ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ المُنْذَرين ﴾[3] . فحصَرَهم شَهراً ، فقاتَلُوا في حِصارهم مِراراً من وجهٍ واحد .

وكتب أهلُ السُّغْد وخافوا طولَ الحصار إلى ملك الشاش وإخشاذ فَرْغانة : إن العرب إنْ ظفروا بنا عادوا عليكم بمِثلِ ما أتَوْنا به ، فانظُروا لأنفسكم .

فأجْمَعوا على أن يأتوهم ، وأرسَلوا إليهم : أرسِلوا مَن يشغلهم حتى نبيّت عسكرَهم .

قال : وانتخبوا فُرْساناً من أبناء المَرازِبة والأساوِرة والأشدّاء الأبطال فوجّهوهم وأمَروهم أن يبيّتوا عسكرَهم ، وجاءت عيونُ المسلمين فأخبَروهم . فانتخبَ قتيبة ثلاثمائة أو ستمائة من أهل النَّجْدة ، واستعمل عليهم صالح بن مسلم ، فصيّرهُم في الطريق الذي يخاف أن يُؤتَى منه . وبعث صالحٌ عيوناً يأتونه بخَبر القوم ، ونزل على فرسَخَين من عسكر القوم ، فرجعتْ إليه عيونُه فأخبروه أنهم يَصِلون إليه من ليلتِهم ، ففرّق

---

(١) سورة الفتح : ١٠ .

(٢) سورة الفتح : ٢١ .

(٣) سورة الصافات : ١٧٧ .

صالحٌ خيلَه ثلاثَ فِرَق ؛ فجعل كَميناً في موضعَيْن ، وأقام على قارعة الطريق ، وطرقهم المشركون ليلاً ، ولا يعلمون بمكان صالح ، وهم آمنون في أنفسهم من أن يَلقاهم أحدٌ دونَ العسكر ، فلم يَعلَموا بصالح حتى غَشوه . قال : فَشدّوا عليه حتى إذا اختلَفتِ الرماح بينهم خرج الكَمينان فاقتَتلوا . قال : وقال رجلٌ من البَراجم : حصرتُهم فما رأيتُ قَطّ قوماً كانوا أشدَّ قتالاً من أبناء أولئك الملوك ولا أصبرَ ، فقَتَلْناهم فلم يُفلِتْ منهم إلاّ نفرٌ يسير ، وحَوَيْنا سلاحَهم ، واحتزَزْنا رؤوسَهم ، وأَسَرْنا منهم أسرَى ، فسألناهم عمّن قَتلْنا ، فقالوا : ما قتلتم إلاّ ابن مَلِك ، أو عظيماً من العُظَماء ، أو بَطلاً من الأبطال ؛ ولقد قتلتم رجالاً إن كان الرجل ليُعدَل بمائةِ رجل . فكتَبْنا على آذانهم ، ثم دخلنا العسكرَ حين أصبحْنا وما منا رجل إلاّ معلِّق رأساً معروفاً باسمه ، وسَلبنا من جيّد السلاح وكريمِ المتاع ومناطقِ الذهب ودوابَّ فُرَّهَةٍ ، فنفَلنا قتيبةَ ذلك كله وكَسَرَ ذلك أهلَ السُّغد ، ووضع قتيبة عليهم المَجانيق ، فرماهم بها ، وهو في ذلك يُقاتِلهم لا يُقلع عنهم ، وناصَحَه مَن معه من أهل بُخارَى وأهلِ خُوارزم ، فقاتلوا قِتالاً شديداً ، وبذلوا أنفسَهم .

فأرسَل إليه غوزك : إنما تقاتلني بإخوَتي وأهلِ بيتي من العَجَم ، فأخرِجْ إليَّ العَربَ ، فغَضب قتيبة ودعا الجدليّ فقال : اعرِض الناس ، ومَيِّز ، أهل البأس فجمَعَهم ، ثم جلس قتيبة يَعرِضهم بنفسِه ، ودعا العُرَفاءَ فجعل يدعو برجل رجل . فيقول : ما عندَك ؟ فيقول العريف : شجاع ، ويقول : ما هذا؟ فيقول : مختصر ، ويقول : ما هذا؟ فيقول : جَبان ، فسمى قتيبة الجُبَناء الأنْتان ، وأخذ خيلَهم وجيّدَ سلاحِهم فأعطاه الشُّجعان والمختصرين ، وَتَرك لهم رَثَّ السلاح ، ثمّ زحف بهم فقاتَلَهم بهم فُرساناً ورجالاً ، ورَمَى المدينة بالمجانيق ، فثَلم فيها ثُلْمةً فسدّوها بغرائر الدُّخن ، وجاء رجل حتى قام على الثُّلْمة فشَتَم قتيبةَ ، وكان مع قتيبة قومٌ رُماة ، فقال لهم قتيبة : اختاروا منكم رجلين ، فاختاروا ، فقال : أيّكما يَرمِي هذا الرجل ، فإنْ أصابَه فله عشرةُ آلاف ، وإن أخطأه قُطعتْ يده؟ فتلكَّأ أحدُهما وتقدّم الآخرُ ، فرماه فلم يُخطِىء عينَه ، فأمَر له بعَشرة آلاف .

قال : وأخبَرَنا الباهليُّون ، عن يحيى بنِ خالد ، عن أبيه خالد بن باب مولَى مُسلِم بنِ عمرو ، قال : كنتُ في رُماة قتيبة ، فلما افتتحنا المدينةَ صعدتُ السور فأتيتُ مُقامَ ذلك الرّجل الذي كان فيه فوجدتُه ميّتاً على الحائط ، ما أخطأتِ النُّشابة عينَه حتى خرجتْ من قَفاه ، ثم أصبحوا من غد فرمَوا المدينةَ ، فثَلَموا فيها . وقال قتيبة : أَلِحّوا عليها حتى تَعبُروا الثلْمة ، فقاتلوهم حتى صاروا على ثُلْمة المدينة ، ورماهم السّغد بالنشّاب ، فوَضَعوا تَرَستهم فكان الرجل يضعُ ترسَه على عَيْنه ، ثم يَحمِل حتى صاروا على الثلمة ، فقالوا له : انصرِفْ عنا اليومَ حتى نصالحَك غداً .

فأما باهلة فيقولون : قال قُتيبة : لا نصالحهم إلاّ ورجالُنا على الثلْمة ، ومجانيقُنا تَخطِر على رؤوسِهم ومدينتِهم .

قال : وأما غيرُهم فيقولون : قال قتيبة : جَزِعَ العبيدُ ، فانصرَفوا على ظفرِكُم ، فانصرَفوا ، فصالَحهم من الغد على ألفي ألف ومائتَي ألف في كلّ عام ، على أن يُعطوه تلك السنة ثلاثين ألف رأسٍ ، ليس فيهم صبيّ ولا شَيْخ ولا عيب ، على أن يُخلُوا المدينةَ لقُتيبة فلا يكون لهم فيها مُقاتِل ، فيُبنَى له فيها مسجد فيدخل ويصلي ، ويُوضَع له فيها مِنبَر فيَخطب ، ويتغدّى وَيَخرج .

قال : فلما تمّ الصّلح بعث قتيبةُ عشرةً ، من كلّ خُمس برجلين ، فقَبَضوا ما صالحوهم عليه ، فقال قتيبة : الآن ذَلّوا حين صار إخوانهم وأولادهم في أيديكم . ثمّ أخلَوا المدينة وبنَوا مسجداً ووَضَعوا مِنبراً ، ودَخَلَها في أربعة آلاف انتخَبهم ، فلما دَخَلَها أتَى المسجدَ فصلَّى وخطَب ثمّ تغدَّى ، وأرسل إلى أهل السُّغْد : من أراد منكم أن يأخذَ مَتاعَه فليأخُذْه ؛ فإني لستُ خارجاً منها ، وإنما صنعتُ هذا لكم ، ولستُ آخذُ منكم أكثَرَ مما صالحتُكم عليه ، غير أنّ الجُنْد يقيمون فيها .

قال : أما الباهليّون فيقولون : صالَحهم قتيبةُ على مائة ألف رأس ، وبيوت النيران وحِلية الأصنام ، فقَبَض ما صالحهم عليه ، وأتَى بالأصنام فسُلِبتْ ، ثم وُضعتْ بين يـديه ، فكـانت كالقَصْر العـظيم حين جُمعت ، فأمَر بتحريقها ، فقالت الأعاجم : إنّ فيها أصناماً مَنْ حرّقها هَلَك ، فقال قتيبة . أنا أحَرّقها بيدي ، فجاء غوزك ، فجَثَا بين يديه وقال : أيها الأمير ، إنّ شكرك عليَّ واجب ، لا تَعرِض لهذه الأصنام ؛ فَدَعا قتيبة بالنار وأخَذَ شُعْلةً بِيَده ، وخرج فكبر ، ثمّ أشعَلها ، وأشعلَ الناس فاضطرمتْ ، فوجَدُوا من بقايا ما كان فيها من مسامير الذهب والفضّة خمسين ألف مثقال .

قال : وأخبَرنا مَخلد بن حمزة بن بَيض ، عن أبيه ، قال : حدَّثني من شهد قتيبة وفَتْح سَمرقند أو بعض كُوَر خُراسان فاستخرَجوا منها قُدُوراً عظاماً من نُحاس ، فقال قتيبة لحضين : يا أبا ساسانَ ، أتُرَى رقاشِ كان لها مِثل هذه القُدُور ؟ قال : لا ، لكن كان لعَيْلان قِدْر مِثل هذه القدور ، فضَحِك قتيبـة وقال : أدركتَ بثأرك .

قال : وقال محمد بن أبي عُيَينة لسَلْم بنِ قتيبة بين يدَي سليمانَ بن علي : إنّ العَجَم ليعيِّرون قتيبةَ الغدرَ إنه غدر بخُوارَزْم وَسَمرقَنْد .

قال : فأخبرَنا شيخٌ من بني سَدُوسَ عن حَمزةَ بن بيض قال : أصابَ قتيبةُ بخُراسانَ بالسُّغد جاريةً من ولد يَزدِجرد ، فقال : أتَرَوْن ابنَ هذه يكون هَجيناً؟ فقالوا : نعم ، يكون هَجِيناً من قِبَل أبيه ، فبعث بها إلى الحجاج ، فبعث بها الحجّاج إلى الوليد ، فولدت له يزيدَ بن الوليد .

قال : وأخبرَنا بعضُ الباهليِّين ، عن نَهشَل بن يزيدَ ، عن عمه ـ وكان قد أدرَكَ ذلك كلَّه ـ قال : لما رأى غوزكُ إلحاحَ قتيبةَ عليهم كَتَبَ إلى ملك الشاش وإخشاذ فَرْغانة وخاقان : إنا نحن دونَكم فيما بينَكم وبين العرب ، فإن وصل إلينا كنتمْ أضعَفَ وأذَلّ ، فمهما كان عندَكم من قوّة فابذُلوها ؛ فنظروا في أمْرِهم فقالوا : إنما نُؤتَى من سَفِلَتنا ، وإنهم لا يَجِدون كَوَجْدنا ، ونحن معشرَ المُلوك المعنيّون بهذا الأمر ، فانتخبوا أبناءَ الملوك وأهل النجدة من فِتْيان ملوكهم ، فليخرجوا حتى يأتوا عسكرَ قُتيبة فليبيّت ، فإنه مشغول بحصار السُّغْد ، ففعلوا ، وولوا عليهم ابناً لخاقان ، وسارُوا وقد أجمَعوا أن يبيّتوا العسكر ، وبلغ قتيبةُ فانتَخَب أهلَ النّجْدة والبأس ووجوه الناس ، فكان شعبة بن ظهير وزُهَير بن حَيّان فيمن انتُخب ، فكانوا أربعمائة ، فقال لهم : إنّ عدوَّكم قد رأوا بلاءَ الله عندكم ، وتأييدَه إياكم في مُزاحَفَتِكم ومُكاثَرَتكم ، كلّ ذلك يُفلجكم الله عليهمْ ، فأجمعُوا على أن يحتَالوا غِرَّتَكم وبَياتَكم ، واختاروا دَهاقينهم ومُلوكَهم ، وأنتم دَهاقينُ العَرب وفُرسانُهم ، وقد فضّلكم الله بدِينه ، فأبلُوا اللّهَ بلاءً حسناً تستوجِبون به الثواب ، مع الذَّبّ عن أحسابكم .

قال : ووَضَع قتيبةُ عيوناً على العدوّ حتى إذا قَرُبوا منه قَدْرَ ما يَصِلُون إلى عسكره من الليل أدخَل الذين انتَخَبهم ، فكلَّمهم وحَضَّهم ، واستَعمَل عليهم صالح بن مسلم ، فخرجوا من العسكر عند المغرب ، فساروا ، فنزلوا على فرسَخَين من العسكر على طريق القوم الذين وَصَفوا لهم ، ففرّق صالح خيلَه ، وأكمن كَمِيناً عن يمينه ، وكَمِيناً عن يساره ، حتى إذا مَضَى نصفُ الليل أو ثلثاه ، جاء العدوّ باجتماع وإسراع وصَمت ، وصالحٌ واقفٌ في خَيْله ، فلما رأوْه شدّوا عليه ، حتى إذا اختلفت الرماح شدَّ الكَمِينان عن يمين وعن شِمال ، فلَم نَسمعْ إلاّ الاعتزاء ، فلم نَرَ قوماً كانوا أشدَّ منهم .

قال : وقال رجلٌ من البَراجم : حدَّثني زُهير أو شُعبة قال : إنا لنختَلف عليهم بالطعن والضَّرب إذ تبينت تحتَ الليل قُتَيبةَ ، وقد ضربتُ ضربةً أعجبَتْني وأنا أنظر إلى قتيبة ، فقلت : كيف ترى بأبي أنت وأمي! قال : اسكُت دَقّ اللّهُ فاكَ! قال : فقتلناهم فلم يُفلِت منهم إلاّ الشريد ، وأقمنا نَحوِي الأسلابَ ونحتزّ الرؤوسَ حتى أصبحْنا ، ثم أقبلْنا إلى العسكر ، فلم أر جماعةً قطّ جاؤوا بمثل ما جئنا به ، ما مِنّا رجلٌ إلاّ معلِّق رأساً معروفاً باسمه ، وأسير في وَثاقه .

قال : وجئنا قُتيبةَ بالرؤوس، فقال : جزاكم الله عن الدِّين والأعراض خيراً . وأكرَمني قتيبة من غير أن يكون باحَ لي بشيء ، وقرن بي في الصِّلة والإكرام حيّانَ العَدَويّ وحُلَيساً الشيبانيّ ، فظننتُ أنه رأى منهما مِثل الذي رأى مني ، وكسر ذلك أهل السُّغْد ، فطلبوا الصلْح ، وعَرَضوا الفِدْية فأبى ، وقال : أنا ثائر بدم طَرْخون ، كان مولاي وكان من أهلِ ذمتي .

قالوا : حدَّث عمرُو بنُ مسلم ، عن أبيه ، قال : أطال قتيبةُ المُقامَ ، وثُلمتِ الثلمة في سَمرقَند . قال : فنادى منادٍ فصيح بالعربية يَشتُم قتيبة ؛ قال : فقال عمرو بن أبي زَهْدم : ونحنُ حولَ قتيبةَ ، فحين سمعنا الشتم خرجْنا مسرِعين ، فمَكَثْنا طويلاً وهو مُلِحّ بالشتم ، فجئتُ إلى رِواق قُتيبةَ فاطّلعت ، فإذا قتيبةُ مُحْتَب بشَمْلة يقول كالمناجي لنفسهِ : حتى متَى يا سمرقَنْد يعشش فيك الشيطان! أما والله لئن أصبحتُ لأحاولنّ مِن أهلِك أقصى غاية ، فانصرفتُ إلى أصحابي ، فقلت : كم من نفس أبيّة ستموت غداً منّا ومنهم ! وأخبرتهم الخبرَ .

قال : وأما باهلة فيقولون : سارَ قتيبةُ فجعل النهرَ يمينَه حتى وردَ بُخارَى ، فاستنهضَهم معه ، وسار حتى إذا كان بمدينة أرْبِنْجَن ، وهي التي تُجلَب منها اللبود الأربنْجَنِيَّة ، لقيهم غوزك صاحبُ السُّغد في جمع عظيم من الترك وأهل الشاش وفَرْغانة ، فكانت بينهم وقائعُ من غير مُزاحفة ، كلّ ذلك يَظهر المسلمون ، ويَتحاجَزون حتى قَرُبوا من مدينة سَمَرْقند ، فتَزاحفوا يومَئذ ، فَحمل السُّغد على المسلمين حملةً حَطموهم حتى جازُوا عسكرهم ، ثمّ كرّ المسلمون عليهم حتى رَدُّوهم إلى عسكرهم ، وقَتَل الله من المشركين عَدداً كثيراً ، ودخلوا مدينةَ سمرقند فصالَحوهم .

قال : وأخبرنا الباهليون عن حاتم بن أبي صَغِيرة ؛ قال : رأيت خيلاً يومئذ تُطاعِنُ خيلَ المسلمين ، وقد أمر يومئذ قتيبةُ بسَريره فأبرز ، وقَعد عليه ، وطاعَنوهم حتى جازوا قتيبة ، وإنه لَمُحْتَب بسيفهِ ما حَلّ حَبْوته ، وانطوتْ مجنّبتا المسلمين على الذين هَزَموا القَلْب ، فَهَزَموهم حتى رَدّوهم إلى عسكرهم ، وقُتِل من المشركين عددٌ كثير ، ودخلوا مدينةَ سمرقَنْد فصالَحوهم . وصنع غوزك طعاماً ودعا قُتيبةَ ، فأتاه في عدد من

أصحابه ، فلما تَغدّى استوهَبَ منه سَمرقَنْد ، فقال للمَلِك : انتقِلْ عنها ، فانتَقَل عنها ، وتلا قُتَيبة : ﴿ وأنه أهْلَكَ عَاداً الأُولَىٰ * وثمودَ فمَا أبقى ﴾[1] .

قال : وأخبَرنا أبو الذيّال ، عنْ عمرَ بن عبدالله التميمي ، قال : حدثني الذي سرّحه قُتيبة إلى الحجاج بفَتح سمرقَنْد ، قال : قدمتُ على الحَجّاج فوَجهني إلى الشام ، فقدمْتها فدخلت مسجدَها ، فجلستُ قبل طلوع الشمس وإلى جَنْبيّ رجلُ ضَرير ، فسألتُه عن شيء من أمر الشام ، فقال : إنـك لغريب ، قلتُ : أجل ؛ قال : من أيّ بلد أنت ؟ قلتُ : من خُراسان . قال : ما أقدَمَك؟ فأخبرتُه ؛ فقال : والذي بعثَ محمّداً بالحقّ ما افتتحتموها إلّا غَدْراً ، وإنكم يا أهلَ خُراسان للّذين تَسلُبون بني أمية مُلكَهم ، وتَنقُضون دِمشقَ حَجَراً حَجَراً .

قال : وأخبرَنا العلاءُ بن جَرير ، قال : بلَغَني أن قتيبةَ لما فتحَ سَمرقند وَقَف على جَبَلها فنظر إلى الناس متفرّقين في مُروج السُّغْد ، فتمثّل قولَ طَرَفة :

وَأَرْتَــعَ أقــوام ولــولا مَــحَــلُّنــا ... بمَخشيَــة ردُّوا الجمــال فَـفَــوَّضُــوا

قال : وأخبرَنا خالدُ بن الأَصْفَح ، قال : قال الكُمَيْت :

كــانت سمـرقنــدُ أحقــابــاً يَمــانيــةً ... فــاليــوم تَنْسُبُـهَــا قَيْسيــةً مُضَرُ

قال : وقال أبو الحسن الجُشَميّ : فدعا قتيبةُ نهارَ بنَ تَوْسِعة حين صالَح أهلَ السُّغْد ، فقال : يا نهارُ ، أين قولك :

ألا ذَهَـبَ الـغَــزْوُ المُـقَــرِّبُ لـلغِــنى ... ومــاتَ النَّــدَى والجُــودُ بَعْــدَ المهلَّبِ
أَقَــامـا بِمَــرْوِ الــرُّوذ رَهْنَ ضَــرِيحِــهِ ... وقَــدْ غُيّبـا عن كــلِّ شَرْقٍ ومغْــرِبِ

أفَغَزْوٌ هذا يا نهارُ؟ قال: لا ، هذا أحسنُ ، وأنا الذي أقول :

ومَــا كــانَ مُــذْ كُنّــا ولا كــان قَبلَنــا ... ولا هــو فيــها بعــدَنَــا كــآبن مُسلم
أعــمَّ لأهــل التــرْك قَتْــلاً بسيْفِــهِ ... وأكــثرَ فينــا مَقْسِــماً بـعــدَ مَقسِمِ

قال : ثم ارتحل قتيبة راجعاً إلى مروَ ، واستخلف على سمرقند عبدَالله بنَ مسلم ، وخلّف عنده جنداً كثيفاً ، وآلةً من آلة الحرب كثيرةً ، وقال : لا تَدعَنّ مُشرِكاً يدخل باباً من أبواب سمرقند إلّا مختوم اليد ، وإن جفّت الطينة قَبل أن يَخرُج فاقتُله ، وإن وجدتَ معه حديدةً ؛ سِكيناً فما سواه فاقتلْه ، وإن أغلَقْت البابَ ليلاً فوجدتَ فيها أحداً منهم فاقتله ، فقال كَعْب الأشقري ـ ويقال رجلٌ من جُعْفيّ :

كُـلَّ يَـوْمٍ يَحْـوِي قتيبـةُ نَهبــاً ... وَيَـزِيـدُ الأمــوالَ مَـالاً جـدِيـدَا
بـــاهليٌّ قــدْ أُلبسَ التــاجَ حتَّى ... شــاب منــهُ مَفَــارِقٌ كنَّ سُــودَا
دَوَّخ السُّغْــدَ بــالكتــائِب حتَّى ... تــرِكَ السُّغـد بــالعــرَاءِ قُعُــودَا
فَوَلِيـدٌ يبـكي لِفَـقْـدِ أبيـهِ ... وأبٌ مُــوجَــعٌ يُبَكِّي الــوليــدا
كــلما حَــلَّ بــلدَةً أو أتَــاهَــا ... تَــرَكَــتْ خَيْــلُهُ بهــا أخـدُودَا

(١) سورة الزمر : ١٠

قال : وقال قتيبةُ : هذا العَداءُ لا عداءُ عَيرَين ، لأنه فَتح خُوارزم وسَمرقَنْد في عام واحد ؛ وذلك أنّ الفارس إذا صَرَع في طلق واحد عَيرَين قيل : عادَى بينَ عَيْرَين . ثم انصرف عن سمرقند فأقام بمَرْو .

وكان عامله على خوارزم إياسُ بنُ عبدالله بن عمرو على حَرْبها ، وكان ضعيفاً . وكان على خَراجها عُبيدالله بن أبي عُبيدالله مولَى بني مسلم . قال: فاستَضعف أهلُ خُوارزم إياساً ، وجَمعوا له ، فكَتَبَ عُبيدُالله إلى قتيبة ، فبعث قتيبةُ عبدَالله بن مسلم في الشتاء عاملاً ، وقال : اضرِبْ إياسَ بنَ عبدالله وحيّان النَّبَطيّ مائةً مائة ، واحلِقْهما ، وضمَّ إليك عُبيدَالله بن أبي عُبيدالله ، مَولَى بني مسلم ، واسمَعْ منه فإنّ له وفاءً . فمضى حتى إذا كان من خُوارزم على سِكّة ، فدَسّ إلى إياس فأنذَرَه فتنحّى ، وقدِم فأخَذَ حيّان فضرَبه مائةً وحلَقَه .

قال : ثم وجّه قتيبةُ بعد عبدالله المغيرة بن عبدالله في الجنود إلى خُوارَزم ، فبَلَغهم ذلك ، فلما قَدِم المغيرةُ اعتزَل أبنَاء الذين قتَلَهم خُوارزم شاه ، وقالوا : لا نعينك ، فهَرب إلى بلاد الترْك. وقدِم المغيرةُ فسَبىَ وقَتَل ، وصالَحَه الباقون ، فأخذ الجزْية . وقَدِم على قتيبة ، فاستعمله على نَيْسابور .

وفي هذه السنة عَزَل موسى بن نُصَير طارقَ بنَ زياد عن الأندلس ووجهه إلى مدينة طليطلة .

ذكر الخبر عن ذلك :

ذَكَر محمد بن عمر أن موسى بن نُصير غَضِب على طارق في سنة ثلاث وتسعين ، فشَخَص إليه في رجب منها ، ومعه حبيب بنُ عُقْبة بن نافع الفِهْري ، واستخلف حين شَخَص على إفريقيّة ابنَه عبدَالله بن موسى بن نُصير ، وعَبَر موسى إلى طارق في عشرةِ آلاف ، فتلقّاه ، فترضّاه فرَضِيَ عنه ، وقَبِل منه عذرَه ، ووجّهه منها إلى مدينة طُلَيْطِلَةَ ـ وهي من عظام مَدائن الأندلس ، وهي مِن قُرطُبَة على عشرين يوماً ـ فأصاب فيها مائدةَ سُلَيمان بن داود ، فيها من الذَّهَب والجَوْهر ما اللّهُ أعلمُ به .

قال : وفيها أجدَبَ أهلُ إفريقيّة جَدْباً شديداً ، فخرج موسى بنُ نُصير فاستَسْقَى ، ودعا يومَئذ حتى انتصَف النهارُ ، وخَطَب الناسَ ، فلما أراد أن يَنزِل قيل له : ألا تَدْعو لأمير المؤمنين ! قال : ليس هذا يوم ذاك ، فسُقُوا سَقْياً كَفاهُمْ حِيناً .

وفيها عُزِل عمر بنُ عبدالعزيز عن المدينة .

ذكر سبب عزل الوليد إيّاه عنها :

وكان سبب ذلك ـ فيما ذُكِر ـ أنّ عمَر بنَ عبدالعزيز كَتَب إلى الوليد يُخبِره بعَسْفِ الحجاج أهلَ عمله بالعراق ، واعتدائه عليهم ، وظلمه لهم بغير حقّ ولا جِنَاية ، وأنّ ذلك بلغ الحجاج ، فاضطَغنه على عمرَ ، وكتب إلى الوليد : إنّ مَنْ قبلي من مُرّاق أهلِ العراق وأهلِ الشقاق قد جَلَوا عن العِراق ، ولجَؤوا إلى المدينة ومَكّة ، وإنّ ذلك وَهْن .

فكتب الوليدُ إلى الحجّاج : أن أشِرْ عليّ برجلين ، فكتب إليه يشير عليه بعثمانَ بن حَيّان وخالد بن عبدالله ، فولى خالداً مكّة وعثمان المدينة ، وعزلَ عمَر بن عبدالعزيز .

قال : محمد بنُ عمر: خرج عمرُ بنُ عبدالعزيز من المدينة فأقامَ بالسويداء، وهو يقول لمزاحم : أتَخَاف أن تكون ممن نَفَتْه طيبة !

وفيها ضرب عمر بن عبدالعزيز خُبيبَ بن عبدالله بن الزبير بأمر الوليد إيّاه ، وصبّ على رأسه قِربةً من ماء بارد . ذكر محمد بنُ عمَر ، أن أبا المليح حدّثه عمّن حضر عمَر بنَ عبدالعـزيز حـين جَلَد خُبيب بن عبدالله بن الزبير خمسين سَوْطاً ، وصَبَّ على رأسِه قِربةً من ماء في يوم شاتٍ ، ووَقفه على باب المسجد ، فمَكَث يومَه ثم مات .

وحَجّ بالناس في هذه السنة عبدالعزيز بنُ الوليد بن عبدالملك ، حدثني بذلك أحمد بن ثابت ، عمن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشَر .

وكانت عُمّال الأمصار في هذه السنة عُمالها في السنة التي قبلها ، إلاّ ما كان من المدينة ، فإنّ العاملَ عليها كان عثمان بن حيّان المُرّي ، ولَيها - فيما قِيل - في شعبانَ سنة ثلاث وتسعين .

وأما الواقدي فإنه قال : قَدِم عثمانُ المدينةَ لليلتين بقيتا من شوّال سنة أربع وتسعين .

وقال بعضهم : شَخَص عمرُ بنُ عبدِالعزيز عن المدينة مَعْزولاً في شَعبانَ من سنة ثلاث وتسعين وغَزَا فيها ، واستخلف عليها حين شَخَص عنها أبا بكر بن محمد بن عَمرو بن حَزْم الأنصاري . وقَدِم عثمانُ بنُ حيّان المدينة لليلتين بقيَتا من شوّال .

ثم دخلت سنة أربع وتسعين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من غَزْوة العباس بن الوليد أرضَ الرّوم ، فقيل : إنه فَتَح فيها أنطاكية .

وفيها غَزَا - فيما قيل - عبدُالعزيز بنُ الوليد أرضَ الرّوم حتى بلَغ غزالة .

وبلغ الوليد بن هشام المعيطيّ أرضَ بُرْج الحمام ، ويزيد بن أبي كَبشة أرضَ سُورِية .

وفيها كانت الرَّجْفة بالشأم .

وفيها افتَتح القاسمُ بنُ محمد الثقفيّ أرضَ الهند .

وفيها غَزَا قُتيبةُ شاش وفَرْغانة حتى بلغ خُجَنْدَة وكاشانَ ، مدينتَي فَرْغانة .

ذكر الخبر عن غزوة قُتَيبة هذه :

ذَكَر عليُّ بن محمد؛ أن أبا الفوارس التميمي ، أخبره عن ماهانَ ويونس بن أبي إسحاق ، أنّ قتيبة غزا سنة أربع وتسعين . فلما قطع النّهر فرض على أهل بُخارَى وكسّ ونسَف وخُوارزم عشرين ألفَ مُقاتِل . قال : فساروا معه إلى السُّغْد ، فوجّهوا إلى الشاش ، وتوجّه هو إلى فَرْغانة ، وسار حتى أتى خُجَنْدَة ، فجمع له أهلها . فلقوه فاقتتلوا مراراً ، كلّ ذلك يكون الظفر للمسلمين . ففرغ الناسُ يوماً فَركِبوا خيولَهم ، فأوفَى رجلٌ على نَشَزٍ فقال : تالله ما رأيت كاليوم غِرّةً ، لو كان هَيْجٌ اليومَ ونحنُ على ما أرى من الانتشار لَكانت الفَضيحة ، فقال له رجل إلى جَنْبه : كلا ، نحن كما قال عَوْف بن الخَرِع .

نـؤمّ الـبـلادَ لـحُـب الـلِّقـا ... ولا نَـتَّقـي طـائـراً حَيـثُ طـارَا

سـنـيـحـاً ولا جـاريـاً بـارِحـاً ... على كـلِّ حـالٍ نُـلاقِي اليسـارا

وقال سَحْبان وائل يذكر قتالَهم بخُجَنْدَة :

فَـسَـلِ الـفَـوَارِسَ في خُـجَـنـ ... دَةَ تحـتَ مُـرهَـفَـةِ الـعَـوالي

هـل كُـنـتُ أجمَـعُـهُـم إذا ... هُـزِمـوا وأُقـدِمُ في قِـتـالي

أم كـنْـتُ أضْـرِبُ هـامَـةَ الـ ... ـعَـاتي وأصـبِـرُ لـلعَـوَالي

هـذا وأنـتَ قـرِيـعُ قَـيـ ... ـسٍ كُـلِّهَـا ضَـخْـمُ الـنَّـوَالِ

وفَـضَـلتَ قـيـسـاً في الـنَّـدَى ... وأبـوك في الحِـجَـج الخَـوالي

وَلَقَدْ تَبَيَّنَ عَدْلُ حُكْـ ـمِكَ فيهمُ في كلِّ مالِ
تَمَّتْ مُروءَتُكُمْ وَنَا غَى عِزُّكُم غُلْبَ الجِبالِ

قال : ثمّ أتى قتيبةُ كاشانَ مدينةَ فَرغانة ، وأتاه الجنودُ الذين وجّههم إلى الشاش وقد فتحوها وحَرّقوا أكثرها ، وانصرف قتيبةُ إلى مَرْوَ . وكَتَب الحجاج إلى محمد بن القاسم الثقفي أنْ وجِّه مَن قِبلَكَ من أهل العراق إلى قتيبة . وَوجِّه إليهم جَهْم بن زَحْر بن قيس ، فإنه في أهل العراق خيرٌ منه في أهل الشام . وكان محمد وادًّا لجَهْم بن زَحْر ،فبعث سليمان بن صَعْصعة وجَهْم بن زَحْر ، فلما ودّعه جهمٌ بكى وقال : يا جَهْم ، إنه لَلْفراق ؛ قال : لا بدّ منه .

قال : وقَدِم على قتيبة سنة خمس وتسعين .

وفي هذه السنة قَدِم عثمانُ بنُ حيّانَ المرّي المدينةَ والياً عليها من قِبَل الوليد بن عبدالملك .

ذكر الخبر عن ولايته :

قد ذكرْنا قبلُ سببَ عَزْل الوليد عمرَ بنَ عبدالعزيز عن المدينة ومكّة وتأميره على المدينة عثمان بن حيّان ، فزعم محمد بنُ عمر أن عثمان قدم المدينة أميراً عليها للَيلتين بقيَتا من شوّال سنة أربع وتسعين ، فنزل بها دارَ مَرْوان وهو يقول : محلّة والله مِظعانٌ ، المغرور من غرّ بك . فاستقصى أبا بكر بن حَزْم .

قال محمد بن عمر: حدَّثني محمد بن عبدالله بن أبي حُرّة ، عن عمه قال: رأيتُ عثمانَ بنَ حيّانَ أخذ رِياحَ بنَ عبيدالله ومُنقِذاً العِراقيّ فحبَسهم وعاقَبَهم ، ثم بعث بهم في جوامع إلى الحجّاج بن يوسف ، ولم يَترك بالمدينة أحداً من أهل العراق تاجراً ولا غيرَ تاجر ، وأمر بهم أن يخرجوا من كل بلد ، فرأيتُهم في الجوامع ، وأتبع أهل الأهواء ، وأخذ هَيْصَماً فقطعه ، ومنحوراً ـ وكان من الخوارج ـ قال : وسمعتُه يَخطُب على المِنبَر يقول بعد حمد الله :

أيها الناس، إنا وجدناكم أهل غِشٍّ لأمير المؤمنين في قديمِ الدّهر وحديثه ، وقد ضَوَى إليكم من يَزيدُكم خَبالاً . أهلُ العِراق هم أهْلُ الشقاق والنفاق ، هم والله عُشّ النفاق وبَيْضَته التي تفلّقَتْ عنه . والله ما جرّبتُ عِراقيًّا قطّ إلاّ وجدتُ أفضَلهم عند نفسهِ الذي يقول في آل أبي طالب ما يقول ، وما هم لهم بشيعة ، وإنهم لأعداءٌ لهم ولغيرهم ، ولكن لما يريد الله من سَفْك دمائهم فإني والله لا أوتيَ بأحد آوَى أحداً منهم ، أو أكْراه مَنزلاً ، ولا أنْزَلَه ، إلاّ هدمتُ منزلَه ، وأنزلتُ به ما هو أهلُه . ثم إنّ البلدانَ لما مصرها عُمر بنُ الخطاب وهو مجتهد على ما يُصلِح رعيّته جعل يمرّ عليه من يريد الجهاد فيستشيره : الشأم أحبّ إليك أم العراق؟ فيقول : الشأم .أحب إليّ . إني رأيتُ العراقَ داءً عُضالاً ، وبها فرّخ الشيطان . والله لقـد أعضَلوا بي ، وإني لأراني سأفرّقهم في البُلْدان ، ثم أقول : لو فرّقتهم لأفسدَوا مَن دخلوا عليه بجَدَل وحِجاج ، وكَيفَ ؟ ولِمَ؟ وسُرعَةِ وَجيف في الفتنة ، فإذا خُبروا عند السيوف لم يخبر منهم طائل. لم يصلحوا على عثمان ، فلقي منهم الأمرين ، وكانوا أوّلَ الناس فَتقَ هذا الفَتْقَ العظيم ، ونَقَضوا عُرَى الإسلام عُرْوةً عُرْوة ، وأنغلوا البُلدان . والله إني لأتقرّب إلى الله بكل ما أفعل بهم لِمَا أعرف من رأيهم ومَذاهِبهم . ثم وليهم أمير المؤمنين معاوية فداجَهم فَلم يَصلحوا عليه ، وَوَليهم رجلُ الناسِ جلداً فبَسَط عليهم السيف ، وأخافَهم ، فاستقاموا له أحبُّوا أو كرهوا ، وذلك أنه خَبَرهم وعرَفَهم .

أيها الناس، إنا والله ما رأينا شِعاراً قطّ مِثلَ الأمْن ، ولا رأينا حِلساً قطّ شرًّا من الخَوْف ، فالزَموا الطاعة ، فإنّ عندي يا أهلَ المدينة خِبرةً من الخِلاف. واللّهِ ما أنتم بأصحاب قتال، فكونوا من أحْلاس بيُوتكم، وعَضّوا على النواجذ ، فإني قد بعثتُ في مجالسكم مَن يَسمَع فيبلّغني عنكم . إنكم في فضول كلام غيرُهُ ألزَم لكم ، فدَعُوا عَيبَ الوُلاة ، فإنّ الأمر إنما يُنقض شيئاً شيئاً حتى تكونَ الفتنة وإنّ الفِتنة مِن البلاء ، والفِتَن تَذهَب بالدين وبالمال والوَلَد .

قال : يقول القاسمُ بنُ محمد: صدَق في كلامه هذا الأخير، إنّ الفتنة هكذا .

قال محمد بن عمر: وحدّثني خالد بن القاسم، عن سعيد بن عَمرو الأنصاري ، قال: رأيتُ مناديَ عثمانَ بن حيّانَ ينادِي عندنا : يا بني أمية بنَ زيد ، برئَتْ ذِمة ممن آوَى عِراقيًّا ـ وكان عندنا رجلٌ من أهل البَصرة له فضلٌ يقال له أبو سَوادةَ ، من العُبّاد ـ فقال : واللّهِ ما أحِبّ أن أدخِل عليكم مكروهاً، بلغوني مَأمَني ؛ قلت : لا خيرَ لك في الخُروج ، إنّ الله يَدْفَع عنا وعنك . قال : فأدخلتُه بيتي ، وبلغ عثمان بن حَيّانَ فبَعَث أحراساً فأخرجتُه إلى بيت أخِي ، فما قَدَروا على شيء ، وكان الذي سَعَى بي عَدُوًّا ، فقلت للأمير: أصلَح الله الأمير! يُؤتَى بالباطل فلا تُعاقب عليه . قال : فضَرَب الذي سَعَى بي عشرين سوطاً . وأخرَجْنا العراقي ، فكان يصلي معنا ما يغيبُ يوماً واحداً ، وحَدِب عليه أهلُ دارِنا ، فقالوا : نموتُ دونَك ! فما بَرِح حتى عُزل الخبيث .

قال محمد بنُ عمر: وحدّثنا عبدُ الحَكيم بن عبدالله بن أبي فَروة ، قال : إنما بَعَث الوليدُ عثمانَ بنَ حيّان إلى المدينة لإخراج مَن بها من العِراقيّين وتفريقِ أهلِ الأهواء ومن ظَهر عليهم أوعلا بأمرهم ، فلم يبعثه والياً ، فكان لا يَصعد المِنبر ولا يَخطُب عليه ، فلما فعل في أهلِ العراق ما فعل ، وفي مَنْحور وغيره أثبتَه على المدينة ، فكان يَصعد على المِنبر .

وفي هذه السنة قَتَل الحجاجُ سعيد بنَ جُبَيْر .

ذكر الخبر عن مقتله :

وكان سبب قتل الحجاج إياه خروجه عليه مع مَن خَرَج عليه . مع عبدِالرحمن بن محمد بن الأشعث ، وكان الحجاج جعله على عَطاء الجُنْد حين وجّه عبدَالرحمن إلى رُتْبيل لِقتاله ، فلما خلع عبدُالرحمن الحجاج كان سعيد فيمن خَلَعه معه ، فلما هُزم عبدُالرحمن وَهرب إلى بلاد رُتْبيل هَرَب سعيد .

فحدّثنا أبو كريب ، قال : حدّثنا أبو بكر بن عيّاش، قال: كتب الحجاج إلى فلان وكان على أصبهان ـ وكان سَعيد ، قال الطبري : أظنه أنه لما هَرَب من الحجاج ذهب إلى أصبهان فكتب إليه : ـ إنّ سعيداً عندَك فخُذْه . فجاء الأمرُ إلى رجل تحرَّج ، فأرسل إلى سعيد: تحوَّلْ عَني ، فتنحَّى عنه ، فأتى أذْرَبيجان ، فلم يزَل بأذربَيجان فطَال عليه السنون ، واعتَمر فخرَج إلى مكة فأقامَ بها ، فكان أناس مِن ضربهِ يستخفُون فلا يُخبرون بأسمائهم . قال : فقال أبو حَصِين وهو يحدّثنا هذا : فَبَلَغنا أنّ فلاناً قد أمِّر على مكة ، فقلت له: يا سعيد، إنّ هذا الرجل لا يُؤمَن ، وهو رَجُل سَوْء ، وأنا أتقيه عليك ، فاظعَن واشخص ، فقال : يا أبا حَصِين ، قد والله فررت حتى استحييتُ من الله اسيجيئني ما كَتَب الله لي . قلتُ: أظنك والله سعيداً كما سمتّك أمك . قال : فقَدِم ذلك الرجل إلى مَكة ، فأرسلَ فأخذ فلان له وكلّمه ، فجعل يديره .

وذكر أبو عاصم عن عمر بن قيس، قال: كتب الحجاج إلى الوليد: إنّ أهلَ النفاق والشقاق قد لجؤوا إلى مكة، فإن رأى أميرُ المؤمنين أنْ يأذَن لي فيهم! فكتب الوليدُ إلى خالد بن عبدالله القَسْريّ؛ فأخَذ عطاء وسعيد بنَ جُبَير ومجاهد وطلق بن حبيب وعمرو بن دينار؛ فأما عَمرو بنُ دينار وعطاء فأرسلا لأنهما مكيّان، وأما الآخَرون فبعث بهم إلى الحجّاج، فمات طلقٌ في الطريق، وحُبِس مجاهدٌ حتى مات الحجاج، وقُتِل سعيدُ بنُ جُبير.

حدّثنا أبو كريب، قال: حدّثنا أبو بكر، قال: حدّثنا الأشجعي، قال: لما أقبل الحَرَسِيّان بسعيد بن جُبير نَزَل منزلاً قريباً من الرَّبَذَة، فانطلَق أحد الحَرَسين في حاجتِهِ وبقي الآخَر، فاستيقَظ الذي عندَه، وقد رأى رُؤياً، فقال: يا سعيد، إني أبرأ إلى الله من دَمِك! إنّي رأيتُ في منامي؛ فقيل لي: ويلَك! تبرّأ من دَمِ سعِيد بنِ جُبَير. اذهبْ حيث شئتَ لا أطلُبك أبداً؛ فقال سعيد: أرجو العافية وأرجو، وأبى حتى جاء ذاك؛ فَنَزلا من الغد، فأرِيَ مثلها، فقيل: ابرأ من دَمِ سعيد. فقال: يا سعيد، اذهَبْ حيثُ شئتَ، إني أبرأ إلى الله من دَمِك، حتى جاء به.

فلما جاء به إلى داره التي كان فيها سعيد وهي دارهم هذه، حدّثنا أبو كريب، قال: حدَّثنا أبو بكر، قال: حدَّثنا يزيدُ بنُ أبي زِياد مولى بني هاشم قال: دخلتُ عليه في دار سعيد هذه، جيءَ به مقيَّداً فدخل عليه قرّاءُ أهل الكوفة. قلتُ: يا أبا عبدالله، فحدّثكم؟ قال: إي والله ويَضْحَك، وهو يحدِّثُنا، وبُنَيّة له في حِجْره، فنظرتْ نظرةً فأبصرَت القيدَ فبكَتْ، فسمعتُه يقول: أيْ بُنَيّة لا تَطَّيّري، إيّاك ـ وشَقّ والله عليه ـ فاتبعناه نشيعه، فانتَهَيْنا به إلى الجِسْر، فقال الحَرَسيان: لا نَعبُر به أبداً حتى يعطينَا كفيلاً، نخاف أن يُغرِق نفسه. قال: قلنا: سَعيدٌ يُغرِّق نفسه! فما عبروا حتى كفلنا به.

قال وَهْب بن جَرير: حدَّثنا أبي، قال: سمعتُ الفَضْل بن سُوَيد قال: بعَثَني الحجاج في حاجة، فجيء بسعيدِ بنِ جُبَير، فرجعتُ فقلت: لأنظرنَّ ما يصنَع، فقمتُ على رأس الحجاج، فقال له الحجاج: يا سعيد، ألم أشرِكْك في أمانتي! ألم أستَعْمِلْك! ألم أفْعَل! حتى ظننتُ أنه يخلي سبيله؛ قال: بلى، قال: فما حَمَلك على خروجك عليّ؟ قال: عُزِم عليَّ، قال: فطار غَضَباً وقال: هيه! رأيت لعزمة عدوّ الرحمن عليك حقًّا، ولم تر لله ولا لأمير المؤمنين ولا لِي عليكَ حَقًّا! اضرِبا عنقه، فضربت عُنُقُه، فَنَدر رأسه عليه كمّة بيضاء لاطية صغيرة.

وحُدِّثت عن أبي غسانَ مالك بن إسماعيل، قال: سمعتُ خلفَ بنَ خليفةَ يَذكُر عن رجل قال: لما قُتِل سعيدُ بنُ جبير فَندرَ رأسهُ لله، هَللْ ثلاثاً: مرّة يُفصِح بها، وفي الثِّنْتَين يقول. مِثلَ ذلك فلا يُفصِح بها.

وذكر أبو بَكر الباهلي، قال: سمعتُ أنسَ بنَ أبي شيخ، يقول: لما أتيَ الحجاجُ بسَعيد بن جُبير، قال: لعن الله ابنَ النصرانية ـ قال: يعني خالداً القَسْري، وهو الذي أرسَل به من مكة ـ أما كنتُ أعرف مكانَه! بلى والله والبيت الذي هو فيه بمكة. ثم أقبلَ عليه فقال: يا سعيد، ما أخرجك عليَّ؟ فقال: أصلح الله الأمير! إنما أنا امرؤٌ من المسلمين يُخطِيء مَرّة ويُصيبُ مَرّة، قال: فطابت نفسُ الحجاج، وتَطلّق وجهُه، ورجا أن يتخلّص من أمره، قال: فعاوَدَه في شيء، فقال له: إنما كانت له بيْعة في عُنقي؛ قال: فغَضِب وانتفَخ حتى سَقَط أحد طَرَفي رِدائه عن مَنكِبِه، فقال: يا سعيد، ألم أقدم مكة فَقتلتُ ابنَ الزّبير، ثم أخذت بيعةَ أهلِها،

وأخذتُ بيعتَك لأمير المؤمنين عبدِالملك! قال : بلى، قال : ثم قدمتُ الكوفةَ والياً على العراق فجدّدت لأمير المؤمنين البيعة ، فأخذتُ بيعتَك له ثانيةً! قال : بلى ؛ قال : فتَنْكث بيْعَتين لأمير المؤمنين ، وتَفِي بـواحدة للحائِك ابنِ الحائك! اضرِبا عنقه ؛ قال : فإياه عَني جرير بقولِه :

يـا رُبَّ نَـاكِثِ بَيعَتَـينِ تَـرَكـتَـهُ وخِـضَـابُ لِـحـيَـتِـهِ دَمُ الأَوداجِ

وذَكَر عتّاب بن بِشْر ، عن سالم الأفطس ، قال : أُتِيَ الحجاج بسعيد بن جُبير وهو يريد الركوب ، وقد وضَع إحدى رِجْليه في الغَرْز ـ أو الركاب ـ فقال : والله لا أركب حتى تَبوءَ مَقعَدك من النار، اضربوا عنقَه . فضُربت عنقُه ، فالتبس مكانَه ، فجعل يقول : قُيودَنا قيودَنا ، فظَنّوا أنه قال : القيود التي عـلى سعيد بن جبير ، فقَطّعُوا رِجْليه من أنصاف ساقَيه وأخَذُوا القيود .

قال محمد بن حاتم: حدّثنا عبدُالملك بنُ عبدالله عن هلال بن خَبّاب قال: جيء بسعيد بن جُبَير إلى الحجاج فقال : أكَتَبْتَ إلى مصعب بن الزبير؟ قال : بل كَتَب إليَّ مصْعَب ؛ قال : والله لأقتلنك ؛ قال : إنّي إذاً لَسعيد كما سمّتني أمي! قال: فقَتله ؛ فلم يَلْبَث بعدَه إلاّ نحواً من أربعين يوماً، فكان إذا نام يراه في مَنامِه يأخذ بمَجامع ثوبهِ فيقول : يا عدوّ الله، لِمَ قَتَلْتَني؟ فيقول: ما لي ولسعيد بن جُبَير! ما لي ولسعيد بنِ جُبَير !

قال أبو جعفر: وكان يقال لهذه السنة سنةُ الفُقَهاء ، مات فيها عامّة فُقَهاء أهلِ المدينة، مات في أوّلها علي بنُ الحُسين عليه السلام ، ثم عُـرْوة بن الزّبـير ، ثم سعيد بن المسيّب ، وأبـو بكر بنُ عبـدالرّحمن بن الحارث بن هِشام .

واستقضَى الوليدُ في هذه السنة بالشام سليمانَ بنَ حبيب .

واختُلف فيمن أقامَ الحجّ للناس في هذه السنة ، فقال أبو معشر ـ فيما حدثني أحمد بن ثابت عمن ذكره ، عن إسحاقَ بن عيسى عنه ـ قال : حجّ بالناس مَسلمة بنُ عبدالملك سنة أربع وتسعين .

وقال الواقدي : حجّ بالناس سنة أربع وتسعين عبدُالعزيز بنُ الوليد بن عبدالملك ـ قال : ويقال : مَسلَمة بن عبدالملك .

وكان العاملُ فيها على مكة خالد بن عبدالله القَسْري ، وعلى المدينة عثمان بن حيّان المُرّي ، وعلى الكوفة زياد بن جَرير ، وعلى قَضـائها أبـو بكر بن أبي مـوسى . وعلى البَصْـرة الجرّاح بن عبـدالله. وعلى قضـائها عبدالرحمن بن أذينة . وعلى خُراسانَ قتيبة بنُ مسلم ، وعلى مصرَ قرّة بن شريك ، وكان العِراق والمَشرِق كله إلى الحجاج .

ثم دخلت سنة خمس وتسعين

ذكر الأحداث التي كانت فيها

ففيها كانت غَزْوة العباس بن الوليد بن عبدالملك أرضَ الرّوم ، ففَتَح الله على يديه ثلاثةَ حُصون فيما قيل ، وهي : طولس ، والمرزبانين ، وهِرَقْلة.

وفيها فتح آخر الهند إلاّ الكَيْرَج والمَنْدَل .

وفيها بُنِيتْ واسِط القَصَب في شهر رمضانَ .

وفيها انصرَفَ موسى بنُ نُصَير إلى إفريقيَّة من الأندلس ، وضَحّى بقَصْر الماء - فيما قيل - على مِيل من القَيْروان .

وفيها غزا قُتيبة بنُ مُسلِم الشاش.

ذكر الخبر عن غزوَتِهِ هذه :

رجع الحديث إلى حديث علي بن محمد، قال: وبعث الحجاج جيشاً من العراق فقدموا على قتيبة سنة خمس وتسعين ، فغزا ، فلما كان بالشاش - أو بكُشماهَن - أتاه موتُ الحجاج في شوّال ، فغمَّه ذلك، وقَفَل راجعاً إلى مَرْوَ ، وتمثل :

لعَمــري لنِعمَ المــرءُ من آلِ جَعفَــرِ   بحَــورَانَ أمسى أعلَقَتْــهُ الحَبَــائــلُ
فــإنْ تَحْيَ لا أملَلْ حيــاتي وإن تَمُتْ   فمـا في حَيَـاة بَعــد مَـوتِـكَ طَـائــلُ

قال : فرجع بالناس ففرّقهم ، فَخلَّف في بخارَى قوماً ، ووجّه قوماً إلى كسّ وَنَسف ، ثم أتى مَرْوَ فأقام بها ، وأتاه كتابُ الوليد : قد عَرَف أميرُ المؤمنين بلاءَك وجِدك في جهادِ أعداء المسلمين ، وأميرُ المؤمنين رافعُك وصانع بك كالذي يجب لك ، فالمم مَغازِيك ، وانتظرْ ثوابَ ربك ، ولا تغب عن أمير المؤمنين كتبَك : حتى كأني أنظرُ إلى بلادك والثغر الذي أنتَ به .

وفيها مات الحجاجِ بنُ يوسف في شوّال - وهو يومئذ ابن أربع وخمسين سنة وقيل : ابنِ ثلاث وخمسين سنة - وقيل : كانت وفاتُه في هذه السنة لخمسٍ ليال بقِين من شهر رمضان .

وفيها استخلف الحجاج لما حضرتْه الوفاةُ على الصلاة ابنَه عبدَالله بن الحجاج . وكانت إمرةُ الحجاج على العِراق فيما قال الواقدي عشرين سنة .

وفي هذه السنة افتتح العبّاس بنُ الوليد قِنَّسْرِين .

وفيها قُتِلَ الوضّاحيّ بأرض الرّوم ونحوٌ من ألفِ رجل معه .

وفيها ـ فيما ذكر ـ وُلد المنصور عبدالله بن محمد بن علي .

وفيها ولّى الوليدُ بنُ عبدِالملك يزيدَ بنَ أبي كَبْشة على الحَرْب والصلاة بالمِصرَين : الكوفةَ والبَصْرة ، وولّى خراجَهما يزيدَ بنَ أبي مسلم .

وقيل : إن الحجاج كان استخلَف حين حضرتْه الوَفاة على حرب البلدين والصلاة بأهلهما يزيد بنَ أبي كَبْشة ، وعلى خراجهما يزيد بن أبي مسلم ، فأقرّهما الوليد بعدَ موتِ الحجاج على ما كان الحجاج استخلَفهما عليه . وكذلك فعل بعمال الحجاج كلهم ، أقرّهم بعَده على أعمالهم التي كانوا عليها في حَياته .

وحجّ بالناس في هذه السنةِ بشر بنُ الوليد بنِ عبدِالملك ، حدّثني بذلك أحمدُ بنُ ثابت عمّن ذكره ، عن إسحاقَ بن عيسى ، عن أبي مَعشر . وكذلك قال الواقدي .

وكان عُمال الأمصار في هذه السنة هم العمال الذين كانوا في السنة التي قبلها ، إلاّ ما كان من الكُوفة والبَصْرة ، فإنهما ضُمّتَا إلى مَن ذكرتُ بعد موتِ الحَجّاج .

ثم دخلت سنة ست وتسعين

ذكر الأحداث التي كانت فيها

ففيها كانت ـ فيما قال الواقدي ـ غَزْوَة بِشْر بن الوَليد الشاتيةَ ، فقفَل وقد ماتَ الوليد .

وفيها كانت وَفاةُ الوَليد بنِ عبدِالملك ، يومَ السبت في النّصف من جُمادَى الآخِرة سنة ست وتسعين في قولِ جميعِ أهلِ السيَر .

واختُلف في قَدْر مدَّة خلافتِهِ، فقال الزُّهْريّ في ذلك ـ ما حُدّثت عن ابن وَهْب عن يونس عنه : مَلَك الوليدُ عشرَ سنين إلاّ شهراً .

وقال أبو معشر فيه ، ما حدَّثني أحمد بن ثابت ، عمّن ذكَره ، عن إسحاقَ بن عيسى ، عنه كانت: خلافةُ الوليدِ تسعَ سنينَ وسبعةَ أشهر .

وقال هشامُ بنُ محمد: كانت ولايةُ الوَليد ثمان سنين وستة أشهر .

وقال الواقدي : كانت خلافتُهُ تسعَ سنين وثمانيةَ أشهر وليلتين .

واختُلف أيضاً في مبلَغ عمره ، فقال محمد بنُ عمر : توفي بدِمَشق وهو ابنُ ست وأربعين سنة وأشهر .

وقال هشامُ بنُ محمد: توفي وهو ابنُ خمس وأربعين سنة .

وقال علي بنُ محمد : تُوُفِّيَ وهو ابنُ اثنتين وأربعين سنةً وأشهر .

وقال علي : كانت وفاةُ الوليد بدَير مُرَّان ، ودُفِنَ خارجَ باب الصَّغير . ويقال : في مَقابِر الفَرادِيس .

ويقال : إنه توفي وهو ابنُ سبع وأربعين سنة .

وقيل : صلى عليه عمرُ بنُ عبدالعزيز .

وكان له ـ فيما قال علي ـ تِسعةَ عشر ابناً: عبدالعزيز، ومحمد، والعباس، وإبراهيم، وتمَّام، وخالد، وعبدالرحمن، ومبشّر، ومسرور، وأبو عُبيدة، وصَدَقة، ومنصور، ومروان، وعَنْبسة ، وعمرو ، ورَوْح ، وبِشْر ، ويزيد ، ويحيى ؛ وأمّ عبدالعزيز ومحمد وأمّ البنين بنت عَبدِ العزيز ابن مَرْوان ، وأم أبي عُبيدة فزارّية ، وسائرهم لأمهات شتى .

ذكر الخبر عن بعض سيره :

حدثني عُمَر ، قال : حدّثني علي ، قال : كان الوليدُ بنُ عبدالملك عند أهل الشأم أفضل خلائفهم ،

بني المساجدَ مسجدَ دمَشق ومسجدَ المدينة ، ووَضَع المَنار ، وأعطَى الناسَ ، وأعطَى المُجذَّمين ، وقال : لا تسألوا الناس . وأعطَى كلَّ مُقْعَد خادماً ، وكلَّ ضَرِير قائداً . وفُتِحَ في ولايته فتوحٌ عِظام ؛ فتَحَ موسى بنَ نُصير الأندلسَ ، وفتَح قتيبة كاشْغر ، وفَتَح محمد بنُ القاسم الهند .

قال : وكان الوليدُ يمرّ بالبقال فيَقِف عليه فيأخذ حُزْمة البَقْل فيقول : بكَمْ هذه ؟ فيقول : بفَلْس ؛ فيقول : زدْ فيها .

قال : وأتاه رجلٌ من بني مخزوم يَسأله في دَيْنِهِ ، فقال : نعم ، إن كنت مستحقًّا لذلك ، قال : يا أميرَ المؤمنين ، وكيف لا أكون مستحقًّا لذلك مع قرابتي ! قال : أقَرأت القرآن؟ قال : لا، قال: ادْنُ مني، فدَنا منه ، فنَزَع عمامتَه بقَضيب كان في يده ، وقَرَعه قَرَعات بالقَضيب ، وقال لرجل : ضُمَّ هذا إليك ، فلا يُفارقك حتى يقرأ القرآن ، فقام إليه عثمانُ بنُ يزيدَ بن خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ عليَّ دَيْناً، فقال: أقرأتَ القرآن؟ قال: نعم، فاستقرأه عشرَ آيات من الأنفال ، وعشْرَ آيات من براءة، فقرأ ، فقال: نَعَم ، نَقْضي عنكم ، ونصِل أرحامَكم على هذا .

قال : ومَرِض الوليد فرهقتْه غَشْيَة ، فمكث عامة يومِه عندَهم ميتاً ، فبُكِيَ عليه ، وخرجت البُرُد بموته ، فقَدِم رسولٌ على الحجاج ، فاسترْجع ، ثم أمَر بحبل فَشُدَّ في يديه، ثم أوثِق إلى أسطوانة ، وقال : اللهمّ لا تسلط عليَّ من لا رحمةَ له ، فقد طالما سألتُك أن تجعلَ منيتي قبل مَنِيته! وجعل يدعُو، فإنه لَكذلك إذ قَدِم عليه بريدٌ بإفافته .

قال علي : ولما أفاق الوليدُ قال : ما أحدٌ أسَرَّ بعافيةِ أمير المؤمنين من الحجاج ؛ فقال عمر بن عبدالعزيز : ما أعظمَ نعمةَ الله علينا بعافِيتك ، وكأني بكتاب الحجاج قد أتاكَ يذكُر فيه أنه لما بلغه برؤك خرّ لله ساجداً ، وأعتق كلَّ مملوكٍ له ، وبعث بقوارير من أنْبَج الهِند . فما لَبث إلاّ أياماً حتى جاء الكتاب بما قال .

قال: ثم لم يَمُت الحَجّاجُ حتى ثَقُل على الوليد ، فقال خادمٌ للوليد : إني لأوضّىء الوليدَ يوماً للغَداء ، فمدّ يدَه ، فجعلتُ أصبّ عليه الماء، وهو ساهٍ والماءُ يَسيلُ ولا أستطيعُ أن أتكلم ، ثم نَضَح الماءَ في وَجهي ، وقال : أناعسٌ أنتَ! ورَفَع رأسه إليَّ وقال: ما تَدْرِي ما جاء الليلة؟ قلتُ : لا ؛ قال : وَيْحَك! ماتَ الحجاج ! فاسترجعتُ. قال: اسكُتْ ما يُسرّ مولاك أنَّ في يده تفاحةً يُشمّها .

قال علي: وكان الوليد صاحب بناء واتّخاذ للمصانع والضياع ، وكان الناس يلتقون في زَمانه ، فإنما يسأل بعضُهم بعضاً عن البِناء والمَصانع . فولِي سليمان ، فكان صاحب نكاح وطعام ، فكان الناس يَسأل بعضُهم بعضاً عن التزويج والجَواري . فلما ولّي عمرُ بن عبدالعزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل: ما ورْدك الليلة؟ وكم تحفَظ من القرآن؟ ومتَى تخِتِم؟ ومتى خَتَمْتَ؟ وما تَصومُ من الشهر؟ ورَثي جرير الوليدَ فقال :

يا عَين جُودِي بِدمعٍ هَاجَه الذِّكَرُ ... فما لِدمعِكِ بَعْد اليوم مُدَّخَرُ
إنَّ الخليفةَ قد وَارَتْ شَمَائِلَهُ ... غَبراءُ مُلْحَدَةٌ في جُولِهَا زَوَرُ
أَضحى بَنُوه وقد جَلَّت مُصِيبَتُهُم ... مِثل النّجوم هَوَى مِن بينِها القمَرُ
كانوا جميعاً فلَم يَدفَع مَنِيَّتَهُ ... عبدُالعزيزِ ولا رَوحٌ ولا عمرُ

حدَّثني عمرُ ، قال : حدَّثنا علي، قال: حجّ الوليد بن عبدالملك ، وحجّ محمد بن يوسفَ من اليَمَن ، وحَمَل هدايا للوليد، فقالت أمّ البنين للوليد : يا أمير المؤمنين ، اجعَلْ لي هدّيةَ محمد بن يوسف ، فأمَرَ بصَرْفها إليها ، فجاءت رسلُ أمّ البنين إلى محمد فيها ، فأبى وقال : يَنظُر إليها أميرُ المؤمنين فيَرَى رأيَه ـ وكانت هدايا كثيرةً ـ فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنك أمرتَ بهدايا محمد أن تُصرَف إليَّ ، ولا حاجَة لي بها ، قال : ولِمَ؟ قالت : بلَغني أنه غَصَبها الناسَ ، وكلّفهم عَملَها ، وظَلمهم . وَحَمَلَ محمد المتاعَ إلى الوليد ، فقال : بلَغني أنك أصبْتَها غَصْباً ، قال ، مَعاذَ الله ! فأمر فاستُحلِف بين الرّكن والمقام خمسين يَميناً بالله ما غَصَب شيئاً منها ، ولاَ ظَلم أحداً ، ولا أصابَها إلاّ من طَيّب ؛ فحَلَف ، فقَبلَها الوليدُ ودَفَعَها إلى أمّ البنين ، فمات محمد بنُ يوسفَ باليَمَن ، أصابه داءٌ تَقطَّع منه .

وفي هذه السنة كان الوليد أرادَ الشخوصَ إلى أخيه سليمانَ لخلعه ، وأراد البَيْعَةَ لابنه مِن بعده ، وذلك قبلَ مَرْضتِهِ التي ماتَ فيها . حدَّثني عمر ، قال : حدَّثنا علي ، قال : كان الوليدُ وسليمان وَلِي عهد عبدالملك ، فلما أفضى الأمرُ إلى الوليد ، أرادَ أن يبايعَ لابنه عبدالعزيز ويَخلَع سليمان ، فأبى سليمان ، فأراده على أن يجعَله له من بعدِه ، فأبى، فعرض عليه أموالاً كثيرة، فأبى، فكَتَب إلى عمالهِ أن يبايعوا لعبدالعزيز ، ودعا الناسَ إلى ذلك ؛ فلم يُجبه أحد إلاّ الحجاجَ وقتيبةَ وخَواصٌ من الناس . فقال عبَّاد بن زياد : إنَّ الناس لا يُجيبونك إلى هذا ، ولو أجابوك لم آمَنهم على الغَدْر بابنك ، فاكتبْ إلى سليمانَ فليقدم عليك ، فإنّ لك عليه طاعة ، فأرِدْه على البَيْعَة لعبدِ العزيز مِن بعده ، فإنه لا يَقدِر على الامتناع وهو عندَك ، فإنْ أبى كان الناسُ عليه .

فكتب الوليدُ إلى سليمانَ يأمرُه بالقدوم ، فأبطأ ، فاعتزَم الوليدُ على المسير إليه وعلى أن يَخلَعه ، فأمر الناسَ بالتأهب ، وأمر بحُجَره فأخرجتْ ، فمرِض ، وماتَ قبل أن يَسير وهو يريد ذلك .

قال عمر: قال علي: وأخبرَنا أبو عاصم الزّيادي من الهِلْواث الكلبي ، قال : كنا بالهِنْد مع محمد بن القاسم ، فقَتَل الله داهاً، وجاءنا كتابٌ من الحجاج أن اخلَعوا سليمانَ ، فلما ولي سليمان جاءنا كتابُ سليمانَ ، أن ازْرعوا واحرُثوا ، فلا شأمَ لكم ، فلم نزلْ بتلك البلاد حتى قام عمرُ بنُ عبدالعزيز فأَقفلنا .

قال عمر: قال علي: أراد الوليد أن يبنيَ مَسجدَ دمشق ، وكانت فيه كنيسة ، فقال الوليد لأصحابه : أقسمتُ عليكم لَمّا أتاني كلّ رجل منكم بِلَبِنة ، فَجعل كلّ رجل يأتيه بِلَبنة ، ورجل من أهل العراق يأتيه بلَبِنَتين ، فقال له : ممن أنت؟ قال: مِن أهل العراق؛ قال: يا أهل العراق، تُفرطون في كلّ شيء حتى في الطاعة! وهَدموا الكنيسةَ وَبناها مسجداً ، فلما ولي عمر بنُ عبدالعزيز شكَوا ذلك إليه ، فقيل : إنّ كل ما كان خارجاً من المدينة افتُتِح عَنْوة ، فقال لهم عمر: نردّ عليكم كنيستَكم ونَهدِم كنيسة تُومَا ، فإنها فُتِحت عنوة، نبنيها مسجداً، فلما قال لهم ذلك قالوا: بل نَدَع لكم هذا الذي هَدَمه الوليد، ودَعُوا لنا كنيسةَ تُوما . ففَعَل عمرُ ذلك .

وفي هذه السنة افتتح قتيبةُ بنُ مِسلم كاشغر ، وغَزَا الصين .

ذكر الخبر عن ذلك :

رَجْع الحديث إلى حديث علي بن محمد بالإسناد الذي ذكرُت قبلُ . قال : ثم غزا قتيبةُ في سنة ست

وتسعين ، وحَمَلَ مع الناس عيالهم وهو يريد أن يُحرِز عيالَه في سَمرقَنْد خوفاً من سليمان ، فلما عبر النهر استعمل رجلاً من مواليه يقال له الخُوارَزْميّ على مَقطَع النهر ، وقال : لا يجوزَنّ أحدٌ إلّا بجَواز ؛ ومَضَى إلى فَرْغانة ، وأرسَل إلى شِعْب عصام من يُسَهّل له الطريق إلى كاشغر ، وهي أدنَى مدائن الصين ، فأتاه موتُ الوَليد وهو بفَرْغانة .

قال : فأخبَرنا أبو الذيّال عن المهلب بن إياس ، قال: قال إياس بنُ زهير : لما عبَر قتيبةُ النهرَ أتيتُه فقلت له : إنك خرجتَ ولم أعلم رأيك في العِيال فنأخذَ أهْبَة ذلك ، وبَنِيَّ الأكابر معي ، ولي عيال قد خلَّفْتهم وأم عجوز ، وليس عندهم مَن يقوم بأمرهم ، فإن رأيتَ أن تَكتُب لي كتاباً مع بعض بَنِيَّ أوجّهه فيقدم عليَّ بأهلي ! فكَتَب ، فأعطاني الكتابَ فانتهيت إلى النهر وصاحب النهر من الجانب الآخرَ ، فألوَيت بيدي، فجاء قومٌ في سفينة فقالوا : مَن أنتَ؟ أين جَوازك؟ فأخبرتُهم، فقَعَدَ معي قومٌ وردّ قومُ السفينةَ إلى العامل ، فأخبروه . قال : ثم رجعوا إليَّ فحملوني ، فانتهيت إليهم وهم يأكلون وأنا جائعٌ ، فرمَيتُ بنفسي ، فسألَني عن الأمر ، وأنا آكلُ لا أجيبه ، فقال : هذا أعرابيّ قد ماتَ من الجوع ، ثم ركبتُ فمضيتُ فأتيتُ مرْوَ ، فحملت أمي ، ورجعتُ أريدُ العسكر ، وجاءنا موتُ الوَليد، فانصرفتُ إلى مرْو .

وقال : وأخبَرنا أبو مخنف، عن أبيه، قال: بعث قتيبةُ كثيرَ بن فلان إلى كاشغَر، فسَبى منها سَبْياً، فختم أعناقَهم مما أفاء الله على قُتيبة ، ثم رجع قتيبةُ وجاءهم موتُ الوليد .

قال : وأخبَرنا يحيى بن زَكرياء الهَمْداني عن أشياخ من أهلِ خُراسان والحَكَم بن عثمان ، قال : حدَّثني شيخٌ من أهل خُراسانَ . قال : وَغَل قتيبة حتى قرب من الصين. قال: فكَتَب إلى مَلِك الصين أن ابعثْ إلينا رجلاً من أشراف مَن مَعَكم يُخبرنا عنكم ، ونُسائله عن دِينكم . فانتخَب قتيبةُ من عسكره اثنيْ عشرَ رجلاً- وقال بعضُهم : عشرة - من أفناء القبائل ، لهم جَمال وأجْسام وألسُن وشُعور وبأس ، بعدما سأل عنهم فوَجَدهم مِن صالح مَن هم منه . فكلّمهم قتيبةُ ، وفاطَنَهم فرأى عقولاً وَجمالاً ، فأمر لهم بعُدّة حسنة من السلاح والمَتاع الجيِّد من الخَزّ والوَشْي واللينّ من البَياض والرَّقيق والنعال والعِطْر ، وحَملَهم على خيول مطهّمة تُقادُ معهم ، ودوابّ يَركَبونها . قال: وكان هُبيرة بن المَشْمَرِج الكلابيّ مفوَّهاً بسيطَ اللسان ، فقال : يا هُبيرة ، كيف أنتَ صانع؟ قال : أصلح الله الأمير! قد كُفيتَ الأدبَ وقلْ ما شئت أقلْه . وآخذ به ، قال: سِيروا على بركة الله ، وبالله التوفيق. لا تَضعوا العمائمَ عنكم حتى تقدموا البلادَ، فإذا دخلتمْ عليه فأعلموهُ أني قد حلفتُ ألّا أنصرِفَ حتى أطأ بلادَهم ، وأختِمَ ملوكَهم ، وأَجْبي خَراجَهم .

قال : فساروا ، وعليهم هبيرة بن المَشمرَج ، فلما قدموا أرسلَ إليهم مَلِكُ الصين يدعوهم ، فدَخَلوا الحمام ، ثمّ خرجوا فلبسوا ثياباً بياضاً تحتَها الغَلائل ، ثم مَسّوا الغالية ، وتدخّنوا ولبسوا النعال والأردية ، ودخلوا عليه وعندَه عظماءُ أهل مملكته ، فجلسوا ، فلم يكلمهم الملك ولا أحدٌ من جلسائه فنَهضوا ، فقال الملك لِمَن حَضَره : كيف رأيتم هؤلاء؟ قالوا: رأيْنا قوماً ما هُمْ إلّا نساء، ما بقيَ منا أحد حين رآهم ووَجَد رائحتَهم إلّا انتشَر ما عندَه .

قال : فلما كان الغد أرسَل إليهم فَلَبِسوا الوشيَ وعَمائمَ الخَزّ والمَطارِف ، وغدَوا عليه ، فلما دخلوا عليه قيل لهم : ارجِعوا، فقال لأصحابه : كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ قالوا : هذه الهيئة أشبَهُ بهيئة الرّجال من تلك

الأولى، وهم أولئك، فلما كان اليوم الثالث أرسَلَ إليهم فَشَدّوا عليهم سلاحَهم ، ولَبِسوا البَيْضَ والمَغافِرَ ، وتقلّدوا السيوف ، وأَخَذوا الرّماح ، وتنكبوا القسيّ ، وركِبوا خيولَهم ، وغَدوا فنَظَر إليهم صاحبُ الصين فرأى أمثالَ الجبال مُقْبِلة ، فلما دَنوا ركزوا رِماحَهم ، ثم أقبَلوا نحوَهم مشّمرين ، فقيل لهم قبلَ أن يدخلوا : ارجعوا ، لِمَا دَخَل قلوبَهم من خَوْفهم .

قال : فانصرفوا فَركِبوا خيولهم ، واختَلَجوا رِماحهم ، ثم دفعوا خيولَهم كأنهم يتطارَدون بها ، فقال المَلِك لأصحابه : كيف ترونهم ؟ قالوا : ما رأينا مثلَ هؤلاء قطّ ، فلما أمسَى أرسَل إليهم الملك، أن ابعَثوا إليَّ زعيمَكم وأفضَلَكم رجلاً . فبَعثوا إليه هُبَيرة ، فقال له حين دخل عليه: قد رأيتم عظيمَ مُلْكي ، وإنه ليس أحدٌ يمنَعكم مني ، وأنتم في بلادي ، وإنما أنتم بمنزلة البَيْضة في كفّي . وأنا سائلك عن أمر فإنْ لم تَصدقني قَتلْتُكم . قال: سَل ؛ قال : لِمَ صَنعتم ما صنعتم من الزيّ في اليوم الأول والثاني والثالث؟ قال : أما زِيُّنا الأوّل فلِباسنا في أهالينا وريحنا عندَهم ، وأما يومُنا الثاني فإذا أتينا أمراءَنا ، وأما اليومُ الثالث فَزِيُّنا لعدوّنا ، فإذا هاجَنا هيْج وفزع كنا هكذا . قال : ما أحسَن ما دبّرتم دَهْرَكم ! فانصرِفوا إلى صاحبكم فقولوا له : ينصرِف . فإني قد عرفتُ حِرصَه وقلة أصحابه . وإلاّ بعثتُ عليكم من يُهلِككم ويُهلِكه ، قال له : كيف يكون قليل الأصحاب مَنْ أوّل خيلِه في بلادك وآخِرها في منابت الزّيتون! وكيف يكون حَريصاً من خلّف الدنيا قادراً عليها وغَزاك ! وأما تخويفك إيانا بالقتل فإنّ لنا آجالاً إذا حَضَرْت فأكرمها القتلُ ، فلسْنا نَكرَهه ولا نَخافُه ؛ قال : فما الذي يُرضِي صاحبَك؟ قال: إنه قد حلف ألاّ ينصرف حتى يطأ أرضَكم ، ويختم ملوكَكم ، ويُعطَى الجزْيَة ، قال : فإنا نخرجه من يمينه ، نبعث إليه بتراب من ترابِ أرضِنا فيطؤه، ونَبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث إليه بجزية يرضاها . قال : فدعا بِصِحاف من ذهب فيها تُرابٌ ، وبَعث بحرير وذهب وأربعةِ غِلمان من أبناء ملوكهم . ثم أجازهم فأحسَنَ جَوائزهم ، فساروا فقدِموا بما بَعَث به ، فَقَبِلَ قتيبةُ الجزْيَة ، وختم الغِلْمة وردّهم ، ووَطِىء التراب ، فقال سوادة بنُ عبدالله السَّلُوليّ :

لا عَيبَ في الوَفْدِ الذينَ بَعَثتَهُمْ ... للصين إنْ سَلَكوا طريقَ المَنهَجِ
كسرُوا الجفونَ على القذَى خوفَ الرّدَى ... حَاشَا الكريم هُبَيرَةَ بن مُشَمرَجِ
لَم يَرضَ غيرَ الخَتْم في أعناقِهم ... ورهائِنٍ دُفِعَتْ بِحَمل سَمَرَّجِ
أَدّى رسالَتك التي استَرعَيتَهُ ... وأتاك مِن حِنثِ اليمين بمخرجِ

قال: فأوفَد قتيبةُ هبيرةَ إلى الوليد ، فمات بقرية من فارِسَ ، فرَثاه سوادَةُ . فقال :

لِلّهِ قبرُ هُبيرَة بن مُشمرَجٍ ... ماذا تَضمَّنَ من نَدًى وجَمالِ !
وبديهةٍ يَعيَا بها أبناؤها ... عند آحتفالِ مَشاهِد الأقوال
كان الربيعَ إذا السّنون تَتابَعَت ... والليثَ عند تكعكع الأبطالِ
فسَقَتْ بقربةَ حيثُ أمسى قبرُه ... غُرٌّ يَرُحنَ بمسبِلٍ هطّالِ
بكَتِ الجيادُ الصافناتَ لفَقدِه ... وبَكاه كلُّ مُثقَّفٍ عَسّالِ
وبكَتْهُ شُعْثٌ لم يجدنَ مُواسِياً ... في العام ذي السَّنَوات والإمحالِ

قال : وقال الباهليون : كان قتيبة إذا رجع من غزَاتِه كلّ سنة اشتَرَى اثنَيْ عشر فرساً من جِياد الخَيل ؛

واثني عشرَ هجيناً . لا يُجاوِز بالفرَس أربعة آلاف ، فيقام عليها إلى وقت الغزو ، فإذا تأهب للغزو وعَسكَر قيّدت وأضمِرَتْ ، فلا يَقطَع نهراً بخَيل حتى تخفّ لُحومُها ، فَيحمِل عليها من يَحمِله في الطلائع . وكان يبعث في الطلائع الفُرسان من الأشراف ، ويبعث معهم رجالاً من العَجَم ممن يَستنصِح على تلك الهُجن . وكان إذا بعث بطَليعة أمَر بلَوْح فنُقِش، ثم يشقّه شقّتين فأعطاه شقّة ، واحتبس شقة ، لئلا يمثّل مثلها ، ويأمره أن يَدفِنها في موضع يصفُهُ له من مخاضَة معروفة ، أو تحتَ شجرة معلومة ، أو خربة ، ثم يبعث بعده من يستبريها ليعلم أصادِقٌ في طليعته أم لا .

وقال ثابت قُطنة العَتَكيّ يذكر مَنْ قُتِل من ملوك الترك :

أَقَـرَّ العَينَ مقتــلُ كــازرنْــكِ ... وكَـشْـبـيــز ومـا لاقَـى يـبــادُ

وقال الكُميتُ يَذكُر غَزوة السُّغْد وخُوارزْم :

وبعــدُ في غـــزوةٍ كــانـت مُبــارَكــةً ... تَــردِي زراعــةَ أقــوامٍ وتَـحـتَـصِــدُ
نــالتْ غَمــامتُهــا فِـيــلاً بَــوابِلهَــا ... والسُّغْــد حين دنـا شؤبُــوبُهـا البَـردُ
إذ لا يــزالُ لــه نَــهــبٌ يُـنَـفِّــلهُ ... مِـنَ المقــاسِمِ لا وَخْشٌ ولا نَـكَـدُ
تلك الفُتــوحُ التي تُــدْلى بحُجَّـتِهَــا ... على الخـليفــةِ إنّــا مـعشــرٌ حُـشُــدُ
لَم تَثنِ وجهَــكَ عن قــومٍ غَــزوتَهُم ... حتى يُقــالَ لهم: بُعداً وقــد بعِــدُوا
لم تـرضَ مِن حِصنهمْ إن كان ممتَنِعاً ... حتى يُكَبِّــرَ فيــه الــواحــدُ الصَّمَــدُ

خلافة سليمان بن عبدالملك

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة بُويع سليمانُ بنُ عبدالملك بالخلافة ، وذلك في اليوم الذي تُوفّيَ فيه الوليدُ بنُ عبدِالملك ، وهو بالرَّمْلة .

وفيها عَزَل سليمانُ بنُ عبدالملك عثمانَ بن حيّان عن المدينة، ذَكَر محمد بن عمَر ، أنه نزعه عن المدينة لسبع بقين من شهر رمضان سنة ستّ وتسعين .

قال : وكان عملُه على المدينة ثلاثَ سنين . وقيل: كانت إمرتُه عليها سنتين غير سَبْعِ ليال .

قال الواقدي: وكان أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حَزْم قد استأذن عثمانَ أن ينام في غدٍ ، ولا يَجلس للناس ليقوم ليلَة إحدى وعشرين ، فأذن له . وكان أيوب بن سلمة المخزوميّ عندَه ، وكان الذي بين أيّوب بن سلمة وبين أبي بكر بن عَمرو بن حَزْم سَيّئاً ، فقال أيوب لعثمان : ألم تَر إلى ما يقول هذا؟ إنما هذا منه رِئاء ؛ فقال عثمان : قد رأيتُ ذلك ، ولستُ لأبي إن أرسلتُ إليه غُدوةً ولم أجده جالساً لأجلدنه مائة ، ولأحلقنّ رأسه ولحيته .

قال أيوب: فجاءني أمرٌ أحبه ، فَعجّلت من السحرَ ، فإذا شَمْعة في الدار، فقلتُ: عَجِل المرّيّ ، فإذا رسولُ سليمانَ قد قَدِم على أبي بكر بتأميره وعَزْلِ عثمانَ وحدَه .

قال أيوب : فدخلتُ دارَ الإمارة، فإذا ابنُ حَيّان جالس ، وإذا بأبي بكر على كرسيّ يقول للحدّاد :

اِضربْ في رِجْل هذا الحَديدَ ، ونظر إليَّ عثمانُ فقال :

آبَــوا عـلى أدبــارهم كُـشُـفــاً والأمــرُ يَحـدُثُ بعــده الأمــرُ

وفي هذه السنة عَزَل سليمانُ يزيدَ بنَ أبي مسلم عن العراق، وأمّر عليه يزيدَ بن المُهلَّب ، وجعل صالح بن عبدالرحمن على الخَراج ، وأمَره أن يَقتُل آل أبي عقيل ويَبسُط عليهم العَذاب . فحدَّثني عمرُ بن شَبّة . قال : حدَّثني علي بن محمد ، قال : قَدِم صالح العراقَ على الخَراج ، ويزيدُ على الحَرْب ، فبعث يزيد زيادَ بن المهلّب على عُمان ، وقال له : كاتبْ صالحاً ، وإذا كتبتَ إليه فابدأ باسمه . وأخذ صالح آلَ أبي عُقيل فكان يُعذبهم . وكان يلي عذابَهم عبدُالملك بن المهلّب .

وفي هذه السنة قُتِل قتيبة بنُ مسلِم بخُراسان .

ذكر الخبر عن سبب مقتله :

وكان سبب ذلك أن الوليد بن عبدالملك أراد أن يَجعل ابنَه عبدالعزيز ابن الوليد وليّ عهدِه ، ودَسّ في ذلك إلى القوّاد والشعراء ، فقال جرير في ذلك :

إذا قيــلَ أيّ النــاس خيــرُ خليفــةٍ؟ أشــارَتْ إلى عبـدِ العـزيـزِ الأصــابعُ
رَأَوْهُ أحــقَّ الــنــاس كــلِّهــم بهــا ومــا ظَلمـوا، فبــايَعــوه وسَــارَعُــوا

وقال أيضاً جرير يحضّ الوَليد على بَيعة عبدالعزيز :

إلى عبـدالعزيـز سَمَت عيـوُن الـ ـرَّعيّـــةِ إذ تَـحيَّــرَت الــرِّعــاءُ
إلــيــه دَعــتْ دَواعِــيــهِ إذا مَــا عِمَــادُ المُلكِ خَــرَّت والسَّمــاءُ
وقـال أُولو الحكـومةِ من قُـرَيشٍ عـلينــا البيــعُ إن بـلغ الغــلاءُ
رَأَوْا عبــدَ العــزيـــز وليَّ عَهْــدٍ ومــا ظلمـوا بــذاكَ ولا أَسَاؤوا
فـمــاذا تنــظرونَ بـهــا وفيـكـمْ جُسُــورٌ بــالعــظائـم واعتــلاءُ!
فــزَحلِفـهــا بــأَزْمَـلِهَـا إليــه أمـيــرَ الـمؤمـنـيـن إذا تَـشــاءُ
فــإنَّ الـنَـاسَ قــد مَــدُّوا إليــه أَكُــفَّــهُــمُ وقــد بَــرِحَ الـخـفــاءُ
ولــو قــد بَــايعــوك وَلِيَّ عهــدٍ لقــام الــوزنُ واعتــدَلَ البنــاءُ

فبايَعَه على خَلْع سليمانَ الحجاجُ بن يوسفَ وقتيبة ، ثم هلك الوليد وقامَ سليمانُ بنُ عبدالملك ، فخافه قتيبة .

قال علي بن محمد: أخبَرَنا بِشْر بن عيسى والحَسَن بنُ رشيد وكُلَيب بن خَلاَف ، عن طُفيل بن مِرْداس ، وجَبَلة بن فَرّوخ ، عن محمد بن عزيز الكِنْدي ، وجَبلَة بن أبي روّاد ومسلمة بن محارب ، عن السَّكن بن قَتادة ؛ أن قتيبةَ لما أتاه موتُ الوليد بنِ عبدالملك وقيامُ سليمانَ ، أشفَقَ من سليمانَ لأنه كان يَسعَى في بَيْعة عبدالعزيز بنِ الوليد مع الحجاج ، وخاف أن يولِّيَ سليمانُ يزيدَ بنَ المهلب خُراسان . قال : فكتب إليه كتاباً يُهنّئه بالخلافة ، ويعزّيه على الوليد ، ويُعلمه بلاءَه وطاعتَه لعبدالملك والوليد ، وأنه له على مِثل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحة إن لم يعزله عن خُراسان . وكتب إليه كتاباً آخَر يُعلِمه فيه فُتوحَه ونِكايتَه وعظمَ قَدرِه عند

مُلوكَ العَجَم ، وهيبته في صدورهم ، وعـظم صوتـه فيهم ، ويذُم المهلب وآلَ المهلَّب ، ويحلف بـالله لئن استعمل يزيدَ على خُراسان ليخلعنّه . وكتب كتاباً ثالثاً فيه خَلْعُه ، وبعث بالكُتُب الثلاثةِ مع رجل من باهِلة ، وقال له : ادفع إليه هذا الكتاب ، فإن كان يزيدُ بنُ المهلب حاضراً ، فقرأه ثم ألقاه إليه . فادفع إليه هذا الكتاب ، فإن قَرَأه وألقاه إلى يزيدَ فادفع إليه هذا الكتاب . فإن قرأ الأوّل ولم يدفعْه إلى يزيد فاحتبس الكتابَين الآخَرين .

قال : فقَدِم رسولُ قتيبةَ فدخل على سليمانَ وعندَه يزيدُ بن المهلب ، فدَفَع إليه الكتاب ، فقرأه ، ثم ألقاه إلى يزيد ، فدفع إليه كتاباً آخَر فقرأه ، ثم رَمَى به إلى يزيدَ ، فأعطاه الكتاب الثالث، فقرأه فتمعَّر لونُه ، ثم دَعَا بطِين فختمه ثم أمسكه بيده .

وأما أبو عُبيدَة مَعمَر بنُ المثنى ، فإنه قال ـ فيما حدَّثت عنه : كان في الكتاب الأوّل وَقيعة في يزيد بن المهلب، وذكرُ غدرِه وكفرِه وقلة شكرِه ، وكان في الثاني ثناء على يزيد ، وفي الثالث : لئن لم تُقرّني على ما كنتُ عليه وتؤمّنني لأخلعنك خلعَ النَّعل ، ولأملأنّها عليك خَيْلًا ورِجالاً . وقال أيضاً : لما قرأ سليمانُ الكتـابَ الثالث وضعَه بين مثالَين من المُثُل التي تحتَه ولم يُحِرْ في ذلك مرجوعاً .

رجع الحديث إلى حديث علي بن محمد. قال: ثم أمر ـ يَعني سليمان ـ برسولِ قتيبةَ أن يُنزَّل ، فحوِّل إلى دار الضيافة، فلما أمسَى دعا به سليمانَ ، فأعطاه صُرَّةً فيها دنانـير ، فقال : هـذه جائـزتُك ، وهـذا عهدُ صاحبك على خُراسان فسرْ، وهذا رسولي معك بعَهْده . قال : فخرج الباهلي ، وبعث معه سليمانُ رجلاً من عبدالقيس ، ثم أحد بني لَيْث يقال له صَعْصَعة ـ أو مُصعَب ـ فلما كان بحُلوانَ تلقّاهم الناسُ بخَلْع قُتيبة ، فرجع العبدي ، ودفع العهدَ إلى رسول قتيبة ، وقد خلع ؛ واضطرب الأمرُ ، فدفع إليه عهدَه ، فاستشار إخوتَه ، فقالوا : لا يَثِق بك سليمانُ بعدَ هذا .

قال علي: وحدّثني بعضُ العَنبريين ، عن أشياخ منهم ، أنّ تَوْبَةَ بن أبي أسيد العَنْبري ، قال : قَدِم صالح العراقَ ، فوجّهني إلى قتيبة ليُطلِعني طِلْعَ ما في يده ، فَصَحِبَني رجل من بني أسد ، فسألني عمّا خرجتُ فيه ، فكاتمتُه أمري ، فإنا لنسير إذ سَنَحَ لنا سانح ؛ فنظر إليَّ رفيقي فقال : أراك في أمر جسيم وأنت تكتمني ! فمضيتُ ، فلما كنت بحُلوان تلقاني الناسُ بقتل قتيبة .

قال علي : وذكر أبو الذيّال وكُلَيب بن خَلَف وأبو علي الجُوزجانيّ عن طُفيل بن مِرْداس ، وأبو الحسن الجَشَميّ ومصعَب بن حيّان عن أخيه مقاتِل بن حيّان ، وأبو مِخْنَف وغيرهم ، أن قتيبة لما همّ بالخَلْع استشار إخوتَه ، فقال له عبدالرحمن : اقطع بعثاً فوجِّه فيه كلّ من تخافه ، ووجِّه قوماً إلى مَرْو ، وسِرْ حتى تنـزلَ سَمَرْقَنْد ، ثم قل لمن معك : مَن أَحَبَّ المقامَ فله المواساة ، ومن أراد الانصرافَ فغيْر مستكرَه ولا مَتْبـوعٍ بسوء ، فلا يقيم معك إلاّ مناصح . وقال له عبدالله : اخلعه مكانك ، وادع الناس إلى خلعِه ، فليس يختلفُ عليك رجلان . فأخذ برأي عبدِالله ، فخلع سليمان ، ودعا الناسَ إلى خَلْعه ، فقال للناس :

إني قد جمعتكم من عين التمر وفيْض البحر فضممت الأخ إلى أخيه ، والولدَ إلى أبيه ، وقسمتُ بينكم فيئكم ، وأجرَيْت عليكم أعطياتِكم غير مكدّرة ولا مؤخَّرة ، وقد جرّبتم الوُلاة قَبلي ؛ أتاكم أمية فكتب إلى أمير المؤمنين إنّ خَراجَ خُراسانَ لا يقوم بمطبخي ، ثم جاءكم أبو سعيد فدوّم بكم ثلاثَ سنينَ لا تَدْرون أفي طاعة

أنتم أم في معصية! لم يَجْب فَيْئاً ، ولم يَنْكَأ عدوًّا ، ثمّ جاءكم بنُوه بعدَه ؛ يزيد ، فحل تبارَى إليه النساء ، وإنما خليفتُكم يزيدُ بن ثروان هَبَنَّقَةُ القَيْسيّ .

قال : فلم يُجبه أحد ، فغَضِب فقال : لا أعزّ اللّهُ من نصرْتم ، والله لو اجتمعتم على عَنْز ما كسرتم قرنها ، يا أهل السافِلة ـ ولا أقول أهلَ العالية ـ يا أوباشَ الصَّدَقة ، جمعتُكم كما تُجمَع إبلُ الصدقة من كلّ أوْب . يا مَعشرَ بكر بن وائل ، يا أهل النفخ والكذب والبُخْل ، بأيّ يومَيْكم تَفخَرون؟ بيَوم حَرْبكم ، او بيوم سلمِكم! فوالله لأنا أعزّ منكم . يا أصحاب مُسيلمة ، يا بني ذَميم ـ ولا أقول تَميم ـ يا أهل الخَوَر والقَصْف والغَدْر ، كنتم تسمّون الغَدْر في الجاهلية كَيْسان . يا أصحابَ سَجاح ، يا معشر عبدالقيس القُساة . تبدّلتم بأبْر النَّحل أعنّةَ الخيل . يا معشر الأزْد ، تبدّلتم بقُلُوسِ السفن أعنة الخيـل الحُصُنَ ؛ إن هذا لَبِـدعة في الإسلام ! والأعراب ، وما الأعراب ! لعنةُ الله على الأعراب ! يا كناسةَ المصرَيْن ، جمعتُكم من منابت الشيح والقَيْصوم ومَنابت القِلقِل، تركبون البَقَر والحُمُر في جزيرة ابنِ كاوانَ ، حتى إذا جمعتُكم كما تُجمَع قَزَع الخريف قُلتُم كَيتَ وَكَيْت! أما والله إني لابن أبيه ! وأخو أخيه ، أما والله لأعصبنّكم عَصْبَ السَّلَمة . إنّ حَوْل الصِّلِّيان الزمْزَمة. يا أهل خُراسانَ ، هل تدرون مَن وَلِيُّكم ؟ وليَكم يزيدُ بنُ ثَرْوان . كأني بأمير مزجاء ، وحَكَم قد جاءكم فَلَلَبكم على فيئكم وأظلالِكم . إن ها هنا ناراً ارْمُوها أرْم معكم ، ارمُـوا غرضكم الأقصى . قـد استُخْلف عليكم أبو نافع ذو الوَدَعات . إنّ الشام أبٌ مَبْرور ، وإن العراقَ أبٌ مكفور . حتى متى يتبطح أهلُ الشام بأفنِيَتكم وظِلَالِ دياركم! يا أهل خُراسانَ ، انسبُوني تجدوني عـراقيّ الأمّ ، عراقيّ الأب ، عـراقيّ المولد ، عراقيّ الهوَى والرأي والدين ، وقد أصبحتم اليومَ فيما تَرَون من الأمْن والعافية قـد فَتَح الله لكم البلاد ، وآمن سُبُلَكم ، فالظّعينة تخرُج من مَرْوَ إلى بَلْخَ بغير جَواز ، فاحمدوا الله على النعمة ، وسَلوه الشكرَ والمزيدَ .

قال : ثمّ نزل فدخل منزلَه ، فأتاه أهلُ بيته فقالوا : ما رأيْنا كاليوم قطّ، واللّهِ ما اقتصرتَ على أهل العالية وهم شِعارُك ودِثارُك ، حتى تناولتَ بَكراً وهم أنصارُك ، ثم لم ترض بذلك حتى تنـاولْت تميماً وهم إخوَتُك ، ثم لم ترض بذلك حتى تناولْتَ الأزْد وهم يَدُك! . فقال: لما تكلمتُ فلم يجبْني أحدٌ غضبت ، فلم أدرِ ما قلتُ ؛ إنّ أهل العالية كإبل الصَّدَقة قد جُمعَتْ من كل أوْب ، وأمّا بَكْر فإنها أمَة لا تمنَع يَد لامِس ، وأما تميم فَجمَل أجْرَب ، وأما عبدالقيس فما يضرب العير بذَنَبه ، وأما الأزْد فأعلاجٌ ، شرارُ مَنْ خَلَق الله، لو ملكتُ أمرَهم لوسمتهم .

قال : فغضب الناسُ وكَرِهوا خَلْعَ سليمان ، وغضبَت القبائلُ مِن شَتْم قتيبة ، فأجمَعوا على خلافه وَخلْعِه ، وكان أوّل من تكلم في ذلك الأزْد، فأتَوا حُضَين بن المنذر فقالوا : إنّ هذا قد دعا إلى ما دعا إليه من خَلْع الخليفة ، وفيه فسادُ الدين والدنيا ، ثمّ لم يَرضَ بذلك حتى قصّر بنا وشَتَمنا ، فما تَرَى يا أبا حفص؟ وكان يُكتَنَى في الحرب بأبي ساسان ، ويقال : كُنْيته أبو محمد ـ فقال لهم : حُضين : مُضَرُ بخُراسان تَعدل هذه الثلاثة الأخماس ؛ وتميم أكثر الخمسَيْن ، وهم فُرسانُ خُراسان ، ولا يرضَـوْن أن يصيرَ الأمـرُ في غير مُضرَ ، فـإن أخرجْتموهم من الأمر أعانوا قتيبة ؛ قالوا : إنه قد وتر بني تميم بقتل ابن الأهتم ، قال : لا تنظروا إلى هذا فإنهم يتعصَّبون للمُضَرّية ، فانصرفوا رادِّين لرأي حُضَين ، فأرادوا أن يولّوا عبدَالله بن حَوْذان الجَهْضَميّ ،

فأبى ، وتَدافَعوها ، فرجعوا إلى حُضَين ، فقالوا : قد تدافَعنا الرياسة ، فنحن نولّيك أمرَنا ، وربيعةُ لا تخالفك ، قال : لا ناقةَ لي في هذا ولا جَمَل ؛ قالوا : ما ترَى؟ قال : إن جعلتمْ هذه الرياسةَ في تميم تمّ أمرُكم ، قالوا : فمَن ترى من تميم؟ قال : ما أرى أحداً غيرَ وَكيع ، فقال حيّان مولى بني شَيبان : إنّ أحداً لا يتقلد هذا الأمْرَ فيَصْلَى بحرّه ، ويَبذل دمَه ، ويتعرّض للقتل ، فإنّ قَدِم أميرٌ أخذَه بما جَنَى وكان المهنأُ لغيره إلّا هذا الأعرابيّ وكيع ؛ فإنه مِقدام لا يُبالي ما رَكب ، ولا يَنظر في عاقبة ، وله عشيرة كثيرة تطيعه ، وهو مَوْتور يَطلبُ قتيبةَ برياسته التي صرَفَها عنه وصيّرها لضِرار بن حُصَين بن زَيْن الفَوارس بن حُصَين بن ضِرار الضَّبيّ . فمشى الناسُ بعضُهم إلى بعض سرًّا ، وقيل لقُتيبة : ليس يُفسد أمر الناس إلّا حيّان ، فأراد أن يغتالَه ـ وكان حيّانُ يلاطِف حَشَم الوُلاة فلا يُخفُون عنه شيئاً ـ قال : فدعا قتيبةُ رجلاً فأمرَه بقَتْل حيّان ، وسمِعه بعضُ الخدم ، فأتى حيّان فأخبَره ، فأرسل إليه يدعُوه ، فحذِر وتمارَض ، وأتى الناسُ وكيعاً فسألوه أن يقوم بأمرِهم ؛ فقال : نعم ، وتمثّل قولَ الأشْهَب بن رُمَيلة :

سأجني ما جَنَيت وإنَّ رُكْني ... لمعتَمِدٌ إلى نَضَدٍ رَكينِ

قال : وبخُراسانَ يومَئذ مِن المقاتِلة من أهل البَصْرة من أهل العالية تِسعة آلاف ، وبَكر سبعة آلاف ، رئيسُهم الحُضَين بن المنذر ، وتميم عشرة آلاف عليهم ضِرار بنُ حُصَين الضَّبيّ ، وعبدالقيس أربعة آلاف عليهم عبدالله بن عُلْوان عوذيّ ، والأزْد عشرة آلاف رأسُهم عبدُالله بن حوذان ، ومن أهل الكوفة سبعة آلاف عليهم جَهْم بن زَحْر ـ أو عبيدالله بن علي ـ والموالي سبعة آلاف عليهم حيّان ـ وحيّان يقال إنه من الدّيلم ، ويقال : إنه من خراسان ، وإنما قيل له نبطيّ للكنته ـ فأرسل حيّان إلى وكيع : أرأيتَ إنْ كففتُ عنكَ وأعنْتُك تجعَل لي جانبَ نهرِ بَلْخ وَخراجَه ما دمتَ حيًّا ، وما دمتُ والياً؟ قال : نعم ؛ فقال للعَجَم : هؤلاء يقاتلون على غير دين ، فدَعُوهم يقتُل بعضُهم بعضاً ؛ قالوا : نعم ، فبايَعوا وَكيعاً سرًّا ، فأتى ضِرارُ بن حُصَين قُتيبة ، فقال : إنّ الناسَ يختلفون إلى وكيع ، وهم يُبايعونه ـ وكان وكيع يأتي منزلَ عبدِالله بن مسلم الفقير فيَشرَب عنده ـ فقال عبدالله : هذا يَحسُد وَكيعاً ، وهذا الأمرُ باطل ، هذا وكيع في بيتي يَشرَب ويَسكَر ويَسلَح في ثِيابه ؛ وهذا يَزْعم أنهم يبايعونه . قال : وجاء وكيع إلى قتيبةَ فقال : احذَرْ ضِرَاراً فإني لا آمَنُه عليك ، فأنزل قتيبةُ ذلك منهما على التحاسد . وتمارَض وَكيع . ثمّ إنّ قتيبةَ دسّ ضِرَارَ بنَ سِنان الضَّبيّ إلى وكيع فبايَعَه سرّاً ، فتبينّ لقُتيبة أنّ الناس يبايعونه ، فقال لضرار : قد كنتَ صَدَقْتني ، قال : إني لم أخبِرْك إلّا بعلم ، فأنزلتَ ذلك مني على الحَسَد ، وقد قضيتُ الذي كان عليَّ ، قال : صدقتَ . وأرسَل قتيبةُ إلى وَكيع يَدْعوه فوَجَده رسولُ قُتيبة قد طَلَى على رِجْله مَغْرة ، وعلى ساقه خَرَزاً وودَعاً ، وعنده رجلان من زَهران يَرقيان رِجْلَه ، فقال له : أجب الأميرَ ، قال : قد تَرَى ما بِرجلي . فرجع الرسولُ إلى قتيبةَ فأعاده إليه ، قال : يقول لك : ائتني محمولاً على سَرير ، قال : لا أستطيع . قال قتيبة لشريك بن الصّامت الباهلي أحد بني وائل ـ وكان على شرطته ـ ورجلٌ من غنيّ انطلِقا إلى وَكِيع فأتِياني به . فإنْ أبى فاضرِبا عنقَه ؛ ووجَّه معهما خيلاً ، ويقال : كان على شُرَطه بخُراسان وَرْقاءُ بنُ نَصْر الباهلي .

قال علي : قال أبو الذيّال : قال ثُمامة بن ناجذ العَدَوّي : أرسل قتيبةُ إلى وكيع مَنْ يأتيه به ، فقلت : أنا

آتيك به أصلحَك الله! فقال : ائتني به ، فأتيتُ وَكيعاً ـ وقد سَبَقَ إليه الخبر أنّ الخيل تأتيه ـ فلما رآني قال : يا ثُمامة ، نادِ في الناس ؛ فناديتُ ، فكان أوّل من أتاه هُرَيْم بن أبي طَحْمَةَ في ثمانية .

قال : وقال الحسن بن رَشِيد الجُوزَجانيّ : أرسَل قتيبةُ إلى وكيع . فقال هُرَيم : أنا آتِيك به ، قال : فانطلق . قال هُرَيم : فركبتُ بِرْذَوني مخافةَ أن يردّني ، فأتيتُ وكيعاً وقد خرج .

قال : وقال كُليبَ بن خَلَف : أرسل قتيبةُ إلى وكيع شُعبةَ بنَ ظهير أحد بني صَخْر بن نَهشَل ، فأتاه ، فقال : يا بنَ ظهير :

لبِّث قليلاً تلحَقَ الكتائب

ثم دعا بسكين فقطع خَرَزاً كان على رِجْليه ، ثمّ لَبِس سلاحَه ، وتمثل :

شُدُّوا عليَّ سُرَّتي لا تَنْقَلِف　　يومٌ لهَمْدانَ ويومٌ للصَّدِفْ

وخرج وحدَه ، ونظر إليه نسوةٌ فقُلن : أبو مطرّف وحدَه ؛ فجاء هُريم بن أبي طَحْمة في ثمانية ، فيهم عميرة البَريد بن رَبيعة العُجَيفي .

قال حمزة بن إبراهيم وغيرُه : إن وَكيعاً خرج فتلقّاه رجلٌ ، فقال : ممن أنت؟ قال : من بني أَسَد ؛ قال : ما اسمُك؟ قال : ضِرْغامة ؛ قال : ابنُ مَن ؟ قال : ابن لَيْث ، قال : دونَك هذه الراية .

قال المفضَّل بن محمد الضَّبي : ودَفَع وكيع رايتَه إلى عُقبة بن شهاب المازنيّ : قال : ثم رجع إلى حديثهم ، قالوا : فخرج وكيع وأمر غلمانَه ، فقال : اذهَبوا بثَقَلي إلى بني العمّ ، فقالوا : لا نَعرف موضعهم ، قال : انظروا رُمْحين مجموعين أحدُهما فوقَ الآخَر ، فوقَها مِخْلاة ، فهمْ بنو العمّ . قال : وكان في العسكر منهم خمسمائة ؛ قال : فنادَى وَكيع في الناس ، فأقبَلوا أَرْسالاً من كلّ وجه ، فأقبلَ في الناس يقول :

قَرْمٌ إذا حُمِّلَ مَكْروهَةً　　شَدَّ الشَّراسِيفَ لها والحَزِيمْ

وقال قومٌ : تمثّل وَكيعُ حينَ خرج :

أنخُنُ بلُقْمانَ بنِ عادٍ فَجُسْنَهُ　　أَرِيني سلاحي لن يَطيروا بأَعزَلِ

واجتمع إلى قتيبةَ أهلُ بيته ، وخواصّ من أصحابه وثقاته ، فيهم إياس بن بَيْهس بن عَمرو ، ابن عمّ قتيبة دُنْيا ، وعبدالله بن وَألان العدويّ ، وناسٌ من رهْطِه ، بني وائل . وأتاه حيّان بن إياس العدويّ في عشرة ، فيهم عبدُ العزيز بن الحارث ، قال : وأتاه مَيْسرة الجدليّ ـ وكان شجاعاً ـ فقال : إن شئتَ أتيتُك برأسِ وكيع ، فقال : قفْ مكانَك . وأمر قتيبةُ رجلاً ، فقال : نادِ في الناس ، أين بنو عامر؟ فنادَى : أين بنو عامر؟ فقال محفن بن جَزْء الكلابيّ ـ وقد كان جَفاهم : حَيْث وَضَعْتَهُم ؛ قال : نادِ أذكِّركم اللّهَ والرَّحِم ! فنادَى محفن : أنتَ قطعتَها ، قال : نادِ لكُم العُتْبى ، فناداه محفن أو غيره : لا أقالَنا اللّهُ إذاً ، فقال قتيبة :

يا نَفْسِ صبراً على ما كان من ألمٍ　　إذْ لم أجد لفُضول القوم أَقْرانَا

ودعا بعمامة كانت أمّه بعثتْ بها إليه ، فاعتمّ بها ، كان يعتّم بها في الشدائد ، ودعا ببِرْذَوْن له مدرّب ، كان يتطيّر إليه في الزّحوف ، فقرِّب إليه ليَركَبه ، فجعل يقمِص حتى أعياه ، فلما رأى ذلك عاد إلى سَريره فقَعَدَ

عليه وقال: دَعُوه ؛ فإنّ هذا أمرٌ يُراد . وجاء حيّان النَّبطيّ في العَجَم ، فوقف وقُتيبة واجدٌ عليه ، فَوَقَف معه عبدُالله بنُ مسلم ، فقال عبدُالله لحيّان: احمل على هذين الطَّرَفين ، قال : لم يأنِ لذلك ، فَغَضِبَ عبدُالله ، وقال : نَاوِلْني قَوْسي ، قال حيّان : ليس هذا يوم قوس ، فأرسَلَ وكيع إلى حيّان : أين ما وعدتَني؟ فقال حيّانُ لابنه : إذا رأيتَني قد حوّلتُ قَلَنْسُوَتي ، ومضيتُ نحوَ عسكرِ وكيع ، فمِلْ بمن معك في العَجَم إليَّ . فوَقَف ابنُ حيّان مع العَجَم ، فلما حوّل حيّان قَلَنْسُوَته مالت الأعجام إلى عسكرِ وكيع ، فكبّر أصحابُه . وبعث قتيبةُ أخاه صالحاً إلى الناس فرماه رجلٌ من بني ضَبّة يقال له سليمان الزنجيرج ـ وهو الخُرْنُوب ، ويقال : بل رماه رجل من بَلْعَمّ فأصاب هامَتَه ـ فحمِل إلى قتيبةَ ورأسهُ مائل ، فوُضع في مُصَلّاه ، فتحوّل قتيبةُ فجلس عنده ساعة ، ثم تحوّل إلى سَريره .

قال : وقال أبو السري الأزْدِيّ : رمى صالحاً رجلٌ من بني ضَبّة فأثقله ، وطعَنَه زياد بنُ عبدالرحمن الأزديّ ، من بني شريك بن مالك .

قال : وقال أبو مخنَف : حَمَل رجلٌ من غنيّ على الناس فرأى رجلاً مجفّفاً فشبّهه بِجَهْم بن زُحَر بن قيس فطَعَنه ، وقال :

إنَّ غَـنِـيًّـا أهـلُ عِـزٍّ وَمَـصـدَقِ ... إذا حـارَبـوا والـنـاسُ مُفْتَتِنُـونَـا

فإذا الذي طُعِنَ عِلْج . وتَهايَج الناسُ ، وأقبل عبدُالرحمن بنُ مسلم نحوَهم ، فرماه أهلُ السوق والغَوْغاء ، فقَتَلوه ، وأحرقَ الناسُ موضعاً كانت فيه إبلٌ لقتيبة ودوابّه ، ودَنوا منه ، فقاتَلَ عنه رجلٌ من باهِلةَ من بني وائل ، فقال له قتيبةُ : انْجُ بنَفْسك ، فقال له : بئس ما جزيتُك إذاً، وقد أطعمتني الجَرْدَق وألبسْتَني النُّرمق!

قال : فدعا قتيبةُ بدابّة، فأُتِيَ بِبِرْذَوْن فلم يقرّ ليركبه ، فقال : إنّ له لشأناً ؛ فلم يركبْه . وجلسَ وجاءَ الناسُ حتى بلغوا الفُسْطاط ، فخرج إياسُ بنُ بَيْهَس وعبدُالله بن وَألان حين بلغ الناس الفُسْطاط وتركا قُتيبة . وخرج عبدُالعزيز بن الحارث يطلب ابنَه عَمْراً ـ أو عُمَر ـ فلقِيَه الطائيّ فَحَذِرَه ، ووجد ابنَه فأرْدَفَه . قال : وفَطِن قتيبةُ للهَيْثم بن المنخّل وكان ممن يعين عليه ، فقال :

أُعَلِّمُـهُ الـرِّمَـايَـةَ كـلَّ يَـومٍ ... فَلَمَّـا آشتـدَّ سـاعِـدُهُ رَمـانِي

قال : وقتِل معه إخوته عبد الرحمن وعبدالله وصالح وحصين وعبد الكريم ، بنومسلم وقتل ابنه كثير بنُ قُتيبة وناسٌ من أهل بيته ، ونجا أخوه ضِرارٍ ، استنقَذَه أخوالُه ، وأمّه غرّاء بنت ضِرار بن القَعْقَاع بن مَعبَد بن زُرارة . وقال قوم : قُتِل عبدُ الكريم بن مسلم بقَزْوِين . وقال أبو عبيدة : قال أبو مالك : قَتَلوا قتيبةَ سنة ست وتسعين ، وقتِل من بني مسلم أحد عشر جلاً ، فصَلَبهم وكيع ، سبعة منهم لصُلب مسلم وأربعةٌ من بني أبنائهم : قتيبةُ ، وعبد الرحمن ، وعبدالله الفَقِير ، وعبيدالله ، وصالح ، وبَشّار ، ومحمّد بَنُو مسلم . وكثير بن قتيبة ، ومغلّس بن عبد الرّحمن ، ولم يَنجُ من صُلب مسلم غيرُ عمروـ وكان عامل الجوجان ـ وضِرار ، وكانت أمه الغَرّاء بنت ضِرار بن القَعْقاع بن مَعبد بن زُرَارة ، فجاء أخوالُه فدفَعوه حتى نحّوه ، ففي ذلك يقول الفرزدق :

عَـشِيَّـةَ مـا وَدَّ ابـنُ غَـرَّةَ أنَّـهُ ... لـه من سِوَانـا إذ دعـا أَبَـوانِ

وضُرب إياس بن عمرو ـ ابن أخي مُسلِم بن عمرو ـ على ترقُوَته فعاش . قال : ولما غشيَ القومُ الفُسْطاط قطعوا أطنابَه . قال زهير : فقال جَهْم ابن زَحْر لسعد : انزِل ، فحزّ رأسَه ، وقد أثخِن جراحاً ، فقال : أخاف أن تَجُولَ الخيلُ، قال: تخاف وأنا إلى جَنْبك! فنزل سعد فشَق صَوْقَعَةَ الفُسطاط؛ فاحتزّ رأسَه، فقال حُضَيْن بن المنذر:

وإنَّ ابـن سَعـد وابـن زَحْـرٍ تَعَـاوَرَا ... بسيفَيـهـما رَأسَ الهُـمَـام المُتَـوَّجِ

عَـشيَّـة جئنَـا بـابن زَحْـرٍ وجئتـمُ ... بـأدغَمَ مَرقُـوم الـذراعَـين دَيـزَجِ

أَصَـمَّ غُـدَانيٍّ كَـأَنَّ جـبـيـنَـه ... لـطاخـةُ نِقْسٍ في أَدِيمٍ مُمَجمَـجِ

قال : فلما قتل مسلمةُ يزيدَ بن المهلب استعمل على خُراسـان سعيدُ بن خُـذَينَة بن عبـدالعزيـز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص ، فحبس عمال يزيدَ ، وحبَس فيهم جَهم بن زَحْر الجُعْفي ، وعلى عذابه رجلٌ من باهِلةَ ، فقيل له : هذا قاتلُ قتيبةَ ، فقتَلَه في العذاب ، فلامه سعيدٌ ، فقال : أمرْتَني أن أستخرِج منه المالَ فعذّبته فأتى عليَّ أجَلُه .

قال : وسقطتْ على قتيبةَ يومَ قُتِل جاريةٌ له خُوارزميّة ، فلما قُتل خرجتْ ، فأخَذَها بعد ذلك يزيدُ بن المهلب ، فهي أمّ خُلَيدة .

قال علي : قال حمزة بن إبراهيم وأبو اليَقظان : لما قُتِل قتيبةُ صَعِد عُمارة بن جنية الرياحيّ المنبرَ فتكلم فأكثر ، فقال له وكيع : دعْنا من قَذَرك وهَذَرك ، ثمّ تكلّم وكيع فقال : مَثلي ومَثَلُ قُتيبةَ كما قال الأوّل :

من يَنِكِ العَيْرَ يَنِكْ نيَّاكا

أراد قتيبةُ أن يقتلَني وأنا قَتّال .

قَـد جَـرَّبـوني ثمّ جـرَّبـوني ... مِـن غـلوتَـيْنِ ومِـن المِئـينِ

حـتّى إذا شِبـتُ وشيَّـبـوني ... خـلُّوا عِنَـاني وتَـنَـكَّـبُـوني

أنا أبو مطرِّف .

قال : وأخبرَنا أبو معاوية ، عن طلحة بن إياس ، قال : قال وكيع يوم قتِل قتَيْبة :

أنـا ابن خِنْـدِفَ تَـنْمِيني قَبَـائِلُهَـا ... لـلصـالحـات وَعمِّـى قيسُ عَيـلاَنـا

ثم أخذ بلِحْيته ثمّ قال :

شَـيـخٌ إذا حُمّـل مَـكْـرُوهَـةً ... شَـدَّ الشـراسِيفَ لهـا والحَـزِيمْ

والله لأقتلَنّ ، ثم لأقتلنّ ، ولأصلبنّ ، ثم لأصلبنّ ؛ إني والغٌ دماً ، إن مَرْزُبانكم هذا ابنُ الزانية قد أغلَى عليكم أسعارَكم ، والله ليصيِّرنّ القفيزُ في السوق غداً بأربعة أو لأصلّبنه ، صَلّوا على نبيِّكم . ثمّ نزل .

قال علي: وأخبَرنا المفضّل بن محمد وشيخٌ من بني تميم ، ومسْلمة بن محارب ، قالوا : طلب وكيع رأسَ قُتيبة وخاتمَه ، فقيل له : إنّ الأزْد أخذتْه ، فخرج وكيع وهو يقول : دُهْ دُرِّين ، سَعدُ القَين :

في أيِّ يـومَـيَّ مِـنَ المَـوتِ أَفِـرّ ... أيـومَ لم يُـقْـدَر أمْ يـومَ قُـدِرْ

لا خـيرَ في أحـزمِ جُـيَّـاد القَـرَعْ في أيِّ يـومٍ لم أرغْ ولم أُرَغْ

والله الذي لا إله غيرُه لا أبرَح حتى أوتى بالرأس ، أو يُذْهَب برأسي مع رأس قتيبة . وجاء بخَشَب فقال : إن هذه الخيل لا بد لها من فُرْسان ـ يتهدَّدُ بالصَّلْب ـ فقال له حُضَين : يا أبا مطرّف ، تؤتى به فاسكن . وأتى حضينٌ الأزدَ فقال : أحمْقَى أنتم ! بايَعْناه وأعطَيْناه المقَادة ، وعرض نفسَه ، ثم تأخذون الرأسَ! أخرجوه لعَنه الله من رأس! فجاؤوا بالرأس فقالوا : يا أبا مطرّف ، إن هذا هو احتزّه ، فاشكمْه ؛ قال : نعم ، فأعطاه ثلاثةَ آلاف ، وبعث بالرّأس مع سَليط بنِ عبدالكريم الحَنَفيّ ورجال من القبائل وعليهم سليط ، ولم يَبعث من بني تميم أحداً .

قال : قال أبو الذيّال : كان فيما ذهب بالرأس أنَيف بن حسان أحد بني عديّ .

قال أبو مخنَف : وفىَ وكيع لحيَّان النَّبطي بما كان أعطاه . قال : قال خُريم بن أبي يحيى ، عن أشياخ من قيس ، قالوا : قال سليمان للهُذيلي بن زُفَر حين وُضع رأسُ قتيبة ، رؤوسُ أهل بيته بين يديه : هل ساءك هذا يا هُذيل ؟ قال : لو ساءني ساء قوماً كثيراً ؛ فكلّمه خُرَيم بن عَمرو والقَعْقاع بن خُليد ، فقال : ائذَن في دَفْن رؤوسهم ، قال : نعم ، وما أردت هذا كله .

قال علي : قال أبو عبدالله السلميّ ، عن يزيدَ بن سُوَيد ، قال : قال رجلٌ من عَجَم أهلِ خُراسان : يا معشر العَرَب ، قَتَلتم قتيبةَ ، واللهِ لو كان قتيبةُ منا فماتَ فينا جَعَلْناه في تابوت فكُنّا نستفتح به إذا غزَوْنا ، وما صنع أحد قطّ بخُراسانَ ما صنع قتيبة ، إلّا أنه قد غدَرَ ، وذلك أن الحجاج كتب إليه أن اختلهم واقتلْهم في الله .

قال : وقال الحسن بنُ رشيد : قال الإصْبهبَذ لرَجُل : يا معشر العَرَب ، قَتلتم قتيبةَ ويزيدَ وهما سيّدَا العرب ! قال : فأيّهما كان أعظم عندكم وأهيَب ؟ قال : لو كان قتيبة بالمغرب بأقصى جُحْرٍ به في الأرض مكبَّلاً بالحديد ، ويزيد معنا في بلادنا والٍ علينا لكان قتيبةُ أهيَب في صدورنا وأعظم من يزيد .

قال علي : قال المفضّل بنُ محمد الضّبيّ جاء رجل إلى قتيبةَ يومَ قُتِل وهو جالس ، فقال : اليوم يُقتَل ملك العَرَب ـ وكان قتيبةُ عندهم مَلِكَ العرب ـ فقال له : اجلِس .

قال : وقال كُلَيب بن خَلَف : حدَّثني رجل ممن كان مع وكيع حين قُتل قتيبة ، قال : أمر وكيعٌ رجُلاً فنادَى : لا يُسلَبنَّ قتيل ، فمرّ ابنُ عبيد الهَجَريّ على أبي الحجر الباهليّ فسَلَبه ، فبَلَغ وكيعاً فضرَب عنقَه .

قال أبو عبيدة : قال عبدالله بن عمَر ، من تَيْم اللات : رَكِب وكيع ذاتَ يوم ، فأتَوْه بسَكرانَ ، فأمر به فقُتل ، فقيل له : ليس عليه القَتْل ، إنما عليه الحَدّ ، قال : لا أعاقِب بالسياط ، ولكنّي أعاقِب بالسيف ، فقال نَهار بن تَوسِعة :

وكـنـا نُـبَـكّي مِـنَ الـبَـاهِـليِّ فـهـذا الـغُـدَانِـيُّ شَـرٌّ وَشَـرّْ

وقال أيضاً :

ولـمـا رأَيـنـا الـبَـاهِلِيَّ ابنَ مسلمٍ تـجَـبّـر عَـمَّمْـنـاه عَضْبـاً مُـهَـنَّـدا

وقال الفرزْدَق يَذكُر وقعةَ وكيع :

وَمِنّا الذي سلّ السيوفَ وَشَامَهَا عشيّةَ باب القَصر مِن فَرَغانِ
عشيّةَ لم تمنع بَنيهَا قَبيلةٌ بعزٍّ عِراقيّ ولا بِيَمَانِ
عشيّةَ ما وَدَّ ابنُ غَرّاءَ أنه له من سِوَانا إذ دعا أبوانِ
عَشيّة لم تَسترْ هَوازنُ عامرٌ ولا غطَفانٌ عورَةَ ابنِ دُخانِ
عشيَّةَ وَدَّ الناسُ أنهم لنا عَبيدٌ إذِ الجمعان يَضطَرِبانِ
رأوا جَبلاً يَعلُو الجبالَ إذا التقتْ رُؤوسُ كَبيرَيْهِنَّ يَنتَطِحَانِ
رِجالٌ على الإسلامِ إذْ مَا تَجَالَدُوا على الدينِ حتّى شَاعَ كلَّ مكانِ
وحتى دعا في سُورِ كلِّ مَدِينةٍ مُنادٍ ينادِي فوقَها بأَذَانِ
فيُجزَى وكيع بالجماعة إذْ دعا إليها بسيفٍ صارمٍ وبَنانِ
جزاءً بأعمالِ الرجالِ كما جَرى ببَدرٍ وباليَرمُوك فيءَ جَنَانِ

وقال الفرزدق في ذلك أيضاً :

أتاني وَرَحْلي بالمدينةِ وقعةٌ لآلِ تميمٍ أقعدت كلَّ قائمِ

وقال علي: أخبرَنا خُرَيم بن أبي يحيى ، عن بعض عمومته قال : أخبرَني شيوخ من غسان قالوا : إنا لَبِثنيَّة العُقاب إذ نحن برجل يشبه الفُيُوج معه عصاً وجِراب ، قلنا : من أين أقبلتَ؟ قال : مِن خُراسان ؛ قلنا : فهل كان بها من خبَر؟ قال : نعم ، قُتل قتيبةُ بن مسلم أمْس ، فتعجَّبْنا لقوله ، فلما رأى إنكارَنا ذلك قال : أين تَرَونَني الليلةَ من إفريقيّة ؟ ومضى واتبعناه على خيولنا ، فإذا شيء يَسبِق الطَّرْف . وقال الطرمّاح :

لولا فوارسُ مَذْحِجَ ابنةَ مذحجٍ والأزدِ زُعزِعَ واستبيح العسكرُ
وتَقطَّعَتْ بهم البلادُ ولم يَؤُبْ منهمْ إلى أهل العراقِ مُخبِّرُ
واسْتضلَعَتْ عُقَد الجماعة وازدرى أمرُ الخليفةِ واستُحِلَّ المنكرُ
قومٌ هُمُ قَتَلوا قُتيبةَ عَنْوَةً والخيلُ جانحةٌ عليها العِثْيَرُ
بالمَرج مرج الصِّينِ حيثُ تَبَيّنت مُضَرُ العراق مَنِ الأعَزُّ الأكبرُ!
إذْ حَالَفَت جَزَعاً ربيعةُ كلها وتفرَّقَتْ مُضَرٌ ومَن يَتَمَضَّرُ
وتَقدَّمَتْ أزدُ العِرَاق ومذحِجٌ للموتِ يَجمعُهَا أبوها الأكبرُ
قَحطانُ تضرب رأس كلِّ مدجَّجٍ تحمِي بصائرَهُنَّ إذ لا تبصرُ
والأزدُ تعلمُ أنَّ تحتَ لوائها مُلكاً قُرَاسِيَةً ومَوتُ أحمرُ
فبِعِزِّنا نُصِرَ النبيُّ محمّدٌ وبنا تثبّتَ في دمشقَ المنبرُ

وقال عبدالرحمن بن جُمانةَ الباهلي :

كأَنَّ أبا حفصٍ قتيبةَ لم يَسِرْ بجيشٍ إلى جيشٍ ولم يَعلُ مِنبرَا
ولم تَخفِقِ الرَّاياتُ والقومُ حَوْلَه وقوفٌ ولم يَشْهَدْ له الناسُ عسكرَا
دَعَتْهُ المنايا فاستجاب لربِّه وراحَ إلى الجنّاتِ عَفًّا مُطَهَّرَا
فما رُزِىءَ الإسلامُ بعدَ محمّدٍ بمثلِ أبي حَفْص فَبَكّيهِ عَبْهَرا

- يعني أمَّ ولَد له .

وقال الأصم بنُ الحجَّاج يَرثي قتيبة :

أَلَمْ يَـأْنِ لـلأَحْيَـاءِ أن يَعـرفـوا لنـا ... بـلى نحنُ أولَى الناسِ بـالمَجْدِ والفخـرِ
نَـقُـودُ تميـماً والمـوالِي ومَـذْحِـجـاً ... وَأَزْدَ وعـبـدالقَيْسِ والحيَّ من بكـرِ
نـقَـتِّـل مَـن شئـنـا بـعِـزَّةِ مُـلكـنَـا ... وَنَجْبُرُ مَنْ شئنا على الخسف والقَسْرِ
سُليمان كم مِن عسكرٍ قـد حَوَت لكمْ ... أسِـنَّتُـنَـا والمُقْـرَبَـاتُ بـنـا تجـري
وكم من حصـون قـد أَبَحْنَـا منيعـةٍ ... ومـن بلدٍ سَهْـلٍ ومن جبـلٍ وعْـرِ
ومن بلدةٍ لم يغْـزُهـا النـاسُ قَبْلَنَـا ... غَـزَونـا نَقُودُ الخَيلَ شهـراً إلى شهـرِ
مـرَنَّ عـلى الغـزو الجـرور ووُقِّـرتْ ... عـلى النَّفْـرِ حتى مـا تُهالُ من النَّفْـرِ
وحتى لـو ان النـارَ شُبَّتْ وأكـرِهَـتْ ... على النارِ خاضَتْ في الوغى لَهَبَ الجمرِ
تَـلاَعِـبُ أطـرافَ الأسِنـةِ والـقـنـا ... بـلَبَّـاتِهَـا والمـوت في لجـج خضْرِ
بهـنَّ أبـحْـنَـا أهـلَ كـلِّ مـدينـةٍ ... من الشـرك حتى جاوزتْ مطلع الفجرِ
ولـو لم تُـعَجِّـلنـا المنـايـا لجـاوزتْ ... بنارَ دَمَ ذِي القرنينْ ذا الصَّخْرِ والقَـطْرِ
ولـكـنَّ آجـالاً قُـضِـينَ ومُـدَّةً ... تَنـاهَى إليها الـطَّيِّبُـونَ بنـو عَمـرو

وفي هذه السنة عَزَل سليمانُ بنُ عبدالملك خالدَ بنَ عبدالله القَسريّ عن مكّة ، وولّاها طَلْحة بنَ داودَ الحَضْرَميّ .

وفيها غزا مَسلَمة بن عبدالملك أرضَ الرّوم الصائفةَ ، ففتح حِصْناً يقال له حِصْن عَوْف .

وفي هذه السنة تُوُفِّيَ قرّة بن شريك العَبْسيّ وهو أميرُ مصرَ في صفر في قول بعض أهل السِّيَر .

وقال بعضهم : كان هلاكُ قرّة في حياة الوليد في سنة خمس وتسعين في الشهر الذي هلك فيه الحجّاج .

وحجّ بالناس في هذه السنة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حَزْم الأنصاريّ ، كذلك حدّثني أحمد بن ثابت عمّن ذَكَرَه ، عن إسحاقَ بن عيسى ، عن أبي معشر . وكذلك قال الواقدي وغيرُه .

وكان الأميرُ على المدينة في هذه السنة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حَزْم ، وعلى مكة عبدُالعزيز بن عبدالله بن خالد بن أسيد ، وعلى حرب العِراق وصلاتها يزيد بن المهلّب ، وعلى خَراجها صالح بن عبدالرحمن . وعلى البَصرة سُفْيان بن عبدالله الكِنْدي مِن قِبَل يزيد بن المهلّب ، وعلى قضاء البَصْرة عبدالرحمن بن أذينة ، وعلى قضاء الكوفة أبو بكر بن أبي موسى ، وعلى حَرْب خُراسانَ وكيعُ بن أبي سُود .

ثم دخلت سنة سبع وتسعين

ذكر الخبر عما كان في هذه السنة الأحداث

فمن ذلك ما كان من تجهيز سليمان بن عبدالملك الجيوشَ إلى القُسْطنطينيّة واستعمالِه ابنَه داودَ بن سليمان على الصائفة ، فافتتح حصنَ المرأة .

وفيها غزا ـ فيما ذَكَر الواقدي ـ مسلمةُ بنُ عبدالملك أرضَ الرّوم ، ففتح الحِصْن الذي كان فَتحه الوضّاح صاحب الوضّاحيّة .

وفيها غزا عمر بنُ هُبيرة الفَزاريّ في البحر أرضَ الرّوم ، فشتا بها .

وفيها قُتِل عبدالعزيز بن موسى بن نُصَير بالأندلس ؛ وقدِم برأسه على سليمانَ حبيبُ بن أبي عُبيد الفِهْري .

وفيها ولّى سليمانُ بنُ عبدالملك يزيدَ بنَ المهلّب خُراسان .

ذكر الخبر عن سبب ولايته خراسان :

وكان السبب في ذلك أنّ سليمان بنَ عبدالملك لما أفضَت الخلافةُ إليه ولى يزيدَ بن المهلّب حربَ العراق والصّلاة وخرَاجها .

فذَكَر هشام بنُ محمد ، عن أبي مخنَف ، أنّ يزيدَ نظر لمّا ولاّه سليمانُ ما ولاّه من أمر العراق في أمر نفسِه ، فقال : إنّ العراقَ قد أخر بها الحجاجُ ، وأنا اليومَ رجاءُ أهل العراق ؛ ومتى قدمتُها وأخذتُ الناسَ بالخَراج وعذّبتُهم عليه صرتُ مِثلَ الحجّاج أدْخل على الناس الحربَ ، وأعيدُ عليهم تلك السجون التي قد عافاهم الله منها ، ومتى لم آتِ سليمانَ بمثلِ ما جاء به الحجّاج لم يقبَل مني . فأتى يزيدُ سليمانَ فقال : أدلّك على رجل بصير بالخَرَاج توليه إياه ، فتكونَ أنت تأخذُه به؟ صالح بن عبدالرّحمن ، مولى بني تميم . فقال له : قد قبلنا رأيك ، فأقبلَ يزيدُ إلى العراق .

وحدثني عمرُ بنُ شبّة ، قال : قال علي: كان صالح قَدِم العراق قبل قُدوم يزيد ، فنزل واسطاً . قال علي: فقال عباد بن أيوب : لما قدم يزيد خرجَ الناسُ يتلقّونه ، فقيل لصالح : هذا يزيد ، وقد خرج الناس يتلقّونه ، فلم يخرج حتى قَرُب يزيد من المدينة ، فخرج صالحٌ ، عليه دُرّاعة ودبوسيّة صفراء صغيرة ، بين يديه أربعمائة من أهل الشام ، فلقي يزيدَ فسايرَه ، فلما دخل المدينةَ قال له صالح : قد فرّغت لكَ هذه الدار ـ فأشار له إلى دار ـ فنزل يزيد ، ومضى صالح إلى منزله . قال : وضيّق صالحُ على يزيدَ فلم يملّكه شيئاً ، واتّخذ

يزيدُ ألف خوان يُطعم الناسَ عليها ، فأخذها صالح ، فقال له يزيد : اكتبْ ثمنَها عليَّ ، واشتري مَتاعاً كثيراً ، وصكّ صِكاكاً إلى صالح لباعَتِها منه ، فلم يُنفِذه ، فرجعوا إلى يزيدَ ، فغضب وقال : هذا عَمَلي بنفسي ، فلم يَلبث أن جاء صالحٌ ، فأوْسَع له يزيد ، فجلس وقال ليزيد : ما هذه الصِّكاك؟ الخَراجُ لا يقوم لها ، قد أنفذتُ لك منذ أيام صَكًّا بمائةِ ألف ، وعَجلت لك أرزاقَك ، وسألتَ مالاً للجُند ، فأعطيتُك ، فهذا لا يقوم له شيء ، ولا يَرضَى أميرُ المؤمنين به ؛ وتؤخذ به ! فقال له يزيد : يا أبا الوليد ، أجزْ هذه الصِّكاك هذه المرة ، وضاحَكَه . قال : فإني أجيزُها ، فلا تُكثِرنّ عليَّ ، قال : لا .

قال علي بنُ محمد : حدَّثنا مَسلَمة بن مُحارِب وأبو العَلاء التَّيْميّ والطفيل بن مِرْداس العميّ وأبو حفص الأزْديّ عمّن حدّثه عن جَهْم ابن زَحْر بن قيس، والحسن بن رشيد عن سليمانَ بن كثير ، وأبو الحسن الخُراساني عن الكَرْماني ، وعامر بن حفص وأبو مخنف عن عثمان بن عمرو بن محصن الأزدي وزهير بن هنيد وغيرهم ـ وفي خبر بعضهم ما ليس في خبر بعض ، فألّفت ذلك ـ أنّ سليمان بن عبدالملك ولى يزيدَ بن المهلَّب العِراقَ ولم يولِّه خُراسان ، فقال سليمان بن عبدالملك لعبدالملك بن المهلَّب وهو بالشام وَيَزيدُ بالعراق : كيف أنتَ يا عبدَالملك إنْ وليتُك خُراسانَ؟ قال : يَجِدني أميرُ المؤمنين حيثُ يُحِبّ ، ثمّ أعرضَ سليمانُ عن ذلك .

قال : وكتب عبدُالملك بنُ المهلب إلى جرير بن يزيدَ الجَهْضمي وإلى رجال من خاصّته : إن أميرَ المؤمنين عَرَض عليَّ ولاية خُراسان . فبلغ الخبرُ يزيدَ بنَ المهلَّب ، وقد ضَجِر بالعراق ، وقد ضَيّق عليه صالح بنُ عبدالرحمن ، فليس يَصِل معه إلى شيء ، فدعا عبدالله بن الأهتم ، فقال : إني أريدك لأمر قد أهمَّني ، فأحِبُّ أن تَكفِيَنِيه ، قال : مُرْني بما أحبَبْت ، قال : أنا فيما ترى من الضيق ، وقد أضجَرني ذلك ، وخُراسان شاغِرةٌ بِرجلها ، وقد بَلَغني أنّ أميرَ المؤمنين ذكَرَها لعبدِ المَلِك بن المهلب ، فهل من حيلة ؟ قال : نعم ، سرِّحني إلى أميرِ المؤمنين ، فإني أرجو أن آتيَك بعَهْدك عليها ، قال : فاكتم ما أخبرتُك به . وكتب إلى سليمانَ كتابَين : أحدهما يَذكُر له فيه أمرَ العراق ، وأثنى فيه على ابن الأهتم وذَكَر له عِلمه بها ، ووجّه ابن الأهتم وحَمَلَه على البَريد . وأعطاه ثلاثين ألفاً . فسار سبعاً ، فَقَدِم بكتاب يزيدَ على سليمان ، فدخل عليه وهو يتغدَّى ، فجلس ناحيةً ، فأتِيَ بدَجاجَتين فأكَلَهما .

قال : فدخل ابنُ الأهتم فقال له سليمان : لك مجلسٌ غيرُ هذا تعود إليه . ثمّ دعا به بعدَ ثالثة ، فقال له سليمان : إنّ يزيدَ بنَ المهلب كتب إليَّ يذكُر عِلمَكَ بالعراق وبخُراسان ، ويُثْني عليك ، فكيف عِلمُك بها؟ قال : أنا أعلَم الناس بها ؛ بها وُلدتُ ، وبها نشأتُ ، فلي بها وبأَصْلِها خبر وعِلْم . قال : ما أحوَجَ أميرَ المؤمنين إلى مِثلِك يُشاوره في أمرها! فأشرْ عليَّ برَجُل أولِّيه خُراسان ؛ قال : أميرُ المؤمنين أعلم بمن يريد يولي ، فإن ذكر منهم أحداً أخبرتُه برأيي فيه ، هل يَصلُح لها أم لا ؛ قال : فسمَّى سليمانُ رجلاً من قريش ؛ قال : يا أمير المؤمنين ، ليس من رجال خُراسان ، قال : فعبدُالملك بنُ المهلب ، قال : لا ، حتى عدّد رجالاً ، فكان في آخِر مَن ذَكر وَكيع بن أبي سُود ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، وكيعٌ رجلٌ شجاعٌ صارم بَيْيس مِقدام ، وليس بصاحبها مع هذا ، إنه لم يقُد ثلاثمائة قطّ فرأى لأحد عليه طاعة . قال : صدقتَ وَيْحك ، فمن لها ! قال : رجلٌ أعلَمه لم تُسمِّه ، قال : فمن هو؟ قال لا أبوح باسمه إلاّ أن يَضمَن لي أميرُ المؤمنين ستر ذلك ، وأن يُجيرَني منه إنْ علم ؛ قال : نعم ، سَمّه مَن هو؟ قال : يزيدُ بنُ المهلَّب ؛ قال : ذاك بالعراق ، والمُقام بها أحبّ إليه من المقام بخُراسان ، قال : قد علمتُ يا أميرَ المؤمنين ، ولكن تُكرِهه على ذلك ، فيَستخلِف على العراق رجلاً ويسير ؛

قال : أصبتَ الرأيَ . فَكَتَبَ عهدَ يزيد على خُراسان ، وكتب إليه كتاباً : إن ابنَ الأهتم كما ذكرتَ في عَقْلِه ودِينه وفضلِه ورأيه . ودفع الكتابَ وعَهْدَ يزيدَ إلى ابن الأهتم ، فسار سَبْعاً ، فقدم على يزيدَ فقال له : ما وراءك ؟ قال : فأعطاه الكتاب، فقال : وَيْحك ! أعِندَك خير؟ فأعطاه العهد ، فأمر يزيدُ بالجهاز للمسير من ساعته ، ودعا ابنه مخلَداً فقدّمه إلى خُراسان . قال : فسار من يومِه ، ثمّ سار يزيدُ واستخلف على واسطَ الجَرّاح بنَ عبدالله الحَكَميّ ، واستعمَل على البَصْرة عبدَالله بن هلال الكلابيّ ، وصيّر مَروانَ بن المهلب على أموالِه وأمورِه بالبَصرة ، وكان أوثَقَ إخوته عندَه ، ولمروان يقول أبو البهاء الإيادي :

رأيت أبا قبيصةَ كلَّ يومٍ ... على العَلّاتِ أكرَمَهُمْ طِبَاعَا
إذا ما هُمْ أبَوا أن يَسْتطيعوا ... جَسِيمَ الأمْرِ يحْمِل ما اسْتَطَاعَا
وإن ضاقت صدُورُهُمُ بأمرٍ ... فَضلتَهُمُ بذاك نَدًى وبَاعَا

وأما أبو عُبيدةَ معمَر بنُ المثنّى فإنه قال في ذلك : حدّثني أبو مالك أنّ وَكيع بن أبي سُود بعث بطاعته وبرأسِ قُتيبةَ إلى سليمانَ ، فوقَع ذلك من سليمان كل موقع، فجعل يزيدُ بنُ المهلب لعبد الله بن الأهتم مائةَ ألف على أن ينقر وكيعاً عنده ، فقال : أصلَح اللّهُ أمير المؤمنين ! والله ما أحدٌ أوجَب شكراً ، ولا أعظم عندي يداً من وكيع ، لقد أدرك بثأري ، وشفاني من عَدُوّي، ولكن أميرَ المؤمنين أعظمُ وأوجَبُ عليَّ حَقًّا ، وإنّ النصيحةَ تلزَمني لأمير المؤمنين ؛ إنّ وكيعاً لم يجتمع له مائة عنَان قطّ إلاّ حدّث نفسَه بغدرة؛ خامل في الجماعة ، نابه في الفتنة ، فقال : ما هوَ إذاً ممن نستعين به ـ وكانت قيسٌ تَزعمُ أن قتيبة لم يخلع ـ فاستعمل سليمانُ يزيد بنَ المهلب على حَرْب العراق ، وأمَره إن أقامت قيسٌ البيّنة أن قتيبة لم يَخلَع فينزَع يداً من طاعة ، أن يُقيد وكيعاً به . فغَدَرَ يزيدُ ، فلم يُعْطِ عبدَالله بن الأهتم ما كان ضَمِن له ، ووجَّه ابنَه مخلدَ بنَ يزيد إلى وكيع .

رجْع الحديثِ إلى حديثِ علي . قال علي : أخبرَنا أبو مخنف عن عثمان بن عمرو بن محصن، وأبو الحسن الخُراساني عن الكرماني ، قال : وجه يزيدُ ابنَه مَخلدَاً إلى خُراسان فقدّم مَخلَدُ عَمرُو بن عبدالله بن سِنان العَتَكي ، ثم الصُّنَابحيّ ، حين دَنَا من مَرْوَ ، فلما قدمها أرسل إلى وكيع أن الْقَني ، فأبى ، فأرسلَ إليه عَمرو ، يا أعرابيّ أحمَقَ جِلفاً جافياً ، انطَلِق إلى أميرك فتَلقه . وخَرَج وجوهٌ من أهل مَرْوَ يتلقَّوْن مَخلَداً ، وتثاقل وكيعٌ عن الخروج ، فأخرجَه عَمرو الأزْدي ، فلما بلغوا مَخلداً نزل الناسُ كلّهم غير وكيع ومحمد بن حمران السعدي وعبّاد بن لَقيد أحد بني قيس بنِ ثعلبة ، فأنزلوهم ، فلما قَدِم مروَ حبس وكيعاً فعذّبه ، وأخذ أصحابه فعذّبهم قبل قُدوم أبيه .

قال علي عن كُليب بن خَلَف ، قال : أخبرنا إدريسُ بنُ حنظلة ، قال : لما قَدِم مَخلَد خُراسان حَبَسني ، فجاءني ابن الأهتم فقال لي: أتريد أن تَنجُوَ؟ قلت: نعم ، قال : أخرج الكتبَ التي كَتَبها القَعْقاع بن خُلَيد العَبْسي وخُرَيم بن عَمرو المرّيّ إلى قُتيبةَ في خَلْع سليمانَ ، فقلت له : يا بنَ الأهتم ، إيّاي تَخدع عن دِيني! قال: فدعا بُطومار وقال: إنك أحمَق . فكَتَب كُتُباً عن لِسان القَعْقاع ورجال من قَيْس إلى قُتيبةَ أنَّ ، الوليد بنَ عبدالملك قد مات ، وسليمان باعث هذا المَزُونيّ على خُراسان فاخلَعه . فقلتُ : يابنَ الأهتم ، تُهلِك واللّهِ نفسَك! والله لئن دخلتُ عليه لأعْلمنَّه أنك كتبتَها .

وفي هذه السنة شَخَص يزيدُ بنُ المهلّب إلى خُراسانَ أميراً عليها ، فذكر علي بن محمد ، عن أبي السريّ

الأزْديّ ، عن عمه ، قال : وَلِيَ وكيع خُراسانَ بعد قتل قُتيبةَ تسعةَ أشهر أو عشرة . وقدم يَزيدُ بنُ المهلب سنة سبع وتسعين .

قال علي : فذكَرَ المفضّل بنُ محمد عن أبيه ، قال : أدنَى يزيدُ أهلَ الشام وقوماً من أهل خُراسان ، فقال نهارُ بنُ تَوْسِعة :

وما كنّا نُؤمِّلُ من أميرٍ ... كما كُنّا نؤمّلُ من يزيدِ
فأخْطأَ ظنُّنا فيه وقِدْماً ... زَهِدْنا في معاشَرَة الزَّهيد
إذا لم يُعطِنا نَصَفاً أميرٌ ... مَشَيْنَا نحْوَهُ مِثلَ الأُسُودِ
فمهلاً يا يَزيدُ أنِبْ إلينا ... ودَعْنَا من مَعاشَرَةِ العبيدِ
نَجِيءُ فلا نَرَى إلاّ صُدوداً ... على أنا نُسَلم من بَعيدِ
ونَرجعُ خائبينَ بلا نوالٍ ... فما بَالُ التجَهُّمِ والصُّدُودِ!

قال علي : أخبرَنا زيادُ بن الرَّبيع ، عن غالب القَطان ، قال : رأيتُ عمَر بنَ عبدالعزيز واقفاً بعَرَفات في خلافة سليمان ، وقد حَجّ سليمان عامئذ وهو يقول لعبدالعزيز بن عبدِالله بن خالد بن أسيد : العَجَب لأمير المؤمنين ، استَعمَل رجلاً على أفضل ثَغْر للمسلمين ! فقد بلَغني عمّن يقدم من التجار من ذلك الوَجْه أنه يُعطِي الجاريةَ من جواريه مثل سهم ألفِ رجل . أما والله ما الله أراد بولايته ـ فعرفتُ أنه يعني يزيدَ والجهنية ـ فقلتُ : يشكر بلاءهم أيام الأزارقة .

قال : ووَصَل يزيدُ عبدَالملك بنَ سلام السَّلُوليّ فقال :

ما زال سيْبُك يا يزيدُ بَحوبَتي ... حتّى ٱرتَوَيتُ وَجُودكُمْ لا يُنكَرُ
أنتَ الرَّبيع إذا تكون خَصَاصَةٌ ... عاش السَّقيم به وعاش المُقتِرُ
عمّت سَحَابَتُهُ جَميعَ بِلاَدِكمْ ... فَرَوْوا وأَغدَقَهُم سَحابٌ مُمطِر
فسقَاك رَبكَ حَيْثُ كنتَ مَخيلةً ... ريًّا سَحَائِبُها تَروحُ وَتُبكِر

وفي هذه السنة حجّ بالناس سليمانُ بنُ عبدالملك ، حدّثني بذلك أحمدُ ابن ثابت عمن ذَكَره ، عن إسحاقَ بن عيسى ، عن أبي معشر .

وفيها عَزَل سليمانُ طلحةَ بن داودَ الحَضْرميّ عن مكة ، قال الواقديّ : حدّثني إبراهيمُ بنُ نافع ، عن ابن أبي مُلَيكة ، قال : لما صدَر سليمانُ بن عبدالملك من الحَجّ عَزَل طلحَة بنَ داودَ الحَضْرميّ عن مكة ، وكان عَمَلُه عليها ستة أشهر ، وولي عبدالعزيز بن عبدالله بن خالد بن أسيد بن أبي العِيص بن أمية بن عبدشمس بن عبدِمناف .

وكانت عُمّال الأمصار في هذه السنة عمالها في السنة التي قبلها إلاّ خراسان ، فإن عاملَها على الحَرْب والخَراج والصَّلاة يزيدُ بنُ المهلب .

وكان خليفته على الكوفة ـ فيما قيل ـ حَرْملة بن عُمير اللَّخْميّ أشهُراً ، ثم عَزَلَه وولاّها بشير بن حسّان النَّهْديّ .

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من توجيه سليمان بن عبدالملك أخاه مَسلَمة بن عبدِالملك إلى القُسْطَنْطِينيّة ، وأمره أن يقيمَ عليها حتى يفتحها أو يأتيَه ، فشَتاَ بها وصاف . فذَكر محمد بن عمر أنّ ثور بنَ يزيدَ حدّثه عن سليمان بن موسى ، قال : لما دنا مَسلَمة من قُسْطَنْطِينيّة أمرَ كلّ فارس أن يحمل على عَجُز فرسِه مُدْيين من طعام حتى يأتيَ به القُسْطَنْطينية ، فأمر بالطعام فألقَي في ناحية مِثل الجبال ، ثمّ قال للمسلمين : لا تأكلوا منه شيئاً ، أغيرُوا في أرضهم ، وازدرعوا . وعمِل بيوتاً من خشب ، فَشتا فيها ، وَزَرَع الناسُ ، ومَكَث ذلك الطعام في الصحراء لا يكنُّه شيء ، والناس يأكلون مما أصابوا مِنَ الغارات ، ثم أكلوا من الزّرع ، فأقام مَسلَمة بالقُسْطنطينية قاهراً لأهلِها ، معه وجوهُ أهل الشام : خالد بن مَعْدان ، وعبدالله بن أبي زَكرياء الخُزاعيّ ، ومجاهد بن جَبْر ؛ حتى أتاه موتُ سليمانَ فقال القائل :

تحْمِـل مُدْيِيهَا وَمُدْيَـيْ مَسلَمـهْ

حدّثني أحمد بن زُهير، عن علي بن محمد ، قال : لما وليَ سليمانُ غَزا الرّوم فنزل دابِقَ ، وقدّم مَسلَمة فهابَه الرّوم ، فَشَخص إليُونُ من أرْمِينِيَة ، فقال لَمسلَمة : ابعث إليَّ رجلاً يكلّمني ، فبعث ابنَ هُبيرة ، فقال له ابنُ هبيرة : ما تَعُدّون الأحمقَ فيكم؟ قال : الذي يملأ بطنه من كلّ شيء يجِده ، فقال له ابن هُبَيـرة : إنّا أصحاب دين ، ومِن دِيننا طاعةُ أمرائنا ؛ قال : صدقت ، كنا وأنتم نُقاتِل على الدين ونَغضب له ، فأما اليومَ فإنا نُقاتِل على الغَلَبة والمُلْك ، نُعطيك عن كلّ رأس ديناراً . فرجع ابنُ هُبيرة إلى الرّوم من غده ، وقال : أبي أن يَرضَى ، أتيتُه وقد تغدَّى وملأ بطنه ونامَ ، فانتبَه وقد غَلَب عليه البلغم ، فلم يدرِ ما قلتُ . وقالت البطارقة لإليون : إن صرفت عنا مَسلَمة ملّكناك . فوَثّقوا له ، فأَتى مَسلَمة فقال : قد عَلِم القومُ أنك لا تَصدقهم القتال ، وأنك تُطاولهم ما دام الطعام عندَك ، ولو أحرقتَ الطعامَ أعطوْا بأيديهم ، فأحرَقَه ، فقوي العدوّ ، وضاقَ المسلمون حتى كادوا يَهلكون ، فكانوا على ذلك حتى مات سليمان . قال : وكان سليمانُ بنُ عبدالملك لما نزل دابق أعطَى الله عَهْداً ألا ينصرف حتى يدخل الجيش الذي وجهه إلى الروم القسطنطينيّة .

قال : وهَلَك مَلِك الرّوم ، فأتاه إليون فأخبَرَه ، وضَمِن له أن يَدفَع إليه أرضَ الرّوم ، فوجه معه مسلمة حتى نزل بها ، وجَمع كلّ طعام حولها وحَصرَ أهلَها وأتاهم إليون فملّكوه، فكتب إلى مَسلَمة يُخبره بالذي كان ، ويسأله أن يُدخِل من الطعام مَا يعيش به القوم ، وَيَصُدّقُونه بأنّ أمرَه وأمرَ مَسلَمة واحد ، وأنهم في أمان من السِّباء والخُروج من بلادهم، وأن يأذَن لهم ليلَةً في حَمْل الطعام ، وقد هيّأ إليون السفُن والرّجال ، فأذِن له ، فما

بقَى في تلك الحظائر إلّا ما لا يُذكَر ؛ حُمل في ليلة ، وأصبح إليون محارباً ، وقد خدعه خديعة لو كان امرأةً لعيبَ بها ، فلقى الجندُ ما لم يَلْقَ جيشٌ ؛ حتى إن كان الرجُل لَيخافُ أنْ يَخرُج من العَسكَر وحدَه ، وأكَلوا الدّوابّ والجُلود وأصولَ الشجر والورَق ، وكلّ شيء غير التراب ، وسليمان مقيمٌ بدابِق ، ونزل الشتاءُ فلم يقدر يُمِدّهم حتى هَلَك سليمان .

وفي هذه السنة بَايَع سليمانُ بنُ عبدالملك لابنِهِ أيوبَ بن سليمان وجَعَلَه وليّ عهدِه ، فحدّثني عمر بن شبّة ، عن علي بن محمد ، قال : كان عبدُالملك أخَذ على الوليد وسليمانَ أن يُبايعا لابن عاتِكة ولمروان بن عبدالملك من بعدِه ، قال : فحدّثني طارقُ بنُ المبارك ، قال : ماتَ مروانُ بنُ عبدِالملك في خلافة سليمانَ منصَرفه من مكة ، فبايع سليمان حين ماتَ مَروانُ لأيوبَ ، وأمسَك عن يزيدَ وتربَّص به ، ورَجَا أن يهلك ، فهَلَك أيّوب وهو وليّ عهده .

وفي هذه السنة فُتحتْ مدينَة الصَّقالِبة ، قال محمدبنُ عمر : أغارتْ بُرْجان في سنة ثمان وتسعين على مَسلَمة بن عبدالملك وهو في قِلّة مِن الناس، فأمَدّه سليمانُ بنُ عبدالملك بمَسْعدة - أو عَمْرو بن قَيْس - في جَمْع فمَكَرتْ بهم الصَّقالبة ، ثمّ هزمَهم اللّهُ بعد أن قَتَلوا شرَاحيلَ بن عبد بن عَبدَة .

وفي هذه السنة - فيما زعم الواقدي - غَزا الوليد بنُ هشام وعَمرُو بنُ قيس ، فأصيبَ ناسٌ من أهل إنطاكية ، وأصابَ الوليدُ ناساً من ضَواحي الرّوم وأسَر منهم بَشَراً كثيراً .

وفي هذه السنة غزا يزيدُ بن المهلب جُرْجان وطَبرِسْتان ، فذَكَر هِشامُ بن محمد ، عن أبي مِخْنَف ، أنّ يزيد بن المهلب لما قدم خُراسان أقام ثلاثة أشهر أو أربعةً ، ثم أقبل إلى دِهِسْتانَ وجُرْجانَ ، وبعث ابنه مَخلَداً على خُراسان ، وجاء حتى نزل بدهستان ، وكان أهلُها طائفةً من الترك ، فأقام عليها ، وحاصر أهلها ، معه أهل الكوفة وأهلُ البَصْرة وأهلُ الشام ووجوه أهل خُراسان والرّي ، وهو في مائة ألف مُقاتل سوى المَوالِي والمَماليك والمتطوّعين ، فكانوا يَخرُجون فيُقاتلون الناسَ ، فلا يُلبثهم الناسُ أن يَهزِموهم فَيدخُلون حصنَهم ، ثم يخرجون أحياناً فيُقاتِلون فيشتدّ قِتالهم . وكان جَهْم وجمال ابنا زَحْر من يزيد بمكان ، وكان يُكرمهما ، وكان محمد بن عبدالرحمن بن أبي سَبْرة الجُعْفي له لسان وبأس ، غير أنه كان يُفسد نفسَه بالشراب ، وكان لا يُكثِر غِشْيان يزيدَ وأهل بيته ، وكأنه أيضاً حَجَزه عن ذلك ما رَأى من حُسْن أثَرهم على ابني زَحْر جَهْم وجَمال . وكان إذا نادى المنادِي : يا خيلَ الله ارْكَبي وأبشري كان أول فارس من أهل العسكر يَبْدر إلى موقف البَأس عند الرّوع محمد بن عبدالرحمن بن أبي سَبْرة ، فنُودِيَ ذات يوم في الناس ، فبدر الناس ابنُ أبي سَبْرة ، فإنه لواقفٌ على تَلّ إذ مَرّ به عثمانُ بنُ المفضّل ، فقال له : يابنَ أبي سبْرة ، ما قدرتُ على أن أسبقَك إلى الموقف قَطّ ، فقال : وما يُغني ذلك عني ، وأنتم تُرشّحون غِلمانَ مذحِج ، وتَجهَلون حقّ ذوي الأسنان والتجارب والبَلاء ! فقال : أما إنكَ لو تريد ما قبلَنا لم نَعدل عنك ما أنتَ له أهل .

قال : وخرج الناسُ فاقتتَلوا قتالاً شديداً، فحمل محمد بن أبي سَبْرة على تركي قد صدّ الناسَ عنه ، فاختَلَفا ضربتَين ، فثبتَ سيفُ التركي في بَيضة ابن أبي سبرة ، وضرَبَه ابنُ أبي سَبْرة فَقتَله ، ثم أقبل وسيفُه في يَدِه يَقطُر دَماً ، وسيفُ التُّركيّ في بَيضَته ، فنظر الناسُ إلى أحسنَ مَنظَر رأوه من فارس ، ونظر يزيد إلى ائتلاق السَّيْفين والبَيضة والسلاح فقال : مَن هذا؟ فقالوا : ابنُ أبي سَبْرة ، فقال : لله أبوه ! أيّ رجل هو لولا إسرافُه

على نفسه !

وخرج يزيد بعد ذلك يوماً وهو يرتادُ مَكاناً يَدخُل منه على القوم ، فلم يَشعُر بشيء حتى هَجَم عليه جماعةٌ من الترك ـ وكان معه وجوه الناس وفُرسانُهم ، وكان في نحو من أربعمائة ، والعدوّ في نحو من أربعة آلاف ـ فقاتَلَهم ساعةً ، ثم قالوا ليزيد : أيّها الأمير ، انصرف ونحنُ نُقاتِل عنك ، فأبَى أن يَفعَل ، وغَشيَ القِتال يومئذ بنفسه ، وكان كأحدهم ، وقاتل ابنُ أبي سبرَة وابنا زَحْر والحجّاجُ بن جارية الخَثعَميّ وجُلّ أصحابه ، فأحسنوا القِتال ، حتى إذا أرادوا الانصراف جَعَل الحجّاجَ بن جارية على الساقة ، فكان يُقاتِل مَن وَرائه حتى انتهى إلى الماء ، وقد كانوا عَطِشوا فَشرِبوا ، وانصَرَف عنهم العدوّ ، ولم يَظفَرُوا منهم بشيء ، فقال سُفيانُ بن صَفْوان الخَثْعمي :

لَـولا ابنُ جـارِيَـةَ الأغـرُّ جَبينُـهُ ... لَسُقِيتَ كـأْسـاً مُـرَّةَ الـمُتَجَـرَّعِ
وحَمَـاكَ في فُـرْسَـانِـهِ وخُيُـولِـهِ ... حتَّى وَرَدْتَ الـمـاءَ غَيْـبـرَ مُتَعتَـعِ

ثم إنّه ألحّ عليها وأنزل الجنود من كل جانب حولها ، وقَطَع عنهم الموادّ ، فلمّا جُهِدوا ، وَعَجزوا عن قتالِ المسلمين ، واشتدّ عليهم الحصار والبلاء ، بعث صُول دِهْقان دِهستانَ إلى يزيدَ : إني أصالحك على أن تؤمنَني على نفسي وأهلِ بيتي ومالِي ، وأدفع إليك المدينة وما فيها وأهلَها . فصَالَحه ، وقَبِل منه ، ووَفَى له ، ودَخَل المدينةَ فأخذ ما كان فيها من الأموال والكُنوز ومِن السَّبي شيئاً لا يُحصَى ، وقتَلَ أربعةَ عشر ألف تُركيّ صَبْراً ، وكتَب بذلك إلى سليمانَ بن عبدالملك .

ثم خَرَج حتى أتى جُرْجانَ ، وقد كانوا يُصالحون أهلَ الكوفة على مائة ألف ، ومائتي ألف أحيانـاً ، وثلاثمائة ألف، وصالحوهم عليها ، فلما أتاهم يزيدُ استقبلوه بالصّلح . وهابوه وزادُوه ، واستخلَف عليهم رجلاً من الأزد يقال له : أسدُ بنُ عبدالله ، ودخل يزيدُ إلى الإصبهبذ في طَبَرِسْتانَ فكان معه الفَعَلة يَقطَعون الشَّجر ، ويُصلِحون الطرق ، حتى انتهوْا إليه ، فنَزل به فحصَرَه وغَلَب على أرضِه ، وأخذ الإصبهبذ يَعرِض على يزيدَ الصلح ويريده على ما كان يُؤخَذ منه ، فيأبَى رجاء افتتاحهَا . فبعث ذاتَ يوم أخاه أبا عُيينة في أهل المِصريْن ، فأصعَد في الجَبَل إليْهم ، وقد بعث الإصبهبذ إلى الدّيلم ، فاستجاشَ بهم ، فاقتتلوا ، فحازهم المسلمون ساعةً وكَشفوهم ، وخرج رأسُ الدّيلم يَسأل المُبارَزة ، فخرج إليه ابن أبي سَبْرة فقَتَله ، فكانت هزيمَتُهم حتى انتَهى المسلمون إلى فَمِ الشِّعب ؛ فذَهَبوا ليَصعَـدوا فيه ، وأشـرَف عليهم العَدَوّ يَـرشُقونهم بالنشاب ، ويَرمُونَهم بالحِجارة ، فانهزَم الناسُ من فَمِ الشِّعب من غير كبير قتال ولا قوّة من عـدوّهم على إتباعهم وطلبِهم ، وأقبلوا يَركب بعضهم بعضاً ، حتى أخذوا يَتساقَطون في اللُّهوب ، ويتدهْدى الرجلُ من رأسِ الجبل حتى نزلوا إلى عسكر يزيد لا يَعبَئون بالشرّ شيئاً .

وأقامَ يزيدُ بمكانِه على حالِه ، وأقبل الإصبهبذ يكاتب أهلَ جُرْجان ويسألهم أن يَثبوا بأصحاب يزيد ، وأن يَقطَعوا عليه مادّته والطرق فيما بينَه وبين العرب ، ويَعِدهم أن يكافِئهم على ذلك ، فوَثَبوا بمن كان يزيد خلّف من المسلمين ، فقتَلوا منهم من قَدَروا عليه ، واجتمَع بقيّتهم فتحصّنوا في جانب ، فلم يزالوا فيه حتى خرج إليهم يزيد، وأقام يزيدُ على الإصبهبذ في أرضه حتى صالَحه على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة ألف نقداً ومائتي ألف وأربعمائة حمار موقرة زَعْفراناً، وأربعمائة رَجُل؟ على رأسِ كلّ رجل بُرْنُس، على البُرْنس طَيْلَسان

وبِلجام من فضّة وسَرقة من حَرير، وقد كانوا صالحوا قبل ذلك على مائتي ألفِ درهم. ثمّ خرج منها يزيدُ وأصحابهُ كأنهم فَلّ، ولولا ما صنعَ أهلُ جُرجانَ لم يَخرج من طَبرستانَ حتى يَفتَحها.

وأما غيرُ أبي مِخنَف ،فإنه قال في أمر يزيد وأمرِ أهلِ جُرْجان ما حدّثني أحمد بنُ زُهير ، عن علي بن محمد ، عن كُليب بن خَلَف وغيره ؛ أنَّ سعيدَ بنَ العاص صالَح أهلَ جُرْجان ، ثم امتنَعوا وكَفروا ، فلم يأت جُرْجان بعدَ سعيد أحد ، ومَنَعوا ذلك الطريق ، فلم يَكن يَسلُك طريقَ خُراسانَ من ناحيته أحدٌ إلّا على وَجَل وَخَوْف من أهل جُرْجان ؛ كان الطريقُ إلى خُراسان من فارسَ إلى كرمانَ ، فأوّل من صَيّر الطريقَ من قومِس قُتيبة بن مسلم حينَ وليَ خُراسان . ثم غزا مَصقَلة خُراسانَ أيام معاويةَ في عشرة آلاف ، فأصيب وجنده بالرُّوَيان ، وهي متاخِمَةُ طَبَرِسْتان فهلكوا في وادٍ من أوديَتها ، أخذَ العدوّ عليهم بمضايقِه ، فقتلُوا جميعاً ، فهو يُسمَّى وادِي مَصقَلة .

قال : وكان يُضرَب به المَثَل حتى يَرجعَ مصقلة من طَبرسْتان ، قال علي ، عن كُليب بن خَلَف العَميّ ، عن طُفَيل بن مِرْداس العمي وإدريس بن حَنْظلة : إنّ سعيدَ بنَ العاص صالَح أهل جُرْجان ، فكانوا يجبئون أحياناً مائة ألف ، ويقولون : هذا صلحنا ، وأحياناً مائتي ألف ، وأحياناً ثلاثمائة ألف ؛ وكانوا ربما أعطَوا ذلك ، وربما منَعوه ، ثم امتنعوا وكَفَروا فلم يُعطُوا خَراجاً ، حتى أتاهُم يزيدُ بن المهلب فلم يُعازّه أحدٌ حين قَدِمها ، فلما صالح صول وفتح البُحيرة ودِهِسْتان صالَح أهلَ جُرْجانَ على صُلْح سعيد بن العاص .

حدّثني أحمد ، عن علي عن كُلَيب بن خَلَف العمي عن طُفيل بن مِرْداس ، وبِشر بن عيسى عن أبي صَفْوان ، قال علي: وحدّثني أبو حفص الأزْديّ عن سليمانَ بن كثير ، وغيرهم ؛ أنّ صولاً التركيّ كانَ ينزل دِهِستان والبُحيرة ـ جزيرة في البَحْر بَينَها وبين دِهِسْتانَ خمسة فراسخ ، وهما من جُرجَان مما يلي خُوارَزم ـ فكان صول يُغير على فيروزَ بن قول ، مَرْزبان جُرْجان ، وبينهم خمسة وعشرون فَرْسخاً ، فيصيب من أطرافهم ثم يرجع إلى البُحيرة ودِهِسْتان ، فوقع بين فَيْروز وبينَ ابن عمّ له يقال له المُرْزبان مُنازعة ، فاعتَزَله المُرْزُبان ، فنزل البياسان ، فخاف فيروز أن يُغيرَ عليه الترك ، فخرج إلى يزيد بن المهلب بخُراسـان ، وأخذ صُولَ جُرْجان ، فلما قَدِم على يزيدَ بن المهلب قال له : ما أقدمَك؟ قال: خفتُ صُولاً ، فهَرَبْتُ منه ، قال له يزيد : هل من حيلة لِقتاله؟ قال : نَعم ، شيء واحد ، إن ظفرتُ به قتلتُه ، أو أعطى بيده ، قال : ما هُوَ؟ قال: إن خرَج مِنْ جرجان حتى يَنزل البُحَيرة ، أثم أتيتَهُ ثم فحاصرْتَهُ بها ظفرتَ به ، فاكتب إلى الإصبهبذ كتاباً تسأله فيه أن يحتالَ لصول حتى يقيمَ بجُرْجان ، واجعلْ له على ذلك جُعْلاً ، ومنّه ، فإنه يَبعث بكتابك إلى صول يتقرّبُ به إليه لأنه يعظمه ، فيتحوّل عن جُرجانَ ، فَينزل البُحيرة .

فكَتَبَ يزيدُ بنُ المهلب إلى صاحِب طَبَرِسْتَان : إني أريد أن أغزوَ صولاً وهو بجُرْجان ، فخفتُ إنْ بَلَغه أني أريدُ ذلك أن يتحوّل إلى البحيرة فينزلها ، فإن تحوّل إليها لم أقدر عليه ؛ وهو يَسمَع منك ويَستنصحك ، فإن حَبستَه العامَ بجُرجانَ فلم يأت البُحيرة حملتُ إليك خمسينَ ألفَ مثقال ؛ فاحتلْ له حيلةً ؛ تَحبسه بجُرجان ، فإنه إن أقام بها ظَفرتُ به . فلما رأى الإصبهبذُ الكتابَ أراد أن يتقرّب إلى صُول ، فبعث بالكتاب إليه ، فلما أتاه الكتابُ أمَر الناسَ بالرّحيل إلى البُحيرة وحمل الأطعِمة ليتحصّن فيها . وبَلَغ يزيدَ أنه قد سار من جُرْجان إلى

البحيرة ، فاعتَزَم على السَّيْر إلى الجُرْجان ، فخرج في ثلاثين ألفاً ، ومعه فَيروزُ ابنُ قُول ، واستَخلَف على خُراسانَ مَخلَد بن يـزيد ، واستَخلَف عـلى سَمَرْقَنْـد وكِسّ وَنَسف وبُخارَى ابنـه معاويـة بن يزيـد ، وعلى طَخارِسْتان حاتمَ بنَ قبيصة بن المهلب ، وأقبَل حتى أتى جُرْجان ـ ولم تكن يومئذ مدينة إنما هي جبال مُحيطةٌ بها ، وأبوابٌ وَمخارم ، يقول الرجلُ على باب منها فلا يَقدم عليه أحدٌ ـ فدخلها يزيد لم يعازّه أحد ، وأصابَ أموالاً ، وَهَرَب المَرْزُبان ، وخرج يزيد بالناس إلى البُحيرة ، فأناخَ على صول ، وتمثّل حينَ نَزَل بهم :

فـخـرّ الـسـيـفُ وارْتَـعَـشَـتْ يَـداهُ   وكـانَ بِـنَـفْـسِـهِ وُقِـيَـتْ نُـفُـوسُ

قال : فحاصَرَهم ، فكانَ يخرُج إليه صُول في الأيّام فيُقاتِله ثم يرجع إلى حِصْنه ، ومع يزيد أهلُ الكوفة وأهلُ البَصْرة . ثم ذكر من قصة جَهْم ابن زَحْر وأخيه محمد نحواً مما ذكره هِشام ، غير أنه قال في ضَرْبة التركي ابنَ أبي سَبْرة : فنَشَب سَيْف التركي في دَرقَة ابن أبي سَبْرة .

قال علي بن محمد، عن علي بن مجاهد، عن عَنْبسة ، قال: قاتَلَ محمد بن أبي سَبْرة الترك بُجرجـانَ فأحاطوا به واعتَورُوه بأسيافهم ، فانقطع في يدِه ثلاثة أسياف .

ثم رَجَع إلى حديثهم ؛ قال : فمكثوا بـذلك ـ يعني التُرْك ـ محصُـورِين يَخْرجـون فيقَاتِلون ، ثمّ يَرجعون إلى حِصْنهم ستة أشهر ، حتى شربوا ماءَ الأحْساء ، فأصابهم داءٌ يسمَّى السؤاد ، فوَقَع فيهم الموتُ ، وأرسلَ صُول في ذلك يَطلبُ الصّلح ، فقال يزيدُ بنُ المهلب : لا ، إلاَّ أن يَنزل على حُكْمي ، فأبى . فأرسَل إليه : إني أصالِحُك على نفسي ومالي وثلاثمائة من أهلِ بيتي وخاصّتي ، على أن تؤمّنني فتنزل البُحيرة . فأجابَه إلى ذلك يزيدُ ، فخرج بمالِه وثلاثمائة ممن أحَبّ ، وصار مع يزيدَ ، فقتَلَ يزيدُ من الأتراك أربعةَ عشر ألفاً صَبْراً ، ومنَّ على الآخَرين فلم يَقتُل منهم أحداً . وقال الجُنْد ليزيدَ : أعطنا أرزاقَنا ، فدَعَا إدريس بن حنظلةَ العمّي ، فقال : يابن حَنْظلة ، أحْصِ لنا ما في البُحَيرة حتى نُعطِيَ الجندَ ، فدَخَلها إدريسُ ، فلم يَقدر على إحصاء ما فيها ، فقال ليزيد : فيها ما لا أستَطيع إحصاءَه ، وهو في ظُروف ، فنُحصِي الجواليق ونعلّم ما فيها ، ونقول للجند : ادْخُلوا فخذُوا ، فمن أَخَذ شيئاً عرَّفنَا ما أَخَذ من الحِنطة والشعير والأرز والسمسم والعَسَل . قال : نَعْمَ ما رأيت ، فأحصَوا الجَوالِيق عَدَداً ، وعَلّموا كلّ جوالق ما فيه ، وقالوا للجند : خُذُوا، فكان الرجلُ يخرُج وقد أخذ ثياباً أو طعاماً أو ما حَمَلَ من شيء فيُكتَب على كلّ رجل ما أخَذ ، فأخذوا شيئاً كثيراً .

قال علي: قال أبو بكر الهذليّ : كان شَهْر بن حوشب على خزائن يزيد بن المهلب، فرفعوا عليه أنه أخذَ خَريطةً ، فسأله يزيدُ عنها ، فأتاه بها ، فدعا يزيدُ الذي رَفَع عليه فشتَمَه ؛ وقـال لشَهر : هي لك ، قال : لا حاجةَ لي فيها ، فقال القُطاميّ الكلبيّ ـ ويقال : سِنان بن مكمّل النّميري :

لقـد بَـاعَ شَهـرٌ دِينَـهُ بِخَـريـطَةٍ   فمن يـأْمَنُ القـرَّاءَ بعـدَك يـا شَهْـرُ!
أَخَـذْتَ بـه شيئـاً طَفِيفـاً وبِعْتَـهُ   من ابن جـونبـوذ إنَّ هـذا هـو الغَـدْرُ

وقال مرة النَّخعيّ لشَهْر :

يـابن المُهَلَّبِ مـا أَرَدتَ إلى امْـرِئٍ   لـولَاكَ كـان كـصـالـح الـقُـرَّاءِ

قال علي : قال أبو محمد الثَّقفي : أصاب يزيدُ بن المهلب تاجاً بجُرْجان فيه جَوْهر ، فقال : أتَرون أحداً

يَزهد في هذا التاج؟ قالوا: لا، فدعا محمد بن واسع الأزدي ، فقال : خذْ هذا التاجَ فهولك ؛ قال : لا حاجة لي فيه ، قال : عزمتُ عليك ، فأخذَه ، وخرج فأمَر يزيدُ رجلاً ينظر ما يَصنع به ، فلقيَ سائلاً فدَفَعَه إليه ، فأخذ الرجلُ السائل ، فأتَى به يزيدَ وأخبَرَه الخبر ، فأخذ يزيدُ التاجَ ، وعَوَّض السائل مالاً كثيراً .

قال علي: وكان سليمانُ بن عبدالملك كلما افتَتح قتيبةُ فَتْحاً قال ليزيد بن المهلب: أما ترى ما يَصنَع الله على يديْ قُتيبة؟ فيقول ابنُ المهلب : ما فعلَتْ جُرْجانُ التي حالت بين الناس والطريق الأعظم ، وأفسَدَت قُومِس وأبرشَهْر ! ويقول : هذه الفتوحُ ليستْ بشيء ، الشأنُ في جُرجانَ . فلما وليَ يزيدُ بنُ المهلب لم يكن له همة غيرجُرْجان . قال : ويقال : كان يزيدُ بنُ المهلب في عشرين ومائة ألف ، معه من أهل الشام ستون ألفاً .

قال علي في حديثه، عمّن ذَكَر خبرَ جُرْجان عنهم : وزاد فيه علي بن مجاهد ، عن خالد بن صبيح أنّ يزيدَ بن المهلب لما صالح صولاً طَمع في طَبرستان أن يَفتَحها ، فاعتزَم على أن يسيرَإليها ، فاستعمل عبدَالله بن المعمَر اليشكري على البياسـان ودهُستان ، وخلف معـه أربعة آلاف ، ثم أقبـل إلى أداني جُرْجـان مما يـلي طَبَرستان ، واستَعمَل على أندرِسْتان أسد بن عمرو ـ أو ابن عبدالله بن الرّبعـة ـ وهي مما يـلي طَبَرِسْتـان ، وخَلّفه ، في أربعة آلاف ، ودخل يزيدُ بلادَ الإصبَهْبذ فأرسل إليه يسأله الصّلح ، وأن يَخرُج من طَبَرسْتان ، فأبى يَزيدُ وَرَجا أن يَفتَحها ، فوجَّه أخاه أبا عُيينة من وجه، وخالدَ بنَ يزيد ابنه من وجه ، وأبا الجَهْم الكلبي من وجه ، وقال : إذا اجتمعتم فأبوعُيينة على الناس . فسار أبوعُيينة في أهل المِصْريْن ومَعه هُرَيم بن أبي طحمة . وقال يزيد لأبي عُيينة : شاوِرْ هُرَيماً فإنه ناصِح . وأقام يزيد معسكراً .

قال : واستجاش الإصبهبذ بأهل جِيلانَ وأهل الدَّيْلم ، فأتَوْه فالتَقوا في سَند جبل ، فانهزَم المشركون، وأتبعهم المسلمـون حتى انتَهوا إلى فَم الشِّعب فـدخله المسلمون ، فصَعـد المشركـون في الجَبَـل ، وأتبعهم المسلمون ، فرماهم العدوّ بالنّشاب والحجارة ، فانهزَم أبو عُيينة والمسلمون ، فركب بعضُهم بعضاً يتساقطون من الجبل ، فلم يَثْبُتوا حتى انتهَوْا إلى عسكر يزيدَ ، وكَفَّ العدوّ عن اتّباعهم ، وخافَهم الإصبهبذُ ، فكتب إلى المَرْزبان ابن عمّ فَيروز بن قُول وهو بأقصى جُرْجان مما يلي البياسان : إنا قد قتلنا يزيد وأصحابه فاقتُلْ مَن في البياسان من العَرَب . فخرج إلى أهل البياسان والمسلمون غارُّون في منازِلهم ، قد أجمَعوا على قتلِهم ، فقُتِلوا جميعاً في ليلة ، فأصبَح عبدُالله بن المعمّر مقتولاً وأربعة آلاف من المسلمين لم يَنجُ منهم أحدٌ ، وقُتِل من بني العمّ خمْسون رجلاً ؛ قُتِل الحسينُ بنُ عبدالرحمن وإسماعيل بن إبراهيم بن شمّاس . وكَتَب إلى الإصبهبذ يأخذُ بالمَضايق والطرق. وبلغ يزيدَ قتلُ عبدالله بن المَعمّر وأصحابه ، فأعظَموا ذلك ، وهالَهم ، ففَزِع يزيدُ إلى حيّان النَّبطيّ. وقال : لا يمنعْك ما كان منّي إليك من نَصيحة المسلمين ، قد جاءنا عن جُرْجان ما جاءنا ، وقد أخذ هذا بالطرق ، فأعمل في الصّلح ؛ قال : نَعَمْ ، فأتى حيّانُ الإصبهبذَ فقال : أنا رجلٌ منكم ، وإن كان الدّين قد فرّق بيني وبينَكم ، فإني لكم ناصح ، وأنت أحبّ إليّ من يزيد ، وقد بعث يَستمد ، وأمدادُه منه قريبة ، وإنما أصابوا منه طَرفاً ، ولستُ آمن أن يأتيك مالاً تقومُ له ، فأرحْ نفسَك منه، وصالحه فإنك إن صالَحته صيَّر حدَّه على أهل جُرْجان . بغَدرهم وقتلهم مَن قتلوا ، فصالَحه على سبعمائة ألف ـ وقال علي بن مُجاهد : على خمسمائة ألف ـ وأربعمائة وقْر زَعْفران أو قيمته من العَيْن . وأربعمائة رجل ، على كل رجل بُرْنُس وطَيْلَسان . ومع كلّ رجل جام فضّة وسَرَقَة خَزّ وكِسْوة .

ثم رجع إلى يزيدَ بن المهلب فقال : ابعث من يَحمِل صُلحهم الذي صالحتُهم عليه ، قال : مِن عندِهِم أومِن عِندنا؟ قال: من عندهم . وكان يزيدُ قد طابتْ نفسُه على أن يُعطيَهم ما سألوا ، ويَرجع إلى جُرْجان فأرسَل يزيدُ من يَحمِل ما صالَحهم عليه حيّان ، وانصرَف إلى جُرْجان ، وكان يزيد قد غرّم حيّاناً مائتي ألف ، فخاف ألّا يُناصِحه .

والسبب الذي له أغرم حيّان فيه ما حدَّثني علي بن مجاهد ، عن خالد بن صبيح ، قال : كنتُ مؤدباً لولَد حيّان ، فدعاني فقال لي : اكتبْ كتاباً إلى مَخلَد بن يزيد ـ ومَخلَد يومئذ ببَلْخَ ، ويزيدُ بمَرْوَ ـ فتناولتُ القِرْطاس ، فقال : اكتب : مِنْ حَيّانَ مولى مصقلة إلى مخلد بن يزيدَ ، فغمزَني مُقاتِل بن حيان ألّا تَكتُب ، وأقبلَ على أبيه فقال : يا أبتِ تَكتُب إلى مَخلَد وَتَبدأ بنفسك ! قال : نَعَم يا بنيّ ، فإن لم يَرضَ لقي ما لقي قتيبة . ثم قال لي : اكتُب ، فكتبتُ ، فبعثَ مَخلَد بكتابه إلى أبيه ، فأغرَم يزيدُ حيّان مائتي ألف دِرْهم .

وفي هذه السنة فَتَح يزيدُ جُرْجانَ الفتحَ الآخر بعد غدرِهم بجُنْده ونقضِهم العَهْد ، قال علي ، عن الرّهط الذين ذكَر أنهم حَدّثوه بخبر جُرجانَ وطَبَرِستان : ثم إن يزيد لما صالح أهل طَبَرِسْتانَ قَصَد لجرْجان ، فأعطى اللّهَ عَهْداً ؛ لئن ظَفِر بهم ألّا يقلِع عنهم ، ولا يَرفَع عنهم السيفَ حتى يطحن بدمائهم ، ويختبزَ من ذلك الطحين ، ويأكل منه ، فلما بلغ المَرْزبانَ أنه قد صالح الإصبهبذ وتوجه إلى جُرجانَ ، جَمَع أصحابَه وأَتى وجاه ، فتحصّن فيها ، وصاحبها لا يحتاج إلى عُدّة من طعام ولا شَراب . وأقبَل يزيدُ حتى نَزَل عليها وهم متحصِّنون فيها ، وحولها غِياض فليس يُعرَف لها إلّا طريق واحد ، فأقام بذلك سبعةَ أشهر لا يَقدر منهم على شيء ، ولا يَعرِف لهم مَأتًى إلّا مِنْ وجه واحد ، فكانوا يخرجون في الأيام فيقاتِلونه ويَرجِعون إلى حِصْنهم ، فَبَيْناهُم على ذلك إذْ خرج رجلٌ من عَجَم خُراسانَ كان مع يزيد يتصّيدُ ومعه شاكرِّيةٌ له .

وقال هِشام بنُ محمد ، عن أبي مِخنَف : فخرَج رجل من عسكرِه من طيّىء يتصيّد ، فأبصرَ وَعِلاً يَرقي في الجَبَل ، فاتّبعه ، وقال لمن معه : قفوا مَكانَكم ، ووَقَل في الجَبَل يقتصّ الأثر ، فما شَعَر بشيء حتى هَجَم على عسكرِهم ، فرجع يريدُ أصحابَه ، فخاف ألّا يهتديَ ، فجعل يُخرِّق قَباءَه ويَعقِد على الشجر علامات ، حتى وَصَل إلى أصحابه ، ثم رجع إلى العسكر . ويقال : إنّ الذي كان يتصيد الهَيّاج بن عبدالرحمن الأزديّ من أهل طُوس ، وكانَ مَنْهوماً بالصّيد ، فلما رجع إلى العسكر أتى عامرَ بن أينم الواشجيّ صاحب شرْطة يَزيد ، فمَنعوه من الدّخول ، فصاح : إنّ عندي نَصيحة .

وقال هِشام عن أبي مِخنَف : جاء حتى رَفَعَ ذلك إلى ابن زَحْر بن قيس ، فانطَلَق به ابنا زَحْر حتى أدخلاه على يزيد ، فأعلَمه ، فضَمِن له بضَمان الجُهنيّة ـ أمّ ولد كانت ليزيد ـ على شيء قد سمّاه .

وقال علي بن محمد في حديثه عن أصحابه : فدعا به يزيد فقال : ما عندَك؟ قال : أتريد أن تدخل وجاه بغيرِقتال؟ قال: نعَم ، قال : جَعَالتي؟ قال : احتكِمْ ، قال : أربعة آلاف ؛ قال : لك دِيَة ، قال : عَجِّلوا لي أربعَة آلاف ، ثمّ أنتم بعدُ مِن وراء الإحسان . فأمَر له بأربعة آلاف ، ونَدَب الناس ، فانتدب ألف وأربعمائة ، فقال : الطريق لا يَحمِل هذه الجماعة لالتفاف الغِياض ، فاختار منهم ثلثمائة ، فوجّههم ، واستعمل عليهم جَهْم بن زَحْر .

وقال بعضهم : استعمَل عليهم ابنه خالد بن يزيد ، وقال له : إن غُلبتَ على الحياة فلا تُغلَبنّ على

الموت ، وإياكَ أن أراكَ عندي منهزماً ، وضَمّ إليه جَهْم بن زَحْر ، وقال يزيد للرجل الذي نَدَب الناسَ معه : مَتى تَصلُ إليهم ؟ قال : غداً عند العَصْر فيما بين الصَّلاتين ، قال : امضُوا على بركة الله ؛ فإني سأجهَد على مناهَضَتهم غداً عند صلاة الظهر . فساروا ، فلما قارب انتصاف النهار من غدٍ أمَر يزيدُ الناس أن يُشعِلوا النارَ في حَطَب كان جمَعَه في حِصارِه إياهم ، فصيّره آكاماً ، فأضرَموه ناراً ؛ فلم تَزُل الشمس حتى صارَ حولَ عسكره أمثال الجبال من النيران ، ونَظَر العدوّ إلى النار فهالهم ما رأوا من كثرتها فخرجوا إليهم وأمر يزيد الناسَ حين زالت الشمس فصلّوْا ، فجمعوا بينَ الصَّلاتين ، ثمّ زَحَفوا إليهم فاقتَتَلوا ، وسار الآخرون بقيّةَ يومهم والغَد ، فهَجَموا على عسكر الترك قُبَيْل العَصْر ، وهم آمنون من ذلك الوجه ، ويزيدُ يُقاتِل من هذا الوجه ، فما شَعروا إلاّ بالتكبير من ورائهم ، فانقطَعوا جميعاً إلى حِصْنهم ، ورَكِبَهُم المسلمون ، فأعطَوْا بأيديهم ، ونَزَلوا على حُكْم يزيدَ ، فسبى ذراريّهم ، وقتَل مقاتِلتَهم ، وصلبهم فَرْسَخين عن يمين الطريق ويسارِه ، وقاد منهم اثني عشر ألفاً إلى الأندرهز ـ وادي جرْجان . وقال: مَنْ طلبهم بثأر فليقتُل ، فكان الرجلُ من المسلمين يَقتلُ الأربعة والخمسةَ في الوادي ، وأجرى الماء في الوادي على الدّم ، وعليه أرجاء ليطحَن بدمائهم ، ولتبِّر يمينُه ، فطَحَن واختَبَز وأكل وبَنَى مدينة جُرْجان . وقال بعضهم: قَتَل يزيدُ من أهل جُرجان أربعين ألفاً ، ولم تكن قبلَ ذلك مدينة ورَجع إلى خُراسانَ واستعمَل على جُرجانَ جَهْم بن زَحْر الجعفي .

وأمّا هشام بنُ محمد فإنه ذَكَر عن أبي مخنَف أنه قال: دعا يزيد جهمَ بنَ زَحْر فبعث معه أربعمائة رجل حتى أخذوا في المكان الذي دُلّوا عليه وقد أمَرهم يزيدُ فقال : إذا وَصَلْتم إلى المدينة فانتَظِروا ، حتى إذا كان في السَّحر فكَبِّروا ، ثم انطلِقوا نحوَ باب المدينة ، فإنكم تجدوني وقد نهضت بجميع الناس إلى بابها ؛ فلما دخل ابن زَحْر المدينةَ أمهل حتى إذا كانت الساعةُ التي أمره يزيدُ أن يَنهضَ فيها مَشَى بأصحابه ، فأخذَ لا يَستقبل من أحراسِهم أحداً إلاّ قتله . وكَبّر ، ففزِع أهلُ المدينة فَزَعاً لم يَدخُلهم مِثلُه قطّ فيما مضى ، فلم يَرعهم إلاّ والمسلمون معهم في مَدينتهم يكبّرون فدُهِشوا ، فألقى اللّهُ في قلوبهم الرّعب ، وأقبَلوا لا يَدْرون أين يتوّجهون ! غيرَ أنّ عِصابةً منهم ليسوا بالكثير قد أقبلوا نحو جَهْم بن زَحْر ، فقاتَلوا ساعةً ، فدُقّت يدُ جَهْم ، وصبر لهم هو وأصحابُه ، فلم يُلبثوهم أنْ قتلوهم إلاّ قليلاً . وسمع يزيدُ بنُ المهلب التكبيرَ ، فوثَب في الناس إلى الباب ، فوجدوهم قد شَغلَهم جَهْم بن زَحْر عن الباب ، فلَم يجدْ عليه من يَمنعُه ولا مَن يَدفَع عنه كبير دَفع ، ففَتَح الباب ودخَلَها من ساعته ، فأخرَج من كان فيها من المُقاتِلة ، فنَصب لهم الجُذوعَ فَرْسَخين عن يمين الطريق ويسارِه ، فصَلَبهم أربعةَ فراسخ ، وَسَبى أهلَها ، وأصاب ما كان فيها .

قال علي في حديثه ، عن شيوخه ، الذين قد ذكرتُ أسماءَهم قبلُ ، وكتب يزيدُ إلى سليمانَ بن عبدالملك :

أما بعد ، فإن الله قد فَتَح لأمير المؤمنين فَتْحاً عظيماً ، وصَنَع للمسلمين أحسَنَ الصُّنْع ، فلِربّنا الحمدُ على نِعمه وإحسانِه ، أظهر في خلافة أمير المؤمنين على جُرْجان وطَبَرستان ، وقد أعيَا ذلك سابُورَ ذا الأكْتاف وكِسرى بن قُباذ وكسري بن هُرْمُز ، وأعيَا الفاروق عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومَنْ بعدهما من خلفاءِ الله ، حتى فَتَح الله ذلك لأمير المؤمنين ؛ كرامةً من الله له ، وزيادة في نِعمه عليه . وقد صار عندي من خُمس ما أفاءَ اللّهُ على المسلمين بعد أن صار إلى كلّ ذي حقٍّ حقه من الفَيء والغَنيمة ستةُ آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله .

فقال له كاتبه المغيرة بنُ أبي قرّة مولَى بني سَدُوس : لا تَكتُب بتسميةِ مال ، فإنك مِنْ ذلك بين أمرين : إما استَكْثرَه فأمَرَك بحَمْله ، وإما سَخَت نفسُه لكَ به فَسوّغَكَه فتكلفت الهديّة ، فلا يأتيه من قبَلك شيء إلاّ استقبله ، فكأني بك قد استغرقْتَ ما سمّيت ولم يقع منه موقعاً ، ويبقى المالُ الذي سميت مخلّداً عندهم عليك في دواوينهم ، فإن وَلِيَ والٍ بعدَه أخذَك به ، وإن وَلِي من يتحامَل عليك لم يَرضَ منك بأضعافِه ، فلا تمضِ كتابَك ، ولكن اكتب بالفتح ، سَلْه القُدومَ فَتُشافِهَهُ بما أحببتَ مُشَافهةً ، ولا تقصّر ، فإنك إن تقصّر عما أحببتَ أحرَى من أن تكثّر .

فأبى يَزيدُ وأمضَى. وقال : بعضُهم كان في الكِتاب أربعة آلاف ألف .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة توفّي أيوب بنُ سليمانَ بن عبدالملك ، فحدّثت عن علي بن محمد ، قال : حدَّثنا علي بن مجاهد ، عن شيخ من أهل الرّيّ أدرَكَ يزيدَ ، قال : أتَى يزيدُ بن المهلب الرّي حين فَرَغ من جُرْجانَ ، فبلغه وفاةُ أيوب بنِ سليمان وهو يسيرُ في باغ أبي صالح على باب الرّي ، فارتجَز راجزٌ بين يَدَيْه فقال :

إن يَــكُ أيّــوبُ مَضَى لِشــأْنِــهِ   فــإنَّ داودَ لــفِــي مَــكَــانِــهِ

يقيمُ ما قدْ زَال مِنْ سُلْطَانِهِ

وفي هذه السنة فُتِحتْ مدينة الصَّقالِبة .

وفيها غزا داوُد بنُ سليمانَ بن عبدالملك أرضَ الرّوم ، ففَتَح حِصْنَ المرأة مما يليَ مَلطيَة .

وحجّ بالناس في هذه السنة عبدُالعزيز بنُ عبدالله بن خالد بن أسيد وهو يومئذ أميرٌ على مكة ، حدَّثني بذلك أحمدُ بن ثابت ، عمن ذَكَره ، عن إسحاقَ بن عيسى ، عن أبي معشر .

وكان عمال الأمصار في هذه السنة هم العمال الذين كانوا عليها سنةَ سَبْع ، وقد ذَكَرْناهم قبلُ ، غير أنّ عامل يزيد بنَ المهلب على البَصْرة في هذه السنة كان ـ فيما قيل ـ سُفْيان بنُ عبدالله الكِنْدي .

ثم دخلت سنة تسع وتسعين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك وَفاةُ سليمانَ بن عبدالملك ، تُوفِّيَ - فيما حُدثت عن هشام ، عن أبي مِخْنَف - بِدَابِق من أرض قِنَّسْرين يوم الجمعة لعشرِ ليال بَقِينَ من صفر ، فكانت ولايتُه سنتين وثمانية أشهر إلا خمسة أيام .

وقد قيل : توفِّي لعشرِ ليال مضَين من صفر . وقيل : كانت خلافتُه سنَتَين وسبعة أشهر وقيل : سنتين وثمانية أشهر وخمسة أيام .

وقد حدّث الحسن بن حماد ، عن طلحة أبي محمد ، عن أشياخه ، أنهم قالوا : استخلفَ سليمان بن عبدالملك بعد الوليد ثلاثَ سِنين . وصلى عليه عمرُ بنُ عبدالعزيز .

وحدثني أحمدُ بنُ ثابت ، عمّن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي مَعشَر ، قال : توفِّيَ سليمانُ بنُ عبدالملك يومَ الجمعة لعشر خلوْنَ من صفر سنة تسع وتسعين ، فكانت خلافتُه ثلاثَ سنين إلَّا أربعة أشهر .

ذكر الخبر عن بعض سيره :

حدِّثت عن علي بن محمد ، قال : كان الناسُ يقولون : سليمانُ مفتاحُ الخَيْر ، ذَهَب عنهم الحجاج ، فولي سليمانُ ، فأطلق الأسارى ، وخَلَّى أهلَ السجون ، وأحسَنَ إلى الناس ، واستخلف عمر بنَ عبدالعزيز ، فقال ابن بيض :

حَازَ الخلافةَ والداكَ كلاهُمَا   من بَيْنِ سُخْطَةِ سَاخِطٍ أو طَائِعِ

أَبَوَاكَ ثمّ أخُوكَ أَصْبَحَ ثالثاً   وَعَلى جَبِينِكَ نورُ مُلكِ الرابعِ

وقال علي: قال المفضَّل بنُ المهلَّب : دخلتُ على سليمانَ بدابِقَ يومَ جمعة، فدعا بثياب فَلبسها ، فلم تُعجبه ، فدعا بغيرها بثياب خُضْر سُوسيّة بَعَث بها يزيدُ بن المهلب ، فلبسها واعتمّ وقال : يابن المهلَّب ، أعجبتْك؟ قلتُ : نَعَم، فَحَسَر عن ذِراعَيه ثم قال : أنا المَلِك الفَتِيّ ، فصلَّى الجُمعة ، ثم لم يُجمِّع بعدَها ، وكتب وَصِيّته . ودَعا ابنَ أبي نُعَيم صاحب الخاتَم فختَمه .

قال علي: قال بعضُ أهل العِلم : إن سليمانَ لبس يوماً حُلة خضراءَ وعمامةً خضراء ونَظَر في المرآة فقال: أنا المَلِك الفَتِيّ ، فما عاشَ بعد ذلك إلَّا أسبوعاً .

قال علي: وحدّثنا سُحَيم بنُ حَفْص ، قال : نظرتْ إلى سليمانَ جاريةٌ له يوماً ، فقال : ما تنظرين ؟ فقالت :

أنتَ خيرُ المَتاعِ لو كنتَ تبْقَى ... غيرَ أنْ لا بقاءَ للإنسانِ
لَيْسَ فيما عَلِمْتُهُ فيكَ عَيْبٌ ... كانَ في الناسِ غيرَ أنَّكَ فانِ

فنَفَض عمامتَه.

قال علي: كان قاضي سليمانَ سليمانُ بنُ حَبيب المحاربي، وكان ابن أبي عُيَيْنة يُقصّ عندَه.

وحُدِّثت عن أبي عُبيدة، عن رُؤْبة بن العَجاج، قال: حجّ سليمان بنُ عبدالملك، وحجّ الشعراء معه، وحججتُ معهم، فلما كان بالمدينة راجعاً تَلَقّوه بنحو من أربعمائة أسير من الرّوم، فقعد سليمانُ، وأقربُهم منه مجلساً عبدُالله بنُ الحَسَن بن الحَسَن بن علي بن أبي طالب صَلَوات الله عليهم، فقدّم بِطْريقُهم فقال: يا عبدَالله، اضرب عُنقه، فقام فما أعطاه أحدٌ سَيْفاً حتى دَفَع إليه حَرسيّ سَيْفه فضرَبَه فأبَانَ الرأسَ، وأطنّ الساعد وبعض الغُلّ، فقال سليمان: أمَا واللّهِ ما مِن جودة السيف جادَت الضّربة، ولكن لحَسَبِه، وجَعَل يَدْفَع البقيّة إلى الوجُوه وإلى الناس يقتلونهم حتى دَفَع إلى جرير رَجُلاً منهم، فدسّت إليه بنو عَبْس سَيْفاً في قِراب أبيَض، فضَرَبه فأبانَ رأسَه، ودُفِع إلى الفَرَزْدق أسيرٌ فلم يَجِد سَيفاً، فَدَسّوا له سَيْفاً ددانا مثنيًّا لا يَقطع، فضرَب به الأسيرَ ضَرَبات، فلم يَصنع شيئاً، فَضحِك سليمانُ والقَوْم، وشَمِت بالفَرَزدق بنو عَبْس أخوال سليمانَ، فألقَى السيفَ وأنشأ يقول، ويعتذر إلى سليمانَ، ويأتسي بنُبُوّ سَيْف وَرْقاءَ عن رأسِ خالد:

إن يكُ سيفٌ خانَ أو قَدرٌ أتى ... بتأخير نفسٍ حَتْفُها غيرُ شاهدِ
فسيفُ بني عبسٍ وقد ضَربوا به ... نَبا بيَدَيْ ورقاءَ عن رأسِ خالدِ
كذاك سُيُوفُ الهند تَنْبُو ظُبَاتها ... وتَقْطَعُ أحياناً مَناط القلائدِ

وورقاء هو وَرْقاء بنُ زُهَير بن جَذِيمة العَبْسيّ، ضربَ خالدَ بنَ جَعْفر بنِ كلاب، وخالد مُكِبٌّ على أبيه زُهَيرِ قد ضَرَبه بالسّيف وصَرَعه، فأقبَل وَرْقاء بنُ زهير فضَرَب خالداً، فلم يَصنعَ شيئاً، فقال ورقاء ابنُ زُهير:

رأيتُ زهيراً تحت كَلْكَلِ خالدٍ ... فأقبلتُ أسعَى كالعَجُولِ أُبادِرُ
فشُلّت يميني يومَ أضرِبُ خالداً ... ويُحْصِنُهُ مِنّي الحديدُ المظاهرُ

وقال الفَرَزْدق في مُقامِه ذلك:

أَيَعْجَبُ النّاسُ أنْ أَضحكْتُ خَيْرَهُمُ ... خليفةَ اللّهِ يُسْتَسْقَى به المطرُ
بما نَبا السيفُ عن جُبْنٍ ولا دَهَشٍ ... عند الإمام ولكن أخّرَ القَدَرُ
ولو ضربْتُ على عَمْرٍو مُقَلَّدَهُ ... لخَرَّ جُثْمانُهُ ما فوقه شَعَرُ
وما يُعَجِّلُ نفساً قبلَ مِيتَتِهَا ... جمعُ اليدين ولا الصَّمْصَامةُ الذَّكَرُ

وقال جَرير في ذلك:

بسيفِ أبي رَغْوانَ سيفِ مجاشعٍ ... ضربْتَ ولم تضرب بسيف ابن ظالمِ
ضربتَ به عند الإمام فأرْعِشَتْ ... يداك، وقالوا مُحدَثٌ غيرُ صارِمِ

حدثني عبدُالله بنُ أحمد، قال: حدّثني، أبي قال: حدّثني سليمان قال: حدثني عبدالله بن محمد بن

عُيَينة ، قال : أخبرني أبو بكر بنُ عبدالعزيز بن الضحاك بن قيس، قال: شهد سليمانُ بنُ عبدالملك جَنازةً بدابِق ، فدُفنتْ في حقل ، فجعلَ سليمانُ يأخذ من تلك التربة فيقول : ما أحسنَ هذه التربة ! ما أطيَبها ! فما أتى عليه جمعةٌ ـ أو كما قال ـ حتى دُفن إلى جنب ذلك القبر .

خلافة عمر بن عبدالعزيز

وفي هذه السنة استُخلف عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحَكَم .

ذكر الخبر عن سبب استخلاف سليمان إياه :

حدّثني الحارث ، قال : حدثنا ابن سعد، قال : حدثنا محمد بن عمر، قال: حدثني الهيثم بن واقد ، قال : استُخلف عمر بن عبدالعزيز بدابق يومَ الجمعة لعشر مضَين من صفر سنة تسع وتسعين .

قال محمد بن عمر: حدّثني داود بن خالد بن دينار ، عن سهيل بن أبي سهيل قال: سمعت رجاء بن حَيْوة ، يقول : لما كان يوم الجمعة لبس سليمانُ بن عبدالملك ثياباً خُضراً من خَزّ ، ونظر في المرآة ، فقال : أنا والله الملك الشابّ ، فخرج إلى الصّلاة فصلى بالناس الجمعة ، فلم يرجع حتى وعك ، فلما ثقُل عهدَ في كتاب كتبَه لبعض بنيه وهو غلام ولم يبلُغ فقلت : ما تصنع يا أميرَ المؤمنين ! إنه مما يحفظ الخليفة في قبره أن يستخلف على المسلمين الرجل الصالح . فقال سليمان : أنا أستخيرُ الله وأنظرُ فيه . ولم أعزم عليه ؛ قال : فمكث يوماً أو يومين ، ثمّ خرّقه ، فدعاني ، فقال : ما ترى في داود بن سليمان ؟ فقلت : هو غائب عنك بقُسْطنطينية وأنت لا تدري أحَيٌّ هو أم ميت! فقال لي: فمن ترى؟ قلت: رأيَك يا أمير المؤمنين ، وأنا أريد أنظر من يذكر ، قال: كيف ترى في عمر بن عبدالعزيز؟ فقلت: أعْلَمُه والله خيراً فاضلاً مسلماً؛ فقال: هو والله على ذلك ، ثم قال : والله لئن وليته ولم أوَلّ أحداً سواه لتكونن فتنة ، ولا يتركونه أبداً يلي عليهم إلاّ أن يجعل أحدهم بعدَه ، ويزيد بن عبدالملك غائب على الموسم ، قال : فيزيد بن عبدالملك أجعلُه بعدَه، فإن ذلك مما يسكنهم ويرضَوْن به ؛ قلتُ : رأيك . قال : فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتابٌ من عبدالله سليمان أمير المؤمنين لعُمَر بن عبدالعزيز ، إني قد ولّيتك الخلافةَ من بعدي ، ومن بعده يزيد بن عبدالملك ؛ فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله ولا تختلفوا فيُطمَعَ فيكم .

وختم الكتاب ، وأرسل إلى كعب بن حامد العبسي صاحب شُرَطة فقال : مُرْ أهلَ بيتي فليجتمعوا ؛ فأرسل كعب إليهم أن يجتمعوا فاجتمعوا، ثم قال سليمان لرجاء بعد اجتماعهم: اذهبْ بكتابي هذا إليهم فأخبرهم أنّ هذا كتابي ، وأمرُهم فليبايعوا من وليت فيه ؛ ففعل رجاء ، فلما قال رجاء ذلك لهم قالوا : ندخل فنسلِّم على أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ؛ فدخلوا فقال لهم سليمانُ في هذا الكتاب ـ وهو يشير لهم إليه وهم ينظرون إليه في يد رجاء ابن حَيْوة ـ عهدي ، فاسمعوا وأطيعوا وبايِعوا لمن سمّيتُ في هذا الكتاب ، فبايَعوه رجلاً رجلاً ، ثمّ خرج بالكتاب مختوماً في يد رجاء بنِ حَيْوة .

قال رجاء : فلما تفرّقوا جاءني عمر عمر بنُ عبدالعزيز فقال : أخشى أن يكون هذا أسندَ إليّ شيئاً من هذا الأمر ، فأنشدك اللّهَ وحُرْمتي ومَوَدّتي إلاّ أعْلَمتَني إن كان ذلك حتى أستعفيَه الآن قبل أن تأتيَ حال لا أقدر فيها

على ما أقدر عليه الساعة ! قال رجاء : لا والله ما أنا بمُخبرك حَرْفاً ؛ قال : فذهب عمرُ غضبان .

قال رجاء : لقيني هشام بنُ عبدالملك ، فقال : يا رجاء ، إنّ لي بك حُرمةً ومودّةً قديمةً ، وعندي شكر ، فأعْلِمْني هذا الأمر ، فإن كان إليّ علمتُ ، وإن كان إلى غيري تكلّمتُ ، فليس مثلي قـصّر به ، فأعلِمْني فلك الله عليّ ألاّ أذكر من ذلك شيئاً أبداً . قال رجاء : فأبيت فقلت : والله لا أخبرك حرفاً واحداً مما أُسِرَّ إليّ .

قال : فانصرف هشام وهو قد يئس ، ويضرب بإحدى يديه على الأخرى وهو يقول : فإلى من إذاً نُحِّيَتْ عني ؟ أتخرج من بني عبدالملك؟ قال رجاء : ودخلتُ على سليمان فإذا هو يموت ، فجعلتُ إذا أخذَتْه السَّكْرة من سَكَرات الموت حرّفتُه إلى القبلة ، فجعل يقول حين يُفيق : لم يأنِ لذلك بعدُ يا رجـاء ، ففعلت ذلك مرّتين ، فلما كانت الثالثة قال: من الآن يا رجاء إن كنت تريد شيئاً ، ، أشهدُ أن لا إله إلاّ الله ، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله . قال : فحرّفته ومات ؛ فلما غمّضته سجّيته بقطيفة خضراءَ ، وأغلقتُ البابَ . وأرسلت إليّ زوجتُه تقول : كيف أصبَح ؟ فقلتُ : نائم ، وقد تَغطّى ، فنظر الرّسول إليه مغطّى بالقطيفة ، فرجع فأخبرَها فقبِلَتْ ذلك ، وظنّتْ أنه نائم ، قال رجاء : وأجلستُ على الباب من أثق به ، وأوصيتُه ألاّ يبرح حتى آتيَه ، ولا يدخل على الخليفة أحد .

قال : فخرجتُ فأرسلتُ إلى كعب بن حامد العبسي ، فجمَعَ أهل بيت أمير المؤمنين ، فاجتمعوا في مسجد دابِق ، فقلت : بايِعوا ، فقالوا : قد بايعنا مرّة ونبايع أخرى! قلتُ : هذا عهد أمير المؤمنين ، فبايِعوا على ما أَمَر به ومن سمّى في هذا الكتاب المختوم ، فبايَعوا الثانية ؛ رجلاً رجلاً . قال رجاء : فلما بايعوا بعد موت سليمان رأيتُ أني قد أحكمتُ الأمر ، قلت : قوموا إلى صاحبكم فقد مات ، قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ! وقرأتُ الكتاب عليهم ، فلما انتهيت إلى ذِكر عمر بن عبدالعزيز نادى هشامُ بن عبدالملك : لا نبايعه أبداً ، قلتُ : أضرب والله عنقَك ، قُم فبايع ، فقام يجرّ رجليه .

قال رَجاء: وأخذتُ بضَبْعَيْ عمر بن عبدالعزيز فأجلستُه لما وقع فيه وهشام يسترجع على المنبـر وهو يسترجع لما أخطأه، فلما انتهى هشام إلى عمر قال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون! حين صارت إليّ لكراهته إياها ، والآخَر يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، حيث نُحِّيَتْ عني .

قال: وغُسل سليمانُ وكفِّن وَصَلّى عليه عمرُ بنُ عبدالعزيز ؛ قال رجاء : فلما فُرِغ من دفنه أُتيَ بمراكب الخلافة : البَراذِين والخيل والبغال ولكلّ دابة سائس ، فقال : ما هذا! قالوا : مَركَب الخلافة ، قال : دابتي أوفَق لي ، وركِب دابّته . قال : فصُرفت تلك الدوابّ ، ثمّ أقبل سائراً ، فقيل : منزل الخلافة ، فقال : فيه عيال أبي أيوب وفي فُسطاطي كفاية حتى يتحوّلوا ، فأقام في منزله حتى فرّغوه بعدُ ؛ قال رجاء : فلما كان المساء من ذلك اليوم قال : يا رجاء ، ادعُ لي كاتباً ، فدعوتُه وقد رأيتُ منه كلّ ما سَرَّني ، صَنَع في المراكب ما صَنَع ، وفي منزل سليمان ؛ فقلتُ : كيف يصنع الآن في الكتاب؟ أيصنع نُسخاً ، أم ماذا؟ فلما جلس الكاتب أملَى عليه كتاباً واحداً مِن فيه إلى يد الكاتب بغير نُسخة ، فأملى أحسنَ إملاء وأبلغَه وأوجزَه ، ثم أمر بذلك الكتاب أن يُنسخ إلى كل بلد .

وبلغ عبدالعزيز بن الوليد ـ وكان غائباً ـ موتُ سليمان بن عبدالملك، ولم يعلم ببيعة الناس عُمَر بن عبدالعزيز ، وعهِد سليمان إلى عمر ، فعقد لواء، ودعا إلى نفسه ، فبلغتْه بيعة الناس عمر بعهْد سليمان ،

فأقبل حتى دخل على عمر بن عبدالعزيز ، فقال له عمر : قد بلغني أنك كنتَ بايعتَ من قِبَلك ، وأردتَ دخولَ دِمشق ، فقال : قد كان ذاك ، وذلك أنه بلغني أنّ الخليفة سليمان لم يكن عَقَد لأحد ، فخِفت على الأموال أن تُنتهَب ، فقال عمر : لو بويعتَ وقمتَ بالأمر ما نازعتُك ذلك ، ولقعدتُ في بيتي ، فقال عبدالعزيز : ما أحبّ أنه ولي هذا الأمر غيرُك . وبايع عمر بن عبدالعزيز . قال : فكان يُرجى لسليمان بتوليته عمرَ بن عبدالعزيز وترك ولده .

وفي هذه السنة وجّه عمر بن عبدالعزيز إلى مَسلَمة وهو بأرض الروم وأمَرَه بالقُفول منها بمن معه من المسلمين ، ووجّه إليه خيلاً عِتاقاً وطعاماً كثيراً ، وحَثّ الناس على معونتهم ، وكان الذي وجّه إليه الخيل العِتاق - فيما قيل - خمسمائة فَرَس .

وفي هذه السنة أغارت الترك على أذْربيجان ، فقتلوا من المسلمين جماعةً ، ونالوا منهم ، فوجّه إليهم عمر بن عبدالعزيز بن حاتم بن النعمان الباهلي ، فقتل أولئك الترك ، فلم يُفلت منهم إلّا اليسير ، فقدم منهم على عمرَ بُخناصرةَ بخمسين أسيراً .

وفيها عزل عمرُ يزيدَ بن المهلّب عن العراق، ووجّه على البصرة وأرضها عديّ بن أرطاة الفَزاري ، وبعث على الكوفة وأرضِها عبدَ الحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب الأعرج القرشي ، من بني عدي بن كعب ، وضمّ إليه أبا الزّناد ، فكان أبو الزّناد كاتب عبدالحميد بن عبدالرحمن ، وبعث عدي في أثر يزيد بن المهلب موسى بن الوجيه الحِميريّ .

وحجّ بالناس في هذه السنة أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم ، وكان عامل عمر على المدينة .

وكان عامل عمر على مكة في هذه السنة عبدالعزيز بن عبدالله بن خالد بن أسيد ، وعلى الكوفة وأرضِها عبدالحميد بن عبدالرحمن ، وعلى البصرة وأرضها عدي بن أرطاة ، وعلى خُراسانَ الجرّاح بن عبدالله . وعلى قَضاء البَصرة إياس بن معاوية بن قرّة المُزَنيّ، وقد ولي فيما ذكر قبلَه الحسن بن أبي الحسن ، فشكا ، فاستقصى إياس بن معاوية .

وكان على قضاء الكوفة في هذه - السنة فيما قيل - عامر الشعبي . وكان الواقدي يقول : كان الشعبي على قضاء الكوفة أيامَ عمر بن عبدالعزيز من قبَل عبدالحميد بن عبدالرحمن ، والحسن بن أبي الحسن البَصْري على قضاء البَصْرة من قبَل عدي بن أرطاة، ثم إن الحسن استعفَى من القضاء عَديًّا ، فأعفاه وولّى إياساً .

ثم دخلت سنة مائة

ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

فمن ذلك خروج الخارجة التي خرجتْ على عمَر بن عبدالعزيز بالعراق .

ذكر الخبر عن أمرهم :

ذكر محمد بن عمرَ أنّ ابن أبي الزّناد حدّثه ، قال : خرجتْ حَرُوريّة بالعراق ، فكتب عمر بن عبدالعزيز إلى عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطّاب عامل العِراق يأمره أن يدعوهم إلى العَمَل بكتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ . فلما أعذَر في دعائهم بعث إليهم عبدُالحميد جيشاً فهزمْتهم الحَروريّة ، فبلغ عمر ، فبعث إليهم مَسلَمة بن عبدالملك في جيش من أهل الشام جهّزهم من الرّقة ، وكتب إلى عبدالحميد : قد بلغني ما فعلَ جيشُك جيشُ السوء ، وقد بعثتُ مَسلَمة بنَ عبدالملك ، فخلِّ بينه وبينهم . فلقيهم مَسلَمة في أهل الشام ، فلم يَنْشَب أن أظهره الله عليهم .

وذكر أبو عُبيدةَ معَمر بن المثنى أنّ الذي خرج على عبدالحميد بن عبدالرحمن بالعراق في خلافة عمر بن عبدالعزيز شَوْذَب ـ واسمه بِسطام من بني يَشكُر ـ فكان مُخرَجه بجوْخَى في ثمانين فارساً أكثرُهم من ربيعة ، فكتب عمرُ بن عبدالعزيز إلى عبدالحميد؛ ألاّ تحرّكهم إلاّ أن يسفكوا دماً ، أو يُفسدوا في الأرض ، فإن فعلوا فحُلْ بينهم وبين ذلك ، وانظر رجلاً صَليباً حازماً فوجّههْ إليهم ، ووجّه معه جنداً ، وأوصِه بما أمرتك به . فعقد عبدالحميد لمحمد بن جرير بن عبدالله البَجَليّ في ألْفَيْن من أهل الكوفة، وأمره بما أمره به عمر ، وكتب عمر إلى بِسْطام يدعوه ويسأله عن مُخرَجه ، فقدم كتاب عمرَ عليه ، وقد قدم عليه محمد بن جرير ، فقام بإزائه لا يحرّكه ولا يهيّجه ، فكان في كتاب عمر إليه : إنه بلغني أنك خرجتَ غَضَباً لله ولنبيّه ، ولستَ بأولى بذلك منّي ، فهلمّ أناظرْك فإن كان الحقّ بأيدينا دخَلْتَ فيما دخل فيه الناس ، وإن كان في يدك نظرْنا في أمرنا . فلم يحرّك بسطام شيئاً ، وكتب إلى عمر: قد أنصفت ، وقد بعثتُ إليك رجلين يُدارِسانك ويناظرانِك ـ قال أبو عُبيدة : أحد الرّجلين اللذَين بعثهما شوذَب إلى عمر مَمْزوج مولىً بني شيبان ، والآخر من صلبية بني يَشكُر ـ قال : فيقال : أرسل نَفَراً فيهم هذان ، فأرسل إليهم عمر : أن اختاروا رجلين ؛ فاختاروهما ، فدخَلا عليه فناظَراه ، فقالا له : أخبرْنا عن يزيد لِمَ تُقرّه خليفةً بعدَك ؟ قال : صيَّره غيري ؛ قالا : أفرأيت لو وَليت مالاً لغيرك ثم وكَّلته إلى غير مأمون عليه ، أتُراك كنتَ أدّيت الأمانة إلى من ائتمَنَك ! قال : فقال : أنظِراني ثلاثاً ، فخرجا مِن عندِه ، وخاف بنو مروان أن يُخرِج ما عندهم وفي أيديهم من الأموال ، وأن يَخلَع يزيدَ ، فدسوا إليه مَنْ سقاه سُمًّا ، فلم يَلبثْ بعد خروجهما من عندِه إلاّ ثلاثاً حتى مات .

وفي هذه السنة أغزَى عمرُ بن عبدالعزيز الوليدَ بن هشام المُعَيْطيّ وعمرَو بن قيس الكِنديّ من أهل حِمص الصائفةَ .

وفيها شخَصَ عمرُ بن هُبيرة الفَزاريّ إلى الجزيرة عاملاً لعمرَ عليها .

وفي هذه السنة حُمل يزيد بن المهلب من العِراق إلى عمرَ بن عبدالعزيز .

ذكر الخبر عن سبب ذلك، وكيف وصل إليه حتى استوثق منه :

اختلَف أهلُ السيَر في ذلك ، فأما هشام بن محمد فإنه ذكر عن أبي مِخنَف أنّ عمر بنَ عبدالعزيز لما جاء يزيدُ بنُ المهلب فنزل واسطاً ، ثم ركب السفن يريد البَصْرة ، بعث عدي بن أرطاة إلى البصرة أميراً ، فبعث عديٌّ موسى بن الوجيه الحميري ، فلحقه في نَهر مَعقِل عند الجسر ، جِسر البَصرة فأوثَقه، ثم بعث به إلى عمرَ بن عبدالعزيز ، فقَدِم به عليه موسى بن الوجيه ، فدعا به عمر بنُ عبدالعزيز ـ وقد كان عمر يَبغَض يزيدَ وأهل بيته ، ويقول : هؤلاء جَبابرة ، ولا أحبّ مِثلَهم ، وكان يزيـد بن المهلب يَبغَض عمرَ ويقـول : إني لأظنه مرائياً ، فلما ولي عمر عرف يزيدُ أن عمَر كان من الرّياء بعيداً . ولما دعا عمر يزيدَ سأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبدالملك ، فقال : كنتُ من سليمان بالمكان الذي قد رأيت ، وإنما كتبتُ إلى سليمانَ لأسمّع الناسَ به ، وقد علمتُ أن سليمان لم يكن ليأخذَني بشيء سمعت ، ولا بأمر أكرهه ، فقال له : ما أجد في أمرك إلاّ حبسَك ، فاتّق الله وأدّ ما قِبَلك ، فإنها حقوقُ المسلمين ، ولا يَسَعُني تَركُها ، فَردّه إلى مَحبِسه ، وبعث إلى الجرّاح بن عبدالله الحَكَمي فسرّحه إلى خُراسان ، وأقبل مخلد بن يزيدَ من خُراسان يُعطى الناسَ ، ولا يمرّ بكُورة إلاّ أعطاهم فيها أموالاً عظاماً . ثم خرج حتى قدم على عمَر بن عبدالعزيز ، فدخل عليه فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله يا أميرَ المؤمنين صَنَع لهذه الأمة بولايتك عليها ، وقد ابتُلينا بك ، فلا نكن أشقَى الناسِ بولايتك ، عَلاَم تَحبس هذا الشيخَ ! أنا أتحمل ما عليه ، فصالحْني على ما إياه تسأل ، فقال عمر: لا . إلاّ أن تحمل جميعَ ما نسألُه إيّاه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كانت لك بيِّنة فخذْ بها ، وإن لم تكن بيِّنة فصدِّق مقالَة يزيد ، وإلاّ فاستحْلِفه ، فإن لم يفعل فصالحه . فقال له عمر: ما أجِد إلاّ أخذَه بجميع المال . فلما خرج مَخلَد قال : هذا خيرٌ عندي من أبيه ، فلم يَلبَث مخلد إلاّ قليلاً حتى مات ، فلما أبى يزيد أن يؤدّيَ إلى عمرَ شيئاً ألبسه جُبّةً من صوف ، وحَمله على جَمَل ، ثم قال: سيروا به إلى دَهْلَك ، فلما أخرِج فمُرَّ به على الناس أخذ يقول : مالي عشيرة ، مالي يُذهَب بي إلى دَهْلَك ! إنما يُذهَب إلى دَهْلَك بالفاسق المُريب الخارب ، سبحان الله! أما لي عشيرة! فدخل على عمر سلامة بن نعيم الخَوْلانيّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ارْدُدْ يزيد إلى محبسه ، فإني أخاف إن أمضيتَه أن ينتزعه قومه ؛ فإني قد رأيتُ قومَه غَضِبوا له . فردّه إلى محبسه ، فلم يزل في محبسه ذلك حتى بلغه مرض عمر .

وأما غير أبي مخنف فإنه قال : كتب عمر بن عبدالعزيز إلى عديّ بن أرطـاة يأمـره بتوجيـه يزيـد بن المهلب ، ودفعه إلى مَنْ بعين التمر من الجند ، فوجّهه عديّ بن أرطاة مع وكيع بن حسان بن أبي سُود التميميّ مغلولاً مقيّداً في سفينة ، فلما انتهى به إلى نهر أبان ، عرض لوكيع ناس من الأزد لينتزعوه منه ، فوثب وكيع فانتضى سيفَه ، وقطع قَلْس السفينة ، وأخذ سيف يزيد بن المهلب ، وحلَف بطَلاق امرأته ليضربنّ عنقه إن لم يتفرقوا ، فناداهم يزيد بن المهلب ، فأعلمهم يمين وكيع ، فتفرّقوا ، ومضى به حتى سلّمه إلى الجند الذين بعينْ

التّمر ، ورجع وكيع إلى عديّ بن أرطاة ، ومضى الجند الذين بعين التّمْر بيزيد بن المهلب إلى عمر بن عبدالعزيز ، فحبسه في السجن .

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة عزل عمر بن عبدالعزيز الجرّاح بن عبدالله عن خراسان، وولاها عبدالرحمن بن نعيم القشيري ، فكانت ولاية الجراح بخراسان سنة وخمسة أشهر، قدمها سنة تسع وتسعين ، وخرج منها لأيام بقيت من شهر رمضان سنة مائة .

ذكر سبب عزل عمر إياه :

وكان سبب ذلك ـ فيما ذكر علي بن محمد عن كليب بن خلف عن إدريس بن حنظلة ، والمفضّل عن جدّه . وعلي بن مجاهد عن خالد بن عبدالعزيز ؛ أن يزيد بن المهلب ولّى جَهْم بن زَحْر جُرجان حين شخص عنها ، فلما كان من أمر يزيد ما كان وجّه عامل العراق من العراق والياً على جرجان ، فقدم الوالي عليها من العراق ، فأخذه جَهْم فقيّده وقيّد رهطاً قدموا معه ، ثم خرج في خمسين من اليمين يريد الجرّاح بخراسان ، فأطلق أهل جُرجان عاملَهم ، فقال الجراح لجهم : لولا أنك ابنُ عمّي لم أسوّغك هذا ، فقال له جَهْم : ولولا أنك ابنُ عمي لم آتِك ـ وكان جهم سِلْفَ الجراح من قِبَل ابنتي حصين بن الحارث وابن عمّه ، لأنّ الحكم وجعفي ابنا سعد ـ فقال له الجرّاح : خالفتَ إمامك ، وخرجت عاصياً ، فاغزُ لعلك أن تظفر ، فيصلح أمرك عند خليفتك . فوجّهه إلى الخُتّل ، فخرج ، فلما قرب منهم سار متنكّراً في ثلاثة ، وخلّف في عسكره ابن عمّه القاسم بن حبيب ـ وهو خَتَنُه على ابنته أمّ الأسود ـ حتى دخل على صاحب الخُتّل فقال له : أَخْلني ، فأخلاه ، فاعتزى ، فنزل صاحب الخُتّل عن سريره وأعطاه حاجته ـ ويقولون : الخُتل موالي النعمان ـ وأصاب مغنماً ؛ فكتب الجرّاح إلى عمر : وأوفد وفداً ؛ رجلين من العرب، ورجلاً من الموالي من بني ضَبَّة . ويكنى أبا الصيداء واسمه صالح بن طريف ، كان فاضلاً في دينه . وقال بعضهم : المولّى سعيد أخو خالد أو يزيد النحويّ . فتكلّم العربيان والآخر جالس، فقال له عمرُ : أما أنت من الوفد؟ قال: بلى، قال: فما يمنعك من الكلام! قال: يا أمير المؤمنين، عشرون ألفاً من الموالي يَغزون بلا عطاء ولا رزق ، ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمّة يُؤخذون بالخراج ، وأميرنا عصبيّ جافٍ يَقوم على منبرنا ، فيقول : أتيتكم حفيًّا ، وأنا اليوم عصبيّ! والله لرجلٌ من قومي أحبّ إليّ من مائة من غيرهم . ويبلغ من جفائه أنّ كُمّ درعه يبلغ نصف درعه ، وهو بعد سيف من سيوف الحجاج ، قد عمل بالظلم والعدوان . فقال عمر : إذن مثلك فليوفّد .

وكتب عمر إلى الجرّاح: انظر مَنْ صلّى قِبَلَك إلى القبلة، فضع عنه الجزية. فسارع الناس إلى الإسلام، فقيل للجرّاح: إنّ الناس قد سارعوا إلى الإسلام، وإنما ذلك نفوراً من الجزية؛ فامتحنهم بالخِتَان.

فكتب الجرّاح بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: إن الله بعث محمداً ﷺ داعياً ولم يبعثه خاتناً . وقال عمر: ابغوني رجلاً صدوقاً، أسأله عن خراسان ، فقيل لـه : قد وجـدّته ، عليـك بأبي مِجْلَز . فكتب إلى الجرّاح : أن أقبل واحمل أبا مِجْلز وخلّف على حرب خراسان عبدالرحمن بن نُعَيم الغامدي . وعلى جزيتها عبيدالله ـ أو عبدالله ـ بن حبيب .

فخطب الجرّاح فقال : يا أهل خراسان ، جئتكم في ثيابي هذه التي عليّ وعلى فرسي ، لم أصب من مالكم إلا حلية سيفي ـ ولم يكن عنده إلا فرس قد شاب وجهه ، وبغلة قد شاب وجهها ؛ فخرج في شهر رمضان

واستخلف عبدالرحمن بن نعيم ، فلما قدم قال له عمر: متى خرجت؟ قال : في شهر رمضان ، قال : قد صدق مَن وَصَفك بالجفاء ، هلاّ أقمت حتى تُفْطِرَ ثم تخرج ! وكان الجرّاح يقول : أنا والله عصبيّ عقبيّ - يريد من العصبيّة .

وكان الجرّاح لما قدم خراسان كتب إلى عمر: إني قدمت خراسان فوجدت قوماً قد أبطرتهم الفتنة فهم يَنزُون فيها نزواً ، أحبّ الأمور إليهم أن تعود ليمنعوا حقّ الله عليهم ، فليس يكفّهم إلاّ السيف والسوط ، وكرهت الإقدام على ذلك إلاّ بإذنك . فكتب إليه عمر :

يابن أمّ الجرّاح ، أنت أحرصُ على الفتنة منهم ؛ لا تضربنّ مؤمناً ولا معاهداً سوطاً إلاّ في حقّ ، واحذر القصاص فإنك صائر إلى من يَعْلم خائنة الأعينُ وما تخْفى الصُدور ، وتقرأ كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها .

ولما أراد الجرّاح الشخوص من خراسان إلى عمر بن عبدالعزيز أخذ عشرين ألفاً . وقال بعضهم : عشرة آلاف من بيت المال . وقال : هي عليَّ سلفاً حتى أؤديها إلى الخليفة . فقدم على عمر ، فقال له عمر : متى خرجت ؟ قال : لأيام بقِين من شهر رمضان ، وعليَّ دين فاقضِه ؛ قال : لو أقمت حتى تفطِر ثم خرجت قضيت عنك . فأدى عنه قومه في أعطياتهم .

ذكر الخبر عن سبب تولية عمر بن عبدالعزيز عبدَالرحمن بن نعيم وعبدالرحمن بن عبدالله القشيري خُراسان :

وكان سبب ذلك - فيما ذُكِر لي - أنّ الجرّاح بن عبدالله لما شُكِيَ ، واستقدمه عمر بن عبدالعزيز ، فقدم عليه عزَله عن خراسان لما قد ذكرت قبل .

ثم إن عمر لما أراد استعمال عامل على خراسان ، قال - فيما ذكر علي بن محمد عن خارجة بن مصعب الضبعي وعبدالله بن المبارك وغيرهما : ابغوني رجلاً صدوقاً أسأله عن خُراسان ، فقيل له : أبو مِجْلز لاحق بن حميد ، فكتب فيه ، فقدم عليه - وكان رجلاً لا تأخذه العين - فدخل أبو مِجْلز على عمر في جَفّة الناس ، فلم يُثْبِتْه عمرُ ، وخرج مع الناس فسأل عنه فقيل : دخل مع الناس ثم خرج ، فدعا به عمر فقال : يا أبا مِجْلز ، لم أعرفك ، قال : فهلا أنكرتَني إذ لم تعرفني ! قال : أخبرْني عن عبدالرحمن بن عبدالله ، قال : يكافىء الأكفاء ، ويعادي الأعداء ، وهو أمير يفعل ما يشاء ، ويقدم إن وجد من يساعده . قال : عبدالرحمن بن نعيم ، قال : ضعيف لينّ يحبّ العافية ، وتأتي له ، قال : الذي يحبّ العافية وتأتي له أحبّ إليّ ، فولاه الصّلاة والحرب ، وولّى عبدالرحمن القشيري ثم أحد بني الأعور بن قشير الخراج ، وكتب إلى أهل خراسان : إني استعملتُ عبدالرحمن على حربكم وعبدالرحمن بن عبدالله على خراجكم عن غير معرفة مني بهما ولا اختيار ، إلاّ ما أخبِرتُ عنهما ؛ فإن كانا على ما تحبّون فاحمَدوا الله ، وإن كانا على غير ذلك فاستعينوا بالله ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله .

قال علي: وحدّثنا أبو السريّ الأزدي ، عن إبراهيم الصائغ ، أن عمر بن عبدالعزيز كتب إلى عبدالرحمن بن نعيم :

أما بعدُ ، فكن عبداً ناصحاً لله في عباده ، ولا يأخذك في الله لومة لائم ؛ فإنّ الله أوْلى بك من الناس ،

وحقّه عليك أعظم ، فلا تولّين شيئاً من أمر المسلمين إلّا المعروف بالنصيحة لهم والتوفير عليهم ، وأداء الأمانة فيما استُرعِيَ ، وإياك أن يكون ميلك ميلاً إلى غير الحقّ ، فإن الله لا تخفى عليه خافية ، ولا تذهبنّ عن الله مذهباً ؛ فإنه لا ملجأ من الله إلّا إليه .

قال علي ، عن محمد الباهلي وأبي نهيك بن زياد وغيرهما : إن عمر بن عبدالعزيز بعث بعهد عبدالرحمن ابن نُعَيم على حرب خراسان وسجستان مع عبدالله بن صخر القرشي ، فلم يزل عبدالرحمن بن نعيم على خراسان حتى مات عمر بن عبدالعزيز ، وبعد ذلك حتى قُتل يزيد بن المهلب ، ووجّه مسلمة سعيد بن عبدالعزيز بن الحارث بن الحكم ، فكانت ولايته أكثر من سنة ونصف ، وليَها في شهر رمضان من سنة مائة ، وعزل سنة اثنتين ومائة ، بعد ما قتل يزيد بن المهلب .

قال علي : كانت ولاية عبدالرحمن بن نعيم خراسان ستّة عشر شهراً .

أوّل الدّعوة

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة ـ أعني سنة مائة ـ وجّه محمد بن علي بن عبدالله بن عباس من أرض الشراة مَيْسرة إلى العراق ، ووجّه محمد بن خُنَيْس وأبا عكرمة السراج ، وهو أبو محمد الصادق وحيّان العطار خال إبراهيم بن سلمة إلى خراسان ، وعليها يومئذ الجراح بن عبدالله الحكميّ من قِبَل عمر بن عبدالعزيز ، وأمرهم بالدّعاء إليه وإلى أهل بيته ، فلقوا مَن لقَوا ، ثم انصرفوا بكُتُبِ مَن استجاب لهم إلى محمد بن علي ، فدفعوها إلى ميسرة ، فبعث بها مَيْسرة إلى محمد بن علي ، واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علي اثني عشر رجلاً ، نُقباء ، منهم سليمان ابن كثير الخزاعي ، ولاهز بن قريظ التميميّ ، وقحطبة بن شبيب الطائي ، وموسى بن كعب التميمي . وخالد بن إبراهيم أبو داود ، من بني عمرو بن شيبان بن ذُهْل ، والقاسم بن مجاشع التميمي وعمران بن إسماعيل أبو النجم ، مولًى لآل أبي مُعيط ومالك بن الهيثم الخزاعي وطلحة بن رُزَيْق الخزاعي وعمرو بن أعين أبو حمزة مولى لخزاعة . وشِبْل بن طهمان أبو علي الهروي ؛ مولًى لبني حنيفة ، وعيسى بن أعين مولى خزاعة ؛ واختار سبعين رجلاً ، فكتب إليهم محمد بن علي كتاباً ليكون لهم مثالاً وسيرة يسيرون بها .

وحج بالناس في هذه السنة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، حدَّثني بذلك أحمد بن ثابت عمّن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى عن أبي معشر .

وكذلك . قال الواقدي .

وكان عمّال الأمصار في هذه السنة العمال في السنة التي قبلها ، وقد ذكرناهم قبلُ ما خلا عامل خراسان ؛ فإنّ عاملها كان في آخرها عبدالرحمن بن نُعيم على الصّلاة والحرب ، وعبدالرحمن بن عبدالله على الخراج .

ثم دخلت سنة إحدى ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من هرب يزيد بن المهلب من حبس عمر بن عبدالعزيز .

ذكر الخبر عن سبب هربه منه وكيف كان هربه منه :

ذكر هشام بن محمد ، عن أبي مِخْنَف ، أن عمر بن عبدالعزيز لما كُلّم في يزيد بن المهلب حين أراد نفيَه إلى دَهْلك ، وقيل له : إنا نخشى أن ينتزعه قومه ، ردّه إلى محبسه . فلم يزل في محبسه ذلك حتى بلغه مرض عمر ، فأخذ يعمل بعد في الهرب من محبسه مخافة يزيد بن عبدالملك ؛ لأنه كان قد عذّب أصهاره آل أبي عُقَيْل - كانت أمّ الحجاج بنت محمد بن يوسف أخِي الحجاج بن يوسف عند يزيد بن عبدالملك ، فولدت له الوليد بن يزيد المقتول - فكان يزيد بن عبدالملك قد عاهد الله لئن أمكنه الله من يزيد بن المهلب ليقطعنّ منه طابقاً فكان يخشى ذلك ، فبعث يزيد بن المهلب إلى مواليه ، فأعدّوا له إبلاً ، وكان مرض عمر في دَيْر سَمْعان ، فلما اشتدّ مرض عمر أمر بإبله . فأتِيَ بها ، فلما تبيّن له أنه قد ثَقُل نزل من محبسه ، فخرج حتى مضى إلى المكان الذي واعدهم فيه ؛ فلم يجدهم جاؤوا ، فجَزِع أصحابه وضجروا ، فقال لأصحابه : أترونني أرجع إلى السجن ! لا والله لا أرجع إليه أبداً . ثم إن الإبل جاءت ، فاحتمل ، فخرج ومعه عاتكة امرأته ابنة الفرات بن معاوية العامرية من بني البكّاء في شقّ المحمل ، فمضى .

فلما جاز كتب إلى عمر بن عبدالعزيز : إني والله لو علمتُ أنـك تبقى ما خرجتُ من محبسي ؛ ولكني لم آمن يزيدَ بن عبدالملك . فقال عُمر : اللهم إن كان يزيد يريد بهذه الأمة شرًّا فاكفهم شرّه ، واردد كيده في نحره . ومضى يزيد بن المهلب حتى مرّ بحدث الزّقاق ، وفيه الهذيل بن زُفر معه قيس ، فأتبعوا يـزيد بن المهلب حيث مرّ بهم ، فأصابوا طَرَفاً من ثَقَله وغِلْمة من وصفائه ، فأرسل الهذيل بن زُفَر في آثارهم ، فردّهم فقال : ما تطلبون ؟ أخبروني ، أتطلبون يزيد بن المهلّب أو أحداً من قومه بتَبْل؟ فقالوا : لا ، قال : فما تريدون؟ إنما هو رجل كان في إسارٍ ، فخاف على نفسه فهرب .

وزعم الواقدي أن يزيد بن المهلب إنما هرب من سجن عمر بعد موت عمر .

وفي هذه السنة توفّيَ عمر بن عبدالعزيز، فحدَّثني أحمد بن ثابت ، عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، قال : توفيَ عمر بن عبدالعزيز لخمس ليال بقِين من رجب سنة إحدى ومائة .

وكذلك قال محمد بن عمر ، حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد ، قال : أخبرنا محمد بن عمر،

قال: حدّثني عمرو بن عثمان ، قال : مات عمر بن عبدالعزيز لعشر ليالٍ بقين من رجب سنة إحدى ومائة .

وقال هشام عن أبي مخنف : مات عمر بن عبدالعزيز يوم الجمعة لخمس بقِين من رجب بدير سَمْعان في سنة إحدى ومائة ، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر ، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر ، ومات بدير سَمْعان .

حدَّثني الحارث ، قال : حدّثنا محمد بن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثني عمّي الهيثم بن واقد، قال: وُلدتُ سنة سبع وتسعين، واستخلف عمر بن عبد العزيز بدابِق يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين، فأصابني من قسمه ثلاثة دنانير، وتوفي بخُناصرة يوم الأربعاء لخمس ليال بقين من رجب سنة إحدى ومائة، وكان شَكْوُه عشرين يوماً، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام، ومات وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر، ودفن بدير سَمْعان.

وقد قال بعضهم : كان له يوم توفّي تسع وثلاثون سنة ، وخمسة أشهر .

وقال بعضهم : كان له أربعون سنة .

وقال هشام : توفي عمر وهو ابن أربعين سنة وأشهر، وكان يكنى أبا حفص وله يقول عُويف القوافي ، وقد حضره في جنازة شهدها معه :

أَجِبْنِي أَبــا حفصٍ لَقِيت محمَّـداً ... عـلى حَـوْضِـهِ مُسْتَبْشِـراً وَرآكَـا

فــأنت امْـرُؤٌ كِلتَـا يـديـك مُفِيـدَةٌ ... شمــالـكَ خيـرٌ مِنْ يَمِـينِ سِـوَاكَـا

وأمّه أمّ عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وكان يقال له : أشجّ بني أمية ، وذلك أن دابة من دوابّ أبيه كانت شجّته فقيل له: أشجّ بني أميّة .

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد ، قال : أخبرنا سليمان بن حرب ، قال: حدَّثنا المبارك بن فضالة ، عن عبيدالله بن عمر، عن نافع ، قال : كنتُ أسمع ابن عمر كثيراً يقول : لـيث شعري مَنْ هذا الذي مِنْ ولد عمر، في وجهه علامة ، يملأ الأرض عدلاً !

وحُدِّثت عن منصور بن أبي مزاحم، قال: حدّثنا مروان بن شجاع ، عن سالم الأفطس ، أن عمر بن عبدالعزيز رمحته دابة وهو غلام بدمشق ، فأتِيتْ به أمه أمّ عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، فضَمَّتْه إليها ، وجعلت تمسح الدم عن وجهه . ودخل أبوه عليها على تلك الحال ، فأقبلت عليه تعذُلـه وتلومه ، وتقول : ضيَّعت ابني ، ولم تضمّ إليه خادماً ولا حاضناً ، يحفظه من مثل هذا! فقال لها: اسكتي يا أمّ عاصم، فطوباك إذ كان أشج بني أمية!

ذكر بعض سِيَره

ذكر علي بن محمد أن كليب بن خلف حدّثهم عن إدريس بن حنظلة ، والمفضل ، عن جدّه ، وعلي بن مجاهد عن خالد: أن عمر بن عبدالعزيز كتب حين ولي الخلافة إلى يزيد بن المهلّب :

أما بعد ، فإن سليمان كـان عبداً من عبيـدالله أنعم الله عليه ، ثم قبضـه واستخلَفني ، ويزيـد بن

عبدالملك من بعدي إن كان ، وإنّ الذي ولاّني الله من ذلك وقدّر لي ليس عليَّ بهيِّن ، ولو كانت رغبتي في اتّخاذ أزواج واعتقاد أموال ، كان في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحد من خلقه ، وأنا أخاف فيما ابتليتُ به حساباً شديداً ، ومسألة غليظة ، إلاّ ما عافى الله ورحم ، وقد بايع مَنْ قِبَلَنا فبايع مَنْ قِبَلك .

فلما قدم الكتاب على يزيد بن المهلب ، ألقاه إلى أبي عيينة ، فلما قرأه قال : لستُ من عمّاله ، قال : ولِمَ؟ قال : ليس هذا كلام مَنْ مضى من أهل بيته ، وليس يريد أن يسلك مسلكهم . فدعا الناس إلى البيعة فبايعوا .

قال : ثم كتب عمر إلى يزيد استخلف على خراسان ، وأقبل ، فاستخلف ابنه مخلداً .

قال علي : وحدَّثنا علي بن مجاهد ، عن عبدالأعلى بن منصور ، عن ميمون بن مِهران ، قال : كتب عمر إلى عبدالرحمن بن نعيم أنّ العَمَل والعلم قريبان ، فكن عالماً بالله عاملاً له ، فإنّ أقواماً علموا ولم يعملوا ، فكان علمهُم عليهم وبالاً .

قال وأخبرنا مصعب بن حيّان ، عن مقاتل بن حيّان ، قال : كتب عمر إلى عبدالرحمن :

أما بعد ، فاعمل عمل رجل يعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين .

قال علي : أخبرنا كليب بن خلف، عن طفيل بن مرداس ، قال: كتب عمر إلى سليمان بن أبي السري، أن اعمل خانات في بلادك فمن مرّ بك من المسلمين فاقرُوهم يوماً وليلة، وتعهّدوا دوابّهم ، فمن كانت به علة فاقْرُوه يومين وليلتين ، فإن كان منقطعاً به فقوّوه بما يصل به إلى بلده .

فلما أتاه كتاب عمر قال أهل سمرقند لسليمان : إن قتيبة غَدَر بنا ، وظلمنا وأخذ بلادنا ، وقد أظهر الله العدل والإنصاف ، فائذن لنا فليفِدْ منّا وفد إلى أمير المؤمنين يشكون ظُلامتنا ، فإن كان لنا حق أعطِيناه . فإنّ بنا إلى ذلك حاجة . فأذن لهم ، فوجّهوا منهم قوماً ، فقدموا على عمر، فكتب لهم عمر إلى سليمان بن أبي السري :

إن أهل سمرقند قد شكَوا إليَّ ظلماً أصابهم . وتحاملاً من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم ، فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي ، فلينظر في أمرهم ، فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة .

قال : فأجلس لهم سليمان جُمَيْع بن حاضر القاضي الناجيّ ، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء ، فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوةً ، فقال أهل السُّغْد : بل نرضى بما كان ، ولا نجدِّد حرباً . وتراضوا بذلك ، فقال أهل الرأي : قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم ، وأمِنونا وأمنّاهم ، فإن حُكم لنا عدنا إلى الحرب ولا ندري لمن يكون الظفر ، وإن لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عداوة في المنازعة. فتركوا الأمر على ما كان ، ورضوا ولم ينازعوا .

قال : وكتب عمر إلى عبدالرحمن بن نعيم يأمره بإقفال مَنْ وراء النهر من المسلمين بذراريّهم . قال : فأبوا وقالوا: لا يسعنا مَرْو . فكتب إلى عمر بذلك ، فكتب إليه عمرُ: اللهمّ إني قد قضيت الذي عليَّ ، فلا تغزُ بالمسلمين ، فحسْبُهم الذي قد فتح الله عليهم .

قال : وكتب إلى عقبة بن زرعة الطائي ـ وكان قد ولّاه الخراج بعد القُشَيْري : إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلّا بها ، فالوالي رُكنٌ ، والقاضي ركنٌ ، وصاحب بيت المال ركنٌ ، والركن الرابع أنا ، وليس من ثغور المسلمين ثغر أهمَّ إليَّ ، ولا أعظم عندي من ثغر خُراسان ، فاستوعِب الخراج وأحرِزْه في غير ظلم ، فإن يك كَفافاً لأعطياتهم فسبيل ذلك ، وإلّا فاكتب إليَّ حتى أحمل إليك الأموال فتوفر لهم أعطياتهم .

قال : فقدم عُقْبة فوجد خراجهم يفضُل عن أعطياتهم ، فكتب إلى عمر فأعلمه ، فكتب إليه عمر : أن أقسم الفضل في أهل الحاجة .

وحدّثني عبدالله بن أحمد بن شبّوية ، قال : حدَّثني أبي ، قال : حدّثني سليمان ، قال : سمعت عبدالله يقول عن محمد بن طلحة ، عن داود بن سليمان الجُعفي ، قال : كتب عمر بن عبدالعزيز :

من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى عبدالحميد، سلام عليك؛ أما بعد؛ فإنّ أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدّة وَجَوْر في أحكام الله وسنّة خبيثة استنّها عليهم عمال السوء، وإن قَوام الدّين العدلُ والإحسان ، فلا يكونن شيء أهمَّ إليك من نفسك ؛ فإنه لا قليلَ من الإثم ، ولا تحمل خراباً على عامر، ولا عامراً على خراب، انظر الخراب فخذ منه ما أطاق، وأصلحه حتى يعمر، ولا يؤخذ من العامر إلّا وظيفة الخراج في رِفْق وتسكين لأهل الأرض، ولا تأخذنّ في الخراج إلّا وزن سبعة ليس لها آيين ولا أجور الضرابين ، ولا هديّة النيروز والمِهرجان ، ولا ثمن الصُحُف ، ولا أجور الفيوج ، ولا أجور البيوت ، ولا دراهم النكاح ، ولا خراجَ على من أسلم من أهل الأرض ؛ فاتّبع في ذلك أمري ؛ فإني قد وليتك من ذلك ما ولّاني الله ، ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب ؛ حتى تراجِعَني فيه ، وانظر مَن أراد من الذرّية أن يحجّ ، فعجل له مائة ليحجّ بها ، والسلام .

حدّثنا عبدالله بن أحمد بن شبوّيّة ، قال: حدثني أبي ، قال : حدَّثنا سليمان ، قال : حدّثني عبدالله ، عن شهاب بن شريعة المجاشعي ، قال : ألحق عمر بن عبدالعزيز ذراريَّ الرّجال الذين في العطايا أقرع بينهم ، فمن أصابته القُرعة جعله في المائة ، ومَنْ لم تُصبه القرعة جعله في الأربعين ، وقسم في فقراء أهل البصرة كلّ إنسان ثلاثة دراهم ؛ فأعطى الزّمَني خمسين خمسين . قال : وأراه رزق الفَطْم .

حدّثني عبدالله ، قال : حدّثنا أبي ، قال : حدّثنا الفُضيل ، عن عبدالله قال : بلغني أن عمر بن عبدالعزيز كتب إلى أهل الشام :

سلام عليكم ورحمة الله ، أمّا بعد؛ فإنه مَنْ أكثر ذكر الموت قلَّ كلامُه ، ومن علم أن الموت حقّ رضي باليسير ، والسلام .

قال علي بن محمد: وقال أبو مجْلز لعمر : إنك وضعتنا بمنقطع التراب ، فاحمل إلينا الأموال . قال : يا أبا مجلز : قلبتَ الأمر ، قال : يا أمير المؤمنين أهو لنا أم لك؟ قال: بل هو لكم إذا قَصّر خراجكم عن أعطياتكم ، قال : فلا أنت تحمله إلينا ، ولا نحمله إليك ، وقد وضعت بعضه على بعض. قال : أحمله إليكم إن شاء الله .

ومرض من ليلته فمات من مرضه . وكانت ولاية عبدالرحمن بن نعيم خراسان ستة عشر شهراً .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة توفي عمارة بن أُكَيْمة الليثي ، ويكنى أبا الوليد ، وهو ابن تسع وسبعين .

زيادة في سيرة عمر بن عبدالعزيز ليست من كتاب أبي جعفر
إلى أول خلافة يزيد بن عبدالملك بن مروان

روى عبدالله بن بكر بن حبيب السَّهْمي ، قال : حدّثنا رجل في مسجد الجُنابذ ، أنّ عمر بن عبدالعزيز خطب الناس بخُناصِرة ، فقال : أيّها الناس ، إنكم لَمْ تُخْلَقُوا عَبَثاً ، ولن تُترَكُوا سُدًى ؛ وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم ، والفصل بينكم ، وقد خاب وخسر مَنْ خرج من رحمة الله التي وسِعت كلّ شيء ، وحُرِم الجنة التي عرضُها السمواتُ والأرضُ. ألا واعلمُوا إنما الأمان غداً لمن حذِر الله وخافه ، وباع نافداً بباق ، وقليلاً بكثير ، وخوفاً بأمان . ألا ترَوْن أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيخلّفها بعدكم الباقون كذلك حتى تردّ إلى خير الوارثين! وفي كلّ يوم تشيّعون غادياً ورائحاً إلى الله قد قضى نحبَهُ ، وانقضى أجله ، فتغيّبونه في صَدْع من الأرض ، ثم تَدعونه غير موسَّد ولا ممهَّد ، قد فارق الأحبّة ، وخلع الأسبابَ ، فسكن التراب وواجه الحساب ، فهو مرتهَن بعمله ، فقير إلى ما قدّم ، غنيّ عمّا ترك ، فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء مواقعه . وايم الله إني لأقولُ لكم هذه المقالة ، وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثرَ مما عندي ؛ فأستغفر الله وأتوب إليه . وما منكم من أحد تبلغنا عنه حاجة إلا أحببت أن أسدّ من حاجته ما قدرتُ عليه ، وما منكم أحد يسعه ما عندنا إلّا وددتُ أنه سَدَاي ولحمتي ، حتى يكون عيشنا وعيشه سواء . وايم الله أن لو أردت غير هذا من الغَضارة والعيش ؛ لكان اللسان مني به ذلولاً عالماً بأسبابه ، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنّة عادلة ، يدلّ فيها على طاعته ، وينهى عن معصيته .

ثم رفع طرف ردائِه فبكى حتى شهِق وأبكى النّاس حوله ، ثم نزل فكانت إياها لم يخطب بعدها حتى مات رحمه الله .

روى خلف بن تميم ، قال : حدّثنا عبدالله بن محمد بن سعد، قال: بلَغني أنّ عمر بن عبدالعزيز مات ابنٌ له ، فكتب عامل له يعزّيه عن ابنه ، فقال لكاتبه : أجبه عني ، قال : فأخذ الكاتب يبري القلم ، قال : فقال للكاتب : أدِقّ القَلم ، فإنه أبقى للقرطاس ، وأوجز للحروف ، واكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإنّ هذا الأمر أمرٌ قد كنا وطّنّا أنفسنا عليه ، فلمّا نزل لم ننكره ، والسلام .

روى منصور بن مزاحم ، قال : حدّثنا شعيب ـ يعني ابن صفوان ـ عن ابن عبدالحميد، قال: قال عمر بن عبدالعزيز : مَنْ وصل أخاه بنصيحة له في دينه ، ونظر له في صلاح دنياه ، فقد أحسن صلته ، وأدّى واجب حقّه ؛ فاتقوا الله ، فإنها نصيحة لكم في دينكم ، فاقبلوها ، وموعظة منجية في العواقب فالزموها . الرزق مقسوم فلن يغدر المؤمن ما قسم له ، فأجملوا في الطلب ، فإن في القنوع سَعة وبُلْغة وكَفافاً، إن أجل الدنيا في أعناقكم ، وجهنم أمامكم ، وما ترون ذاهب ، وما مضى فكأن لم يكن ، وكلٌّ أمواتٌ عن قريب ، وقد رأيتم حالات الميت وهو يسوق ؛ وبعد فراغه وقد ذاق الموت ، والقوم حوله يقولون : قد فرغ رحمه الله! وعاينتم تعجيلَ إخراجه، وقسمة تُراثه ووجهه مفقود ، وذكره منسي ، وبابه مهجور ، وكأن لم يخالط إخوان

الحفاظ ، ولم يعمر الديار ، فاتّقوا هول يوم لا تُحْقر فيه مثقال ذرّة في الموازين .

روى سهل بن محمود؛ قال: حدّثنا حرملة بن عبدالعزيز ، قال : حدّثني أبي ، عن ابن لعمر بن عبدالعزيز ، قال: أمرنا عمرُ أن نشتري موضع قبره ، فاشتريناه من الراهب ، قال : فقال بعض الشعراء :

أقولُ لما نَعى النّاعُونَ لي عمَرا ... لا يَبعَدَنَّ قِوامُ العدْلِ والدِّين
قَدْ غادَرَ القومُ باللحد الذي لحدوا ... بِدَيْر سَمْعَان قسطاسَ الموازِين

روى عبدالرحمن بن مهدي ، عن سفيان، قال: قال عمر بن عبدالعزيز: من عمِل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح، ومَنْ لم يعدّ كلامه من عمله كثرت ذنوبه، والرّضا قليل، ومُعَوَّل المؤمن الصبر، وما أنعم الله على عبد نعمةً ثم انتزعها منه فأعاضه مما انتزع منه الصبر إلاّ كان ما أعاضه خيراً مما انتزع منه ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1].

وقدم كتابُه على عبدالرحمن بن نعيم :

لا تهدموا كنيسة ولا بِيعة ولا بيتِ نار صولحتم عليه ، ولا تُحدِثنّ كنيسة ولا بيت نار ، ولا تجرّ الشاة إلى مذبحها ، ولا تحدّوا الشَّفْرة على رأس الذّبيحة ، ولا تجمعوا بين الصلاتين إلاّ من عُذْر .

روى عفّان بن مسلم ، عن عثمان بن عبدالحميد ، قال : حدّثنا أبي ، قال : بلغنا أنّ فاطمة امرأة عمر بن عبدالعزيز قالت : اشتدّ علَزُه ليلةً ، فسهرْ وسهرنا معه ، فلما أصبحنا أمرت وصيفاً له يقال له مرثِد ، فقلتُ له: يا مرثِد ، كنْ عند أمير المؤمنين ، فإن كانت له حاجة كنتُ قريباً منه . ثم انطلقنا فضربنا برؤوسنا لطول سهرنا ، فلما انفتح النهار استيقظت فتوجهت إليه ، فوجدت مرثِداً خارجاً من البيت نائماً ، فأيقظته فقلت : يا مرثِد ، ما أخرجك؟ قال : هو أخرجني ، قال : يا مرثِد ؛ اخرج عني! فوالله إني لأرى شيئاً ما هو بالإنس ولا جان ، فخرجت فسمعته يتلو هذه الآية : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدونَ عُلُوًّا في الأَرضِ ولَا فَسَاداً والعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] ، قال : فدخلت عليه فوجدته قد وجّه نفسه ، وأغمض عينيه ، وإنه لميّت . رحمه الله .

خلافة يزيد بن عبدالملك بن مروان

وفيها ولي يزيد بن عبدالملك بن مروان، وكنيته أبو خالد، وهو ابن تسع وعشرين سنة في قول هشام بن محمد ؛ ولما ولي الخلافة نزع عن المدينة أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وولاّها عبدالرحمن بن الضحّاك بن قيس الفهريّ ، فقدمها ـ فيما زعم الواقدي ـ يوم الأربعاء لليال بقِين من شهر رمضان فاستقضى عبدَالرحمن سلمةَ بن عبدالله بن عبدالأسد المخزوميّ .

وذكر محمد بن عمر أنّ عبدالجبار بن عُمارة حدّثه عن أبي بكر بن حَزْم ، أنه قال : لما قدِم عبدُالرحمن بن الضحاك المدينةَ وعزلني ، دخلت عليه ، فسلّمتُ فلم يُقبل عليَّ ، فقلتُ : هذا شيء لا تملكه قريش

(١) سورة القصص : ٨٣ .

للأنصار ، فرجعت إلى منزلي وخِفتُه ـ وكان شابًّا مقداماً ـ فإذا هو يبلغني عنه أنه يقول : ما يمنع ابن حَزْم أن يأتيني إلّا الكِبَر ، وإني لعالم بخيانته ؛ فجاءني ما كنت أحذر وما أستيقن من كلامه ، فقلت للذي جاءني بهذا : قل له : ما الخيانة لي بعادة ، وما أحبّ أهلها ، والأمير يحدّث نفسه بالخلود في سلطانه ، كم نزل هذه الدار من أمير وخليفة قبل الأمير فخرجوا منها وبقيت آثارهم أحاديث إن خيراً فخيراً وإن شرًّا فشرًّا ! فاتّق الله ولا تسمع قول ظالم أو حاسد على نعمة .

فلم يزل الأمر يترقى بينهما ، حتى خاصم إليه رجل من بني فِهْر وآخر من بني النجّار ـ وكان أبو بكر قضى للنجاريّ على الفِهريّ في أرض كانت بينهما نصفين ، فدفع أبو بكر الأرضَ إلى النجاري ـ فأرسل الفهري إلى النَّجاري وإلى أبي بكر بن حزم ، فأحضرهما ابنَ الضّحاك ، فتظلم الفِهري من أبي بكر بن حزم ، وقال : أخرَج مالي من يدي ، فدفعه إلى هذا النجاري ، فقال أبو بكر : اللهمّ غَفْراً ! أما رأيتني سألتُ أياماً في أمرك وأمر صاحبك ، فاجتمع لي على إخراجها من يدِك ، وأرسلتك إلى من أفتاني بذلك : سعيد بن المسيّب وأبي بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام ، فسألتَهما؟ فقال الفهري : بلَى ، وليس يلزمني قولهما . فانكسر ابن الضحاك فقال: قوموا ، فقاموا ، فقال للفهري : تقرّ له أنك سألت مَنْ أفتاه بهذا ، ثم تقول رُدّها عليَّ ! أنت أرعنُ ، اذهب فلا حقّ لك ؛ فكان أبو بكر يتّقيه ويخافه ، حتى كلم ابنُ حيّان يزيدَ أن يُقيده من أبي بكر ؛ فإنه ضربه حدّين ، فقال يزيد : لا أفعل ، رجل اصطنعه أهل بيتي ؛ ولكني أوَلّيك المدينة . قال : لا أريد ذلك، لو ضربتُه بسلطاني لم يكن لي قَوَداً . فكتب يزيد إلى عبدالرحمن بن الضحاك كتاباً :

أما بعد ، فانظر فيما ضرب ابنُ حزم ابنَ حيّان ، فإن كان ضربه في أمر بيّن فلا تلتفت إليه ، وإن كان ضربه في أمر يختلف فيه فلا تلتفت إليه ، فإن كان ضربه في أمر غير ذلك فأقِدْه منه .

فقدم بالكتاب على عبدالرحمن بن الضحّاك ، فقال عبدالرحمن : ما جئتَ بشيء ، أترى ابن حَزْم ضربك في أمر لا يختلف فيه ! فقال عثمان لعبدالرحمن : إن أردت أن تحسن أحسنتَ ، قال : الآن أصبتَ المطلب ، فأرسل عبدالرحمن إلى ابن حَزْم فضربه حدّين في مقام واحد ، ولم يسأله عن شيء ، فرجع أبو المغراء بن حيّان وهو يقول : أنا أبو المغراء بن الحيّان ، والله ما قربتُ النساء من يوم صنع بي ابن أبي حزم ما صنع حتى يومي هذا ، واليوم أقرب النساء .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة قُتِل شوذَب الخارجيّ .

ذكر الخبر عن مقتله :

قد ذكرنا قبل الخبرَ عمّا كان من مراسلة شَوْذب عمرَ بن عبدالعزيز لمناظرته في خلافه عليه ، فلما مات عمر أحبّ ـ فيما ذكر معمر بن المثنّى ـ عبدُالحميد بن عبدالرحمن أن يحظَى عند يزيد بن عبدالملك ، فكتب إلى محمد بن جرير يأمره بمحاربة شَوْذب وأصحابه ، ولم يرجع رسولا شوذب ، ولم يعلم بموت عمر ، فلمّا رأوا محمد بن جرير يستعدّ للحرب ، أرسل إليه شوذب : ما أعجلك قبل انقضاء المدة فيما بيننا وبينكم ! أليس قد تواعدنا إلى أن يرجع رسولا شوذب ! فأرسل إليهم محمد : إنه لا يسعنا ترككم على هذه الحالة ـ قال غير أبي عبيدة : فقالت الخوارج : ما فعل هؤلاء هذا إلّا وقد مات الرجل الصالح .

قال معمر بن المثنى: فبرز لهم شوذب ، فاقتتلوا ، فأصيب من الخوارج نفر ، وأكثروا في أهل القبلة

القتل ، وتولوا منهزمين ، والخوارج في أعقابهم تقتل حتى بلغوا أخصاص الكوفة ، ولجؤوا إلى عبدالحميد ، وجرح محمد بن جرير في استه ، ورجع شوذب إلى موضع فأقام ينتظر صاحبيه ، فجاءاه فأخبراه بما صادرا عليه عمَر ، وأنْ قد مات . فأقرّ يزيدُ عبدَالحميد على الكوفة ، ووجّه من قِبله تميم بن الحُباب في ألفين، فراسلهم وأخبرهم أنّ يزيد لا يفارقهم على ما فارقهم عليه عمر ، فلعنوه ولعنوا يزيد ، فحاربهم فقتلوه وهزموا أصحابه ، فلجأ بعضهم إلى الكوفة ورجع الآخرون إلى يزيد ، فوجّه إليهم نَجْدة بن الحكم الأزدي في جمْع فقتلوه ، وهزموا أصحابه ، فوجّه إليهم الشحّاج بن وداع في ألفين ، فراسلهم وراسلوه ، فقتلوه ، وقتل منهم نفراً فيهم هُدْبة اليشكري ؛ ابن عمّ بسطام ـ وكان عابداً ـ وفيهم أبو شُبَيل مقاتل بن شيبان ـ وكان فاضلاً عندهم ـ فقال أبو ثعلبة أيوب بن خَوَليّ يرثيهم :

تَـرَكنـا تميمـاً في الغُبَـارِ مُلَحَّبـاً ... تُبَـكِّي عـلَيْـهِ عِـرْسُـهُ وَقَـرَائبُـهُ
وقـد أسلَمَتْ قَيْسٌ تميمـاً ومـالكـاً ... كمـا أسلَمَ الشحّـاجَ أمسِ أقـارِبُـه
وأقبـلَ مِـنْ حَـرّانَ يَـحْمِـلُ رَايَـةً ... يـغـالِـبُ أمـرَ اللّهِ واللّهُ غـالِـبُـهْ
فيَاهُدْبَ للهَيْجَا، ويا هُـدْبَ للندَى، ... ويَـا هُـدْب للخَصْمِ الألَـدِّ يُحَـارِبُـه!
ويـا هـدب كم من مُلحم قـد أجَنْتَـهُ ... وقـد أسلَمَتْـهُ لـلرِّمـاح جَـوَالِبُـهْ
وكـان أبُـو شَيْبـانَ خَيْـرَ مُقَـاتِـلٍ ... يُـرجَّى وَيَخشى بـأْسَـهُ من يحـاربُـه
فـفَـازَ ولاقـى الـلّهَ بـالـخـيـر كُـلِّهِ ... وخَـذَّمَـه بـالسّيْفِ في اللّهِ ضـارِبُـهْ
تَـزَوَّدَ مِـنْ دُنْيَـاهُ دِرْعـاً ومِـغْـفَـراً ... وَعَضْبـاً حُسَـامـاً لم تَخُنْـهُ مَضَـارِبُـهْ
تَـزَوَّدَ مِـنْ دُنْيَـاهُ دِرْعـاً ومِـغْـفَـراً ... وَعَضْبـاً حُسَـامـاً لم تَخُنْـهُ مَضَـارِبُـهْ
وأجْـرَدَ مَـحبُـوكَ الـسـرَاةِ كَـأنَّـهُ ... إذَا انقضَّ وافِي الرِّيشِ حُجْنٌ مَخالِبُـه

فلما دخل مسلمة الكوفة شكا إليه أهلُها مكانَ شوذب ، وخوفهم منه وما قد قتل منهم ، فدعا مسلمة سعيد بن عمرو الحَرشي ـ وكان فارساً ـ فعقد له على عشرة آلاف ، ووجّهه إليه وهو مقيم بموضعه ، فأتاه ما لا طاقةَ له به ، فقال شوذب لأصحابه : مَن كان يريد الله فقد جاءته الشهادة ، ومَن كان إنما خرج للدنيا فقد ذهبت الدنيا ، وإنما البقاء في الدّار الآخرة ؛ فكسروا أغماد السيوف وحملوا ، فكشفوا سعيداً وأصحابه مراراً ؛ حتى خاف الفضيحة فذمّر أصحابه ، وقال لهم : أمِنْ هذه الشرذمة لا أبالكم تفرّون ! يا أهل الشام يوماً كأيّامكم!

قال : فحملوا عليهم ، فطحنوهم طحناً لم يبقوا منهم أحداً ، وقتلوا بِسْطاماً وهو شوذَب وفرسانه ، منهم الرّيان بن عبدالله اليشكري ، وكان من المخبتين ، فقال أخوه شِمر بن عبدالله يرثيه :

وَلَـقَـدْ فُـجِـعْـتُ بِسَـادَةٍ وَفَـوَارِسٍ ... لـلحَـرْبِ سُعْـرٍ مِـنْ بَنِـي شَـيْبَـانِ
اِعْتَـاقَهُـمْ رَيْبُ الـزَمَـانِ فَـغَـالَهُـمْ ... وَتُـرِكْـتُ فَـرْداً غَـيْـرَ ذي إخْـوَانِ
كَمِـداً تَجَـلْجَـلُ فِي فـؤادِيَ حَسْـرَةٌ ... كَـالـنَّـارِ مِنْ وَجْـدٍ عـلى الـرَّيّـانِ
وَفَـوَارِسٍ بـاعُـوا الإلَـهَ نُفـوسَهُـمْ ... مِنْ يَشْكُـرٍ عِنْـدَ الـوغَـى فـرْسـان

وقال حسان بن جَعْدة يرثيهم :

يـا عَيْنُ أذري دُمـوعـاً مِنـكِ تَسْجَـامَـا ... وَابكي صحـابَـةَ بِسْــطَامٍ وَبِسْـطامـا
فَـلَنْ تَـرَى أَبَـداً مـا عِشـتِ مِثـلَهُمُ ... أتقى وأكمَـلَ في الأحـلام أحـلامـاً
بِسِيِّهم قـد تَـأَسَّـوْا عِنـدَ شِـدَّتِهِـم ... ولَم يُـريـدُوا عن الأعْـدَاءِ إحجـامـا
حَتى مَضَـوا لِلذي كـانـوا لـهُ خَـرَجـوا ... فـأورثـونـا مَـنَـاراتٍ وأعـلامَـا
إنِّي لأعـلمُ أنْ قـد أُنـزلُـوا غُـرَفـاً ... مِـن الجنـانِ ونـالـوا ثَـمَّ خُـدَّامـا
أسقَى الإلـه بِـلاداً كـانَ مصْـرَعُهُمْ ... فيهـا سَحَـابـاً من الوَسْمِيِّ سَجَّـامـا

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة لحق يزيد بن المهلّب بالبصرة ، فغلب عليها ، وأخذ عامل يزيد بن عبدالملك عليها عديّ بن أرطاة الفَزاريّ ، فحبسه وخلع يزيد بن عبدالملك .

ذكر الخبر عن سبب خلعه يزيد بن عبدالملك وما كان من أمره وأمر يزيد في هذه السنة :

قد مضى ذكرى خبرَ هرب يزيد بن المهلّب من محبسه الذي كان عمر بن عبدالعزيز حبسه فيه ، ونذكر الآن ما كان من صنيعه بعد هرَبه في هذه السنة ـ أعني سنة إحدى ومائة .

ولما مات عمر بن عبدالعزيز بويع يزيد بن عبدالملك في اليوم الذي مات فيه عمر ، وبلغه هرب يزيد بن المهلب ، فكتب إلى عبدالحميد بن عبدالرحمن يأمره أن يطلبه ويستقبله ، وكتب إلى عديّ بن أرطاة يعلمه هربه ، ويأمره أن يتهيأ لاستقباله ، وأن يأخذ من كان بالبصرة من أهل بيته .

فذكر هشام بن محمد ، عن أبي مِخنف ، أنّ عديّ بن أرطاة أخذهم وحبسهم ، وفيهم المفضّل وحبيب ومروان بنو المهلب ، وأقبل يزيد بن المهلب حتى مرّ بسعيد بن عبدالملك بن مروان ، فقال يزيد لأصحابه : ألا نعرض لهذا فنأخذه فنذهب به معنا! فقال أصحابه: لا بل امضِ بنا ودعْه . وأقبل يسير حتى ارتفع فوق القُطقُطانة ، وبعث عبدالحميد بن عبدالرحمن هشام بن مساحق بن عبدالله بن مخرمة بن عبدالعزيز بن أبي قيس بن عبدُوّد بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤي القرشي ، في ناس من أهل الكوفة من الشرَط ووجوه الناس وأهل القوّة ، فقال له : انطلق حتى تستقبله فإنه اليوم يمرّ بجانب العُذَيب . فمشى هشام قليلاً ، ثم رجع إلى عبدالحميد . فقال : أجيئك به أسيراً أم آتيك برأسه؟ فقال : أيّ ذلك ما شئت ، فكان يعجب لقوله ذلك من سَمِعه ، وجاء هشام حتى نزل العُذَيب ، ومرّ يزيد منهم غير بعيد ، فاتقوا الإقدام عليه ، ومضى يزيد نحو البصرة ، ففيه يقول الشاعر :

وسـارَ ابـنُ المُـهـلَّـبِ لم يُـعَـرِّجْ ... وعَـرَّسَ ذو القَـطيـفَةِ من كِنَـانَـهْ
ويَـاسَرَ والـتَّـيَـاسُرُ كـان حَـزمـاً ... ولم يـقـرَبْ قُـصُـورَ القُـطقُـطَانَـهْ

ذو القِطيفة هو محمد بن عمرو، وهو أبو قَطيفة بن الوليد بن عُقْبة بن أبي معيط ، وهو أبو قطيفة ؛ وإنما سمي ذا القطيفة ، لأنه كان كثير شعر اللحية والوجه والصّدر . ومحمد يقال له ذو الشامة .

فلما جاء يزيد بن المهلّب انصرف هشام بن مساحق إلى عبدالحميد ، ومضى يزيد إلى البَصْرة ، وقد جمع عدي بن أرطاة إليه أهل البصرة وخندق عليها ، وبعث على خيل البصرة المغيرة بن عبدالله بن أبي عقيل الثقفي . وكان عديّ بن أرطاة رجلاً من بني فَزارة . وقال عبدالملك بن المهلب لعدي بن أرطاة: خُذ ابني حميداً

فاحبسه مكاني ، وأنا أضمن لك أن أردّ يزيد عن البصرة حتى يأتي فارس ، ويطلب لنفسه الأمان ولا يقربك فأبى عليه ، وجاء يزيد ومعه أصحابه الذين أقبل فيهم ، والبَصْرة محفوفة بالرجال ، وقد جمع محمد بن المهلب - ولم يكن ممن حبس - رجالاً وفتية من أهل بيته وناساً من مواليه ، فخرج حتى استقبله ، فأقبل في كتيبة تهول من رآها ، وقد دعا عديّ أهلَ البصرة ، فبعث على كلّ خمس من أخماسها رجلاً ، فبعث على خُمْس الأزد المغيرة بن زياد بن عمرو العتكيّ ، وبعث على خُمس بني تميم محرز بن حُمران السعدي من بني مِنقَر ، وعلى خُمس بكر بن وائل عمران بن عامر بن مسمع من بني قيس بن ثعلبة . فقال أبو منقر ، - رجل من قيس بن ثعلبة - : إن الراية لا تصلح إلّا في بني مالك بن مِسمع ، فدعا عدي نوحَ بن شيبان بن مالك بن مِسْمع ، فعقد له على بَكْر بن وائل ، ودعا مالكَ بن المنذر بن الجارود ، فعقد له على عبدالقيس ، ودعا عبدَالأعلى بن عبدالله بن عامر القُرشي ، فعقد له على أهل العالية - والعالية قريش وكنانة والأزْد وبَجِيلة وخثعم وقيس عَيْـلان كلها ومُزَينة - وأهل العالية بالكوفة يقال لهم ربْعُ أهل المدينة وبالبصرة خمس أهل العالية ، وكانوا بالكوفة أخماساً ، فجعلهم زياد بن عبيد أرباعاً .

قال هشام عن أبي مخنف : وأقبل يزيد بن المهلب لا يمرّ بخيل من خيلهم ولا قبيلة من قبائلهم إلّا تنحَّوْا له عن السبيل حتى يمضي، واستقبله المغيرة بن عبدالله الثقفي في الخيل ، فحمل عليه محمد بن المهلّب في الخيل ، فأفرج له عن الطريق هو وأصحابه ، وأقبل يزيد حتى نزل داره ، واختلف الناس إليه ، وأخذ يبعث إلى عديّ بن أرطاة أن ادفع إليَّ إخوتي وأنا أصالحك على البصرة ، وأخلّيك وإيّاها حتى آخذ لنفسي ما أحبّ من يزيد بن عبدالملك، فلم يقبل منه ، وخرج إلى يزيد بن عبدالملك حُميد بن عبدالملك بن المهلّب، فبعث معه يزيد بن عبدالملك خالدَ بن عبدالله القسريّ وعمر بن يزيد الحَكَميّ بأمان يزيد بن المهلّب وأهل بيته ، وأخذ يزيد بن المهلب يعطي مَن أتاه من الناس ، فكان يقطع لهم قِطَع الذهب وقطع الفضة ، فمال الناس إليه ، ولحق به عمران بن عامر بن مسمَع ساخطاً على عديّ بن أرطاة حين نزع منه رايته ، راية بكر بن وائـل ، وأعطاها ابن عمه ، ومالت إلى يزيد ربيعة وبقيّة تميم وقيس وناس بعد ناس ؛ فيهم عبدالملك ومالك ابنا مِسمع ومعه ناس من أهل الشام ، وكان عديّ لا يعطي إلّا درهمين درهمين ، ويقول : لا يحلّ لي أن أعطيَكم من بيت المال درهماً إلّا بأمر يزيد بن عبدالملك ، ولكن تبلّغوا بهذا حتى يأتي الأمرُ في ذلك ، فقال الفرزدق في ذلك :

أظُنُّ رِجالَ الدِّرهَمَين يسوقُهمْ ... إلى الموتِ آجالٌ لَهُمْ ومَصَارِعُ
فأحزَمُهم من كان في قَعرِ بَيتِهِ ... وأيقَنَ أنَّ الأمرَ لا شكَّ واقِعُ

وخرجت بنو عمرو بن تميم من أصحاب عدي ، فنزلوا المِرْبد ، فبعث إليهم يزيد بن المهلب مولًى له يقال له دارس ؛ فحمل عليهم فهزمهم ، فقال الفرزدق في ذلك :

تَفَرَّقَتِ الحَمْرَاءُ إذ صَاحَ دَارِسٌ ... ولم يصبروا تَحْتَ السُّيُوفِ الصَّوَارِمِ
جَزَى اللَّهُ قَيساً عَن عَدِيٍّ مَلامَةً ... ألَا صَبَرُوا حَتَّى تكونَ مَلاحِمُ

وخرج يزيد بن المهلب حين اجتمع له الناس ، حتى نزل جبّانة بني يشكرُ - وهو المنصف فيما بينه وبين القصر - وجاءته بنو تميم وقيس وأهل الشام ، فاقتتلوا هُنَيْهَةً ، فحمل عليهم محمد بن المهلب ، فضرب مِسْوَر بن عبّاد الحَبَطيّ بالسيف فقطع أنف البيضة ، ثم أسرع السيف إلى أنفه ، وحمل على هُرَيم بن أبي

طلحة بن أبي نهشل بن دارم ، فأخذ بمنطقته، فحذفه عن فرسه ؛ فوقع فيما بينه وبين الفرس ، وقال : هيهات هيهات ! عمك أثقل من ذلك . وانهزموا وأقبل يزيد بن المهلب إثْرَ القوم يتلوهم حتى دنا من القصر ، فقاتلوهم وخرج إليه عديّ بنفسه فقتِل من أصحابه الحارث بن مصرّف الأودي ـ وكان من أشراف أهل الشام وفرسان الحجاج ـ وقتل موسى بن الوجيه الحميري ثم الكَلاعيّ ، وقتِل راشد المؤذن ، وانهزم أصحاب عدي ، وسمع إخوة يزيد وهم في محبس عدي الأصوات تدنو ، والنشاب تقع في القصر ، فقال لهم عبدالملك : إني أرى النّشاب تقع في القصر ، وأرى الأصوات تدنو ، ولا أرى يزيد إلاّ قد ظهر ، وإني لا آمن مَن مع عدي من مُضر ومن أهل الشام أن يأتونا فيقتلونا قبل أن يصل إلينا يزيد إلى الدار ، فأغلقوا الباب ثم ألقوا عليه ثياباً . ففعلوا فلم يلبثوا إلاّ ساعة حتى جاءهم عبدالله بن دينار مولى ابن عمر ، وكان على حرس عدي ـ فجاء يشتدّ إلى الباب هو وأصحابه ، وقد وضع بنو المهلب متاعاً على الباب ، ثم اتّكوا عليه ، فأخذ الآخرون يعالجون الباب ، فلم يستطيعوا الدّخول ، وأعجلهم الناس فخلّوا عنهم .

وجاء يزيد بن المهلب حتى نزل دار سلْم بن زياد بن أبي سفيان إلى جانب القصر ، وأُتيَ بالسلاليم ، فلم يلبث عثمان أن فتح القصر ، وأُتيَ بعديّ بن أرْطاة ، فجيء به وهو يتبسّم ، فقال له يزيد : لمَ تضحك ؟ فوالله إنه لَينبغي أن يمنعك من الضحك خَصلتان : إحداهما الفِرار من القِتْلة الكريمة حتى أعطيتَ بيدك إعطاء المرأة بيدها ، فهذه واحدة ، والأخرى أني أتيت بك تُتَلُّ كما يتلّ العبد الآبق إلى أربابه ، وليس معك مني عهد ولا عَقْد ، فما يؤمّنك أن أضرب عنقك ! فقال عديّ : أما أنت فقد قَدرت عليَّ ، ولكني أعلم أنّ بقائي بقاؤك ، وأنّ هلاكي مطلوب به من جرّته يدُه ؛ إنك قد رأيت جنودَ الله بالمغرب ، وعلمت بلاء الله عندهم في كلّ موطن من مواطن الغدر والنكث ، فتدارك فَلْتَتكَ وزَلّتك بالتوبة واستقالة العثرة ، قبل أن يرمي إليك البحر بأمواجِه ، فإن طلبتَ الاستقالة حينئذ لم تُقَلْ ، وإن أردت الصلح وقد أشخصت القوم إليك وجدتهم لك مباعِدين، وما لم يشخص القوم إليك فلم يمنعوك شيئاً طلبت فيه الأمان على نفسك وأهلك ومالك .

فقال له يزيد : أما قولك : إنّ بقاءك بقائي ؛ فلا أبقاني الله حَسوة طائر مذعور إن كنتُ لا يبقيني إلاّ بقاؤك ؛ وأما قولك : إنّ هلاكك مطلوب به من جَرّته يدُه ؛ فوالله لو كان في يدي من أهل الشام عشرة آلاف إنسان ليس فيهم رجل إلاّ أعظم منزلة منك فيهم ، ثم ضربت أعناقهم في صعيد واحد ، لكان فراقي إيّاهم وخلافي عليهم أهولَ عندهم وأعظم في صدورهم من قتل أولئك ، ثم لو شئتُ أن تُهدَر لي دماؤهم ، وأن أحكّم في بيوت أموالهم ، وأن يجوّزوا لي عظيماً من سلطانهم ، على أن أضع الحرب فيما بيني وبينهم لفعلوا ؛ فلا يخفينّ عليك أن القوم ناسوك لو قد وقعت أخبارنا إليهم ، وأن أعمالهم وكيدهم لا يكون إلاّ لأنفسهم ، لا يذكرونك ولا يحلفون بك ، وأما قولك : تدارك أمرَك واستقله وافعل وافعل ؛ فوالله ما استشرتُك ، ولا أنت عندي بوادّ ولا نصيح ؛ فما كان ذلك منك إلاّ عجزاً وفضلاً ؛ انطلقوا به ، فلما ذهبوا به ساعة قال : ردُّوه ، فلما رُدّ قال : أما إنّ حبسي إياك ليس إلاّ لحبسك بني المهلب وتضييقك عليهم فيما كنّا نسألك التسهيل فيه عليهم ، فلم تكن تألو ما عسّرتَ وضيّقتَ وخالفت ؛ فكأنه لهذا القول حين سمعه أمِنَ على نفسه ، وأخذ عديّ يحدث به كلّ من دخل عليه .

وكان رجل يقال له السميدع الكندي من بني مالك بن ربيعة من ساكني عُمان يرى رأيَ الخوارج ، وكان

خرج وأصحاب يزيد وأصحاب عدي مصطفّون فاعتزل ومعه ناس من القرّاء ، فقال طائفةٌ من أصحاب يزيد وطائفة من أصحاب عدي : قد رضينا بحكم السَّمَيدع . ثم إن يزيد بعث إلى السميدَع فدعاه إلى نفسه ، فأجابه ، فاستعملوا يزيد على الأُبُلّة ، فأقبل على الطِّيب والتخلّق والنعيم ، فلما ظهر يزيد بن المهلب هرب رؤوس أهل البصرة من قيس وتميم ومالك بن المنذر ، فلحقوا بعبدالحميد بن عبدالرحمن بالكوفة ، ولحق بعضهم بالشام ، فقال الفرزدق :

فِداءٌ لِقَومٍ مِنْ تميمٍ تَتابَعُوا ... إلى الشأم لم يرضَوْا بحكم السَّمَيْدَعِ
أَحُكمُ حَروريٍّ مِنَ الدينِ مارِقٍ ... أضلَّ وأغوَى مِنْ حِمارٍ مُجَدَّعِ

فأجابه خليفةُ الأقطع :

وَمَا وجَّهُوهَا نحوَه عن وِفادةٍ ... وَلاَ نهْزةٍ يُرْجَى بها خيرُ مَطْمَعِ
ولكنَّهم رَاحُوا إليها وأَدْلَجُوا ... بأَقرَعَ أستَاهٍ تَرَى يومَ مَقْرَعِ
وهُمْ من حِذَارِ القومِ أن يَلحَقوا بهمْ ... لهم نَزْلَةٌ في كلِّ خمسٍ وأربعِ

وخرج الحواريّ بن زياد بن عمرو العتكيّ يُريد يزيد بن عبد الملك هارباً من يزيد بن المهلّب، فلقيَ خالد بن عبدالله القَسْريّ وعمرو بن يزيد الحَكَميّ ومعهما حُمَيد بن عبد الملك بن المهلب قد أقبلوا من عند يزيد بن عبد الملك بأمان يزيد بن المهلب، وكلّ شيء أراداه فاستقبلهما، فسألاه عن الخبر، فخلا بهما حين رأى حُمَيد بن عبد الملك، فقال: أين تريدان؟ فقالا: يزيد بن المهلب، قد جئناه بكلّ شيء أراده، فقال: ما تصنعان بيزيد شيئاً، ولا يصنعه بكما؛ قد ظهر على عدوّه عديّ بن أرطاة، وقتل القتلى وحبس عديًّا، فارجعا أيّها الرجلان، ويمرّ رجل من باهلة يقال له مسلم بن عبد الملك، فلم يقف عليهما، فصاحاه وساءلاه، فلم يقف عليهما، فقال القسريّ: ألا تردّه فتجلده مائة جلدة! فقال له صاحبُه: عُزّ به عنك، وأمليا لينصرف.

ومضى الحواريّ بن زياد إلى يزيد بن عبد الملك، وأقبلا بحُميد بن عبد الملك معهما، فقال لهما حميد: أنشدكما الله أن تخالفا أمر يزيد ما بُعثتما به! فإنّ يزيد قابلٌ منكما؛ وإنّ هذا وأهل بيته لم يزالوا لنا أعداء، فأنشدكما الله أن تقبلا مقالته؛ فلم يقبلا قوله، وأقبلا به حتى دفعاه إلى عبد الرحمن بن سليم الكلبيّ، وقد كان يزيد بن عبد الملك بعثه إلى خُراسان عاملاً عليها. فلما بلغه خلع يزيد بن عبد الملك كتب إليه: إنّ جهاد من خالفك أحبُّ إليّ من عملي على خُراسان، فلا حاجة لي فيها، فاجعلني ممن توجِّهني إلى يزيد بن المهلب، وبعث بحُميد بن عبد الملك إلى يزيد، ووثب عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب على خالد بن يزيد بن المهلب، وهو بالكوفة وعلى حَمّال بن زَحْر الجُعفيّ، وليسا ممن كان ينطق بشيء إلاّ أنهم عرفوا ما كان بينه وبين بني المهلب، فأوثقهما وسرّحهما إلى يزيد بن عبد الملك، فحبسهما جميعاً، فلم يفارقوا السجْن حتى هلكوا فيه.
وبعث يزيد بن عبد الملك رجالاً من أهل الشأم إلى الكوفة يسكّنونهم، ويثنون عليهم بطاعتهم، ويُمَنّونهم الزيادات منهم القُطاميّ بن الحصين، وهو أبو الشرْقيّ، واسم الشرْقي الوليد، وقد قال القطاميّ حين بلغه ما كان من يزيد بن المهلب:

لَعلَّ عيني أنْ تَرى يَزِيدا ... يَقودُ جَيشاً جَحْفَلا شديدَا
تَسْمَعُ للأرضِ به وَئيدَا ... لا بَرَماً هِدًّا وَلاَ حَيودَا

وَلاَ جَبَانـاً في الـوغى رِعْـدِيـدا تَـرَى ذَوِي التَّـاجِ لـه سُجُـودا
مُكَفِّـرِيـنَ خـاشِـعـيـنَ قُـودَا وآخـرِيـنَ رَكَّـبُـوا وُفُـودا
لا يَنقضُ العهـدَ ولا المعهـودَا مِنْ نَفَـرٍ كـانـوا هِجَانـاً صِيـدَا
تـرىٰ لهم في كـلِّ يـومٍ عِيـدا من الأعـادي جَـزَراً مقصـودا

ثم إن القُطاميّ سار بعد ذلك إلى العَقْر حتى شهد قتال يزيد بن المهلب مع مسلمة بن عبد الملك، فقال يزيد بن المهلّب: ما أبعد شعر القُطاميّ من فعله!

ثم إنّ يزيد بن عبد الملك بعث العباس بن الوليد في أربعة آلاف فارس؛ جريدة خيل، حتى وافَوا الحيرة يبادر إليها يزيد بن المهلب، ثم أقبل بعد ذلك مسلمة بن عبد الملك وجنود أهل الشأم، وأخذ على الجزيرة وعلى شاطىء الفرات، فاستوثق أهلُ البصرة ليزيد بن المهلب، وبعث عماله على الأهواز وفارس وكِرْمان، عليها الجرّاح بن عبد الملك الحكَميّ حتى انصرف إلى عمر بن عبد العزيز، وعبد الرحمن بن نعيم الأزديّ فكان على الصّلاة. واستخلف يزيد بن عبد الملك عبدَ الرحمن القشيريّ على الخَراج، وجاء مُدْرِك بن المهلب حتى انتهى إلى رأس المفازة، فدسّ عبدَ الرحمن بن نعيم إلى بني تميم أنّ هذا مدرك بن المهلب يريد أن يُلقى بينكم الحرب، وأنتم في بلاد عافية وطاعة وعلى جماعة، فخرجوا ليلاً يستقبلونه، وبلغ ذلك الأزْد، فخرج منهم نحو من ألفي فارس حتى لحقوهم قبل أن ينتهوا إلى رأس المفازة، فقالوا لهم: ما جاء بكم؟ وما أخرجكم إلى هذا المكان؟ فاعتلّوا عليهم بأشياء، ولم يُقرّوا لهم أنهم خرجوا ليلتقّوا مدرك بن المهلب، فكان لهم الآخرون، بل قد علمنا أن تخرجوا لتلقى صاحبنا، وها هو ذا قريب؛ فما شئتم.

ثم انطلقت الأزْد حتى تلقَّوْا مدرك بن المهلب على رأس المفازة، فقالوا له: إنك أحبّ الناس إلينا، وأعزّهم علينا، وقد خرج أخوك ونابذَه، فإن يظهره الله فإنما ذلك لنا، ونحن أسرع الناس إليكم أهلَ البيت وأحقه بذلك؛ وإن تكن الأخرى فوالله مالك في أن يغشانا ما يعرّنا فيه من البلاء راحة. فعزم له رأيه على الانصراف، فقال ثابت قُطنة، وهو ثابت بن كعب، من الأزد من العَتيك:

أَلَمْ تَـرَ دَوْسَـراً مَنَعَتْ أخـاهـا وقـد حَـشَـدَتْ لِتقـتـلَهُ تميـمُ
رَأَوْا من دونـه الـزُّرْقَ العَـوالي وحَيًّـا مـا يُبـاحُ لهمْ حـريمُ
شَنُـوءتهـا وعمـرانُ بنُ حـزمٍ هنـاك المجـدُ والحسبُ الصَّميمُ
فـما حَمَـلوا ولكـن نَهْنَهَـتْـهُـمْ رِمـاحُ الأزدِ والعـزُّ القـديـمُ
رَدَدنَـا مُـدْركـاً بمَـرَدِّ صِـدْقٍ ولـيسَ بـوجهـه منـكـمْ كُـلومُ
وخَيـلٍ كـالقِـداحِ مُسَوَّمـاتٍ لَـدى أرضٍ مغـانيهـا الجميمُ
عليهـا كـلُّ أصْيَـدَ دَوْسَـرِيٍّ عـزيـزٍ لا يَـفـرُّ وَلاَ يَـريـمُ
بهـمْ تُسْتَعْتَبُ السفهـاءَ حتّى تـرى السفهـاءَ تَـرْدَعُهَـا الحُلومُ

قال هشام: قال أبو مِخْنف: فحدّثني معاذ بن سعد أنّ يزيد لمّا استجمع له البَصرة، قام فيهم فحمِد الله وأثنى عليه، ثم أخبرهم أنه يدعوهم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه محمد ﷺ، ويحثّ على الجهاد، ويزعم أنّ جهاد أهل الشام أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم.

قال : فدخلت أنا والحسن البصري وهو واضع يده على عاتقي ، وهو يقول : انظر هل ترى وجه رجل تعرفه؟ قلت : لا والله ، ما أرى وجه رجل أعرفه ، قال : فهؤلاء والله الغُثاء ، قال : فمضينا حتى دنوْنا من المنبر . قال : فسمعته يذكُر كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، ثم رفع صوته ، فقال : والله لقد رأيناكَ والياً ومولًى عليك ، فما ينبغي لك ذلك . قال : فوثبنا عليه ، فأخذنا بيده وفمه وأجلسناه ؛ فوالله ما نشكّ أنه سمعه ؛ ولكنه لم يلتفت إليه ومضى في خطبته .

قال : ثم إنا خرجنا إلى باب المسجد ، فإذا على باب المسجد النضر بن أنس بن مالك يقول : يا عباد الله ، ما تنقمون من أن تجيبوا إلى كتاب الله وسنة نبيّه ﷺ ! فوالله ما رأينا ذلك ولا رأيتموه منذ ولدتم إلاّ هذه الأيام من إمارة عمر بن عبدالعزيز ، فقال الحسن : سبحان الله ! وهذا النضر بن أنس قد شهد أيضاً .

قال هشام : قال أبو مخنف : وحدَّثني المثنى بن عبدالله أنّ الحسن البصريّ مرّ على الناس وقد اصطفوا صفَّيْن ، وقد نصبوا الرّايات والرماح ، وهم ينتظرون خروج يزيد ، وهم يقولون : يدعونا يزيد إلى سنّة العُمَرَين ، فقال الحسن : إنما كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين تروْن ، ثم يسرِّح بها إلى بني مروان ، يريد بهلاك هؤلاء رضاهم ، فلما غضب غضبة نصب قَصَباً ، ثم وضع عليها خِرَقاً ، ثم قال : إني قد خالفتهم فخالفوهم . قال هؤلاء : نعم . وقال : إني أدعوكم إلى سنّة العُمَرَين ، وإن من سنّة العُمَرَين أن يوضع قيد في رجله ، ثم يردّ إلى محبس عمر الذي فيه حبسه ، فقال له ناس من أصحابه ممن سمع قوله : والله لكأنك يا أبا سعيد راض عن أهل الشام ، فقال : أنا راض عن أهل الشام قبحهم الله وبرّحهم! أليس هم الذين أحلُّوا حَرَم رسول الله ﷺ ، يقتلون أهله ثلاثة أيام وثلاث ليال! قد أباحوهم لأنباطهم وأقباطهم ، يحملون الحرائر ذوات الدّين ، لا يتناهوْن عن انتهاك حرمة . ثم خرجوا إلى بيت الله الحرام ، فهَدموا الكعبة ، وأوقدوا النيران بين أحجارها وأستارها ، عليهم لعنة الله وسوء الدار !

قال : ثم إنّ يزيد خرج من البصرة ، واستعمل عليها مَرْوان بن المهلّب، وخرج معه بالسلاح وبيت المال ، فأقبل حتى نزل واسطاً ، وقد استشار أصحابه حين توجه نحو واسط، فقال : هاتوا الرّأي ، فإنّ أهل الشام قد نهضوا إليكم ، فقال له حبيب ، وقد أشار عليه غير حبيب أيضاً فقالوا : نرى أن تخرج وتنزل بفارس ، فتأخذ بالشِّعاب وبالعِقاب ، وتدنو من خراسان ، وتطاول القوم، فإنّ أهل الجبال ينفضّون إليك وفي يديك القِلاع والحصون . فقال : ليس هذا برأيي ، ليس يوافقني هذا ؛ إنما تريدون أن تجعلوني طائراً على رأس جبل. فقال له حبيب : فإن الرأي الذي كان ينبغي أن يكون في أوّل الأمر قد فات ، قد أمرتك حيث ظهرت على البصرة أن توجّه خيلاً عليها أهل بيتك حتى ترد الكوفة ، فإنما هو عبدالحميد بن عبدالرحمن ، مررتَ به في سبعين رجلاً فعجز عنك ؛ فهو عن خيلك أعجز في العدّة ، فنسبق إليها أهل الشام وعظماء أهلها يرون رأيك ، وأن تلي عليهم أحبّ إلى جُلِّهم من أن يلي عليهم أهل الشام ، فلم تُطعني ، وأنا أشير الآن برأي ؛ سرّح مع أهل بيتك خيلاً من خيلك عظيمة فتأتي الجزيرة ، وتبادر إليها حتى ينزلوا حصناً من حصونها ، وتسير في أثرهم ، فإذا أقبل أهل الشام يريدونك لم يدعوا جنداً من جنودك بالجزيرة؛ ويقبلون إليك فيقيمون عليهم ، فكأنهم حابستُهم عليك حتى تأتيَهم فيأتيك مَنْ بالموصل من قومك ، وينفضّ إليك أهلُ العراق وأهل الثغور ، وتقاتلهم في أرض رفيغة السعر ، وقد جعلتَ العراق كله وراء ظهرك ، فقال : إني أكره أن أقطع جيشي وجندي . فلما نزل واسِطاً أقام بها أياماً يسيرة .

قال أبو جعفر: وحجّ بالناس في هذه السنة عبدالرحمن بن الضّحاك بن قيس الفهري ، حدَّثني بذلك أحمد بن ثابت ، عمَّن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر . وكذلك قال محمد بن عمر .

وكان عبدالرحمن عامل يزيد بن عبدالملك على المدينة ، وعلى مكة عبدالعزيز بن عبدالله بن خالد بن أسِيد . وكان على الكوفة عبدالحميد بن عبدالرحمن ، وعلى قضائها الشَّعبي ، وكانت البصرة قد غلب عليها يزيد بن المهلّب، وكان على خُراسان عبدالرحمن بن نُعَيم .

ثم دخلت سنة اثنتين ومائة

فمن ذلك ما كان فيها من مَسير العباس بن الوليد بن عبدالملك ومسلمة بن عبدالملك إلى يزيد بن المهلب بتوجيه يزيد بن عبدالملك إيّاهما لحربه .

وفيها قتل يزيد بن المهلّب ، في صَفر .

ذكر الخبر عن مقتل يزيد بن المهلب

ذكر هشام ، عن أبي مِخْنف : أن مُعاذ بن سعيد حدّثه أنّ يزيد بن المهلب استخلف على واسط حين أراد الشخوص عنها للقاء مسلمة بن عبدالملك والعباس ابنَه معاويةَ ، وجعل عنده بيت المال والخزائن والأُسراء ، وقدَّم بين يديه أخاه عبدالملك ، ثم سار حتى مرّ بفَم النيل ، ثم سار حتى نزل العَقْر . وأقبل مسلمة يسير على شاطىء الفرات حتى نزل الأنبار ، ثم عقد عليها الجسر ، فعَبر من قبَل قرية يقال لها فارط ، ثم أقبل حتى نزل على يزيد بن المهلب ، وقد قدّم يزيد أخاه نحو الكوفة ، فاستقبله العباس بن الوليد بسُورا ، فاصطفّوا ، ثم اقتتل القوم ، فشدّ عليهم أهل البصرة شدّة كشفوهم فيها ، وقد كان معهم ناس من بني تميم وقيس ممّن انهزم من يزيد من البصرة، فكانت لهم جماعة حسنة مع العباس ، فيهم هُرَيم بن أبي طَحْمة المجاشعيّ . فلما انكشف أهل الشام تلك الانكشافة ، ناداهم هُرَيم بن أبي طَحْمة : يا أهلَ الشام ، الله الله أن تُسلِمونا! وقد اضطرهم أصحاب عبدالملك إلى نَهْرٍ فأخذوا ينادونه : لا بأسَ عليك ؛ إن لأهل الشام جَوْلَةً في أول القتال ، أتاك الغوث .

قال : ثم إن أهل الشام كرّوا عليهم ، فكُشف أصحاب عبدالملك وهُزموا ، وقتِل المُنْتُوف من بَكْر بن وائل ، مولى لهم ، فقال الفرزدق يحرّض بكر بن وائل :

تُبَكِّي على المنتـوفِ بكـرُ بنُ وائـلٍ ... وتَنْهَىْ عَنِ ابني مِسْمَـعٍ مَنْ بَكـاهُمَـا
غـلامَين شَبَّا في الحـروبِ وأدركـا ... كِـرَامَ المساعي قبـلَ وصلِ لحـاهُمَـا
ولـو كـانَ حَيًّا مـالـكٌ وابنُ مـالـكٍ ... إذاً أوقَـدُوا نَـارينِ يَعلو سَنَـاهُـمَـا

وابنا مسمع : مالك وعبدالملك ابنا مسمع ، قتلهم معاوية بن يزيد بن المهلب فأجابه الجَعْد بن درهم مولى. . . . . من هَمْدان :

تُبكي عـلى المنتـوف في نصر قـومِـهِ ... ولَسنَـا نُبكِّـي الشـائِـدِيْـن أبـاهُمَـا

أَرَادَ فِنَـاءَ الحَـيِّ بَـكـرِ بـن وائـلٍ فـعِـزُّ تميـم لـو أُصِيـبَ فِنَـاهُمَـا
فـلا لقِيَـا رَوحـاً مِـنَ اللّهِ سَـاعَـةً ولا رَقَـأَتْ عَيـنَـا شَـجِيٍّ بكـاهمـا
أَفِي الغِشِّ نَبكي إنْ بَكَيـنَـا عليهـمـا وقـد لـقيـا بـالـغِشِّ فينـا رَدَاهمـا

وجاء عبدالملك بن المهلب حتى انتهى إلى أخيه بالعَقْر ، وأمر عبدالله بن حيّان العبدي ، فعبر إلى جانب الصَّراة الأقصى ـ وكان الجسر بينه وبينه ـ ونزل هو وعسكره وجمعٌ من جموع يزيد ، وخندق عليه ، وقطع مسلمة إليهم الماء وسعيد بن عمرو الحَرَشي ، ويقال : عبر إليهم الوضاح ، فكانوا بإزائهم . وسقط إلى يزيد ناس من الكوفة كثير ، ومن الجبال ، وأقبل إليه ناس من الثغور ، فبعث على أرباع أهل الكوفة الذين خرجوا إليه ورُبْع أهـل المدينـة عبدالله بن سفيـان بن يزيـد بن المغفل الأزدي ، وبعث عـلى ربع مـذحج وأسـد النعمان بن إبراهيم بن الأشتر النخعي ، وبعث على رُبْع كندة وربيعة محمد بن إسحاق بن محمد بن الأشعث ، وبعث على ربع تميم وهَمْدان حنظلة بن عتاب بن ورقاء التميمي ، وجمعهم جميعاً مع المفضّل بن المهلّب.

قال هشام بن محمد ، عن أبي مخنف : حدَّثني العَلاء بن زُهير ، قال : والله إنا لجُلوس عند يزيد ذات يوم إذ قال : ترَوْن أنّ في هذا العسكر ألف سيف يُضرب به؟ قال حنظلة بن عتّاب : إي والله وأربعة آلاف سيف ، قال : إنهم والله ما ضربوا ألف سيف قطّ ، والله لقد أحصى ديواني مائة وعشرين ألفاً ، والله لوددتُ أنّ مكانهم الساعة معي مَن بخراسان من قومي .

قال هشام : قال أبو مخنف : ثم إنه قام ذات يوم فحرّضَنا ورغّبَنا في القتال ثم قال لنا فيما يقوله : إنّ هؤلاء القوم لن يَرُدَّهم عن غيِّهم إلاّ الطعْن في عيونهم ، والضَّرْب بالمشرَفيّة على هامهم . ثم قال : إنه قد ذُكر لي أن هذه الجرادة الصفراء ـ يعني مسلمة بن عبدالملك ـ وعاقر ناقة ثمود ؛ يعني العباس بن الوليد ، وكان العباس أزرق أحمر ، كانت أمّه رومية ـ والله لقد كان سليمان أراد أن ينفيه حتى كلمته فيه فأقرّه على نسبه ؛ فبلغني أنه ليس همّهما إلاّ التماسي في الأرض ، والله لو جاء أهل الأرض جميعاً وليس إلاّ أنا ، ما برحت العَرْصة حتى تكون لي أو لهم . قالوا : نخاف أن تعنّينا كما عنّانا عبدالرحمن بن محمد ، قال : إنّ عبدالرحمن فضح الذمّار ، وفضح حسَبَه ، وهل كان يعدو أجله ! ثم نزل .

قال : ودخل علينا عامر بن العَمَيْثَل ـ رجل من الأزْد ـ قد جمع جموعاً فأتاه فبايعه ؛ فكانت بَيْعة يزيد : تبايعون على كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ ، وعلى ألاّ تطأ الجنودُ بلادَنا ولا بيضتَنا ، ولا يعاد علينا سيرة الفاسق الحجّاج ، فمن بايعنا على ذلك قبلنا منه ، ومَنْ أبى جاهدناه ، وجعلنا الله بيننا وبينه ، ثم يقول : تبايعونا؟ فإذا قالوا : نعم ، بايعهم .

وكان عبدالحميد بن عبدالرحمن قد عسكر بالنُّخَيلة ، وبعث إلى المياه فبَثقها فيما بين الكوفة وبين يزيد بن المهلب، لئلاّ يصل إلى الكوفة، ووضع على الكوفة مَناظرَ وأرصاداً لتحبس أهل الكوفة عن الخروج إلى يزيد، وبعث عبدالحميد بعثاً من الكوفة عليهم سيف بن هانئ الهَمْداني حتى قدموا على مسلمة ، فألطفهم مسلمة ، وأثنى عليهم بطاعتهم ، ثم قال : والله لقلّ ما جاءنا من أهل الكوفة . فبلغ ذلك عبدالحميد ، فبعث بعثاً هم أكثر من ذلك ، وبعث عليهم سَبْرة بن عبدالرحمن بن مخنف الأزدي ، فلما قدم أثنى عليه ، وقال : هذا رجل لأهل بيته طاعة وبلاء ، ضمّوا إليه من كان هـا هنا من أهـل الكوفـة . وبعث مسلمة إلى عبـدالحميد بن

عبدالرحمن فعزله ، وبعث محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة ـ وهو ذو الشامة ـ مكانه . فدعا يزيد بن المهلب رؤوس أصحابه فقال لهم : قد رأيتُ أن أجمع اثني عشر ألف رجل ، فأبعثهم مع محمد بن المهلب حتى يبيّتوا مسلمة ويحملوا معهم البراذع والأكُف والزبُل لدفن خندقهم ، فيقاتلهم على خندقهم وعسكرهم بقيّة ليلتهم ، وأمِدّه بالرّجال حتى أصبح ، فإذا أصبحتُ نهضتُ إليهم أنا بالناس ، فنناجزهم ، فإني أرجو عند ذلك أن ينصرنا الله عليهم .

قال السَّمَيدع : إنا قد دعوناهم إلى كتاب الله وسنة نبيّه محمد ﷺ ، وقد زعموا أنهم قابلوا هذا منا ، فليس لنا أن نمكر ولا نغدر ، ولا نريدهم بسوء حتى يردُّوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا .

قال أبو رؤبة ـ وكان رأسَ طائفة من المرجئة ، ومعه أصحاب له : صَدَقَ ، هكذا ينبغي . قال يزيد : ويحكم! أتصدّقون بني أمية ! إنهم يعملون بالكتاب والسنة ، وقد ضيّعوا ذلك منذ كانوا ؛ إنهم يقولوا لكم : إنا نقبل منكم ، وهم يريدون ألّا يعملوا بسلطانهم إلاّ ما تأمرونهم به ، وتدعونهم إليه ؛ لكنهم أرادوا أن يكفّوكم عنهم ؛ حتى يعملوا في المكر ، فلا يسبقوكم إلى تلك ، ابدؤوهم بها ، إني قد لقيت بني مَرْوان فوالله ما لقيت رجلًا هو أمكر ولا أبعد غوراً من هذه الجرادة الصّفراء ـ يعني مسلمة ـ قالوا : لا نرى أن نفعل ذلك ، حتى يردّوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منّا . وكان مرْوان بن المهلب وهو بالبصرة يحثّ الناس على حَرْب أهل الشام ، ويسرّح الناس إلى يزيد ، وكان الحسن البصريّ يثبّط الناس عن يزيد بن المهلب .

قال أبو مخنف: فحدّثني عبد الحميد البصريّ، أنّ الحسن البصريّ كان يقول في تلك الأيام :

أيّها الناس، الزموا رحالَكم، وكفّوا أيديَكم، واتقوا الله مولاكم، ولا يقتل بعضُكم بعضاً على دنيا زائلة، وطمع فيها يسير ليس لأهلها بباق، وليس الله عنهم فيما اكتسبوا براضٍ ؛ إنه لم تكن فتنة إلاّ كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء وأهل التِّيه والخُيَلاء، وليس يسلم منها إلا المجهول الخفيّ والمعروف التقيّ، فمن كان منكم خفياً فليلزم الحقّ، وليحبس نفسه عما يتنازع الناس فيه من الدّنيا، فكفاه والله بمعرفة الله إياه بالخير شرفاً؛ وكفى له بها من الدّنيا خلَفا؛ ومَنْ كان منكم معروفاً شريفاً، فترك ما يتنافس فيه نظراؤه من الدنيا إرادَة الله بذلك، فواهاً لهذا! ما أسعده وأرشدَه وأعظم أجره وأهدى سبيله! فهذا غداً ـ يعني يوم القيامة ـ القرير عيناً، الكريم عند الله مآباً.

فلما بلغ ذلك مروان بن المهلب قام خطيباً كما يقوم، فأمر الناس بالجِدّ والاحتشاد، ثم قال لهم :

لقد بلغني أنّ هذا الشيخ الضالّ المرائي ـ ولم يسمِّه ـ يثبِّط الناس، والله لو أنّ جاره نزع من خُصّ داره قَصَبةً لظلّ يرعُف أنفه؛ أينكر علينا وعلى أهل مصرنا أن نطلب حقّنا، وأن ننكر مظلمتنا! أما والله ليَكُفَّنّ عن ذكرنا وعن جمعه إلينا سُقّاط الأبلّة وعلُوج فُرات البصرة ـ قوماً ليسوامن أنفسنا، ولا ممن جرت عليه النعمة من أحد منا ـ أو لأنحِينّ عليه مِبْرَداً خشناً.

فلما بلغ ذلك الحسن قال: والله ما أكره أن يكرمني الله بهوانه . فقال ناس من أصحابه: لو أرادك ثمّ شئت لمنعناك، فقال لهم: فقد خالفتُكم إذاً إلى ما نهيتكم عنه! آمركم ألّا يقتل بعضكم بعضاً مع غيري، وأدعوكم إلى أن يقتل بعضكم بعضاً دوني! فبلغ ذلك مَرْوان بن المهلّب، فاشتدّ عليهم وأخافهم وطلبهم حتى تفرّقوا. ولم يدَع الحسنُ كلامه ذلك، وكفّ عنه مروان بن المهلب.

وكانت إقامة يزيد بن المهلب منذ أجمع وهو ومسلمة ثمانية أيام، حتى إذا كان يوم الجمعة لأربع عشرة خلتْ من صفر، بعث مسلمة إلى الوضّاح أن يخرج بالوضّاحية والسفن حتى يحرّق الجسر، ففعل. وخرج مسلمة فعبّى جنود أهل الشأم، ثم ازدلف بهم نحو يزيد بن المهلب، وجعل على ميمنته جبلة بن مخرمة الكنديّ، وجعل على ميسرته الهذيل بن زُفر بن الحارث العامريّ، وجعل العباس على ميمنته سيف بن هانئ الهَمْدانيّ، وعلى ميسرته سويد بن القعقاع التميميّ ومسلمة على الناس، وخرج يزيد بن المهلب، وقد جعل على ميمنته حبيب بن المهلب، وعلى ميسرته المفضّل بن المهلب، وكان مع المفضّل أهل الكوفة وهو عليهم، ومعه خيل لربيعة معها عدد حسن، وكان مما يلي العباس بن الوليد.

قال أبو مخنف: فحدّثني الغنويّ ـ قال هشام: وأظنّ الغنويّ العَلاء بن المنهال ـ أنّ رجلاً من الشأم خرج فدعا إلى المبارزة، فلم يخرج إليه أحد، فبرز له محمد بن المهلب، فحمل عليه، فاتقاه الرّجل بيده، وعلى كفّه كفّ من حديد، فضربه محمد فقطع كفّ الحديد وأسرع السيف في كفّه، واعتنق فرسه، وأقبل محمد يضربه، ويقول: المِنجَل أعود عليك. قال: فذكر لي أنه حيّان النَّبَطيّ.

قال: فلما دنا الوضّاح من الجسر ألهب فيه النار، فسطع دخانه؛ وقد اقتتل الناس ونشبت الحرب، ولم يشتدّ القتال، فلما رأى الناس الدخان، وقيل لهم: أحرِق الجسر انهزموا، فقالوا ليزيد: قد انهزم الناس. قال: وممّ انهزموا؟ هل كان قتال يُنهزم من مثله! فقيل له: قالوا: أحرِق الجسر فلم يثبت أحد، قال: قبحهم الله! بَقٌّ دُخِّن عليه فطار. فخرج وخرج معه أصحابه ومواليه وناس من قومه، فقال: اضربوا وجوهَ مَنْ ينهزم، ففعلوا ذلك بهم، حتى كثروا عليه، فاستقبلهم منهم مثل الجبال، فقال: دعوهم، فوالله إني لأرجو ألّا يجمعني الله وإياهم في مكان واحد أبداً؛ دعوهم يرحمهم الله، غَنَمٌ عدا في نواحيها الذئب، وكان يزيد لا يحدّث نفسَه بالفِرار، وقد كان يزيد بن الحكم بن أبي العاص ـ وأمه ابنة الزبْرِقان السَّعديّ ـ أتاه وهو بواسط قبل أن يصل إلى العَقْر، فقال:

إنْ بني مَرْوانَ قد بادَ مُلكُهُمْ ... فإنْ كنتَ لم تَشعُرْ بذلك فاشعُر

قال يزيد: ما شعرت. قال: فقال يزيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفيّ:

فَعِشْ مَلِكاً أو مُتْ كريماً وإن تمتْ ... وسَيفُكَ مشهورٌ بكَفِّكَ تُعْذَرِ

قال: أمّا هذا فعسى:

ولما خرج يزيد إلى أصحابه واستقبلته الهزيمة، فقال: يا سَمَيْدَع، أرأيي أم رأيك؟ ألم أعلمك ما يريد القوم! قال: بلى والله، والرأيَ كان رأيُك، وأناذا معك لا أزايلك، فمرْني بأمرك؛ قال: إمّا لا فانزل، فنزل في أصحابه، وجاء يزيدَ بن المهلب جاء فقال: إن حبيباً قد قتل.

قال هشام: قال أبو مِخْنف: فحدّثني ثابت مولى زهير بن سلمة الأزدي، قال: أشهد أني أسمعه حين قال له ذلك، قال: لا خيرَ في العيش بعد حبيب! قد كنت والله أبغض الحياة بعد الهزيمة؛ فوالله ما ازددت له إلا بغضاً، امضوا قُدماً. فعلمنا والله أن قد استقتل؛ فأخذ مَنْ يكره القتال ينكص، وأخذوا يتسلّلون، وبقيت معه جماعة حسنة، وهو يزدلف، فكلّما كرّ بخَيْل كشفها، أو جماعة من أهل الشأم عدلوا عنه وعن سنن أصحابه،

فجاء أبو رؤبة المرجئ ، فقال: ذهب الناس ـ وهو يشير بذلك إليه وأنا أسمعه ـ فقال: هل لك أن تنصرف إلى واسط؛ فإنها حصن فتنزلها ويأتيك مَدَدُ أهل البصرة، ويأتيك أهل عُمان والبحرين في السفن، وتضرب خندقاً؟ فقال له: قبّح الله رأيك! ألِي تقول هذا! الموت أيسر عليّ من ذلك، فقال له: فإنّي أتخوّف عليك لمّا ترى، أما ترى ما حولك من جبال الحديد! وهو يشير إليه، فقال له: أما أنا فما أباليها؛ جبال حديد كانت أم جبال نار، اذهب عنّا إن كنت لا تريد قتالاً معنا. قال: وتمثّل قول حارثة بن بدر الغُدّانيّ ـ قال أبو جعفر أخطأ هذا؛ هو للأعشى ـ:

أبِالموتِ خَشَّتني عُبَادُ وإنّما ... رأيتُ مَنايا الناسِ يَشقى ذَليلُها
فما مِيتةٌ إن مُتُّها غيرَ عاجِزٍ ... بعَارٍ إذا ما غالَتِ النفسَ غُولُها

وكان يزيد بن المهلّب على بِرْذون له أشهب، فأقبل نحو مسلمة لا يريد غيره؛ حتى إذا دنا منه أدنى مسلمة فرسَه ليركب، فعطف عليه خيول أهل الشأم، وعلى أصحابه، فقتِل يزيد بن المهلب، وقتِل السَّمَيدع، وقتِل معه محمد بن المهلب. وكان رجل من كلْب من بني جابر بن زهير بن جناب الكلبيّ يقال له القَحْل بن عيّاش لما نظر إلى يزيد قال: يا أهلَ الشأم، هذا والله يزيد، والله لأقتلنّه أو ليقتلنّي، وإن دونه ناساً، فمن يحمل معي يكفيني أصحابه حتى أصلَ إليه؟ فقال له ناس من أصحابه: نحمل نحن معك، ففعلوا، فحملوا بأجمعهم، واضطربوا ساعةً، وسطع الغبار، وانفرج الفريقان عن يزيد قتيلاً، وعن القَحْل بن عياش بآخر رمق. فأومى إلى أصحابه يريهم مكان يزيد؛ يقول لهم: أنا قتلتُه، ويومي إلى نفسه إنه هو قتلني. ومرّ مسلمة على القحل بن عياش صريعاً إلى جنب يزيد، فقال: أما إني أظن هذا هو الذي قتلني. وجاء برأس يزيد مولى لبني مُرّة، فقيل له: أنت قتلته؟ فقال: لا، فلما أتى به مسلمة لم يعرف ولم ينكر، فقال له الحواريّ بن زياد بن عمرو العتكي: مُرْ برأسه فليُغسل ثم ليعمّم، ففُعل ذلك به، فعرَفه، فبعث برأسه إلى يزيد بن عبد الملك مع خالد بن الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط.

قال أبو مخنف: فحدّثني ثابت مولى زهير، قال: لقد قتِل يزيد وهُزم الناس، وإن المفضّل بن المهلب ليقاتل أهلَ الشام ما يدري بقتل يزيد ولا بهزيمة الناس؛ وإنّه لعلَى بِرْذون شديد قريب من الأرض، وإنّ معه لمجفّفة أمامه، فكلما حمل عليها نكصَت وانكشفت وانكشف، فيحمل في ناس من أصحابه حتى يخالط القوم ثم يرجع حتى يكون من وراء أصحابه، وكان لا يرى منّا مُلتفتاً إلا أشار إليه بيده ألاّ يلتفت ليُقبِل القومُ بوجوههم على عدوّهم، ولا يكون لهم همٌّ غيرهم.

قال: ثم اقتتلنا ساعة؛ فكأني أنظر إلى عامر بن العَمَيْثَل الأزدي وهو يضرب بسيفه، ويقول:

قد عَلِمتْ أُمُّ الصَّبيِّ المولودْ ... أنّي بِنَصْلِ السَّيفِ غَيْرُ رِعْدِيدْ

قال: واضطربنا والله ساعة، فانكشفت خيل ربيعة؛ والله ما رأيتُ عند أهل الكوفة من كبير صبر ولا قتال، فاستقبل ربيعةَ بالسيف يناديهم: أي معشر ربيعة، الكرّةَ الكرّةَ! والله ما كنتم بكُشف ولا لئام، ولا هذه لكم بعادة، فلا يؤتَينّ أهل العراق اليوم من قبَلكم. أيْ ربيعة، فَدَتكم نفسي، اصبروا ساعة من النهار.

قال : فاجتمعوا حوله ، وثابوا إليه ، وجاءت كُوَيْفتك .

قال : فاجتمعنا ونحن نريد الكرّة عليهم ، حتى أتى ، فقيل له : ما تصنع ها هنا وقد قتِل يزيد وحبيب ومحمد ، وانهزم الناس منذ طويل ؟ وأخبر الناس بعضهم بعضاً ، فتفرّقوا ومضى المفضّل ، فأخذ الطريق إلى واسط ، فما رأيت رجلاً من العرب مثل منزلته كان أغشى للناس بنفسه ، ولا أضرب بسيفه ، ولا أحسن تعبئة لأصحابه منه .

قال أبو مخنف : فقال لي ثابت مولى زهير : مررت بالخندق ، فإذا عليه حائط ، عليه رجال معهم النَّبل ، وأنا مجفَّفٌ ، وهم يقولون : يا صاحب التِّجفاف ، أين تذهب ؟ قال : فما كان شيء أثقلَ عليَّ من تجفافي ، قال : فما هو إلّا أن جُزتُهم ، فنزلت فألقيته لأخفِّف عن دابّتي . وجاء أهل الشام إلى عسكر يزيد بن المهلب ، فقاتلهم أبو رؤبة صاحب المرجئة ساعة من النهار حتى ذهب عُظْمهم ، وأسر أهل الشام نحواً من ثلاثمائة رجل ، فسرّحهم مسلمة إلى محمد بن عمرو بن الوليد فحبسهم . وكان على شُرطِهِ العُريان بن الهيثم . وجاء كتاب من يزيد بن عبدالملك إلى محمد بن عمرو : أن اضرب رقابَ الأسَراء ، فقال للعُريان بن الهيثم : أخرجهم عشرين عشرين ، وثلاثين ثلاثين . قال : فقام نحوٌ من ثلاثين رجلاً من بني تميم ، فقالوا : نحن انهزمنا بالناس ، فاتقوا الله وابدءوا بنا ، أخرجونا قبل الناس ، فقال لهم العُريان : اخرجوا على اسم الله ، فأخرجهم إلى المصطبة ، وأرسلَ إلى محمد بن عمرو يخبره بإخراجهم ومقالتهم ، فبعث إليه أن اضرب أعناقهم .

قال أبو مخنف : فحدّثني نَجيح أبو عبدالله مولى زهير ، قال : والله إني لأنظر إليهم يقولون : إنا لله ! انهزمنا بالناس ، وهذا جزاؤنا ، فما هو إلّا أن فرغ منهم ، حتى جاء رسول من عند مسلَمة فيه عافية الأسَراء والنهي عن قتلهم ، فقال حاجب بن ذُبيان من بني مازن بن مالك بن عمرو بن تميم :

لعَمري لقد خاضَتْ مَعْيطُ دِماءَنا ... بأسيافها حتى انتهى بهمُ الوحلُ
وما حُمل الأقوامُ أعظمَ من دمٍ ... حرامٍ ولَا ذَحْلٍ إذا التُمس الذَّحْلُ
حَقَنْتُم دِماءَ المُصْلتين عليكُم ... وجُرَّ على فُرْسانِ شيعتك القتلُ
وَقَى بهمُ العُريانُ فُرسانَ قومه ... فيا عجباً أينَ الأمانةُ والعدلُ!

وكان العُريان يقول : والله ما اعتمدتُهم ولا أردتُهم حتى قالوا : ابْدُ بنا ، أخرجنا ، فما تركت حين أخرجتهم أن أعلمتُ المأمور بقتلهم ، فما يَقبل حُجْتهم ، وأمر بقتلهم ، والله على ذلك ما أحبّ أن قتِل من قومي مكانهم رجلٌ ، ولئن لاموني ما أنا بالذي أحفل لائمتهم ، ولا تكبر عليَّ .

وأقبل مسلمة حتى نزل الحيرة ، فأتى بنحو من خمسين أسيراً ، ولم يكونوا فيمن بعث به إلى الكوفة ، كان أقبل بهم معه ، فلما رأى الناس أنه يريد أن يضربَ رقابهم ، قام إليه الحصين بن حماد الكلبيّ فاستوهبه ثلاثة : زياد بن عبدالرحمن القشيري ، وعتبة بن مسلم ، وإسماعيل مولى آل بني عقيل بن مسعود ، فوهبهم له ، ثم استوهب بقيّتهم أصحابُه ، فوهبهم لهم ، فلما جاءت هزيمة يزيد إلى واسط ، أخرج معاوية بن يزيد بن المهلب اثنين وثلاثين أسيراً كانوا في يده ، فضرب أعناقهم : منهم عديّ بن أرطاة ، ومحمد بن عديّ بن أرطاة ومالك وعبدالملك ابنا مسمع وعبدالله بن عَزْرة البصري ، وعبدالله بن وائل ، وابن أبي حاضر التميمي من بني

أسيِّد بن عمرو بن تميم ، وقد قال له القوم : ويحك ! إنا لا نراك إلاّ تقتلنا ؛ إلاّ أن أباك قد قتل ، وإنّ قتلنا ليس بنافع لك في الدنيا ، وهو ضارّك في الآخرة ؛ فقتل الأسارى كلَّهم غير ربيع بن زياد بن الربيع بن أنس بن الرّيّان ، تركه ، فقال له ناس: نسيتَه؟ فقال : ما نسيته ؛ ولكن لم أكن لأقتله ؛ وهو شيخ من قومي له شرف ومعروف وبيت عظيم ، ولست أتّهمه في وُدّ ، ولا أخاف بغيَه . فقال ثابت قطنة في قتل عديّ بن أرطاة :

مَـا سَـرَّني قَتْـلُ الـفَـزَاريِّ وابنِـهِ   عَـديٌّ وَلاَ أَحْبَبتُ قتـلَ ابن مِسْمَـعِ
ولـكـنـهـا كـانـت مُـعَـاوِيَّ زَلَّـةً   وضعْت بهـا أمري على غيرِ مـوضـع

ثم أقبل حتى أتى البصرة ومعه المال والخزائن ، وجاء المفضّل بن المهلّب ، واجتمع جميع آل المهلّب بالبصرة ، وقد كانوا يتخوّفون الذي كان من يزيد ، وقد أعدّوا السفن البحرّية ، وتجهزوا بكلّ الجهاز ، وقد كان يزيد بن المهلب بعث وداع بن حُميد الأزدّي على قَنداببيل أميراً ، وقال له : إني سائر إلى هذا العدوّ ، ولو قد لقيتُهم لم أبرح العَرْصة حتى تكون إليَّ أولهم ، فإن ظفرت أكرمتُك ، وإن كانت الأخرى كنت بقَنْداببيل حتى يقدم عليك أهل بيتي ، فيتحصّنوا بها حتى يأخذوا لأنفسهم أماناً ، أما إني قد اخترتك لأهل بيتي من بين قومي ؛ فكن عند حسن ظني ، وأخذ عليه أيماناً غلاظاً لَيُناصحنّ أهل بيته ، إن هم احتاجوا ولجؤوا إليه ، فلما اجتمع آل المهلب بالبصْرة بعد الهزيمة حملوا عيالاتهم وأموالهم في السفن البحرية ، ثم لجّجوا في البحر حتى مرّوا بهرِم بن القرار العبديّ ـ وكان يزيد استعمله على البحرين ـ فقال لهم : أشير عليكم ألاّ تفارقوا سفنكم ، فإن ذلك هو بقاؤكم ، وإني أتخوّف عليكم إن خرجتم من هذه السفنِ أن يتخطفكم الناس ، وأن يتقرّبوا بكم إلى بني مروان . فمضوا حتى إذا كانوا بجبال كرْمان خرجوا من سفنهم ، وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدوابّ.

وكان معاوية بن يزيد بن المهلّب حين قدم البصرة قدمها ومعه الخزائن وبيت المال ؛ فكأنّه أراد أن يتأمّر عليهم ، فاجتمع آل المهلب وقالوا للمفضّل : أنت أكبرنا وسيّدنا ، وإنما أنت غلام حديث السنّ كبعض فتيان أهلِك ، فلم يزل المفضّل عليهم حتى خرجوا إلى كَرْمان ، وبكرمان فلول كثيرة ، فاجتمعوا إلى المفضّل ، وبعث مسلمة بن عبدالملك مدرك بن ضبّ الكلبيّ في طلب آل المهلب وفي أثر الفَلّ . فأدرك مدرك المفضّل بن المهلب ، وقد اجتمعت إليه الفلول بفارس فتبعهم ، فأدركهم في عَقَبَة ، فعطفوا عليه ، فقاتلوه واشتدّ قتالهم إيّاه ، فقتِل مع المفضل بن المهلب النّعمان بن إبراهيم بن الأشتر النخعيّ ومحمد بن إسحاق بن محمد بن الأشعث، وأخِذ ابن صُول ملك قهُستان أسيراً، وأخذت سُرّية المفضل العالية، وجُرِح عثمان بن إسحاق بن محمد بن الأشعث جراحة شديدة، وهرب حتى انتهى إلى حُلوان، فدُلّ عليه، فقتل وحُمل رأسه إلى مسلمة بالحِيرة؛ ورجع ناس من أصحاب يزيد بن المهلب، فطلبوا الأمان، فأومِنوا؛ منهم مالك بن إبراهيم بن الأشتر، والورد بن عبدالله بن حبيب السعديّ من تميم، وكان قد شهد مع عبدالرحمن بن محمد مواطنه وأيّامه كلها ، فطلب له الأمان محمد بن عبدالله بن عبدالملكِ بن مروان إلى مسلمة بن عبدالملك عمّه وابنةُ مسلمة تحته ـ فأمّنه ، فلما أتاه الورد وقفه مسلمة فشتمه قائماً ، فقال : صاحب خلاف وشقاق ونفاق ونفار في كلّ فتنة ، مرّة مع حائك كندة ، ومرّة مع ملاح الأزْد ؛ ما كنت بأهل أن تؤمّن ؛ قال : ثم انطلق . وطلب الأمان لمالك بن إبراهيم بن الأشتر الحسنُ بن عبدالرحمن بن شراحيل ـ وشراحيل يلقّب رستم الحضرميّ ـ فلما جاء ونظر إليه ، قال له الحسن بن عبدالرحمن الحضرميّ : هذا

مالك بن إبراهيم بن الأشتر ، قال له : انطلق ، قال لـه الحسن : أصلحك الله ! لِمَ لَمْ تشتمه كما شتمت صاحبه ! قال : أجللتكم عن ذلك ، وكنتم أكرم عليَّ من أصحاب الآخر وأحسن طاعة . قال : فإنه أحبّ إلينا أن تشتمه ، فهو والله أشرف أباً وجدًّا ، وأسوأ أثراً من أهل الشام من الورد بن عبدالله ؛ فكان الحسن يقول بعدأشهر : ما تركه إلاّ حسداً من أن يعرف صاحبنا ، فأراد أن يُرينا أنه قد حقره . ومضى آل المهلّب ومن سقط منهم من الفُلول حتى انتهوا إلى قندابيل ، وبعث مسلمة إلى مدرك بن ضبّ الكلبيّ فردّه ، وسرّح في أثرهم هلال بن أحوز التميمي ، من بني مازن بن عمرو بن تميم فلحقهم بقندابيل ، فأراد آل المهلب دخول قندابيل ، فمنعهم وداع بن حميد ، وكاتَبه هلال بن أحوز ، ولم يباين آل المهلب فيفارقهم ، فتبين لهم فراقه لما التقوا وصفُّوا ، كان وداع بن حميد على الميمنة ، وعبدالملك بن هلال على الميسرة وكلاهما أزديّ ، فرفع لهم راية الأمان ، فمال إليهم وداع بن حميد وعبدالملك بن هلال ، وارفضّ عنهم الناس فخلّوهم . فلما رأى ذلك مروان بن المهلّب ذهب يريد أن ينصرف إلى النساء ، فقال له المفضّل : أين تريد؟ قال : أدخل إلى نسائنا فأقتلهنّ ، لئلا يصل إليهنّ هؤلاء الفسّاق ، فقال : ويحك ! أتقتل أخواتك ونساء أهل بيتك ! إنا والله ما نخاف عليهنّ منهم . قال : فردّه عن ذلك ، ثم مشوا بأسيافهم ، فقاتلوا حتى قتِلوا من عند آخرهم ، إلاّ أبا عيينة بن المهلب ، وعثمان بن المفضل فإنهما نَجَوا ، فلحقا بخاقان ورتبيل ، وبعث بنسائهم وأولادهم إلى مسلمة بالحِيرة ، وبعث برؤوسهم إلى مسلمة ، فبعث بهم مسلمة إلى يزيد بن عبدالملك ، وبعث بهم يزيد بن عبدالملك إلى العباس بن الوليد بن عبدالملك ، وهو على حَلَب ، فلما نُصبوا خرج لينظر إليهم ، فقال لأصحابه : هذا رأس عبدالملك ، هذا رأس المفضّل، والله لكأنه جالس معي يحدثني .

وقال مسلمة : لأبيعن ذريّتهم وهم في دار الرزق ، فقال الجرّاح بن عبدالله : فأنا أشتريهم منك لأبرّ يمينك ، فاشتراهم منه بمائة ألف ، قال : هاتها ، قال : إذا شئت فخذها ، فلم يأخذ منه شيئاً ، وخلي سبيلهم ، إلاّ تسعة فتية منهم أحداث بعث بهم إلى يزيد بن عبدالملك ، فقدم بهم عليه ، فضرب رقابهم ، فقال ثابت قُطْنة حين بلغه قتل يزيد بن المهلب يرثيه :

ألا يـا هـنـد طـالَ عـلَيَّ ليلي ... وعـاد قـصـيـرُهُ لـيـلاً تـمـامـاً
كـأنّـي حـين حَـلَّقَـتِ الـثـريّـا ... سُقِيتُ لُعَـابَ أَسـوَدَ أو سَمـامَـاً
أَمَـرَّ عـلـيَّ حُلوَ الـعـيش يَـوْمٌ ... مِنَ الأيـام شَـيَّـبنِـي غـلامـاً
مُصـابُ بني أبيـكِ وَغِبتُ عنْهُمْ ... فلم أشهـدهُـم ومَضَـوا كـرامـاً
فـلا والـلّهِ لاَ أنـسَـى يـزيـداً ... ولا القَتـلَى التي قُتِلَت حَـرَامَـاً
فَعلى أن أبُـو بـأخيـك يـومـاً ... يـزيـداً أو أبُـوءَ بـه هِـشَـامَـا
وعَـليَّ أنْ أقـودَ الخيـل شُعْـثـاً ... شَـوَازِبَ ضُمَّـراً تَقِصُ الإكـامَـا
فـأصبِحَـهُنَّ حِمْيَـرَ مـن قـريب ... وعـكّـا أو أَرُعْ بـهـمـا جُـذامـا
وَنَسقِي مَـذْحِجـاً والحيَّ كـلبـا ... منَ الـذّيفَـان أنفـاسـاً قَـوامـا
عـشـائـرنـا الـتي تبـغي عـلينـا ... تَجُـرِّبُنـا زَكَـا عـامـاً فـعـامـاً
ولـولاهـم ومـا جَلَبُـوا عـلينـا ... لأصبـح وَسْطَنـا مَلِكـا هُمَـامَـا

وقال أيضاً يرثي يزيد بن المهلّب :

أَبَى طُولُ هذا اللَّيْلِ أَنْ يَتَصَرَّمَا ... وَهَاجَ لَكَ الهَمُّ الفؤادَ المُتَيَّمَا
أَرِقتُ ولَمْ تَأْرَقْ مَعِي أمُّ خالدٍ ... وقد أَرِقَتْ عينايَ حَوْلاً مُجرَّمَا
على هَالِكٍ هَدَّ العشيرة فَقْدُهُ ... دعته المنايا فاستجاب وَسَلَّمَا
على مَلِكٍ يا صَاحِ بالعَقْرِ جُبِّنَتْ ... كتائبه واسْتَوْرَدَ الموت مُعلِما
أصيب ولم أشهد ولو كنْتُ شاهداً ... تَسلَّيْتُ إن لم يجْمَعِ الحيُّ مأْتَمَا
وفي غِيَرِ الأَيَّام يا هِنْدُ فاعلمي ... لِطَالِبِ وِترٍ نظرة إن تلوَّمَا
فعلِّيَ إن مالت بيَ الريح مَيْلَةً ... عَلى ابن أبي ذِبَّانَ أن يَتَنَدَّمَا
أَمَسْلَم إن يَقْدِرْ عليك رِماحُنا ... نُذِقْكَ بها قَيْءَ الأَساوِدِ مُسلَمَا
وإن تَلْقَ للعباس في الدهر عثرةً ... نُكافِئه باليوم الذي كان قَدَّما
قصاصاً ولا نَعدُو الذي كانَ قد أَتَى ... إلينا وإن كان ابن مروانَ أظلَمَا
سَتَعلَمُ إن زلَّت بك النَّعل زلةً ... وأَظهَرَ أقوام حياءً مَجمجَمَا
من الظالم الجَاني على أهل بيته ... إذا أُحْصِرَت أسباب أمرٍ وأبهَمَا
وَإنا لَعطَّافونَ بالحلم بعدما ... نرَى الجهلَ من فرطِ اللئيم تكرُّما
وإنا لحَلَّالونَ بالثَّغرِ لا نرى ... بهِ ساكِناً إلَّا الخميس العَرَمرَمَا
نرى أَنَّ للجِيرَانِ حاجاً وَحُرمَةً ... إذَا النَّاسُ لم يَرْعَوْا لدى الجارِ مَحرما
وإنَّا لنَقرِي الضيف من قَمعِ الذُّرَى ... إذَا كانَ رفدُ الرافدين تَجَشُّمَا
وراحت بصُرَّادٍ مُلِثٍّ جليدُه ... عَلى الطلحِ أرماكاً من الشهب صُيَّمَا
أبونا أَبُو الأنصار عَمْرو بنُ عامرٍ ... وهُمْ وَلَدُوا عَوفاً وكعباً وَأَسلَمَا
وقد كانَ في غَسَّانَ مجدٌ يَعُدُّهُ ... وَعَادِيَّةٌ كانت مِنَ المجدِ مُعظَمَا

فلما فرغ مسلمة بن عبدالملك من حَرْب يزيد بن المهلب ، جمع له يزيد بن عبدالملك ولاية الكوفة والبصرة وخُراسان في هذه السنة ، فلما ولّاه يزيد ذلك، ولّى مسلمة الكوفة ذا الشامة محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وقام بأمر البصرة بعد أن خرج منها آل المهلب ـ فيما قيل ـ شبيبُ بن الحارث التميميّ، فضبطها، فلمّا ضُمّت إلى مسلمة بعث عاملاً عليها عبدالرحمن بن سليم الكلبيّ ، وعلى شُرْطتها وأحداثها عمر بن يزيد التميميّ ، فأراد عبدالرحمن بن سليم أن يستعرِض أهلَ البصرة ، وأفشى ذلك إلى عمر بن يزيد ، فقال له عمر : أتريد أن تستعرض أهل البصرة ولم تُمْن حصناً بكويفة ، وتدخل من تحتاج إليه ! فوالله لو رَماك أهل البصرة وأصحابك بالحِجارة لتخوّفن أن يقتلونا ، ولكن أنظرنا عشرة أيام حتى نأخذ أهبة ذلك . ووجه رسولاً إلى مسلمة يخبره بما همّ به عبدالرحمن ، فوجّه مسلمة عبدالملك بن بشر بن مروان على البصرة ، وأقرّ عمر بن يزيد على الشرْطة والأحداث .

قال أبوجعفر : وفي هذه السنة وجّه مسلمة بن عبدالملك سعيد بن عبدالعزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص ، وهو الذي يقال له سعيد خُذَينة ـ وإنما لقب بذلك ـ فيما ذكر ـ أنه كان رجلاً ليناً سهلاً متنعماً ،

قدم خراسان على بختيّه معلقاً سكيناً في منطقته ، فدخل عليه ملك أبغَر ، وسعيد متفضّل في ثياب مصبَّغة ، حوله مرافق مصبّغة ، فلما خرج من عنده قالوا له : كيف رأيت الأمير؟ قال: خذينيّة، لَمّته سُكينيّة ؛ فلقب خذينة وخذينة هي الدهقانة ربّة البيت ، وإنما استعمل مسلمة سعيدَ خذينة على خراسان لأنه كان ختَنه على ابنته ، كان سعيد متزوجاً بابنة مسلمة .

ولما ولى مسلمة سعيد خذينة خراسان ، قدم إليها قبل شخوصه سَوْرَة بن الحرّ من بني دارم ، فقدمها قبل سعيد ـ فيما ذكر ـ بشهر ، فاستعمل شعبة بن ظُهَير النهشليّ على سَمَرْقند، فخرج إليها في خمسة وعشرين رجلاً من أهل بيته ، فأخذ على آمُل ، فأتى بخارى ، فصحِبه منها مائتا رجل ، فقدم السُّغْد ، وقد كان أهلها كفروا في ولاية عبدالرحمن بن نعيم الغامدي ، ووليها ثمانية عشر شهراً ، ثم عادوا إلى الصُّلح ، فخطب شعبة أهل السُّغْد ، ووبَّخ سكانها من العرب وعيَّرهم بالجُبْن ، فقال : ما أرى فيكم جريحاً ، ولا أسمع فيكم أنةً . فاعتذروا إليه بأن جبَّنوا عاملهم عِلباء بن حبيب العبدي ، وكان على الحرب . ثم قدم سعيد ، فأخذ عمّال عبدالرحمن بن عبدالله القشيريّ الذين وُلُّوا أيام عمر بن عبدالعزيز فحبسهم ، فكلّمه فيهم عبدالرحمن بن عبدالله القُشيري ، فقال له سعيد : قد رُفِع عليهم أن عندهم أموالاً من الخراج . قال : فأنا أضمنه ، فضمِن عنهم سبعمائة ألف ، ثم لم يأخذه بها .

ثم إنّ سعيداً رفع إليه ـ فيما ذكر علي بن محمد ـ أن جهم بن زَحْر الجعفي وعبدالعزيز بن عمرو بن الحجاج الزّبيدي والمنتجع بن عبدالرحمن الآزدي والقعقاع الأزدي ولُّوا ليزيد بن المهلب وهم ثمانية ، وعندهم أموال قد اختانوها من فيء المسلمين . فأرسل إليهم ، فحبسهم في قُهُنْدُز مَرْو ، فقيل له : إن هؤلاء لا يؤدّون إلاّ أن تبسط عليهم . فأرسل إلى جَهْم بن زَحْر ، فحمِل على حمار من قهندز مَرْو ، فمرّوا به على الفيض بن عمران ، فقام إليه فوجأ أنفه ، فقال له جهم : يا فاسق ، هلاّ فعلت هذا حين أتوْني بك سكران قد شربت الخمر ، فضربتك حدًّا ! فغضب سعيد على جَهْم فضربه مائتي سوط ، فكبّر أهل السوق حين ضرِب جَهْم بن زَحْر ، وأمر سعيد بجهم والثمانية الذين كانوا في السجن فدُفعوا إلى ورقاء بن نصر الباهلي ، فاستعفاه فأعفاه .

وقال عبدالحميد بن دِثار ـ أو عبدالملك بن دِثار ـ والزّبير بن نشيط مولى باهلة ، وهو زوج أم سعيد خذينة : وَلِّنا محاسبتهم ، فولاهم فقتلوا في العذاب جهماً ، وعبدالعزيز بن عمرو والمنتجع ، وعذبوا القعقاع وقوماً حتى أشرفوا على الموت . قال : فلم يزالوا في السجن حتى غزتهم الترك وأهل السّغد ، فأمر سعيد بإخراج مَنْ بقي منهم، فكان سعيد يقول : قبّح الله الزُّبير ، فإنه قتل جهماً !

وفي هذه السنة غزا المسلمون السُّغْد والتُّرك ، فكان فيها الوقعة بينهم بقصر الباهلي .

وفيها عزل سعيد خذينة شعبة بن ظُهَير عن سمرقند .

ذكر الخبر عن سبب عزل سعيد شُعْبةَ وسبب هذه الوقعة وكيف كانت :

ذكر علي بن محمد ، عن الذين تقدم ذكرى خبره عنهم ، أنّ سعيد خذينة لما قدم خُراسان ، دعا قوماً من الدّهاقين ، فاستشارهم فيمن يوجّهه إلى الكُور ، فأشاروا إليه بقوم من العرب ، فولاّهم ، فشُكوا إليه ، فقال للناس يوماً وقد دخلوا عليه : إني قدمت البلد ، وليس لي علم بأهله ، فاستشرت فأشاروا عليَّ بقوم ، فسألتُ

عنهم فحمِدوا ، فولّيتهم ، فأحرج عليكم لَمّا أخبرتموني عن عمّالي . فأثنى عليهم القوم خيراً ، فقال عبدالرحمن بن عبدالله القشيري : لو لم تُحرِّج علينا لكففتُ ، فأما إذ حرّجتَ علينا فإنك شاورت المشركين فأشاروا عليك بمَنْ لا يخالفهم وبأشباههم ، فهذا علمنا فيهم .

قال : فاتّكأ سعيد ثم جلس ، فقال : ﴿ خُذِ العفْوَ وأمُرْ بالعُرف وأعرض عن الجاهلين ﴾(١) ، قوموا .

قال : وعزل سعيد شعبة بن ظهيْر عن السُّغد ، وولىّ حربها عثمانَ بن عبدالله بن مطرِّف بن الشِّخيِّر ، وولىّ الخراج سليمان بن أبي السَّرِيّ مولى بني عُوافة ، واستعمل على هَراة معقِل بن عروة القشيري ، فسار إليها . وضعَّف الناس سعيداً وَسَمَّوه خذينة ، فطمع فيه الترك ، فجمع له خاقان الترك ، ووجّههم إلى السُّغد ، فكان على الترك كورصول ، وأقبلوا حتى نزلوا قصر الباهلي .

قال بعضهم : أراد عظيمٌ من عظماء الدّهاقين أن يتزوّج امرأة من باهلة ، وكانت في ذلك القصر ، فأرسل إليها يخطبها ، فأبت ، فاستجاش ورجا أن يسبُوا مَنْ في القصر ، فيأخذ المرأة ، فأقبل كورصول حتى حصر أهل القصر ، وفيه مائة أهل بيت بذراريّهم ، وعلى سمرقند عثمان بن عبدالله وخافوا أن يبطىء عنهم المدد ، فصالحوا الترك على أربعين ألفاً ، وأعطوهم سبعة عشر رجلاً رهينة ، وندب عثمان بن عبدالله الناس ، فانتدب المسيَّب بن بشر الرياحيّ وانتدب معه أربعة آلاف من جميع القبائل ، فقال شعبة بن ظهير : لو كان ها هنا خيول خُراسان ما وصلوا إلى غايتهم .

قال : وكان فيمن انتدب من بني تميم شُعْبة بن ظُهَير النهشليّ وبلعاء بن مجاهد العنْزيّ ، وعميرة بن ربيعة أحد بني العُجَيف ـ وهو عميرة الثريد ـ وغالب بن المهاجر الطائيّ ـ وهو عمّ أبي العباس الطوسيّ ـ وأبو سعيد معاوية بن الحجاج الطائيّ ، وثابت قُطنة ، وأبو المهاجر بن دارة من غطفان ، وحُليس الشيبانيّ ، والحجاج بن عمرو الطائي ، وحسان بن مَعْدان الطائي ، والأشعث أبو حطامة وعمرو بن حسّان الطائيّان . فقال المسيّب بن بشر لما عسكروا : إنكم تقدمون على حَلْبة الترك ، حلْبة خاقان وغيرهم ، والعِوَض إن صبرتم الجنة ، والعقاب النار إن فررتم ، فمن أراد الغزو والصبر فليقدم .

فانصرف عنه ألف وثلاثمائة ، وسار في الباقين ، فلما سار فرسخاً قال للناس مثل مقالته الأولى ، فاعتزل ألف ، ثم سار فرسخاً آخر فقال لهم مثل ذلك ، فاعتزل ألف ، ثم سار ـ وكان دليلهم الأشهب بن عبيدالحنظليّ ـ حتى إذا كان على فرسخين من القوم نزل فأتاهم ترك خاقان ملك قِيّ فقال : إنه لم يبقَ ها هنا دِهْقان إلاّ وقد بايع الترك غيري ، وأنا في ثلاثمائة مقاتل فهم معك ، وعندي الخبر ، قد كانوا صالحوهم على أربعين ألفاً ؛ فأعطوهم سبعة عشر رجلاً ؛ ليكونوا رَهْناً في أيديهم حتى يأخذوا صلحَهم ؛ فلما بلغهم مسيركم إليهم قتل الترك مَنْ كان في أيديهم من الرهائن .

قال : وكان فيهم نهشل بن يزيد الباهلي فنجا لم يقتَل ، والأشهب بن عبيدالله الحنظلي ، وميعادهم أن يقاتلوهم غداً أو يفتحوا القَصْر ، فبعث المسيّب رجلين : رجلاً من العرب ورجلاً من العجم من ليلته على

خيولهم ، وقال لهم : إذا قرُبتم فشُدُّوا دوابَّكم بالشَّجَر ، واعلموا علم القوم. فأقبلا في ليلة مظلمة ؛ وقد أجْرَت الترك الماء في نواحي القصر ؛ فليس يصل إليه أحدٌ ، ودنوا من القصر ؛ فصاح بهما الربيَّة ، فقالا : لا تصِحْ وادعُ لنا عبدالملك بن دثار ، فدعاه فقالا له : أرسلنا المسيَّب ، وقد أتاكم الغِياث ، قال : أين هو؟ قال : على فرسخين ؛ فهل عندكم امتناع ليلتك وغداً؟ فقال : قد أجمعنا على تسليم نسائنا وتقديمهم للموت أمامنا ؛ حتى نموت جميعاً غداً . فرجعا إلى المسيَّب ، فأخبراه فقال المسيّب للذين معه : إني سائر إلى هذا العدوّ ، فمن أحبَّ أن يذهب فليذهب ، فلم يفارقه أحدٌ ؛ وبايعوه على الموت .

فسار وقد زاد الماء الذي أجروه حول المدينة تحصيناً ، فلمّا كان بينه وبينهم نصف فرسخ نزل ، فأجمع على بياتهم ؛ فلما أمسى أمر الناس فشدّوا على خيولهم ، وركب فحثّهم على الصبر ، ورغّبهم فيما يصير إليه أهل الاحتساب والصَّبْر ، وما لهم في الدنيا من الشرف والغنيمة إن ظفروا ، وقال لهم : اكعَموا دوابّكم وقُودوها ، فإذا دنوتم من القوم فاركبوها ، وشدّوا شدّةً صادقة وكبّروا ، وليكن شعاركم : يا محمد ؛ ولا تتبعوا مولياً ، وعليكم بالدوابّ فاعقِروها ، فإنّ الدوابّ إذا عُقرت كانت أشدَّ عليهم منكم ، والقليل الصابر خيرٌ من الكثير الفشل ؛ وليست بكم قِلّة ، فإنّ سبعمائة سيف لا يُضرب بها في عسكر إلاّ أوهنوه وإن كثر أهله .

قال : وعبّأهم وجعل على الميمنة كثّير بن الدَّبوسي ، وعلى الميسرة رجلاً من ربيعة يقال له ثابت قُطْنة ، وساروا حتى إذا كانوا منهم على غلوتين كبروا وذلك في السحَر ، وثار الترك ، وخالط المسلمون العسكَر ، فعقروا الدوابّ ، وصابرهم الترك ، فجال المسلمون وانهزموا حتى صاروا إلى المسيَّب ، وتبعهم الترك وضربوا عَجُز دابة المسيّب فترجّل رجال من المسلمين، فيهم البَختري أبو عبدالله المرائي ، ومحمد بن قيس الغَنَويّ - ويقال : محمد بن قيس العنبري - وزياد الأصبهاني ، ومعاوية بن الحجاج ، وثابت قطنة . فقاتل البَختري فقطعت يمينه ، فأخذ السيف بشماله فقطعت ، فجعل يذبُّ بيديه حتى استشهد . واستشهد أيضاً محمد بن قيس العنبري أو الغَنَويّ وشبيب بن الحجاج الطائي .

قال : ثم انهزم المشركون ، وضرب ثابت قُطْنة عظيماً من عظمائهم ، فقتله ، ونادى منادي المسيّب : لا تتبعوهم ؛ فإنهم لا يدرون من الرّعب ، اتّبعتموهم أم لا ! واقصدوا القَصْر ، ولا تحملوا شيئاً من المتاع إلاّ المال ، ولا تحمِلوا من يقدر على المشي.

وقال المسيب : مَنْ حمل امرأة أو صبيًّا أو ضعيفاً حِسْبَةً فأجرُه على الله ، ومَنْ أبى فله أربعون درهماً، وإن كان في القصر أحدٌ من أهل عَهْدكم فاحملوه . قال : فقصدوا جميعاً القَصْر ، فحملوا مَنْ كان فيه ، وانتهى رجلٌ من بني فُقيم إلى امرأة ، فقالت : أغِثْني أغاثك الله ! فوقف وقال : دونك وعجز الفرس ، فوثبت فإذا هي على عَجُز الفرس ؛ فإذا هي أفرَسُ من رجل ، فتناول الفقيميّ بيد ابنها ، غلاماً صغيراً ، فوضعه بين يديه ، وأتَوْا ترك خاقان ، فأنزلهم قصره وأتاهم بطعام ، وقال : الحقوا بسمرقَنْد ، لا يرجعوا في آثاركم . فخرجوا نحو سمرقند، فقال لهم : هل بقي أحد؟ قالوا : هلال الحريري ، قال : لا أسلمه ، فأتاه وبه بضع وثلاثون جراحة ، فاحتمله ، فبرأ ، ثم أصيب يوم الشعب مع الجنيد .

قال : فرجع الترك من الغدِ ، فلم يروا في القَصْر أحداً ، ورأوا قتلاهم ، فقالوا : لم يكن الّذِين جاؤوا من الإنس ، فقال ثابت قطنة :

فَـدَتْ نفسي فـوارسَ مِـن تـمـيـم | غَـدَاةَ الـرَّوعِ في ضَنْكِ المقـامِ
فـدت نفسِي فـوارسَ أكـنـفـوني | عـلى الأعـداءِ فـي رَهَـجِ القـتـامِ
بِـقَـصْـرِ البـاهـليِّ وقـد رأوني | أُحَـامِي حيثُ ضَنَّ بـه المُحـامِي
بسيفي بَعدَ حَطْمِ الرُّمحِ قُـدْماً | أذودُهُـمُ بـذي شُـطَبٍ جُسَـامِ
أكُـرُّ عـليهـمُ اليَحْمُـومَ كَرّاً | كـكـرِّ الشَّرْبِ آنـيَـةَ المُـدامِ
أكُـرُّ بـه لـدَى الغـمـراتِ حـتـى | تَجَلَّتْ لاَ يَضيقُ بهـا مَـقـامِي
فـلَوْلا اللّـهُ لـيس لـه شَـريـكٌ | وَضَـرْبي قَـوْنَسَ الملكِ الهمـامِ
إذاً لَـسعَـتْ نـسـاءُ بـنـي دِثَـارٍ | أمـامَ التـرك بـاديـةَ الخِدَامِ !
فـمَن مِثْـلُ المسيِّبِ في تـمـيمٍ | أبـى بِـشْـرٍ كَـقـادِةِ الحـسـامِ

وقال جرير يذكر المسيّب :

لـولا حِمـايَـةُ يـرْبُـوعٍ نـسـاءَكُمُ | كـانـت لـغيـركـمُ منهـنَّ أطـهـارُ
حَـامى المسيّبُ والخيـلانُ في رَهَـجٍ | إذ مـازنٌ ثَـمَّ لاَ يُحْمَـى لهـا جـارُ
إذْ لا عِـقَـالُ يُحَـامِي عـن ذمـارِكُـمُ | ولا زُرَارَةُ يَحْـمِـيـهـا ووزّارُ

قال : وعوّر تلك الليلة أبو سعيد معاوية بن الحجاج الطائيّ ، وشُلّت يدهُ ، وقد كان ولى ولاية قِبَل سعيد ، فخرج عليه شيء مما كان بقيَ عليه ، فأخذ به ، فدفعه سعيد إلى شدّاد بن خُليد الباهليّ ليحاسبه ويستأديه فضيَّق عليه شدّاد ، فقال : يا معشرَ قيس ، سرتُ إلى قصر الباهليّ وأنا شديد البَطْش ، حديد البصر؛ فعُوِّرتُ وشَلّتْ يدي ، وقاتلت مَع مَنْ قاتل حتى استنقذناهم بعد أن أشرفوا على القتل والأسْر والسَّبي ، وهذا صاحبكم يصنع بي ما يصنع ، فكُفُّوه عني ، فخلاّه .

قال : وقال عبدالله بن محمد عن رجل شهد ليلة قصر الباهلي قال : كنا في القصر ، فلما التقوا ظننا أنّ القيامة قد قامت لما سمعنا من هَمَاهم القوم ووقْع الحديد وصهيل الخيل .

وفي هذه السنة قطع سعيد خذينة نهر بلْخ وغزا السُّغْد ، وكانوا نقضوا العهد وأعانوا الترك على المسلمين .

ذكر الخبر عما كان من أمر سعيد والمسلمين في هذه الغزوة :

وكان سبب غزو سعيد هذه الغزوة ـ فيما ذُكر ـ أنّ الترك عادوا إلى السُّغْد ، فكلم الناس سعيداً وقالوا : تركت الغزو ، فقد أغار الترك ، وكفر أهل السُّغْد ، فقطع النهر ، وقصد للسغْد ، فلقيَه الترك وطائفة من أهل السُّغْد فهزمهم المسلمون ، فقال سعيد : لا تتبعوهم ؛ فإن السُّغْد بستان أمير المؤمنين وقد هزمتموهم ؛ أفتريدون بوارَهم ! وقد قاتلتم يا أهل العراق الخلفاء غير مرّة فهل أباروكم ! .

وسار المسلمون ، فانتهوْا إلى وادٍ بينهم وبين المرْج ، فقال عبدالرحمن بن صُبح : لا يقطعنّ هذا الوادي مجفّف ولا راجل ، وليعبر مَنْ سواهم . فعبروا ، ورأتهم الترك ، فأكمنوا كميناً ، وظهرت لهم خيل المسلمين فقاتلوهم ، فانحاز الترك فأتبعوهم حتى جازُوا الكمِين ، فخرجوا عليهم ، فانهزم المسلمون حتى انتهوْا إلى

الوادي ، فقال لهم عبدالرحمن بن صبح : سابقوهم ، ولا تقطعوا فإنكم إن قطعتم أبادوكم . فصبروا لهم حتى انكشفوا عنهم ، فلم يتبعوهم ، فقال قوم: قُتِل يومئذ شُعْبة بن ظُهَيْر وأصحابه ، وقال قوم : بل انكشف الترك منهم يومئذ منهزمين ، ومعهم جمع من أهل السُّغْد . فلما كان الغد ، خرجت مَسْلحة للمسلمين - والمسلحة يومئذ من بني تميم - فما شعروا إلّا بالترك معهم ، خرجوا عليهم من غيضة وعلى خيل بني تميم شعبة بن ظُهَير ، فقاتلهم شعبة فقُتل ؛ أعجلوه عن الركوب. وقتِل رجل من العرب ، فأخرجت جاريته حِنّاء ، وهي تقول : حتى متى أعدّ لك مثل هذا الخضاب ، وأنت مختضب بالدم ! مع كلام كثير ، فأبكت أهلَ العسكر . وقتِل نحو من خمسين رجلاً ، وانهزم أهلُ المسلحة ، وأتى الناسَ الصّريخ ، فقال عبدالرحمن بن المهلب العدويّ : كنت أنا أوّل مَن أتاهم لما أتانا الخبر ، وتحتي فرس جواد ، فإذا عبدالله بن زهير إلى جنْب شجرة كأنه قُنفذ من النشّاب ؛ وقد قتل ، وركب الخليل بن أوس العبشميّ - أحد بني ظالم ، وهو شابٌ - ونادى : يا بني تميم ، أنا الخليل ؛ إليّ ! فانضمّت إليه جماعة - فحمل بهم على العدوّ ، فكفّوهم ووزَعوهم عن الناس حتى جاء الأمير والجماعة ، فانهزم العدوّ ، فصار الخليل على خيل بني تميم يومئذ ، حتى ولى نصر بن سيار ؛ ثم صارت رياسة بني تميم لأخيه الحكم بن أوس .

وذكر علي بن محمد ، عن شيوخه ؛ أن سورة بن الحُرّ قال لحيّان : انصرف يا حيّان ، قال : عقيرة الله أدَعُها وأنصرف قال : يا نبطيّ قال : أنبط الله وجهك!

قال : وكان حيّان النبطيّ يكنى في الحرب أبا الهيّاج ، وله يقول الشاعر :

إنَّ أبـا الـهَـيّـاج أَرْيَـحِـيُّ ... لِـلـرِّيـحِ فـي أثـوَابِـه دَوِيُّ

قال : وعبر سعيد النّهر مرتين ، فلم يجاوز سَمَرْقند ، نزل في الأولى بإزاء العدوّ ، فقال له حيّان مولى مصقَلة بن هبيرة الشيبانيّ : أيها الأمير ، ناجز أهل السُّغد ، فقال : لا ، هذه بلاد أمير المؤمنين ، فرأى دخاناً ساطعاً ، فسأل عنه فقيل له : السُّغْد قد كفروا ومعهم بعض الترك . قال : فناوشهم ، فانهزموا فألحُّوا في طلبهم ، فنادى منادي سعيد : لا تطلبوهم ؛ إنما السُّغد بستان أمير المؤمنين ، وقد هزمتموهم ، أفتريدون بوارَهم ! وأنتم يا أهلِ العراق قد قاتلتم أمير المؤمنين غير مرّة ، فعفا عنكم ولم يستأصلكم ورجع ، فلما كان العام المقبل بعث رجالاً من بني تميم إلى وَرَغْسَر ، فقالوا : ليتنا نلقى العدوَّ فنطاردهم - وكان سعيد إذا بعث سرّية فأصابوا وغنموا وسبوا ردّ ذراريّ السَّبْيِ وعاقب السريّة ، فقال الهجريّ وكان شاعراً :

سـريـت إلى الأَعْـداءِ تلهُـو بـلعبـةٍ ... وأَيْـرُك مـسلولٌ وسيـفـك مُـغْـمَـدُ
وأنـتَ لِمن عـادَيـتَ عِـرْسٌ خَـفِـيَّـةٌ ... وأنـتَ عَلَيـنـا كـالحُسَـامِ المُـهَـنَّـدِ
فـلله دَر الـسّـغـدِ لمـا تحَـزَّبُـوا ... وَيـا عَـجَـباً مـن كَـيْـدكَ المُـتَـرَدِّدِ!

قال : فقال سورة بن الحرّ لسعيد - وقد كان حفظ عليه ، وحقد عليه قوله : « أنبط الله وجهك » - : إنّ هذا العبد أعدى الناس للعرب والعمال ، وهو أفسد خراسان على قتيبة بن مسلم ، وهو واثب بك ، مفسد عليك خراسان ؛ ثم يتحصّن في بعض هذه القلاع . فقال : يا سورة لا تُسمِعنّ هذا أحداً . ثم مكث أياماً ، ثم دعا في مجلسه بلبَن ، وقد أمر بذهب فسحِق ، وأُلْقِيَ في إناء حيّان فشربه ، وقد خلط بالذهب ، ثم ركب ، فركب الناس أربعة فراسخ إلى بازْكث ؛ كأنه يطلب عدوًّا ، ثم رجع فعاش حيّان أربعة أيام ومات في اليوم

الرابع ، فثقُل سعيد على الناس وضعَّفوه ، وكان رجل من بني أسد يقال له إسماعيل منقطعاً إلى مَرْوان بن محمد ، فذُكر إسماعيل عند خُذَينة ومودّته لمروان ، فقال سعيد : وما ذاك المِلْط! فهجاه إسماعيل ، فقال :

زَعمت خُذَينةُ أنني مِلطُ ... لِخُذَينَةَ المرآةُ والمُشْطُ
ومَجَامِرٌ ومكاحِلٌ جُعلَت ... ومَعَازفٌ وَبخدّها نُقط
أفذاكَ أم زَغَفٌ مُضَاعَفَةٌ ... ومُهَنَّدٌ من شأنه القَطُّ
لِمُقَرِسٍ ذَكَرٍ أخى ثِقَةٍ ... لم يَغذهُ التأنيث واللَّقْطُ
أَغَضِبتَ أن باتَ ابن أمّكُمُ ... بِهم وَأن أباكُم سقط
إني رأيت نِبَالَهُمْ كُسيتْ ... ريش اللُّؤام وَنَبلكم مُرْط
وَرَأَيْتُهُمْ جعلوا مكاسِرَهُمْ ... عند النَّديّ وأنتُمُ خِلْط

وفي هذه السنة عُزِل مسلمة بن عبدالملك عن العراق وخراسان وانصرف إلى الشام .

ذكر الخبر عن سبب عزله وكيف كان ذلك :

وكان سبب ذلك ـ فيما ذكر علي بن محمد ـ أن مسلمة لما ولي ما وليَ من أرض العراق وخراسان لم يرفع من الخراج شيئاً ، وأنّ يزيد بن عاتكة أراد عزلَه فاستحيا منه ، وكتب إليه أن استخلف على عملك ، وأقبل .

وقد قيل إنّ مسلمة شاور عبدالعزيز بن حاتم بن النعمان في الشخوص إلى ابن عاتكة ليزورَه ، فقال له : أمن شوق بك إليه! إنك لطَرُوب ، وإنّ عهدك به لقريب ، قال : لا بدّ من ذلك ، قال : إذاً لا تخرج من عملك حتى تلقى الوالي عليه ، فشخص ؛ فلما بلغ دُورين لقيه عمر بن هبيرة على خمس من دوابّ البريد ، فدخل عليه ابن هبيرة ، فقال : إلى أين يابن هبيرة؟ فقال: وجّهني أمير المؤمنين في حيازة أموال بني المهلب . فلما خرج من عنده أرسل إلى عبد العزيز فجاءه ، فقال : هذا ابن هبيرة قد لقينا كما ترى ، قال : قد أنبأتك ، قال : فإنه إنما وجّهه لحيازة أموال بني المهلب ، قال : هذا أعجب من الأوّل ؛ يصرف عن الجزيرة ، ويوجّه في حيازة أموال بني المهلب، قال: فلم يلبث أن جاءه عزل ابن هبيرة عماله والغلظة عليهم فقال الفرزدق :

راحت بِمَسلَمَةَ الرّكابُ مُودَّعاً ... فارعَىْ فَزَارَة لا هناكِ المرتَعُ
عُزلَ ابن بِشرٍ وابن عمرو قبلَهُ ... وأخُو هَراةَ لِمثلِهَا يَتوَقَّعُ
وَلَقَدْ علِمتُ لئنْ فَزَارَةُ أُمّرَتْ ... أَنْ سَوْفَ تَطمَعُ في الإمارَةِ أشجَع
من خَلق رَبِّكِ ما هُمُ ولِمثلهمْ ... في مثل ما نالَتْ فَزَارَةُ يطمَعُ

يعني بابن بشر عبدالملك بن بشر بن مروان ، وبابن عمرو محمداً ذا الشامة بن عمرو بن الوليد ، وبأخي هراة سعيداً خُذَينة بن عبدالعزيز ، كان عاملاً لمسلمة على خراسان .

وفي هذه السنة غزا عمر بن هبيرة الرُّوم بأرمينية ، فهزمهم وأسر منهم بشراً كثيراً قيل سبعمائة أسير .

وفيها وجّه ـ فيما ذكر ميسرةُ ـ رسلَه من العراق إلى خراسان وظهر أمر الدعوة بها ، فجاء رجل من بني تميم يقال له عمرو بن بحير بن ورقاء السعدي إلى سعيد خذينة ، فقال له : إن ها هنا قوماً قد ظهر منهم كلام قبيح ، فبعث إليهم سعيد ، فأُتِيَ بهم ، فقال : من أنتم ؟ قالوا : أناس من التجار؟ قال : فما هذا الذي يحكى

عنكم؟ قالوا : لا ندري ، قال : جئتم دعاة؟ فقالوا : إن لنا في أنفسنا وتجارتنا شغلاً عن هذا ، فقال : مَنْ يعرف هؤلاء؟ فجاء أناس من أهل خراسان ، جُلُّهم ربيعة واليمن ، فقالوا : نحن نعرفهم ، وهم علينا إن أتاك منهم شيء تكرهه ، فخلِّ سبيلهم .

وفيها ـ أعني سنة اثنتين ومائة ـ قتِل يزيد بن أبي مسلم بإفريقية وهو والٍ عليها .

ذكر الخبر عن سبب قتله :

وكان سبب ذلك أنه كان ـ فيما ذكِر ـ عزم أن يسير بهم بسيرة الحجَّاج بن يوسف في أهل الإسلام الذين سكنوا الأمصار ، ممن كان أصله من السَّواد من أهل الذمّة ، فأسلم بالعراق ممن ردّهم إلى قُراهم ورساتيقهم ، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم ، فلما عزم على ذلك تآمروا في أمره ، فأجمع رأيهم ـ فيما ذكر ـ على قتله فقتلوه ، وولوا على أنفسهم الذي كان عليهم قبل يزيد بن أبي مسلم ؛ وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار ، وكان في جيش يزيد بن أبي مسلم ، وكتبوا إلى يزيد بن عبدالملك : إنا لم نخلعْ أيدَينا من الطاعة ؛ ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضي الله والمسلمون ، فقتلناه ، وأعدْنا عاملك .

فكتب إليهم يزيد بن عبدالملك : إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم ، وأقرّ محمد بن يزيد على إفريقية .

وفي هذه السنة استعمل عمر بن هبيرة بن مُعَيَّة بن سكين بن خَديج بن مالك بن سعد بن عديّ بن فزارة على العراق وخراسان .

وحجّ بالناس في هذه السنة عبدالرحمن بن الضحاك؛ كذلك قال أبو معشر والواقدي .

وكان العامل على المدينة عبدالرحمن بن الضحاك ، وعلى مكة عبدالعزيز بن عبدالله بن خالد بن أسيد . وعلى الكوفة محمد بن عمرو ذو الشامة ، وعلى قضائها القاسم بن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود ، وعلى البصرة عبدالملك بن بشر بن مروان ، وعلى خراسان سعيد خُذينة ، وعلى مصر أسامة بن زيد .

ثم دخلت سنة ثلاث ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمِمَّا كان فيها من ذلك عزلَ عمر بن هبيرة سعيد خُذينة عن خراسان ، وكان سبب عزله عنها ـ فيما ذكر علي بن محمد عن أشياخه ـ أن المجشّر بن مُزاحم السُّلَميّ وعبدالله بن عُمير الليثي قدِما على عمر بن هبيرة ، فشكواه فعزله ، واستعمل سعيد بن عمرو بن الأسود بن مالك بن كعب بن وَقْدان بن الحَرِيش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، وخذينة غازٍ بباب سمرقند ، فبلغ الناس عزلُه ، فقفل خذينة ، وخلّف بسمَرْقَند ألف فارس ، فقال نَهار بن تَوْسِعة :

فـمـن ذا مُـبـلغٌ فـتـيـان قـومـي ... بـأَنَّ الـنَّـبـلَ ريـشَـتْ كُـلَّ رَيْش
بـأَنَّ الله أَبْـدَلَ مـن سـعـيـدٍ ... سـعـيـداً لا الـمُـخْـنَّـثَ مـن قـرَيش

قال : ولم يعرض سعيد الحَرَشي لأحدٍ من عمال خُذَينة ، فقرأ رجل عهده فلحن فيه ، فقال سعيد : صه ، مهما سمعتم فهو من الكاتب ، والأمير منه بريء ، فقال الشاعر يضعِّف الحَرَشي في هذا الكلام :

تَبَـدَّلْنَـا سَعِيـداً مِـنْ سعيـدٍ ... لجَـدِّ السُّوءِ والقَـدَرِ المُتـاحِ

قال الطبري : وفي هذه السنة غزا العباس بن الوليد الروم ففتح مدينة يقال لها رسلة .

وفيها أغارت الترك عن اللان .

وفيها ضمّت مكة إلى عبدالرحمن بن الضحاك الفهري ، فجمعت له مع المدينة .

وفيها ولي عبدالواحد بن عبدالله النضري ، الطائف وعزل عبد العزيز بن عبدالله بن خالد بن أسيد عن مكة .

وفيها أمر عبدالرحمن بن الضَّحّاك أن يجمَع بين أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وعثمان بن حيّان المُريّ ، وكان من أمره وأمرهما ما قد مضى ذكره قبل .

وحجّ بالناس في هذه السنة عبدالرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري ، كذلك قال أبو معشر والواقدي .

وكان عامل يزيد بن عاتكة في هذه السنة على مكة والمدينة عبدالرحمن بن الضحاك ، وعلى الطائف عبدالواحد بن عبدالله النَّضْري . وعلى العراق وخراسان عمر بن هبيرة ، وعلى خراسان سعيد بن عمرو

الحرشي من قِبَل عمر بن هبيرة ، وعلى قضاء الكوفة القاسم بن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود ، وعلى قضاء البصرة عبدالملك بن يعلى .

وفيها استعمل عمر بن هبيرة سعيد بن عمرو الحَرَشي على خراسان .

ذكر الخبر عن سبب استعماله الحَرَشي على خراسان :

ذكر علي بن محمد عن أصحابه أنّ ابن هبيرة لما ولي العراق ، كتب إلى يزيد بن عبدالملك بأسماء من أبلَى يوم العَقْر ، ولم يذكر الحَرشي ، فقال يزيد بن عبدالملك : لِمَ لَم يذكر الحرشي ؟ فكتب إلى ابن هبيرة : ولِّ الحرشي خراسان . فولّاه ، فقدِم الحرشي على مقدمته المجّشر بن مزاحم السلمي سنة ثلاث ومائة ، ثم قدم الحَرَشي خراسان ، والناس بإزاء العدوّ ، وقد كانوا نُكبوا ، فخطبهم وحثّهم على الجهاد ، فقال : إنكم لا تقاتلون عدوّ الإسلام بكثرة ولا بعُدّة ، ولكن بنصر الله وعزّ الإسلام ، فقولوا : لا حول ولا قوة إلّا بالله . وقال :

فلَسْتُ لعامرٍ إنْ لم تَروني ... أمامَ الخيلِ أطعَنُ بالعوالي
فأَضرِبُ هامَةَ الجَبّارِ منهُمْ ... بعَضْب الحدِّ حودِثَ بالصِّقالِ
فما أنا في الحُروبِ بمُستكِينٍ ... ولا أخشى مُصاوَلَةَ الرِّجالِ
أَبَى لِي والِدِي من كلِّ ذَمٍّ ... وخالِي في الْحوادِثِ خَيْرُ خالِ
إذَا خطَرَتْ أمامي حيُّ كَعْبٍ ... وَزَافَتْ كالجِبالِ بنُو هِلالِ

وفي هذه السنة ارتحل أهل السُّغْد عن بلادهم عند مقدم سعيد بن عمرو الحَرَشيّ فلحقوا بَفرغانة ، فسألوا ملكها معونتهم على المسلمين .

ذكر الخبر عمّا كان منهم ومن صاحب فَرْغانة :

ذكر علي بن محمد عن أصحابه ، أنّ السغْد كانوا قد أعانوا الترك أيام خُذينة ، فلما وليهم الحَرَشيّ خافوا على أنفسهم ، فأجمع عظماؤهم على الخروج عن بلادهم ، فقال لهم ملكهم : لا تفعلوا ، أقيموا واحملوا إليه خراج ما مضى ، واضمنوا له خراج ما تستقبلون ، واضمنوا له عمارة أرَضيكم والغزو معه إن أراد ذلك ، واعتذِروا مما كان منكم ، وأعطوه رهائن يكونون في يديه . قالوا : نخاف ألّا يرضى ، ولا يقبل منّا ، ولكنا نأتي خُجَنْدَة ، فنستجير ملكَها ، ونرسل إلى الأمير فنسأله الصفح عما كان منا ، ونوثق له ألّا يرى أمراً يكرهه ، فقال : أنا رجل منكم ، وما أشرتُ به عليكم كان خيراً لكم ، فأبوْا ، فخرجوا إلى خُجَندة ، وخرج كارزنج وكشِّين وبَيارْكَث وثابت بأهل إشْتِيخَن ، فأرسلوا إلى ملك فَرْغانة الطار يسألونه أن يمنَعهم وينزلهم مدينته . فهمّ أن يفعل ، فقالت له أمّه : لا تُدخل هؤلاء الشياطين مدينتَك ، ولكن فرّغ لهم رستاقاً يكونون فيه ، فأرسل إليهم : سمُّوا لي رستاقاً أفرّغه لكم ، وأجِّلوني أربعين يوماً ـ ويقال : عشرين يوماً ـ وإن شئتم فرّغت لكم شعب عصام بن عبدالله الباهلي ـ وكان قتيبة خلّفه فيهم ـ فقبلوا شعب عصام ، فأرسلوا إليه : فرغه لنا ، قال : نعم ، وليس لكم عليّ عقد ولا جِوار حتى تدخلوه ؛ وإنْ أتتكم العرب قبل أن تدخلوه لم أمنعْكم ، فرضوا ؛ ففرّغ لهم الشِّعب .

وقد قيل : إن ابن هُبيرة بعث إليهم قبل أن يخرجوا من بلادهم يسألهم أن يقيموا ، ويستعمل عليهم من أحبُّوا ، فأبوا وخرجوا إلى خُجَنْدة وشِعب عصام من رُستاق أسفَرة - وأسفرة يومئذ وليّ عهد ملك فرغانة بلاذا ، وبيلاذا أبو جُور ملكها .

وقيل : قال لهم كارزنج : أخيّركم ثلاث خصال ، إن تركتموها هلكتم : إنّ سعيداً فارس العرب ، وقد وجّه على مقدمته عبدالرحمن بن عبدالله القشيري في حماة أصحابه ، فبيّتوه فاقتلوه ؛ فإنّ الحَرَشي إذ أتاه خبره لم يغزُكم ، فأبوْا عليه ، قال : فاقطعوا نهر الشاش ، فسلوهم ماذا تريدون ؟فإن أجابوكم وإلاّ مضيتم إلى سوياب ، قالوا : لا ، قال : فأعطوهم .

قال : فارتحل كارزنج وجلنج بأهل قِيّ ، وأباربن ماخنون وثابت بأهل إشتيخنَ ، وارتحل أهل بياركث وأهل سَبْكث بألفِ رجل عليهم مناطق الذّهب مع دهاقين بُزْماجن ، فارتحل الديواشني بأهل بُنْجِيكث إلى حصن أبْغَر ، ولحق كارزنج وأهل السُّغد بخُجَنْدة .

ثم دخلت سنة أربع ومائة
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

ففي هذه السنة كانت وقعة الحَرَشيّ بأهل السُّغْد وقتله مَنْ قتل من دهاقينها.

ذكر الخبر عن أمره وأمرهم في هذه الوقعة:

ذكر عليّ عن أصحابه أن الحرشيّ غزا في سنة أربع ومائة فقطع النهر، وعرض الناس، ثم سار فنزل قصر الريح على فرسخين من الدَّبُوسيَة، ولم يجتمع إليه جنده.

قال: فأمر الناس بالرّحيل، فقال له هلال بن عُلَيم الحنظليّ: ياهناه، إنك وزيراً خيرٌ منك أميراً، الأرض حربٌ شاغرة برجْلها، ولم يجتمع لك جندُك، وقد أمرتَ بالرحيل! قال: فكيف لي؟ قال: تأمر بالنزول، ففعل.

وخرج النّيلان ابن عمّ ملك فرغانة إلى الحرشيّ، وهو نازل على مُغون فقال له: إن أهل السغد بخُجَندة؛ وأخبره خبرهم وقال: عاجلهم قبل أن يصيروا إلى الشِّعب، فليس لهم علينا جوار حتى يمضي الأجل. فوجّه الحَرَشيّ مع النيلان عبد الرحمن القشيريّ وزياد بن عبد الرحمن القُشيريّ في جماعة، ثم ندم على ما فعل فقال: جاءني عِلْجٌ لا أدري صدق أم كذب، فغرّرتُ بجند من المسلمين. وارتحل في أثرهم حتى نزل في أشْرُوسَنة، فصالحهم بشيء يسير، فبينا هو يتعشّى إذ قيل له: هذا عطاءُ الدَّبُوسيّ - وكان فيمن وجهه مع القشيريّ - ففزع وسقطت اللُّقْمة من يده، ودعا بعطاء، فدخل عليه، فقال: ويلك! قاتلتم أحداً؟ فقال: لا، قال: الحمد لله، وتعشّى وأخبره بما قدم له عليه. فسار جوادا مغذًّا، حتى لحق القشيريّ بعد ثالثة، وسارَ فلما انتهى إلى خُجَندة، قال للفضل بن بسّام: ما ترى؟ قال: أرى المعاجلة، قال: لا أرى ذلك، إن جرح رجُلٌ فإلى أين يرجع! أو قتل قتيل فإلى مَن يُحمَل! ولكني أرى النزول والتأني والاستعداد للحرب، فنزل فرفع الأبنية وأخذ في التأهب، فلم يخرج أحد من العدوّ، فجبَّن الناسُ الحرشيّ، وقالوا: كان هذا يُذكر بأسه بالعراق ورأيه، فلما صار بخراسان ماقَ. قال: فحمل رجلٌ من العرب، فضرب باب خُجندة بعمود ففُتح الباب، وقد كانوا حفروا في رَبَضهم وراء الباب الخارج خندقاً، وغطّوْه بقصب، وعَلّوه بالتراب مكيدة، وأرادوا إذا التقوا إن انهزموا أن يكونوا قد عرفوا الطريق، ويشكل على المسلمين، فيسقطوا في الخندق.

قال: فلما خرجوا قاتلوهم فانهزموا، وأخطئوهم الطريق، فسقطوا في الخندق فأخرجوا من الخندق أربعين رجُلاً، على الرّجل دِرْعان دِرْعان، وحصبرهم الحرشيّ، ونصب عليهم المجانيق، فأرسلوا إلى ملك فَرْغانة: غدرْتَ بنا، وسألوه أن ينصرهم، فقال لهم: لم أغدِر ولا أنصركم؛ فانظروا لأنفسكم؛ فقد أتوكم قبل انقضاء الأجل، ولستم في جواري. فلما أيسوا مِن نصره طلبوا الصُّلح، وسألوا الأمان وأن يردّهم إلى السُّغْد، فاشترط

عليهم أن يردّوا مَن في أيديهم من نساء العرب وذراريّهم، وأن يؤدوا ما كسروا من الخراج، ولا يغتالوا أحداً، ولا يتخلّف منهم بخُجَندة أحد، فإن أحدثوا حدثاً حلّت دماؤهم.

قال: وكان السَّفير فيما بينهم موسى بن مشكان مولى آل بسام، فخرج إليه كارزنج، فقال له: إنّ لي حاجةً أحبّ أن تشفّعني فيها، قال: وما هي؟ قال: أحبّ إن جنى منهم رجل جناية بعد الصلح ألّا تأخذني بما جنى، فقال الحَرَشيّ: ولي حاجة فاقضِها، قال: وما هي؟ قال: لا يلحقني في شرَطي من أكره. قال: فأخرجَ الملوك والتجار من الجانب الشرقيّ، وترك أهل خُجَندة الذين هم أهلها على حالهم، فقال كارزنج للحَرَشيّ: ما تصنع؟ قال: أخاف عليكم معرّة الجند. قال: وعظماؤهم مع الحرشيّ في العسكر نزلوا على معارفهم من الجند، ونزل كارزنج على أيوب بن أبي حسان، فبلغ الحَرَشيّ أنهم قتلوا امرأة من نساء كنّ في أيديهم، فقال لهم: بلغني أن ثابتاً الأشتيخنيّ قتل امرأة ودفنها تحت حائط، فجحدوا فأرسل الحرشيّ إلى قاضي خُجَندة، فنظروا فإذا المرأة مقتولة. قال: فدعا الحرشيّ بثابت، فأرسل كارزنج غلامَه إلى باب السرادق ليأتيَه بالخبر، وسأل الحرشيّ ثابتاً وغيره عن المرأة، فجحد ثابت وتيقّن الحرشيّ أنه قتلها فقتله. فرجع غلام كارزنج إليه بقتل ثابت، فجعل يقبِض على لحيته ويقرضها بأسنانه، وخاف كارزنج أن يستعرضهم الحرشيّ، فقال لأيوب بن أبي حسان: إني ضيفُك وصديقك، فلا يجمل بك أن يقتل صديقك في سراويل خَلق، قال: فخذ سراويلي. قال: وهذا لا يجمل، أقتَل في سراويلاتكم! فسرّح غلامك إلى خلنج ابن أخي يجيئوني بسراويل جديد - وكان قد قال لابن أخيه: إذا أرسلت إليك أطلب سراويل فاعلم أنه القتل - فلما بعث بسراويل اخرج فرندة خضراء فقطّعها عصائبَ، وعصبها برءوس شاكريّته، ثم خرج هو وشاكريّته، فاعترض الناس فقتل ناساً، ومرّ بيحيى بن حُضَين فنفحه نفحة على رجله، فلم يزل يَخْمَعُ منها. وتضعضع أهل العسكر، ولقي الناس منه شرًّا؛ حتى انتهى إلى ثابت بن عثمان بن مسعود في طريق ضيق، فقتله ثابت بسيف عثمان بن مسعود. وكان في أيدي السُّغد أسراء من المسلمين فقتلوا منهم خمسين ومائة، ويقال: قتلوا منهم أربعين؛ قال: فأفلت منهم غلام فأخبر الحَرَشيّ - ويقال: بل أتاه رجل فأخبره - فسألهم فجحدوا، فأرسل إليهم من علم علمهم، فوجد الخبر حقًّا، فأمر بقتلهم، وعزل التجار عنهم - وكان التجار أربعمائة، كان معهم مال عظيم قدموا به من الصين - قال: فامتنع أهل السُّغد، ولم يكن لهم سلاح، فقاتلوا بالخَشَب، فقتِلوا عن آخرهم. فلما كان الغد دعا الحراثين - ولم يعلموا ما صنع أصحابهم - فكان يختم في عُنق الرجل ويخرُج من حائط إلى حائط فيقتل، وكانوا ثلاثة آلاف - ويقال سبعة آلاف - فأرسل جرير بن هميان والحسن بن أبي العَمَرّطة ويزيد بن أبي زينب فأحصوا أموال التجار - وكانوا اعتزلوا وقالوا: لا نقاتل - فاصطفى أموال السغد وذراريّهم، فأخذ منه ما أعجبه، ثم دعا مسلم بن بُدَيل العدويّ؛ عديّ الرِّباب، فقال: قد وليتك المَقسم، قال: بعد ما عمل فيه عمالك ليلة، وَلِّه غيري؛ فولّاه عبيدالله بن زهير بن حيّان العدويّ، فأخرج الخمس، وقسّم الأموال؛ وكتب الحرشيّ إلى يزيد بن عبد الملك، ولم يكتب إلى عمر بن هبيرة، فكان هذا مما وجَد فيه عليه عمر بن هبيرة، فقال ثابت قُطْنة يذكر ما أصابوا من عظمائهم:

أَقَرَّ العَيْنَ مَصْرَعُ كارزنجٍ ... وكشّينٍ وما لاقى بيارُ
وَدِيْواشْنى وما لاقى جلنجٌ ... بحِصْنِ خُجَنْدَ إذ دَمَروا فبارُوا

ويروى: «أَقَرَّ العين مصرع كارزنج، وكشكيش»؛ ويقال: إن ديواشني دِهْقان أهل سَمَرْقند، واسمه ديواشنج فأعربوه ديواشني.

ويقال: كان على أَقْباض خُجَندة عِلْباء بن أحمر اليشكريّ، فاشترى رجل منه جُونة بدرهمين، فوجد فيها سبائك ذهب، فرجع وهو واضعٌ يده على لحيته كأنه رمد، فردَّ الجُونة، وأخذ الدرهمين، فطلِب فلم يوجد.

قال: وسرّح الحَرَشيّ سليمان بن أبي السريّ مولى بني عُوافة إلى قلعة لا يُطيف بها وادي السُّغد إلّا من وجه واحد. ومعه شوكر بن حميك وخوارزم شاه وعورم صاحب أخرون وشومان؛ فوجّه سليمان بن أبي السريّ على مقدّمته المسيّب بن بشر الرياحيّ، فتلقَّوْه من القلعة على فرسخ في قرية يقال لها كوم، فهزمهم المسيّب حتى ردّهم إلى القلعة فحصرهم سليمان، ودِهْقانها يقال له ديواشني.

قال: فكتب إليه الحَرَشيّ فعرض عليه أن يمدّه، فأرسل إليه: ملتقانا ضيّق فسر إلى كِسّ؛ فإنا في كفاية الله إن شاء الله. فطلب الديواشني أن ينزل على حكم الحرشيّ، وأن يوجّهه مع المسيب بن بشر إلى الحرشيّ، فوفى له سليمان ووجّهه إلى سعيد الحَرَشيّ، فألطفه وأكرمه مكيدةً، فطلب أهل القلعة الصُّلْح بعد مسيره على ألّا يعرض لمائة أهل بيت منهم ونسائهم وأبنائهم ويُسلمون القَلْعة. فكتب سليمان إلى الحرشيّ أن يبعث الأمناء في قبض ما في القلعة.

قال: فبعث محمدَ بن عـزيز الكنديّ وعِلباء بن أحمر اليشكريّ، فباعوا ما في القلعة مزايدةً، فأخذ الخمس، وقسم الباقي بينهم. وخرج الحرشيّ إلى كِسّ فصالحوه على عشرة آلاف رأس. ويقال: صالح دهقان كِسّ، واسمه ويك - على ستة آلاف رأس، يوفيه في أربعين يوماً على ألّا يأتيه فلما فرغ من كِسّ خرج إلى رَبِنْجَن، فقتل الديواشنيّ، وصلَبه على ناوس، وكتب على أهل ربنجن كتاباً بمائة إن فُقد من موضعه؛ وولّى نصر بن سيار قبضَ صلح كِسّ، ثم عزل سَوْرة بن الحرّ وولّى نصر بن سيار، واستعمل سليمان بن أبي السريّ على كِسّ، ونَسَف حربها وخراجها، وبعث برأس الديواشني إلى العراق، ويده اليسرى إلى سليمان بن أبي السريّ إلى طخارستان.

قال: وكانت خُزارِ منيعة، فقال المجشّر بن مُزاحم لسعيد بن عمرو الحَرَشيّ: ألا أدلك على مَن يفتحها لك بغير قتال؟ قال: بلى، قال: المسرْبَل بن الخرّيت بن راشد الناجيّ، فوجّهه إليها - وكان المسربل صديقاً لملكها، واسم الملك سبقرى. وكانوا يحبّون المسربل - فأخبر الملك ما صنع الحرشيّ بأهل خُجَندة وخوّفه، قال: فما ترى؟ قال: أرى أن تنزل بأمان، قال: فما أصنع بمن لحق بي من عوامّ الناس؟ قال: نصيّرهم معك في أمانك، فصالحهم فآمنوه وبلاده.

قال: ورجع الحَرَشيّ إلى مَرْو ومعه سبقرى، فلما نزل أسنان وقدم مهاجر بن يزيد الحَرَشيّ، وأمره أن يوافيَه ببرذون بن كُشانيشاه قتل سبقرى وصلبه معه أمانه - ويقال: كان هذا دِهْقان ابن ماجر قدم على ابن هبيرة فأخذ أماناً لأهل السُّغد، فحبسه الحَرَشيّ في قهندز مَرْو، فلما قدم مَرْوَ دعا به، وقتله وصلبه في الميدان، فقال الراجز:

إذا سَعيدٌ سارَ في الأخماسِ ... في رَهَج يأخذُ بالأنفاسِ

دارَتْ على التُّرْكِ أَمَرُّ الكاسِ وطَارَتِ التُّرْكُ على الأَحلاسِ
ولَّوْا فِراراً عُطَّلَ القِياسِ

وفي هذه السنة عزَل يزيدُ بن عبد الملك عبدَ الرحمن بن الضّحاك بن قيس الفهريّ عن المدينة ومكة، وذلك للنصف من شهر ربيع الأوّل، وكان عاملَه على المدينة ثلاث سنين.

وفيها ولّى يزيدُ بن عبد الملك المدينة عبدَ الواحد النَّضْريّ.

ذكر الخبر عن سبب عزل يزيد بنْ عبد الملك عبدَ الرحمن ابن الضحاك عن المدينة وما كان ولاه من الأعمال

وكان سبب ذلك ـ فيما ذكر محمد بن عمر، عن عبدالله بن محمد بن أبي يحيى ـ قال: خطب عبدُ الرحمن بن الضحّاك بن قيس الفِهريّ فاطمة ابنة الحسين، فقالت: والله ما أريد النكاح، ولقد قعدت على بنيّ هؤلاء؛ وجعلت تحاجزه وتكره أن تنابذه لما تخاف منه. قال: وألحّ عليها وقال: والله لئن لم تفعلي لأجلدنّ أكبر بنيك في الخمر ـ يعني عبدالله بن الحسن ـ فبينا هو كذلك؛ وكان على ديوان المدينة ابن هرمز (رجل من أهل الشام)، فكتب إليه يزيد أن يرفع حسابه، ويدفع الديوان، فدخل على فاطمة بنت الحسين يودّعها، فقال: هل من حاجة؟ فقالت: تخبر أمير المؤمنين بما ألقى من ابن الضحّاك، وما يتعرّض منّي. قال: وبعثت رسولاً بكتاب إلى يزيد تخبره وتذكر قرابتها ورحمها، وتذكر ما ينال ابنُ الضحاك منها، وما يتوعّدها به.

قال: فقدم ابن هرمز والرّسول معا. قال: فدخل ابن هرمز على يزيد، فاستخبره عن المدينة، وقال: هل كان من مغرّبة خبر؟ فلم يذكر ابن هُرمز من شأن ابنة الحسين، فقال الحاجب: أصلح الله الأمير! بالباب رسول فاطمة بنت الحسين، فقال ابن هرمز: أصلح الله الأمير! إنّ فاطمة بنت الحسين يوم خرجت حمَّلتني رسالة إليك، فأخبره الخبر.

قال: فنزل من أعلى فراشه، وقال: لا أمّ لك! ألم أسألك هل من مغرّبة خبر، وهذا عندك لا تخبرنيه! قال: فاعتذر بالنسيان، قال: فأذن للرسول فأدخله، فأخذ الكتاب، فاقترأه. قال: وجعل يضرب بخيزران في يديه وهو يقول: لقد اجترأ ابن الضّحاك! هل من رجل يُسمعني صوته في العذاب وأنا على فراشي؟ قيل له: عبد الواحد بن عبدالله بن بشر النَّضْريّ. قال: فدعا بقرطاس، فكتب بيده:

إلى عبد الواحد بن عبدالله بن بشر النَّضْريّ وهو بالطائف: سلام عليك؛ أما بعد فإني قد ولّيتُك المدينة، فإذا جاءك كتابي هذا فاهبط واعزل عنها ابن الضحاك، وأغرِمْه أربعين ألف دينار، وعذّبه حتى أسمع صوتَه وأنا على فراشي.

قال: وأخذ البريد الكتاب، وقدِم به المدينة، ولم يدخل على ابن الضحّاك وقد أوجستْ نفس ابن الضحاك، فأرسل إلى البريد، فكشف له عن طرف المفرش، فإذا ألف دينار، فقال: هذه ألف دينار لك ولك العهد والميثاق؛ لئن أنت أخبرتني خبرَ وجهك هذا دفعتُها إليك، فأخبره، فاستنظر البريد ثلاثاً حتى يسير، ففعل. ثم خرج ابنُ الضحاك، فأغذّ السَّيْر حتى نزل على مسلمة بن عبد الملك، فقال: أنا في جوارك، فغدا

مسلمة على يزيد فرقّقه وذكر حاجة جاء لها، فقال: كلّ حاجة تكلمت فيها هي في يدك ما لم يكن ابن الضحاك، فقال: هو والله ابن الضّحاك! فقال: والله لا أعفيه أبداً وقد فعل ما فعل، قال: فردّه إلى المدينة إلى النَّضْريّ.

قال عبدالله بن محمد: فرأيتُه في المدينة عليه جُبّة من صوف يسأل الناس، وقد عذِّب ولقى شرًّا، وقدم النَّضْريّ يوم السبت للنصف من شوال سنة أربع ومائة.

قال محمد بن عمر: حدّثني إبراهيم بن عبدالله بن أبي فَرْوة، عن الزّهريّ، قال: قلت لعبد الرحمن بن الضحاك: إنك تقدم على قومك وهم ينكرون كلّ شيء خالف فعلهم، فالزم ما أجمعوا عليه، وشاور القاسم بن محمد وسالم بن عبدالله؛ فإنها لا يألوانك رشداً. قال الزهريّ: فلم يأخذ بشيء من ذلك، وعادى الأنصار طرًّا، وضرب أبا بكر بن حزم ظلماً وعدواناً في باطل، فما بقي منهم شاعر إلا هجاه، ولا صالح إلاّ عابه وأتاه بالقبيح، فلما ولى هشام رأيتُه ذليلاً.

وولى المدينة عبد الواحد بن عبدالله بن بِشْر فأقام بالمدينة لم يقدم عليهم والٍ أحبّ عليهم منه، وكان يذهب مذاهب الخير، لا يقطع أمراً إلا استشار فيه القاسم وسالما.

وفي هذه السنة غزا الجرّاح بن عبدالله الحكَميّ - وهو أمير على أرمينيَة وأذْرَبيجان - أرضَ الترك ففُتح على يديه بَلَنْجَر، وهزم الترك وغرّقهم وعامة ذراريهم في الماء، وسبوا ما شاءوا، وفتح الحصون التي تلي بَلَنْجر وجلا عامة أهلها.

وفيها ولد - فيما ذكر - أبو العباس عبدالله بن محمد بن عليّ في شهر ربيع الآخر.

وفيها دخل أبو محمد الصادق وعِدّة من أصحابه من خُراسان إلى محمد بن عليّ، وقد ولد أبو العباس قبل ذلك بخمس عشرة ليلة، فأخرجه إليهم في خِرْقة، وقال لهم: والله ليتمنّ هذا الأمر حتى تدركوا ثأركم من عدوّكم.

وفي هذه السنة عزل عمر بن هبيرة سعيد بن عمرو الحَرَشيّ عن خُراسان، وولاّها مسلم بن سعيد بن أسلم بن زُرعة الكلابيّ.

ذكر الخبر عن سبب عزل عمر بن هبيرة سعيد بن عمرو الحَرَشيّ عن خراسان

ذُكر أنّ سبب ذلك كان من موجِدة وجَدها عمر على الحَرَشيّ في أمر الديواشنيّ، وذلك أنه كان كتب إليه يأمره بتخليته وقتله، وكان يستخفّ بأمر ابن هبيرة، وكان البريد والرّسول إذا ورد من العراق قال له: كيف أبو المثنَّى؟ ويقول لكاتبه: اكتب إلى أبي المثنّى ولا يقول: «الأمير، ويكثر أن يقول: قال أبو المثنَّى وفعل أبو المثنَّى، فبلغ ذلك ابن هبيرة فدعا جُميل بن عمران، فقال له: بلغني أشياء عن الحَرَشيّ، فاخرج إلى خراسان، وأظهر أنك قدمت تنظر في الدواوين، واعلم لي علمه، فقدِم جُميل، فقال له الحَرَشيّ: كيف تركت أبا المثنى؟ فجعل ينظر في الدواوين. فقيل للحَرَشيّ: ما قدم جميل لينظر في الدواوين، وما قدم إلا ليعلم عِلْمَك، فسمَّ بِطِّيخةً، وبعث بها إلى جميل، فأكلها فمرض، وتساقط شَعره، ورجع إلى ابن هبيرة، فعولج واستبلّ وصحّ، فقال لابن

هبيرة: الأمر أعظم مما بلغك؛ ما يرى سعيد إلاّ أنك عامل من عماله. فغضب عليه وعزله وعذبه، ونفح في بطنه النمل، وكان يقول حين عزله: لو سألني عُمر درهماً يضعه في عينه ما أعطيته؛ فلما عذب أدّى، فقال له رجل :ألم تزعم أنك لا تعطيه درهماً! قال: لا تعنّفني؛ إنه لما أصابني الحديد جزعت، فقال أذَينة بن كليب ـ أو كليب بن أذَيْنة:

تصَبَّرْ أبا يحيى فَقَدْ كنْتَ ـ علمَنا ـ صَبُوراً وَنَهَّاضاً بِثقْلِ المغارِمِ

وقال عليّ بن محمد: إنّما غضب عليه ابن هبيرة أنه وجه معقل بن عروة إلى هَرَاة؛ إما عاملا وإما في غير ذلك من أموره، فنزل قبل أن يمرّ على الحَرَشيّ، وأتى هَراة، فلم ينفذ له ما قدم فيه، وكتب إلى الحَرَشيّ، فكتب الحَرَشيّ إلى عامله: أن أحمل إليّ معقِلا،فحمله، فقال له الحَرَشيّ: ما منعك من إتياني قبل أن تأتي هَراة؟ قال: أنا عامل لابن هُبيرة ولاّني كما ولاّك، فضربه مائتين وحلّقه. فعزله ابن هبيرة، واستعمل على خُراسان مسلم بن سعيد بن أسلم بن زُرعة، فكتب إلى الحَرَشي يلخِّنه، فقال سعيد: بل هو ابن اللَّخناء. وكتب إلى مسلم أن احمِل إليّ الحَرَشيّ مع معقِل بن عروة، فدفعه إليه، فأساء به وضيّق عليه، ثم أمره يوماً فعذّبه، وقال: اقتله بالعذاب. فلما أمسىَ ابن هُبيرة سمَر فقال: مَنْ سيد قيس؟ قالوا: الأمير، قال: دعوا هذا، سيّد قيس الكَوْثر بن زفر، لو بوَّق بليلٍ لوافاه عشرون ألفاً، لا يقولون: لم دعوتنا ولا يسألونه، وهذا الحمار الذي في الحبْس ـ قد أمرت بقتله ـ فارسُها؛ وأما خيرُ قيس لها فعسىَ أن أكونه؛ إنه لم يعرض إليّ أمرٌ أرى أني أقدر فيه على منفعة وخير إلا جررته إليهم، فقال له أعرابيّ من بني فَزارة: ما أنت كما تقول، لو كنتَ كذلك ما أمرت بقتل فارسها. فأرسل إلى معقل أن كُفّ عما كنتُ أمرتك به.

قال عليّ: قال مسلم بن المغيرة: لّما هرب ابنُ هبيرة أرسل خالد في طلبه سعيد بن عمرو الحَرَشيّ، فلحقه بموضع من الفُرات يقطعه إلى الجانب الآخر في سفينة، وفي صدر السفينة غلام لابن هبيرة يقال له قُبَيص، فعرَفه الحَرَشيّ فقال له: قُبيص؟ قال: نعم، قال: أفي السفينة أبو المثنى؟ قال: نعم قال: فخرج إليه ابنُ هبيرة، فقال له الحَرَشيّ: أبا المثنى، ما ظنُّك بي؟ قال: ظني بك أنك لا تدفع رجلاً من قومك إلى رجل من قريش، قال: هو ذاك، قال: فالنّجاء.

قال عليّ: قال أبو إسحاق بن ربيعة: لما حبس ابن هبيرة الحَرَشيّ دخل عليه معقل بن عروة القُشيريّ، فقال: أصلح الله الأمير! قيّدت فارس قيس وفضحته، وما أنا براضٍ عنه؛ غير أني لم أحبَّ أن تبلغ منه ما بلغت، قال: أنت بيني وبينه، قدمتُ العراق فوليته البصرة، ثم وليته خراسان، فبعث إليّ ببرذون حَطِم واستخفّ بأمري، وخان فعزلتُه، وقلت له: يابن نَسْعة، فقال لي: يابن بُسرة. فقال معقل: وفعل ابن الفاعلة! ودخل على الحَرَشيّ السجن، فقال: يابن نَسعة، أمك دخلت واشتُريت بثمانين عَنْزاً جرباً، كانت مع الرّعاء ترادفها الرجال مطية الصادر والوارد، تجعلها ندًّا لبنت الحارث بن عمرو بن حَرَجة! وافترى عليه، فلما عُزِل ابن هبيرة، وقدم خالد العراق استعدَى الحَرَشيّ على معقل بن عروة، وأقام البيّنة أنه قذفه، فقال للحَرَشيّ: اجلده، فحدّه، وقال: لولا إنّ ابن هبيرة وهَن في عضدي لنقبت عن قلبك، فقال رجل من بني كلاب لمعقل: أسأتَ إلى ابن عمك وقذفتَه، فأداله الله منك، فصرتَ لا شهادةَ لك في المسلمين، وكان معقِل حين ضرب الحدّ قذف الحَرَشيّ أيضاً، فأمر خالد بإعادة الحدّ، فقال القاضي: لاَ يُحَدّ. قال: وأمّ عمر بن هبيرة

بُسرة بنت حسان، عدويّة من عديّ الرِّباب.

وفي هذه السنة ولّى عمرُ بن هبيرة مسلَم بن سعيد بن أسلم بن زُرعة بن عمرو بن خُوَيْلِد الصَّعِق خراسان بعد ما عزل سعيد بن عمرو الحَرَشيّ عنها.

ذكر الخبر عن سبب توليته إياها:

ذكر عليّ بن محمد أنّ أبا الذيَّال وعليّ بن مجاهد وغيرهما حدّثوه، قالوا: لما قتِل سعيد بن أسلم ضمّ الحجّاج ابنَه مسلم بن سعيد مع ولده، فتأدّب ونُبل، فلما قدم عديّ بن أرطاة أراد أن يولِّيه، فشاور كاتبه، فقال: ولّه ولايةً خفيفة ثم ترفعه، فولّاه ولاية، فقام بها وضبطها وأحسن؛ فلما وقعت فتنة يزيد بن المهلب حمل تلك الأموال إلى الشام، فلما قدم عمر بن هبيرة أجمع على أن يولّيه ولاية، فدعاه ولم يكن شاب بعد، فنظر فرأى شيبةً في لحيته، فكبّر.

قال: ثم سمر ليلة ومسلم في سَمَرِه، فتخلّف مسلم بعد السُّمَّار، وفي يد ابن هبيرة سفَرْجلة، فرمى بها، وقال: أيسُرّك أن أولّيك خراسان؟ قال: نعم،قال: غدوة إن شاء الله. قال: فلما أصبح جلس، ودخل الناس؛ فعقد لمسلم على خراسان وكتب عهده، وأمره بالسير، وكتب إلى عمال الخراج أن يكاتبوا مسلم بن سعيد، ودعا بجبَلة بن عبد الرحمن مولَى باهلة فولّاه كِرْمان، فقال جبلة: ما صنعت بي المولَوية! كان مسلم يطمع أن ألِي ولايةً عظيمة فأولِّيه كورة، فعُقد له على خُراسان وعقد لي على كرمان! قال: فسار مسلم فقدم خراسان في آخر سنة أربع ومائة - أو ثلاث ومائة - نصف النهار، فوافق باب دار الإمارة مغلقاً، فأتى دار الدوابّ فوجد الباب مغلقاً فدخل المسجد، فوجد باب المقصورة مغلَقاً، فصلى. وخرج وصيفٌ من باب المقصورة فقيل له: الأمير، فمشى بين بابيه حتى أدخله مجلس الوالي في دار الإمارة، وأعلِم الحَرَشيّ، وقيل له: قدم مسلم بن سعيدبن أسلم، فأرسل إليه: أقدمت أميراً أو وزيراً أو زائراً؟ فأرسل إليه: مثلي لا يقدم خراسان زائراً ولا وزيراً، فأتاه الحَرشيّ فشتمه وأمر بحبسه، فقيل له: إن أخرجته نهاراً قتِل، فأمر بحبسه عنده حتى أمسى، ثم حبسه ليلا وقيّده، ثم أمر صاحب السجن أن يزيده قَيْداً. فأتاه حزيناً، فقال: مالك؟ فقال: أُمِرْتُ أن أزيدك قيداً، فقال لكاتبه: اكتب إليه: إنّ صاحب سجنك ذكر أنك أمرته أن يزيدني قيداً، فإن كان أمراً ممّن فوقك فسمعا وطاعةً، وإن كان رأياً رأيته فسيرك الحَقْحقة، وتمثّل:

هُمُ إن يَثْقفوني يقتلوني ... ومن أثْقفْ فليس إلى خلود

ويروى:

فإما تَثقَفُوني فاقتلوني ... فَمَن أثقفْ فليس إلى خُلود
هُمُ الأعداءُ إن شَهِدُوا وغابوا ... أُولو الأحقادِ والأكبادُ سودُ
أُرِيغُوني إرَاغَتَكُمْ فإني ... وَحَذْفةَ كالشَجا تحتَ الوريدِ

ويروى: «أريدوني إرادتكم».

قال: وبعث مسلم على كُوره رجلا من قِبَله على حربها.

قال: وكان ابنُ هبيرة حريصاً، أخذ قَهرماناً ليزيد بن المهلب، له علم بخراسان وبأشرافهم، فحبسه

فلم يَدَع منهم شريفاً إلاّ قَرَفه، فبعث أبا عبيدة العنبريّ ورجلا يقال له خالد، وكتب إلى الحَرَشيّ وأمره أن يدفع الذين سمّاهم إليه يستأديهم فلم يفعل، فردّ رسول ابن هُبيرة، فلما استعمل ابن هبيرة مسلم بن سعيد أمره بجباية تلك الأموال، فلمّا قدم مسلم أراد أخذ الناس بتلك الأموال التي قُرِّفت عليهم، فقيل له: إن فعلت هذا بهؤلاء لم يكن لك بخراسان قرار، وإن لم تعمل في هذا حتى توضَع عنهم فسدَتْ عليك وعليهم خراسان؛ لأنّ هؤلاء الذين تريد أن تأخذهم بهذه الأموال أعيان البلد قُرِفوا بالباطل؛ إنما كان على مِهْزَم بن جابر ثلثمائة ألف فزادوا مائة ألف فصارت أربعمائة ألف، وعامّة من سُمّوا لك ممن كثر عليه بمنزله.

فكتب مسلم بذلك إلى ابن هُبيرة، وأوفد وفداً فيهم مِهْزَم بن جابر، فقال له مِهْزم بن جابر: أيها الأمير؛ إنّ الذي رُفع إليك الظلم والباطل، ما علينا من هذا كله لو صدق إلا القليل الذي لو أخِذنا به أدّيناه، فقال ابن هبيرة: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾، فقال: اقرأ ما بعدها: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (١) فقال ابن هبيرة: لا بُدَّ من هذا المال، قال: أما والله لئن أخذتَه لتأخذنّه من قوم شديدة شوكتهم ونكايتهم في عدوّك، وليضرّنّ ذلك بأهل خراسان في عدّتهم وكُراعهم وحَلْقتهم؛ ونحن في ثغر نُكابد فيه عدوًّا لا ينقضي حربهم؛ إنّ أحدنا ليلبس الحديد حتى يخلص صدؤه إلى جلده، حتى إن الخادم التي تخدم الرجل لتصرف وجهها عن مولاها وعن الرجل الذي تخدُمه لريح الحديد؛ وأنتم في بلادكم متفضّلون في الرِّقاق وفي المعصفرة؛ والذين قرفوا بهذا المال وجوه أهل خراسان وأهل الولايات والكلف العظام في المغازي: وقِبَلنا قوم قدِموا علينا من كلّ فجّ عميق، فجاءوا على الحُمُرات، فَوُلّوا الولايات، فاقتطعوا الأموال؛ فهي عندهم موفَّرة جمّة.

فكتب ابن هبيرة إلى مسلم بن سعيد بما قال الوفد، وكتب إليه أن استخرج هذه الأموال ممن ذكرَ الوفد أنها عندهم. فلما أتى مسلماً كتابُ ابن هبيرة أخذ أهلَ العهد بتلك الأموال، وأمر حاجب بن عمرو الحارثيّ أن يعذّبهم، ففعل وأخذ منهم ما فرّق عليهم.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الواحد بن عبدالله النَّضْريُّ؛ كذلك حدثني أحمد بن ثابت، عمن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر. وكذلك قال الواقديّ.

وكان العامل على مكة والمدينة والطائف في هذه السنة عبدُ الواحد بن عبدالله النَّضْريّ، وعلى العراق والمشرق عمر بن هُبيرة، وعلى قضاء الكوفة حسين بن الحسن الكِنديّ، وعلى قضاء البصرة عبد الملك بن يَعْلَى.

---

(١) سورة النساء آية ٥٨.

ثم دخلت سنة خمس ومائة
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك غزوة الجرّاح بن عبدالله الحَكَميّ الّلان؛ حتى جاز ذلك إلى مدائن وحصون من وراء بَلَنْجَر، ففتح بعض ذلك، وجلّى عنه بعض أهله، وأصاب غنائم كثيرة.

وفيها كانت غزوة سعيد بن عبد الملك أرضَ الروم، فبعث سرّية في نحو من ألف مقاتل، فأصيبوا - فيما ذكر - جميعاً.

وفيها غزا مسلم بن سعيد الترك، فلم يفتح شيئاً، فقفل ثم غزا أفشِينَة (مدينة من مدائن السُّغد) بعد في هذه السنة، فصالح ملكها وأهلها.

ذكر الخبر عن ذلك:

ذكر عليّ بن محمد عن أصحابه، أنّ مسلم بن سعيد مَرْزَبَ بهرام سيس فجعله المرزبان. وأنّ مسلماً غزا في آخر الصيف من سنة خمس ومائة، فلم يفتح شيئاً وقفل، فاتّبعه الترك فلحقوه، والنّاس يعبرون نهر بلْخ وتميم على الساقة، وعبيدالله بن زهير بن حيّان على خيل تميم، فحاموا عن الناس حتى عبروا. ومات يزيد بن عبد الملك، وقام هشام، وغزا مسلم أفشين فصالَح ملكها على ستة آلاف رأس، ودفع إليه القلعة، فانصرف لتمام سنة خمس ومائة.

وفي هذه السنة مات الخليفة يزيد بن عبد الملك بن مرْوان، لخمس ليال بقين من شعبان منها؛ حدثني بذلك أحمد بن ثابت، عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر، وكذلك قال الواقديّ.

وقال الواقديّ: كانت وفاته ببلْقاء من أرض دمشق، وهو يوم مات ابن ثمان وثلاثين سنة.

وقال بعضهم: كان ابنَ أربعين سنة.

وقال بعضهم: ابن ست وثلاثين سنة؛ فكانت خلافته في قول أبي معشر وهشام بن محمد وعليّ بن محمد أربعَ سنين وشهراً، وفي قول الواقديّ أربع سنين.

وكان يزيد بن عبد الملك يكنّى أبا خالد؛ كذلك قال أبو معشر وهشام بن محمد والواقديّ وغيرهم.

وقال عليّ بن محمد: توفِّيَ يزيد بن عبد الملك وهو ابن خمس وثلاثين سنة أو أربع وثلاثين سنة في شعبان يوم الجمعة لخمس بقين منه سنة خمس ومائة.

وقال: ومات بأربَد من أرض البلقاء، وصلّى عليه ابنه الوليد وهو ابن خمس عشرة سنة، وهشام بن عبد الملك يومئذ بحمِصْ؛ حدثني بذلك عمر بن شبّة، عن عليّ.

وقال هشام بن محمد: توفّي يزيد بن عبد الملك، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة.

قال عليّ: قال أبو ماوية أو غيره من اليهود ليزيد بن عبد الملك: إنك تملك أربعين سنة، فقال رجل من اليهود: كذب لعنه الله، إنما أرى أنه يملك أربعين قَصَبة، والقصبة شهر، فجعل الشهر سنة.

ذكر بعض سيره وأموره

حدّثني عمر بن شبّة، قال: حدّثنا عليّ، قال: كان يزيد بن عاتكة من فِتْيانهم، فقال يوماً وقد طرب، وعنده حَبَابة وسلاّمة: دعُوني أطِير، فقالت حَبابة: إلى من تَدَعُ الأمّة! فلما مات قالت سَلامة القَسّ:

لا تَـلُمنـا إن خَـشَعـنَـا ... أو هَمَـمْـنَـا بـالخـشـوعِ
قـد لَعَمْـري بـتُّ لَيـلي ... كـأخي الـدَّاءِ الـوَجيـعِ
ثـم بـاتَ الهـمُّ مـنّي ... دونَ مَـن لي مـن ضَـجِيـعِ
لـلذي حـلَّ بـنـا الـيـو ... مَ مـن الأمـر الـفَـظِيـعِ
كـلّما أبـصـرْتُ رَبْـعـاً ... خـالـيـاً فـاضَتْ دُمُـوعي
قـد خـلا مـن سيِّـدٍ كـا ... نَ لـنـا غـيرَ مُـضـيـعِ

ثم نادت: وا أمير المؤمنيناه! والشعر لبعض الأنصار.

قال عليّ: حجّ يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان بن عبد الملك فاشترى حَبابة ـ وكان اسمها العالية ـ بأربعة آلاف دينار من عثمان بن سهل بن حُنيف، فقال سليمان: هممت أن أحجر على يزيد؛ فردّ يزيد حَبابة فاشتراها رجل من أهل مصر، فقالت سَعْدة ليزيد: يا أمير المؤمنين، هل بقي من الدنيا شيء تتمناه بعد؟ قال: نعم حَبابة، فأرسلت سَعدة رجلا فاشتراها بأربعة آلاف دينار، وصنّعتها حتى ذهب عنها كَلال السفر، فأتت بها يزيد، فأجلستها من وراء الستر، فقالت: يا أمير المؤمنين، أبقي شيء من الدنيا تتمناه؟ قال: ألم تسأليني عن هذا مرّة فأعلمتُك! فرفعت الستر وقالت: هذه حَبَابة، قامت وخلّتها عنده، فحظيت سَعْدة عند يزيد وأكرمها وحباها. وسَعدة امرأة يزيد، وهي من آل عثمان بن عفان.

قال عليّ عن يونس بن حبيب: إن حبابة جارية يزيد بن عبد الملك غنَّت يوماً:

بـيـن الـتـراقي والـلـهَـاةِ حـرَارَةٌ ... مـا تـطمئنّ وَمَـا تـسُـوغُ فَـتَـبـرُدُ

فأهوى ليطير فقالت: يا أمير المؤمنين، إن لنا فيك حاجةً، فمرضت وثقِلت، فقال: كيف أنت يا حبابة؟ فلم تجبه، فبكى وقال:

لئن تَسلُ عنكِ النفسُ أو تَذهَل الهوى ... فبـاليـأس يَسلُو القلب لاَ بـالتَّجـلّدِ

وسمع جارية لها تتمثل:

كفى حَزَناً بالهائِم الصَّبِّ أن يَرَى منازِل مَن يَهوَى مُعَطَّلَةً قَفْرَا

فكان يتمثّل بهذا.

قال عمر: قال عليّ: مكث يزيد بن عبد الملك بعد موت حَبابة سبعة أيام لا يخرج إلى الناس؛ أشار عليه بذلك مَسلمة، وخاف أن يظهر منه شيء يسفهه عند الناس.

خلافة هشام بن عبد الملك

وفي هذه السنة استُخلف هشام بن عبد الملك لليالٍ بقين من شعبان منها، وهو يوم استخلف ابن أربع وثلاثين سنة وأشهر.

حدثني عمر بن شبَّة، قال: حدثني عليّ، قال: حدّثنا أبو محمد القرشيّ وأبو محمد الزياديّ والمنهال بن عبد الملك وسُحَيم بن حفص العُجيفيّ، قالوا: وُلد هشام بن عبد الملك عامَ قُتِل مُصعب بن الزبير سنة اثنتين وسبعين. وأمّه عائشة بنت هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، وكانت حمقاء، أمرها أهلها ألاّ تكلم عبد الملك حتى تلد، وكانت تثني الوسائد وتركب الوِسادة وتزجرها كأنها دابّة، وتشتري الكُنْدُر فتمضغه وتعمل منه تماثيل، وتصنع التماثيل على الوسائد، وقد سمّت كل تمثال باسم جارية، وتنادي: يا فلانة ويا فلانة؛ فطلقها عبد الملك لحمقها. وسار عبد الملك إلى مُصعب فقتله، فلماقتله بلغه مولد هشام، فسّماه منصوراً، ويتفاءل بذلك، وسمّته أمه باسم أبيها هشام، فلم ينكر ذلك عبد الملك، وكان هشام يكنى أبا الوليد.

وذكر محمد بن عمر عمّن حدّثه أنّ الخلافة أتت هشاماً وهو بالزّيتونة في منزله في دُويرة له هناك.

قال محمد بن عمر: وقد رأيتها صغيرة، فجاءه البريد بالعصا والخاتم، وسلّم عليه بالخلافة، فركب هشام من الرُّصافة حتى أتى دمشق.

وفي هذه السنة قدِم بكيْر بن ماهان من السِّند ـ وكان بها مع الجنيد بن عبد الرحمن ترجمانا له ـ فلما عُزل الجنيد بن عبد الرحمن، قدم الكوفة ومعه أربع لِبنات من فضة ولِبنة من ذهب، فلقي أبا عكْرمة الصادق وميسرة ومحمد بن خنيس وسالماً الأعين وأبا يحيى مولى بني سلمة؛ فذكروا له أمر دعوة بني هاشم، فقبِل ذلك ورضيَه، وأنفق ما معه عليهم، ودخل إلى محمد بن عليّ. ومات ميسرة فوجه محمد بن عليّ بُكَير بن ماهان إلى العراق مكان ميسرة، فأقامه مقامه.

وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن هشام بن إسماعيل، والنضريّ على المدينة.

قال الواقديّ: حدّثني إبراهيم بن محمد بن شُرحبيل، عن أبيه، قال: كان إبراهيم بن هشام بن إسماعيل حجّ، فأرسل إلى عطاء بن أبي رباح: متى أخطب بمكة؟ قال: بعد الظهر، قبل التّروية بيوم، فخطب قبل الظهر، وقال: أمرني رسولي بهذا عن عطاء، فقال عطاء: ما أمرتُه إلاّ بعد الظهر، قال: فاستحيا إبراهيم بن هشام يومئذ؛ وعدوّه منه جهلا.

وفي هذه السنة عزل هشام بن عبد الملك عمرَ بن هُبيرة عن العراق وما كان إليه من عمل المشرق، وولّى

ذلك كلّه خالد بن عبدالله القسريّ في شوال.

ذكر محمد بن سلام الجُمحيّ، عن عبد القاهر بن السريّ، عن عمر بن يزيد بن عمير الأسيّديّ قال: دخلت على هشام بن عبد الملك، وعنده خالد بن عبدالله القسرِيّ، وهو يذكر طاعة أهل اليمن، قال: فصفّقت تصفيقةً بيدي دقّ الهواء منها، فقلت: تالله ما رأيتُ هكذا خطأ ولا مثله خطلاً! والله ما فتِحَتْ فتنة في الإسلام إلا بأهل اليمن، هم قتلوا أميرَ المؤمنين عثمان، وهم خلعوا أمير المؤمنين عبد الملك، وإنّ سيوفنا لتقطر من دماء آل المهلب. قال: فلما قمت تبعني رجلٌ من آل مروان كان حاضراً، فقال: يا أخا بني تميم، ورتْ بك زِنادي، قد سمعت مقالتك، وأمير المؤمنين مولٍّ خالداً العراق، وليست لك بدار.

ذكر عبد الرزاق أنّ حماد بن سعيد الصنعانيّ أخبره قال: أخبرني زياد بن عبيدالله، قال: أتيت الشّأم، فاقترضت؛ فبينا أنا يوماً على الباب باب هشام، إذ خرج عليّ رجل من عند هشام، فقال لي: ممّن أنت يا فتى؟ قلت: يمان، قال: فمن أنت؟ قلت: زياد بن عبدالله بن عبد المَدان، قال: فتبسم، وقال: قم إلى ناحية العسكر فقل لأصحابي: ارتحلوا فإنّ أمير المؤمنين قد رضي عني، وأمرني بالمسير، ووكّل بي من يخرجني قال: قلت: مَنْ أنت يرحمك الله؟ قال: خالد بن عبدالله القسريّ، قال: ومُرْهم يا فتى أن يعطوك منديل ثيابي وبرْذوني الأصفر. فلما جُزْت قليلاً ناداني، فقال: يا فتى، وإن سمعت بي قد وُلّيت العراق يوماً فالحق بي. قال: فذهبتُ إليهم، فقلت: إنّ الأمير قد أرسلني إليكم بأنّ أمير المؤمنين قد رضي عنه؛ وأمره بالمسير. فجعل هذا يحتضنني وهذا يقبّل رأسي، فلما رأيتُ ذلك منهم، قلت: وقد أمرني أن تعطوني منديل ثيابه وبِرْذونه الأصفر، قالوا: إي والله وكرامةً، قال: فأعطوني منديل ثيابه وبرذونه الأصفر، فما أمسى بالعسكر أحد أجودَ ثيابا منّي، ولا أجودَ مركبا منيّ، فلم ألبث إلا يسيراً حتى قيل: قد وُلِّيَ خالد العراق، فركبني من ذلك همّ، فقال لي عريف لنا: مالي أراك مهموماً! قلت: أجل قد وُلّي خالد كذا وكذا، وقد أصبتُ ها هنا رُزَيقا عشت به، وأخشى أن أذهب إليه فيتغيَّر عليّ فيفوتني ها هنا وها هنا، فلست أدري كيف أصنع! فقال لي: هل لك في خصلة؟ قلت: وما هي؟ قال: توكّلني بأرزاقك وتخرج، فإن أصبتَ ما تحبّ فلي أرزاقك، وإلاّ رجعتَ فدفعتها إليك، فقلت نعم.

وخرجت، فلما قدمت الكوفة لبست من صالح ثيابي. وأذِن للناس، فتركتُهم حتى أخذوا مجالستَهم، ثم دخلت فقمت بالباب، فسلمت ودعوت وأثنيت، فرفع رأسه، فقال: أحسنت بالرّحب والسعة، فما رجعتُ إلى منزلي حتى أصبت ستمائة دينار بين نَقْد وعَرْض.

ثم كنت أختلفُ إليه، فقال لي يوماً: هل تكتب يا زياد؟ فقلت: أقرأ ولا أكتب، أصلح الله الأمير! فضرب بيده على جبينه، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! سقط منك تسعة أعشار ما كنت أريده منك، وبقي لك واحدة فيها غِنى الدّهر. قال: قلت: أيها الأمير، هل في تلك الواحدة ثمن غلام؟ قال: وماذا حينئذ! قلت: تشتري غلاماً كاتباً تبعث به إليّ فيعلّمني، قال: هيهات! كبرتَ عن ذلك، قال: قلت: كلاّ، فاشترى غلاماً كاتباً حاسباً بستين ديناراً، فبعث به إليّ، فأكببتُ على الكتاب، وجعلت لا آتيه إلا ليلاً، فما مضت إلا خمس عشرة ليلة حتى كتبتُ ما شئت وقرأت ما شئت. قال: فإنّي عنده ليلةً، إذ قال: ما أدري هل أنجحت من ذلك الأمر شيئاً؟ قلت: نعم، أكتب ما شئت، واقرأ ما شئت، قال: إنّي أراك ظفرت منه بشيء يسير فأعجبك،

قلت: كلا، فرفع شاذكونه، فإذا طومار، فقال: اقرأ هذا الطومار، فقرأت ما بين طرفيه، فإذا هو من عامله على الريّ، فقال: اخرج فقد ولّيتك عملَه، فخرجت حتى قدمت الرّيّ، فأخذت عامل الخراج، فأرسل إليّ: إن هذا أعرابيّ مجنون. فإنّ الأمير لم يولّ على الخراج عربيًّا قطّ، وإنما هو عامل المعونة، فقل له: فليقرّني على عملي وله ثلاثمائة ألف،قال: فنظرتُ في عهدي، فإذا أنا على المعونة، فقلت: والله لا انكسرت، ثم كتبت إلى خالد: إنك بعثتني على الرّيّ، فظننت أنك جمعتها لي. فأرسل إليّ صاحب الخراج أن أقرّه على عمله ويعطيني ثلثمائة ألف درهم. فكتب إليّ أن أقبل ما أعطاك، واعلم أنّك مغبون. فأقمت بها ما أقمت، ثم كتبت: إني قد اشتقت إليك فارفعني إليك، ففعل، فلما قدمت عليه ولّاني الشرطة.

وكان العامل في هذه السنة على المدينة ومكة والطائف عبد الواحد بن عبدالله النضْريّ وعلى قضاء الكوفة حسين بن حسن الكِنديّ، وعلى قضاء البَصْرة موسى بن أنس. وقد قيل إنّ هشاماً إنما استعمل خالد بن عبدالله القسريّ على العراق وخراسان في سنة ست ومائة، وإن عامله على العراق وخراسان في سنة خمس ومائة كان عمر بن هبيرة.

ثم دخلت سنة ست ومائة
ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

ففي هذه السنة عزل هشام بن عبد الملك عن المدينة عبدَ الواحد بن عبدالله النضْريّ وعن مكة والطائف، وولى ذلك كله خالَه إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزوميّ، فقدم المدينة يوم الجمعة لسبع عشرة مضت من جمادى الآخرة سنة ست ومائة، فكانت ولاية النَّضْريّ على المدينة سنة وثمانية أشهر.

وفيها غزا سعيد بن عبد الملك الصائفة.

وفيها غزا الحجاج بن عبد الملك اللّلان، فصالح أهلَها، وأدوّا الجزْية.

وفيها ولد عبد الصمد بن عليّ في رجب.

وفيها مات الإمام طاوس مولى بَحِير بن رَيْسان الحميريّ بمكة وسالم بن عبدالله بن عمر، فصلّى عليهما هشام. وكان موت طاوس بمكة وموت سالم بالمدينة.

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثني عبد الحكيم بن عبدالله بن أبي فروة، قال: مات سالم بن عبدالله سنة خمس ومائة في عِقب ذي الحجة، فصلى عليه هشام بن عبد الملك بالبَقيع، فرأيت القاسم بن محمد بن أبي بكر جالساً عند القبر وقد أقبل هشام ما عليه إلا دُرّاعة، فوقف على القسام فسلم عليه، فقام إليه القاسم فسأله هشام: كيف أنت يا أبا محمد؟ كيف حالك؟ قال: بخير، قال: إني أحبّ والله أن يجعلكم بخير. ورأى في الناس كثرة، فضرب عليهم بعث أربعة آلاف؛ فسمّيَ عام الأربعة آلاف.

وفيها استقضى إبراهيم بن هشام محمد بن صفوان الجُمحيّ ثم عزله، واستقضى الصّلت الكنديّ.

وفي هذه السنة كانت الوقعة التي كانت بين المضرية واليمانية وربيعة بالبَرُوقان من أرض بلْخ.

ذكر الخبر عن سبب هذه الوقعة:

وكان سبب ذلك - فيما قيل - أنّ مسلم بن سعيد غزا، فقطع النّهر، وتباطأ الناس عنه؛ وكان ممّن تباطأ عنه البخْتَريّ بن درهم، فلما أتى النّهر ردّ نصر بن سيار وسليم بن سليمان بن عبدالله بن خازم وبلعاء بن مجاهد بن بلعاء العنبريّ وأبا حفص بن وائل الحنظليّ وعُقبة بن شهاب المازنيّ وسالم بن ذؤابة إلى بلْخ، وعليهم جميعاً نصْر بن سيار، وأمرهم أن يخرجوا النّاس إليه. فأحرق نصر باب البَخْتريّ وزياد بن طريف الباهليّ، فمنعهم عمرو بن مسلم من دخول بلْخ - وكان عليها - وقطع مسلم بن سعيد النهر فنزل نصر البَرُوقان، فأتاه

أهل صَغَانِيَان، وأتاه مسلمة العُقْفانيّ من بني تميم، وحسان بن خالد الأسديّ؛ كلّ واحد منها في خمسمائة، وأتاه سنان الأعرابيّ وزُرْعة بن علقمة وسلمة بن أوس والحجاج بن هارون النميريّ في أهل بيته، وتجمّعت بكْر والأزد بالبَرُوقان، رأسهم البختريّ، وعسكر بالبَرُوقان على نصف فرسخ منهم، فأرسل نصْر إلى أهل بلْخ: قد أخذتم أعطياتكم فالحقوا بأميركم، فقد قطع النهر: فخرجت مُضَر إلى نصر، وخرجت ربيعة والأزْد إلى عمرو بن مسلم، وقال قوم من ربيعة: إنّ مسلم بن سعيد يريد أن يخلع؛ فهو يكرهنا على الخروج. فأرسلت تَغلب إلى عمرو بن مسلم: إنك منا، وأنشدوه شعراً قاله رجل عزا باهلة إلى تَغْلِب ـ وكان بنو قتيبة من بَاهلة ـ فقالوا: إنّا من تِغلب، فكرهتْ بكْر أن يكونوا في تَغلب فتكثر تغلِب، فقال رجل منهم:

زَعمَتْ قتيبةُ أنها مِنْ وَائِلِ ... نَسبٌ بعيدٌ يا قتيبةُ فاصْعَدِي

وذكر أن بني مَعن من الأزد يُدْعَوْن باهلة، وذكر عن شريك بن أبي قيلة المعنيّ أن عمرو بن مسلم كان يقف على مجالس بني معْن، فيقول: لئن لم نكن منكم ما نحن بعرب؛ وقال عمرو بن مسلم حين عَزاه التّغلَبيّ إلى بني تغلِب: أما القرابة فلا أعرفها، وأما المنع فإني سأمنعكم؛ فسفر الضّحاك بن مزاحم ويزيد بن المفضل الحُدّانيّ، وكلما نصراً وناشداه فانصرف. فحمل أصحاب عمرو بن مسلم والبختريّ على نصر، ونادوا: يالَ بكر! وجالوا، وكرّ نصر عليهم؛ فكان أوّلَ قتيل رجلٌ من باهلة، ومع عمرو بن مسلم البختريُّ وزياد بن طَريف الباهليّ، فقتِل من أصحاب عمرو بن مسلم في المعركة ثمانية عشر رجلا، وقتِل كردان أخو الفُرافِصَة ومَسْعَدة ورجل من بكر بن وائل يقال له إسحاق، سوى مَن قتِل في السكك، وانهزم عمرو بن مسلم إلى القصر وأرسل إلى نصر: ابعث إلى بلْعاء بن مجاهد، فأتاه بلعاء، فقال: خذْ لي أماناً منه، فآمنه نصر، وقال: لولا أني أُشمِت بك بكر بن وائل لقتلتك.

وقيل: أصابوا عمرو بن مسلم في طاحونة، فأتوا به نصراً في عُنقه حَبْل، فآمنه نصر، وقال له ولزياد بن طريف والبختريّ بن دِرْهَم: الحقوا بأميركم.

وقيل: بل التقى نصر وعمرو بالبرُوقان، فقتل من بكر بن وائل واليمن ثلاثون، فقالت بكر: علام نقاتل إخواننا وأميرنا، وقد تقرّبنا إلى هذا الرجل فأنكر قرابتنا! فاعتزلوا. وقاتلت الأزْد، ثم انهزموا ودخلوا حصناً فحصرهم نصر، ثم أخذ عمرو بن مسلم والبختريَّ أحد بني عبّاد وزياد بن طريف الباهليَّ، فضربهم نصر مائة مائة، وحلّق رءوسهم ولحاهم، وألبسهم المُسوح. وقيل: أخذ البَختريّ في غيضة كان دخلها، فقال نصر في يوم البُروقان:

أرَى العينَ لجَّتْ في ابتدارٍ وما الذي ... يَرُدُّ عليها بالدموعِ ابتدارُها!
فما أنا بالواني إذا الحربُ شمَّرَتْ ... تَحَرَّقُ في شَطْرِ الخميسَين نارُها
وَلكنّني أدعو لها خِندِفَ التي ... تطلَّعُ بالعِبء الثَّقيلِ فِقارُها
وَمَا حَفظتْ بكرٌ هنالك حِلفَها ... فصار عليها عارُ قيسٍ وعارُها
فإن تكُ بَكرٌ بالعِراقِ تَنَزرَتْ ... ففي أرضِ مَرْوٍ عَلُّها وازْوِرارُها
وقد جَرَّبَتْ يومَ البَرُوقانِ وقعةً ... لِخِندِفِ إذ خانَتْ وآنَ بوارُها
أتتني لِقَيْسٍ في بِجيلةَ وقعةٌ ... وقد كان قبلَ اليومِ طالَ انتظارُها

يعني حين أخذ يوسف بن عمر خالداً وعياله.

وذكر عليّ بن محمد أن الوليد بن مسلم قال: قاتل عمرو بن مسلم نصر بن سيار فهزمه عمرو، فقال لرجل من بني تميم كان معه: كيف ترى أستاه قومك يا أخا بني تميم؟ يعيِّره بهزيمتهم، ثم كرّت تميم فهزموا أصحاب عمرو، فانجلى الرَّهج وبلعاء بن مجاهد في جمع من بني تميم يشُلُّهم، فقال التميميُّ لعمرو: هذه أستاه قومي. قال: وانهزم عمرو، فقال بلعاء لأصحابه: لا تقتلوا الأسرى ولكن جَرِّدهم، وجوبوا سراويلاتهم عن أدبارهم، ففعلوا، فقال بيان العنبريّ يذكر حربهم بالبَرُوقان:

أتـاني وَرَحْلي بـالـمـدينـةِ وقعـةٌ … لآلِ تـميمٍ أَرْجَفَـتْ كـلَّ مُـرجَـفِ

تَـظَلُّ عُيـونُ البُـرْشِ بكـرِ بن وائـلٍ … إذا ذُكِـرَت قتلى البَـرُوقـانِ تَـذْرِفُ

هُمُ أسلمـوا للمـوتِ عَمْـرو بنَ مسلِمٍ … وَوَلَّـوْا شِـلالاً والأَسِـنـةُ تَـرْعُـفُ

وكـانت من الفتيانِ في الحـربِ عـادةٌ … ولم يصبـرُوا عنـدَ القنـا المُتَقَصِّـفِ

وفي هذه السنة غزا مُسلم بن سعيد الترك؛ فورد عليه عزله من خراسان من خالد بن عبدالله، وقد قطع النّهر لحربهم وولاية أسد بن عبدالله عليها.

ذكر الخبر عن غزوة مسلم بن سعيد هذه الغزوة:

ذكر عليّ بن محمد عن أشياخه أنّ مسلماً غزا في هذه السنة، فخطب الناس في ميدان يزيد، وقال: ما أُخَلِّفُ بعدي شيئاً أهمّ عندي من قوم يتخلّفون بعدي مُخَلِّفِي الرقاب، يتواثبون الجُدران على نساء المجاهدين؛ اللهمّ افعل بهم وافعل! وقد أمرتُ نصراً ألّا يجد متخلّفاً إلّا قتله، وما أرثي لهم من عذاب ينزله الله بهم - يعني عمرو بن مسلم وأصحابه - فلما صار ببخارى أتاه كتاب من خالد بن عبدالله القسريّ بولايته على العراق، وكتب إليه: أتمّ غزاتك. فسار إلى فَرْغانة، فقال أبو الضحاك الرَّوَاحيّ - أحد بني رَوَاحة من بني عبس، وعِداده في الأزد، وكان ينظر في الحساب: ليس على متخلّفٍ العامَ معصية، فتخلّف أربعة آلاف. وسار مسلم بن سعيد، فلما صار بفَرْغانة بلغه أن خاقان قد أقبل إليه، وأتاه شُمَيْل - أو شُبَيْل - بن عبد الرحمن المازنيّ، فقال: عاينت عسكر خاقان في موضع كذا وكذا، فأرسل إلى عبدالله بن أبي عبدالله الكِرْمانيّ مولى بني سليم، فأمره بالاستعداد للمسير، فلما أصبح ارتحل بالعسكر، فسار ثلاث مراحل في يوم؛ ثم سار من غد حتى قطع وادي السّبوح، فأقبل إليهم خاقان، وتوافت إليه الخيل؛ فأنزل عبدالله بن أبي عبدالله قوماً من العُرَفاء والموالي، فأغار الترك على الذين أنزلهم عبدالله ذلك الموضع فقتلوهم، وأصابوا دوابَّ لمسلم وقتِل المسيّب بن بشر الرّياحيّ، وقتِل البراء - وكان من فرسان المهلّب - وقتل أخو غوْزك، وثار النّاس في وجوههم، فأخرجوهم من العسكر، ودفع مسلم لواءه إلى عامر بن مالك الحِمّانيّ، ورحل بالناس فساروا ثمانية أيام، وهم مطِيفون بهم؛ فلما كانت الليلة التاسعة أراد النزول، فشاور الناس فأشاروا عليه بالنزول، وقالوا: إذا أصبحنا وردنا الماء، والماءُ منا غير بعيد؛ وإنك إن نزلت المرْج تفرّق الناس في الثمار، وانتُهب عسكرك، فقال لسورة بن الحرّ: يا أبا العلاء، ما ترى؟ قال: أرى ما رأى الناس ونزلوا. قال: ولم يرفع بناء في العسكر، وأحرق الناس ما ثقل من الآنية والأمتعة، فحرّقوا قيمة ألف ألف، وأصبح الناس فساروا، فوردوا الماء فإذا دون النّهر أهلُ فرغانة والشّاش، فقال مسلم بن سعيد: أعزم على كلّ رجل إلّا اخترط سيفه؛ ففعلوا فصارت الدنيا كلها سيوفاً،

فتركوا الماء وعبروا، فأقام يوماً، ثم قطع من غدٍ، وأتبعهم ابن الخاقان. قال: فأرسل حُميد بن عبدالله وهو على الساقة إلى مسلم: قف ساعةً فإنّ خلفي مائتي رجل من الترك حتى أقاتلهم ـ وهو مثقَلٌ جراحاً ـ فوقف الناس، فعطف على الترك، فأسر أهل السُّغد وقائدهم وقائد الترك في سبعة، وانصرف البقيّة، ومضى حميد ورُمي بنشّابة في ركبته، فمات.

وعطش الناس، وقد كان عبد الرحمن بن نعيم العامري حمل عشرين قربة على إبله، فلما رأى جهد الناس أخرجها، فشربوا جُرَعا، واستسقى يوم العطش مسلم بن سعيد فأتوْه بإناء، فأخذه جابر ـ أو حارثة ـ بن كثير أخو سليمان بن كثير من فيه، فقال مسلم: دعوه، فما نازعني شَرْبتي إلا من حرّ دَخَله، فأتوا خُجَنْدة، وقد أصابتهم مَجاعة وجَهد، فانتشر الناس فإذا فارسان يسألان عن عبد الرحمن بن نعيم، فأتياه بعهده على خُراسان من أسد بن عبدالله، فأقرأه عبد الرحمن مسلماً، فقال: سمعاً وطاعة، قال: وكان عبد الرحمن أوّل من اتخذ الخيام في مفازة آمُل.

قال: وكان أعظم الناس غنىً يوم العطش إسحاق بن محمد الغُدانيّ، فقال حاجب الفيل لثابت قُطْنة، وهو ثابت بن كعب:

نقْضي الأُمورَ وبكرٌ غَيرُ شاهدها	بين المجاذيفِ والسُّكانِ مشغولُ
مَا يَعْرِفُ الناسُ منه غيرَ قُطْنَتِه	وما سواها مِنَ الآباءِ مجْهُولُ

وكان لعبد الرحمن بن نعيم من الولد نُعَيم وشَديد وعبد السلام وإبراهيم والمِقْداد، وكان أشدَّهم نُعَيم وشَديد، فلما عُزل مسلم بن سعيد، قال الخزرج التغلَبيّ: قاتلنا الترك،فأحاطوابالمسلمين حتى أيقنوا بالهلاك؛ فنظرت إليهم وقد اصفرّت وجوههم، فحمل حَوْثرة بن يزيد بن الحرّ بن الحُنَيف بن نصر بن يزيد بن جَعْوَنة على الترك في أربعة آلاف، فقاتلهم ساعة ثم رجع، وأقبل نصر بن سيار في ثلاثين فارساً، فقاتلهم حتى أزالهم عن مواضعهم، وحمل الناس عليهم؛ فانهزم الترك.

قال: وحوثرة هذا هو ابن أخي رَقَبة بن الحرّ. قال: وكان عمر بن هبيرة قال لمسلم بن سعيد حين ولّاه خراسان: ليكن حاجبُك من صالح مواليك، فإنه لسانك والمعبّر عنك، وحُثَّ صاحب شُرطتك على الأمانة، وعليك بعمال العذر. قال: ومَا عمال العُذْر؟ قال: مُرْ أهلَ كلّ بلد أن يختاروا لأنفسهم، فإذا اختاروا رجلاً فولّه، فإن كان خيراً كان لك، وإن كان شرًّا كان لهم دونك؛ وكنت معذوراً.

قال: وكان مسلم بن سعيد كتب إلى ابن هُبيرة أن يوجه إليه توبة بن أبي أسيْد مولى بني العنبر، فكتب ابن هبيرة إلى عامله بالبصرة: احمل إليّ توبة بن أبي أسَيْد، فحمله فقدم ـ وكان رجلا جميلا جهيراً له سَمْتٌ ـ فلما دخل على ابن هبيرة، قال ابن هبيرة: مثل هذا فليولّ، ووجّه به إلى مسلم، فقال له مسلم: هذا خاتمي فاعمل برأيك؛ فلم يزل معه حتى قدم أسد بن عبدالله، فأراد توبة أن يشخص مع مسلم، فقال له أسد: أقم معي فأنا أحوَج من مسلم. فأقام معه، فأحسن إلى الناس وألان جانبه، وأحسن إلى الجند وأعطاهم أرزاقهم، فقال له أسَد: حلّفهم بالطلاق فلا يتخلف أحد عن مغزاه، ولا يدخل بديلاً، فأبى ذلك توبة فلم يحلفهم بالطلاق.

قال: وكان الناس بعد توبة يُحلّفون الجند بتلك الأيمان، فلما قدم عاصم بن عبدالله أراد أن يحلّف الناس بالطلاق فأبوا، وقالوا: نحلف بأيمان توبة، قال: فهم يعرفون ذلك، يقولون: أيمان توبة.

وحجّ بالناس في هذه السنة هشام بن عبد الملك؛ حدّثني بذلك أحمد بن ثابت عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر، وكذلك قال الواقديّ وغيره، لا خلاف بينهم في ذلك.

قال الواقديّ: حدّثني ابن أبي الزّناد، عن أبيه، قال: كتب إليّ هشام بن عبد الملك قبل أن يدخل المدينة أن اكتب لي سُنَن الحج، فكتبتها له، وتلقاه أبو الزناد. قال أبو الزّناد: فإني يومئذ في الموكب خلفه، وقد لقيَه سعيد بن عبدالله بن الوليد بن عثمان بن عفان، وهشام يسير، فنزل له، فسلم عليه، ثم سار إلى جَنْبه، فصاح هشام: أبو الزناد! فتقدّمتُ، فسرت إلى جنبه الآخر، فأسمع سعيداً يقول: يا أميرَ المؤمنين، إنّ الله لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين، وينصر خليفته المظلوم، ولم يزالوا يَلعنون في هذه المواطن الصالحة أبا تراب، فأمير المؤمنين ينبغي له أن يلعنه في هذه المواطن الصالحة؛ قال: فشقّ على هشام، وثقل عليه كلامه، ثم قال: مَا قدمنا لشتم أحد ولا للعنة، قدمنا حجّاجاً. ثم قطع كلامه وأقبل عليّ فقال: يا عبدالله بن ذكوان، فرغتَ مما كتبتُ إليك؟ فقلت: نعم، فقال أبو الزناد: وثقُل على سعيد ما حضرته يتكلم به عند هشام، فرأيته منكسراً كلما رآني.

وفي هذه السنة كلّم إبراهيم بن محمد بن طلحة هشامَ بن عبد الملك ـ وهشام واقف قد صلّى في الحِجْر ـ فقال له: أسألك بالله وبحرْمة هذا البيت والبلد الذي خرجتَ معظِّماً لحقه، إلا رددتَ عليّ ظلامتي! قال: أيّ ظلامة؟ قال: داري، قال: فأين كنت عن أمير المؤمنين عبد الملك؟ قال: ظلمني والله، قال: فعن الوليد بن عبد الملك؟ قال: ظلمني والله، قال: فعن سليمان؟ قال: ظلمني، قال: فعن عمر بن عبد العزيز؟ قال: يرحمه الله، ردّها والله عليّ، قال: فعن يزيد بن عبد الملك؟ قال: ظلِمني والله، هو قبضها مني بعد قبضِي لها، وهي في يديك. قال هشام: أما والله لو كان فيك ضربٌ لضربتك، فقال إبراهيم: فيّ والله ضرب بالسيف والسوط. فانصرف هشام والأبرش خلفه فقال: أبا مجاشع، كيف سمعت هذا اللسان؟ قال: ما أجود هذا اللسان! قال: هذه قريش وألسنتها، ولا يزال في الناس بقايا ما رأيتَ مثل هذا.

وفي هذه السنة قدم خالد بن عبدالله القسريّ أميراً على العراق.

وفيها استعمل خالد أخاه أسد بن عبدالله أميراً على خراسان، فقدمها ومسلم بن سعيد غازٍ بفرغانة، فذكر عن أسد أنه لما أتى النهر ليقطع، منعه الأشهب بن عبيد التميميّ أحد بني غالب، وكان على السفن بآمُل، فقال له أسد: أقطِعني، فقال: لا سبيل إلى إقطاعك؛ لأني نُهيت عن ذلك، قال: لاطفوه وأطعموه، فأبى؛ قال: فإني الأمير، ففعل، فقال أسد: اعرفوا هذا حتى نُشْرِكه في أمانتنا، فقطع النهر، فأتى السُّغد، فنزل مرْجها، وعلى خراج سَمْرقند هانىء بن هانىء، فخرج في الناس يتلقى أسدا، فأتَوه بالمرْج، وهو جالس على حَجَر، فتفاءل الناس. فقالوا: أسد على حَجر! ما عند هذا خير. فقال له هانىء: أقدمتَ أميراً فنفعل بك ما نفعل بالأمراء؟ قال: نعم، قدمتُ أميراً. ثم دعا بالغداء فتغدّى بالمرْج، وقال: مَن ينشط بالمسير وله أربعة عشر درهماً ـ ويقال: قال ثلاثة عشر درهما ـ وها هي في كمّي؟ وإنه ليبكي ويقول: إنما أنا رجل مثلكم. وركب فدخل سَمَرْقند وبعث رجلين معهما عهد عبد الرحمن بن نعيم على الجند، فقدم الرّجلان على عبد الرحمن بن نعيم، وهو في وادي أفشين على السّاقة ـ وكانت الساقة على أهل سَمَرْقند الموالي وأهل الكوفة ـ فسألا عن عبد الرحمن فقالوا: هو في الساقة، فأتياه بعهد وكتاب بالقُفُل والإذن لهم فيه، فقرأ الكتاب. ثمّ أتى به مسلما

وبعهده، فقال مسلم: سمعاً وطاعة، فقام عمرو بن هلال السدوسيّ ـ ويقال التيميّ ـ فقنّعه سوطين لما كان منه بالبَرُوقان إلى بكر بن وائل، وشتمه حسين بن عثمان بن بشر بن المحتفز، فغضب عبد الرحمن بن نعيم، فزجرهما ثم أغلظ لهما، وأمر بهما فدفعا، وقفل بالناس وشخص معه مسلم.

فذكر عليّ بن محمد عن أصحابه، أنهم قدموا على أسد، وهو بسمَرْقند، فشخص أسد إلى مَرْو، وعزل هانئاً، واستعمل على سمَرْقَنْد الحسن بن أبي العمَرّطة الكنديّ من ولد آكل المُرار. قال: فقدِمَتْ على الحسن امرأته الجَنوب ابنة القعقاع بن الأعلم رأس الأزد، ويعقوب بن القعقاع قاضي خراسان؛ فخرج يتلقاها، وغزاهم الترك، فقيل له: هؤلاء الترك قد أتوك ـ وكانوا سبعة آلاف ـ فقال: ما أتَوْنا بل أتيناهم وغلبناهم على بلادهم واستعبدناهم، وايمُ الله مع هذا لأدنينّكم منهم، ولأقرننّ نواصي خيلكم بنواصي خيلهم.

قال: ثم خرج فتباطأ حتى أغاروا وانصرفوا، فقال الناس: خرج إلى امرأته يتلقاها مسرعاً، وخرج إلى العدوّ متباطئاً. فبلغه فخطبهم، فقال: تقولون وتعيبون! اللهمّ اقطع آثارهم وعجّل أقدارهم، وأنزل بهم الضرّاء وارفع عنهم السراء! فشتمه الناس في أنفسهم.

وكان خليفته حين خرج إلى الترك ثابت قُطْنة، فخطب الناس فحصر فقال: من يطع اللَّهَ ورَسُوله فقد ضلّ، وأرتِج عليه، فلم ينطق بكلمة، فلما نزل عن المنبر قال:

إنْ لـم أكنْ فيكـمْ خـطيبـاً فـإنني ... بسيفي إذا جَـدَّ الـوغى لخَـطيبُ

فقيل له: لو قلت هذا على المنبر، لكنت خطيباً، فقال حاجب الفيل اليشكريّ يعيره حَصَرَه:

أبـا الـعَـلاَءِ لقـد لاقيتَ مُعْضِلَةً ... يَـومَ العَـرُوبـة مِنْ كَـربٍ وتَخنِيق
تَلوِي اللسـانَ إذا رُمتَ الكـلامَ بـه ... كمـا هـوى زَلَقٌ مِنْ شـاهِقِ النِّيق
لمَّـا رَمَتْـكَ عُيُـونُ النـاسِ ضـاحيةً ... إنشـأْتَ تَجْـرَضُ لمَّـا قمتَ بـالـرِّيق
أمَّـا القـرانُ فَـلا تُهـدَى لِمُحْكَمَـة ... مِـنَ القـرانِ وَلاَ تُـهْـدَى لِتَـوْفِيـقِ

وفي هذه السنة ولد عبد الصمد بن عليّ في رجب.

وكان العامل على المدينة ومكة والطائف في هـذه السنة إبـراهيم بن هشام المخـزوميّ. وعلى العـراق وخراسان خالد بن عبدالله القسريّ، وعامل خالد على صلاة البصرة عقبة بن عبد الأعلى، وعلى شُرْطتها مالك بن المنذر بن الجارود، وعلى قضائها ثمامة بن عبدالله بن أنس، وعلى خُراسان أسد بن عبدالله.

ثم دخلت سنة سبع ومائة
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من خروج عبّاد الرُّعْينيّ باليمن محكّماً، فقتله يوسف بن عمر، وقتل معه أصحابه كلهم وكانوا ثلاثمائة.

وفيها غزا الصّائفة معاوية بن هشام، وعلى جيش الشأم ميمون بن مهران، فقطع البحر حتى عبر إلى قُبُرس، وخرج معهم البَعْث الذي هشام كان أمر به في حجته سنة ستّ، فقدموا في سنة سبع على الجعائل، غزا منهم نصفهم وقام النصف. وغزا البرّ مسلمة بن عبد الملك.

وفيها وقع بالشأم طاعون شديد.

وفيها وجّه بكير بن ماهان أبا عِكْرمة وأبا محمد الصّادق ومحمد بن خنيس وعمار العباديّ في عِدّة من شيعتهم، معهم زياد خال الوليد الأزرق دعاة إلى خراسان، فجاء رجل من كندة إلى أسد بن عبدالله، فوَشى بهم إليه، فأتى بأبي عكرمة ومحمد بن خُنيس وعامة أصحابه، ونجا عمّار، فقطع أسد أيدي مَن ظفر به منهم وأرجلهم، وصلبهم. فأقبل عمار إلى بكير بن ماهان، فأخبره الخبر، فكتب به إلى محمد بن عليّ، فأجابه: الحمد لله الذي صدّق مقالتكم ودعوتكم، وقد بقيت منكم قتلى ستُقتل.

وفي هذه السنة حُمل مسلم بن سعيد إلى خالد بن عبدالله، وكان أسد بن عبدالله له مكرِّماً بخراسان لم يعرض له ولم يحبسه، فقدم مسلم وابن هبيرة مُجْمعٌ على الهرب، فنهاه عن ذلك مسلم، وقال له: إن القوم فينا أحسن رأياً منكم فيهم.

وفي هذه السنة غزا أسد جبال نَمرون ملك الغَرْشِسْتان مما يلي جبال الطالقان، فصالحه نمرُون وأسلم على يديه، فهم اليوم يتولّون اليمن.

وفيها غزا أسد الغُور وهي جبال هَراة.

ذكر الخبر عن غزوة أسد هذه الغزوة:

ذكر عليّ بن محمد عن أشياخه، أنّ أسداً غزا الغُور، فعمد أهلُها إلى أثقالهم فصيّروها في كهف ليس إليه طريق، فأمر أسد باتّخاذ توابيت ووضع فيها الرجال، ودلّاها بالسلاسل، فاستخرجوا ما قدروا عليه، فقال ثابت قُطْنة:

أَرَى أَسَداً تَضَمَّنَ مُفْظِعَاتٍ ... تَهَيَّبَهَا الملوكُ ذَوُو الحجابِ

سَمَا بالخيل في أكناف مرو ... وتوفِزُهُنَّ بين هَلا وهَابِ
إلى غُورين حيثُ حَوى أَزَبٌّ ... وصكٌّ بالسُّيوفِ وبالحِرابِ
هَدانا اللّهُ بالقتلى تَراها ... مُصَلَّبَةً بأفواهِ الشِّعابِ
مَلاجِمُ لم تَدَعْ لسراةِ كلبٍ ... مُهاتَرةً وَلَا لبني كِلَابِ
فأوردها النِّهابَ وآبَ منها ... بأفضلِ ما يصابُ مِنَ النهابِ
وكان إذا أناخَ بدارِ قومٍ ... أراها المُخزياتِ من العذابِ
ألم يُزِرِ الجبالَ جبالَ مُلْعٍ ... ترى من دونها قِطَعَ السَّحابِ
بأرْعَنَ لم يدع لهمُ شَريداً ... وعاقَبَهَا المُمِضُّ مِنَ العقابِ

وملع من جبال خُوط فيها تعمل الحزُم الملعيّة.

وفي هذه السنة نقل أسد مَن كان بالبَرُوقان من الجند إلى بلْخ، فأقطع كلّ مَن كان له بالبَرُوقان مسكنٌ مسكناً بقدر مسْكنه، ومن لم يكن له مسكن أقطعه مسكنا، وأراد أن ينزلهم على الأخماس، فقيل له: إنهم يتعصّبون، فخلط بينهم، وكان قسم لعمارة مدينة بلْخ الفَعَلة على كلّ كُورة على قدر خراجها، وولّى بناء مدينة بلْخ برمك أبا خالد بن برمك، ـ وكان البَرُوقان منزل الأمراء وبين البَرُوقان وبين بلْخ فرسخان وبين المدينة والنوبهار قدر غَلْوتين ـ فقال أبو البريد في بنيان أسد مدينة بلْخ:

شَعفَتْ فؤادكَ فالهوى لك شاعِفُ ... رِئمٌ على طِفلٍ بحَوْمَلَ عاطفُ
ترعَى البَريرَ بجانبيْ مُتَهدِّل ... رَيَّانَ لا يَغْشُو إليه آلفُ
بمَحاضِرٍ مِنْ منحنىً عَطفَتْ له ... بَقَرٌ تَرَجَّحُ زانَهنَّ رَوادِفُ
إنَّ المباركَةَ التي أحْصنتَها ... عُصِمَ الذَّليلُ بها وقَرَّ الخائفُ
فأراك فيها ما رَأى مِنْ صَالحٍ ... فتحاً وأبوابُ السماءِ رَواعِفُ
فمضى لكَ الإسمُ الذي يَرضى به ... عنك البصيرُ بما نويتَ اللّاطف
يا خيْرَ ملكٍ ساسَ أمرَ رَعِيَّة ... إني على صِدْقِ اليمينِ لحالِفُ
اللّهُ آمنَها بصُنعِكَ بَعدَما ... كانت قلوبُ خَوفهنّ رَواجِفُ

وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن هشام، حدثني بذلك أحمد بن ثابت، عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر. وكذلك قال الواقديّ وهشام وغيرهما.

وكانت عمال الأمصار في هذه السنة عمالها الذين ذكرناهم قبل في سنة ست ومائة.

ثم دخلت سنة ثمان ومائة
ذكر ما كان فيها من الأحداث

ففيها كانت غزوة مسلمة بن عبد الملك حتى بلغ قيساريّة، مدينة الرّوم مما يلي الجزيرة، ففتحها الله على يديه.

وفيها أيضاً غزا إبراهيم بن هشام ففتح أيضاً حصناً من حصون الروم.

وفيها وجّه بكير بن ماهان إلى خراسان عدّة؛ فيهم عمّار العِبَاديّ؛ فوشى بهم رجل إلى أسد بن عبدالله، فأخذ عمّاراً فقطع يديه ورجليه ونجا أصحابه، فقدموا على بكير بن ماهان فأخبروه الخبر، فكتب بذلك إلى محمد بن عليّ، فكتب إليه في جواب الكتاب: الحمد لله الذي صدّق دعوتكم ونجّى شيعتكم.

وفيها كان الحريق بدابق؛ فذكر محمد بن عمر أنّ عبدالله بن نافع حدّثه عن أبيه، قال: احترق المرعَى حتى احترق الدوابّ والرجال.

وفيها غزا أسد بن عبدالله الختَّل؛ فذكر عن عليّ بن محمد أن خاقان أتى أسدا وقد انصرف إلى القَوادَيان، وقطع النهر، ولم يكن بينهم قتال في تلك الغزاة. وذكر عن أبي عبيدة، أنه قال: بل هزموا أسداً وفضحوه؛ فتغنّى عليه الصبيان:

أزْ خُتَّلاَن آمذِي ... بَرُوتَباهْ آمذِي

قال: وكان السبْل محارباً له، فاستجلب خاقان، وكان أسد قد أظهر أنه يشتو بسُرْخ درَه، فأمر أسد الناس فارتحلوا، ووجه راياته، وسار في ليلة مظلمة إلى سرخ دره، فكبّر الناس، فقال أسد: ما للناس؟ قالوا: هذه علامتهم إذا قفلوا، فقال لعروة المنادى: نادِ إنّ الأمير يريد غورين؛ ومضى وأقبل خاقان حين انصرفوا إلى غورين النهر فقطع النهر، فلم يلتق هو ولا هم، ورجع إلى بلْخ، فقال الشاعر في ذلك يمدح أسد بن عبدالله:

نَدبْتُ لي من كل خُمسٍ أُلفيْن ... من كلّ لحّاف عريضِ الدُّفّيْن

قال: ومضى المسلمون إلى الغُوريان فقاتلوهم يوماً، وصبروا لهم، وبرز رجل من المشركين، فوقف أمام أصحابه وركز رمحه، وقد أعلِم بعصابة خضراء - وسَلْم بن أحوَز واقف مع نصر بن سيّار - فقال سلم لنصر: قد عرفت رأي أسد، وأنا حامل على هذا العِلْج؛ فلعلي أن أقتله فيرضى. فقال: شأنك، فحمل عليه، فما اختلج رمحه حتى غشيه سلم فطعنه، فإذا هو بين يدي فرسه، ففحص برجله، فرجع سلم فوقف، فقال لنصر: أنا حامل حملة أخرى؛ فحمل حتى إذا دنا منهم اعترضه رجل من العدوّ، فاختلفا ضربتَيْن، فقتله سلْم، فرجع

سلم جريحاً، فقال نصر لسلم: قفْ لي حتى أحمل عليهم، فحمل حتى خالط العدوّ، فصرع رجلين ورجع جريحا، فوقف فقال: أترى ما صنعنا يرضيه؟ لا أرضاه الله! فقال: لا والله فيما أظنّ. وأتاهما رسول أسد فقال: يقول لكما الأمير: قد رأيت موقفكما منذ اليوم وقلة غنائكما عن المسلمين، لعنكما الله! فقالا: آمين إن عدنا لمثل هذا. وتحاجزوا يومئذ، ثم عادوا من الغد فلم يلبث المشركون أن انهزموا، وحوى المسلمون عسكرهم، وظهروا على البلاد فأسروا وسبوا وغنموا، وقال بعضهم رجع أسد في سنة ثمان ومائة مفلولا من الختّل، فقال أهل خراسان:

أزختّلان آمذى بـرو تبـاه آمـذى بيـدَل فَـراز آمـذى

قال: وكان أصاب الجند في غزاة الختّل جوع شديد، فبعث أسد بكبشين مع غلام له، وقال: لا تبعْهما بأقلّ من خمسمائة، فلما مضى الغلام، قال أسد: لا يشتريهما إلا ابن الشِّخّير، وكان في المسلحة، فدخل ابن الشّخّير حين أمسى، فوجد الشاتين في السوق، فاشتراهما بخمسمائة، فذبح إحداهما وبعث بالأخرى إلى بعض إخوانه، فلما رجع الغلام إلى أسد أخبره بالقصة، فبعث إليه أسد بألف درهم.

قال: وابن الشّخير هو عثمان بن عبدالله بن الشِّخّير، أخو مطرّف بن عدبالله بن الشَخِّير الحَرَشيّ.

وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن هشام وهو على المدينة ومكة والطائف. حدثني بذلك أحمد بن ثابت، عمن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر، وكذلك قال محمد بن عمر الواقديّ.

وكان العمّال في هذه السنة على الأمصار في الصلاة والحروب والقضاء هم العمال الذين كانوا في السنة التي قبلها، وقد ذكرناهم قبل.

ثم دخلت سنة تسع ومائة
ذكر الأحداث التي كانت فيها

فممّا كان فيها من ذلك غَزْوة عبدالله بن عقبة بن نافع الفهريّ على جيش في البَحْر وغزوة معاوية بن هشام أرضَ الروم، ففتح حصناً بها يقال له طيبة، وأصيب معه قوم من أهل أنطاكيَة.

وفيها قتل عمر بن يزيد الأسيِّديّ؛ قتله مالك بن المنذر بن الجارود.

ذكر الخبر عن ذلك:

وكان سبب ذلك ـ فيما ذكر ـ أن خالد بن عبدالله شهد عمر بن يزيد أيام حرب يزيد بن المهلب، فأعجب به يزيد بن عبد الملك، وقال: هذا رجل العراق، فغاظ ذلك خالداً، فأمر مالك بن المنذر وهو على شُرْطة البصرة أن يعظّم عمر بن يزيد، ولا يعصى له أمراً حتى يعرّفه الناس، ثم أقبل يعتلّ عليه حتى يقتله، ففعل ذلك، فذكر يوماً عبد الأعلى بن عبدالله بن عامر، فافترى عليه مالك، فقال له عمر بن يزيد: تفتري على مثل عبد الأعلى! فأغلظ له مالك، فضربه بالسياط حتى قتله.

وفيها غزا أسد بن عبدالله غُورين، وقال ثابت قُطْنة:

أَرَى أَسَداً في الْحَربِ إذْ نَـزَلَتْ بـه ... وقَـارَعَ أَهْـلَ الحَـرْبِ فـازَ وأَوجَبَا
تَنـاوَل أرضَ السَّبْـل، خـاقـانُ رِدؤه ... حَـرَّقَ مـا استعصَى عليـه وخَـرَّبـا
أَتَتْـكَ وُفُـودُ التّـرْك مـا بَيْنَ كـابـلٍ ... وغُـورِينَ إذ لم يَهْـرُبُـوا منْكَ مَهْـرَبـا
فمـا يَغْمُـرُ الأعـدَاءَ من لَيْثِ غـابَـةٍ ... أبـي ضـاريـات حَـرَّشُـوهُ فَعَـقَّبـا
أَزَبَّ كـأَنَّ الـوَرْسَ فَـوْقَ ذِراعِـهِ ... كَـريـهَ المُحَيَّـا قـدْ أسنَّ وجـرَّبـا
أَلم يَـكُ في الحِصْنِ المبارَكِ عصمـةٌ ... لِجنـدِكَ إذ هـابَ الْجَبـانُ وأَرْهبـا!
بنى لـكَ عَبْـدُ اللّهِ حِصنـاً وَرِثْـتَـهُ ... قَـدِيمـاً إذا عُـدّ القـديـمُ وأَنجَبـا

وفي هذه السنة عزل هشام بن عبد الملك خالد بن عبدالله عن خُراسان وصرف أخاه أسداً عنها.

ذكر الخبر عن عزل هشام خالداً وأخاه عن خراسان

وكان سبب ذلك أن أسداً أخا خالد تعصّب حتى أفسد الناس، فقال أبو البريد ـ فيما ذكر عليّ بن محمد لبعض الأزد: أدخلني على ابن عمّك عبد الرحمن بن صبح، وأوصِه بي، وأخبِرْه عني، فأدخله عليه ـ وهو عامل لأسَد على بلْخ ـ فقال: أصلح الله الأمير! هذا أبو البريد البكري أخونا وناصرنا، وهو شاعر أهل المشرق، وهو

الذي يقول:

إنْ تَنقُضِ الأزدُ حِلْفاً كان أكَّدَهُ ... في سالف الدَّهر عَبَّادٌ ومَسْعُود

ومالكٌ وَسُوَيدٌ أكّداه معاً ... لما تُجَرَّدُ فيها أيَّ تجريدِ

حتى تَنادوْا أتاكَ اللَّهُ ضاحيَةً ... وفي الجُلود من الإيقاع تَقْصيدُ

قال: فجذب أبو البريد يدَه، وقال: لعنك الله من شفيع كذب! أصلحك الله، ولكني الذي أقول:

الأزْدُ إخْوَتُنا وَهُم حُلَفاؤنا ... ما بيْنَنا نكْثٌ ولا تَبْديلُ

قال: صدقت، وضحك. وأبو البريد من بني عِلْباء بن شيبان بن ذُهل بن ثعلبة.

قال: وتعصّب على نصر بن سيار ونفر معه من مُضر، فضربهم بالسياط، وخطب في يوم جمعه فقال في خطبته: قبح الله هذه الوجوه! وجوه أهل الشقاق والنفاق، والشغَب والفساد. اللهم فرّق بيني وبينهم، وأخرجني إلى مهاجري ووطني، وقلّ مَن يروم ما قِبَلي أو يترمرم، وأمير المؤمنين خالي، وخالد بن عبدالله أخي، ومعي اثنا عشر ألف سيف يمانٍ.

ثم نزل عن منبره، فلما صلى ودخل عليه الناس، وأخذوا مجالسهم، أخرج كتاباً من تحت فراشه، فقرأه على الناس، فيه ذكر نَصْر بن سيار وعبد الرحمن بن نعيم العامريّ وسوْرة بن الحرّ الأبانيّ - أبان بن دارم - والبَختريّ بن أبي درهم من بني الحارث بن عبَّاد، فدعاهم فأنّبهم، فأَزِم القومُ، فلم يتكلم منهم أحد، فتكلم سوْرة، فذكر حاله وطاعتَه ومناصحته، وأنه ليس ينبغي له أن يقبل قول عدوّ مبطل، وأن يجمع بينهم وبين من قَرفهم بالباطل. فلم يقبل قولَه، وأمر بهم فجُرّدوا، فضرب عبد الرحمن بن نعيم، فإذا رجلٌ عظم البطن، أرسح؛ فلما ضرب التوى، وجعل سراويله يزلّ عن موضعه، فقام رجل من أهل بيته، فأخذ رداء له هَرَويًّا، وقام مادًّا ثوبه بيده، وهو ينظر إلى أسَد، يريد أن يأذن له فيؤزرَه، فأومَى إليه أن افعل، فدنا منه فأزّره - ويقال بل أزّره أبو نميلة - وقال له: اتّزر أبا زهير، فإن الأمير والٍ مؤدب. ويقال: بل ضَربهم في نواحي مجلسه.

فلما فرغ قال: أين تيس بني جِمّان؟ - وهو يريد ضربه؛ وقد كان ضربه قبل - فقال: هذا تيس بني جِمان؛ وهو قريب العَهْد بعقوبة الأمير،وهو عامر بن مالك بن مسلمة بن يزيد بن حجر بن خيْسق بن جِمّان بن كعب بن سعد. وقيل إنه حلقهم بعد الضَرب، ودفعهم إلى عبد ربه بن أبي صالح مولى بني سليم - وكان من الحرس - وعيسى بن أبي بُرَيق، ووجّههم إلى خالد، وكتب إليه: إنّهم أرادوا الوثوب عليه؛ فكان ابن أبي بريق كلما نبت شعر أحدهم حلَقه، وكان البختريّ بن أبي درهم، يقول: لَوددت أنه ضربني وهذا شهراً - يعني نصر بن سيار لما كان بينهما بالبرُوقان - فأرسل بنو تميم إلى نصْر: إن شئتم انتزعناكم من أيديهم، فكفّهم نصر، فلما قدم بهم على خالد لام أسداً وعنّفه، وقال: ألا بعثت برؤوسهم! فقال: عرفجة التميميّ:

فكَيفَ وأنصارُ الخَليفَة كُلّهُمْ ... عُناةٌ وأعداءُ الخَليفَة تُطْلَقُ!

بكَيْتُ ولم أملك دُموعي وَحُقّ لي ... ونَصْرٌ شهابُ الْحَرْبِ في الغلّ موثَقُ

وقال نصر:

بَعَثْتَ بالعِتابِ في غَيْر ذَنْبٍ ... في كتاب تَلومُ أم تميم

إنْ أكُن موثقاً أسيراً لديهمْ | في هُموم وكُربة وَسُهُوم
رهْنَ قَسْرٍ فما وَجَدْتَ بَلاءً | كإسارِ الكِرام عندَ اللئيم
أبلغِ المُدَّعينَ قسراً وقَسْرٌ | أهلُ عود القناةِ ذاتِ الوُصوم
هَلْ فطِمْتُمْ عنِ الخيانَةِ والغدْ | رِ أم أنتمْ كالحاكرِ المُسْتَدِيم؛

وقال الفرزدق:

أخالِدُ لَوْلا اللّهُ لَمْ تعطَ طاعَةً | ولولا بنو مروانَ لمْ توثقُوا نصراً
إذاً لَلقِيْتم دُونَ شَدِّ وِثاقِهِ | بنى الحرْب لاكُشْفَ اللقاءِ ولا ضَجْراً

وخطب أسد بن عبدالله على مِنْبر بلْخ، فقال في خطبته: يا أهلَ بلْخ، لقبتموني الزّاغ والله لأزيغنّ قلوبكم.

فلما تعصّب أسد وأفسد الناس بالعصبية، كتب هشام إلى خالد بن عبدالله: اعزلْ أخاك، فعزله فاستأذن له في الحجّ، فقفل أسد إلى العراق ومعه دهاقين خراسان، في شهر رمضان سنة تسع ومائة، واستخلف أسدٌ على خراسان الحكم بن عوانة الكلبيّ، فأقام الحكم صيفيّة، فلم يغز.

وذكر عليّ بن محمد أنّ أوّل من قدِم خراسان من دعاة بني العباس زياد أبو محمد مولى هَمْدان في ولاية أسد بن عبدالله الأولى، بعثه محمد بن عليّ بن عبدالله بن العباس، وقال له: ادع الناس إلينا وانزِلْ في اليمن، والطف بمُضر. ونهاه عن رجل من أبْرشهر، يقال له غالب؛ لأنه كان مفرطاً في حبّ بني فاطمة.

ويقال: أوّل من جاء أهل خراسان بكتاب محمد بن عليّ حرْب بن عثمان، مولى بني قيس بن ثعلبة من أهل بَلْخ.

قال: فلما قدم زياد أبو محمد، ودعا إلى بني العباس، وذكر سيرة بني مروان وظلمهم، وجعل يُطعم الناس الطعام، فقدم عليه غالب من أبرشهر؛ فكانت بينهم منازعة؛ غالب يفضّل آل أبي طالب وزياد يفضّل بني العباس. ففارقه غالب، وأقام زياد بمَرْو شتوةً، وكان يختلف إليه من أهل مَرْو يحيى بن عقيل الخُزاعيّ وإبراهيم بن الخطاب العدويّ.

قال: وكان ينزل بَرْزَن سويد الكاتب في دور آل الرقاد، وكان على خراج مَرْو الحسن بن شيخ، فبلغه أمرُه، فأخبر به أسد بن عبدالله، فدعا به ـ وكان معه رجل يكنى أبا موسى ـ فلما نظر إليه أسد، قال له: أعرّفك؟ قال: نعم، قال له أسد: رأيتك في حانوت بدمشق، قال: نعم، قال لزياد: فما الذي بلغني عنك؟ قال: رُفع إليك الباطل، إنما قدمت خراسان في تجارة، وقد فرّقت مالي على الناس، فإذا صارَ إليّ خرجت. قال له أسد: اخرج عن بلادي، فانصرف، فعاد إلى أمره، فعاود الحسن أسداً، وعظّم عليه أمره، فأرسل إليه، فلما نظر إليه، قال: ألم أنهك عن المقام بخراسان! قال: ليس عليك أيها الأمير مني بأس، فأحفظه وأمر بقتلهم، فقال أبو موسى: فاقض ما أنْتَ قاض. فازداد غضبا، وقال له: أنزلتَني منزلة فرعون! فقال له: ما أنزلتُك ولكن الله أنزلك. فقتِلوا، وكانوا عشرة من أهل بيت الكوفة، فلم ينجُ منهم يومئذ إلاّ غلامان استصغرهما، وأمر بالباقين فقتلوا بكشانشاه.

وقال قوم: أمر أسد بزياد أن يُخطّ وسطه، فمُدّ بين اثنين، فضرب فنبا السيف عنه، فكبّر أهل السوق، فقال أسد: ما هذا؟ فقيل له، لم يحك السيف فيه فأعطى أبا يعقوب سيفاً، فخرج في سراويل والناس قد اجتمعوا عليه، فضربه، فنبا السيف، فضربة ضربة أخرى، فقطعه باثنتين.

وقال آخرون: عرض عليهم البراءة، فمن تبرّأ منهم مما رفع عليه خلّى سبيله، فأبى البراءة ثمانية منهم، وتبرّأ اثنان.

فلما كان الغد أقبل أحدهما وأسد في مجلسه المشرف على السوق بالمدينة العتيقة، فقال: أليس هذا أسيرنا بالأمس! فأتاه، فقال له: أسألك أن تلحقني بأصحابي، فأشرفوا به على السوق، وهو يقول: رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيًّا؛ فدعا أسد بسيف بُخاراخُداه، فضرب عنقه بيده قبل الأضحى بأربعة أيام، ثم قدم بعدهم رجل من أهل الكوفة يسمّى كثيراً، فنزل على أبي النجم، فكان يأتيه الذين لقوا زياداً فيحدّثهم ويدعوهم، فكان على ذلك سنة أو سنتين، وكان كثير أميًّا، فقدم عليه خدّاش، وهو في قرية تدعى مرعم، فغلب كثيراً على أمره. ويقال: كان اسمه عمارة فسميّ خدّاشاً، لأنه خَدش الدين.

وكان أسد استعمل عيسى بن شداد البُرْجُميّ إمْرته الأولى قد وجه وجّهه على ثابت فطنة، فغضب، فهجا أسداً، فقال:

أَرَى كُـلَّ قَـوْمٍ يَـعْـرِفـونَ أَبـاهُـمُ ... وأَبُـو بَـجِـيلَةَ بَـيْـنَـهُـمْ يَـتَـذَبْـذَبُ
إِنِّـي وجَـدْتُ أَبِي أَبـاكَ فـلا تـكـنْ ... إِلْـبـاً عـليَّ مـعَ الـعَـدُوِّ تُـجَـلِّبُ
أَرْمِي بِسَهْمِي من رمـاكَ بِسَهْمِـهِ ... وعـدُوّ مـن عـادَيتَ غَـيْـرُ مكَـذَّبِ
أَسَـدُ بـن عـبـدِ الـلَّهِ جـلَّلَ عـفْـوُهُ ... أَهـلَ الـذنـوبِ فكَيف من لم يُـذْنِبِ!
أجـعـلتَنِـي لـلبُـرْجُـمِـيِّ حَـقِـيـبَـةً ... والـبُـرْجُمِيّ هـو اللئيمُ الـمُحْـقَبُ
عـبـدٌ إذا اسـتَبـقَ الـكِـرامُ رَأَيـتَـهُ ... يـأتِي سُكَيناً حـامـلاً في الـموكِبِ
إِنِّـي أَعُـوذُ بـقَـبْـرِ كـرز أن أَرَى ... تَـبَعـاً لِعَبْـد مـن تَمـيمٍ مُـحْـقَبِ

وفي هذه السنة استعمل هشام بن عبد الملك على خراسان أشرسَ بن عبدالله السُّلميّ، فذكر عليّ بن محمد، عن أبي الذيّال العدويّ ومحمد بن حمزة، عن طرخان ومحمد بن الصلت الثقفيّ أن هشام بن عبد الملك عزل أسد بن عبدالله عن خراسان، واستعمل أشرس بن عبدالله السُّلميّ عليها، وأمره أن يكاتب خالد بن عبدالله القسريّ ـ وكان أشرس فاضلا خيّراً، وكانوا يسمونه الكامل لفضله عندهم ـ فسار إلى خُراسان، فلما قدمها فرحوا بقدومه، فاستعمل على شُرطته عميرة أبا أمية اليشكريّ ثم عزله وولّى السمط، واستقضى على مرْو أبا المبارك الكنديّ، فلم يكن له عِلم بالقضاء، فاستشار مقاتل بن حيّان، فأشار عليه مقاتل بمحمد بن زيد فاستقضاه، فلم يزل قاضياً حتى عزل أشرس.

وكان أول من اتخذ الرابطة بخراسان واستعمل على الرابطة عبد الملك بن دثار الباهليّ، وتولى أشرس صغير الأمور وكبيرها بنفسه.

قال: وكان أشرس لما قدم خراسان كبّر الناس فرحاً به، فقال رجل:

لَقَـدْ سَمِـعَ الـرَّحْمٰنُ تكْبيـرَ أُمَّـة غـداةَ أتـاهـا مـن سليـم إمـامُهـا
إمـامُ هُـدًى قَـوَّى لهم أمـرَهُمْ بِـهِ وكـانت عجـافـاً مـا تُمِـخُّ عـظامُهـا

وركب حين قدم حماراً، فقال له حيّان النبطيّ: أيها الأمير، إن كنت تريد أن تكون والي خراسان فاركب الخيل، وشدّ حزام فرسك، وألزم السوط خاصرته حتى تقدم النار، وإلاّ فارجع. قال: أرجع إذن، ولا أقتحم النار يا حيّان. ثم أقام وركب الخيل.

قال عليّ: وقال يحيى بن حُضَين: رأيتُ في المنام قبل قدوم أشرس قائلاً يقول: أتاكم الوغْر الصدر، الضّعيف الناهضة، المشئوم الطائر، فانتبهت فزعا ورأيت في الليلة الثانية: أتاكم الوغْر الصدر، الضعيف الناهضة، المشؤوم الطائر، الخائن قومه؛ جغر، ثم قال:

لقـد ضـاعَ جَيشٌ كـانَ جَغـرٌ أُميـرَهُم فَهَـل من تلاف قبـل دَوْس القبَـائِـلِ!
فـإن صُـرِفَـتْ عـنْـهُـم بـه فـلَعـلّهُ وَإلا يكـونـوا من أَحـادِيثِ قـائـلِ

وكان أشرس يلقب جَغْراً بخراسان.

وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن هشام، كذلك حدثني أحمد بن ثابت، عمن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر. وكذلك قال الواقديّ وغيره.

وقال الواقديّ: خطب الناس إبراهيم بن هشام بمنًى في هذه السنة الغد من يوم النحر بعد الظهر. فقال سلوني، فأنا ابن الوحيد، لا تسألون أحداً أعلَم مني. فقام إليه رجل من أهل العراق فسأله عن الأضحية؛ أواجبةٌ هي أم لا؟ فما درى أيّ شيء يقول له! فنزل.

وكان العامل في هذه السنة على المدينة ومكة والطائف إبراهيم بن هشام، وعلى البصرة والكوفة خالد بن عبدالله، وعلى الصلاة بالبصرة أبان بن ضُبارة اليزنيّ، وعلى شُرْطتها بلال بن أبي بُردة، وعلى قضائها ثمامة بن عبدالله الأنصاريّ؛ من قبَل خالد بن عبدالله، وعلى خُراسان أشرس بن عبدالله.

ثم دخلت سنة عشر ومائة
ذكر ما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك غزوة مَسلمة بن عبد الملك التّرك؛ سار إليهم نحو باب اللاّن حتى لقَى خاقان في جموعه، فاقتتلوا قريباً من شهر، وأصابهم مطر شديد، فهزم الله خاقان، فانصرف، فرجع مَسْلمة فسلك على مسجد ذي القرنين.

وفيها غزا - فيما ذُكر - معاوية بن هشام أرضَ الروم، ففتح صَماله.

وفيها غزا الصائفة عُبدالله بن عُقْبة الفِهْريّ. وكان على جيش البحر - فيما ذكر الواقديّ - عبدُ الرحمن بن معاوية بن حُديج.

وفي هذه السنة دعا الأشرس أهلَ الذّمة من أهل سمرْقَنْد ومَن وراء النهر إلى الإسلام، على أن تُوضَع عنهم الجزية، فأجابوا إلى ذلك، فلما أسلموا وضع عليهم الجزية، وطالبهم بها، فنصبوا له الحرب.

ذكر الخبر عمّا كان من أَمْر أَشْرس وأمر أَهل سمرقند ومن وليهم في ذلك

ذكِر أن أشرس قال في عمله بخراسان: ابغوني رجلاً له ورع وفضل أوجّهه إلى مَن وراء النهر، فيدعوهم إلى الإسلام. فأشاروا عليه بأبي الصّيداء صالح بن طريف، مولى بن ضبّة، فقال: لستُ بالماهر بالفارسيّة، فضموا معه الربيع بن عمران التميميّ، فقال أبو الصيداء: أخرج على شريطة أنّ مَن أسلم لم يؤخذ منه الجزية، فإنما خراج خُراسان على رؤوس الرجال، قال أشرس: نعم، قال أبو الصيداء لأصحابه: فإني أخرج فإن لم يف العمال أعنتموني عليهم، قالوا: نعم.

فشخص إلى سَمَرْقند، وعليها الحسن بن أبي العَمَرّطة الكنديّ على حربها وخراجها، فدعا أبو الصيداء أهلَ سمرْقند ومَن حولها إلى الإسلام، على أن تُوضع عنهم الجزية، فسارع الناس، فكتب غوزك إلى أشرس: إنّ الخراج قد انكسر؛ فكتب أشرس إلى ابن أبي العمرّطة: إنّ في الخراج قوّة للمسلمين؛ وقد بلغني أنّ أهل السُّغد وأشباههم لم يُسلموا رغبة، وإنما دخلوا في الإسلام تعوّذا من الجزْية؛ فانظر من اختتن وأقام الفرائض وَحسُن إسلامه، وقرأ سورةً من القرآن، فارفع عنه خراجَه. ثم عزل أشرس ابن أبي العمرّطة عن الخراج، وصيّره إلى هانىء بن هانىء، وضم إليه الأشحيذ، فقال ابنُ أبي العمرّطة لأبي الصيداء: لستُ من الخراج الآن

في شيء، فدونك هانئاً والأشحيذ؛ فقام أبو الصيداء يمنعهم من أخذ الجزية ممن أسلم، فكتب هانىء: إنّ الناس قد أسلموا وبنوا المساجدَ. فجاء دهاقين بُخاري إلى أشرس فقالوا: ممن تأخذ الخراج، وقد صار الناس كلهم عرباً؟ فكتب أشرس إلى هانىء وإلى العمال: خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه منه، فأعادوا الجزْية على مَن أسلم، فامتنعوا؛ واعتزل من أهل السُّغد سبعة آلاف، فنزلوا على سَبْعة فراسخ من سَمَرْقند، وخرج إليهم أبو الصّيداء وربيع بن عمران التميميّ والقاسم الشيبانيّ وأبو فاطمة الأزديّ وبِشر بن جرموز الضبِّيّ وخالد بن عبدالله النحويّ وبشر بن زنبور الأزديّ وعامر بن قشير ـ أبو بشير، الخُجَنديّ، وبيان العنبريّ وإسماعيل بن عُقْبة، لينصروهم.

قال: فعزل أشرسُ ابنَ أبي العمرّطة عن الحرب، واستعمل مكانه المجشّر بن مزاحم السلميّ، وضمّ إليه عُمَيرة بن سعد الشيبانيّ.

قال: فلما قدم المجشّر كتب إلى أبي الصيداء يسأله أن يقدم عليه هو وأصحابُه، فقدم أبو الصيداء وثابت قطنة، فحبسهما، فقال أبو الصيداء: غدرتم ورجعتم عما قلتم! فقال له هانىء: ليس بغدر ما كان فيه حَقْن الدماء. وحمل أبا الصيداء إلى الأشرس، وحبس ثابت قطنة عنده؛ فلما حُمل أبو الصيداء اجتمع أصحابُه وولوا أمرهم أبا فاطمة، ليقاتلوا هانئاً، فقال لهم: كفّوا حتى أكتبَ إلى أشرس فيأتينا رأيُه فنعمل بأمره. فكتبوا إلى أشرس، فكتب أشْرس: ضعوا عليهم الخراج، فرجع أصحاب أبي الصّيدَاء، فضعف أمرهم، فتُتبِّع الرّؤساء منهم فأخِذوا، وحمِلوا إلى مَرْو وبقي ثابت محبوساً، وأشرك أشرس مع هانىء بن هانىء سليمانَ بن أبي السريّ مولى بني عوافة في الخراج، فألحّ هانىء والعمال في جباية الخراج، واستخفّوا بعظماء العجم، وسلّط المجشّر عميرة بن سعد على الدّهاقين، فأقيموا وخُرّقت ثيابهم، وألقِيت مناطقهم في أعناقهم، وأخذوا الجزْية ممن أسلم من الضُعفاء، فكفرت السُّغْد وبُخارى، واستجاشوا الترك، فلم يزل ثابت قطنة في حبس المجشّر، حتى قدم نصر بن سيار والياً على المجشّر، فحمل ثابتاً إلى أشرس مع إبراهيم بن عبدالله الليثيّ فحبسه. وكان نصر بن سيَّار ألطفه، وأحسن إليه، فمدحه قُطْنة، وهو محبوس عند أشرس فقال:

ما هاجَ شوقك من نوى وأحجارِ ... ومنْ رُسُومٍ عفاها صوبُ أمطارِ!
لم يَبقَ منها وَمِنْ أعلام عَرْصتِها ... إلا شَجيج وإلّا موقَدُ النارِ
ومائِلٌ في ديار الحَيّ بعدَهُمُ ... مثلُ الرّبيئة في أهدامِهِ العاري
دِيارُ ليلَى قِفارٌ لا أنيسَ بها ... دون الْجَحُونِ وأينَ الحجن مِنْ دَارِي!
بُدِّلتْ منها وقد شطَّ المَزارُ بها ... وَادِي المخافة لا يَسْري بها الساري
بَيْنَ السَّماوة في حَزمٍ مُشَرَّقةٍ ... ومُعْنقٌ دوننا آذيُّهُ جار
نُقارعُ الترك ما تنفكُّ نائحةٌ ... مِنَّا وَمِنهُم على ذي نَجْدةٍ شار
إن كانَ ظني بنصْر صادِقاً أبَداً ... فيما أُدبِّرُ مِنْ نَقْضي وَإمرارِي
يَصْرِفُ الجُنْدَ حتى يَسْتَفِيءَ بهم ... نهْباً عظِيماً وَيحْوي مُلكَ جبَّار
وتَعثُرُ الخَيْلُ في الأقيادِ آونَةً ... تحْوي النِّهابَ إلى طُلَّابِ أوتار
حتى يَرَوْها دُوَيْنَ السَّرْحِ بارِقَةً ... فيها لواءٌ كَظِلِّ الأجدَلِ الضاري

لا يَـمْنَـعُ الـثَّغْـرَ إلا ذُو مُـحـافَـظةٍ ... مِنَ الـخَـضـارِمِ سبّـاقٍ بـأوتـارِ
إني وإن كُنْت مِن جَذْمِ الذي نَضُرتْ ... منْهُ الفروعُ وَزَنْـدِي الثاقِبُ الـوارِي
لـذاكِرٌ مِنْـكَ أمراً قَـدْ سَبَقْتَ بِـهِ ... من كـان قَبْلَكَ يـا نَصْـرَ بـن سَيَّـار
نـاضَلْتَ عَنِّي نِضالَ الحُرِّ إذْ قَصُرَتْ ... دوني العَشِيـرَةُ واسْتَبطَأْتُ أنصـارِي
وصـارَ كُـلُّ صَـدِيـقٍ كُنْـتُ آمُـلُهُ ... ألبـاً عَلَيّ وَرَثَّ الْحَبْـلُ من جـارِي
ومَـا تَلَبَّسْتُ بـالأَمْـرِ الـذي وَقَعُـوا ... بِـهِ عـليَّ وَلا دَنَّـسْـتُ أطـمـارِي
ولا عَصَيْتُ إمـامـاً كـان طـاعَتُـهُ ... حَقّـا عـليَّ ولا قَـارفْـتُ مـن عـار

قال عليّ: وخرج أشْرس غازياً فنزل آمُل، فأقام ثلاثة أشهر، وقدّم قطَن بن قُتَيبة بن مسلم فعبر النهر في عشرة آلاف، فأقبل أهلُ السُّغْد وأهلُ بُخارى؛ معهم خاقان والترك، فحصروا قطَن بن قتيبة في خَنْدقـه، وجعل خاقان ينتخِب كلّ يوم فارساً، فيعبرُ في قطعة من الترك النهر. وقال قوم: أقحموا دوابَّهم عُرْياً، فعبروا وأغاروا على سرْح الناس، فأخرج أشرس ثابت قُطْنة بكفالة عبدالله بن بِسْطام بن مسعود بن عمرو، فوجّهه مع عبدالله بن بِسطام في الخيل فاتبعوا الترك، فقاتلوهم بآمُل حتى استنقذوا ما بأيديهم؛ ثم قطع الترك النهر إليهم راجعين، ثم عبر أشرس بالناس إلى قطن بن قتيبة، ووجّه أشرس رجلاً يقال له مسعود ـ أحد بني حَيّان ـ في سريّة، فلقيهم العدوّ، فقاتلوهم، فأصيب رجال من المسلمين وهزِم مسعود؛ حتى رجع إلى أشرس، فقال بعض شعرائهم:

خـابَتْ سَـرِيَّـة مَسْعُـودٍ ومـا غنِمَتْ ... إلا أَفـانِـينَ مِـن شَـدٍّ وتَـقْـريـبِ
حَـلُّوا بـأَرضٍ قِفَـارٍ لا أَنِيسَ بـهـا ... وَهُنَّ بـالسَّفْـحِ أمثـالُ اليعـاسيبِ

وأقبل العدوّ، فلما كانوا بالقرب لقيَهم المسلمون فقاتلوهم، فجالوا جَوْلة، فقتِل في تلك الجوْلة رجال من المسلمين، ثم كرّ المسلمون وصبروا لهم، فانهزم المشركون. ومضى أشرس بالناس؛ حتى نزل بِيكَنْد، فقطع العدوّ عنهم الماء فأقام أشرس والمسلمون في عسكرهم يومَهم ذلك وليلتَهم، فـأصبحوا وقـد نفَد مـاؤهم، فاحتفروا فلم يُنبطوا، وعطشوا فارتحلوا إلى المدينة التي قطعوا عنهم المِياه منها، وعلى مقدّمة المسلمين قطن بن قُتيبة ، فلقيَهم العدوّ فقاتلوهم، فجهدوا من العطش، فمات منهم سبعمائة، وعجز الناس عن القتال، ولم يبقَ في صفّ الرّباب إلا سبعة، فكاد ضِرار بن حصين يؤسَرُ من الجهد الذي كان به، فحضّ الحارث بن سُريج الناس، فقال: أيها الناس، القتل بالسيْف أكرم في الدنيا وأعظم أجراً عند الله من الموت عطشاً. فتقدّم الحارث بن سُريج وقَطَن بن قُتيبة وإسحاق بن محمد، ابن أخي وكيع، في فوارس من بني تميم وقيس، فقاتلوا حتى أزالوا الترك عن الماء، فابتدره الناس فشربوا وارتووا.

قال: فمرّ ثابت قُطْنة بعبد الملك بن دثار الباهليّ، فقال له: يا عبد الملك، هل لك في آثار الجهاد؟ فقال: أنظرْني ريثما أغتسل وأتحنّط، فوقف له حتى خرج ومضيا، فقال ثابت لأصحابه: أنا أعلم بقتال هؤلاء منكم، وحضّهم، فحملوا على العدوّ، واشتدّ القتال، فقُتِل ثابت في عدّة من المسلمين؛ منهم صخر بن مسلم بن النعمان العبديّ وعبد الملك بن دثار الباهليّ والوجيه الخُراسانيّ والعقّار بن عقبة العوديّ. فضمّ قطن بن قتيبة وإسحاق بن محمد بن حسان خيلاً من بني تميم وقيس؛ وتبايعوا على الموت، فأقدموا على العدوّ، فقاتلوهم

فكشفوهم؛ وركبهم المسلمون يقتلونهم؛ حتى حجزهم الليل، وتفرّق العدوّ. فأتى أشرس بُخارى فحصر أهلها.

قال عليّ بن محمد، عن عبدالله بن المبارك: حدّثني هشام بن عُمارة بن القعقاع الضبيّ عن فُضيل بن غَزْوان، قال: حدّثني وجيه البُنانيّ ونحن نطوف بالبيت، قال: لقِيَنا الترك، فقتلوا منّا قوماً، وصُرعتُ وأنا أنظر إليهم، يجلسون فيستقُون حتى انتهوا إليّ، فقال رجل منهم: دعوه فإن له أثراً هو واطئه، وأجلاً هو بالغه؛ فهذا أثر قد وطئته، وأنا أرجو الشهادة. فرجع إلى خراسان؛ فاستشهد مع ثابت.

قال: فقال الوازع بن مائق: مرّ بي الوجيه في بغلين يوم أشرس، فقلت: كيف أصبحت يا أبا أسماء؟ أصبحتُ بين حائر وحائز؛ اللهمّ لفّ بين الصفين؛ فخالط القوم وهو متنكّب قوسه وسيفه، مشتمل في طَيْلسان واستُشهد الهيثم بن المنخّل العبديّ.

قال عليّ، عن عبدالله بن المبارك، قال: لما التقى أشرس والترك، قال ثابت قُطْنة: اللهمّ إنيّ كنت ضيف ابن بِسطام البارحة، فاجعلني ضيفَك الليلة؛ والله لا ينظر إليّ بنو أمية مشدوداً في الحديد؛ فحمل وحمل أصحابُه، فكذب أصحابُه وثبت؛ فرُمِيَ بِرْذونه فشبّ، وضربه فأقدم، وضُرب فارتُثّ، فقال وهو صريع: اللهمّ إني أصبحتُ ضيفاً لابن بسطام، وأمسيت ضيفك؛ فاجعل قِرايَ من ثوابك الجنة.

قال عليّ: ويقال إنّ أشْرس قطع النهر، ونزل بِيكنْد؛ فلم يجد بها ماء؛ فلما أصبحوا ارتحلوا، فلما دنوْا من قصر بُخاراخداه ـ وكان منزله منهم على ميل ـ تلقّاهم ألفُ فارس، فأحاطوا بالعسكر وسطع رَهج الغُبار، فلم يكن الرّجل يقدر أن ينظر إلى صاحبه. قال: فانقطع منهم ستة آلاف، فيهم قطن بن قتيبة وغَوْزك من الدّهاقين، فانتهوا إلى قصر من قصور بُخارى، وهم يروْن أنّ أشرس قد هلك، وأشرس في قصور بخارى؛ فلم يلتقوا إلا بعد يومين، ولحق غوزك في تلك الوقعة بالترك، وكان قد دخل القصر مع قَطن، فأرسل إليه قَطن رجلا، فصاحوا برسول قطن؛ ولحق بالترك.

قال: ويقال إن غوزك وقع يومئذ وسط خيل، فلم يجد بدًّا من اللحاق بهم. ويقال إنّ أشرس أرسل إلى غَوْزك يطلب منه طاساً، فقال لرسول أشرس: إنه لم يبقَ معي شيء أتدهن به غير الطاس، فاصفَحْ عنه. فأرسل إليه: اشرب في قَرْعة، وابعثْ إليّ بالطاس، ففارقه.

قال: وكان على سَمَرْقَند نصر بن سيار، وعلى خراجها عُميرة بن سعد الشيبانيّ، وهم محصورون، وكان عميرة ممّن قدم مع أشرس، وأقبل قُريش ابن أبي كهْمَس على فرس، فقال لقَطَن: قد نزل الأمير والناس؛ فلم يُفْقَد أحد من الجند غيرك، فمضى قطن والناس إلى العسكر؛ وكان بينهم ميل.

قال: ويقال إنّ أشرس نزل قريباً من مدينة بُخارى على قدْر فرسخ؛ وذلك المنزل يقال له المسجد؛ ثم تحول منه إلى مَرْج يقال له بوادرة، فأتاهم سبابة ـ أو شبابة ـ مولى قيس بن عبدالله الباهليّ؛ وهم نزول بكَمَرْجة ـ وكانت كَمَرْجَة من أشرف أيام خراسان وأعظمها أيام أشرس في ولايته ـ فقال لهم: إن خاقان مارٌّ بكم غداً، فأرى لكم أن تُظهِروا عُدّتكم، فيرى جِدًّا واحتشاداً، فينقطع طعمه منكم. فقال له رجل منهم: استوثقوا من هذا فإنه جاء ليَفتّ في أعضادكم، قالوا: لا نفعل، هذا مولانا وقد عرفناه بالنصيحة، فلم يقبلوا منه، وفعلوا ما

أمرهم به المَوْلى، وصبّحهم خاقان، فلما حاذَى بهم ارتفع إلى طريق بُخارى كأنه يريدها؛ فتحدّر بجنوده من وراء تلّ بينهم وبينه، فنزلوا وتأهبوا وهم لا يشعرون بهم، فلما كان ذلك ما فاجأهم أن طلعوا على التلّ، فإذا جبل حديد: أهل فَرْغانة والطارَبَنْد وأفشِينة ونَسَف وطوائف، من أهل بخارى. قال: فأسقِط في أيدي القوم، فقال لهم كليب بن قَنَان الذهليّ: هم يريدون مزاحفَتكم فسرّبُوا دوابكم المجفَّفة في طريق النهر، كأنكم تريدون أن تسقوها، فإذا جرّدتموها فخذوا طريقَ الباب، وتسرّبوا الأوّل فالأوّل؛ فلما رآهم الترك يتسرّبون شدُّوا عليهم في مضايق؛ وكانوا هم أعلَم بالطريق من الترك، وسبقوهم إلى الباب فلحقوهم عنده، فقتلوا رجلاً كان يقال له المهلب، كان حاميتهم، وهو رجل من العرب، فقاتلوهم فغلبوهم على الباب الخارج من الخندق، فدخلوه، فاقتتلوا، وجاء رجلٌ من العرب بحُزمةِ قصب قد أشعلها، فرمى بها وُجوههم فتنحّوْا، وأخلَوْا عن قتلى وجرحى، فلما أمسوا انصرف الترك، وأحرق العربُ القنطرة، فأتاهم خُسرَو بن يَزْدَجِرْد في ثلاثين رجلاً، فقال: يا معشَر العرب، لم تقتلون أنفسكم وأنا الذي جئت بخاقان ليرد عليّ مملكتي، وأنا آخذ لكم الأمان! فشتموه، فانصرف.

قال: وجاءهم بازغري في مائتين ـ وكان داهية ـ من وراء النهر، وكان خاقان لا يخالفه، ومعه رجلان من قرابة خاقان، ومعه أفراس من رابطة أشرس، فقال: آمِنونا حتى ندنُوَ منكم، فأعرِض عليكم ما أرسلني إليكم به خاقان. فآمنوه، فدنا من المدينة، وأشرفوا عليه ومعه أسَراء من العرب، فقال بازغري: يا معشرَ العرب، أحدِروا إليّ رجلا منكم أكلمه برسالة خاقان، فأحدروا حبيباً مولى مَهرة من أهل درقين، فكلموه فلم يفهم، فقال: أحدِروا إليّ رجلا يعقل عني، فأحدروا يزيد بن سعيد الباهليّ، وكان يشدُو شدواً من التركية، فقال: هذه خيل الرابطة ووجوه العرب معه أسراء. وقال: إن خاقان أرسلني إليكم؛ وهو يقول لكم: إني أجعل مَنْ كان عطاؤه منكم ستمائة ألفاً، ومَن كان عطاؤه ثلاثمائة ستمائة؛ وهو مجمع بعد هذا على الإحسان إليكم، فقال له يزيد: هذا أمر لا يلتئم؛ كيف يكون العرب وهم ذئاب مع الترك وهم شاءٌ! لا يكون بيننا وبينكم صلح. فغضب بازغري، فقال التركيان اللذان معه: ألا نضرب عنقه؟ قال: لا، نزل إلينا بأمان. وفهم ما قالا له يزيد، فخاف فقال: بلى يا بازغري إلّا أن تجعلونا نصفين، فيكون نصفٌ في أثقالنا ويسير النِّصف معه؛ فإن ظفر خاقان فنحن معه؛ وإن كان غير ذلك كنا كسائر مدائن أهل السُّغد. فرضي بازغرى والتركيان بما قال، فقال له: أعرض على القوم ما تراضيْنا به، وأقبل فأخذ بطرَف الحبْل فجذبوه حتى صار على سُور المدينة، فنادى: يا أهل كَمَرْجَة، اجتمعوا، فقد جاءكم قوم يدعونكم إلى الكفر بعد الإيمان، فما ترون؟ قالوا: لا نجيب ولا نرضى، قال: يدعونكم إلى قتال المسلمين مع المشركين، قالوا: نموت جميعاً قبل ذلك. قال: فأعلموهم.

قال: فأشرفوا عليهم، وقالوا: يا بازغرى، أتبيع الأسرى في أيديكم فنفادي بهم؟ فأما ما دعوتَنا إليه فلا نجيبكم إليه، قال لهم: أفلا تشترون أنفسكم منا؟ فما أنتم عندنا إلّا بمنزلة مَن في أيدينا منكم ـ وكان في أيديهم الحاج بن حُميد النضريّ ـ فقالوا له: يا حجاج، ألا تَكلَّم؟ قال: عليّ رقباءُ، وأمر خاقان بقطْع الشجر، فجعلوا يلقُون الحطب الرّطب، ويلقي أهل كَمَرْجة الحطَب اليابس، حتى سوّى الخندق، ليقطعوا إليهم، فأشعلوا فيه النيران، فهاجت ريحٌ شديدة ـ صُنْعا من الله عزّ وجلّ ـ قال: فاشتعلت النار في الحطب، فاحترق ما عمِلوا في ستة أيام في ساعة من نهار، ورميناهم فأوجعناهم وشغلناهم بالجراحات. قال: وأصابتْ بازغرى نُشابة في سرّته، فاحتقن بوله، فمات من ليلته، فقطع أتراكه آذانَهم، وأصبحوا بشر، منكّسين رءوسهم يبكونه، ودخل

عليهم أمر عظيم. فلما امتدّ النهار جاءوا بالأسْرى وهم مائة؛ فيهم أبو العُوجاء العتَكيّ وأصحابه، فقتلوهم، ورمْوا إليهم برأس الحجاج بن حُميد النضريّ. وكان مع المسلمين مائتان من أولاد المشركين كانوا رهائن في أيديهم، فقتلوهم واستماتوا، واشتدّ القتال، وقاموا على باب الخندق فسار على السور خمسة أعلام، فقال كليب: مَنْ لي بهؤلاء؟ فقال ظهير بن مقاتل الطُّفاويّ: أنا لك بهم؛ فذهب يسعى. وقال لفتيان: امشوا خلْفِي، وهو جريح، قال: فقتل يومئذ من الأعلام اثنان، ونجا ثلاثة. قال: فقال ملك من الملوك لمحمد بن وساج: العجَب أنه لم يبقَ مِلك فيما وراء النهر إلّا قاتل بكَمَرْجة غيري، وعزّ عليّ ألا أقاتل مع أكفائي ولم يُرَ مكاني. فلم يزل أهلُ كَمَرْجة بذلك؛ حتى أقبلت جنود العرب، فنزلت فَرْغانة. فعيّر خاقانُ أهلَ السُّغد وفرغانة والشاش والدهاقين، وقال لهم: زعمتم أن في هذه خمسين حماراً، وأنّا نفتحها في خمسة أيام؛ فصارت الخمسة الأيام شهريْن. وشتمهم وأمرهم بالرحلة. فقالوا: ما ندع جُهداً، ولكن أحضرنا غداً فانظر؛ فلما كان من الغد جاء خاقان فوقف، فقام إليه ملك الطارَبَنْد؛ فاستأذنه في القِتال والدّخول عليهم، قال: لا أرى أن تقاتل في هذا الموضع ـ وكان خاقان يعظّمه ـ فقال: اجعل لي جاريتيْن من جواري العرب، وأنا أخرج عليهم؛ فأذن له، فقاتل فقتِل منهم ثمانية، وجاء حتى وقف على ثُلْمة وإلى جنب الثلمة بيت فيه خَرْق يفضِي إلى الثلْمة، وفي البيت رجلٌ من بني تميم مريض، فرماه بكَلُّوب فتعلق بدرعه، ثم نادى النساء والصبيان، فجذبوه فسقط لوجهه وركبته؛ ورماه رجلٌ بحجَر؛ فأصاب أصلَ أذنه فصُرِع، وطعنه رجل فقتله. وجاء شابٌّ أمرد من الترك، فقتله وأخذ سلبه وسيفه، فغلبناهم على جسده ـ قال: ويقال: إنّ الذي انتدب لهذا فارس أهل الشاش ـ فكانوا قد اتخذوا صُناعًا، وألقوها بحائط الخندق، فنصبوا قبالة ما اتخذوا أبواباً له؛ فأقعدوا الرُّماة وراءها؛ وفيهم غالب بن المهاجر الطائيّ عمّ أبي العباس الطوسيّ ورجلان، أحدُهما شيبانيّ والآخر ناجيّ، فجاء فاطلع في الخندق، فرماه الناجيّ فلم يخطىء قَصبةَ أنفه، وعليه كاشخودة تبّتيّه، فلم تضرّه الرمية، ورماه الشيبانيّ وليس يرى منه غير عينيه؛ فرماه غالب بن المهاجر، فدخلت النشابة في صدره، فنكس فلم يدخل خاقانَ شيَءٌ أشدّ منه.

قال: فيقال: إنه إنما قتل الحجاج وأصحابه يومئذ لما دخله من الجَزع، وأرسل إلى المسلمين أنه ليس مِنْ رأينا أن نرتحل عن مدينة ننزلها دون افتتاحها، أو ترحُّلهم عنها. فقال له كليب بن قَنّان: وليس من ديننا أن نعطي بأيدينا حتى نُقْتَل، فاصنعوا ما بدا لكم؛ فرأى الترك أن مقامهم عليهم ضرر، فأعطوهم الأمان على أن يرحل هو وهم عنهم بأهاليهم وأموالهم إلى سَمَرْقند أو الدَّبُوسيَة، فقال لهم: اختاروا لأنفسكم في خُروجكم مِن هذه المدينة.

قال: ورأى أهل كَمَرْجة ما هم فيه من الحِصار والشدّة، فقالوا: نشاور أهل سَمَرْقند، فبعثوا غالب بن المهاجر الطائيّ، فانحدر في موضع من الوادي، فمضى إلى قصر يسمى فرزاونة، والدهقان الذي بها صديق له، فقال له: إنّي بُعِثت إلى سَمَرْقند؛ فاحمِلْني، فقال: ما أجد دابة إلا بعض دوابّ خاقان، فإن له في روضة خمسين دابة؛ فخرجا جميعاً إلى تلك الرَّوْضة، فأخذ برذونا فركبه، وكان إلْفه برْذون آخر، فتبعه فأتى سَمَرْقند من ليلته، فأخبرهم بأمرهم، فأشاروا عليه بالدَّبُوسيَة، وقالوا: هي أقرب، فرجع إلى أصحابه، فأخذوا من الترك رهائن ألّا يعرِضوا لهم، وسألوهم رجلا من الترك يتقوَّوْن به مع رجال منهم، فقال لهم الترك: اختاروا مَنْ شئتم، فاختاروا كورصول يكون معهم، فكان معهم حتى وصلوا إلى حَيْث أرادوا. ويقال: إن خاقان لما رأى أنه لا

يصل إليهم شتم أصحابَه، وأمرهم بالارتحال عنهم؛ وكلمه المختار بن غوزك وملوك السُّغد وقالوا: لا تفعل أيها الملك؛ ولكن أعطِهم أماناً يخرجون عنها، ويروْن أنك إنما فعلت ذلك بهم من أجل غوزك أنه مع العرب في طاعتها، وأن ابنه المختار طلب إليك في ذلك مخافة على أبيه؛ فأجابهم إلى ذلك، فسرّح إليهم كورصول يكون معهم، يمنعهم ممن أرادهم.

قال: فصار الرّهن من الترك في أيديهم، وارتحل خاقان، وأظهر أنه يريد سَمَرْقند ـ وكان الرّهن الذي في أيديهم من ملوكهم ـ فلما ارتحل خاقان ـ قال كورصول للعرب: ارتحلوا، قالوا: نكره أن نرتحل والترك لم يمضوا، ولا نأمنهم أن يعرضوا لبعض النساء فتحمى العرب فنصير إلى مثل ما كنا فيه من الحرب.

قال: فكفّ عنهم؛ حتى مضى خاقان والترك، فلما صلوا الظهر أمرهم كورصول بالرحلة، وقال: إنما الشدّة والموت والخوف حتى تسيروا فرسخْين، ثم تصيروا إلى قرى متصلة؛ فارتحلوا وفي يد الترك من الرّهن من العرب نفر، منهم شعيب البكريّ أو النصريّ، وسِبَاع بن النعمان وسعيد بن عطية، وفي أيدي العرب من الترك خمسة، قد أردفوا خَلْف كلّ رجل من الترك رجلا من العرب معه خنجر، وليس على التركيّ غير قَباء، فساروا بهم.

ثم قال العجم لكورصول: إنّ الدبُوسيّة فيها عشرة آلاف مقاتل؛ فلا نأمن أن يخرجوا علينا، فقال لهم العرب: إن قاتلوكم قاتلناهم معكم. فساروا، فلما صار بينهم وبين الدّبُوسيّة قدر فرسخ أو أقلّ نظر أهلها إلى فرسان وبياذقة وجمْع. فظنوا أن كَمَرْجة قد فُتحت، وأنّ خاقان قصد لهم. قال: وقربنا منهم وقد تأهّبوا للحرب؛ فوجّه كليب بن قَنان رجلاً من بني ناجية يقال له الضّحاك على بِرذْون يركض، وعلى الدبُوسيّة عَقيل بن ورّاد السّغديّ، فأتاهم الضّحاك وهم صفوف؛ فرسان ورجّالة، فأخبرهم الخبر، فأقبل أهل الدبُوسيّة يركُضون، فحمِل مَن كان يضعف عن المشي ومَنْ كان مجروحاً.

ثمّ إن كليباً أرسل إلى محمد بن كرّاز ومحمد بن دِرْهَم ليعلِما سِباع بن النعمان وسعيد بن عطية أنهم قد بلغوا مأمنهم، ثم خلّوا عن الرّهن؛ فجعلت العرب ترسل رجلاً من الرّهن الذين في أيديهم من الترك، وترسل الترك رجلا من الرّهن الذين في أيديهم من العرب؛ حتى بقيَ سِبَاع بن النعمان في أيدي الترك، ورجل من الترك في أيدي العرب، وجعل كلّ فريق منهم يخاف على صاحبه الغَدْر، فقال سِبَاع: خلّوا رهينة الترك، فخلّوه وبقي سِباع في أيديهم، فقال له كورصول: لِمَ فعلت هذا؟ قال: وثقتُ برأيك فيّ، وقلت: ترفَعُ نفسك عن الغدْر في مثل هذا؛ فوصله وسلّحه وحمله على برْذون، ورده إلى أصحابه.

قال: وكان حصار كَمَرْجة ثمانية وخمسين يوماً، فيقال إنهم لم يسقوا إبلَهم خمسة وثلاثين يوماً.

قال: وكان خاقان قسَم في أصحابه الغنم، فقال: كُلُوا لحومها واملؤوا جلودها تراباً، واكبسوا خندقَكم؛ ففعلوا فكبسوه، فبعث الله عليهم سحابة فمطرت، فاحتمل المطر ما ألقوا، فألقاه في النهر الأعظم.

وكان مع أهل كَمَرْجة قومٌ من الخوارج، فيهم ابن شُنْجٍ مولى بني ناجية.

وفي هذه السنة ارتدّ أهل كُرْدر، فقاتلهم المسلمون وظفروا بهم؛ وقد كان الترك أعانوا أهل كُرْدَر؛ فوجّه أشرس إلى مَنْ قرب من كُرْدَر من المسلمين ألف رجل ردْءاً لهم؛ فصاروا إليهم، وقد هزم المسلمون الترك،

فظفِروا بأهل كردر. وقال عَرْفَجة الدارميّ:

نحْن كَفَينا أَهْلَ مروٍ وغَيْرَهُمْ ... ونحنُ نَفَيْنا التُّرْك عن أَهْل كُرْدَرِ
فإن تجعَلوا ما قد غَنِمْنَا لِغَيْرنا ... فَقَدْ يُظلمُ المَرءُ الكَريمُ فيَصْبر

وفي هذه السنة جعل خالد بن عبدالله الصّلاة بالبصرة مع الشّرْطة؛ والأحداث والقضاء إلى بلال بن أبي بُردة؛ فجمع ذلك كلّه له، وعزل به ثُمامة بن عبدالله بن أنس عن القضاء.

وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن هشام بن إسماعيل؛ كذلك قال أبو معشر والواقديّ وغيرهما؛ حدّثني بذلك أحمد بن ثابت عمن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر.

وكان العامل في هذه السنة على المدينة ومكة والطائف إبراهيم بن هِشام، وعلى الكوفة والبصرة والعراق كلها خالد بن عبدالله، وعلى خُراسان أشرس بن عبدالله.

ثم دخلت سنة إحدى عشرة ومائة
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك غزوة معاوية بن هشام الصّائفة اليسرَى وغزوة سعيد بن هشام الصائفة اليمنى حتى أتى قيساريّة.

قال الواقديّ: غزا سنة إحدى عشرة ومائة على جيش البحر عبد الله بن أبي مريم، وأمّر هشام على عامّة الناس من أهل الشأم ومصر الحكَمَ بن قيس بن مخرَمة بن المطلب بن عبد مناف.

وفيها سارت الترك إلى أذْربيجان، فلقيهم الحارث بن عمرو فهزمهم.

وفيها ولىّ هشام الجرّاحَ بن عبد الله الحكَمي على أرمينيَة.

وفيها عزل هشام أشرَس بن عبد الله السُّلميّ عن خُراسان، وولاها الجُنيدَ ابن عبد الرحمن المرّيّ.

ذكر السبب الذي من أجله عزل هشام أشرس عن خراسان واستعماله الجنيد

ذكر عليّ بن محمد، عن أبي الذيّال، قال: كان سببُ عزل أشرس أنّ شدّاد بن خالد الباهليّ شخص إلى هشام فشكاه، فعزله واستعمل الجُنَيْد بن عبد الرحمن على خراسان سنة إحدى عشرة ومائة.

قال: وكان سبب استعماله إيّاه أنه أهدى لأمّ حكيم بنت يحيى بن الحكم امرأة هشام قلادة فيها جوهر، فأعجبت هشاماً، فأهدى لهشام قلادة أخرى، فاستعمله على خراسان، وحمله على ثمانية من البريد؛ فسأله أكثرَ من تلك الدوابّ فلم يفعل؛ فقدم خراسان في خمسمائة - وأشرسُ بن عبد الله يقاتل أهلَ بخارى والسُّغْد - فسأل عن رجل يسير معه إلى ما وراء النهر، فدُلّ على الخَطاب بن محرز السلَميّ خليفة أشرس، فلما قدم آمُل أشار عليه الخطاب أن يقيم ويكتب إلى من بزَمّ ومن حوله؛ فيقدَموا عليه، فأبى وقطع النهر، وأرسل إلى أشرس أن أمِدّني بخيل، وخاف أن يقتطع قبل أن يصل إليه، فوجّه إليه أشرس عامرَ بن مالك الحِمّانيّ، فلما كان في بعض الطريق عرض له الترك والسُّغد ليقطعوه قبل أن يصل إلى الجُنيد، فدخل عامر حائطاً حصيناً، فقاتلهم على ثُلْمة الحائط، ومعه وَرْد بن زياد بن أدهم بن كلثوم؛ ابن أخي الأسود بن كلثوم؛ فرماه رجل من العدوّ بنُشّابة، فأصاب عَرْض منخره، فأنفذ المنخرين، فقال له عامر بن مالك: يا أبا الزاهريّة؛ كأنك دجاجة مقرّق. وقتِل عظيم من عظماء الترك عند الثلمة، وخاقان على تلّ خلفه أجَمَةٌ، فخرج عاصم بن عمير

السَّمَرقنديّ وواصل بن عمرو القيسيّ في شَاكرّية، فاستدارا حتى صارا من وراء ذلك الماء، فضمّوا خشباً وقَصَباً وما قدروا عليه، حتى اتّخذوا رَصَفاً، فعبَروا عليه فلم يشعر خاقان إلا بالتكبير، وحمل واصل والشاكريّة على العدوّ فقاتلوهم؛ فقُتِل تحت واصل برذون، وهُزم خاقان وأصحابه.

وخرج عامر بن مالك من الحائط، ومضى إلى الجُنيد وهو في سبعَة آلاف؛ فتلقى الجنيد وأقبل معه، وعلى مقدّمة الجنيد عُمارة بن حُرَيم. فلما انتهى إلى فرسخين من بيكَنْد، تلقته خيل الترك فقاتلهم؛ فكاد الجنيد أن يهلك ومن معه، ثم أظهر الله؛ فسار حتى قدم العسكر. وظفر الجنيد، وقتل الترك، وزحف إليه خاقان فالتقوا دون زَرْمان من بلاد سَمَرْقند؛ وقطَن بن قتيبة على ساقة الجنيد، وواصل في أهل بخاري ـ وكان ينزلها ـ فأسر ملك الشاش، وأسرَ الجُنَيد من الترك ابن أخي خاقان في هذه الغزاة؛ فبعث به إلى الخليفة، وكان الجنيد استخلف في غزاته هذه مجشِّر بن مزاحم على مَرْو، وولّى سورة بن الحُرّ من بني أبان بن دارم بلْخ، وأوفد لما أصاب في وجهه ذلك عُمارة بن معاوية العدويّ ومحمد بن الجرّاح العبديّ وعبد ربّه بن أبي صالح السُّلميّ إلى هشام بن عبد الملك ثم انصرفوا؛ فتواقفوا بالتِّرمذ، فأقاموا بها شهرين.

ثم أتى الجُنيد مَرْو وقد ظفر، فقال خاقان: هذا غلام مترَف، هَزَمني العامَ وأنا مهلكه في قابل؛ فاستعمل الجنيد عُمّاله، ولم يستعمل إلا مُضَرِيّاً؛ استعمل قَطن بن قتيبة على بُخارى، والوليد بن القعقاع العبسيّ على هَراة، وحبيب بن مرّة العبسيّ على شرَطه، وعلى بلْخ مسلم بن عبد الرحمن الباهليّ. وكان نصر بن سيار على بلْخ؛ والذي بينه وبين الباهليّين متباعد لما كان بينهم بالبَرُوقان، فأرسل مسلم إلى نصر فصادفوه نائماً، فجاؤوا به في قميص ليس عليه سَراويل، فأرسل مسلم إلى نصر فصادفوه نائماً، فجاؤوا به في قميص ليس عليه سَراويل، ملبِّباً، فجعل يضمّ عليه قميصَيْه، فاستحيا مسلم، وقال: شيخ من مُضَر جئتم به على هذه الحال! ثم عزل الجُنيد مسلماً عن بَلْخ، وولاّها يحيى بن ضُبَيعة، واستعمل على خراج سَمرْقند شداد بن خالد الباهليّ، وكان مع الجنيد السّمْهريّ بن قَعْنب.

وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن هشام المخزوميّ؛ وكان إليه من العمل في هذه السنة ما كان إليه في السنة التي قبلها؛ وقد ذكرت ذلك قبل.

وكان العامل على العراق خالد بن عبد الله، وعلى خراسان الجُنيد بن عبد الرحمن.

ثم دخلت سنة اثنتي عشرة ومائة
ذكر ما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك غزوة معاوية بن هشام الصائفةَ فافتتح خَرْشَنة، وحرق فرنديّة من ناحية مَلَطْيَة.

وفيها سار الترك من اللّان، لقيهم الجرّاح بن عبد الله الحكَميّ فيمن معه من أهل الشأم وأذْرَبِيجان، فلم يتنامّ إليه جيشُه؛ فاستُشهد الجرّاح ومن كان معه بمرج أردبيل؛ وافتتحت الترك أردبيل؛ وقد كان استخلف أخاه الحجاج بن عبد الله على أرمينية.

ذكر محمد بن عمر أنّ الترك قتلت الجراح بن عبد الله ببَلَنْجَر، وأن هشاماً لما بلغه خبرُه دعا سعيد بن عمرو الحَرَشيّ، فقال له: إنه بلغني أن الجرّاح قد انحاز عن المشركين، قال: كلّا يا أمير المؤمنين، الجرّاح أعرف بالله من أن ينحاز عن العدوّ، ولكنه قُتِل، قال: فما الرأي؟ قال: تبعثني على أربعين دابة من دوابّ البريد؛ ثم تبعث إليّ كلّ يوم أربعين دابّة عليها أربعون رجلاً، ثم اكتب إلى أمراء الأجناد يولفونني. ففعل ذلك هشام.

فذُكر أن سعيد بن عمرو أصاب للترك ثلاثةَ جموع وفوداً إلى خاقان بمَنْ أَسَروا من المسلمين وأهل الذّمة، فاستنقذ الحَرَشيّ ما أصابوا وأكثروا القتل فيهم.

وذكر عليّ بن محمد أنّ الجنيد بن عبد الرحمن قال في بعض ليالي حربه التّرك بالشِّعب: ليلةٌ كليلة الجراح ويومٌ كيومه؛ فقيل له: أصلحك الله! إنّ الجرّاح سِيرَ إليه فقتِل أهل الحجي والحفاظ، فجنّ عليه الليل، فانسلّ الناس من تحت الليل إلى مدائن لهم بأذْرَبيجان، وأصبح الجرّاح في قلة فقتل.

وفي هذه السنة وجّه هشام أخاه مسلمة بن عبد الملك في أثر الترك فسار في شتاء شديد البرد والمطر والثلوج فطلبهم - فيما ذكر - حتى جاز الباب في آثارهم، وخلّف الحارث بن عمرو الطائيّ بالباب.

وفي هذه السنة كانت وقعة الجنيد مع الترك ورئيسهم خاقان بالشِّعب. وفيها قتل سَوْرة بن الحرّ؛ وقد قيل إن هذه الوقعة كانت في سنة ثلاث عشرة ومائة.

ذكر الخبر عن هذه الوقعة وما كان سببها وكيف كانت:

ذكر عليّ بن محمد عن أشياخه أن الجنيد بن عبد الرحمن خرج غازياً في سنة اثنتي عشرة ومائة يريد

طَخارستان، فنزل على نهر بَلْخ، ووجّه عُمارة بن حُرَيم إلى طَخارستان في ثمانية عشر ألفاً وإبراهيم بن بسام الليثيّ في عشرة آلاف في وجه آخر، وجاشت الترك فأتوْا سَمْرقند، وعليها سَوْرة بن الحُرّ؛ أحد بني أبان بن دارم، فكتب سَوْرة إلى الجنيد: إن خاقان جاش بالترك، فخرجتُ إليهم فما قدرتُ أن أمنع حائط سَمَرْقند؛ فالغوْث!

فأمر الجنيد الناس بالعُبور، فقام إليه المجشّر بن مزاحم السلميّ وابن بسطام الأزْديّ وابن صُبْح الخَرَقيّ، فقالوا: إن التُّرك ليسوا كغيرهم، لا يلقوْنك صفًّا ولا زحفاً، وقد فرّقت جندك، فمسلم بن عبد الرحمن بالنّيروذ، والبختريّ بهرَاة، ولم يحضرك أهل الطالَقان، وعمارة بنُ حَريم غائب. وقال له المجشر: إن صاحب خراسان لا يعبر النهر في أقلّ من خمسين ألفاً؛ فاكتب إلى عمارة فليأتك، وأمهل ولا تعجَل، قال: فكيف بسَوْرة ومَن معه من المسلمين! لو لم أكن إلاّ في بني مُرّة، أو من طلع معي من أهل الشأم لعبرتُ. وقال:

أليس أحقَّ الناسِ أن يَشهَدَ الوغي ... وأن يقتل الأبطال ضَخْمٌ على ضخم

وقال:

ما علّتِي ما علَتي ما عِلّتي! ... إنْ لم أقاتِلْهُمْ فجُزّوا لِمّتِي

قال: وعبر فنزل كِسًّ؛ وقد بعث الأشهب بن عبيد الحنظليّ ليعلم علمَ القوم، فرجع إليه وقال: قد أتوْك فتأهبْ للمسير.

وبلغ الترك فعَوّروا الآبار التي في طريق كِسّ وما فيه من الركايا، فقال الجُنيد: أيّ الطريقين إلى سَمَرْقند أمثل؟ قالوا: طريق المحترقة. قال المجشّر بن مزاحم السلميّ: القتل بالسيف أمثلُ من القتل بالنار؛ إن طريق المحترقة فيه الشّجر والحشيش ولم يُزْرَع منذ سنين، فقد تراكم بعضه على بعض، فإن لقيتَ خاقان أحرق ذلك كله، فقتلنا بالنار والدخان؛ ولكن خذ طريق العَقبة، فهو بيننا وبينهم سواء.

فأخذ الجُنيد طريقَ العَقَبة، فارتقى في الجبل، فأخذ المجشّر بعنان دابته، وقال: إنه كان يقال: إنّ رجلاً من قيس مترَفاً يهلك على يديه جند من جنود خراسان؛ وقد خِفْنا أن تكونه. قال: أفْرِخْ رَوْعك، فقال المجشّر: أمّا إذا كان بيننا مثلك فلا يُفْرِخ. فبات في أصل العقبة، ثم ارتحل حين أصبح؛ فصار الجُنيد بين مرتحل ومقيم؛ فتلقى فارساً، فقال: ما اسمك؟ فقال: حرب؛ قال: ابن مَنْ؟ قال: ابن محرَبة، قال: من بني مَن؟ قال: من بني حَنْظلة، قال: سلط الله عليك الحرْب والحرَب والكلَب. ومضى بالناس حتى دخل الشِّعب وبينه وبين مدينة سَمَرْقند أربعة فراسخ، فصبّحه خاقان في جمع عظيم، وزحف إليه أهلُ السُّغد والشاش وفَرْغانة وطائفة من الترك. قال: فحمل خاقان على المقدّمة وعليها عثمان بن عبد الله بن الشّخّير، فرجعوا إلى العسكر والترك تتبعهم، وجاءوهم من كلّ وجه؛ وقد كان الإخْريد قال للجنيد: ردّ الناس إلى العسكر؛ فقد جاءك جمع كثير؛ فطلع أوائل العدوّ والناس يتغدّون، فرآهم عبيد الله بن زهير بن حيّان، فكره أن يُعلم النّاس حتى يفرغوا من غدائهم؛ والتفت أبو الذّيال، فرآهم، فقال: العدوّ! فركب النّاس إلى الجنيد، فصيّر تميماً والأزد في الميمنة وربيعة في الميسرة مما يلي الجبل؛ وعلى مجفّفة خيل بني تميم عبيد الله بن زهير بن حَيّان، وعلى المجرّدة عمر ـ أو عمرو ـ بن جرْفاس بن عبد الرحمن بن شقران المنقريّ، وعلى جماعة بني تميم عامر بن مالك الحِمّانيّ، وعلى

الأزد عبد الله بن بِسْطام بن مسعود بن عمرو المعنيّ؛ وعلى خيلهم: المجفّفة والمجرّدة فُضَيل بن هناد وعبد الله بن حوْذان؛ أحدهما على المجفّفة، والآخر على المجرّدة ـ ويقال: بل كان بشر بن حوذان أخو عبد الله بن حوذان الجهضميّ ـ فالتقوْا وربيعة ممّا يلي الجبَل في مكان ضيّق؛ فلم يقدم عليهم أحد؛ وقصد العدوّ للميمنة وفيها تميم والأزْد في موضع واسع فيه مجال للخيل. فترجّل حيان بن عبيد الله بن زهير بين يدي أبيه، ودفع بِرْذونه إلى أخيه عبد الملك، فقال له أبوه: يا حيّان، انطلق إلى أخيك فإنه حَدَث وأخاف عليه. فأبى، فقال: يا بُنيّ، إنك إن قُتِلت على حالك هذه قُتِلت عاصياً. فرجع إلى الموضع الذي خلّف فيه أخاه والبرذْون؛ فإذا أخوه قد لحق بالعسكر، وقد شدّ البرذون، فقطع حيّان مِقْوَده وركبه؛ فأتى العدوّ؛ فإذا العدوّ قد أحاط بالموضع الذي خلف فيه أباه وأصحابه، فأمدّهم الجُنيد بنصر بن سيار في سبعة معه؛ فيهم جميل بن غزوان العدويّ، فدخل عبيد الله بن زهير معهم، وشدُّوا على العدوّ فكشفوهم ثم كرُّوا عليهم؛ فقتِلوا جميعاً، فلم يفلت منهم أحد ممن كان في ذلك الموضع، وقُتل عبيد الله بن زهير وابن حوذان وابن جِرْفاس والفُضيل بن هَنّاد.

وجالت الميمنة والجُنيد واقف في القلْب، فأقبل إلى الميمنة، فوقف تحت راية الأزْد ـ وقد كان جفاهم ـ فقال له صاحب راية الأزد: ماجئتنا لتحبوَنا ولا لتكرمنا؛ ولكنّك قد علمت أنه لا يوصَل إليك ومنّا رجل حيّ؛ فإن ظفرنا كان لك؛ وإن هلكنا لم تبْك علينا. ولعمري لئن ظفرنا وبقيتُ لا أكلّمك كلمة أبداً. وتقدّم فقتِل. وأخذ الرّاية ابن مُجّاعة فقُتِل، فتداول الرّاية ثمانية عشر رجلاً منهم فقتِلوا، فقتِل يومئذ ثمانون رجلاً من الأزْد.

قال: وصبَر الناس يقاتلون حتى أعيوا؛ فكانت السيوف لا تحيك ولا تقطع شيئاً، فقطع عبيدُهم الخشب يقاتلون به، حتّى ملّ الفريقان فكانت المعانقة، فتحاجزوا، فقتل من الأزد حمزة بن مُجّاعة العتكيّ ومحمد بن عبد الله بن حَوْذان الجهضميّ؛ وعبد الله بن بسطام المعنيّ وأخوه زُنيم والحسن بن شيخ والفُضيل الحارثيّ ـ وهو صاحب الخيل ـ ويزيد بن المفضّل الحُدّانيّ؛ وكان حجّ فأنفق في حجه ثمانين ومائة ألف؛ فقال لأمه وحشيّة: ادعِي الله أن يرزقني الشهادة، فدعتْ له، وغُشي عليه؛ فاستُشهد بعد مَقْدَمه من الحج بثلاثة عشر يوماً، وقاتل معه عبدان له؛ وقد كان أمرهما بالانصراف فقتِلا؛ فاستُشهدا.

قال: وكان يزيد بن المفضّل حمل يوم الشّعب على مائة بعير سويقاً للمسلمين؛ فجعل يسأل عن الناس، ولا يسأل عن أحد إلا قيل له: قد قتل؛ فاستقدم وهو يقول: لا إله إلا الله؛ فقاتل حتى قُتِل.

وقاتل يومئذ محمد بن عبد الله بن حَوْذان وهو على فرس أشقْر، عليه تجفاف مذهّب، فحمَل سبع مرات يقتل في كلّ حملة رجلاً، ثم رجع إلى موقفه، فهابه مَن كان في ناحيته، فناداه تَرجمان للعدوّ: يقول لك الملك: لا تقبل وتحوّل إلينا؛ فنرفض صنَمنا الذي نعبده ونعبدك؛ فقال محمد: أنا أقاتلكم لتتركوا عبادة الأصنام وتعبدوا الله وحده. فقاتل واستُشهد.

وقتِل جُشَم بن قرط الهلاليّ من بني الحارث، وقُتِل النَّضْر بن راشد العبديّ؛ وكان دخل على امرأته والناس يقتتلون، فقال لها: كيف أنت إذا أتيت بأبي ضمرة. في لبد مضرَّجاً بالدماء؟ فشقّت جيبها ودعت بالويْل؛ فقال: حسبك، لو أعولتْ عليّ كلّ أنثى لعصيتُها شوقاً إلى الحُور العِين؛ ورجع فقاتل حتى استُشهد رحمه الله. قال: فبينا النّاس كذلك إذ أقبل رَهَج، فطلعت فُرسان؛ فنادى منادي الجُنيد: الأرضَ، الأرضَ! فترجّل وترجّل الناس، ثم نادى منادي الجُنيد: ليخندقْ كلّ قائد على حياله؛ فخندق الناس. قال: ونظر الجُنيد

إلى عبد الرحمن بن مكيّة يحمل على العدوّ، فقال: ما هذا الخرطوم السائل؟ قيل له: هذا ابن مكيّة، قال: ألسان البقرة! لله درّه أيّ رجل هو! وتحاجزوا، وأصيب من الأزْد مائة وتسعون.

وكانوا لقوا خاقان يوم الجمعة، فأرسل الجنيد إلى عبد الله بن معمر بن سُمَير اليشكريّ أن يقف في الناحية التي تلي كِسّ ويحبس مَن مرّ به، ويحوز الأثقال والرّجالة؛ وجاءت الموالي رجّالة، ليس فيهم غير فارس واحد والعدوّ يتبعونهم؛ فثبت عبد الله بن معمَر للعدوّ، فاستُشهد في رجال من بَكْر، وأصبحوا يوم السّبت، فأقبل خاقان نصفَ النهار؛ فلم ير موضعاً للقتال فيه أيسر من موضع بكر بن وائل، وعليهم زياد بن الحارث، فقصد لهم، فقالت بكر لزياد: القوم قد كَثرونا، فخلّ عنا نحمل عليهم قبل أن يحمِلوا علينا، فقال لهم: قد مارست سبعين سنة، إنكم إن حملتم عليهم فصعدتم انهزمتم؛ ولكن دعوهم حتى يقربوا. ففعلوا، فلما قربوا منهم حملوا عليهم فـأفرجوا لهم، فسجد الجُنيد، وقال خاقان يومئـذ: إنّ العرب إذا أحْـرِجوا استقتلـوا؛ فخلّوهم حتى يخرجوا؛ ولا تَعرّضوا لهم؛ فإنكم لا تقومون لهم.

وخرج جوارٍ للجنيد يولوِلْن؛ فانتدب رجال من أهل الشأم، فقالوا: الله الله يأهلَ خراسان! إلى أين؟ وقال الجنيدَ: ليلة كليلة الجرّاح، ويوم كيومه.

وفي هذه السنة قتل سَوْرة بن الحرّ التميميّ.

ذكر الخبر عن مقتله:

ذكر عليّ عن شيوخه، أن عبيد الله بن حبيب قال للجنيد: اختر بين أن تهلك أنت أو سوْرة، فقال: هلاكُ سَوْرة أهون عليّ، قال: فاكتب إليه فليأتِك في أهل سَمَرْقند؛ فإن الترك إن بلغهم أن سَوْرة قد توجّه إليك انصرفوا إليه فقاتلوه. فكتب إلى سورة يأمره بالقدوم ـ وقيل: كتب أغثني ـ فقال عبادة بن السليل المحاربيّ أبو الحكم بن عبادة لسَوْرة: انظر أبْرَد بيت بسَمَرْقند فنمْ فيه، فإنك إن خرجت لا تبالي أسخط عليك الأمير أم رضي. وقال له حُلَيْس بن غالب الشيبانيّ: إن التّرك بينك وبين الجنيد؛ فإن خرجت كرّوا عليك فاختطفوك.

فكتب إلى الجنيد: إني لا أقدر على الخروج؛ فكتب إليه الجُنيد: يابن اللخناء، تخرج وإلا وجّهت إليك شدّاد بن خالد الباهليّ ـ وكان له عدوّاً ـ فأقدم وضع فلانا بفرخشاذ في خمسمائة ناشب، والزم الماء فلا تفارقه.

فأجمع على المسير، فقال الوَجْف بن خالد العبديّ: إنك لمهلك نفسَك والعرب بمسيرك؛ ومهلِك من معك، قال: لا يُخْرَج حَلي من التّنّور حتى أسير؛ فقال له عبادة وحُليس: أما إذ أبيتَ إلا المسير فخذ على النهر، فقال: أنا لا أصل إليه على النهر في يومين، وبيني وبينه من هذا الوجه ليلة فأصبّحه؛ فإذا سكنت الرِّجل سرتُ فأعبره.

فجاءت عيون الأتراك فأخبروهم، وأمر سَوْرة بالرحيل؛ واستخلف على سَمَرْقند موسى بن أسود؛ أحد بني ربيعة بن حنظلة، وخرج في اثني عشر ألفاً، فأصبح على رأس جبل؛ وإنما دلّه على ذلك الطريق عِلْج يسمى كارتقبد؛ فتلقّاه خاقان حين أصبح وقد سار ثلاثة فراسخ، وبينه وبين الجنيد فرسخ: فقال أبو الذيّال: قاتلهم في أرض خَوّارة، فصبر وصبروا حتى اشتدّ الحرّ.

وقال بعضهم: قال له غوزك: يومك يوم حارّ فلا تقاتلهم حتى تحمىَ عليهم الشمس وعليهم السلاح تثقلهم. فلم يقاتلهم خاقان؛ وأخذ برأي غوزك، وأشعل النار في الحشيش، وواقفهم وحال بينهم وبين الماء،

فقال سَوْرة لعبادة: ما ترى يا أبا السليل؟ قال: أرى والله أنه ليس من الترك أحد إلا وهو يريد الغنيمة؛ فاعِقْر هذه الدوابّ وأحرِق هذا المتاع، وجرّد السيف؛ فإنهم يُخلّون لنا الطريق. قال أبو الذيّال: فقال سَوْرة لعبادة: ما الرأي؟ قال: تركت الرأي، قال: فما ترى الآن؟ قال: أن ننزل فنُشرع الرّماح، ونزحف زحفاً، فإنما هو فرسخ حتى نصل إلى العسكر، قال: لا أقوى على هذا؛ ولا يقوى فلان وفلان. . . وعدّد رجالاً؛ ولكن أرى أن أجمع الخيل ومَنْ أرى أنه يقاتل فأصكّهم؛ سلمتُ أم عَطِبتُ؛ فجمع الناس وحملوا فانكشفت الترك، وثار الغُبار فلم يبصروا، ومن وراء الترك اللّهبُ؛ فسقطوا فيه، وسقط فيه العدوّوالمسلمون،وسقط سَوْرة فاندقّت فخذه، وتفرّق الناس، وانكشفت الغمة والناس متفرّقون، فقطعتهم الترك، فقتلوهم فلم ينجُ منهم غيرألفين ـ ويقال: ألف ـ وكان ممن نجا عاصم بن عمير السَّمَرقنديّ، عرفه رجل من الترك فأجاره؛ واستُشهد حُلَيس بن غالب الشيبانيّ، فقال رجل من العرب: الحمد لله؛ استُشهد حُلَيس، ولقد رأيته يرمي البيت أيام الحجاج ويقول: درّى عُقاب، بلبن وأخشاب؛ وامرأة قائمة، فكلّما رمي بحَجر قالت المرأة: يا ربّ بي ولا ببيتك! ثم رُزق الشهادة.

وانحاز المهلّب بن زياد العِجليّ في سبعمائة ومعه قريش بن عبد الله العبديّ إلى رُستاق يسمى المرغاب؛ فقاتلوا أهل قَصْر من قصورهم؛ فأصيب المهلّب بن زياد، وولّوْا أمرهم الوجَف بن خالد، ثم أتاهم الأشكند صاحب نَسف في خَيْل ومعه غوزك، فقال غوزك: يا وَجَف، لكم الأمان، فقال قريش: لا تثقوا بهم؛ ولكن إذا جنّنا الليل خرجنا عليهم حتى نأتي سَمَرْقند؛ فإنا إن أصبحنا معهم قتلونا.

قال: فعصوْه وأقاموا، فساقوهم إلى خاقان؛ فقال: لا أجيز أمان غَوْزك، فقال غوزك للوجَف: أنا عبد لخاقان من شاكريّته، قالوا: فلمَ غرزتنا؟ فقاتلهم الوجف وأصحابه، فقُتلوا غير سبعة عشر رجلاً دخلوا الحائط. وأمسوا، فقطع المشركون شجرة شجرة فألقوْها على ثلمة الحائط؛ فجاء قريش بن عبد الله العبديّ إلى الشجرَة فرمى بها؛ وخرج في ثلاثة فباتوا في ناوس فكمنوا فيه وجبن الآخرون فلم يخرجوا، فقتِلوا حين أصبحوا. وقتِل سَوْرة؛ فلما قُتل خرج الجنيد من الشِّعب يريد سمرقند مبادراً، فقال له خالد بن عبيد الله بن حبيب: سِرْسير، ومجشّر بن مزاحم السّلميّ يقول: أذكرك الله أقم؛ والجنيد يتقدّم، فلما رأى المجشّر ذلك نزل فأخذ بلجام الجنيد، فقال: والله لا تسير ولتنزلنّ طائعاً أو كارهاً، ولا ندعك تُهلكنا بقول هذا الهجرّي، انزل. فنزل ونزل الناس فلم يتتامّ نزولهم حتى طلع الترك، فقال المجشّر: لو لقونا ونحن نسير، ألم يستأصلونا! فلما أصبحوا تناهضوا، فانكشفت طائفة، وجال الناس، فقال الجنيد: أيّها الناس؛ إنها النّار؛ فتراجعوا. وأمر الجنيد رجلاً فنادى: أيّ عبد قاتَل فهو حرٌّ؛ فقاتل العبيد قتالاً شديداً عجب الناس منه؛ جعل أحدهم يأخذ اللِّبد فيجوبه ويجعله في عنقه، يتوقّى به. فسرّ الناس بما رأوْا من صبرهم، فكرّ العدوّ، وصبر الناس حتى انهزم العدوّ. فمضوا، فقال موسى بن النعر للناس: أتفرحون بما رأيتم من العبيد! والله إنّ لكم منهم ليوماً أرْوَنان. ومضى الجُنيد فأخذ العدوّ رجلاً من عبد القيس فكتفوه، وعلّقوا في عنقه رأس بلعاء العنبريّ بن مجاهد بن بلعاء؛ فلقيه الناس فأخذ بنو تميم الرأس فدفنوه، ومضى الجُنيد إلى سَمَرْقند؛ فحمل عيال مَن كان مع سَوْرة إلى مَرْو، وأقام بالسُّغْد أربعة أشهر؛ وكان صاحب رأي خراسان في الحرب المجشِّر بن السُّلميّ وعبد الرحمن بن صبح الخَرَقيّ وعبيد الله بن حبيب الهجريّ، وكان المجشِّر يُنزل الناس على راياتهم، ويضع المسالح ليس لأحد مثل رأيه في ذلك، وكان عبد الرحمن بن صبح إذا نزل الأمر العظيم في الحرب لم يكن لأحد مثل رأيه؛ وكان

عبيد الله بن حبيب على تعبئة القتال، وكان رجال من الموالي مثل هؤلاء في الرّأي والمشورة والعلم بالحرب؛ فمنهم الفضل بن بسّام مولى بني ليث وعبد الله بن أبي عبد الله مولى بني سليم والبَختريّ بن مجاهد مولى بني شيبان.

قال: فلما انصرف الترك إلى بلادهم بعث الجُنيد سيفَ بن وصّاف العجليّ من سَمَرْقند إلى هشام، فجبُن عن السير وخاف الطريق، فاستعفاه فأعفاه؛ وبعث نهار بن تَوْسعة أحد بني تيم اللات وزُمَيْل بن سُويَد المرّي؛ مرّة غطفان، وكتب إلى هشام: إن سَوْرة عصاني، أمرتُه بلزوم الماء فلم يفعل، فتفرّق عنه أصحابه، فأتتني طائفة إلى كِسّ، وطائفة إلى نَسَف، وطائفة إلى سَمَرْقند، وأصيب سَوْرة في بقيّة أصحابه.

قال: فدعا هشام نهارَ بن توسعة، فسأله عن الخبر فأخبره بما شهد، فقال نهار بن توسعة:

لعمرُكَ ما حابَيْتني إذْ بَعَثْتني ... ولكنّما عَرّضْتني للمَتالِفِ
دعوتَ لها قوماً فهابوا ركوبَها ... وكنتُ امْرَأً رَكّابَة للمَخاوفِ
فأيقنتُ إنْ لم يَدْفَعِ الله أنني ... طَعامُ سِباعٍ أو لطَيْرٍ عوائفِ
قَرينُ عَراكٍ وهوَ أيسرُ هالك ... عليك وقد زُمّلْتَهُ بِصَحائفِ
فإني وإن آثرتَ منه قَرابَةً ... لأعظمُ حظّاً في حِبَاءِ الخلائف
على عهدِ عثمانٍ وفَدْنا وقبْلَهُ ... وكنّا أولي مجدٍ تليدٍ وطارِفِ

قال: وكان عراك معهم في الوفد، وهو ابن عمّ الجنيد، فكتب إلى الجنيد: قد وجّهت إليك عشرين ألفا مدداً؛ عشرة آلاف من أهل البصرة عليهم عمرو بن مسلم، ومن أهل الكوفة عشرة آلاف عليهم عبد الرحمن ابن نُعيم، ومن السلاح ثلاثين ألف رمح ومثلها تِرَسة، فافرض فلا غاية لك في الفريضة لخمسة عشر ألفاً.

قال: ويقال إن الجُنيد أوفد الوفد إلى خالد بن عبد الله، فأوفد خالد إلى هشام: إنّ سَوْرة بن الحُرّ خرج يتصيّد مع أصحاب له فهجم عليهم التّرك، فأصيبوا. فقال هشام حين أتاه مصاب سورة: إنا لله وإنا إليه راجعون! مُصاب سَوْرة بن الحرّ بخراسان والجرّاح بالباب! وأبْلى نصر بن سيّار يومئذ بلاء حسناً، فانقطع سيفه، وانقطع سيور ركابه؛ فأخذ سيور ركابه؛ فضرب به رجلاً حتى أثخنَه، وسقط في اللّهْب مع سَوْرة يومئذ عبد الكريم بن عبد الرحمن الحنفيّ وأحد عشر رجلاً معه. وكان ممّن سلم من أصحاب سَوْرة ألف رجل، فقال عبد الله بن حاتم بن النعمان: رأيت فساطيطَ مبنيّة بين السماء والأرض؛ فقلت: لمن هذه؟ فقالوا: لعبد الله بن بسْطام وأصحابه، فقتِلوا من غدٍ؛ فقال رجل: مررت في ذلك الموضع بعد ذلك بحين فوجدت رائحة المسك ساطعة. قال: ولم يشكر الجُنيد لنصر ما كان من بلائه، فقال نصر:

إنْ تحسُدُوني على حُسن البلاءِ لكُمْ ... يوماً، فمِثْلُ بَلائي جَرَّ لي الحَسَدَا
يأبَى الإلهُ الذي أعلى بقدرتِهِ ... كَعبي عليكمْ وأعطى فوقَكم عَضُدا
وضَرْبيَ التركَ عنكم يوم فَرْقِكُمُ ... بالسَّيفِ في الشِّعبِ حتى جاوزا السَّنَدَا

قال: وكان الجُنيد يوم الشِّعب أخذ في الشّعب، وهو لا يرى أنّ أحداً يأتيه من الجبال، وبعث ابنَ الشِّخّير في مقدمته، واتخذ ساقةً؛ ولم يتخذ مجنّبتين.

وأقبل خاقان فهزم المقدّمة، وقتل مَنْ قتل منهم، وجاءه خاقان مِن قِبَل ميسرته وجبغويه من قِبَل الميمنة،

فأصيب رجال من الأزْد وتميم، وأصابوا له سرادقات وأبنية، فأمر الجنيد حين أمسى رجلاً من أهل بيته، فقال له: امش في الصفوف والدرّاجة، وتسمّع ما يقول الناس؛ وكيف حالهم؛ ففعل ثم رجع إليه، فقال: رأيتُهم طيبةً أنفسهم، يتناشدون الأشعار، ويقرؤون القرآن؛ فسرّه ذلك، وحمد الله.

قال: ويقال نهضت العبيد يوم الشِّعب من جانب العسكر وقد أقبلت الترك والسُّغد ينحدرون؛ فاستقبلهم العبيد وشدّوا عليهم بالعَمَد، فقتلوا منهم تسعة، فأعطاهم الجنيد أسلابهم.

وقال ابن السِّجْف في يوم الشِّعب؛ ويعني هشاماً:

آذكُر يَتامَى بأرضِ التُّركِ ضائعَةً ... هَزْلَى كأنهُمُ في الحائِطِ الحَجَلُ

وارحم، وَإلاّ فَهبْهَا أمةً دَمِرَتْ ... لا أنفُسٌ بَقِيَتْ فيها ولا ثَقَلُ

لا تأمُلَنَّ بقاءَ الدَّهرِ بَعدَهُمُ ... والمَرْءُ ما عاشَ ممْدودٌ لهُ الأمَلُ

لاَقَوْا كتائِبَ مِنْ خاقانَ مُعْلِمَةً ... عنهم يَضيقُ فضاءُ السَّهلِ والجبلُ

لَمَّا رَأوهُمْ قَليلاً لاَ صَريخَ لهمْ ... مَدُّوا بأيديهِمُ للهِ وابْتَهَلوا

وَبَايَعُوا رَبَّ موسى بيعةً صَدَقت ... ما في قُلوبِهِمُ شكٌّ وَلاَ دَغَلُ

قال: فأقام الجُنيد بسَمَرْقَنْد ذلك العام، وانصرف خاقان إلى بُخارى وعليها قَطَن بن قتيبة، فخاف الناس الترك على قَطَن، فشاورهم الجنيد، فقال قوم: الزم سَمَرْقند، واكتب إلى أمير المؤمنين يمدّك بالجنود. وقال قوم: تسير فتأتي رَبِنْجَن، ثم تسير منها إلى كِسّ، ثم تسير منها إلى نَسَف، فتتصل منها إلى أرض زَمّ، وتقطع النهر وتنزل آمُل، فتأخذ عليه بالطريق.

فبعث إلى عبد الله بن أبي عبد الله، فقال: قد اختلَف الناس عليّ - وأخبره بما قالوا - فما الرأي؟ فاشترط عليه ألاّ يخالفه فيما يشير به عليه من ارتحال أو نزول أو قتال، قال: نعم؛ قال: فإني أطلب إليك خِصالاً، قال: وما هي؟ قال: تخندِق حيثما نزلْت؛ ولا يفوتنّك حمل الماء ولو كنت على شاطىء نهر، وأن تطيعني في نزولك وارتحالك. فأعطاه ما أراد. قال: أما ما أشار به عليك في مُقامك بسَمَرْقند حتى يأتيك الغياث، فالغياث يبطىء عنك، وإن سرتَ فأخذت بالناس غيرَ الطريق فتتٌّ في أعضادهم؛ فانكسروا عن عدوّهم، فاجترأ عليك خاقان؛ وهو اليوم قد استفتح بخارى فلم يفتحوا له، فإن أخذت بهم غير الطريق تفرّق الناس عنك مبادرين إلى منازلهم، ويبلغ أهل بخارى فيستسلموا لعدوّهم؛ وإن أخذت الطريق الأعظم هابك العدوّ؛ والرأي لك أن تعمِد إلى عيالات مَنْ شهِد الشِّعب من أصحاب سَوْرة فتقسّمهم على عشائرهم وتحملهم معك؛ فإني أرجو بذلك أن ينصرك الله على عدوّك، وتعطي كلَّ رجل تخلف بسمرقند ألف درهم وفرساً.

قال: فأخذ برأيه، فخلّف في سمرقند عثمان بن عبد الله بن الشِّخِّير في ثمانمائة: أربعمائة فارس وأربعمائة راجل، وأعطاهم سلاحاً. فشتم الناس عبدَ الله بن أبي عبد الله مولى بني سليم، وقالوا: عرّضنا لخاقان والترك، ما أراد إلا هلاكنا!

فقال عبيد الله بن حبيب لحرب بن صبح: كم كانت لكم الساقة اليوم؟ قال: ألف وستمائة، قال: لقد عُرِّضنا للهلاك. قال: فأمر الجنيد بحمْل العيال.

قال: وخرج والناس معه، وعلى طلائعه الوليد بن القعقاع العبسيّ وزياد بن خَيران الطائيّ، فسرّح

الجُنيد الأشهب بن عبيد الحنظليّ، ومعه عشرة من طلائع الجند، وقال له: كلما مضيت مرحلة فَسَرّحْ إليّ رجلاً يعلمني الخبر.

قال: وسار الجُنيد؛ فلما صار بقصْر الريح أخذ عطاء الدّبُوسيّ بلجام الجُنيد وكبحَه،فقرع رأسه هارون الشاشيّ مولى بني حازم بالرّمح حتى كسره على رأسه، فقال الجنيد لهارون: خلّ عن الدبوسيّ، وقال له: مالك يا دبوسيّ؟ فقال: انظر أضعفَ شيخ في عسكرك فسلّحه سلاحاً تامّاً، وقلّدْه سيفاً وجعبة وترْساً، وأعطه رمحاً، ثم سِرْ بنا على قدر مشيه؛ فإنا لا نقدر على السوْق والقتال وسرعة السير ونحن رجّالة. ففعل ذلك الجُنيد؛ فلم يعرض للناس عارض حتى خرجوا من الأماكن المخوفة، ودنا من الطواويس، فجاءتنا الطّلائع بإقبال خاقان، فعرضوا له بكَرْمِينِيَة، أوّل يوم من رمضان. فلما ارتحل الجُنيد من كرْمينيَة قدم محمد بن الرُّنديّ في الأساورة آخر الليل؛ فلما كان في طرف مفازة كَرْمِينيَة رأى ضعف العدوّ؛ فرجع إلى الجنيد فأخبره؛ فنادى منادي الجنيد: ألا يخرج المكتّبون إلى عدوّهم؟ فخرج الناس، ونشبت الحرب، فنادَى رجل: أيها الناس، صرتم حروريّة فاستقتلتم. وجاء عبد الله بن أبي عبد الله إلى الجنيد يضْحك، فقال له الجنيد: ما هذا بيوم ضحك! فقيل له: إنه ضحِك تعجّباً، فالحمد لله الذي لم يلقك هؤلاء إلا في جبال معطّشة؛ فهم على ظهر وأنت مخندق آخر النهار، كالّين وأنت معك الزّاد؛ فقاتلوا قليلاً ثم رجعوا. وكان عبد الله بن أبي عبد الله قال للجُنيد وهم يقاتلون: ارتحل، فقال الجنيد: وهل من حيلة؟ قال: نعم، تمضي براياتك قَدْر ثلاث غِلاء، فإنّ خاقان ودّ أنك أقمت فينطوي عليك إذا شاء. فأمر بالرحيل وعبد الله بن أبي عبد الله على الساقة. فأرسل إليه: انزل، قال: أنزل على غير ماء! فأرسل إليه: إن لم تنزل ذهبت خراسان من يدك؛ فنزل وأمر الناس أن يسقوا، فذهب الناس الرّجالة والناشبة؛ وهم صَفّان؛ فاستقوْا وباتوا، فلما أصبحوا ارتحلوا، فقال عبد الله بن أبي عبد الله: إنكم معشرَ العرب أربعة جوانب؛ فليس يعيب بعضهم بعضاً؛ كلّ ربع لا يقدر أن يزول عن مكانه: مقدّمة ـ وهم القلب ـ ومجنّبتان وساقة؛ فإن جمع خاقان خيله ورجاله ثم صدم جانباً منكم ـ وهم الساقة ـ كان بوارُكم، وبالحَرَى أن يفعل؛ وأنا أتوقّع ذلك في يومي، فشدُّوا الساقة بخيل. فوجّه الجُنَيد خيل بني تميم والمجفّفة، وجاءت الترك فمالت على الساقة؛ وقد دنا المسلمون من الطواويس فاقتتلوا، فاشتدّ الأمر بينهم، فحمل سلْم بن أحوزَ على رجل من عظماء الترك فقتله. قال: فتطيّر الترك، وانصرفوا من الطوَاويس؛ ومضى المسلمون؛ فأتوا بُخَارى يوم المهرجان. قال: فتلقّوْنا بدراهم بخارية، فأعطاهم عشرة عشرة، فقال عبد المؤمن بن خالد: رأيتُ عبدَ الله بن أبي عبد الله بعد وفاته في المنام، فقال: حَدّث الناس عني برأيي يوم الشِّعب.

قال: وكان الجُنيد يذكر خالد بن عبد الله، ويقول: رَبْذَة من الرّبَذ، صنبور ابن صنبور، قُلّ ابن قلّ، هيْقة من الهيف ـ وزعم أن الهيْقة الضّبُع، والعُجْرة الخنزيرة، والقلّ: الفرد ـ قال: وقدمت الجنود مع عمرو بن مسلم الباهليّ في أهل البصرة وعبد الرحمن بن نعيم الغامديّ في أهل الكوفة وهو بالصّغانيان، فسرح معهم الحوثرة بن يزيد العنبريّ فيمن انتدب معه من التجار وغيرهم، وأمرهم أن يحملوا ذراريّ أهل سمرقند، ويدَعوا فيها المقاتلة. ففعلوا.

قال أبو جعفر: وقد قيل: إنّ وقعة الشّعب بين الجُنيد وخاقان كانت في سنة ثلاث عشرة ومائة.

وقال نصر بن سيّار يذكر يوم الشّعب وقتال العبيد:

إنِّي نَشأْتُ وحُسَّادِي ذَوُو عَدَدٍ ... ياذا المعارج لا تَنقصْ لهمْ عَدَدا
إن تحسدوني على مثل البلاءِ لكُمْ ... يوماً فمثلُ بلائي جَرَّ لِي الحَسَدا
يأبَى الإلهُ الذي أعلَى بقدرته ... كعبي عليكم وأعطى فوقكم عُددا
أرْمِي العَدُوَّ بأفراسٍ مُكلَّمَةٍ ... حتى اتخذْن على حُسَّادِهنَّ يدا
من ذا الذي منكُمُ في الشِّعب إذ وردُوا ... لَمْ يَتَّخِذْ حَوْمَة الأثقال مُعْتَمَدَا!
فما حفظتمْ منَ اللهِ الوَصاة ولا ... أنتم بصَبْرٍ طَلَبْتُمْ حُسْنَ ما وَعَدَا
ولا نَهَاكمْ عَنِ التَّوْثابِ في عتَبٍ ... إلَّا العَبيدُ بضَرْبٍ يَكسِرُ العَمَدا
هَلَّا شكرتمْ دِفاعِي عَنْ جُنَيدِكُمْ ... وَقْعَ القَنَا وشِهابُ الحربِ قدَ وقَدا!

وقال ابن عرس العبديّ، يمدح نَصرا يوم الشِّعب ويذّم الجُنيد، لأن نصراً أبلى يومئذ:

يا نصرُ أنت فتى نزارٍ كُلِّها ... فلكَ المآثِرُ والفَعالُ الأرفَعُ
فَرَّجْتَ عَنْ كلِّ القَبائلِ كُربَةً ... بالشِّعبِ حِينَ تَخاضَعُوا وتَضعْضَعُوا
يَومَ الجُنيدِ إذ القنا مُتَشاجِرٌ ... والنَّحرُ دامٍ والخَوافِقُ تَلمَعُ
ما زلتَ تَرمِيهمْ بنفسٍ حُرَّةٍ ... حتى تَفَرَّجَ جَمعُهُمْ وتَصَدَّعُوا
فالنَّاسُ كُلُّ بَعْدَها عُتَقاؤكمْ ... ولكَ المكارمُ والمعالِي أجْمَعُ

وقال الشرعبيّ الطائيّ:

تَذَكَّرتُ هِنداً في بِلادٍ غَريبَةٍ ... فيالكَ شَوْقاً، هل لِشَملِكَ مَجْمَعِ!
تذكَّرْتَها والشاشُ بَيني وبينها ... وَشِعْبُ عِصام والمنايا تَطلَّعُ
بلادٌ بها خاقانُ جَمٌّ زُحُوفُهُ ... وَثيلانُ في سبعينَ ألفاً مُقَنَّعُ
إذا دَبَّ خاقانُ وسارت جنودُهُ ... أتتنَا المَنايا عندَ ذلك شُرَّع
هنالك ـ هندُ ـ مالَنا النِّصفُ منهمُ ... وما إنْ لنا يا هندُ في القومِ مَطْمَعُ
ألَا رُبَّ خَوْدٍ خَدْلةٍ قد رأيتُها ... يَسُوق بهاجَهمُ مِنَ السُّغدِ أصْمَعُ
أحامِي عليها حين ولَّى خليلُها ... تُنادِي إليها المسلمينَ فتُسمِعُ
تنادي بأعلى صوتِها صَفَّ قومِها ... ألَا رجلٌ منكم يَغارُ فَيَرجعُ!
ألا رجلٌ منكُم كَريمٌ يَرُدُّني ... يَرَى الموت في بَعضِ المواطنِ ينفع!
فما جاوبُوها غيرَ أنَّ نَصيفَها ... بكَفِّ الفتى بين البرازيق أشْنَعُ
إلى اللهِ أشكُو نَبوَةً في قلوبها ... وَرُعباً مَلا أجوافها يَتَوسَّعُ
فَمَن مُبْلِغٌ عَنِّي ألوكاً صحيفةً ... إلى خالِدٍ مِنْ قبلِ أن نَتَوزَّعُ
بأنَّ بقايانا وأنَّ أميرنا ... إذا ما عَدَدْناهُ الذَّليلُ المُوَقَّعُ
هُمُ أطْمَعُوا خاقانَ فينا وَجُنْدَهُ ... ألَا ليَتَنا كُنَّا هَشِيماً يُزَعْزَعُ

وقال ابن عرس ـ واسمه خالد بن المعارك من بني غَنْم بن وديعة بن لكيز بن أفصى. وذكر عليّ بن محمد عن شيخ من عبد القيس أنّ أمه كانت أمَة، فباعه أخوه تميم بن معارك من عمرو بن لقيط أحد بني عامر بن الحارث؛ فأعتقه عمرو لما حضرته الوفاة، فقال: يا أبا يعقوب؛ كم لي عندك من المال؟ قال: ثمانون ألفاً، قال:

أنت حُرّوما في يديك لك. قال: فكان عمرو ينزل مَرْو الرّوذ؛ وقد اقتتلت عبد القيس في ابن عُرْس؛ فردّوه إلى قومه، فقال ابنُ عرس للجُنيد:

أينَ حُماةُ الحرب منْ معشَر ... كانوا جَمالَ المنسَرِ الحارِدِ!
بَادُوا بآجالٍ توَافَوْا لها ... والعائِرُ المُمْهَلُ كالبائِدِ
فالعينُ تُجرى دَمْعها مُسْبَلاً ... ما لِدُمُوعِ العينِ من ذائد
انظرْ ترى للميْتِ مِنْ رَجْعَةٍ ... أمْ هل ترى في الدهر من خالد!
كنَّا قديماً يُتَّقى بأسُنا ... وَنَدْرَأ الصَّادِرَ بالوارِدِ
حتى مُنِينا بالذي شامَنا ... من بعدِ عِزٍّ ناصرٍ آيِدِ
كعاقِرِ الناقةِ لا ينثني ... مُبْتَدِئاً ذِي حَنَق جاهِدِ
فتَقْتَ ما لم يلتئِم صَدْعُهُ ... بالجَحْفَلِ المحْتَشِدِ الزائِدِ
تَبكي لها إنْ كَشَفَت ساقَها ... جَدْعاً وَعَقْراً لك من قائدِ!
تَركْتَنا أجزاء مَعْبُوطةٍ ... يَقسِمُها الجازرُ للناهِدِ
تَرَقَّتِ الأسيافُ مَسْلولَةً ... تُزيلُ بينَ العَضْدِ والساعدِ
تَساقطُ الهاماتُ من وقعِها ... بينَ جَناحيَ مُبرِقٍ راعد
إذْ أنت كالطفْلةِ في خِدرِها ... لَمْ تَدرِ يوماً كَيْدَةَ الكائِدِ
إنَّا أناسٌ حَربُنا صَعبَةٌ ... تَعصِفُ بالقائِمِ والقاعد
أضحَتْ سمرْقندُ وأشياعُها ... أحدوثَةَ الغائِبِ والشاهِدِ
وكم ثَوَى في الشِّعبِ من حازمٍ ... جَلدِ القُوَى ذي مِرَّةٍ ماجد
يَستَنجِدُ الخَطْبَ ويَغشَى الوغى ... لا هائبٍ غُسٍّ ولا ناكِدِ
لَيتَكَ يومَ الشِّعْبِ في حُفرَةٍ ... مرمُوسَةٍ بالمَدَرِ الجامِدِ
تلعبُ بك الحربُ وأبناؤها ... لَعْبَ صُقُورٍ بِقَطاً واردِ
طارَ لها قلبُكَ من خيفَةٍ ... ما قلبك الطائرُ بالعائِدِ
لا تَحسِبَنَّ الحربَ يومَ الضحى ... وصورةً في جسد فاسِدِ
جُنيدُ ما عِيصُكَ منسوبُهُ ... نَبْعاً ولاَ جَدُّكَ بالصَّاعد
خمسون ألفاً قُتِلوا ضِيعَةً ... وأنتَ منهم دعوة الناشد
لا تَمرِيَنَّ الحربَ من قابِلٍ ... ما أنتَ في العَدوَةِ بالحامد
قَلَّدتُه طَوْقاً على نحرِهِ ... طوق الحمامِ الغردِ الفارِد
قصيدَةٌ حبَّرَها شاعِرٌ ... تسعَى بها البُرْدُ إلى خالِدِ

وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن هشام المخزوميّ؛ كذلك حدّثني أحمد بن ثابت، عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر.

وقد قيل: إن الذي حجّ بالناس في هذه السنة سليمان بن هشام.

وكانت عمّال الأمصار في هذه السنة عمّالها الذين كانوا في سنة إحدى عشرة ومائة، وقد ذكرناهم قبل.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائة
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك هلاك عبد الوهاب بن بُخت، وهو مع البطّال عبد الله بأرض الرّوم؛ فذكر محمد بن عمر، عن عبد العزيز بن عمر؛ أن عبد الوهاب بن بُخْت غزا مع البطّال سنة ثلاث عشرة ومائة، فانهزم الناس عن البطّال وانكشفوا، فجعل عبد الوهاب يكرّ فرسه وهو يقول: ما رأيتُ فرساً أجبَن منه، وسَفَك الله دمي إن لم أسفك دمك. ثم ألقى بيضته عن رأسه وصاح: أنا عبد الوهاب بن بُخت؛ أمِن الجنة تفرّون! ثم تقدّم في نحور العدوّ؛ فمرّ برجل وهو يقول: وا عطشاه! فقال: تقدّم؛ الرِّيّ أمامك؛ فخالط القوم فقُتِل وقُتل فرسه.

ومن ذلك ما كان من تفريق مسلمة بن عبد الملك الجيوشَ في بلاد خاقان ففتِحت مدائن وحصون على يديه، وقتل منهم، وأسر وسبَي، وحرَق خلق كثير من الترك أنفسَهم بالنار؛ ودان لمسلمة مَن كان وراء جبال بلنجر وقتل ابن خاقان.

ومن ذلك غَزْوة معاوية بن هشام أرضَ الروم فرابط من ناحية مَرْعش ثم رجع.

وفي هذه السنة صار من دُعاة بني العباس جماعة إلى خراسان، فأخذ الجنيد بن عبد الرحمن رجلاً منهم فقتله، وقال: من أصيب منهم فدمه هدرٌ.

وحجّ بالناس في هذه السنة ـ في قول أبي معشر ـ سليمان بن هشام بن عبد الملك؛ حدثني بذلك أحمد بن ثابت، عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى عن أبي معشر. وكذلك قال الواقديّ.

وقال بعضهم: الذي حجّ بالناس في هذه السنةإبراهيم بن هشامالمخزومي .وكان عمّال الأمصارفي هذه السنة هم الذّين كانوا عمّالها في سنة إحدى عشرة واثنتي عشرة؛ وقد مضى ذكرنا لهم.

ثم دخلت سنة أربع عشرة ومائة
ذكر الأخبار عن الأحداث التي كانت فيها

فمن ذلك غزوة معاوية بن هشام الصائفةَ اليسرى وسليمان بن هشام على الصّائفة اليمنى؛ فذُكر أنّ معاوية بن هشام أصاب رَبَض أقرن، وأن عبد الله البطال التقى وقسطنطين في جَمْعٍ فهزمهم؛ وأسر قسطنطين؛ وبلغ سليمانُ ابن هشام قيساريّة.

وفي هذه السنة عزلَ هشام بن عبد الملك إبراهيمَ بن هشام عن المدينة، وأمّر عليها خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم. قال الواقديّ: قدم خالد بن عبد الملك المدينة للنصف من شهر ربيع الأول؛ وكانت إمْرة إبراهيم بن هشام على المدينة ثماني سنين.

وقال الواقديّ: في هذه السنة وليَ محمد بن هشام المخزوميّ مكة.

وقال بعضُهم: بل وليَ محمد بن هشام مكة سنة ثلاث عشرة ومائة، فلما عزل إبراهيم أقرّ محمد بن هشام على مكة.

وفي هذه السنة وقع الطاعون ـ فيما قيل ـ بواسط.

وفيها قفل مسلمة بن عبد الملك عن الباب بعدما هزم خاقان وبنى الباب فأحكم ما هنالك.

وفي هذه السنة ولّى هشام مروانَ بن محمد أرمينيَة وأذْرَبيجان.

واختلف فيمَن حجّ في هذه السنة، فقال أبو معشر ـ فيما حدثني أحمد بن ثابت، عمّن حدثه، عن إسحاق بن عيسى، عنه: حجّ بالناس سنة أربع عشرة ومائة خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم؛ وهو على المدينة.

وقال بعضهم: حجّ بالناس في هذه السنة محمد بن هشام؛ وهو أمير مكة، فأقام خالد بن عبد الملك تلك السنة، لم يشهد الحجّ.

قال الواقديّ: حدثني بهذا الحديث عبد الله بن جعفر، عن صالح بن كيسان.

قال الواقديّ: وقال لي أبو معشر: حجّ بالناس سنة أربع عشرة ومائة خالد بن عبد الملك، ومحمد بن هشام على مكة. قال الواقديّ: وهو الثَّبَت عندنا.

وكان عمّال الأمصار في هذه السنة هم العمّال الذين كانوا في السنة التي قبلها؛ غير أنّ عامل المدينة في هذه السنة كان خالد بن عبد الملك، وعـامل مكـة والطائف محمـد بن هشام، وعـامل أرمينيَـة وأذْرَبيجان مروان بن محمد.

ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائة
ذكر الأخبار عما كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك غزوة معاوية بن هشام أرضَ الروم.

وفيها وقع الطاعون بالشام.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن هشام بن إسماعيل؛ وهو أمير مكة والطائف، كذلك قال أبو معشر، فيما حدثني أحمد بن ثابت، عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عنه.

وكان عمّال الأمصار في هذه السنة عمّالها في سنة أربع عشرة ومائة، غير أنه اختُلف في عامل خراسان في هذه السنة، فقال المدائنيّ: كان عاملها الجنيد بن عبد الرحمن، وقال بعضهم. كان عاملها عمارة بن حُرَيم المرّيّ. وزعم الذي قال ذلك أنّ الجنيد مات في هذه السنة، واستُخلف عمارة بن حُرَيم. وأما المدائنيّ فإنه ذكر أن وفاة الجنيد كانت في ستة عشرة ومائة.

وفي هذه السنة أصاب الناس بخُراسان قحط شديد ومجاعة، فكتب الجُنيد إلى الكور: إنّ مرْو كانت آمِنة مطمئنّة يأتيها رزقُها رغداً من كلّ مكان، فكفرت بأنعُم الله، فاحملوا إليها الطعام.

قال عليّ بن محمد: أعطى الجُنيد في هذه السنة رجلاً درهماً، فاشترى به رغيفاً، فقال لهم: تشكون الجوع ورغيف بدرهم! لقد رأيتُني بالهند وإن الحبّة من الحبوب لتباع عدداً بالدرهم؛ وقال: إنّ مَرْو كما قال الله عز وجل: ﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ﴾ [١].

---

(١) سورة النحل آية ١١٢.

ثم دخلت سنة ست عشرة ومائة
ذكر ما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من غزْوة معاوية بن هشام أرض الرّوم الصائفة.

وفيها كان طاعونٌ شديد بالعراق والشأم؛ وكان أشدّ ذلك ـ فيما ذكر ـ بواسط.

وفيها كانت وفاة الجُنيد بن عبد الرحمن وولاية عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلاليّ خراسان.

ذكر الخبر عن أمرهما:

ذكر عليّ بن محمد، عن أشياخه، أنّ الجُنيد بن عبد الرحمن تزّوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلّب، فغضب هشام على الجُنيد، وولّى عاصم بن عبد الله خراسان؛ وكان الجُنيد سَقَى بطنُه، فقال هشام لعاصم: إن أدركتَه وبه رمَق فأزهقْ نفسه، فقدم عاصم وقد مات الجنيد.

قال: وذكروا أنّ جبلة بن أبي روّاد دخل على الجُنيد عائداً، فقال: يا جبلة، ما يقول الناس؟ قال: قلت يتوجّعون للأمير؛ قال: ليس عن هذا سألتك، ما يقولون؟ وأشار نحو الشأم بيده. قال: قلت: يقدم على خراسان يزيد بن شجرة الرَّهاويّ، قال: ذلك سيّد أهل الشأم، قال: ومن؟ قلت: عصمة أو عصام، وكنّيت عن عاصم، فقال: إن قدِم عاصم فعدّو جاهد؛ لا مرحباً به ولا أهلا.

قال: فمات في مرضه ذلك في المحرّم سنة ست عشرة ومائة، واستخلف عمارة بن حُرَيم. وقدم عاصم بن عبد الله، فحبس عُمارة بن حُرَيم وعمال الجنيد وعذّبهم. وكانت وفاته بمرْو، فقال أبو الجُوَيرية عيسى بن عصمة يرثيه:

هلك الجُودُ والجنيدُ جميعاً ... فعلى الجود والجُنيدِ السّلامُ
أصبحا ثاوِيَيْن في أرض مَرْوٍ ... ما تَغَنَّتْ على الغُصونِ الحمامُ
كنتُمَا نُزْهَة الكرامِ فلما ... مِتَّ ماتَ النَّدَى وماتَ الكِرامُ

ثم إنّ أبا الجويرية أتى خالد بن عبد الله القسريّ وامتدحه، فقال له خالد: ألست القائل:

هلك الجود والجُنيد جميعاً

مالك عندنا شيء، فخرج فقال:

تظَلّ لامِعَة الآفاقِ تَحْمِلُنَا ... إلى عُمَارَةَ والقُودُ السَّرَاهِيدُ

قصيدة امتدح بها عُمارة بن حُرَيم، ابنَ عمّ الجنيد؛ وعُمارة هو جدّ أبي الهَيْذام صاحب العصبيّة بالشأم.

قال: وقدم عاصم بن عبد الله فحبس عمارة بن حُرَيم وعمال الجنيد وعذّبهم.

وفي هذه السنة خُلع الحارث بن سُرَيج، وكانت الحرب بينه وبين عاصم بن عبد الله.

ذكر الخبر عن ذلك:

ذكر عليّ عن أشياخه، قال: لما قدم عاصم خراسان والياً، أقبل الحارث بن سُرَيج من النّخُذ حتى وصل إلى الفارَياب، وقدم أمامه بشر بن جُرْمُوز. قال: فوجّه عاصم الخطّاب بن محرز السُّلميّ ومنصورَ بن عمر بن أبي الخرَفاء السُّلمي وهلال بن عُليم التميميّ والأشهب الحنظليّ وجرير بن هميان السدوسيّ ومقاتل بن حيّان النَبطيّ مولى مصقلة إلى الحارث؛ وكان خطّاب ومقاتل بن حيّان قالا: لا تلقوْه إلا بأمان، فأبى عليهما القوم؛ فلما انتهوا إليه بالفارياب قيّدهم وحبَسهم، ووكّل بهم رجلاً يحفظهم. قال: فأوثقوه وخرجوا من السّجن، فركبوا دوابّهم، وساقوا دوابّ البريد، فمرّوا بالطالقَان فهمّ سهْرَب صاحب الطالقَان بهم، ثم أمسك وتركهم. فلما قدموا مَرْو أمرهم عاصم فخطبوا وتناولوا الحارث، وذكروا خبث سيرته وغدره. ثم مضى الحارث إلى بَلْخ وعليها نصر، فقاتلوه؛ فهزم أهل بلْخ ومضى نصر إلى مرْو.

وذكر بعضهم: لما أقبل الحارث إلى بلخ وكان عليها التُّجيبيّ بن ضُبَيعة المرّيّ ونصر بن سيار، وولاّهما الجنيد. قال: فانتهى إلى قنطرة عطاء وهي على نهر بلْخ على فرسخين من المدينة، فتلقّى نصر بن سيار في عشرة آلاف والحارث بن سُريج في أربعة آلاف، فدعاهم الحارث إلى الكتاب والسنّة والبيعة للرضا؛ فقال قطن بن عبد الرحمن بن جُزيّ الباهليّ: يا حارث؛ أنت تدعو إلى كتاب الله والسنّة؛ والله لو أنّ جبريل عن يمينك وميكائيل عن يسارك ما أجبتُك؛ فقاتلهم فأصابته رمية في عينه؛ فكان أوّلَ قتيل. فانهزم أهلُ بلخ إلى المدينة، وأتبعهم الحارث حتى دخلَها؛ وخرج نصر من باب آخر، فأمر الحارثَ بالكفّ عنهم، فقال رجل من أصحاب الحارث: إني لأمشي في بعض طرق بلْخ إذ مررت بنساء يبكين وامرأة تقول: يا أبتاه! ليت شعري من دهاك! وأعرابيّ إلى جَنْبي يسير؛ فقال: مَنْ هذه الباكية؟ فقيل له: ابنة قَطَن بن عبد الرحمن بن جزيّ، فقال الأعرابيّ: أنا وأبيك دهيْتُك، فقلت: أنت قتَلته؟ قال: نعم.

قال: ويقال: قدم نصر والتُّجيبيّ على بلخ، فحبسه نصر، فلم يزل محبوساً حتى هزم الحارث نصراً وكان التجيبيّ ضرب الحارث أربعين سوطاً في إمْرة الجنيد، فحوّله الحارث إلى قلعة باذكر بزَمّ، فجاء رجل من بني حَنيفة فادّعى عليه أنه قتل أخاه أيام كان على هَراة، فدفعه الحارث إلى الحنفيّ، فقال له التُّجيبيّ: أفتدي منك بمائة ألف، فلم يقبل منه وقتله. وقوم يقولون: قُتِل التُّجيبيّ في ولاية نصر قبل أن يأتيَه الحارث.

قال: ولما غلب الحارث على بلْخ استعمل عليها رجلاً من ولَد عبد الله بن خازم، وسار، فلما كان بالجُوزجان دعاوابصةبن زُرارةالعبديّ، ودعا دجاجة ووحشاً العجليّيْن وبشر بن جُرموز وأبا فاطمة، فقال: ما ترون؟ فقال أبو فاطمة: مَرْو بَيْضة خراسان؛ وفرسانهم كثير؛ لو لم يلقوْك إلاّ بعبيدهم لانتصفوا منك، فأقم فإنْ أتوْك قاتلتَهم وإن أقاموا قطعت المادة عنهم، قال: لا أرى ذلك، ولكن أسير إليهم. فأقبل الحارث إلى مَرْو، وقد غلب على بلْخ والجُوزجان والفارياب والطالقَان ومرْو الرّوذ، فقال أهل الدين من أهل مَرْو: إن مضى إلى أبرشهر ولم يأتنا فَرّق جماعتنا، وإن أتانا نكب.

قال: وبلغ عاصماً أن أهل مَرْو يكاتبون الحارث، قال: فأجمع على الخروج وقال: يا أهل خراسان، قد بايعتم الحارث بن سُريج، لا يقصد مدينة إلا خلّيتموها له، إني لاحق بأرض قومي أبرشهر، وكاتبٌ منها إلى أمير المؤمنين حتى يمدّني بعشرة آلاف من أهل الشأم. فقال له المجشّر بن مزاحم: إن أعطوْك بيعتَهم بالطلاق والعَتاق فأقم، وإن أبوْا فسر حتى تنزل أبرشهر، وتكتب إلى أمير المؤمنين فيمدّك بأهل الشأم. فقال خالد بن هريم أحد بني ثعلبة بن يربوع وأبو محارب هلال بن عُلَيْم: والله لا نخلّيك والذهاب، فيلزمنا دَيْنك عند أمير المؤمنين، ونحن معك حتى نموت إن بذلت الأموال. قال: أفعل، قال يزيد بن قرّان الرّياحيّ: إن لم أقاتل معك ما قاتلتَ فابنةُ الأبرد بن قُرّة الرياحيّ طالق ثلاثاً - وكانت عنده - فقال عاصم: أكلّكم على هذا؟ قالوا: نعم. وكان سلمة بن أبي عبد الله صاحب حَرسه يحلّفهم بالطلاق.

قال: وأقبل الحارث بن سُريج إلى مَرْو في جمع كثير - يقال في ستين ألفاً - ومعه فرسان الأزْد وتميم؛ منهم محمد بن المثنّى وحمّاد بن عامر بن مالك الحِمانيّ وداود الأعسر وبشْر بن أُنَيف الرياحيّ وعطاء الدَّبُوسيّ. ومن الدهاقين الجوزجان وترسل دهقان الفارياب وسهرب ملك الطّالقان، وقرياقس دهقان مَرْو، في أشباههم.

قال: وخرج عاصم في أهل مَرْو وفي غيرهم؛ فعسكر بجياسر عند البيعة، وأعطى الجند ديناراً ديناراً، فخفّ عنه الناس، فأعطاهم ثلاثة دنانير ثلاثة دنانير، وأعطى الجند وغيرهم؛ فلما قرب بعضهم من بعض أمر بالقناطر فكيسرت، وجاء أصحاب الحارث فقالوا: تحصروننا في البرّية! دعونا نقطع إليكم فنناظركم فيما خرجنا له، فأبَوْا وذهب رجّالتهم يُصلِحون القناطر، فأتاهم رجّالة أهل مَرْو فقاتلوهم؛ فمال محمد بن المثنّى الفراهيذيّ برايته إلى عاصم فأمالها في ألفين فأتى الأزْد، ومال حماد بن عامر بن مالك الحِمّانيّ إلى عاصم، وأتى بني تميم.

قال سلمة الأزديّ: كان الحارث بعث إلى عاصم رسلاً - منهم محمد بن مسلم العنبريّ - يسألونه العملَ بكتاب الله وسنة نبيّه ﷺ. قال: وعلى الحارث بن سريج يومئذ السواد. قال: فلمّا مال محمد بن المثنى بدأ أصحاب الحارث بالحَملة، والتقى الناس؛ فكان أوّل قتيل غياث بن كلثوم من أهل الجارُود، فانهزم أصحاب الحارث، فغرِق بشر كثير من أصحاب الحارث في أنهار مَرْو والنهر الأعظم، ومضت الدّهاقين إلى بلادهم؛ فضُرِب يومئذ خالد بن علباء بن حبيب بن الجارود على وجهه، وأرسل عاصم بن عبد الله المؤمنَ بن خالد الحنفيّ وعِلباء بن أحمر اليشكريّ ويحيى بن عَقِيل الخُزاعيّ ومقاتل بن حيّان النَّبطي إلى الحارث يسأله ما يريد؟ فبعث الحارث محمدَبن مسلم العنبريّ وحدَه، فقال لهم: إنّ الحارث وإخوانكم يقرءونكم السلام، ويقولون لكم: قد عطشنا وعطشت دوابّنا، فدعونا ننزل الليلة، وتختلف الرّسل فيما بيننا ونتناظر؛ فإن وافقناكم على الذي تريدون وإلاّ كنتم مِنْ وراء أمركم؛ فأبوا عليه وقالوا مقالاً غليظاً؛ فقال مقاتل بن حيّان النبطّي: يا أهل خراسان؛ إنا كنا بمنزلة بيت واحد وثغرنا واحد؛ ويدنا على عدوّنا واحدة؛ وقد أنكرنا ما صنع صاحبكم؛ وجّه إليه أميرنا بالفقهاء والقرّاء من أصحابه، فوجّه رجلاً واحداً. قال محمد: إنما أتيتُكم مبلِّغاً، تطلب كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وسيأتيكم الّذي تطلبون من غد إن شاء الله تعالى.

وانصرف محمّد بن مسلم إلى الحارث، فلما انتصف الليل سار الحارث فبلغ عاصماً، فلما أصبح سار إليه فالتقوْا، وعلى ميمنة الحارث رابض بن عبد الله بن زرارة التغلَبي، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فحمل يحيى بن

حُضَين - وهو رأس بكر بن وائل، وعلى بكر بن وائل زياد بن الحارث بن سريج - فقتِلوا قتلاً ذريعاً، فقطع الحارث وادي مَرْو؛ فضرب رواقاً عند منازل الرّهبان، وكفّ عنه عاصم. قال: وكانت القتلى مائة، وقتِل سَعيد بن سعد بن جَزء الأزديّ، وغرق خازم بن موسى بن عبد الله بن خازم - وكان مع الحارث بن سُريج - واجتمع إلى الحارث زُهاء ثلاثة آلاف، فقال القاسم بن مسلم: لما هُزِم الحارث كفّ عنه عاصم، ولو ألحّ عليه لأهلكه. وأرسل إلى الحارث: إني رادّ عليك ما ضمنت لك ولأصحابك؛ على أن ترتحل؛ ففعل.

قال: وكان خالد بن عبيد الله بن حبيب أتى الحارث ليلة هزم، وكان أصحابه أجمعوا على مفارقة الحارث، وقالوا: ألم تزعم أنه لا يردّ لك راية! فأتاهم فسكّنهم.

وكان عطاء الدّبوسيّ من الفُرسان، فقال لغلامه يوم زَرْق: أسرِج لي بِرذَوْني لعلِّي ألاعب هذه الحمارة، فركب ودعا إلى البراز، فبرز له رجل من أهل الطالقان، فقال بلغته: إي كيرخَر.

قال أبو جعفر الطبريّ رحمه الله: وحجّ بالناس في هذه السنة الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وهو وليّ العهد؛ كذلك حدثني أحمد بن ثابت، عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر. وكذلك قال الواقديّ وغيره.

وكانت عمال الأمصار في هذه السّنة عمالها في التي قبلها إلاّ ما كان من خُراسان فإن عاملها في هذه السنة عاصم بن عبد الله الهلاليّ.

ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائة
ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها غزوة معاوية بن هشام الصّائفة اليسرى وغزوة سليمان بن هشام بن عبد الملك الصّائفَة اليمنى من نحو الجزيرة، وفرّق سراياه في أرض الروم.

وفيها بَعث مرْوان بن محمد ـ وهو على أرمينيَة ـ بعثيْن، فافتتح أحدهما حصوناً ثلاثة من اللاّن ونزل الآخر على تُومانشاه، فنزل أهلها على الصلح.

وفيها عزل هشام بن عبد الملك عاصمَ بن عبد الله عن خراسان، وضمها إلى خالد بن عبد الله، فولاّها خالد أخاه أسدَ بن عبد الله.

وقال المدائني: كان عزل هشام عاصماً عَن خراسان وضمّ خراسان إلى خالد بن عبد الله في سنة ستّ عشرة ومائة.

ذكر الخبر عن سبب عزل
هشام عاصماً وتوليته خالداً خراسان

وكان سبب ذلك ـ فيما ذكر عليّ عن أشياخه ـ أنّ عاصم بن عبد الله كتب إلى هشام بن عبد الملك: أمّا بعد يا أمير المؤمنين، فإنّ الرائد لا يكذب أهله؛ وقد كان من أمر أمير المؤمنين إليّ ما يحقّ به عليّ نصيحته؛ وإنّ خراسان لا تصلح إلاّ أن تضمّ إلى صاحب العراق؛ فتكون موادُّها ومنافعها ومعونتها في الأحداث والنوائب من قريب؛ لتباعد أمير المؤمنين عنها وتباطؤ غياثه عنها.

فلما مضى كتابه خرج إلى أصحابه يحيى بن حُضَين والمجشّر بن مزاحم وأصحابهم، فأخبرهم، فقال له المجشّر بعد ما مضى الكتاب: كأنّك بأسد قد طلع عليك. فقدم أسد بن عبد الله؛ بعث به هشام بعد كتاب عاصم بشهر، فبعث الكُميت بن زيد الأسديّ إلى أهل مَرْو بهذا الشعر:

ألا أَبْـلغْ جـمـاعَـةَ أَهْـل مَـرْو ... عـلى مـا كـانَ مِنْ نـأْيٍ وَبُـعْـدِ
رِسـالـةَ نـاصِـحٍ يُهْـدِي سـلامـاً ... ويَـأْمُـرُ في الـذي رَكِبُـوا بِـجَـدِّ
وأَبْـلِغْ حـارثـاً عَـنّـا اعْـتِـذاراً ... إلَـيْـهِ بِـأَنَّ مَنْ قِـبَـلي بِـجُـهْـدِ
وَلَـوْلا ذاكَ قَـدْ زارَتْـك خَـيْـلٌ ... مِنَ المِصْـرَينِ بـالفُـرْسـانِ تُـرْدِي

فَلا تهِنُوا ولا ترْضَوْا بِخَسْفٍ ... ولا يَغْرُرْكُمُ أسدٌ بعَهْدِ
وَكونوا كالبَغايا إنْ خُدِعْتُمْ ... وإنْ أقرَرْتُمُ ضَيْماً لِوَغْدِ
وَإلَّا فارْفَعُوا الراياتِ سُوداً ... على أهلِ الضلالَةِ والتَّعَدِّي
فَكَيْفَ وأنتُمُ سَبْعُونَ ألفاً ... رَماكُمْ خالِدٌ بِشَبيهِ قِرْدِ
وَمَنْ وَلَّى بذمَّتِهِ رَزيناً ... وَشِيعَتَهُ وَلَمْ يُوفِ بِعَهْدِ
ومَنْ غَشَّى قُضاعَةَ ثَوْبَ خِزْيٍ ... بِقَتْلِ أبي سلامَانَ بْنِ سَعْدِ
فَمَهلاً يا قُضاعَ فَلا تكوني ... تَوابِعَ لا أصُولَ لَها بِنَجْدِ
وكُنْتَ إذا دَعَوْتَ بَني نِزارٍ ... أتاكَ الدُّهْمُ مِنْ سَبْطٍ وَجَعْدِ
فَجُدِّعَ مِنْ قُضاعَةَ كلُّ أنفٍ ... ولا فازَتْ عَلى يَوْمٍ بِمَجْدِ

قال: ورَزِين الذي ذُكِر كأن خرج على خالد بن عبد الله بالكوفة، فأعطاه الأمان ثم لم يَفِ به.

وقال فيه نصر بن سيّار حين أقبل الحارث إلى مَرْو وسوّد راياته ـ وكان الحارث يرى رأى المرجِئة:

دَعْ عَنكَ دُنيا وَأهْلاً أنْتَ تارِكُهمْ ... ما خَيْرُ دُنيَا وأهْلٍ لا يَدُومُونا!
إلا بَقِيَّةَ أيامٍ إلى أجَلٍ ... فاطلُبْ مِنَ اللهِ أهلاً لا يَمُوتونا
أكثِر تقَى اللهِ في الإسْرارِ مُجْتَهِداً ... إنَّ التُّقى خَيْرُهُ ما كانَ مكْنُونا
واعْلَم بأنَّكَ بالأعمالِ مُرْتَهَنٌ ... فكن لذاكَ كثيرَ الهَمِّ مَحْزُونا
إني أرَى الغَبْنَ المُردِي بصاحِبِهِ ... مَنْ كانَ في هذه الأيامِ مَغْبُونا
تكونُ للمرءِ أطْواراً فتَمنَحُهُ ... يَوماً عِثاراً وطَوْراً تمنحُ اللينَا
بَينا الفَتى في نعِيمِ العَيْشِ حَوّلَهُ ... دَهْرٌ فأمسى بهِ عَنْ ذاكَ مَزبُونا
تحْلو لهُ مَرَّةً حَتَّى يُسَرَّ بِها ... حِيناً وَتُمقِرُهُ طَعماً أحايِينا
هل غابِرٌ مِنْ بَقايا الدَّهرِ تَنظُرُهُ ... إلَّا كما قد مضى فيما تُقَضُّونا
فامْنَحْ جهادَكَ مَنْ لم يَرْجُ آخِرَةً ... وكُن عَدُوّاً لقَومٍ لا يُصَلُّونا
واقتُلْ مُواليَهُم مِنّا ونَاصِرَهُمْ ... حِيناً تكَفِّرُهُمْ والعَنْهُمُ حِينا
والعائبِينَ عَلينا دِينَنا وهُم ... شَرُّ العِبادِ إذا خابَرتَهم دِينا
والقائلِين سبيلُ اللهِ بغْيَتُنا ... لَبُعدَ ما نكَبُوا عَمّا يَقُولُونا
فاقتُلْهُمُ غَضَباً للهِ مُنْتَصِراً ... مِنهم بِهِ وَدَعِ المُرتابَ مَفْتُونا
إرْجاؤكُم لزَّكُمْ والشِرْكَ في قَرَنٍ ... فأنتُمُ أهلُ إشراكٍ وَمُرْجُونا
لا يُبْعِدُ اللهُ في الأجْداثِ غَيْرَكُمُ ... إذ كانَ دِينكُمُ بالشِّرْكِ مَقْرُونا
ألقَى بِهِ اللهُ رُعباً في نُحُورِكُم ... واللهُ يَقضي لنَا الحُسْنى وَيُعلِينا
كَيْما نكُونَ المُوالي عِندَ خائِفَةٍ ... عمّا تَرُومُ بهِ الإسْلامَ والدِينا
وَهَلْ تَعيبُونَ مِنّا كاذِبِينَ بِهِ ... غالٍ وَمُهْتَضِمٍ، حَسْبي الذي فِينا
يأبَى الذي كانَ يُبْلِي اللهُ أوّلَكُمْ ... على النِّفاقِ وما قد كانَ يُبْلِينا

قال: ثم عاد الحارث لمحاربة عاصم، فلمّا بلغ عاصماً أن أسد بن عبد الله قد أقبل، وأنّه قد سيّر على

مقدمته محمد بن مالك الهَمْدانيّ، وأنه قد نزل الدندانَقان، صالح الحارث، وكتب بينه وبينه كتاباً على أن ينزل الحارث أيّ كورخراسان شاء، وعلى أن يكتبا جميعاً إلى هشام؛ يسألانه كتاب الله وسنة نبيه؛ فإن أبي اجتمعا جميعاً عليه. فختم على الكتاب بعض الرؤساء، وأبى يحيى بن حُضَين أن يَخْتم، وقال: هذا خلْعٌ لأمير المؤمنين؛ فقال خَلَف بن خليفة ليحيى:

أبَى هَمٌّ قلبِكَ إلَّا اجتماعا ... وَيَأْبَى رُقادُكَ إلا امْتناعَا
بِغيرِ سماعٍ ولم تَلقَني ... أحاوِلُ مِنْ ذَاتِ لهوٍ سماعا
حَفِظنا أُميةَ في مُلْكِها ... ونَخْطِرُ مِنْ دونِها أنْ تُراعَى
ندافِعُ عنها وعَنْ مُلْكِهَا ... إذَا لم نَجِدْ بِيَدَيْها امتِناعا
أبى شَعْبُ ما بيننَا في القديمِ ... وبَيْنَ أُمَيَّةَ إلا انصِداعا
أَلَمْ نَختطِفْ هامَةَ ابنِ الزُّبيرِ ... وتَنتَزِعِ المُلكَ منه انتِزاعا
جعلنا الخِلافَةَ في أهلِها ... إذا اصطَرَعَ الناسُ فيها اصطراعا
نَصرْنا أُميةَ بالمَشْرَفيِّ ... إذا انْخَلَعَ الملكُ عنها انخلاعاً
ومنَّا الذي شَدَّ أهلَ العراقِ ... ولو غابَ يَحيىَ عن الثَّغْرِ ضاعا
على ابنِ سُرَيجٍ نَقَضْنَا الأمورَ ... وقد كان أحكَمَها ما استطَاعا
حَكيمٌ مقالَتُهُ حِكْمَةٌ ... إذَا شتَّت القومِ كانت جَماعا
عَشيَّةَ زَرْقٍ وقد أزمَعُوا ... فَمَعْنا مِنَ الناكِثِينَ الزِّماعا
ولولاَ فتى وائلٍ لَمْ يكنْ ... لِيُنضِجَ فيها رَئيسٌ كُراعا
فَقلْ لأُميّةَ تَرْعَى لنا ... أيادِيَ لَمْ نُجزَها واصْطِناعا
أتُلِهينَ عَنْ قتلِ ساداتِنا ... ونأْبَى لِحقِّكِ إلَّا اتبّاعا
أمَنْ لَمْ يُبِعْكِ مِنَ المُشترينَ ... كآخَرَ صادَفَ سُوقاً فَباعا!
أبى ابنُ حُضَيْنٍ لِما تَصْنَعِـ ... ـينَ إلَّا اضطلاعا وإلَّا اتبّاعا
ولو يأْمَنُ الحارثُ الوائلينَ ... لراعكِ في بعض مَنْ كان راعا
وقد كانَ أصْعَرَ ذَا نَيْرَبٍ ... أشاعَ الضَّلالةَ فيما أشاعا
كَفَيْنَا أُميةَ مَختُومةً ... أطاعَ بها عاصِمٌ مَنْ أطاعا
فلولاَ مَرَاكِزُ راياتِنا ... مِن الجندخافَ الجنودُ الضِّياعا
وَصَلْنَا القَديمَ لَهَا بالحَديثِ ... وتأْبَى أمَيَّةُ إلا انْقِطَاعا
ذَخائِرُ في غَيْرِنَا نَفْعُها ... وما إنْ عَرَفنا لَهُنّ انتفاعا
وَلَوْ قَدَمَتْها وَبانَ الحِجا ... بُ لارْتَعْتِ بيْنَ حشاكِ ارتياعا
فأَينَ الوَفاءُ لأهلِ الوَفاءِ ... والشُّكْرُ أحْسَنُ مِنْ أن يُضاعا!
وَأَيْنَ ادِّخارُ بَنِي وائلٍ ... إذا الذُّخرُ في الناس كان ارتجاعا!
أَلَمْ تَعلَمِي أنَّ أسيافَنَاً ... تُداوِي العَلِيلَ وتَشْفي الصداعا!
إذَا ابْنُ حُضَيْنٍ غَدا باللوا ... ءِ أسلَم أهلُ القِلاعِ القِلاعا

إذا ابـنُ حُضَـيـن غـدَا بـالـلواءِ أشـارَ النُّسُـورَ بـه والـضِّبـاعـا
إذا ابـن حـضـيـنٍ غـدا بـالـلوا ءِ ذَكّـى وكـانَـتْ مَـعَـدٌّ جُـداعـا

قال: وكان عاصم بن سليمان بن عبد الله بن شَراحيل اليشكريّ من أهل الرّأي، فأشار على يحيى بنقض الصحيفة؛ وقال له: «غمراتٌ ثم ينجَلينَ»، وهي المغمِّضات، فغمّض.

قال: وكان عاصم بن عبد الله في قرية بأعلى مَرْو لكندة، ونزل الحارث قرية لبني العنبر؛ فالتقوْا بالخيل والرّجال، ومع عاصم رجل من بني عَبْس في خمسمائة من أهل الشأم وإبراهيم بن عاصم العُقَيليّ في مثل ذلك؛ فنادى منادي عاصم: مَنْ جاء برأسٍ فله ثلاثمائة درهم؛ فجاء رجل من عمّاله برأس وهو عاضٌ على أنفه، ثم جاءه رجل من بني ليث - يقال له ليث بن عبد الله - برأس، ثم جاء آخر برأس، فقيل لعاصم: إن طمع الناس في هذا لم يَدَعوا ملّاحاً ولا عِلْجاً إلا أتوْك برأسه؛ فنادى مناديه: لا يأتنا أحد برأس؛ فمن أتانا به فليس له عندنا شيء؛ وانهزم أصحابُ الحارث فأسروا منهم أسارَى، وأسروا عبد الله بن عمرو المازنيّ رأس أهل مَرْو الرّوذ، وكان الأسراء ثمانين؛ أكثرهم من بني تميم، فقتلهم عاصم بن عبد الله على نهر الداندنقان. وكانت اليمانية بعثت من الشأم رجلاً يعدل بألف يكنى أبا داود، أيّام العصبيّة في خمسمائة؛ فكان لا يمرّ بقرية من قُرى خراسان إلا قال: كأنكم بي قد مررتُ راجعاً حاملاً رأس الحارث بن سُريج؛ فلما التقوْا دعا إلى البراز، فبرز له الحارث بن سُريج، فضربه فَوْق منكبه الأيسر فصرعه، وحامى عليه أصحابه فحملوه فخولط؛ فكان يقول: يا أبرشهر الحارث بن سريجاه! يا أصحاب المعموراه! ورمِيَ فرس الحارس بن سريج في لَبَانه، فنزع النّشابة؛ واستحضره وألحّ عليه بالضّرب حتى نزّقه وعرّقه، وشغله عن ألم الجراحة.

قال: وحمل عليه رجل من أهل الشأم؛ فلما ظنّ أن الرمح مخالطُه؛ مال عن فرسه واتّبع الشأميّ، فقال له: أسألك بحرمة الإسلام في دمي! قال: انزل عن فرسك؛ فنزل وركبه الحارث، فقال الشأميّ: خذ السرج؛ فوالله إنه خير من الفرس، فقال رجل من عبد القيس:

تَـوَلَّتْ قـرَيشٌ لَـذَّةَ العَيْشِ وَاتَّقَتْ بِنـا كُـلَّ فَـجٍّ من خُـراسـان أغْبَـرا
فلَيتَ قُـرَيشـاً أصبحـوا ذات ليـلَةٍ يَعومُـونَ في لُـجٍّ من البحرِ أخضَـرا

قال: وعظّم أهل الشأم يحيى بن حُضَين لِما صنع في أمر الكتاب الذي كتبه عاصم، وكتبوا كتاباً، وبعثوا مع محمد بن مسلم العنبريّ ورجل من أهل الشأم، فلقوا أسد بن عبد الله بالرّيّ - ويقال: لقوه ببيْهق - فقال: ارجعوا فإني أصلح هذا الأمر، فقال له محمد بن مسلم: هُدمتْ داري، فقال: أبنيها لك، وأردّ عليكم كلّ مظلمة.

قال: وكتب أسد إلى خالد ينتحل أنه هزم الحارث، ويخبره بأمر يحيى. قال: فأجاز خالد يحيى بن حُضين بعشرة آلاف دينار وكساه مائة حُلّة. قال: وكانت ولاية عاصم أقلّ من سنة - قيل كانت سبعة أشهر - وقدم أسد ابن عبد الله وقد انصرف الحارث، فحبس عاصماً وسأله عمّا أنفق، وحاسبه فأخذه بمائة ألف درهم، وقال: إنك لم تغزُ ولم تخرج من مَرْو، ووافق عمارة بن حُرَيم وعمّال الجُنيد محبوسين عنده؛ فقال لهم: أسير فيكم بسيرتنا أم بسيرة قومكم؟ قالوا: بسيرتك، فخلّى سبيلَهم.

قال عليّ عن شيوخه: قالوا: لما بلغ هشامَ بن عبد الملك أمرُ الحارث بن سريج، كتب إلى خالد بن عبد الله: ابعث أخاك يصلح ما أفسد؛ فإن كانت رجيَّة فلتكن به. قال: فوجّه أخاه أسداً إلى خراسان، فقدِم أسد وما يملك عاصم من خراسان إلاّ مَرْو وناحية أبرشهر، والحارث بن سريج بمَرْو الرّوذ وخالد بن عبيد الله الهجريّ بآمُل، ويخاف إن قصد للحارث بمَرْو الروذ دخل خالد بن عبيد الله مَرْو من قِبَل آمُل، وإن قصد لخالد دخلها الحارث من قِبَل مَرْو الرّوذ، فأجمع على أن يوُجّه عبد الرحمن بن نُعيم الغامديّ في أهل الكوفة وأهل الشام في طلب الحارث إلى ناحية مَرْو الرّوذ. وسار أسد بالناس إلى آمُل، واستعمل على بني تميم الخَوْثرة بن يزيد العنبريّ، فلقيهم خيل لأهل آمُل، عليهم زياد القرشيّ مولى حيّان النَّبَطي عند ركايا عثمان، فهزمهم حتى انتهوْا إلى باب المدينة، ثم كرُّوا على الناس، فقتل غلام لأسد بن عبد الله يقال له جَبَلة؛ وهو صاحب عَلَمه، وتحصّنوا في ثلاث مدائن لهم.

قال: فنزل عليهم أسد وحصَرهم، ونصب عليهم المجانيق، وعليهم خالد بن عبيد الله الهجريّ من أصحاب الحارث، فطلبوا الأمان، فخرج إليهم رويد بن طارق القطعيّ ومولى لهم، فقال: ما تطلبون؟ قالوا: كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، قال: فلكم ذلك، قالوا: على ألاّ تأخذ أهل هذه المدن بجنايتنا. فأعطاهم ذلك، واستعمل عليهم يحيى بن نعيم الشيبانيّ أحد بني ثعلبة بن شيبان، ابن أخي مصقلة بن هبيرة. ثم أقبل أسد في طريق زمّ يريد مدينة بلْخ؛ فتلقاه مولىً لمسلم بن عبد الرحمن، فأخبره أنّ أهل بلخ قد بايعوا سليمان بن عبد الله بن خازم. فقدم بلخ، واتّخذ سفناً وسار منها إلى التّرمذ، فوجد الحارث محاصراً سنانا الأعرابيّ السُّلميّ، ومعه بنو الحجّاج بن هارون النميريّ، وبنو زُرْعة وآل عطية الأعور النّضريّ في أهل التّرمذ، والسبل مع الحارث، فنزل أسد دون النّهر، ولم يطق القطوع إليهم ولا أن يمدّهم، وخرج أهل التِّرمذ من المدينة، فقاتلوا الحارث قتالاً شديداً، وكان الحارث استطردهم، ثم كرّ عليهم، فانهزموا فقتل يزيد بن الهيثم بن المنخّل وعاصم بن معوّل النّجليّ في خمسين ومائة من أهل الشأم وغيرهم؛ وكان بشر بن جُرموز وأبو فاطمة الأياديّ ومن كان مع الحارث من القرى يأتون أبواب التِّرمذ، فيبكون ويشكون بني مَرْوان وجَوْرَهم؛ ويسألونهم النُّزول إليهم على أن يمالئوهم على حَرْب بني مروان فيأبَوْن عليهم؛ فقال السبُل وهو مع الحارث: يا حارث؛ إن الترمذ قد بُنيت بالطبول والمزامير؛ ولا تُفتَح بالبكاء وإنما تفتح بالسيف، فقاتِل إن كان بك قتال. وتركه السبل وأتى بلاده.

قال: وكان أسد حين مرّ بأرض زَمّ تعرّض للقاسم الشيبانيّ وهو في حصن بزمّ يقال له باذكر؛ ومضى حتى أتى التّرْمذ، فنزل دون النهر، ووضع سريره على شاطيء النهر؛ وجعل الناس يعبرون؛ فمن سفلت سفينته عن سفن المدينة قاتلهم الحارث في سفينة؛ فالتقوْا في سفينة فيها أصحاب أسَد، فيهم أصغر بن عيناء الحميريّ، وسفينةُ أصحاب الحارث فيها داود الأعسر، فرمى أصغر فصَكّ السفينة، وقال: أنا الغلام الأحمريّ، فقال داود الأعسر: لأمْرٍ ما انتميت إليه، لا أرض لك! وألزق سفينته بسفينة أصغر فاقتتلوا؛ وأقبل الأشكند ـ وقد أراد الحارث الانصراف ـ فقال له: إنما جئتك ناصراً لك؛ وكمن الأشكند وراء دير؛ وأقبل الحارث بأصحابه؛ وخرج إليه أهل التِّرمذ، فاستطرد لهم فاتّبعوه، ونصر مع أسد جالس ينظر؛ فأظهر الكراهيَة، وعرف أنّ الحارث قد كادهم، فظنّ أسد أنه إنما فعل ذلك شفقة على الحارث حين ولّى؛ فأراد أسد معاتبة نصر؛ فإذا الأشكند قد خرج عليهم؛ فحمل على أهل التِّرمذ فهربوا. وقتِل في المعركة يزيد بن الهيثم بن المنخّل الجرموزيّ

من الأزْد وعاصم بن معوّل ـ وكان من فرسان أهل الشأم ـ ثم ارتحل أسد إلى بلْخ، وخرج أهل التِّرمذ إلى الحارث فهزموه؛ وقتلوا أبا فاطمة وعِكْرمة وقوماً من أهل البصائر، ثم سار أسد إلى سَمَرْقند في طريق زَمّ؛ فلما قدم زَمّ بعث إلى الهيثم الشيبانيّ ـ وهو في باذكر؛ وهو من أصحاب الحارث ـ فقال: إنّكم إنما أنكرتم على قومكم ما كان من سوء سيرتهم؛ ولم يبلغ ذلك النّساء ولا استحلال الفُروج ولا غلبة المشركين على مثل سمرْقند؛ وأنا أريد سمَرْقند؛ وعليّ عهد الله وذمّته ألاّ يبدأك مني شرٌّ؛ ولك المؤاساة واللطف والكرامة والأمان ولمن معك؛ وأنت إن غمصت ما دعوتُك إليه فعليّ عهد الله وذمّة أمير المؤمنين وذمّة الأمير خالد إن أنت رميتَ بسهم ألاّ أؤمّنك بعده؛ وإن جعلتُ لك ألف أمان لا أفي لك به. فخرج إليه على ما أعطاه من الأمان فآمنه، وسار معه إلى سَمَرْقند فأعطاهم عطاءين، وحملهم على ما كان من دوابّ ساقها معه، وحمل معه طعاماً من بُخارى، وساق معه أشياءً كثيرة من شاء الأكراد قسمها فيهم؛ ثم ارتفع إلى ورغْسَر وماءُ سمرقند منها، فسكر الوادي وصرفه عن سَمَرْقند؛ وكان يحمل الحجارة بيديه حتى يطرحها في السّكْر، ثم قفل من سَمَرْقند حتى نزل بلْخ.

وقد زعم بعضُهم أن الذي ذكرت من أمر أسد وأمر أصحاب الحارث كان في سنة ثمان عشرة.

وحجّ بالناس في هذه السّنة خالد بن عبد الملك.

وكان العامل فيها على المدينة، وعلى مكة والطائف محمد بن هشام بن إسماعيل، وعلى العراق والمشرق خالد بن عبد الله، وعلى أرمينيَة وأذربيجان مروان بن محمد.

وفيها توفّيت فاطمة بنت عليّ وسكينة ابنة الحسين بن عليّ.

وفي هذه السنة أخذ أسد بن عبد الله جماعة من دُعاة بني العباس بخراسان، فقتل بعضهم، ومثّل ببعضهم، وحبس بعضهم؛ وكان فيمن أخذ سليمان بن كَثِير ومالك بن الهيثم وموسى بن كعب ولاهِز بن قريظ وخالد بن إبراهيم وطلحة بن رُزَيق؛ فأتِيَ بهم، فقال لهم: يا فَسَقة، ألم يقل الله تعالى: ﴿ عَفا اللهُ عَمَّا سَلفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتقِمُ اللهُ منه والله عَزِيزٌ ذُو انتِقام ﴾ [1]! فذُكر أن سليمان بن كثير قال: أتكلم أم أسكت؟ قال: بل تكلّم، قال: نحن والله كما قال الشاعر:

لـو بـغـيـر الـمـاءَ حَـلْقـي شَـرِقٌ … كنتُ كـالغَصَّـانِ؛ بـالمـاءِ اعْتِصـارِي

تدري ما قصتنا؟ صِيدت والله العقارب بيدك أيّها الأمير! إنا أناس من قومك، وإن هذه المضرّية إنما رفعوا إليك هذا لأنا كنا أشدّ الناس على قتيبة بن مسلم؛ وإنما طلبوا بثأرهم. فتكلّم ابنُ شريك بن الصامت الباهليّ، وقال: إنّ هؤلاء القوم قد أخِذُوا مرّة بعد مرّة، فقال مالك بن الهيثم: أصلح الله الأمير! ينبغي لك أن تعتبر كلام هذا بغيره؛ فقالوا: كأنك يا أخا باهلة تطلبنا بثأر قتيبة! نحن والله كنا أشدّ الناس عليه؛ فبعث بهم أسد إلى الحبس، ثم دعا عبد الرحمن بن نُعيم فقال له: ما ترى؟ قال: أرى أن تمنّ بهم على عشائرهم؛ قال: فالتميميان اللذان معهم؟ قال: تخلّي سبيلهما، قال: أنا إذاً من عبد الله بن يزيد نفِيّ، قال: فكيف تصنع بالرّبعيّ؟ قال: أخلّي والله سبيله. ثم دعا بموسى بن كعب وأمر به فألجم بلجام حمار، وأمر باللجام أن يجذب فجذِب حتى تحطّمت أسنانه، ثم قال: اكسروا وجهه، فدُقّ أنفه، ووجأ لحيته، فنَدَر ضرس له. ثم دعا

---

(١) سورة المائدة ٩٥.

بلاهز بن قريط، فقال لاهز: والله ما في هذا الحق أن تصنع بنا هذا، وتترك اليمانيّين والرَّبَعيين، فضربه ثلاثمائة سوط، ثم قال: اصلبوه فقال الحسن بن زيد الأزديّ: هو لي جار وهو بريء مما قُذِف به؛ قال: فالاخرون؟ قال: أعرفهم بالبراءة، فخلّى سبيلهم.

ثم دخلت سنة ثمان عشرة ومائة

ذكر الخبر عما كان في هذه السنة من الأحداث

فمن ذلك غزوة معاوية وسليمان ابني هشام بن عبد الملك أرض الروم

وفيها وجّه بكير بن ماهان عمّار بن يزيد إلى خُراسان والياً على شِيعة بني العباس؛ فنزل - فيما ذكر - مرْو، وغيّر اسمه وتسمّى بخِداش، ودعا إلى محمد بن عليّ؛ فسارع إليه الناس، وقبلوا ما جاءهم به؛ وسمعوا إليه وأطاعوا، ثم غيّر ما دعاهم إليه، وتكذّب وأظهر دين الخُرّميّة؛ ودعا إليه ورخّص لبعضهم في نساء بعض؛ وأخبرهم أن ذلك عن أمر محمد بن عليّ؛ فبلغ أسد بن عبدالله خبرُه، فوضع عليه العيون حتى ظفر به، فأُتيَ به؛ وقد تجهّز لغزو بلخ؛ فسأله عن حاله، فأغلظ خِداش له القول، فأمر به فقطِعت يده، وقلع لسانه وسُملت عينه.

فذكر محمد بن عليّ عن أشياخه، قال: لما قدم أسد آمُل في مبدئه، أتوه بخِداش صاحب الهاشميّة، فأمر به قُرْعة الطبيب، فقطع لسانه، وسمل عينه، فقال: الحمد لله الذي انتقم لأبي بكر وعمر منك! ثم دفعه إلى يحيى بن نعيم الشّيبانيّ عامل آمُل. فلما قفل من سَمَرْقند كتب إلى يحيى فقتله وصلبه بآمُل، وأُتيَ أسد بحزَوّر مولى المهاجر بن دار الضّبيّ، فضرب عنقه بشاطىء النهر. ثم نزل أسد منصرفَه من سَمَرْقند بلْخ، فسرَّح جُدَيْعاً الكِرمانيَّ إلى القلعة التي فيها ثَقَل الحارث وثقل أصحابه - واسم القلعة التّبوشكان من طخارستان العليا، وفيها بنو بَرْزَى التّغلبيّون، وهم أصهار الحارث - فحصرهم الكرمانيّ حتى فتحها، فقتل مقاتلتَهم وقتل بني بَرْزَى، وسبى عامّة أهلها من العرب والموالي والذراريّ، وباعهم فيمن يزيد في سوق بلخ، فقال عليّ بن يَعْلَى - وكان شهد ذلك: نقم على الحارث أربعمائة وخمسون رجلاً من أصحابه؛ وكان رئيسهم جرير بن ميمون القاضي؛ وفيهم بشر بن أنيف الحنظليّ وداود الأعسر الخوارزميّ. فقال الحارث: إن كنتم لا بد مفارقيّ وطلبتم الأمان، فاطلبوه وأنا شاهد؛ فإنه أجدر أن يجيبوكم، وإن ارتحلتُ قبل ذلك لم يعطوا الأمان، فقالوا: ارتحل أنت وخلّنا. ثم بعثوا بشر بن أنيف ورجلاً آخر، فطلبوا الأمان فأمّنهما أسد ووصلهما، فغدروا بأهل القلْعة، وأخبراه أنّ القوم ليس لهم طعامٌ ولا ماءٌ، فسرَّح أسد الكرمانيّ في ستة آلاف؛ منهم سالم بن منصور البَجَليّ، على ألفين، والأزهر بن جُرموز النميريّ في أصحابه، وجند بلْخ وهم ألفان وخمسمائة من أهل الشأم؛ وعليهم صالح بن القعقاع الأزديّ؛ فوجّه الكِرمانيّ منصور بن سالم في أصحابه، فقطع نهر ضرغام؛ وبات ليله وأصبح، فأقام حتى متَع النهار؛ ثم سار يومَه قريباً من سبعة عشر فرسخاً، فأتعب خيله، ثم انتهى إلى كشتم من أرض جبغويه؛ فانتهى إلى حائط فيه زَرْع قد قُصّب، فأرسل أهل العسكر دوابّهم فيه، وبينهم وبين القلعة أربع فراسخ. ثم ارتحل فلما صار إلى الوادي جاءته الطلائع فأخبرته بمجيء القوم ورأسهم المهاجر بن ميمون؛

فلما صاروا إلى الكِرْماني كابدهم فانصرفوا، وسار حتى نزل جانباً من القلعة؛ وكان أول ما نزل في زهاء خمسمائة في مسجد كان الحارث بناه؛ فلما أصبح تتامّت إليه الخيل، وتلاحقت من أصحاب الأزهر وأهل بلْخ.

فلما اجتمعوا خطبهم الكرمانيّ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يأهلَ بلخ؛ لا أجد لكم مثلا غيرَ الزّانية؛ مَنْ أتاها أمكنته من رجلها؛ أتاكم الحارث في ألف رجل من العجم فأمكنتموه من مدينتكم، فقتل أشرافكم، وطرد أميرَكم، ثم سرتم معه من مكانفيه إلى مَرْو فخذلتموه، ثم انصرف إليكم منهزماً فأمكنتموه من المدينة؛ والذي نفسي بيده لا يبلغني عن رجل منكم كتب كتاباً إليهم في سَهْم إلا قطعتُ يده ورجله وصلبتُه؛ فأما مَن كان معي من أهل مَرْو فهم خاصتي، ولست أخاف غدرهم، ثم نهد إلى القلعة فأقام بها يوماً وليلة من غير قتال؛ فلما كان من الغد نادى مناد: إنا قد نَبَذْنا إليكم بالعهد؛ فقاتلوهم؛ وقد عطش القوم وجاءوا؛ فسألوا أن ينزلوا على الحكم ويُترك لهم نساؤهم وأولادهم، فنزلوا على حكم أسد، فأقام أياماً. وقدم المهلب بن عبد العزيز العتَكيّ بكتاب أسد، أن احملوا إليّ خمسين رجلاً منهم؛ فيهم المهاجر بن ميمون ونظراؤه من وجوههم؛ فحملوا إليهم فقتلهم؛ وكتب إلى الكرمانيّ أن يصيّر الذين بقوا عنده أثلاثاً، فثلُث يصلبّهم، وثلث يقطع أيديهم وأرجلهم، وثلث يقطع أيديهم؛ ففعل ذلك الكِرمانيّ، وأخرج أثقالهم فباعها فيمن يزيد، وكان الذين قتلهم وصلبهم أربعمائة. واتّخذ أسد مدينة بلخ داراً في سنة ثمان عشرة ومائة، إليها الدواوين واتخذ المصانع، ثم غزا طَخارستان ثم أرض جبْغويه، ففتح وأصاب سَبْياً.

وفي هذه السنة عزل هشام خالدَ بن عبد الملك بن الحارث بن الحَكَم عن المدينة، واستعمل عليها محمد بن هشام بن إسماعيل. ذكر الواقديّ أن أبا بكر بن عمرو بن حَزْم يوم عزِل خالد عن المدينة جاءه كتاب بإمْرته على المدينة؛ فصعد المنبر، وصلى بالنّاس ستّة أيام، ثم قدم محمد بن هشام من مكة عاملاً على المدينة.

وفي هذه السنة مات عليّ بن عبدالله بن العباس؛ وكان يكنى أبا محمد، وكانت وفاته بالحُمَيْمة من أرض الشأم؛ وهو ابن ثمان ـ أو سبع ـ وسبعين سنة.

وقيل إنه ولد في الليلة التي ضرب فيها عليّ بن أبيَ طالب وذلك ليلة سبع عشرة من رمضان من سنة أربعين، فسمّاه أبوه عليًا، وقال: سميته باسم أحبّ الخلق إليّ، وكناه أبا الحسن، فلما قدم على عبد الملك بن مروان أكرمه وأجلسه على سريره، وسأله عن كنيته فأخبره، فقال: لا يجتمع في عسكري هذا الاسم والكنية لأحد؛ وسأله: هل وُلِدَ له من ولد؟ وكان قد ولد له يومئذ محمد بن عليّ، فأخبره بذلك، فكناه أبا محمد.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن هشام وهو أمير مكة والمدينة والطائف.

وقد قيل إنما كان عامل المدينة في هذه السنة خالد بن عبد الملك، وكان إلى محمد بن هشام فيها مكة والطائف؛ والقول الأول قول الواقديّ.

وكان على العراق خالد بن عبدالله، وإليه المشرق كله، وعامله على خُراسان أخوه أسد بن عبدالله، وعامله على البصرة وأحداثها وقضائها والصّلاة بأهلها بلال بن أبي بُرْدة، وعلى أرمينيَة وأذْرَبيجان مَرْوان بن محمد بن مروان.

ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك غزوة الوليدبن القعقاع العبسيّ أرضَ الروم.

وفيها غزا أسد بن عبدالله الخُتَّل، فافتتح قلعة زغرزك؛ وسار منها إلى خِداش، وملأ يديه من السبْي والشاء؛ وكان الجيش قد هرب إلى الصين.

وفيها لقي أسد خاقان صاحب الترك فقتله، وقتل بشراً كثيراً من أصحابه، وسلم أسد والمسلمون، وانصرفوا بغنائم كثيرة وسَبْي.

ذكر الخبر عن هذه الغزوة:

ذكر عليّ بن محمد عن شيوخه؛ أنهم قالوا: كتب ابن السائجيّ إلى خاقان أبي مُزاحم - وإنما كني أبا مزاحم لأنه كان يزاحم العرب - وهو مُوالث، يعلمه دخول أسد الختَّل وتفرّق جنوده فيها؛ وأنه بحالٍ مَضِيعةٍ. فلما أتاه كتابه أمر أصحابه بالجهاز - وكان لخاقان مرْج وجبل حمًى لا يقربهما أحد، ولا يتصيّد فيهما، يتركان للجهاد فضاء، ما كان في المَرْج ثلاثة أيام، وما في الجبل ثلاثة أيام - فتجهّزوا وارتعوا ودبغوا مُسوك الصّيد؛ واتخذوا منها أوعية؛ واتخذوا القسيّ والنّشّاب، ودعا خاقان ببرذون مسرَج ملجَم، وأمر بشاة فقُطِعت ثم عُلّقت في المعاليق. ثم أخذ شيئاً من مِلْح فصيّره في كيس، وجعله في منطقته؛ وأمر كلّ تركيّ أن يفعل مثل ذلك، وقال: هذا زادكم حتى تلقوا العرب بالخُتَّل.

وأخذ طريق خُشوراغ؛ فلما أحسّ ابن السائجيّ أنّ خاقان قد أقبل بعث إلى أسد: اخرج عن الختّل فإن خاقان قد أظلّك. فشتم رسولَه، ولم يصدّقه؛ فبعث صاحب الخُتّل: إنّي لم أكذبك؛ وأنا الذي أعلمته دخولك؛ وتفرّق جندك، وأعلمته أنها فُرْصة له، وسألته المدد، غير أنك أمعرت البلاد، وأصبت الغنائم؛ فإن لقيك على هذه الحال ظفِر بك؛ وعادتني العرب أبداً ما بقيت. واستطال عليّ خاقان واشتدّت مؤونته؛ وامتنّ عليّ بقوله: أخرجتُ العرب من بلادك، ورددت عليك ملكك؛ فعرف أسد أنه قد صدّقه، فأمر بالأثقال أن تُقدّم، وولّى عليها إبراهيم بن عاصم العقيليّ الجَزريّ، الذي كان ولِّى سجستان بعدُ، وأخرج معه المشيخة، فيهم كَثِير بن أمية، أبو سليمان بن كثير الخُزاعيّ وفُضَيل بن حيّان المهريّ وسنان بن داود القطعيّ، وكان على أهل العالية سِنان الأعرابيّ السُّلميّ، وعلى الأقباض عثمان بن شباب الهَمَذانيّ، جدّ قاضي مَرْو، فسارت الأثقال؛ فكتب أسد إلى داود بن شُعيب والأصبغ بن ذؤالة الكلبيّ - وقد كان وجّههما في وجه: إنّ خاقان قد أقبل، فانضمّا إلى الأثقال؛ إلى إبراهيم بن عاصم.

قال: ووقع إلى داود والأصبغ رجل دَبُوسيّ، فأشاع أنّ خاقان قد كسر المسلمين، وقتل أسداً.

وقال الأصبغ: إن كان أسد ومَن معه أصيبوا فإنّ فينا هشاماً ننحاز إليه؛ فقال داود بن شعيب: قبح الله الحياة بعد أهل خراسان! فقال الأصبغ: حبّذا الحياة بعد أهل خراسان! قتِل الجرّاح ومن معه فما ضرّ المسلمين كثير ضرّ، فإن هلك أسد وأهل خراسان فلن يخذل الله دينَه، وإنّ الله حيّ قيوم؛ وأمير المؤمنين حيّ وجنود المسلمين كثير. فقال داود: أفلا تنظر ما فعل أسد فنخرج على علم! فسارا حتى شارفا عسكر إبراهيم فإذا هما بالنِّيران، فقال داود: هذه نيران المسلمين أراها متقاربة ونيران الأتراك متفرّقة؛ فقال الأصبغ: هم في مَضِيق. ودنَوا فسمعوا نهيق الحمير، فقال داود: أما علمت أنّ الترك ليس لهم حمير! فقال الأصبغ: أصَابوها بالأمس؛ ولم يستطيعوا أكلها في يوم ولا اثنين؛ فقال داود: نسرّح فارسين فيكبِّران؛ فبعثا فارسين؛ فلما دنَوا من العسكر كبّرا، فأجابها العسكر بالتكبير، فأقبلوا إلى العسكر الذي فيه الأثقال؛ ومع إبراهيم أهل الصغَانيان وصَغان خُذاه؛ فقام إبراهيم بن عاصم مبادراً.

قال: وأقبل أسد من الختّل نحو جبل المِلْح يريد أن يخوض نهر بَلْخ، وقد قطع إبراهيم بن عاصم بالسبْي وما أصاب. فأشرف أسد على النهر وقد أتاه أن خاقان قد سار من سوياب سبع عشرة ليلة، فقام إليه أبو تمام بن زَحْر وعبد الرحمن بن خنفر الأزديّان، فقالا: أصلح الله الأمير! إنِ اللّهُ قد أحسن بلاءك في هذه الغزوة فغنمت وسلمت فاقطعْ هذه النّطفة، واجعلها وراء ظهرك. فأمر بهما فُوجِئَت رقابهما، وأُخرِجا من العسكر وأقام يومه. فلما كان من الغد ارتحلَ وفي النّهر ثلاثة وعشرون موضعاً يخوضه النّاس، وفي موضع مجتمع ماء يبلغ دفّتي السرّج، فخاضه الناس، وأمر أن يحمل كلّ رجل شاة، وحمل هو بنفسه شاة؛ فقال له عثمان بن عبدالله بن مطرِّف بن الشِّخِّير: إنّ الذي أنت فيه من حمل الشاة ليس بأخطر مما تخاف؛ وقد فرّقتَ الناس وشغلتهم، وقد أظلك عدوُّك، فدَعْ هذا الشاء لعنة الله عليه، وأمر الناس بالاستعداد. فقال أسد: والله لا يعبُر رجل ليست معه شاة حتى تفنى هذه الغنم إلا قطعت يدَه، فجعل الناس يحملون الشّاء؛ الفارس يحملها بين يديه والراجل على عُنقه؛ وخاض الناس. ويقال: لما حفرت سنابك الخيل النهر صار بعض المواضع سباخة فكان بعضهم يميل فيقع عن دابته، فأمر أسد بالشاء أن تقذف، وخاض الناس، فما استكملوا العبور حتى طلعت عليهم الترك بالدّهْم، فقتلوا مَن لم يقطع، وجعل الناس يقتحمون النّهر ـ ويقال كانت المسلحة على الأزْد وتميم، وقد خُلِّف ضَعفة الناس ـ وركب أسد النّهر، وأمر بالإبل أن يقطع بها إلى ما وراء النهر، حتى تحمل عليها الأثقال؛ وأقبل رَهَجٌ من ناحية الخُتَّل؛ فإذا خاقان؛ فلما توافَى معه صدْر من جنده حمل على الأزْد وبني تميم فانكشفوا، وركض أسد حتى انصرف إلى معسكره، وبعث إلى أصحاب الأثقال الذين كانوا سرّح أمامه. أن انزلوا وخندقوا مكانكم في بطن الوادي. قال: وأقبل خاقان، فظنّ المسلمون أنه لا يقطع إليهم وبينهم وبينه النهر؛ فلما نظر خاقان إلى النّهر أمر الأشكند ـ وهو يومئذ أصبهبذ نسف ـ أن يسير في الصفّ حتى يبلغ أقصاه، ويسأل الفرسان وأهل البَصَر بالحرب والماء: هل يطاق قطوع النهر والحمل على أسد؟ فكلّهم يقول: لا يطاق؛ حتى انتهى إلى الأشتِيخَن، فقال: بلى يطاق، لأنّا خمسون ألف فارس؛ فإذا نحن اقتحمنا دفعة واحدة ردّ بعضنا عن بعض الماء فذهب جَرْبته. قال: فضربوا بكوساتهم فظنّ أسد ومن معه أنه منهم وعيد، فأقحموا دوابّهم، فجعلت تنخر أشدّ النخير؛ فلما رأى المسلمون اقتحامَ الترك ولّوا إلى العسكر، وعبرت الترك فسطع رَهَجٌ عظيم لا يبصر الرّجل دابّته، ولا يعرف بعضهم بعضاً؛ فدخل المسلمون عسكَرهم وحَوَوْا ما كان خارجاً، وخرج الغلمان

بالبراذِع والعَمد، فضربوا وجوه الترك؛ فأدبروا، وبات أسد؛ فلما أصبح ـ وقد كان عبّأ أصحابه من الليل تخوّفاً مِنغَدْر خاقان وغدّوه عليه، ولم ير شيئاً ـ دعا وجوه الناس فاستشارهم، فقالوا له: اقبل العافية، قال: ما هذه عافية، بل هي بليّة، لقينا خاقان أمس فظفر بنا وأصاب من الجند والسلاح؛ فما منعه منّا اليوم إلا أنه قد وقع في يديه أسراء فأخبروه بموضع الأثقال أمامنا، فترك لقاءنا طمعاً فيها. فارتحل فبعث أمامه الطلائع، فرجع بعضهم فأخبره أنه عاين طوقات الترك وأعلاماً من أعلام الإشكند، في بشر قليل. فسار والدوابّ مثقلة، فقيل له: انزل أيها الأمير واقبل العافية، قال: وأين العافية فأقبلَها! إنما هي بليّة وذهاب الأنفس والأموال. فلما أمسى أسد صار إلى منزل، فاستشار الناس: أينزلون أم يسيرون؟ فقال الناس: اقبل العافية؛ وما عسى أن يكون ذهاب المال بعافيتنا وعافية أهل خراسان! ونصر بن سيار مطرِق، فقال أسد: مالك يابن سيار مطرقاً لا تتكلم! قال: أصلح الله الأمير! خَلّتان كلتاهما لك، إن تَسِرْ تُغِثْ مَنْ مع الأثقال وتخلّصهم، وإن أنت انتهيت إليهم وقد هلكوا فقد قطَعتَ قُحْمة لا بدّ من قطوعها. فقبل رأيه وسار يومه كلّه.

قال: ودعا أسد سعيداً الصغير ـ وكان فارساً مولى باهلة، وكان عالماً بأرض الخُتّل ـ فكتب كتاباً إلى إبراهيم يأمره بالاستعداد؛ فإنّ خاقان قد توجّه إلى ما قِبَلك، وقال: سِرْ بالكتاب إلى إبراهيم حيث كان قبل الليل؛ فإن لم تفعل فأسد بريء من الإسلام إن لم يقتلْك؛ وإن أنت لحقت بالحارث فعلى أسدٍ مثلُ الذي حلَف، وإن لم يبع امرأتك الدلاّلُ في سوق بلْخ وجميع أهل بيتك. قال سعيد: فادفع إليّ فرسك الكُمَيت الذَّنوب قال: لعمري لئن جُدْتَ بدمك، وبخلتُ عليك بالفرس إني للئيم. فدفعه إليه، فسار على دابّة من جنائبه، وغلامه على فرس له، ومعه فرس أسد يجْنُبه؛ فلمّا حاذى الترك وقد قصدوا الأثقال طلبته طلائعهم؛ فتحوّل على فرس أسد، فلم يلحقوه، فأتى إبراهيم بالكتاب، وتَبِعه بعض الطلائع ـ يقال عشرون رجلاً ـ حتى رأوْا عسكر إبراهيم، فرجعوا إلى خاقان فأخبروه. فغدا خاقان على الأثقال، وقد خندق إبراهيم خندقاً؛ فأتاهم وهم قيام عليه؛ فأمر أهل السُّغد بقتالهم؛ فلما دنوا من مسلحة المسلمين ثاروا في وجوههم فهزموهم، وقتلوا منهم رجلاً، فقال خاقان: اركبوا، وصعد خاقان تلاًّ فجعل ينظر العورة، ووجّه القتال، قال: وهكذا كان يفعل؛ ينفرد في رجلين أو ثلاثة، فإذا رأى عَوْرة أمر جنوده فحملت من ناحية العَوْرة. فلما صعد التلّ رأى خلف العسكر جزيرة دونها مخاضة، فدعا بعض قوّاد الترك، فأمرهم أن يقطعوا فوق العسكر في مقطع وصفه حتى يصيروا إلى الجزيرة، ثم ينحدروا في الجزيرة حتى يأتوا عسكر المسلمين من دُبُر، وأمرهم أن يبدءوا بالأعاجم وأهل الصغانيان، وأن يدَعوا غيرهم؛ فإنهم من العرب، وقد عرفهم بأبنيتهم وأعلامهم، وقال لهم: إن أقام القوم في خندقهم فأقبلوا إليكم دخلنا نحن خندقهم؛ وإن ثبتوا على خندقهم فادخلوا من دُبُره عليهم. ففعلوا ودخلوا عليهم من ناحية الأعاجم، فقتلوا صغان خُذاه وعامّة أصحابه، واحتووا على أموالهم، ودخلوا عسكر إبراهيم فأخذوا عامة ما فيه، وترك المسلمون التعبئة واجتمعوا في موضع، وأحسوا بالهلاك، فإذا رهج قد ارتفع وتربة سوداء؛ فإذا أسد في جنده قد أتاهم، فجعلت الترك ترتفع عنهم إلى الموضع الذي كانْ فيه خاقان، وإبراهيم يتعجّب من كَفّهم وقد ظفروا وقتلوا مَنْ قتلوا وأصابوا ما أصابوا، وهو لا يطمع في أسد.

قال: وكان أسد قد أغذّ السير، فأقبل حتى وقف على التّل الذي كان عليه خاقان، وتنحّى خاقان إلى ناحية الجبل، فخرج إليه مَن بقي ممّن كان مع الأثقال، وقد قتِل منهم بشرٌ كثير؛ قتل يومئذ بركة بن خوْليّ

الراسبيّ وكثير بن أمية ومشيخة من خُزاعة. وخرجت امرأة صَغَان خُذاه إلى أسد، فبكت زوجها، فبكى أسد معها حتى علا صوته، ومضى خاقان يقود الأسرَاء من الجند في الأوْهاق ويسوق الإبل موقَرة والجواري.

قال: وكان مصعب بن عمرو الخزاعيّ ونفر من أهل خراسان قد أجمعوا على موافقتهم، فكفّهم أسد، وقال: هؤلاء قوم قد طابت لهم الريح واستكلبوا، فلا تعرّضوا لهم. وكان مع خاقان رجل من أصحاب الحارث بن سُريج فأمره فنادى: يا أسد؛ أما كان لك فيما وراء النهر مغزى! إنك لشديد الحرْص، قد كان لك عن الخُتّل مندوحةٌ؛ وهي أرض آبائي وأجدادي. فقال أسد: كان ما رأيت؛ ولعلّ الله أن ينتقم منك. قال كورمغانون ـ وكان من عظماء الترك: لم أرَ يوماً كان أحسن من يوم الأثقال، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: أصبت أموالاً عظيمة، ولم أر عدوًّا أسمجَ من أسراء العرب؛ يعدو أحدهم فلا يكاد يبرح مكانه.

وقال بعضهم: سار خاقان إلى الأثقال، فارتحل أسد؛ فلما أشرف على الظّهر، ورأى المسلمين الترك فامتنعوا، وقد كانوا قاتلوا المسلمين فامتنعوا، فأتوا الأعاجم الذين كانوا مع المسلمين فقاتلوهم، فأسروا أولادهم.

قال: فأردف كلّ رجل منهم وصيفاً أو وصيفة، ثم أقبلوا إلى عسكر أسد عند مغيب الشمس. قال: وسار أسدٌ بالنّاس، حتى نزل مع الثقل. وصبّحوا أسداً من الغدِ؛ وذلك يوم الفِطْر، فكادوا يمنعونهم من الصلاة. ثم انصرفوا ومضى أسد إلى بلْخ؛ فعسكر في مَرْجها حتى أتى الشتاء، ثم تفرّق الناس في الدور، ودخل المدينة، ففي هذه الغَزاة قيل له بالفارسية:

أزْ خُتّلانْ آمديه ... بَرُوتباهْ آمَديه
آبار بازْ آمَديه ... خُشك نِزار آمَديه

قال: وكان الحارث بن سريج بناحية طَخارستان؛ فانضمّ إلى خاقان؛ فلمّا كان ليلة الأضحى قيل لأسد: إنّ خاقان نزل جزّة، فأمر بالنّيران فرفعت على المدينة، فجاء الناس من الرّساتيق إلى مدينة بلْخ، فأصبح أسد فصلّى وخطب الناس، وقال: إن عدوّ الله الحارث بن سُريج استجلب طاغيته ليطفىء نور الله، ويبدّل دينه، والله مذلّه إن شاء الله. وإن عدوّكم الكلب أصاب من إخوانكم مَنْ أصاب، وإن يُرِدِ الله نصركم لم يضرّكم قلّتكم وكثرتُهم، فاستنصروا الله. وقال: إنه بلغني أن العبد أقربُ ما يكون إلى الله إذا وضع جبهته لله؛ وإني نازل وواضع جبهتي، فادعوا الله واسجدوا لرّبكم، وأخلصوا له الدعاء. ففعلوا ثم رفعوا رءوسهم، وهم لا يشكّون في الفتح، ثم نزل عن المنبر. وضحّى وشاوَر الناس في المسير إلى خاقان، فقال قوم: أنت شابٌّ، ولستَ ممن تخوّف من غارة، على شاة ودابة تخاطر بخروجك. قال: والله لأخرجنّ؛ فإما ظَفَر وإما شهادة.

ويقال: أقبل خاقان، وقد استمدّ مَن وراء النهر وأهل طَخارستان وجَبْغويه الطُّخاريّ بملوكهم وشاكريّتهم بثلاثين ألفاً، فنزلوا خُلْم، وفيها مسلَحة؛ عليها أبو العوجاء بن سعيد العبديّ، فناوشهم فلم يظفروا منه بشيء، فساروا على حاميتهم في طريق فيروز بخشين من طخارستان. فكتب أبو العوجاء إلى أسد بمسيرهم. قال: فجمع الناس، فأقرأهم كتاب أبي العوجاء وكتاب الفُرافِصة صاحب مسلحة جَزّة بعد مرور خاقان به، فشاور أسد الناس، فقال قوم: تأخذ أبواب مدينة بلْخ، وتكتب إلى خالد والخليفة تستمدّه. وقال آخرون: تأخذ في طريق زمّ، وتسبق خاقان إلى مَرْو.

وقال قوم: بل تخرج إليهم وتستنصر الله عليهم؛ فوافق قولُهم رأيَ أسد وما كان عزم عليه من لقائهم.
ويقال: إن خاقان حين فارق أسداً، ارتفع حتى صار بأرض طخارستان عن جبغويه، فلمّا كان وسط الشتاء أقبل فمرَّ بجزَّة، وصار إلى الجوزجان وبثّ الغارات؛ وذلك أن الحارث بن سريج أخبره أنه لا نهوض بأسد، وأنه لم يبق معه كبير جند؛ فقال البختريّ بن مجاهد مولى بني شيبان: بل بثّ الخيول حتى تنزل الجوزجان. فلما بثّ الخيل، قال له البختريّ: كيف رأيت رأيي؟ قال: وكيف رأيتَ صنع الله عز وجل حين أخِذ برأيك! فأخذ أسد من جبلة بن أبي روّاد عشرين مائة ألف درهم، وأمر للناس بعشرين عشرين، ومعه من الجنود من أهل خراسان وأهل الشأم سبعة آلاف رجل، واستخلف على بَلْخ الكرمانيَّ بن عليّ، وأمره ألّا يدع أحداً يخرج من مدينتها، وإن ضرب الترك باب المدينة. فقال له نصر بن سيار الليثيّ والقاسم بن بُخيت المراغيّ من الأزد وسليم بن سليمان السُّلميّ وعمرو بن مسلم بن عمرو ومحمد بن عبد العزيز العتَكيّ وعيسى الأعرج الحنظليّ والبختريّ بن أبي درهم البكريّ وسعيد الأحمر وسعيد الصغير مولى باهلة: أصلح الله الأمير؛ ائذن لنا في الخروج، ولا تهجّن طاعتنا. فأذن لهم ثم خرج فنزل باباً من أبواب بلْخ وضُرِبت له قُبّة؛ فازتان، وألصق إحداهما بالأخرى، وصلى بالناس ركعتين طوّلهما، ثم استقبل القبلة ونادى في الناس: ادعوا الله؛ وأطال في الدعاء، ودعا بالنّصر، وأمّن الناس على دعائه؛ فقال: نُصرتم وربِّ الكعبة! ثم انفتل من دعائه فقال: نصرتم ورب الكعبة إن شاء الله ثلاث مرات، ثم نادى مناديه: برئتْ ذمّة الله من رجل حمل امرأة ممّن كان من الجند، قالوا: إنّ أسداً إنما خرج هارباً، فخلّف أمّ بكر أمَّ ولده وولده؛ فنظر فإذا جارية على بَعير، فقال: سلوا لمن هذه الجارية؟ فذهب بعض الأساورة فسأل ثم رجع، فقال: لزياد بن الحارث البكريّ - وزياد جالس - فقطّب أسد، وقال: لا تنتهون حتى أسطوَ بالرجل منكم يكرُم عليّ، فأضرب ظهره وبطنه، فقال: زياد: إن كانت لي فهي حُرّة، لا والله أيّها الأمير ما معي امرأة، فإنّ هذا عدوّ حاسد.

وسار أسدٌ، فلما كان عند قنطرة عطاء، قال لمسعود بن عمرو الكرمانيّ، وهو يومئذ خليفة الكرمانيّ على الأزد: ابغني خمسين رجلاً ودابّة أخلفهم على هذه القنطرة، فلا تَدَعْ أحداً ممن جازها أن يرجع إليها، فقال مسعود: ومِنْ أين أقدر على خمسين رجلاً! فأمر به فصُرِع عن دابّته، وأمر بضرب عنقه، فقام إليه قومٌ فكلّموه فكفّ عنه؛ فلما جاز القنطرة نزل منزلاً، فأقام فيه حتى أصبح؛ وأراد المقام يومه، فقال له العُذافر بن زيد: ليأتمر الأمير على المقام يومه حتى يتلاحق الناس. قال: فأمر بالرحيل وقال: لا حاجة لنا إلى المتخلّفين، ثم ارتحل، وعلى مقدّمته سالم بن منصور البَجَليّ في ثلاثمائة، فلقي ثلاثمائة من الترك طليعة لخاقان، فأسر قائدهم وسبعة منهم معه، هرب بقيّتهم، فأتى به أسد. قال: فبكى التركيّ، قال: ما يبكيك؟ قال: لستُ أبكي لنفسي، ولكن أبكي لهلاك خاقان، قال: كيف؟ قال: لأنه قد فرّق جنوده فيما بينه وبين مَرْو.

قال: وسار أسد؛ حتى نزل السِّدْرة - قرية ببلخ - وعلى خيل أهل العالية ريحان بن زياد العامريّ العبدليّ من بني عبد الله بن كعب. قال: فعزله، وصيّر على أهل العالية منصور بن سالم، ثم ارتحل من السِّدرة، فنزل خريستان، فسمع أسد صهيل فرس، فقال: لمن هذا؟ فقيل: للعقّار بن دُعَيْر، فتطيّر من اسمه واسم أبيه، فقال: ردّوه، قال: إني مقتول بجرأتي على الترك، قال: أسد: قتلك الله! ثم سار حتى إذا شارف العَيْنَ الحارّة استقبله بِشْر بن رزين - أو رزين بن بشر - فقال بشارة ورزانة؛ ما وراءك يا رزين؟ قال: إن لم تغثنا غلبنا على مدينتنا، قال: قل للمقدام بن عبد الرحمن يطاول رحي، فسار فنزل من مدينة الجُوزجان بفرسخين: ثم

أصبحنا وقد تراءتْ الخيلان، فقال خاقان للحارث: مَنْ هذا؟ فقال: هذا محمد بن المثنّى ورايته؛ ويقال: إن طلائع لخاقان انصرفت إليه فأخبرْته. أنّ رهجاً ساطعاً طلع من قِبَل بلْخ، فدعا خاقان الحارث، فقال: ألم تزعم أنّ أسداً ليس به نهوض! وهذا رَهَج قد أقبل من ناحية بلْخ، قال الحارث: هذا اللصّ الذي كنت قد أخبرتُك أنه من أصحابي. فبعث خاقان طلائع، فقال: انظروا هل تروْن على الإبل سريراً وكراسيّ؟ فجاءته الطلائع، فأخبروه أنّهم عاينوها، فقال خاقان: اللصوص لا يحملون اسرّة والكراسيّ، وهذا أسد قد أتاك. فسار أسد غَلْوة فلقيه سالم بن جناح، فقال: أبشر أيّها الأمير، قد حزرتُهم ولا يبلغون أربعة آلاف، وأرجو أن يكون عقيرة الله. فقال المجشّر بن مزاحم، وهو يسايره: أنزلْ أيها الأمير رجالك؛ فضرب وجْه دابته، وقال: لو أطِعْتَ يا مجشّر ما كنّا قدمنا هاهنا، وسار غير بعيد، وقال: يأهلَ الصّباح، انزلوا، فنزلوا وقرّبوا دوابّهم، وأخذوا النّبْل والقسيّ. قال: وخاقان في مرْج قد بات فيه تلك الليلة.

قال: وقال عمرو بن أبي موسى: ارتحل أسد حين صلّى الغداة، فمرّ بالجوزجان وقد استباحها خاقان حتى بلغت خيله الشُّبُورقان. قال: وقصور الجوزجان إذ ذاك ذليلة. قال: وأتاه المقدام بن عبد الرحمن بن نُعيم الغامديّ في مقاتلته وأهل الجوزجان ـ وكان عاملها ـ فعرضوا عليه أنفسهم، فقال: أقيموا في مدينتكم، وقال للجوزجان بن الجوزجان: سِرْ معي؛ وكان على التعبئة القاسم بن بُخَيت المَراغيّ؛ فجعل الأزد وبني تميم والجوزجان بن الجوزجان وشاكريّته ميمنته، وأضاف إليهم أهل فلسطين، عليهم مصعب بن عمرو الخزاعيّ، وأهل قنّسرين عليهم صغراء بن أحمر، وجعل ربيعة ميسرة، عليهم يحيى بن حُضَين، وضمّ إليهم أهل حِمْص عليهم جعفر بن حنظلة البهْرانيّ، وأهل الأزد وعليهم سليمان بن عمرو المقرىء من حِمْيَر؛ وعلى المقدّمة منصور بن مسلم البَجَليّ، وأضاف إليهم أهلَ دمشق عليهم حملة بن نُعيم الكلبيّ، وأضاف إليهم الحرس والشرطة وغلمان أسد.

قال: وعبّى خاقان الحارث بن سُرَيج وأصحابه وملك السُّغد وصاحب الشّاش وخرَا بُغْرة أبا خاناخرّة، جدّ كاوس وصاحب الخُتّل وجبغويه، والتّرك كلهم ميمنة. فلمّا التقوا حمل الحارث ومَن معه من أهل السُّغد والبابيّة وغيرهم على الميسرة، وفيها ربيعة وجندان من أهل الشأم؛ فهزمهم فلم يردّهم شيء دون رواق أسد؛ فشدّت عليهم الميمنة ـ وهم الأزْد وبنو تميم والجوزجان ـ فما وصلوا إليهم حتى انهزم الحارث والأتراك، وحمل الناس جميعاً، فقال أسد: اللهمّ إنهم عصوْني فانصرهم؛ وذهب التُّرك في الأرض عباديد لا يلوون على أحد، فتبعهم النّاس مقدار ثلاثة فراسخ يقتلون مَن يقدرون عليه، حتى انتهوْا إلى أغنامهم؛ فاستاقوا أكثر من خمس وخمسين ومائة ألف شاة ودوابّ كثيرة. وأخذ خاقان طريقاً غير الجادّة في الجبل، والحارث بن سُرَيج يحميه، ولحقهم أسد عند الظهر. ويقال: لما واقف أسد خاقان يوم خريستان كان بينهم نهر عميق، فأمر أسد برواقه فرفع، فقال رجل من بني قيس بن ثعلبة: يأهلَ الشأم؛ أهكذا رأيكم، إذا حضر الناس رفعتم الأبنية! فأمر به فحُطّ، وهاجت ريح الحرب التي تسمى الهفّافة، فهزمهم الله، واستقبلوا القبلة يَدْعون الله ويكبّرون. وأقبل خاقان في قريب من أربعمائة فارس عليهم الحُمرة، وقال لرجل يقال له سورى: إنما أنت ملك الجُوزجان إن أسلمتَ العرب، فمن رأيت من أهل الجوزجان مولّياً فاقتله. وقال الجوزجان لعثمان بن عبدالله الشِّخِّير: إني لأعلم ببلادي وطُرقها؛ فهل لك في أمر فيه هلاك خاقان ولك فيه ذكرٌ ما بقيت؟ قال: ما هو؟ قال: تتبعني؛ قال: نعم؛ فأخذ طريقاً يسمّى ورادك، فأشرفوا على طوقات خاقان وهم آمنون، فأمر خاقان بالكُوسات

فضربت ضربة الانصراف. وقد شبّت الحرب، فلم يقدر التّرك على الانصراف، ثم ضربت الثانية فلم يقدروا، ثم ضربت الثالثة فلم يقدروا لاشتغالهم، فحمل ابنُ الشّخّير والجوزجان على الطوقات، وولّى خاقان مدبراً منهزماً، فحوى المسلمون عسكرهم وتركوا قدورهم تغلي ونساء من نساء العرب والمواليات ومن نساء الترك، ووحل بخاقان برْذونه فحماه الحارث بن سريج. قال: ولم يعلم الناس أنه خاقان، ووجد عسكر الترك مشحْوناً من كلّ شيء من آنية الفضة وصنّاجات الترك. وأراد الخِصيّ أن يحمل امرأة خاقان، فأعجلوه عن ذلك، فطعنها بخنجر فوجدوها تتحرّك، فأخذوا خفّها وهو من لُبود مضرَّب.

قال: فبعث أسد بجواري التّرك إلى دهاقين خُراسان، واستنقذ مَن كان في أيديهم من المسلمين.

قال: وأقام أسد خمسة أيام. قال: فكانت الخيول التي فرّق تقبِل فيصيبهم أسد، فاغتنم الظفر وانصرف إلى بلْخ يوم التاسع من خروجه، فقال ابن السِّجْف المجاشعيّ:

لو سرْتَ في الأَرْضِ تَقِيس الأَرْضَا ... تَقِيسُ منها طُولَها والعَرْضا
لَمْ تَلْقَ خيْراً مِرَّةً ونقْضا ... مِنَ الأمير أسد وَأَمْضَى
أَفْضَى إلَيْنا، الخَيْرُ حين أَفضى ... وَجَمَعَ الشَّمْلَ وكانَ رَفْضا
ما فاتَهُ خاقانُ إلا رَكْضا ... قد فُض مِنْ جُمُوعِه ما فُضّا
ياابْنَ سُرَيج قَدْ لَقِيتَ حَمْضَا ... حَمْضاً بِهِ يُشْفَى صُداعُ المرضى

قال: وارتحل أسد، فنزل جَزّة الجوزجان من غد، وخاقان بها، فارتحل هارباً منه. وندب أسد الناس، فانتدب ناسٌ كثير من أهل الشأم وأهل العراق، فاستعمل عليهم جعفر بن حنظلة البهرانيّ، فساروا ونزلوا مدينة تسمّى ورد من أرض جَزّة، فباتوا بها فأصابهم ريح ومطر - ويقال: أصابهم الثّلج - فرجعوا. ومضى خاقان فنزل على جبغويه الطخاريّ، وانصرف البهرانيّ إلى أسد، ورجع أسد إلى بلْخ، فلقوا خيل الترك التي كانت بمرْو الرّوذ منصرفة لتغير على بلْخ، فقتلوا مَنْ قدروا عليه منهم؛ وكان التّرك قد بلغوا بيعة مَرْو الرّوذ، وأصاب أسد يومئذ أربعة آلاف دِرْع؛ فلمّا صار ببلْخ أمر الناس بالصّوم لافتتاح الله عليهم.

قال: وكان أسد يوجّه الكرمانيّ في السرايا، فكانوا لا يزالون يصيبون الرّجل والرجلين والثلاثة وأكثر من الترك؛ ومضى خاقان إلى طخارستان العليا، فأقام عند جبغويه الخَرْلَجيّ تعزّزاً به، وأمر بصنيعة الكُوسات، فلما جفّت وصلُحت أصواتها ارتحل إلى بلاده؛ فلما ورد شروسنة، تلقّاه خرابغره أبو خاناخره، جدّ كاوس أبي أفشين باللّعّابين، وأعدّ له هدايا ودوابّ له ولجنده - وكان الذي بينهما متباعداً - فلما رجع منهزماً أحبّ أن يتخذ عنده يداً، فأتاه بكلّ ما قدر عليه. ثم أتى خاقان بلاده، وأخذ في الاستعداد للحرب ومحاصرة سَمرْقند، وحُمِل الحارث بن سُرَيج وأصحابه على خمسة آلاف برْذون، وفرّق براذين في قوّاد الترك، فلاعب خاقان يوماً كُورصُول بالنّرد على خَطَر تُدْرجة، فقَمَر كورصول التّرقشيّ، فطلب منه الدُّرجة، فقال: أنثى، فقال: الآخر ذكر؛ فتنازعا، فكسر كُورصول يَد خاقان، فحلف خاقان ليكسرنّ يد كُورصُول؛ وبلغ كورصول، فتنحّى وجمع جمعاً من أصحابه، فبيّت خاقان فقتله؛ فأصبحت الترك فتفرقوا عنه وتركوه مجرّداً، فأتاه زُريق بن طُفَيل الكُشانيّ وأهل بيت الحموكيّين - وهم من عظماء الترك - فحمله ودفنه، وصنع به ما يصنع بمثله إذا قتل. فتفرّقت الترك في الغارات بعضها على بعض، وانحاز بعضهم إلى الشّاش؛ فعند ذلك طمع أهل السُّغد في الرَّجعة إليها. قال:

فلم يسلمْ من خَيْل التّرك التي تفرّقت في الغارات إلاّ زرّ بن الكسيّ، فإنه سلم حتى صار إلى طَخارستان، وكان أسد بعث من مدينة بلخ سيفَ بن وصّاف العجليّ على فرس، فسار حتى نزل الشُّبورقان. قال: وفيها إبراهيم بن هشام مسلحة، فحمله منها على البريد حتى قدم على خالد بن عبدالله، فأخبره، ففظع به هشام فلم يصدّقه، وقال للربيع حاجبه: ويحك! إن هذا الشيخ قد أتانا بالطامّة الكبرى إذا كان صادقاً؛ ولا أراه صادقاً، اذهب فعِدْه ثم سله عمّا يقوله وأْتِني بما يقول. فانطلق إليه ففعل الذي أمره به، فأخبره بالذي أخبر به هشاماً. قال: فدخل عليه أمر عظيم؛ فدعا به بعد، فقال: من القاسم بن بُخَيت منكم؟ قال: ذلك صاحب العسكر، قالُ: فإنه قد أقبل، قال: فإن كان قد أقبل فقد فتح الله على أمير المؤمنين ـ وكان أسد وجّهه حين فتح الله عليه ـ فأقبل القاسم بن بُخيت، فكبّر على الباب، ثم دخل يكبِّر وهشام يكبّر لتكبيره، حتى انتهى إليه، فقال: الفتح يا أميرَ المؤمنين؛ وأخبره الخبر، فنزل هشام عن سريره فسجد سجدة الشكر؛ وهي واحدة عندهم. قال: فحسدت القيسيّة أسداً وخالداً؛ وأشاروا على هشام أن يكتب إلى خالد بن عبدالله، فيأمَر أخاه أن يوجّه مقاتل بن حيّان، فكتب إليه، فدعا أسد مقاتل بن حيّان على رؤوس الناس، فقال: سر إلى أمير المؤمنين فأخبِرْه بالذي عاينت وقل الحقّ؛ فإنك لا تقول غير الحقّ إن شاء الله، وخذ من بيت المال حاجتك. قالوا: إذاً لا يأخذ شيئاً، قال: أعطه من المال كذا وكذا، ومن الكسوة كذا وكذا، وجهّزه.

فسار فقدم على هشام بن عبد الملك وهو والأبرش جالسان، فسأله فقال: غزونا الخُتّل، فأصبنا أمراً عظيماً، وأنذِر أسد بالترك فلم نحفل بهم حتى لحقوا واستنقَذوا من غنائمنا، واستباحوا بعض عسكرنا، ثم دفعونا دفعة قريباً من خُلْم، فانتهى الناس إلى مشاتيهم، ثم جاءنا مسير خاقان إلى الجوزجان، ونحن قريبو العهد بالعدوّ؛ فسار بنا حتى التقينا برُستاق بيننا وبين أرض الجُوزجان، فقاتلناهم وقد حازوا ذراريّ من ذراري المسلمين، فحملوا على ميسرتنا فكشفوهم. ثم حملت ميمنتنا عليهم، فأعطانا الله عليهم الظّفر، وتبعناهم متّكىء فاستوى جالساً عند ذكره عسكر خاقان ـ فقال ثلاثاً: أنتم استبحتم عسكر خاقان! قال: نعم، قال: ثمّ ماذا؟ قال: دخلوا الخُتّل وانصرفوا. قال هشام: إن أسداً لضعيف، قال: مهلاً يا أمير المؤمنين؛ ما أسدٌ بضعيف وما أطاق فوق ما صنع، فقال له هشام: حاجتَك؟ قال: إنّ يزيد بن المهلب أخد من أبي حيّان مائة ألف درهم بغير حقّ؛ فقال له هشام: لا أكلفك شاهداً، احلف بالله إنه كما قلت، فحلفَ، فردّها عليه من بيت مال خراسان؛ وكتب إلى خالد أن يكتب إلى أسد فيها؛ فكتب إليه، فأعطاه أسدٌ مائة ألف درهم، فقسمها بين ورثة حيّان على كتاب الله وفرائضه. ويقال: بل كتب إلى أسد أن يستخبر عن ذلك، فإن كان ما ذكر حقًّا أعطى مائة ألف درهم.

وكان الذي جاء بفتح خُراسان إلى مَرْو عبد السلام بن الأشهب بن عتبة الحنظليّ. قال: فأوفد أسد إلى خالد بن عبدالله وفداً في هزيمته يوم سان، ومعهم طوقات خاقان ورءوس مَنْ قُتِلوا منهم، فأوفدهم خالد إلى هشام، فأحلفهم أنهم صَدقوا، فحلفوا، فوصلهم، فقال أبو الهنديّ الأسديّ لأسد يذكر وقعة سان:

أَبـا مُـنـذِرٍ رُمْتَ الأُمُـورَ فَـقِسْتَهـا ... وسـاءَلْتَ عَنْها كـالحريصِ المُساوِمِ
فَمـا كـان ذو رَأْيٍ من النـاسِ قِسْتَـهُ ... بـرَأْيِـكَ إلا مِثْـلَ رَأْيِ البهـائِـمِ
أَبـا مُـنْـذِرٍ لـوْلاَ مَسِيـرُكَ لم يَكُن ... عِـراقٌ وَلا انْقـادَتْ مُلوكُ الأَعـاجم

وَلَا حَجَّ بَيْتَ اللّهِ ـ مذْ حُجَّ ـ راكبٌ ... ولا عَمَر البَطْحَاء بَعْدَ المَواسِمِ
فكَمْ مِنْ قَتِيلٍ بَيْنَ سانٍ وَجَزَّةٍ ... كثِيرِ الأَيادي من مُلوكٍ قَماقِم
تَرَكتَ بأَرْضِ الجوْزَجانِ تزُورُهُ ... سِباعٌ وعِقْبانٌ لِحَز الغَلاصِمِ
وَذي سُوقَةٍ فيه مَن السيف خُطَّة ... بهِ رَمَق حامتَ عَلَيْهِ الحَوائمُ
فمن هارِب مِنّا وَمِنْ دَائِنٍ لنا ... أسيرٍ يُقاسِي مُبْهَماتِ الأداهِمِ
فدتْك نُفُوسٌ من تميمٍ وعامِرٍ ... ومَن مُضَرَ الحَمْرا عِنْدَ المآزِمِ
هُمُ أَطْمَعُوا خاقانَ فينا فأصبحَتْ ... جلائبهُ ترْجو احْتِوَاءَ المغانِمِ

قال: وكان السّبل أوصى عند موته ابنَ السائجيّ حين استخلفه بثلاث خصال، فقال: لا تستطل على أهل الخُتّل استطالتي التي كانت عليهم؛ فإني ملِك ولستَ بملِك؛ إنما أنت رجل منهم، فلا يحتملون لك ما يحتلمون للملوك، ولا تدَع أن تطلب الجيش حتى تردّه إلى بلادكم، فإنه الملك بعدي والملوك هم النظّام، والناس ما لم يكن لهم نظام طَغام، ولا تحاربوا العرب واحتالوا لهم كلّ حيلة تدفعونهم بها عن أنفسكم ما قدرتم. فقال له ابن السائجيّ: أما ما ذكرت من تركي الاستطالة على أهل الخُتّل فإني قد عرفت ذلك، وأما ما أوصيتَ من ردّ الجيش فقد صدق الملك، وأما قولك: لا تحاربوا العرب، فكيف تنهى عن حربهم، وقد كنتَ أكثر الملوك لهم محاربة! قال: قد أحسنتَ إذ سألتَ عمّا لا تعلم؛ إني قد جرّبت قوّتكم بقوّتي، فلم أجدكم تقعون مني موقعاً، فكنت إذا حاربتُهم لم أفلِت منهم إلا جَريضاً، وإنكم إن حاربتموهم هلكتم في أول محاربتكم إياهم.

وقال وكان الجيش، قد هرب إلى الصين، وابن السائجي الذي أخبر أسد بن عبدالله بمسير خاقان إليه، فكره محاربة أسد.

وفي هذه السنة خرج المغيرة بن سعيد وبيان في نفر، فأخذهم خالد فقتلهم.

ذكر الخبر عن مقتلهم:

أما المغيرة بن سعيد، فإنه كان ـ فيما ذكِر ـ ساحراً. حدثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا جرير، عن الأعمش، قال: سمعت المغيرة بن سعيد، يقول: لو أردتُ أن أحيِيَ عاداً أو ثموداً وقروناً بين ذلك كثيراً لأحييتهم. قال الأعمش: وكان المغيرة يخرج إلى المقبرة فيتكلّم، فيُرى مثل الجراد على القبور؛ أو نحو هذا من الكلام.

وذكر أبو نعيم: عن النّضر بن محمد، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: قدم علينا رجلٌ من أهل البَصْرة يطلب العلم؛ فكان عندنا، فأمرتُ جاريتي يوماً أن تشتريَ لي سمكاً بدرهمين، ثم انطلقت أنا والبصريّ إلى المغيرة بن سعيد، فقال لي: يا محمد، أتحب أن أخبرك، لم افترق حاجباك؟ قلت: لا، قال أفتحبّ أن أخبرك لم سماك أهلك محمداً؟ قلت: لا، قال: أما إنك قد بعثت خادمك يشتري لك سمكاً بدرهمين. قال: فنهضنا عنه. قال أبو نعيم: وكان المغيرة قد نظر في السحر، فأخذه خالد القسريّ فقتله وصلبه.

وذكر أبو زيد أن أبا بكر بن حفص الزهريّ، قال: أخبرني محمد بن عقيل، عن سعيد بن مرادابند،

مولى عمرو بن حُرَيث، قال: رأيتُ خالداً حين أُتِيَ بالمغيرة وبيان في ستّة رهط أو سبعة، أمر بسريره فأخرِج إلى المسجد الجامع، وأمر بأطنان قصب ونِفْط فأحضرا، ثم أمر المغيرة أن يتناول طنًّا فكعّ عنه وتأنّى، فصبّت السياط على رأسه، فتناول طنًّا فاحتضنه، فشُدّ عليه، ثم صُبّ عليه وعلى الطنّ نِفط، ثم ألهبت فيهما النار فاحترقا، ثم أمر الرهط ففعلوا، ثم أمر بياناً آخرهم فقدِم إلى الطنّ مبادراً فاحتضنه، فقال خالد: ويلكم! في كل أمر تحمُقون، هلا رأيتم هذا المغيرة! ثم أحرقه.

قال أبو زيد: لما قتل خالد المغيرة وبياناً أرسل إلى مالك بن أعين الجُهنيّ فسأله فصدّقه عن نفسه، فأطلقه، فلما خلا مالك بمن يثق به ـ وكان فيهم أبو مسلم صاحب خراسان ـ قال:

ضَرَبْتُ لـه بَيْنَ الـطَّرِيقَيْنِ لاحبـاً ... وَطِنْتُ عَلَيْـهِ الشَّمْسَ فيمَنْ يـطينُهـا
وأَلقَيْتـهُ في شَبْهَـةٍ حِينَ سـالني ... كمـا اشتَبَهَا في الخَط سِينٌ وشينُهـا

فقال أبو مسلم حين ظهر أمره: لو وجدته لقتلته بإقراره على نفسه.

قال أحمد بن زهير، عن عليّ بن محمد، قال: خرج المغيرة بن سعيد في سبعة نفر، وكانوا يُدعون الوصفاء، وكان خروجهم بظهر الكوفة، فأخبِر خالد القسريّ بخروجهم وهو على المنبر، فقال: أطعموني ماء، فنعَى ذلك عليه ابن نوفل، فقال:

أخـالـد لا جَـزاك الـلّهُ خـيـراً ... وأَيْـر فـي حِـر أمِّـكَ مِـنْ أمِـيـر
تـمَـنّى الـفَـخْـرَ في قَيْس وقَسْـر ... كـأنَّـكَ فـي سَـراةِ بنِـي جَـريـر
وأمُّـك عِـلجَـةٌ وَأَبُـوكَ وَغْـدٌ ... ومـا الأذنـابُ عِـدْلاً لـلصُّـدُورِ
جَـريـرٌ مِـنْ ذوي يَـمَـنٍ أصيـلٌ ... كَـريـمُ الأصـل ذو خـطرٍ كـبـيـرِ
وأنـتَ زعـمْـتَ أنـكَ مِنْ يـزيـدٍ ... وَقَـدْ أُدْحِـقْـتُـمُ دحـق الـعـبُـورِ
وكُنْتَ لـدَى الـمُغِـيـرَةِ عَبْـدَ سـوْءٍ ... تَـبُـول مِـن الـمَـخـافَـة لـلزَّئيـرِ
وَقلتَ لِمـا أصـابـكَ: أطـعُـمُـوني ... شَـرابـاً ثُـمَّ بُـلتَ عـلـى الـسـريـرِ
لأعـلاج ثـمـانـيَـة وَشـيـخٍ ... كَـبـيـرِ الـسن لَـيْسَ بـذِي نَـصِـيـرِ

وفي هذه السنة حكّم بُهلول بن بشر الملقب كثارة فقتِل.

ذكر الخبر عن مخرجه ومقتله:

ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنّى أن بُهْلولا كان يتألّه، وكان له قوت دانق، وكان مشهوراً بالبأس عند هشام بن عبد الملك، فخرج يريد الحجّ، فأمر غلامه أن يبتاع له خلاًّ بدرهم، فجاءه غلامه بخمر، فأمر بردّها وأخْذ الدراهم، فلم يُجَب إلى ذلك، فجاء بُهلول إلى عامل القرية ـ وهي من السواد ـ فكلّمه، فقال العامل: الخمر خير منك ومن قومك؛ فمضى بهلول في حَجّه حتى فرغ منه، وعزم على الخروج على السلطان، فلقيَ بمكة مَن كان على مثل رأيه، فاتّعدوا قرية من قرى الموصل، فاجتمع بها أربعون رجلاً، وأمّروا عليهم البهلول، وأجمعوا على ألاّ يمرّوا بأحد إلا أخبروه أنّهم أقبلوا من عند هشام على بعض الأعمال، ووجّههم إلى خالد لِيُنفِذهم في أعمالهم، فجعلوا لا يمرّون بعامل إلا أخبروه بذلك. وأخذوا دوابّ من دوابّ البريد، فلما انتهوا إلى

القرية التي كان ابتاع فيها الغلام الخلّ فأعطِيَ خمراً، قال بهلول: نبدأ بهذا العامل الذي قال ما قال؛ فقال له أصحابه: نحن نريد قتل خالد؛ فإن بدأنا بهذا شُهِرنا وحذِرنا خالد وغيره؛ فننشدك الله أن تقتل هذا فيفلت منا خالد الذي يهدم المساجد؛ ويبني البيعَ والكنائس، ويولّي المجوس على المسلمين، ويُنكح أهلَ الذّمة المسلمات؛ لعلنا نقتله فيريح الله منه. قال: والله لا أدَعُ ما يلزمني لما بعده؛ وأرجو أن أقتل هذا الذي قال لي ما قال وأدرك خالداً فأقتله؛ وإن تركتُ هذا وأتيتُ خالداً شُهِر أمرنا فأفلت هذا، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿قاتِلوا الَّذِين يلونكمْ مِنَ الْكُفَارِ ولْيجِدُوا فِيكُم غِلْظَةً﴾[1]، قالوا: أنت ورأيك. فأتاه فقتله، فنذر بهم الناس وعلموا أنهم خوارج، وابتدروا إلى الطريق هرّابا، وخرجت البرُد إلى خالد فأخبروه أن خارجةً قد خرجت؛ وهم لا يدرون حينئذ مَن رئيسهم.

فخرج خالد من واسط حتى أتى الحِيرة وهو حينئذ في الحلَق، وقد قدم في تلك الأيام قائد من أهل الشأم من بني القينْ في جيش قد وُجّهوا مدداً لعامل خالد على الهند، فنزلوا الحيرة، فلذلكَ قصدها خالد، فدعا رئيسهم فقال: قاتلْ هؤلاء المارقة؛ فإنّ من قتل منهم رجلاً أعطيته عطاء سوى ما قبض بالشأم، وأعفيته من الخروج إلى أرض الهند ـ وكان الخروج إلى أرض الهند شاقًّا عليهم ـ فسارعوا إلى ذلك! فقالوا: نقتل هؤلاء النّفر ونرجع إلى بلادنا. فتوجّه القيْنيّ إليهم في ستمائة، وضمّ إليهم خالد مائتين من شُرَط الكوفة، فالتقوا على الفُرات، فعبّأ القيْنيّ أصحابه، وعزل شرط الكوفة، فقال: لا تكونوا معنا ـ وإنما يريد في نفسه أن يخلوَ هو وأصحابه بالقوم فيكون الظفر لهم دون غيرهم لما وعدهم خالد ـ وخرج إليهم بُهلول، فسأل عن رئيسهم حتى عرف مكانه، ثم تنكّر له، ومعه لواء أسود، فحمل عليه فطعنه في فرْج درعه؛ فأنفذه. فقال: قتلتَني قتلك الله! فقال بهلول: إلى النار أبعدك الله.

وولّى أهل الشأم مع شرط أهل الكوفة منهزمين حتى بلغوا باب الكوفة، وبُهلول وأصحابه يقتلونهم. فأما الشاميون فإنهم كانوا على خيل جياد ففاتوه؛ وأما شُرَط الكوفة فإنه لحقهم، فقالوا: اتق الله فينا فإنا مكرهون مقهورون؛ فجعل يقرع رءوسهم بالرّمح، ويقول: الحقوا! النّجاء النّجاء! ووجد البهلول مع القينيّ بَدْرة فأخذها.

وكان بالكوفة ستة نفر يرون رأي البهلول، فخرجوا إليه يريدون اللّحاق به فقتِلوا، وخرج إليهم البُهلول وحمل البَدْرَة بين يديه، فقال: مَنْ قتل هؤلاء النفر حتى أعطيَه هذه الدراهم؟ فجعل هذا يقول: أنا، وهذا يقول: أنا؛ حتى عرفهم، وهم يروْن أنه من قِبَل خالد جاء ليعطيهم مالاً لقتلهم مَنْ قتلوا. فقال بُهلول لأهل القرية: أصَدق هؤلاء، هم قتلوا النفر قالوا: نعم؛ وخشي بهلول أنهم ادّعوا ذلك طمعاً في المال، فقال لأهل القرية: انصرفوا أنتم؛ وأمر بأولئك فقُتِلوا، وعاب عليه أصحابه فحاجّهم، فأقرّوا له بالحجّة.

وبلغت هزيمةُ القوم خالداً وخبر مَنْ قُتِل من أهل صَرِيفين، فوجّه قائداً من بني شَيْبان أحد بني حوْشب بن يزيد بن رويم؛ فلقيهم فيما بين الموصل والكوفة، فشدّ عليهم البُهلول، فقال: نشدتك بالرحم! فإني جانح مستجير! فكفّ عنه؛ وانهزم أصحابه، فأتوْا خالداً وهو مقيم بالحيرة ينتظر، فلم يرعْه إلا الفَلّ قد هجم عليه؛ فارتحل البُهلول من يومه يريد الموصل؛ فخافه عامل الموصل، فكتب إلى هشام: إنّ خارجةً

---

(١) سورة التوبة ١٢٣.

خرجت فعاثت وأفسدت؛ وأنه لا يأمن على ناحيته، ويسأله جنداً يقاتلهم به؛ فكتب إليه هشام: وجّه إليهم كُثارة بن بشر ـ وكان هشام لا يعرف البهلول إلا بلقبه ـ فكتب إليه العامل: إن الخارج هو كُثارة.

قال: ثم قال البهلول لأصحابه: إنا والله ما نصنع بابن النصرانيّة شيئاً ـ يعني خالداً ـ وما خرجت إلا لله، فلمَ لا نطلب الرأس الذي يسلط خالداً وذوي خالد! فتوجّه يريد هشاماً بالشام، فخاف عمّال هشام مَوْجدته إن تركوه يجوز بلادهم حتى ينتهي إلى الشأم، فجنّد له خالداً من أهل العراق، وجنّد له عامل الجزيرة جنداً من أهل الجزيرة، ووجّه إليه هشام جنداً من أهل الشأم؛ فاجتمعوا بدير بين الجزيرة والموصل، وأقبل بُهلول حتى انتهى إليهم ـ ويقال: التقوْا بالكُحَيل دون الموصل ـ فأقبل بهلول، فنزل على باب الدَّيْر، فقالوا له: تزحزح عن باب الدير حتى نخرج إليك، فتنحّى وخرجوا؛ فلما رأى كثرتهم وهو في سبعين جعل من أصحابه ميمنة وميسرة، ثم أقبل عليهم فقال: أكلّكم يرجو أن يقتلنا ثم يأتي بلده وأهله سالماً؟ قالوا: إنا نرجو ذلك إن شاء الله، فشدّ على رجل منهم فقتله، فقال: أما هذا فلا يأتي أهله أبداً؛ فلم يزل ذلك ديدنَه حتى قتل منهم ستة نفر؛ فانهزموا، فدخلوا الدّير فحاصرهم، وجاءتهم الأمداد فكانوا عشرين ألفاً، فقال له أصحابه: ألاَ نعقر دوابّنا، ثم نشدّ عليهم شدة واحدة؟ فقال: لا تفعلوا حتى نبلى الله عذراً ما استمسكنا على دوّابنا، فقاتلوهم يومهم ذلك كله إلى جنح العصر حتى أكثروا فيهم القتل والجراح.

ثم إن بهلولاً وأصحابه عقروا دوابهم وترجّلوا، وأصلتوا لهم السيوف، فأوجعوا فيهم؛ فقتِل عامة أصحاب بُهلول وهو يقاتل ويذود عن أصحابه، وحمل عليه رجل من جَدِيلة قيس يكنى أبا الموت، فطعنَه فصرعه، فوافاه مَن بقي من أصحابه، فقالوا له: وَلِّ أمرنا مِن بعدَك من يقوم به، فقال: إن هلكت فأمير المؤمنين دِعامة الشيبانيّ، فإن هلك دعامة فأمير المؤمنين عمرو اليشكريّ، وكان أبو الموت إنما ختل البهلول. ومات بهلول من ليلته، فلما أصبحوا هرب دِعامة وخلاّهم، فقال رجل من شعرائهم:

لبئس أميرُ المؤمنينَ دِعامةٌ ... دِعامَةُ في الهَيْجاءِ شَرُّ الدَّعائم

وقال الضحاك بن قيس يَرثي بُهلولا، ويذكر أصحابه:

بُدِّلتُ بعد أبي بِشر وصحبتِه ... قوماً عليَّ مع الأحزاب أعوانا

كأنهمْ لم يكونوا من صَحَابتِنا ... ولم يكونوا لنا بالأمسِ خُلاَّنا

يا عينُ أذرى دُمُوعاً منك تهتانا ... وابكي لنا صحبةً بانوا وإخوانا

خَلّوا لنا ظاهِرَ الدنيا وباطنَها ... وأصبحوا في جنان الخلد جيرانا

قال أبو عبيدة: لما قتل بهلول خرج عمرو اليشكريّ فلم يلبث أن قتل. ثم خرج العنزي صاحب الأشهب ـ وبهذا كان يعرف ـ على خالد في ستّين، فوجّه إليه خالد السّمط بن مسلم البَجليّ في أربعة آلاف، فالتقوا بناحية الفرات، فشدّ العنزيّ على السّمط، فضربه بين أصابعه فألقى سيفه، وشلّت يده، وحمل عليهم فانهزمت الحَروريّة فتلقاهم عَبيد أهل الكوفة وسفلتهم، فرموْهم بالحجارة حتى قتلوهم.

قال أبو عبيدة: ثم خرج وزير السختيانيّ على خالد في نفر؛ وكان مخرجه بالحيرة، فجعل لا يمرّ بقرية إلا أحرَقها، ولا أحد إلا قتله؛ وغلب على ما هنالك وعلى بيت المال، فوجّه إليه خالداً قائداً من أصحابه وشُرَطاً من شُرَط الكوفة، فقاتلوه وهو في نفير؛ فقاتل حتى قتِل عامة أصحابه، وأثخِن بالجراح؛ فأخِذ مرتثّا، فأتيَ به خالد،

فأقبل على خالد فوعظه، وتلا عليه آيات من القرآن. فأعجب خالداً ما سمع منه، فأمسك عن قتله وحبسه عنده، وكان لا يزال يبعث إليه في الليالي فيؤتَى به فيحادثه ويسائله، فبلغ ذلك هشاماً وسُعي به إليه، وقيل: أخذ حروريًّا قد قتَل وحرق وأباح الأموال، فاستبقاه فاتّخذه سميراً. فغضب هشام، وكتب إلى خالد يشتمه، ويقول: لا تستبق فاسقاً قتَل وحرق، وأباح الأموال؛ فكان خالد يقول: إني أنفس به عن الموت لما كان يسمع من بيانه وفصاحته. فكتب فيه إلى هشام يرقّق من أمره ـ ويقال: بل لم يكتب ولكنه كان يؤخّر أمره ويدفع عنه ـ حتى كتب إليه هشام يؤنبه ويأمره بقتله وإحراقه؛ فلما جاءه أمر عزيمة لا يستطيع دفعه بعث إليه وإلى نفر من أصحابه كانوا أخِذوا معه؛ فأمر بهم فأدخلوا المسجد، وأدخلت أطنان القَصب فشُدّوا فيها، ثم صبّ عليهم النّفْط، ثم أخرِجوا فنصبوا في الرّحبة، ورُموا بالنّيران؛ فما منهم أحد إلا من اضطرب وأظهر جَزعاً، إلا وزيراً فإنه لم يتحرك، ولم يزل يتلو القرآن حتى مات.

وفي هذه السنة غزا أسد بن عبدالله الخُتّل. وفيها قتل أسد بدرطاخان ملك الخُتل.

ذكر الخبر عن غزوة أسد الخُتّل هذه الغزوة وسبب قتله بدر طرخان

ذكر عليّ بن محمد عن أشياخه الذين ذكرناهم قبل أنهم قالوا: غزا أسد بن عبد الله الختَّل وهي غزوة بدر طرخان، فوجَّه مصعب بن عمرو الخُزاعيّ إليها، فلم يزل مصعب يسير حتى نزل بقرب بدر طرخان؛ فطلب الأمان على أن يخرج إلى أسد. فأجابه مُصعب، فخرج إلى أسد فطلب منه أشياء فامتنع، ثم سأله بدرطرخان أن يقبل منه ألف ألف درهم، فقال له أسد: إنك رجل غريب من أهل الباميان، اخرج من الختّل كما دخلتها. فقال له بدرطرخان: دخلتَ أنت خراسان على عشرة من المحذّفة، ولو خرجت منها اليوم لم تستقلّ على خمسمائة بعير؛ وغيرُ ذلك أنّي دخلت الخُتَّل بشيء فارْدُدْه عليّ حتى أخرج منها كما دخلتها. قال: وما ذاك؟ قال: دخلتُها شابًّا فكسبت المال بالسيف، ورزق الله أهلاً وولداً، فاردد عليّ شبابي حتى أخرج منها؛ هل ترى أن أخرج من أهلي وولدي! فما بقائي بعد أهلي وولدي! فغضب أسد.

قال: وكان بدرطرخان يثق بالأمان، فقال له أسد: اختم في عنقك؛ فإني أخاف عليك معرّة الجند، قال: لستُ أريد ذلك؛ وأنا أكتفي من قِبَلك برجل يبلغ بي مصعباً. فأبى أسد إلّا أن يختم في عنقه؛ فختم في رقبته ودفعه إلى أبي الأسد مولاه، فسار به أبو الأسد فانتهى إلى عسكر المصعب عند المساء. وكان سلمة بن أبي عبد الله في الموالي مع مُصعب، فوافى أبو الأسد، سلمةَ، وهو يضع الدّراجة في موضعها، فقال سلمة لأبي الأسد: ما صنع الأمير في أمر بدرطرخان؟ فقصّ الذي عرض عليه بدرطرخان وإباء أسد ذلك، وسرْحه معه إلى المصعب ليدخله الحصن، فقال سلمة: إن الأمير لم يُصِب فيما صنع، وسينظر في ذلك ويندم؛ إنما كان ينبغي له أن يقبض ما عرض عليه أو يحبسه فلا يدخله حصنه؛ فإنا إنما دخلناه بقناطر اتّخذها، ومضايق أصلحناها؛ وكان يمنعه أن يغير علينا رجاءُ الصلح؛ فأما إذ يئس من الصّلح فإنه لا يدَع الجهد. فدعْه الليلة في قُبّتي؛ ولا تنطلق به إلى مصعب؛ فإنه ساعة ينظر إليه يُدخله حصنه.

قال: فأقام أبو الأسد وبدرطرخان معه في قبّة سلمة، وأقبل أسدٌ بالناس في طريق ضيّق، فتقطّع الجند، ومضى أسد حتى انتهى إلى نهر وقد عطِش ـ ولم يكن أحد من خَدمه ـ فاستسقى؛ وكان السُّغديّ بن عبد الرحمن

أبو طعمة الجرميّ معه شاكريّ له، ومع الشاكريّ قَرْن تُبّتيّ؛ فأخذ السُّغديّ القرن؛ فجعل فيه سَويقا، وصبّ عليه ماء من النهر، وحرّكه وسقى أسداً وقوماً من رؤساء الجند، فنزل أسد في ظلّ شجرة، ودعا برجل من الحرَس، فوضع رأسه في فخذه، وجاء المجشّر بن مُزاحم السُّلميّ يقود فرَسه حتى قعد تُجاهه حيث ينظر أسداً، فقال أسد: كيف أنت يا أبا العَدَبّس؟ قال: كنتُ أمسِ أحسنَ حالا منيّ اليوم؛، قال: وكيف ذاك؟ قال: كان بدرطرخان في أيدينا وعرض ما عرض؛ فلا الأمير قبِل منه ما عرض عليه ولا هو شدّ يده عليه؛ لكنه خلّى سبيله؛ وأمر بإدخاله حصنه لما عنده ـ زعم ـ من الوفاء. فندم أسد عند ذلك، ودعا بدليل من أهل الخُتّل ورجل من أهل الشأم نافذ، فاره الفرس فأتى بهما، فقال للشاميّ: إن أنت أدركت بدرطرخان قبل أن يدخل حصنه فلك ألف درهم؛ فتوجّها حتى انتهيا إلى عسكر مُصعب؛ فنادى الشأميّ: ما فعل العِلْج؟ قيل: عند سلمة، وانصرف الدّليل إلى أسد بالخبر، وأقام الشاميّ مع بدرطرخان في قُبّة سلَمة، وبعث أسد إلى بَدرطرخان فحوّله إليه فشتمه، فعرف بدرطرخان أنه قد نقض عهده، فرفع حصاة فرمى بها إلى السماء، وقال: هذا عهد الله؛ وأخذ أخرى فرمى بها إلى السماء، وقال: هذا عهد (محمد صلى الله عليه)، وأخذ يصنع كذلك بعهد أمير المؤمنين وعهد المسلمين؛ فأمر أسد بقطع يده، وقال أسد: مَنْ ها هنا من أولياء أبي فديك؟ (رجل من الأزد قتله بدرطرخان)، فقام رجل من الأزد فقال: أنا، قال: اضرب عنقه؛ ففعل. وغلب أسد على القلعة العظمى، وبقيت قلعة فوقها صغيرة فيها ولده وأمواله، فلم يوصل إليهم، وفرّق أسد الخيل في أودية الخُتّل.

قال: وقدم أسدمَرْو، وعليها أيّوب بن أبي حسان التميميّ، فعزله واستعمل خالد بن شديد، ابن عمه. فلما شخص إلى بلْخ بلغه أنّ عمارة بن حُرَيم تزوّج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب، فكَتب إلى خالد بن شديد: احمل عُمارة على طلاق ابنة يزيد؛ فإن أبى فاضربه مائة سوط؛ فبعث إليه فأتاه وعنده العذافر بن زيد التميميّ، فأمره بطلاقها، ففعل بعد إباء منه؛ وقال عذافر: عمارة والله فتى قيس وسيّدها، وما بها عليه أبّهة؛ أي ليست بأشرف منه. فتوفيّ خالد بن شديد، واستخلف الأشعث بن جعفر البَجَليّ.

وفيها شرى الصحاريّ بن شبيب، وحكّم بجبُّل.

ذكر خبره:

ذكر عن أبي عبيدة معمر بن المثنى أن الصحاريّ بن شبيب أتى خالداً يسأله الفريضة، فقال: وما يصنع ابن شبيب بالفريضة! فودّعه ابن شبيب، ومضى، وندم خالد وخاف أن يفتق عليه فتقاً، فأرسل إليه يدعوه، فقال: أنا كنت عنده آنفاً؛ فأبوْا أن يَدَعوه، فشدّ عليهم بسيفه، فتركوه فركب وسار حتى جاوز واسطاً، ثم عقر فرسه وركب زورقاً ليخفي مكانه، ثم قصد إلى نفر من بني تَيْم اللات بن ثعلبة، كانوا بجَبُّل، فأتاهم متقلداً سيفاً فأخبرهم خبره وخبر خالد، فقالوا له: وما كنت ترجو بالفريضة! كنتَ لأن تخرج إلى ابن النصرانيّة فتضربه بسيفك أحْرَى. فقال: إني والله ما أردت الفريضة، وما أردت إلا التوصّل إليه لئلا ينكرني، ثم أقتل ابن النصرانيّة غيلة بقتله فلاناً ـ وكان خالد قَبْل ذلك قد قتل رجلاً من قَعَدة الصُّفْريّة صَبراً ـ ثم دعاهم الصحاريّ إلى الوثوب معه فأجابه بعضهم، وقال بعضهم: ننتظر؛ وأبى بعضهم وقالوا: نحن في عافية، فلما رأى ذلك قال:

لم أردْ منه الفريضةَ إلاّ طَمَعاً في قتله أنْ أنالا

فــأَرِيــحَ الأرضَ مــنــه ومِــمّــن عــاثَ فـيـهـا وعَـنِ الـحـقِّ مــالا
كُــلِّ جــبــارٍ عــنــيــد أراهُ تَــرَكَ الــحــق وَسَــنَّ الــضــلالا
إنَّــنـي شَــارٍ بــنــفــسي لــربّــي تَــارِكٌ قِــيــلا لــديــهــمْ وقــالا
بَــائــعٌ أهــلي وَمَــالِــيَ أرجــو فــي جنــانِ الــخــلدِ أهــلاً ومــالا

قال: فبايعه نحو ثلاثين، فشرَى بجَبُّل، ثم سار حتى أتى المبارَك. فبلغ ذلك خالداً، فقال: قد كنت خفتُها منه. ثم وجه إليه خالداً جنداً، فلقوه بناحية المَناذِر، فقاتلهم قتالاً شديداً، ثم انطووا عليه فقتلوه وقتلوا جميع أصحابه.

قال أبو جعفر: وحجّ بالناس في هذه السنة أبو شاكر مسلمة بن هشام بن عبد الملك، وحجّ معه ابن شهاب الزُّهريّ في هذه السنة.

وكان العامل في هذه السنة على المدينة ومكة والطائف محمد بن هشام، وعلى العراق والمشرق خالد بن عبد الله القسريّ، وعامل خالد على خراسان أخوه أسد بن عبد الله.

وقد قيل: إنّ أخا خالد أسداً هلك في هذه السنة، واستخلف عليها جعفر بن حنظلة البهرانيّ.

وقيل: إن أسداً أخا خالد بن عبد الله إنّما في سنة عشرين ومائة.

وكان على أرْمينيةَ وأذربيجان مَرْوان بن محمد.

ثم دخلت سنة عشرين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك غزوة سليمان بن هشام بن عبد الملك الصّائفة وافتتاحه ـ فيما ذكر ـ سندرة ، وغزوة إسحاق بن مسلم العُقيليّ وافتتاحه قلاع تُومانشاه وتخريبه أرضه ، وغزوة مَرْوان بن محمد أرض الترك .

وفيها كانت وفاة أسد بن عبد الله في قول المدائنيّ .

ذكر الخبر عن سبب وفاته :

وكان سبب ذلك أنه كانت به ـ فيما ذكر ـ دُبَيلة في جوفه ؛ فحضر المهرجان وهو ببلْخ ، فقدم عليه الأمراءُ والدّهاقين ؛ فكان ممن قدم عليه إبراهيم بن عبد الرحمن الحنفيّ عامله على هَراة وخُراسان ، ودِهقان هراة ؛ فقدِما بهديَّة قُوّمت بألف ألف ؛ فكان فيما قَدِما به قَصْران : قصر من فضّة وقصر من ذهب ، وأباريق من ذهب وأباريق من فضّة وصحاف من ذهب وفضة ؛ فأقبلا وأسد جالس على السرير ، وأشراف خُراسان على الكراسيّ ، فوضعا القَصْرين ؛ ثم وضعا خلْفهما الأباريق والصِّحاف والديباج المرويّ والقوهيّ والهرويّ وغير ذلك ؛ حتى امتلأ السماط ؛ وكان فيما جاء به الدّهقان أسداً كُرَة من ذَهب ؛ ثم قام الدهقان خطيباً ، فقال : أصلح الله الأمير! إنّا معشر العَجم ؛ أكلنا الدّنيا أربعمائة سنة ؛ أكلناها بالحِلْم والعقل والوقار ؛ ليس فينا كتاب ناطق ، ولا نبيّ مرسل ؛ وكانت الرّجال عندنا ثلاث : ميمون النقيبة أينما توجه فتح الله على يده ، والذي يليه رجل تمتّ مُروّته في بيته فإن كان كذلك رُجيَ وعُظِّم ، وقوّد وقدّم ؛ ورجل رحُب صدره ، وبسط يده فُرجِيَ ؛ فإذا كان كذلك قُوِّد وقُدِّم ؛ وإن الله جعل صفات هؤلاء الثلاثة الذين أكلنا الدّنيا بهم أربعمائة سنة فيك أيها الأمير ؛ وما نعلم أحداً هو أتمّ كَتْخُدانيَّة منك ؛ إنك ضبطتَ أهل بيتِك وحشمك ومواليك ؛ فليس منهم أحد يستطيع أن يتعدّى على صغير ولا كبير ، ولا غنيّ ولا فقير ، فهذا تمام الكُتْخدانيّة ، ثم بنيتَ الإيوانات في المفاوز ؛ فيجيءُ الجائي من المشرق والآخر من المغرب ؛ فلا يجدان عيباً إلا أن يقولا : سبحان الله ما أحسن ما بُني! ومِن يُمن نقيبتك أنك لقيت خاقان وهو في مائة ألف ، معه الحارث بن سريج فهزمتَه وفللْته ، وقتلت أصحابَه ، وأبحت عسكره . وأما رُحْب صدرِك وبَسْط يدك ، فإنّا ما ندري أيّ المالين أقرّ لعينك؟ أمالٌ قدم عليك ، أم مال خرج من عندك! نبل أنتَ بما خرج أقرّ عيناً . فضحك أسد ، وقال : أنت خير دهاقين خُراسان وأحسنهم هديّة ، وناوله تفاحة كانت في يده ؛ وسجد له دِهْقان هَراة ، وأطرق أسد ينظر إلى تلك الهدايا ؛ فنظر عن يمينه ، فقال : يا عُذافر بن يزيد ، مُرْ من يحمل هذا القَصْرَ الذهب ، ثم قال : يا معن بن أحمر رأس قيس ـ أو قال قنّسرين ـ مرْ بهذا القصر يحملَ ، ثم قال : يا فلان خذ إبريقاً ، ويا فلان خذ إبريقاً ، وأعطي الصِّحاف حتى بقيت صحفتان ،

فقال: قم يابن الصيداء، فخذ صُحيفة، قال: فأخذ واحدة فرزنها فوضعها، ثم أخذ الأخرى فرزنها، فقال له أسد: مالك؟ قال: آخذ أرزنها، قال: خذهما جميعاً؛ وأعطى العُرَفاء وأصحاب البلاء؛ فقام أبو اليعفور ـ وكان يسير أمام صاحب خراسان في المغازي ـ فنادى: هلمّ إلى الطريق، فقال أسد: ما أحسن ما ذكّرت بنفسك! خذ ديباجتين، وقام ميمون العذّاب فقال: إليّ، إلى يساركم، إلى الجادّة؛ فقال: ما أحسن ما ذكّرت نفسك! خذ ديباجة، قال: فأعطى ما كان في السمّاط كلّه، فقال نهر بن توْسِعة:

تـقـولُون إنْ نـادى لِـرَوعٍ مُـشـوِّبٌ ... وأنـتم غَـداة الـمـهـرَجـانِ كـثـيـرُ

ثم مرض أسد، فأفاق إفاقة فخرج يوماً، فأتيَ بكمّثرى أوّل ما جاء، فأطعمَ الناس منه واحدة واحدة؛ وأخذ كمُثّراة فرمى بها إلى خراسان دهقان هراة، فانقطعت الدُّبَيلة، فهلك. واستخلف جعفراً البهرانيّ، وهو جعفر بن حنظلة سنة عشرين ومائة فعمل أربعة أشهر، وجاء عهد نصر بن سيّار في رجب سنة إحدى وعشرين ومائة، فقال ابن عِرْس العبديّ:

نَـعَـى أسَـدَ بـنَ عـبـد اللهِ نَـاعٍ ... فَـريـعَ القلبُ للملِكِ الـمُـطـاعِ
بـبَـلخٍ وافَـقَ الـمِـقـدارُ يُـسْـرِي ... ومـا لـقـضـاءِ ربـك مِـنْ دَفـاعِ
فجـودِي عَينُ بـالعَبَـراتِ سَحًّـا ... ألم يُحْـزنْـكِ تَفْـريقُ الجمـاعِ!
أتَـاهُ حِمامُـهُ في جـوف صِيـغٍ ... وكم بـالصيغِ من بـطل شجاعِ!
كتـائبُ قـد يُجيبُـونَ المنـادي ... عـلى جُـرْدٍ مـسـوّمـة سِـراعِ
سُقيتَ الغيث إنّـك كنت غيثـاً ... مَـريعـاً عِنـدَ مُـرْتَـاد النُّجـاعِ

وقال سليمان بن قتّة مولى بني تيم بن مرة ـ وكان صديقاً لأسد:

سَقَى الله بلْخاً، سَهْلَ بلخ وحَزْنَهـا ... ومَـرْوَيْ خُراسـانَ السَّحابَ المُجمَّمَـا
وَمَـا بـي لِتُسْـقَـاهُ ولـكـنَّ حُـفـرَةً ... بهـا غَيَّبُوا شِلْواً كـريمـاً وأعـظُمَـا
مُـرَاجِـمَ أقـوامٍ ومُـرْدِي عَـظِيمـةٍ ... وطَـلاَّبَ أوتـارٍ عِـفَـرْنـاً عَثَـمْثَـمـا
لقد كان يُعطِي السَّيْفَ في الرَّوْع حقَّهُ ... ويُـرْوى السنـانَ الـزَّاغيَّ المُقـوَّمـا

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة وجّهت شيعة بني العباس بخراسان إلى محمد بن عليّ بن العباس سليمانَ بن كثير ليعلمه أمرهم وما هم عليه.

ذكر الخبر عن سبب توجيههم سليمان إلى محمد:

وكان السبب في ذلك موجدة كانت من محمد بن عليّ على مَنْ كان بخُراسان من شيعته من أجل طاعتهم، كانت لخداش الذي ذكرنا خبره قبل وقبولهم منه ما روي عليه من الكذب؛ فترك مكاتبتهم؛ فلما أبطأ عليهم كتابُه، اجتمعوا فذكروا ذلك بينهم؛ فأجمعوا على الرِّضا بسليمان بن كَثِير ليلقاه بأمرهم، ويخبره عنهم، ويرجع إليهم بما يردّ عليه؛ فقدم ـ فيما ذكر ـ سليمان بن كَثير على محمد بن عليّ وهو متنكّر لمن بخُراسان من شيعته، فأخبره عنْهم، فعنّفهم في اتّباعهم خداشاً وما كان دعا إليه، وقال: لعن الله خداشا ومَنْ كان على دينه! ثم صرف سليمان إلى خراسان، وكتب إليهم معه كتاباً، فقدم عليهم، ومعه الكتاب مختوماً، فَفَضّوا خاتمه فلم

يجدوا فيه شيئاً، إلّا: « بسم الله الرحمن الرحيم »، فغلظ ذلك عليهم وعلموا أنّ ما كان خداش أتاهم به لأمره مخالف.

وفي هذه السنة وجّه محمد بن عليّ بكر بن ماهان إلى شيعته بخُراسان بعد منصرَف سليمان بن كَثِير من عنده إليهم، وكتب معه إليهم كتاباً يعلمهم أن خِداشاً حمل شيعته على غير مِنهاجه. فقدم عليهم بكير بكتابه فلم يصدّقوه واستخفّوا به؛ فانصرف بكير إلى محمد بن عليّ، فبعث معه بعصيّ مضبّبة بعضها بالحديد وبعضها بالشَّبَه؛ فقدم بها بكير وجمع النقباء والشّيعة، ودفع إلى كلّ رجل منهم عصاً، فعلموا أنهم مخالفون لسيرته، فرجعوا وتابوا.

وفي هذه السنة عزل هشام بن عبد الملك خالد بن عبد الله عن أعماله التي كان ولاه إياها كلّها.

ذكر سبب عزل هشام خالداً

قد قيل في ذلك أقوال، نذكر ما حضرنا من ذلك ذكره؛ فممّا قيل في ذلك: إن فَرُّوخ أبا المثنى كان قد تقبّل من ضياع هشام بن عبد الملك بموضع يقال له رُستاق الرّمان أو نهر الرّمان ـ وكان يُدعى بذلك فرّوخ الرّمانيّ ـ فثقل مكانه على خالد، فقال خالد لحسان النَّبَطيّ: ويحك! اخرج إلى أمير المؤمنين فزِدْ على فرّوخ، فخرج فزاد عليه ألف ألف درهم؛ فبعث هشام رجلين من صُلحاء أهل الشأم، فحازا الضياع، فصار حسان أثقل على خالد من فرّوخ؛ فجعل يضرّبه، فيقول له حسّان: لا تفسدني وأنا صنيعتك! فأبى إلّا الإضرار به، فلما قدم عليه بثق البثوق على الضّياع، ثم خرج إلى هشام، فقال: إن خالداً بَثَق البُثوق على ضياعك. فوجّه هشام رجلاً، فنظر إليها ثم رجع إلى هشام فأخبره، فقال حسان لخادم مِن خدم هشام: إن تكلّمتَ بكلمة أقولها لك حيث يسمع هشام، فلك عندي ألف دينار، قال: فعجِّل لي الألف وأقول ما شئت، قال: فعجّلها له وقال له: بَكّ صبيًّا من صبيان هشام؛ فإذا بكى فقل له: اسكت؛ والله لكأنك ابنُ خالد القسريّ الذي غلّته ثلاثة عشر ألف ألف. فسمعها هشام فأغضى عليها. ثم دخل عليه حسّان بعد ذلك، فقال له هشام: ادنُ مني فدنا منه، فقال: كم غلّة خالد؟ قال: ثلاثة عشر ألف ألف، قال: فكيف لم تخبرني بهذا! قال: وهل سألتَني؟ فوقرَتْ في نفس هشام، فأزمع على عزله.

وقيل: كان خالد يقول لابنه يزيد: ما أنت بدون مسلمة بن هشام؛ فإنّك لتفخر على الناس بثلاث لا يفخر بمثلها أحدٌ: سكَرْتُ دجلة ولم يتكلّف ذلك أحد، ولي سِقايةٌ بمكة، ولي ولاية العراق.

وقيل: إنّما أغضب هشاماً على خالد أنّ رجلاً من قريش دخل على خالد فاستخفّ به وعضّه بلسانه، فكتب إلى هشام يشكوه، فكتب هشام إلى خالد:

أما بعد؛ فإنّ أمير المؤمنين ـ وإن كان أطلق لك يدك، ورأيك فيمن استرعاك أمره، واستحفظك عليه، للّذي رجا من كفايتك، ووثق به من حسن تدبيرك ـ لم يُفرشك غُرّة أهل بيته لتطأه بقدمِك، ولا تحدّ إليه بصرك، فكيف بك وقد بسطت على غُرّتهم بالعراق لسانَك بالتوبيخ؛ تريد بذلك تصغير خَطَه، واحتقار قدره؛ زعمت بالنّصفة منه حتى أخرجك ذلك إلى الإغلاظ في اللفظ عليه في مجلس العامة، غير متحلحل له حين رأيته مقبلاً من صدر مهادك الذي مهد له الله، وفي قومك مَن يعلوك بحسبه، ويغمُرك بأوّليته، فنِلتَ مِهَادَك بما رفع

به آلُ عمرو من ضَعتك خاصّةً، مساوين بك فروع غُرَر القبائل وقرومها قبل أمير المؤمنين؛ حتى حللتَ هضبةً أصبحتَ تنحو بها عليهم مفتخراً. هذا إن لم يدهده بك قلة شكرك متحطّماً وقيذا. فهلّا ـ يابن مجرّشة قومك ـ أعظمت رجُلَهم عليك داخلا، ووسَّعت مجلسه إذ رأيتَه إليك مقبلاً، وتجافيتَ له عن صدر فراشك مكرّماً، ثم فاوضتَه مقبلاً بِبِشْرك، إكراماً لأمير المؤمنين فإذا اطمأنّ به مجلسه نازعته بحييّ السرار، معظّماً لقرابته، عارفاً لحقّه؛ فهو سِنّ البيتيْن ونابهم، وابن شيخ آل أبي العاص وحَرْبٍ وغُرّتهم. وبالله يقسم أمير المؤمنبن لك لولا ما تقدّم من حُرْمتك وما يكره من شماتة عدوّك بك لوضع منك ما رفع؛ حتى يردّك إلى حال تفقد بها أهلَ الحوائج بعراقك، وتزاحم المواكب ببابك. وما أقربني من أن أجعلك تابعاً لمن كان لك تَبعاً؛ فانهض على أيّ حالٍ ألفاك رسولُ أمير المؤمنين وكتابُه، من ليل أو نهار، ماشياً على قدمك بمن معك من خوَلك؛ حتى تقف على باب ابن عمرو صاغراً، مستأذناً عليه، متنصّلاً إليه؛ أذِن لك أو منعك؛ فإن حرّكتْه عواطف رحمة احتملك، وإن احتملتْه أنَفة وحَميّة من دخولك عليك فقِف ببابه حَوْلا غير متحلحل ولا زائل؛ ثم أمْرُك بعدُ إليه؛ عزل أو ولّى، انتصر أو عفا؛ فلعنك الله من متّكل عليه بالثقة؛ ما أكثر هفواتك، وأقذع لأهل الشرف ألفاظك؛ التي لا تزال تبلغ أمير المؤمنين من أقدامك بها علىَ مَنْ هو أولى بما أنت فيه من ولاية مِصْرَيِ العراق، وأقدم وأقوم. وقد كتب أمير المؤمنين إلى ابن عمّه بما كتب به إليك من إنكاره عليك، ليرى في العفو عنك والسخط عليك رأيه، مفوّضاً ذلك إليه مبسوطة فيه يدُه، محموداً عند أمير المؤمنين على أيّهما آتى إليك، موفقاً إن شاء الله تعالى.

وكتب إلى ابن عمرو:

أما بعد، فقد بلغ أميرَ المؤمنين كتابُك، وفهم ما ذكرت من بَسْطِ خالد عليك لسانَه في مجلس العامة محتقراً لقَدْرك، مستصغراً لقرابتك من أمير المؤمنين، وعواطف رحِمه عليك وإمساكِك عنه، تعظيماً لأمير المؤمنين وسلطانه، وتمسكاً بوثائق عِصَم طاعته، مع مؤلم ما تداخلك من قبائح ألفاظه وشرارة منطقه، وإكثابه عليك عند إطراقك عنه، مروّياً فيما أطلق أمير المؤمنين من لسانه، وأطال من عنانه، ورفع من ضعته، ونوّه من خموله؛ وكذلك أنتم آل سعيد في مثلها عند هَذْر الذّنابي وطائشةِ أحلامها، صُمْتٌ من غير إفحام، بل بأحلام تَخِفّ بالجبال وزنا. وقد حمِد أمير المؤمنين تعظيمَك إياه، وتوقيرك سلطانه وشكره؛ وقد جعل أمر خالد إليك في عزلك إياه أو إقراره؛ فإن عزلتَه أمضى عزلك إيّاه، وإن أقررتَه فتلك منّة لك عليه لا يشركك أمير المؤمنين فيها. وقد كتب إليه أمير المؤمنين بما يطرد عنه سِنَة الهاجع عند وصوله إليه، يأمره بإتيانك راجلاً على أيّة حال صادفه كتابُ أمير المؤمنين فيها، وألفاه رسولُه الموجَّه إليه من ليله أو نهاره، حتى يقف ببابك؛ أذنت له أو حجبته، أقررتَه أو عزلته، وتقدّم أمير المؤمنين إلى رسوله في ضربه بين يديك على رأسه عشرين سوطاً إلا أن تكره أن يناله ذلك بسببك لحرمة خدمته؛ فأيّهما رأيت إمضاءه كان لأمير المؤمنين في برّك وعظيم حُرْمتك وقرابتك وصلة رحمك موفقاً، وإليه حبيباً، فيما ينوي من قضاء حقّ آل أبي العاص وسعيد. فكاتبْ أميرَ المؤمنين فيما بدا لك مبتدئاً ومجيباً ومحادثاً وطالباً؛ ما عسى أن يُنزل بك أهلك من أهل بيت أمير المؤمنين من حوائجهم التي تقعد بهم الحشمة عن تناولها من قبَله لبعد دارهم عنه، وقلة إمكان الخروج لإنزالها به؛ غير محتشم من أمير المؤمنين، ولا مستوحش من تكرارها عليه، على قَدْرِ قرابتهم وأديانهم وأنسابهم، مستمنحاً ومسترفداً، وطالباً مستزيداً، تجد أمير المؤمنين إليك سريعاً بالبرّ لما يحاول من صلة قرابتهم، وقضاء حقوقهم، والله يستعين أمير المؤمنين على ما ينوي، وإليه يرغب في العَوْن على قضاء حقّ قرابته، وعليه يتوكّل، وبه يثق. والله وليّه ومولاه. والسلام.

وقيل: إنّ خالداً كان كثيراً ما يذكر هشاماً، فيقول: ابن الحمقاء. وكانت أم هشام تستحمق، وقد ذكرنا قبل.

وذكر أنه كتب إلى هشام كتاباً غاظَه، فكتب إليه هشام: يا بن أمّ خالد؛ قد بلغني أنك تقول: ما ولاية العراق لي بشرف؛ فيابن اللخناء، كيف لا تكون إمرة العراق لك شرفاً، وأنت مِنْ بجيلة القليلة الذليلة! أما والله إني لأظنّ أنّ أوّل من يأتيك صغير من قريش؛ يشدّ يديْك إلى عنقك.

وذكر أن هشاماً كتب إليه: قد بلغني قولك: أنا خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كرز؛ ما أنا بأشرف الخمسة. أما والله لأرُدّنك إلى بغْلتِك وطَيْلسانك الفيروزيّ.

وذكر أن هشاماً بلغه أنه يقول لابنه: كيف أنت إذا احتاج إليك بنو أمير المؤمنين! فظهر الغضب في وجهه.

وقيل: إن هشاماً قد عليه رجل من أهل الشأم، فقال: إني سمعت خالداً ذكر أمير المؤمنين بما لا تنطلِق به الشفتان؛ قال: قال: الأحول؟ قال: لا، بل قال أشدّ من ذلك، قال: فما هو؟ قال: لا أقوله أبداً، فلم يزل يبلغه عنه ما يكره حتى تغيّر له.

وذكر أن دهقاناً دخل على خالد، فقال: أيّها الأمير، إنّ غلة ابنك قد زادت على عشرة آلاف ألف؛ ولا آمنُ أن يبلغ هذا أمير المؤمنين فيستكثره. وإنّ الناس يحبون جسدَك، وأنا أحبّ جسدك وروحَك؛ قال: إن أسد بن عبد الله قد كلّمني بمثل هذا، فأنت أمرته؟ قال: نعم، قال: ويحك! دع ابني، فلربما طلب الدّرْهم فلم يقدر عليه.

ثم عزم هشام ـ لما كثر عليه ما يتّصل به عن خالد من الأمور التي كان يكرهها ـ على عزله؛ فلما عزم على ذلك أخفى ما قد عزم له عليه من أمره.

ذكر الخبر عن عمل هشام
عزل خالد حين صحّ عزمُه على عزله

ذكر عمر أن عبيد بن جنّاد حدّثه أنه سمع أباه وبعض الكتبة يذكر أن هشاماً أخفى عَزْل خالد. وكتب إلى يوسف بخطه ـ وهو على اليمن ـ أن يُقبِل في ثلاثين من أصحابه. فخرج يوسف حتى صار إلى الكوفة، فعرّس قريباً منها، وقد ختن طارق ـ خليفة خالد على الخراج ـ ولدَه؛ فأهدى له ألف عتيق وألف وصيف وألف وصيفة؛ سوى الأموال والثياب وغير ذلك؛ فمرّ العاسّ بيوسف وأصحابه ويوسف يصلي ورائحة الطيب تنفح من ثيابه، فقال: ما أنتم؟ قالوا: سفّار؛ قال: فأين تريدون؟ قالوا: بعض المواضع، فأتوا طارقاً وأصحابَه، فقالوا: إنا رأينا قوماً أنكرناهم، والرأي أن نقتلهم، فإن كانوا خوارجَ استرحنا منهم؛ وإن كانوا يريدونكم عرفتم ذلك فاستعددتم على أمرهم. فنهوْهم عن قتلهم؛ فطافوا؛ فلما كان في السَّحر وقد انتقل يوسف وصار إلى دور ثَقيف، فمرّ بهم العاسّ، فقال: ما أنتم؟ فقالوا: سفّار، قال: فأين تريدون؟ قالوا: بعض المواضع، فأتوا طارقاً وأصحابه، فقالوا: قد صاروا إلى دور ثَقيف والرأي أن نقتلهم، فمنعوهم وأمر يوسف بعض الثّقفيّين، فقال: اجمع لي مَن بها من مُضر. ففعل، فدخل المسجد مع الفجْر، فأمر المؤذّن بالإقامة، فقال: حتى

يأتي الإمام؛ فانتهره فأقام، وتقدّم يوسف فقرأ: « إذا وقعت الواقعة، » و« سأل سائل »، ثم أرسل إلى خالد وطارق وأصحابهما، فأخِذوا وإنّ القُدور لتغلي.

قال عمر: قال عليّ بن محمد، قال: قال الربيع بن سابور مولى بني الحَرِيش ـ وكان هشام جعل إليه الخاتم مع الحَرس: أتى هشاماً كتابُ خالدٍ فغاظه، وقدم عليه في ذلك اليوم جندب مولى يوسف بن عمر بكتاب يوسف، فقرأه ثم قال لسالم مولى عنبسة بن عبد الملك: أجِبْه عن لسانك، وكتب هو بخطّه كتاباً صغيراً، ثم قال لي: ائتني بكتاب سالم ـ وكان سالم على الديوان ـ فأتيتُه به، فأدرج فيه الكتاب الصّغير، ثم قال لي: اختمه ففعلت، ثم دعا برسول يوسف، فقال: إن صاحبك لمتعدٍّ طورَه،ويسأل فوق قدره؛ ثم قال لي: مَزِّق ثيابَه. ثم أمر به فضرب أسواطاً، فقال: أخرجه عنّي وادفع إليه كتابه. فدفعتُ إليه الكتاب، وقلت له: ويلك! النّجاء! فارتاب بَشير بن أبي ثلجة من أهل الأردن، وكان خليفة سالم وقال: هذه حيلة؛ وقد ولّي يوسف العراق؛ فكتب إلى عامل لسالم على أجَمَةَ سالم، يقال له عياض: إنّ أهلك قد بعثوا إليك بالثّوب اليمانيّ؛ فإذا أتاك فالبسه واحمد الله، وأعلم ذلك طارقاً. فبعث عياض إلى طارق بن أبي زياد بالكتاب، وندم بشير على كتابه، وكتب إلى عياض: إنّ أهلك قد بدا لهم في إمساك الثوب فلا تتكل عليه؛ فجاء عياض بالكتاب الآخر إلى طارق، فقال: طارق: الخبر في الكتاب الأوّل؛ ولكن صاحبك ندم وخاف أن يظهر الخبر فكتب بهذا. وركب طارق من الكوفة إلى خالد وهو بواسط؛ فسار يوماً وليلة؛فصبحهم،فرآه داود البربري ـ وكان على حجابة خالد وحرسه وعلى ديوان الرسائل ـ فأعلم خالداً، فغضب، وقال: قدم بغير إذن؛ فأذن له، فلمّا رآه قال: ما أقدمك؟ قال: أمرٌ كنت أخطأت فيه؛ قال: وما هو؟ قال: وفاة أسد رحمه الله، كتبتُ إلى الأمير أعزّيه عنه، وإنما كان ينبغي لي أن آتيَه ماشياً. فرقّ خالد ودمعت عيناه، ارجع إلى عملك؛ قال: أردت أن أذكر للأمير أمراً أسِرُّه، قال: ما دون داود سرّ، قال: أمر من أمري، فغضب داود وخرج، وأخبر طارق خالداً، قال: فما الرأي؟ قال: تركب إلى أمير المؤمنين فتعتذر إليه من شيء إن كان بلغه عنك. قال: فبئس الرجل أنا إذاً إن ركبت إليه بغير إذنه، قال: فشيء آخر، قال: وما هو؟ قال: تسير في عملك، وأتقدّمك إلى الشأم، فأستأذِنه لك؛ فإنك لا تبلغ أقصى عملك حتى يأتيَكَ إذنه، قال: ولا هذا، قال: فأذهب فأضمن لأمير المؤمنين جميعَ ما انكسر في هذه السنين وآتيك بعهدك مستقبلاً، قال: وما يبلغ ذاك؟ قال: مائة ألف ألف، قال: ومِن أين آخذ هذا! والله ما أجدُ عشرة آلاف درهم، قال: أتحمّل أنا وسعيد بن راشد أربعين ألف درهم، والزينبيّ وأبان بن الوليد عشرين ألف ألف؛ وتفرِّق الباقي على العمال، قال: إني إذاً للئيم، أن كنت سوَّغتُ قوماً شيئاً ثم أرجع فيه، فقال طارق: إنما نقيك ونقي أنفسنا بأموالنا ونستأنف الدنيا، وتبقى النعمة عليك وعلينا خير من أن يجيء مَن يطالبنا بالأموال، وهي عند تجار أهل الكوفة، فيتقاعسون ويتربّصون بنا فنقتل، ويأكلون تلك الأموال. فأبى خالد فودّعه طارق وبكى، وقال: هذا آخر ما نلتقي في الدنيا؛ ومضى.

ودخل داود، فأخبره خالد بقول طارق، فقال: قد علم أنك لا تخرج بغير إذن؛ فأراد أن يختِلَك ويأتي الشأم، فيتقبّل بالعراق هو وابن أخيه سعيد بن راشد. فرجع طارق إلى الكوفة، وخرج خالد إلى الحَمّة.

وقال: وقدم رسول يوسف عليه اليمن، فقال له: ما وراءك؟ قال: الشرّ، أمير المؤمنين ساخط، وقد

ضربني ولم يكتب جواب كتابك، وهذا كتاب سالم صاحب الديوان. ففضّ الكتاب فقرأه، فلما انتهى إلى آخره قرأ كتاب هشام بخطه: أن سرْ إلى العراق فقد وليتك إياه، وإياك أن يعلم بذاك أحد؛ وخذ ابنَ النصرانيّة وعمّاله فاشفني منهم؛ فقال يوسف: انظروا دليلاً عالماً بالطريق، فأتي بعدّة، فاختار منهم رجلاً وسار من يومه، واستخلف على اليمن ابنَه الصّلتفشيَّعه؛ فلما أراد أن ينصرف سأله: أين تريد؟ فضربه مائة سوط، وقال: يابن اللخناء، أيخفى عليك إذا استقرّ بي منزل، فسار، فكان إذا أتى إلى طريقين سأل، فإذا قيل: هذا إلى العراق، قال: أعرِق، حتى أتى الكوفة.

قال عمر: قال عليّ عن بشر بن عيسى، عن أبيه، قال: قال حسان النَّبَطيّ: هيأتُ لهشام طيبا، فإني لبين يديه وهو ينظر إلى ذلك الطِّيب إذ قال لي: يا حسان، في كم يقدم القادم من العراق إلى اليمن؟ قال: قلتُ: لا أدري، فقال:

أمَرْتُكَ أمراً حازماً فَعَصَيْتَني فأصبَحْتَ مَسلوبَ الإمارَة نادِما

قال: فلم يلبث إلا قليلاً حتى جاء كتاب يوسف من العراق قد قدمها؛ وذلك في جمادى الآخرة سنة عشرين ومائة.

قال عمر: قال عليّ: قال سالم زنبيل: لما صرنا إلى النَّجف قال لي يوسف: انطلق فأتني بطارق؛ فلم أستطع أن آبَى عليه، وقلت في نفسي: مَنْ لي بطارق في سلطانه! ثم أتيت الكوفة، فقلت لغلسان طارق: استأذنوا لي علَى طارق، فضربوني فصِحْتُ له: ويلك يا طارق! أنا سالم رسول يوسف، وقد قدم على العراق. فخرج فصاح بالغلمان، وقال: أنا آتيه.

قال: وروي أنّ يوسف قال لكيسان: انطلق فأتني بطارق، فإنْ كان قد أقبل فاحمله على إكاف، وإن لم يكن أقبل فأت بِهِ سَحباً. قال: فأتيته بالحيرة دار عبد المسيح ـ وهو سيّد أهل الحيرة ـ فقلت له: إنّ يوسف قد قدم على العراق؛ وهو يأمرك أن تشدّ طارقاً وتأتيَه به؛ فخرج هو وولده وغلمانه حتى أتوْا منزل طارق ـ وكان لطارق غلام شجاع معه غلمان شجعاء لهم سلاح وعدّة ـ فقال لطارق: إن أذِنْتَ لي خرجت إلى هؤلاء فيمن معي فقتلتُهم، ثم طرتَ على وجهك. فذهبتَ حيث شئت قال: فأذن لكيسان، فقال: أخبِرْني عن الأمير، يريد المال؟ قال: نعم، قال: فأنا أعطيه ما سأل؛ وأقبلوا إلى يوسف فتوافوْا بالحيرة، فلما عاينه ضربه ضرباً مبرّحاً ـ يقال خمسمائة سوط ـ ودخل الكوفة، وأرسل عطاء بن مقدّم إلى خالد بالحَمّة.

قال عطاء: فأتيتُ الحاجب فقلتُ: استأذنْ لي على أبي الهيثم، فدخل وهو متغيّر الوجه فقال له خالد: مالك؟ قال: خير، قال: ما عندك خير، قال: عطاء بن مقدّم، قال: استأذن لي على أبي الهيثم، فقال: ائذنْ له، فدخلت: فقال: ويل أمها سُخْطَة! قال: فلم أستقرَّ حتى دخل الحكَم بن الصّلت، فقعد معه، فقال له خالد: ما كان ليلي عليّ أحد هو أحبّ إليّ منكم.

وخطب يوسف بالكوفة، فقال: إن أمير المؤمنين أمرني بأخذ عمال بن النصرانيّة، وأن أشفِيَه منهم، وسأفعل وأزيد والله يا أهل العراق؛ ولأقتلنّ منافقيكم بالسيف وجُناتَكم بالعذاب وفسّاقكم. ثم نزل ومضى إلى واسط، وأتيَ بخالد وهو بواسط.

قال عمر: قال حدثني الحكم بن النّضر: قال: سمعت أبا عبيدة يقول: لما حبس يوسف خالداً صالحه عنه أبان بن الوليد وأصحابُه على تسعة آلاف ألف درهم، ثم ندم يوسف، وقيل له: لو لم تفعل لأخذتَ منه مائة ألف ألف درهم، قال: ما كنت لأرجع وقد رهنت لساني بشيء. وأخبر أصحاب خالد خالداً، فقال: قد أسأتم حين أعطيتموه عند أوّل وَهْلة تسعة آلاف ألف، ما آمن أن يأخذها ثم يعود عليكم، فارجعوا. فجاءوا فقالوا: إنا قد أخبرنا خالداً فلم يرضَ بما ضمنّا، وأخبرنا أنّ المال لا يمكنه، فقال: أنتم أعلم وصاحبكم؛ فأما أنا فلا أرجع عليكم؛ فإن رجعتم لم يمنعكم، قالوا: فإنا قد رجعنا، قال: وقد فعلتم! قالوا: نعم، قال: فمنكم أتى النقض؛ فوالله لا أرضى بتسعة آلاف ألف ولا مثليْها ولا مثلها، فأخذ أكثر من ذلك. وقد قيل: إنه أخذ مائة ألف ألف.

وذكر الهيثم بن عديّ، عن ابن عياش أنّ، هشاماً ما أزمع على عَزْل خالد، وكان سبب ذلك أن اعتقد بالعراق أموالاً وحفر أنهاراً؛ حتى بلغت غَلّته عشرين ألف ألف؛ منها نهر خالد، وكان يغُلّ خمسة آلاف ألف وباجَوّي وبارُمّانا والمبارك والجامع وكُورة سابور والصِّلح، وكان كثيراً ما يقول: إنني والله مظلوم؛ ما تحت قدميّ من شيء إلا وهو لي - يعني أن عمر جعل لبَجِيلة ربع السواد.

قال الهيثم بن عديّ: أخبرني الحسن بن عمارة، عن العُريان بن الهيثم، قال: كنت كثيراً ما أقول لأصحابي: إنّي أحسب هذا الرجل قد تخلّي منه؛ إن قريشاً لا تحتمل هذا ونحوه؛ وهم أهل حسد، وهذا يُظهر ما يُظهر، فقلتُ له يوماً: أيها الأمير؛ إنّ الناس قد رمَوْك بأبصارهم، وهي قريش، وليس بينك وبينها إلّ، وهم يجدون منك بُدًّا؛ وأنت لا تجد منهم بُدًّا؛ فأنشدك الله إلا ما كتبت إلى هشام تخبره عن أموالك، وتعرض عليه منها ما أحبّ؛ فما أقدرك على أن تتخذ مثلها؛ وهو لا يستفسدك؛ وإن كان حريصاً على ذلك فلعمري لأنْ يذهب بعض ويبقى بعض خير من أن تذهب كلها؛ وما كان يستحسن فيما بينك وبينه أن يأخذها كلها، ولا آمن أن يأتيَه باغ أو حاسد فيقبل منه؛ فلأنْ تعطيَه طائعاً خير من أن تعطيَه كارهاً. فقال: ما أنت بمتّهم؛ ولا يكون ذلك أبداً. قال: فقلت أطعني واجعلني رسولك، فوالله لا يحلّ عقدةً إلا شددتها، ولا يشدّ عقدة إلا حللتها. قال: إنّا والله لا نعطي على الذلّ، قال: قلتُ هل كانت لك هذه الضياع إلا في سلطانه! وهل تستطيع الامتناع منه إن أخذها! قال: لا، قلتُ: فبادره، فإنه يحفظها لك ويشكرك عليها؛ ولو لم تكن له عندك يد إلّا ما ابتدأك به كنت جديراً أن تحفظه، قال: لا والله لا يكون ذلك أبداً؛ قال: قلتُ فما كنتَ صانعاً إذا عزلك وأخذ ضياعك فاصنعه، فإنّ إخوته وولده وأهل بيته قد سبقوا لك، وأكثروا عليه فيك، ولك صنائع تعود عليهم بما بدالك، ثم استدرك استتمام ما كان منك إلى صنائعك من هشام. قال: قد أبصرتُ ما تقول وليس إلى ذلك سبيل. وكان العريان يقول: كأنكم به قد عُزِل، وأخذ ما له وتجنّى عليه ثم لا ينتفع بشيء. قال: فكان كذلك.

قال الهيثم: وحدّثني ابن عيّاش، أنّ بلال بن أبي بردة كتب إلى خالد وهو عامله على البصرة حين بلغه تعتّب هشام عليه: إنّه حدَث أمر لا أجد بدًّا من مشافهتك فيه؛ فإن رأيتَ أن تأذن لي؛ فإنما هي ليلة ويومها إليك؛ ويوم عندك، وليلة ويومها منصرفًا. فكتب إليه: أن أقبِلْ إذا شئت. فركب هو ومَوليان له الجمّازات؛ فسار يوماً وليلة، ثم صلى المغرب بالكوفة؛ وهي ثمانون فرسخاً، فأخبِر خالد بمكانه، فأتاه وقد تعصّب، فقال:

أبا عـمرو، أتعبتَ نفسك، قال: أجل، قال: متى عهدُك بالبصرة؟ قال: أمس، قال: أحقٌّ ما تقول! قال: هو والله ما قلت، قال: فما أنصبك؟ قال: ما بلغني من تعتّب أمير المؤمنين وقوله، وما بغاك به ولدُه وأهل بيته؛ فإنْ رأيت أن أتعرّض له وأعرض عليه بعض أموالنا، ثم ندعوه منها إلى ما أحبّ وأنفسنا به طيّبة، ثن أعرض عليه مالك، فما أخذ منه فعلينا العوض منه بعد. قال: ما أتّهمك وحتى أنظر؛ قال: إني أخاف أن تعاجَل، قال: كلا، قال: إن قريشاً من قد عرفتَ، ولا سيما سرعتهم إليك قال: يا بلال؛ إني والله ما أعطي شيئاً قسراً أبداً. قال أيها الأمير، أتكلم؟ قال: نعم، قال: إن هشاماً أعذر منك، يقول: استعملتُك. وليس لك شيء، فلم تـر من الحق عليك أن تعرض عليّ بعض ما صار إليك؛ وأخاف أن يزيّن له حسان النّبطيّ ما لا تستطيع إدراكه، فاغتنم هذه الفترة. قال: أنا ناظر في ذلك فانصرف راشداً. فانصرف بلال وهو يقول: كأنكم بهذا الرجل قد بُعث إليه رجل بعيد أتيّ، به حَمْز، بغيض النفس سخيف الدّين، قليل الحيـاء، يأخـذه بالإحَن والترات. فكان كما قال.

قال ابن عياش: وكان بلال قد اتخذ داراً بالكوفة، وإنما استأذن خالداً لينظر إلى داره، فما نزلها إلّا مقيّداً، ثم جُعلت سِجْناً إلى اليوم.

قال ابن عيّاش: كان خالد يخطب فيقول: إنكم زعمتم أنّي أُغْلي أسعاوكم؛ فعلى مَن يغليها لعنة الله! وكان هشام كتب إلى خالد لاتبيعنّ من الغلّات شيئاً حتى تباع غلّات أمير المؤمنين حتى بلغت كيلجة درهما.

قال الهيثم، عن ابن عياش: كانت ولاية خالد في شوال سنة خمس ومائة ثم عزل في جُمادى الأولى سنة عشرين ومائة.

وفي هذه السنة قدم يوسف بن عمر العراق والياً عليها، وقد ذكرت قبل سبب ولايته عليها.

وفي هذه السنة ولّى خُراسانَ يوسفُ بن عمر جُديْعَ بن عليّ الكِرْمانيّ وعزل جعفر بن حنظلة.

وقيل: إنّ يوسف لما قدم العراق أراد أن يولّيَ خراسان سَلْم بن قُتيبة، فكتب بذلك إلى هشام، ويستأذنه فيه، فكتب إليه هشام: إنّ سلم بن قتيبة رجل ليس له بخراسان عشيرة؛ ولو كان له بها عشيرة لم يقتَل بها أبوه.

وقيل إنّ يوسف كتب إلى الكِرمانيّ بولاية خُراسان مع رجل من بني سُليم وهو بمَرْو؛ فخرج إلى الناس يخطبهم، فحمِد الله وأثنى عليه، وذكر أسداً وقدومه خراسان، وما كانوا فيه من الجهد والفتنة، وما صُنع لهم على يديه. ثم ذكر أخاه خالداً بالجميل، وأثنى عليه؛ وذكر قدوم يوسف العراق، وحثّ الناس على الطاعة ولزوم الجماعة، ثم قال: غفر الله للميت ـ يعني أسداً ـ وعافى الله المعزول، وبارك للقادم. ثم نزل.

وفي هذه السنة عُزل الكِرمـانيّ عن خراسـان، وولِيَها نصر بن سيـار بن ليث بن رافع بن ربيعـة بن جُرَيّ بن عوف بن عامر بن جُندع بن ليْث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وأمّـه زينب بنت حسان من بني تَغْلِب.

ذكر الخبر عن سبب ولاية نصر بن سيّار خُراسان

ذكر علي بن محمد عن شيوخه أنّ وفاة أسد بن عبد الله لما انتهت إلى هشام بن عبد الملك استشار أصحابَه في رجل يصلح لخُراسان؛ فأشاروا عليه بأقوام، وكتبوا له أسماءهم؛ فكان ممن كتِب له عثمان بن عبد الله بن

الشِّخّير ويحيى بن حضين بن المنذر الرقاشيّ ونصر بن سيار الليثيّ وقَطن بن قتيبة بن مسلم والمجشّر بن مزاحم السُّلميّ أحد بني حَرام؛ فأما عثمان بن عبد الله بن الشِّخّير، فقيل له: إنه صاحب شراب، وقيل له: المجشّر شيخ هِمّ، وقيل له: ابن حُضَين رجل فيه تيه وعَظَمة، وقيل له: قطن بن قتيبة موتور؛ فاختار نصر بن سيّار؛ فقيل له: ليست له بها عشيرة، فقال هشام: أنا عشيرته. فولّاه وبعث بعهده مع عبد الكريم بن سلِيط بن عقبة الهِفانيّ؛ هفان بن عدِي بن حنيفة. فأقبل عبد الكريم بعهده، ومعه أبو المهند كاتبه مولى بني حَنيفة. فلما قدم سَرَخْس ولا يعمل به أحد، وعلى سَرَخْس حفص بن عمر بن عبّاد التيميّ أخو تميم بن عمر، فأخبره أبو المهند، فوجّه حفص رسولاً، فحمله إلى نصر، ونفذ ابن سليط إلى مَرْو، فأخبر أبو المهند الكرمانيّ، فوجّه الكرمانيّ نصر بن حبيب بن بحر بن ماسك بن عمر الكرمانيّ إلى نصر بن سيار، فسبق رسول حفص إلى نصر بن سيار؛ فكان أوّل مَنْ سلم عليه بالإمْرة، فقال له نصر: لعلك شاعر مكّار! فدفع إليه الكتاب. وكان جعفر بن حنظلة ولّى عُمرو بن مسلم مَرْو، وعزل الكِرمانيّ وولّى منصور بن عمر إبرشهر، وولّى نصر بن سيار بخاري، فقال جعفر بن حنظلة: دعوتُ نصراً قبل أن يأتيَه عهده بأيام؛ فعرضتُ عليه أن أولّيه بخارى، فشاور البختريّ بن مجاهد، فقال له البختريّ، وهو مولى بني شيبان: لا تقبلها، قال: ولِمَ؟ قال: لأنك شيخ مُضَر بخُراسان؛ فكأنك بعهدك قد جاء على خُراسان كلها؛ فلما أتاه عهده بعث إليّ البختريّ فقال البختري لأصحابه: قد ولي نصر بن سيار خُراسان؛ فلما أتاه سلم عليه بالإمْرة، فقال له: أنّى علمت؟ قال: لما بعثتَ إليّ، وكنتَ قبل ذلك تأتيني، علمتُ أنك قد وليت.

قال: وقد قيل إنّ هشاماً قال لعبد الكريم حين أتاه خبرُ أسد بن عبد الله بموته: مَنْ ترى أن نولّيَ خراسان، فقد بلغني أنّ لك بها وبأهلها علماً؟ قال عبد الكريم: قلت: يا أمير المؤمنين؛ أمّا رجلُ خراسان حزماً ونجْدة فالكِرمانيّ؛ فأعرض بوجهه، وقال: ما اسمه؟ قلت: جُدَيع بن عليّ، قال: لا حاجة لي فيه؛ وتطّير، وقال: سَمّ لي غيره، قلت: اللسن المجرّب يحيى بن نعيم بن هبيرة الشيبانيّ أبو الميلاء، قال: ربيعة لا تُسَدّ بها الثغور - قال عبد الكريم: فقلت في نفسي: كرِه ربيعة واليمن، فأرميه بمُضَر - فقلت: عقيل بن معقل الليثيّ، إن اغتفرت هَنةً، قال: ما هي؟ قلت: ليس بالعفيف، قال: لا حاجة لي به، قلت: منصور بن أبي الخرقاء السُّلميّ، إن اغتفرت نكره فإنه مشئوم، قال: غيره، قلت: المجشّر بن مزاحم السلميّ، عاقل شجاع، له رأي مع كذب فيه، قال: لا خير في الكذِب، قلت: يحيى بن حُضَين، قال: ألم أخبرك أنّ ربيعة لا تسدّ بها الثغور! قال: فكان إذا ذكرت له ربيعة، واليمن أعرض. قال عبد الكريم: وأخّرت نصراً وهو أرجلُ القوم وأحزمهم وأعلمهم بالسياسة، فقلت: نصر بن سيار الليثيّ، قال: هو لها، قلت: إن اغتفرتَ واحدة؛ فإنه عفيف مجرّب عاقل، قال: ما هي؟ قلت: عشيرته بها قليلة، قال: لا أبالك، أتريد عشيرة أكثر مني! أنا عشيرته.

وقال آخرون: لما قدم يوسف بن عمر العراق قال: أشيروا عليّ برجل أولّه خُراسان، فأشاروا عليه بمسلمة بن سليمان بن عبد الله بن خازم وقُدَيد بن منيع المنقريّ ونصر بن سيّار وعمرو بن مسلم ومسلم بن عبد الرحمن بن مسلم ومنصور بن أبي الخرقاء وسلْم بن قُتيبة ويونس بن عبد ربّه وزياد بن عبد الرحمن القُشيريّ؛ فكتب يوسف بأسمائهم إلى هشام، وأطرَى القيسيّة، وجعل آخر من كتب اسمه نصر بن سيار الكنانيّ، فقال هشام: ما بال الكنانيّ آخرهم! وكان في كتاب يوسف إليه؛ يا أميرَ المؤمنين، نصر بخُراسان قليلُ

العشيرة. فكتب إليه هشام: قد فهمت كتابَك وإطراءك القيسيّة. وذكرت نصراً وقلة عشيرته، فكيف يقلّ مَنْ أنا عشيرتـه! ولكنك تقيّست عليّ، وأنا متخندف عليك؛ ابعث بعهد نصر؛ فلم يقلّ مَن عشيرته أمير المؤمنين؛ بلْهَ ما إن تميماً أكثر أهل خراسان. فكتب إلى نصر أن يكاتبَ يوسف بن عمر، وبعث يوسف سَلْماً وافداً إلى هشام؛ وأثنى عليه فلم يولّه، ثم أوفد شريك بن عبد ربه النُّميري، وأثنى عليه لولّيَة خراسان، فأبى عليه هشام.

قال: وأوفد نصرٌ مِنْ خُراسان الحكم بن يزيد بن عمير الأسديّ إلى هشام، وأثنى عليه نصر، فضربه يوسف ومنعه من الخروج إلى خراسان؛ فلما قدم يزيد بن عمر بن هبيرة استعمل الحكم بن يَزيد على كِرْمان، وبعث بعهد نصر مع عبد الكريم الحنفيّ ـ ومعه كاتبه أبو المهند مولى بني حنيفة ـ فلما أتى سَرَخْس وقع الثلج، فأقام ونزل على حفص بن عمر بن عباد التيميّ، فقال له: قدمتُ بعهد نَصْر على خُراسان؛ قال: وهو عامل يومئذ على سَرَخْس ـ فدعا حفص غلامه، فحمله على فرس وأعطاه مالاً، وقال له: طِرْ واقتل الفرس؛ فإن قام عليك فاشترِ غيرَه حتى تأتي نصراً. قال: فخرج الغلامُ حتى قدِم على نصر ببلْخ، فيجده في السوق، فدفع إليه الكتاب، فقال: أتدري ما في هذا الكتاب؟ قال: لا، فأمسكه بيده، وأتى منزله، فقال الناس: أتى نصراً عهده على خراسان، فأتاه قوم من خاصّته، فسألوه فقال: ما جاءني شيء، فمكث يومَه، فدخل عليه من الغد أبو حفص بن عليّ، أحد بني حنظلة ـ وهو صهره؛ وكانت ابنته تحت نَصْر، وكان أهوج كثير المال؛ فقال له: إنّ الناس قد خاضُوا وأكثروا في ولايتك؛ فهل جاءك شيء؟ فقال: ما جاءني شيء، فقام ليخرج. فقال: مكانكَ؛ وأقرأه الكتاب، فقال: ما كان حفص ليكتب إليك إلا بحقّ، قال: فبينا هو يكلمه إذ استأذن عليه عبدُ الكريم، فدفع إليه عهده، فوصله بعشرة آلاف درهم. ثم استعمل نصر على بَلْخ مسلمَ بن عبد الرحمن بن مسلم، واستعمل وشاح بن بكير بن وشاح على مَرْو الروذ، والحارث بن عبدالله بن الحشرج على هراة، وزياد بن عبد الرحمن القُشيريّ على أبرشهر، وأبا حفص بن عليّ ختنه على خوارزم، وقطن بن قُتيبة على السُّغْد. فقال رجل من أهل الشأم من اليمانية: ما رأيتُ عصبيّة مثل هذه! قال: بلى، التي كانت قبل هذه فلم يستعمل أربع سنين إلا مُضريًّا، وعَمرت خُراسان عمارة لم تعمر قبل ذلك مثلَها، ووضع الخراج، وأحسن الولاية والجباية، فقال سَوَّار بن الأشعر:

أضحتْ خُراسانُ بعدَ الخوفِ آمنَةً ... مِنْ ظُلمِ كلِّ غُشوم الحكمِ جَبّار
لما اتى يُوسُفاً أخبارُ ما لقِيتْ ... اختارَ نَصْراً لها؛ نَصْرَ بنَ سَيَّار

وقال نصْر بن سيار فيمن كره ولايته:

تَعَزَّ عنِ الصَّبابةِ لا تُلامُ ... كذلك لا يلُمّ بك احتمامُ
أأنْ سَخِطَتْ كبيرةُ بعد قُرْب ... كلِفْتَ بها وباشَرَكَ السَّقام!
تُرَجّى اليومَ ما وَعَدَتْ حديثاً ... وقد كُذِبَتْ مواعِدَها الكرامُ
ألَمْ تَرَ أنَّ ما صَنَعَ الغَوَاني ... عَسِيرٌ لا يَريعُ به الكلامُ
أبَتْ لي طاعَتِي وأبَى بَلائي ... وفَوْزي حينَ يَعْتَركُ الخصامُ
وإنَّا لا نُضيعُ لنا مُلِمًّا ... ولا حَسَباً إذا ضاعَ الذِّمامُ

ولا نُغْضِي على غَدْرٍ وإنَّا ... نُقِيمُ على الوفاءِ فلا نُلامُ
خليفتُنا الذي فازتْ يَداهُ ... بِقِدْحِ الحمدِ والمَلِكُ الهمامُ
نَسُوسُهُمُ به ولنا عليهم ... إذا قلنا مَكارِمُهُ جِسَامُ
أبو العاصِي أبُوهُ وعبدُ شمسٍ ... وحَرْبٌ والقَمَاقِمَةُ الكِرامُ
ومروانٌ أبو الخلفاءِ عالٍ ... عليه المجدُ فهو لهم نظامُ
وبيت خليفةِ الرحمن فينا ... وبَيْتاهُ المُقَدَّسُ والحرامُ
ونحنُ الأكرمُونَ إذا نُسِبنا ... وعِرْنِينُ البَرِيَّةِ والسَّنامُ
فأمْسَيْنا لنا من كلِّ حَيٍّ ... خراطِيمُ البريَّةِ والزِّمام
لنا أيدٍ نريش بها ونبْري ... وأيدٍ في بوادِرِها السِّمامُ
وبأسٌ في الكريهةِ حين نلقى ... إذا كانَ النَّذيرُ بها الحسامُ

قال: وأتى نصراً عهده في رجب من سنة عشرين ومائة، وقال له البختريّ: اقرأ عهدك واخطب الناس؛ فخطب الناس فقال في خطبته: استمسكوا أصحابنا بجُدّتِكم، فقد عرفنا خيرَكم وشرّكم.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن هشام بن إسماعيل، كذلك حدَّثني أحمد بن ثابت، عمن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر.

وقد قيل: إن الذي حجّ بهم فيها سليمان بن هشام.

وقيل: حجَّ بهم يزيد بن هشام.

وكان العامل في هذه السنة على المدينة ومكة والطائف محمد بن هشام، وعلى العراق والمشرق كله يوسف بن عمر، وعلى خراسان نصر بن سيار ـ وقيل جعفر بن حنظلة ـ وعلى البصرة كثير بن عبد الله السلميّ من قِبَل يوسف بن عمر، وعلى قضائها عامر بن عبَيدة الباهليّ، وعلى أرمينية وأذرَبيجان مَرْوان بن محمد، وعلى قضاء الكوفة ابن شبرُمة.

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائة

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فمن ذلك غزْوة مسلمة بن هشام بن عبد الملك الرّوم، فافتتح بها مطامير. وغزْوة مرْوان بن محمد بلاد صاحب سَرِير الذهب، فافتتح قلاعه وخرَّب أرضه، وأذعن له بالجزْية، في كلّ سنة ألف رأس يؤدّيه إليه، وأخذ منه بذلك الرّهن، وملّكه مروان على أرضه.

وفيها ولد العباس بن محمد.

وفيها قُتل زيد بن عليّ بن حسين بن عليّ بن أبي طالب في قول الواقديّ في صفر؛ وأما هشام بن محمد فإنه زعم أنه قتل في سنة اثنتين وعشرين ومائة، في صفر منها.

ذكر الخبر عن سبب مقتله وأموره وسبب مخرجه:

اختُلف في سبب خروجه؛ فأما الهيثم بن عديّ فإنه قال - فيما ذكر عنه، عن عبد الله بن عياش - قال: قدم زيد بن عليّ ومحمد بن عمر بن عليّ بن أبي طالب وداود بن عليّ بن عبد الله بن عباس على خالد بن عبد الله وهو على العراق، فأجازهم ورجعوا إلى المدينة؛ فلما وُلِّيَ يوسفَ بن عمر كتب إلى هشام بأسمائهم وبما أجازهم به، وكتب يذكر أن خالداً ابتاع من زيد بن عليّ أرضاً بالمدينة بعشرة آلاف دينار، ثم ردّ الأرض عليه. فكتب هشام إلى عامل المدينة أن يسرّحهم إليه ففعل، فسألهم هشام فأقرّوا بالجائزة، وأنكروا ما سوى ذلك، فسأل زيداً عن الأرض فأنكرها، وحلفوا لهشام فصدّقهم.

وأما هشام بن محمد الكلبي، فإنه ذكر أن أبا مخنف حدّثه أن أوّل أمر زيد بن عليّ كان أنّ يزيد بن خالد القسْريّ ادّعى مالاً قِبَل زيدَ بن عليّ ومحمد بن عمر بن عليّ بن أبي طالب وداود بن عليّ بن عبد الله بن العباس ابن عبد المطلب وإبراهيم بن سعد بن عبد الرحمن بن عوف الزهريّ وأيوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزوميّ، فكتب فيهم يوسف بن عمر إلى هشام بن عبد الملك - وزيد بن عليّ يومئذ بالرُّصافة يخاصم بني الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب في صدقة رسول الله ﷺ، ومحمد بن عمر بن عليّ يومئذ مع زيد بن عليّ - فلما قدِمت كتب يوسف بن عمر على هشام بن عبد الملك بعث إليهم فذكَر لهم ما كتب به يوسف ابن عمر إليه مما ادّعى قبَلهم يزيدُ بن خالد، فأنكروا، فقال لهم هشام: فإنا باعثون بكم إليه يجمع بينكم وبينه، فقال له زيد بن عليّ: أنشدك الله والرّحم أن تبعث بي إلى يوسف بن عمر! قال: وما الذي تخاف من يوسف بن عمر؟ قال: أخاف أن يعتدىَ عليّ، قال له هشام: ليس ذلك له، ودعا هشام كاتبه فكتب إلى يوسف بن عمر:

أما بعد، فإذا قدِم عليك فلان وفلان، فاجمعْ بينهم وبين يزيد بن خالد القسريّ، فإن هم أقرُّوا بما ادّعى عليهم فسرِّح بهم إليّ، وإن هم أنكروا فسله بيّنةً، فإن هو لم يُقِم البيّنة فاستحلفْهم بعد العصر بالله الذي لا إله إلا هو؛ ما استودعهم يزيد بن خالد القسريّ وديعةً ولا له قبلهم، شيء! ثم خلّ سبيلهم.

فقالوا لهشام: إنا نخاف أن يتعدّى كتابَك، ويطول علينا، قال: كلاَّ، أنا باعث معكم رجلاً من الحرَس يأخذه بذلك؛ حتى يعجّل الفراغ، فقالوا: جزاك الله والرّحم خيراً؛ لقد حكمتَ بالعدل. فسرَّح بهم إلى يوسف، واحتبس أيوب بن سلمة؛ لأن أمّ هشام بن عبد الملك ابنة هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزوميّ، وهو في أخواله، فلم يؤخذ بشيء من ذلك القَرْف.

فلما قدموا على يوسف، أدخِلوا عليه، فأجلسَ زيد بن عليّ قريباً منه، وألطفه في المسألة، ثم سألهم عن المال، فأنكروا جميعاً، وقالوا: لم يستودعنا مالاً، ولا له قِبَلنا حقّ، فأخرج يوسف يزيدَ بن خالد إليهم، فجمع بينه وبينهم، وقال له: هذا زيد بن عليّ، وهذا محمد بن عمر بن عليّ، وهذا فلان وفلان الذين كنتَ ادّعيت عليهم ما ادّعيت، فقال: مالي قِبَلهم قليل ولا كثير، فقال يوسف: أفبِي تهزأ أم بأمير المؤمنين! فعذّبه يومئذ عذاباً ظنّ أنه قد قتله، ثم أخرجهم إلى المسجد بعد صلاة العصر، فاستحلفهم فحلفوا له، وأمر بالقوم فبسط عليهم؛ ما عدا زيَد بن عليّ فإنه كفّ عنه فلم يقتدر عند القوم على شيء. فكتب إلى هشام يُعلمه الحال، فكتب إليه هشام: أن استحلفْهم، وخلّ سبيلهم، فخلّى عنهم فخرجوا فلحقوا بالمدينة، وأقام زيد بن عليّ بالكوفة.

وذكر عُبيد بن جنّاد، عن عَطاء بن مُسْلم الخفّاف أنّ زيد بن عليّ رأى في منامه أنه أضرَم في العراق ناراً، ثم أطفأها ثم مات. فهالْته، فقال لابنه يحيى: يا بنيّ، إني رأيت رؤيا قد راعتِني، فقصّها عليه. وجاءه كتاب هشام بن عبد الملك يأمره بالقدوم عليه، فقدِم، فقال له: الحق بأميرك يوسف، فقال له: نشدُتك بالله يا أمير المؤمنين، فوالله ما آمن إن بعثتَني إليه ألاّ أجتمع أنا وأنت حيّين على ظهر الأرض بعدها، فقال: الحق بيوسف كما تؤمر؛ فقدم عليه.

وقد قيل: إن هشام بن عبد الملك إنما استقدم زيداً من المدينة عن كتاب يوسف بن عمر؛ وكان السبب في ذلك ـ فيما زعم أبو عبيدة ـ أن يوسف بن عمر عَذّب خالد بن عبد الله، فادّعى خالد أنه استودع زيد بن عليّ وداود بن عليّ بن عبد الله بن عباس ورجليْن من قريش: أحدهما مخزوميٌّ والآخر جُمَحيٌّ مالاً عظيماً، فكتب بذلك يوسف إلى هشام، فكتب هشام إلى خاله إبراهيم بن هشام ـ وهو عامله على المدينة ـ يأمره بحملهم إليه. فدعا إبراهيم بن هشام زيداً وداود، فسألهما عما ذكر خالد، فحلفا ما أودعهما خالد شيئاً، فقال: إنكما عندي لصادقان؛ ولكن كتاب أمير المؤمنين قد جاء بما تريان، فلا بدّ من إنفاذِه. فحملهما إلى الشأم، فحلفا بالأيمان الغِلاظ ما أودعهما خالد شيئاً قطّ. وقال داود: كنت قدِمت عليه العراق، فأمر لي بمائة ألف درهم، فقال هشام: أنتما عندي أصدق من ابن النصرانيّة، فاقدما على يوسف، حتى يجمع بينكما وبينه فتكذّباه في وجهه.

وقيل: إن زيداً إنما قدِم على هشام مخاصماً ابنَ عمّه عبد الله بن حسن بن حسن بن عليّ، ذُكِر ذلك عن جُويرية بن أسماء، قال: شهدتُ زيد بن عليّ وجعفر بن حسن بن حسن يختصمان في ولاية وقوف عليّ، وكان زيد يخاصم عن بني حُسيْن، وجعفر يخاصم عن بني حسن؛ فكان جعفر وزيد يتبالغان بين يدي الوالي إلى كلّ غاية، ثم يقومان فلا يُعيدان مما كان بينهما حرفاً، فلما مات جعفر قال عبد الله: من يكفينا زيداً؟ قال حسن بن

حسن بن حسن: أنا أكفيكه، قال: كلاّ، إنا نخاف لسانَك ويدَك؛ ولكني أنا، قال: إذن لا تبلغ حاجتَك وحُجَّتك، قال: أما حُجَّتي فسأبلغُها؛ فتنازعا إلى الوالي ـ والوالي يومئذ عندهم فيما قيل إبراهيم بن هشام ـ قال: فقال عبد الله لزيد: أتطمع أن تنالها وأنتَ لأمَةٍ سِنديّة! قال: قد كان إسماعيل لأمَة؛ فنال أكثر منها؛ فسكت عبد الله، وتبالغا يومئذ كلّ غاية؛ فلما كان الغد أحضرهم الوالي، وأحضر قريشاً والأنصار، فتنازعا، فاعترض رجل من الأنصار، فدخل بينهما، فقال له زيد: وما أنت والدخول بيننا، وأنت رجل من قحطان! قال: أنا والله خيرٌ منك نفساً وأباً وأمّاً. قال: فسكت زيد، وانبرى له رجلٌ من قريش فقال: كذبتَ، لعمرُ الله لهو خير منك نفساً وأباً وأمّاً وأوّلا وآخراً، وفوق الأرض وتحتها، فقال الوالي: وما أنت وهذا! فأخذ القرشيّ كفّاً من الحصي، فضرب به الأرض وقال: والله ما على هذا من صَبْر، وفطن عبد الله وزيد لشماتة الوالي بهما، فذهب عبدُ الله ليتكلّم، فطلب إليه زيد فسكت، وقال زيد للوالي: أمَا والله لقد جمعتَنا لأمر ما كان أبو بكر ولا عمر ليجمعانا على مثله؛ وإني أشهِد الله ألاّ أنازعَه إليك محقّاً ولا مبطلاً ما كنتُ حيّاً. ثم قال لعبد الله: انهض يابن عمّ؛ فنهضا وتفرّق الناس.

وقال بعضهم: لم يزل زيد ينازع جعفَر بن حسن ثم عبد الله بعده؛ حتى ولّى هشام بن عبد الملك خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم المدينة، فتنازعا، فأغلظ عبد الله لزيد، وقال: يابن الهندكيّة! فتضاحك زيد، وقال: قد فعلتها يا أبا محمد! ثم ذكر أمّه بشيء.

وذكر المدائنيّ أن عبد الله لما قال ذلك لزيد قال زيد: أجلْ والله. لقد صبرتْ بعد وفاة سيّدها فما تعتّبت بابها إذ لم يصبر غيرها. قال: ثم ندم زيد واستحيا من عمته؛ فلم يدخل عليها زماناً، فأرسلت إليه: يابن أخي، إني لأعلم أنّ أمّك عندك كأمّ عبد الله عنده.

وقيل: إن فاطمة أرسلتْ إلى زيد: أن سبّ عبد الله أمّك فاسببْ أمّه؛ وأنها قالت لعبد الله: أقلت لأمّ زيد كذا وكذا؟ قال: نعم، قالت: فبئس والله ما صنعت! أما والله لنعم دخيلة القوم كانت!

فذكر أن خالد بن عبد الملك، قال لهما: اغْدُوا علينا غداً، فلستُ لعبد الملك إن لم أفصل بينكما. فباتت المدينة تغلي كالمرجل، يقول قائل: كذا وقائل كذا؛ قائل يقول قال زيد كذا، وقائل يقول: قال عبد الله كذا. فلما كان الغدُ جلس خالد في المجلس في المسجد، واجتمع الناس، فمن شامت ومن مهموم، فدعا بهما خالد، وهو يحبّ أن يتشاتما، فذهب عبد الله يتكلم، فقال زيد: لا تعجَل يا أبا محمد، أعتق زيد ما يملك إن خاصمك إلى خالد أبداً؛ ثم أقبل على خالد فقال له: يا خالد؛ لقد جمعتَ ذرّية رسول الله ﷺ لأمرٍ ما كان يجمعهم عليه أبو بكر ولا عمر؛ قال خالد: أما لهذا السفيه أحدٌ! فتكلم رجل من الأنصار من آل عَمرو بن حزم، فقال: يابن أبي تراب وابن حسين السفيه، ما ترى لوالٍ عليك حقّاً ولا طاعة! فقال زيد: اسكت أيّها القحطانيّ، فإنا لا نجيب مثلك، قال: ولِمَ ترغب عني! فوالله إني لخير منك، وأبي خير من أبيك، وأمّي خير من أمك! فتضاحك زيد، وقال: يا معشرَ قريش. هذا الدين قد ذهب، أفذهبت الأحساب! فوالله إنه ليذهب دينُ القوم وما تذهب أحسابهم. فتكلم عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، فقال: كذبت والله أيّها القحطانيّ؛ فوالله لهو خير منك نفساً وأبا وأمّاً ومحتداً، وتناوله بكلام كثير؛ قال القحطانيّ: دعْنا منك يابن واقد؛ فأخذ ابن واقد كفّاً من حصيً؛ فضرب بها الأرض، ثم قال له: والله ما لنا على هذا صبر، وقام.

وشخص زيد إلى هشام بن عبد الملك، فجعل هشام لا يأذن له، فيرفع إليه القصص؛ فكلّما رفع إليه قصّة كتب هشام في أسفلها: ارجع إلى أميرك؛ فيقول زيد: والله لا أرجع ألى خالد أبداً، وما أسأل مالاً؛ إنما أنا رجل مخاصَم؛ ثم أذن له يوماً بعد طول حَبْس.

فذكر عمر بن شبّة، عن أيوب بن عمر بن أبي عمرو، قال: حدّثني محمد بن عبد العزيز الزهريّ قال: لما قدم زيد بن عليّ علىَ هشام بن عبد الملك أعلمه حاجبُه بمكانه، فرقِيَ هشام إلى عِلّيّة له طويلة، ثم أذن له، وأمر خادماً أن يتبعَه، وقال: لا يَرينّك، واسمع ما يقول. قال: فأتعبته الدَّرَجَةَ ـ وكان بادناً ـ فوقف في بعضها، فقال: والله لا يحبّ الدنيا أحد إلاّ ذلّ، فلما صار إلى هشام قضى حوائجه، ثم مضى نحو الكوفة، ونسي هشام أن يسأل الخادم حتى مضى لذلك أيام، ثم سأله فأخبره، فالتفت إلى الأبرش. فقال: والله ليأتينّك خلعُه أوّلَ شيء، وكان كما قال.

وذُكِر عن زيدأنه حلف لهشام على أمر؛ فقال له: لا أصدّقك، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنّ الله لم يرفع قَدْر أحدٍ عن أن يرضى بالله، ولم يضع قَدْرَ أحدٍ عن الاّ يُرْضى بذلك منه، فقال له هشام: لقد بلغني يا زيدُ أنك تذكر الخلافة وتتمنّاها، ولستَ هناك وأنت ابن أمة! فقال زيد: إن لك يا أمير المؤمنين جواباً، قال: تكلم، قال: ليس أحدٌ أولَى بالله، ولا أرفع عنده منزلة من نبيّ ابتعثه؛ وقد كان إسماعيل من خير الأنبياء، وولد خيرَهم محمداً ﷺ، وكان إسماعيل ابنَ أمَة وأخوه ابنَ صريحة مثلك؛ فاختاره الله عليه، وأخرج منه خير البشر؛ وما على أحد من ذلك جدُّه رسول الله ﷺ ما كانت أمه [أَمَةً]. فقال له هشام: اخرج، قال: أخرج ثم لا تراني إلاّ حيث تكره، فقال له سالم: يا أبا الحسين؛ لا يظهرنّ هذا منك.

رجع الحديث إلى حديث هشام بن محمد الكلبيّ عن أبي مخنف. قال: فجعلت الشيعة تختلف إلى زيد بن عليّ، وتأمره بالخروج، ويقولون: إنا لنرجو أن تكون المنصورَ، وأن يكون هذا الزمان الذي يهلِك فيه بنو أمية. فأقام بالكوفة، فجعل يوسف بن عمر يسأل عنه، فيقال: هو هاهنا، فيبعث إليه أن اشخص، فيقول: نعم؛ ويعتلّ له بالوَجع. فمكث ما شاء الله، ثم سأل أيضاً عنه فقيل له: هو مقيمٌ بالكوفة بعدُ لم يبرح، فبعث إليه، فاستحثّه بالشخوص، فاعتلّ عليه بأشياء يبتاعُها، وأخبره أنه في جهازه، ورأى جدّ يوسف في أمره فتهيّأ، ثم شخص حتى أتى القادسيّة. وقال بعض الناس: أرسل معه رسولاً حتى بلّغه العُذَيب، فلحقتْه الشّيعة، فقالوا له: أين تذهب عنّا ومعك مائة ألف رجل من أهل الكوفة، يضربون دونَك بأسيافهم غداً وليس قِبَلك من أهل الشأم إلا عدّة قليلة، لو أن قبيلة من قبائلنا نحو مذحِج أو هَمْدان أو تميم أو بكْر نصبت لهم لكفتهم بإذن الله تعالى! فننشدك الله لمّا رجعتَ؛ فلم يزالوا به حتى ردُّوه إلى الكوفة.

وأما غير أبي مخنف؛ فإنه قال ما ذكر عُبيد بن جنّاد، عن عطاء بن مسلم، أن زيد بن عليّ لما قدِم على يوسف، قال له يوسف: زعم خالد أنه قد أودعك مالا، قال: أنّي يودعني مالا وهو يشتم آبائي على مِنْبره! فأرسل إلى خالد، فأحضره في عباءة، فقال له: هذا زيد، زعمَت أنك قد أودعته مالاً، وقد أنكر؛ فنظر خالد في وجههما، ثم قال: أتريد أن تجمع مع إثمك فيّ إثماً في هذا! وكيف أودِعه مالاً وأنا أشتمه وأشتم آباءه على المنبر! قال: فشتمه يوسف، ثم ردّه.

وأما أبو عبيدة، فذكِر عنه، أنه قال: صدّق هشامٌ زيداً ومَن كان يوسف قَرفه بما قرفه به، ووجّههم إلى

يوسف، وقال: إنهم قد حلفوا لي، وقبلتُ أيمانهم وأبرأتُهم من المال، وإنما وجهتُ بهم إليك لتجمع بينهم وبين خالد فيكذّبُوه. قال: ووصلهم هشام؛ فلما قدموا على يوسف أنزلهم وأكرمهم، وبعث إلى خالد فأتيَ به، فقال: قد حلف القوم، وهذا كتاب أمير المؤمنين ببراءتهم، فهل عندك بيّنة بما ادعيت؟ فلم تكن له بيّنة، فقال القوم لخالد: ما دعاك إلى ما صنعت؟ قال: غلّظ عليّ العذاب فادّعيت ما ادعيت، وأمّلت أن يأتيَ الله بفرج قبل قدومكم. فأطلقهم يوسف، فمضى القرشيّان: الجمحيّ والمخزوميّ إلى المدينة؛ وتخلّف الهاشميّان: داود بن عليّ وزيد بن عليّ بالكوفة.

وذكر أن زيداً أقام بالكوفة أربعة أشهر أو خمسة ويوسف يأمره بالخروج، ويكتب إلى عامله عَلى الكوفة وهو يومئذ بالحيرة يأمره بإزعاج زيد، وزيد يذكر أنه ينازع بعض آل طلحة بن عبيد الله في مال بينه وبينهم بالمدينة، فيكتب العامل بذلك إلى يوسف، فيقرّه أياماً، ثم يبلغه أنّ الشيعة تختلف إليه؛ فيكتب إليه أن أخرجه ولا تؤخرّه؛ وإن ادّعى أنه ينازع فليُجرّ جرّاً، وليوكّل مَنْ يقوم مقامه فيما يطالب به؛ وقد بايعه جماعة منهم سلمة بن كهيل ونصر بن خزيمة العبسيّ ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصاريّ وحجيّة بن الأجْلح الكنديّ وناس من وجوه أهل الكوفة؛ فلمّا رأى ذلك داود بن عليّ قال له: يابنَ عمّ، لا يغرنّك هؤلاء من نفسك؛ ففي أهل بيتك لك عِبرة، وفي خذلان هؤلاء إياهم. فقال: يا داود، إنّ بني أمية قد عتوْا وقست قلوبهم؛ فلم يزل به داود حتى عزم على الشخوص، فشخصا حتى بلغا القادسيّة.

وذكر عن أبي عبيدة، أنه قال: اتّبعوه إلى الثعلبيّة وقالوا له: نحن أربعون ألفاً، إن رجعت إلى الكوفة لم يتخلّف عنك أحدٌ، وأعطوْه المواثيق والأيمان المغلّظة، فجعل يقول: إني أخاف أن تخذلوني وتسلموني كفعلكم بأبي وجدّي. فيحلفون له، فيقول داود بن علـيّ: يابن عمّ، إن هؤلاء يغرّونك من نفسك! أليس قد خذلوا مَن كان أعزّ عليهم منك؛ جدّك عليّ بن أبي طالب حتى قتل! والحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه فانتزعوا رداءه من عنقه، وانتهبوا فُسطاطه، وجرَحوه! أو ليس قد أخرجوا جدّك الحسين، وحلَفوا له بأوْكد الأيمان ثم خذلوه وأسلموه، ثم لم يرضْوا بذلك حتى قتلوه! فلا تفعلْ ولا ترجع معهم. فقالوا: إن هذا لا يريد أن تظهر أنتَ، ويزعم أنه وأهل بيته أحقّ بهذا الأمر منكم، فقال: زيد لداود: إن عليّاً كان يقاتله معاوية بدهائه ونكرائه بأهل الشأم، وإنّ الحسين قاتله يزيد بن معاوية والأمر عليهم مقبل؛ فقال له داود: إني لخائف إن رجعتَ معهم ألاّ يكون أحد أشدَّ عليك منهم؛ وأنت أعلم. ومضى داود إلى المدينة ورجع زيد إلى الكوفة.

وقال عبيد بن جنّاد، عن عطاء بن مسلم الخفّاف، قال: كتب هشام إلى يوسف أن أشخِصْ زيداً إلى بلده، فإنه لا يقيم ببلد غيره فيدعُوَ أهله إلا أجابوه، فأشخصه، فلما كان بـالثعلبيّة ـ أو القـادسية ـ لحقـه المشائيم ـ يعني أهل الكوفة ـ فردُّوه وبايعوه، فأتاه سلمة بن كُهَيل، فاستأذن عليه، فأذن له، فذكر قرابته من رسول الله ﷺ وحقه فأحسن. ثم تكلم زيد فأحسن، فقال له سلمة: اجعل لي الأمانَ، فقال: سبحان الله! مثلك يسأل مثلي الأمان! وإنما أراد سلمة أن يسمع ذلك أصحابه، ثم قال: لك الأمان، فقال: نشدتُك بالله، كم بايعك؟ قال: أربعون ألفاً، قال: فكم بايع جدَّك؟ قال: ثمانون ألفاً، قال: فكم حصل معه؟ قال: ثلثمائة، قال: نشدتُك الله أنت خير أم جدّك؟ قال: بل جدّي، قال: أفقرْنُك الذي خرجتَ فيهم خير أم القَرْن الذي خرج فيهم جدُّك؟ قال: بل القَرْن الذي خرج فيهم جدّي، قال: أفتطمع أن يفيَ لك هؤلاء، وقد غدر

أولئك بجدّك! قال: قد بايعوني، ووجبت البيعة في عنقي وأعناقهم، قال: أفتأذن لي أن أخرج من البلد؟ قال: لِمَ؟ قال: لا آمن أن يحدث في أمرك حدثٌ فلا أملك نفسي، قال: قد أذنتُ لك، فخرج إلى اليمامة، وخرج زيد فقتِل وصلب. فكتب هشام إلى يوسف يلومه على تركِه سلمة ابن كُهيل يخرج من الكوفة، ويقول: مقامه كان خيراً من كذا وكذا من الخيل تكون معك.

وذكر عمر عن أبي إسحاق ـ شيخٌ من أهل أصبهان حدّثـه ـ أن عبد الله بن حسن كتب إلى زيد بن عليّ: يابن عمّ؛ إن أهلَ الكوفة نُفخ العلانية، خور السريرة، هُوج في الرخاء، جُزُع في اللقاء، تقدمهم ألسنتهم، ولا تشايعهم قلوبُهم، لا يبيتون بعُدّةٍ في الأحداث، ولا ينوؤن بدولـة مرجـوّة؛ ولقد تـواترت إليّ كتبهم بدعوتهم فصمَمْت عن ندائهم؛ وألبست قلبي غشاءً عن ذكرهم؛ يأساً منهم واطّراحاً لهم؛ وما لهم مَثَل إلا ما قال عليّ بن أبي طالب: إن أهمِلتم خضتم، وإن حُوربتم خُرْتم، وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم، وإن أجبتم إلى مشاقّة نكصتم.

وذكِر عن هشام بن عبد الملك، أنه كتب إلى يوسف بن عمر في أمر زيد بن عليّ: أما بعد فقد علمت بحالِ أهل الكوفة في حبّهم أهلَ هذا البيت، ووضعهم إيَّاهم في غير مواضعهم؛ لأنهم افترضوا على أنفسهم طاعتَهم، ووظّفوا عليهم شرائع دينهم، ونحلوهم علم ما هو كائن؛ حتى حملوهم من تفريق الجماعة على حال استخفّوهم فيها إلى الخروج، وقد قدم زين بن عليّ على أمير المؤمنين في خصومة عمر بن الوليد، ففصَل أمير المؤمنين بينهما، ورأى رجلا جَدِلاً لسِناً خليقاً بتمويه الكلام وصَوْغه، واجترار الرجال بحلاوة لسانه، وبكثرة مخارجه في حججه، وما يدلي به عند لَدَد الخِصام من السطوة على الخصم بالقوّة الحادّة لنيلِ الفَلَج؛ فعجّل إشخاصَه إلى الحجاز، ولا تخلّه والمُقام قِبَلك؛ فإنه إن أعاره القوم أسماعَهم فحَشاها من لَيِّن لفظه، وحلاوة منطقه، مع ما يدلي به من القرابة برسول الله ﷺ، وجدَهم مُيَّلاً إليه؛ غيرَ متّئدة قلوبهم ولا ساكنة أحلامهم، ولا مصونة عندهم أديانُهم؛ وبعض التحامل عليه فيه أذى له، وإخراجه وتركه مع السلامة للجميع والحقن للدماء والأمن للفرقة أحبّ إليّ من أمر فيه سفكُ دمائهم، وانتشار كلمتِهم وقطع نسلِهم؛ والجماعةُ حَبْل الله المتين، ودين الله القويم وعروته الوثقى؛ فادع إليك أشرافَ أهلِ المصْر، وأوعدهم العقـوبة في الأبشـار، واستصفاء الأموال؛ فإن من له عقد أو عهد منهم سيبطىء عنه، ولا يخفّ معه إلاّ الرّعاع وأهل السَّواد ومَن تنهضه الحاجة؛ استلذاذاً للفتنة؛ وأولئك ممن يستعبد إبليس؛ وهو يستعبدهـم. فبادهْم بالوعيد. وأعْضضهم بسوطِك، وجرّد فيهم سيفك، وأخِف الأشراف قبل الأوساط، والأوساطَ قَبْل السّفلة. واعلم أنك قائم على باب ألْفة، وداع إلى طاعة، وحاضّ على جماعة، ومشمّر لدين الله؛ فلا تستوحش لكثرتهم، واجعل معقَلك الذي تأوي إليه، وصَغْوَك الذي تخرج منه الثقةَ بربّك، والغضب لدينك، والمحاماة عن الجماعة، ومناصبة مَن أراد كَسْرَ هذا الباب الذي أمرهم الله بالدخول فيه، والتشاحّ عليه؛ فإن أمير المؤمنين قد أعذر إليه وقضى من ذمامه، فليس له منزىً إلى ادعاء حقّ هو له ظُلِمَه من نصيب نفسه، أو فيء، أو صلة لذي قربى، إلا الذي خاف أمير المؤمنين من حَمْل بادرة السفلة على الذي عسى أن يكونوا به أشقَى وأضلّ؛ ولهم أمرّ، ولأمير المؤمنين أعزّ وأسهل إلى حياطة الدّين والذبّ عنه، فإنه لا يحبّ أن يرى في أمته حالاً متفاوتاً نكالاً لهم مفنياً؛ فهو يستديم النظِرة، ويتأنّى للرشاد، ويجتنبهم على المخاوف، ويستجرّهم إلى المراشد، ويعدل بهم عن المهالك؛ فعلَ الوالد الشفيق على ولده، والرّاعي الحدِب على رعيّته.

واعلم أنّ من حجّتك عليهم في استحقاق نصر الله لك عند معاندتهم توفيتَك أطماعَهم، وأعطية ذرّيتهم، ونهيَك جندَك أن ينزلوا حريمَهم ودورَهم؛ فانتهز رضا الله فيما أنت بسبيله؛ فإنه ليس ذنبٌ أسرع تعجيل عقوبة مِن بغى؛ وقد أوقعهم الشيطان، ودلاّهم فيه، ودلّهم عليه؛ والعصمة بتارك البغي أوْلى؛ فأمير المؤمنين يستعين الله عليهم وعلى غيرهم من رعيّته، ويسأل إلهه ومَوْلاه ووليّه أن يصلح منهم ما كان فاسداً، وأن يسرع بهم إلى النّجاة والفَوْز؛ إنه سميع قريب.

رجع الحديث إلى حديث هشام. قال: فرجع زيد إلى الكوفة، فاستخفى، قال: فقال له محمد بن عمر بن عليّ بن أبي طالب حيث أراد الرجوع إلى الكوفة: أذكّرك الله يا زيد لّما لحقتَ بأهلك؛ ولم تقبلْ قولَ أحد من هؤلاء الذين يدعونَك إلى ما يدعونك إليه؛ فإنهم لا يفُون لك؛ فلم يقبل منه ذلك، ورجع.

قال هشام: قال أبو مخنف: فأقبلت الشيعة لما رجع إلى الكوفة يختلفون إليه، ويبايعون له، حتى أحصى ديوانُه خمسة عشر ألف رجل، فأقام بالكوفة بضعة عشر شهراً؛ إلاّ أنه قد كان منها بالبصرة نحو شهرين، ثم أقبل إلى الكوفة، فأقام بها، وأرسل إلى أهل السَّواد وأهلِ الموصل رجالاً يدعون إليه.

قال: وتزوّج حيثُ قدم الكوفة ابنةَ يعقوب بن عبد الله السُّلميّ، أحد بني فرقد، وتزوج ابنة عبد الله بن أبي العَنْبَس الأزديّ. قال: وكان سبب تزوّجه إياها أنّ أمها أم عمرو بنت الصَّلْت كانت ترى رأي الشّيعة، فبلغها مكانُ زيد، فأتته لتسلّم عليه ـ وكانت امرأة جسيمة جميلة لحيمة، قد دخلت في السنّ، إلا أن الكِبَر لا يستبين عليها ـ فلمّا دخلت على زيد بن عليّ فسلمت عليه ظنّ أنها شابّة، فكلمته فإذا أفصح الناس لساناً، وأجمله منظراً، فسألها عن نسبِها فانتسبتْ له، وأخبرْته ممن هي، فقال لها: هل لكِ رحمك الله أن تتزوّجيني؟ قالت: أنت والله ـ رحمك الله ـ رغبةٌ لو كان من أمري التزويج، قال لها: وما الذي يمنعك؟ قالت: يمنعني من ذلك أني قد أسنَنْتُ، فقال لها: كلاّ قد رضيتُ، ما أبعدكِ من أن تكوني قد أسننت! قالت: رحمك الله، أنا أعلم بنفسي منك؛ وبما أتى عليّ من الدهر؛ ولو كنت متزوجة يوماً من الدهر لما عدَلْتُ بك؛ ولكن لي ابنة أبوها ابن عمي؛ وهي أجمل مني، وأنا أزوّجكها إن أحببتَ، قال: رضيتُ أن تكونَ مثلك، قالت له: لكنّ خالقَها ومصَوّرها لم يرض أن يجعلها مثلي، حتى جعلها أبيضَ وأوسَم وأجسم، وأحسن مني دَلاًّ وشكْلاً. فضحك زيد، وقال لها: قد رزقتِ فصاحة ومنطقاً حسناً، فأين فصاحتها من فصاحتك؟ قالت: أما هذا فلا علم لي به؛ لأني نشأتُ بالحجاز، ونشأت ابنتي بالكوفة، فلا أدري لعلّ ابنتي قد أخذت لغة أهلها. فقال زيد: ليس ذلك بأكرَه إليّ، ثم واعدها موعداً فأتاها فتزوّجها، ثم بنى بها فولدت له جاريةً. ثم إنها ماتت بعدُ؛ وكان بها معجَباً.

قال: وكان زيد بن عليّ ينزل بالكوفة منازلَ شتى، في دار امرأته في الأزْدِ مرّة، ومرّة في أصهاره السُّلميِّين، ومرّةً عند نصر بن خزيمة في بني عَبْس، ومرّة في بني غُبَر. ثم إنه تحوّل من بني غُبَر إلى دار معاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصاريّ في أقصى جبّانة سالم السلوليّ، وفي بني نَهْد وبني تغلب عند مسجد بني هلال بن عامر، فأقام يبايع أصحابه؛ وكانت بيعته التي يبايع عليها الناس: «إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وجهاد الظالمين، والدّفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقَسْم هذا الفيء بين أهله بالسواء، وردّ الظالمين، وإقفال المجمَّر ونصرِنا أهل البيت علَى من نَصب لنا وجهل حقنا»، أتبايعون على ذلك؟ فإذا قالوا: نعم، وضع يده على يده، ثم يقول: عليك عهدُ الله وميثاقه وذمّته وذمّة رسوله، لتفينّ ببيعتي ولتقاتلنّ

عدّوي ولتنصحنّ في السرّ والعلانية؟ فإذا قال: نَعْم مسحَ يده على يده، ثم قال: اللهمّ أشهد. فمكث بذلك بضعة عشر شهراً؛ فلما دنا خروجه أمر أصحابه بالاستعداد والتهيّؤ، فجعل من يريد أن يفي ويخرج معه يستعدّ لو يتهيّأ، فشاع أمره في الناس.

وفي هذهّ السنة غزا نصر بن سيار ما وراء النهر مرّتين، ثم غزا الثالثة، فقتل كورصُول.

ذكر الخبر عن غزواته هذه:

ذَكَر عليّ عن شيوخه، أن نصراً غزا من بَلْخ ما وراء النهر من ناحية باب الحديد؛ ثم قفل إلى مَرْو، فخطب الناس، فقال: ألا إن بهرامسيس كان مانحَ المجوس، يمنحهم ويدفع عنهم، ويحمل أثقالهم على المسلمين؛ ألا إنّ أشبداد بن جريجور كان مانح النصارى؛ ألا إن عقيبة اليهوديّ كان مانح اليهود يفعل ذلك. ألا إني مانح المسلمين، أمنحهم وأدفع عنهم، وأحمل أثقالهم على المشركين؛ ألا إن لا يُقبل مني إلا تَوَفّى الخراج على ما كتِب ورفع. وقد استعملتُ عليكم منصور بن عمر بن أبي الخَرْقاء، وأمرتُه بالعدل عليكم، فأيما رجل منكم من المسلمين كان يؤخذ منه جزية من رأسه، أو ثُقِّل عليه في خراجه، وخفّف مثل ذلك عن المشركين، فليرفع ذلك إلى المنصور بن عمر، يحوّله عن المسلم إلى المشرك. قال: فما كانت الجمعة الثانية؛ حتى أتاه ثلاثون ألف مُسلِم، كانوا يؤدُّون الجزية عن رؤوسهم وثمانون ألف رجل من المشركين قد ألقِيت عنهم جزيتهم فحوّل ذلك عليهم، وألقاه عن المسلمين. ثم صنّف الخراج حتى وضعه مواضعه، ثم وظّف الوظيفة التي جَرى عليها الصُّلح. قال: فكانت مَرْو يؤخذ منها مائة ألف سوى الخراج أيام بني أميّة. ثم غزا الثانية إلى وَرَغْسَر وسمرقند ثم قفل، ثم غزا الثانية إلى الشاش من مَرْو، فحال بينه وبين قطوع النهر (نهر الشاش) كورصول في خمسة عشر ألفاً، استأجر كلّ رجل منهم في كلّ شهر بشِقّة حرير؛ الشقّة يومئذ بخمسة وعشرين درهماً، فكانت بينهم مراماة، فمنع نصراً من القطوع إلى الشاش. وكان الحارث بن سُريج يومئذ بأرض الترك، فأقبل معهم؛ فكان بإزاء نصر، فرمى نصراً؛ وهو على سريره على شاطىء النهر بِحُسبان، فوقع السهم في شِدْق وصيف لنصر يوضّئه، فتحوّل نصر عن سريره، ورمى فرساً لرجل من أهل الشأم فنفق. وعبر كورصول في أربعين رجلاً، فبيّت أهل العسكر، وساق شاء لأهل بُخارى، وكانوا في الساقة، وأطاف بالعسكر في ليلة مظلمة؛ ومع نصر أهل بخارى وسَمْرقند وكِسّ وأشْرُوسنة، وهم عشرون ألفاً، فنادى نصر في الأخماس: ألا لا يخرجنّ أحدٌ من بنائه، واثبتوا على مواضعكم. فخرج عاصم بن عمير وهو على جُنْد أهل سَمرقند، حتى مرّت خيل كورصول، وقد كانت الترك صاحتْ صيحة، فظنّ أهلُ العسكر أنّ الترك قد قطعوا كلُّهم. فلما مرّت خيل كورصول على ذلك حمل على آخرهم، فأسر رجلاً؛ فإذا هو مَلِك من ملوكهم صاحب أربعة آلاف قبّة، فجاؤوا به إلى نصر، فإذا هو شيخ يسحب درعَه شِبْراً، وعليه رانا ديباج فيهما حلَقٌ، وقباء فرند مُكفّف بالدّيباج، فقال له نصر: من أنت؟ قال: كورصول، فقال نصر: الحمد لله الذي أمكن منك يا عدّو الله! قال: فما ترجو من قَتْل شيخ، وأنا أعطيك ألف بعير من إبل الترك، وألف برْذون تقوّي بها جندك، وخلّ سبيلي! فقال نصر لمن حوله من أهل الشأم وأهل خراسان: ما تقولون؟ فقالوا: خلّ سبيله، فسأله عن سنّه، قال: لا أدري، قال: كم غزوت؟ قال: اثنتين وسبعين غزوة، قال: أشهدتَ يوم العَطَش؟ قال: نعم، قال: لو أعطيتني ما طلعتْ عليه الشمس ما أفلتَّ من يدي بعدما ذكرت مِن مشاهدك. وقال لعاصم بن عمير السغـديّ: قم إلى سَلَبه فخـذه؛ فلما

أيقن بالقتل، قال: مَنْ أسرني؟ قال نصر وهو يضحك: يزيد بن قُرّان الحنظلّي ـ وأشار إليه ـ قال: هذا لا يستطيع أن يغسل استَه ـ أو قال: لا يستطيع أن يتمّ بوله ـ فكيف يأسرني! فأخبِرْني مَنْ أسرني؛ فإني أهلٌ أن أقتَل سبع قتلات، قيل له: عاصم بن عمير، قال: لستُ أجد مسَّ القتل إذ كان الذي أسرني فارساً من فرسان العرب. فقتله وصلَبه على شاطيء النهر. قال: وعاصم بن عمير هو الهزارمرد، قتِل بنهاوند أيام قحطبة.

قال: فلما قتِل كورصول تحدّرت الترك وجاؤوا بأبنيته فحرقوها، وقطعوا آذانهم، وجردّوا وجوهَهم، وطفِقوا يبكون عليه؛ فلما أمسى نصر وأراد الرحلة، بعث إلى كورصول بقارورة نِفْط، فصبّها عليه، وأشعل فيه النار لئلا يحملوا عظامه. قال: وكان ذلك أشدّ عليهم من قتله.

وارتفع نصر إلى فَرْغانة، فسبى منها ثلاثين ألف رأس، قال: فقال عنبر بن بُرْعُمَة الأزدي: كتب يوسف بن عمر إلى نصر: سِرْ إلى هذا الغارز ذَنبه بالشاش ـ يعني الحارث بن سُريج ـ فإن أظفرك الله به وبأهل الشاش، فخرّب بلادهم، واسب ذراريّهم؛ وإياك وورْطة المسلمين.

قال: فدعا نصرٌ الناس، فقرأ عليهم الكتاب، وقال: ما ترون؟ فقال يحيى بن حُضَين: امض لأمر أمير المؤمنين وأمر الأمير، فقال نصر: يا يحيى، تكلمتَ لياليَ عاصم بكلمة؛ فبلغت الخليفة فحظيتَ بها، وزيد في عطائك، وفرض لأهل بيتك، وبلغتَ الدّرجة الرفيعة، فقلتَ: أقول مثلَها. سِرْ يا يحيى، فقد ولّيتُك مقدّمتي؛ فأقبل الناس على يحيى يلومونه، فقال نصر يومئذ: وأيّ ورطة أشدّ من أن تكون في السفر وهم في القرار!

قال: فسار إلى الشاش، فأتاه الحارث بن سُريج فنصب عرّادتين تلقاء بني تميم؛ فقيل له: هؤلاء بنو تميم، فنقلهما فنصبهما على الأزْد ـ ويقال: على بكر بن وائل ـ وأغار عليهم الأخرم، وهو فارس الترك، فقتله المسلمون، وأسروا سبعة من أصحابه، فأمر نصر بن سيار برأس الأخرم، فرمي به في عسكرهم بمنجَنيق، فلما رأوه ضجوا ضجة عظيمة، ثم ارتحلوا منهزِمين، ورجع نصر، وأراد أن يعبُر، فحِيل بينه وبين ذلك، فقال أبو نميلة صالح بن الأبّار:

كـنـا وَأَوْبَـةُ نصـر عـنـدَ غـيـبتـه ... كـراقِبِ النَّـوْءِ حتى جـاده الـمَـطرُ
أَوْدَى بـأَخـرَم مـنـه عـارضٌ بَـرِدٌ ... مُسْتَـرْجِفٌ بمنـايـا القـوم مُنْهَـمِـرُ

وأقبل نصر فنزل سَمَرْقند في السنة التي لقي فيها الحارث بن سريج، فأتاه بخاري خُذاه منصرفاً؛ وكانت المسلحة عليهم، ومعهم دهقانان من دهاقين بُخارى، وكانا أسلما على يدي نصر، وقد أجمعا على الفَتْك بواصل بن عمرو القيسي عامل بُخارى وببخار اخُذاه يتظلّمان من بخار اخذاه، ـ واسمه طوق شياده ـ فقال بخار بخاراخُذاه لنصْر: أصلح الله الأمير! قد علمت أنهما قد أسلما على يديك، فما بالهما معلّقي الخناجر عليهما! فقال لهما نصر: ما بالكما معلّقي الخناجر وقد أسلمتما! قال: بيننا وبين بخار اخذاه عَدَاوةٌ فلا نأمنه على أنفسنا. فأمر نصر هارون بن السياوش مولَى بني سليم ـ وكان يكون على الرابطة ـ فاجتذبهما فقطعهما، ونهض بخاراخُذاه إلى نصر يسارّه في أمرهما، فقالا: نموت كريميْن؛ فشدّ أحدهما على واصل بن عمرو فطعنه بسكين، وضربه واصل بسيفه على رأسه؛ فأطار قَحْف رأسه فقتله، ومضى الآخر إلى بخاراخُذاه ـ وأقيمت الصّلاة، وبخاراخُذاه جالس على كرسيّ ـ فوثب نصر، فدخل السرادق، وأحضر بخاراخُذاه، فعثر عند باب السرادق فطعنَه، وشدّ عليه الجوزجان بن الجوزجان، فضربه بجُرز كان معه فقتله، وحُمل بخاراخُذاه فأدخل سرادق

نصر، ودعا له بوسادة فاتّكأ عليها، وأتاه قرعة الطبيب، فجعل يعالجه وأوصى إلى نصر، ومات من ساعته، ودفن واصل في السرادق، وصلى عليه نصر. وأما طوْق شياده فكشطوا عنه لَحمه، وحملوا عظامه إلى بخارى.

قالا: وسار نصر إلى الشّاش، فلما قدم أشروسنَة عرَض دهقانها أباراخرّة مالاً، ثم نفذ إلى الشاش، واستعمل على فَرْغانة محمد بن خالدالأزديّ، وجّهه إليها في عشرة نفر، وردّ من فَرْغانة أخاجيش فيمن كان معه من دهاقين الخُتّل وغيرهم، وانصرف منها بتماثيل كثيرة، فنصبها في أشروسنة.

وقال بعضهم: لما أتى نصر الشاش تلقّاه قدر ملكها بالصُّلح والهدّية والرّهن، واشترط عليه إخراجَ الحارث بن سُريج من بلدِه، فأخرجه إلى فاراب؛ واستعمل على الشاش نيزك بن صالح مولى عمرو بن العاص، ثم سار حتى نزل قُباءَ من أرض فرغانة، وقد كانوا أحسوا بمجيئه، فأحرقوا الحشِيش وحبسوا الميرة. ووجه نصر إلى وليّ عهد صاحب فرغانة في بقية سنة إحدى وعشرين ومائة، فحاصروه في قلعة من قلاعها، فغفل عنهم المسلمون، فخرجوا على دوابّهم فاستاقوها، وأسروا ناساً من المسلمين، فوجّه إليهم نصر رجالاً من بني تميم، ومعهم محمد بن المثنى ـ وكان فارساً ـ فكايدهم المسلمون، فأهملوا دوابّهم وكمنوا لهم، فخرجوا فاستاقوا بعضَها، وخرج عليهم المسلمون فهزموهم، وقتلوا الدّهقان، وأسروا منهم أسراء، وحمل ابن الدهقان المقتول علَى ابن المثنى، فختله محمد بن المثنىّ، فأسره وهو غلام أمرد، فأتى به نصراً، فضرب عنقه.

وكان نصر بعث سليمان بن صول إلى صاحب فَرْغانة بكتاب الصلح بينهما. قال سليمان: فقدمتُ عليه فقال لي: مَنْ أنت؟ قلت: شاكريٌّ خليفةُ كاتب الأمير، قال: فقال: أدخلوه الخزائن ليرى ما أعددنا، فقيل له: قم، قال: قلت ليس بي مَشيْ، قال: قدّموا له دابة يركبها، قال: فدخلت خزائنَه، فقلت في نفسي: يا سليمان، شمِت بك إسرايل وبشر بن عُبَيد؛ ليس هذا إلاّ لكراهة الصلح، وسأنصرف بخُفَّيْ حُنَيْن. قال: فرجعت إليه، فقال: كيف رأيت الطريق فيما بيننا وبينكم؟ قلت: سهلاً كثير الماء والمرعى؛ فكره ما قلت له، فقال: ما علمك؟ فقلت: قد غزوت غَرْشِستّان وغُور والختّل وطَبَرستان، فكيف لا أعلم! قال: فكيف رأيتَ ما أعددنا؟ قلت: رأيت عُدّة حسنة؛ ولكن أما علمت أن صاحب الحصار لا يسلم من خصال! قال: وما هُنّ؟ قلت: لا يأمن أقربَ الناس إليه وأحبَّهم إليه وأوثقَهم في نفسه أن يثب به يطلب مرتبته، ويتقرّب بذلك، أو يفنى ما قد جمع، فيسلم برُمتّه، أو يصيبه داء فيموت. فقطّب وكره ما قلت له وقال: انصرف إلى منزلك، فانصرفت فأقمت يومين، وأنا لا أشكّ في تركه الصلح، فدعاني فحملتُ كتاب الصّلح مع غلامي، وقلت له: إن أتاك رسولي يطلب الكتاب فانصرف إلى المنزل، ولا تظهر الكتاب، وقل لي: إني خلفتُ الكتاب في المنزل. فدخلت عليه، فسألني عن الكتاب، فقلت: خلّفتُه في المنزل. فقال: ابعث مَنْ يجيئك به، فقبل الصُّلح، وأحسن جائزتي، وسرّح معي أمّه، وكانت صاحبة أمره.

قال: فقدمتُ على نصرْ؛ فلما نظر إليّ قال: ما مثلك إلا كما قال الأوّل:

فأرسِل حكيماً ولا توصِهِ

فأخبرته، فقال: وُفِّقت، وأذن لأمه عليه، وجعل يكلمها والترجمان يعبّر عنها، فدخل تميم بن نصر، فقال للترجمان: قل لها: تعرفين هذا؟ فقالت: لا، فقال: هذا تميم بن نصر، فقالت: والله ما أرى له حلاوة

الصَّغِير، ولا نُبْل الكبير.

قال أبو إسحاق بن ربيعة: قالت لنصر: كل مَلِك لا يكون عنده ستة أشياء فليس بمِلك: وزيرٌ يباثّه بكتاب نفسه وما شجر في صدره من الكلام، ويشاوره ويثق بنصيحته، وطباخ إذا لم يشتهِ الطعام اتخذ له ما يشتهي، وزوجة إذا دخل عليها مغتماً فنظر إلى وجهها زال غمّه، وحصن إذا فزع أو جُهد فزع إليه فأنجاه ـ تعني البرذون ـ وسيف إذا قارع الأقران لم يخش خيانَته، وذخيرة إذا حملها فأين وقع بها من الأرض عاش بها.

ثم دخل تميم بن نصر في الأزفلة وجماعة، فقالت: من هذا؟ قالوا: هذا فتًى خراسان، هذا تميم بن نصر، قالت: ما له نُبْل الكبار ولا حلاوة الصغار.

ثم دخل الحجاج بن قتيبة فقالت: مَنْ هذا؟ فقالوا: الحجاج بن قتيبة، قال: فحيَّتْه، وسألت عنه؛ وقالت: يا معشر العرب، مالكم وفاء؛ لا يصلح بعضكم لبعض قتيبة الذي وطّن لكم ما أرى، وهذا ابنه تُقعده دونك! فحقك أن تجلسه هذا المجلس، وتجلس أنت مجلسَه.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن هشام بن إسماعيل المخزوميّ ـ كذلك قال أبو مَعْشر، حدّثني بذلك أحمد بن ثابت، عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عنه. وكذلك قال الواقديّ وغيره.

وكان عامل هشام بن عبد الملك على المدينة ومكة والطائف في هذه السنة محمد بن هشام، وعامله على العراق كلّه يوسف بن عمر، وعامله على أذرَبيجان وأرمينيَة مَرْوان بن محمد، وعلى خراسان نصر بن سيّار، وعلى قضاءِ البصرة عامر بن عُبيدة، وعلى قضاء الكوفة ابن شُبرمة.

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من أحداث

فمن ذلك مقتل زيد بن عليّ:

ذكر الخبر عن ذلك:

ذكَر هشام عن أبي مخنف، أنّ زيد بن عليّ لما أمَر أصحابه بالتأهّب للخروج والاستعداد، أخذ مَن كان يريد الوفاء له بالبيعة فيما أمرهم به من ذلك، فانطلق سليمان بن سُراقة إلى يوسف بن عمر، فأخبره خبره، وأعلمه أنه يختلف إلى رجل منهم يقال له عامر، وإلى رجل من بني تميم يقال له طُعْمَة؛ ابن أختٍ لبارق؛ وهو نازل فيهم. فبعث يوسف يطلب زيد بن عليّ في منزلهما فلم يوجد عندهما، وأخِذ الرّجلان، فأتِيَ بهما، فلما كلّمهما استبان له أمرُ زيد وأصحابه. وتخوّف زيد بن عليّ أن يُؤخذ، فتعجّل قبل الأجل الذي جعله بينه وبين أهل الكوفة. قال: وعلى أهل الكوفة يومئذ الحكَم بن الصلْت، وعلى شُرَطه عمرو بن عبد الرحمن، (رجل من القارة)؛ وكانت ثقيف أخواله؛ وكان فيهم ومعه عبيدالله بن العباس الكنديّ، في أناس من أهل الشأم، ويوسف بن عمر بالحيرة. قال: فلما رأى أصحابُ زيد بن عليّ الذين بايعوه أنّ يوسف بن عمر قد بلغه أمر زيد، وأنه يدسّ إليه، ويستبحث عن أمره، اجتمعت إليه جماعة من رؤوسهم، فقالوا: رحمَك الله! ما قولك في أبي بكر وعمر؟ قال زيد: رحمهما الله وغفر لهما، ما سمعتُ أحداً من أهل بيتي يتبرّأ منهما ولا يقول فيهما إلا خيراً، قالوا: فلمَ تطلب إذاً بدم أهل هذا البيت؛ إلاّ أن وثبا على سلطانكم فنزعاه من أيديكم! فقال لهم زيد: إن أشدّ ما أقول فيما ذكرتم أنّا كنا أحقّ بسلطان رسول الله ﷺ من الناس أجمعين، وإنّ القوم استأثروا علينا، ودفعونا عنه، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً، وقد وُلّوا فعَدَلوا في الناس، وعملوا بالكتاب والسنة. قالوا: فلم يظلمك هؤلاء! وإن كان أولئك لم يظلموك، فلمَ تدعو إلى قتال قوم ليسوا لك بظالمين! فقال: وإنّ هؤلاء ليسوا كأولئك؛ إنّ هؤلاء ظالمون لي ولكم ولأنفسهم؛ وإنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وإلى السنن أن تُحيا، وإلى البِدَع أن تُطفأ؛ فإن أنتم أجبتمونا سعِدتم، وإن أنتم أبيتم فلست عليكم بوكيل. ففارقوه ونكثوا بيعتَه، وقالوا: سبق الإمام - وكانوا يزعمون أنّ أبا جعفر محمد بن عليّ أخا زيد بن عليّ هو الإمام، وكان قد هلك يومئذ - وكان ابنه جعفر بن محمد حيًّا، فقالوا: جعفر إمامنا اليومَ بعد أبيه؛ وهو أحقّ بالأمر بعد أبيه؛ ولا نتّبع زيد بن عليّ فليس بإمام. فسمّاهم زيد الرّافضة، فهم اليوم يزعمون أن الذي سماهم الرافضة المغيرة حيث فارقوه. وكانت منهم طائفة قبل خروج زيد مرّوا إلى جعفر بن محمد بن عليّ، فقالوا له: إن زيد بن عليّ فينا يبايع؛ أفترى لنا أن نبايعه؟ فقال لهم: نعم بايعوه؛ فهو والله أفضلُنا وسيدنا وخيرُنا فجاؤوا، فكتموا ما أمرهم

به .

قال : واستتبّ لزيد بن عليّ خروجه ، فواعد أصحابه ليلة الأربعاء أول ليلة من صفر سنة اثنتين وعشرين ومائة .

وبلغ يوسفَ بن عمر أنّ زيداً قد أزمع على الخروج ، فبعث إلى الحكَم بن الصلت ، فأمره أن يجمع أهل الكوفة في المسجد الأعظم يحصرُهم فيه ، فبعث الحكم إلى العُـرَفاء والشُّـرط والمناكب والمقـاتلة ؛ فأدخلهم المسجد ، ثم نادى مناديه : ألا إنّ الأمير يقول : مَن أدركناه في رحلة فقد برئت منه الذّمّة ؛ ادخلوا المسجـد الأعظم . فأتى الناس المسجد يوم الثلاثاء قبل خروج زيد بيوم ، وطلبوا زيداً في دار معاويـة بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصاريّ ، فخرج ليلاً ؛ وذلك ليلة الأربعاء ، في ليلة شديدة البرد ، من دار معاوية بن إسحاق ، فرفعوا الهراديّ فيها النيران ، ونادوا : يا منصور أمتْ ، أمتْ يا منصور . فكلما أكلت النار هُرْديًّا رفعوا آخر ، فما زالوا كذلك حتى طلع الفجر ؛ فلما أصبحوا بعث زيد بن عليّ القاسم التّنعـي ثم الحضرميّ ورجلاً آخر من أصحابه ، يناديان بشعارهما ، فلما كانوا في صحراء عبد القيس لقيهم جعفر بن العباس الكِنديّ ، فشدُّوا عليه وعلى أصحابه ، فقتِل الرجل الذي كان مع القاسم التّنعيّ ، وارتُثّ القاسم ، فأتِيَ به الحكم ، فكلمه فلم يردّ عليه شيئاً ، فأمر به فضربتْ عُنُقه على باب القصر ؛ فكان أوّل مَنْ قتِل من أصحاب زيد بن عليّ هو وصاحبه . وأمر الحكم بن الصلت بدروب السوق فغلقت ، وغلقت أبواب المسجد على أهل الكوفة . وعلى أرباع الكوفة يومئذ ؛ على رُبْع أهل المدينة إبراهيم بن عبدالله بن جرير البجليّ ، وعلى مَذْحـج وأسد عمـرو بن أبي بذْل العبديّ ، وعلى كِنْدة وربيعة المنذر بن محمد بن أشعث بن قيس الكنديّ ، وعلى تميم وهمْدان محمد بن مالك الهمْدانيّ ثم الخَيْوانيّ .

قال : وبعث الحكم بن الصّلت إلى يوسف بن عمر ، فأخبره الخبر ، فأمر يوسف مناديه فنادى في أهل الشأم : مَنْ يأتي الكوفة فيقترب من هؤلاء القوم فيأتيني بخبَرهم؟ فقال جعفر بن العباس الكنديّ : أنا ، فركب في خمسين فارساً ، ثم أقبل حتى انتهى إلى جبّانة سالم السّلوليّ ، فاستخبرهم ، ثم رجع إلى يوسف بن عمر فأخبره ، فلما أصبح خرج إلى تلّ قريب من الحيرة ، فنزل عليه ومعه قريش وأشراف الناس ؛ وعلى شُرْطته يومئذ العباس بن سعيد المُزَنيّ ، فبعث الرّيان بن سلَمة الإراشيّ في ألفين ومعه ثلثمائة من القِيقـانيّة رُجّـالاً معهم النُّشاب .

وأصبح زيد بن عليّ ، فكان جميعُ مَنْ وافاه تلك الليلة مائتي رجل وثمانية عشر رجلا ، فقال زيد : سبحان الله! أين الناس! فقيل له : هم في المسجد الأعظم محصورون ، فقال : لا والله ما هذا لمن بايَعنا بعذر . وسمع نصر بن خزيمة النداء ، فأقبل إليه ، فلقي عمر بن عبد الرحمن صاحب شرطة الحكم بن الصّلت في خيله من جُهينة عند دار الزّبير بن أبي حكمة في الطريق الذي يخرج إلى مسجد بني عديّ ، فقال نصر بن خزيمة : يا منصور أمتْ ؛ فلم يردّ عليه شيئاً ، فشدّ عليه نصر وأصحابه ، فقتل عمر بن عبد الرحمن ، وانهزم مَن كان معه ، وأقبل زيد بن عليّ من جبّانة سالم حتى انتهى إلى جبّانة الصائديّين ، وبها خمسمائة من أهل الشأم ، فحمل عليهم زيد بن عليّ فيمن معه فهزمهم . وكان تحت زيد بن عليّ يومئذ بِرْذَوْن أدْهَم بهيم ؛ اشتراه رجل من بني نَهْد بن كهمس بن مروان النجّاريّ بخمسة وعشرين ديناراً ، فلما قتِل زيد بعد ذلك أخذه الحكم بن الصّلت .

قال: وانتهى زيد بن عليّ إلى باب دار رجل من الأزْد، يقال له أنس بن عمرو ـ وكان فيمن بايعه ـ فنودي وهو في الدار فجعل يجيب، فناداه زيد يا أنَس: اخرج إليّ رحمك الله، فقد جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً. فلم يخرج إليه، فقال زيد: ما أخلفكم! قد فعلتموها، الله حسيبكم!

قال: ثمّ إنّ زيداً مضى حتى انتهى إلى الكُناسة، فحمل على جماعة بها من أهل الشأم فهزمهم؛ ثم خرج حتى ظهر إلى الجبّانة ويوسف بن عمر على التلّ ينظر إليه هو وأصحابه، وبين يديه حِزام بن مرة المزنيّ وزمزم بن سُلَيم الثعلبيّ؛ وهما على المجفّفة، ومعه نحو ما مائتي رجل؛ والله لو أقبل على يوسف لقتله، والرّيان بن سَلمة يتْبه أثر زيد بن عليّ بالكوفة في أهل الشأم.

ثم إن زيداً أخذ ذات اليمين على مصلّى خالد بن عبدالله حتى دخل الكوفة، وكانت فرقة من أصحاب زيد بن عليّ حيث وجّه إلى الكُناسة قد انشعبتْ نحو جبّانة مِخْنف بن سُلَيم. ثم قال بعضهم لبعض: ألا ننطلق نحو جَبانةِ كِنْدة! قال: فما زاد الرّجل على أن تكلم بهذا الكلام. وطلع أهلُ الشأم؛ فلما رأوهم دخلوا زُقاقاً فمضَوْا فيه، وتخلّف رجل منهم، فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين، ثم خرج إليهم فقاتلهم ساعة. ثم إنهم صَرَعُوه، فجعلوا يضربونه بأسيافهم؛ فنادى رجل منهم مقنّع بالحديد: أن اكشفوا المِغفر ثم اضربوا رأسه بعمود حديد؛ ففعلوا، وقتِل وحمل أصحابه عليهم فكشفوهم عنه وقد قتل، وانصرف أهل الشأم؛ وقد اقتطعوا رجلا، ونجا سائرهم. فذهب ذلك الرّجل حتى دخل دار عبدالله بن عَوْف، فدخل أهل الشأم عليه فأسروه، فذهب به إلى يوسف بن عمر فقتله.

قال: وأقبل زيد بن عليّ، وقد رأى خِذلان الناس إيّاه، فقال: يا نصر بن خزيمة، أتخاف أن يكون قد جعلوها حسينيّة! فقال له: جعلني الله لك الفداء! أما أنا فوالله لأضربنّ معك بسيفي هذا حتى أموت؛ فكان قتاله يومئذ بالكوفة. ثم إن نصر بن خزيمة قال لزيد بن عليّ: جعلني الله لك الفداء! إنّ الناس في المسجد الأعظم محصورون، فامض بنا نحوهم، فخرج بهم زيد نحو المسجد، فمرّ على دار خالد بن عَرْفطة. وبلغ عبيدَالله بن العباس الكنديّ إقبالُه، فخرج في أهل الشأم، وأقبل زيد فالتقوْا على باب عمر بن سعد بن أبي وقّاص، فكعّ صاحب لواء عبيدالله ـ وكان لواؤه مع سلمان مولاه ـ فلما أراد عبيدالله الحملة ورآه قد كعّ عنه، قال: احمل يابن الخبيثة! فحمل عليهم، فلم ينصرف حتى خُضِّب لواؤه بالدّم.

ثم إن عبيدالله برز فخرج إليه واصل الحنّاط، فاضطربا بسيفهما، فقال للأحول: خذها مني وأنا الغلام الحنّاط! وقال الآخر: قطع الله يدي إن كِلْتَ بقفيز أبداً. ثم ضربه فلم يصنع شيئاً. وانهزم عبيدالله بن العباس وأصحابُه، حتى انتهوْا إلى دار عمرو من حُرَيث. وجاء زيد وأصحابه حتى انتهوْا إلى بابِ الفيل؛ فجعل أصحابُ زيد يُدخلون راياتِهم من فوق الأبواب، ويقولون: يا أهلَ المسجد، اخرجوا. وجعل نصر بن خُزَيمة يناديهم، ويقول: يا أهل الكوفة، اخرجوا من الذلّ إلى العزّ، اخرجوا إلى الدين والدنيا؛ فإنكم لستم في دين ولا دنيا. فأشرف عليهم أهلُ الشأم، فجعلوا يرمُونهم بالحجارة من فوق المسجد ـ وكان يومئذ جمع كبير بالكوفة في نواحيها، وقيل في جبّانة سالم ـ وانصرف الرّيان بن سلَمة إلى الحيرة عند المساء، وانصرف زيد بن عليّ فيمن معه، وخرج إليه ناس من أهل الكوفة، فنزل دار الرزق، فأتاه الرّيان بن سلمة، فقاتله عند دار الرزق قتالاً شديداً، فجرح من أهل الشأم وقتِل منهم ناس كثير، وتبعهم أصحاب زيد من دار الرّزق؛ حتى انتهوْا إلى

المسجد؛ فرجع أهلُ الشأم مساء يوم الأربعاء أسوأ شيء ظنًّا؛ فلما كان من الغد غداة يوم الخميس، دعا يوسف بن عمر الرّيان بن سَلمة، فلم يوجَد حاضراً تلك الساعة.

وقال بعضُهم: بل أتاه وليس عليه سلاحه فأفَّفَ به، وقال له: أفٍّ لك من صاحب خيل! اجلس. فدعا العباس بن سعيد المُزنيّ صاحب شرطته، فبعثه في أهل الشأم، فسار حتى انتهى إلى زيد بن عليّ في دار الرزق، وثَمّ خشب للتجار كثير، فالطريق متضايق. وخرج زيد في أصحابه، وعلى مجنِّبتيه نصر بن خزيمة العبسيّ ومعاوية بن إسحاق الأنصاريّ، فلما رآهم العباس - ولم يكن معه رجال - نادى: يا أهلَ الشأم، الأرضَ والأرضَ! فنزل ناسٌ كثير ممن معه، فاقتتلوا قتالاً شديداً في المعركة. وقد كان رجل من أهل الشأم من بني عَبْس يقال له نائل بن فَرْوة قال ليوسف بن عمر: والله لئن أنا ملأتُ عيني من نصر بن خزيمة لأقتلنّه أو ليقتلنّي، فقال له يوسف: خذ هذا السيف؛ فدفع إليه سيفاً لا يمرّ بشيء إلا قطعه. فلما التقى أصحاب العباس بن سعيد وأصحابِ زيد واقتتلوا، بصُر نائل بن فروة بنصر بن خزيمة، فأقبل نحوه، فضرب نصراً فقطع فَخذِه، وضربه نصر ضربةً فقتله؛ فلم يلبث نصر أن مات، واقتتلوا قتالاً شديداً.

ثم إن زيد بن عليّ هزمهم وقتل من أهل الشأم نحواً من سبعين رجلاً، فانصرفوا وهم بشرّ حال. وقد كان العباس بن سعيد نادى في أصحابه أن اركبوا؛ فإن الخيل لا تطيق الرجال في المضِيق فركبوا، فلما كان العشيّ عبّأهم يوسف بن عمر ثم سرّحهم، فأقبلوا حتى التقوْا هم وأصحاب زيد، فحمل عليهم زيد في أصحابِه فكشفهم، ثم تبعهم حتى أخرجهم إلى السَّبَخة، ثم شدّ عليهم بالسبَخة حتى أخرجهم إلى بني سُليم، ثم تبعهم في خيله ورجاله؛ حتى أخذوا على المسنّاة.

ثم إنّ زيداً ظهر لهم فيما بين بارق ورُؤاس، فقاتلهم هنالك قتالاً شديداً، وصاحب لوائه يومئذ رجل يقال له عبد الصمد بن أبي مالك بن مسروح، من بني سعد بن زيد، حليف العباس بن عبد المطلب، وكان مسروح السعديّ تزوّج صفية بنت العباس بن عبد المطلب، فجعلت خيلُهم لا تثبُت لخيله ورجله، فبعث العباس إلى يوسف بن عمر يعلمه ذلك، فقال له: ابعث إليّ الناشبة، فبعث إليهم سليمان بن كيسان الكلبيّ في القِيقانيّة والبُخاريّة؛ وهم ناشبة، فجعلوا يرمون زيداً وأصحابه، وكان زيد حريصاً على أن يصرفهم حين انتهوا إلى السَّبَخة، فأبوْا عليه، فقاتل معاوية بن إسحاق الأنصاريّ بين يدي زيد بن عليّ قتالاً شديداً، فقتل بين يديه، وثبت زيد بن عليّ ومَنْ معه حتى إذا جنح الليل رُمِيَ بسهم فأصاب جانب جَبهته اليسرى، فتشبّث في الدّماغ، فرجع ورجع أصحابه؛ ولا يظنُّ أهلُ الشأم أنهم رجعوا إلا للمساء والليل.

قال: فحدّثني سلمة بن ثابت الليثيّ - وكان مع زيد بن عليّ، وكان آخر من انصرف من الناس يومئذ، هو وغلام لمعاوية بن إسحاق - قال: أقبلتُ أنا وصاحبي نقصُّ أثر زيد بن عليّ، فنجدهُ قد أنزل وأدخل بيت حَرّان بن كريمة (مولى لبعض العرب في سكّة البريد في دُور أرْحَب وشاكر). قال سلمة بن ثابت: فدخلت عليه، فقلت له: جعلني الله فداك أبا الحسين! وانطلق أصحابُه فجاؤوا بطبيب يقال له شُقَير (مولًى لبني رُؤاس) فانزع النَّصل من جبهته، وأنا أنظر إليه، فوالله ما عدا أن أنزعه جعل يصيح، ثم لم يلبث أن قضى؛ فقال القوم: أين ندفُنه، وأين نواريه؟ فقال بعض أصحابه: نلبّسه درعَه ونطرحُه في الماء، وقال بعضهم: بل نحتزّ رأسَه ونضعه بين القتلى، فقال ابنه يحيى: لا والله لا نأكل لحم أبي الكلاب. وقال بعضهم: لا بل نحمله

إلى العباسيّة فندفنه.

قال سلمة: فأشرتُ عليهم أن ننطلق به إلى الحُفْرة التي يؤخذ منها الطين فندفنه فيها، فقبلوا رأيي وانطلقنا، وحفرنا له بين حُفْرتَين، وفيه حينئذ ماء كثير؛ حتى إذا نحن أمكنّا له دفنّاه، وأجرينا عليه الماء، وكان معنا عبد له سنديٌّ. قال: ثم انصرفنا حتى نأتي جبّانة السبيع، ومعنا ابنه، فلم نزل بها، وتصدّع الناس عنا، وبقيت في رهط معه لا يكونون عشرة، فقلت له: أين تريد؟ هذا الصبح قد غشيك ـ ومعه أبو الصَّبّار العبديّ ـ قال: فقال: النّهرين، فقلت له: إن كنت إنما تريد النّهرين ـ فظننتُ أنه يريد أن يتشطّط الفرات ويقاتلهم ـ فقلتُ له: لا تبرح مكانَك، تقاتلهم حتى تُقتل، أو يقضي الله ما هو قاض. فقال لي: أنا أريد نهرَيْ كربلاء. فقلت له: فالنّجاء قبل الصبح، فخرج من الكوفة، وأنا معه وأبو الصبّار ورهْط معنا، فلمّا خرجنا من الكوفة سمعنا أذان المؤذّنين، فصلينا الغَداة بالنُّخيلة، ثم توجّهنا سراعاً قِبَل نِينَوَى، فقال لي: إني أريد سابقاً مولى بشر بن عبد الملك بن بِشْر، فأسرع السير، وكنتُ إذا لقيت القوم أستطعمهم فأطعَمُ الأرغفة فأطعِمها إياه، فيأكل ونأكل معه؛ فانتهينا إلى نِينَوَى وقد أظلمنا، فأتينا منزل سابق، فدعوتُ على الباب، فخرج إلينا فقلت له: أما أنا فآتي الفيّوم، فأكون به؛ فإذا بدا لك أن ترسل إليّ فأرسل. قال: ثم إني مضيت وخلّفته عند سابق؛ فذلك آخر عهدي به.

قال: ثم إنّ يوسف بن عمر بعث أهل الشأم يطلبون الجرحَى في دور أهل الكوفة، فكانوا يخرجون النساء إلى صحن الدار، ويطوفون البيت يلتمسون الجرحَى.

قال: ثم دلّ غلام زيد بن عليّ السنديُّ يوم الجمعة على زيد،فبعث الحكم بن الصَّلت العباسَ بن سعيد المزنيّ وابن الحكم بن الصَّلت، فانطلقا فاستخرجاه، فكره العباس أن يغلب عليه ابن الحكم بن الصّلت. فتركه وسرّح بشيراً إلى يوسف بن عمر غداة يوم الجمعة برأس زيد بن عليّ مع الحجاج بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عَقِيل، فقال أبو الجُويريَة مولى جُهَينة:

قُلْ للذينَ انتهكوا المحارِمْ ... ورفعوا الشَّمْعَ بصَحْرا سالِمْ

كيف وَجَدْتمْ وقعةَ الأكارِمْ ... يا يوسفَ بنَ الحكمِ بن القاسم!

قال: ولما أتى يوسفَ بن عمر البشيرُ، أمر بزيد فصلب بالكُناسة، هو ونصر بن خُزيمة ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصاريّ وزياد النهديّ؛ وكان يوسف قد نادى: من جاء برأس فله خمسمائة درهم، فجاء محمد بن عبّاد برأس ابن خُزيمة، فأمر له يوسف بن عمر بألف درهم، وجاء الأحول مولى الأشعريّين برأس معاوية بن إسحاق؛ فقال: أنت قتلتَه؟ فقال: أصلح الله الأمير! ليس أنا قتلته؛ ولكني رأيتُه فعرفته، فقال: أعطوه سبعمائة درهم، ولم يمنعه أن يتمّ له ألفاً، إلاّ أنه زَعم أنه لم يقتله.

وقد قيل: إنّ يوسف بن عمر لم يعلم بأمر زيد ورجوعه من الطريق إلى الكوفة بعد ما شخص إلاّ بإعلام هشام بن عبد الملك إياه، وذلك أن رجلاً من بني أمية كتب ـ فيما ذكر ـ إلى هشام، يذكر له أمر زيدٍ، فكتب هشام إلى يوسف يشتمه ويجهّله، ويقول: إنك لَغافل، وزيد غارز ذَنبه بالكوفة يبايَع له فألحِحْ في طلبه، فأعطِه الأمان فإن لم يقبل فقاتله. فكتب يوسف إلى الحكَم بن الصّلت من آل أبي عَقيل وهو خليفته على الكوفة بطلبه، فطلبه فخفيَ عليه موضعُه، فدسّ يوسف مملوكاً خُراسانيًّا ألكَن، وأعطاه خمسة آلاف درهم، وأمره أن يلطف

لبعض الشيعة فيخبره أنه قد قدم من خُراسان حبًّا لأهل البيت؛ وأنّ معه مالاً يريد أن يقوّيَهم به؛ فلم يزل المملوك يلقَى الشيعة،ويخبرهم عن المال الذي معه حتى أدخلوه على زيد، فخرج فدَلّ يوسف على موضعه، فوجّه يوسف إليه الخيل، فنادى أصحابه بشعارهم، فلم يجتمع إليه منهم إلا ثلثمائة أو أقلّ، فجعل يقول: كان داود بن عليّ أعلَم بكم؛ قد حذّرني خِذلانكم فلم أحذر!

وقيل: إنّ الذي دَلّ على موضع زيد الذي كان دُفن فيه ـ وكان دفن في نهر يعقوب فيما قيل، وكان أصحابُه قد سَكروا النهر ثم حفروا له في بطنه، فدفنوه في ثيابه ثم أجْروا عليه الماء ـ عَبْدٌ قصّار كان به، فاستعجل جُعلا على أن يدلَّهم على موضعه، ثم دلّهم، فاستخرجوه، فقطعوا رأسَه، وصلبوا جسده؛ ثم أمروا بحراسته لئلا يُنزل، فمكث يُحرَس زمانا. وقيل إنه كان فيمن يحرُسه زهير بن معاوية أبو خيثمة، وبُعث برأسه إلى هِشام فأمر به فنصِب على باب مدينة دمشق، ثم أرسِل به إلى المدينة، ومكث البَدَن مصلوباً حتى مات هشام، ثم أمر به الوليد فأنزِل وأحرق. وقيل: إن حكيم بن شريك كان هو الذي سعى بزيد إلى يوسف.

فأما أبو عبيدة معمر بن المثنى فإنه قال في أمر يحيى بن زيد: لما قُتِل زيد عمَد رجلٌ من بني أسد إلى يحيى بن زيد، فقال له: قد قتِل أبوك، وأهلُ خراسان لكم شيعةٌ، فالرأي أن تخرج إليها. قال: وكيف لي بذلك؟ قال: تتوارى حتى يكفّ عنك الطلب ثم تَخرج، فواراه عنده ليلة، ثم خاف فأتى عبد الملك بن بشر بن مَرْوان، فقال له: إن قَرابة زيد بك قريبة، وحقّه عليك واجب، قال له: أجَل؛ ولقد كان العفو عنه أقرَب إلى التقوى، قال: فقد قتل وهذا ابنه غلاماً حَدَثا لا ذنب له؛ وإن علم يوسف بن عمر بمكانه قتله، فتُجيره وتواريه عندك، قال: نعم وكرامة. فأتاه به فواراه عنده. فبلغ الخبر يوسف، فأرسل إلى عبد الملك: قد بلَغني مكان هذا الغلام عندك، وأعطى الله عهداً؛ لئن لم تأتني به لأكتبنّ فيك إلى أمير المؤمنين، فقال له عبد الملك: أتاك الباطل والزور؛ أنا أواري مَنْ ينازعني سلطاني ويدّعي فيه أكثر من حقي! ما كنت أخشاك على قبول مثل هذا عليّ ولا الاستماع من صاحبه، فقال: صدق والله ابنِ بشْر؛ ما كان ليوارى مثل هذا، ولا يستر عليه؛ فكفّ عن طلبه؛ فلما سكن الطلبُ خرج يحيى في نفر من الزيديّة إلى خُراسان.

وخطب يوسف بعد قتل زيد بالكوفة فقال:

يا أهل الكوفة، إن يحيَى بن زيد يتنقّل في حِجال نسائكم كما كان يفعل أبوه؛ والله لو أبدى لي صفحته لعرقتُ خصيَيه كما عرقت خصيَي أبيه.

وذكر عن رجل من الأنصار قال: لما جيء برأس زيد فصُلب بالمدينة في سنة ثلاث وعشرين ومائة، أقبل شاعر من شعراء الأنصار فقام بحياله، فقال:

ألا يا ناقِضَ الميثا ... قِ أبشرْ بالذي ساكا
نقَضْتَ العهْدَ والميثا ... قَ قِدْماً كان قدْماكا
لقد أخلَفَ إبليس الّ ... ذي قد كان منّاكا

قال: فقيل له: ويلك! أتقول هذا لمثل زيد! فقال: إن الأمير غضبان فأردتُ أن أرضيَه، فردَّ عليه بعض شعرائهم:

ألا يا شاعرَ السوْءِ لقد أصْبَحْت أفّاكا
أشَتْمُ ابنِ رسول اللـ ـه يُرْضِي مَنْ تَوَلاكا
ألاَ صَبَّحَكَ اللَّهُ بخِزْي ثم مَسّاكا
ويوم الحشر لا شكَّ بأن النَّارَ مثواكا

وقيل: كان خِراش بن حَوْشب بن يزيد الشيبانيّ على شُرَط يوسف بن عمر؛ فهو الذي نَبَش زيداً، وصلَبه، فقال السيّد:

بتّ ليلي مُسَهدًا ساهِرَ الطَّرفِ مُقصَدا
ولقد قلتُ قولةً وأطَلتُ التَّبلّدا
لَعَنَ اللَّهُ حَوْشَباً وخِراشاً ومزْيَدا
ويَزيداً فإنه كان أعْتَى وأعْندا
ألفَ ألف وألفَ ألـ ـفٍ من اللعْن سَرمدا
إنهم حاربوا الإلـ ـهَ وآذوْا محمدا
شركوا في دَمِ المطـ ـهَّرِ زيد تَعَنُّدا
ثم عالوه فوقَ جِذْ عٍ صريعاً مُجَرَّدا
يا خِرَاشَ بنَ حوشب أنتَ أشقَى الورَى غدًا

قال أبو مخنف: ولما قتَل يوسف زيدَ بن عليّ أقبل حتى دخل الكوفة فصعِد المنبر، فقال:

يا أهلَ المدرَة الخبيثة، إني والله ما تقرّن بي الصَّعْبَة، ولا يقعقَع لي بالشّنان، ولا أخَوّف بالذنب. هيهات! حُبِيت بالساعد الأشدّ، أبشروا يا أهلَ الكوفة بالصَّغار والهوان، لا عطاء لكم عندنا ولا رزق؛ ولقد هممت أن أخرب بلادكم ودوركم، وأحرمكم أموالكم. أمَا والله ما علوت منبري إلا أسمعتُكم ما تكرهون عليه، فإنكم أهلُ بغي وخلاف، ما منكم إلا مَن حارب الله ورسوله؛ إلا حكيم بن شريك المحاربيّ؛ ولقد سألت أميرَ المؤمنين أن يأذن لي فيكم؛ ولو أذن لقتلتُ مقاتلتكم، وسبيت ذراريّكم.

وفي هذه السنة قتل كلثوم بن عياض القُشيريّ الذي كان هشام بن عبد الملك بعثه في خيول أهل الشأم إلى إفريقيّة؛ حيث وقعت الفتنة بالبربر.

وفيها قتل عبدالله البطّال في جماعة من المسلمين بأرض الروم.

وفيها ولد الفضل بن صالح ومحمد بن إبراهيم بن محمد بن عليّ.

وفيها وجّه يوسف بن عمر بن شُبرمة على سِجِسْتان، فاستقضى ابنَ أبي ليلى.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن هشام المخزوميّ، كذلك حدّثني أحمد بن ثابت، عمّن ذكره، عن إسحق بن عيسى، عن أبي معشر؛ وكذلك قال الواقديّ وغيره.

وكانت عمال الأمصار في هذه السنة العمال في السنة التي قبلها، وقد ذكرناهم قبل؛ إلا أنّ قاضي الكوفة كان ـ فيما ذكر ـ في هذه السنة محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما جَرى بين أهل السُّغد ونَصْر بن سيار من الصّلح .

ذكر الخبر عن ذلك وسببه :

ذكر عليّ بن محمد، عن شيوخه، أن خاقان لما قُتل في ولاية أسد، تفرَّقت الترك في غارة بعضها على بعض؛ فطمع أهل السُّغد في الرَّجْعة إليها، وانحاز قوم منهم إلى الشاش، فلما ولى نصر بن سيار أرسل إليهم يدعوهم إلى الفيئة والمراجعة إلى بلادهم، وأعطاهم كلّ ما أرادوا.

قال: وكانوا سألوا شُروطاً أنكرها أمراء خُراسان؛ منها ألاّ يعاقب مَن كان مسلماً وارتدّ عن الإسلام، ولا يعدّى عليهم في دَين لأحد من الناس، ولا يؤخذون بقَبَالة عليهم في بيت المال، ولا يؤخذ أسراء المسلمين من أيديهم إلا بقضيّة قاض وشهادة العدول؛ فغاب الناس ذلك على نصر، وكلّموه فقال: أما والله لو عاينتم شَوْكتهم في المسلمين ونِكايتهم مثل الذي عاينت ما أنكرتم ذلك! فأرسل رسولاً إلى هشام في ذلك؛ فلما قدم الرّسول أبى أن ينفذ ذلك لنصر، فقال الرسول: جرّبت يا أمير المؤمنين حرْبنا وصُلْحنا، فاختر لنفسك. فغضب هشام، فقال الأبرش الكلبيّ: يا أمير المؤمنين، تألّف القوم واحمل لهم؛ فقد عرفْتَ نكايتهم كانت في المسلمين، فأنفذ هشام ما سأل.

وفي هذه السنة أوفد يوسُف بن عمر الحكَمَ بن الصّلت إلى هشام بن عبدالملك، يسأله ضمّ خراسان إليه وعَزْل نصر بن سيّار.

ذكر الخبر عن سبب ذلك وما كان من الأمر فيه:

ذكر عليّ عن شيوخه، قال: لما طالت ولاية نَصْر بن سيار، ودانت له خُراسان، كتب يوسف بن عمر إلى هشام حسداً له: إن خُراسان دَبَرةٌ دبرةٌ فإن رأى أمير المؤمنين أن يضمَّها إلى العراق فأسرّح إليها الحكَم بن الصلت؛ فإنه كان مع الجُنيد، وولَى جسيم أعمالها، فأعمر بلاد أمير المؤمنين بالحُكم. وأنا باعث بالحكم بن الصَّلْت إلى أمير المؤمنين، فإنه أديب أريب، ونصيحته لأمير المؤمنين مثل نصيحتنا ومودّتنا أهلَ البيت.

فلما أتى هشاماً كتابُه بعث إلى دار الضيافة، فوجد فيها مقاتل بن عليّ السُّغديّ، فأتوْه به، فقال: أمِن خراسان أنت؟ قال: نعم، وأنا صاحب الترك - قال: وكان قدم على هشام بخمسين ومائة من الترك - فقال: أتعرف الحكم بن الصلت؟ قال: نعم، قال: فما ولِي بخراسان؟ قال: ولي قرية يقال لها الفاريَاب، خراجها

سبعون ألفاً، فأسره الحارث بن سُريج، قال: ويحك! وكيف أفلتَ منه! قال: عرك أذنه، وقفّده وخلّى سبيله. قال: فقدم عليه الحكم بعدُ بخراج العراق، فرأى له جمالاً وبياناً، فكتب إلى يوسف: إنّ الحكَم قدم وهو على ما وصفت، وفيما قبَلك له سعةٌ، وخلّ الكنانيّ وعمله.

وفي هذه السنة غزا نصر فرغانة غزوتَه الثانية، وأوفد مغراء بن أحمر إلى العراق، فوقع فيه عند هشام.

ذكر الخبر عن ذلك وما كان من هشام ويوسف بن عمر فيه:

ذكر أن نصراً وجّه مَغْراءَ بن أحمر إلى العراق وافداً،منصرفَه من غَزْوته الثانية فَرْغانة، فقال له يوسف بن عمر: يابن أحمر؛ يغلبكم ابن الأقطع يا معشر قيس على سلطانكم! فقال: قد كان ذلك أصلح الله الأمر! قال: فإذا قدمتَ على أمير المؤمنين فابقر بطنه. فقدموا على هشام، فسألهم عن أمر خُراسان، فتكلّم مغراء، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر يوسف بن عمر بخير، فقال: ويحك! أخبرني عن خُراسان، قال: ليس لك جند يا أمير المؤمنين أحدّ ولا أنجد منهم، من سُواذق في السماء وفرسان مثل الفيلة؛ وعُدّة وعَدَد من قوم ليس لهم قائد، قال: ويحك! فما فعل الكنانيّ؟ قال: لا يعرف ولَده من الكبَر. فردّ عليه مقالته، وبعث إلى دار الضيافة، فأتيَ بشُبَيل بن عبد الرحمن المازنيّ، فقال له هشام: أخبرني عن نَصْر، قال: ليس بالشيخ يُخشى خَرَفه، ولا الشابّ يُخشى سفههُ، المجرِّب المجرَّب، قد ولي عامّة ثغور خراسان وحروبها قبل ولايته. فكتب إلى يوسف بذلك، فوضع يوسف الأرصاد، فلما انتهوا إلى المَوْصِل تركوا طريق البَريد، وتكادّوا حتى قدموا بيْهق ـ وقد كُتِب إلى نصر بقول شُبَيل ـ وكان إبراهيم بن بسام في الوفْد، فمكر به يوسف، ونعَى له نصراً، وأخبره أنه قـد ولّى الحكم بن الصّلت بن أبي عقيل خُراسان. فقسم له إبراهيم أمر خُراسان كله؛ حتى قدم عليه إبراهيم بن زياد رسول نصر؛ فعرف أنّ يوسف قد مكرَ به وقال: أهلكني يوسف.

وقيل: إن نصراً أوفد مغراء، وأوفد معه حَمَلة بن نعيم الكلبيّ، فلما قدموا على يوسف، أطمع يوسف مغراء، إن هو تنقّص نصراً عند هشام أن يوليّه السند. فلما قدما عليه ذكر مَغْراء بأس نصر ونجدته ورأيه، وأطنب في ذلك، ثم قال: لو كان الله متّعنا منه ببقيّة! فاستوى هشام جالساً، ثم قال: ببقيّة ماذا؟ قال: لا يَعْرِف الرّجل إلا بِجرْمه! لا يفهم عنه حتى يُدنَى منه، وما يكاد يُفهم صوته من الضّعف لأجل كِبَره. فقام حَمَلة الكلبيّ، فقال: يا أميرَ المؤمنين، كذب والله، ما هو كما قال؛ هو هو. فقال هشام: إن نصراً ليس كما وصف، وهذا أمر يوسف بن عمر حسدٌ لنصر؛ وقد كان يوسف كتب إلى هشام يذكر كِبَر نصر وضعفَه، ويذكر له سَلْم بن قبينة. فكتب إليه هشام: الْهُ عن ذكر الكنانيّ، فلما قدم مغراء على يوسف، قال له: قد علمتَ بلاء نصر عندي، وقد صنعتُ به ما قد علمتَ، فليس لي في صحبته خير، ولا لي بخراسان مقام؛ فأمره بالمقام. وكتب إلى نصر: إني قد حوّلت اسمَه، فأشخص إليّ مَن قِبَلك من أهله.

وقيل: إنّ يوسف لما أمر مغراء بعيب نَصْر، قال: كيف أعيبه مع بلائه وآثاره الجميلة عندي وعند قومي! فلم يزل به، فقال: فبِمَ أعيبه؟ أعيب تجربته أم طاعته؟ أم يُمْن نقيبته أم سياسته؟ قال: عِبْه بالكِبَر. فلما دخل على هشام تكلم مغراء، فذكر نصراً بأحسن ما يكون، ثم قال في آخر كلامه: لولا . . . ، فاستوى هشـام جالساً، فقال: ما لولا! قال: لولا أنّ الدهر قد غلب عليه، قال: ما بلغ به ويحك الدهرُ! قال: ما يعرف الرّجل إلا من قريب، ولا يعرفه إلا بصوته، وقد ضعُف عن الغَزْو والرّكُوب. فشقّ ذلك على هشام. فتكلّم حَمَلة بن

نُعيم. فلما بلغ نصراً قول مغْراء بعث هارون بن السياوش إلى الحكم بن نُميلة، وهو في السرّاجين يعرض الجند، فأخذ برجله فسحَبه عن طِنفسة له، وكسر لواءه على رأسه، وضرب بطِنْفسته وجهه، وقال: كذلك يفعل الله بأصحاب الغدر!

وذكر عليّ بن محمد، عن الحارث بن أفلح بن مالك بن أسماء بن خارجة: لما ولي نصر خراسان أدنى مغراء بن أحمر بن مالك بن سارية النميريّ والحكم بن نُميلة بن مالك والحجاج بن هارون بن مالك؛ وكان مغراء بن أحمر النميريّ رأس أهل قنّسرين، فآثر نصر مغراء وسنّى منزلته، وشفّعه في حوائجه، واستعمل ابنَ عمه الحكم بن نُميلة على الجُوزَجان، ثم عقد للحكم على أهل العالية، وكان أبوه بالبصرة عليهم؛ وكان بعده عُكَابة بن نُمَيلة، ثم أوفد نصر وافداً من أهل الشأم وأهل خراسان، وصيّر عليهم مغراء؛ وكان في الوفد حَمَلة بن نعيم الكلبيّ، فقال عثمان بن صدقة بن وثاب لمسلم بن مسلم بن عبد الرحمن بن مسلم عامل طُخارستان:

خيَّرني مسلمٌ مراكِبَه ... فقُلْتُ حَسْبي مِنْ مُسْلِمٍ حكَما
هذا فتَى عامر وسَيِّدُها ... كفَى بمَنْ سادَ عامراً كرما

يعني الحكم بن نُمْيلة.

قال: فتغيّر نصر لقيس وأوحشه ما صنع مغراء. قال: وكان أبو نُمَيلة صالح الأبّار مولى بني عبس، خرج مع يحيى بن زيد بن عليّ بن حسين، فلم يزل معه حتى قُتل بالجُوزَجان. وكان نصر قد وَجد عليه لذلك، فأتى عبيدالله بن بسام صاحب نصر، فقال:

قد كُنْتُ في هِمَّةٍ مكْتَئباً ... حتَّى كفاني عُبَيْدُ اللَّهِ تَهْمامِي
ناديْتُهُ فسَما للمَجْدِ مُبْتَهجاً ... كغُرَّة البَدْرِ جَلَّى وَجْه إظْلام
فاسْمُ برَأيِ أبي ليْث وصَوْلَتِهِ ... إن كنتَ يَوْمَ حفاظٍ بامرىءٍ سامِ
تظفرْ يَداكَ بمنْ تَمَّتْ مُرُوَّتهُ ... واختصَّهُ رَبُّهُ مِنْهُ بإكرام
ماضي العزائمِ لَيْثِيٌّ مَضاربُهُ ... على الكَريهَةِ يَوْمَ الرَّوْعِ مِقْدام
لا هَذِرٌ ساحَةَ النَّادي ولا مَذِلٌ ... فيه ولا مُسْكِتٌ إسكاتَ إفحامِ
لهُ مِنَ الحِلم ثوْباهُ ومجْلِسُهُ ... إذا المجالِسُ شانَتْ أهلَ أحلام

قال: فأدخله عبيدالله على نصر، فقال أبو نُمَيلة: أصلحك الله! إني ضعيف؛ فإن رأيت أن تأذن لراويتي! فأذن له، فأنشده:

فاز قِدْحُ الكلبيّ فاعْتَقَدَتْ مَغ ... راءَ في سَعْيِهِ عُرُوقُ لئيم
فأبيني نُمَيْرُ ثُمّ أبيني ... ألِعَبْدٍ مغراءُ أمْ لِصَميم
فلئِنْ كان منكمُ ما يكُونُ الـ ... غدرُ والكفْر مِنْ خصالِ الكريمِ
ولئنْ كان أصلُه كان عبْدا ... ما عليْكمْ مِنْ غدْرِهِ مِنْ شتيم
وليته لَيْثُ وأيُّ وُلاةٍ ... بأيادٍ بيضٍ وأمْرٍ عظيمِ!
أسمنتْهُ حتى إذا راحَ مَغْبُو ... طاً بخيْرٍ مِنْ سَيْبِها المَقْسومِ

كَادَ سَاداتِهِ بِأَهْوَن مِنْ نَهـ ... ـقَةِ عَيْرٍ بِقَفْزَة مَرْقُومِ
فضَرَبنا لغيْرنا مَثلَ الكلـ ... ـبِ ذميماً والذَّمُّ للمَذْمُومِ
وحَمِدنا ليثاً ويَأْخُذُ بالفَضـ ... ـلِ ذَوُو الجود والنَّدَى والحُلُومِ
فاعلَمُنْ يَا بنى القَساورةِ الغُلـ ... ـبِ وأهلَ الحَطِيمِ
أن في شكر صالِحِينا لَمَا يَدْ ... حَضُ قَوْلَ المُرهّقِ المَوصُومِ
قد رأى اللَّهُ ما أَتَيتَ ولنْ يَنـ ... ـقصَ نبْحُ الكلابِ زُهْرَ النُّجُومِ

فلما فرغ قال نصر: صدقت، وتكلمت القيسية واعتذروا. قال: وأهان نصر قيساً وباعدهم حين فعل مغراء ما فعل، فقال في ذلك بعض الشعراء:

لقَدْ بَغَّضَ الله الكِرامَ إليكمُ ... كما بغَّضَ الرَّحمنُ قَيْساً إلى نَصرِ
رَأَيْتُ أَبا لَيْث يُهينُ سَرَاتهُمْ ... ويُدْني إلَيْه كلَّ ذي والثٍ غُمْرِ

وحجّ بالناس في هذه السنة يزيد بن هشام بن عبد الملك؛ كذلك حدثني أحمد بن ثابت، عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر؛ وكذلك قال الواقديّ أيضاً.

وكان عُمّال الأمصار في هذه السنة هم العمال الذين كانوا في السّنة التي قبلها، وقد ذكرتهم قبل.

ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائة

ذكر الأخبار عما كان فيها من الأحداث

فمِمّا كان فيها من ذلك مَقْدَم جماعة من شيعة بني العباس الكوفَة يريدون مكّة، وشرَى بُكَير بن ماهان - في قول بعض أهل السير - أبا مسلم صاحبَ دعْوة بني العباس من عيسى بن معقل العجليّ.

ذكر الخبر عن سبب ذلك:

وقد اختُلف في ذلك؛ فأمّا عليّ بن محمد، فإنه ذكر أن حمزة بن طلحة السّلميّ حدثه عن أبيه، قال: كان بُكير بن ماهان كاتباً لبعض عمّال السند، فقدمها، فاجتمعوا بالكوفة في دار، فغُمِز بهم فأخذوا، فحبس بكير وخُلِّيَ عن الباقين، وفي الحبس يونس أبو عاصم وعيسى بن معقل العجليّ، ومعه أبو مسلم يخدمُه، فدعاهم بُكير فأجابوه إلى رأيه، فقال لعيسى بن معقل: ما هذا الغلام؟ قال: مملوك، قال: تبيعه؟ قال: هو لك، قال: أحبّ أن تأخذ ثمنه، قال: هو لك بما شئت؛ فأعطاه أربعمائة درهم، ثم أُخْرِجوا من السجن، فبعث به إلى إبراهيم فدفعه إبراهيم إلى أبي موسى السراج، فسمع منه وحفظ، ثم صار إلى أن اختلف إلى خراسان.

وقال غيره: توجّه سليمان بن كثير ومالك بن الهيْثم ولاهز بن قريظ، وقَحطبة بن شَبيب من خراسان، وهم يريدون مكة في سنة أربع وعشرين ومائة، فلما دخلوا الكوفة أتوْا عاصم بن يونس العِجليّ؛ وهو في الحبس، قد اتُّهم بالدّعاء إلى ولد العباس، ومعه عيسى وإدريس ابنا معقل؛ حبسهما يوسف بن عمر فيمن حبس من عُمّال خالد بن عبدالله، ومعهما أبو مسلم يخدُمهما؛ فرأوْا فيه العلامات، فقالوا: مَن هذا؟ قالوا: غلام معنا من السَّراجين - وقد كان أبو مسلم يسمع عيسى وإدريس يتكلمان في هذا الرأي فإذا سمعهما بكى - فلما رأوا ذلك منه دعوْه إلى ما هم عليه، فأجاب وقبِل.

وفي هذه السنة غزا سليمان بن هشام الصائفة، فلقي أليون ملك الروم فسلم وغنم.

وفيها مات - في قول الواقديّ - محمد بن عليّ بن عبدالله بن عباس.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن هشام بن إسماعيل؛ كذلك حدّثني أحمد بن ثابت، عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر، وكذلك قال الواقديّ.

وحجّ في هذه السنة عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك معه امرأته أمّ سلمة بنت هشام بن عبد الملك.

وذكر محمد بن عمر أن يزيد مولى أبي الزّناد حدّثه، قال: رأيت محمد بن هشام على بابها يرسل بالسلام وألطافه على بابها كثيرة، ويعتذر فتأبى؛ حتى كان ييأس من قبول هديته، ثم أمرت بقبضها.

وكان عمّال الأمصار في هذه السنة هم العمال الذين كانوا عمالها في سنة اثنتين وعشرين ومائة وفي سنة ثلاث وعشرين ومائة، وقد ذكرناهم قبل.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك غزوة النعمان بن يزيد بن عبد الملك الصائفة

ومن ذلك وفاة هشام بن عبد الملك بن مرْوان فيها، وكانت وفاته ـ فيما ذكر أبو معشر ـ لستّ ليال خلوْن من شهر ربيع الآخر؛ كذلك حدثني أحمد بن ثابت، عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى؛ عنه.

وكذلك قال الواقديّ والمدائنيّ وغيرهما؛ غير أنهم قالوا: كانت وفاتُه يوم الأربعاء لستّ ليال خلوْن من شهر ربيع الآخر، فكانت خلافتُه في قول جميعهم تسعَ عشرةَ سنة، وسبعة أشهر وأحداً وعشرين يوماً في قول المدائنيّ وابن الكلبيّ، وفي قول أبي معشر: وثمانية أشهر ونصفاً، وفي قول الواقديّ: وسبعة أشهر وعشرة ليالٍ.

واختلف في مبلغ سنه، فقال هشام بن محمد الكلبيّ: توفّي وهو ابن خمس وخمسين سنة. وقال بعضهم: توفّيَ وله اثنتان وخمسون سنة.

وقال محمد بن عمر: كان هشام يوم تُوفّيَ ابنَ أربع وخمسين سنة. وكانت وفاته بالرُّصافة وبها قبره، وكان يكنى أبا الوليد.

ذكر الخبر عن العلة التي كانت بها وفاته

حدّثني أحمد بن زُهير، قال: حدّثني عليّ بن محمد، قال: حدثني شيبة بن عثمان، قال: حدّثني عمرو بن كليع؛ قال: حدّثني سالم أبو العلاء، قال: خرج علينا هِشام بن عبد الملك يوماً وهو كئيب، يعرَف ذلك فيه، مسترخٍ عليه ثيابه، وقد أرخى عنان دابّته، فسار ساعةً ثم انتبه، فجمع ثيابه وأخذ بعنان دابته، وقال للرّبيع: ادعُ الأبرش، فدُعِيَ فسار بيني وبين الأبرش، فقال له الأبرش: يا أميرَ المؤمنين؛ لقد رأيتُ منك شيئاً غمّني، قال: وما هو؟ قال: رأيتك قد خرجت على حال غمّني، قال: ويحك يا أبرش! وكيف لا أغتمّ وقد زعم أهل العلم أني ميت إلى ثلاثة وثلاثين يوماً! قال سالم: فرجعت إلى منزلي، فكتبت في قرطاس: «زعم أمير المؤمنين يوم كذا وكذا أنه يسافر إلى ثلاثة وثلاثين يوماً». فلمّا كان في الليلة التي استكمل فيها ثلاثة وثلاثين يوماً إذا خادم يدقّ الباب يقول: أجِبْ أميرَ المؤمنين، واحمِل معك دواء الذُّبَحة ـ وقد كان أخذه مرّة فتعالج فأفاق ـ فخرجتُ ومعي الدواء فتغرغَر به، فازداد الوجعُ شِدّة، ثم سكن فقال لي: يا سالم، قد سكن بعض ما كنت أجد؛ فانصرِفْ إلى أهلِك، وخلّف الدواء عندي. فانصرفت، فما كان إلا ساعة حتى سمعت الصُّراخ عليه، فقالوا: مات أمير المؤمنين! فلما مات أغلق الخزّان الأبواب، فطلبوا قُمقماً يسخّن فيه الماء لغسله، فما وجدوه حتى استعاروا قُمقماً من بعض الجيران، فقال بعض من حضر ذلك: إن في هذا لمعتَبراً لمن اعتبر. وكانت وفاته بالذُّبَحَة؛ فلما مات صلى عليه ابنه مَسْلَمَة بن هشام.

ذكر بعض سِيَر هشام

حدثني أحمد بن زهير، قال: حدّثني عليّ بن محمد، عن وَسْنان الأعرجيّ، قال: حدّثني ابن أبي نُخَيلة، عن عقّال بن شَبَّة، قال: دخلتُ على هشام وعليه قَباء فنَك أخضر، فوجّهني إلى خُراسان، وجعل يوصيني وأنا أنظر إلى القَباء، ففطِن، فقال: مالك؟ قلت: رأيت عليك قبل أن تلي الخلافة قَباء فَنَك أخضر، فجعلت أتأمّل هذا، أهو ذاك أم غيره؟ فقال: هو والله الذي لا إله إلا، هو ذاك، ما لي قَباء غيره. وأما ما تروْن من جمعي هذا المال وصونه فإنه لكم. قال: وكان عقّال مع هشام. فأما شبّة أبو عَقّال؛ فكان مع عبد الملك بن مروان، وكان عقّال يقول: دخلت على هشام، فدخلت على رجل محشوّ عَقْلاً.

حدّثني أحمد بن زهير، قال: حدّثني عليّ، قال: قال مروان بن شجاع؛ مولى لمروان بن الحكم: كنت مع محمد بن هشام بن عبد الملك، فأرسل إليّ يوماً، فدخلتُ عليه، وقد غضِب وهو يتلهّف، فقلتُ: مالك؟ فقال: رجل نَصرانيٌّ شجَّ غلامي ـ وجعل يشتِمه ـ فقلت له: على رِسْلك! قال: فما أصنع؟ قلت: ترفعه إلى القاضي، قال: وما غير هذا! قلت: لا، قال خصيّ له: أنا أكفيك، فذهب فضربه. وبلغ هشاماً فطلب الخصيّ، فعاذ بمحمد، فقال محمد بن هشام: لم آمرك، وقال الخصيّ: بلى والله لقد أمرتَني، فضرب هشام الخصيّ وشتم ابنَه.

وحدثني أحمد، قال عليّ: لم يكن أحدٌ يسير في أيام هشام في موكب إلّا مسلمة بن عبد الملك. قال: ورأى هشام يوماً سالماً في موكب، فزجره وقال: لأعلمنّ متى سرتَ في موكب. وكان يقدَم الرجل الغريب فيسير معه، فيقف سالم، ويقول: حاجتك، ويمنعه أن يسير معه، وكان سالم كأنه هو أمّر هشاماً.

قال: ولم يكن أحدٌ من بني مَرْوان يأخذ العطاء إلا عليه الغزْو؛ فمنهم مَنْ يغزو، ومنهم من يُخرج بدلا.

قال: وكان لهشام بن عبد الملك مولًى يقال له يعقوب، فكان يأخذ عطاء هشام مائتي دينار وديناراً، يفضّل بدينار، فيأخذها يعقوب ويغزو. وكانوا يصيّرون أنفسهم في أعوان الديوان، وفي بعض ما يجوّز لهم المقام به، ويوضع به الغَزْو عنهم. وكان داود وعيسى ابنا عليّ بن عبد الله بن عباس ـ وهما لأمّ ـ في أعوان السّوق بالعراق لخالد بن عبد الله، فأقاما عنده، ؛ فوصلهما، ولولا ذلك لم يستطع أن يحبسهما، فصيّرهما في الأعوان، فسمرَا، وكانا يسامرانه ويحدّثانه.

قال: فولّى هشام بعض مواليه ضيعةً له، فعمَّرها فجاءت بغلّة عظيمة كبيرة ثم عمَّرها أيضاً، فأضعفت الغلّة، وبعث بها مع ابنه، فقدم بها على هشام، فأخبره خبر الضَّيْعة فجزاه خيراً، فرأى منه انبساطاً، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إن لي حاجة، قال: وما هي؟ قال: زيادة عشرة دنانير في العطاء، فقال: ما يخيّل إلى أحدكم أن عشرة دنانير في العطاء إلا بقدر الجوْز! لا لعمري لا أفعل.

حدّثني أحمد، قال: حدّثنا عليّ، قال: قال جعفر بن سليمان: قال لي عبد الله بن عليّ: جمعتُ دواوين بني مروان، فلم أرَ ديواناً أصحّ ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام.

حدثنا أحمد، قال: قال عليّ: قال غسان بن عبد الحميد: لم يكن أحدٌ من بني مَرْوان أشدّ نظراً في أمر أصحابي ودواوينه، ولا أشدّ مبالغة في الفَحْص عنهم من هشام.

حدّثني أحمد، قال: حدثنا عليّ، قال: قال حماد الأبحّ: قال هشام لغيْلان: ويحك يا غيلان! قد أكثر الناس فيك، فنازِعْنا بأمرك، فإن كان حقًّا اتّبعناك، وإن كان باطلا نزعتَ عنه، قال: نعم، فدعا هشام ميمون بن مهران ليكلِّمه، فقال له ميمون: سلْ؛ فإنّ أقوى ما تكونون إذا سألتم، قال له: أشاء الله أن يُعصىَ؟ فقال له ميمون: أفعُصي كارهاً! فسكت، فقال هشام: أجبه فلم يجبه، فقال له هشام: لا أقالني الله إن أقلتُه؛ وأمر بقطع يديه ورجليه.

حدّثني أحمد، قال: حدّثنا عليّ عن رجل من غَنِيّ، عن بِشْر مولى هشام، قال: أُتِيَ هشامٌ برجل عنده قِيان وخَمْر وبَرْبَط، فقال: اكسروا الطنبور على رأسه وضربه، فبكى الشيخ. قال بِشر: فقلت له ـ وأنا اعزّيه: عليك بالصبر، فقال: أتراني أبكي للضّرب! إنما أبكي لاحتقاره للبَرْبَط إذ سماه طنبوراً!

قال: وأغلظ رجل لهشام، فقال له هشام: ليس لك أن تُغلظ لإمامك!

قال: وتفقّد هشام بعض ولده ـ ولم يحضر الجمعة ـ فقال له: ما منعك من الصلاة؟ قال: نَفَقَتْ دابتي، قال: أفعجزتَ عن المشي فتركت الجمعة! فمنعه الدّابّة سنَة.

قال: وكتب سليمان بن هشام إلى أبيه: إنّ بغلتي قد عجزت عني؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمُر لي بدابّةٍ فعل. فكتب إليه: قد فهم أميرُ المؤمنين كتابك، وما ذكرتَ من ضَعْف دابّتك، وقد ظنّ أمير المؤمنين أن ذلك من قلة تعهّدك لعلَفها، وأنّ علفها يضيع، فتعهّد دابتَك في القيام عليها بنفسك، ويرى أمير المؤمنين رأيه في حُملانك.

قال: وكتب إليه بعضُ عمّاله: إني قد بعثت إلى أمير المؤمنين بسلّة دُراقن؛ فليكتب إليّ أميرُ المؤمنين بوصولها. فكتب إليه: قد وصل إلى أمير المؤمنين الدّارقن الذي بعثتَ به فأعجبه، فزدْ أمير المؤمنين منه، واستوثق من الوعاء.

قال: وكتب إلى بعض عُمّاله: قد وصلتِ الكَمْأة التي بعثتَ بها إلى أمير المؤمنين؛ وهي أربعون، وقد تغيّر بعضُها، ولم تُؤتَ في ذلك إلا من حَشْوها، فإذا بعثتَ إلى أمير المؤمنين منها شيئاً فأجد حَشْوها في الظّرْف الذي تجعلها فيه بالرّمل؛ حتى لا تضطرب ولا يصيب بعضُها بعضاً.

حدّثني أحمد، قال: حدثني عليّ، قال: حدّثنا الحارث بن يزيد، قال: حدّثني مولى لهشام، قال: بعث معي مولى لهشام كان على بعض ضِياعه بطيْرين ظريفين، فدخلت إليه وهو جالس على سرير في عَرْصة الدار، فقال: أرسلها في الدار، قال: فأرسلتُها فنظر إليها، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، جائزتي، قال: ويلك! وما جائزة طيرين؟ قلتُ: ما كان، قال: خذ أحَدهما، فعدوْتُ في الدار عليهما، فقال: مالك؟ قلت: أختار خيرَهما، قال: أتختار خيرهما وتدع شرّهما لي! دعْهما ونحن نعطيك أربعين درهماً أو خمسين درهماً.

قال: وأقطِع هشام أرضاً يقال لها دورين، فأرسل في قَبْضها، فإذا هي خراب، فقال لذُوَيْد (كاتب كان بالشأم): ويحك! كيف الحيلة؟ قال: ما تجعل لي؟ قال: أربعمائة دينار، فكتب «دورين وقراها»، ثم أمضاها في الدواوين، فأخذ شيئاً كثيراً، فلما ولي هشام دخل عليه ذُوَيد، فقال له هشام: دورين وقراها! لا والله لا تلي لي ولاية أبداً، وأخرجه من الشأم.

حدّثني أحمد، قال: حدّثنا عليّ، عن عمير بن يزيد. عن أبي خالد، قال: حدّثني الوليد بن خليد، قال: رآني هشام بن عبد الملك، وأنا على بِرْذون طُخَاريّ، فقال: يا وليد بن خليد، ما هذا البرذون؟ قلت: حملني عليه الجُنيد، فحسدني وقال: والله لقد كثرت الطُّخاريّة، لقد مات عبد الملك فما وجدنا في دوابه برذوناً طُخاريًّا غير واحد، فتنافسه بنو عبد الملك أيهم يأخذه، وما منهم أحدٌ إلّا يرى أنه إن لم يأخذه لم يرث من عبد الملك شيئاً.

قال: وقال بعض آل مروان لهشام: أتطمع في الخلافة وأنت بخيل جبّان؟ قال: ولِمَ لا أطمع فيها وأنا حليم عفيف!

قال: وقال هشام يوماً للأبرش: أوَضَعَتْ أعنزك؟ قال: إي والله، قال: لكن أعنزي تأخّر ولادها، فاخرج بنا إلى أعنزك نُصِبْ من ألبانها، قال: نعم، أفأقدّم قوماً؟ قال: لا، قال: أفأقدّم خباءً حتى يضرب لنا؟ قال: نعم، فبعث برجلين بخباء فضُرب، وغدا هشام والأبرش وغدا الناس، فقعد هشام والأبرش؛ كلّ واحد منهما على كرسيّ، وقدّم إلى كلّ واحد منهما شاة، فحلب هشام الشاة بيده، وقال: تَعلّم يا أبرش أني لم أبسّ الحلب! ثم أمر بمَلّة فعُجنت وأوقد النّار بيده، ثم فحصها وألقى الملّة، وجعل يقلّبها بالمحراث، ويقول: يا أبرش، كيف ترى رفقي! حتى نضجت ثم أخرجها، وجعل يقلّبها بالمحراث، ويقول: جبينك جبينك. والأبرش يقول: لبّيك لبيك ـ وهذا شيء تقوله الصبيان إذا خُبزت لهم المَلّة ـ ثم تغدّى الناس ورجع.

قال: وقدم علباء بن منظور الليثيّ على هشام، فأنشده:

قالت عُلَيَّةُ واعْتَزمْتُ لِرَحْلةٍ ... زَوْرَاءَ بالأُذْنَيْنِ ذاتِ تسدُّرِ
أينَ الرحيلُ وأهلُ بيتكَ كلُّهُمْ ... كَلٌّ عليك كبيرُهُمْ كالأصْغرِ!
فأصاغِرٌ أمثالُ سِلكانِ القَطا ... لا في ثَرى مالٍ ولا في مَعْشرِ
إني إلى مَلِكِ الشّآم لَراحِلٌ ... وإليه يَرْحَلُ كُلّ عبدٍ مُوقَرِ
فلأترُكَنّكِ إن حييتُ غَنِيّةً ... بِنَدَى الخليفةِ ذي الفَعالِ الأزهرِ
إنّا أُناس مَيّتٌ ديوانُنا ... ومتى يُصِبْهُ نَدَى الخليفة ينشرِ

فقال له هشام: هذا الذي كنت تحاول، وقد أحسنتَ المسألة، فأمر له بخمسمائة دِرْهم، وألحق له عَيْلاً في العطاء.

قال: وأتى هشاماً محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، فقال: مالك عندي شيء، ثم قال: إيّاك أن يغرّك أحد فيقول: لم يعرفك أمير المؤمنين؛ إني قد عرفتُك؛ أنت محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، فلا تقيمنّ وتُنفق ما معك، فليس لك عندي صلة، فالحق بأهلك.

قال: ووقف هشام يوماً قريباً من حائط فيه زَيْتون، ومعه عثمان بن حيّان المرّي، وعثمان قائم يكاد رأسه يوازي رأسَ أمير المؤمنين وهو يكلمه إذ سمع نفض الزيتون، فقال لرجل: انطلق إليهم فقل لهم: القطوه لقطاً، ولا تنفضوه نفضاً، فتتفقّأ عيونُه، وتتكسّر غصونه.

قال: وحجّ هشام، فأخذ الأبرش مخنّثين ومعهم البرابط، فقال هشام: احبسوهم وبيعوا متاعهم ـ وما درى ما هو ـ وصيّروا ثمنه في بيت المال، فإذا صلحوا فردّوا عليهم الثمن.

وكان هشام بن عبد الملك ينزل الرُّصافة ـ وهي فيما ذكر ـ من أرض قنّسرين. وكان سبب نزوله إياها ـ فيما حدّثني أحمد بن زهير بن حرب، عن عليّ بن محمد ـ قال: كان الخلفاء وأبناء الخلفاء يتبدّوْن ويهربون من الطاعون، فينزلون البرية خارجاً عن الناس، فلما أراد هشام أن ينزل الرُّصافة قيل له: لا تخرج، فإنّ الخلفاء لا يُطعَنون؛ ولم نرَ خليفة طُعِن، قال: أتريدون أن تجرّبوا بي! فنزل الرُّصافة وهي بريّة، ابتنى بها قصرين. والرّصافة مدينة رُوميّة بنتْها الروم.

وكان هشام أحول، فحدثني أحمد، عن عليّ، قال: بعث خالد بن عبد الله إلى هشام بن عبد الملك بحادٍ فحدَا بين يديه بأرجوزة أبي النجم:

والشمسُ في الأُفْقِ كعَينِ أحولِ ... صَغْواءُ قد هَمّتْ ولَمّا تفْعَلِ

فغضب هشام وطرده.

وحدّثني أحمد بن زهير، قال: حدّثني عليّ بن محمد، قال: حدثنا أبو عاصم الضبيّ، قال: مرّ بي معاوية بن هشام، وأنا أنظر إليه في رَحْبة أبي شَريك ـ وأبو شَريك رجل من العجم كانت تنسب إليه وهي مزرعة ـ وقد أختبز خبزة، فوقف عليّ، فقلتُ: الغداء! فنزل وأخرجتها، فوضعتها في لَبن، فأكل ثم جاء الناس، فقلت: مَنْ هذا؟ قالوا: معاوية بن هشام، فأمر لي بِصلة. وركب وثار بين يديه ثعلب، فركض خلفه، فما تبعه غَلْوة؛ حتى عثر به فرسه فسقَط فاحتملوه ميّتاً، فقال هشام: تالله لقد أجمعتُ أن أرشّحه للخلافة، ويتبع ثعلباً!

قال: وكانت عند معاوية بن هشام ابنة إسماعيل بن جرير وامرأة أخرى، فأخرج هشام كلّ واحدة منهما من نصف الثمْن بأربعين ألفاً.

حدّثني أحمد بن زهير، قال: حدّثنا، عليّ، قال: قال قحذم كاتب يوسف: بعثني يوسف بن عمر إلى هشام بياقوتة حمراء يخرج طرفاها من كفّي، وحبّة لؤلؤ أعظم ما يكون من الحبّ، فدخلت عليه فدنوت منه، فلم أر وجْهه من طول السرير وكثرة الفُرش، فتناول الحَجَر والحبّة، فقال: أكتب معك بوزنهما؟ قلت: يا أمير المؤمنين؛ هما أجلّ عن أن يُكتب بوزنهما، ومن أين يوجد مثلهما! قال: صدقت، وكانت الياقوتة للرائقة جارية خالد بن عبد الله، اشترتها بثلاثة وسبعين ألف دينار.

حدثني أحمد بن زهير، قال: حدّثنا إبراهيم بن المنذر الحِزاميّ، قال: حدّثنا حسين بن يزيد، عن شهاب بن عبد ربّه، عن عمرو بن عليّ، قال: مشيتُ مع محمد بن عليّ إلى داره عند الحمّام، فقلت له: إنه قد طال مُلك هشام وسلطانه، وقد قرب من العشرين. وقد زعم الناس أن سليمان سأل ربّه مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فزعم الناس أنها العشرون، فقال: ما أدري ما أحاديث الناس! ولكن أبي حدّثني عن أبيه، عن عليّ، عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لن يعمّر الله مَلِكاً في أمّة نبيّ مضَى قبله ما بلغ بذلك النبيّ من العمر».

وفي هذه السنة ولِّي الخلافة بعد موت هشام بن عبد الملك الوليدُ بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، وليَها يوم السبت في شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة في قول هشام بن محمد الكلبيّ.

وأما محمد بن عمر فإنه قال: استُخلف الوليد بن يزيد بن عبد الملك يوم الأربعاء لست خلْون من شهر

ربيع الآخر من سنة خمس وعشرين ومائة.

وقال في ذلك عليّ بن محمد مثل قول محمد بن عمر.

خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان

ذكر الخبر عن بعض أسباب ولايته الخلافة

قد مضى ذكرى سبب عقد أبيه يزيد بن عبد الملك بن مروان له الخلافةَ بعد أخيه هشام بن عبد الملك؛ وكان الوليدُ بن يزيد يومَ عَقد له أبوه يزيد ذلك ابنَ إحدى عشرة سنة، فلم يُمت يزيد حتى بلغ ابنُه الوليد خمس عشرة سنة، فندِم يزيد على استخلافه هشاماً أخاه بعده؛ وكان إذا نظر إلى ابنه الوليد، قال: الله بيني وبين مَنْ جعل هشاماً بيني وبينك! فتوفِّيَ يزيد بن عبدالملك وابنه الوليد ابن خمس عشرة سنة. وولي هشام وهو للوليد مكرّم معظم مقرّب؛ فلم يزل ذلك من أمرهما حتى ظهر من الوليد بن يزيد مجون وشرب الشراب؛ حمله على ذلك ـ فيما حدّثني أحمد بن زهير، عن عليّ بن محمد، عن جُويرية بن أسماء وإسحاق بن أيوب وعامر بن الأسود وغيرهم ـ عبدُ الصمد بن عبد الأعلى الشّبانيّ أخو عبد الله بن عبد الأعلى وكان مؤدّب الوليد ـ واتّخذ الوليد ندماء، فأراد هشام أن يقطعهم عنه فولاه الحجَّ سنة تسع وعشرة ومائة، فحمل معه كلاباً في صناديق، فسقط منها صندوق ـ فيما ذكر عليّ بن محمد عمّن سميتُ من شيوخه ـ عن البعير وفيه كلب، فأجالوا على الكريّ السِّياط، فأوجعوه ضرباً. وحمل معه قبّة عملها على قدر الكعبة ليضعها على الكعبة، وحمل معه خمراً، وأراد أن ينصب القبّة على الكعبة؛ ويجلس فيها؛ فخوّفه أصحابه وقالوا: لا نأمن الناس عليك وعلينا معك؛ فلم يحرّكها. وظهر للناس منه تهاون بالدين واستخفاف به، وبلغ ذلك هشاماً فطمع في خلعه والبيعة لابنه مسلمة بن هشام، فأراده على أن يخلعها ويبايع لمسلمة؛ فأبى، فقال له: اجعلها له مِنْ بعدك؛ فأبَى، فتنكّر له هشام وأضرّ به، وعمل سرًّا في البيعة لابنه؛ فأجابه قوم. قال: فكان ممّن أجابه خالاه: محمد وإبراهيم ابنا هشام بن إسماعيل المخزوميّ، وبنو القعْقاع بن خليد العبسيّ وغيرهم من خاصّته.

قال: وتمادى الوليدُ في الشراب وطلب اللذات فأفرط، فقال له هشام: ويحك يا وليد! والله ما أدري أعلى الإسلام أنت أم لا! ما تَدع شيئاً من المنكر إلا أتيْتَه غير متحاشٍ ولا مستتر به! فكتب إليه الوليد:

يـأيُّهـا الـسـائـل عـن ديـنِـنـا ... نـحـن عـلـى ديـن أبي شـاكِـر
نـشْـربُهـا صِـرْفـاً وممـزوجـةً ... بـالسُّخْـنِ أحيـانـاً وبـالـفـاتِـر

فغضب هشام على ابنه مسلمة ـ وكان يكنى أبا شاكر ـ وقال له: يعيّرني بك الوليد وأنا أرشّحك للخلافة! فالزم الأدب واحضر الجماعة.

وولّاه الموسم سنة تسع عشرة ومائة، فأظهر النسك والوَقار واللين، وقسم بمكة والمدينة أموالاً، فقال مولى لأهل المدينة:

يـأيّهـا الـسـائـل عـن ديـنِـنـا ... نـحـنُ عـلى ديـن أبي شـاكِـر
الـواهِـب الجُـرْدَ بـأرسـانها ... لـيس بـزِنـدِيـق ولا كـافِـر

يعرّض بالوليد.

وأمّ مسلمة بن هشام أمّ حكيم بنت يحيى بن الحكم بن أبي العاص. فقال الكميت:

إنّ الخلافة كائنٌ أوتادُها ... بعدَ الوليد إلى ابن أمّ حكيم

فقال خالد بن عبد الله القسريّ: أنا بريء من خليفة يكنى أبا شاكر؛ فغضب مسلمة بن هشام على خالد، فلما مات أسد بن عبدالله أخو خالد بن عبدالله، كتب أبو شاكر إلى خالد بن عبدالله بشعر هجا به يحيى بن نوفل خالداً وأخاه أسداً حين مات:

أراحَ مِن خالدٍ وأهلكه ... ربُّ أراح العبادَ مَنْ أسدِ

أمّا أبُوهُ فكان مؤتَشِباً ... عبداً لئيماً لأعْبُد قُفُدِ

وبعث بالطومار مع رسول على البريد إلى خالد؛ فظنّ أنه عزّاه عن أخيه، ففضّ الخاتم، فلم ير في الطُومار غير الهجاء، فقال: ما رأيت كاليوم تعزية!

وكان هشام يعيب الوليدَ ويتنقّصه، وكثُر عبثه به وبأصحابه وتقصيره به، فلمّا رأى ذلك الوليد خرج وخرج معه ناس من خاصّته ومواليه، فنزل بالأزرق؛ بين أرض بَلْقَيْن وفَزارة، على ماء يقال له الأغدف، وخلّف كاتبه عيَاض بن مسلم مولى عبد الملك بن مروان بالرّصافة، فقال له: اكتب إليّ بما يحدث قبلَكم. وأخرج معه عبد الصمد بن عبد الأعلى، فشربوا يوماً أخذ فيهم الشراب، قال الوليد لعبد الصمد: يا أبا وهب، قل أبياتاً، فقال:

ألم تَر لِلنَّجم إذ شُيِّعا ... يُبادِرُ في بُرجِه المَرْجِعا

تحيَّرَ عنْ قَصدِ مَجْراتِهِ ... أتى الغَوْر والتَمس المَطْلَعا

فقلتُ وأعْجبني شأنُهُ ... وقد لاحَ إذ لاحَ لِي مُطمِعا:

لَعلَّ الوليدَ دنا مُلكُهُ ... فأمسى إليه قدِ استُجمعَا

وكنّا نؤمِّلُ في ملكِه ... كتأميلِ ذي الجدْبِ أن يُمْرِعاً

عقَدنا له محْكَمَاتِ الأمو ... رِ طوعاً فكان لها مَوْضِعا

وروى الشعر؛ فبلغ هشاماً، فقطع عن الوليد ما كان يُجرى عليه، وكتب إلى الوليد: بلغني عَنْك أنك اتّخذتَ عبد الصمد خِدناً ومحدّثاً ونديماً، وقد حقّق ذلك عندي ما بلغني عنك، ولم أبرّئك من سوء، فأخرِج عبد الصمد مذموماً مدحوراً. فأخرجه، وقال فيه:

لقد قَذفوا أبا وهْبٍ بأمرٍ ... كبير بل يزيدُ على الكَبيرِ

فأشهَدُ أنهم كَذبوا عليه ... شهادَةَ عالِمٍ بِهِمِ خبيرِ

وكتب الوليد إلى هشام يُعلمه إخراج عبد الصمد، واعتذر اليه مما بلغه من منادمته، وسأله أن يأذن لابن سهيل في الخروج إليه - وكان ابن سهيل من أهل اليمن وقد ولّي دمشق غير مرّة، وكان ابن سهيل من خاصّة الوليد - فضرب هشام بن سُهيل وسيّره، وأخذ عياض بن مسلم كاتب الوليد، وبلغه أنه يكتب بالأخبار إلى الوليد، فضربه ضرباً مبرِّحاً، وألبسه المُسوح. فبلغ الوليد، فقال: مَنْ يثق بالناس، ومن يصطنع المعروف! هذا الأحول المشئوم قدّمه أبي على أهل بيته فصيَّره وليّ عهده، ثم يصنع بي ما ترون؛ لا يعلم أنّ لي في أحد هوًى

إلا عبث به، كتب إليّ أن أخرج عبد الصمد فأخرجتُه إليه، وكتبت إليه أن يأذن لابن سهيل في الخروج إليّ، فضربه وسيَّره، وقد علم رأيي فيه، وقد علم انقطاع عياض بن مسلم إليّ، وتحرّمه بي ومكانه مني وأنه كاتبي، فضربه وحبسه، يضارّني بذلك؛ اللهم أجرني منه! وقال:

أنـا النـذيـرُ لِمسْـدِي نعمـة أبـداً ... إلى المقـاريف مـا لَم يَخبُـرِ الـدَّخَـلا
إن أنْـت أكـرمتُـهمْ ألفَيْتُهـم بُـطُراً ... وإنْ أهَـنْـتُـهُـم ألـفـيـتـهـمْ ذُلُـلا
أتـشمُـخـونَ ومنَّـا رأسُ نعمـتِكـمْ ... سَـتـعـلَمُـونَ إذا كـانـت لـنـا دُوَلا
انـظرْ فـإن كنت لم تَقـدِرْ على مَثَـل ... لـه سـوى الكلب فـاضـربْـه لـه مَثلا
بـينـا يُـسمِّـنُـهُ للصيـدِ صـاحِبُـهُ ... حتى إذ مـا قـوي مِنْ بَعـدِ مـا هُـزِلا
عَـدا عليـه فلم تَـضُـرُرْهُ عَـدْوَتُـهُ ... ولـو أطـاقَ أكـلا لـقـد أكَـلا

وكتب إلى هشام:

لقد بلغني الذي أحدث أمير المؤمنين من قَطْع ما قطع عنّي، ومحو ما محا من أصحابي وحُرَمي وأهلي، ولم أكن أخاف أن يبتليَ الله أمير المؤمنين بذلك ولا أبالي به منه؛ فإن يكن ابن سُهَيل كان منه ما كان فبحسب العيْر أن يكون قدر الذئب؛ ولم يبلغ من صنيعي في ابن سُهيل واستصلاحه، وكتابي إلى أمير المؤمنين فيه كُنْه ما بلغ أمير المؤمنين من قطيعتي؛ فإن يكن ذلك لشيء في نفس أمير المؤمنين عليّ، فقد سبّب الله لي من العهد، وكتب لي من العمر، وقسم لي من الرزق ما لا يقدر أحد دون الله على قطع شيء منه دون مُدّته، ولا صرف شيء عن مواقعه؛ فقدَر الله يجري بمقاديره فيما أحبَّ الناس أو كرهوا، ولا تأخيرَ لعاجله ولا تعجيل لآجله؛ فالناس بين ذلك يقترفون الآثام على نفوسهم من الله، ولا يستوجبون العقوبة عليه؛ وأمير المؤمنين أحقّ أمته بالبصر بذلك والحفظ له، والله الموفّق لأمير المؤمنين بحسن القضاء له في الأمور.

فقال هشام لأبي الزبير: يا نَسطاس، أترى الناس يرضون بالوليد إن حدث بي حدث؟ قال: بل يطيل الله عمرَك يا أمير المؤمنين، قال: ويحك! لا بدّ مَن الموت؛ أفترى الناس يرضَوْن بالوليد؟ قال: يا أمير المؤمنين؛ إنّ له في أعناق الناس بَيْعةً، فقال هشام: لئن رضي الناس بالوليد ما أظنُّ الحديث الذي رواه الناس: « إن من قام بالخلافة ثلاثة أيام لم يدخل النار »، إلا باطلاً.

وكتب هشام إلى الوليد:

قد فهم أمير المؤمنين ما كتبت به من قَطْع ما قَطع عنك وغير ذلك؛ وأمير المؤمنين يستغفر الله من إجرائه ما كان يجري عليك؛ ولا يتخوّف على نفسه اقتراف المآثم في الذي أحدث من قطع ما قطع، ومحو من محا من صحابتك، لأمرين: أمّا أحدُهما فإيثار أمير المؤمنين إياك بما كان يجري عليك؛ وهو يعلم وضعَك له وإنفاقكه في غير سبيله، وأما الآخر فإثبات صحابتك، وإدرار أرزاقهم عليهم؛ لا ينالهم ما ينال المسلمين في كلّ عام من مكروه عند قطع البعوث، وهم معك تجوْل بهم في سَفهك؛ وَلأميرُ المؤمنين أحرى في نفسه للتقصير في القتْر عليك منه للاعتداء عليك فيها؛ مع أن الله قد نصر أمير المؤمنين في قَطْع ما قطع عنك من ذلك ما يرجو به تكفير ما يتخوّف مما سلف فيه منه. وأما ابنُ سُهيل فلعمري لئن كان نزل منك بما نزل، وكان أهلاً أن تُسرَّ فيه أو تساء؛ ما جعله الله كذلك؛ وهل زاد ابنُ سهيل ـ لله أبوك ـ على أن كان مغنياً زفّاناً، قد بلغ في السفه غايته!

وليس ابن سهيل مع ذلك بشرٌ ممَّن تستصحبه في الأمور التي يكرم أمير المؤمنين نفسه عن ذكرها، مما كنتَ لعمر الله أهلاً للتوبيخ به؛ ولئن كان أمير المؤمنين على ظنك به في الحرص على فسادك؛ إنك إذاً لغير آلٍ عن هوى أمير المؤمنين من ذلك.

وأما ما ذكرتَ مما سبَّب الله لك؛ فإن الله قد ابتدأ أمير المؤمنين بذلك، واصطفاه له؛ والله بالغُ أمره. لقد أصبح أمير المؤمنين وهو على اليقين من رّبه؛ أنه لا يملك لنفسه فيما أعطاه من كرامته ضَرًّا ولا نفعاً؛ وإن الله وليّ ذلك منه؛ وإنه لا بدّ من مزايلته؛ والله أرأف بعباده وأرحم من أن يولي أمرهم غير الرضيّ له منهم. وإنّ أمير المؤمنين من حسن ظنه بربّه لعلى أحسن الرّجاء أن يوليه تسبيب ذلك لمن هو أهله في الرضا له به ولهم؛ فإنّ بلاءَ الله عند أمير المؤمنين أعظمُ من أن يبلغه ذكره، أو يؤديه شكره؛ إلا بعون منه؛ ولئن كان قُدِّرَ لأمير المؤمنين تعجيل وفاةٍ، إنّ في الذي هو مفض إليه إن شاء الله من كرامة الله لخَلَفاً من الدنيا. ولعمري إن كتابك إلى أمير المؤمنين بما كتبتَ به لغيرُ مستنكَر من سفهك وحمقك، فاربعَ على نفسك من غُلوائها، وارقأ على ظَلْعك؛ فإن لله سطواتٍ وعيناً؛ يصيب بذلك من يشاءُ، ويأذن فيه لمن يشاء ممن شاء الله؛ وأميرُ المؤمنين يسأل الله العصمة والتوفيق لأحبّ الأمور إليه وأرضاها له.

فكتب الوليد إلى هشام:

رَأيتُـكَ تبْنِي جـاهـداً في قَـطِيعَتِي ... فَلَوْ كنْتَ ذَا إرْبٍ لَهَـدَّمْت مـا تبْنِي
تُثِيـرُ على البـاقِينَ مَـجْنَـى ضَغينـةٍ ... فَـوَيلٌ لهُمْ إنْ مِتُّ مِنْ شَرِّ مـا تجني!
كـأني بهمْ واللَّيْتُ أفْضـلُ قـوْلِـهِمْ ... ألَا لَـيْتَنـا واللَّيْت إذ ذَاكَ لا يُـغْـنِـي
كَفَـرْتَ يَـداً مِنْ مُنْعِمٍ لـو شَكَـرْتَهـا ... جَـزاكَ بها الـرَّحمنُ ذو الفضـل والمنِّ

قال: فلم يزل الوليد مُقيماً في تلك البرِّيَّة حتى مات هشام؛ فلما كان صبيحةُ اليوم الـذي جاءتـه فيه الخلافة، أرسل إلى أبي الزّبير المنذر بن أبي عمرو، فأتاه فقال له: يا أبا الزبير؛ ما أتت عليّ ليلة منذ عقلت عقلي أطولَ من هذه الليلة؛ عرضت لي هموم؛ وحدّثت نفسي فيها بأمور من أمر هذا الرجل؛ الذي قد أولع بي - يعني هشاماً - فاركب بنا نتنفَّس؛ فركبا، فسارا ميلين؛ ووقف على كثيب، وجعل يشكو هشاماً إذ نظر إلىَ رَهج، فقال: هؤلاء رسُل هشام؛ نسأل الله من خيرهم، إذ بدارجلان، على البريد مقبلان؛ أحدهما مولًى لأبي محمد السفيانيّ، والآخر جَرْدَبَة.

فلما قربا أتيا الوليد، فنزلا يعدوَان حتى دنَوَا منه؛ فسلما عليه بالخلافة، فوَجَم، وجعل جردبة يكرّر عليه السلام بالخلافة، فقال: ويحك! أمات هشام! قال: نعم؛ قال فممَّن كتابك؟ قال: من مولاك سالم بن عبد الرحمن صاحب ديوان الرسائل. فقرأ الكتاب وانصرفا، فدعا مولى أبي محمد السُّفيـانيّ، فسألـه عن كاتبـه عياض بن مسلم، فقال: يا أمير المؤمنين؛ لم يزل محبوساً حتى نزل بهشام أمرُ الله. فلما صار في حدّ لا تُرجَى الحياة لمثله أرسل عياض إلى الخُزّان؛ أن احتفظوا بما في أيديكم، فلا يصلنّ أحدٌ منه إلى شيء. وأفاق هشام إفاقةً، فطلب شيئاً فمنعوه فقال: أرانا كنا خُزّاناً للوليد! ومات من ساعته. وخرج عياضٌ من السجن، فختم أبواب الخزائن، وأمر بهشام فأنزِل عن فرشه؛ فما وجدوا له قُمقماً يسخّن له فيه الماء حتى استعاروه، ولا وجدوا كفناً من الخزائن؛ فكفَّنه غالب مولى هشام؛ فكتب الوليد إلى العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان أن يأتيَ

الرُّصافة، فيحصيَ ما فيها من أموال هشام وولده، ويأخذ عمّاله وحشمَه؛ إلا مسلمة بن هشام؛ فإنه كتب إليه ألّا يعرض له، ولا يدخل منزله؛ فإنه كان يكثر أن يكلم أباه في الرّفق به، ويكفُّه عنه. فقدم العباس الرُّصافة فأحكم ما كتب به إليه الوليد؛ وكتب إلى الوليد بأخذ بني هشام وحشمه وإحصاء أموال هشام، فقال الوليد:

لَيْتَ هِشاماً كان حَيًّا يَرَى مِحْلَبَهُ الأوْفرَ قَدْ أُتْرِعا

ويروى:

لَيْتَ هشاماً عاشَ حتى يرى مِكْيالَهُ الأوْفرَ قَدْ طُبِّعا
كِلْناهُ بالصاعِ الذي كالَه وما ظَلَمْناهُ به إصْبَعا
وما أتينا ذاكَ عَنْ بِدعَةٍ أَحَلَّهُ الفُرقانُ لي أجْمَعا

فاستعمل الوليد العمّال، وجاءته بيعته من الآفاق؛ وكتب إليه العمّال، وجاءته الوفود؛ وكتب إليه مروان بن محمد:

بارك الله لأمير المؤمنين فيما أصاره إليه من ولاية عباده، ووراثة بلاده؛ وكان من تَغشّي غَمْرة سكرة الولاية ما حمل هشاماً على ما حاول من تصغير ما عظّم الله من حقّ أمير المؤمنين، ورام من الأمر المستصعَب عليه؛ الذي أجابه إليه المدخولون في آرائهم وأديانهم؛ فوجد ما طمع فيه مستصعباً، وزاحمته الأقدار بأشدّ مناكبها. وكان أمير المؤمنين بمكان من الله حاطه فيه حتى أزّره بأكرم مناطق الخلافة، فقام بما أراه الله له أهلا، ونهض مستقلاً بما حُمِّل منها، مثبتة ولايته في سابق الزُّبُر بالأجل المسمى، وخصّه الله بها على خلْقه وهو يرى حالاتِهم، فقلّده طوقَها، ورمى إليه بأزمّة الخلافة، وعصِم الأمور.

فالحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لخلافته، ووثائق عُرَى دينه، وذبّ له عما كاده فيه الظالمون، فرفعه ووضعهم؛ فمن أقام على تلك الخسِيسة من الأمور أوْبق نفسه، وأسخطَ ربَّه، ومن عدلتْ به التوبة نازعاً عن الباطل حقّ وجد الله توّاباً رحيماً.

أخبِرُ أميرَ المؤمنين أكرمه الله أني عندما انتهى إليّ من قيامه بولاية خلافة الله، نهضتُ إلى منبري؛ عليّ سيفان مستعدًّا بهما لأهلِ الغشّ، حتى أعلمت مَنْ قِبَلي ما امتنّ الله به عليهم من ولاية أمير المؤمنين، فاستبشروا بذلك، وقالوا: لم تأتنا ولاية خليفة كانت آمالنا فيها أعظم ولا هي لنا أسرّ من ولاية أمير المؤمنين؛ وقد بسطتُ يدي لبيعتك فجدّدتها ووكّدتها بوثائق العهود وترداد المواثيق وتغليظ الأيمان، فكلهم حسنت إجابتهم وطاعتُهم، فأثبْهم يا أميرَ المؤمنين بطاعتهم من مال الله الذي آتاك؛ فإنك أجودُهم جوداً وأبسطهم يداً، وقد انتظروك راجين فضلَك قِبَلهم بالرّحم الذي استرحموك، وزدْهم زيادة يفضَل بها مَنْ كان قِبَلك؛ حتى يظهر بذلك فضلُك عليهم وعلى رعيّتك؛ ولولا ما أحاول من سدّ الثغر الذي أنا به، لخفتُ أن يحملني الشوق إلى أمير المؤمنين أن أستخلف رجلاً على غير أمره، وأقدمَ لمعاينة أمير المؤمنين؛ فإنها لا يعدلها عندي عادل نعمة وإن عظمت؛ فإنْ رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في المسير إليه لأشافهه بأمور كرهتُ الكتاب بها فعل.

فلما وليَ الوليد أجرى على زَمْنَي أهل الشأم وعميانهم وكساهم، وأمر لكل إنسان منهم بخادم؛ وأخرج لعيالات الناس الطيبَ والكسوة؛ وزادهم على ما كان يخرج لهم هشام، وزاد الناس جميعاً في العطاء عشرة

عشرة، ثم زاد أهلَ الشأم بعد زيادة العشرات عشرة عشرة؛ لأهل الشأم خاصّة، وزاد مَن وفد إليه من أهل بيته في جوائزهم الضِّعْف، وكان وهو وليّ عهد يُطعِم من وفد إليه من أهل الصائفة قافلاً، ويُطعِم من صدرَ عن الحجّ بمنزل يقال له زِيزاء ثلاثة أيام، ويعلف دوابّهم، ولم يقُل في شيء يُسأله: لا، فقيل له: إن في قولك: أنظُر، عِدَةً ما يقيم عليها الطالب؛ فقال: لا أعوّد لساني شيئاً لم أعتده، وقال:

ضَمِنْتُ لكم إنْ لم تُعْقِني عَوائِقٌ ... بأنَّ سَماءَ الضُرِّ عَنكم سَتُقْلِعُ
سَيُوشِكُ إلحاقٌ مَعاً وزيادةٌ ... وأعطِيَةٌ مِنّي عَليكُمْ تَبَرَّعُ
محرَّمكُمْ دِيوانُكُمْ وعطاؤكُمْ ... بهِ يكْتُبُ الكُتّابُ شَهْراً وتَطبَعُ

وفي هذه السنة عقد الوليد بن يزيد لابنيْه الحكَم وعثمان البَيْعة من بعده، وجعلهما وليّيْ عهده؛ أحدهما بعد الآخر، وجعل الحكم مقدّماً على عثمان، وكتب بذلك إلى الأمصار؛ وكان ممن كتب إليه بذلك يوسف بن عمر، وهو عامل الوليد على العراق، وكتب بذلك يوسف إلى نَصْر بن سيار، وكانت نسخة الكتاب إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم. من يوسف بن عمر إلى نَصْر بن سيّار؛ أما بعد فإني بعثت إليك نسخَة كتاب أمير المؤمنين الذي كتب به إلى مَنْ قِبَلِي في الذي ولّى الحَكَم ابن أمير المؤمنين وعثمان ابن أمير المؤمنين من العهد بعده مع عَقال بن شَبَّة التميميّ وعبد الملك القينيّ، وأمرتهما بالكلام في ذلك؛ فإذا قدما عليك فاجمع لقراءة كتاب أمير المؤمنين الناس، ومُرْهم فليحشُدوا له، وقُمْ فيهم بالذي كتب أمير المؤمنين؛ فإذا فرغت فقم بقراءة الكتاب، وأذن لمن أراد أن يقوم بخطبة، ثم بايع الناس لهما على اسم الله وبركته، وخذ عليهم العهد والميثاق على الذي نسختُ لك في آخر كتابي هذا الذي نسخ لنا أمير المؤمنين في كتابه، فافهمه وبايع عليه، نسأل الله أن يبارك لأمير المؤمنين ورعيّته في الذي قضى لهم على لسان أمير المؤمنين، وأن يصلح الحكَم وعثمان، ويبارك لنا فيهما؛ والسلام عليك.

وكتب النّضْر يوم الخميس للنصف من شعبان سنة خمس وعشرين ومائة.

بسم الله الرحمن الرحيم. تبايع لعبد الله الوليد أمير المؤمنين والحكَم ابن أمير المؤمنين إن كان من بعده وعثمان ابن أمير المؤمنين إن كان بعد الحكم على السمع والطاعة، وإن حدَث بواحد منهما حدث فأميرُ المؤمنين أملك في ولده ورعيته، يقدّم من أحبّ، ويؤخر مَنْ أحبّ. عليك بذلك عهد الله وميثاقه؛ فقال الشاعر في ذلك:

نبايع عُثمانَ بَعْدَ الوَليـ ... ـد لِلعَهْدِ فينا ونرْجُو يَزيدا
كما كانَ إذ ذاكَ في ملكهِ ... يَزيدُ يُرَجِّي لذاكَ الوَليدا
عَلَى أنَّها شَسَعَتْ شَسْعَةً ... فنَحْنُ نومِّلُها أن تَعُودا
فإنْ هِيَ عَادَت فأرْض القَريـ ... ـب عنها لِيؤيِسَ منها البَعِيدا

قال أحمد: قال عليّ عن شيوخه الذين ذكرت: فقدِم عقّال بن شبّة وعبد الملك بن نُعيم على نَصْر، وقدما بالكتاب وهو:

أما بعدُ؛ فإنّ الله تباركتْ أسماؤه، وجلّ ثناؤه، وتعالى ذكره، اختار الإسلام ديناً لنفسه؛ وجعله دين

خيرته من خَلْقه، ثم اصطفى من الملائكة رُسُلاً ومن الناس؛ فبعثهم به، وأمرهم به؛ وكان بينهم وبين مَن مضى من الأمم، وخلا من القرون قَرْناً فقرْناً؛ يدعون إلى التي هي أحسن، ويهدون إلى صراط مستقيم؛ حتى انتهت كرامة الله في نبوّته إلى محمد صلوات الله عليه؛ على حين دُروسٍ من العلم، وعمًى من الناس، وتشتيت من الهوى، وتفرّقٍ من السُبل، وطموسٍ من أعلام الحقّ؛ فأبان الله به الهُدَى، وكشف به العمى، واستنقذ به من الضلالة والرّدَى، وأبهج به الدين، وجعله رحمةً للعالمين، وختم به وحَيه، وجمع له ما أكرم به الأنبياء قبله؛ وقفّى به على آثارهم؛ مصدّقاً لما نزل معهم، ومهيمناً عليه، وداعياً إليه، وآمراً به؛ حتى كان مَنْ أجابه من أمته، ودخل في الدين الذي أكرمهم الله به، مصدّقين لما سلف من أنبياء الله فيما يكذّبهم فيه قومُهم، منتصحين لهم فيما يُنهوْنه، ذابّين لحُرمهم عما كانوا منتهكِين؛ معظِّمين منها لما كانوا مصغّرين؛ فليس من أمة محمد ﷺ أحدٌ كان يسمع لأحد من أنبياء الله فيما بعثه الله به مكذباً، ولا عليه في ذلك طاعناً، ولا له مؤذياً، بتسفيهٍ له، أو ردٍّ عليه؛ أو جحْد ما أنزل الله عليه ومعه، فلم يبقَ كافر إلا استحلّ بذلك دَمه، وقطع الأسباب التي كانت بينه وبينه؛ وإن كانوا آباءهم أو أبناءهم أو عشيرتَهم. ثم استخلف خلفاءه على منهاج نبوّته؛ حين قبض نبيَّه ﷺ، وختَم به وحَيه لإنفاذ حكمه، وإقامة سنّته وحدوده، والأخذ بفرائضه وحقوقه، تأييداً بهم للإسلام، وتشييداً بهم لعُرَاه، وتقويةً بهم لقوى حبله، ودفعاً بهم عن حريمه، وعَدْلاً بهم بين عباده، وإصلاحاً بهم لبلاده؛ فإنه تبارك وتعالى يقول: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ولٰكِنَّ آللهَ ذُو فَضلٍ علَى العَالمِين ﴾[1]، فتتابع خلفاء الله على ما أورثهم الله عليه من أمرِ أنبيائه، واستخلفهم عليه منه؛ لا يتعرّض لحقهم أحد إلا صرَعه الله، ولا يفارق جماعتهم أحدٌ إلاّ أهلكه الله؛ ولا يستخفّ بولايتهم، ويتّهم قضاء الله فيهم أحدٌ إلا أمكَنهم الله منه، وسلّطهم عليه، وجعله نكالا وموعظة لغيره؛ وكذلك صنع الله بمن فارقَ الطاعة التي أمر بلزومها والأخذ بها، والأثرة لها؛ والتي قامت السموات والأرض بها، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لهَا وَلِلْأَرْضِ آئتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعين ﴾[2]، وقال عزّ ذكره: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٍ فِي الأَرْضِ خلِيفةً قَالوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فيهَا وَيَسْفِك الدمَاءَ وَنحْن نُسَبِّحُ بِحَمْدكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُون ﴾[3].

فبالخلافة أبقى الله مَنْ أبقى في الأرض من عباده، وإليها صيّره، وبطاعة مَنْ ولاّه إياها سعد من ألهمها ونصرها؛ فإن الله عزّ وجلّ علم أنْ لا قوام لشيء، ولا صلاح له إلا بالطاعة التي يحفظ الله بها حقه، ويُمضي بها أمره، ويُنْكِل بها عن معاصيه، ويوقف عن محارمه، ويذبّ عن حُرماته؛ فمن أخذ بحظه منها كان لله وليًّا ولأمره مطيعاً، ولرشده مصيباً، ولعاجل الخير وآجله مخصوصاً؛ ومَن تركها ورغب عنها وحادّ الله فيها أضاع نصيبَه، وعصى ربّه، وخسر دنياه وآخرته؛ وكانَ ممن غلبت عليه الشِّقْوة، واستحوذت عليه الأمور الغاوية، التي تورد أهلها أفظَع المشارع، وتقودهم إلى شرّ المصارع، فيما يحلّ الله بهم في الدنيا من الذلة والنقمة، ويصيّرهم فيما عندهم من العذاب والحسْرة.

والطاعة رأس هذا الأمر وذِرْوته وسنامه ومِلاكه وزمامه، وعصمته وقوامه، بعد كلمة الإخلاص التي ميّز

---

(١) سورة فصلت: ١١.
(٢) سورة البقرة: ٢٥١.
(٣) سورة البقرة: ٣٠.

الله بها بين العباد. وبالطاعة نال المفلحون من الله منازلهم، واستوجبوا عليه ثوابهم، وفي المعصية مما يحلّ بعيرهم من نقماته، ويصيبهم عليه، ويحقّ من سخطه وعذابه، ويترك الطاعة والإضاعة لها والخروج منها والإدبار عنها والتبذّل للمعصية لا بها، أهلك الله مَن ضلّ وعَتا، وعمى وغلا، وفارق مناهج البرّ والتقوى.

فالزموا طاعة الله فيما عَراكم ونالكم؛ وألَمّ بكم من الأمور، وناصحوها واستوثقوا عليها، وسارعوا إليها وخالصوها، وابتغوا القُرْبة إلى الله بها؛ فإنكم قد رأيتم مواقع الله لأهلها في إعلائه إياهم، وإفلاجه حجّتهم، ودفعه باطل مَنْ حادّهم وناوأهم وساماهم، وأراد إطفاء نور الله الذي معهم. وخُبرّتُم مع ذلك ما يصير إليه أهل المعصية من التّوبيخ لهم والتقصير بهم؛ حتى يؤولَ أمرُهم إلى تبار وصغار وذلة وبوار، وفي ذلك لمن كان له رأي وموعظة وعبرة يُنتفع بواضحها، ويتمسَّك بخظوتها؛ ويعرف خيرة قضاء الله أهلها.

ثم إن الله - وله الحمد والمنّ والفضل - هدى الأمة لأفضل الأمور عاقبةً لها في حَقْن دمائها، والتئام ألفتها، واجتماع كَلِمتها، واعتدال عَمُودها، وإصلاح دهمائها؛ وذخر النعمة عليها في دنياها، بعد خلافَتِه التي جعلها لهم نظاماً، ولأمرهم قَواماً؛ وهو العهد الذي ألهم اللهُ خلفاءه توكيدَه والنظر للمسلمين في جسيم أمرهم فيه؛ ليكون لهم عند ما يحدث بخلفائهم ثقةً في المفزع وملتجأ في الأمر، ولَمًّا للشَّعَث، وصلاحاً لذات البَيْنِ، وتثبيتاً لأرجاء الإسلام؛ وقطعاً لنزغات الشيْطان؛ فيما يتطلع إليه أولياؤه، ويُوثبهم عليه من تَلف هذا الدين وانصداع شَعْب أهله، واختلافهم فيما جمعهم الله عليه منه؛ فلا يريهم الله في ذلك إلّا ما ساءهم، وأكذب أمانيّهم، ويجدون الله قد أحكم بما قضى لأوليائه من ذلك عُقَد أمورهم، ونفى عنهم من أراد فيها إدغالاً أو بها إغلالا، أو لما شدّد الله منها توهيناً، أو فيما تولّى الله منها اعتماداً، فأكمل الله بها لخلفائه وحِزْبه البَرّ الذين أودعهم طاعته أحسن الذي عوّدَهم، وسبّب لهم من إعزازه وإكرامه وإعلائه وتمكينه، فأمر هذا العهد من تمام الاسلام، وكما استوجب الله على أهله من المنَن العظام؛ ومما جعل الله فيه لمن أجراه على يديْه، وقضى به على لسانه، ووفّقه لمن ولاّه هذا الأمر عنده أفضل الذُّخر؛ وعند المسلمين أحسن الأثر فيما يؤثر بهم من منفعته، ويتّسع لهم من نعمته، ويستندون إليه من عِزّه، ويدخلون فيه من وزره الذي يجعل الله لهم به مَنعة، ويحرزهم به من كلّ مهلَكة، ويجمعهم به من كلّ فُرقة، ويقمع به أهل النّفاق، ويعصِمهم به من كلّ اختلاف وشقاق. فاحمَدوا الله ربّكم الرؤوف بكم، الصانع لكم في أموركم على الذي دلّكم عليه من هذا العهد، الذي جعله لكم سكناً ومعوّلاً تطمئنون إليه، وتستظلون في أفنانه؛ ويستنهج لكم به مَثْنَى أعناقكم، وَسِمات وجوهكم، وملتَقى نواصيكم في أمر دينكم ودنياكم؛ فإنّ لذلك خطراً عظيماً من النعمة؛ وإنّ فيه من الله بلاء حسناً في سعة العافية؛ يعرفه ذوو الألباب والنيات المريئّون من أعمالهم في العواقب، والعارفون منارَ مناهج الرّشد؛ فأنتم حقيقون بشكْر الله فيما حفظ به دينكم وأمر جماعتكم من ذلك، جديرون بمعرفة كنه واجب حقه فيه، وحمده على الذي عزم لكم منه؛ فلتكن منزلة ذلك منكم، وفضيلته في أنفسكم على قَدْر حسن بلاء الله عندكم فيه إن شاء الله، ولا قوّة إلا بالله.

ثم إنّ أمير المؤمنين لم يكن منذ استخلفه الله بشيء من الأمور أشدَّ اهتماماً وعنايةً منه بهذا العهد؛ لعلمه بمنزلته من أمر المسلمين، وما أراهم الله فيه من الأمور التي يغتبطون بها، ويكرمهم بما يقضي لهم ويختار له ولهم فيه جهده؛ ويستقضي له ولهم فيه إلهه ووليّه؛ الذي بيده الحكْم وعند الغيب، وهو على كل شيء قدير. ويسأله أن يعينه من ذلك على الذي هو أرشد له خاصة وللمسلمين عامّة.

فرأى أمير المؤمنين أن يعهَد لكم عهداً بعد عهد، وتكونون فيه على مثل الذي كان عليه من كان قبلكم، في مُهْلة من انفساح الأمل وطُمأنينة النفس، وصلاح ذات البين؛ وعِلْم موضع الأمر الذي جعله الله لأهله عصمةً ونجاةً وصلاحاً وحياة، ولكل منافق وفاسق يحبّ تلف هذا الدّين وفساد أهله وقْماً وخساراً وقَدْعاً. فولّى أمير المؤمنين ذلك الحكَم ابن أمير المؤمنين، وعثمان ابن أمير المؤمنين من بعده، وهما ممّن يرجو أمير المؤمنين أن يكون الله خلقه لذلك وصاغه، وأكمل فيه أحسنَ مناقب من كان يوليه إياه، في وفاء الرّأي وصحة الدين، وجزالة المروءة والمعرفة بصالح الأمور، ولم يألُكم أمير المؤمنين ولا نفسه في ذلك اجتهاداً وخيراً.

فبايعوا للحكَم ابن أمير المؤمنين باسم الله وبركتِه ولأخيه من بعده؛ على السمع والطاعة، واحتسبوا في ذلك أحسَن ما كان الله يُريكم ويبليكم ويعوّدكم ويعرّفكم في أشباهه فيما مضى، من اليسر الواسع والخير العام، والفضل العظيم الذي أصبحتم في رَجائه وخفضه وأمنه ونعمته، وسلامته وعصمته. فهو الأمر الذي استبطأتموه واستسرعتم إليه، وحمدتم الله على إمضائه إياه، وقضائه لكم، وأحدثتم فيه شكراً، ورأيتموه لكم حظًّا، تستبقونه وتجهدون أنفسكم في أداء حقّ الله عليكم، فإنه قد سبق لكم في ذلك من نِعَم الله وكرامته وحسن قَسْمه ما أنتم حقيقون أن تكون رغبتكم فيه، وحَدَبكم عليه، على قَدْر الذي أبلاكم الله، وصنع لكم منه.

وأمير المؤمنين مع ذلك إن حدث بواحد من وليّيْ عهده حَدَثٌ، أوْلَى بأن يجعل مكانه وبالمنزل الذي كان به أحبَّ أن يجعل من أمته أو ولده، ويقدّمه بين يدي الباقي منهما إن شاء، أو أن يؤخره بعده. فاعلموا ذلك وافهموه.

نسأل الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم أن يبارك لأمير المؤمنين ولَكُم في الذي قضى به على لسانه من ذلك وقدّر منه؛ وأن يجعل عاقبته عافيةً وسروراً وغبطة؛ فإن ذلك بيده ولا يملكه إلا هُوَ، ولا يرغب فيه إلا إليه، والسلام عليكم ورحمة الله.

وكتب سَمَال يوم الثلاثاء لثمان بقين من رجب سنة خمس وعشرين ومائة.

وفي هذه السنة ولّى الوليدُ نصرَ بن سيَّار خراسان كلها، وأفرده بها.

وفيها وفد يوسف بن عمر على الوليد، فاشترى نصراً وعماله منه، فردّ إليه الوليد ولاية خراسان.

وفي هذه السنة كتب يوسف بن عمر إلى نصر بن سيَّار يأمره بالقدوم عليه، ويحمل معه ما قدَر عليه من الهدايا والأموال.

ذكر الخبر عما كان من أمر يوسف ونصر في ذلك:

ذكر عليّ عن شيوخه؛ أن يوسف كتب إلى نَصْر بذلك، وأمرَه أن يقدَم معه بعياله أجمعين، فلما أتى نصراً كتابه، قسّم على أهل خراسان الهدايا وعلى عُمّاله، فلم يدعْ بخُراسان جاريةً ولا عبداً ولا بِرذَوْناً فارهاً إلا أعدَّه، واشترى ألف مملوك، وأعطاهم السلاح، وحملهم على الخيل.

قال: وقال بعضهم: كان قد أعدَّ خمسمائة وَصيفة، وأمر بصنعة أباريق الذّهب والفِضّة وتماثيل الظباء ورؤوس السّباع والأيايل وغير ذلك؛ فلما فرغ من ذلك كله كتب إليه الوليد يستحثّه، فسرّح الهدايا حتى بلغ أوائلها بَيْهق؛ فكتب إليه الوليد يأمره أن يبعث إليه ببرابط وطنابير، فقال بعض شعرائهم:

فـأَبْشِرْ يـا أمـينَ الـلـ ـهِ أَبشِرْ بـتَـبـاشِـيرْ
بـإبْـلٍ يُـحْـمَـلُ الـمـالُ عـلـيـهـا كـالأنـابـيـرْ
بـغـالٌ تَـحْـمـلُ الـخـمـرَ حَـقـائِـبـهـا طَـنـابِـيـرْ
ودَلُّ الـبَـرْبَـرِيَّـاتِ بِـصَـوتِ الـبَـمِّ والـزيـرْ
وَقَـرْعُ الـدُّفِّ أحـيـانـا وَنَـفْـخٌ بـالـمـزامِـيـرْ
فـهـذا لـك فـي الـدنـيـا وفـي الـجَـنَّـةِ تَـحْـبِـيـرْ

قال: وقدم الأزرق بن قرّة المِسمَعيُّ من الترِّمذ أيام هشام على نصر، فقال لنصر: إني أريتُ الوليد بن يزيد في المنام؛ وهو وليّ عهد، شبه الهارب من هشام، ورأيته على سرير، فشرب عسلا وسقاني بعضَه. فأعطاه نصر أربعة آلاف دينار وكُسوة، وبعثه إلى الوليد، وكتب إليه نصر. فأتى الأزرقُ الوليد، فدفع إليه المال والكسوة، فسُرّ بذلك الوليد، وألطف الأزرق، وجزى نصراً خيراً، وانصرف الأزرق، فبلغه قبل أن يصل إلى نَصْر موتُ هشام، ونصر لا علَم له بما صنع الأزرق، ثم قدم عليه فأخبره؛ فلمّاولِّي الوليدُ كتب إلى الأزرق وإلى نصر، وأمر رسوله أن يبتدىء بالأزرق فيدفع إليه كتابه، فأتاه ليلا، فدفع إليه كتابه وكتاب نصر، فلم يقرأ الأزرق كتابه، وأتى نصراً بالكتابين؛ فكان في كتاب الوليد إلى نصر يأمره أن يتّخذ له برابط وطنابير وأباريق ذهب وفضة، وأن يجمع له كلَّ صَنّاجة بخراسان يقدر عليها، وكلَّ بازي وبِرْذون فاره، ثم يسير بذلك كله بنفسه في وجوه أهل خراسان. فقال رجل من باهلة: كان قوم من المنجّمين يُخبرون نصراً بفتنةٍ تكون؛ فبعث نصر إلى صدقة بن وَثّاب وهو ببلْخ ـ وكان منجماً ـ وكان عنده ـ وألحَّ عليه يوسف بالقدوم؛ فلم يزل يتباطأ، فوجّه يوسف رسولاً وأمره بلزومه يستحثه بالقدوم، أو ينادي في الناس أنه قد خَلَع؛ فلما جاءه الرسول أجازه وأرضاه، وتحوّل إلى قصره الذي هو دار الإمارة اليوم؛ فلم يأت لذلك إلا يسير حتى وقعت الفتنة، فتحوّل نصر إلى قصره بماجان، واستخلف عصمة بن عبد الله الأسديّ على خُراسان، وولّى المهلبَ بن إياس العدويّ الخراج، وولّى موسى بن ورقاءَ الناجيّ الشاشَ، وحسان من أهل صَغَانِيَان الأسديَّ سَمرْقند، ومُقاتل بن عليّ السُّغديَّ آمُل، وأمرهم إذا بلغهم خروجُه من مَرْو أن يستحلبوا الترك، وأن يغيروا على ما وراء النهر، لينصرف إليهم بعد خروجه، يعتدُّ بذلك، فبينا هو يسير يوماً إلى العراق طَرَقه ليلاً مولًى لبني لَيث؛ فلمّا أصبح أذِن للناس، وبعث إلى رسل الوليد؛ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: قد كان في مسيري ما قد علمتُم، وبعثي بالهدايا ما رأيتم؛ فطرَقني فلان ليلاً، فأخبرني أنّ الوليد قد قُتل، وأن الفتنة قد وقعت بالشأم؛ وقدم منصور بن جمهور العراق، وقد هرب يوسف بن عمر، ونحن في بلاد قد علمتم حالَها وكثرة عدوّنا. ثم دعا بالقادم فأحلفه أنّ ما جاء به لحقّ! فحلف، فقال سلْم بن أحوز: أصلح الله الأمير، لو حَلفتُ لكنت صادقاً؛ إنه بعض مكايد قريش، أرادوا تهجين طاعتِك، فسِرْ ولا تهجّنّا. قال: يا سلم أنتَ رجل لك علم بالحروب، ولك مع ذلك حسن طاعة لبني أمية؛ فأمّا مثل هذا من الأمور فرأيك فيه رأي أمَة هتماء.

ثم قال نصر: لم أشهد بعد ابن خازم أمراً مفظعاً إلاّ كنتُ المفزِعَ في الرأي؛ فقال الناس: قد علمنا ذلك، فالرأي رأيك.

وفي هذه السنة وجّه الوليد بن يزيد خاله يوسف بن محمد بن يوسف الثقفيّ والياً على المدينة ومكة والطائف، ودفع إليه إبراهيم ومحمد ابني هشام بن إسماعيل المخزومي موثَقَيْن في عباءتين، فقدم بهما المدينة يوم

السبت لأثنتي عشرة بقيت من شعبان سنة خمس وعشرين ومائة، فأقامهما للناس بالمدينة. ثم كتب الوليد إليه يأمره أن يبعث بهما إن يوسف بن عمر، وهو يومئذ عامله على العراق؛ فلما قدم عليه عذّبهما حتى قتَلهما؛ وقد كان رُفع عليهما عند الوليد أنهما أخذا مالاً كثيراً.

وفي هذه السنة عَزل يوسف بن محمد بن سعد بن إبراهيم عن قضاء المدينة، وولاهما يحيى بن سعيد الأنصاريّ.

وفيها غزا الوليد بن يزيد أخاه الغَمْر بن يزيد بن عبد الملك، وأمّر على جيش البحر الأسودَ بن بلال المحاربيّ، وأمره أن يسير إلى قبرس فيخيّرهم بين المسير إلى الشأم إن شاؤوا، وإن شاؤوا إلى الروم، فاختارت طائفة منهم جوار المسلمين، فنقلهم الأسود إلى الشأم؛ واختار آخرون أرض الروم فانتقلوا إليها.

وفيها قدم سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم ولاهز بن قُريظ وقحطبة بن شبيب مكة، فلقوا - في قول أهل السيرَ - محمد بن عليّ فأخبروه بقصّة أبي مسلم وما رأوْا منه؛ فقال لهم: أحرٌّ هو أم عبد؟ قالوا: أما عيسى فيزعم أنّه عبد، وأما هو فيزعم أنه حرٌّ، قال: فاشتروْه وأعتقوه؛ وأعطوا محمد بن عليّ مائتي ألف درهم وكسوة بثلاثين ألف درهم، فقال لهم: ما أظنّكم تلقوني بعد عامي هذا، فإن حَدَث بي حدث فصاحبكم إبراهيم بن محمد، فإني أثق به وأوصيكم به خيراً، فقد أوصيته بكم. فصدروا من عنده.

وتوفِّي محمد بن عليّ في مستهلّ ذي القعدة وهو ابن ثلاث وستين سنة؛ وكان بين وفاته وبين وفاة أبيه عليّ سبع سنين.

وحجّ بالناس في هذه السنة يوسف بن محمد بن يوسف الثقفيّ، حدثني بذلك أحمد بن ثابت، عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر.

وفي هذه السنة قتل يحيى بن زيد بن عليّ بخُراسان.

ذكر الخبر عن مقتله:

قد مضى ذكرُنا قبلُ أمرَ مصير يحيى بن زيد بن عليّ إلى خراسان. وسبب ذلك؛ ونذكر الآن سببَ مقتله؛ إذ كان ذلك في هذه السنة.

ذكر هشام بن محمد الكلبيّ عن أبي مخنف، قال: أقام يحيى بن زيد بن عليّ الحَريش بن عمرو بن داود ببَلْخ حتى هلك هشام بن عبد الملك، وولى الوليد بن يزيد بن عبد الملك. فكتب يوسف بن عمر إلى نَصْر بن سيّار بمسير يحيى بن زيد وبمنزله الذي كان ينزل؛ حتى أخبره أنه عند الحَريش، وقال له: ابعث إليه وخُذْه أشدّ الأخذ. فبعث نصر بن سيّار إلى عَقِيل بن معقِل العجليّ، يأمره أن يأخذ الحريش ولا يفارقه حتى تزهق نفسه أو يأتيه بيحيى بن زيد بن عليّ. فبعث إليه عقيل، فسأله عنه، فقال: لا عِلْمَ لي به، فجلده ستمائة سَوْط، فقال له الحَريش: والله لو أنه كان تحت قدميّ ما رفعتُهما لك عنه؛ فلما رأى ذلك قُرَيش بن الحَريش أتى عَقِيلا، فقال: لا تقتل أبي وأنا أدلك عليه، فأرسل معه فدلّه عليه، وهو في بيت في جوف بيت، فأخذه ومعه يزيد بن عمر والفضل مولى عبد القيس - كان أقبل معه من الكوفة - فأتى به نصر بن سيّار فحبسه، وكتب إلى يوسف بن عمر يخبره؛ فكتب بذلك يوسف إلى الوليد بن يزيد، فكتب الوليد لى نصر بن سيّار، يأمره أن يؤمِنه ويخلّي سبيله

وسبيل أصحابه، فدعاه نصر بن سيَّار، فأمره بتقوى الله وحذَّره الفتنة، وأمره أن يلحق بالوليد بن يزيد، وأمر له بألفي درهم وبغلين، فخرج هو وأصحابه حتى انتهى إلى سَرَخْس، فأقام بها وعليها عبد الله بن قيس بن عُبَاد، فكتب إليه نصر بن سيّار أن يشخصه عنها، وكتب إلى الحسن بن زيد التميميّ، وكان رأس بني تميم، وكان على طُوس - أن انظر يحيى بن زيد، فإذا مرّ بكم فلا تَدَعه يقيم بطوس حتى يخرج منها، وأمرهما إذا هو مرّ بهما ألاّ يُفارقاه حتى يدفعاه إلى عمرو بن زرارة بـأبْرَشهـر. فأشخصـه عبد الله بن قيس من سـرخْس، ومرّ بالحسن بن زيد فأمره أن يمضي، ووكّل به سرحان بن فرُّوخ بن مجاهد بن بلعاء العنبريّ أبا الفضل، وكان على مَسْلحة.

قال: فدخلتُ عليه، فذكر نصرَ بن سيّار وما أعطاه؛ فإذا هو كالمستقلّ له؛ فذكر أمير المؤمنين الوليد بن يزيد، فأثنى عليه، وذكر مجيئه بأصحابه معه، وأنه لم يأت بهم إلا مخافة أن يُسَمَّ أو يُغَمَّ، وعرَّض بيوسف؛ وذكر أنه إياه يتخوَّف، وقد كان أراد أن يقع فيه ثم كفّ، فقلت له: قُل ما أحببت رحمك الله؛ فليس عليك مني عين؛ فقد أوتِيَ إليك ما يستحقّ أن تقول فيه. ثم قال: العجَب من هذا الذي يقيم الأحراس أو أمر الأحراس، قال - وهو حينئذ يتفصّح: والله لو شئتُ أن أبعث إليه؛ أوتَى به مربوطاً. قال: فقلتُ له: لا والله ما بك صُنع هذا؛ ولكن هذا شيء يصنع في هذا المكان أبداً، لمكان بيت المال. قال: واعتذرتُ إليه من مسيري معه، وكنت أسير معه على رأس فرْسخ، فأقبلنا معه حتى وقعنا إلى عمرو بن زُرارة، فأمر له بألف دِرهم، ثم أشخصه حتى انتهى إلى بَيْهق، وخاف اغتيال يوسف إياه، فأقبل من بَيْهق - وهي أقصى أرض خراسان، وأدناه من قُومِس - فأقبل في سبعين رجلا إلى عمرو بن زرارة، ومرّ به تجار، فأخذ دوابّهم، وقال: علينا أثمانها. فكتب عمرو بن زرارة إلى نصر بن سيار، فكتب نصر إلى عبد الله بن قيس وإلى الحسن بن زيد أن يمضيا إلى عمرو بن زرارة، فهو عليهم، ثم ينصبوا ليحيى بن زيد فيقاتلوه. فجاؤوا حتى انتهوْا إلى عمرو بن زرارة، واجتمعوا فكانوا عشرة آلاف، وأتاهم يحيى بن زيد؛ وليس هو إلاّ في سبعين رجلاً، فهزمهم وقتل عمرو بن زرارة، وأصاب دوابّ كثيرة، وجاء يحيى بن زيد حتى مرّ بهرَاة، وعليها مغلّس بن زياد العامريّ، فلم يعرض واحد منهما لصاحبه، فقطعها يحيى بن زيد، وسرّح نصر بن سيَّار سلم بن أحوز في طلب يحيى بن زيد، فأتى هَرَاة حين خرج منها يحيى بن زيد فأتبعه فلحقه بالجوزجان بقرية منها، وعليها حماد بن عمرو السُّغديّ.

قال: ولحق بيحيى بن زيد رجل من بني حنيفة يقال له أبو العجلان، فقتِـل يومئـذ معه، ولحق بـه الحَسْحاس الأزديّ فقطع نصر بعد ذلك يدَه ورجله.

قال: فبعث سلم بن أحوز سَوْرة بن محمد بن عزيز الكنديّ على ميمنته، وحمّاد بن عمرو السغديّ على ميسرته، فقاتله قتالاً شديداً، فذكروا أن رجلاً من عَنَزة يقال له عيسى، مولى عيسى بن سليمان العَنَزيّ رماه بنُشَّابة، فأصاب جبهته.

قال: وقد كان محمد شهد ذلك اليوم، فأمره سلم بتعبئة الناس، فتمارض عليه، فعبّى الناس سوْرة بن محمد بن عزيز الكنديّ، فاقتتلوا فقُتلوا من عند آخرهم. ومرّ سوْرة بيحيى بن زيد فأخذ رأسه، وأخذ العَنَزيّ سلَبه وقميصَه وغلبه سوْرة على رأسه.

فلما قتل يحيى بن زيد وبلغ خبرُه الوليد بن يزيد، كتب - فيما ذكر هشام عن موسى بن حبيب؛ أنه حدثه -

إلى يوسف بن عمر: إذا أتاك كتابي هذا، فانظر عجل العراق فأحرقه ثم انسفه في اليمّ نسفاً. قال: فأمر يوسف خراش بن حوشب، فأنزله من جِذْعه وأحرقه بالنار، ثم رضّه فجعله في قَوْصرة، ثم جعله في سفينة، ثم ذرّاه في الفرات.

وكانت عمَّال الأمصار في هذه السنة عمالها في السنة التي قبلها، وقد ذكرناهم قبل.

ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث الجليلة

فمن ذلك ما كان من قتل يزيد بن الوليد الذي يقال له الناقص الوليدَ بن يزيد.

ذكر الخبر عن سبب قتله إياه وكيف قُتِل:

قد ذكرنا بعض أمر الوليد بن يزيد وخلاعته ومجانته، وما ذكر عنه من تهاونه واستخفافه بأمر دينه قبل خلافته ولما ولِّي الخلافة وأفضت إليه، لم يزدد في الذي كان فيه من اللهو واللذة والركوب للصيد وشرب النبيذ ومنادمة الفسّـاق إلا تمادياً وحدًّا ـ تركت الأخبار الواردة عنه بذلك كراهة إطالة الكتاب بذكرها ـ فثقل ذلكَ من أمره على رعيته وجنده، فكرهوا أمرَه.

وكان من أعظم ما جنى على نفسه حتى أورثه ذلك هلاكه إفساده على نفسه بني عمّيه بني هشام وولد الوليد، ابني عبد الملك بن مروان، مع إفساده على نفسه اليمانيَة، وهم عُظْم جند أهل الشأم.

ذكر بعض الخبر عن إفساده بني عمّيه هشام والوليد:

حدثني أحمد بن زهير، قال: حدّثنا عليّ، عن المنهال بن عبد الملك، قال: كان الوليد صاحبَ لهو وصيد ولذَّات؛ فلما ولي الأمر جعل يكره المواضع التي فيها الناس حتى قُتل؛ ولم يزل ينتقل ويتصيد، حتى ثقل على الناس وعلى جنده، واشتدّ على بني هشام؛ فضرَب سليمان بن هشام مائة سوط وحلَق رأسه ولحيته، وغرّبه إلى عَمّان فحبسه بها؛ فلم يزل بها محبوساً حتى قتل الوليد. قال: وأخذ جارية كانت لآل الوليد، فكلّمه عمر بن الوليد، فيها فقال: لا أردّها، فقال: إذن تكثر الصّواهل حول عسكرك. قال: وحبس الأفقم يزيدَ بن هشام، وأراد البيعة لابنيْه الحكَم وعثمان فشاور سعيد بن بَيْهس بن صُهيب، فقال: لا تفعل؛ فإنهما غلامان لم يحتلما؛ ولكن بايع لعَتيق بن عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك فغضب وحبسه حتى مات في الحبس. وأراد خالدَ بن عبدالله على البَيْعة لابنيه فأبى، فقال له قوم من أهله: أرادك أمير المؤمنين على البَيْعة لابنيه فأبيتَ، فقـال: ويحكم! كيف أبايع مَنْ لا أصلّي خلفه، ولا أقبل شهادته! قالوا: فالوليد تُقبل شهادته مع مُجونه وفسقه! قال: أمْر الوليد أمر غائب عني ولا أعلمه يقيناً؛ إنما هي أخبر الناس؛ فغضب الوليد على خالد.

قال: وقال عمرو بن سعيد الثقفيّ: أوفدني يوسف بن عمر إلى الوليد فلما قدمتُ قال لي: كيف رأيتَ الفاسقَ؟ يعني بالفاسق الوليد ـ ثم قال: إياك أن يسمع هذا منك أحدٌ، فقلت: حبيبة بنت عبد الرحمن بن جُبير طالق إن سمعتْه أذني ما دمتَ حيًّا؛ فضحك. قال: فثقل الوليدِ على الناس، ورماه بنو هشام وبنو الوليد بالكُفر

وغشيان أمّهات أولاد أبيه، وقالوا: قد اتخذ مائة جامعة؛ وكتب على كلّ جامعة اسمَ رجل من بني أمية ليقتلَه بها. ورموْه بالزّندقة؛ وكان أشدّهم فيه قولاً يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وكان الناسُ إلى قوله أميل؛ لأنه كان يُظهر النسك ويتواضع، ويقول: ما يسعنا الرضَا بالوليد؛ حتى حمل الناس على الفَتْك به.

حدّثني أحمد بن زهير، قال: حدّثنا عليّ، عن يزيد بن مصَاد الكلبيّ، عن عمرو بن شَراحيل، قال: سيّرنا هشام بن عبد الملك إلى دَهْلك؛ فلم نزل بها حتى مات هشام، واستُخلف الوليد، فكُلّم فينا فأبى، وقال: والله ما عمل هشام عملاً أرْجَى له عندي أن تناله المغفرة به من قَتْله القَدَريّة وتسييره إياهم. وكان الوالي علينا الحجاج بن بشر بن فيروز الديلميّ، وكان يقول: لا يعيش الوليد إلا ثمانية عشر شهراً حتى يقتل؛ ويكون قتلُه سبب هلاك أهل بيته. قال: فأجمع على قتل الوليد جماعة من قُضاعة واليمانيَة من أهل دمشق خاصّة، فأتى حُرَيث وشبيب بن أبي مالك الغسانيّ ومنصور بن جُمْهُور ويعقوب بن عبد الرحمن وحِبَال بن عمرو؛ ابن عمّ منصور، وحميد بن نصر اللخميّ والأصبغ بن ذؤالة وطُفيل بن حارثة والسَّريّ بن زياد بن عِلاَقة، خالدَ بن عبدالله، فدعوْه إلى أمرهم فلم يجبهم، فسألوه أن يكتم عليهم، فقال: لا أُسمّي أحداً منكم. وأراد الوليد الحجّ، فخاف خالد أن يفتِكُوا به في الطريق، فأتاه فقال: يا أميرَ المؤمنين، أخّرِ الحجّ العام، فقال: ولِمَ؟ فلم يخبره، فأمر بحبسه وأن يُستأدَى ما عليه من أموال العراق.

وقال عليّ عن الحكم بن النعمان، قال: أجمع الوليد على عزل يُوسف واستعمال عبد الملك بن محمد بن الحجّاج، فكتب إلى يوسف: إنك كتبتَ إلى أمير المؤمنين تذكر تخريبَ ابن النصرانيّة البلاد، وقد كنتَ على ما ذكرت من ذلك تحمل إلى هشام ما تحمل، وقد ينبغي أن تكون قد عَمَرت البلاد حتى رددتَها إلى ما كانت عليه؛ فاشخص إلى أمير المؤمنين، فصدّق ظنّه بك فيما تحمل إليه لعمارتك البلاد، وليعرف أمير المؤمنين فضلِك على غيرك؛ لما جعل الله بينك وبين أمير المؤمنين من القَرابة؛ فإنك خالُه، وأحقّ الناس بالتوفير عليه، ولما قد علمتَ ممّا أمر به أمير المؤمنين لأهل الشأم وغيرهم من الزّيادة في أعطياتهم، وما وصل به أهلَ بيته لطول جَفْوة هشام إياهم، حتى أضرّ ذلك ببيوت الأموال. قال: فخرج يوسف واستخلف ابنَ عمّه يوسف بن محمد، وحمل من الأموال والأمتعة والآنية ما لم يحملْ من العراق مثله. فقدم - وخالد بن عبدالله محبوس - فلقيه حسّان النَّبطيّ ليلاً، فأخبره أنّ الوليد عازم على تولية عبد الملك بن محمد بن الحجاج، وأنه لا بدّ ليوسف فيها من إصلاح أمر وزرائه، فقال: ليس عندي فضل درهم، قال: فعندي خمسمائة ألف درهم، فإن شئتَ فهي لك، وإن شئت فارددْها إذا تيسرت. قال: فأنت أعرفُ بالقوم ومنازلهم من الخليفة مني، ففرّقْها على قدر عِلْمِك فيهم؛ ففعل. وقدم يوسف والقوم يعظّمونه، فقال له حسان: لا تَغْدُ على الوليد؛ ولكن رُحْ إليه رواحاً؛ واكتب على لسان خليفتك كتاباً إليك: إنّي كتبت إليك ولا أملك إلا القَصْر. وادخل على الوليد والكتابُ معك متحازنا فأقْرِئه الكتاب، ومُرْ أبان بن عبد الرحمن النميريّ يشتري خالداً منه بأربعين ألف ألف، ففعل يوسف، فقال له الوليد: ارجع إلى عملك، فقال له أبان: ادفع إليّ خالداً وأدفع إليك أربعين ألف ألف درهم، قال: ومن يضمن عنك؟ قال: يوسف، قال: أتضمن عنه؟ قال: بل ادفعه إليّ، فأنا أستأديه خمسين ألف ألف، فدفعه إليه، فحمله في محمل بغير وِطاء.

قال محمد بن محمد بن القاسم: فرحمتُه، فجمعت ألطافاً كانت معنا من أخبصة يابسة وغيرها في منديل،

وأنا على ناقة فارهة، فتغَفَّلتُ يوسفَ، فأسرعتُ ودنوتُ من خالد، ورميتُ بالمنديل في محمله، فقال لي: هذا من متاع عُمان ـ يعني أن أخي الفَيْض كان على عُمَان، فبعث إليّ بمال جسيم ـ فقلت في نفسي: هذا على هذه الحالة وهو لا يَدع هذا! ففطن يوسف بي فقال لي: ما قلتَ لابن النصرانيَّة؟ فقلت: عرضتُ عليه الحاجة، قال: أحسنتَ، هو أسير؛ ولو فطن بما ألقيتُ إليه للقيني منه أذًى.

وقدم الكوفة فقتله في العذاب؛ فقال الوليد بن يزيد ـ فيما زعم الهيثم بن عديّ ـ شعراً يُوبّخ به أهل اليمن في تركهم نُصرة خالد بن عبد الله.

وأما أحمد بن زهير، فإنه حدّثه عن عليّ بن محمد؛ عن محمد بن سعيد العامريّ. عامر كلب، أنّ هذا الشعر قاله بعض شعراء اليمن على لسان الوليد يحرّض عليه اليمانية:

أَلَمْ تهتجْ فتَذّكر الوصالا ... وحَبْلاً كان مُتَّصِلاً فزالا
بَلَى فالدَّمعُ منك له سِجَامٌ ... كماءِ المُزن يَنسَجِلُ انسجالا
فَدَعْ عنك ادِّكارَك آلَ سعْدَى ... فنحن الإكثُرون حصًى ومالا
ونحن المالكون الناس قسْراً ... نَسُومُهُم المذَلّةَ والنكالا
وَطِئنا الأشعرينَ بعِزّ قيسٍ ... فيالك وطأةً لن تُستَقالا
وهذا خالدٌ فينا أَسِيراً ... أَلَا منعوه إنْ كانوا رجالا!
عَظِيمُهُمُ وسيّدُهُمْ قديماً ... جعلنا المُخْزِياتِ له ظلالا
فلو كانت قبائلَ ذاتَ عزٍّ ... لَما ذهَبَتْ صَنائِعُهُ ضَلالا
ولا تَرَكوهُ مسلوباً أَسيراً ... يُسامِرُ من سَلاسِلِنا الثقالا

ـ ورواه المدائنيّ: «يعالج من سلاسلنا» ـ

وكِنْدَةُ والسَّكون فما استقالوا ... ولا برحَتْ خُيولهمُ الرِّحَالا
بها سُمْنا البَريَّة كُلَّ خَسْفٍ ... وهَدَّمنا السُّهُولةَ والجبالا
ولكنّ الوقائع ضَعْضَعتهمْ ... وجَذَّتهُمْ وَردَّتهُمْ شِلالا
فما زالوا لنا أَبَداً عَبيداً ... نَسُومُهُمُ المذلَّةَ والسِفالا
فأصبحتُ الغداة عليَّ تاجٌ ... لمُلكِ الناس ما يَبغي انتِقالا

فقال عمران بن هلباء الكلبيّ يجيبه:

قِفِي صدْرَ المَطِيَّة يا حلالا ... وجذِّي حَبْلَ مَنْ قطعَ الوصالا
أَلَمْ يحْزُنْكِ أنَّ ذوي يمانٍ ... يُرَى مَنْ حاذَ قَيْلهم جُلالا
جَعلنا للقبائلِ مِنْ نزارٍ ... غَداة المَرْج أياماً طِوالا
بِنا مَلكَ المُمَلَّكُ من قريش ... وأَوْدَى جَدّ مَنْ أودَى فزالا
حتى تلقَ السَّكون وتلق كلباً ... بعَبْسٍ تَخْشَ مِنْ ملكٍ زوالا
كذاكَ المرءُ مالم يُلفَ عَدْلاً ... يكونُ عليه منطِقُهُ وَبالا
أَعِدُّوا آلَ حِمْيَر إذْ دُعِيتُمْ ... سُيُوفَ الهندِ والأَسَلَ النِهالا

وكلَّ مُقلَّصٍ نَهدِ القُصَيْرَى وذا فَوْدَينِ والقُبَّ الجبالا
يَذَرْنَ بكلِّ مُعْتَرَكٍ قتيلا عليه الطيرُ قد مَذِلَ السؤالا
لئن عَيرْتمونا ما فعلنا لقد قلتمْ وجَدُّكُمُ مَقالا
لإخوانُ الأشاعثِ قتَّلوهمْ فما وُطِئوا ولا لاقَوْا نكالا
وأبناءُ المهلَّبِ نحنُ صُلنا وقائِعَهُمْ وما صُلتُمْ مَصالا
وقد كانَتْ جُذامُ على أخيهمْ ولخمٌ يقتُلونهُمُ شلالا
هربنا أن نُساعِدَكُم عليهمْ وقد أخطأ مُساعِدُكمْ وفالا
فإن عُدْتُمْ فإنَّ لنا سُيوفاً صَوارِمَ نَسْتَجِدُّ لها الصقالا
سَنَبكِي خالِداً بِمُهنَّداتٍ ولا تَذْهَبْ صَنائِعُهُ ضَلالا
ألمْ يَكُ خالدٌ غيثَ اليَتامى إذا حَضَرُوا وكنتَ لهم هُزالا!
يُكفِّنُ خالدٌ مَوْتى نِزار ويُثري حَيَّهم نَشَباً ومالا
لو أنَّ الجائرينَ عليه كانوا بساحةِ قومِهِ كانوا نكالا
ستَلقَى إن بَقِيتَ مُسَوَّماتٍ عوابسَ لا يُزايلنَ الجِلال

فحدّثني أحمد بن زهير، عن عليّ بن محمد، قال: فازداد الناس على الوليد حَنَقاً لمّا روى هذا الشعر، فقال ابن بِيض:

وَصَلتَ سَمَاءَ الضُّرِّ بالضرِّ بعد ما زعمْتَ سَماءُ الضرِّ عنا سَتُقلَعُ
فليت هشاماً كان حيًّا يَسُوسُنا وكنَّا كما كنَّا نُرَجِّي ونَطمَعُ

وكان هشام استعمل الوليد بن القعقاع على قِنَّسرين وعبد الملك بن القعقاع على حِمْص، فضرب الوليد بن القعقاع ابنَ هبيرة مائة سوط؛ فلما قام الوليد هرب بنو القعقاع منه، فعاذوا بقبْر يزيد بن عبد الملك؛ فبعث إليهم، فدفعهم إلى يزيد بن عمر بن هبيرة ـ وكان على قنّسرين ـ فعذّبهم، فمات في العذاب الوليد بن القعقاع وعبد الملك بن القعقاع ورجلان معهما من آل القعقاع، واضطغن على الوليد آل الوليد وآل هشام وآل القعقاع واليمانية بما صنع بخالد بن عبدالله، فأتت اليمانية يزيدَ بن الوليد، فأرادوه على البَيْعة، فشاور عمرو بن يزيد الحكميّ، فقال: لا يبايعك الناس على هذا، وشاور أخاك العباس بن الوليد؛ فإنه سيّد بني مروان؛ فإنْ بايعك لم يخالفْك أحد، وإن أبى كان الناسُ له أطوَعَ، فإن أبيتَ إلّا المضيّ على رأيك فأظهِرْ أنّ العباس قد بايعك. وكانت الشأم تلك الأيام وبيّة، فخرجوا إلى البوادِي؛ وكان يزيد بن الوليد متبدّياً، وكان العباس بالقَسْطل بينهما أميال يسيرة.

فحدّثني أحمد بن زهير، قال: حدّثني عليّ، قال: أتى يزيد أخاه العباس، فأخبره وشاوره، وعاب الوليد، فقال له العبّاس: مهلًا يا يزيد؛ فإنّ في نقض عهد الله فساد الدين والدنيا. فرجع يزيد إلى منزله، ودبّ في الناس فبايعوه سرًّا، ودسّ الأحنفَ الكلبيّ ويزيدَ بن عنبسة السكسكيَّ وقوماً من ثِقاته من وجوه الناس وأشرافهم؛ فدعوا الناس سرًّا، ثم عاود أخاه العباس ومعه قَطن مولاهم، فشاوره في ذلك، وأخبره أنّ قوماً يأتونه يريدونه على البَيْعة، فزَبَره العباس، وقال: إن عدتَ لمثل هذا لأشدَّنّك وثاقاً، ولأحملنّك إلى أمير المؤمنين! فخرج يزيد

وقَطَن، فأرسل العباس إلى قَطَن، فقال: ويحك يا قطن! أترى يزيد جادًّا! قال: جُعلتُ فداك! ما أظنّ ذاك؛ ولكنه قد دخله مما صنع الوليد ببني هشام وبني الوليد وما يَسمع مع الناس من الاستخفاف بالدين وتهاونه ما قد ضاق به ذرعاً. قال: أما والله إني لأظنّه أشأم سَخلة في بني مروان؛ ولولا أن أخاف من عَجَلة الوليد مع تحامُله علينا لشددتُ يزيد وَثاقاً، وحملته إليه؛ فازجُرْه عن أمره؛ فإنه يسمع إليك. فقال يزيد لقَطَن: ما قال لك العباس حين رآك؟ فأخبره، فقال له: والله لا أكفّ.

وبلغ معاويةَ بن عمرو بن عتبة خوضُ الناس؛ فأتى الوليدَ فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنك تبسط لساني بالأنس بك، وأكفُّه بالهيبة لك، وأنا أسمع مالا تسمع وأخاف عليك ما أراك تأمن، أفأتكلم ناصحاً، أو أسكت مطيعاً؟ قال: كلٌّ مقبول منك؛ ولله فينا علم غَيْب نحن صائرون إليه؛ ولو علم بنو مروان أنهم إنما يوقِدون على رَضْف يلقوْنه في أجوافهم ما فعلوا، ونَعود ونسمع منك.

وبلغ مَرْوانَ بن محمد بأرمينيَة أنّ يزيد يؤلّب الناس، ويدعو إلى خَلْع الوليد؛ فكتب إلى سعيد بن عبد الملك بن مَرْوان يأمره أن ينهيَ الناس ويكفّهم ـ وكان سعيد يتألّه: إنّ الله جعل لكل أهل بيت أركاناً يعتمدون عليها، ويتّقون بها المخاوف، وأنت بحمد ربّك ركْنٌ من أركان أهل بيتك؛ وقد بلغني أنّ قوماً من سفهاء أهل بيتك قد استنّوا أمراً ـ إن تمّت لهم رَوِيّتُهم فيه على ما أجمعوا عليه من نقضِ بيعتهم ـ استفتحوا باباً لن يغلِقَه الله عنهم حتى تُسفك دماء كثيرة منهم؛ وأنا مشتغل بأعظم ثغور المسلمين فُرَجاً، ولو جَمَعتني وإياهم لَرمَمْتُ فسادَ أمرهم بيدي ولساني، ولخفت الله في ترك ذلك؛ لعلمي ما في عواقب الفُرْقة من فساد الدين والدنيا؛ وأنه لن ينتقل سلطان قوم قطُّ إلا بتشتيت كلمتهم؛ وإنّ كَلمتهم إذا تشتّت طمع فيهم عدُّوهم. وأنت أقربُ إليهم منّي، فاحتل لعلم ذلك وإظهار المتابَعة لهم؛ فإذا صرت إلى علم ذلك فتهدَّدْهم بإظهار أسرارهم، وخُذْهم بلسانك، وخَوّفهم العواقب؛ لعلّ الله أن يردَّ إليهم ما قد عزب عنهم من دينهم وعقولهم؛ فإنّ فيما سعَوْا فيه تغيّر النّعم وذهاب الدّولة، فعاجل الأمر وحَبْل الألفة مشدودٌ، والناس سكون، والثّغور محفوظة؛ فإنّ للجماعة دَوْلة من الفُرْقة وللسّعة دافعاً من الفقر، وللعدد منتقصاً، ودُوَل الليالي مختلفة على أهل الدنيا، والتقلّب مع الزيادة والنقصان؛ وقد امتدّت بنا ـ أهل البيت ـ متتابعات من النعم، قد يعيبها جميع الأمم وأعداء النعم وأهل الحسد لأهلها؛ وبحسد إبليس خرج آدم من الجنة. وقد أمّل القومُ في الفتنة أملا؛ لعلَّ أنفسهم تهلك دون ما أمّلوا، ولكلّ أهل بيت مشائيم يُغيِّر الله النعمة بهم ـ فأعاذك الله من ذلك ـ فاجعلني من أمرهم على علم. حفظَ الله لك دينَك، وأخرجَك مما أدخلك فيه، وغلب لك نفسك على رشدك.

فأعظم سعيد ذلك، وبعث بكتابه إلى العباس، فدعا العباس يزيدَ فعذَله وتهدَّده، فحذّره يزيد، وقال: يا أخي، أخاف أن يكون بعض مَنْ حسدنا هذه النعمة من عَدُوّنا أراد أن يُغْرِيَ بيننا؛ وحَلَفَ له أنه لم يفعل. فصدّقه.

حدّثني أحمد، قال: حدثنا عليّ، قال: قال ابن بشر بن الوليد بن عبد الملك: دخل أبي بشرُ بن الوليد على عَمّي العباس، فكلّمه في خلع الوليد وبيعة يزيد، فكان العباس ينهاه، وأبي يرادّه، فكنت أفرح وأقول في نفسي: أرى أبي يجترىء أن يكلم عمي ويردّ عليه قوله! وكنت أرى أنّ الصواب فيما يقول أبي، وكان الصّواب فيما يقول عمّي، فقال العباس: يا بني مروان؛ إني أظنّ الله قد أذن في هلاككم؛ وتمثّل قائلاً:

إني أعيذكم بالله من فتن مثل الجبال تسامى ثم تندفع
إنّ البرية قد ملّت سياستكم فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمنّ ذئاب الناس أنفسكم إنّ الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا
لا تبقرنّ بأيديكم بطونكم فثمّ لا حسرة تغني ولا جزع

قال: فلما اجتمع ليزيد أمره وهو متبدّ، أقبل إلى دمشق وبينه وبين دمشق أربع ليال، متنكّراً في سبعة نفر على حمير، فنزلوا بجرود على مرحلة من دمشق، فرمى يزيد بنفسه فنام. وقال القوم لمولًى لعباد بن زياد: أما عندك طعام فنشتريه؟ قال: أما لبيع فلا، ولكن عندي قراكم وما يسعكم. فأتاهم بدجاج وفراخ وعسل وسمن وشوانيز، فطعموا. ثم سار فدخل دمشق ليلاً، وقد بايع ليزيد أكثرُ أهل دمشق سرًّا، وبايع أهل المزّة غير معاوية بن مصاد الكلبيّ ـ وهو سيد أهل المزّة ـ فمضى يزيد من ليلته إلى منزل معاوية بن مصاد ماشياً في نُفير من أصحابه ـ وبين دمشق وبين المزّة ميل أو أكثر ـ فأصابهم مطر شديد، فأتوا منزل معاوية بن مصاد، فضربوا بابه، ففتح لهم، فدخلوا فقال ليزيد: الفراشَ أصلحك الله! قال: إن في رجلي طيناً، وأكره أن أفسد بساطك، فقال: الذي تريدنا عليه أفسدُ. فكلّمه يزيد فبايعه معاوية ـ ويقال هشام بن مصاد ـ ورجع يزيد إلى دمشق؛ فأخذ طريق القناة، وهو على حمار أسود؛ فنزل دار ثابت بن سليمان بن سعد الخُشنيّ، وخرج الوليد بن روْح، وحلف لا يدخل دمشق إلّا في السلاح، فلبس سلاحه، وكفّر عليه الثياب، وأخذ طريق النّيْرب ـ وهو على فرس أبلق ـ حتى وافى يزيد، وعلى دمشق عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف فخاف الوباء، فخرج فنزل قَطَناً، واستخلف ابنه على دمشق، وعلى شُرْطته أبو العاج كثير بن عبدالله السُّلَميّ، فأجمع يزيد على الظهور، فقيل للعامل: إنّ يزيد خارج، فلم يصدّق. وأرسل يزيد إلى أصحابه بين المغرب والعشاء ليلة الجمعة سنة ست وعشرين ومائة، فكمنوا عند باب الفراديس حتى أذّنوا العتَمة، فدخلوا المسجد، فصلّوْا ـ وللمسجد حَرَسٌ قد وُكّلوا بإخراج الناس من المسجد بالليل ـ فلمّا صلّى الناس صاح بهم الحَرس، وتباطأ أصحاب يزيد، فجعلوا يخرجون من باب المقصورة ويدخلون من باب آخر حتى لم يبق في المسجد غيرُ الحرس وأصحاب يزيد، فأخذوا الحَرَس، ومضى يزيد بن عَنْبَسة إلى يزيد بن الوليد، فأعلمه وأخذ بيده، وقال: قم يا أمير المؤمنين وأبشر بنصر الله وعَوْنه، فقام وقال: اللهمّ إن كان هذا لك رضاً فأعنّي عليه وسدّدني له؛ وإن كان غير ذلك فاصرفه عنّي بموت.

وأقبل في اثني عشر رجلاً، فلمّا كان عند سوق الحُمُر لقوا أربعين رجلاً من أصحابهم، فلمّا كانوا عند سوق القمح لقيهم زُهاء مائتي رجل من أصحابهم؛ فمضوْا إلى المسجد فدخلوه، فأخذوا بابَ المقصورة فضربوه وقالوا: رسل الوليد؛ ففتح لهم الباب خادم فأخذوه ودخلوا، وأخذوا أبا العاج وهو سكْران، وأخذوا خُزّان بيت المال وصاحب البريد، وأرسل إلى كلّ مَنْ كان يحذره فأخذ. وأرسل يزيد من ليلته إلى محمد بن عبيدة ـ مولى سعيد بن العاص وهو على بعلبكّ ـ فأخذه، وأرسل من ليلته إلى عبد الملك بن محمد بن الحجّاج بن يوسف، فأخذه ووجّه إلى الثنيّة إلى أصحابه ليأتوه، وقال للبوّابين: لا تفتحُوا الباب غدوةً إلا لمن أخبركم بشعارنا. فتركوا الأبواب بالسلاسل. وكان في المسجد سلاح كثير قدم به سليمان بن هشام من الجزيرة، ولم يكن الخُزّان قبضوه، فأصابوا سلاحاً كثيراً، فلما أصبحوا جاء أهل المزّة وابن عصام، فما انتصف النهار حتى تبايع الناس، ويزيد يتمثل [قول النّابغة] :

إذا اسْتُنْـزِلـوا عَـنْهُـنَّ لِلطَّعْـنِ أرْقلوا إلى المَوْتِ إرْقالَ الجمـالِ المصاعِبِ

فجعل أصحاب يزيد يتعجّبون، ويقولون: انظروا إلى هذا؛ هو قبيل الصبح يُسبِّح، وهو الآن ينشد الشعر!

حدّثني أحمد بن زُهير، قال: حدّثنا عليّ، قال: حدثنا عمرو بن مروان الكلبيّ، قال: حدّثني رَزين بن ماجد، قال: غَدَوْنا مع عبد الرحمن بن مصاد، ونحن زُهاء ألف وخمسمائة؛ فلما انتهينا إلى باب الجابية ووجدناه مغلَقاً، ووجدنا عليه رسولاً للوليد، فقال: ما هذه الهيئة وهذه العُدّة! أما والله لأعلِمنّ أمير المؤمنين. فقتله رجل من أهل المِزّة، فدخلنا من باب الجابية، ثم أخذنا في زُقاق الكلبيين، فضاق عنا، فأخذ ناس منا سوق القمح؛ ثم اجتمعنا على باب المسجد، فدخلنا على يزيد، فما فرغ آخرُنا من التّسليم عليه؛ حتى جاءت السَّكاسك في نحو ثلثمائة، فدخلوا من باب الشرقيّ حتى أتوا المسجد، فدخلوا من باب الدّرَج، ثم أقبل يعقوب بن عُمير بن هانىء العبسيّ في أهل داريّا، فد خلوا من باب دمشق الصغير، وأقبل عيسى بن شبيب التغلَبيّ في أهل دُومَة وحرَسْتَا، فدخلوا من باب تُوما، وأقبل حُمَيد بن حبيب اللخميّ في أهل دير المُرّان والأَرْزَة وسَطْرا، فدخلوا من باب الفراديس، وأقبل النَّضْر بن الجَرَشيّ في أهل جَرَش وأهل الحَدِيثة ودَيْر زكّا، فدخلوا من باب الشرقيّ، وأقبل رِبْعيّ بن هاشم الحارثيّ في الجماعة من بني عُذْرة وسَلامان، فدخلوا من باب تُوما، ودخلت جُهَينة ومَنْ والاهم مع طلحة بن سعيد، فقال بعض شعرائهم:

فجـاءَتهُمْ أنصـارهُمْ حين أصْبَحُـوا سَكـاسِكُهـا أهـلُ البُيُـوتِ الصَّنـادِدِ
وكـلبٌ فجـاءُوهُـمْ بِـخَيْـلٍ وعُـدَّةٍ مِنَ البَيْضِ والأَبـدانِ ثمّ السَّـواعِـدِ
فـأكـرِمْ بهم أحيـاءَ أنصـارِ سُنَّـة هُمْ مَنَعُوا حُرْمـاتِهـا كـلَّ جاحـدِ
وجـاءتْـهُمْ شعبـان والأَزدُ شُـرَّعـاً وعَبْسٌ ولخـمٌ بيـن حـامٍ وذائِـد
وَغسّـانُ والـحَيَّـانِ قيسٌ وتـغْلِبُ وأحْجَـمَ عـنهـا كـلّ وانٍ وزاهِـدِ
فمـا أصْبَحُـوا إلا وهُمْ أهـلُ مُلكِها قَـدِ استَـوْثَقُوا من كـلِّ عـاتٍ ومـاردِ

حدثني أحمد بن زهير، عـن عليّ بن محمـد، عن عمرو بن مـروان الكلبيّ، قال: حـدّثني قُسَيْم بن يعقوب ورَزين بن ماجد وغيرهما، قالوا: وجّه يزيد بن الوليد عبدَ الرحمن بن مَصاد في مائتي فارس أو نحوهم إلى قَطَن؛ ليأخذوا عبدَ الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف، وقد تحصّن في قصره، فأعطاه الأمانَ فخرج إليه، فدخلْنا القصر، فأصبنا فيه خُرْجَيْنْ، في كل واحد منهما ثلاثون ألف دينار. قال: فلما انتهينا إلى المِزّة قلت لعبد الرحمن بن مَصاد: اصرف أحد هذين الخُرْجين إلى منزلك أو كليهما، فإنك لا تصيب من يزيد مثلهما أبداً، فقال: لقد عجلتُ إذاً بالخيانة، لا والله لا يتحدّث العرب أني أوّل من خان في هذا الأمر، فمضى به إلى يزيد بن الوليد. وأرسل يزيد بن الوليد إلى عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، فأمره فوقف بباب الجابية، وقال: مَن كان له عطاء فليأتِ إلى عطائه، ومن لم يكن له عطاء فله ألف درهم معُونة. وقال لبني الوليد بن عبد الملك ومعه منهم ثلاثة عشر: تفرّقوا في الناس يَرَوْنكم وحضُورهم، وقال للوليد بن رَوْح بن الوليـد: أنزل الـرّاهبَ، ففعل.

وحدّثني أحمد، عن عليّ، عن عمرو بن مروان الكلبيّ، قال: حدّثني دُكين بن الشّماخ الكلبّي وأبو

عِلاقة بن صالح السَّلامانيّ أن يزيد بن الوليد نادى بأمره منادٍ: من ينتدب إلى الفاسق وله ألف درهم؟ فاجتمع إليه أقلّ من ألف رجل، فأمر رجلاً فنادى: مَنْ ينتدب إلى الفاسق وله ألف وخمسمائة؟ فانتدب إليه يومئذ ألف وخمسمائة، فعقد لمنصور بن جُمْهور على طائفة، وعقد ليعقوب بن عبد الرحمن بن سُلَيم الكَلبيّ على طائفة أخرى، وعقد لهَرِم بن عبد الله بن دِحْية على طائفة أخرى، وعقد لحُميد بن حبيب اللخميّ على طائفة أخرى، وعليهم جميعاً عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، فخرج عبد العزيز فعسكر بالحِيرة.

وحدّثني أحمد بن زهير، قال: حدّثنا عليّ، عن عمرو بن مروان الكلبيّ، قال: حدّثني يعقوب بن إبراهيم بن الوليد أنّ مولىً للوليد لما خرج يزيد بن الوليد، خرج على فرس له، فأتى الوليد من يومه، فنفق فرسُه حين بلغه، فأخبر الوليد الخبر، فضربه مائة سوط وحبسه، ثم دعا أبا محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية فأجازه، ووجّهه إلى دمشق، فخرج أبو محمد، فلما انتهى إلى ذَنَبَة أقام، فوجّه يزيد بن الوليد إليه عبد الرحمن بن مصاد، فسالمه أبو محمد، وبايع ليزيد بن الوليد وأتى الوليد الخبر، وهو بالأغدف - والأغدف من عمّان - فقال بَيْهس بن زُمَيل الكلابيّ - ويقال قاله يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية: يا أميرَ المؤمنين، سر حتى تنزل حمص فإنها حصينة، ووجّه الجنود إلى يزيد فيُقتَل أو يؤسر. فقال عبد الله بن عنبسة بن سعيد بن العاص: ما ينبغي للخليفة أن يدَع عسكره ونساءه قبل أن يقاتل ويُعذر، والله مؤيدُ أمير المؤمنين وناصرُه. فقال يزيد بن خالد: وماذا يخافُ على حرمه! وإنما أتاه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك وهو ابن عمهنّ، فأخذ بقول ابن عنبسة، فقال له الأبرش سعيد بن الوليد الكلبي: يا أمير المؤمنين، تَدْمُر حصينة، وبها قومي يمنعونك، فقال: ما أرى أن نأتي تَدْمُر وأهلها بنو عامر؛ وهم الذين خرجوا عليّ؛ ولكن دُلّني على منزل حصين، فقال: أرى أن تنزل القرية، قال: أكرهها، قال: فهذا الهَزيم. قال: أكره اسمه، قال: فهذا البَخْراء، قصرُ النعمان بن بشير، قال: ويحك! ما أقبح أسماء مياهكم! فأقبل في طريق السماوة، وترك الرِّيف، وهو في مائتين، فقال:

إذا لَم يكنْ خَيْرٌ معَ الشـرِّ لَمْ تَجِـدْ ... نصيحـاً ولاذا حـاجـة حينَ تَفْـزَعُ
إذا مـا هُمُ هَمّوا بـإحْـدَى هَنَـاتِهِمْ ... حَسَـرْتُ لهـم رَأسي فـلا أتـقَنَّـعُ

فمرّ بشبكة الضّحاك بن قيس الفهريّ؛ وفيها مِنْ ولده وولد ولده أربعون رجلاً، فساروا معه وقالوا: إنا عُزْل؛ فلو أمرتَ لنا بسلاح! فما أعطاهم سيفاً ولا رُمحاً، فقال له بيهس بن زُمَيل: أمّا إذْ أبيتَ أن تمضيَ إلى حِمْص وتَدْمُر فهذا الحصن البَخْراء فإنه حَصِين، وهو من بناء العجم فانزله، قال: إني أخاف الطاعون، قال: الذي يُراد بك أشدّ من الطاعون؛ فنزل حصن البَخراء.

قال: فندب يزيد بن الوليد الناسَ إلى الوليد مع عبد العزيز، ونادى مناديه: مَن سار معه فله ألفان، فانتدب ألفا رجل، فأعطاهم ألفيْن ألفيْن، وقال: موعدكم بذَنَبة، فوافَى بذَنَبَة ألف ومائتان، وقال: موعدكم مصنعة بني عبد العزيز بن الوليد بالبرّية، فوافاه ثمانمائة، فسار، فتلقاهم ثَقَل الوليد فأخذوه، ونزلوا قريباً من الوليد، فأتاه رسول العباس بن الوليد: إني آتيك، فقال الوليد: أخرجوا سريراً، فأخرجوا سريراً فجلس عليه وقال: أعليّ تـوثّب الرجـال، وأنا أثِبُ على الأسد وأتخصّرُ الأفـاعي! وهم ينتظرون العباس، فقاتلهم عبد العزيز، وعلى الميمنة عمرو بن حُوَيّ السَّكْسَكيّ وعلى المقدّمة منصور بن جُمهور وعلى الرّجالة عُمارة بن أبي كلثم الأزديّ، ودعا عبد العزيز ببغل له أدْهم فركبه، وبعث إليهم زياد بن حصين الكلبيّ يدعوهم إلى كتاب

الله وسنة نبيّه، فقتله قطريّ مولى الوليد، فانكشف أصحابُ يزيد، فترجّل عبد العزيز، فكرّ أصحابه، وقد قتل من أصحابه عدّة، وحملت رؤوسهم إلى الوليد وهو على باب حصن البَخْراء قد أخرج لواء مروان بن الحكم الذي كان عقده بالجابية، وقتِل من أصحاب الوليد بن يزيد عثمان الخَشَبي، قتله جناح بن نعيم الكلبيّ، وكان من أولاد الخشبيّة الذين كانوا مع المختار.

وبلغ عبدَ العزيز مسيرُ العباس بن الوليد، فأرسل منصور بن جُمهور في خيل، وقال: إنكم تلقون العباس في الشِّعْب، ومعه بنوه [في الشِّعب] فخذوهم. فخرج منصورَ في الخيل فلما صاروا بالشِّعب إذا هم بالعباس في ثلاثين من بنيه، فقالوا له: اعدل إلى عبد العزيز، فشتَمهم، فقال له منصور: والله لئن تقدّمتَ لأنفُذنّ حَصينَك - يعني درعك - وقال نوح بن عمرو بن حُوَيّ السكسكيُّ: الذي لقي العباسَ بن الوليد يعقوب بن عبد الرحمن بن سليم الكلبيّ - فعدل به إلى عبد العزيز، فأبى عليه فقال: يابن قُسْطَنْطِين؛ لئن أبيْت لأضربنّ الذي فيه عيناك، فنظر العباس إلى هَرِم بن عبد الله بن دحية، فقال: مَنْ هذا؟ قال: يعقوب بن عبد الرحمن بن سليم، قال: أما والله إن كان لبغيضاً إلى أبيه أن يقف ابنُه هذا الموقف؛ وعدل به إلى عسكر عبد العزيز، ولم يكن مع العباس أصحابه، كان تقدّمهم مع بنيه، فقال: إنا لله! فأتوا به عبد العزيز، فقال له: بايع لأخيك يزيد بن الوليد، فبايع ووقف ونصبوا راية، وقالوا: هذه راية العباس بن الوليد، وقد بايع لأمير المؤمنين يزيدُ بن الوليد، فقال العباس: إنا لله! خُدْعَةٌ من خُدَع الشيطان! هلك بنو مروان. فتفرّق النّاس عن الوليد، فأتوا العباس وعبد العزيز وظاهر الوليد بين دِرْعين، وأتوه بفرسيْه: السنديّ والزّائد، فقاتلهم قتالاً شديداً، فناداهم رجل: اقتلوا عدوّ الله قِتْلة قوم لوط، ارموه بالحجارة.

فلما سمع ذلك دخل القصر، وأغلق الباب، وأحاط عبد العزيز وأصحابه بالقصر، فدنا الوليد من الباب، فقال. أمَا فيكم رجل شريف له حسب وحياء أكلّمه! فقال له يزيد بن عنبسة السَّكسكيّ: كلمني، قال له: من أنت؟ قال: أنا يزيد بن عنبسة، قال: يا أخا السكاسك؛ ألم أزِدْ في أعطياتكم! ألم أرفع المؤن عنكم! ألم أعطِ فقراءكم! ألم أخدم زَمْنَاكم! فقال: إنا ما ننقم عليكَ في أنفسنا، ولكن ننقِم عليك في انتهاك ما حَرّم الله وشُرْب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفَافك بأمر الله؛ قال: حسبُك يا أخا السكاسك، فلعمري لقد أكثرت وأغرقت؛ وإن فيما أحِلّ لي لسعةً عمّا ذكرت. ورجع إلى الدار فجلس وأخذ مصحفاً، وقال: يوْمٌ كيوم عثمان؛ ونشر المصحف يقرأ، فَعَلُوا الحائط، فكان أوّل من علا الحائط يزيد بن عنبسة السَّكْسَكيّ، فنزل إليه وسيف الوليد إلى جَنْبه، فقال له يزيد: نحّ سيفك، فقال له الوليد: لو أردتُ السيف لكانتْ لي ولك حالة فيهم غير هذه، فأخذ بيد الوليد؛ وهو يريد أن يحبسه ويؤامَر فيه. فنزل من الحائط عشرة: منصور بن جمهور وحبال بن عمرو الكلبيّ وعبد الرحمن بن عَجْلان مولى يزيد بن عبد الملك وحميد بن نصر اللخْميّ والسريّ بن زياد بن أبي كبشة وعبد السلام اللخْميّ، فضربه عبد السلام على رأسه، وضربه السريّ على وجهه، وجرُّوه بين خمسة ليخرجوه. فصاحت امرأة كانت معه في الدار، فكفّوا عنه ولم يخرجوه، واحتزّ أبو علاقة القُضاعيّ رأسه، فأخذ عَقَباً فخاط الضَّرْبة التي في وجهه، وقدم بالرأس على يزيد رَوْح بن مقبل، وقال: أبشر يا أمير المؤمنين بقتل الفاسق الوليد وأسْرِ من كان معه، والعباسِ - ويزيد يتغدّى - فسجد ومَن كان معه، وقام يزيد بن عنبسة السّكسكِيّ، وأخذ بيد يزيد، وقال: قم يا أمير المؤمنين، وأبشر بنصر الله، فاختلج يزيد يده من كفّه، وقال: اللهمّ إن كان هذا لك رضاً فسدّدني، وقال ليزيد بن عنبسة: هل كلّمكم الوليد؟ قال: نعم، كلّمني من

وراء الباب، وقال: أما فيكم ذو حسب فأكلّمه! فكلمته ووبّخته، فقال: حسبُك، فقد لعمري أغرقت وأكثرت، أما والله لا يُرْتَقُ فتقكم، ولا يُلَمّ شعثكم، ولا تجتمع كلمتكم.

حدثني أحمد عن عليّ، عن عمرو بن مروان الكلبيّ، قال: قال نوح بن عمرو بن حويّ السكسكيّ: خرجنا إلى قتال الوليد في ليالٍ ليس فيها قمر؛ فإن كنت لأرى الحصى فأعرف أسوَده من أبيضه. قال: وكان على ميسرة الوليد بن يزيد الوليدُ بن خالد، ابن أخي الأبرش الكلبيّ في بني عامر - وكانت بنو عامر ميمنة عبد العزيز - فلم تقاتل ميسرة الوليد ميمنةَ عبد العزيز، ومالوا جميعاً إلى عبد العزيز بن الحجاج. قال: وقال نوح بن عمرو: رأيت خدَم الوليد بن يزيد وحشَمه يوم قُتِل يأخذون بأيدي الرجال، فيدخلونهم عليه.

وحدّثني أحمد عن عليّ، عن عمرو بن مَرْوان الكلبيّ، قال: حدّثني المثنّى بن معاوية، قال: أقبل الوليد فنزل اللؤلؤة، وأمر ابنه الحكَم والمؤمّل بن العباس أن يفرضا لمن أتاهما ستين ديناراً في العطاء، فأقبلت أنا وابن عمّي سليمان بن محمد بن عبد الله إلى عَسْكر الوليد، فقرّبني المؤمّل وأدناني. وقال: أدخِلك على أمير المؤمنين، وأكلّمه حتى يفرض لك في مائة دينار.

قال المثنّى: فخرج الوليد من اللؤلؤة فنزل المليكة، فأتاه رسول عمرو بن قيس من حِمْص يخبره أن عمراً قد وجّه إليه خمسمائة فارس، عليهم عبد الرحمن بن أبي الجَنوب البهرانيّ، فدعا الوليد الضّحاك بن أيمن من بني عوف بن كلب، فأمره أن يأتيَ ابن أبي الجَنوب - وهو بالغُوَير - فيستعجله، ثم يأتي الوليد بالمليكة. فلما أصبح أمر الناس بالرّحيل، وخرج على برْذون كُمَيت، عليه قَبَاء خَزّ وعمامة خزّ، محتزماً برَيْطة رقيقة قد طواها، وعلى كتفيه رَيْطة صفراء فوق السيف، فلقيه بنو سليم بن كيسان في ستة عشر فارساً، ثم سار قليلاً، فتلقّاه بنو النعمان بن بشير في فوارس، ثم أتاه الوليد ابن أخي الأبرش في بني عامر من كَلْب، فحمله الوليد وكساه، وسار الوليد على الطريق ثم عدل في تَلْعة يقال لها المشبهة، فلقيه ابنُ أبي الجنوب في أهل حِمْص. ثم أتى البَخْراء، فضجَ أهلُ العسكر، وقالوا: ليس معنا عَلَف لدوابنا، فأمر رجلاً فنادى: إن أمير المؤمنين قد اشترَى زُروع القرية، فقالوا: ما نصنع بالقصيل! تضعف عليه دوابُّنا؛ وإنما أرادوا الدراهم.

قال المثنّى: أتيت الوليد، فدخلت من مؤخّر الفُسطاط، فدعا بالغَداء، فلما وُضع بين يديه أتاه رسولُ أمّ كُلْثوم بنت عبد الله بن يزيد بن عبد الملك يقال له عمرو بن مُرّة، فأخبره أنّ عبد العزيز بن الحجاج؛ قد نزل اللؤلؤة؛ فلم يلتفت إليه، وأتاه خالد بن عثمان المخراش - وكان على شُرَطه - برجل من بني حارثة بن جناب، فقال له: إنّي كنتُ بدمشق مع عبد العزيز، وقد أتيتك بالخبر؛ وهذه ألف وخمسمائة قد أخذتها - وحلّ هِمْياناً من وسطه، وأراه - وقد نزل اللؤلؤة، وهو غادٍ منها إليك، فلم يجبه والتفَت إلى رجل إلى جَنْبه، وكلمه بكلام لم أسمعْه، فسألت بعض مَنْ كان بيني وبينه عمّا قال: فقال: سأله عن النهر الذي حفره بالأردنّ: كم بقي منه؟ وأقبل عبد العزيز من اللؤلؤة، فأتى المليكة فحازَها، ووجّه منصور بن جمهور، فأخذ شرقيّ القرى - وهو تلّ مشرف في أرض مَلْساء على طريق نَهْيا إلى البَخْراءِ - وكان العباس بن الوليد تهيأ في نحو من خمسين ومائة من مواليه وولده، فبعث العباس رجلاً من بني ناجية يقال له حُبيش إلى الوليد يخيِّره بين أن يأتيَه فيكون معه؛ أو يسير إلى يزيد بن الوليد. فاتّهم الوليد العباس، فأرسل إليه يأمره أن يأتيَه فيكون معه، فلقي منصور بن جمهور الرسُول، فسأله عن الأمر فأخبره، فقال له منصور: قل له: والله لئن رحلتَ من موضعك قبل طلوع الفجر

لأقتلنّك ومَنْ معك؛ فإذا أصبح فليأخذْ حيث أحبّ. فأقام العباس يتهيّأ؛ فلما كان في السَّحَر سمعنا تكبير أصحاب عبد العزيز قد أقبلوا إلى البَخْراءِ، فخرج خالد بن عثمان المِخْراش، فعبّأ الناس؛ فلم يكن بينهم قتال حتى طلعت الشمس؛ وكان مع أصحاب يزيد بن الوليد كتاب معلّق في رمح، فيه: إنا نَدْعُوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وأن يصير الأمر شورى. فاقتتلوا فقتِل عثمان الخشبيّ، وقُتِل من أصحاب الوليد زهاءُ ستين رجلاً، وأقبل منصور بن جُمهور على طريق نِهْيا، فأتى عسكر الوليد مِن خلفهم؛ فأقبل إلى الوليد وهو في فُسطاطه؛ ليس بينه وبين منصور أحد. فلما رأيتُه خرجتُ أنا وعاصم بن هبيرة المَعافريّ خليفة المخراش، فانكشف أصحاب عبد العزيز، ونكص أصحاب منصور، وصُرع سُميّ بن المغيرة وقُتِل، وعدل منصور إلى عبد العزيز. وكان الأبرش على فرس له يدعى الأديم، عليه قَلَنسوة ذات أذنين؛ قد شدْها تحت لحيته؛ فجعل يصيح بابن أخيه: يابن اللخناء، قدّمْ رايتَك، فقال له: لا أجدُ متقدّماً، إنها بنو عامر. وأقبل العباس بن الوليد فمنَعه أصحاب عبد العزيز، وشدّ مولى لسليمان بن عبد الله بن دحْية ـ يقال له التركيّ ـ على الحارس بن العباس بن الوليد، فطعنه طعنة أذْراه عن فرسه؛ فعدل العباس إلى عبد العزيز، فأسقِط في أيدي أصحاب الوليد وانكسروا. فبعث الوليد بن يزيد الوليدَ بن خالد إلى عبد العزيز بن الحجاج بأن يعطَيه خمسين ألف دينار، ويجعل له ولاية حِمْص ما بقي، ويؤمِّنه على كلّ حَدَث، على أن ينصرف ويكفّ؛ فأبى ولم يجبه، فقال له الوليد: ارجعْ إليه فعاوِدْه أيضاً، فأتاه الوليد فلم يجبه إلى شيء، فانصرف الوليد؛ حتى إذا كان غيرَ بعيد عطف دابَّته، فدنا من عبد العزيز، فقال له: أتجعل لي خمسة آلاف دينار وللأبرش مثلها، وأن أكون كأخصّ رجل من قومي منزلة وآتيك، فأدخل معك فيما دخلت فيه؟ فقال له عبد العزيز: على أن تحمل الساعة على أصحاب الوليد؛ ففعل. وكان على ميمنة الوليد معاوية بن أبي سفيان بن يزيد بن خالد، فقال لعبد العزيز: أتجعل لي عشرين ألف دينار وولاية الأردنّ والشركة في الأمر على أن أصبر معكم؟ قال: على أن تحمل على أصحاب الوليد من ساعتك، ففعل، فانهزم أصحاب الوليد. وقام الوليد فدخل البَخْراء، وأقبل عبد العزيز فوقف على الباب وعليه سلسلة، فجعل الرّجل بعد الرّجل يدخل من تحت السلسلة. وأتى عبْدَ العزيز عبد السلام بن بكير بن شمّاخ اللخميّ، فقال له: إنه يقول: أخرج على حُكْمك، قال: فليخرج؛ فلما ولّى قيل له: ما تصنع بخروجه! دعه يكفيكه الناس. فدعا عبد السلام فقال: لا حاجة لي فيما عَرَض عليّ، فنظرت إلى شابّ طويل على فرس، فدنا من حائط القَصْر فعلاه، ثم صار إلى داخل القصر. قال: فدخلت القصر، فإذا الوليد قائم في قميص قَصَب وسراويل وَشيْ، ومعه سيف في غمد والناس يشتمونه، فأقبل إليه بشر بن شيبان مولى كنانة بن عمير؛ وهو الذي دخل من الحائط، فمضى الوليد يريد الباب ـ أظنه أراد أن يأتي عبد العزيز ـ وعبد السلام عن يمينه ورسول عمرو بن قيس عن يساره، فضربه على رأسه؛ وتعاوره الناس بأسيافهم فقتِل، فطرح عبد السلام نفسَه عليه يحتزُّ رأسه ـ وكان يزيد بن الوليد قد جعل في رأس الوليد مائة ألف ـ وأقبل أبو الأسد مولى خالد بن عبد الله القسريّ فسلخ من جلد الوليد قَدْر الكفّ، فأتى بها يزيدَ بن خالد بن عبد الله، وكان محبوساً في عسكر الوليد، فانتهب الناس عسكر الوليد وخزائنه، وأتاني يزيد العُلَيميّ أبو البَطريق بن يزيد؛ وكانت ابنته عند الحكيم بن الوليد، فقال: امنع لي متاع ابنتي، فما وصل أحدُ إلى شيء زعم أنه له.

قال أحمد: قال عليّ: قال عمرو بن مَروان الكلبيّ: لما قُتل الوليد قُطعت كفّه اليسرى، فبُعث بها إلى يزيد بن الوليد، فسبقت الرّأس؛ قُدِم بها ليلة الجمعة، وأُتِيَ برأسه من الغِد، فنصبه للناس بعد الصلاة. وكان

أهل دمشق قد أرجفوا بعبد العزيز، فلما أتاهم رأس الوليد سكتوا وكفّوا. قال: وأمر يزيد بنصب الرأس، فقال له يزيد بن فروة مولى بني مروان. إنما تنصب رؤوس الخوارج، وهذا ابنُ عَمّك؛ وخليفة، ولا آمنُ إن نصبتَه أن ترقّ له قلوب الناس، ويغضب له أهل بيته؛ فقال: والله لأنصبنّه، فنصبه على رمح، ثم قال له: انطلق به، فطُفْ به في مدينة دمشق؛ وأدخله دار أبيه. ففعل، فصاح الناس وأهل الدار، ثم ردّه إلى يزيد، فقال: انطلق به إلى منزلك؛ فمكث عنده قريباً من شهر، ثم قال له: ادفعه إلى أخيه سليمان ـ وكان سليمان أخو الوليد ممن سعى على أخيه ـ فغسل ابن فروة الرّأس، ووضعه في سَفط، وأتى به سليمان، فنظر إليه سليمان، ؛ فقال: بُعداً له! أشهد أنه كان شَرُوباً للخمر، ماجناً فاسقاً؛ ولقد أرادني على نفسي الفاسق. فخرج ابن فروة من الدار، فتلقّته مولاة للوليد، فقال لها: ويحك! ما أشدَّ ما شتمه! زعم أنه أراده على نفسه! فقالت: كذب والله الخبيث، ما فعل، ولئن كان أراده على نفسه لقد فَعَل؛ وما كان ليقدر على الامتناع منه.

وحدثني أحمد، عن عليّ، عن عمرو بن مروان الكلبيّ، قال: حدثني يزيد بن مَصَاد عن عبد الرحمن بن مصاد، قال: بعثني يزيد بن الوليد إلى أبي محمد السفيانيّ ـ وكان الوليد وجّهه حين بلغه خبر يزيد والياً على دمشق وأتى ذَنَبَة؛ وبلغ يزيد خبره، فوجّهني إليه ـ فأتيته، فسالم وبايع ليزيد. قال: فلم نرِمْ حتى رُفع لنا شخص مُقبلٌ من ناحية البَرْيّة، فبعثت إليه، فأتيت به فإذا هو الغُزَيِّل أبو كامل المغنّي، على بغلة للوليد تدعى مريم، فأخبرنا أنّ الوليد قد قتل، فانصرفت إلى يزيد، فوجدت الخبر قد أتاه قبل أن آتيَه.

حدّثني أحمد، عن عليّ، عن عمرو بن مروان الكلبيّ، قال: حدّثني دُكَين بن شمّاخ الكلبيّ ثم العامريّ، قال: رأيت بشر بن هلباء العامريّ يوم قُتِل الوليد ضرب باب البَخْراء بالسيف، وهو يقول:

سَنَبكِي خالداً بِمُهَنَّداتٍ ولا تَذْهَبْ صَنائعُهُ ضَلالا

وحدّثني أحمد، عن عليّ، عن أبي عاصم الزّياديّ، قال: ادّعى قتلَ الوليد عشرة، وقال: إني رأيتُ جلدةَ رأس الوليد في يدِ وَجْه الفَلْس، فقال: أنا قتلته؛ وأخذت هذه الجلدة، وجاء رجل فاحتزّ رأسه، وبقيت هذه الجلدة في يدِي. واسم وجه الفَلْس عبد الرحمن، قال: وقال الحكم بن النعمان مولى الوليد بن عبد الملك: قدم برأس الوليد على يزيد منصور بن جمهور في عشرة؛ فيهم رَوْح بن مُقْبل، فقال رَوْح: يا أميرَ المؤمنين؛ أبشر بقتل الفاسق وأسرِ العباس؛ وكان فيمن قدم بالرأس عبد الرحمن وَجْه الفَلْس، وبشر مولى كنانة من كلْب؛ فأعطى يزيد كلَّ رجل منهم عشرة آلاف. قال: وقال الوليد يوم قُتِل وهو يقاتلهم: مَنْ جاء برأس فله خمسمائة؛ فجاء قوم بأرؤس، فقال الوليد: اكتبوا أسماءهم، فقال رجل من مواليه ممن جاء برأس: يا أميرَ المؤمنين؛ ليس هذا بيوم يُعْمَل فيه بنسيئة!

قال: وكان مع الوليد مالك بن أبي السمح المغنّي وعمرو الوادي؛ فلما تفرّق عن الوليد أصحابُه، وحُصِر، قال مالك لعمرو: اذهب بنا، فقال عمرو: ليس هذا من الوفاء؛ ونحن لا يُعْرَضُ لنا لأنا لسنا ممن يقاتل، فقال مالك: ويلك! والله لئنْ ظفروا بنا لا يقتَل أحد قبلي وقبلك؛ فيوضع رأسه بين رأسيْنا؛ ويقال للناس: انظروا مَن كان معه في هذه الحال؛ فلا يعيبونه بشيء أشدّ من هذا؛ فهربا.

وقتل الوليد بن يزيد يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادَى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة، كذلك قال أبو معشر؛ حدثني بذلك أحمد بن ثابت، عمن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عنه. وكذلك قال هشام بن محمد

ومحمد بن عمر الواقديّ وعليّ بن محمد المدائنيّ.

واختلفوا في قَدْر المدة التي كان فيها خليفةً؛ فقال أبو معشر: كانت خلافته سنة وثلاثة أشهر، كذلك حدثني أحمد بن ثابت، عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عنه.

وقال هشام بن محمد: كانت خلافته سنة وشهرين واثنين وعشرين يوماً.

واختلفوا أيضاً في مبلغ سنّه يوم قتل، فقال هشام بن محمد الكلبيّ: قتل وهو ابن ثمان وثلاثين سنة، وقال محمد بن عمر: قتل وهو ابن ست وثلاثين سنة، وقال بعضهم: قتل وهو ابن اثنتين وأربعين سنة. وقال آخرون: وهو ابن إحدى وأربعين سنة، وقال آخرون: ابن خمس وأربعين سنة، وقال بعضهم: وهو ابن ست وأربعين سنة.

وكان يكني أبا العباس، وأمه أمّ الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفيّ؛ وكان شديد البَطْش، طويل أصابع الرجلين؛ كان يوتّد له سكة حديد فيها خيط ويُشدّ الخيط في رجله، ثم يثب على الدابة، فينتزع السكة ويركب، ما يمسّ الدابة بيده.

وكان شاعراً شَروباً للخمر؛ حدّثني أحمد، قال: حدّثنا عليّ، عن ابن أبي الزّناد، قال: قال أبي: كنتُ عند هشام وعنده الزُّهريّ، فذكرا الوليدَ فتنقّصاه وعاباه عَيْباً شديداً، ولم أعرض في شيء مما كانا فيه؛ فاستأذن الوليد، فأذن له، وأنا أعرف الغضب في وجهه، فجلس قليلاً، ثم قام. فلما مات هشام كتب فيّ فحمِلت إليه فرحّب بي، وقال: كيف حالك يابن ذكوان؟ وألطف المسألة بي، ثم قال: أتذكُر يوم الأحول وعنده الفاسق الزهريّ، وهما يعيبانني؟ قلت: أذكر ذلك؛ فلم أعرضِ في شيء مما كانا فيه، قال: صدقت؛ أرأيتَ الغلام الذي كان قائماً على رأس هشام؟ قلت: نعم، قال: فإنه نمَّ إليّ بما قالا؛ وايمُ الله لو بقيَ الفاسق - يعني الزُّهريّ - لقتلته، قلتُ: قد عرفتُ الغضب في وجهك حين دخلت. ثم قال: يابن ذكوان، ذهب الأحول بعمري، فقلت: بل يطيل الله لك عمرك يا أمير المؤمنين، ويمتّع الأمة ببقائك؛ فدعا بالعَشاءِ فتعشينا، وجاءت المغرب فصلينا، وتحدّثنا حتى جاءت العشاء الآخرة فصلينا وجلس، وقال: اسقني؛ فجاؤوا بإناء مغطًّى، وجاء ثلاث جوار فصُففن بين يديه بيني وبينه، ثم شرب وذهبنا فتحدثنا واستسقى فصُنعن مثل ما صنعن أولاً؛ قال: فما زال على ذلك يتحدّث ويستسقي مثل ذلك حتى طلع الفجر، فأحصيتُ له سبعين قدحاً.

وفي هذه السنة قتِل خالد بن عبد الله القسريّ.

ذكر الخبر عن مقتله وسبب ذلك:

قد تقدّم ذكرنا الخبر عن عزل هشام إياه عن عمله وولايته العراق وخراسان واستعماله على العراق يوسف بن عمر؛ وكان - فيما ذكر - عمل لهشام على ذلك خمس عشرة سنة غير أشهر؛ وذلك أنه - فيما قيل - ولي العراق لهشام سنة خمس ومائة، وعُزل عنها في جمادى الأولى سنة عشرين ومائة. ولما عزله هشام وقدم عليه يوسف واسطاً أخذه وحبسه بها، ثم شخص يوسف بن عمر إلى الحِيرة؛ فلم يزل محبوساً بالحيرة تمام ثمانية عشر شهراً مع أخيه إسماعيل بن عبد الله وابنه يزيد بن خالد وابن أخيه المنذر بن أسد بن عبد الله. واستأذن يوسف هشاماً في إطلاق يدِه عليه وتعذيبه، فلم يأذن له حتى أكثر عليه واعتلّ عليه بانكسار الخراج وذهاب الأموال فأذن له مرة واحدة، وبعث حرسيّاً يشهد ذلك؛ وحلف: لئن أتى على خالد

أجلُه وهو في يده ليقتلنّه؛ فدعا به يوسف؛ فجلس على دُكان بالحيرة وحضر الناس، وبسط عليه؛ فلم يكلّمه واحدةً حتى شتمه يوسف، فقال: يابنَ الكاهن - يعني شِقّ بن صعب الكاهن - فقال له خالد: إنك لأحمق، تعيّرني بشرفي! ولكنك يابن السبّاء، إنما كان أبوك سَبّاء خمر - يعني يبيع الخمر -. ثم ردّه إلى حبسه، ثم كتب إليه هشام يأمره بتخلية سبيله في شوال سنة إحدى وعشرين ومائة، فنزل خالد في قصر إسماعيل بن عبد الله بدُوران، خلْف جسر الكوفة، وخرج يزيد بن خالد وحده؛ فأخذ على بلاد طيّيء؛ حتى ورد دمشق، وخرج خالد ومعه إسماعيل والوليد؛ قد جهزّهم عبد الرحمن بن عنبسة بن سعيد بن العاص، وبعث بالأثقال إلى قصر بني مقاتل، وكان يوسف قد بعث خيلا، فأخذت الزاد والأثقال والإبل وموالي لخالد كانوا فيها، فضرب وباع ما أخذ لهم، وردّ بعض الموالي إلى الرّقّ، فقدم خالد قصر بني مقاتل؛ وقد أخِذ كل شيء لهم، فسار إلى هِيت، ثم تحمّلوا إلى القرية - وهي بإزاء باب الرُّصافة - فأقام بها بقيّة شوال وذا القعدة وذا الحجة والمحرّم وصَفر؛ لا يأذن لهم هشام في القدوم عليه؛ والأبْرَشُ يكاتب خالداً. وخرج زيد بن عليّ فقُتِل.

قال الهيثم بن عديّ - فيما ذكر عنه -: وكتب يوسف إلى هشام: إن أهلَ هذا البيت من بني هاشم قد كانوا هلكوا جوعاً؛ حتى كانت همّةُ أحدهم قوت عياله؛ فلما ولي خالد العراق أعطاهم الأموال فقَوْوا بها حتى تاقت أنفسهم إلى طلَب الخلافة، وما خرج زيد إلا عن رأي خالد؛ والدليل على ذلك نزولُ خالد بالقرية على مَدْرَجة العراق يتنشق أخبارها .

فسكت هشام حتى فرغ من قراءة الكتاب، ثم قال للحكم بن حَزْن القينيّ - وكان على الوفد، وقد أمره يوسف بتصديق ما كتَب به، ففعل - فقال له هشام: كذبت وكذبَ مَنْ أرسلك؛ ومهما اتّهمنا خالداً فلسنا نتّهمه في طاعة؛ وأمر به فوجِئَتْ عنقه. وبلغ الخبرُ خالداً فسار حتى نزل دمشق فأقام حتى حضرت الصائفة، فخرج فيها ومعه يزيد وهشام ابنا خالد بن عبد الله؛ وعلى دمشق يومئذ كلثوم بن عِيَاض القسريّ، وكان متحاملاً على خالد؛ فلما أدربوا ظهر في دور دمشق حريق؛ كلّ ليلة يلقيه رجل من أهل العراق يقال له أبو العمرَّس وأصحاب له؛ فإذا وقع الحريق أغاروا يسرِقون. وكان إسماعيل بن عبد الله والمنذر بن أسد بن عبد الله وسعيد ومحمد ابنا خالد بالساحل لحدث كان من الروم؛ فكتب كلثوم إلى هشام يذكر الحريق، ويخبره أنه لم يكن قطّ؛ وإنه عمَلُ موالي خالد؛ يريدون الوثوب على بيت المال. فكتب إليه هشام يأمره أن يحبس آل خالد؛ الصغيرمنهم والكبير، ومواليهم والنساء؛ فأخِذ إسماعيل والمنذر ومحمد وسعيد من الساحل فقدِم بهم في الجوامع ومَن كان معهم من مواليهم؛ وحبس أمّ جرير بنت خالد والرّائقة وجميع النساء والصبيان؛ ثم ظهر على أبي العمرّس؛ فأخِذ ومَن كان معه. فكتب الوليد بن عبد الرحمن عامل خراج دمشق إلى هشام يخبره بأخذ أبي العمرّس ومَن كان معه؛ سماهم رجلًا رجلا، ونسبهم إلى قبائلهم وأمصارهم، ولم يُذكر فيهم أحد من موالي خالد، فكتب هشام إلى كلثوم يشتِمه ويعنّفه، ويأمره بتخلية سبيل جميع من حبس منهم، فأرسلهم جميعاً واحتبس الموالي رجاء أن يكلمه فيهم خالد إذا قدم من الصائفة. فلما أقبل الناس وخرجوا عن الدّرب بلغ خالداً حبسُ أهله، ولم يبلغه تخليتُهم؛ فدخل يزيد بن خالد في غمار الناس حتى أتى حمص، وأقبل خالد حتى نزل منزله من دمشق، فلما أصبح أتاه الناس، فبعث إلى ابنتيه: زينب وعاتكة؛ فقال: إني قد كبِرت وأحببت أن تليّا خدمتي؛ فسُرّتا بذلك - ودخل عليه إسماعيل أخوه ويزيد وسعيد ابناه، وأمر بالإذن، فقامت ابنتاه لتتنحيّا، فقال: وما لهما تَتنحيّان، وهشام في كلّ يوم يسوقهنّ إلى الحبس! فدخل الناس، فقام إسماعيل وابناه دون ابنتيه يسترونهما، فقال خالد: خرجتُ

غازياً في سبيل الله؛ سامعاً مطيعاً، فخُلفتُ في عَقِبي، وأخِذ حُرمَي وحُرَم أهل بيتي؛ فحبِسوا مع أهل الجرائم كما يفعل بأهل الشْرك! فما منع عصابةً منكم أن تقوم فتقول: علاَم حُبس حُرَم هذا السامع المطيع! أخفتم أن تقتلوا جميعاً! أخافكم الله! ثم قال: مالي ولهشام! ليكفنّ عني هشام أو لأدعونّ إلى عراقيّ الهوى شاميّ الدار حجازيّ الأصل - يعني محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس - وقد أذنت لكم أن تبلّغوا هشاماً. فلما بلغه ما قال، قال: خَرِف أبو الهيثم.

وذكر أبو زيد أن أحمد بن معاوية حدّثه عن أبي الخطاب، قال: قال خالد: أما والله، لئن ساء صاحب الرُّصافة - يعني هشاماً - لننصبنّ لنا الشاميّ الحجازيّ العراقيّ ولو نخر نخرةً تداعتْ من أقطارها.

فبلغت هشاماً، فكتب إليه: إنك هذَّاءةٌ هُذَرَةٌ، أبِبَجيلة القليلة الذليلة تتهدَّدني! قال: فوالله ما نصره أحد بيدٍ ولا بلسان إلّا رجل من عبس، فإنه قال:

أَلَا إنَّ بَحْـرَ الجُـودِ أَصْبـحَ سَـاجِيـاً ... أَسِيـرَ ثَقِيف مُـوثَقـاً في السّـلاَسِـلِ
فإنْ تَسْجُنوا القسريَّ لا تَسْجنوا اسمـه ... ولا تسجنـوا معْـروفَـهُ في القبـائـل

فأقام خالد ويزيد وجماعة أهل بيته بدمشق، ويوسف ملحٌّ على هشام يسأله أن يّوجه إليه يزيد. وكتب هشام إلى كُلثوم بن عياض يأمره بأخْذ يزيد والبعثة به إلى يوسف، فوجه كلثوم إلى يزيد خيلاً وهو في منزله، فشدّ عليهم يزيد، فأفرجوا له، ثم مضى على فرسه، وجاءت الخيل إلى كُلثوم فأخبروه، فأرسل إلى خالد الغدَ من يوم تنحّى يزيد خيلا، فدعا خالد بثيابه فلبسَها. وتصارخ النساء، فقال رجل منهم: لو أمرتَ هؤلاء النسوة فسكتن! فقال: ولِمَ؟ أمَا والله لولا الطاعة لعَلم عبد بني قَسْر أنه لا ينال هذه مني، فأعلِموه مقالتي؛ فإن كان عربيّاً كما يزعم؛ فليطلب جَدّه مني. ثم مضى معهم فحبس في حَبْس دمشق. وسار إسماعيل من يومه حتى قدم الرُّصافة على هشام، فدخل على أبي الزبير حاجبه فأخبره بحبس خالد، فدخل أبو الزُّبير على هشام فأعلمه، فكتب إلى كُلثوم يعنِّفه، ويقول: خليت عمّن أمرتك بحبسه، وحبست من لم آمرك بحبسه. ويأمره بتخلية سبيل خالد، فخلّاه.

وكان هشام إذا أراد أمراً أمَر الأبرش فكتب به إلى خالد، فكتب الأبرش: إنه بلغ أمـير المؤمنين أنّ عبد الرحمن بن ثويب الضِّنيّ - ضِنة سعد إخوة عُذْرة بن سعد - قام إليك، فقال: يا خالد إني لأحبك لعشر خصـال: إنّ الله كريم وأنت كـريم، والله جواد وأنت جـواد، والله رحيم وأنت رحيم، والله حليم وأنت حليم... حتى عدّ عشراً؛ وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن تحقق عنده ذلك ليستحلنّ دَمك؛ فاكتب إليّ بالأمر على وجهه لأخبِر به أمير المؤمنين. فكتب إليه خالد: ؛ إن ذلك المجلس كان أكثر أهلا من أن يجوز لأحد من أهل البغي والفجور أن يحرِّف ما كان فيه إلى غيره؛ قام إليّ عبد الرحمن بن ثُويب، فقال: يا خالد أني لأحبّك لعشر خصال: إن الله كريم يحبّ كلّ كريم، والله يحبك وأنا أحبك لحبّ الله إياك؛ حتى عدّد عشر خصال؛ ولكن أعظم من ذلك قيام ابن شقي الحِمْيري إلى أمير المؤمنين، وقوله: يا أمير المؤمنين، خليفتك في أهلك أكرمُ عليك أم رسولك؟ فقال أمير المؤمنين: بل خليفتي في أهلي، فقال ابنُ شقي: فأنت خليفة الله ومحمد رسوله؛ ولعمري لضلالة رجل من بَجيلة إن ضلّ أهون على العامة والخاصّة من ضلال أمير المؤمنين. فأقرأ الأبرش هشاماً كتابه، فقال خَرِفَ أبو الهيثم.

فأقام خالد بدمشق خلافةَ هشام حتى هلَك، فلما هلك هشام، وقام الوليد، قدم عليه أشراف الأجناد؛ فيهم خالد؛ فلم يأذن لأحد منهم. واشتكى خالد، , فاستأذن فأذِن له، فرجع إلى دمشق، فأقام أشهراً، ثم كتب إليه الوليد: إنّ أمير المؤمنين قد علِم حال الخمسين الألف ألف؛ التي تعلم، فاقدم على أمير المؤمنين مع رسوله؛ فقد أمره ألّا يُعجلك عن جِهاز.

فبعث خالد إلى عدّة من ثقاته؛ منهم عُمارة بن أبي كلثوم الأزديّ، فأقرأهم الكتاب، وقال: أشيروا عليّ؛ فقالوا: إنّ الوليد ليس بمأمون عليك؛ فالرأي أن تدخل دمشق، فتأخذ بيوت الأموال وتدعوَ إلى من أحببت؛ فأكثرُ الناس قومُك؛ ولن يختلف عليك رجلان، قال: أو ماذا؟ قالوا: تأخذ بيوت الأموال، وتقيم حتى تتوثّق لنفسك، قال: أو ماذا؟ قالوا: أو تتوارى. قال: أما قولكم: تدعو إلى من أحببت؛ فإني أكره أن تكون الفرقة والاختلاف على يدي، وأما قولكم: تتوثّق لنفسك؛ فأنتم لا تأمنون عليّ الوليد؛ ولا ذنب لي، فكيف ترجون وفاءه لي وقد أخذتُ بيوت الأموال! وأما التواري؛ فوالله ما قنّعت رأسي خوفاً من أحد قطّ؛ فالآن وقد بلغت من السنّ ما بلغت! لا، ولكن أمضي وأستعين الله.

فخرج حتى قدم على الوليد، فلم يدعُ به، ولم يكلّمه وهو في بيته؛ معه مواليه وخدمُه، حتى قُدِم برأس يحيى بن زيد من خُراسان، فجمع الناس في رِواق، وجلس الوليد، وجاء الحاجب فوقف، فقال له خالد: إن حالي ما ترى؛ لا أقدر على المشي؛ وإنما أحمَل في كرسيّ، فقال الحاجب: لا يدخل عليه أحد يُحمَل، ثم أذن لثلاثة نَفَر، ثم قال: قم يا خالد، فقال: حالي ما ذكرت لك، ثم أذن لرجل أو رجلين؛ فقال: قم يا خالد، فقال: إن حالي ما ذكرت لك؛ حتى أذن لعشرة، ثم قال: قم يا خالد، وأذن للناس كلهم، وأمر بخالد فحمِل على كرسيّه؛ فدخِل به والوليد جالسٌ على سريره، والموائد موضوعة، والناس بين يديه سماطان، وشبّة بن عقّال ـ أو عقّال بن شبّة ـ يخطب، ورأس يحيى بن زيد منصوب، فمِيلَ بخالد إلى أحد السماطين، فلما فرغ الخطيب قام الوليد وصُرف الناس، وحُمل خالد إلى أهله؛ فلما نزع ثيابه جاءه رسول الوليد فردّه، ؛ فلما صار إلى باب السرادق وقف فخرج إليه رسول الوليد، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: أين يزيد بن خالد؟ فقال: كان أصابه من هشام ظفر، ثم طلبه فهرب منه، وكنا نراه عند أمير المؤمنين حتى استخلفه الله؛ فلما لم يظهر ظننّاه ببلاد قومه من السّراة، وما أوشكه. فرجع إليه الرسول، فقال: لا ولكنك خلّفته طلبا للفتنة. فقال خالد للرسول: قد علم أمير المؤمنين أنّا أهلَ بيت طاعة، أنا وأبي وجدي ـ قال خالد: وقد كنت أعلم بسرعة رجعة الرسول؛ أنّ الوليد قريب حيث يسمع كلامي ـ فرجع الرّسول، فقال: يقول لك أمير المؤمنين؛ لتأتينَ به أو لأزهقنّ نفسك. فرفع خالد صوتَه، وقال: قل له: هذا أردتَ، وعليه دُرْتَ؛ والله لو كان تحت قدميّ ما رفعتُهما لك عنه؛ فاصنع ما بدا لك! فأمر الوليد غيلان صاحب حرسه بالبَسْط عليه، وقال له: أسمعني صوته، فذهب به غَيْلان إلى رَحْله، فعذّبه بالسلاسل، فلم يتكلم، فرجع غَيْلان إلى الوليد، فقال: والله ما أعذّب إنساناً؛ والله ما يتكلم ولا يتأوّه، فقال: اكفُف عنه واحبسه عندك. فحبسه حتى قدم يوسف بن عمر بمالٍ من العراق، ثم أداروا الأمر بينهم، وجلس الوليد للناس ويوسف عنده؛ فتكلّم أبان بن عبد الرحمن النميريّ في خالد، فقال يوسف: أنا أشتريه بخمسين ألف ألف، فأرسل الوليد إلى خالد: إنّ يوسف يشتريك بخمسين ألف ألف؛ فإن كنت تضمنها وإلّا دفعتُك إليه، فقال خالد: ما عهدت العرب تُباع؛ والله لو سألتني أن أضمن هذا ـ ورفع عوداً من الأرض ـ ما ضمنتُه، فرَ رأيك.

فدفعه إلى يوسف، فنزع ثيابه ودرعّه عباءة ولحفه بأخرى، وحمله في محمل بغير وطاء، وزميله أبو قحافة المُريّ ابن أخي الوليد بن تَلِيد ـ وكان عامل هشام على الموصل، فانطلق به حتى نزل المحْدَثة، على مَرْحلة من عسكر الوليد. ثم دعا به فذكر أمَّه، فقال: وما ذكر الأمهات لعنك الله! والله لا أكلمك كلمة أبداً. فبسط عليه، وعذّبه عذاباً شديداً وهو لا يكلّمه كلمة. ثم ارتحل به حتى إذا كان ببعض الطريق بعث إليه زيد بن تميم القينيّ بشربة سويق حبّ رمّان مع مولى له يقال له سالم النفّاط، فبلغ يوسف فضرب زيداً خمسمائة سوط، وضرب سالماً ألف سوط. ثم قدم يوسف الحيرة فدعا به وبإبراهيم ومحمد ابني هشام فبسط على خالد، فلم يكلّمه، وصبر إبراهيم ابن هشام وخَرِعَ محمد بن هشام. فمكث خالد يوماً في العذاب، ثم وَضَع على صدره المضرّسة فقتله من الليل، ودفن بناحية الحيرة في عباءته التي كان فيها، وذلك في المحرّم سنة ست وعشرين ومائة في قول الهيثم بن عديّ، فأقبل عامر بن سهلة الأشعريّ فعقر فرسه على قبره، فضربه يوسف سبعمائة سوط.

قال أبو زيد: حدّثني أبو نُعيم قال: حدّثني رجل، قال: شهدتُ خالداً حين أتِيَ به يوسف، فدعا بعود فوضع على قدميه، ثم قامت عليه الرّجال حتى كسِرت قدماه؛ فوالله ما تكلّم ولا عبَس، ثم على ساقيه حتى كُسِرَتا، ثم على فخذيه ثم على حَقْويه ثم على صدره حتى مات، فوالله ما تكلم ولا عبَس، فقال خلف بن خليفة لما قتِل الوليد بن يزيد:

لقــد سَكَّنَتْ كلبٌ وأَسباقُ مَــذْحِجٍ ... صَــدىً كـان يَـزْقـو لَيْلَهُ غَيـرَ راقِـدِ
تَـرَكْـنَ أَميـرَ الـمؤمـنيـنَ بـخـالـدٍ ... مُكِبّـاً على خَيْشُومِـه غيـرَ سَـاجِدِ
فـإِنْ تَقْـطَعُـوا مِنّـا مَـنـاطَ قَـلادَةٍ ... قَـطَعْنـا بـه منكمْ مَنـاطَ قَـلائِـدِ
وَإنْ تَـشْغَـلُونـا عن نـدانـا فـإِنّنـا ... شَغلنـا الـوليـدَ عن غناءِ الـولائـد
وَإِنْ سـافَـرَ القَسـريّ سَفْـرَةَ هـالـكٍ ... فـإِنَّ أَبـا العبـاسِ لـيس بشـاهِـدِ

وقال حسان بن جعدة الجعفريّ يكذّب خلف بن خليفة في قوله هذا:

إنَّ امْـرَأً يَـدَّعِي قتـلَ الـوليـدِ سِوَى ... أعمـامِـهِ لَمَلِيء النفسِ بـالكَـذِب
مـا كـانَ إلا امْـرَأً حـانَـتْ مَنِيَّتُـهُ ... سَـارتْ إليـه بنـو مرْوانَ بـالعَـرَبِ

وقال أبو مِحْجن مولى خالد:

سـائِـلْ وَليـداً وسـائِـلْ أَهـلَ عسكَـرِه ... غـداة صَبَّحَـهُ شُـؤبُـوبُنـا البَـرِدُ
هــلْ جـاءَ مِنْ مُضَـرٍ نَفْسٌ فَتَمْنَعَـهُ ... والخَيْـلُ تحْتَ عجـاجِ الموتِ تَـطّرِدُ
مَنْ يهْجُنا جـاهِـلاً بـالشِّعْـرِ نَنْقُضُـهُ ... بـالبيض إنـا بِهـا نَهْجُـو ونَفْـتئِـدُ

وقال نصر بن سعيد الأنصاريّ:

أَبْلغْ يَـزيـدَ بَنِي كُـرْزٍ مُغَـلْغَلَةً ... أنـي شُفِيتُ بِـغَيْب غَيْـرَ مَـوْتُـور
قَـطَعْتَ أَوْصـالَ قَنُّـورٍ عـلى حَنَقٍ ... بصَـارِمٍ مِنْ سُيُوفِ الهِنْـدِ مَـأْثُـورِ
أَمْسَتْ حـلائـلُ قَـنُّـورٍ مُجَـدَّعَـةً ... لِمَصْـرَعِ العبـدِ قنُّـورِ بـن قَنُّـور
ظَـلّتْ كِـلابُ دِمَشْقٍ وَهْيَ تَنْهَشُـهُ ... كـأَنَّ أَعـضـاءَهُ أَعضـاءُ خنـزيـر

غـادَرْنَ مِنْـهُ بقـايـا عِنْـدَ مَصْـرَعِـهِ ... أنقـاضَ شِلْوٍ على الأَطنَـابِ مَجْـرور
حكّمْتَ سَيْفكَ إذ لَمْ تَـرْضَ حكمَهُمُ ... وَالسَّيْفُ يحكُمُ حكْمـاً غَيْـر تعـذِير
لا تـرْضَ مِنْ خـالـدٍ إنْ كُنْتَ مُتّئِـراً ... إلا بـكـلِّ عـظِيـم المُلكِ مَشْـهُـورِ
أسعـرْتَ مُـلكَ نِـزَارٍ ثـمَّ رُعْتَـهُـمُ ... بـالخيْـلِ تـرْكُضُ بـالشُمِّ المَغـاويـر
مـا كـانَ في آل قـنُّـور ولا وَلَـدوا ... عَـدْلاً لبـدْر سَـمَاء سـاطِـعِ النّـور

وفي هذه السنة بويع ليزيد بن الوليد بن عبد الملك؛ الذي يقال له يزيد الناقص؛ وإنما قيل: يزيد الناقص لنقصه الناس الزيادة التي زادهموها الوليد بن يزيد في أعطياتهم؛ وذلك عشرة عشرة، فلما قتِل الوليد نقصهم تلك الزيادة؛ وردّ أعطياتهم إلى ما كانت عليه أيام هشام بن عبد الملك.

وقيل: أوّل مَن سماه بهذا الأسم مروان بن محمد، حدّثني أحمد بن زهير، قال: حدّثنا عليّ بن محمد، قال: شتم مروان بن محمد يزيدَ بن الوليد فقال: الناقص بن الوليد؛ فسمّاه الناس الناقصَ لذلك.

وفي هذه السنة اضطرب حبل بني مروان وهاجت الفتنة.

ذكر الخبر عما حدث فيها من الفتن:

فكان في ذلك وثوب سليمان بن هشام بن عبد الملك بعد ما قتِل الوليد بن يزيد بعمّان. فحدثني أحمد بن زهير، عن عليّ بن محمد قال: لما قتِل الوليد خرج سليمان بن هشام من السجن، وكان محبوساً بعَمّان، فأخذ ما كان بعمّان من الأموال، وأقبل إلى دمشق، وجعل يلعن الوليد ويعيبه بالكفر.

وفيها كان وثوب أهل حِمْص بأسباب العباس بن الوليد وهدمهم داره وإظهارهم الطلب بدم الوليد بن يزيد.

ذكر الخبر عن ذلك:

حدّثني أحمد عن عليّ، قال: كان مَرْوان بن عبد الله بن عبد الملك عاملاً للوليد على حِمْص، وكان من سادة بني مَرْوان نُبلاً وكرماً وعقلا وجمالاً، فلما قُتِل الوليد بلغ أهلَ حمص قتلُه، فأغلقوا أبوابها، وأقاموا النوائح والبواكي على الوليد، وسألوا عن قتله، فقال بعض من حضرهم: ما زلنا منتصفين من القوم قاهرين لهم؛ حتى جاء العباس بن الوليد، فمال إلى عبد العزيز بن الحجاج. فوثب أهل حمْص فهدموا دارَ العباس وانتهبوها وسلبوا حُرَمه، وأخذوا بنيه فحبسوهم وطلبوه. فخرج إلى يزيد بن الوليد. وكـاتبوا الأجنـاد، ودعوْهم ألى الطلب بدم الوليد؛ فأجابوهم. وكتب أهل حمص بينهم كتاباً؛ ألّا يدخلوا في طاعة يزيد؛ وإن كان وليًا عهد الوليد حيَّين قاموا بالبيعة لهما وإلا جعلوها لخير من يعلمون؛ على أن يُعطيهم العطاء من المحرّم إلى المحرَّم، ويعطيهم للذرّية. وأمّرُوا عليهم معاوية بن يزيد بن حصين، فكتب إلى مروان بن عبد الله بن عبد الملك وهو بحمْص في دار الإمارة، فلما قرأه قال: هذا كتاب حَضرَه من الله حاضر. وتابعهم على ما أرادوا.

فلما بلغ يزيدَ بن الوليد خبرُهم، وجّه إليهم رسُلاً فيهم يعقوب بن هانىء، وكتب إليهم: إنه ليس يَدْعو إلى نفسه، ولكنه يدعوهم إلى الشورى. فقال عمرو بن قيس السَّكونيّ: رضينا بوليّ عهدنا ـ يعني ابن الوليد بن يزيد ـ فأخذ يعقوبُ بن عمير بلحيته، فقال: أيها العَشَمة، إنك قد فيّلت وذهب عقلُك؛ إن الذي تعني لو كان يتيماً في حِجْرك لم يحلّ لك أن تدفع إليه ماله، فكيف أمر الأمّة! فوثب أهل حِمْص على رسل يزيد بن الوليد

فطردوهم.

وكان أمر حِمْص لمعاوية بن يزيد بن حُصَيْن، وليس إلى مروان بن عبد الله من أمرهم شيء، وكان معهم السِّمط بن ثابت، وكان الذي بينه وبين معاوية بن يزيد متباعداً. وكان معهم أبو محمد السفيانيّ فقال لهم: لوقد أتيتُ دمشق، ونظر إليّ أهلها لم يخالفوني. فوجّه يزيد بن الوليد مَسْرُور ابن الوليد والوليد بن رَوْح في جمع كبير، فنزلوا حُوّارين، أكثرهم بنو عامر من كلْب. ثم قدم على يزيد سليمان بن هشام فأكرمه يزيد، وتزوّج أختَه أم هشام بنت هشام بن عبد الملك، وردّ عليه ما كان الوليد أخذه من أموالهم، ووجّهه إلى مسرور بن الوليد والوليد بن رَوْح، وأمرهما بالسمع والطاعة له. وأقبل أهل حِمْص فنزلوا قرية لخالد بن يزيد بن معاوية.

حدّثني أحمد، قال: حدّثنا عليّ، عن عمرو بن مروان الكلبيّ، قال: حدّثني عمرو بن محمد ويحيى بن عبد الرّحمن البَهرانيّ، قالا: قام مَرْوان بن عبد الله، فقال: يا هؤلاء؛ إنكم خرجتم لجهاد عدّوكم والطلب بدم خليفتكم، وخرجتم مخرجاً أرجو أن يُعظِم الله به أجركم، ويحسن عليه ثوابكم، وقد نجم لكم منهم قَرْن، وشال إليكم منهم عُنُقٌ، إن أنتم قطعتموه اتبعه ما بعده، وكنتم عليه أحرى، وكانوا عليكم أهون، ولست أرى المضيّ إلى دمشق وتخليف هذا الجيش خلفكم. فقال السِّمط: هذا والله العدوّ القريب الدار؛ يريد أن ينقض جماعَتكم؛ وهو مُمَايل للقَدرِيّة. قال: فوثب الناس على مروان بن عبد الله فقتلوه وقتلوا ابنه، ورفعوا رأسيْهما للناس؛ وإنّما أراد السِّمط بهذا الكلام خلافَ معاوية بن يزيد، فلما قُتِل مروان بن عبد الله ولّوْا عليهم أبا محمد السفيانيّ، وأرسلوا إلى سليمان بن هشام: إنا آتوك فأقيم بمكانك؛ فأقام. قال: فتركوا عسكر سليمان ذاتَ اليسار، ومضوْا إلى دمشق، وبلغَ سليمان مضيّهم، فخرج مُغِذّاً، فلقيهم بالسليمانية ـ مزرعة كانت لسليمان بن عبد الملك خلف عذراء من دمشق على أربعة عشر ميلا.

قال عليّ: فحدثني عمرو بن مروان بن بشّار والوليد بن عليّ، قالا: لما بلغ يزيد أمرُ أهل حِمْص دعا عبد العزيز بن الحجاج، فوجّهه في ثلاثة آلاف، وأمره أن يثبت على ثنيّة العُقاب، ودعا هشام بن مصاد، فوجّهه في ألف وخمسمائة، وأمره أن يثبت على عقبة السلام، وأمرهم أن يُمِدّ بعضُهم بعضاً.

قال عمرو بن مروان: فحدّثني يزيد بن مَصَاد، قال: كنت في عسكر سليمان، فلحقنا أهل حِمْص، وقد نزلوا السليمانيّة، فجعلوا الزيتون على أيمانهم، والجَبَل على شمائلهم، والجِباب خلفهم؛ وليس عليهم مأتىً إلا من وجْه واحد، وقد نزلوا أوّل الليل، فأراحوا دوابّهم، وخرجنا نسري ليلَتنا كلّها، حتى دَفعنا إليهم؛ فلما متَع النهار واشتدّ الحرّ، ودوابنا قد كلّت وثقل علينا الحديد، دنوت من مسرور بن الوليد، فقلت له ـ وسليمان يسمع كلامي: أنشدك الله يا أبا سعيد أن يُقدِم الأمير جندَه إلى القتال في هذه الحال! فأقبل سليمان فقال: يا غلام، اصبر نفسَك، فوالله لا أنزل حتى يقضيَ الله بيني وبينهم ما هو قاض. فتقدّم وعلى ميمنتِه الطُّفيل بن حارثة الكلبيّ، وعلى ميسرته الطُّفيل بن زرارة الحبشيّ، فحملوا علينا حَمْلةً، فانهزمت الميمنة والميسرة أكثر من غَلْوتين، وسليمان في القلْب لم يزُل من مكانه؛ ثم حمل عليهم أصحاب سليمان حتى ردّوهم إلى موضعهم؛ فلم يزالوا يحملون علينا ونحمل عليهم مراراً، فقتِل منهم زُهاء مائتي رجل، فيهم حرب بن عبد الله بن يزيد بن معاوية، وأصيب من أصحاب سليمان نحوٌ من خمسين رجلًا، وخرج أبو الهَلباء البَهْرانيّ ـ وكان فارسَ أهل حِمْص ـ فدعا إلى المبارزة، فخرج إليه حَيّة بن سلامة الكلبيّ فطعنه طعنة أذراه عن فرسه، وشدّ عليه أبو جعدة

(مولىً لقريش من أهل دمشق) فقتله ، وخرج ثُبيت بن يزيد البهرانيّ ، فدعا إلى المبارزة ، فخرج أليه إيراك السُّغديّ ؛ من أبناء ملوك السُّغد كان منقطعاً إلى سليمان بن هشام ـ وكان ثبيت قصيراً ، وكان إيراك جسيماً ـ فلما رآه ثُبيت قد أقبل نحوه استطرد ، فوقف إيراك ورماه بسهم فأثبت عضلة ساقه إلى لِبْده . قال : فبيناهم كذلك إذ أقبل عبد العزيز من ثَنيّة العُقاب ، فشدّ عليهم ، حتى دخل عسكرهم فقتَل ونفذ ألينا .

قال أحمد : قال عليّ : قال عمرو بن مروان : فحدّثني سليمان بن زياد الغسانيّ قال : كنت مع عبد العزيز بن الحجاج ؛ فلما عاين عسكر أهل حمص ، قال لأصحابه : موعدكم التلّ الذي في وسط عسكرهم ؛ والله لا يتخلّف منكم أحدٌ إلّا ضربتُ عنقه . ثم قال لصاحب لوائه : تقدّم ، ثم حمل وحملنا معه ؛ فما عرض لنا أحد إلا قُتِل حتى صرنا على التلّ ، فتصدّع عسكرهم ، فكانت هزيمتهم ، ونادى يزيد بن خالد بن عبد الملك القسريّ : الله الله في قومك! فكفّ الناس ، وكره ما صنع سليمان وعبد العزيز ؛ وكاد يقع الشرّ بين الذّكوانيّة وسليمان وبين بني عامر من كلْب ، فكفُّوا عنهم ؛ علَى أن يبايعوا ليزيد بن الوليد . وبعث سليمان بن هشام إلى أبي محمد السفيانيّ ويزيد خالد بن يزيد بن معاوية فأخِذا ، فمرَّ بهما على الطُّفيل بن حارثة ، فصاحا به : يا خالاه! ننشدك الله والرّحِم! فمضى معهما إلى سليمان فحبسهما ، فخاف بنو عامر أن يقتلَهما ، فجاءت جماعة منهم ؛ فكانت معهما في الفُسطاط ، ثم وجّههما إلى يزيد بن الوليد ، فحبسهما في الخَضراء مع ابني الوليد ، وحبس أيضاً يزيد بن عثمان بن محمد بن أبي سفيان ؛ خال عثمان بن الوليد معهم . ثم دخل سليمان وعبد العزيز ألى دمشق ؛ ونزلا بعذراء . واجتمع أمرُ أهل دمشق ، وبايعوا يزيد بن الوليد ، وخرجوا إلى دمشق وحِمْص وأعطاهم يزيد العَطاء ، وأجاز الأشراف منهم معاوية بن يزيد بن الحصين والسِّمط بن ثابت وعمرو بن قيس وابن حُوَى والصقر بن صفوان ؛ واستعمل معاوية بن يزيد بن حصين من أهل حمص ، وأقام الباقون بدمشق ، ثم ساروا إلى أهل الأردنّ وفِلسطين وقد قتل من أهل حِمْص يومئذ ثلاثمائة رَجُل .

وفي هذه السنة وثب أهلُ فلسطين والأردنّ على عاملهم فقتلوه

ذكر الخبر عن أمرهم وأمر يزيد بن الوليد معهم :

حدّثني أحمد ، عن عليّ بن محمد ، عن عمرو بن مروان الكلبيّ ، قال : حدثني رجاء بن رَوْح بن سلامة بن رَوْح بن زنباع ، قال : كان سعيد بن عبد الملك عاملاً للوليد على فِلَسطين ، وكان حسَن السيرة ، وكان يزيد بن سليمان سيِّد ولد أبيه ، وكان ولد سليمان بن عبد الملك ينزلون فِلسطين ، فكان أهلُ فلسطين يحبّونهم لجوارهم ؛ فلما أتى قتلُ الوليد ـ ورأس أهل فلسطين يومئذ سعيد بن روْح بن زنباع ـ كتب إلى يزيد بن سليمان : إن الخليفة قد قُتِل فاقدم علينا نولّك أمرنا . فجمع له سعيد قوْمه ، وكتب إلى سعيد بن عبد الملك ـ وهو يومئذ نازل بالسبْع : ارتحل عنّا ، فإنّا الأمر قد اضطرب ؛ وقد ولينا أمرنا رجلا قد رضينا أمره . فخرج إلى يزيد بن الوليد ، فدعا يزيد بن سليمان أهلَ فلسطين إلى قتال يزيد بن الوليد ، وبلغ أهلَ الأردنّ أمرُهم ، فولَّوْا عليهم محمد بن عبد الملك ـ وأمْرُ أهلِ فلسطين إلى سعيد بن رَوْح وضِبْعان بن رَوْح ـ وبلغ يزيدَ أمرُهم ، فوجّه إليهم سليمان بن هشام في أهل دِمشق وأهل حمص الذين كانوا مع السفيانيّ .

قال عليّ : قال عمرو بن مروان : حدّثني محمد بن راشد الخُزاعيّ أنّ أهل دمشق كانوا أربعة وثمانين ألفاً ، وسار إليهم سليمان بن هشام . قال محمد بن راشد : وكان سليمان بن هشام يرسلني إلى ضِبْعان وسعيد ابنيْ رَوْح

وإلى الحكَم وراشد ابني جِرْو من بَلْقين، فأعِدُهم وأمنّيهم على الدخول في طاعة يزيد بن الوليد، فأجابوا.

قال: وحدّثني عثمان بن داود الخَوْلانيّ، قال: وجّهني يزيد بن الوليد ومعي حذيفة بن سعيد إلى محمد بن عبد الملك ويزيد بن سليمان، يدعوهما إلى طاعته، ويعدهما ويمنّيهما، فبدأنا بأهل الأردنّ ومحمد بن عبد الملك، فاجتمع إليه جماعة منهم؛ فكلّمتُه فقال بعضهم: أصلح الله الأمير! اقتل هذا القدَريّ الخبيث، فكفهم عني الحكم بن جرو القيني. فأقيمت الصلاة فخلوتُ به، فقلتُ: إني رسول يزيد إليك، والله ما تركت ورائي راية تُعْقَدُ إلّا على رأس رجل من قومك، ولا دِرهم يخرج من بيت المال إلّا في يد رجل منهم؛ وهو يحمل لك كذا وكذا. قال: أنت بذاك؟ قلت: نعم: ثم خرجت فأتيت ضِبْعان بن رَوْح، فقلت له مثل ذلك، وقلت له: إنه يوليك فلسطين ما بَقِيَ، فأجابني فانصرفت، فما أصبحت حتى رَحل بأهلِ فلسطين.

حدّثني أحمد، عن عليّ، عن عمرو بن مَرْوان الكلبيّ، قال: سمعتُ محمد بن سعيد بن حسان الأردنيّ، قال: كنت عيْناً ليزيد بن الوليد بالأردنّ، فلما اجتمع له ما يريد ولّاني خراج الأردنّ، فلما خالفوا يزيد بن الوليد أتيتُ سليمان بن هشام، فسألته أن يوجّه معي خيلاً فأشنّ الغارة على طَبريّة، فأبى سليمان أن يوجّه معي أحداً، فخرجت إلى يزيد بن الوليد، فأخبرته الخبر، فكتب إلى سليمان كتاباً بخطه، يأمره أن يوجه معي ما أردت؛ فأتيتُ به سليمان، فوجه معي مسلم بن ذَكْوان في خمسة آلاف، فخرجت بهم ليلاً حتى أنزلتهم البطيحة، فتفرّقوا في القُرى، وسرت أنا في طائفة منهم نحو طبريّة، وكتبوا إلى عسكرهم، فقال أهل طَبريّة: علام نقيم والجنود تجوس منازلنا وتحكم في أهالينا! ومضوا إلى حجرة يزيد بن سليمان ومحمد بن عبد الملك، فانتهبوهما وأخذوا دوابّها وسلاحها، ولحقوا بقراهم ومنازلهم؛ فلما تفرّق أهلُ فلسطين والأردنّ، خرج سليمان حتى أتى الصِّنَّبْرَة، وأتاه أهل الأردنّ، فبايعوا ليزيد بن الوليد؛ فلما كان يوم الجمعة وجّه سليمان إلى طَبريّة، وركب مركبا في البحيرة، فجعل يسايرهم حتى أتى طبريّة، فصلى بهم الجمعة، وبايع مَنْ حضر ثم انصرف إلى عسكره.

حدثني أحمد، قال: حدَّثنا عليّ، عن عمرو بن مَرْوان الكلبيّ، قال: حدّثني عثمان بن داود، قال: لما نزل سليمان الصِّنّبرة، أرسلني إلى يزيد بن الوليد، وقال لي: أعلِمْه أنك قد علمت جفاء أهل فلسطين، وقد كفى الله مؤونتهم، وقد أزمعت على أن أوليَّ ابنَ سراقة فلسطين والأسود بن بلال المحاربيّ الأردنّ. فأتيت يزيد، فقلت له ما أمرني به سليمان، فقال: أخبرني كيف قلت لضِبْعان بن رَوْح؟ فأخبرته، قال: فما صنع؟ قلت: ارتحلَ بأهل فلسطين، وارتحل ابن جِرْو بأهل الأردنّ قبل أن يُصْبحا. قال: فليسا بأحقّ بالوفاء منا، ارجع فمرْه ألّا ينصرف حتى ينزل الرْملة، فيبايعْ أهلها، وقد استعملتُ إبراهيم بن الوليد على الأردنّ وضِبعان بن رَوْح على فلسطين ومسرور بن الوليد على قنّسرين وابن الحصين على حِمْص.

ثم خطب يزيد بن الوليد بعد قَتْل الوليد، فقال بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على نبيه محمد ﷺ.

أيها الناس؛ إني والله ما خرجتُ أشَراً ولا بطراً ولا حرصاً على الدنيا، ولا رغبة في الملك، وما بي إطراء نفسي؛ إني لظلوم لنفسي إن لم يرحمْني ربي؛ ولكني خرجتُ غضباً لله ورسوله ودينه، داعياً إلى الله وكتابه وسنة نبيه ﷺ؛ لمّا هدمت معالم الهدى، وأطفىء نور أهل التقوى، وظهر الجبّار العنيد، المستحلّ لكل حرمة، والرّاكب لكلّ بدعة؛ مع أنه والله ما كان يصدّق بالكتاب، ولا يؤمن بيوم الحساب؛ وإنه لابنُ عمّي في

الحسب، وكفيّي في النسب؛ فلما رأيتُ ذلك استخرت الله في أمره، وسألته ألّا يكلني إلى نفسي، ودعوت إلى ذلك مَن أجابني من أهل ولايتي، وسعيت فيه حتى أراح الله منه العباد والبلاد بحوْل الله وقوّته، لا بحوْلي وقوتي.

أيّها الناس، إنّ لكم عليَّ ألّا أضع حجراً على حجر، ولا لَبِنة على لَبِنة؛ ولا أكْرِي نهراً، ولا أكثِر مالاً، ولا أعطيه زوجة ولا ولداً، ولا أنقل مالا من بلدة إلى بلدة حتى أسدَّ ثغر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يُعينُهم؛ فإن فَضل فضلٌ نقلته إلى البلد الذي يليه؛ ممن هو أحوج إليه؛ ولا أجمّركم في ثغوركم فأفتنَكم وأفتِن أهليكم؛ ولا أغلِق بابي دونَكم؛ فيأكل قويّكم ضعيفكم، ولا أحمل على أهل جِزْيتكم ما يُجْليهم عن بلادهم ويقطع نسلهم؛ وإنّ لكم أعطياتِكم عندي في كلّ سنة وأرزاقكم في كلّ شهر؛ حتى تستدرّ المعيشة بين المسلمين، فيكون أقصاهم كأدناهم، فإن وفيتُ لكم بما قلت؛ فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة، وإن أنا لم أفِ فلكم أن تخلعوني؛ إلا أن تستتيبوني؛ فإن تبتُ قبلتم مني، فإن علمتم أحداً ممن يُعرَفُ بالصلاح يُعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم فأردتم أن تبايعوه؛ فأنا أوّل مَن يبايعه، ويدخل في طاعته.

أيّها الناس، إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا وفاء له بنقض عهد؛ إنما الطاعة طاعة الله؛ فأطيعوه بطاعة الله ما أطاع، فإذا عصى الله ودعا إلى المعصية، فهو أهل أن يُعصَى ويُقتل. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

ثم دعا الناس إلى تجديد البيعة له، فكان أول مَن بايعه الأفقم يزيد بن هشام. وبايعه قيس بن هانىء العبسيّ، فقال: يا أمير المؤمنين، أتّق الله، ودُمْ على ما أنت عليه، فما قام مقامك أحدٌ من أهل بيتك؛ وإن قالوا: عمر بن عبد العزيز فأنت أخذتها بحبل صالح، وإن عمك أخذها بحبل سوء. فبلغ مروان بن محمد قولُه، فقال: ماله قاتله الله ذمّنا جميعاً وذمّ عمر! فلما ولَى مروان بعث رجلاً. فقال: إذا دخلتَ مسجد دمشق فانظر قيس بن هانىء، فإنه طالما صلّى فيه، فاقتله؛ فانطلق الرجل، فدخل مسجد دمشق، فرأى قَيْساً يصلي فقتله.

وفي هذه السنة عَزل يزيد بن الوليد يوسفَ بن عمر عن العراق وولاها منصورَ بن جُمْهور.

ذكر الخبر عَنْ عزل يوسف بن عمر وولاية منصور بن جُمْهور

ولما استوثق ليزيد بن الوليد على الطاعة أهل الشأم، ندب - فيما قيل - لولاية العراق عبدَ العـزيز بن هارون بن عبدالله بن دحية بن خليفة الكلبيّ، فقال له عبد العزيز: لو كان معي جند لقبلت، فتركه وولّاها منصور بن جمهور.

وأما أبو مِخنف، فإنه قال - فيما ذكر هشام بن محمد عنه: قتِل الوليد بن يزيد بن عبد الملك يوم الأربعاء، لليلتين بقيّتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة، وبايع الناس يزيد بن الوليد بن عبد الملك بدمشق، وسار منصور بن جمهور من البَخْراء في اليوم الذي قتِل فيه الوليد بن يزيد إلى العراق، وهو سابع سبعة، فبلغ خبرُه يوسفَ بن عمر فهرب. وقدم منصور بن جمهور الحيرة في أيام خَلَوْن من رجب، فأخذ بيوت الأموال، فأخرج العطاء لأهل العطاءِ والأرزاق، واستعمل حُرَيث بن أبي الجهم على وَاسط، وكان عليها محمد بن نُباتة،

فطرقه ليلاً فحبسه وأوثقه، واستعمل جرير بن يزيد بن يزيد بن جرير على البصرة، وأقام منصور وولّى العمال، وبايع ليزيد بن الوليد بالعراق، وفي كورها، وأقام بقيّة رجب وشعبان ورمضان، وانصرف لأيام بَقِينَ منه.

وأما غيرُ أبي مخنف فإنه قال: كان منصور بن جمهور أعرابيًّا جافياً غَيْلانيًّا، ولم يكن من أهل الدّين؛ وإنما صار مع يزيد لرأيه في الغَيْلانيّة، وحميّةً لقتل خالد، فشهد لذلك قتل الوليد، فقال يزيد له لما ولاه العراق: قد وليتُك العراق فسر إليه، واتّق الله، واعلم أني إنما قتلت الوليد لفسقه ولما أظهرَ من الجوْرْ؛ فلا ينبغي لك أن تركب مثل ما قتلناه عليه. فدخل على يزيد بن الوليد يزيدُ بن حجرة الغسانيّ ـ وكان دَيّنا فاضلا ذا قَدْر في أهل الشأم، قد قاتل الوليد ديانةً ـ فقال: يا أمير المؤمنين، أولّيتَ منصوراً العراق؟ قال: نعم، لبلائه وحسن معونته، قال: يا أميرَ المؤمنين؛ إنه ليس هنا في أعرابيّته وجفائه في الدين. قال: فإذَا لَمْ أولّ منصوراً في حسن معاونته فمَنْ أوَلِّي! قال: تولّي رجلاً من أهل الدين والصلاح والوقوف عند الشبهات، والعلم بالأحكام والحدود؛ ومالي لا أرى أحداً من قيس يغشاك، ولا يقف ببابك! قال: لولا أنه ليس من شأني سفك الدماء لعاجلتُ قيساً؛ فوالله ما عزّتْ إلاّ ذلّ الإسلام.

ولما بلغ يوسفَ بن عمر قتلُ الوليد، جعل يعمِد إلى مَن بحضرته من اليمانيَة فيلقيهم في السُّجون، ثم جعل يخلُو بالرجل بعد الرّجل من المضريّة، فيقول له: ما عندك إن اضطرب حبل أو انفتق فَتْق؟ فيقول: أنا رجل من أهل الشأم، أبايع مَنْ بايعوا، وأفعل ما فعلوا. فلم يرَ عندهم ما يحبّ، فأطلَق مَنْ في السجون من اليمانية، وأرسل إلى الحجاج بن عبدالله البصريّ ومنصور بن نصير ـ وكانا على خَبَر ما بينه وبين أهل الشأم ـ فأمرهما بالكتاب إليه بالخَبر، وجعل على طريق الشأم أرصاداً، وأقام بالحيرة وجلا. وأقبل منصور حتى إذا كان بالجمع؛ كتب إلى سُليمان بن سُليم بن كيسان كتاباً:

أما بعد، فإن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم؛ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردَّ له؛ وإنّ الوليدَ بن يزيد بدّل نعمة الله كفراً، فسفَك الدّماء، فسفك الله دمَه، وعجّله إلى النار! وولى خلافته مَنْ هو خيرٌ منه، وأحسن هدياً؛ يزيد بن الوليد، وقد بايعه الناس، وولّى على العراق الحارثَ بن العباس بن الوليد، ووجّهني العباس لآخذ يوسف وعماله، وقد نزل الأبيض، ورائي على مرحلتين؛ فخذ يوسف وعماله، لا يفوتنّك منهم، أحد، فاحبسهم قِبَلك. وإياك أن تخالف، فيحلّ بك وبأهل بيتك مالا قِبَل لك به، فاختر لنفسك أوْدَع.

وقيل إنه لما كان بعين التّمْر كتب إلى مَنْ بالحيرة من قوّاد أهل الشأم يُخبرهم بقتل الوليد، ويأمرهم بأخذ يوسف وعماله. وبعث بالكتب كلها إلى سليمان بن سُليم بن كَيْسان، وأمره أن يفرّقها على القوّاد، فأمسكها سليمان، ودخل على يوسف، فأقرأه كتاب منصور إليه ، فَبعل به.

قال حُريث بنُ أبي الجهم: كان مكثي بواسط؛ فما شعرت إلا بكتاب منصور بن جمهور قد جاءني أن خذْ عمال يوسف، فكنت أتولّى أمره بواسط، فجمعت مواليّ وأصحابي، فركبنا نحواً من ثلاثين رجلاً في السلاح؛ فأتينا المدينة، فقال البوابون: مَنْ أنت؟ قلتُ: حُرَيث بن أبي الجهم، فقالوا: نقسم بالله ما جاء بحريث إلا أمر مهمٌّ؛ ففتحوا الباب فدخلنا، فأخذنا العامل فاستسلم، وأصبحنا فأخذنا البَيْعة من الناس ليزيد بن الوليد.

قال: وذكر عمر بن شجرة أنّ عمرو بن محمد بن القاسم كان على السِّند، فأخذ محمد بن غزّان ـ أو

عِزّان ـ الكلبيّ، فضربه وبعث به إلى يوسف، فضربه وألزمه مالاً عظيماً يؤدّي منه في كل جمعة نجماً، وإن لم يفعل ضرب خمسة وعشرين سوطاً، فجفّت يده وبعض أصابعه، فلما ولي منصور بن جمهور العراق ولّاه السِّند وسجِسْتان، فأتى سجِسْتان فبايع ليزيد، ثم سار إلى السند، فأخذ عمرو بن محمد، فأوثقه وأمر بـه حَرساً يحرسونه، وقام إلى الصلاة، فتناول عمرو سيفاً مع الحَرَس، فاتّكأ عليه مسلولاً حتى خالط جوفه، وتصايح الناسُ؛ فخرج ابن عَزّان فقال: ما دعاك إلى ما صنعت؟ قال: خفت العذاب، قال: ما كنت أبلغ منك ما بلغتَه من نفسك. فلبث ثلاثاً ثم مات، وبايع ابن عزّان ليزيد؛ فقال يوسف بن عمر لسليمان بن سليم بن كيسان الكلبيّ حين أقرأه كتاب منصور بن جمهور: ما الرأي؟ قال: ليس لك إمام تقاتل معه، ولا يقاتل أهل الشأم الحارث بن العباس معك، ولا آمن عليك منصور بن جمهور إن قدم عليك، وما الرّأي إلا أن تلحق بشأمك؛ قال: هو رأيي، فكيف الحيلة؟ قال: تظهر الطاعة ليزيد، وتدعُو له في خُطبتك؛ فإذا قرب منصور وجّهتُ معك مَنْ أثق به. فلما نزل منصور بحيث يصبّح الناس البلدَ، خرج يوسف إلى منـزل سليمان بن سليم، فأقام به ثلاثاً، ثم وجّه معه من أخذ به طريق السَّمَاوة حتى صار إلى البَلْقاء.

وقد قيل إنّ سليمان قال له: تستخفي وتَدَع منصوراً والعملَ، قال: فعند مَنْ؟ قال: عندي، وأضعك في ثقة؛ ثم مضى سليمان إلى عمرو بن محمد بن سعيد بن العاص، فأخبره بالأمر، وسأله أن يؤويَ يوسف، وقال: أنت امرؤٌ من قريش، وأخوالك بكر بن وائل؛ فآواه. قال عمرو: فلم أر رجلاً كان مثل عُتُوّه رُعب رُعْبَه؛ أتيته بجارية نفيسة، وقلت: تدفئه وتطيّب نفسه، فوالله ما قربها ولا نظر إليها، ثم أرسل إليّ يوماً فأتيته، فقال: قد أحسنتَ وأجملت؛ وقد بقيتْ لي حاجة، قلت: هاتها، قال: تخرجني من الكوفة إلى الشأم، قلت: نعم. وصبّحنَا منصور بن جمهور، فذكر الوليد فعابه، وذكر يزيد بن الوليد. فقرظه، وذكر يوسف وجَوْره، وقامت الخطباء فشعّثوا من الوليد ويوسف، فأتيته فأقصصت قِصّتهم، فجعلت لا أذكر رجلاً ممّن ذكره بسوء إلا قال: لله عليّ أن أضربه مائة سوط، مائتي سوط؛ ثلثمائة سوط؛ فجعلت أتعجّب من طمعه في الولاية بعد؛ وتهدده الناس، فتركه سلمان بن سُليم، ثم أرسله إلى الشأم فاختفَى بها، ثم تحوّل إلى البلقاء.

ذكر عليّ بن محمد أن يوسف بن عمر وجّه رجلاً من بني كلاب في خمسمائة، وقال لهم: إن مرّ بكم يزيد بن الوليد فلا تَدعُنّه يجوز. فأتاهم منصور بن جمهور في ثلاثين، فلم يهايجوه، فانتزع سلاحهم منهم، وأدخلهم الكوفة. قال: ولم يخرج مع يوسف من الكوفة إلّا سفيان بن سلامة بن سليم بن كيسان وغسّان بن قعاس العذريّ، ومعه من ولده لصلبه ستون بين ذكر وأنثى. ودخل منصور الكوفة لأيام خَلَوْن من رجب، فأخذ بيوت الأموال، وأخرج العطَاء والأرزاق، وأطلق مَن في سجون يوسف من العمال وأهل الخراج.

قال: فلما بلغ يوسف البلقَاء حينئذ بلغ خبرُه إلى يزيد بن الوليد؛ فحدّثني أحمد بن زهير؛ قال: حدّثنا عبد الوهاب بن إبراهيم بن يزيد بن هريم، قال: حدّثنا أبو هاشم مخلّد بن محمد بن صالح مولى عثمان بن عفان، قال: سمعت محمد بن سعيد الكلبيّ ـ وكان من قوّاد يزيد بن الوليد ـ يقول: إنّ يزيد وجّهه في طلب يوسف بن عمر حيث بلغه أنه في أهله بالبلقاء، قال: فخرجت في خمسين فارساً أو أكثر، حتى أحطت بداره بالبلقاء، فلم نزل نفتّش، فلم نر شيئاً، وكان يوسف قد لبس لُبسة النساء، وجلس مع نسائه وبناته، ففتشهنّ فظفر به مع النساء، فجاء به في وَثاق، فحبسه في السجن مع الغلامين ابني الوليد، فكان في الحبس ولايةَ يزيد

كلها وشهرين وعشرة أيام من ولاية إبراهيم؛ فلما قدم مروان الشأم وقرب من دمشق ولي قتلهم يزيد بن خالد، فأرسل يزيد مولى خالد - يكنى أبا الأسد - في عدّة من أصحابه؛ فدخل السجن لشدخ الغلامين بالعَمد، وأخرج يوسف بن عمر فضرب عنقه.

وقيل: إن يزيد بن الوليد لما بلغه مصيرُ يوسف إلى البَلْقاء وجّه إليه خمسين فارساً، فعرض له رجل من بني نُمير، فقال: يابن عمّ، أنت والله مقتول فأطعني وامتنع، وائذن لي حتى أنتزعَك من أيادي هؤلاء، قال: لا، قال: فدَعْني أقتلك أنا، ولا يقتلك هذه اليمانية؛ فتغيّظنا بقتلك، قال: مالي في واحدة مما عرضتَ عليّ خيار، قال: فأنتَ أعلم.

ومضوا به إلى يزيد، فقال: ما أقدمك؟ قال: قدم منصور بن جمهور والياً فتركته والعمل، قال: لا، ولكنك كرهت أن تليَ لي. فأمر بحبسه. وقيل: إن يزيد دعا مسلم بن ذكوان ومحمد بن سعيد بن مطرِّف الكلبيّ، فقال لهما: إنه بلغني أنّ الفاسق يوسف بن عمر قد صارَ إلى البلقاء، فانطلِقا فأتياني به، فطلباه فلم يجِدَاه: فرهبَّا ابناً له، فقال: أنا أدلّكما عليه، فقال: إنه انطلق إلى مَزرعة له على ثلاثين ميلاً، فأخذا معهما خمسين رجلاً من جُنْد البلقاء، فوجدوا أثره - وكان جالساً - فلما أحسّ بهم هرب وترك نعليه، ففتّشا فوجداه بين نسوة قد ألقينْ عليه قطيفة خزّ، وجلسْنَ على حواشيها حاسرات، فجرّوا برجله، فجعل يطلب إلى محمد بن سعيد أن يُرضِيَ عنه كلبا، ويدفع عشرة آلاف دينار وديَةَ كلثوم بن عمير وهانىء بن بشر، فأقبلا إلى يزيد، فلقيه عاملٌ لسليمان على نوبة من نوائب الحرس، فأخذ بلحيته فهزّها، ونتف بعضها - وكان من أعظم الناس لحية وأصغرهم قامة - فأدخلاه على يزيد، فقبض على لحية نفسه - وإنها حينئذ لتَجوز سرّته - وجعل يقول: نتف والله يا أمير المؤمنين لحيتي، فما بقي فيها شعرة. فأمر به يزيد فحبُس في الخَضْراء، فدخل عليه محمد بن راشد، فقال له: أما تخاف أن يطّلع عليك بعض من قد وترت، فيُلقي عليك حجراً! فقال: لا والله ما فطنت إلى هذا، فنشدتك الله إلاّ كلمتَ أمير المؤمنين في تحويلي إلى مجلس غير هذا؛ وإن كان أضيقَ منه! قال: فأخبرت يزيد، فقال: ما غاب عنك من حُمقه أكثر، وما حبستُه إلا لأوجّهه إلى العراق، فيقام للناس، وتُؤخذ المظالم من ماله ودمه.

ولما قتَل يزيد بن الوليد الوليدَ بن يزيد، ووجّه منصور بن جمهور إلى العراق. كتب يزيد بن الوليد إلى أهل العراق كتاباً يذكر فيه مساوىء الوليد، فكان مما كتب به - فيما حدّثني أحمد بن زهير عن عليّ بن محمد: إنّ الله اختار الإسلام ديناً وارتضاه وطهّره، وافترض فيه حقوقاً أمر بها، ونهى عن أمور حرّمها؛ ابتلاء لعباده في طاعتهم ومعصيتهم، فأكمل فيه كلّ منقبة خير وجسيم فضل؛ ثم تولاّه، فكان له حافظاً ولأهله المقيمين حدوده وليًّا، يحوطهم ويعرّفهم بفضل الإسلام، فلم يكرم الله بالخلافة أحداً يأخذ بأمر الله وينتهي إليه فيناوئه أحدٌ بميثاق أو يحاول صرف ما حباه الله به، أو ينكث ناكث، إلاّ كان كيدُه الأوْهن، ومكرُه الأبور؛ حتى يتمّ الله ما أعطاه، ويدّخر له أجره ومثوبته، ويجعل عدوّه الأضَلّ سبيلاً، الأخسرَ عملا. فتناسخت خلفاء الله ولاة دينه، قاضين فيه بحُكْمه، متبعين فيه لكتابه؛ فكانت لهم بذلك من ولايته ونصرته ما تمّت به النعم عليهم، قد رضي الله بهم لها حتى توفي هشام.

ثم أفضى الأمر إلى عدوّ الله الوليد، المنتهك للمحارم التي لا يأتي مثلها مُسلم، ولا يُقدِم عليها كافر؛ تكرُّماً عن

غشيان مثلِها. فلما استفاض ذلك منه واستعلن، واشتدّ فيه البلاء، وسُفِكت فيه الدماء، وأخِذَت الأموال بغير حقها؛ مع أمور فاحشة، لم يكن الله ليمليَ للعاملين بها إلا قليلاً، سرتُ إليه مع انتظار مراجعته، وإعذار إلى الله وإلى المسلمين، منكراً لعمله وما اجترأ عليه من معاصي الله، متوخّياً من الله إتمام الذي نويتُ؛ من اعتدال عمود الدين، والأخذ في أهله بما هو رضاً، حتى أتيت جنداً، وقد وَغرتْ صدورهم على عدوّ الله، لما رأوا من عمله؛ فإنّ عدوّ الله لم يكن يرى من شرائع الإسلام شيئاً إلا أراد تبديلَه، والعمل فيه بغير ما أنزل الله؛ وكان ذلك منه شائعاً شاملاً، عريان لم يجعل الله فيه ستراً، ولا لأحد فيه شكًّا، فذكرتُ لهم الذي نَقِمتُ وخِفت من فساد الدين والدنيا، وحَضَضْتهم على تلافي دينهم، والمحاماة عنه؛ وهم في ذلك مُستريبون، قد خافوا أن يكونوا قد أبقَوْا لأنفسهم بما قاموا عليه، إلى أن دعوتُهم إلى تغييره فأسرعوا الإجابة.

فابتعث الله منهم بعثاً يخبرهم، من أولي الدين والرضا، وبعثت عليهم عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، حتى لقي عدوَّ الله إلى جانب قرية يقال لها البَخْراء، فدعوْه إلى أن يكون الأمر شورَى، ينظر المسلمون لأنفسهم مَنْ يقلدونه ممّن اتفقوا عليه، فلم يجب عدوّ الله إلى ذلك؛ وأبى إلاّ تتابُعاً في ضلالته؛ فبدرهم الحملة جهالة بالله، فوجد الله عزيزاً حكيماً، وأخْذَه أليماً شديداً، فقتله الله على سوء عمله وعُصبَته؛ ممن صاحبوه من بطانته الخبيثة، لا يبلغون عشرة؛ ودخل مَنْ كان معه سواهم في الحقّ الذي دُعوا إليه. فأطفأ الله جَمْرته وأراح العباد منه، فبُعداً له ولمن كان على طريقته!

أحببت أن أعلمكم ذلك، وأعجّل به إليكم، لتحمدوا الله وتشكروه، فإنكم قد أصبحتم اليومَ على أمثل حالكم؛ إذ ولاتكم خياركم، والعدل مبسوط لكم، لا يُسار فيكم بخلافِه؛ فأكثروا على ذلك حمد ربِّكم، وتابعوا منصور بن جمهور؛ فقد ارتضيتُه لكم؛ على أنّ عليكم عهد الله وميثاقه، وأعظم ما عهِد وعقد على أحد من خلقه؛ لتسمعُنّ وتطيعنّ لي، ولمن استخلفته من بعدي، ممن اتفقت عليه الأمة؛ ولكم عليّ مثل ذلك؛ لأعملنّ فيكم بأمر الله وسنة نبيه ﷺ، واتبع سبيلَ مَنْ سلف من خياركم؛ نسأل الله ربَّنا وليّنا أحسن توفيقه وخير قضائه.

وفي هذه السنة امتنع نصر بن سيار بخُراسان من تسليم عمله لعامل منصور بن جمهور، وقد كان يزيد بن الوليد ولّاها منصوراً مع العراق.

قال أبو جعفر: قد ذكرت قبلُ من خَبر نصر؛ وما كان من كتاب يوسف بن عمر إليه بالمصير إليه مع هدايا الوليد بن يزيد، وشخوص نصر من خُراسان متوجهاً إلى العراق، وتباطئه في سفره، حتى قدم عليه الخبر بقتل الوليد؛ فذكر عليّ بن محمد أنّ الباهليّ أخبره، قال: قدم على نصر بشرُ بن نافع مولى سالم الليثيّ ـ وكان على سكك العراق ـ فقال: أقبل منصور بن جمهور أميراً على العراق؛ وهرب يوسف بن عمر؛ فوجّه منصور أخاه منظور بن جمهور على الرّيّ؛ فأقبلتُ مع منظور إلى الرّي، وقلت: أقدم على نصر فأخبرُه، فلما صرتُ بنيسابور حبسني حُميد مولى نصر، وقال: لن تجاوزني أو تخبرَني؛ فأخبرته، وأخذت عليه عهد الله وميثاقه ألاّ يخبر أحداً حتى أقدم على نصر فأخبره. ففعل؛ فأقبلنا جميعاً حتى قدمنا على نصر، وهو بقصره بماجان، فاستأذنّا، فقال خصيّ له: هو نائم، فألحَحْنا عليه، فانطلق فأعلمه، فخرج نصر حتى قبض على يدي وأدخلني؛ فلم يكلمني حتى صرتُ في البيت، فساءلني فأخبرته، فقال لحميد مولاه: انطلق به؛ فأتِه بجائزة؛ ثم أتاني يونس بن عبد

ربّه وعبيدالله بن بسام فأخبرتهما، وأتاني سلم بن أحْوَز فأخبرتُه. قال: وكان خبر الوليد يوسف عند نصر، فأتوه حين بلغهم الخبر، فأرسل إليّ فلما أخبرتهم كذّبوني، فقلت: استوثق مِن هؤلاء؛ فلما مضت ثلاث على ذلك؛ جعل على ثمانين رجلاً حَرساً، فأبطأ الخبر على ما كنت قدّرت، فلما كانت الليلة التاسعة ـ وكانت ليلة نوروز ـ جاءهم الخبر على ما وصفتُ، فصرف إليّ عامة تلك الهدايا، وأمر لي ببرذوْن بسرجه ولجامه، وأعطاني سَرْجاً صينيًّا، وقال لي: أقم حتى أعطيَك تمام مائة ألف. قال: فلما تيقّن نصر قتل الوليد ردَّ تلك الهدايا، وأعتق الرقيق، وقسم روقة الجواري في ولده وخاصّته، وقسم تلك الآنية في عوامّ الناس، ووجّه العمال، وأمرهم بحسن السيرة.

قال: وأرجفت الأزد في خراسان أن منظور بن جمهور قادم خراسان؛ فخطب نصر، فقال في خطبته: إن جاءنا أميرٌ ظنين قطعنا يديه ورجليه. ثم باح به بعدُ؛ فكان يقول: عبدالله المخذول المثبور.

قال: وولّى نصر بن سيار ربيعة واليمن، وولّى يعقوب بن يحيى بن حضين على أعلى طُخارستان، ومسعدة بن عبدالله اليشكريّ على خُوارَزْم؛ وهو الذي يقول فيه خلَف:

أقــولُ لأصحــابي مَـعــاً دون كَـردَرٍ ... لَمَسْعَـدَةُ البكـريّ غَيـثُ الأرامِـلِ

ثم أتبعه بأبان بن الحكم الزهرانيّ؛ واستعمل المغيرة بن شعبة الجهضميّ على قُهستان وأمرهم بحسن السيرة، فدعا الناس إلى البيعة فبايعوه، فقال في ذلك:

أقــولُ لِـنَـصْـرٍ وبـايـعـتُـهُ ... عـلـى جُـلِّ بـكـرٍ وأحـلافِـهـا
يَـدِي لـك رَهْـنٌ بِـبَـكْـرِ الـعـرا ... قِ سَـيِّـدِهـا وابـنِ وَصَّـافِـهـا
أخَـذْتُ الـوثـيـقـةَ لـلمسلميـنَ ... لأهـلِ الـبـلاد وألّافِـهـا
إذا آل يـحـيـى إلـى مـا تُـريـدُ ... أتـتـكَ الـدِّمـاكُ بـأخـفـافِـهـا
دَعَـوْتَ الـجـنُـودَ إلـى بـيـعَـةٍ ... فـأنـصَـفْـتَـهـا كُـلَّ إنـصـافِـهـا
وَطَـدْتَ خُـراسـانَ لـلـمسلمـيـنَ ... إنِ الأرض هَـمَّـتْ بـإرجـافِـهـا
وإنْ جُـمِـعَـتْ ألـفَـةُ الـمسلمـيـنَ ... صَـرَفـتَ الـضِّـرَابَ لألّافِـهـا
أجَـارَ وَسَـلَّـمَ أهـلَ الـبـلا ... دِ والـنـازلـيـنَ بـأطـرافِـهـا
فَصِـرْتَ على الجنـدِ بـالمشـرقَيْن ... لـقـوحـاً لـهـمْ دَرُّ أخـلافِـهـا
فـنـحـن عـلـى ذاك حـتـى تـبـيـنَ ... مَـنـاهِـج سُـبْـلٍ لِـعَـرَّافِـهـا
وحـتـى تَـبُـوحَ قـريشٌ بـمـا ... تَـجُـنّ ضَـمـائـرُ أجْـوافِـهـا
فـأقـسَـمـتُ لـلمـعْـبَـرَات الـرِّتـا ... عُ لَـلْـعَـرْوُ أوفـى لأصـوافِـهـا
إلـى مـا تـؤدِّي قـريشُ الـبِـطَـا ... حِ أخـلّافُـهـا بَـعـدَ أشـرافِـهـا
فـإنْ كـان مَـنْ عَـزَّ بَـزَّ الضَّـعـيـفَ ... ضَـرْبَـنـا الـخـيـولَ بـأعْـرافِـهـا
وجَـدنـا الـعَـلائـفَ أنّـى يـكـو ... نُ يُـحْـمَـى أوَارِيُّ أعـلافِـهـا
إذا مـا تَـشَـارَكَ فـيـه كَـبـتْ ... خَـوَاصِـرُهـا بَـعْـدَ إخـطافِـهـا
فـنحـن عـلى عـهـدنـا نَـسْـتَـدِيمُ ... قُـريـشـاً ونَـرْضـى بـأحـلافِـهـا

سَنَرْضَى بظِلِّكَ كِنًّا لها وظِلُّكَ مِنْ ظِلِّ أكنافِها
لَعَلَّ قريشاً إذا ناضَلَت تُقَرْطِس في بعض أهدافها
وتُلبِسُ أغْشِيَةً بالعراقِ رَمَتْ دلوَ شَرْقٍ بِخُطّافِها
وبالأُسْد مُنّا وإنَّ الأسودَ لها لِبَدٌ فوقَ أكتافها
فإنْ حاذَرَتْ تَلَفاً في النِّفا رِ فالدَّهر أدْنى لإتلافها
فقد ثَبَتَتْ بك أقدامُنا إذا: نهارَ منهارُ أجْرافِها
وَجَدْناكَ بَرًّا رؤوفاً بنا كرأمَةِ أُمٍّ وإلطافِها
ولَمْ تَكُ بَيْعَتُنا خُلْسَةً لأسرَعِ نَشْفَةِ خَطّافِها
نِكاحَ التي أسْرَعَتْ بالحليـ ـلِ قَبْلَ تَخَضُّبِ أطْرافِها
فكَشَّفَها البَعْلُ قبلَ الصَّدا قِ فاسْتَقْبَلَتْه بِمعْتافِها

قال: وكان نصر ولّى عبدَ الملك بن عبدالله السلميّ خُوارزم؛ فكان يخطبهم ويقول في خطبته: ما أنا بالأعرابيّ الجلْف، ولا الفزاريّ المستنبط؛ ولقد كرّمتني الأمور وكرّمتها، أمَا والله لأضعنّ السيف موضعه، والسوط موضعه، والسجن مدخله، ولتجدُنّي غشمشما، أغْشَى الشَجر، ولتستقيمُنّ لي على الطريقة ورفض البكّارة في السنن الأعظم، أو لأصكّنكم صكّ القطاميّ القطا القاربَ يصكهنّ جانباً فجانباً.

قال: فقدم رجل من بَلْقين خراسان، وجّهه منصور بن جمهور، فأخذه مولًى لنصر، يقال له حميد، كان على سكّة بنيسابور؛ فضربه وكسر أنفه، فشكاه إلى نصر، فأمر له نصر بعشرين ألفاً وكساه، وقال: إنّ الذي كسر أنفك مولًى لي وليس بكفء فأقصّك منه، فلا تقلْ إلاّ خيراً. [قال: ما قبلت جائزتك، وأنا أريد ألا أذكر إلا خيراً].

قال عصمة بن عبدالله الأسديّ: يا أخا بَلْقين، أخبر مَنْ تأتي أنا قد أعددنا قيساً لربيعة وتميماً للأزد، وبقيت كنانة، ليس لها مَن يكافئها. فقال نصر: كلما أصلحتُ أمراً أفسدتموه.

قال أبو زيد عمر بن شبّة: حدثني أحمد بن معاوية عن أبي الخطاب، قال: قدم قدامة بن مصعب العبديّ ورجلٌ من كندة على نَصْر بن سيّار من قِبَل منصور بن جمهور، فقال: أمات أمير المؤمنين؟ قالا: نعم، قال: ووليَ منصور بن جمهور وهرب يوسف بن عمر عن سرير العراق؟ قالا: نعم، قال: أنا بجمهوركم من الكافرين، ثم حبسهما ووسّع عليهما، ووجّه رجلاً حتى أتى فرأى منصوراً يخطب بالكوفة، فأخرجهما، وقال لقدامة: أوليَكم رجل من كلب؟ قال: نعم؛ إنما نحن بين قيس واليمن، قال: فكيف لا يولاها رجل منكم! قال: لأنا كما قال الشاعر:

إذ ما خَشِينا مِنْ أَمِيرٍ ظُلامَةً دَعَوْنا أبا غَسَّانَ يوماً فَعَسْكَرَا

فضحك نصر، وضمّه إليه.

قال: ولما قدم منصور بن جمهور العراق ولّى عبيدالله بن العباس الكوفَة ـ أو وجده والياً عليها فأقرّه ـ وولّى شرطتَهُ ثمامة بن حوشب ثم عزَله وولّى الحجاج بن أرطاة النخعيّ.

وفي هذه السنة كتب مَرْوان بن محمد إلى الغمْر بن يزيد، أخي الوليد بن يزيد يأمره بدم أخيه الوليد.

ذكر نسخة ذلك الكتاب الذي كتب إليه:

حدّثني أحمد عن عليّ، قال: كتب مروان إلى الغمْر بن يزيد بعد قتل الوليد:

أما بعد، فإن هذه الخلافة من الله على مناهج نبوّة رسله، وإقامة شرائع دينه، أكرمهم الله بما قلّدهم، يعزّهم ويعزّ من يعزّهم، والحيْن علَى مَنْ ناوأهم فابتغى غير سبيلهم، فلم يزالوا أهل رِعاية لما استودعهم الله منها، يقوم بحقها ناهضٌ، بأنصار لها من المسلمين. وكان أهل الشأم أحسن خلقه فيه طاعة، وأذبّه عن حُرَمه وأوفاه بعهده، وأشدّه نكاية في مارِق مخالف ناكث ناكب عن الحق، فاستدرّت نعمة الله عليهم. قد عَمِر بهم الإسلام، وكُبِت بهم الشرك وأهله، وقد نكثوا أمر الله، وحاولوا نكثَ العهود، وقام بذلك من أشعل ضرامَها، وإن كانت القلوب عنه نافرة، والمطلوبون بدم الخليفة ولايةٌ من بني أمية؛ فإن دمه غير ضائع؛ وإن سكنتْ بهم الفتنة، والتأمت الأمور؛ فأمرٌ أراده الله لا مردّ له.

فاكتب بحالك فيما أبرموا وما ترى؛ فإني مطْرق إلى أن أرى غِيَراً فأسطو بانتقام، وأنتقم لدين الله المنبوذة فرائضه، المتروكة مجانة، ومعي قوم أسكن الله طاعتي قلوبَهم؛ أهلُ إقدام إلى ما قدِمت بهم عليه، ولهم نظراء صدورهم مترعة ممتلئة لو يجدون منزعا، والنّقمة دولة تأتي من الله؛ ووقت مؤجل؛ ولم أشبه محمداً ولا مروان - غير أن رأيت غِيَراً - إن لم أشمّر للقَدريّة إزاري، وأضربهم بسيفي جارحاً وطاعناً، يرمي قضاء الله بي في ذلك حيث أخذ، أو يرمي بهم في عقوبة الله حيث بلغ منهم فيها رضاه؛ وما إطراقي إلاّ لما أنتظر مما يأتيني عنك، فلا تهن عن ثأرك بأخيك فإنّ الله جارُك وكافيك، وكفى بالله طالباً ونصيراً.

حدثني أحمد، عن عليّ، عن عمرو بن مروان الكلبيّ، عن مسلم بن ذَكْوان، قال: كلّمَ يزيد بن الوليد العباسَ بن الوليد في طُفَيل بن حارثة الكلبيّ، وقال: إنه حَمل حَمالة، فإن رأيتَ أن تكتب إلى مروان بن محمد في الوصَاة به، وأن يأذن له أن يسأل عشيرته فيها - وكان مروان يمنعُ الناس أن يسألوا شيئاً من ذلك عند العطاء - فأجابه وحمله على البريد. وكان كتاب العباس ينفذ في الآفاق بكلّ ما يكتب به. وكتب يزيد إلى مروان أنه اشترى من أبي عبيدة بن الوليد ضَيعة بثمانية عشر ألف دينار، وقد احتاج إلى أربعة آلاف دينار. قال مسلم بن ذكوان: فدعاني يزيد، وقال: انطلق مع طُفَيل بهذا الكتاب، وكلّمه في هذا الأمر. قال: فخرجنا ولم يعلم العباسُ بخروجي، فلما قدمنا خِلاط، لقينا عمرو بن حارثة الكلبيّ، فسألَنا عن حالنا فأخبرناه، فقال: كذبتما؛ إن لكما ولمروان لقصّةً، قلنا: وما ذاك؟ قال: أخْلاَني حين أردت الخروج، وقال لي: جماعة أهل المِزّة يكونون ألفاً؟ قلت: وأكثر، قال: وكم بينها وبين دمشق؟ قلت: يسمعهم المنادي، قال: كم ترى عدّة بني عامر؟ (يعني بني عامر بن كلْب)، قلت: عشرون ألف رجل، فحرّك أصبعه، ولوى وجهه. قال مسلم: فلما سمعت ذلك طمعتُ في مرْوان، وكتبت إليه على لسان يزيد: أما بعد، فإني وجهت إليك ابنَ ذكوان مولاي بما سيذكره لك، ويُنْهيه إليكَ، فالق إليه ما أحببتَ، فإنه من خيار أهلي وثقات مواليّ؛ وهو شعب حصين، ووعاء أمين؛ إن شاء الله. فقدمنا على مَرْوان، فدفع طُفَيل كتاب العباس إلى الحاجب، وأخبره أنّ معه كتاب يزيد بن الوليد، فقرأه، فخرج الحاجب، وقال: أما معك كتاب غير هذا، ولا أوصاك بشيء! قلت: لا، ولكني معي مسلم بن ذكوان، فدخل فأخبره، فخرج الحاجب، فقال: مرْ مولاه بالرّواح.

قال مسلم: فانصرفت، فلما حضرت المغرب أتيت المقصورة؛ فلما صلّى مروان انصرفت لأعيد الصلاة، ولم أكن أعتدّ بصلاته، فلما استويت قائماً جاءني خَصيّ، فلما نظر أليّ انصرفت وأوجزتُ الصلاة، فلحقته، فأدخلني على مروان؛ وهو في بيت من بيوت النساء، فسلمتُ وجلست، فقال: من أنت؟ فقلت: مسلم بن ذكوان مولى يزيد، قال: مولى عتاقة أو مولى تباعة؟ قلت: مولى عتاقة؟ قال: ذاك أفضل؛ وفي كلّ ذلك فضل؛ فاذكر ما بدا لك. قلت: إن رأى الأميرُ أن يجعل لي الأمان على ما قلته، أوافقه في ذلك أو أخالفه؛ فأعطاني ما أردت، فحمَدت الله وصلّيت على نبيّه، ووصفت ما أكرم الله به بني مَرْوان من الخلافة ورضا العامة بهم، وكيف نقض الوليد العُرَى، وأفسد قلوب الناس، وَذمَّتْه العامّة؛ وذكرت حاله كلّها. فلما فرغت تكلم؛ فوالله ما حمِد الله ولا تشهّد، وقال: قد سمعت ما قلت، قد أحسنتَ وأصبت، ولنعم الرأي رأي يزيد؛ فأشهد الله أني قد بايعته، أبذل في هذا الأمر نفسي ومالي؛ لا أريد بذلك إلا ما عند الله؛ والله ما أصبحت أستزيد الوليد، لقد وصَل وفرض وأشرك في ملكه؛ ولكني أشهد أنه لا يؤمن بيوم الحساب. وسألني عن أمر يزيد، فكبّرت الأمر وعظمته، فقال: اكتم أمرك؛ وقد قضيتُ حاجَة صاحبك، وكفيته أمر حَمالته، وأمرت له بألف درهم. فأقمت أياماً، ثم دعاني ذات يوم نصفَ النهار، ثم قال: الحَق بصاحبك، وقل له: سدّدك الله، امض على أمر الله؛ فإنك بعين الله. وكتب جواب كتابي، وقال لي: إن قدرتَ أن تطوي أو تطير فطِرْ، فإنه يخرج بالجزيرة إلى ستّ ليال أو سبع خارجة؛ وقد خفت أن يطول أمرهم فلا تقدر أن تجوز. قلت: وما علمُ الأمير بذلك؟ فضحك، وقال: ليس من أهل هوى إلاّ وقد أعطيتهم الرّضا حتى أخبروني بذات أنفسهم. فقلت في نفسي: أنا واحد من أولئك، ثم قلت: لئن فعلت ذلك أصلحك الله؛ إنه قيل لخالد بن يزيد بن معاوية: أنّي أصبت هذا العلم؟ قال: وافقتُ الرجال على أهوائهم، ودخلت معهم في آرائهم؛ حتى بذلوا لي ما عندهم، وأفضوْا لي بذات أنفسهم. فوّدعته وخرجت. فلما كنت بآمِد لقيت البُرُد تتبع بعضها بعضاً بقتل الوليد؛ وإذا عبد الملك بن مروان [بن محمد] قد وثب على عامل الوليد بالجزيرة، فأخرجه منها، ووضع الأرصاد على الطريق، فتركت البُرد، واستأجرت دابّة ودليلا، فقدمت على يزيد بن الوليد.

وفي هذه السنة عزل يزيد بن الوليد منصورَ بن جمهور عن العراق، وولاها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن مروان.

ذكر الخبر عن ذلك:

ذُكِر عن يزيد بن الوليد أنه قال لعبد الله بن عمر بن عبد العزيز: إن أهل العراق يميلون إلى أبيك فسرْ إليها فقد ولّيتُكها؛ فذكر عن أبي عبيدة، قال: كان عبد الله بن عمر متألّهاً متألماً، فقدّم حين شخص إلى العراق بين يديه رُسلاً وكتباً إلى قوّاد الشأم الذين بالعراق، وخاف ألاّ يسلّم له منصور بن جمهور العمل، فانقاد له كلهم، وسلّم له منصور بن جمهور، وانصرف إلى الشأم، ففرق عبد الله بن عمر عماله في الأعمال، وأعطى الناسَ أرزاقهم وأعطياتهم؛ فنازعه قوّاد أهل الشأم وقالوا: تقسم على هؤلاء فيئَنا وهم عدوّنا! فقال عبد الله لأهل العراق: إني قد أردتُ أن أردّ فيئكم عليكم، وعلمت أنكم أحقّ به؛ فنازعني هؤلاء فأنكروا عليّ.

فخرج أهل الكوفة إلى الجبّانة، وتجمّعوا، فأرسل إليهم قوّاد أهل الشأم يعتذرون وينكرون، ويحلفون أنهم لم يقولوا شيئاً مما بلَغهم، وثار غوغاء الناس من الفريقين، فتناوشوا، وأصيب منهم رهط لم يُعْرفوا،

وعبدُ الله بن عمر بالحيرة، وعبيد الله بن العباس الكنديّ بالكوفة؛ قد كان منصور بن جمهور استخلفه عليها فأراد أهل الكوفة إخراجه من القصر، فأرسل إلى عمر بن الغضبان بن القبعثريّ، فأتاه فنحّى الناس عنه، وسكّنهم وزجر سفاءهم حتى تحاجزوا، وأمن بعضهم بعضاً. وبلغ ذلك عبد الله بن عمر، فأرسل إلى ابن الغَضْبان، فكساه وحَمله، وأحسن جائزته، وولّاه شُرَطه وخراج السواد والمحاسبات، وأمره أن يفرض لقومه، ففرض في ستين وفي سبعين.

وفي هذه السنة وقع الاختلاف في خراسان بين اليمانية والنزاريّة، وأظهر الكِرمانيّ فيها الخلاف لنصر بن سيار، واجتمع مع كلّ واحد منهما جماعة لنصرته.

ذكر الخبر عما كان بينهما من ذلك وعن السبب الذي أحدث ذلك:

ذكر عليّ بن محمد عن شيوخه؛ أن عبد الله بن عمر لمّا قدم العراق والياً عليها من قِبَل يزيد بن الوليد، كتب إلى نصر بعهده على خراسان؛ قال: ويقال: بل أتاه كتابه بعد خروج الكرمانيّ من حَبْس نصر، فقال المنجّمون لنصر: إنّ خراسان سيكون بها فتنة؛ فأمر نصر برفع حاصل بيت المال، وأعطى الناس بعض أعطياتهم ورِقاً وذهباً من الآنية التي كان اتخذها للوليد بن يزيد؛ وكان أوّل من تكلم رجل من كِندة، أفوه طُوال، فقال: العطاء العطاء! فلما كانت الجمعة الثانية، أمر نصر رجالاً من الحرَس، فلبسوا السلاح، وفرّقهم في المسجد مخافة أن يتكلم متكلم، فقام الكنديّ فقال: العطاء العطاء! فقام رجل مولى للأزْد ـ وكان يلقب أبا الشياطين ـ فتكلم، وقام حمّاد الصائغ وأبو السَّليل البكريّ، فقالا: العطاء العطاء! فقال نصر: إياي والمعصية؛ عليكم بالطاعة والجماعة؛ فاتقوا الله واسمعوا ما توعظون به.

فصعد سَلْم بن أحوز إلى نصر وهو على المنبر فكلّمه، فقال: ما يغني عنّا كلامك هذا شيئاً. ووثب أهل السوق إجر أسواقهم؛ فغضب نصر وقال: ما لكم عندي عطاء بعد يومكم هذا، ثم قال: كأني بالرّجل منكم قد قام إلى أخيه وابن عمه، فلطم وجهَه في جمل يُهْدَى له وثوب يكساه، ويقول: مولاي وظئري؛ وكأني بهم قد نبغ من تحت أرجلهم شرّ لا يطاق، وكأني بكم مطّرحين في الأسواق كالجُزُر المنحورة؛ إنه لم تطل ولاية رجل إلا ملّوها؛ وأنتم يا أهلَ خراسان؛ مسلحة في نحور العدوّ، فإياكم أن يختلف فيكم سيفان.

قال عليّ: قال عبد الله بن المبارك، قال نصر في خطبته: إني لمكفَّر ومع ذاك لمظَلَّم؛ وعسى أن يكون ذلك خيراً لي. إنكم تغشَوْن أمراً تريدون فيه الفتنة، فلا أبقى الله عليكم؛ والله لقد نشرتكم وطويتكم، وطويتكم ونشرتكم، فما عندي منكم عشرة، وإني وإياكم كما قال مَنْ كان قبلكم:

اسْتَمْسِكُوا أصحابَنا نَحدُو بكمْ ... فقد عرفنا خيركم وشَرَّكمْ

فاتقوا الله؛ فوالله لئن اختلف فيكم ليتمنّينّ الرجل منكم أنه يُخلع من ماله وولده ولم يكن رآه. يا أهل خراسان، إنكم غمطتم الجماعة، وركنتم إلى الفرقة. أسلطانَ المجهول تريدون وتنتظرون! إن فيه لهلاككم معشر العرب، وتمثّل بقول النابغة الذبيانيّ:

فإنْ يَغْلِبْ شَقاوكُمُ عليكمْ ... فإني في صَلاَحِكُم سَعَيتُ

وقال الحارث بن عبد الله بن الحشرج بن المغيرة بن الورد الجعديّ:

أَبِيتُ أرعى النجومَ مرْتَفِقاً إذا استقلَّتْ تَجْرِي أَوائِلُها
مِنْ فِتنَة أصبحَت مجَلِّلةً قد عَمَّ أهلَ الصَّلاةِ شامِلُها
مَنْ بِخُرَاسانَ والعراقِ ومَنْ بالشأم كلُّ شَجاهُ شاغِلها
فالناسُ منها في لونِ مَظلمةٍ دَهْماء ملتَجَّةٍ غياطِلُها
يمْسِي السَّفِيه الذي يُعَنَّف بالـ ـجَهْل سواءً فيها وعاقلها
والناسُ في كُرْبَةٍ يَكاد لها تَنبِذُ أولادَها حَوامِلُها
يَغدونَ منها في ظلِّ مُبْهَمَةٍ عمياءَ تغتالهم غوائلها
لا يَنظُر الناس في عواقِبها إلّا التي لا يبين قائلها
كرَغوَةِ البَكرِ أو كَصَيْحَةِ حُبْـ ـلى طَرَقتْ حولها قوابُلها
فجاء فينا أُزرَى بِوجهَتِهِ فيها خُطُوبٌ حُمْرٌ زَلازِلها

قال: فلما أتى نصراً عهده من قبَل عبد الله بن عمر قال الكِرْمانيّ لأصحابه: الناس في فتنة؛ فانظروا لأموركم رجلا - وإنما سُميّ الكرمانيّ لأنه ولد بكِرْمان، واسمه جُدَيع بن عليّ بن شبيب بن بَراري بن صُنيم المعنيّ - فقالوا: أنت لنا، فقالت المضريّة لنصر: الكرمانيّ يفسد عليك؛ فأرْسِل إليه فاقتله، أو فاحبسه، قال: لا، ولكن لي أولاد ذكور وإناث، فأزوّج بَنِيّ من بناته وبنيه من بناتي؛ قالوا: لا، قال: فأبعث إليه بمائة ألف درهم، فإنه بخيل ولا يعطي أصحابه شيئاً، ويعلمون بها فيتفرّقون عنه، قالوا: لا، هذه قوة له، قال: فدَعوه على حاله يتّقينا ونتّقيه، قالوا: لا، قال: فأرسل إليه فحبسه.

قال: وبلغ نصراً أنّ الكِرمانيّ يقول: كانت غايتي في طاعة بني مروان أن يقلّد ولدي السيوف فأطلبَ بثأر بني المهلب، مع ما لقينا من نَصْر وجفائه وطول حرمانه ومكافأته إيانا بما كان من صنيع أسد إليه. فقال له عصمة ابن عبدالله الأسديّ: إنها بدء فتنة، فتجنّ عليه فاحشة، وأظهر أنه مخالف واضرب عنقه وعنق سِباع بن النعمان الأزديّ والفَرَافِصَة بن ظهير البكريّ، فإنه لم يزل متغضباً على الله بتفضيله مضر على ربيعة.

وكان بخراسان. وقال جَميل بن النعمان: إنك قد شرّفته وإن كرهت قتله فادفعه إليّ أقتله. وقيل: إنما غضب عليه في مكاتبته بكْر بن فراس البَهرانيّ عامل جرْجان، يعلمه حال منصور بن جمهور حين بعث عهد الكرمانيّ مع أبي الزّعفران مولى أسد بن عبد الله، فطلبه نصر فلم يقدْر عليه. والذي كتب إلى الكرمانيّ بقتل الوليد وقدوم منصور بن جمهور على العراق صالح الأثرم الحرار. وقيل: إن قوماً أتوا نصراً، فقالوا: الكرمانيّ يدعو إلى الفتنة. وقال أصرم بن قبيصة لنصر: لو أن جُديعاً لم يقدر على السلطان والملك إلا بالنصرانية واليهودية لتنصر وتهوّد. وكان نصر والكرمانيّ متصافيين، وقد كان الكِرمانيّ أحسنَ إلى نصر في ولاية أسد بن عبد الله، فلماوليَ نصر خراسان عزَل الكِرمانيّ عن الرئاسة وصيّرها لحرب بن عامر بن أيثم الواشجيّ، فمات حرب فأعاد الكرمانيّ عليها، فلم يلبث إلا يسيراً حتى عزله، وصيّرها لجميل بن النعمان. قال: فتباعد ما بين نصر والكرمانيّ فحبس الكرمانيّ في القهندز وكان على القهندز مقاتل بن عليّ المرّئيّ - ويقال المريّ.

قال: ولما أراد نصر حبس الكِرمانيّ أمر عبيد الله بن بسّام صاحب حرسه؛ فأتاه به، فقال له نصر: يا كِرمانيّ، ألم يأتني كتاب يوسف بن عمر يأمرني بقتلك، فراجعتُه وقلت له: شيخ خراسان وفارسها، وحقنت

دمك! قال: بلى، قال ألم أغرم عنك ما كان لزمك من الغرم وقسمتُه في أعطيات الناس! قال: بلى، قال ألم أرِش عليّاً ابنك على كُرهٍ من قومك! قال: بلى، قال: فبدّلت ذلك إجماعاً على الفتنة! قال الكرمانيّ: لم يقل الأمير شيئاً إلّا وقد كان أكثر منه، فأنا لذلك شاكر؛ فإنْ كان الأمير حَقَن دمي فقد كان منّي أيام أسد بن عبد الله ما قد علم، فليستأنِ الأمير ويتثبّت فلست أحبّ الفتنة. فقال عصمة بن عبد الله الأسديّ: كذبتَ؛ وأنت تريد الشَّغب، ومالا تناله. وقال سلم بن أحْوَز: اضرب عنقه أيها الأمير، فقال المقدام وقدامة ابنا عبد الرحمن بن نُعَيم الغامديّ: لجَلساء فرعون خير منكم، إذ قالوا: ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ [1]، والله لا يقتَلنّ الكرمانيّ بقولك يابن أحوز [وعلت الأصوات، فأمر] نصر سلماً بحبس الكرمانيّ، فحبس لثلاث بقين من شهر رمضان سنة ست وعشرين ومائة، فكلمت الأزْد، فقال نصر: إنّي حلفت أن أحبسه ولا يبدؤه مني سوء، فإن خشيتم عليه فاختاروا رجلاً يكون معه. قال: فاختاروا يزيد النحويّ؛ فكان معه في القهندز، وصيّر حرسه بني ناجية أصحاب عثمان وجَهْم ابني مسعود. قال: وبعث الأزد إلى نصر المغيرة بن شعبة الجهضميّ وخالد بن شعيب بن أبي صالح الحُدانيّ، فكلّماه فيه. قال: فلبث في الحبس تسعة وعشرين يوماً؛ فقال عليّ بن وائل أحد بني ربيعة بن حنظلة: دخلت على نَصْر، والكِرمانيّ جالس ناحية، وهو يقول: ما ذنبي إن كان أبو الزعفران جاء! فوالله ما واريته ولا أعلم مكانه.

وقد كانت الأزد يوم حُبس الكِرمانيّ أرادت أن تنزعَه من رُسله، فناشدهم الله الكرمانيّ ألّا يفعلوا، ومضى مع رسل سَلْم بن أحوز، وهو يضحك، فلما حبِس تكلّم عبد الملك بن حَرْملة اليَحْمَدي والمغيرة بن شعبة وعبد الجبار بن شعيب بن عبّاد وجماعة من الأزْد، فنزلوا نَوْش، وقالوا: لا نرضى أن يحبَس الكرمانيّ بغير جناية ولا حَدَث، فقال لهم شيوخ من اليحمَدَ: لا تفعلوا وانظروا ما يكون من أميركم، فقالوا: لا نرضى؛ ليَكفّن عنا نصر أو لنَبدأنّ بكم. وأتاهم عبد العزيز بن عبّاد بن جابر بن همام بن حنظلة اليحْمَديّ في مائة، ومحمد بن المثنّى وداود بن شعيب، فباتوا بنَوْش مع عبد الملك بن حَرْملة ومَن كان معه، فلما أصبحوا أتوا حوْزان، وأحرقوا منزل عزّة أمّ ولد نصر ـ وأقاموا ثلاثة أيام، وقالوا: لا نرضى؛ فعند ذلك صيّروا عليه الأمناء، فجعلوا معه يزيد النحويّ وغيره، فجاء رجل من أهل نَسَف، فقال لجعفر غلام الكِرمانيّ: ما تجعلون لي إن أخرجته؟ قالوا: لك ما سألت، فأتى مجرى الماء من القهندز فوسّعه، وأتى ولد الكرمانيّ، وقال لهم: اكتبوا إلى أبيكم يستعدّ الليلة للخروج، فكتبوا إليه، وأدخلوا الكتاب في الطعام، فدعا الكرمانيّ يزيد النحويّ وحصين بن حكيم فتعشيًّا معه وخرجا، ودخل الكرمانيّ السرب، فأخذوا بعَضُده، فانطوت على بطنه حيّة فلم تضرّه، فقال بعض الأزد: كانت الحيّة أزْدية فلم تضرّه.

قال: فانتهى إلى موضع ضيق فسحبوه فسُحج منكبه وجنبه، فلما خرج ركب بغلته دوّامة ـ ويقال: بل ركب فرسه البشير ـ والقيْد في رجله، فأتوْا به قرية تسمى غلَطان، وفيها عبد الملك بن حَرْملة، فأطلق عنه.

قال عليّ: وقال أبو الوليد زهير بن هنيد العدويّ: كان مع الكِرمانيّ غلامه بسّام، فرأى خرقاً على القهندز، فلم يزل يوسعه حتى أمكنه الخروج منه. قال: فأرسل الكِرمانيّ إلى محمد بن المثنى وعبد الملك بن حَرْملة: إني خارج الليلة، فاجتمعوا، وخرج فأتاهم فَرْقد مولاه، فأخبرهم، فلقوه في قرية حَرْب بن عامر،

---

(١) سورة الأعراف ١١١.

وعليه ملْحفة متقلدا سيفاً، ومعه عبد الجبار بن شعيب وابنا الكرمانيّ: عليّ وعثمان، وجعفر غلامه، فأمر عمرو بن بكر أن يأتيَ غَلَطان وأندَغ وأشْتُرْجَ معاً، وأمرهم أن يوافُوه على باب الرّيان بن سنان اليَحمديّ بنَوْش في المرج ـ وكان مصلّاهم في العيد ـ فأتاهم فأخبرهم، فخرج القومُ من قراهم في السلاح، فصلّى بهم الغَداة، وهم زهاء ألف، فما ترّجلت الشمس حتى صاروا ثلاثة آلاف، وأتاهم أهل السقادم، فسار على مَرْج نيران حتى أتى حَوْزان، فقال خلف بن خليفة:

أَصْحِروا لِلمَرْجِ أَجْلَى لِلعَمَى ... فلقد أَصْحَرَ أَصحابُ السَّرَبْ

إنَّ مَرْجَ الأزدِ مَرْجٌ واسعٌ ... تَسْتَوى الأَقدام فِيهِ والرُّكَبْ

وقيل: إن الأزْد بايعت لبعد الملك بن حَرْملة على كتاب الله عزّ وجلّ ليلة خرج الكِرمانيّ، فلما اجتمعوا في مَرْج نَوْش أقيمت الصلاة، فاختلف عبد الملك والكِرمانيّ ساعة، ثم قدمه عبد الملك، وصيّرا الأمر له، فصلى الكِرمانيّ. ولما هَرَب الكِرمانيّ أصبح نصر معسكراً بباب مَرْو الرّوذ بناحية ايردانه، فأقام يوماً أو يومين.

وقيل: لما هرب الكِرمانيّ استخلف نصر عصمة بن عبد الله الأسديّ، وخرج إلى القناطر الخمس بباب مَرْو الرّوذ، وخطب الناس، فنال من الكرمانيّ، فقال: وُلد بكرمان وكان كِرْمانيّاً، ثم سقط إلى هَراة فكان هَرَويّاً، والساقط بين الفراشَيْن لا أصل ثابت؛ ولا فرع نابت، ثم ذكر الأزْد، فقال: إن يستوثقوا فأذلّ قوم، وإن يأبَوْا فهم كما قال الأخطل:

ضَفَادِع في ظلماءِ لَيلٍ تجاوَبَتْ ... فَدلَّ عليها صَوْتُها حَيَّةَ البحرِ

ثم نَدِمَ على ما فرط منه، فقال: اذكروا الله؛ فإنّ ذكر الله شفاء، ذكر الله خيرٌ لا شرّ فيه، يُذهب الذنب، وذكرُ الله براءة من النفاق.

ثم اجتمع إلى نصر بَشَرٌ كثير، فوجّه سلم بن أحوَز إلى الكِرمانيّ في المجفَّفة في بشر كثير. فسفر الناس بين نصر والكِرمانيّ، وسألوا نصراً أن يؤمنه ولا يحبسه، ويضمن عنه قومُه ألّا يخالفَه. فوضع يده في يد نصر فأمَره بلزوم بيته، ثم بلغه عن نصر شيء، فخرج إلى قرية له، وخرج نصر فعسكر بالقناطر، فأتاه القاسم بن نجيب، فكلمه فيه فآمنه، وقال له: إنْ شئت خرج لك عن خُراسان، وإن شئت أقام في داره ـ وكان رأي نصر إخراجه ـ فقال له سلم: إن أخرجتَه نوّهت باسمه وذكره، وقال الناس: أخرجه لأنه هابه، فقال نصر: إن الذي أتخوّفه منه إذا خرج أيسر مما أتخوّفه منه وهو مقيم، والرجل إذا نُفِيَ عن بلده صَغُر أمره. فأبَوْا عليه، فكفّ عنه، وأعطى مَن كان معه عشرة عشرة. وأتى الكِرمانيّ نصراً، فدخل سرادقه فآمنه. ولحق عبد العزيز بن عبد ربّه بالحارث بن سُريج. وأتى نصراً عزلُ منصور بن جمهور وولاية عبد الله بن عمر بن عبد العزيز في شوّال سنة ست وعشرين ومائة؛ فخطب الناس، وذكر ابن جمهور، وقال: قد علمتُ أنه لم يكن من عمال العراق، وقد عزله الله، واستعمل الطيب ابن الطيب، فغضب الكرمانيّ لابن جمهور، فعاد في جَمْع الرجال واتخاذ السلاح. وكان يحضر الجمعة في ألف وخمسمائة وأكثر وأقلّ، فيصلي خارجاً من المقصورة ثم يدخل على نَصْر، فيسلم ولا يجلس. ثم ترك إتيانَ نَصر وأظهر الخِلاف، فأرسل إليه نصر مع سلْم بن أحوز: إنّي والله ما أردت بك في حَبْسك سوءاً، ولكن خفتُ أن تفسِدَ أمر الناس، فأتني. فقال الكِرمانيّ: لولا أنك في منزلي لقتلتُك، ولولا ما أعرف من حمقك أحسنتُ أدَبك، فارجع إلى ابن الأقطع فأبلغه ما شئت من خَير وشرّ. فرجع إلى نصر فأخبره،

فقال: عُدْ إليه، فقال: لا والله، وما بي هيبة له ولكني أكره أن يُسمِعَني فيك ما أكره. فبعث إليه عصمة بن عبد الله الأسديّ، فقال: يا أبا عليّ، إني أخاف عليك عاقبَة ما ابتدأتَ به في دينك ودنياك، ونحن نعرض عليك خِصالا؛ فانطلق إلى أميرك يعرضها عليك، وما نريد بذلك إلا الإنذار إليك. فقال الكِرمانيّ: إني أعلم أن نصراً لم يقل هذا لك ولكنك أردت أن يبلغه فتحظى، والله لا أكلمك كلمة بعد انقضاء كلامي حتى ترجع إلى منزلك، فيرسل مَن أحب غَيرك. فرجع عصمة، وقال: ما رأيت عِلْجاً أعدى لطوره من الكِرمانيّ، وما أعجبُ منه؛ ولكن من يحيى بن حُصين لَعنهم الله! [والله لهم] أشدّ تعظيماً له من أصحابه. قال سَلْم بن أحوز: إني أخاف فساد هذا الثغر والناس، فأرسل إليه قُدَيداً. وقال نصر لقُديد بن مَنِيع: انطلق إليه، فأتاه فقال له: يا أبا عليّ، لقد لجِجتَ وأخاف أن يتفاقم الأمر فنهلك جميعاً، وتشمَت بنا هذه الأعاجم، فقال: يا قُديد؛ إني لا أتهمك؛ وقد جاء ما لا أثق بنصر معه، وقد قال رسول الله ﷺ: « البكريّ أخوك ولا تثق به »؛ قال: أما إذْ وقع هذا في نفسك فأعطه رهْناً، قال: من؟ قال: أعطه عليا وعثمان، قال: فمن يعطيني؟ ولا خير فيه، قال: يا أبا عليّ، أنشدك الله أن يكون خراب هذه البلدة على يديك. ورجع إلى نصر، فقال لعَقِيل بن معقل الليثيّ: ما أخوفَني أن يقع بهذا الثّغر بلاء، فكلم ابن عمك، فقال عَقِيل لنصر: أيها الأمير؛ أنشدك الله أن تشأم عشيرتك؛ إن مَرْوان بالشأم تقاتله الخوارج، والناس في فتنة والأزْد سفهاء وهم جيرانك. قال: فما أصنع؟ إن علمتَ أمراً يُصلِح الناس فدونك، فقد عزم أنه لا يثق بي. قال: أتى عقِيل الكِرمانيّ، فقال: أبا عليّ، قد سننت سنة تُطلَبُ بعدك من الأمراء، إني أرى أمراً أخافُ أن تَذهب فيه العقول، قال الكِرمانيّ: إنّ نصراً يريد أن آتيَه ولا آمنه، ونريد أن يعتزل ونعتزل، ونختار رجلا من بَكْر بن وائل، نرضاه جيمعاً، فيلي أمرنا جميعاً حتى يأتِيَ أمرٌ من الخليفة؛ وهو يأبَى هذا. قال: يا أبا عليّ، إني أخاف أن يهلِك أهلُ هذا الثغر، فأت أميرك وقل ما شئت تُجَبْ إليه، ولا تُطمِع سفهاء قومك فيما دخلوا فيه، فقال الكرمانيّ: إني لا أتهمك في نصيحة ولا عقْل، ولكنّي لا أثق بنصر؛ فليحمل من مال خَراسان ما شاء ويشخص. قال: فهل لك في أمر يجمع الأمر بينكما؟ تتزوّج إليه ويتزوّج إليك، قال: لا آمنه على حال، قال: ما بعد هذا خيرٌ، وإني خائف أن تهلِك غدا بمضْيَعة، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال له عَقيل: أعود إليك؟ قال: لا؛ ولكن أبلغه عني وقل له: لا آمن أن يحملك قوم على غير ما تريد، فتركب منا ما لا بقيّة بعده؛ فإن شئت خرجت عنك لا من هيبة لك، ولكن أكره أن أشأم أهل هذه البلدة، وأسفك الدّماء فيها. وتهيّأ ليخرج إلى جرجان.

وفي هذه السنة آمن يزيد بن الوليد الحارثَ بن سريج، وكتب له بذلك، فكتب إلى عبد الله بن عمر يأمره بردّ ما كان أخذ منه من ماله وولده.

ذكر الخبر عن سبب ذلك:

ذكر أنّ الفتنة لما وقعت بخراسان بين نَصْر والكرمانيّ، خاف نصر قدوم الحارث بن سُرَيج عليه بأصحابه والترك، فيكون أمره أشدّ عليه من الكرمانيّ وغيره، وطمع أن يناصحه، فأرسل إليه مقاتل بن حيّان النَّبطيّ وثعلبة بن صفوان البنانيّ وأنس بن بَجَالة الأعرجيّ وهذْبَة الشعراويّ وربيعة القرشيّ ليردّوه عن بلاد الترك.

فذكر عليّ بن محمد عن شيوخه أن خالد بن زياد البدّيّ من أهل التّرمذ وخالد بن عمرو مولى بني عامر، خرجا إلى يزيد بن الوليد يطلبان الأمان للحارث بن سُرَيج، فقدما الكوفة، فلقيَا سعيد خُذَينة، فقال لخالد بن

زياد: أتدري لم سمَّوْني خُدَينة؟ قال: لا، قال: أرادوني على قتل أهل اليمن فأبيت. وسألا أبا حنيفة أن يكتب لهما إلى الأجلح ـ وكان من خاصة يزيد بن الوليد ـ فكتب لهما إليه، فأدخلهما عليه، فقال له خالد بن زياد: يا أمير المؤمنين، قتلت ابن عمك لإقامة كتاب الله، وعمّالك يغشمون ويظلمون! قال: لا أجد أعواناً غيرهم، وإني لأبغضهم، قال: يا أمير المؤمنين، ولِّ أهل البيوتات، وضمّ إلى كلّ عامل رجالا من أهل الخير والفقه يأخذونهم بما في عهدك، قال: أفعل، وسألاه أماناً للحارث بن سريج، فكتب له:

أما بعد، فإنا غضبنا لله، إذْ عُطلت حدوده، وبُلغ بعباده كلّ مبلغ، وسفكت الدماء بغير حلّها، وأخذت الأموال بغير حقها، فأردنا أن نعمل في هذه الأمة بكتاب الله جلّ وعزّ وسنة نبيه ﷺ، ولا قوّة إلا بالله؛ فقد أوضحنا لك عن ذات أنفسنا، فأقبِل آمناً أنت ومن معك؛ فإنكم إخواننا وأعواننا. وقد كتبتُ إلى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بردّ ما كان اصطفى من أموالكم وذراريكم.

فقدما الكوفة فدخلا على ابن عمر، فقال خالد بن زياد: أصلح الله الأمير! ألا تأمر عمالك بسيرة أبيك؟ قال: أو ليس سيرة عمر ظاهرة معروفة! قال: فما ينفع النّاس منها ولا يُعمل بها! ثم قدما مَرْو فدفعا كتاب يزيد إلى نصر، فردّ ما كان أخذ لهمْ مما قدر عليه. ثم نفذا إلى الحارث، فلقيا مقاتل بن حيّان وأصحابه الذين وجّههم نصر إلى الحارث. وكان ابن عمر كتب إلى نصر: إنك آمنت الحارث بغير إذني ولا إذن الخليفة. فأسْقِط في يديه، فبعث يزيد بن الأحمر وأمره أن يفتك بالحارث إذا صار معه في السفينة. فلما لقيا مقاتلا بآمِل قطع إليه مقاتل بنفسه، فكفّ عنه يزيد. قال: فأقبل الحارث يريد مَرْو ـ وكان مقامه بأرض الشرْك اثنتي عشرة سنة ـ وقدم معه القاسم الشيبانيّ ومضرّس بن عمران قاضية وعبد الله بن سنان. فقدم سمرقند وعليها منصور بن عمر فلم يتلقّه، وقال: ألحُسْن بلائه! وكتب إلى نصر يستأذنه في الحارث أن يثبَ به، فأيّهما قتل صاحبه فإلى الجنة أو إلى النار. وكتب إليه: لئن قدم الحارث على الأمير وقد ضرّ ببني أمية في سلطانهم؛ وهو والغ في دم بعد دم، قد طوى كشحاً عن الدنيا بعد أن كان في سلطانهم أقراهم لضيف، وأشدهم بأساً، وأنفذهم غارة في الترك؛ ليفرقنّ عليك بني تميم. وكان سَرْدرخُداه محبوساً عند منصور بن عمر؛ لأنه قتل بياسان، فاستعدى ابنُه جنده منصوراً، فحبسه، فكلم الحارث منصوراً فيه، فخلى سبيله، فلزم الحارث ووَفى له.

وفي هذه السنة ـ فيما زعم بعضهم ـ وجّه إبراهيم بن محمد الإمام أبا هاشم بُكير بن ماهان إلى خراسان، وبعث معه بالسيرة والوصيّة. فقدم مَرْو، وجمع النقباء ومَنْ بها من الدّعاة، فنعى لهم الإمام محمد بن عليّ، ودعاهم إلى إبراهيم، ودفع إليهم كتاب إبراهيم، فقبلوه ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة، فقدم بها بكير على إبراهيم بن محمد.

وفي هذه السنة أخذ يزيد بن الوليد لأخيه إبراهيم بن الوليد على الناس البيعة، وجعله وليّ عهده، ولعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بعد إبراهيم بن الوليد؛ وكان السبب في ذلك ـ فيما حدثني أحمد بن زهير، عن عليّ بن محمد ـ أن يزيد بن الوليد مرض في ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة، فقيل له: بايع لأخيك إبراهيم ولعبد العزيز بن الحجاج من بعده. قال: فلم تزل القَدرية يحثّونه على البيعة، ويقولون له: إنه لا يحلّ لك أن تهمل أمْرَ الأمة فبايع لأخيك؛ حتى بايع لإبراهيم ولعبد العزيز بن الحجاج من بعده.

وفي هذه السنة عزل يزيد بن الوليد يوسف بن محمد بن يوسف عن المدينة، وولاها عبد العزيز بن

عبد الله بن عمرو بن عثمان. قال محمد بن عمر: يقال إن يزيد بن الوليد لم يولّه، ولكنه افتعل كتاباً بولايته المدينة، فعزله يزيد عنها، وولّاها عبد العزيز بن عمر، فقدمها لليلتين بقيتا من ذي القعدة.

وفي هذه السنة أظهر مَرْوان بن محمد الخلاف على يزيد بن الوليد؛ وانصرف من أرمينيَة إلى الجزيرة، مظهراً أنه طالبٌ بدم الوليد بن يزيد. فلما صار بحرّان بايع يزيد.

ذكر الخبر عما كان منه في ذلك وعن السبب الذي حمله على الخلاف ثم البيعة:

حدثني أحمد بن زهير، قال: حدّثنا عبد الوهاب بن أبراهيم بن خالد بن يزيد بن هريم، قال: حدثنا أبو هاشم مخلّد بن محمد بن صالح مولى عثمان بن عفان ـ وسألته عما شهد مما حدثنا به فقال: لم أزل في عسكر مَرْوان بن محمد ـ قال: كان عبد الملك بن مَرْوان بن محمد بن مروان حين انصرف عن غَزاته الصائفة مع الغَمْر بن يزيد بحرّان، فأتاه قتلُ الوليد وهو بها، وعلى الجزيرة عَبْدة بن رباح الغسانيّ عاملا للوليد عليها، فشخص منها ـ حيث بلغه قتلُ الوليد ـ إلى الشأم، ووثب عبد الملك بن مَرْوان بن محمد على حرّان ومدائن الجزيرة فضبطها، وولّاها سليمان بن عبد الله بن عُلاثة، وكتب إلى أبيه بأرمينيَة يعلمه بذلك، ويشير عليه بتعجيل السير والقدوم. فتهيّأ مَرْوان للمسير، وأظهر أنه يطلب بدم الوليد، وكره أن يَدَع الثَّغْر معطَّلا حتى يُحكم أمْره؛ فوجَّه إلى أهل الباب إسحاق بن مسلم العقيليّ ـ وهو رأس قيس ـ وثابت بن نعيم الجذاميّ من أهل فِلسطين ـ وهو رأس اليمن ـ وكان سبب صحبة ثابتة إياه أن مروان كان خلّصه من حبس هشام بالرُّصافة. وكان مَرْوان يقدُم على هشام المرّة في السنتين، فيرفع إليه أمر الثَّغْر وحاله ومصلحة مَنْ به من جنوده، وما ينبغي أن يعمل به في عدوّه. وكان سبب حبس هشام ثابتاً ما قد ذكرنا قبل من أمره مع حَنْظلة بن صفوان وإفساده عليه الجند الذين كان هشام وجههم معه لحرب البربر وأهل إفريقيّة؛ إذ قتلوا عامل هشام عليهم، كلثوم بن عياض القسريّ، فشكا ذلك من أمره حنظلة إلى هشام في كتاب كتبه إليه، فأمر هشام حنظلة بتوجيهه إليه في الحديد، فوجّهه حنظلة إليه، فحبسه هشام، فلم يزل في حبسه حتى قدم مروان بن محمد على هشام في بعض وفاداته ـ وقد ذكرنا بعض أمر كلثوم بن عياض وأمر إفريقية معه في موضعه فيما مضى من كتابنا هذا ـ فلما قدم مروان على هشام أتاه رؤوس أهل اليمانية؛ ممن كان مع هشام، فطلبوا إليه فيه؛ وكان ممن كلّمه فيه كعب بن حامد العبسيّ صاحب شرط هشام وعبد الرحمن بن الضخم وسليمان بن حبيب قاضية، فاستوهبه مَرْوان منه فوهبه له، فشخص إلى أرمينيَة، فولّاه وحبّاه، فلما وجّه مروان ثابتاً مع إسحاق إلى أهل الباب، كتب إليهم معهما كتاباً يعلمهم فيه حال ثغرهم وما لهم من الأجر في لزوم أمرهم ومراكزهم، وما في ثبوتهم فيه من دفْع مكروه العدوّ عن ذراريّ المسلمين.

قال: وحمل إليهم معهما أعطياتهم، وولّى عليهم رجلاً من أهل فِلسطين يقال له حميد بن عبد الله اللخميّ ـ وكان رضيّاً فيهم وكان وليهم قبل ذلك ـ فحمدوا ولايتَه. فقاما فيهم بأمره، وأبلغاهم رسالته، وقرآ عليهم كتابه، فأجابوا إلى الثبوت في ثغرهم ولزوم مراكزهم. ثم بلغه أنّ ثابتاً قد كان يدسّ إلى قوّادهم بالانصراف من ثَغْرهم واللحاق بأجنادهم، فلما انصرفا إليه تهيّأ للمسير وعرض جنده، ودسّ ثابت بن نعيم إلى من معه من أهل الشأم بالانخزال عن مَرْوان والانضمام إليه ليسير بهم إلى أجنادهم، ويتولّى أمرهم؛ فانخزلوا عن عسكرهم مع من فرّ ليلا وعسكروا على حِدة. وبلغ مروان أمرُهم فبات ليلَته ومن معه في السلاح

يتحارسون حتى أصبح؛ ثم خرج إليهم بمن معه ومن مع ثابت يضعفون على من مع مَرْوان، فصافّوهم ليقاتلوهم، فأمر مروان منادين فنادوْا بين الصّفين من الميمنة والميسرة والقلب، فنادوهم: يا أهل الشأم؛ ما دعاكم إلى الانعزال! وما الذي نقمتم عليّ فيه من سيَري! ألم أَلِكم بما تحبّون، وأحسن السيرة فيكم والولاية عليكم! ما الذي دعاكم إلى سفك دمائكم! فأجابوه بأنا كنا نطيعك بطاعة خليفتنا وقد قتِل خليفتنا وبايع أهل الشأم يزيد بن الوليد، فرضينا بولاية ثابت، ورأسناه ليسير بنا على ألويتنا حتى نردّ إلى أجنادنا. فأمر مناديه فنادى: أن قد كذبتم، وليس تريدون الذي قلتم؛ وإنما أردتم أن تركبوا رؤوسكم، فتغصبوا من مررتم به من أهل الذّمة أموالَهم وأطعمتَهم وأعلافهم؛ وما بيني وبينكم إلا السيف حتى تنقادوا إليّ، فأسير بكم حتى أورِدكم الفرات، ثم أخلّي عن كل قائد وجنده، فتلحقون بأجنادكم. فلما رأوا الجدّ منه انقادوا إليه ومالوا له، وأمكنوه من ثابت بن نعيم وأولاده؛ وهم أربعة رجال: رفاعة، ونعيم، وبكْر، وعمران. قال: فأمر بهم فأنزلوا عن خيولهم، وسلِبوا سلاحهم، ووضع في أرجلهم السلاسل. ووكّل بهم عدّة من حَرسِه يحتفظون بهم، وشخص بجماعة من الجند من أهل الشأم والجزيرة، وضمهم إلى عسكره، وضبطهم في مسيره، فلم يقدر أحد منهم على أن يفسد ولا يظلم أحداً من أهل القرى، ولا يرزأه شيئاً إلا بثمن، حتى ورد حرّان. ثم أمرهم باللحاق بأجنادهم، وحبس ثابتاً معه، ودعا أهل الجزيرة إلى الفَرْض، ففرض لنيّف وعشرين ألفا من أهل الجَلَد منهم، وتهيّأ للمسير إلى يزيد، وكاتبه يزيد على أن يبايعَه ويوليه ما كان عبد الملك بن مروان ولّى أباه محمد بن مروان من الجزيرة وأرمينيَة والمِوصل وأذْربيجان، فبايع له مَرْوان، ووجّه إليه محمد بن عبد الله بن عُلاثة ونفرا من وجوه الجزيرة.

وفي هذه السنة مات يزيد بن الوليد، وكانت وفاته سلخ ذي الحجة من سنة ست وعشرين ومائة، قال أبو معشر ما حدثني به أحمد بن ثابت، عمن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عنه: توفّيَ يزيد بن الوليد في ذي الحجة بعد الأضحى سنة ست وعشرين ومائة، وكانت خلافته في قول جميع من ذكرنا ستة أشهر، وقيل كانت خلافته خمسة أشهر وليلتين.

وقال هشام بن محمد: ولِّي ستة أشهر وأياماً. وقال عليّ بن محمد: كانت ولايته خمسة أشهر واثني عشر يوماً.

وقال عليّ بن محمد: مات يزيد بن الوليد لعشر بقين من ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة، وهو ابن ست وأربعين سنة.

وكانت ولايته فيما زعم ستة أشهر وليلتين، وتوفي بدمشق.

واختلف في مبلغ سنة يوم توفّي فقال هشام توفي وهو ابن ثلاثين سنة. وقال بعضهم: توفّيَ وهو ابن سبع وثلاثين سنة. وكان يكنى أبا خالد وأمه أم ولد اسمها شاه آفَريد بنت فَيْرُوز بن يَزْدجِرْد بن شَهْرِيار بن كسرى. وهو القائل:

أَنَـا ابـنُ كِـسْـرى وأبـيَّ مـروانْ وقـيـصـر جـدّي وجـدّ خـاقـانْ

وقيل: إنه كان قَدريّاً. وكان - فيما حدثني أحمد، عن عليّ بن محمد في صفته - أسمر طويلا، صغير

الرأس، بوجهه خال. وكان جميلاً من رجل، في فمه بعض السعة، وليس بالمفرط.

وقيل له يزيد الناقص لنقصه الناس العشرات التي كان الوليد زادها الناس في قول الواقديّ؛ وأما عليّ بن محمد فإنه قال: سبّه مروان بن محمد، فقال: الناقص ابن الوليد، فسمّاه الناس الناقص.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بن مَرْوان في قول الواقديّ. وقال بعضهم: حجّ بالناس في هذه السنة عمر بن عبد الله بن عبد الملك، بعثه يزيد بن الوليد، وخرج معه عبد العزيز وهو على المدينة ومكة والطائف.

وكان عامله على العراق في هذه السنة عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وعلى قضاء الكوفة ابن أبي لَيْلى، وعلى أحداث البصرة المسوَر بن عمر بن عبّاد. وعلى قضائها عامر بن عبيدة، وعلى خراسان نصر بن سيار الكنانيّ.

خلافة أبي إسحاق إبراهيم بن الوليد

ثم كان إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان غير أنه لم يتمّ له أمر. فحدثني أحمد بن زهير، عن عليّ بن محمد، قال: لم يتمّ لإبراهيم أمره، وكان يسلّم عليه جمعة بالخلافة، وجمعة بالإِمْرة؛ وجمعة لا يسلمون عليه لا بالخلافة ولا بالإمْرة؛ فكان على ذلك أمره حتى قدم مَرْوان بن محمد فخلعه وقتَل عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك.

وقال هشام بن محمد: استَخلف يزيد بن الوليد أبا إسحاق إبراهيم بن الوليد؛ فمكث أربعة أشهر ثم خلِع في شهر ربيع الآخر من سنة ست وعشرين ومائة، ثم لم يزل حيّاً حتى أصيب في سنة اثنتين وثلاثين ومائة أمه أمّ ولدٍ.

حدثني أحمد بن زهير، قال: حدثنا عبد الوهاب بن إبراهيم، قال: حدثنا أبو هاشم مخلَّد بن محمد، قال: كانت ولاية إبراهيم بن الوليد سبعين ليلة.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائة

ذكر ما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك مسير مروان بن محمد إلى الشأم والحرب التي جرت بينه وبين سليمان بن هشام بعين الجَرّ.

ذكر ذلك والسبب الذي كانت عنه هذه الوقعة:

قال أبو جعفر: وكان السبب ما ذكرتُ بعضه؛ من أمر مسير مروان بعد مقتل الوليد بن يزيد إلى الجزيرة من أرمينيَة، وغلَبته عليها، مظهراً أنه ثائر بالوليد، منكرٌ قتله، ثم إظهاره البَيْعة ليزيد بن الوليد بعد ما ولّاه عمل أبيه محمد بن مروان، وإظهاره ما أظهر من ذلك، وتوجيهه وهو بحرّان محمد بن عبدالله بن عُلاثة وجماعة من وجوه أهل الجزيرة. فحدثني أحمد، قال: حدّثنا عبد الوهاب بن إبراهيم، قال: حدّثنا أبو هاشم مخلَّد بن محمد، قال: لما أتى مَرْوانَ موتُ يزيد أرسل إلى ابن عُلاثة وأصحابه فردّهم من مَنْبِج، وشخص إلى إبراهيم بن الوليد، فسار مَرْوان في جند الجزيرة، وخلّف ابنه عبد الملك في أربعين ألف من الرَّابطة بالرقّة. فلما انتهى إلى قِنَّسرين، وبها أخ ليزيد بن الوليد يقال له بشْر، كان مولاه قنَّسرين فخرج إليه فصافّه، فنادى الناس، ودعاهم مرْوان إلى مبايعته، فمال إليه يزيد بن عمر بن هبيرة في القيسيّة، وأسلموا بشراً وأخاً له يقال له مسرور بن الوليد؛ - وكان أخا بِشْر لأمه وأبيه - فأخذه مرْوان وأخاه مسرور بن الوليد؛ فحبسهما وسار فيمن معه من أهل الجزيرة وأهل قِنَّسرين، متوجّهاً إلى أهل حِمْص؛ وكان أهل حمص امتنعوا حين مات يزيد بن الوليد أن يبايعوا إبراهيم وعبد العزيز بن الحجاج، فوجّه إليه إبراهيم عبدَ العزيز بن الحجاج وجندَ أهل دمشق، فحاصرهم في مدينتهم، وأغذّ مَرْوان السَّير، فلما دنا من مدينة حِمْص، رحل عبد العزيز عنهم، وخرجوا إلى مَرْوان فبايعوه، وساروا بأجمعهم معه ووجّه إبراهيم بن الوليد الجنودَ مع سليمان بن هشام، فسار بهم حتى نزل عين الجَرّ، وأتاه مروان وسليمان في عشرين ومائة ألف فارس ومروان في نحو من ثمانين ألفاً فالتقيا، فدعاهم مَرْوان إلى الكفّ عن قتاله، والتخلية عن ابني الوليد: الحكَم وعثمان، وهما في سجن دمشق محبوسان، وضمِن عنهما ألّا يؤاخذاهم بقتلهم أباهما، وألّا يطلبا أحداً ممن ولي قتله؛ فأبَوْا عليه، وجدُّوا في قتاله؛ فاقتتلوا ما بين ارتفاع النهار إلى العصر، واستحرّ القتل بينهم؛ وكثر في الفريقين. وكان مَرْوان مجرّباً مكايداً، فدعا ثلاثة نفر من قوّاده - أحدهم أخ لإسحاق بن مسلم يقال له عيسى - فأمرهم بالمسير خلف صَفّه في خيله وهم ثلاثة آلاف، ووجّه معهم فَعلة بالفؤوس، وقد ملأ الصّفان من أصحابه وأصحاب سليمان بن هشام ما بين الجبلين المحيطين بالمَرْج، وبين العسكرين نهر جرّار، وأمرهم إذا انتهوا إلى الجبل أن يقطعوا الشَّجَر، فيعقدوا جسوراً، ويجوزوا إلى عسكر سليمان، ويغيروا فيه.

قال: فلم تشعر خيول سليمان وهم مشغولون بالقتال إلّا بالخيل والبارقة والتكبير في عسكرهم من خلْفهم، فلما رأوْا ذلك انكسروا؛ وكانت هزيمتهم، ووضع أهل حمص السلاح فيهم لحَردهم عليهم، فقتلوا منهم نحواً من سبعة عشر ألفاً، وكفّ أهلُ الجزيرة وأهل قنّسرين عن قتلهم، فلم يقتلوا منهم أحداً، وأتوا مروان من أسرائهم بمثل عدّة القتلى وأكثر، واستبيح عسكرهم. فأخذ مَرْوان عليهم البَيْعة للغلامَين: الحكم وعثمان، وخلّى عنهم بعد أن قوّاهم. بدينار دينار، وألحقهم بأهاليهم، ولم يقتل منهم إلّا رجلين يقال لأحدهما يزيد بن العقّار وللآخر الوليد بن مَصاد الكلبيّان؛ وكانا فيمن سار إلى الوليد ووليَ قتله. وكان يزيد بن خالد بن عبدالله القسريّ معهم، فسار حتى هرب فيمن هرب مع سليمان بن هشام إلى دمشق؛ وكان أحدهما ـ يعني الكلبيين ـ على حرس يزيد والآخر على شُرَطه؛ فإنه ضربهما في موقفه ذلك بالسياط، ثم أمر بهما فحبسا فهلكا في حبسه.

قال: ومضى سليمان ومَن معه من الفلّ حتى صبّحوا دمشق، واجتمع إليه وإلى إبراهيم وعبد العزيز بن الحجاج رؤوس من معهم، وهم يزيد بن خالد القسريّ وأبو علاقة السكسكيّ والأصبَغ بن ذُؤالة الكلبيّ ونظراؤهم؛ فقال بعضهم لبعض: إن بقي الغلامان ابنا الوليد حتى يقدم مروان ويخرجهما من الحبس ويصير الأمر إليهما لم يستبقيا أحداً من قتَلة أبيهما؛ والرأي أن نقتلهما. فولّوا ذلك يزيد بن خالد ـ ومعهما في الحبس أبو محمد السفيانيّ ويوسف بن عمر ـ فأرسل يزيد مولًى لخالد يقال له أبا الأسد، في عدّة من أصحابه، فدخل السجن، فشدَخ الغلامين بالعُمد؛ وأخرج يوسف بن عمر ليقتلوه، وضُربت عنقه. وأرادوا قتل أبي محمد السفيانيّ، فدخل بيتاً من بيوت السجن فأغلقه، وألقى خلفه الفرش والوسائد، واعتمد على الباب فلم يقدروا على فتحِه، فدعوْا بنار ليحرقوه فلم يؤتوا بها، حتى قيل: قد دخلت خيل مروان المدينة وهرب إبراهيم بن الوليد، وتغيّب، وأنهب سليمان ما كان في بيت المال وقسّمه فيمن معه من الجنود وخرج من المدينة.

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة دعا إلى نفسه عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة، وحارب بها عبدالله بن عمر بن عبد العزيز بن مَرْوان، فهزمه عبدُالله بن عمر، فلحق بالجبال فغلب عليها.

ذكر الخبر عن سبب خروج عبدالله ودعائه الناس إلى نفسه:

وكان إظهار عبدالله بن معاوية الخلاف على عبدالله بن عمر ونصبه الحرب له ـ فيما ذكر هشام عن أبي مخنف ـ في المحرَّم سنة سبع وعشرين ومائة. وكان سبب خروجه عليه ـ فيما حدّثني أحمد، عن عليّ بن محمد، عن عاصم بن حفص التميميّ وغيره من أهل العلم ـ أنّ عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر قدِم الكوفة زائراً لعبدالله بن عمر بن عبدالعزيز، يلتمس صِلته، لا يريد خروجاً، فتزوَّج ابنة حاتم بن الشرقيّ بن عبد المؤمن بن شَبَث بن رِبْعيّ، فلما وقعت العصبيَّة قال له أهل الكوفة: ادعُ إلى نفسك، فبنو هاشم أولى بالأمر من بني مَرْوان، فدعا سرًّا بالكوفة وابن عمر بالحِيرة، وبايعه ابن ضَمْرة الخُزاعيّ، فدسّ إليه ابن عمر فأرضاه، فأرسل إليه: إذا نحن التقيْنا بالناس انهزمتُ بهم. وبلغ ابن معاوية، فلما التقى الناس قال ابن معاوية: إنّ ابن ضَمْرة قد غَدَر، ووعد ابن عمر أن ينهزم بالناس؛ فلا يهولنّكم انهزامه، فإنه عن غَدْر يفعل. فلما التقوْا انهزم ابن ضَمْرة، وانهزم الناس، فلم يبق معه أحد، فقال:

تَفَرَّقَتِ الظباءُ على خِداشٍ فما يَدْرِي خداش ما يَصِيدُ

فرجع ابنُ معاوية إلى الكوفة؛ وكانوا التقَوْا ما بين الحيرة والكوفة، ثم خرج إلى المدائن فبايعوه، وأتاه قوم من أهل الكوفة، فخرج فغلب على حلْوان والجبال.

قال: ويقال قدم عبدالله بن معاوية الكوفة وجمع جمعاً، فلم يعلم عبدالله بن عمر حتى خرج في الجبّانة مجمعاً على الحرب، فالتقوْا، وخالد بن قَطَن الحارثيّ على أهل اليمن، فشدّ عليه الأصبغ بن ذؤالة الكلبيّ في أهل الشأم، فانهزم خالد وأهل الكوفة وأمسكت نزار عن نزار ورجعوا، وأقبل خمسون رجلاً من الزّيديّة إلى دار ابن محرز القُرشيّ يريدون القتال، فقتِلوا، ولم يقتل من أهل الكوفة غيرهم.

قال: وخرج ابن معاوية من الكوفة مع عبدالله بن عباس التميميّ إلى المدائن، ثم خرج منها فغلب على الماهين وهَمَذان وقومِس وأصبهان والرّيّ، وخرج إليه عبيد أهل الكوفة، وقال:

فلا تَرْكَبَنَّ الصنيعَ الذي تَلُومُ أخاكَ على مثلهِ
وَلا يُعْجِبَنّكَ قَول امْرئٍ يخالف ما قال في فعله

وأما أبو عبيدة معمر بن المثنّى؛ فإنه زعم أن سبب ذلك أن عبدالله والحسن ويزيد بن معاوية بن عبدالله بن جعفر قدموا على عبدالله بن عمر؛ فنزلوا في النَّخَع، في دار مولى لهم، يقال له الوليد بن سعيد، فأكرمهم ابن عمر وأجازهم، وأجرى عليهم كلّ يوم ثلاثمائة درهم، فكانوا كذلك حتى هلَك يزيد بن الوليد، وبايع الناس أخاه إبراهيم بن الوَليد ومن بعده عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، فقدِمت بيعتهما على عبدالله بن عمر بالكوفة، فبايع الناس لهما، وزادهم في العطاء مائة مائة؛ وكتب بيعتهما إلى الآفاق، فجاءته البيعة، فبينا هو كذلك؛ إذ أتاه الخبر بأنّ مرْوَان بن محمد قد سار في أهل الجزيرة إلى إبراهيم بن الوليد، وأنه امتنع من البيعة له، فاحتبس عبدالله بن عمر عبدَ الله بن معاوية عنده، وزاده فيما كان يجري عليه، وأعدّه لمروان بن محمد إن هو ظفر بإبراهيم بن الوليد ليبايع له؛ ويقاتل به مَرْوان؛ فماج الناس في أمرهم، وقرب مَرْوان من الشأم، وخرج إليه إبراهيم فقاتله مروان، فهزمه وظفر بعسكره وخرج هارباً، وثبت عبد العزيز بن الحجاج يقاتل حتى قتِل. وأقبل إسماعيل بن عبدالله أخو خالد بن عبدالله القسريّ هارباً حتى أتى الكوفة؛ وكان في عسكر إبراهيم، فافتعل كتاباً على لسان إبراهيم بولاية الكوفة، فأرسل إلى اليمانية، فأخبرهم سرًّا أنّ إبراهيم بن الوليد ولّاه العراق، فقبلوا ذلك منه، وبلغ الخبرُ عبدَالله بن عمر فباكره صلاةَ الغداة، فقاتله مِن ساعته، ومعه عمر بن الغَضْبان؛ فلما رأى إسماعيل ذلك - ولا عهد معه وصاحبه الذي افتعل العهد على لسانه هارب منهزم - خاف أن يظهر أمره فيفتضح ويقتل، فقال لأصحابه: إني كارهٌ لسفك الدماء؛ ولم أحسّ أن يبلغ الأمر ما بلغ، فكفُّوا أيديَكم. فتفرَّق القوم عنه، فقال لأهل بيته: إنّ إبراهيم قد هرب، ودخل مروان دمشق، فحُكي ذلك عن أهل بيته، فانتشر الخبر، واشرأبّت الفتنة، ووقعت العصبيَّة بين الناس. وكان سبب ذلك أن عبدالله بن عمر كان أعطى مضَر وربيعة عطايَا عظاماً، ولم يعطِ جعفر بن نافع بن القعقاع بن شَوْر الذهليّ وعثمان بن الخَيْبَريّ أخا بني تيم اللات بن ثعلبة شيئاً، ولم يسوّهما بنظرائهما؛ فدخلا عليه؛ فكلّماه كلاماً غليظاً، فغضب ابنُ عمر، وأمر بهما، فقام إليهما عبد الملك الطائيّ - وكان على شُرَطه يقوم على رأسه - فدفعهما، فدفعاه وخرجا مغضَبيْن. وكان ثمامة بن حَوْشب بن رُويم الشيبانيّ حاضراً، فخرج مغاضباً لصاحبيه،

فخرجوا جميعاً إلى الكوفة، وكان هذا وابن عمر بالحيرة، فلما دخلوا الكوفة نادوا: يا آل ربيعة، فثارت إليهم ربيعة، فاجتمعوا وتنمّرُوا، وبلغ الخبرُ ابنَ عمر، فأرسل إليهم أخاه عاصماً، فأتاهم وهم بدير هند قد اجتمعوا وحشدوا، فألقى نفسه بينهم، وقال: هذه يدي لكم فاحكموا؛ فاستحيَوْا وعظَّموا عاصماً، وتشكَّروا له، وأقبل على صاحبيْهم فسكتا وكفّا، فلمّا أمسى ابنُ عمر أرسل من تحت ليلته إلى عمر بن الغَضْبان بمائة ألف، فقسمها في قومه بني همام بن مرة بن ذُهْل بن شيبان، وأرسل إلى ثُمامة بن حَوْشب بن رُوَيم بمائة ألف، فقسَّمها في قومه، وأرسل إلى جعفر بن نافع بن القعقاع بعشرة آلاف، وإلى عثمان بن الخيبريّ بعشرة آلاف.

قال أبو جعفر: فلما رأت الشيعة ضَعْفَه اغتمزوا فيه، واجترؤوا عليه وطمعوا فيه ودعوْا إلى عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر. وكان الذي ولي ذلك هلال بن أبي الورد مولى بني عجل، فثاروا في غوغاء الناس حتى أتوا المسجد، فاجتمعوا فيه وهلال القائم بالأمر، فبايعه ناس من الشيعة لعبدالله بن معاوية، ثم مضوا من فَوْرهم إلى عبدالله، فأخرجوه من دار الوليد بن سعيد؛ حتى أدخلوه القصر، وحالوا بين عاصم بن عمر وبين القصر، فلحق بأخيه عبدالله بالحيرة، وجاء ابنَ معاوية الكوفيون فبايعوه، فيهم عمر بن الغضبان بن القبعثريّ ومنصور بن جمهور وإسماعيل بن عبدالله القسريّ ومَن كان من أهل الشأم بالكوفة له أهل وأصل، فأقام بالكوفة أياماً يبايعه الناس، وأتتْه البَيْعة من المدائن وفَمِ النيل، واجتمع إليه الناس، فخرج يريد عبدالله بن عمر بالحيرة، وبرز له عبدالله بن عمر فيمن كان معه من أهل الشأم، فخرج رجل من أهل الشأم يسأله البِراز، فبرز له القاسم بن عبد الغفار، فقال له الشاميّ: لقد دعوتُ حين دعوت، وما أظنّ أن يخرج إليّ رجل من بَكر بن وائل، والله ما أريد قتالَك، ولكن أحببتُ أن ألقي إليك ما انتهى إلينا؛ أخبرنك أنه ليس معكم رجل من أهل اليمن؛ لا منصور ولا إسماعيل ولا غيرهما إلا وقد كاتب عبدالله بن عمر، وجاءته كتب مضَر، وما أرى لكم أيها الحيّ من ربيعة كتاباً ولا رسولاً، وليسوا مواقيعكم يومكم حتى تُصْبحوا فيواقعوكم، فإن استطعتم ألاّ تكون بكم الحزّة فافعلوا، فإني رجل من قَيْس، وسنكون غداً بإزائكم؛ فإن أردتم الكتاب إلى صاحبنا أبلغتُه، وإن أردتم الوفاء لمن خرجتم معه فقد أبلغتكم حالَ الناس. فدعا القاسم رجالاً من قومه، فأعلمهم ما قال له الرجل؛ وأنّ ميمنة ابن عمر من ربيعة، ومضر ستقف بإزاء ميسرته وفيها ربيعة، فقال عبدالله بن معاوية: إنّ هذه علامة ستظهر لنا إن أصبحنا؛ فإن أحبَّ عمر بن الغضبان فليلقَني الليلة؛ وإن منعه شغل ما هو فيه فهو عذْر؛ وقلْ له: إني لأظن القيسيّ قد كذب، فأتى الرّسول عمرَ بذلك، فردّه إليه بكتاب يُعلِمه أن رسولي هذا بمنزلتي عندي، ويأمره أن يتوثّق من منصور وإسماعيل، وإنما أراد أن يعلمهما بذلك. قال: فأبى ابنُ معاوية أن يفعَل، فأصبح الناس غادين على القتال، وقد جعل اليمن في الميمنة ومضر وربيعة في الميسرة، ونادى مُنادٍ: من أتى برأس فله كذا وكذا، أو بأسير فله كذا وكذا، والمال عند عمر بن الغضبان.

والتقى الناسُ واقتتلوا، وحمل عمر بن الغضبان على ميمنة ابن عمر فانكشفوا، ومضى إسماعيل ومنصور من فَوْرهما إلى الحيرة، ورجمتْ غوغاء الناس أهلَ اليمن من أهل الكوفة، فقتلوا فيهم أكثر من ثلاثين رجلاً، وقُتل الهاشميّ العباس بن عبدالله زوج ابنة الملاة.

ذكر عمر أن محمد بن يحيى حدَّثه عن أبيه، عن عاتكة بنت الملاة، تزوّجت أزواجاً، منهم العباس بن عبدالله بن الحارث بن نوفل، قُتِل مع عبدالله بن عمر بن عبد العزيز في العصبيّة بالعراق. وقتل

مبكر بن الحواريّ بن زياد في غيرهم؛ ثم انكشفوا وفيهم عبدالله بن معاوية حتى دخل نصر الكوفة، وبقيت الميسرة من مُضَر وربيعة ومَنْ بإزائهم من أهل الشأم، وحمل أهلُ القلب من أهل الشأم على الزيديّة فانكشفوا، حتى دخلوا الكوفة، وبقيَت الميسرة وهم نحو خمسمائة رجل، وأقبل عامر بن ضُبارة ونُباتة بن حنظلة بن قبيصة وعتبة بن عبدالرحمن الثعلبيّ والنضر بن سعيد بن عمرو الحَرَشيّ، حتى وقفوا على ربيعة، فقالوا لعمر بن الغضبان: أمّا نحن يا معشر ربيعة، فما كنا نأمنُ عليكم ما صنع الناس بأهل اليمن، ونتخوّف عليكم مثلها؛ فانصرفوا. فقال عمر: ما كنت ببارح أبداً حتى أموت؛ فقالوا: إن هذا ليس بمغنٍ عنك ولا عن أصحابك شيئاً، فأخذوا بعنان دابته فأدخلوه الكوفة.

قال عمر: حدثني عليّ بن محمد، عن سليمان بن عبدالله النوفليّ، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثنا خِرَاش بن المغيرة بن عطية مولى لبني ليث، عن أبيه، قال: كنت كاتب عبدالله بن عمر؛ فوالله إني لعنده يوماً وهو بالحيرة إذ أتاه آت فقال: هذا عبدالله بن معاوية قد أقبل في الخَلْق، فأطرق مليًّا وجاءه رئيس خبّازيه، فقام بين يديه كأنه يُؤذنه بإدراك طعامه، فأومأ إليه عبدُالله: أن هاته. فجاء بالطعام، وقد شخصت قلوبُنا، ونحن نتوقع أن يهجُم علينا ابن معاوية ونحن معه، قال: فجعلت أتفقّده: هل أراه تغيَّر في شيء من أمره من مطعم أو مشرب أو منظر أو أمر أو نهي؟ فلا والله، ما أنكرت من هيئته قليلاً ولا كثيراً؛ وكان طعامه إذا أتِيَ به وُضع بين كلّ اثنين منا صَحفة. قال: فوضِعت بيني وبين فلان صَحفة، وبين فلان وفلان صحفة أخرى؛ حتى عدّ مَن كان على خوانه، فلما فرغ من غدائه ووضوئه، أمر بالمال فأخرِج؛ حتى أخرجت آنية من ذهب وفضة وكُساً، ففرّق أكثر ذلك في قوّاده، ثم دعا مولى له أو مملوكاً كان يتبرك به ويتفاءل باسمه - إمّا يدعى ميموناً أو فتحاً أو اسماً من الأسماء المتبرَّك بها - فقال له: خذ لواءك، وامض إلى تلّ كذا وكذا فاركزه عليه؛ وادع أصحابَك، وأقمْ حتى آتيَك. ففعل وخرج عبدُالله وخرجنا معه؛ حتى صار إلى التلّ فإذا الأرض بيضاء من أصحاب ابن معاوية، فأمر عبدالله منادياً، فنادى: من جاء برأس فله خمسمائة؛ فوالله ما كان بأسرع من أن أتِيَ برأس، فوُضِع بين يديه؛ فأمر له بخمسمائة، فدفِعت إلى الذي جاء به، فلما رأى أصحابه وفاءه لصاحب الرأس، ثاروا بالقوم؛ فوالله ما كان إلا هُنَيهة حتى نظرت إلى نحو من خمسمائة رأس قد ألقيت بين يديه؛ وانكشف ابنُ معاوية ومَن معه منهزمين، فكان أوّل مَن دخل الكوفة من أصحابه منهزماً أبو البلاد مولى بني عبس وابنه سليمان بين يديه - وكان أبو البلاد متشيعاً - فجعل أهلُ الكوفة ينادونهم كلّ يوم؛ وكأنهم يعيرونهم بانهزامه؛ فجعل يصيح بابنه سليمان: امضِ ودع النّواضح ينفقن. قال: ومرّ عبدالله بن معاوية فطوى الكوفة، ولم يعرّج بها حتى أتى الجبل.

وأما أبو عُبيدة: فإنه ذكر أن عبدالله بن معاوية وإخوته دخلوا القصر فلما أمسَوْا قالوا لعمر بن الغضبان وأصحابه: يا معشرَ ربيعة، قد رأيتم ما صنع الناس بنا؛ وقد أعلَقْنا دماءَنا في أعناقكم؛ فإن كنتم مقاتلين معنا قاتلنا معكم؛ وإن كنتم تَرَوْن الناس خاذلينا وإيّاكم؛ فخذوا لنا ولكم أماناً؛ فما أخذتم لأنفسكم فقد رضينا لأنفسنا، فقال لهم عمر بن الغضبان: ما نحن بتاركيكم من إحدى خَلّتين: إما أن نقاتل معكم، وإما أن نأخذ لكم أماناً كما نأخذ لأنفسنا، فطِيبوا نفساً، فأقاموا في القصر، والزيديّة على أفواه السكك يَغْدُو عليهم أهل الشأم ويروحون، يقاتلونهم أياماً. ثم إن ربيعة أخذت لأنفسها وللزيدّية ولعبدالله بن معاوية أماناً؛ ألّا يتبعوهم ويذهبوا حيث شاؤوا. وأرسل عبدالله بن عمر إلى عمر بن الغضبان يأمره بنزول القصر وإخراج عبدالله بن

معاوية، فأرسل إليه ابنُ الغضبان فرحّله ومَن معه من شيعته ومَن تبعه من أهل المدائن وأهل السواد وأهل الكوفة، فسار بهم رسلُ عمر حتى أخرجوهم من الجَسْر فنزل عمر من القصر.

وفي هذه السنة وافى الحارث بن سريج مَرْو،خارجاً إليها من بلاد الترك بالأمان الذي كتب له يزيد بن الوليد، فصار إلى نصر بن سيار، ثم خالفه وأظهر الخلاف له، وبايعه على ذلك جمع كبير.

ذكر الخبر عن أمره وأمر نصر بعد قدومه عليه:

ذكر عليّ بن محمد عن شيوخه؛ أنّ الحارث سار إلى مَرْو، مخرجَه من بلاد الترك، فقدمها يوم الأحد لثلاث بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين ومائة، فتلقاه سلم بن أحوز، والناس بكشماهِن، فقال محمد بن الفضل بن عطية العبسيّ: الحمدلله الذي أقرَّ أعيننا بقدومك، وردّك إلى فئة الإسلام وإلى الجماعة. قال: يا بنيّ، أما علمت أنّ الكثير إذا كانوا على معصية الله كانوا قليلاً، وأنّ القليل إذا كانوا على طاعة الله كانوا كثيراً! وما قرّت عيني منذ خرجت إلى يومي هذا، وما قرة عيني إلا أن يطاع الله. فلما دخل مَرْو قال: اللهمّ إني لم أنوِ قطّ في شيء مما بيني وبينهم إلاّ الوفاء، فإن أرادوا الغدر فانصرْني عليهم. وتلقاه نصر فأنزله قَصْر بُخاراخُذاه، وأجرى عليه نُزلاً خمسين درهماً في كلّ يوم، وكان يقتصر على لون واحد، وأطلق نصر مَن كان عنده من أهله؛ أطلق محمد بن الحارث والألوف بنت الحارث وأمَّ بكر؛ فلما أتاه ابنه محمد، قال: اللهمّ اجعله بارًّا تقيًّا.

قال: وقدم الوضاح بن حبيب بن بُدَيل على نَصْر بن سيّار من عند عبدالله بن عمر، وقد أصابه برد شديد، فكساه أثواباً، وأمر له بقرّى وجاريتين؛ ثم أتى الحارث بن سريج، وعنده جماعة من أصحابه قيام على رأسه، فقال له: إنّا بالعراق، نشهر عظْم عمودك وثقله؛ وإني أحبّ أن أراه، فقال: ما هو إلا كبعض ما ترى مع هؤلاء - وأشار إلى أصحابه - ولكني إذا ضربه به شهرت ضربتي، قال: وكان في عموده بالشأمي ثمانية عشر رطلاً.

قال: ودخل الحارث بن سريج على نَصْر، وعليه الجوشن الذي أصابه من خاقان، وكان خيّره بين مائة ألف دينار دنبكانيَّة وبين الجوشن؛ فاختار الجوشن. فنظرت إليه المرزُبانة بنت قديد؛ امرأة نصر بن سيار، فأرسلت إليه بجرْز لها سمُّور، مع جارية لها فقالت: أقرئي ابنَ عمي السَّلام، وقولي له: اليوم بارد فاستدفىء بهذا الجرْز السَّمُّور، فالحمد لله الذي أقدمك صالحاً. فقال للجارية: أقرئي بنت عمّي السلام، وقولي لها: أعاريَّة أم هدية؟ فقالت: بل هدّية؛ فباعه بأربعة آلاف دينار وقسمها في أصحابه. وبعث إليه نصر بفُرش كثيرة وفرس، فباع ذلك كلّه، وقسّمه في أصحابه بالسّويّة. وكان يجلس على بَرذعة، وتُثْنى له وسادة غليظة. وعرض نصر على الحارث أن يوليه ويعطيه مائة ألف دينار، فلم يقبل، وأرسل إلى نصر: إني لستُ من هذه الدنيا ولا من هذه اللذات، ولا من تزويج عقائل العرب في شيء؛ وإنما أسأل كتاب الله عزّ وجلّ والعمل بالسنّة واستعمال أهل الخير والفَضْل، فإن فعلت ساعدتك على عدوّك.

وأرسل الحارث إلى الكرمانيّ: إن أعطاني نصر العمل بكتاب الله وما سألته من استعمال أهل الخير والفضل عضَدتُه وقمتُ بأمر الله، وإن لم يفعل استعنتُ بالله عليه، وأعنتك إن ضمنت لي ما أريد من القيام بالعدل والسنة.

وكان كلما دخل عليه بنو تَميم دعاهم إلى نفسه، فبايعه مُحمد بن حمران ومحمد بن حرب بن جِرْفاس المِنقريّان والخليل بن غَزْوان العدويّ، وعبدالله بن مُجّاعة وهبيرة بن شَراحيل السعدّيان، وعبد العزيز بن عبد ربّه الليثيّ، وبشر بن جرموز الضبيّ، ونهار بن عبدالله بن الحُتات المجاشعيّ، وعبدالله النباتي.

وقال الحارث لنصر: خرجت من هذه المدينة منذ ثلاث عشرة سنة إنكاراً للجوْر، وأنت تريدني عليه! فانضمّ إلى الحارث ثلاثة آلاف.

خلافة مروان بن محمد

وفي هذه السنة بويع بدمشق لمروان بن محمد بالخلافة:

ذكر الخبر عن سبب البيعة له:

حدّثني أحمد، قال: حدثنا عبد الوهاب بن إبراهيم، قال: حدّثنا أبو هاشم مخلَّد بن محمد مولى عثمان بن عفان، قال: لما قيل: قد دخلت خيلُ مروان دمشق هرب إبراهيم بن الوليد وتغيّب، فانتهب سليمان ما كان في بيت المال وقسّمه فيمن معه من الجند، وخرج من المدينة، وثار مَنْ فيها من موالي الوليد بن يزيد إلى دار عبد العزيز بن الحجاج فقتلوه، ونبشوا قبر يزيد بن الوليد وصلبوه على باب الجابية، ودخل مَرْوان دمشق فنزل عالية، وأتي بالغلامين مقتولينْ وبيوسف بن عمر فأمر بهم فدفِنوا، وأُتي بأبي محمد السفيانيّ محمولاً في كُبُوله، فسلم عليه بالخلافة، ومروان يومئذ يسلَّم عليه بالإمرة، فقال له: مه، فقال: إنهما جعلاها لك بعدهما، وأنشده شعراً قاله الحكم في السجن.

قال: وكانا قد بلغا، ووُلد لأحدهما وهو الحكم والآخر قد احتلم قبل ذلك بسنتين، قال: فقال الحكم:

أَلاَ مَنْ مبلِغٌ مَرْوانَ عنِّي ... وعَمى الغَمْرَ طالَ بذا حَنِينا
بأنّي قد ظُلِمتُ وَصارَ قَوْمِي ... على قَتْلِ الوَليدِ متابِعِينا
أيذْهَب كلبهم بِدَمِي ومالِي ... فلا غَثّاً أَصَبْتُ وَلا سمينا
ومَرْوانٌ بأَرْضِ بَنِي نِزارٍ ... كَليثِ الغاب مفْتَرِسٌ عَرِينا
أَلَمْ يَحْزُنكَ قَتْلُ فَتَى قُرَيشٍ ... وشَقُّهُمُ عصِيَّ المُسلِمِينا
أَلا فاقْرَ السَّلاَمَ على قُرَيْشٍ ... وقَيْسٍ بالجَزِيرَةِ أَجْمَعِينا
وسادَ الناقِصُ القَدَرِيّ فينا ... وأَلقَى الحَرْبَ بَيْنَ بَنِي أبينا
فلوْ شَهِدَ الفَوَارس من سلَيمٍ ... وكَعْب لَمْ أَكنْ لهمُ رَهِينا
وَلو شَهِدَتْ لُيوثُ بَني تميمٍ ... لما بِعْنا تُراثَ بَنِي أَبِينا
أَتَنْكُثُ بَيْعَتِي مِنْ أَجْلِ أُمِّي ... فقد بايعتُمُ قَبْلِي هَجِينا
فَليْتَ خؤولتي من غير كَلْبٍ ... وكانت في ولادَة آخَرِينا
فإنْ أهلِك أنا وَوَلِيُّ عَهْدِي ... فمَرْوانٌ أمِيرِ المؤمِنِينا

ثم قال: ابسط يدك أبايعك، وسمعه مَن مع مروان من أهل الشأم؛ فكان أوّل من نهض معاوية بن يزيد بن الحُصين بن نُمير ورؤوس أهل حمص، فبايعوه، فأمرهم أن يختاروا لولاية أجنادهم، فاختار أهلُ دمشق

زامل بن عمرو الجبرانيّ، وأهل حِمْص عبدَ الله بن شجرة الكنديّ، وأهل الأردنّ الوليدَ بن معاوية بن مروان، وأهل فلسطين ثابتَ بن نعيم الجذاميّ الذي كان استخرجه من سجن هشام وغدر به بأرمينيَة، فأخذ عليهم العهود المؤكّدة والأيمان المغلظة على بيعته، وانصرف إلى منزله من حَرّان.

قال أبو جعفر: فلما استوتْ لمروان بن محمد الشأم وانصرف إلى منزله بحرّان طلب الأمان منه إبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام فآمنهم، فقدم عليه سليمان ـ وكان سليمان بن هشام يومئذ بتدمر بمَن معه من إخوته وأهل بيته ومواليه الذكْوانيّة ـ فبايعوا مروان بن محمد.

وفي هذه السنة انتقض على مروان أهل حمص وسائر أهل الشأم فحاربهم.

ذكر الخبر عن أمرهم وأمره وعن سبب ذلك:

حدّثني أحمد، قال حدّثني عبد الوهاب بن إبراهيم، قال: حدثنا أبو هاشم مخلّد بن محمد بن صالح، قال: لما انصرف مَرْوان إلى منزله من حَرّان بعد فراغه من أهل الشأم لم يلبث إلا ثلاثة أشهر؛ حتى خالفه أهل الشأم وانتقضوا عليه؛ وكان الذي دعاهم إلى ذلك ثابت بن نعيم، وراسلَهم وكاتبهم، وبلغ مَرْوان خبرهم، فسار إليهم بنفسه، وأرسل أهل حمص إلى مَنْ بتدمر من كلْب؛ فشخص إليهم الأصبغ بن ذؤالة الكلبي ومعه بنون له ثلاثة رجال: حمزة وذؤالة وفُرافصة ومعاوية السكسكيّ ـ وكان فارس أهل الشأم ـ وعصمة بن المقشعِرّ وهشام بن مَصاد وطفيل بن حارثة ونحو ألف من فرسانهم، فدخلوا مدينة حِمْص ليلة الفطر من سنة سبع وعشرين ومائة. قال: ومروان بحَماة ليس بينه وبين مدينة حِمْص إلا ثلاثون ميلاً، فأتاه خبرهم صبيحة الفِطْر، فجدّ في السير، ومعه يومئذ إبراهيم بن الوليد المخلوع وسليمان بن هشام؛ وقد كانا راسلاه وطلبا إليه الأمان، فصارا معه في عسكره يكرمهما ويُدنيهما ويجلسان معه على غدائه وعشائه، ويسيران معه في مَوْكبه. فانتهى إلى مدينة حِمْص بعد الفِطْر بيومين، والكلبيّة فيها قد ردموا أبوابها مِن داخل، وهو على عُدّة معه روابطه، فأحدقت خيله بالمدينة، ووقف حذاء باب من أبوابها، وأشرف على جماعة من الحائط، فناداهم مناديه: ما دعاكم إلى النّكث؟ قالوا: فإنا على طاعتك لم ننكث، فقال لهم: فإن كنتم على ما تذكرون فافتحوا، ففتحوا الباب، فاقتحم منه عمرو بن الوضاح في الوضّاحية وهم نحو من ثلاثة آلاف فقاتلوهم في داخل المدينة؛ فلما كَثَرتهم خيلُ مروان، انتهوْا إلى باب من أبواب المدينة يقال له باب تَدْمر، فخرجوا منه والروابط عليه فقاتلوهم، فقتِل عامتهم، وأفلت الأصبغ بن ذؤالة والسكسكيّ وأسر ابنا الأصبغ: ذؤالة وفُرافصة في نيّف وثلاثين رجلاً منهم، فأُتِيَ بهم مروان فقتلهم وهو واقف، وأمر بجمع قتلاهم وهم خمسمائة أو ستمائة، فصلِبوا حول المدينة، وهدم مِنْ حائط مدينتها نحراً من غَلْوة. وثار أهل الغوطة إلى مدينة دمشق، فحاصروا أميرهم زامل بن عمرو، وولّوْا عليهم يزيد بن خالد القسريّ، وثبت مع زامل المدينة وأهلها وقائد في نحو أربعمائة، يقال له أبو هبّار القرشي فوجّه إليهم مَرْوان من حِمْص أبا الورد بن الكَوْثر بن زُفَر بنَ الحارث ـ واسمه مجزأة ـ وعمرو بن الوضّاح في عشرة آلاف، فلما دنَوْا من المدينة حملوا عليهم، وخرج أبو هَبّار وخيله من المدينة، فهزموهم واستباحوا عسكرِهم وحرقوا المِزّة من قرى اليمانية، ولجأ يزيد بن خالد وأبو عِلاقة إلى رجُلٍ من لخْم من أهل المِزّة، فدُلّ عليهما زامل، فأرسل إليهما، فقتِلا قبل أن يوصل بهما إليه، فبعث برأسيْهما إلى مَرْوان بحِمْص، وخرج ثابت بن نُعَيم من أهل فلسطين؛ حتى أتى مدينة طَبَريّة، فحاصر أهلها، وعليها الوليد بن معاوية بن

مَرْوان؛ ابن أخي عبد الملك بن مروان، فقاتلوه أياماً، فكتب مَرْوان إلى أبي الورد أن يشخص إليهم فيمدّهم. قال: فرحل من دمشق بعد أيام، فلما بلغهم دنوّه خرجوا من المدينة على ثابت ومَن معه، فاستباحوا عسكرهم، فانصرف إلى فِلَسطين منهزماً، فجمع قومه وجُنده؛ ومضى إليه أبو الورد فهزمه ثانية، وتفرّق مَن معه، وأسِر ثلاثة رجال من ولده؛ وهم نُعيم وبكْر وعمران، فبعث بهم إلى مَرْوان فقدُم بهم عليه؛ ـ وهو بدير أيوب ـ جرحى، فأمر بمداواة جراحاتهم، وتغيّب ثابت بن نعيم، فوُلّي الرُّماحس بن عبد العزيز الكنانيّ فلسطين، وأفلت مع ثابت من ولده رفاعة بن ثابت ـ وكان أخبثَهم ـ فلحق بمنصور بن جمهور فأكرمه وولّاه وخلّفه مع أخ له يقال له منظور بن جمهور؛ فوثب عليه فقتَله، فبلغ منصوراً وهو متوجّه إلى المُلْتان، وكان أخوه بالمنصورة، فرجع إليه فأخذه، فبنى له أسطوانة من آجرّ مجوّفة، وأدخله فيها، ثم سمّره إليها، وبنى عليه.

قال: وكتب مَرْوان إلى الرُّماحس في طلب ثابت والتلطف له، فدلّ عليه رجل من قومه فأخذ ومعه نفر، فأتِي به مَرْوان موثَقاً بعد شهرين؛ فأمر به وببنيه الذين كانوا في يديه، فقطِعت أيديهم وأرجلهم؛ ثم حمِلوا إلى دمشق، فرأيتهم مقطّعين، فأقيموا على باب مسجدها؛ لأنه كان يبلغه أنهم يرجفون بثابت، ويقولون: إنه أتى مصر؛ فغلب عليها. وقتل عامل مَرْوان بها. وأقبل مَرْوان من دير أيوب حتى بايع لابنيه عبيد الله وعبد الله، وزوّجهما ابنتي هشام بن عبد الملك؛ أمّ هشام وعائشة، وجمع لذلك أهل بيته جميعاً؛ من ولد عبد الملك محمد وسعيد وبكار وولد الوليد وسليمان ويزيد وهشام وغيرهم من قريش ورؤوس العرب، وقطع على أهل الشأم بعثاً وقوّاهم، وولّى على كل جند منهم قائداً منهم، وأمرهم باللّحاق بيزيد بن عمر بن هُبيرة. وكان قبل مسيره إلى الشأم وجهه في عشرين ألفاً من أهل قِنّسرين والجزيرة، وأمره أن ينزل دورين إلى أن يقدم، وصيّره مقدّمة له، وانصرف من دير أيوب إلى دمشق؛ وقد استقامت له الشأم كلها ما خلا تدمر، وأمر بثابت بن نعيم وبنيه والنّفر الذين قطعهم فقتلوا وصلبوا على أبواب دمشق، قال: فرأيتُهم حين قتِلوا وصُلِبوا. قال: واستبقى رجلاً منهم يقال له عمرو بن الحارث الكلبيّ، وكان ـ فيما زعموا ـ عنده علم من أموال كان ثابت وضعها عند قوم، ومضى بمن معه، فنزل القسطل من أرض حِمْص مما يلي تدمُر؛ بينهما مسيرة ثلاثة أيام؛ وبلغه أنهم قد عَوّروا ما بينه وبينها من الآبار، وطمُّوها بالصخر؛ فهيّأ المزاد والقرب والأعلاف والإبل، فحمل ذلك له ولمن معه، فكلمه الأبرش بن الوليد وسليمان بن هشام وغيرهما، وسألوه أن يُعذِر إليهم، ويحتجّ عليهم. فأجابهم إلى ذلك، فوجّه الأبرش إليهم أخاه عمرو بن الوليد، وكتب إليهم يحذّرهم ويعلمهم أنه يتخوّف أن يكون هلاكه وهلاك قومه، فطردوه ولم يُجيبوه، فسأله الأبرش أن يأذن له في التوجّه إليهم، ويؤجله أياماً، ففعل، فأتاهم فكلمهم وخوّفهم وأعلمهم أنهم حمقى، وأنه لا طاقة لهم به وبمَن معه، فأجابه عامّتهم، وهرب مَن لم يثق به منهم إلى برّية كلب وباديتهم، وهم السكسكيّ وعِصمة بن المقشعرّ وطفيل بن حارثة ومعاوية بن أبي سفيان بن يزيد بن معاوية، وكان صهر الأبرش على ابنته. وكتب الأبرش إلى مرْوان يعلمه ذلك، فكتب إليه مرْوان: أن اهدم حائط مدينتهم، وانصرف إليّ بمن بايعك منهم.

فانصرف إليه ومعه من رؤوسهم الأصبغ بن ذؤالة وابنه حمزة وجماعة من رؤوسهم، وانصرف مَرْوان بهم على طريق البريّة على سورية ودير اللثق، حتى قدم الرُّصافة ومعه سليمان بن هشام وعمه سعيد بن عبد الملك وإخوته جميعاً وإبراهيم المخلوع وجماعة من ولَد الوليد وسليمان ويزيد، فأقاموا بها يوماً، ثم شخص

إلى الرَّقة فاستأذنه سليمان، وسأله أن يأذن له أن يقيم أياماً ليقوَى من معه من مواليه، ويجمّ ظهره ثم يتبعه، فأذن له ومضى مَرْوان، فنزل عند واسط على شاطىء الفرات في عسكر كان ينزله، فأقام به ثلاثة أيام، ثم مضى إلى قَرْقِيسيا وابنُ هبيرة بها، ليقدمه إلى العراق لمحاربة الضحاك بن قيس الشيبانيّ الحَرُوريّ، فأقبل من نحو عشرة آلاف ممن كان مَرْوان قطع عليه البَعْث بدير أيّوب لغزو العراق مع قوّادهم حتى حلُّوا بالرُّصافة، فدعوا سليمان إلى خلع مروان ومحاربته.

وفي هذه السنة دخل الضّحاك بن قيس الشيبانيّ الكوفة.

ذكر الأخبار عن خروج الضحاك محكّماً ودخوله الكوفة، ومن أين كان إقباله إليها

اختلف في ذلك من أمره، فأما أحمد، فإنه حدّثني عن عبد الوهاب بن إبراهيم، قال: حدّثني أبو هاشم مخلَّد بن محمد، قال: كان سبب خروج الضحاك أنّ الوليد حين قتِل خرج بالجزيرة حَروريّ يقال له سعيد بن بهدل الشيبانيّ في مائتين من أهل الجزيرة؛ فيهم الضحّاك، فاغتنم قتلَ الوليد واشتغال مرْوان بالشأم، فخرج بأرض كَفَرْتُوثا، وخرج بِسطام البيهسيّ وهو مفارق لرأيه في مثل عِدّتهم من ربيعة، ؛ فسار كلّ واحد منهما إلى صاحبه؛ فلما تقارب العسكران وَجّه سعيد بن بهدل الخَيْبريّ - وهو أحد قواده، وهو الذي هزم مَرْوان - في نحو من مائة وخمسين فارساً ليبيّته، فانتهى إلى عسكره وهم غارُّون، وقد أمر كلّ واحد منهم أن يكون معه ثوب أبيض يجلّل به رأسَه، ليعرف بعضهم بعضاً، فبكّروا في عسكرهم فأصابوهم في غرّة، فقال الخيبريّ:

إن يــك بِسْــطامٌ فــإنـي الخَيْبَـري أَضْــرِبُ بـالسَّيْف وأَحْمِي عَسْكَــري

فقتلوا بِسطاماً وجميعَ من معه إلّا أربعة عشر، فلحِقوا بمروان، فكانوا معه فأثبتهم في روابطه، وولّى عليهم رجلاً منهم يقال له مقاتل، ويكنى أبا النعثل. ثمّ مضى سعيدِ بن بهدل نحو العراق لما بلغه من تَشْتيت الأمر بها واختلاف أهل الشأم؛ وقتال بعضهم بعضاً مع عبد الله بن عمر والنّضْر بن سعيد الحرَشيّ - وكانت اليمانية من أهل الشأم مع عبد الله بن عمر بالحيرة، والمضرّية، مع ابن الحَرشيّ بالكوفة؛ فهم يقتتلون فيما بينهم غَدوة وعشيّة.

قال: فمات سعيد بن بهدل في وجهه ذلك من طاعون أصابه؛ واستخلف الضحاك بن قيس من بعده؛ وكانت له امرأة تسمى حوْماء، فقال الخيبريّ في ذلك:

سَقى الله يـا حَـوْمـاءُ قَبْـرَ ابْنِ بَهْـدَلٍ إذا رَحَـل الســارونَ لَـمْ يَـتَـرَحَّـل

قال: واجتمع مع الضّحاك نحوٌ من ألف ثمّ توّجه إلى الكوفة، ومرّ بأرض الموصل، فاتّبعه منها ومن أهل الجزيرة نحوٌ من ثلاثة آلاف، وبالكوفة يومئذ النَّضْر بن سعيد الحَرَشيّ ومعه المضرّية، وبالحيرة عبد الله بن عمر في اليمانية، فهم متعصبون يقتتلون فيما بين الكوفة والحيرة، فلما دنا إليه الضحاك فيمن معه من الكوفة اصطلح ابن عمر والحَرشيّ، فصار أمرهم واحداً، ويداً على قتال الضحاك، وخندقاً على الكوفة، ومعهما يومئذ من أهل الشأم نحوٌ من ثلاثين ألفاً، لهم قوّة وعدّة، ومعهم قائد من أهل قِنَّسْرين، يقال له عبّاد بن الغُزَيِّل في ألف فارس، قد كان مروان أمدّ به ابن الحَرَشيّ، فبرزوا لهم، فقاتلوهم، فقتِل يومئذ عاصم بن عمر بن عبد العزيز

وجعفر بن عباس الكنديّ، وهزموهم أقبح هزيمة، ولحق عبد الله بن عمر في جماعتهم بواسِط، وتوجّه ابنُ الحَرشيّ ـ وهو النّضر ـ وجماعة المضرّية وإسماعيل بن عبد الله القسْريّ إلى مَرْوان، فاستولى الضحاك والجزرّية على الكوفة وأرضها، وَجَبَوُا السواد. ثم استخلف الضّحاك رجلاً من أصحابه ـ يقال له مِلْحان ـ على الكوفة في مائتي فارس، ومضى في عظْم أصحابه إلى عبد الله بن عمر بواسط، فحاصره بها؛ وكان معه قائد من قوّاد أهل قِنّسرين يقال له عطية الثعلبي ـ وكان من الأشدّاء ـ فلما تخوّف محاصرة الضّحاك خرج في سبعين أو ثمانين من قومِه متوجهاً إلى مَرْوان، فخرج على القادسيّة، فبلغ مِلْحانا ممرُّه، فخرج في أصحابه مبادراً يريده، فلقيه على قنطرة السَّيْلَحِين ـ ومِلْحان قد تسرع في نحو من ثلاثين فارساً ـ فقاتله فقتله عطية وناساً من أصحابه، وانهزم بقيتهم حتى دخلوا الكوفة، ومضى عطية حتى لحق فيمن معه مروان.

وأما أبو عبيدة معمر بن المثنّى، فإنه قال: حدثني أبو سعيد، قال: لما مات سعيد بن بَهدل المرّيّ، وبايعت الشراة للضّحاك، أقام بشهرزُور وثابت إليه الصُّفرّية من كلّ وجه حتى صار في أربعة آلاف، فلم يجتمع مثلهم لخارجيّ قطّ قبله. قال: وهلك يزيد بن الوليد وعامله على العراق عبد الله بن عمر، فانحطّ مروان من أرمينيّة حتى نزل الجزيرة، ووليّ العراق النَّضْر بن سعيد ـ وكان من قوّاد ابن عمر ـ فشخص إلى الكوفة، ونزل ابن عمر الحيرة، فاجتمعت المضرّية إلى النّضر واليمانية إلى ابن عمر، فحاربه أربعة أشهر، ثم أمدّ مروان النَّضْر بابن الغزيّل، فأقبل الضحاك نحو الكوفة وذلك في سنة سبع وعشرين ومائة، فأرسل ابن عمر إلى النّضْر: هذا لا يريد غيري وغيرك، فهلمَّ نجتمع عليه فتعاقدا عليه، وأقبل ابن عمر، فنزل تلّ الفتح وأقبل الضّحاك ليعبر الفرات، فأرسل إليه ابن عمر حمزة بن الأصبغ بن ذؤالة الكلبيّ ليمنَعه من العبور، فقال عبيد الله بن العباس الكنديّ: دعه يعبر إلينا، فهو أهون علينا من طلبه. فأرسل ابن عمر إلى حمزة يكفُّه عن ذلك، فنزل ابنُ عمر الكوفة، وكان يصلي في مسجد الأمير بأصحابه، والنضر بن سعيد في ناحية الكوفة يصلّي بأصحابه، لا يجامع ابنَ عمر ولا يصلي معه؛ غير أنهما قد تكافآ واجتمعا على قتال الضّحاك، وأقبل الضّحاك حين رجع حمزة حتى عَبَر الفرات، ونزل النُّخَيْلة يوم الأربعاء في رجب سنة سبع وعشرين ومائة، فخفّ إليهم أهل الشأم من أصحاب ابن عمر والنضر، قبل أن ينزلوا، فأصابوا منهم أربعة عشر فارساً وثلاث عشرة امرأة. ثم نزل الضّحاك وضرب عسكره، وعبّى أصحابه، وأراح، ثم تغادوا يوم الخميس، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فكشفوا ابنَ عمر وأصحابَه، وقتلوا أخاه عاصماً؛ قتله البِرْذَون بن مرزوق الشيبانيّ، فدفنه بنو الأشعث بن قيس في دارِهم، وقتلوا جعفر بن العباس الكنديّ أخا عبيد الله، وكان جعفر على شرْطة عبد الله بن عمر، وكان الذي قتل جعفراً عبد الملك بن علقمة بن عبد القيس، وكان جعفر حين رهقه عبد الملك نادى ابنَ عمّ له يقال له شاشلة، فكثر عليه شاشلة، وضربه رجل من الصُّفْريّة، ففلق وجهه.

قال أبو سعيد: فرأيته بعد ذلك كأنّ له وجهين، وأكبّ عبد الملك على جعفر فذبحه ذبحاً، فقالت أم البرذون الصُّفْريّة:

نَحْنُ قَتَلْنا عاصماً وجَعْفَرا ... والفارِسَ الضَّبّي حِينَ أصْحَرا
ونَحْن جئنا الخَنْدق المُقَعَّرا

فانهزم أصحاب ابن عمر، وأقبل الخوارج، فوقفوا على خندقنا إلى الليل ثم انصرفوا، ثم تغادينا يوم

الجمعة؛ فوالله ماتتامنا حتى هَزَمونا، فدخلنا خنادقنا، وأصبحنا يوم السبت؛ فإذا الناس يتسللون ويهربون إلى واسط، ورأوا قوماً لم يروْا مثلهم قطّ أشدّ بأساً؛ كأنهم الأسْد عند أشبالها، فذهب ابن عمر ينظر أصحابَه، فإذا عامّتهم قد هربوا تحت الليل، ولحق عظْمهم بواسط؛ فكان ممّن لحق بواسط النّضْر بن سعيد وإسماعيل بن عبد الله ومنصور بن جمهور والأصبغ بن ذؤالة وابناه: حمزة وذؤالة، والوليد بن حسان الغسانيّ وجميع الوجوه، وبقي ابن عمر فيمن بقي من أصحابه مقيماً لم يبرح.

ويقال: إنّ عبد الله بن عمر لمّا وليَ العراق ولّى الكوفة عبيد الله بن العباس الكنديّ وعلى شرَطه عمر بن الغضبان بن القَبَعثري، فلم يزالا على ذلك حتى مات يزيد بن الوليد، وقام إبراهيم بن الوليد، فأقرّ ابنَ عمر على العراق، فولّى ابنُ عمر أخاه عاصماً على الكوفة، وأقرّ ابن الغضبان على شُرَطه، فلم يزالوا على ذلك حتى خرج عبد الله بن معاوية فاتّهم عمر بن الغضبان، فلما انقضى أمرُ عبد الله بن معاوية ولّى عبدُ الله بن عمر عمرَ بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب الكوفةَ، وعلى شُرَطه الحكم بن عتيبة الأسديّ من أهل الشأم، ثم عزل عمر بن عبد الحميد عن الكوفة، ثم عزل عمر بن الغضبان عن شُرَطه وولى الوليد بن حسان الغسانيّ، ثم ولّى إسماعيل بن عبد الله القسريّ وعلى شرَطه أبان بن الوليد، ثم عزل إسماعيل وولّى عبد الصمد بن أبان بن النعمان بن بشير الأنصاريّ، ثم عزل فولّى عاصم بن عمر، فقدم عليه الضّحاك بن قيس الشيبانيّ.

ويقال: إنما قدم الضحاك وإسماعيل بن عبد الله القسريّ في القصر وعبد الله بن عمر بالحيرة وابن الحَرَشيّ بدير هند، فغلب الضحاك على الكوفة، وولّى مِلْحان بن معروفة الشيبانيّ عليها، وعلى شرطه الصُّفْر من بني حنظلة - حَروريّ - فخرج ابن الحَرشيّ يريد الشأم، فعارضه مِلْحان، فقتله ابنُ الحَرَشي فولّى الضّحاك على الكوفة حسان فولّى حسان ابنه الحارث على شرَطه.

وقال عبد الله بن عمر يرثي أخاه عاصماً لما قتله الخوارج:

رَمَى غَـرَضي رَيْبُ الـزَّمـانِ فلَمْ يَـدَعْ ... غـداةَ رَمَى للقَوْس في الكَفِّ مِنزَعـا
رَمى غَرَضي الأقصى فأقصَدَ عاصِماً ... أخـاً كـانَ لي حِـرْزاً ومَـأْوَى ومَفْـزَعَـا
فـإنْ تَـكُ أحـزانٌ وفـائضُ عَـبْـرَةٍ ... أذابَتْ عبيـطاً من دَم الجَـوْفِ منقعَـا
تَجـرَّعْتُهـا في عـاصِمٍ واحْتَسَيْتُهـا ... فـأعْـظَمُ منْهـا مـا احتَسَى وتَجَـرَّعـا
فلَيْتَ المنـايـا كُنَّ خلَّفْنَ عـاصِمـاً ... فعِشْنـا جَميعـاً أو ذَهَـبْنَ بِنَا مـعـا

وذكر أن عبد الله بن عمر يقول: بلغني أنّ عين بن عين بن عين بن عين يقتل ميم بن ميم بن ميم بن ميم، وكان يأمل أن يقتله؛ فقتله عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، فذكر أن أصحاب ابن عمر لما انهزموا فلحقوا بواسط، قال لابن عمر أصحابُه: علام تقيم وقد هرب الناس! قال: أتلوّم وأنظر، فأقام يوماً أو يومين لا يرى إلا هارباً، وقد امتلأت قلوبهم رُعباً من الخوارج، فأمر عند ذلك بالرَّحيل إلى واسط، وجمع خالد بن الغُزَيّل أصحابَه، فلحق بمرْوان وهو مقيم بالجزيرة، ونظر عبيد الله بن العباس الكنديّ إلى ما لقيَ الناس، فلم يأمن على نفسه، فجنح إلى الضّحاك فبايعه؛ وكان معه في عسكره، فقال أبو عطاء السنديّ يعيّره باتباعه الضحاك، وقد قتل أخاه:

قُـلْ لـعُبَيْـد اللهِ لـوْ كـان جَعْـفَـرٌ هـوَ الحَيَّ لـم يجنـحْ وأَنْتَ قَـتِيـلُ
ولـم يتبَـع المـرَّاقَ والـثَّـأْرُ فيـهـمُ وفي كفِّـه عَضْبُ الـذُّبـاب صَقِيـل
إلـى مَعْـشَـرٍ أَرْدَوْا أخـاك وأَكـفَـرُوا أبـاك، فـلـمـاذا بعْـد ذاك تَـقُـول!

ـ فلما بلغ عبيد الله بن العباس هذا البيت من قول أبي عطاء، قال أقول: أعضّك الله ببظر أمّك ـ

فـلا وصلَتْك الـرَّحْمُ من ذي قَـرَابَـة وطـالِـبِ وتْـر، والـذَّلـيـلُ ذَلـيـلُ
تَـركـتَ أخـا شَيْبَـانَ يَـسلـبُ بَـزَّهُ ونَـجَّـاك خَـوَّارُ الـعـنَـانِ مَـطولُ

قال: فنزل ابن عمر منزلَ الحجاج بن يوسف بواسط ـ في اليمانية ونزل النّضر وأخوه سليمان ابنا سعيد وحنظلة بن نُباتة وابناه محمد ونباتة في المضرّية ذات اليمين إذا سعِدَت من البصرة، وخلوا الكوفة والحيرة للضّحاك والشُّراة، وصارت في أيديهم، وعادت الحرب بين عبد الله بن عمر والنَّضْر بن سعيد الحَرَشيّ إلى ما كان عليه قبل قدوم الضّحاك يطلب النضر أن يسلم إليه عبد الله بن عمر ولايةَ العراق بكتاب مَرْوان، ويأتي عبد الله بن عمر واليمانية مع ابن عمر والنزارية مع النّضْر؛ وذلك أن جند أهل اليمن كانوا مع يزيد الناقص رحصّباً على الوليد حيث أسلم خالد بن عبد الله القسريّ إلى يوسف بن عمر حتى قتله؛ وكانت القيسية مع مَرْوان، لأنه طلب بدم الوليد ـ وأخوال الوليد من قيس، ثم من ثقيف، أمّه زينب بنت محمد بن يوسف ابنة أخي الحجاج ـ فعادت الحرب بين ابن عمر والنّضر، ودخل الضحاك الكوفة فأقام بها، واستعمل عليها مِلْحَان الشيبانيّ في شعبان سنة سبع وعشرين ومائة، فأقبل منقضاً في الشّراة إلى واسط، متبعاً لابن عمر والنضر، فنزل باب المِضْمار. فلما رأى ذلك ابنُ عمر والنضْر نكلا عن الحرب فيما بينهما، وصارت كلمتهما عليه واحدة؛ كما كانت بالكوفة؛ فجعل النضْر وقوّاده يعبرُون الجسر، فيقاتلون الضّحاك وأصحابه مع ابن عمر ثم يعودون إلى مواضعهم، ولا يقيمون مع ابن عمر؛ فلم يزالوا على ذلك: شعبان وشهر رمضان وشوال، فاقتتلوا يوماً من تلك الأيام، فاشتدّ قتالهمَ، فشدّ منصور بن جمهور على قائد من قوّاد الضحاك، كان عظيم القَدْر في الشّراة، يقال له عكرمة بن شيبان، فضربه على باب القورَج، فقطعه باثنين فقتله. وبعث الضحاك قائداً من قوّاده يدعى شوالا من بني شيبان إلى باب الزّاب، فقال: اضرمْه عليهم ناراً، فقد طال الحصار علينا، فانطلق شوّال ومعه الخيبريّ؛ أحد بني شيبان في خيلهم، فلقيَهم عبدُ الملك بن علقمة، فقال لهم: أين تريدون؟ فقال له شوّال: نريد باب الزّاب، أمرني أمير المؤمنين بكذا وكذا، فقال: أنا معك؛ فرجع معه وهو حاسر، لا درْع عليه؛ وكان من قوّاد الضّحاك أيضاً وكان أشدّ الناس، فانتهوا إلى الباب فأضرموه، فأخرج لهم عبد الله بن عمر منصورَ بن جمهور في ستمائة فارس من كلْب، فقاتلوهم أشدّ القتال، وجعل عبد الملك بن علقمة يشدّ عليهم وهو حاسر؛ فقتل منهم عِدّة، فنظر إليه منصور بن جمهور. فغاظه صنيعه، فشدّ عليه فضربه على حبل عاتقه فقطعه حتى بلغ حَرْقفته؛ فخرّ ميّتاً، وأقبلت امرأة من الخوارج شادّة؛ حتى أخذت بلجام منصور بن جمهور، فقالت: يا فاسق، أجب أمير المؤمنين، فضرب يدها ـ ويقال: ضرب عنان دابته فقطعه في يدها ـ ونجا. فدخل المدينة الخيبريّ يريد منصوراً، فاعترض عليه ابنُ عمّ له من كلْب، فضربه الخيبريّ فقتله [فقال حبيب بن خدرة مولى بني هلال] ـ وكان يزعم أنه من أبناء ملوك فارس ـ يرثي عبد الملك بن علقمة:

وقـائـلـة وَدَمْـعُ الـعَـيْـن يـجـري عـلى روح ابـن عـلقَـمَـةَ الـسَّـلامُ

أأدْرَكَكَ الحِمامُ وأنتَ سارٍ ... وكلُّ فتًى لِمَصْرَعِهِ حِمامُ
فلا رَعشُ البَدَيْنِ ولا هِدانٌ ... ولا وَكَلُ اللقاءِ ولا كَهامُ
وما قَتْلُ عَلَى شارٍ بِعارٍ ... ولكن يُقْتَلُونَ وهُمْ كِرامُ
طَغامُ الناسِ لَيْسَ لَهُمْ سبيلٌ ... شجاني يا بنَ علقمةَ الطغامُ

ثم إنّ منصوراً قال لابن عمر: ما رأيتُ في الناس مثل هؤلاء قطّ - يعني الشُّراة - فلِمَ تحاربهم وتشغلهم عن مروان؟ أعطهم الرِّضا، واجعلهم بينك وبين مرْوان، فإنك إن أعطيتهم الرِّضا خلَّوْا عنا ومضوْا إلى مروان، فكان حدُّهم وبأسهم عليه، وأقمتَ أنت مستريحاً بموضعك هذا؛ فإن ظفروا بها كان ما أردْتَ وكنت عندهم آمناً، وإن ظفر بهم وأردت خلافَه وقتاله قاتلته جامّاً مسترحياً؛ مع أن أمره وأمرهم سيطول، ويوسعونه شرّاً. فقال ابن عُمر: لا تعجَل حتى نتلوّم وننظر، فقال: أيّ شيء ننتظر! فما تستطيع أن تطلع معهم ولا تستقرّ، وإن خرجنا لم نقم لهم، فما انتظارنا بهم ومروان في راحة، وقد كفيناه حدَّهم وشغلناهم عنه! أما أنا فخارج لاحقٌ بهم. فخرج فوقف حيال صفِّهم وناداهم: إني جانحٌ أريد أن أسلِم وأسمع كلام الله - قال: وهي مِحنتهم - فلحق بهم فبايعهم، وقال: قد أسلمتُ، فدعوْا له بغداء فتغدّى، ثم قال لهم: من الفارس الذي أخذ بعناني يوم الزّاب؟ يعني يوم ابن علقمة - فنادوا يا أمّ العنبر، فخرجت إليهم؛ فإذا أجملِ الناس، فقالت له: أنت منصور؟ قال: نعم، قالت: قبح الله سيفك، أين ما تذكر منه! فوالله ما صنع شيئاً، ولا ترك - تعني ألاّ يكون قتلها حين أخذت بعنانة فدخلت الجنة - وكان منصور لا يعلم يومئذ أنها امرأة، فقال: يا أمير المؤمنين، زَوْجنيها، قال: إن لها زوجاً - وكانت تحت عبيدة بن سوّار التغلبيّ - قال: ثم إنّ عبد الله بن عمر خرج إليهم في آخر شوّال فبايعه.

وفي هذه السنة - أعني سنة سبع وعشرين ومائة - خلع سليمان بن هشام بن عبد الملك بن مروانَ مروان بن محمد ونصب الحرب.

ذكر الخبر عن سبب ذلك وما جرى بينهما:

حدثني أحمد بن زهير، قال: حدّثني عبد الوهاب بن إبراهيم، قال: حدّثني أبو هاشم مخلّد بن محمد بن صالح، قال: لما شخص مروان من الرُّصافة إلى الرَّقة لتوجيه ابن هبيرة إلى العراق لمحاربة الضّحاك بن قيس الشيبانيّ استأذنه سليمان بن هشام في مُقام أيام، لإجمام ظهره وإصلاح أمره؛ فأذن له. ومضى مرْوان، فأقبل نحو من عشرة آلاف ممن كان مَرْوان قطع عليه البعث بدير أيوب لغزو العراق مع قوّادهم؛ حتى جاؤوا الرُّصافة، فدعوْا سليمان إلى خَلْع مَروان ومحاربته، وقالوا: أنت أرضى منه عند أهل الشأم وأوْلى بالخلافة، فاستنزلَه الشيطان، فأجابهم، وخرج إليهم بإخواته وولده ومواليه، فعسكر بهم وسار بجمعهم إلى قِنّسرين، فكاتب أهل الشأم فانقضّوا إليه من كلّ وجه وجند؛ وأقبل مَرْوان بعد أن شارف قَرْقيسيا منصرفاً إليه، وكتب إلى ابن هبيرة يأمره بالثبوت في عسكره من دورين حتى نزل معسكَره بواسط، واجتمع مَن كان بالهَنيّ من موالي سليمان وولد هشام، فدخلوا حِصْنَ الكامل بذراريّهم فتحصّنوا فيه، وأغلقوا الأبواب دونه، فأرسل إليهم: ماذا صنعتم؟ خلعتم طاعتي ونقضتم بيعتي بعد ما أعطيتموني من العهود والمواثيق! فردُّوا على رسله: إنا مع سليمان على مَن خالفه. فردّ إليهم: إنّي أحذّركم وأنذركم أن تعرِضوا لأحد ممّن تبِعني من جنْدي أو يناله منكم أذًى،

فتحلُّوا بأنفسكم؛ ولا أمانَ لكم عندي. فأرسلوا إليه: إنا سنكفّ. ومضى مـرْوان، فجعلوا يخرجـون من حصِنهم، فيغيرون على من اتّبعه من أخريات الناس وشذْان الجند؛ فيسلبونهم خيولَهم وسـلاحَهم. وبلغه ذلك، فتحرّق عليهم غيظاً. واجتمع إلى سليمان نحوٌ من سبعين ألفاً من أهل الشأم والذّكْوانية وغيرهم، وعسكر في قرية لبني زفر يقال لها خُسَاف من قِنّسرين من أرضها. فلما دنا منه مَرْوان قدّم السكسكيّ في نحو سبعة آلاف، ووجّه مرْوان عيسى بن مسلم في نحو من عدّتهم، فالتقوْا فيما بين العسكرين، فـاقتتلوا قتالا شديداً، والتقى السكسكيّ وعيسى، وكلّ واحد منهما فارس بطل، فاطّعنا حتى تقصّفت رماحهما، ثم صارا إلى السيوف، فضرب السكسكيُّ مقدّم فرس صاحبه، فسقط لجامُه في صـدره، وجال بـه فرسـه، فاعتـرضه السَّكسكيّ، فضربه بالعمود فصرعه، ثم نزل إليه فأسره، وبارز فارساً من فرسان أنطاكيَة، يقال له سلساق قائد الصّقالبة. فأسره، وانهزمت مقدّمة مروان وبلغه الخبر وهو في مسيره، فمضى وطوى على تعبية، ولم ينزل حتى انتهى إلى سليمان، وقد تعبّأ له، وتهيّأ لقتاله، فلم يناظره حتى واقعه، فانهزم سليمان ومَن معه، وأتْبعتهم خيوله تقتلهم وتأسرهم؛ وانتهوا إلى عسكرهم فاستباحوه، ووقف مروان مَوقِفاً، وأمر ابنيه فوقفا موقفين، ووقف كوثر صاحب شرطته في موضع، ثم أمرهم ألّا يأتوا بأسير إلّا قتلوه إلّا عبداً مملوكاً، فأحصيَ مِنْ قتلاهم يومئذ نيّف على ثلاثين ألفاً.

قال: وقُتِل إبراهيم بن سليمان أكبر ولده، وأتِي بخال لهشام بن عبد الملك يقال لـه خالـد بن هشام المخزوميّ ـ وكان بادناً كثير اللحم ـ فأدِنيَ إليه وهو يلْهث، فقال له: يا فاسق؛ أما كان لك في خمر المدينة وقِيانها ما يكفُّك عن الخروج مع الحرّاء تقاتلني! قال: يا أمير المؤمنين، أكرهني، فأنشدِك الله والرّحم! قال: وتكذب أيضاً! كيف أكرهَك وقد خرجتَ بالقيان والزقاق والبَرابط معك في عسكره! فقتله. قال: وادّعى كثير من الأسَراء من الجند أنهم رقيق، فكفّ عن قتلهم، وأمر ببيعهِم فيمن يزيد مع ما بيع مما أصيب في عسكرهم.

قال: ومضى سليمان مفلولاً حتى انتهى إلى حِمْص؛ فانضمّ إليه من أفلت ممّن كان معه، فعسكر بها، وبنى ما كان مروان أمر بهدمه من حيطانها، ووجّه مَرْوان يوم هزمه قوّاداً وروابط في جَرِيدة خيل، وتقدّم إليهم أن يسبقوا كلَّ خبر؛ حتى يأتوا الكامل، فيحدقوا بها إلى أن يأتيهم، حَنقاً عليهم، فأتوهم فنزلوا عليهم، وأقبل مَرْوان نحوهم حتى نزل معسكَره من واسط، فأرسل إليهم أن انزلوا على حكمي، فقالـوا: لا حتى تؤمّننا بأجمعنا، فدلَف إليهم، ونصب عليهم المجانيق، فلما تتابعت الحجارة عليهم نزلوا على حكْمِه، فمثّـل بهم واحتملهم أهل الرَّقة فآوْوهم، وداووا جراحاتهم، وهلك بعضُهم وبقي أكثرهم، وكانت عِدّتهم جميعاً نحواً من ثلاثمائة. ثم شخص إلى سليمان ومَن تجمّع معه بحِمْص، فلما دنا منهم اجتمعوا، فقال بعضهم لبعض: حتى متى ننهزم من مروان! هلمّوا فلنتبايع على الموت ولا نفترق بعد معاينته حتى نموت جميعاً. فمضى على ذلك من فرسانهم مَن قد وطّن نفسه على الموت نحو من تسعمائة، وولّى سليمان على شَطْرهم معاوية السَّكسكيّ، وعلى الشَّطر الثاني ثُبيتاً البَهرانيّ. فتوجهوا إليه مجتمعين، على أن يبيّتوه إن أصابوا منه غِرّة، وبلغه خبرهم وما كان منهم، فتحرّز وزحف إليهم في الخنادق على احتراس وتعبية، فراموا تبييته فلم يقدروا، فتهيؤوا له وكمنوا في زيتون ظَهرَ على طريقه، في قرية تسمى تَل منّس من جبل السّماق، فخرجوا عليه وهو يسير على تعبيَة، فوضعوا السلاح فيمن معه، وانتبذلهم، ونادى خيولَه فثابت إليه من المقدمة والمجنّبّتين والسَّاقة، فقاتلوهم من لَدُن

ارتفاع النهار إلى بعد العَصْر، والتقى السَّكسكِيّ وفارس من فرسان بني سليم، فاضطربا، فصرعه السُّلميّ عن فرسه، ونزل إليه، وأعانه رجل من بني تميم، فأتياه به أسيراً وهو واقف؛ فقال: الحمد لله الذي أمكَن منك فطالما بلغت منّا! فقال: استبقني فإني فارس العرب، قال: كذبت؛ الذي جاء بك أفرسُ منك، فأمر به فأوثق، وقتل ممّن صبر معه نحو من ستة آلاف.

قال: وأفلت ثُبيت ومَن انهزم معه، فلما أتوْا سليمان خلف أخاه سعيد بن هشام في مدينة حِمْص، وعرف أنه لا طاقة له به، ومضى هو إلى تَدْمر، فأقام بها، ونزل مَرْوان على حِمْص، فحاصرهم بها عشرة أشهر، ونصب عليها نَيّفاً وثمانين مِنْجنيقاً، فطرح عليهم حجارتها بالليل والنهار وهم في ذلك يخرجون إليه كلّ يوم فيقاتلونه، وربما بيّتوا نواحي عسكره، وأغاروا على الموضع الذي يطمعون في إصابة العوْرة والفرضة منه. فلما تتابع عليهم البلاء، ولزمهم الذُّلّ سألوه أن يؤمّنهم على أن يمكنوه من سعيد بن هشام وابْنيه عثمان ومرْوان ومن رجل كان يسمى السكسكيّ، كان يغير على عسكرهم، ومن حبشيّ كان يشتمه ويفتري عليه؛ فأجابهم إلى ذلك وقبله. وكانت قصّة الحبشي أنه كان يشرف من الحائط ويربط في ذكَره ذكَر حمار ثم يقول: يا بني سليم، يا أولاد كذا وكذا، هذا لواؤكم! وكان يشتم مروان، فلما ظفر به دفعه إلى بني سُليم، فقطعوا مذاكيره وأنفه، ومثّلوا به، وأمر بقتل المتسمّى السكسكيّ والاستيثاق من سعيد وابنيه، وأقبل متوجّهاً إلى الضحاك.

وأما غير أبي هاشم مخلّد بن محمد، فإنه ذكر من أمر سليمان بن هشام بعد إنهزامه من وقعة خُساف غير ما ذكره مخلّد؛ والذي ذكره من ذلك أنّ سليمان بن هشام بن عبد الملك حين هزمه مَرْوان يوم خُساف أقبل هارباً؛ حتى صار إلى عبد الله بن عمر، فخرج مع عبد الله بن عمر إلى الضّحاك، فبايعه، وأخبر عن مروان بفسق وجور وحضّض عليه، وقال: أنا سائر معكم في مواليّ ومَن اتبعني، فسار مع الضحاك حين سار إلى مروان، فقال شُبيل بن عَزْرة الضُّبَعيّ في بيعتهم الضحاك:

أَلــم تــرَ أنَّ الله أظــهَــرَ ديــنَــهُ   فصَلَّتْ قــرَيْشٌ خَلف بكْـرِ بنِ وائِـل

فصارت كلمة ابن عمر وأصحابه واحدة على النَّضر بن سعيد، فعلم أنه لا طاقة له بهم؛ فارتحل من ساعته يريد مَرْوان بالشأم.

وذكر أبو عبيدة أن بَيْهساً أخبره: لما دخل ذو القعدة سنة سبع وعشرين ومائة، استقام لمْروان الشأم ونفى عنها مَن كان يخالفه، فدعا يزيد بن عمر بن هبيرة، فوجَّهَه عاملاً على العراق، وضمّ إليه أجناد الجزيرة، فأقبل حتى نزل سعيد بن عبد الملك، وأرسل ابن عمر إلى الضَّحاك يعلمه ذلك. قال: فجعل الضّحاكَ لَنَا مَيْسان وقال: إنها تكفيكم حتى ننظر عما تنجلي. واستعمل ابن عمر عليها مولاه الحكم بن النعمان.

فأما أبو مخنف فإنه قال ـ فيما ذكر عنه هشام: إن عبد الله بن عمر صالح الضّحاك على أنّ بيد الضحاك ما كان غلب عليه من الكوفة وسوادها، وبيد ابن عمر ما كان بيده من كَسْكرَ وميسان ودَسْتميسان وكور دجلة والأهواز وفارس، فارتحل الضّحاك حتى لقي مروان بكَفَرْتوثا من أرض الجزيرة.

وقال أبو عبيدة: تهيّأ الضّحاك ليسير إلى مَرْوان، ومضى النَّضْر يريد الشأم، فنزل القادسيّة، وبلغ ذلك

مِلْحان الشيبانيّ عامل الضّحاك على الكوفة، فخرج إليه فقاتله وهو في قلّة من الشُّراة، فقاتله فصبر حتى قتله النّضر. وقال ابن خدرة يرثيه وعبد الملك بن علقمة:

كـائِنْ كمِلْحـانَ مِنْ شـارٍ أَخِي ثِقَـةٍ　　وَابْنِ علقَمَـةَ المسْتشْهـدِ الـشـارِي
من صـادِقٍ كُنْتُ أَصْفِيـهِ مخـالَصتي　　فبـاعَ داري بـأعلى صَـفْقَـةِ الـدارِ
إخـوان صِـدْقٍ أُرَجّيهـمْ وأخـذلُهـمْ　　أَشْكـو إلى اللهِ خـذلاني وإخفـارِي

وبلغ الضّحاكَ قتل مِلْحان، فاستعمل على الكوفة المثنّى بن عمران من بني عائذة، ثم سار الضّحاك في ذي القَعْدة، فأخذ الموصل، وانحطّ ابن هبيرة من نهر سعيد حتى نزل غزّة من عين التَّمْر، وبلغ ذلك المثنّ بن عمران العائذيّ، عاملِ الضحاك على الكوفة، فسار إليه فيمَن معه من الشراة، ومعه منصور بن جمهور، وكان صار إليه حين بايع الضّحاك خلافاً على مروان، فالتقوا بغزّة، فاقتتلوا قتالاً شديداً أياماً متوالية؛ فقتل المثنى وعزيز وعمرو ـ وكانوا من رؤساء أصحاب الضحاك ـ وهرب منصور، وانهزمت الخوارج، فقال مسلم حاجب يزيد:

أَرَتْ لـلمـثـنَّى يَـومَ غـزَّةَ حَـتْـفَـهُ　　وأَذرَتْ عُـزَيـراً بينَ تـلكَ الجَـنـادل
وعـمـراً أزارَتْـهُ المِـنيَّـةَ بَـعْـدَ مـا　　أطـافتْ بمَنْصُـورٍ كِفـاتُ الحَبـائِـلِ

وقال غَيْلان بن حُرَيث في مدحه ابن هبيرة:

نـصـرْتَ يَـومَ الـعَـيْـنِ إذ لـقيـتـا　　كـنَـصْـرِ داودٍ عـلى جـالُـوتـا

فلما قتل منهم مَنْ قتل في يوم العين، وهرب منصور بن جمهور، أقبل لا يلوِي حتى دخل الكوفة، فجمع بها جَمْعاً من اليمانية والصُّفْرِيَّة ومَن كان تفرّق منهم يوم قتل مَلْحان ومَنْ تخلف منهم عن الضحاك، فجمعهم منصور جميعاً، ثم سار بهم حتى نزل الرَّوْحاء، وأقبل ابن هبيرة في أجْنادِه حتى لقيَهم، فقاتلهم أياماً ثم هزمهم، وقتِل البرَذونْ بن مرزوق الشيبانيّ، وهرب منصور ففي ذلك يقول غيلان بن حُرَث:

ويَـوم رَوْحـاءِ الـعُـذَيْـبِ دفَّـفُـوا　　عـلى ابْنِ مـرزُوقٍ سَـمَـامٌ مُـزْعِفُ

قال: وأقبل ابن هبيرة حتى نزل الكوفة ونفى عنها الخوارج، وبلغ الضّحاك ما لقي أصحابه، فدعا عبيدة بن سوّار التغلَبيّ، فوجّهه إليهم؛ وانحطّ ابن هبيرة يريد واسطاً وعبدالله بن عمر بها، وولى على الكوفة عبد الرحمن بن بشير العجليّ وأقبل عبيدة بن سوّار مغذّاً في فرسان أصحابه، حتى نـزل الصّراة، ولحق بـه منصور بن جمهور؛ وبلغ ذلك ابن هبيرة فسار إليهم فالتقوا بالصّراة في سنة سبع وعشرين ومائة.

وفي هذه السنة توجّه سليمان بن كثير ولاهز بن قُرَيظة وقحطبة بن شبيب ـ فيما ذكر ـ إلى مكة، فلقوا إبراهيم بن محمد الإمام بها، وأعلموه أن معهم عشرين ألف دينار ومائتي ألف درهم ومسْكا ومتاعاً كثيراً، فأمرهم بدفع ذلك إلى ابن عروة مولى محمد بن عليّ، وكانوا قدموا معهم بأبي مسلم ذلك العام، فقال ابن كثير لإبراهيم بن محمد: إنّ هذا مولاك.

وفيها كتب بكير بن ماهان إلى إبراهيم بن محمد يخبره أنه في أول يوم من أيام الآخرة، وآخر يوم من أيام

الدنيا، وأنه قد استخلف حفص بن سليمان، وهو رضاً للأمر. وكتب إبراهيم إلى أبي سلمة يأمره بالقيام بأمر أصحابه؛ وكتب إلى أهل خراسان يخبرهم أنه قد أسند أمرهم إليه، ومضى أبو سَلَمَة إلى خراسان فصدّقوه، وقبلوا أمره، ودفعوا إليه ما اجتمع قبَلهم من نَفقات الشيعة وخمس أموالهم.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وهو عامل مَرْوان على المدينة ومكة والطائف؛ حدثني بذلك أحمد بن ثابت الرازيّ، عمن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر. وكذلك قال الواقديّ وغيره.

وكان العامل على العراق النَّضر بن الحَرَشيّ، وكان من أمره وأمر عبد الله بن عمر والضحاك الحَرُوريّ ما قد ذكرت قبلُ. وكان بخراسان نصر بن سيار وبها من ينازعه فيها كالكرمانيّ والحارث بن سُرَيج.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائة

فمما كان فيها من الأحداث قتل الحارث بن سريج بخراسان.

ذكر الخبر عن مقتله وسبب ذلك:

قد مضى ذكر كتاب يزيد بن الوليد للحارث بأمانه، وخروج الحارث من بلاد الترك إلى خراسان ومصيره إلى نصر بن سيار، وما كان من نَصْر إليه، واجتماع مَن اجتمع إلى الحارث مستجيبين له. فذكر عليّ بن محمد عن شيوخه، أنّ ابن هبيرة لما وليِّ العراق كتب إلى نصر بعهْده، فبايع لمرْوان، فقال الحارث: إنما آمنني يزيد بن الوليد، ومَرْوان لا يُجيز أمانَ يزيد، فلا آمنه. فدعا إلى البيْعة، فشتَم أبو السليل مَرْوانَ، فلما دعا الحارث إلى البَيْعة أتاه سلْم بن أحوز وخالد بن هرَيم وقَطَن بن محمد وعبّاد بن الأبرد بن قرّة وحمّاد بن عامر، وكلموه وقالوا له: لِمَ يصيّر نصرٌ سلطانَه وولايته في أيدي قومك؟ ألم يخرجك من أرض الترك ومن حكم خاقان! وإنما أتى بك لئلا يجترىء عليك عدّوك فخالفْته، وفارقتَ أمر عشيرتك، وأطمَعْت فيهم عدوّهم، فنذكِّرك الله أن تفرّق جماعتنا! فقال الحارث: إنّي لأرى في يدي الكرمانيّ ولاية، والأمر في يد نصر، فلم يجبْهم بما أرادوا، وخرج إلى حائط لحمزة بن أبي صالح السلميّ بإزاء قصر بخاراخذّاه، فعسكر وأرسل إلى نصر، فقال له: اجعل الأمر شورى، فأبى نصر. فخرج الحارث فأتى منازل يعقوب بن داود، وأمر جَهْم بن صَفْوان، مولى بني راسب، فقرأ كتاباً سيَّر فيه الحارث على الناس، فانصرفوا يكبِّرون، وأرسل الحارث إلى نصر: اعزل سلْم بن أحوز عن شُرَطك، واستعمل بشْر بن بسْطام البرْجميّ، فوقع بينه وبين مغلّس بن زياد كلام، فتفرقت قيس وتميم، فعزله. واستعمل إبراهيم بن عبد الرحمن، واختاروا رجالاً يسمون لهم قوماً يعملون بكتاب الله. فاختار نصر مقاتلَ بن سليمان ومقاتل بن حيَان، واختار الحارث المغيرةَ بن شعبة الجَهْضميّ ومعاذ بن جبَلة، وأمر نصرٌ كاتبه أن يكتب ما يرضوْن من السُّنَن، وما يختارونه من العمال، فيولِّيهم الثَّغرين؛ ثغر سَمَرْقند وطخارستان، ويكتب إلى مَن عليهما ما يرضونه من السيرَ والسنَن. فاستأذن سلْم بن أحوز نصراً في الفتك بالحارث، فأبى وولّى إبراهيم الصائغ، وكان يوجّه ابنه إسحاق بالفيروزج إلى مَرْو، وكان الحارث يظهر أنه صاحب الرّايات السود؛ فأرسل إليه نصر: إن كنتَ كما تزعم، وأنكم تهدِمون سور دمشق، وتزيلون أمر بني أميّة، فخذْ مني خمسمائة رأس ومائتي بعير، واحمل من الأموال ما شئتَ وآلة الحرب وسرْ؛ فلعمري لئن كنتَ صاحب ما ذكرت إني لفي يدك؛ وإن كنت لستَ ذلك فقد أهلكتَ عشيرتك. فقال الحارث: قد علمتُ أن هذا حقّ، ولكن لا يبايعني عليه مَنْ صحبني. فقال نصر: فقد استبان أنهم ليسوا على رأيك، ولا لهم مثلُ بصيرتك، وأنهم هم فساق ورَعاع، فأذكرك الله في عشرين ألفاً من ربيعة واليمن سَيهْلكون فيما بينكم. وعرض نصر على الحارث أن يولّيَه ماوراء النهر، ويعطيَه ثلاثمائة ألف؛ فلم يقبل؛ فقال له نصر: فإن شئتَ فابدأ بالكرْمانيّ فإن قتلتَه فأنا في طاعتك، وإن

شئت فخلِّ بيني وبينه؛ فإن ظفرتُ به رأيت رأيك، وإن شئتَ فسرْ بأصحابك؛ فإذا جزت الرّيّ فأنا في طاعتك.

قال: ثم تناظر الحارث ونصر، فتراضيا أن يحكم بينهم مقاتل بن حيّان وجَهْم بن صفوان، فحكما بأن يعتزل نصر، ويكون الأمر شورى. فلم يقبل نصر. وكان جَهْم يقصّ في بيته في عسكر الحارث، وخالف الحارث نصراً، ففرض نصر لقومه من بني سلِمة وغيرهم، وصيّر سَلْماً في المدينة في منزل ابن سوّار، وضمّ إليه الرّابطة وإلى هدبة بن عامر الشعراويّ فرساً، وصيّره في المدينة، واستعمل على المدينة عبد السلام بن يزيد بن حيّان السُّلميّ، وحوّل السلاح والدّواوين إلى القهندز، واتّهم قوماً من أصحابه أنهم كاتبوا الحارث، فأجلس عن يساره مَن اتّهم ممن لا بلاء له عنده، وأجلس الّذين ولاهم واصطنعهم عن يمينه؛ ثم تكلم وذكر بني مَرْوان ومَن خرج عليهم؛ كيف أظفر الله به؛ ثم قال: أحمدُ الله وأذمُّ مَن على يساري؛ ولِيتُ خراسان فكنتَ يا يونس بن عبد ربْه ممن أراد الهرب من كلف مؤونات مَرْو، وأنت وأهل بيتك ممن أراد أسد بن عبد الله أن يختم أعناقهم، ويجعلهم في الرّجالة، فوليتكم إذ وليتكم واصطنعتكم وأمرتكم أن ترفعوا ما أصبتم إذا أردتُ المسير إلى الوليد، فمنكم مَنْ رفع ألف ألف وأكثر وأقلّ، ثم ملأتم الحارث عليّ، فهلا نظرتم إلى هؤلاء الأحرار الذين لزموني مؤاسين على غير بلاء! وأشار إلى هؤلاء الذين عن يمينه. فاعتذر القوم إليه، فقبل عذرهم.

وقدم على نصر من كور خراسان حين بلغهم ما صار إليه من الفتنة جماعة؛ منهم عاصم بن عمير الصُّريميّ وأبو الذّيال الناجيّ وعمرو الفادوسبان السُّغْديّ البخاريّ وحسان بن خالد الأسديّ من طُخارستان في فوارس، وعَقيل بن مَعْقل الليثيّ ومسلم بن عبد الرحمن بن مسلم وسعد الصَّغير في فرسان.

وكتب الحارث بن سريج سيرته، فكانت تقرأ في طريق مَرْو والمساجد فأجابه قوم كثير؛ فقرأ رجل كتابه على باب نصر بماجان، فضربه غلمان نصر، فنابذه الحارث، فأتى نصراً هبيرة بن شرَاحيل ويزيد أبو خالد، فأعلماه، فدعا الحسن بن سعد مولى قريش، فأمره فنادى: إن الحارث بن سريج عدو الله قد نابذ وحارب، فاستعينوا الله ولا حوْل ولا قوّة إلا بالله. وأرسل من ليلته عاصم بن عمير إلى الحارث، وقال لخالد بن عبد الرحمن: ما نفعل شعارَنا غداً؟ فقال مقاتل بن سليمان: إن الله بعث نبيّاً فقاتل عدوّاً له، فكان شعاره « حم لا ينْصَرون »، فكان شعارهم « حم لا ينصرون »، وعلامتهم علَى الرّماح الصوف.

وكان سلْم بن أحْوَز وعاصم بن عُمير وقَطَن وعَقِيل بن معقل ومسلم بن عبد الرحمن وسعَيد الصغير وعامر بن مالك والجماعة في طرف الطخارّية ويحيى بن حُضَين وربيعة في البخاريّين. ودلّ رجل من أهل مدينة مَرْو الحارث على نَقْب في الحائط، فمضى الحارث فنقَب الحائط، فدخلوا المدينة من ناحية باب بالين وهم خمسون، ونادوْا: يا منصور ـ بشعار الحارث ـ وأتوا باب نِيق، فقاتلهم جَهْم بن مسعود الناجيّ، فحمل رجل على جَهْم فطعنه في فيه فقتله، ثم خرجوا من بابِ نِيق حتى أتوا قبة سلْم بن أحْوَز فقاتلهم عصْمة بن عبد الله الأسديّ وخضير بن خالد والأبرد بن داود من آل الأبرد بن قرّة، وعلى باب بالين حازم بن حاتم، فقتلوا كلّ مَن كان يحرسه، وانتهبوا منزلَ ابن أحوز ومنزل قُدَيد بن منيع؛ ونهاهم الحارث أن ينتهبوا منزل ابن أحوز ومنزل قُدَيد بن مَنِيع ومنزل إبراهيم وعيسى ابني عبد الله السلميّ إلاّ الدوابّ والسلاح؛ وذلك ليلة الاثنين لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة.

قال: وأتى نصراً رسولُ سلْم يخبره دنوّ الحارث منه، وأرسل إليه: أخّره حتى نصبح، ثم بعث إليه أيضاً محمد بن قَطَن بن عمران الأسديّ، أنه قد خرج عليه عامّة أصحابه، فأرسل إليه: لا تبدأهم.

وكان الذي أهاج القتال، أنّ غلاماً للنَّضْر بن محمد الفقيه يقال له عطية، صار إلى أصحاب سَلْم، فقال أصحاب الحارث: رُدُّوه إلينا، فأبوْا، فاقتتلوا، فرمى غلاماً لعاصم في عينه فمات؛ فقاتلهم ومعه عَقِيل بن مَعْقِل فهزمهم، فانتهوْا إلى الحارث وهو يصلّي الغداةَ في مسجد أبي بَكْرة، مولى بني تميم؛ فلما قضى الصلاة دنا منهم، فرجعوا حتى صاروا إلى طَرف الطُّخاريَّة، فدنا منه رجلان، فناداهما عاصم: عَرْقِبا بِرْذونه؛ فضرب الحارث أحدَهما بعَموده فقتله، ورجع الحارث إلى سكة السُّغْد، فرأى أعينَ مولى حيّان، فنهاه عن القتال، فقاتل فقتِل، وعَدَل في سكة بني عصمة، فأتبعه حماد بن عامر الحمانيّ ومحمد بن زُرعة، فكسر رمحيْهما، وحمل على مرزوق مولَى سَلْم؛ فلما دنا منه رمى به فرسه؛ فدخل حانوتاً، وضرب بِرْذَونه على مؤخّره فنفق. قال: وركب سلْم حين أصبح إلى باب نِيق، فأمرهم بالخندق، فخندقوا وأمر منادياً، فنادى: مَن جاء برأس فله ثلاثمائة، فلم تطلع الشمس حتى انهزم الحارث، وقاتلهم الليل كله، فلما أصبحنا أخذ أصحاب نصر على الرزيق، فأدركوا عبد الله بن مجّاعة بن سعد، فقتلوه. وانتهى سلْم إلى عسكر الحارث؛ وانصرف إلى نَصْر فنهاه نصر، فقال: لست منتهياً حتى أدخل المدينة على هذا الدبُّوسيّ؛ فمضى معه محمد بن قَطَن وعبيد الله بن بسام إلى بابَ دَرْسنْكان ـ وهو القهندز ـ فوجوده مردوماً، فصعِد عبد الله بن مَرْيَد الأسديّ السور ومعه ثلاثة، ففتحوا الباب، ودخل ابن أحْوَز، ووكّل بالباب أبا مطهّر حرب بن سليمان، فقتِل سلم يومئذ كاتب الحارث بن سرَيج، واسمه يزيد بن داود، وأتى عبد ربه بن سِيسن فقتَله، ومضى سلْم ألى باب نِيق ففتحه، وقتل رجلاً من الجزّارين كان دلّ الحارث على النَّقْب؛ فقال المنذر الرقاشيّ بن عمّ يحيى بن حضين، يذكر صبر القاسم الشيبانيّ:

مـا قـاتَـلَ القومَ منكُمْ غيرُ صاحِبِنـا	في عُصْبَـةٍ قـاتلوا صَبـراً فمـا ذُعِـروُا
هُمْ قاتلوا عَندَ بـابِ الحصنِ ما وَهَنُـوا	حتى أتـاهُمْ غِيـاثُ اللهِ فـانْتَصَـرُوا
فـقـاسِمٌ بَـعـدَ أَمْـرِ اللهِ أَحـرَزَهـا	وأنتَ في معـزِلٍ عن ذاكَ مـقتَـصِـرُ

ويقال: لما غلظ أمر الكرمانيّ والحارث أرسل نَصْر إلى الكرمانيّ، فأتاه على عهد، وحضرهم محمد بن ثابت القاضي ومقدام بن نعيم أخو عبد الرحمن بن نعيم الغامديّ وسلْم بن أحْوز، فدعا نصرٌ إلى الجماعة، فقال للكرْمانيّ: أنت أسعدُ الناس بذلك؛ فوقع بين سَلْم بن أحْوَز والمقدام كلام؛ فأغلظ له سَلْم، فأعانه عليه أخوه، وغضِب لهما السُّغديّ بن عبد الرحمن الحَزْميّ، فقال سلْم: لقد هممتُ أن أضربَ أنفَك بالسيف، فقال السُّغديّ: لو مسستَ السَّيْف لم ترجع إليك يدُك، فخاف الكِرمانيّ أن يكون مكراً من نصْر، فقام وتعلقوا به، فلم يجلس، وعاد إلى باب المقصورة.

قال: فتلقّوْه بفرسه، فركب في المسجد، وقال نصر: أراد الغدر بي، وأرسل الحارث إلى نصر: إنا لا نرضى بك إماماً، فأرسل إليه نصر: كيف يكون لك عقل، وقد أفنيتَ عمرك في أرض الشرْك وغزوتَ المسلمين بالمشركين! أتراني أتضرَّع إليك أكثر مما تضرَّعت!. قال: قال: فأسِر يومئذ جَهْم بن صفوان صاحب الجَهميّة، فقال لسلم: إن لي وَلْثًا من ابنك حارث؛ قال: ما كان ينبغي له أن يفعل؛ ولو فعل ما آمنتك، ولو ملأتَ هذه

الملاءة كواكبَ، وأبرأك إليّ عيسى بن مريم ما نجوتَ؛ والله لو كنتَ في بطني لشققتُ بطني حتى أقتلَك؛ والله لا يقوم علينا مع اليمانية أكثر مما قمتَ؛ وأمر عبد ربّه بن سِيسَن فقتله، فقال الناس: قتِل أبو محرز - وكان جَهْم يكنى أبا محرز. وأسِر يومئذ هبيرة بن شراحيل وعبد الله بن مجّاعة فقال: لا أبقى الله من استبقاكما، وإن كنتما من تميم. ويقال: بل قُتل هبيرة، لَحقَتْهُ الخيل عند دار قَدَيد بن منبع فقتِل. قال: ولما هَزم نصر الحارثَ، بعث الحارث ابنَه حاتماً إلى الكرمانيّ، فقال له محمد بن المثنّى: هما عـدوّاك، دعهما يضـطربان؛ فبعث الكـرمانيّ السُّغديّ بن عبد الرحمن الحَزْميّ معه، فدخل السُّغديّ المدينة من ناحية باب ميخان، فأتاه الحارث، فدخل فازة الكِرْمانيّ، ومع الكِرمانيّ داود بن شعيب الجدّانيّ ومحمد بن المثنى، فأقيمت الصلاة، فصلى بهم الكرمانيّ، ثم ركب الحارث، فسار معه جماعة بن محمد بن عزيز أبو خلف، فلمّا كان الغد سار الكِرمانيّ إلى باب ميدان يزيد، فقاتل أصحابَ نصر، فقتِل سعد بن سَلْم المراغيّ، وأخذوا عَلم عثمان بن الكرمانيّ؛ فأوّل من أتى الكرمانيّ بهزيمة الحارث وهو معسكر بباب مَـاسَرْجَسَـان على فـرسخ من المـدينة النَّضْر بن غَـلاّق السُّغديّ وعبد الواحد بن المنخَّل. ثم أتاه سوادة بن سريج، وحاتم بن الحارث والخليل بن غزوان العدريّ، أتوه ببيعة الحارث بن سريج.

وأول من بايع الكرمانيّ يحيى بن نعيم بن هبيرة الشيبانيّ، فوجه الكرمانيّ الى الحارث بن سريج سورة بن محمد الكنديّ إلى أسمانير والسغديّ بن عبد الرحمن أبا طعمة وَصْعباً أو صُعيباً، وصبّاحاً، فدخلوا المـدينة من باب ميخان، حتى أتوْا باب ركَك، وأقبل الكِرمانيّ إلى باب حَرْب بن عامر، ووجّه أصحابه إلى نصر يوم الأربعاء، فترامَوْا ثم تحاجزوا، ولم يكن بينهم يوم الخميس قتال. قال: والتقوْا يوم الجمعة، فانهزمت الأزْد؛ حتى وصلوا إلى الكِرمانيّ، فأخذ اللواء بيده فقاتل به، وحمل الخَضر بن تميم وعليه تِجْفافٌ، فرموْه بالنّشاب، وحمل عليه حبيش مولى نَصْر فطعنه في حَلْقه، فأخذ الخضر السِّنَان بشماله من خلفه؛ فشبَّ به فرسه، وحمل فطعن حبيشاً فأذراه عن بِرْذونه، فقتله رجّالة الكِرمانيّ بالعصيّ.

قال: وانهزم أصحابُ نصر، وأخذوا لهم ثمانين فرساً، وصرِع تميم بن نصر، فأخذوا له برذَوْنين؛ أخذ أحدهما السُّغديّ بن عبد الرحمن، وأخذ الآخر الخَضِر، ولحق الخضر بسلم بن أحْوز، فتناول من ابن أخيه عموداً فضربه فصرَعه، فحمل عليه رجلان من بني تميم فهرب، فرمى سَلْم بنفسه تحت القناطر وبه بضع عشرة ضربة على بَيْضته فسقط، فحمله محمد بن الحدّاد إلى عسكر نصر، وانصرفوا، فلما كان في بعض الليالي خرج نصر من مَرْو، وقُتِل عصمة بن عبد الله الأسديّ، وكان يحمي أصحاب نصر؛ فأدركه صالح بن القعقاع الأزديّ، فقال له عصمة: تقدّم يا مَزْونيّ، فقال صالح: أثبت يا خصي - وكان عقيماً - فعطَف فرسه فشبَّ فسقط، فطعنه صالح فقتله..

وقاتل ابن الديليمريّ، وهو يرتجز؛ فقتِل إلى جنب عصْمة. وقتل عبيد الله بن حوتمة السلميّ، رمى مروان البهرانيّ بجرزُة؛ فقتل؛ فأتى الكرمانيّ برأسه فاسترجع - وكان له صديقاً - وأخذ رجل يماني بعنان فرس مسلم بن عبد الرحمن بن مسلم فعرفه فتركه. واقتتلوا ثلاثة أيام، فهزمت آخرَ يوم المضريّةُ اليمن، فنـادى الخليل بن غزوان: يا معشَر ربيعة واليمن؛ قد دخل الحارثُ السوق، وقتِل ابن الأقطع؛ ففتّ في أعضـاد المضريّة. وكان أوّل مَن انهزم إبراهيم بن بسام الليثيّ، وترجّل تميم بن نصر، فأخذ برْذَوْنه عبد الرحمن بن جامع الكنديّ، وقتلوا هَيّاجاً الكلبيّ ولقيط بن أخضر؛ قتله غلام لهانىء البزّار.

قال: ويقال: لما كان يوم الجمعة تأهبّوا للقتال، وهدموا الحيطان ليتّسع لهم الموضع، فبعث نصر محمد بن قطن إلى الكرمانيّ: إنك لست مثل هذا الدبّوسيّ، فاتّق الله، لا تشرع في الفتنة. قال: وبعث تميم بن نصر شاكريّته، وهم في دار الجَنوب بنت القعقاع؛ فرماهم أصحاب الكرمانيّ من السطوح ونذروا بهم، فقال عقيل بن معقِل لمحمد بن المثنّى: علامَ نقتل أنفسنا لنصر والكرمانيّ! هلمّ نرجع إلى بلدنا بطّخارستان، فقال محمد: إنّ نصراً لم يفِ لنا، فلسنا ندعُ حربه. وكان أصحاب الحارث والكرمانيّ يرمون نصراً وأصحابه بعرّادة، فضُرب سرادقه وهو فيه فلم يحوّله، فوجه إليهم سلْم بن أحوز فقاتلهم؛ فكان أوّل الظّفَر لنصر، فلما رأى الكرمانيّ ذلك أخذ لواءه من محمد بن محمد بن عَميرة، فقاتل به حتى كَسَره. وأخذ محمد بن المثنى والزّاغ وحِطّان في كارابكل، حتى خرجوا على الرّزيق، وتميم بن نصر على قنطرة النهر، فقال محمد بن المثنى لتميم حين انتهى إليه: تنحّ يا صبيّ. وحمل محمد والزاغ معه راية صفراء، فصرعوا أعين مولى نصر، وقتلوه؛ وكان صاحب دواة نصر، وقتلوا نفراً من شاكريّته. وحمل الخضر بن تميم على سلْم بن أحوز فطعنه، فمال السنان، فضربه بجُرْز على صدره وأخرى على منكبه؛ وضربه على رأسه فسقط، وحمى نصر أصحابه في ثمانية، فمنعهم من دخول السوق.

قال: ولما هَزَمت اليمانيّة مُضَر، أرسل الحارث إلى نصر: إن اليمانيّة يعيّرونني بانهزامكم؛ وأنا كافّ؛ فاجعل حماة أصحابك بإزاء الكرْمانيّ، فبعث إليه نصر يزيد النحويّ أو خالداً يتوثّق منه؛ أن يفيَ له بما أعطاه من الكفّ. ويقال: إنما كفّ الحارث عن قتال نَصْر أن عمران بن الفضل الأزديّ وأهل بيته وعبد الجبار العدويّ وخالد بن عبيد الله بن حبيب العدويّ وعامة أصحابه نقِموا على الكِرْمانيّ فعلَه بأهل التبوشكان؛ وذلك أن أسداً وجّهه إليهم، فنزلوا على حكْم أسد، فبَقر بطون خمسين رجلاً وألقاهم في نهر بَلْخ، وقطع أيدي ثلاثمائة منهم وأرجلهم، وصلب ثلاثةً، وباع أثقالهم فيمن يزيد، فنقِموا على الحارث عَوْنه الكرمانيّ، وقتاله نصراً. فقال نصرٌ لأصحابه حين تغير الأمر بينه وبين الحارث: إن مُضَرَ، لا تجتمع لي ما كان الحارث مع الكرمانيّ؛ لا يتفقان على أمر، فالرأي تركهما؛ فإنهما يختلفان. وخرج إلى جُلْفَر فيجد عبد الجبار الأحول العدويّ وعمر بن أبي الهيثم السُّغدي، فقال لهما: أيسعكما المقام مع الكرمانيّ؟ فقال عبد الجبار: وأنت فلا عدمت آسياً؛ ما أحلك هذا المحلّ!

فلما رجع نصر إلى مَرْو أمر به فضرب أربعمائة سوط، ومضى نصر إلى خَرَق، فأقام أربعة أيام بها، ومعه مسلم بن عبد الرحمن بن مسلم وسلم بن أحْوَز وسنان الأعرابيّ، فقال نصر لنسائه: إنّ الحارث سيخلفني فيكنّ ويحميكنّ. فلما قرب من نيسابور أرسلوا إليه: ما أقدمك، وقد أظهرت من العصبية أمراً قد كان الله أطفأه؟ وكان عامل نصر على نَيْسابور ضرار بن عيسى العامريّ، فأرسل إليه نصر بن سيار سناناً الأعرابيّ ومسلم بن عبد الرحمن وسلم بن أحْوَز، فكلموهم فخرجوا، فتلقوْا نصراً بالمواكب والجواري والهدايا، فقال سلم: جعلني الله فداك! هذا الحيّ من قيس؛ فإنما كانت عاتبة، فقال نصر:

أنـا ابْنُ خِنْـدِفَ تنميني قبـائِلُهَـا للصـالحـات وعمّي قيسُ عَيْـلانـا

وأقام عند نصر حين خرج من مَرْو يونس بن عبد ربّه ومحمد بن قُطَن وخالد بن عبد الرحمن في نظرائهم.

قال: وتقدّم عبّاد بن عمر الأزديّ وعبد الحكيم بن سعيد العَوْذيّ وأبو جعفر عيسى بن جرز على نَصْر من مكة بأبرشهر، فقال نصر لعبد الحكيم: أما ترى ما صنع سفهاء قومك؟ فقال عبد الحكيم: بل سفهاء قومك؛

طالت ولايتها في ولايتك، وصيّرت الولاية لقومك دون ربيعة واليمن فبطروا، وفي ربيعة واليمن حكماء وسُفهاء فغلب السفهاء الحكماء. فقال عبّاد: أتستقبل الأمير بهذا الكلام! قال: دَعْه فقد صدق، فقال أبو جعفر عيسى بن جرز ـ وهو من أهل قرية على نهر مَرْو: أيها الأمير، حسبك من هذه الأمور والولاية، فإنه قد أطلّ أمرٌ عظيم، سيقوم رجل مجهول النسب يُظهر السواد، ويدعو إلى دوْلة تكون، فيغلب على الأمر وأنتم تنظرون وتضطربون. فقال نصر: ما أشبه أن يكون لقلة الوفاء، واستخراج الناس، وسوء ذات البين. وجّهتُ إلى الحارث وهو بأرض الترك، فعرضتُ عليه الولاية والأموال فأبى وشغب. وظاهر عليّ. فقال أبو جعفر عيسى: إن الحارث مقتول مصلوب، وما الكرمانيّ من ذلك ببعيد. فوصله نصر. قال: وكان سَلْم بن أحوز يقول: ما رأيت قوماً أكرم إجابةً، ولا أبذل لدمائهم من قيس.

قال: فلما خرج نصر من مَرْو غلب عليها الكِرمانيّ، وقال للحارث: إنما أريد كتاب الله، فقال قحطبة: لو كان صادقاً لأمددتُه ألف عنان، فقال مقاتل بن حيّان: أفي كتاب الله هدمُ الدور وانتهاب الأموال! فحبسه الكرمانيّ في خَيمة في العسكر، فكلّمه معمّر بن مقاتل بن حيّان ـ أو معمر بن حيان ـ فخلاه، فأتى الكرمانيّ المسجدَ، ووقف الحارث، فخطب الكرمانيّ الناس، وآمنهم غير محمد بن الزبير ورجل آخر، فاستأمن لابن الزبير داود بن أبي داود بن يعقوب، ودخل الكاتب فآمنه؛ ومضى الحارث إلى باب دوران وسَرخس، وعَسْكر الكرمانيّ في مصلّى أسد، وبعث إلى الحارث فأتاه، فأنكر الحارث هَدْم الدُّور وانتهاب الأموال، فهمّ الكِرمانيّ به، ثم كفّ عنه، فأقام أياماً. وخرج بشر بن جرموز الضبيّ بخَرقان، فدعا إلى الكتاب والسنّة، وقال للحارث: إنما قاتلت معك طلبَ العدل، فأمّا إذْ كنتَ مع الكرمانيّ، فقد علمتُ أنك إنما تقاتل ليقال: غلب الحارث! وهؤلاء يقاتلون عصبّية، فلستُ مقاتلاً معك. واعتزل في خمسة آلاف وخمسمائة ـ ويقال في أربعة آلاف ـ وقال: نحن الفئة العادلة، ندعو إلى الحقّ ولا نقاتل إلاّ مَن يقاتلنا. وأتى الحارث مسجد عياض، فأرسل إلى الكرمانيّ يدعوه إلى أن يكون الأمر شورى، فأبى الكرمانيّ، وبعث الحارث ابنه محمداً فحمل ثقله من دار تميم بن نصر، فكتب نصر إلى عشيرته ومُضر؛ أن الزموا الحارث مناصحةً فأتوه؛ فقال الحارث: إنكم أصلُ العرب وفرعها، وأنتم قريب عهد بالهزيمة، فاخرجوا إليّ بالأثقال، فقالوا: لم نكن نرضى بشيء دون لقائه. وكان من مدبّري عسكر الكِرمانيّ مقاتل بن سليمان، فأتاه رجل من البُخاريّين، فقال: أعطني أجر المِنجنيق التي نصبتها، فقال: أقم البيّنة أنك نصبتَها من منفعة المسلمين، فشهد له شيبة بن شيخ الأزديّ، فأمر مقاتل فصُكّ له إلى بيت المال. قال: فكتب أصحاب الحارث إلى الكِرْمانيّ: نوصيكم بتقوى الله وطاعته وإيثار أئمة الهدى وتحريم ما حرّم الله من دمائك؛ فإن الله جعل اجتماعَنا كان إلى الحارث ابتغاء الوسيلة إلى الله، ونصيحةً في عباده، فعرّضنا أنفسنا للحرب ودماءنا للسفك وأموالنا للتلف، فصغُر ذلك كله عندنا في جنْب ما نرجو من ثواب الله؛ ونحن وأنتم إخوان في الدين وأنصار على العدوّ، فاتقوا الله وراجعوا الحقّ، فإنا لا نريد سفك الدماء بغير حلها.

فأقاموا أياماً، فأتى الحارث بن سُريج الحائط فثلَم فيه ثلمة ناحية نوبان عند دار هشام بن أبي الهيثم، فتفرّق عن الحارث أهلُ البصائر وقالوا: غدرت. فأقام القاسم الشيبانيّ وربيع التيميّ في جماعة، ودخل الكِرمانيّ من باب سرخس، فحاذى الحارث؛ ومرّ المنخّل بن عمرو الأزديّ فقتله السَّميدع؛ أحد بني العَدويّة، ونادى: يالثاراتِ لَقِيط! واقتتلوا، وجعل الكرمانيّ على ميمنته داود بن شعيب وإخوته: خالداً ومزيَداً والمهلب،

وعلى ميسرته سورة بن محمد بن عزيز الكِنديّ، في كندة وربيعة. فاشتدّ الأمر بينهم، فانهزم أصحابُ الحارث وقُتلوا ما بين الثلمة وعسكر الحارث، والحارث على بَغْل فنزل عنه، وركب فرساً فضربه، فجرى وانهزم أصحابُه، فبقي في أصحابه، فقتِل عند شجرة، وقُتل أخوه سوادة وبشر بن جُرْموز وقِطن بن المغيرة بن عجرد، وكَفّ الكرمانيّ، وقُتل مع الحارث مائة، وقُتل من أصحاب الكِرمانيّ مائة، وصُلب الحارث عند مدينة مَرْو بغير رأس. وكان قُتل بعد خروج نصر من مَرْو بثلاثين يوماً، قُتل يومَ الأحد لستّ بقين من رجَب. وكان يقال: إن الحارث يُقتل تحت زيتونة أو شجرة غُبَيْراءَ. فقتل كذلك سنة ثمان وعشرين ومائة. وأصاب الكِرمانيّ صفائح ذهب للحارث فأخذها وحبس أمّ ولده ثم خلّى عنها، وكانت عند حاجب بن عمرو بن سلمة بن سكن بن جون بن دبيب. قال: وأخذ أموال مَنْ خرج مع نصر، واصطفى متاع عاصم بن عمير، فقال إبراهيم: بمَ تستحل ماله؟ فقال صالح من آل الوضاح: اسقِني دمه، فحال بينه وبينه مقاتل بن سليمان، فأتى به منزله.

قال عليّ: قال زهير بن الهُنيْد: خرج الكرمانيّ إلى بِشْر بن جُرْموز، وعسكر خارجاً من المدينة؛ مدينة مَرْو، وبشر في أربعة آلاف، فعسكر الحارث مع الكِرمانيّ، فأقام الكرمانيّ أياماً بينه وبين عسكر بِشْر فرسخان، ثم تقدّم حتى قرب من عسكر بشر، وهو يريد أن يقاتله، فقال للحارث: تقدّم. وندم الحارث على اتباع الكرمانيّ، فقال: لا تعجل إلى قتالهم، فإني أردّهم إليك، فخرج من العسكر في عشرة فوارس؛ حتى أتى عسكر بِشْر في قرية الدّرزِيجان، فأقام معهم وقال: ما كنتُ لأقاتلكم مع اليمانيّة، وجعل المضريّون ينسلّون من عسكر الكرمانيّ إلى الحارث حتى لم يبق مع الكِرمانيّ مضريّ غير سَلَمة بن أبي عبد الله، مولى بني سُلَيم؛ فإنه قال: والله لا أتبع الحارث أبداً فإني لم أره إلا غادراً والمهلّب بن إياس، وقال: لا أتبعه فإني لم أره قطّ إلا في خيل تطّرد. فقاتلهم الكرمانيّ مراراً يقتتلون ثم يرجعون إلى خنادقهم، فمرّةً لهؤلاء ومرّة لهؤلاء، فالتقوْا يوماً من أيامهم، وقد شرب مَرْثد بن عبد الله المجاشعيّ، فخرج سكران على بِرْذون للحارث، فطُعن فصُرع، وحماه فوارس من بني تميم؛ حتى تخلص، وعار البرذون، فلما رجع لامه الحارث، وقال: كدتَ تقتل نفسك، فقال للحارث: إنما تقول ذلك لمكان بِرْذونك، امرأته طالق إن لم آتك ببرذَوْن أفرَه من برذونك من عسكرهم، فالتقوا من غد، فقال مرثد: أيّ برذون في عسكرهم أفره؟ قالوا: برذون عبد الله بن دَيْسَم العَنَزيّ - وأشاروا إلى موقفه - حتى وصل إليه، فلما غشيَه رمى ابن ديسم نفسه عن بِرْذونه، وعلّق مرثد عنان فرسه في رمحه، وقاده حتى أتى به الحارث، فقال: هذا مكان بِرْذونك، فلقي مخلد بن الحسن مرثداً، فقال له يمازحه: ما أهيأ برذون بن ديسم تحتَك! فنزل عنه، وقال: خذه، قال: أردت أن تفضحني! أخذتَه منا في الحرب وآخذه في السلم! ومكثوا بذلك أياماً، ثم ارتحل الحارث ليلاً، فأتى حائط مَرْو فنقب باباً، ودخل الحائط، فدخل الكِرماني، وارتحل، فقالت المضريّة للحارث: قد تركنا الخنادق فهو يومنا، وقد فررت غير مَرّة، فترجّل. فقال: أنا لكم فارساً خير مني لكم راجلاً، قالوا: لا نرضى إلا أن تترجّل، فترجّل وهو بين حائط مَرْو والمدينة،فقتِل الحارث وأخوه وبشر بن جرموز وعدّة من فرسان تميم، وانهزم الباقون، وصُلِب الحارث وصَفَتْ مَرْو لليمن، فهدموا دور المضرّية، فقال نصر بن سيار للحارث حين قتِل:

يا مُدْخِلَ الذلِّ على قومِهِ — بعْداً وسُحْقاً لك مِنْ هالِكِ!
شُؤمُكَ أرْدَى مُضراً كلَّها — وغضّ مِنْ قومِكَ بالحارِكِ

مـا كـانـتِ الأزدُ وأشـيـاعُـهـا ... تَـطْمَـعُ فِـي عـمـرو ولا مـالـكِ
ولا بَـنِـي سَـعْـدٍ إذا ألْـجَـمُـوا ... كُـلَّ طِـمِـرٍّ لـونُـهُ حـالِـكُ

ويقال: بل قال هذه الأبيات نصر لعثمان بن صدقة المازنيّ.

وقالت أم كثير الضبيّة:

لا بـارَكَ اللهُ فـي أُنـثـى وعـذَّبَـهـا ... تَـزَوَّجَـتْ مَضـرِيّـاً آخِـرَ الـدهـرِ
أَبْلغْ رجـالَ تميمٍ قَـولَ مُـوجَعَـةٍ ... أَحـلَلْتُمُـوهـا بـدار الـذلِّ والـفقـر
إنْ أنتمُ لَـمْ تكـرُّوا بَـعْـدَ جَـوْلَتِكُمْ ... حَتَّى تُعِيدُوا رِجالَ الأَزْدِ في الظُّهْر
إنِّي استَحَيْتُ لكُمْ من بَـذْل طاعَتِكُمْ ... هـذا المَـزُونيَّ يَجْبيكُم على قَـهْـر

وقال عبّاد بن الحارث:

ألا يـا نَـصْـرُ قَـدْ بَـرِحَ الـخَـفـاءُ ... وقـد طـالَ الـتَّـمـنِّـي والـرَّجـاءُ
وأصْبَحَـتِ المَـزُونُ بـأَرْضِ مَـروٍ ... تُقَضِّي في الـحكـومَـةِ مـا تَـشـاءُ
يَـجُـوزُ قضـاؤهـا فـي كُـلِّ حُكْـمٍ ... عـلى مُـضَـرٍ وَإنْ جـارَ الـقـضـاءُ
وحِـمْيَـرُ في مَـجـالِـسِـهـا قُـعُـودٌ ... تَـرَقْـرَقُ فـي رِقـابِـهِـمُ الـدِّمـاءُ
فـإنْ مُـضَـرٌ بـذا رَضِيَـتْ وَذلَّـتْ ... فـطالَ لـهـا الـمَـذَلَّـةُ والـشَّـقـاءُ
وإنْ هِـيَ أعـتَـبَـتْ فـيـهـا وإلا ... فَـحَـلَّ على عـسـاكِـرِهـا العفـاءُ

وقال:

ألا يـا أيـهـا الـمـرءُ الـ ... ـذي قـد شَـفَّـهُ الـطَّرَبُ
أفِـقْ وَدَع الـذي قَـد كـنْـ ... ـتَ تـطْلُبُـه ونَـطَّلِبُ
فـقـد حَـدَثَـتْ بـحَـضْـرَتـنـا ... أُمُـورٌ شـأْنُـهـا عـجـبُ
الازْدَ رَأَيْـتُـهـا عَـزَّتْ ... بـمَـرْوَ وَذَلَّـتِ الـعَـرَبُ
فـجَـازَ الـصُّـفـرُ لـمّـا كـا ... نَ ذاكَ وَبُـهْـرِجَ الـذهَـبُ

وقال أبو بكر بن إبراهيم لعليّ وعثمان ابني الكرمانيّ:

إنـي لمُـرْتَـحِـلٌ أُريـدُ بمِـدْحَتِي ... أَخـوَيْن فَـوْقَ ذُرَى الأنـامِ ذراهُمـا
سبقـا الـجيـادَ فَـلَمْ يـزالا نُجْعَـةً ... لا يَعْـدَمُ الضَّيْفُ الغَريبُ قـراهُمـا
يستَعْلِيَـانِ ويَـجْـرِيـانِ إلى العُـلا ... ويَـعِيشُ في كنَفَيْـهمـا حَيَّـاهُـمـا
أعْـنِـي عَـلِيّـاً إنَّـهُ ووَزِيـرَهُ ... عُـثمـانَ ليسَ يَـذِلّ مَنْ والاهُـمـا
جَـرَيَـا لكَيْمَـا يلحَقـا بـأَبيهِمَـا ... جَـرْيَ الجيادِ من البعيـدِ مَداهُمـا
فـلئنْ هُـمـا لَحِقـا بـهِ لِـمُـنَـصَّبٍ ... يَـسْتَعـلِيـانِ ويَـلحَقـانِ أبـاهُـمـا
وَلَئِـنْ أبَـرَّ عـليـهـمَـا فَـلَطَالـمـاً ... جَـرَيـا فَبـذَّهُمـا وبَـذَّ سِـواهُمـا
فـلأَمْـدَحَنَّهُمَـا بمـا قـدْ عـايـنَت ... عَينِي وَإنْ لَمْ أُحْصِ كـلَّ نَـداهُمـا

فَهُما التَّقِيَّانِ المُشارُ إلَيْهما ... الحَامِلانِ الكامِلانِ كِلاهُما
وهُما أزلا عن عريكَةِ ملكهِ ... نَصْراً ولاقى الذلَّ إذْ عاداهُما
نَفَيا ابنَ أقطَعَ بعدَ قتل حُماتِهِ ... وتَقَسَّمَتْ أسلابَهُ خَيلاهُما
والحارث بن سُرَيج إذ قَصَدُوا لَهُ ... حتى تَعاوَرَ رَأسَهُ سَيفاهُما
أخذا بِعَفْوِ أبيهما في قدرِهِ ... إذ عَزَّ قَوْمهُما ومن والاهما

وفي هذه السنة وجّه إبراهيم بن محمد أبا مسلم إلى خراسان، وكتب إلى أصحابه: إني قد أمرته بأمري، فاسمعوا منه واقبلوا قوله؛ فإني قد أمّرته على خراسان وما غلب عليه بعد ذلك؛ فأتاهم فلم يقبلوا قوله، وخرجوا من قابل، فالتقوْا بمكة عند إبراهيم، فأعلمه أبو مسلم أنهم لم ينفذوا كتابه وأمره، فقال إبراهيم: إني قد عرضت هذا الأمر على غير واحد فأبَوْه عليّ، وذلك أنه كان عَرض ذلك قبلَ أن يوجّه أبا مسلم على سليمان بن كثير، فقال: لا ألي اثنين أبداً، ثم عرضه على إبراهيم بن سلمة فأبى، فأعلمهم أنه أجمع رأيه على أبي مسلم، وأمرهم بالسمع والطاعة، ثم قال: يا عبد الرحمن، إنك رجلٌ منّا أهل البيت؛ فاحتفظ وصيّتي، وانظر هذا الحيّ من اليمن فأكرمْهم، وحُلّ بين أظهرهم؛ فإن الله لا يُتمّ هذا الأمر إلا بهم؛ وانظر هذا الحيّ من ربيعة فاتّهِمْهم في أمرهم، وانظر هذا الحيّ من مضر؛ فإنهم العدوّ القريب الدار، فاقتل مَنْ شككت في أمره ومن كان في أمره شبهة ومَنْ وقع في نفسك منه شيء؛ وإن استطعت ألّا تدع بخراسان لساناً عربيّاً فافعل، فأيّما غلام بلغ خمسة أشبار تتّهمه فاقتله، ولا تخالف هذا الشيخ - يعني سليمان بن كثير - ولا تعصِه، وإذا أشكل عليك أمر فاكتفِ به مني.

وفي هذه السنة قُتِل الضحاك بن قيس الخارجيّ، فيما قال أبو مخنف، ذكر ذلك هشام بن محمد عنه.

ذكر الخبر عن مقتله وسبب ذلك:

ذكر أنّ الضحاك لما حاصر عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بواسط، وبايعه منصور بن جُمْهور، ورأى عبد الله بن عمر أنه لا طاقة له به، أرسل إليه: إن مقامكم عليّ ليس بشيء؛ هذا مروان فسرْ إليه؛ فإن قاتلته فأنا معك، فصالحه على ما قد ذكرت من اختلاف المختلفين فيه.

فذكر هشام، عن أبي مخنف؛ أن الضحاك ارتحل عن ابن عمر حتى لقي مَرْوان بكفَرْتوثا من أرض الجزيرة، فقتِل الضحاك يوم التقوْا.

وأما أبو هاشم مخلّد بن محمد بن صالح، فقال فيما حدثني أحمد بن زهير، قال: حدثنا عبد الوهاب بن إبراهيم عنه أن الضّحاك لما قتل عطية الثعلبّي صاحبَه وعاملَه على الكوفة مِلْحان بقنطرة السَّيْلحِين، وبلغه خبرُ قتل ملحان وهو محاصر عبد الله بن عمر بواسط، وجّه مكانه من أصحابه رجلاً يقال له مطاعن؛ واصطلح عبد الله بن عمر والضحاك عن أن يدخل في طاعته؛ فدخل وصلى خلفه، وانصرف إلى الكوفة، وأقام ابن عمر فيمن معه بواسط، ودخل الضّحاك الكوفة، وكاتبه أهلُ الموصل ودعوْه إلى أن يقدم عليهم فيمكّنوه منها؛ فسار في جماعة جنوده بعد عشرين شهراً، حتى انتهى إليها، وعليها يومئذ عامل لمرْوان؛ وهو رجل من بني شَيْبان من أهل الجزيرة يقال له القَطِران بن أكْمَة، ففتح أهل الموصل المدينة للضحاك وقاتلهم القطِران في عدّة يسيرة من قومه وأهل بيته حتى قتِلوا، واستولى الضّحاك على الموصل وكورها. وبلَغ مَرْوان خبرُه وهو محاصرٌ حِمْص،

مشتغل بقتال أهلها، فكتب إلى ابنه عبد الله وهو خليفته بالجزيرة، يأمره أن يسير فيمن معه من رَوابطه إلى مدينة نَصِيبين ليشغل الضحاك عن توسط الجزيرة، فشخص عبد الله إلى نَصِيبين في جماعة روابطه؛ وهو في نحو من سبعة آلاف أو ثمانية، وخلّف بحرّان قائداً في ألف أو نحو ذلك؛ وسار الضحاك من المَوْصِل إلى عبد الله بنصيبين، فقاتله فلم يكن له قوّة لكثرة من مع الضحاك؛ فهم فيما بلغنا عشرون ومائة ألف، يرزق الفارس عشرين ومائة والراجل والبغال المائة والثمانية في كلّ شهر؛ وأقام الضحاك على نَصِيبين محاصراً لها، ووجّه قائدين من قوّاده يقال لهما عبد الملك بن بشر التغلبيّ، وبدر الذّكوانيّ مولى سليمان بن هشام، في أربعة آلاف أو خمسة آلاف حتى وردا الرّقة، فقاتلهم مَنْ بها من خيل مروان؛ وهم نحو من خمسمائة فارس، ووجّه مَرْوان حين بلغه نزولهم الرَّقة خيلا من روابطه؛ فلما دنوا منها انقشع أصحابُ الضَّحاك منصرفين إليه، فاتبعتهم خيله، فاستسقطوا من ساقتهم نيّفاً وثلاثين رجلا، فقطعهم مَرْوان حين قدم الرَّقة، ومضى صامداً إلى الضّحاك وجموعه حتى التقيا بموضع يقال له الغزّ من أرض كَفْرتوثا، فقاتله يومَه ذلك؛ فلما كان عند المساء ترجّل الضحاك وترجّل معه من ذوي الثبات من أصحابه نحو من ستة آلاف وأهل عسكره أكثرهم لا يعلمون بما كان منه، وأحدقت بهم خيولُ مروان فـألحُّوا عليهم حتى قتلوهم عنـد العَتَمة، وانصـرف مَنْ بقي من أصحاب الضّحـاك إلى عسكرهم، ولم يعلم مروان ولا أصحاب الضحاك أن الضّحاك قد قُتِل فيمن قتل حتى فقدوه في وسط الليل. وجاءهم بعض مَن عاينه حين ترجّل، فأخبرهم بخبره ومقتله، فبكَوْه وناحوا عليه، وخرج عبد الملك بن بشر التغلبيّ القائد الذي كان وجّهه في عسكرهم إلى الرّقة حتى دخل عسكر مَـرْوان، ودخل عليـه فأعلمـه أنّ الضحاك قتِل، فأرسل معه رسلا من حَرسه، معهم النيران والشَّمْع إلى موضع المعركة، فقلبّا القتلى حتى استخرجوه، فاحتملوه حتى أتوْا به مَرْوان، وفي وجهه أكثر من عشرين ضَرْبة، فكبّر أهل عسكر مَرْوان، فعرف أهل عسكر الضّحاك أنهم قد علموا بذلك، وبعث مروان برأسه من ليلته إلى مدائن الجزيرة، فطِيف به فيها.

وقيل: إن الخيبريّ والضحاك إنما قتِلا في سنة تسع وعشرين ومائة.

وفي هذه السنة كان أيضاً ـ في قول أبي مخنف ـ قتل الخيبريّ الخارجيّ، كذلك ذكر هشام عنه.

ذكر الخبر عن مقتله:

حدثني أحمد بن زهير، قال: حدّثنا عبد الوهاب بن إبراهيم، قال: حدثني أبو هاشم مخلّد بن محمد بن صالح، قال: لما قتِل الضحاك أصبح أهل عسكره بايعوا الخيبريّ، وأقاموا يومئذ وغادوه من بعد الغد، وصافُّوه وصافّهم، وسليمان بن هشام يومئذ في مواليه وأهل بيته مع الخيبـريّ؛ وقد كـان قدم عـلى الضحاك وهـو بنَصِيبين؛ وهم في أكثر من ثلاثة آلاف من أهل بيته ومواليه، فتزوّج فيهم أخت شيبان الحَروريّ الذي بايعوه بعد قتل الخيبريّ، فحمل الخيبريّ على مَرْوان في نحو من أربعمائة فارس من الشُّراة، فهزم مَرْوان وهو في القلب، وخرج مروان من المعسكر هارباً، ودخل الخيبريّ فيمن معه عسكره، فجعلوا ينادون بشعارهم: يا خيبريّ يا خيبريّ، ويقتلون مَنْ أدركوا حتى انتهوا إلى حجرة مَرْوان، فقطعوا أطنابها، وجلس الخيبريّ على فرشه، وميمنة مروان عليها ابنه عبد الله ثابتة على حالها، وميسرته ثابتة عليها إسحاق بن مسلم العُقَيليّ، فلما رأى أهل عسكر مَرْوان قلة من مع الخيبري ثار إليه عبيد من أهل العسكر بعمـد الخيام، فقتلوا الخيبـريّ وأصحابه جميعاً في حجرة مَرْوان وحولها، وبلغ مروان الخبر وقد جاز العسكر بخمسة أميال أو ستة منهزماً،

فانصرف إلى عسكره وردّ خيوله عن مواضعها ومواقفها، وبات ليلته تلك في عسكره. فانصرف أهل عسكر الخيبريّ فولّوْا عليهم شيبان وبايعوه، فقاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس، وأبطل الصفّ منذ يومئذ. وكان مروان يوم الخيبريّ بعث محمد بن سعيد، وكان من ثقاته وكتابه إلى الخيبريّ، فبلغه أنه مالأهم وانحاز إليهم يومئذ، فأُتِي به مروان أسيراً فقطع يده ورجله ولسانه.

وفي هذه السنة وجّه مروان يزيد بن عمر بن هبيرة إلى العراق لحرب من بها من الخوارج.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبدُ العزيز بن عمر بن عبد العزيز؛ كذلك قال أبو معشر - فيما حدثني أحمد بن ثابت عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى عنه. وكذلك قال الواقديّ وغيره.

وقال الواقديّ: وافتتح مَرْوان حِمْص وهدم سورها، وأخذ نُعيم بن ثابت الجُزاميّ فقتله في شوال سنة ثمان، وقد ذكرنا من خالفه في ذلك قبل.

وكان العامل على المدينة ومكة والطائف - فيما ذكر - في هذه السنة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وبالعراق عمّال الضحاك وعبدالله بن عمر. وعلى قضاء البصرة ثُمامة بن عبدالله، وبخراسان نَصْر بن سيّار وخراسان مفتونة.

وفي هذه السنة لقي أبو حَمْزة الخارجيّ عبدَ الله بن يحيى طالب الحق فدعاه إلى مذهبه.

ذكر الخبر عن ذلك:

حدثني العباس بن عيسى العُقيليّ، قال: حدّثنا هارون بن موسى الفرويّ، قال: حدثني موسى بن كثير مولى الساعدِيّيْن، قال: كان أوّل أمر أبي حمزة - وهو المختار بن عوف الأزديّ السَّليميّ من البصرة - قال موسى: كان أول أمر أبي حمزة أنه كان يوافي كلّ سنة مكة يدعو الناس إلى خلاف مَرْوان بن محمد وإلى خلاف آل مروان. قال: فلم يزل يختلف في كلّ سنة حتى وافى عبد الله بن يحيى في آخر سنة ثمان وعشرينَ ومائة، فقال له: يا رجل، أسمَعُ كلاماً حسناً، وأراك تدعو إلى حقّ، فانطلق معي، فإني رجل مطاع في قومي، فخرج حتى ورد حَضْرَمَوْت، فبايعه أبو حمزة على الخلافة، ودعا إلى خلاف مَرْوان وآل مروان.

وقد حدّثني محمد بن حسن أن أبا حمزة مرّ بمعدن بني سُليم وكثير بن عبد الله عامل على المعدن، فسمع بعض كلامه، فأمر به فجلِد سبعين سوطاً، ثم مضى إلى مكّة، فلما قدم أبو حمزة المدينةَ حين افتتحها تغيّب كثير حتى كان من أمرهم ما كان.

ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من هلاك شيبان بن عبد العزيز اليشكريّ أبي الدّلفاء.

ذكر الخبر عن سبب مهلكه:

وكان سبب ذلك أنّ الخوارج الذين كانوا بإزاء مَرْوان بن محمد يحاربونه لمّا قتِل الضحاك بن قيس الشيبانيّ رئيس الخوارج والخيبريّ بعده، ولّوْا عليهم شيبان وبايعوه؛ فقاتلهم مرْوان، فذكر هشام بن محمد والهيثم بن عديّ أنّ الخيبريّ لما قُتل قال سليمان بن هشام بن عبد الملك للخوارج ـ وكان معهم في عسكرهم: إنّ الذين تفعلون ليس برأي؛ فإن أخذتم برأيي، وإلا انصرفت عنكم. قالوا: فما الرأي؟ قال: إنّ أحدكم يظفر ثم يستقتِل فيقتَل، فإني أرى أن ننصرف على حاميتنا حتى ننزل الموصل، فنخندق. ففعل وأتبعه مروان والخوارج في شرقيّ دجلة ومروان بإزائهم؛ فاقتتلوا تسعة أشهر، ويزيد بن عمر بن هبيرة بقرقِيسيا في جُنْد كثيف من أهل الشأم وأهل الجزيرة، فأمره مروان أن يسير إلى الكوفة، وعليها يومئذ المثنّى بن عمران، من عائذة قريش من الخوارج.

وحدثني أحمد بن زهير، قال: حدّثنا عبد الوهاب بن إبراهيم، قال: حدثني أبو هاشم مخلّد بن محمد، قال: كان مَرْوان بن محمد يقاتل الخوارج بالصّفّ، فلما قتِل الخيبريّ وبويع شيبان، قاتلهم مَرْوان بعد ذلك بالكراديس، وأبطل الصفّ منذ يومئذ، وجعل الآخرون يكردِسون بكراديس مَرْوان كراديس تكافئهم وتقاتلهم، وتفرّق كثير من أصحاب الطمع عنهم وخَذلوهم، وحصلوا في نحو من أربعين ألفاً، فأشار عليهم سليمان بن هشام أن ينصرفوا إلى مدينة الموصل، فيصيِّروها ظهراً وملجأً ومُيرةً لهم، فقبلوا رأيه، وارتحلوا ليلاً، وأصبح مروان فأتبعهم؛ ليس يرحلون عن منزل إلا نزله؛ حتى انتهوْا إلى مدينة الموصل، فعسكروا على شاطىء دِجْلة، وخندقوا على أنفسهم، وعقدوا جسوراً على دِجْلة من عسكرهم إلى المدينة؛ فكانت ميرتهم ومرافقهم منها، وخندق مَرْوان بإزائهم، فأقام ستة أشهر يقاتلهم بكْرة وعشيّةً.

قال: وأتِيَ مَرْوان بابن أخ لسليمان بن هشام، يقال له أمية بن معاوية بن هشام، وكان مع عمه سليمان بن هشام في عسكر شيبان بالموصل؛ فهو مبارز رجلا من فرسان مَرْوان، فأسره الرجل فأتِيَ به أسيراً، فقال له: أنشدك الله والرحِم يا عمّ! فقال: ما بيني وبينك اليوم من رَحِم، فأمر به ـ وعمه سليمان وإخوته ينظرون ـ فقطِعت يداه وضربت عنقه.

قال: وكتب مَرْوان إلى يزيد بن عمر بن هبيرة يأمره بالمسير من قَرْقِيسيا بجميع مَن معه إلى عُبيدة بن سوّار

خليفة الضَّحاك بالعراق، فلقي خيوله بعين التَّمْر، فقاتلهم فهزمهم؛ وعليهم يومئذ المثنّى بن عمران من عائذة قريش والحسن بن يزيد؛ ثم تجمّعوا له بالكوفة بـالنُّخيلة، فهزمهم، ثم اجتمعـوا بالصَّـرَاة ومعهم عُبيدة؛ فقاتلهم فقتِل عُبيدة، وهزِم أصحابه، واستباح ابن هبيرة عسكَرهم، فلم يكن لهم بقيّة بالعراق، واستولى ابنُ هبيرة عليها، وكتب إليه مَرْوان بن محمد من الخنادق يأمره أن يمدّه بعامر بن ضبارة المُرّيّ، فوجَّهه في نحو من ستة آلاف أو ثمانية؛ وبلغ شيبان خبرهم ومن معه من الحَرُوريَّة، فوجَّهوا إليه قائدين في أربعة آلاف، يقال لهما ابن غوث والجَوْن، فلقوا ابن ضُبارة بالسنّ دون الموصل، فقاتلوه قتالاً شَديداً، فهزمهم ابن ضُبارة، فلما قدم فلُّهم أشار عليهم سليمان بالارتحال عن الموصل، وأعلمهم أنه لا مقام لهم إذ جاءهم ابنُ ضبارة من خلفهم، وركبهم مروان من بين أيديهم؛ فارتحلوا فأخذوا على حُلْوان إلى الأهواز وفارس، ووجّه مروان إلى ابن ضُبارة ثلاثة نفر من قوّاده في ثلاثين ألفاً من روابطه؛ أحـدهم مصعب بن الصّحصح الأسـديّ وشقيق وعطيف السليماني، وشقيق الذي يقول فيه الخوارج:

قَـد عـلِمَتْ أُخْـتـاك يـا شـقـيـقُ ... أنـكَ مِـنْ سُـكْـرِك مـا تُـفِـيـقُ

وكتب إليه يأمره أن يتبعهم، ولا يقلع عنهم حتى يُبيرهم ويستـأصلهم، فلم يزل يتبعهم حتى وردوا فارسَ، وخرجوا منها وهو في ذلك يستسقط مَن لحق من أخرَياتهم، فتفرّقوا، وأخذ شيبان في فرقته إلى ناحية البحرين، فقتِل بها، وركب سليمان فيمن معه من مواليه وأهل بيته السفن إلى السند، وانصرفَ مَرْوان إلى منزله من حَرّان، فأقام بها حتى شخص إلى الزّاب.

وأمّا أبو مخنف فإنه قال ـ فيما ذكر هشام بن محمد عنه ـ قال: أمر مروان يزيد بن عمر بن هبيرة ـ وكان في جنود كثيرة من الشأم وأهل الجزيرة بقَرْقيسيا ـ أن يسير إلى الكوفة، وعلى الكوفة يومئذ رجل من الخوارج يقال له المثنّى بن عمران العائذيّ؛ عائذة قريش، فسار إليه ابن هبيرة على الفُرات حتى انتهى إلى عين التّمْر، ثم سار فلقي المثنّى بالرّوْحاء، فوافى الكوفة في شهر رمضان من سنة تسع وعشرين ومائة، فهزم الخوارج، ودخل ابن هبيرة الكوفة ثم سار إلى الصَّراة، وبعث شيبان عُبيدة بن سوّار في خيل كثيرة، فعسكر في شرقيّ الصَّراة، وابن هبيرة في غربيّها، فالتقوْا، فقتل عُبيدة وعدّة من أصحابه؛ وكان منصور بن جمهور معهم في دَوْر الصراة، فمضى حتى غلب على الماهَيْن وعلى الجبل أجمع، وسار ابنُ هبيرة إلى واسط؛ فأخذ ابن عمر فحبسه، ووجّه نُبَاتة بن حنظلة إلى سليمان بن حبيب وهو على كُور الأهواز، وبعث إليه سليمان داود بن حاتم. فالتقوْا بالمريان على شاطىء دُجيل، فانهزم الناس، وقتل داود بن حاتم. وفي ذلك يقول خلف بن خليفة:

نَـفْـسـي لِـدَاوُدَ الـفِـدَا والـحِـمَـى ... إذ أسـلَـمَ الـجَـيْـشُ أبـا حـاتِـم
مُـهَـلَّـبِـيٌّ مُـشْـرِقٌ وَجْـهُـهُ ... لـيسَ عـلى الـمعـرُوفِ بـالـنـادِمِ
سـألـتُ مـن يـعـلَمُ لـي عـلـمَـهُ ... حَـقًّـا ومـا الجـاهـل كـالـعـالِـم
قـالـوا عَـهِـدْنـاهُ عـلى مَـرْقَـبٍ ... يَحْمِـلُ كـالـضِّـرْغـامَـةِ الصّـارِمِ
ثـمَّ انـثـنـى مـنـجَـدِلا فـي دَمٍ ... يُـسـفَـحُ فَـوْقَ الـبَـدن الـنـاعِـم
وأقـبَـلَ الـقِـبطُ عـلى رَأسِـهِ ... واختصمـوا في الـسَّيْـفِ والخـاتَـمِ

وسار سليمان حتى لحق بابن معاوية الجعفريّ بفارس. وأقام ابن هبيرة شهراً. ثم وجّه عامر بن ضُبارة في

أهل الشأم إلى المَوْصل؛ فسار حتى انتهى إلى السنّ فلقيه بها الجون بن كلاب الخارجيّ، فهزم عامر بن ضُبارة حتى أدخله السنّ فتحصّن فيها، وجعل مَرْوان يُمِدّه بالجنود يأخذون طريق البرّ؛ حتى انتهوا إلى دِجْلة، فقطعوها إلى ابن ضبارة حتى كثروا. وكان منصور بن جُمْهور يمدّ شيبان بالأموال من كُور الجبل؛ فلما كثر من يتبع ابن ضُبارة من الجنود؛ نهض إلى الجون بن كلاب فقتِل الجوْن، ومضى ابن ضبارة مصعداً إلى الموصل؛ فلما انتهى خبر الجوْن وقتله إلى شيبان ومسير عامر بن ضُبارة نحوه، كره أن يقيم بين العسكرين؛ فارتحل بمَنْ معه وفرسان الشأم من اليمانية. وقدم عامر بن ضُبارة بمن معه على مَرْوان بالموصل، فضمّ إليه جنوداً من جنوده كثيرة، وأمره أن يسير إلى شيبان؛ فإن أقام أقام؛ وإن سار سار؛ وألّا يبدأه بقتال؛ فإن قاتله شيبان قاتله؛ وإن أمسك أمسك عنه، وإن ارتحل اتّبعه؛ فكان على ذلك حتى مرَّ على الجبل، وخرج على بيضاء إصطخر، وبها عبدالله بن معاوية في جموع كثيرة؛ فلم يتهيّأ الأمرُ بينه وبين ابن معاوية، فسار حتى نزل جيرَفت من كرْمان، وأقبل عامر بن ضُبارة حتى نزل بإزاء ابن معاوية أياماً، ثم ناهضه القتال، فانهزم ابن معاوية، فلحق بَهَرَاة وسار ابن ضُبارة بمن معه، فلقِيَ شيبان بجيرفت من كِرْمان، فاقتتلوا قتالاً شديداً وانهزمت الخوارج، واستبيح عسكرهم؛ ومضى شيبان إلى سِجِسْتان، فهلك بها؛ وذلك في سنة ثلاثين ومائة.

وأما أبو عبيدة فإنه قال: لما قتِل الخيبريّ قام بأمر الخوارج شيبان بن عبد العزيز اليشكريّ، فحارب مَرْوان، وطالت الحرب بينهما؛ وابن هبيرة بواسط قد قتل عُبيدة بن سوار ونفى الخوارج ومعه رؤوس قوّاد أهل الشأم وأهل الجزيرة. فوجّه عامرَ بن ضُبارة في أربعة آلاف مدداً لمرْوان، فأخذ على باب المدائن، وبلغ مسيرُه شيبان، فخاف أن يأتيَهم مروان، فوجّه إليه الجوْن بن كلاب الشيبانيّ ليشغله، فالتقيا بالسنّ، فحصر الجون عامراً أياماً.

قال أبو عبيدة: قال أبو سعيد: فأحرجناهم والله، واضطررناهم إلى قتالنا؛ وقد كانوا خافونا وأرادوا الهرب منا؛ فلم ندَع لهم مسلكاً. فقال لهم عامر: أنتم ميّتون لا محالة؛ فموتوا كراماً، فصدمونا صدمة لم يقيم لها شيء، وقتلوا رئيسنا الجوْن بن كلاب، وانكشفنا حتى لحقنَا بشيبان، وابنُ ضبارة في آثارنا؛ حتى نزل منّا قريباً؛ وكنا نقاتل من وجهين؛ نزل ابن ضُبارة من ورائنا مّما يلي العراق، ومَرْوان أمامنا مما يلِي الشأم؛ فقطع عنا المادّة والمِيرة، فغلت أسعارنا؛ حتى بلغ الرغيف درهماً؛ ثم ذهب الرغيف فلا شيء يشتري بغالٍ ولا رخيص. فقال حبيب بن خدْرة لشيبان: يا أميرَ المؤمنين؛ إنك في ضِيق من المعاش؛ فلو انتقلت إلى غير هذا الموضع! ففعل ومضى شهرزور من أرض الموصل، فعاب ذلك عليه أصحابُه؛ فاختلفت كلمتهم.

وقال بعضهم: لما ولي شيبان أمر الخوارج رجع بأصحابه إلى الموصل فاتّبعه مروان ينزل معه حيث نزل فقاتله شهراً ثم انهزم شيبان حتى لحق بأرض فارس، فوجه مروان في أثره عامر بن ضبارة فقطع إلى جزيرة ابن كاوان، ومضى شيبان بمن معه حتى صار إلى عُمان، فقتله جلندَى بن مسعود بن جيفر بن جلندى الأزديّ.

وفي هذه السنة أمر إبراهيم بن محمد بن عليّ بن عبدالله بن العباس أبا مسلم، وقد شخص من خُراسان يريده حتى بلغ قومِس بالانصراف إلى شيعته بخراسان، وأمرهم بإظهار الدعوة والتسويد.

ذكر الخبر عن ذلك وكيف كان الأمر فيه:

قال عليّ بن محمد عن شيوخه: لم يزل أبو مسلم يختلف إلى خُراسان، حتى وقَعت العصبيّة بها؛ فلما اضطرب الحبل، كتب سليمان بن كثير إلى أبي سَلَمة الخلّال يسأله أن يكتب إلى إبراهيم، يسأله أن يوجّه رجلاً من أهل بيته. فكتب أبو سلمة إلى إبراهيم، فبعث أبا مسلم. فلما كان في سنة تسع وعشرين ومائة، كتب إبراهيم إلى أبي مسلم يأمره بالقدوم عليه ليسأله عن أخبار الناس، فخرج في النصف من جمادى الآخرة مع سبعين نفساً من النقباء، فلما صار بالدَّنْدانقان من أرض خُراسان عرض له كامل ـ أو أبو كامل ـ قال: أين تريدون؟ قالوا: الحجّ، ثم خلا به أبو مسلم، فدعاه فأجابهم، وكفّ عنهم، ومضى أبو سليم إلى بيوَرْد، فأقام بها أياماً، ثم سار إلى نَسا؛ وكان بها عاصم بن قيس السُّلَمِيّ عاملاً لنصر بن سيار الليثيّ؛ فلما قرب منها أرسل الفَضْل بن سليمان الطوسيّ إلى أسيد بن عبدالله الخُزاعيّ ليعلمه قدومه، فمضى الفضل فدخل قريةً من قرى نَسا، فلقي رجلاً من الشيعة يعرفه، فسأله عن أسِيد، فانتهره، فقال: يا عبدالله، ما أنكرتَ من مسألتي عن منزل رجل؟ قال: إنه كان في هذه القرية شرّ، سُعِيَ برجلين قدما إلى العامل، وقيل إنهما داعيان، فأخذهما، وأخذ الأحجم بن عبدالله وغَيْلان بن فضالة وغالب بن سعيد والمهاجر بن عثمان؛ فانصرف الفضل إلى أبي مسلم وأخبره، فتنكّب الطريق، وأخذ في أسفل القُرى، وأرسل طرخان الجمّال إلى أسِيد، فقال: ادعُه لي ومَن قدرتَ عليه من الشيعة، وإياك أن تكلم أحداً لم تعرفه، فأتى طرخان أسيداً فدعاه، وأعلمه بمكان أبي مسلم، فأتاه فسأله عن الأخبار، قال: نعم، قدم الأزهر بن شعيب وعبد الملك بن سعد بكتبٍ من الإمام إليك، فخلّفا الكتبَ عندي وخرجا، فأخِذا فلا أدري مَنْ سعى بهما! فبعث بهما العامل إلى عاصم بن قيس، فضرب المهاجرين عثمان وناساً من الشيعة. قال: فأين الكتب؟ قال: عندي، قال: فأتني بها فأتاه بالكتب فقرأها.

قال: ثم سار حتى أتى قُومِس، وعليها بيهس بن بُديل العِجليّ، فأتاهم بَيْهس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: الحجّ، قال: أفمعكم فضل بِرْذون تبيعونه؟ قال أبو مسلم: أما بيعاً فلا؛ ولكن خذ أيّ دوابّنا شئت؛ قال: اعرضوها عليّ، فعرضوها، فأعجَبَه بِرْذون منها سَمَنْد، فقال أبو مسلم: هو لك، قال: لا أقبله إلاّ بثمن، قال: احتكم، قال: سبعمائة، قال: هو لك. وأتاه وهو بقومِس كتاب من الإمام إليه وكتاب إلى سليمان بن كَثير؛ وكان في كتاب أبي مسلم: إني قد بعثت إليك براية النصر فارجع من حيث ألفاك كتابي ووجّهْ إليّ قَحطبة بما معك يوافني به في الموسم. فانصرف أبو مسلم إلى خُراسان، ووجّه قحطبة إلى الإمام، فلما كنا بنَسا عرض لهم صاحب مَسْلحه في قرية من قُرى نَسا، فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: أردنا الحجّ، فبلغنا عن الطريق شيء خفنا، فأوصلهم إلى عاصم بن قيس السلَميّ، فسألهم فأخبروه، فقال: ارتحلوا وأمر المفضل بن الشرقيّ السلميّ ـ وكان على شُرطته ـ أن يزعجهم، فخلا به أبو مسلم وعرض عليه أمرهم، فأجابه، وقال: ارتحلوا على مَهل، ولا تعجلوا. وأقام عندهم حتى ارتحلوا.

فقدم أبو مسلم مَرْو في أول يوم من شهر رمضان سنة تسع وعشرين ومائة، ودفع كتاب الإمام إلى سليمان بن كَثير، وكان فيه أنْ أظهرْ دعوتَك ولا تريّص، فقد آن ذلك. فنصبوا أبا مُسلم، وقالوا: رجل من أهل البيت، ودَعوْا إلى طاعة بني العباس، وأرسلوا إلى مَنْ قرب منهم أو بعد ممن أجابهم، فأمروه بإظهار أمرهم والدعاء إليهم. ونزل أبو مُسلم قريةً من قرى خُزاعة يقال لها سفيذنج، وشيبان، والكِرمانيّ يقاتلان نصر بن سيار، فبثّ أبو مسلم دعاتَه في الناس، وظهر أمره، وقال الناس: قدم رجل من بني هاشم، فأتوْه من كلّ وجه،

فظهر يومَ الفطر في قرية خالد بن إبراهيم. فصلى بالناس يوم الفِطر القاسم بن مجاشع المَرَائيّ، ثم ارتحل فنزل بالين ـ ويقال قرية اللين ـ لخزاعة، فوافاه في يوم واحد أهلُ ستين قرية، فأقام اثنين وأربعين يوماً؛ فكان أوّل فتح أبي مسلم من قبَل موسى بن كعب في بيوَرْد، وتشاغل بقتل عاصم بن قيس، ثم جاء فتح من قبل مَرْوَرُوذ.

قال أبو جعفر: وأما أبو الخطاب فإنه قال: كان مقدم أبي مسلم أرض مَرْو منصرفاً من قومِس، وقد أنفذ من قُومِس قحطبة بن شبيب بالأموال التي كانت معه والعروض إلى الإمام إبراهيم بن محمد، وانصرف إلى مَرْو، فقدمها في شعبان سنة تسع وعشرين ومائة لتسع خلوْن منه يوم الثلاثاء، فنزل قرية تدعى فنين على أبي الحكم عيسى بن أعين النّقيب، وهي قرية أبي داود النقيب، فوجّه منها أبا داود ومعه عمرو بن أعين إلى طخارستان فما دون بلْخ بإظهار الدّعوة في شهر رمضان من عامهم، ووجّه النّضر بن صبيح التميميّ ومعه شريك بن غضيّ التميميّ إلى مَرْو الرّوذ بإظهار الدّعوة في شهر رمضان، ووجّه أبا عاصم عبد الرحمن بن سليم إلى الطالقان، ووجه أبا الجهم بن عطيّة إلى العلاء بن حريث بخوارزم بإظهار الدّعوة في شهر رمضان لخمس بقين من الشهر، فإن أعجلهم عدوّهم دون الوقت، فعرض لهم بالأذى والمكروه فقد حلّ لهم أن يدفعوا عن أنفسهم، وأن يُظهِروا السيوف ويجرّدوها من أغمادها، ويجاهدوا أعداء الله ومَنْ شغلهم عدوّهم عَن الوقت فلا حرج عليهم أن يظهروا بعد الوقت.

ثم تحوّل أبو مسلم عن منزل أبي الحكم عيسى بن أعين، فنزل على سليمان بن كثير الخُزاعيّ في قريته التي تدعى سَفيذنج من رُبع خرقان لليلتين خلتا من شهر رمضان من سنة تسع وعشرين ومائة، فلما كانت ليلة الخميس لخمس بقين من شهر رمضان سنة تسع وعشرين ومائة اعتقدوا اللواء الذي بعث به الإمام إليه الذي يُدعى الظلّ، على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً، وعقد الرّاية التي بعث بها الإمام التي تدعى السحاب على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً، وهو يتلو: ﴿أُذِنَ للذِينَ يقاتَلونَ بأنهمْ ظُلموا وإنَّ الله عَلَى نَصْرِهمْ لَقَديرٌ﴾[1]، ولبس السوّاد هو وسليمان بن كثير وإخوة سليمان وَمواليه ومن كان أجاب الدعوة من أهل سفيذنج، منهم غيلان بن عبدالله الخُزاعيّ ـ وكان صهر سليمان على أخته أم عمرو بنت كثير ـ ومنهم حُميد بن رزين وأخوه عثمان بن رَزين، فأوقدوا النيران ليلتهم أجمع للشيعة من سكان ربع خرقان ـ وكانت العلامة بين الشيعة ـ فتجمعوا له حين أصبحوا مُغِذّين، وتأويل هذين الاسمين: الظلّ والسحاب، أن السحاب يطبّق الأرض؛ وكذلك دعوة بني العباس، وتأويل الظلّ أن الأرض لا تخلو من الظلّ أبداً، وكذلك لا تخلو من خليفة عباسيّ أبد الدهر.

وقدم على أهل أبي مسلم الدعاة من أهل مَـرْو بمن أجاب الدعوة؛ وكان أوّل مَنْ قدم عليه أهل السقادم مع أبي الوضاح الهُرْمُزْ فرّيّ عيسى بن شُبيل في تسعمائة رجل وأربعة فرسان، ومن أهل هُرْمُزْفَرّة سليمان بن حسان وأخوه يزدان بن حسان والهيثم بن يزيد بن كيسان؛ وبُوَيع مولى نصر بن معاوية وأبـو خالـد الحسن وجردى ومحمد بن عَلوان، وقدم أهل السقادم مع أبي القاسم محرز بن إبراهيم الجوبانيّ في ألف وثلاثمائة راجل وستة عشر فارساً، ومنهم من الدّعاة أبو العباس المْروَزيّ وخذام بن عمّار وحمزة بن زُنيم، فجعل أهل السقادم يكبّرون من ناحيتهم وأهل السقادم مع محرز بن إبراهيم يُجيبونهم بالتكبير؛ فلم يزالوا كذلك حتى دخلوا عسكر أبي مسلم بسفِيذنج؛ وذلك يوم السبت من بعد ظهور أبي مسلم بيومين، وأمر أبو مسلم أن يُرَمّم حصن سفيذنج

---

(١) سورة الحج ٣٩.

ويحصّن ويدرّب؛ فلما حضر العيد يوم الفطْر بسفيذنج أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلي به وبالشيعة، ونصب له منبراً في العسكر، وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة ـ وكانت بنو أميّة تبدأ بالخطبة والأذان، ثم الصلاة بالإقامة على صلاة يوم الجمعة، فيخطبون على المنابر جلوساً في الجمعة والأعياد ـ وأمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يكبّر الركعة الأولى ستّ تكبيرات تِباعاً، ثم يقرأ ويركع بالسابعة، ويكبر في الركعة الثانية خمس تكبيرات تباعا، ثم يقرأ ويركع بالسادسة، ويفتتح الخطبة بالتكبير ويختمها بالقرآن، وكانت بنو أمية تكبر في الركعة الأولى أربع تكبيرات يوم العيد، وفي الثانية ثلاث تكبيرات. فلما قضى سليمان بن كثير الصلاة والخطبة انصرف أبو مُسلم والشيعة إلى طعام قد أعدّه لهم أبو مسلم الخراسانيّ، فطعموا مستبشرين. وكان أبو مسلم وهو في الخندق إذا كتب إلى نصر بن سيار يكتب: للأمير نصر؛ فلما قوي أبو مسلم بمن اجتمع إليه في خندقه من الشيعة بدأ بنفسه، فكتب إلى نصر: أما بعد، فإن الله تبارك أسماؤه وتعالى ذكره غيّر أقواماً في القرآن فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً * ٱسْتِكْبَاراً فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّىءِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّىءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً﴾[1].

فتعاظم نصرٌ الكتاب وأنه بدأ بنفسه، وكسر له إحدى عينيه وأطال الفكرة وقال: هذا كتاب له جواب. فلما استقرّ بأبي مسلم معسكره بالماخُوَان أمر محرز بن إبراهيم أن يخندق خندقاً بجِيرَنْج، ويجتمع إليه أصحابه ومَنْ نزع إليه من الشيعة، فيقطع مادّة نصر بن سيار من مرورود وبلخ وكُور طخارستان. ففعل ذلك محرز بن إبراهيم، واجتمع له في خندق نحو من ألف رجل، فأمر أبو مسلم أبا صالح كامل بن مظفر أن يوجه رجلاً إلى خندق محرز بن إبراهيم لعرض مَنْ فيه وإحصائهم في دفتر بأسمائهم وأسماء آبائهم وقراهم، فوجّه أبو صالح حُميداً الأزرق لذلك، وكان كاتباً، فأحصى في خندق محرز ثمانمائة رجل وأربعة رجال من أهل الكفّ؛ وكان فيهم من القوّاد المعروفين زياد بن سيّار الأزديّ من قرية تدعى أسبِوادق من ربع خرقان، وخِذام بن عمار الكنديّ من ربع القادِم ومن قرية تدعى بالأوايق، وحنيفة بن قيس من ربع السقادم، ومن قرية تدعى الشنج، وعبدويه الجردامذ بن عبد الكريم من أهل هَراة، وكان يجلب الغنم إلى مَرْو، وحمزة بن زُنيم الباهليّ من ربع خرقان من قرية تدعى ميلاذجرد، وأبو هاشم خَليفة بن مهران من ربع السقادم من قرية تدعى جُوبان وأبو خَديجة جيلان بن السغديّ وأبو نُعيم موسى بن صبيح. فلم يزل محرز بن إبراهيم مقيماً في خندقه حتى دخل أبو مسلم حائط مَرْو، وعطل الخندق بماخُوَان وإلى أن عسكر بمارسَرْجَس يريد نيسابور؛ فضمّ إليه محرز بن إبراهيم أصحابه؛ وكان من الأحداث، وأبو مسلم بسَفيذَنْج أنّ نصر بن سيار وجّه مولى له يقال له يزيد في خيل عظيمة لمحاربة أبي مسلم بعد ثمانية عشر شهراً من ظهوره، فوجّه إليه أبو مسلم مالك بن الهيثم الخُزاعيّ ومَعه مصعب بن قيس، فالتقوْا بقرية تدعى آلِين، فدعاهم مالك إلى الرِّضا من آل رسول الله ﷺ، فاستكبروا عن ذلك، فصافّهم مالك وهو في نحو من مائتين من أوّل النهار إلى وقت العصر.

وقدم على أبي مسلم صالح بن سليمان الضّبّي وإبراهيم بن يزيد وزياد بن عيسى فوجّههم إلى مالك بن الهيثم، فقدموا عليه مع العصر، فقوى بهم أبو نصر، فقال يزيد مولى نصر بن سيار لأصحابه: إن تركنا هؤلاء

---

(١) سورة فاطر: ٤٢ ـ ٤٣.

الليلة أتتْهم الأمداد، فاحملوا على القوم؛ ففعلوا، وترجّل أبو نصر وحضّ أصحابه، وقال: إني لأرجو أن يقطع الله من الكافرين طرفاً، فاجتلدوا جلاداً صادقاً، وصبر الفريقان، فقتِل من شيعة بني مروان أربعة وثلاثون رجلاً، وأسر منهم ثمانية نفر، وحمل عبدُالله الطائيّ على يزيد مولى نصر عميد القوم فأسره، وانهزم أصحابه، فوجّه أبو نصر عبدَالله الطائيّ بأسيره في رجال من الشيعة، ومعهم الأسرى والرؤوس، وأقام أبـو نصر في معسكره بسفيذنج، وفي الوفد أبو حماد المروزيّ وأبو عمرو الأعجميّ، فأمر أبو مسلم بالرؤوس فنُصبت على باب الحائط الذي في معسكره، ودفع يزيد الأسلميَّ إلى أبي إسحاق خالد بن عثمان، وأمره أن يعالج يزيد مولى نَصْر من جراحات كانت به، ويحسن تعاهده، وكتب إلى أبي نصر بالقُدوم عليه، فلما اندمل يزيد مولى نصر من جِراحاته دعاه أبو مسلم، فقال: إن شئت أن تقيم معنا وتدخل في دعوتنا فقد أرشدك الله، وإن كرهت فارجع إلى مولاك سالماً، وأعطنا عهد الله ألاّ تحاربنا وألاّ تكذب علينا، وأن تقول فينا ما رأيت؛ فاختار الرجوع إلى مولاه، فخلى له الطريق. وقال أبو مسلم: إنّ هذا سيردّ عنكم أهل الورع والصلاح، فإنّا عندهم على غَير الإسلام.

وقدم يزيد على نصر بن سيار؛ فقال: لا مرحباً بك؛ والله ما ظننت استبقاك القوم إلّا ليتخذونك حجة علينا، فقال يزيد: فهو والله ما ظننتَ، وقد استحلفوني ألاّ أكذب عليهم، وأنا أقول: إنهم يصلّون الصلوات لمواقيتها بأذان وإقامة، ويتلون الكتاب، ويذكرون الله كثيراً، ويدعون إلى ولاية رسول الله ﷺ؛ وما أحسب أمرهم إلا سيعلو؛ ولولا أنك مولاي أعتقتني من الرقّ ما رجعتُ إليك، ولأقمت معهم. فهذه أول حرب كانت بين الشيعة وشيعة بني مروان.

وفي هذه السنة غلب خازم بن خُزيمة على مروَرُوذ، وقتل عامل نصر بن سيّار الذي كان عليها؛ وكتب بالفتح إلى أبي مسلم مع خُزيمة بن خازم.

ذكر الخبر عن ذلك:

ذكر عليّ بين محمد أن أبا الحسن الجُشميّ وزهير بن هُنيد والحسن بن رَشيد أخبروه أن خازم بن خزيمة لما أراد الخروج بمرْوَرُوذ أراد ناس من تميم أن يمنعوه، فقال: إنما أنا رجل منكم، أريد مَرْو لعلي أن أغلب عليها؛ فإن ظفرتُ فهي لكم، وإن قُتلت فقد كفيتكم أمري. فكفّوا عنه، فخرج فعسكر في قرية يقال لها كَنْجَ رُستاه، وقدم عليهم من قبَل أبي مسلم النضْر بن صُبيح وبسام بن إبراهيم. فلما أمسى خازم بيّت أهلَ مَرْورُوذ، فقتل بشر بن جعفر السُّغديّ ـ وكان عاملاً لنصر بن سيار على مَرْورُوذ ـ في أول ذي القعدة، وبعث بالفتح إلى أبي مسلم مع خُزيمة بن خازم عبدالله بن سعيد وشبيب بن واج.

قال أبو جعفر: وقال غير الذين ذكرنا قولهم في أمر أبي مسلم وإظهاره الدّعوة ومصيره إلى خُـراسان وشخوصه عنها وعودِه إليها بعد الشخوص قولاً خلاف قولهم؛ والذي قال في ذلك: إنّ إبراهيم الإمام زوّج أبا مسلم لما توجّه إلى خراسان ابنةَ أبي النجم، وساق عنه صداقها، وكتب بذلك إلىَ النقباء، وأمرهم بالسمع والطاعة لأبي مسلم، وكان أبو مسلم ـ فيـما زعم ـ من أهل خُـطَرْنِيةَ، من سـواد الكوفـة، وكان قَهـرمانـا لإدريس بن معقل العِجْليّ، فآل أمره ومنتهى ولائه لمحمد بن عليّ، ثم لإبراهيم بن محمد، ثم للأئمة من أولاد محمد بن عليّ فقدم خُراسان وهو حديث السنّ. فلم يقبله سليمان بن كَثير وتخوّف ألاّ يقوى على أمرهم، وخاف على نفسه وأصحابه، فردّوه ـ وأبو داود خالد بن إبراهيم غائب خَلْفَ نهر بَلْخ ـ فلما انصرف أبو داود، وقدم مَرْو

أقرأه كتاب الإمام إبراهيم، فسأل عن الرجل الذي وجّهه، فأخبروه أنّ سليمان بن كثير ردّه، فأرسل إلى جميع النقباء، فاجتمعوا في منزل عمران بن إسماعيل، فقال لهم أبو داود: أتاكم كتاب الإمام فيمن وجّهه إليكم وأنا غائب فرددتموه، فما حجّتكم في ردّه؟ فقال سليمان بن كَثير: لحداثة سنه، وتخوّفاً ألّا يقدر على القيام بهذا الأمر؛ فأشفقنا على مَنْ دعونا إليه وعلى أنفسنا وعلى المجيبين لنا، فقال: هل فيكم أحد ينكر أن الله تبارك وتعالى اختار محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وانتخبه واصطفاه، وبعثه برسالته إلى جميع خلقه؟ فهل فيكم أحدٌ ينكر ذلك؟ قالوا: لا؛ قال: أفتشكون أنّ الله تعالى نزّل عليه كتابه فأتاه به جبريل الرّوح الأمين، أحلّ فيه حلاله، وحرّم فيه حرامه، وشرّع فيه شرائعه، وسنّ فيه سننه، وأنبأه فيه بما كان قبله، وما هو كائن بعده إلى يوم القيامة؟ قالوا: لا، قال: أفتشكون أن الله عزّ وجلّ قبضه إليه بعد ما أدّى ما عليه من رسالة ربه؟ قالوا: لا، قال: أفتظنّون أن ذلك العلم الذي أنزل عليه رُفع معه أو خلّفه؟ قالوا: بل خلّفه، قال: أفتظنونه خلّفه عند غير عِتْرته وأهل بيته، الأقرب فالأقرب؟ قالوا: لا، قال: فهل أحدٌ منكم إذا رأى من هذا الأمر إقبالاً ورأى الناس له مجيبين بدا له أن يصرف ذلك إلى نفسه قالوا: اللهم لا وكيف يكون ذلك! قال: لستُ أقول لكم فعلتم؛ ولكن الشيطان ربما نَزع النزعة فيما يكون وفيما لا يكون. قال: فهل فيكم أحدٌ بدا له أن يصرف هذا الأمر عن أهل البيت إلى غيرهم من عِتْرة النبي ﷺ؟ قالوا: لا، قال: أفتشكّون أنهم معدن العلم وأصحاب ميراث رسول الله ﷺ؟ قالوا: لا، قال: فأراكم شككتم في أمرهم ورددتم عليهم علمهم؛ ولو لم يعلموا أن هذا الرجل هو الذي ينبغي له أن يقوم بأمرهم، لما بعثوه إليكم، وهو لا يتهم في موالاتهم ونصرتهم والقيام بحقهم.

فبعثوا إلى أبي مسلم فردوه من قومس بقول أبي داود؛ وولّوْه أمرهم وسمعوا له وأطاعوا. ولم تزل في نفس أبي مسلم على سليمان بن كثير، ولم يزل يعرفها لأبي داود. وسمعت الشيعة من النقباء وغيرهم لأبي مسلم، وأطاعوه وتنازعوا، وقبلوا ما جاء به، وبثّ الدعاة في أقطار خُراسان؛ فدخل الناس أفواجاً، وكثروا، وفشت الدّعاة بخراسان كلها. وكتب إليه إبراهيم الإمام يأمره أن يوافيَه بالموسم هذه السنة ـ وهي سنة تسع وعشرين ومائة ـ، ليأمره بأمره في إظهار دعوته، وأن يقدم معه بقَحْطبة بن شبيب، ويحمل إليـه ما اجتمـع عنده من الأموال؛ وقد كان اجتمع عنده ثلاثمائة ألف وستون ألف درهم، فاشترى بعامّتها عَروضاً من متاع التجار؛ من القوهيّ والمَرْويّ والحرير والفِرِنْد، وصيّر بقيته سبائك ذهب وفضة وصيّرها في الأقبية المحشوّة، واشترى البغال وخرج في النصف من جمادى الآخرة، ومعه من النقباء قحطبة بن شبيب والقاسم بن مُجاشع وطلحة بن رزيق؛ ومن الشيعة واحد وأربعون رجلاً، وتحمَّل من قُرى خزاعة، وحمل أثقاله على واحد وعشرين بَغْلاً، وحمل على كلّ بغل رجلاً من الشيعة بسلاحه، وأخذ المفازة وعدا عن مسلحة نصر بن سيار حتى انتهوا إلى أَبِيوَرْد.

فكتب أبو مسلم إلى عثمان بن نَهيك وأصحابه يأمرهم بالقدوم عليه، وبينه وبينهم خمسة فراسخ، فقدم عليه منهم خمسون رجلاً، ثم ارتحلوا من أَبِيْوَرد؛ حتى انتهوْا إلى قرية يقال لها قافس؛ من قرى نَسا، فبعث الفضل بن سليمان إلى أندومان ـ قرية أَسِيد ـ فلقي بها رجلاً من الشيعة، فسأله عن أسيد، فقال له الرّجل: وما سؤالك عنه! فقد كان اليوم شرّ طويل من العامل أخِذ، فأخِذَ معه الأحجم بن عبد الله وغَيْلان بن فَضالة وغالب بن سعيد والمهاجر بن عثمان، فحمِلوا إلى العامل عاصم بن قيس بن الحروريّ، فحبسهم. وارتحل أبو مسلم وأصحابه حتى انتهوْا إلى أندومان، فأتاه أبو مالك والشيعة من أهل نَسا؛ فأخبره أبو مالك أنّ الكتاب

الذي كان مع رسول الإمام عنده، فأمره أن يأتيَه به، فأتاه بالكتاب وبلواء وراية؛ فإذا في الكتاب إليه يأمره بالانصراف حيثما يلقاه كتابه؛ وأن يظهر الدعوة. فعقد اللواء الذي أتاه من الإمام على رمح، وعقد الراية، واجتمع إليه شيعة أهل نسا والدعاة والرؤوس، ومعه أهل أبِيَوْرد الذين قدموا معه.

وبلغ ذلك عاصمَ بن قيس الحَروريّ، فبعث إلى أبي مسلم يسأله عن حاله، فأخبره أنه من الحاجّ الذين يريدون بيت الله، ومعه عدّة من أصحابه من التجار، وسأله أن يخلّيَ سبيل من احتبس من أصحابه حتى يخرج من بلاده، فسألوا أبا مسلم أن يكتب لهم شرْطاً على نفسه؛ أن يصرف من معه من العبيد وما معه من الدوابّ والسلاح، على أن يخلُّوا سبيل أصحابه الذين قدموا من بلاد الإمام وغيرهم. فجابهم أبو مسلم إلى ذلك، وخلى سبيل أصحابه، فأمر أبو مسلم الشيعة من أصحابه أن ينصرفوا، وقرأ عليهم كتاب الإمام؛ وأمرهم بإظهار الدعوة؛ فانصرف منهم طائفة وسار معه أبو مالك أسِيد بن عبد الله الخُزاعيّ وزُرَيق بن شَوْذب ومَنْ قدم عليه من أبيَوْرْد، وأمر مَن انصرف بالاستعداد. ثم سار فيمن بقي من أصحابه ومعه قَحْطَبَة بن شبيب؛ حتى نزلوا تُخَوم جُرجان؛ وبعث إلى خالد بن بَرْمك وأبي عون يأمرهما بالقدوم عليه بما قِبَلهما من مال الشّيعة، فقدما عليه؛ فأقام أياماً حتى اجتمعت القوافل. وجَهّز قحطبة بن شبيب، ودفع إليه المال الذي كان معه، والأحمال بما فيها؛ ثم وجّهه إلى إبراهيم بن محمد، وسار أبو مسلم بمَن معه حتى انتهى إلى نَسَا، ثم ارتحل منها إلى أبِيوَرْد حتى قدِمَها؛ ثم سار حتى أتى مَرْو متنكراً، فنزل قرية تدعى فَنِين من قرى خُزاعة لسبع ليال بقين من شهر رمضان؛ وقد كان واعد أصحابه أن يوافُوه بمَرْو يوم الفِطْر. ووجّه أبا داود وعمرو بن أعين إلى طَخارستان، والنضر بن صبيح إلى آمُل وبخُارى ومعه شريك بن عيسى، وموسى بن كعب إلى أبِيَوْرد ونَسـا، وخازم بن خـزيمة إلى مَرْورُوذ، وقدموا عليه، فصلّى بهم القاسم بن مجاشع التميميّ يوم العِيد؛ في مصلّى آل قَنْبر؛ في قرية أبي داود خالد بن إبراهيم.

وفي هذه السنة تحالفت وتعاقدت عامة مَنْ كان بخراسان من قبائل العرب على قتال أبي مسلم؛ وذلك حين كثر تُبّاع أبي مسلم وقويَ أمره.

وفيها تحوّل أبو مسلم من معسكره بإسفِيذَنْج إلى الماخُوان.

ذكر الخبر عن ذلك والسبب فيه:

قال عليّ: أخبرنا الصبَّاح مولى جبريل، عن مسلمة بن يحيى، قال: لما ظهر أبو مسلم، تسارع إليه الناس، وجعل أهل مَرْو يأتونه؛ لا يعرض لهم نصر ولا يمنعهم؛ وكان الكِرمانيّ وشَيْبان لا يكرهان أمر أبي مسلم؛ لأنه دعا إلى خلع مرْوان بن محمد، وأبو مسلم في قرية يقال لها بالين في خباء ليس له حرس ولا حجاب، وعظم أمره عند الناس، وقالوا: ظهر رجل من بني هاشم، له حلْم ووقار وسكينة؛ فانطلق فتية من أهل مَرْو، نساك كانوا يطلبون الفقه، فأتوا أبا مسلم في معسكره، فسألوه عن نسبه، فقال: خَبَري خير لكم من نسبي، وسألوه عن أشياء من الفقه، فقال: أمرُكُم بالمعروف ونهيُكم عن المنكر خير لكم من هذا؛ ونحن في شغل، ونحن إلى عونكم أحوجُ منا إلى مسألتكم، فأعفونا. قالوا: والله ما نعرف لك نسباً، ولا نظنك تبقى إلا قليلاً حتى تقتل؛ وما بينك وبين ذلك إلا أن يتفرّغ أحد هذين؛ قال أبو مسلم: بل أنا أقتلهما إن شاء الله.

فرجع الفتية فأتوا نصر بن سيار فحدّثوه، فقال: جزاكم الله خيراً، مثلكم تفقّد هذا وعرفه. وأتوا شيبان

فأعلموه، فأرسل: إنا قد أشجى بعضنا بعضاً؛ فأرسل إليه نصر: إن شئت فكفّ عني حتى أقاتله، وإن شئت فجامعْني على حربه حتى أقتله أو أنفيَه؛ ثم نعود إلى أمرنا الذي نحن عليه. فهمَّ شيبانُ أن يفعل، فظهر ذلك في العسكر، فأتت عيون أبي مسلم فأخبروه، فقال سليمان: ما هذا الأمر الذي بلغهم! تكلّمت عند أحد بشيء؟ فأخبره خبر الفتية الذين أتوْه؛ فقال: هذا لذاك إذاً. فكتبوا إلى عليّ بن الكرمانيّ: إنك موتور؛ قتِل أبوك ونحن نعلم أنك لست على رأي شيبان؛ وإنما تقاتل لثأرك؛ فامنع شيبان من صلح نصر؛ فدخل على شيبان، فكلمه فثناه عن رأيه، فأرسل نصر إلى شيبان: إنك لمغرور؛ وايم الله ليتفاقمنّ هذا الأمر حتى تستصغرَني في جنبه.

فبينا هم في أمرهم إذ بعث أبو مسلم النَّضر بن نُعَيم الضبّي إلى هَراة وعليها عيسى بن عَقيل الليثيّ، فطرده عن هَرَاة، فقدم عيسى على نَصرٍ منهزماً، وغلب النَّضْر على هراة. قال: فقال يحيى بن نُعَيم بن هبيرة: اختاروا إما أن تهلكوا أنتم قبل مُضَر أو مضر قبلكم، قالوا: وكيف ذاك؟ قال: إنّ هذا الرجل إنما ظهر أمرُه منذ شهر، وقد صار في عسكره مثل عسكركم؛ قالوا: فما الرأي؟ قال: صالحوا نَصْراً، فإنكم إن صالحتموه قاتلوا نصْراً وتركوكم؛ لأنّ الأمر في مُضر، وإن لم تصالحوا نصراً صالحوه وقاتلوكم، ثم عادوا عليكم. قالوا: فما الرأي؟ قال: قدّموهم قبلكم ولو ساعة؛ فتقرّ أعينكم بقتلهم. فأرسل شيبان إلى نصر يدعوه إلى الموادعة فأجابه، فأرسل إلى سَلْم بن أحوز، فكتب بينهم كتاباً، فأتى شيبان وعن يمينه ابن الكِرمانيّ، وعن يساره يحيى بن نُعيم، فقال سَلْم لابن الكِرمانيّ: يا أعْوَر، ما أخلقك أن تكون الأعور الذي بلغنا أن يكون هلاك مضر على يديه! ثم توادعوا سنة؛ وكتبوا بينهم كتاباً؛ فبلغ أبا مسلم، فأرسل إلى شيبان: إنا نُوادعك أشهراً، فتوادعنا ثلاثة أشهر؛ فقال ابنُ الكرمانيّ: فإني ما صالحت نصراً؛ وإنما صالحه شيبان؛ وأنا لذلك كاره، وأنا موتور، ولا أدَع قتاله. فعاوده القتال؛ وأبى شيبان أن يعينَه، وقال: لا يحلّ الغدر. فأرسل ابنُ الكرمانيّ إلى أبي مسلم يستنصرُه على نَصْر بن سيار، فأقبل أبو مسلم حتى أتى الماخُوان، وأرسل إلى ابنِ الكرمانيّ شبلَ بن طهمان: إني معك على نصر، فقال ابنُ الكِرمانيّ: إني أحبّ أن يلقاني أبو مسلم، فأبلغه ذلك شبل، فأقام أبو مسلم أربعة عشر يوماً، ثم سار إلى ابن الكِرمانيّ، وخلف عسكره بالماخُوان، فتلقاه عثمان بن الكرماني في خيل، وسار معه حتى دخل العسكر؛ وأتى لحجرة عليّ فوقف، فأذن له فدخل، فسلّم على عليّ بالإمرة، وقد اتخذ له عليٌّ منزلاً في قصر لمخلّد بن الحسن الأزديّ، فأقام يومين، ثم انصرف إلى عسكره بالماخُوان؛ وذلك لخمس خلْون من المحرّم من سنة ثلاثين ومائة.

وأما أبو الخطاب، فإنه قال: لما كثرت الشيعة في عسكر أبي مسلم، ضاقت به سَفيذنج، فارتاد معسكراً فسيحاً، فأصاب حاجتَه بالماخُوان؛ ـ وهي قرية العلاء بن حُريث وأبي إسحاق خالد بن عثمان، وفيها أبو الجهم بن عطية وإخوته ـ وكان مقامه بسفيذنج اثنين وأربعين يوماً، وارتحل من سفيذنج إلى الماخُوان، فنزل منزل أبي إسحاق خالد بن عثمان يوم الأربعاء، لتسع ليال خلوْن من ذي القعدة من سنة تسع وعشرين ومائة، فاحتفر بها خندقاً، وجعل للخندق بابين، فعسكر فيه والشيعة، ووكّل بأحد بابَي الخندق مُصعب بن قيس الحنفيّ وبهدل بن إياس الضبِّيّ، ووكّل بالباب الآخر أبا شراحيل وأبا عمرو الأعجميّ، واستعمل على الشُّرَط أبا نصر مالك بن الهيثم، وعلى الحرس أبا إسحاق خالد بن عثمان، وعلى ديوان الجند كامل بن مظفر أبا صالح، وعلى الرسائل أسلم بن صُبيح؛ والقاسم بن مجاشع النقيب التميميّ على القضاء، وضمّ أبا الوضاح

وعدّة من أهل السقادم إلى مالك بن الهيثم، وجعل أهل نَوْشان ـ وهم ثلاثة وثمانون رجلاً ـ إلى أبي إسحاق في الحرس.

وكان القاسم بن مجاشع يصلي بأبي مسلم الصّلوَات في الخندق، ويقصّ القصص بعد العصر، فيذكر فَضْل بني هاشم ومعايب بني أميّة، فنزل أبو مسلم خندق الماخُوان، وهو كرجل من الشيعة في هيئته؛ حتى أتاه عبد الله بن بِسْطام؛ فأتاه بالأرْوقة والفَساطيط والمطابخ والمعالف للدوابّ وحياض الأدم للماء؛ فأوّل عامل استعمله أبو مسلم على شيء من العمل داود بن كرّاز؛ فردّ أبو مسلم العبيد عن أن يضاموا في خندقه، واحتفر لهم خندقاً في قرية شَوّال، وولى الخندق داود بن كرّاز. فلما اجتمعت للعبيد جماعة، وجّههم إلى موسى بن كعب بأبِيَوْرد، وأمر أبو مسلم كامل بن مظفر أن يعرض أهل الخندق بأسمائهم وأسماء آبائهم فينسبهم إلى القوى، ويجعل ذلك في دفتر، ففعل ذلك كامل أبو صالح، فبلغت عدّتهم سبعة آلاف رجل، فأعطاهم ثلاثة دراهم لكلّ رجل، ثم أعطاهم أربعة أربعة على يدي أبي صالح كامل.

ثم إنّ أهل القبائل من مُضر وربيعة وقحطان توادعوا على وضع الحرب، وعلى أن تجتمع كلمتهم على محاربة أبي مسلم، فإذا نفوه عن مَرْو نظروا في أمر أنفسهم وعلى ما يجتمعون عليه. فكتبوا على أنفسهم بذلك كتاباً وثيقاً. وبلغ أبا مسلم الخبر، فأفظعه ذلك وأعظمه، فنظر أبو مسلم في أمره، فإذا ماخوان سافلة الماء؛ فتخوّف أن يقطع عنه نصر بن سيار الماء، فتحوّل إلى آلين ـ قرية أبي منصور طلحة بن رزيق النقيب ـ وذٰلك بعد مقامه أربعة أشهر بخندق الماخُوان، فنزل آلين في ذي الحجة من سنة تسع وعشرين ومائة، يوم الخميس لستّ خلون من ذي الحجة. فخندق بآلين خندقاً أمام القرية؛ فيما بينها وبين بلاشَ جَرْد، فصارت القرية من خلف الخندق، وجعل وجه دار المحتفز بن عثمان بن بشر المزنيّ في الخندق، وشرب أهل آلين من نهر يدعى الخرقان، لا يمكّن نصر بن سيار قطع الشرب عن آلين. وحضر العيدُ يوم النحر، وأمر القاسم بن مجاشع التميميّ فصلى بأبي مسلم والشيعة في مصلى آلين، وعسكر نصر بن سيّار على نهر عياض، ووضع عاصم بن عمرو ببلاش جَرْد، ووضع أبا الذّيال بطوسان، ووضع بشر بن أنيف اليربوعيّ بجلفر، ووضع حاتم بن الحارث بن سريج بخرَق؛ وهو يلتمس مواقعه أبي مسلم. فأمّا أبو الذيال فأنزل جنده على أهلها مع أبي مسلم في الخندق، فآذوا أهل طوسان وعسفوهُم وذبحوا الدجاج والبقر والحمام، وكلفوهم الطعام والعلَف، فشكت الشيعة ذلك إلى أبي مسلم، فوجّه معهم خيلاً، فلقوا أبا الذّيال فهزموه، وأسروا من أصحابه ميموناً الأعسر الخوارزميّ في نحو من ثلاثين رجلاً، فكساهم أبو مسلم، وداوى جراحاتهم وخلّى لهم الطريق.

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة قُتِل جُديع بن عليّ الكِرمانيّ وصُلب.

ذكر الخبر عن مقتله:

قد مضى قبل ذُكرُنا مقتلَ الحارث بن سُريج، وأنّ الكرمانيّ هو الذي قتله. ولما قتل الكِرمانيّ الحارث، خلَصت له مَرْو بقتله إياه، وتنحّى نصر بن سيّار عنها إلى أبرشهر، وقوي أمرُ الكِرمانيّ، فوجّه نصر إليه ـ فيما قيل ـ سلْمْ بن أحوز، فسار في رابطة نصر وفرسانه؛ حتى لقي أصحاب الكِرمانيّ، فوجد يحيى بن نُعَيم أبا الميلاء واقفاً في ألف رجل من ربيعة، ومحمد بن المثنّى في سبعمائة من فرسان الأزْد، وابن الحسن بن الشيخ الأزديّ في ألف من فِتيانهم، والحزميّ السغْدى في ألف رجل من أبناء اليمن، فلما تواقفوا قال سلم بن أحوز

لمحمد بن المثنّى: يا محمّد بن المثنى، مُرْ هذا الملّاح بالخروج إلينا، فقال محمد لسلم: يابن الفاعلة؛ لأبي عليّ تقول هذا! ودلف القوم بعضهم إلى بعض، فاجتلدوا بالسيوف، فانهزم سلْم بن أحوز، وقتِل من أصحابه زيادة على مائة، وقتِل من أصحاب محمد زيادة على عشرين، وقدم أصحاب نصر عليه فلولاً، فقال له عَقِيل بن معقل: يا نصر شأمْتَ العرب؛ فأما إذ صنعت ما صنعتَ فجُدّ وشمر عن ساق، فوجّه عصمة بن عبد الله الأسديّ فوقف موقف سَلْم بن أحوز، فنادى: يا محمد، لتعلمنّ أن السمك لا يغلب اللُّخْم؛ فقال له محمد: يابن الفاعلة، قف لنا إذاً. وأمر محمد السغديَّ فخرج إليه في أهل اليمن، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم عِصْمة حتى أتى نصر بن سيار، وقد قتل من أصحابه أربعمائة.

ثم أرسل نصر بن سيّار مالك بن عمرو التميميّ فأقبل في أصحابه، ثم نادى: يابن المثنى، ابرز لي إن كنت رجلاً! فبرز له، فضربه التميميّ على حبل العاتِق فلم يصنع شيئاً؛ وضربه محمد بن المثنّى بعمود فشدخ رأسه؛ فالتحم القتال؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً كأعظم مايكون من القتال، فانهزم أصحاب نصر، وقد قتِل منهم سبعمائة رجل، وقتِل من أصحاب الكِرمانيّ ثلاثمائة رجل؛ ولم يزل الشرّ بينهم حتى خرجوا جميعاً إلى الخندقين، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فلما استيقن أبو مسلم أنّ كلا الفريقين قد أثخن صاحبه؛ وأنه لا مدد لهم، جعل يكتب الكتب إلى شَيْبان، ثم يقول للرسول: اجعل طريقك على المضريّة، فإنهم سيعرضون لك، ويأخذون كتبَك، فكانوا يأخذونها فيقرؤون فيها: إني رأيت أهل اليمن لا وفاء لهم ولا خير فيهم، فلا تثقنّ بهم ولا تطمئنّ إليهم؛ فإنيْ أرجو أن يريَـك الله ما تحبّ، ولئن بقيت لا أدَع لهم شَعراً ولا ظفُراً. ويرسل رسولاً آخر في طريق آخر بكتاب فيه ذكر المضرّية وإطراء اليمن بمثل ذلك؛ حتى صار هوى الفريقين جميعاً معه؛ وجعل يكتب إلى نصر بن سيّار وإلى الكرمانيّ: إنّ الإمام قد أوصاني بكم، ولستُ أعدو رأيه فيكم. وكتب إلى الكُور بإظهار الأمر؛ فكان أول مَن سَوّد - فيما ذكر - أسيد بن عبد الله بنسا، ونادى: يا محمد، يا منصور. وسوّد معه مقاتل بن حكيم وابن غزوان؛ وسوّد أهل أبِيَورد وأهل مَرْو الرّوذ، وقرى مَرْو.

وأقبل أبو مسلم حتى نزل بين خندق نصر بن سيار وخندق جُديع الكرمانيّ، وهابه الفريقـان، وكثر أصحابه، فكتب نصر بن سيار إلى مَرْوان بن محمد يعلمه حال أبي مسلم وخروجه وكثرة مَن معه ومَن تبعه، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد، وكتب بأبيات شعر:

أرَى بَـيْـنَ الـرَّمـاد وَمـيضَ جَـمْـرٍ ... فـأحْـجِ بـأنْ يـكُـونَ لَـهُ ضِـرامُ
فـإنَّ الـنـارَ بـالـعـودَيْـن تُـذْكَـى ... وإنَّ الـحَـرْبَ مَـبْـدوهـا الـكـلامُ
فقُلتُ مـن الـتَّـعَـجُّـبِ: لَيْـتَ شِعْـري ... أأيـقـاظٌ أمَـيَّـةُ أمْ نِـيـامُ!

فكتب إليه: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فأحسم الثؤلول قِبَلك، فقال نصر: أما صاحبكم فقد أعلمكم ألاّ نصر عنده. فكتب إلى يزيد بن عمر بن هُبيرة يستمدّه، وكتب إليه بأبيات شعر:

أبلغْ يَـزيـدَ وخَيْـرُ الـقَـوْلِ أصـدَقُهُ ... وقـد تبَيَّـنْـتُ ألّا خَـيْـرَ في الـكـذبِ
إنَّ خُـراسـانَ أرْض قـد رأيْتُ بهـا ... بَيْضاً لو افـرَخَ قـد حُـدِّثْتَ بـالعَجَب
فِـراخُ عـامَـيْـنِ إلا أنَّـهـا كـبـرَتْ ... لمّـا يَـطِرْنَ وقـد سُرْبِلْنَ بـالـزَّغَبِ
فـإنْ يَـطِرنَ ولَمْ يُحْـتـلْ لَهُـنَّ بِهـا ... يُـلْهِبْـنَ نـيـرانَ حـرْب أيَّـمـا لَـهَب

فقال يزيد: لا غلبة إلا بكثرة؛ وليس عندي رجل. وكتب نصر إلى مَرْوان يخبره خبر أبي مسلم وظهورَه وقوّته؛ وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد، فألفى الكتاب مَرْوان وقد أتاه رسول لأبي مسلم إلى إبراهيم؛ كان قد عاد من عند إبراهيم، ومعه كتاب إبراهيم إلى أبي مسلم جواب كتابه، يلعن فيه أبا مسلم ويسبّه؛ حيث لم ينتهز الفرصة من نصر والكرمانيّ إذ أمكناه، ويأمره ألّا يدع بخُراسان عربيّاً إلا قتله. فدفع الرسول الكتاب إلى مَرْوان، فكتب مروان إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك وهو على دمشق، يأمره أن يكتب إلى عامل البَلْقاء، فيسير إلى كرار الحُميمة، فليأخذ إبراهيم بن محمد ويشدّه وثاقا، وليبعث به إليه في خيل؛ فوجه الوليد إلى عامل البَلْقاء فأتى إبراهيم وهو في مسجد القرية، فأخذه وكتفه وحمله إلى الوليد، فحمله إلى مَرْوان فحبسه مروان في السجن.

رجع الحديث إلى حديث نصر والكرمانيّ. وبعث أبو مسلم حين عظم الأمر بين الكرمانيّ ونصر إلى الكرمانيّ: إني معك، فقبِل ذلك الكِرمانيّ وانضمّ إليه أبو مسلم، فاشتدّ ذلك على نَصْر، فأرسل إلى الكِرمانيّ: ويلك لا تغترر! فوالله إني لخائف عليك وعلى أصحابك منه؛ ولكن هلمّ إلى الموادعة، فتدخل مَرْو، فنكتب بيننا كتاباً بصلح ـ وهو يريد أن يفرّق بينه بين أبي مسلم ـ فدخل الكِرمانيّ منزله، وأقام أبو مسلم في المعسكر، وخرج الكِرمانيّ حتى وقف في الرَّحبَة في مائة فارس، وعليه قرطق خشكشونة. ثم أرسل إلى نصر: اخرج لنكتب بيننا ذلك الكتاب، فأبصر نصر منه غِرّة، فوجه إليه ابن الحارث بن سريج في نحو من ثلاثمائة فارس، فالتقوا في الرَّحبَة، فاقتتلوا بها طويلاً.

ثم إنّ الكرمانيّ طُعِن في خاصرته فخرّ عن دابتْه، وحماه أصحابُه حتى جاءهم ما لا قِبل لهم به، فقتل نصر الكِرمانيّ وصلبَه، ومعه سمكة، فأقبل ابنه عليّ ـ وقد كان صار إلى أبي مسلم، وقد جمع جميعاً كثيراً ـ فسار بهم إلى نصر بن سيار فقاتله حتى أخرجه من دار الإمارة، فمال إلى بعض دور مَرْو، وأقبل أبو مسلم حتى دخل مَرْو، فأتاه عليّ بن جُديع الكرمانيّ فسلّم عليه بالإمْرة، وأعلمه أنه معه على مساعدته، وقال: مُرْني بأمرك، فقال: أقم على ما أنت عليه حتى آمرك بأمري.

وفي هذه السنة غلب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب على فارس.

ذكر الخبر عن ذلك وعن السبب الذي وصل به إلى الغلَبة عليها:

ذكر عليّ بن محمد أنّ عاصم بن حفص التميميّ وغيره حدّثوه أنّ عبد الله بن معاوية لما هُزم بالكوفة، شخص إلى المدائن، فبايعه أهلُ المدائن، فأتاه قومٌ من أهل الكُوفة، فخرج إلى الجبال فغلب عليها، وعلى حُلْوان وقُومِس وأصبهان والريّ، وخرج إليه عبيد أهل الكوفة، فلمّا غلب على ذلك أقام بأصبهان؛ وقد كان محارب بن موسى مولى بني يَشْكر عظيم القدر بفارس، فجاء يمشي في نعلين إلى دار الإمارة بإصطخر، فطرد العامل؛ عامل بن عمر عنها، وقال لرجل يقال له عمارة: بايع الناس، فقال له أهل إصطخر: علامَ نبايع؟ قال: على ما أحببتم وكرهتم. فبايعوه لابن معاوية، وخرج محارب إلى كرمان فأغار عليهم، وأصاب في غارته إبلاً لثعلبة بن حسان المازنيّ فاستاقها ورجع. فخرج ثعلبة يطلب إبله في قرية له تدعى أشهر ـ قال: ومع ثعلبة مولىً له ـ فقال له مولاه: هل لك أن نفتك بمحارب؛ فإن شئت ضربتَه وكفيتني الناس؛ وإن شئت ضربتُه وكفيتُك الناس؟ قال: ويحك! أردتَ أن تفتك وتذهب الإبل ولم نلق الرجل! ثم دخل على محارب فرحّب

به ، ثم قال: حاجتك! قال: إبلي، قال: نعم، لقد أخذت، وما أعرفها، وقد عرفتها، فدونك إبلك فأخذها، وقال لمولاه: هذا خير، وما أردت؟ قال: ذلك لو أخذناها كان أشفى. وانضمّ إلى محارب القواد والأمراء من أهل الشأم: فسار إلى مسلم بن المسيّب وهو بشيراز، عامل لابن عمر؛ فقتله في سنة ثمان وعشرين ومائة، ثم خرج محارب إلى أصبهان، فحوّل عبد الله بن معاوية إلى إصطخر؛ واستعمل أخاه عبد الله أخاه الحسن على الجبال، فأقبل فنزل في دير على ميل من إصطخر، واستعمل أخاه يزيد على فارس فأقام، فأتاه الناس؛ بنو هاشم وغيرهم؛ وجبَى المال، وبعث العمال؛ وكان معه منصور بن جُمهور وسليمان بن هشام بن عبد الملك وشيبان بن الحِلْس بن عبد العزيز الشيبانيّ الخارجيّ، وأتاه أبو جعفر عبد الله، وعبد الله وعيسى ابنا عليّ. وقدم يزيد بن عمر بن هبيرة على العراق، فأرسل نباتة بن حنظلة الكلابيّ إلى عبد الله بن معاوية؛ وبلغ سليمان بن حبيب أنّ ابن هُبيرة ولى نباتة الأهواز، فسرّح داود بن حاتم، فأقام بكربُج دينار ليمنع نباتة من الأهواز، فقدم نُباتة، فقاتله، فقتل داود، وهرب سليمان إلى سابور؛ وفيها الأكراد قد غلبوا عليها، وأخرجوا المسيح بن الحماريّ، فقاتلهم سليمان، فطرد الأكراد عن سابور، وكتب إلى عبد الله بن معاوية بالبيعة، فقال: عبد الرحمن بن يزيد بن المهلب: لا يفي لك، وإنما أراد أن يدفعك عنه؛ ويأكل سابور؛ فاكتب إليه فليقدم عليك إن كان صادقاً. فكتب إليه فقدم، وقال لأصحابه: ادخلوا معي؛ فإن منَعكم أحد فقاتلوه، فدخلوا فقال لابن معاوية: أنا أطوع الناس لك، قال: ارجع إلى عملك، فرجع.

ثم إن محارب بن موسى نافر ابنَ معاوية، وجمع جمعاً، فأتى سابور - وكان ابنه مخلد بن محارب محبوساً بسابور، أخذه يزيد بن معاوية فحبسه - فقال لمحارب: ابنك في يديه وتحاربه! أما تخاف أن يقتل ابنك! قال: أبعده الله! فقاتله يزيد، فانهزم محارب، فأتى كِرمان، فأقام بها حتى قدم محمد بن الأشعث، فصار معه، ثم نافَر ابنَ الأشعث فقتله وأربعة وعشرين ابناً له. ولم يزل عبد الله بن معاوية بإصطخر حتى أتاه ابن ضُبارة مع داود بن يزيد بن عمر بن هبيرة، فأمر ابن معاوية فكسروا قنطرة الكوفة، فوجّه ابن هبيرة معنَ بن زائدة من وَجْه آخر، فقال سليمان لأبان بن معاوية بن هشام: قد أتاك القوم، قال: لم أومَرْ بقتالهم؛ قال: ولا تؤمر والله بهم أبداً، وأتاهم فقاتلهم عند مَرْو الشاذان، ومعن يرتجز:

لَيْسَ أميـرُ القَـوْمِ بـالْخَبِّ الخَـدَعْ فَـرَّ من المـوْتِ وفي المـوْتِ وقَـعْ

قال ابن المقفع أو غيره:

فرّ من الموت وفيه قد وقع.

قال: عمداً، قلت: قد علمت، فانهزم ابن معاوية، وكفّ معن عنهم، فقتل في المعركة رجل من آل أبي لهب، وكان يقال: يقتل رجل من بني هاشم بمَرْو الشاذان. وأسروا أسَراء كثيرة، فقتَل ابن ضبارة عدّة كثيرة؛ فيقال: كان فيمن قُتل يومئذ حكيم الفرد أبو المجد، ويقال: قتِل بالأهواز، قتله نباتة.

ولما انهزم ابنُ معاوية هرب شيبان إلى جَزيرة ابن كاوان ومنصور بن جمهور إلى السند، وعبد الرحمن بن يزيد إلى عُمان، وعمرو بن سهل بن عبد العزيز إلى مصر، وبعث ببقيّة الأسرَاء إلى ابن هبيرة.

قال حميد الطويل: أطلق أولئك الأسراء فلم يقتل منهم غير حصين بن وعلة السدُوسيّ، ولما أمر بقتله قال: أقتَلُ من بين الأسراء! قال: نعم، أنت مشرِك، أنت الذي تقول:

وَلَـوْ آمُـرُ الـشـمْسَ لَـمْ تُـشْـرِقِ

ومضى ابنُ معاوية من وجهه إلى سِجستان. ثم أتى خراسان ومنصور بن جمهور إلى السند، فسار في طلبه معن بن زائدة وعطيّة الثعلبيّ وغيره من بني ثعلبة، فلم يدركوه، فرجعوا. وكان حصين بن وَعْلة السدوسي مع يزيد بن معاوية، فتركه ولحق بعبدالله بن معاوية فأسره. مورع السلميّ، رآه دخل غيضة فأخذه فأتى به معن بن زائدة فبعث بـه معن إلى ابن ضُبـارة، فبعث بـه ابن ضبـارة إلى واسط؛ وسـار ابن ضبـارة إلى عبد الله بن معاوية بإصطخر، فنزل بإزائه على نهر إصطخر، فعبر ابن الصَّحْصَح في ألف، فلقيه من أصحاب عبد الله بن معاوية أبان بن معاوية بن هشام فيمن كان معه من أهل الشأم، ممن كان مع سليمان بن هشام فاقتتلوا، فمال ابنُ نباتة إلى القنطرة، فلقيَهم مَن كان مع ابن معاوية من الخوارج، فانهزم أبان والخوارج، فأسر منهم ألفاً، فأتوْا بهم ابن ضُبارة، فخلى عنهم، وأخذ يومئذ عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن عباس في الأسَراء، فنسبه ابن ضبارة، فقال: ما جاء بك إلى ابن معاوية، وقد عرفت خلافه أمير المؤمنين! قال: كان عليّ دين فأدّيته. فقام إليه حرب بن قطن الكنانيّ، فقال: ابن اختنا، فوهبه له، وقال: ما كنت لأقدم على رجل من قريش. وقال له ابن ضبارة: إن الذي قد كنت معه قدعِيبَ بأشياء، فعندك منها علم؟ قال: نعم، وعابه ورمى أصحابه باللُّواط، فأتوا ابن ضبارة بغلمان عليهم أقبية قُوهيَّة مصبَّغة ألواناً، فأقامهم للناس وهم أكثر من مائة غلام، لينظروا إليهم. وحمل ابن ضبارة عبدَ الله بن عليّ على البريد إلى ابن هبيرة ليخبره أخباره، فحمله ابن هبيرة إلى مَرْوان في أجناد أهل الشأم، وكان يعيبه، وابن ضُبارة يومئذ في مفَازة كِرمان في طلب عبد الله بن معاوية، وقد أتى ابن هبيرة مقتل نباتة، فوجّه ابن هبيرة كرَب بن مصقلة والحكم بن أبي الأبيض العبسيّ وابن محمد السكونيّ؛ كلهم خطيب، فتكلموا في تقريظ ابن ضُبارة، فكتب إليه أن سِرْ بالناس إلى فارس، ثم جاءه كتاب ابن هبيرة: سر إلى أصبهان.

وفي هذه السنة وافى الموسمَ أبو حمزة الخارجيّ، من قِبَل عبد الله بن يحيى طالب الحق، محكِّماً مظهراً للخلاف على مَرْوان بن محمد.

ذكر الخبر عن ذلك من أمره:

حدّثني العباس بن عيسى العُقيليّ، قال: حدّثنا هارون بن موسى الفرويّ قال: حدّثنا موسى بن كَثير مولى الساعديّين، قال: لما كان تمام سنة تسع وعشرين ومائة، لم يدر الناس بعَرفة إلّا وقد طلعت أعلام عمائم سود حرقانيّة في رؤوس الرماح وهم في سبعمائة، ففزع الناس حين رأوْهم، وقالوا: ما لكم! وما حالكم؟ فأخبروهم بخلافهم مَرْوان وآل مَرْوان والتبرُّؤ منه. فراسلهم عبد الواحد بن سليمان ـ وهو يومئذ على المدينة ومكة ـ فراسلهم في الهُدنة، فقالوا: نحن بحجنا أضنّ، ونحن عليه أشحّ. وصالحهم على أنهم جميعاً آمنون؛ بعضهم من بعض، حتى ينفِر الناس النَّفْر الأخير، وأصبحوا من الغد. فوقفوا على حِدة بعرفة، ودفع بالناس عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان، فلما كانوا بمنى ندَّموا عبد الواحد، وقالوا: قد أخطأتَ فيهم، ولو حملت الحاجّ عليهم ما كانوا إلّا أكلَة رأس. فنزل أبو حمزة بقُـرين الثعالب، ونـزل عبد الـواحد منـزل السلطان، فبعث عبد الواحـد إلى أبي حمزة عبـد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ، ومحمـد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر، وعبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن

عمر بن الخطاب، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، في رجال أمثالهم، فدخلوا على أبي حَمْزة وعليه إزار قُطْن غليظ، فتقدّمهم إليه عبد الله بن الحسن ومحمد بن عبد الله فنسبهما فانتسبا له، فعبَس في وجوههما، وأظهر الكراهة لهما، ثم سأل عبد الرحمن بن القاسم وعبيد الله بن عمر فانتسبا له، فهشّ إليهما، وتبسَّم في وجوههما، وقال: والله ما خرجنا إلا لنسير بسيرة أبويْكما، فقال له عبد الله بن حسن: والله ما جئنا لتفضّل بين آبائنا، ولكنا بعثّنا إليك الأمير برسالة - وهذا ربيعة يخبرُكها - فلما ذكر ربيعةُ نقْضَ العهد؛ قال بلج وأبرهة - وكان قائدين له: الساعة الساعة! فأقبل عليهم أبو حمزة، فقال: معاذ الله أن ننقض العهد أو نحبَس، والله لا أفعل ولو قطِعت رقبتي هذه؛ ولكن تنقضي الهدنة بيننا وبينكم. فلما أبى عليهم خرجوا، فأبلغوا عبد الواحد، فلما كان النَّفْر نفر عبد الواحد في النَّفْر الأول، وخلى مكة لأبي حمزة، فدخلها بغير قتال. قال العباس: قال هارون: فأنشدني يعقوب بن طلحة الليثي أبياتاً هُجِيَ بها عبد الواحد - قال: وهي لبعض الشعراء لم أحفظ اسمه:

زارَ الحَجيجَ عصابَةٌ قَدْ خالفوا ... دِينَ الإلٰهِ فَفَرَّ عبدُ الواحِدِ
تَرَكَ الحَلائلَ والإمارَةَ هارِباً ... ومضى يُخَبِّط كالبَعِيرِ الشّارِدِ
لو كان والِدُهُ تَنَصَّلَ عِرْقُه ... لَصَفَتْ مَضارِبُهُ بعِرْقِ الوالِد

ثم مضى عبدُ الواحد حتى دخل المدينة، فدعا بالديوان، فضرب على الناس البَعْث، وزادهم في العطاء عشرة عشرة. قال العباس: قال هارون: أخبرني بذلك أبو ضمرة أنس بن عياض، قال: كنت فيمن اكتتب، ثم محوْت اسمي.

قال العباس: قال هارون: وحدّثني غير واحد من أصحابنا أنّ عبد الواحد استعمل عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان علَى الناس فخرجوا؛ فلما كانوا بالحَرّة لقيتهم جُزُر منحورة فمضوْا.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مَرْوان حدثني بذلك أحمد بن ثابت عمن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر. وكذلك قال محمد بن عمر وغيره.

وكان العامل على مكة والمدينة عبد الواحد بن سليمان، وعلى العراق يزيد بن عمر بن هبيرة، وعلى قضاء الكوفة الحجاج بن عاصم المحاربيّ - فيما ذكر - وعلى قضاء البصرة عباد بن منصور، وعلى خراسان نصر بن سيار، والفتنة بها.

ثم دخلت سنة ثلاثين ومائة

ذكر خبر الأحداث التي كانت فيها

فممّا كان فيها من ذلك دخول أبي مسلم حائط مَرْو ونزوله دار الإمارة بها، ومطابقة عليّ بن جُديع الكرمانيّ إيّاه على حرب نصر بن سيّار.

ذكر الخبر عن ذلك وسببه:

ذكر أبو الخطاب أن دخولَ أبي مسلم مَرْو ونزوله دار الإمارة التي ينزلها عمّال خراسان كان في سنة ثلاثين ومائة لتسع خلوْن من جمادى الآخرة يوم الخميس، وأن السبب في مسير عليّ بن جُديع مع أبي مسلم كان أن سليمان بن كثير كان بإزاء عليّ بن الكرمانيّ حين تعاقد هو ونصر على حَرْب أبي مسلم؛ فقال سليمان بن كثير لعليّ بن الكرمانيّ: يقول لك أبو مسلم: أما تأنف من مصالحة نصر بن سيار، وقد قتل بالأمس أباك وصلبه! ما كنتُ أحسبك تجامع نصر بن سيار في مسجدٍ تصليان فيه! فأدرك عليّ بن الكرمانيّ الحفيظة، فرجع عن رأيه وانتقض صلح العرب. قال: ولما انتقض صلحُهم بعث نصر بن سيار إلى أبي مسلم يلتمس منه أن يدخل مع مُضر، وبعثت ربيعة وقحطان إلى أبي مسلم بمثل ذلك، فتراسلوا بذلك أياماً، فأمرهم أبو مسلم أن يقدم عليه وفد الفريقين حتى يختار أحدهما، ففعلوا. وأمر أبو مسلم الشيعة أن يختاروا ربيعة وقحطان؛ فإنّ السلطان في مُضَر، وهم عمال مروان الجعديّ، وهم قتلة يحيى بن زيد. فقدم الوفدان؛ فكان في وفد مُضر عقيل بن معقل بن حسان الليثيّ وعبيدالله بن عبدربه الليثيّ والخطاب بن محرز السُّلَميّ، في رجال منهم. وكان في وفد قحطان عثمان بن الكِرمانيّ ومحمد بن المثنى وسَوْرة بن محمد بن عزيز الكنديّ، في رجال منهم؛ فأمر أبو مسلم عثمان بن الكِرْمانيّ وأصحابه فدخلوا بستان المحتفز، وقد بسط لهم فيه؛ فقعدوا وجلس أبو مسلم في بيت في دار المحتفز، وأذن لعَقيل بن معقل وأصحابه من وفد مُضَر، فدخلوا إليه، ومع أبي مسلم في البيت سبعون رجلاً من الشيعة، قرأ على الشيعة كتاباً كتبه أبو مسلم ليختاروا أحد الفريقين؛ فلما فرغ من قراءة الكتاب، قام سليمان بن كثير، فتكلم - وكان خطيباً مفوّهاً - فاختار عليّ بن الكرمانيّ وأصحابه، وقام أبو منصور طلحة بن رزيق النقيب فيهم - وكان فصيحاً متكلّماً - فقال كمقالة سليمان بن كَثير، ثم قام مزيد بن شقيق السلميّ، فقال: مضر قتلة آل النبي ﷺ وأعوان بني أمية وشيعة مَرْوان الجعديّ، ودماؤنا في أعناقهم، وأموالنا في أيديهم، والتّباعات قَبلهم، ونصر بن سيار عامل مروان على خراسان يُنفذ أمورَه، ويدعو له على منبره، ويسمّيه أمير المؤمنين؛ ونحن من ذلك إلى الله بُرآء وأن يكون مَرْوان أمير المؤمنين، وأن يكون نصرٌ على هدًى وصواب، وقد اخترنا عليّ بن الكرمانيّ وأصحابه من قَحطان وربيعة. فقال السبعون الذين جمعوا في البيت بقول مزيد بن شقيق.

فنهض وفْد مضر عليهم الذّلة والكآبة؛ ووجّه معهم أبو مسلم القاسم بن مجاشع في خيل حتى بلغوا مأمنهم، ورجع وفد عليّ بن الكِرمانيّ مسرورين منصورين. وكان مقام أبي مسلم بآلين تسعة وعشرين يوماً، فرحل عن آلين راجعاً إلى خندقه بالماخُوان، وأمر أبو مسلم الشيعة أن يبتنوا المساكن، ويستعدّوا للشتاء فقد أعفاهم الله من اجتماع كلمة العرب، وصيرهم بنا إلى افتراق الكلمة؛ وكان ذلك قَدَراً من الله مقدوراً.

وكان دخول أبي مسلم الماخُوان منصرفاً عن آلين سنة ثلاثين ومائة، للنصْف من صفر يوم الخميس، فأقام أبو مسلم في خَنْدَقه بالماخُوان ثلاثة أشهر؛ تسعين يوماً، ثم دخل حائط مَرْو يوم الخميس لتسع خلَوْن من جمادي الأولى سنة ثلاثين ومائة.

قال: وكان حائط مَرْو إذ ذاك في يد نصر بن سيّار لأنّه عامل خراسان، فأرسل عليّ بن الكرمانيّ إلى أبي مسلم أن أدخل الحائط مَن قِبَلك، وأدخل أنا وعشيرتي من قِبَلي، فنغلب على الحائط. فأرسل إليه أبو مسلم أن لست آمَن أن يجتمع يدك ويد نصر على محاربتي؛ ولكن ادخل أنت فانشب الحرب بينك وبينه وبين أصحابه؛ فدخل عليّ بن الكرمانيّ فأنشب الحرب، وبعث أبو مسلم أبا عليّ شبل بن طهمان النقيب في جُند، فدخلوا الحائط، فنزل في قصر بخاراخذاه؛ فبعثوا إلى أبي مسلم أن ادخل، فدخل أبو مسلم من خندق الماخُوان، وعلى مقدّمته أسيد بن عبدالله الخزاعيّ، وعلى ميمنته مالك بن الهيثم الخزاعيّ، وعلى ميسرته القاسم بن مجاشع التميميّ؛ حتى دخل الحائط؛ والفريقان يقتتلان. فأمرهما بالكفّ وهو يتلو من كتاب الله: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فوَجد فيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذا مِنْ عَدُوِّهِ﴾[1]. ومضى أبو مسلم حتى نزل قصر الإمارة بمَرْو الذي كان ينزله عمال خُراسان؛ وكان ذلك لتسع خلَوْن من جُمادى الأولَى سنة ثلاثين ومائة، يوم الخميس.

وهرب نصر بن سيّار عن مَرْو الغد من يوم الجمعة لعشرٍ خلَوْن من جُمادى الأولى من سنة ثلاثين ومائة، وصفت مَرْو لأبي مسلم. فلما دخل أبو مسلم حائط مَرْو أمر أبا منصور طلحة بن رُزيق بأخذ البيعة على الجند من الهاشميّة خاصّة ـ وكان أبو منصور رجلاً فصيحاً نبيلاً مفوّهاً عالماً بحجج الهاشمية وغوامض أمورهم؛ وهو أحد النقباء الاثني عشر؛ والنقباء الاثنا عشر هم الذين اختارهم محمد بن عليّ من السبعين الذين كانوا استجابوا له حين بعث رسوله إلى خراسان سنة ثلاث ومائة أو أربع ومائة ـ وأمره أن يدعو إلى الرّضا، ولا يسمي أحداً، ومثّل له مثالاً ووصف من العدل صفة، فقدمها فدعا سرّا، فأجابه ناس، فلما صاروا سبعين أخذ منهم اثني عشر نقيباً. منهم من خُزاعة سليمان بن كَثير ومالك بن الهيثم وزياد بن صالح وطلحة بن رُزيق وعمرو بن أعين، ومن طيّىء قحطبة ـ واسمه زياد بن شبيب بن خالد بن مَعْدان ـ ومن تميم موسى بن كعب أبو عيينة ولاهز بن قريظ والقاسم بن مجاشع، كلُّهم من بني امرىء القيس، وأسلم بن سلام أبو سلام؛ ومن بكر بن وائل أبو داود خالد بن إبراهيم من بني عمرو بن شيبان أخي سدُوس وأبو عليّ الهرويّ.

ويقال: شبل بن طهمان مكان عمرو بن أعين. وعيسى بن كعب وأبو النجم عمران بن إسماعيل مكان أبي عليّ الهَرويّ، وهو ختَن أبي مسلم.

ولم يكن في النقباء أحد والده حيّ غير أبي منصور طلحة بن زريق بن أسعد؛ وهو أبو زينب الخزاعيّ،

---

(١) سورة القصص ١٥.

وقد كان شهد حرب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وصحب المهلب بن أبي صفرة وغزا معه؛ فكان أبو مسلم يشاوره في الأمور، ويسأله عمّا شهد من الحروب والمغازي، ويسأله عن الكنية بأبي منصور: يا أبا منصور، ما تقول؟ وما رأيك؟

قال أبو الخطاب: فأخبرنا من شهد أبا منصور يأخذ البيعة على الهاشميّة: أبايعكم على كتاب الله عزّ وجلّ وسنة نبيه ﷺ والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله ﷺ؛ عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، والطلاق والعَتاق، والمشي إلى بيت الله، وعلى ألاّ تسألوا رزقاً ولا طمعاً حتى يبدأكم به ولاتكم؛ وإن كان عدوّ أحدكم تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولاتكم. فلما حبس أبو مسلم سَلْم بن أحْوز ويونس بن عبد ربه، وعقيل بن معقل ومنصور بن أبي الخرقاء وأصحابه، شاور أبا منصور، فقال: اجعل سوطك السيف، وسجنك القبر؛ فأقدمهم أبو مسلم فقتلهم، وكانت عدّتهم أربعة وعشرين رجلاً.

وأما عليّ بن محمد، فإنه ذكر أن الصباح مولى جبريل، أخبره عن مسلمة بن يحيى، أن أبا مسلم جعل على حَرسه خالد بن عثمان، وعلى شُرَطه مالك بن الهيثم، وعلى القضاء القاسم بن مجاشع، وعلى الديوان كامل بن مظفر، فرزق كلَّ رجل أربعة آلاف، وأنه أقام في عسكره بالماخُوان ثلاثة أشهر، ثم سار من الماخُوان ليلاً في جمع كبير يريد عسكر ابن الكرْمانيّ؛ وعلى ميمنته لاهز بن قريظ، وعلى ميسرته القاسم بن مجاشع، وعلى مقدّمته أبو نصر مالك بن الهيثم. وخلّف على خندقه أبا عبد الرحمن الماخُوانيّ، فأصبح في عسكر شيبان؛ فخاف نصر أن يجتمع أبو مسلم وابن الكرمانيّ على قتاله؛ فأرسل إلى أبي مسلم يعرض عليه أن يدخل مدينة مَرْو ويوادعه، فأجابه، فوادع أبا مسلم نصر، فراسل نصر بن أحوز يومَه ذلك كله، وأبو مسلم في عسكر شيبان، فأصبح نصر وابن الكرمانيّ، فغدوا إلى القتال، وأقبل أبو مسلم ليدخل مدينة مَرْو، فردّ خيل نصر وخيل ابن الكرمانيّ، ودخل المدينة لسبع ـ أو لتسع ـ خلوْن من شهر ربيع الآخر سنة ثلاثين ومائة، وهو يتلو: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانَ هَذا مِنْ شيعته. . .﴾[1] إلى آخر الآية.

قال عليّ: وأخبرنا أبو الذيّال والمفضل الضبيّ، قالا: لما دخل أبو مسلم مدينة مَرْو، قال نصر لأصحابه: أرى هذا الرجل قد قوِيَ أمره، وقد سارع إليه الناس، وقد وادعتُه وسيتمّ له ما يريد؛ فاخرجوا بنا عن هذه البلدة وخلُّوه، فاختلفوا عليه، فقال بعضهم: نعم، وقال بعضهم: لا، فقال: أما إنكم ستذكرون قولي. وقال لخاصته من مضر: انطلقوا إلى أبي مسلم فالقوْه، وخذوا بحظّكم منه، وأرسل أبو مسلم إلى نَصْر لاهز بن قريظ يدعوه فقال لاهز: ﴿إن الملأ يأتمرُونَ بَكَ ليقتُلوك﴾[2]، وقرأ قبلها آيات، ففطن نصر، فقال لغلامه: ضع لي وضوءاً؛ فقام كأنه يريد الوضوء، فدخل بستاناً وخرج منه، فركب وهرب.

قال عليّ: وأخبرنا أبو الذيّال، قال: أخبرني إياس بن طلحة بن طلحة قال: كنت مع أبي وقد ذهب عمّي إلى أبي مسلم يبايعه؛ فأبطأ حتى صلَّيتُ العصر والنهار قصير؛ فنحن ننتظره؛ وقد هيَّأنا له الغداء؛ فإني لقاعد مع أبي إذ مرّ نصر على بِرْذَون؛ لا أعلم في داره بِرْذَوناً أسرى منه، ومعه حاجبه والحكم بن نُميلة النميريّ. قال أبي: إنه لهارب ليس معه أحد، وليس بين يديه حرْبة ولا راية، فمرّ بنا، فسلم تسليماً خفيًّا، فلما جازنا

(١) سورة القصص ١٥.
(٢) سورة القصص ٢٠.

ضَرَب بِرْذَوْنه، ونادى الحكم بن نميلة غلمَانه، فركبوا واتبعوه.

قال عليّ: قال أبو الذيّال: قال إياس: كان بين منزلنا وبين مرو أربعة فراسخ، فمرّ بنا نصر بعد العتَمة، فضجّ أهل القرية وهربوا، فقال لي أهلي وإخواني: اخرج لا تُقْتَل؛ وبكوْا؛ فخرجت أنا وعمّي المهلب بن إياس فلحقْنا نصراً بعد هدء الليل؛ وهو في أربعين، قد قام برذونه، فنزل عنه، فحمله بشر بن بِسْطام بن عمران بن الفضل البُرْجميّ على بِرْذَوْنه، فقال نصر: إني لا آمن الطَّلَب، فمن يسوق بنا؟ قال عبدالله بن عرعرة الضّبيّ: أنا أسوق بكم، قال: أنت لها، فطرد بنا ليلتَه حتى أصبحنا في بئر في المفازة على عشرين فرسخاً أو أقل، ونحن ستمائة؛ فسرْنا يومَنا فنزلنا العصر، ونحن ننظر إلى أبيات سَرَخْس وقصورها ونحن ألف وخمسمائة، فانطلقت أنا وعمّي إلى صديق لنا من بني حَنيفة يقال له مسكين، فبتْنا نحن عنده لم نطعم شيئاً، فأصبحنا، فجاءنا بثَريدة فأكلْنا منها ونحن جياع لم نأكل يومنا وليلتنا؛ واجتمع الناس فصاروا ثلاثة آلاف، وأقمنا بسَرَخْس يومين؛ فلمّا لم يأتنا أحد صار نصر إلى طُوس، فأخبرهم خبر أبي مسلم، وأقام خمسة عشر يوماً، ثم سار وسرنا إلى نيسابور فأقام بها، ونزل أبو مسلم حين هرب نصر دار الإمارة، وأقبل ابنُ الكرْمانيّ، فدخل مَرْو مع أبي مسلم، فقال أبو مسلم حين هرب نصر: يزعم نصرٌ أني ساحر؛ هو والله ساحر!

وقال غير من ذكرت قوله في أمر نصر وابن الكرْمانيّ وشيبان الحروريّ: انتهى أبو مسلم في سنة ثلاثين ومائة من معسكره بقرية سليمان بن كثير إلى قرية تدعى الماخُوان فنزلها، وأجمع على الاستظهار بعليّ بن جُديع ومَن معه من اليمن، وعلى دعاء نَصْر بن سيار ومَن معه إلى معاونته، فأرسل إلى الفريقين جميعاً، وعرض على كلّ فريق منهم المسالمة واجتماع الكلمة والدخول في الطاعة، فقبِل ذلك عليّ بن جُديع، وتابعه على رأيه، فعاقده عليه، فلما وثق أبو مسلم بمبايعة عليّ بن جُديع إياه، كتب إلى نصر بن سيّار أن يبعث إليه وفداً يحضرون مقالته ومقالة أصحابه فيما كان وعده أن يميل معه، وأرسل إلى عليّ بمثل ما أرسل به إلى نَصْر.

ثم وصف من خبر اختيار قوّاد الشيعة اليمانيَة على المضريّة نحواً مما وصف مَن قد ذكرنا الرواية عنه قبلُ في كتابنا هذا، وذكر أنّ أبا مسلم إذْ وجّه شبل بن طهمان فيمن وجّهه إلى مدينة مَرْو وأنزله قصر بخاراخذاه؛ إنما وجهه مدداً لعليّ بن الكرمانيّ.

قال: وسار أبو مسلم من خَنْدقه بالماخُوان بجميع مَن معه إلى عليّ بن جُديع، ومع عليّ عثمان وأخوه وأشراف اليمن معهم وحلفاؤهم من ربيعة، فلما حاذى أبو مسلم مدينة مَرْو استقبله عثمان بن جُديع في خيل عظيمة، ومعه أشراف اليمن ومن معه من رَبيعة؛ حتى دخل عسكر عليّ بن الكرمانيّ وشيبان بن سلمة الحروريّ ومَن معه من النقباء، ووقف على حجرة عليّ بن جُدَيع، فدخل عليه وأعطاه الرضا، وآمنه على نفسه وأصحابه، وخرجا إلى حجرة شيبان، وهو يسلِّم عليه يومئذ بالخلافة، فأمر أبو مسلم عليًّا بالجلوس إلى جنب شَيْبان، وأعلمه أنه لا يحلّ له التسليم عليه. وأراد أبو مسلم أن يُسلِّم على عليّ بالإمْرة، فيظنّ شيبان أنه يسلم عليه. ففعل ذلك عليّ، ودخل عليه أبو مسلم، فسلّم عليه بالإمارة، وألطف لشيبان وعظمه، ثم خرج من عنده فنزل قصر محمد بن الحسن الأزديّ، فأقام به ليلتيْن، ثم انصرف إلى خندقه بالماخُوان، فأقام به ثلاثة أشهر، ثم ارتحل من خَنْدقه بالماخُوان إلى مَرْو لسبع خلوْن من ربيع الآخر؛ وخلّف على جنده أبا عبد الكريم الماخُوانيّ، وجعل أبو مسلم على ميمنته لاهز بن قريظ، وعلى ميسرته القاسم بن مجاشع، وعلى مقدّمته مالك بن

الهيثم، وكان مسيره ليلاً، فأصبح على باب مدينة مَرْو، وبعث إلى عليّ بن جُديع أن يبعث خيله حتى وقف على باب قصر الإمارة، فوجد الفريقين يقتتلان أشدّ القتال في حائط مَرْو، فأرسل إلى الفريقين أن كُفّوا، وليتفرّقْ كلّ قوم إلى معسكرهم، ففعلوا. وأرسل أبو مسلم لاهز بن قريظ وقريش بن شقيق وعبدالله بن البَختريّ، وداود بن كرّاز إلى نصر يدعوه إلى كتاب الله والطاعة للرّضا من آل محمد ﷺ.

فلما رأى نصر ما جاءه من اليمانية والرَّبَعية والعجم، وأنه لا طاقة له بهم؛ ولا بد إن أظهر قبول ما بعث به إليه أن يأتيه فيبايعه، وجعل يرثيهم لما همّ به من الغدر والهرب إلى أن أمسى، فأمر أصحابه أن يخرجوا من ليلتهم إلى ما يأمنون فيه؛ فما تيسّر لأصحاب نصر الخروج في تلك الليلة. وقال له سَلْم بن أحوز: إنه لا يتيسّر لنا الخروج الليلة؛ ولكنا نخرج القابلة، فلما كان صبح تلك الليلة عبأ أبو مسلم كتائبه، فلم يزل في تعبيتها إلى بعد الظهر، وأرسل إلى نصر لاهز بن قريظ وقريش بن شقيق وعبدالله بن البَختريّ وداود بن كرّاز وعدّة من أعاجم الشيعة، فدخلوا على نصر، فقال لهم: لِشرٍّ ما عدتم، فقال له لاهز: لا بدّ لك من ذلك؛ فقال نصر: أما إذا كان لا بدّ منه؛ فإني أتوضأ وأخرج إليه، وأرسل إلى أبي مسلم؛ فإن كان هذا رأيه وأمره أتيتُه ونعمّى لعينه، وأتهيأ إلى أن يجيء رسولي، وقام نصر، فلما قام قرأ لاهز هذه الآية: ﴿إنَّ المَلأ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فاخْرُجْ إني لَكَ من النَّاصحين﴾[1]، فدخل نصر منزله، وأعلمهم أنه ينتظر انصرافَ رسوله من عند أبي مسلم، فلما جنّه الليل، خرج من خَلْف حجرته، ومعه تميم ابنه والحكم بن نُميلة النميريّ وحاجبه وامرأته؛ فانطلقوا هُرّاباً، فلما استبطأه لاهز وأصحابه دخلوا منزلَه، فوجدوه قد هرب؛ فلما بلغ ذلك أبا مسلم سار إلى معسكر نصر، وأخذ ثقات أصحابه وصناديدهم.فكتّفهم؛ وكان فيهم سَلْم بن أحوز صاحب شرْطة نصر والبختريّ كاتبه، وابنان له ويونس بن عبد ربّه ومحمد بن قطَن ومجاهد بن يحيى بن حُضين والنضر بن إدريس ومنصور بن عمر بن أبي الخرقاء وعقيل بن معقل الليثيّ، وسيار بن عمر السلميّ، مع رجال من رؤساء مُضَر فاستوثق منهم بالحديد، ووكل بهم عيسى بن أعين، وكانوا في الحبس عنده حتى أمر بقتلهم جميعاً، ونزل نصر سَرخَسْ فيمن اتّبعه من المضريّة، وكانوا ثلاثة آلاف، ومضى أبو مسلم وعليّ بن جُديع في طلبه، فطلباه ليلتَهما حتى أصبحا في قرية تدعى نصرانيّة؛ فوجدا نصرا قد خلف امرأته المَرْزُبَانة فيها، ونجا بنفسه.

ورجع أبو مسلم وعليّ بن جُديع إلى مَرْو، فقال أبو مسلم لمن كان وجّه إلى نصر: ما الذي ارتاب به منكم؟ قالوا: لا ندري، قال: فهل تكلم أحد منكم؟ قالوا: لاهز تلا هذه الآية: ﴿إنَّ المَلأ يَأْتَمِرونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾[1] قال: هذا الذي دعاه إلى الهرب، ثم قال: يا لاهز؛ أتدغل في الدين! فضرب عنقه.

وفي هذه السنة قتِل شيبان بن سلَمة الحروريّ.

ذكر الخبر عن مقتله وسببه:

وكان سبب مقتله ـ فيما ذكر ـ أنّ عليّ بن جُديع وشيبان كانا مجتمعين على قتال نصر بن سيار لمخالفة شيبان نصرا؛ لأنه من عمال مَرْوان بن محمد، وأنّ شيبان يرى رأي الخوارج ومخالفة عليّ بن جُديع نصراً، لأنه يمانٍ ونصر مضريّ، وأن نصراً قتل أباه وصلبه، ولمّا بَيْنَ الفريقين من العصبية التي كانت بين اليمانية والمُضريّة؛

---

(١) سورة القصص ٢٠.

فلما صالح عليّ بن الكرمانيّ أبا مسلم، وفارق شيبان، تنحّى شيبان عن مَرْو، إذ علم أنه لا طاقة له بحرْب أبي مسلم وعليّ بن جُدَيع [مع اجتماعهما على] خلافه، وقد هرب نصر من مَرْو [وسار إلى سرخس].

فذكر عليّ بن محمد أن أبا حفص أخبره والحسن بن رشيد وأبا الذيال أن المدة التي كانت بين أبي مسلم وبين شيبان لما انقضت، أرسل أبو مسلم إلى شيبان يدعوه إلى البَيْعة، فقال شيبان: أنا أدعوك إلى بيعتي؛ فأرسل إليه أبو مسلم: إن لم تدخل في أمرنا فارتحلْ عن منزلك الذي أنت فيه، فأرسل شيبان إلى ابن الكَرمانيّ يستنصره، فأبى. فسار شيبان إلى سَرَخْس، واجتمع إليه جمع كثير من بَكْر بن وائل. فبعث إليه أبو مسلم تسعةً من الأزْد، فيهم المنتجع بن الزُّبير؛ يدعوه ويسأله أن يكفّ، فأرسل شيبان، فأخذ رسل أبي مسلم فسجنَهم، فكتب أبو مسلم إلى بسام بن إبراهيم مولى بني ليث بأبيوَرْد، يأمره أن يسير إلى شيبان فيقاتله. ففعل، فهزمه بسّام، واتبعه حتى دخل المدينة، فقتِل شيبان وعدّة من بكر بن وائل، فقيل لأبي مسلم: إنّ بساماً ثائر بأبيه؛ وهو يقتل البريء والسقيم، فكتب إليه أبو مسلم يأمره بالقدوم عليه، فقدم، واستخلف على عسكره رجلاً.

قال عليّ: أخبرنا المفضل، قال: لما قتِل شيبان مرّ رجل من بكر بن وائل - يقال له خَفَاف - برسل أبي مسلم الذين كان أرسلهم إلى شيبان، وهم في بيت، فأخرجهم وقتلهم.

وقيل: إن أبا مسلم وجّه إلى شيبان عسكراً من قِبَله، عليهم خزيمة بن خازم وبسام بن إبراهيم.

وفي هذه السنة قتَل أبو مسلم علياً وعثمان ابني جُديع الكِرمانيّ.

ذكر سبب قتل أبي مسلم إياهما:

وكان السبب في ذلك - فيما قيل - أن أبا مسلم كان وجّه موسى بن كعب إلى أبيْوَرد فافتتحها، وكتب إلى أبي مسلم بذلك، ووجّه أبا داود إلى بَلْخ وبها زياد بن عبدالرحمن القُشيريّ، فلما بلغه قَصْد أبي داود بلخ خرج في أهل بلْخ والترمذ وغيرهما من كُور طخارستان إلى الجُوزجان، فلما دنا أبو داود منهم، انصرفوا منهزمين إلى التِّرمذ، ودخل أبو داود مدينة بلْخ، فكتب إليه أبو مسلم يأمره بالقدوم عليه، ووجّه مكانه يحيى بن نعيم أبا الميلاء على بلخ، فخرج أبو داود، فلقيه كتاب من أبي مسلم يأمره بالانصراف، فانصرف، وقدم عليه أبو الميلاء؛ فكاتب زيادَ بن عبد الرحمن يحيى بن نعيم ابو الميلاء أن يصير أيديهم واحدة، فأجابه، فرجع زياد بن عبد الرحمن القشيريّ ومسلم بن عبد الرحمن بن مسلم الباهليّ وعيسى بن زُرْعة السُّلميّ وأهل بلْخ والترمذ وملوك طخارستان؛ وما خلْف النهر وما دونه، فنزل زياد وأصحابه على فرسخ من مدينة بلْخ، وخرج إليه يحيى بن نعيم بمَن معه حتى اجتمعوا، فصارت كلمتهم واحدة، مضريّهم ويمانيهم وربَعِيُّهم ومَن معهم من الأعاجم على قتال المسوّدة، وجعلوا الولاية عليهم لمقاتل بن حيّان النبَطيّ؛ كراهة أن يكون من الفرق الثلاثة، وأمر أبو مسلم أبا داود بالعود، فأقبل أبو داود بمَن معه حتى اجتمعوا على نهر السَّرَجنان. وكان زياد بن عبد الرحمن وأصحابه قد وجّهوا أبا سعيد القرشيّ مسلحةً فيما بين العود وبين قرية يقال لها أمديان؛ لئلا يأتيَهم أصحاب أبي داود مِن خلفهم. وكانت أعلام أبي سعيد وراياته سوداً، فلما اجتمع أبو داود وزياد وأصحابهما، واصطفوا للقتال، أمر أبو سعيد القرشيُّ أصحابَه أن يأتوا زياداً وأصحابه مِنْ خلفهم، فرجع وخرج عليهم من سكة العود وراياته سود، فظنّ أصحاب زياد أنهم كَمِين لأبي داود، وقد نشب القتال بين الفريقين، فانهزم زياد

ومَن معه، وتبعهم أبو داود، فوقع عامة أصحاب زياد في نهر السرجنان، وقتل عامة رجالهم المتخلّفين، ونزل أبو داود عسكرهم، وحوَى ما فيه، ولم يتبع زيادا ولا أصحابه وأكثر من تبعهم سَرعان من سرَعان خيل أبي داود إلى مدينة بلخ لم يجاوزها ومضى زياد ويحيى ومن معهما إلى الترمذ، وأقام أبو داود يومه ذلك ومن الغد، ولم يدخل مدينة بلخ واستصفى أموال من قتِل بالسرجنان ومن هرب من العرب وغيرهم، واستقامت بلْخ لأبي داود.

ثم كتب إليه أبو مسلم يأمره بالقُدوم عليه، ووجّه النضْر بن صُبيح المُرّيّ على بلخ. وقدم أبو داود، واجتمع رأي أبي داود وأبي مسلم على أن يفرّقا بين عليّ وعثمان ابني الكرمانيّ، فبعث أبو مسلم عثمان عاملاً على بلْخ، فلما قدمها استخلف الفُرافصة بن ظُهير العبسيّ على مدينة بلْخ، وأقبلت المضريّة من تِرْمذ، عليهم مسلم بن عبد الرحمن الباهليّ، فالتقوا وأصحاب عثمان بن جُديع بقرية بين البَرُوقان وبين الدَّسْتَجرد؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم أصحاب عثمان بن جُديع، وغلب المضريّة ومسلم بن عبد الرحمن على مدينة بلْخ، وأخرجوا الفُرافصة منها. وبلغ عثمان بن جُديع الخبر والنّضر بن صُبيح، وهما بمروْ الروّذ، فأقبلا نحوهم، وبلغ أصحاب زياد بن عبد الرحمن فهربوا من تحت ليلتهم، وعتّب النضر في طلبهم، رجاء أن يفوتوا، ولقيهم أصحاب عثمان بن جُديع، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم أصحاب عثمان بن جُديع، وأكثروا فيهم القتل، ومضت المضريّة إلى أصحابها، ورجع أبو داود من مَرْو إلى بلخ، وسار أبو مسلم ومعه عليّ بن جُديع إلى نيسابور. واتّفق رأي أبي مسلم ورأي أبي داود على أن يقتل أبو مسلم عليًّا، ويقتل أبو داود عثمان في يوم واحد. فلما قدم أبو داود بلخ بعث عثمان عاملاً على الخُتل فيمن معه من يماني أهل مَرْو وأهل بلْخ وربعَيّهم. فلما خرج من بلخ خرج أبو داود فاتبع الأثر فلحق عثمان على شاطىء نهر بوخش من أرض الخُتّل، فوثب أبو داود على عثمان وأصحابه، فحبسهم جميعاً ثم ضرب أعناقهم صَبْراً. وقتل أبو مسلم في ذلك اليوم عليّ بن الكرمانيّ، وقد كان أبو مسلم أمره أن يسمّي له خاصته ليوليَهم، ويأمر لهم بجوائز وكُساً، فسماهم له فقتلهم جميعاً.

وفي هذه السنة قدم قحطبة بن شبيب على أبي مسلم خراسان منصرفاً من عند إبراهيم بن محمد بن عليّ، ومعه لواؤه الذي عَقد له إبراهيم، فوجّهه أبو مسلم حين قدِم عليه على مقدّمته، وضمّ إليه الجيوش، وجعل له العزلَ والاستعمال، وكتب إلى الجنود بالسَّمْع والطاعة.

وفيها وجّه قحطبة إلى نيسابور للقاء نصر؛ فذكر عليّ بن محمد أن أبا الذيّال والحسن بن رشيد وأبا الحسن الجُشَميّ أخبروه أنّ شيبان بن سلمة الحَرُوريّ لما قتِل لحق أصحابه بنصر وهو بنيسابور، وكتب إليه النابي بن سويد العجليّ يستغيث، فوجّه إليه نصر ابنَه تميم بن نصر في ألفيْن، وتهيأ نصر على أن يسير إلى طُوس، ووجّه أبو مسلم قحطبة بن شبيب في قُوّاد، منهم القاسم بن مجاشع وجَهْور بن مرّار؛ فأخذ القاسم من قِبَل سرخس، وأخذ جهور من قِبَل أبيورد، فوجّه تميم عاصم بن عمير السغديّ إلى جهْور؛ وكان أدناهم منه، فهزمه عاصم بن عمير، فتحصّن في كبادقان، وأطلّ قحطبة والقاسم على النابي، فأرسل تميم إلى عاصم أن ارحل عن جهور وأقبل؛ فتركه، وأقبل فقاتلهم قحطبة.

قال أبو جعفر: فأما غيرُ الّذين روى عنهم عليّ بن محمد ما ذكرنا في أمر قَحْطبة وتوجيه أبي مسلم إياه إلى نصر وأصحابه، فإنه ذكر أن أبا مسلم لما قتل شيبان الخارجيّ وابني الكِرمانيّ، ونفى نصراً عن مروْ، وغلب على

خُراسان، وجّه عماله على بلادها، فاستعمل سباع بن النعمان الأزديّ على سَمَرْقند وأبا داود خالد بن إبراهيم على طخارستان، ووجَّه محمد بن الأشعث إلى الطَّبَسينْ وفارس، وجعل مالك بن الهيثم على شُرْطته، ووجّه قحطبة إلى طُوس، ومعه عدّة من القوّاد؛ منهم أبو عون عبد الملك بن يزيد ومقاتل بن حكيم العكيّ وخالد بن بَرْمك وخازم بن خزيمة والمنذر بن عبد الرحمن وعثمان بن نَهيك وجَهْور بن مَرّار العجليّ وأبو العباس الطوسيّ وعبدالله بن عثمان الطائيّ وسلَمة بن محمد وأبو غانم عبد الحميد بن رِبعيّ وأبو حُميد وأبو الجهم - وجعله أبو مسلم كاتباً لقحطبة على الجند - وعامر بن إسماعيل ومحرز بن إبراهيم، في عدّة من القوّاد، فلقي مَنْ بطوس فانهزموا، وكان من مات منهم في الزحام أكثر ممن قُتِل؛ فبلغ عدّة القتلى يومئذ بضعة عشر ألفاً. ووجه أبو مسلم القاسم بن مجاشع إلى نيْسابور على طريق المحجة؛ وكتب إلى قحْطبة يأمره بقتال تميم بن نصر بن سيّار والنابي بن سويد، ومَنْ لجأ إليهما من أهل خُراسان، وأن يصرف إليه موسى بن كعب إلى من أبيوَرْد. فلما قدم قحطبة أبيورد صرف موسى بن كعب إلى أبي مسلم، وكتب إلى مقاتل بن حكيم يأمره أن يوجّه رجلاً إلى نيسابور، ويصرف منها القاسم بن مجاشع؛ فوجّه أبو مسلم عليّ بن معقِل في عشرة آلاف إلى تميم بن نصر، وأمره إذا دخل قحطبة طوس أن يستقبله وينضمّ إليه؛ فسار عليّ بن معقل حتى نزل قرية يقال لها حُلوان، وبلغ قَحْطبة مسير عليّ ونزوله حيث نزل، فعجل السير إلى السوذقان، وهو معسكر تميم بن نصر والنابي بن سويد، ووجّه على مقدمته أسيد بن عبدالله الخزاعيّ في ثلاثة آلاف رجل من شيعة أهل نسا وأبيورد، فسار حتى نزل قرية يقال لها حبوسان، فتعبّأ تميم والنابي لقتاله، فكتب أسِيد إلى قحطبة يعلمه ما أجمعوا عليه من قتاله، وأنه إن لم يعجل القدوم عليه حاكمهم إلى الله عز وجل، وأخبره أنهما في ثلاثين ألفاً من صناديد أهل خُراسان وفرسانهم. فوجّه قحطبة مقاتل بن حكيم العكيّ في ألف وخالد بن برمك في ألف، فقدما على أسيد؛ وبلغ ذلك تميماً والنابي فكسرهما. ثم قدم عليهم قحطبة بمن معه، وتعبّأ لقتال تميم، وجعل علي ميمنته مقاتل بن حكيم وأبا عون عبد الملك بن يزيد وخالد بن برمك، وعلى ميسرته أسيد بن عبدالله الخُزاعيّ والحسن بن قحطبة والمسيّب بن زهير وعبد الجبار بن عبد الرحمن، وصار هو في القلب، ثم زحف إليهم، فدعاهم إلى كتاب الله عزّ وجلّ وسنة نبيه ﷺ، وإلى الرضا من آل محمد ﷺ فلم يجيبوه، فأمر الميمنة والميسرة أن يحملوا، فاقتتلوا قتالاً شديداً أشدّ ما يكون من القتال، فقتِل تميم بن نصر في المعركة، وقتِل معه منهم مقتلة عظيمة، واستبيح عسكرهم، وأفلت النابي في عدّة، فتحصّنوا في المدينة، وأحاطت بهم الجنود، فنقبوا الحائط ودخلوا إلى المدينة، فقتلوا النابي ومنْ كان معه، وهرب عاصم بن عمير السمرقنديّ وسالم بن راوية السعيديّ إلى نصر بن سيّار بنيسابور، فأخبراه بمقتل تميم والنابي ومَن كان معهما؛ فلما غلب قحطبة على عسكرهم بما فيه صيّر إلى خالد بن بَرْمك قبض ذلك، ووجّه مقاتل بن حكيم العكيّ على مقدمته إلى نيسابور؛ فبلغ ذلك نصر بن سيار؛ فارتحل هارباً في أثر أهل أبْرَشهر حتى نزل قُومِس وتفرّق عنه أصحابه، فسار إلى نُباتة بن حنظلة بجرجان، وقدم قحطبة نيسابور بجنوده.

وفي هذه السنة قُتل نباتة بن حنظلة عامل يزيد بن عمر بن هُبيرة على جُرجان.

ذكر الخبر عن مقتله:

ذكر عليّ بن محمد أنّ زهير بن هُنيد وأبا الحسن الجُشميّ وجبلة بن فَرّوخ وأبا عبد الرحمن الأصبهاني

أخبروه أن يزيد بن عمر بن هبيرة بعث نباتة بن حنظلة الكلابيّ إلى نصر، فأتى فارس وأصبهان، ثم سار إلى الريّ، ومضى إلى جُرجان، ولم ينضم إلى نصر بن سيار، فقالت القيسيّة لنصر: لا تحملنا قومس، فتحوّلوا إلى جُرجان. وخندق نباتة؛ فكان إذا وقع الخندق في دار قوم رشّوه فأخرّه، فكان خندقه نحواً من فرسخ.

وأقبل قحطبة إلى جرجان في ذي القعدة من سنة ثلاثين ومائة، ومعه أسِيد بن عبد الله الخزاعيّ وخالد بن بَرْمك وأبو عون عبد الملك بن يزيد وموسى بن كعب المَرائيّ والمسيّب بن زهير وعبد الجبار بن عبد الرحمن الأزديّ، وعلى ميمنته موسى بن كعب، وعلى ميسرته أسِيد بن عبد الله، وعلى مقدّمته الحسن بن قحطبة، فقال قحطبة: يا أهلَ خُراسان، أتدرون إلى من تسيرون، ومن تقاتلون؟ إنما تقاتلون بقيّة قوم أحْرقوا بيت الله عزّ وجلّ. وأقبل الحسن حتى نزل تُخوم خُراسان، ووجّه الحسن عثمان بن رُفيع ونافعاً المروزيّ وأبا خالد المروزيّ ومَسعدة الطائيّ إلى مسلحة نُباتة، وعليها رجل يقال له ذُؤيب، فبيّتوه، فقتلوا ذؤيباً وسبعين رجلاً من أصحابه، ثم رجعوا إلى عسكر الحسن، وقدم قحطبة فنزلوا بإزاء نباتة وأهل الشأم في عدّة لم يرَ الناس مثلها. فلما رآهم أهل خُراسان هابوهم حتى تكلّموا بذلك وأظهروه وبلغ قحطبة، فقام فيهم خطيباً فقال:

يا أهلَ خراسان؛ هذه البلاد كانت لآبائكم الأولين، وكانوا يُنصرون على عدّوهم بعدلهم وحسن سيرتهم؛ حتى بَدّلوا وظلموا، فسخِط الله عزّ وجلّ عليهم، فانتزع سلطانَهم، وسلط عليهم أذلّ أمة كانت في الأرض عندهم، فغلبوهم على بلادهم، واستنكحوا نساءهم، واسترقّوا أولادهم؛ فكانوا بذلك يحْمُون بالعدل ويوفون بالعهد، وينصرون المظلوم، ثم بدّلوا وغيّروا وجاروا في الحكم، وأخافوا أهلَ البرّ والتقوى من عِترة رسول الله ﷺ، فسلّطكم عليهم لينتقم منهم بكم لتكونوا أشدّ عقوبة؛ لأنكم طلبتموهم بالثأر. وقد عهد إليّ الإمام أنكم تلقوْنهم في مثل هذه العدّة فينصركم الله عزّ وجلّ عليهم فتهزمونهم وتقتلونهم.

وقد قرىء على قحطبة كتاب أبي مسلم. من أبي مسلم إلى قحطبة: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فناهض عدوّك؛ فإنّ الله عزّ وجلّ ناصرك؛ فإذا ظهرتَ عليهم فأثخن في القتل.

فالتقوْا في مستهلّ ذي الحجة سنة ثلاثين ومائة في يوم الجمعة، فقال قحطبة: يا أهلَ خراسان. إن هذا اليوم قد فضّله الله تبارك وتعالى على سائر الأيام والعمل فيه مضاعف؛ وهذا شهر عظيم فيه عيد من أعظم أعيادكم عند الله عزّ وجلّ، وقد أخبرنا الإمام أنكم تُنصرون في هذا اليوم من هذا الشهر على عدوكم، فالقوْه بجدّ وصبر واحتساب؛ فإنّ الله مع الصابرين. ثم ناهضهم وعلى ميمنته الحسن بن قحطبة، وعلى ميسرته خالد بن بَرْمك ومقاتل بن حكيم العكّيّ، فاقتتلوا وصبَر بعضهم لبعض، فقتِل نباتة، وانهزم أهل الشأم فقتل منهم عشرة آلاف، وبعث قحطبة إلى أبي مسلم برأس نُباتة وابنه حيّة.

قال: وأخبَرنا شيخٌ من بني عديّ، عن أبيه، قال: كان سالم بن راوية التميميّ ممن هرب من أبي مسلم، وخرج مع نصر، ثم صار مع نباتة، فقاتل قَحْطبة بجرجان، فانهزم الناس، وبقِيَ يقاتل وحده، فحمل عليه عبد الله الطائيّ ـ وكان من فُرْسان قحطبة ـ فضربه سالم بن راوية على وجهه، فأندر عينه، وقاتلهم حتى اضطر إلى المسجد، فدخله ودخلوا عليه، فكان لا يشدّ من ناحية إلا كشفهم، فجعل ينادي: شَرْبة! فوالله لأنْقعنّ لهم شرّاً يومي هذا. وحرّقوا عليه سقف المسجد، فرموه بالحجارة حتى قتلوه وجاؤوا برأسه إلى قحطبة، وليس في رأسه ولا وجهه مصحّ؛ فقال قحطبة: ما رأيت مثل هذا قطّ!

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة كانت الوقعة التي كانت بقُديد بين أبي حمزة الخارجيّ وأهل المدينة.

ذكر الخبر عن ذلك:

حدّثني العباس بن عيسى العَقيليّ، قال: حدثنا هارون بن موسى الفَرْويّ، قال حدثني غير واحد من أصحابنا، أنّ عبد الواحد بن سليمان استعمل عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان على الناس، فخرجوا، فلما كان بالحَرّة لقيتهم جُزُر مَنْحورة، فمضوْا، فلما كان بالعقيق تعلق لواؤهم بِسَمُرة، فانكسر الرمح، فتشاءَم الناس بالخروج؛ ثم ساروا حتى نزلوا قُدَيد، فنزلوها ليلا ـ وكانت قرية قديد من ناحية القصر المبنيّ اليوم، وكانت الحياض هنالك، فنزل قوم مغترّون ليسوا بأصحاب حرب، فلم يرعْهم إلا القوم قد خرجوا عليهم من القصر.

وقد زعم بعضُ الناس أن خُزاعة دلت أبا حمزة على عَوْرتهم، وأدخلوهم عليهم فقتلوهم؛ وكانت المقتلة على قريش، هم كانوا أكثر الناس، وبهم كانت الشوكة، وأصيب منهم عدد كثير.

قال العباس: قال هارون: وأخبرني بعضُ أصحابنا أن رجلاً من قريش نظر إلى رجل من أهل اليمن وهو يقول: الحمد لله الذي أقرّ عيني بمقتل قريش، فقال لابنه: يا بنيّ ابدأ به ـ وقد كان من أهل المدينة ـ قال: فدنا منه ابنه فضرب عنقه، ثم قال لابنه: أي بنيّ، تقدم؛ فقاتلا حتى قتِلا. ثم ورد فُلّال الناس المدينة، وبكى الناس قتلاهم؛ فكانت المرأة تقيم على حميمها النّوَاح؛ فما تبرح النساء حتى تأتيهنّ الأخبار عن رجالهنّ فتخرج النساء امرأة امرأة؛ كل امرأة تذهب إلى حميمها فتنصرف حتى ما تبقى عندها امرأة.

قال: وأنشدني أبو ضَمْرة هذه الأبيات في قَتْلَى قُديد الذين أصيبوا من قومه، رثاهم بعض أصحابهم فقال:

يا لَهفَ نَفْسِي ولَهْفي غَيْرَ كاذِبَةٍ ... على فوارِسَ بالبَطْحاءِ أَنجادِ
عَمْرٌو وعَمْرٌو وعَبْدُ اللهِ بَيْنَهُما ... وابناهُما خامِسٌ والحارِثُ السادِي

وفي هذه السنة دخل أبو حمزة الخارجيّ من مدينة رسول الله ﷺ وهرب عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك إلى الشأم.

ذكر الخبر عن دخول أبي حمزة المدينة وما كان منه فيها:

حدثني العباس بن عيسى، قال: حدثنا هارون بن موسى الفَرْويّ، قال: حدّثني موسى بن كَثير، قال: دخل أبو حمزة المدينة سنة ثلاثين ومائة، ومضى عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك إلى الشأم، فرقِيَ المِنْبر، فحمِد الله وأثنى عليه، وقال:

يا أهلَ المدينة؛ سألناكم عن ولاتكم هؤلاء، فأسأتم لعمر الله فيهم القول، وسألناكم: هل يقتلون بالظنّ؟ فقلتم لنا: نعم، وسألناكم: هل يستحلون المال الحرام والفَرْج الحرام؟ فقلتم لنا: نعم، فقلنا لكم: تعالوْا نحن وأنتم نناشدهم الله إلّا تنحُّوا عنا وعنكم، فقلتم: لا يفعلون، فقلنا لكم: تعالوْا نحن وأنتم نقاتلهم؛ فإن نظهر نحن وأنتم نأت بمن يقيم فينا كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ، فقلتم: لا نقوى، فقلنا لكم: فخلُّوا بيننا وبينهم؛ فإن نظفر نعدلْ في أحكامكم ونحملكم على سنة نبيكم ﷺ ونقسم فيئكم بينكم،

فأبيتم، وقاتلتمونا دونهم، فقاتلناكم فأبعدكم الله وأسحقكم.

قال محمد بن عمر: حدّثني حزام بن هشام، قال: كانت الحَرُورية أربعمائة،وعلى طائفة من الحرورية الحارث، وعلى طائفة بكار بن محمد العدويّ؛ عديّ قريش، وعلى طائفة أبو حَمْزة، فالتقوْا وقد تهيّأ الناس بعد الإعذار من الخوارج إليهم، وقالوا لهم: إنا والله ما لنا حاجة بقتالكم، دعونا نمض إلى عدّونا. فأبى أهل المدينة، فالتقوا لسبعٍ ليال خَلَوْن من صَفَر يوم الخميس سنة ثلاثين ومائة، فقتِل أهل المدينة، لم يفلت منهم إلا الشريد، وقتِل أميرهم عبد العزيز بن عبد الله، واتهمت قريش خُزاعة أن يكونوا داهنوا الحروريّة. فقال لي حزام: والله لقد آويتَ رجالاً من قريش منهم حتى آمن الناس؛ فكان بَلْج على مقدّمتهم. وقدمت الحروريّة المدينة لتسع عشرة ليلة خلت من صفر.

حدثني العباس بن عيسى، قال: قال هارون بن موسى: أخبرني بعض أشياخنا، أن أبا حمزة لما دخل المدينة قام فخطب فقال في خطبته:

يا أهلَ المدينة مررتُ بكم في زمن الأحول هشام بن عبد الملك، وقد أصابتكم عاهة في ثماركم وكتبتم إليه تسألونه أن يضع أخراصكم عنكم، فكتب إليكم يضعها عنكم، فزاد الغنيّ غِنىً، وزاد الفقير فقراً، فقلتم: جزاك الله خيراً؛ فلا جزاكم الله خيراً ولا جزاه.

قال العباس: قال هارون: وأخبرني يحيى بن زكرّياء أن أبا حمزة خطب بهذه الخطبة، قال: رقي المنبر فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال:

تعلمون يا أهلَ المدينة أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشَراً ولا بَطراً ولا عبثاً، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ولا لثأر قديم نِيل منا؛ لوكنا لما رأينا مصابيح الحقد قد عُطلتْ، وعنِّف القائل بالحق، وقتِل القائم بالقسط: ضاقت علينا الأرض بما رحبُت، وسمعنا داعيا يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن، فأجبنا داعيَ الله ﴿ وَمَنْ لاَ يُجِبْ داعيَ اللهِ فَلَيْسَ بمعْجزٍ في الأَرضِ ﴾ [1]، أقبلنا من قبائل شتى، النفر منّا على بعير واحد عليه زادهم وأنفسهم، يتعاورون لحافاً واحداً، قليلون مستضعفون في الأرض؛ فآوانا وأيّدنا بنصره، فأصبحنا والله جميعاً بنعمته إخواناً، ثم لقينا رجالكم بقُديد، فدعوْناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن، ودعوْنا إلى طاعة الشيطان وحكْم آل مروان؛ فشتّان لعمر الله ما بين الرّشد والغيّ. ثم أقبلوا يهرعون يزّفون، قد ضرب الشيطان فيهم بجِرانه، وغلتْ بدمائهم مراجله، وصدّق عليهم ظنه، وأقبل أنصار الله عزّ وجلّ عصائب وكتائب، بكل مهنّد ذي رَوْنق، فدارت رحانا واستدارت رحاهم، بضرب يرتاب منه المبطلون. وأنتم يا أهلَ المدينة، إن تنصروا مرْوان وآل مرْوان يُسحتكم الله عزّ وجلّ بعذاب من عنده أو بأيدينا، ويشْفِ صُدور قوم مؤمنين. يا أهلَ المدينة، أوّلكم خيرُ أوّل وآخركم شرّ آخر. يا أهل المدينة، الناس منا ونحن منهم؛ إلا مشركاً عابدَ وثن، أو مشرك أهل الكتاب؛ أو إماماً جائراً. يا أهل المدينة مَنْ زعم أنّ الله عزّ وجلّ كلف نفساً فوق طاقتها، أو سألها ما لم يُؤتِها، فهو لله عزّ وجلّ عدو، ولنا حرب: يا أهل المدينة أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله عزّ وجلّ في كتابه على القويّ والضعيف، فجاء تاسع ليس له مِنها ولا سهم واحد، فأخذها جميعها لنفسه، مكابراً محارباً لربه. يا أهلَ المدينة؛ بلغني أنكم تنتقصون أصحابي؛ قلتم: شباب أحدَاث، وأعراب جُفاة،

(١) سورة الأحقاف: ٣٢.

ويلكم يا أهل المدينة ! وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شباباً أحداثاً ! شباب الله مكتهلون في شبابهم ، غضيّةٌ عن الشرّ أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أقدامهم ، قد باعوا الله عزّ وجلّ أنفسا تموت بأنفس لا تموت ، قد خالطوا كلالهم بكلالِهم ، وقيام ليلهم بصيام نهارهم ، منحنيةٌ أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مروا بآية خوفٍ شهقوا خوفاً من النار ، وإذا مروا بآية شوق شهقوا شوقاً إلى الجنة ، فلما نظروا إلى السيوف قد انتُضِيتْ والرماح قد شرِعت، وإلى السهام قد فُوّقَتْ، وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت، استخفُّوا وعيد الكتيبة لوعيد الله عزّ وجلّ، ولم يستخفُّوا وعيدالله لوعيد الكتيبة، فطوبى لهم وحسن مآب! فكم من عين في منقار طائر طالما فاضت في جوف الليل من خوف الله عزّ وجلّ! وكم من يدٍ زالت عن مفصلها طالما اعتمد بها صاحبها. في سجوده الله، وكم من خدّ عتيق وجبين رقيق فُلِق بعَمد الحديد. رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحها الجنان. أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيرنا، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

حدثني العباس، قال قال هارون: حدّثني جدّيِ أبو علقمة، قال: سمعت أبا حمزة على منبر رسول الله ﷺ، يقول: من زنى فهو كافر ومن شكّ فهو كافر، ومَنْ سرق فهو كافر، ومَنْ شكّ أنه كافر فهو كافر.

قال العباس: قال هارون: وسمعتُ جدّي يقول: كان قد أحسن السيرة في أهل المدينة حتى استمال الناس حين سمعوا كلامه، في قوله: « من زنى فهو كافر ».

قال العباس: قال هارون: وحدّثني بعض أصحابنا: لما رقي المنبر قال: برَح الخفاء، أين ما بك يذهب! مَنْ زنى فهو كافر، ومَنْ سرق فهو كافر. قال العباس: قال هارون: وأنشدني بعضهم في قُدَيد:

ما للزمان وماليَهْ ... أفنتْ قُدَيدُ رجاليَهْ
فَلأبكينَّ سَريرةً ... وَلأبكينّ علانية
ولأبكين إذا شَجيـ ... ـتُ مع الكلابِ العاويَهْ

فكان دخول أبي حمزة وأصحابه المدينة لثلاث عشرة بقيَتْ من صفر.

واختلفوا في قدْر مدتهم في مقامهم بها ، فقال الواقديّ : كان مقامهم بها ثلاثة أشهر ، وقال غيره : أقاموا بها بقيَّة صفر وشهريْ ربيع وطائفة من جُمادى الأولى.

وكانت عِدّة من قُتِل من أهل المدينة بقُديد ـ فيما ذكر الواقديّ ـ سبعمائة.

قال أبو جعفر: وكان أبو حمزة ـ فيما ذكر ـ قد قدّم طائفة من أصحابه، عليهم أبو بكر بن محمد بن عبد الله بن عمر القرشيّ، ثم أحد بني عديّ بن كعب، وبلْج بن عيينة بن الهيصم الأسديّ من أهل البصرة، فبعث مرْوان بن محمد من الشأم عبدَ الملك بن محمد بن عطيَّة أحد بني سعد في خيول الشأم. فحدّثني العباس بن عيسى، قال: حدّثني هارون بن موسى، عن موسى بن كثير، قال: خرج أبو حمزة من المدينة، وخلّف بعضَ أصحابه، فسار حتى نزل الوادي.

قال العباس: قال هارون: حدّثني بعضُ أصحابنا ممن أخبرني عنه أبو يحيى الزُّهريّ، أن مَرْوان انتخب من عسكره أربعة آلاف، واستعمل عليهم ابنَ عطيّة، وأمره بالجدّ في السير، وأعطى كلّ رجل منهم مائة دينار، وفرساً عربيَّة وبغلا لثَقَلِه، وأمره أن يمضيَ فيقاتلهم ؛ فإن هو ظفر مضى حتى بلغ اليمن ويقاتل عبد الله بن يحيى

ومَن معه؛ فخرج حتى نزل بالعُلا ـ وكان رجل من أهل المدينة يقال له العَلاء بن أفلح مولى أبي الغيث، يقول: لقيني وأنا غلام ذلك اليوم رجلٌ من أصحاب ابن عطيّة؛ فسألني: ما اسمك يا غلام؟ قال: فقلت: العلاء، قال: ابن مَن؟ قلت: ابن أفلح، قال: مولى مَن؟ قلت: مولى أبي الغيث، قال: فأين نحن؟ قلت بالعُلا، قال: فأين نحن غداً؟ قلت: بغالب، قال: فما كلّمني حتى أردفني وراءه، ومضى بي حتى أدخلني على ابن عطيّة، فقال: سل هذا الغلام: ما اسمه؟ فسألني فرددت عليه القول الذي قلت، قال: فسرّ بذلك، ووهب لي دراهم.

قال العبّاس: قال هارون: وأخبرني عبد الملك بن الماجشون، قال: لما لقي أبو حمزة وابن عطيّة، قال أبو حمزة: لا تقاتلوهم حتى تخبُروهم، قال: فصاحوا بهم: ما تقولون في القرآن والعمل به؟ قال: فصاح ابنُ عطيّة: نضعه في جوف الجُوالق، قال: فما تقولون في مال اليتيم؟ قال: نأكل مالَه ونفجُر بأمِّه... في أشياء بلغني أنهم سألوهم عنها. قال: فلما سمعوا كلامهم، قاتلوهم حتى أمسْوا، فصاحوا: ويحك يابن عطية! إنّ الله عزّ وجلّ قد جعل الليل سَكناً، فاسكن نسكن. قال: فأبى فقاتلهم حتى قتلهم.

قال العبّاس: قال هارون: وكان أبو حمزة حين خرج ودّع أهل المدينة للخروج إلى مروان يقاتله، قال: يا أهل المدينة، إنا خارجون إلى مَرْوان؛ فإن نظفر نعدلْ في أحكامكم، ونحملكم على سنة نبيكم محمد ﷺ، ونقسم فيئكم بينكم؛ وإن يكن ما تَمنّون؛ فسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون. قال العباس: قال هارون: وأخبرني بعضُ أصحابنا أنّ الناس وثبوا على أصحابه حين جاءهم قتلُه فقتلوهم.

قال محمد بن عمر: سار أبو حَمْزة وأصحابه إلى مَرْوان، فلقيهم خيلُ مرْوان بوادي القرى؛ عليها ابن عطيّة السعديّ، من قيس، فأوقعوا بهم، فرجعوا منهزمين منهم إلى المدينة، لقيهم أهلُ المدينة فقتلوهم، قال: وكان الذي قاد جيش مَرْوان عبد الملك بن محمد بن عطية السعدّي سعد هوازن، قدم المدينة في أربعة آلاف فارس عربيّ؛ مع كلّ واحد منهم بغل، ومنهم مَن عليه درعان أو درْع وسنّور وتَجافيف؛ وعدّة لم ير مثلها في ذلك الزمان، فمضوْا إلى مكة.

وقال بعضهم: أقام ابنُ عطية بالمدينة حين دخلها شهراً، ثم مضى إلى مكة، واستخلف على المدينة الوليد بن عُروة بن محمد بن عطية، ثم مضى إلى مكة وإلى اليمن واستخلف على مكة ابن ماعز؛ رجلاً من أهل الشأم.

ولما مضى ابنُ عطيّة بلغ عبدُ الله بن يحيى ـ وهو بصنعاء ـ مسيرهُ إليه، فأقبل إليه بمن معه فالتقى هو وابن عطية، فقتل ابن عطية عبد الله بن يحيى، وبعث ابنه بشير إلى مروان، ومضى ابن عطية فدخل صنعاء وبعث برأس عبد الله بن يحيى إلى مروان، ثم كتب مروان إلى ابن عطيّة يأمره أن يُغِذّ السير، ويحجّ بالناس، فخرج في نفر من أصحابه ـ فيما حدثني العباس بن عيسى، عن هارون ـ حتى نزل الجُرْف ـ هكذا قال العباس ـ ففطن له بعض أهل القرية، فقالوا: منهزمين والله، فشدّوا عليه، فقال: ويحكم! عامل الحجّ؛ والله كتب إليّ أمير المؤمنين.

قال أبو جعفر: وأماابن عمر، فإنه ذكر أنّ أبا الزبير بن عبد الرحمن حدّثه، قال: خرجتُ مع ابن عطية السعديّ؛ ونحن اثنا عشر رجلاً، بعهد مَرْوان على الحجّ، ومعه أربعون ألف دينار في خُرْجه، حتى نزل الجُرْف

يريد الحجّ، وقد خلّف عسكره وخيله وراءه بصنعاء؛ فوالله إنا آمنون مطمئنون، إذا سمعتُ كلمة من امرأة: قاتَل الله ابنيْ جمانة ما أشأمهما! فقمت كأني أهريق الماء، وأشرفت على نَشز من الأرض؛ فإذا الدُّهْم من الرجال والسلاح والخيل والقذّافات؛ فإذا ابنا جُمانة المراديّان واقفان علينا، قد أحدقوا بنا من كلّ ناحية، فقلنا: ما تريدون؟ قالوا: أنتم لصوص؛ فأخرج ابن عطية كتابه، وقال: هذا كتاب أمير المؤمنين وعهده على الحجّ وأنا ابن عطية، فقالوا: هذا باطل، ولكنكم لصوص؛ فرأينا الشرّ. فركب الصفر بن حبيب فرسه، فقاتل وأحسن حتى قتل؛ ثم ركب ابن عطية فقاتل حتى قُتِل، ثم قتل مَنْ معنا وبقيت، فقالوا: من أنت؟ فقلت: رجل من هَمْدَان، قالوا: من أيّ همدان أنت؟ فاعتزيت إلى بطن منهم ـ وكنت عالماً ببطون هَمْدان ـ فتركوني، وقالوا: أنت آمن؛ وكلّ ما كان لك في هذا الرحل فخذْه، فلو ادّعيتُ المال كله لأعطوْني. ثم بعثوا معي فرساناً حتى بلغوا بي صَعْدة، وأمنتُ ومضيتُ حتى قدمتُ مكة.

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة غزا الصَّائفة ـ فيما ذكر ـ الوليد بن هشام، فنزل العمق وبنى حصن مَرْعش.

وفيها وقع الطاعون بالبصرة.

وفي هذه السنة قَتل قَحْطبة بن شَبيب من أهل جُرجان مَنْ قتل من أهلها؛ قيل إنه قتل منهم زُهاء ثلاثين ألفاً؛ وذلك أنه بلغه ـ فيما ذكر ـ عن أهل جرجان أنه أجمع رأيهم بعد مقتل نباتة بن حنظلة على الخروج على قَحْطبة، فدخل قحطبة لما بلغه ذلك من أمرهم؛ واستعرضهم، فقتل منهم مَنْ ذكرت. ولما بلغ نصرَ بن سيار قتلُ قحطبة نباتةَ ومن قتل من أهل جرجان وهو بقومِس، ارتحل حتى نزل خُوار الرّيّ.

وكان سبب نزول نصر قومس ـ فيما ذكر عليّ بن محمد ـ أن أبا الذيَّال حدّثه والحسن بن رشيد وأبا الحسن الجشميّ؛ أن أبا مسلم كتب مع المنهال بن فتّان إلى زياد بن زرارة القشيريّ بعهده على نيسابور بعدما قتِل تميم بن نصر والنابي بن سويد العجليّ، وكتب إلى قحطبة يأمره أن يتبع نصراً؛ فوجه قحطبة العكّيّ على مقدّمته. وسار قحطبة حتى نزل نيسابور، فأقام بها شهرين؛ شهري رمضان وشوال من سنة ثلاثين ومائة، ونصر نازل في قرية من قرى قُومِس يقال لها بذش، ونزل مَن كان معه من قيس في قرية يقال لها المد؛ وكتب نصر إلى ابن هبيرة يستمدّه وهو بواسط مع ناس من وجوه أهل خراسان؛ يعظّم الأمر عليه، فحبس ابن هبيرة رسلَه، وكتب نَصْر إلى مروان: إني وجّهت إلى ابن هبيرة قوماً من وجوه أهل خُراسان ليعلموه أمرَ الناس من قِبَلنا، وسألته المدد فاحتبس رسلي ولم يمدّني بأحد؛ وإنما أنا بمنزلة من أخرج من بيته إلى حجرته، ثم أخرج من حجرته إلى داره، ثم أخرج من داره إلى فناء داره؛ فإن أدركه مَنْ يعينه فعسى أن يعود إلى داره وتبقى له؛ وإن أخرج من داره إلى الطريق فلا دار له ولا فِناء.

فكتب مرْوان إلى ابن هبيرة يأمره أن يمدّ نصراً، وكتب إلى نصر يعلمه ذلك، فكتب نصر إلى ابن هبيرة مع خالد مولى بني ليث يسأله أن يعجّل إليه الجند، فإنّ أهل خُراسان قد كذبتُهم حتى ما رجل منهم يصدّق لي قولا؛ فأمدّني بعشرة آلاف قبل أن تمدّني بمائة ألف، ثم لا تغني شيئاً.

وحجّ في هذه السنة بالناس محمد بن عبد الملك بن مروان؛ كذلك حدثني أحمد بن ثابت، عمّن ذكره؛ عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر.

وكانت إليه مكة والمدينة والطائف.

وكان فيها العراق إلى يزيد بن عمر بن هبيرة.

وكان على قضاء الكوفة الحجّاج بن عاصم المحاربيّ، وكان على قضاء البصرة عبّاد بن منصور، وعلى خُراسان نصر بن سيار، والأمر بخراسان على ما ذكرتُ.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائة

ذكر ما كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك توجيه قحطبة ابنه الحسن إلى نصر وهو بقومس. فذكر عليّ بن محمد؛ أن زهير بن هنيد والحسن بن رشيد وجبَلة بن فرّوخ التاجيّ، قالوا: لما قُتِل نُباتة ارتحل نصر بن سيّار من بَذّش، ودخل خُوار وأميرها أبو بكر العقيليّ، ووجّه قحطبة ابنه الحسن إلى قُومِس في المحرّم سنة إحدى وثلاثين ومائة، ثم وجّه قحطبة أبا كامل وأبا القاسم محرز بن إبراهيم وأبا العباس المروزيّ إلى الحسن في سبعمائة، فلما كانوا قريباً منه، انحاز أبو كامل وترك عسكره، وأتى نصراً فصار معه، وأعلمه مكان القائد الذي خلّف، فوجّه إليهم نصر جنداً فأتوْهم وهم في حائط فحصروهم، فنقب جميل بن مهران الحائط، وهرب هو وأصحابُه، وخلّفوا شيئاً من متاعهم فأخذه أصحاب نصر، فبعث به نصر إلى ابن هُبيرة، فعرض له عطيف بالريّ، فأخذ الكتاب من رسول نصر والمتاع، وبعث به إلى ابن هُبيرة، فغضب نصر، وقال: أبِي يتلعّب ابن هبيرة! أيَشغَب عليّ بضَغابيس قيس! أما والله لأدعنّه فليعرفنّ أنه ليس بشيء ولا ابنه الذي تربّص له الأشياء. وسار حتى نزل الريّ - وعلى الريّ حبيب بن بُديل النهشليّ - فخرج عطيف من الرّيّ حين قدمها نصر إلى هَمَذان، وفيها مالك بن أدهم بن محرز الباهليّ على الصَّحْصَحيّة، فلما رأى مالكاً في هَمَذان عدل منها إلى أصبَهان إلى عامر بن ضُبارة - وكان عُطَيف في ثلاثة آلاف - وجّهه ابن هـبيْرة إلى نَصْر، فنزل الريّ، ولم يأت نصراً. وأقام نصر بالريّ يومين ثم مرض، فكان يُحْمل حَمْلا؛ حتى إذا كان بساوَة قريباً من هَمَذان مات بها؛ فلما مات دخل أصحابه هَمَذان. وكانت وفاة نصر - فيما قيل - لمضيّ اثنتي عشرة ليلة من شهر ربيع الأول، وهو ابن خمس وثمانين سنة.

وقيل إن نصرا لما شخص من خُوار متوجِّهاً نحو الريّ لم يدخل الريّ ولكنه أخذ المفازة التي بين الرّيّ وهمذَان فمات بها.

رجع الحديث إلى حديث عليّ عن شيوخه. قالوا: ولما مات نصر بن سيّار بعث الحسن خازم بن خزيمة إلى قرية يقال لها سِمْنان، وأقبل قَحْطبة من جُرْجان، وقدّم أمامه زياد بن زرارة القشيريّ؛ وكان زياد قد ندِم على اتباع أبي مسلم، فانخزل عن قحطبة، وأخذ طريق أصبهان يريد أن يأتي عامر بن ضُبارة، فوجّه قحطبة المسيّب بن زهير الضبيّ، فلحقه من غد بعد العصر فقاتله، فانهزم زياد، وقتِل عامة مَن معه، ورجع المسيَّب بن زهير إلى قحطبة، ثم سار قَحْطبة إلى قومِس وبها ابنه الحسن، فقدم خازم بن الوجه الذي كان وجّهه فيه الحسن، فقدّم قحطبة ابنه الحسن إلى الريّ. وبلغ حبيب بن بديل النهشليّ ومَنْ معه من أهل الشأم مسير الحسن، فخرجوا من الريّ ودخلها الحسن، فأقام حتى قدم أبوه.

وكتب قحطبة حين قدم الريّ إلى أبي مسلم يعلمه بنزوله الرّيّ.

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة تحوّل أبو مسلم من مَرْو إلى نيسابور فنزلها.

ذكر الخبر عما كان من أمر أبي مسلم هنالك ومن قَحْطبة بعد نزوله الريّ

ولما كتب قحطبة إلى أبي مسلم بنزوله الرّيّ ارتحل أبو مسلم ـ فيما ذكر ـ من مَرْو، فنزل نيسابور وخندق بها، ووجّه قحطبة ابنَه الحسن بعد نزوله الرّيّ بثلاث إلى هَمَذان؛ فذكر عليّ عن شيوخه وغيرهم أنّ الحسن بن قحطبة لما توجّه إلى هَمَذان؛ خرج منها مالك بن أدهم ومَن كان بها من أهل الشأم وأهل خُراسان إلى نَهاوَنْد، فدعاهم مالك إلى أرزاقهم، وقال: من كان له ديوان فليأخذْ رزقه، فترك قوم كثير دواوينَهم ومضوا، فأقام مالك ومَن بقيَ معه من أهل الشأم وأهل خُراسان ممّن كان مع نصر، فسار الحسن من هَمَذان إلى نَهاوَنْد، فنزل على أربعة فراسخ من المدينة، وأمدّه قحطبة بأبي الجهْم بن عطيّة مولى باهلة في سبعمائة، حتى أطاف بالمدينة وحصرها.

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة قتِل عامر بن ضبارة.

ذكر الخبر عن مقتله وعن سبب ذلك:

وكان سبب مقتله أنّ عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر لما هزمه ابن ضُبارة مضى هارباً نحو خراسان، وسلك إليها طريق كِرْمان، ومضى عامر بن ضُبارة في أثره لطلبه، وورد على يزيد بن عمر مقتلُ نباتة بن حنظلة بجُرجان؛ فذكر عليّ بن محمد أن أبا السريّ وأبا الحسن الجشميّ والحسن بن رشيد وجبلة بن فرّوخ وحفص بن شبيب أخبروه، قالوا: لما قُتل نباتة كتب ابنُ هبيرة إلى عامر بن ضُبارة وإلى ابنه داود بن يزيد بن عمر أن يسيرا إلى قَحْطبة ـ وكانا بكرْمان ـ فسارا في خمسين ألفاً حتى نزلوا أصبهان بمدينة جَيّ ـ وكان يقال لعسكر ابن ضُبارة عسكر العساكر ـ فبعث قَحْطبة إليهم مقاتلاً وأبا حفص المهلبيّ وأبا حمّاد المروزيّ مولى بني سُليم وموسى بن عَقِيل وأسلم بن حسان وذُؤيب بن الأشعث وكُلثوم بن شبيب ومالك بن طريف والمخارق بن غفار والهيثم بن زياد؛ وعليهم جميعاً العَكيّ، فسار حتى نزل قمّ. وبلغ ابنَ ضُبارة نزول الحسن بأهل نَهاوَنْد، فأراد أن يأتيَهم مُعيناً لهم، وبلغ الخبر العَكيّ، فبعث إلى قحطبة يعلمه، فوجّه زهير بن محمد إلى قاشان، وخرج العكيّ من قمّ وخلف بها طريف بن غيلان فكتب إليه قحطبة يأمره أن يُقيم حتى يقدم عليه، وأن يرجع إلى قمّ، وأقبل قحطبة من الرّيّ، وبلغه طلائع العسكرين؛ فلما لحق قحطبة بمقاتل بن حكيم العكيّ ضمّ عسكر العكيّ إلى عسكره، وسار عامر بن ضُبارة إليهم وبينه وبين عسكر قَحْطبة فرسخ، فأقام أياماً، ثم سار قَحْطبة إليهم، فالتقوْا وعلى ميمنة قَحطبة العكيّ ومعه خالد بن بَرْمك، وعلى ميسرته عبد الحميد بن رِبعيّ ومعه مالك بن طريف ـ وقحطبة في عشرين ألفاً وابن ضبارة في مائة ألف، وقيل في خمسين ومائة ألف ـ فأمر قَحطبة بمصحف فنُصِب على رُمْح ثم نادى: يا أهل الشأم، إنا ندعُوكم إلى ما في هذا المصحف، فشتموه وأفحشوا في القول، فأرسل إليهم قحطبة: احملوا عليهم، فحمل عليهم العكيّ، وتهايج الناس، فلم يكن بينهم كثير قتال حتى انهزم أهلُ الشأم، وقُتِلوا قتلاً ذريعاً، وحَووْا عسكرهم، فأصابوا شيئاً لا يُدرَى عدده من السلاح والمتاع والرقيق، وبعث بالفتح إلى ابنه الحسن مع شُريح بن عبدالله.

قال عليّ: وأخبرنا أبو الذيّال، قال: لقي قحطبة عامر بن ضُبارة؛ ومع ابن ضُبارة ناس من أهل خُراسان؛ منهم صالح بن الحجاج النميريّ وبشر بن بِسطام بن عمران بن الفضل البرجميّ وعبد العزيز بن شماس المازنيّ وابن ضُبارة في خيل ليست معه رَجّالة، وقحطبة معه خيل ورجّالة. فرموا الخيل بالنُّشاب، فانهزم ابن ضُبارة حتى دخل عسكره، واتّبعه قحطبة، فترك ابن ضُبارة العسكر، ونادى: إليّ، فانهزم الناس وقتِل.

قال عليّ: وأخبرنا المفضّل بن محمد الضبيّ، قال: لما لقي قحطبة ابنَ ضُبارة انهزم داود بن يزيد بن عمر، فسأل عنه عامر، فقيل: انهزم، فقال: لعن الله شرَّنا منقلباً! وقاتل حتى قتل.

قال عليّ: وأخبرنا حفص بن شبيب، قال: حدّثني مَنْ شهد قَحْطبة وكان معه، قال: ما رأيتُ عسكراً قطّ جَمَع ما جمع أهل الشأم بإصبهان من الخيل والسلاح والرقيق، كأنا افتتحنا مدينة؛ وأصبنا معهم ما لا يحصى من البرابط والطنابير والمزامير؛ ولَقلّ بيت أو خِباء ندخله إلا أصبنا فيه زُكْرة أو زِقّـا من الخمر، فقال بعض الشعراء:

لَـمـا رَمَـيْـنَـا مُـضَـراً بِـالـقَـبِّ قَـرْضَـبَـهُـمْ قَـحْـطَـبَـةُ الـقِـرْضَـبُّ
يَـدْعُـونَ مَـرْوانَ كَـدَعْـوَى الـرَّبِّ

وفي هذه السنة كانت وقعة قحطبة بنهاوند بمَنْ كان لجأ إليها من جنود مروان بن محمد. وقيل: كانت الوقعة بجابَلْق من أرض أصبَهان يوم السبت لسبع بقين من رجب.

ذكر الخبر عن هذه الوقعة:

ذكر عليّ بن محمد أن الحسن بن رشيد وزهير بن الهنيد أخبراه أن ابن ضُبارة لما قتِل كتب بذلك قحطبة إلى ابنه الحسن، فلما أتاه الكتاب كبّر وكبّر جنده، ونادوا بقتله، فقال عاصم بن عمير السُّغديّ: ما صاح هؤلاء بقتل ابن ضُبارة الآ وهو حقّ، فاخرجوا إلى الحسن بن قحطبة وأصحابه؛ فإنكم لا تقومون لهم، فتذهبون حيث شئتم قبل أن يأتيَه أبوه أو مدده. فقالت الرّجالة: تخرجون وأنتم فرسان على خيول فتذهبون وتتركوننا! فقال لهم مالك بن أدهم الباهليّ: كتب إليّ ابن هبيرة ولا أبرح حتى يقدم عليّ. فأقاموا وأقام قحطبة بأصبهان عشرين يوماً، ثم سار حتى قدم على الحسن نهاوَنْد فحصرهم أشهراً، ثم دعاهم إلى الأمان فـأبَوْا، فـوضع عليهم المجانيق، فلما رأى ذلك مالك طلب الأمان لنفسه ولأهل الشأم ـ وأهل خُراسان لا يعلمون ـ فأعطاه الأمان فوفَى له قَحْطبة، ولم يقتل منهم أحداً، وقتل من كان بنَهاوند من أهل خراسان، إلا الحكَم بن ثابت بن أبي مسعر الحنفيّ، وقتل من أهل خراسان أبا كامل وحاتم بن الحارث بن شُريح وابن نصر بن سيّار وعاصم بن عمير وعليّ بن عقيل وبَيْهس بن بديل من بني سليم؛ من أهل الجزيرة، ورجلا من قريش يقال له البختريّ، من أولاد عمر بن الخطاب ـ وزعموا أن آل الخطاب لا يعرفونه ـ وقَطَن بن حرب الهلاليّ.

قال عليّ: وحدّثنا يحيى بن الحكم الهمدانيّ، قال: حدّثني مولى لنا قال: لمّا صالح مالك بن أدهم قَحْطبة قال بيهس بن بديل: إنّ ابنَ أدهم لمصالح علينا؛ والله لأفتكنّ به؛ فوجـد أهل خُـراسان أن قـد فتح لهم الأبواب، ودخلوا وأدخل قَحْطبة من كان معه من أهل خراسان حائطاً.

وقال غير عليّ: أرسل قَحْطبة إلى أهل خُراسان الذين في مدينة نَهاونـد يَدْعـوهم إلى الخروج إليـه،

وأعطاهم الأمان، فأبَوْا ذلك. ثم أرسل إلى أهل الشأم بمثل ذلك فقبلوا، ودخلوا في الأمان بعد أن حوصروا ثلاثة أشهر: شعبان ورمضان وشوّال، وبعث أهل الشأم إلى قَحْطبة يسألونه أن يشغل أهل المدينة حتى يفتحوا الباب وهم لا يشعرون، ففعل ذلك قَحْطبة، وشغل أهل المدينة بالقتال، ففتح أهل الشأم البابَ الذي كانوا عليه؛ فلما رأى أهلُ خراسان الذين في المدينة خروجَ أهل الشأم، سألوهم عن خروجهم، فقالوا: أخذنا الأمان لنا ولكم، فخرج رؤساء أهلِ خراسان، فدفع قحطبة كلَّ رجل منهم إلى رجُل من قوّاد أهل خراسان، ثم أمر مناديه فنادى: مَن كان في يده أسير ممّن خرج إلينا من أهل المدينة فليضرب عنقه، وليأتنا برأسه. ففعلوا ذلك، فلم يبق أحدٌ ممن كان قد هرب من أبي مسلم وصاروا إلى الحصن إلّا قتل، ما خلا أهل الشأم فإنه خلَّى سبيلَهم، وأخذ عليهم ألا يمالئوا عليه عدوًّا.

رجع الحديث إلى حديث عليّ عن شيوخه الذين ذكرت: ولما أدخل قحطبة الذين كانوا بنَهاوند من أهل خُراسان ومن أهل الشأم الحائط، قال لهم عاصم بن عمير: ويلكم! ألا تدخلوا الحائط! وخرج عاصم فلبس درعَه، ولبس سواداً كان معه، فلقيه شاكريّ كان له بخراسان فعرفَه، فقال: أبو الأسود؟ قال: نعم، فأدخله في سَرَب، وقال لغلام له: احتفظ به ولا تطلعنّ على مكانه أحداً، وأمَر قحطبة: مَن كان عنده أسيراً فليأتنا به. فقال الغلام الذي كان وُكّلَ بعاصم: إن عندي أسيراً أخاف أن أغلَب عليه، فسمعه رجلٌ من أهل اليمن، فقال: أرنيه، فأراه إياه فعرفه، فأتى قحطبة فأخبره، وقال: رأس من رؤوس الجبابرة، فأرسل إليه فقتله، ووفَى لأهل الشأم فلم يقتل منهم أحداً.

قال عليّ: وأخبرنا أبو الحسن الخُراسانيّ وجبلة بن فرّوخ؛ قالا: لما قدم قحطبة نهاوند والحسن محاصرهم، أقام قَحْطبة عليهم، ووجّه الحسن إلى مَرْج القلعة، فقدّم الحسن خازم بن خُزيمة إلى حُلوان، وعليها عبدالله بن العلاء الكِنديّ، فهرب من حُلوان وخلّاها.

قال علي: وأخبرنا محرز بن إبراهيم، قال: لما فتح قحطبة نَهاوند، أرادوا أن يكتبوا إلى مَرْوان باسم قَحْطبة، فقالوا: هذا اسم شنيع، اقلبوه فجاء «هبط حقّ»، فقالوا: الأول مع شنعته أيسر من هذا. فردّوه.

وفي هذه السنة كانت وقعة أبي عون بشهرزور.

ذكر الخبر عنها وعمّا كان فيها:

ذكر عليّ أن أبا الحسن وجَبلة بن فروخ، حدّثاه قالا: وجّه قحطبة أبا عون عبد الملك بن يزيد الخراسانيّ ومالك بن طريف الخُراساني في أربعة آلاف إلى شهرزور، وبها عثمان بن سفيان على مقدّمة عبدالله بن مَرْوان، فقدم أبو عون ومالك، فنزلا على فرسخيْن من شَهرزور، فأقاما به يوماً وليلة، ثم ناهضا عثمان بن سفيان في العشرين من ذي الحجة سنة إحدى وثلاثين ومائة فقتل عثمان بن سفيان، وبعث أبو عون بالبشارة مع إسماعيل بن المتوكّل، وأقام أبو عون في بلاد الموصل.

وقال بعضهم: لم يُقتل عثمان بن سفيان، ولكنّه هرب إلى عبدالله بن مَرْوان، واستباح أبو عون عسكره، وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة بعد قتال شديد. وقال: كان قحطبة وجه أبا عون إلى شهرزور في ثلاثين ألفاً بأمر أبي مسلم إياه بذلك. قال: ولما بلغ خبرُ أبي عون مروانَ وهو بحرّان، ارتحل منها ومعه جنود

الشأم والجزيرة والموصل، وحشرت بنو أمية معه أبناءهم مقبلا إلى أبي عون؛ حتى انتهى إلى الموصل، ثم أخذ في حفر الخنادق من خندق إلى خندق؛ حتى نزل الزّاب الأكبر، وأقام أبو عون بشهرزور بقيّة ذي الحجة والمحرّم من سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وفرض فيها لخمسة آلاف رجل.

وفي هذه السنة سار قَحْطبة نحو ابن هبيرة؛ ذكر عليّ بن محمد أن أبا الحسن أخبره وزهير بن هُنيد وإسماعيل بن أبي إسماعيل وجبلة بن فرّوخ، قالوا: لما قدم على ابن هبيرة ابنه منهزماً من حُلوان، خرج يزيد بن عمر بن هبيرة، فقاتل قحطبة في عدد كثير لا يُحصى مع حوثرة بن سهيل الباهليّ، وكان مروان أمدّ ابنَ هبيرة به، وجعل على الساقة زياد بن سهل الغَطَفانيّ، فسار يزيد بن عمر بن هُبيرة، حتى نزل جَلُولاء الوقيعة وخندق، فاحتفر الخندق الذي كانت العجم احتفرتْه أيام وَقْعة جلولاء؛ وأقبل قحطبة حتى نزل قرماسين، ثم سار إلى حُلوان، ثم تقدّم من حُلوان، فنزل خانقين، فارتحل قحطبة من خانقين، وارتحل ابن هبيرة راجعاً إلى الدّسْكرة.

وقال هِشام عن أبي مخنف، قال: أقبل قحطبة، وابنُ هبيرة مخندق بجلولاء، فارتفع إلى عُكْبَراء، وجاز قحطبة دِجْلة، ومضى حتى نزل دمّا دون الأنبار، وارتحل ابنُ هبيرة بمَن معه منصرفاً مبادراً إلى الكوفة لقحطبة، حتى نزل في الفرات في شرقيّه، وقدم حوثرة في خمسة عشر ألفاً إلى الكوفة، وقطع قحطبة الفرات من دِمّا، حتى صار من غربيّه، ثم سار يريد الكوفة حتى انتهى إلى الموضع الذي فيه ابن هبيرة.

وفي هذه السنة حجّ بالناس الوليد بن عروة بن محمد بن عطية السعديّ؛ سعد هوازن، وهو ابن أخي عبد الملك بن محمد بن عطية الذي قتل أبا حمزة الخارجيّ. وكان والي المدينة من قبَل عمه، حدثني بذلك أحمد بن ثابت، عمن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر. وكذلك قال الواقديّ وغيره.

وقد ذكر أن الوليد بن عروة إنما كان خرج خارجاً من المدينة، وكان مرْوان قد كتب إلى عمه عبد الملك بن محمد بن عطية يأمره أن يحجّ بالناس وهو باليمن؛ فكان من أمره ما قد ذكرت قبلُ، فلمّا أبطأ عليه عمه عبد الملك افتعل كتاباً من عمّه يأمره الحجّ بالناس، فحجّ بهم.

وذكر أن الوليد بن عروة بلغه قتلُ عمه عبد الملك فمضى إلى الذين قتلوه، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وبقَرَ بطون نسائهم، وقتل الصبيان، وحرّق بالنيران مَنْ قدر عليه منهم.

وكان عامل مكة والمدينة والطائف في هذه السنة الوليد بن عروة السعديّ من قبَل عمه عبد الملك بن محمد، وعامل العراق يزيد بن عمر بن هبيرة.

وعلى قضاء الكوفة الحجاج بن عاصم المحاربيّ، وعلى قضاء البصرة عبّاد بن منصور الناجيّ.

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها هلاك قحطبة بن شبيب.

ذكر الخبر عن مهلكه وسبب ذلك:

فكان السبب في ذلك أنّ قحطبة لما نزل خانقين مقبلًا إلى ابن هبيرة، وابن هُبيرة بجَلولاء، ارتحل ابن هُبيرة من جَلولاء إلى الدّسْكرة، فبعث ـ فيما ذُكر ـ قحطبة ابنه الحسن طليعةً ليعلم له خبرَ ابن هبيرة، وكان ابن هبيرة راجعاً إلى خندقه بجلولاء، فوجد الحسن بنَ هبيرة في خندقه، فرجع إلى أبيه فأخبره بمكان ابن هُبيرة؛ فذكر عليّ بن محمد، عن زهير بن هنيد وجبلة ابن فرُّوخ وإسماعيل بن أبي إسماعيل والحسن بن رشيد، أنّ قحطبة، قال لأصحابه لما رجع ابنه الحسن إليه وأخبره بما أخبره به من أمر ابن هبيرة: هل تعلمون طريقاً يخرجنا إلى الكوفة، لا نمرّ بابنِ هُبيرة؟ فقال خلف بن المورّع الهَمَذانيّ، أحد بني تميم: نعم، أنا أدلّك، فعبر به تامرّاً من رُوستُقْباذ، ولزم الجادّة حتى نزل بُزُرْج سابور، وأتى عَكْبراء، فعبر دِجْلة إلى أوانا.

قال عليّ: وحدّثنا إبراهيم بن يَزيد الخراسانيّ، قال: نزل قحطبة بخانقِين وابن هبيرة بجَلُولاء؛ بينهما خمسة فراسخ، وأرسل طلائعه إلى ابنِ هبيرة ليعلم علمه، فرجعوا إليه، فأعلموه أنه مقيم، فبعث قَحْطبة خازمَ بن خزيمة، وأمره أن يعبر دِجْلة، فعبَر وسار بين دجلة ودُجَيْل؛ حتى نزل كوثبا؛ ثم كتب إليه قحطبة يأمره بالمسير إلى الأنبار، وأن يُحْدر أليه مافيها من السفُن وما قدَر عليه يعبرها، ويوافيه بها بدَمِمّا، ففعل ذلك خازم، ووافاه قحطبة بدِمِمّا، ثم عبر قحطبة الفُرات في المحرّم من سنة اثنتين وثلاثين ومائة، ووجّه الأثقال في البرّيّة، وصارت الفرسان معه على شاطىء الفرات، وابن هبيرة معسكر على فم الفرات من أرض الفلُّوجَة العليا، على رأس ثلاثة وعشرين فرسخاً من الكوفة، وقد اجتمع إليه فَلُّ بن ضُبارة، وأمدّه مَرْوان بحوثرة بن سهيل الباهليّ في عشرين ألفاً من أهل الشأم.

وذكر عليّ أن الحسن بن رشيد وجبلة بن فرّوخ أخبراه أنّ قحطبة لما ترك ابنَ هبيرة ومضى يريد الكوفة، قال حوثرة بن سهيل الباهليّ وناس من وجوه أهل الشأم لابن هبيرة: قد مضى قحطبة إلى الكوفة، فاقصد أنت خراسان، ودعْه ومروان فإنك تكسره، فبالحَرَى أن يتبعك، فقال: ما هذا برأي، ما كان ليتبعني ويدع الكوفة؛ ولكنّ الرأي أن أبادره إلى الكوفة. ولما عبر قحطبة الفراتَ، وسار على الفرات ارتحل ابن هُبيرة من معسكره بأرض الفلُّوجة، فاستعمل على مقدِّمته حوثرة بن سهيل، وأمره بالمسير إلى الكوفة، والفريقان يسيران على شاطىء الفرات؛ ابن هُبيرة بين الفرات وسورا، وقحطبة في غربيه مما يلي البرّ. ووقف قحطبة فعبر إليه رجل أعرابيّ في زورق، فسلّم على قحطبة، فقال: ممن أنت؟ قال: من طيّىء، فقال الأعرابيّ لقحطبة: اشرب من

هذا واسقني سؤرك، فغرف قَحْطبة في قصعة فشرب وسقاه، فقال: الحمد لله الذي نسأ أجلي حتى رأيتُ هذا الجيش يشرب من هذا الماء. قال قحطبة: أتتك الرواية؟ قال: نعم؛ قال: ممن أنت؟ قال: من طيِّىء، ثم أحد بني نَبْهان، فقال قحطبة: صدقني إمامي، أخبرني أن لي وقعة على هذا النهر لي فيها النصر، يا أخا بني نبهان، هل ها هنا مخاضة؟ قال: نعم ولا أعرفها، وأدلك على مَنْ يعرفها؛ السنديّ بن عصم. فأرسل إليه قحطبة، فجاء وأبو السنديّ وعون، فدلُّوه على المخاضة وأمسى ووافتْه مقدّمة ابن هبيرة في عشرين ألفاً، عليهم حَوْثرة.

فذكر عليّ، عن ابن شهاب العبدّي، قال: نزل قحطبة الجبارية فقال: صدقني الأمام أخبرني أن النصر بهذا المكان، وأعطى الجند أرزاقهم، فردّ عليه كاتبه ستة عشر ألف درهم، فضل الدرهم والدرهمين وأكثر وأقل، فقال: لا تزالون بخير ما كنتم على هذا. ووافته خيول الشأم، وقد دلُّوه على مخاضة فقال: إنما أنتظر شهر حرام وليلة عاشوراء، وذلك سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

وأما هشام بن محمد، فإنه ذكر عن أبي مِخنف أنّ قحطبة انتهى إلى موضع مخاضة ذكِرَت له، وذلك عند غروب الشمس ليلة الأربعاء؛ لثمان خلوْن من المحرّم اثنتين وثلاثين ومائة، فلما انتهى قحطبة إلى المخاضة اقتحَم في عِدّة من أصحابه، حتى حمل على ابن هبيرة، وولى أصحابُه منهزمين؛ ثم نزلوا في النيل، ومضى حوثرة حتى نزل قصرَ ابن هبيرة، وأصبح أهل خراسان وقد فقدوا أميرهم، فألقوا بأيدهم، وعلى الناس الحسن بن قحطبة.

رجع الحديث إلى حديث عليّ عن ابن شهاب العبديّ: فأما صاحب علَم قحطبة خيران أو يسار مولاه، فقال له: اعبر، وقال لصاحب رايته مسعود بن علاج (رجل من بكر بن وائل): اعبر، وقال لصاحب شرطته عبد الحميد بن ربعيّ أبي غانم أحد بني نبهان من طيىء: اعبر يا أبا غانم، وأبشر بالغنيمة. وعبر جماعة حتى عبر أربعمائة، فقاتلوا أصحاب حوثرة حتى نحّوْهم عن الشريعة، ولقوا محمد بن نباتة فقاتلوه، ورفعوا النيران، وانهزم أهل الشأم، وفقدوا قحطبة فبايعوا حُميد بن قحطبة على كُره منه، وجعلوا على الأثقال رجلاً يقال له أبو نصر في مائتين، وسار حُميد حتى نزل كربَلاء، ثم دير الأعور ثم العباسيَّة.

قال عليّ: أخبرنا خالد بن الأصفح وأبو الذيَّال، قالوا: وُجِد قحطبة فدفنه أبو الجهم، فقال رجل من عُرض الناس: من كان عنده عَهْد من قحطبة فليخبرنا به، فقال مقاتل بن مالك العَكيّ: سمعت قحطبة يقول: إن حدَث بي حدث فالحسن أمير الناس، فبايع الناس حُميداً للحسن، وأرسلوا إلى الحسن، فلحقه الرسول دون قرية شاهي، فرجع الحسن فأعطاه أبو الجهم خاتم قحطبة، وبايعوه، فقال الحسن: إن كان قحطبة مات فأنا ابن قحطبة. وقتل في هذه الليلة ابن نَبْهان السدوسيّ وحرب بن سلم بن أحوز وعيسى بن إياس العدويّ ورجل من الأساورة، يقال له مصعب، وادّعى قتل قحطبة معن بن زائدة ويحيى بن حُضين.

قال عليّ: قال أبو الذّيال: وجدوا قحطبة قتيلاً في جدول وحرب بن سلم بن أحوز قتيل إلى جَنْبه، فظنوا أن كلّ واحد منهما قتل صاحبه.

قال عليّ: وذكر عبد الله بن بدر قال: كنتُ مع ابن هبيرة ليلة قحطبة فعبروا إلينا، فقاتلونا على مسنَّاة عليها خمسة فوارس؛ فبعث ابنُ هبيرة محمد بن نُباتة، فتلقّاهم فدفعناهم دفعاً، وضرب معن بن زائدة قحطبة على حبل عاتقه، فأسرع فيه السيف، فسقط قحطبة في الماء فأخرجوه، فقال: شدُّوا يديّ، فشدّوها بعمامة،

فقال: إن متّ فألقوني في الماء لا يعلم أحد بقتلي. وكرّ عليهم أهل خراسان، فانكشف ابن بناتة وأهل الشأم؛ فاتبعونا وقد أخذ طائفة في وجه، ولحقنا قوم من أهل خراسان، فقاتلناهم طويلاً، فما نجوْنا إلّا برجُلين من أهل الشأم قاتلوا عنا قتالاً شديداً، فقال بعض الخراسانيّةلا؛ دعُوا هؤلاء الكلاب (بالفارسية) فانصرفوا عنّا. ومات قحطبة وقال قبل موته: إذاقدمتم الكوفة فوزير الإمام أبو سلمة؛ فسلموا هذا الأمرَ إليه. ورجع ابن هبيرة إلى واسط.

وقد قيل في هلاك قحطبة قول غير الذي قاله مَن ذكرنا قوله من شيوخ عليّ بن محمد؛ والذي قيل من ذلك أنّ قحطبة لما صار بحذاء ابن هُبيرة من الجانب الغربيّ من الفرات، وبينهما الفرات، قدّم الحسَن ابنـه على مقدِّمته، ثم أمر عبد الله الطائيّ ومسعود بن علاج وأسد بن المرزبان وأصحابهم بالعبور على خيولهم في الفرات، فعبَروا بعد العصر، فطُعِن أوّل فارس لقيهم من أصحاب ابن هبيرة، فولّوا منهزمين حتى بلغت هزيمتهم جسر سورا حتى اعترضهم سـويد صـاحب شُرطـة ابن هبيرة، فضـرب وجوههم ووجـوه دوابّهم حتى ردّهم إلى موضعهم؛ وذلك عند المغرب؛ حتى انتهوْا إلى مسعود بن علاج ومن معه؛ فكثروهم، فأمر قحطبة المخارق بن غفار وعبد الله بسّام وسلمة بن محمد ـ وهم في جريدة خيل ـ أن يعبروا، فيكونوا ردْءاً لمسعود بن علاج، فعبروا ولقيهم محمد بن نباتة، فحصر سلمة ومَن معه بقرية على شاطىء الفرات، وترجّل سلمة ومَن معه، وحمِيَ القتال، فجعل محمد بن نُباتة يحمل على سلمة وأصحابه، فيقتل العشرة والعشرين، ويحمل سلمة وأصحابه على محمد بن نباتة وأصحابه، فيقتل منهم المائة والمائتين، وبعث سلمة إلى قحطبة يستمدّه، فأمدّه بقواده جميعاً، ثم عبر قحطبة بفُرسانه، وأمر كل فارس أن يردف رجلاً؛ وذلك ليلة الخميس لليال خلون من المحرّم، ثم واقع قحطبة محمدَ بن نباتة ومَن معه، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فهزمهم قَحْطبة حتى ألحقهم بابن هُبيرة، وانهزم ابن هبيرة بهزيمة ابن نباتة، وخلّوْا عسكرهم وما فيه من الأموال والسلاح والرِّثّة والآنية وغير ذلك؛ ومضت بهم الهزيمة حتى قطعوا جسر الصَّراة، وساروا ليلتهم حتى أصبحوا بفم النيل، وأصبح أصحاب قحطبة وقد فقدوه، فلم يزالوا في رجاء منه إلى نصف النهار، ثم يئسوا منه وعلموا بغرَقه، فأجمع القوّاد على الحسن بن قحطبة فولّوْه الأمر وبايعوه، فقام بالأمر وتولاه، وأمر بإحصاء ما في عسكر ابن هُبيرة، ووكّل بذلك رجلاً من أهل خراسان يكنى أبا النضر في مائتي فارس، وأمر بحمل الغنائم في السفن إلى الكوفة، ثم ارتحل الحسن بالجنود حتى نزل كَربلاء، ثم ارتحل فنزل سوراً، ثم نزل بعدها دير الأعور، ثم سار منه فنزل العباسيّة. وبلغ حوثرةَ هزيمة ابن هبيرة، فخرج بمن معه حتى لحق بابن هُبيرة بواسط.

وكان سبب قتل قحطبة ـ فيما قال هؤلاء ـ أنّ أحلم بن إبراهيم بن بسام مولًى بني ليث قال: لما رأيتُ قحطبة في الفرات، وقد سبَحتْ به دابته حتى كادت تعبر به من الجانب الذي كنت فيه أنا وبسام بن إبراهيم أخي ـ وكان بسام على مقدِّمة قحطبة ـ فذكرت مَنْ قُتِل من ولد نصر بن سيار وأشياء ذكرتها منه؛ وقد أشفقت على أخي بسام بن إبراهيم لشيء بلغه عنه، فقلت: لا طلبتُ بثأر أبداً إن نجوتَ الليلة. قال: فأتلقاه وقد صعدت به دابّته لتخرج من الفرات وأنا على الشطّ، فضربته بالسيف على جبينه، فوثب فرسه، وأعجله الموت؛ فذهب في الفرات بسلاحه. ثم أخبِر ابن حصين السعديّ بعد موت أحلم بن إبراهيم بمثل ذلك، وقال: لولا أنه أقرّ بذلك عند موته ما أخبرتُ عنه بشيء.

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة خرج محمد بن خالد بالكوفة، وسوّد قبل أن يدخلها الحسن بن قحطبة،

وخرج عنها عامل ابن هبيرة، ثم دخلها الحسن.

ذكر الخبر عمّا كان من أمر من ذكرت:

ذكر هشام، عن أبي مخنف، قال: خرج محمّد بن خالد بالكوفة في ليلة عاشوراء، وعلى الكوفة زياد بن صالح الحارثيّ، وعلى شُرَطه عبد الرحمن بن بشير العِجليّ؛ وسوّد محمد وسار إلى القَصْر، فارتحل زياد بن صالح وعبد الرحمن بن خالد، فلما أصبح يوم الجمعة ـ وذلك صبيحة اليوم الثاني من مهلك قحطبة ـ بلغه نزولُ حوثرة ومَنْ معه مدينة ابن هبيرة، وأنه تهيّأ للمسير إلى محمد، فتفرّق عن محمد عامة مَن معه حيث بلغهم نزول حَوْثرة مدينة ابن هبيرة، ومسيره إلى محمد لقتاله؛ إلّا فرساناً من فرسان أهل اليمن، ممن كان هرب من مَرْوان ومواليه. وأرسل إليه أبو سلمة الخلال ـ ولم يظهر بعد ـ يأمره بالخروج من القصر واللحاق بأسفل الفرات؛ فإنه يخاف عليه لقلّة مَن معه وكثرة مَن مع حوثرة ـ ولم يبلغ أحداً من الفريقين هلاكُ قحطبة ـ فأبى محمد بن خالد أن يفعلَ حتى تعالى النهار، فتهيّأ حوثرة للمسير إلى محمد بن خالد؛ حيث بلغه قلّة مَن معه وخِذلان العامة له، فبينا محمد في القصر إذْ أتاه بعض طلائعه، فقال له: خيلٌ قد جاءت من أهل الشأم، فوجّه إليهم عدّة من مواليه، فأقاموا بباب دار عمر بن سعد؛ إذ طلعت الرّايات لأهل الشأم، فتهيَّئُوا لقتالهم، فنادى الشأميون: نحن بجَيلة، وفينا مليح بن خالد البَجليّ، جئنا لندخل في طاعة الأمير. فدخلوا، ثم جاءت خيل أعظم منها مع رجل من آل بَحْدل، فلما رأى ذلك حوثرة من صنيع أصحابه، ارتحل نحو واسط بمَن معه، وكتب محمد بن خالد من ليلته إلى قَحْطبة؛ وهو لا يعلم بُهْلكه؛ يعلمه أنه قد ظفر بالكوفة، وعجل به مع فارس؛ فقدم على الحسن بن قحطبة، فلما دفع إليه كتاب محمد بن خالد قرأه على الناس، ثم ارتحل نحو الكوفة، فأقام محمد بالكوفة يوم الجمعة والسبت والأحد وصبّحه الحسن يوم الاثنين، فأتوا أبا سلمة وهو في بني سلَمة فاستخرجوه، فعسكر بالنُّخيلة يومين، ثم ارتحل إلى حمّام أعين، ووجّه الحسن بن قحطبة إلى واسط لقتال ابن هُبيرة.

وأما عليّ بن محمد، فإنه ذكر أن عمارة مولى جبرائيل بن يحيى أخبره، قال: بايع أهلُ خراسان الحسن بعد قحطبة، فأقبل إلى الكوفة، وعليها يومئذ عبد الرحمن بن بشير العِجليّ، فأتاه رجل من بني ضَبّة، فقال: إن الحسَن داخل اليوم أو غدا؛ قال: كأنك جئتَ تُرهبني! وضربه ثلاثمائة سوط .ثم هرب فسوّد محمد بن خالد بن عبد الله القسريّ، فخرج في أحد عشر رجلاً، ودعا الناس إلى البيعة، وضبط الكوفة، فدخل الحسن من الغد، فكانوا يسألون في الطريق: أين منزل أبي سلمة، وزير آل محمد؟ فدلُّوهم عليه، فجاؤوا حتى وقفوا على بابِه، فخرج إليهم، فقدّموا له دابة من دوابّ قحطبة فركبها، وجاء حتى وقف في جبَّانة السَّبِيع، وبايع أهل خراسان، فمكث أبو سلمة حفص بن سليمان مولى السَّبِيع ـ يقال له وزير آل محمد ـ واستعمل محمد بن خالد بن عبد الله القسريّ على الكوفة ـ وكان يقال له الأمير ـ حتى ظهر أبو العباس.

وقال عليّ: أخبرنا جبلة بن فرّوخ وأبو صالح المروزيّ وعُمارة مولى جبرائيلِ وأبو السريّ وغيرهم ممّن قد أدركَ أوّلَ دعوة بني العباس، قالوا: ثم وجّه الحسنَ بن قحطبة إلى ابن هبيرة بواسط، وضمّ إليه قُوّاداً، منهم خازم بن خزيمة ومقاتل بن حكيم العكّي وخفّاف بن منصور وسعيد بن عمرو وزياد بن مشكان والفَضْل بن سليمان وعبد الكريم بن مسلم وعثمان بن نَهيك وزهير بن محمد والهيثم بن زياد وأبو خالد المروزيّ وغيرهم، ستة عشر قائداً وعلى جميعهم الحسن بن قحطبة. ووجّه حُميد بن قحطبة إلى المدائن في قوّاد؛ منهم عبد الرحمن بن نعيم ومسعود بن علاج؛ كلّ قائد في أصحابه. وبعث المسيَّب بن زُهير وخالد بن بَرْمك إلى

دَيْرقُنَّى، وبعث المهلّبي وشَراحيل في أربعمائة إلى عَيْن التّمر، وبسَّام بن إبراهيم بن بسام إلى الأهواز، وبها عبد الواحد بن عمر بن هبيرة. فلما أتى بسام الأهواز خرج عبد الواحد إلى البَصْرة، وكتب مـع حفص بن السَّبيع إلى سفيان بن معاوية بعهدِه على البصرة، فقال له الحارث أبو غسان الحارثي ـ وكان يتكهّن وهو أحد بني الدّيان: لا ينفذُ هذا العهد. فقدم الكتاب على سفيان، فقاتله سَلْم بن قتيبة، وبطل عهد سفيان. وخرج أبو سلمة فعسكر عند حمّام أعيَن، على نحو من ثلاثة فراسخ من الكوفة، فأقام محمد بن خالد بن عبد الله بالكُوفة.

وكان سبب قتال سلم بن قتيبة سفيانَ بن معاوية بن يزيد بن المهلب ـ فيما ذُكِر ـ أن أبا سلمة الخَلال وجّه إذ فرّق العمال في البلدان بَسام بن إبراهيم مولى بني ليث إلى عبد الواحد بن عمر بن هبيرة وهو بالأهواز، فقاتله بسام حتى فضّه، فلحق سلْم بن قتيبة الباهليّ بالبَصْرة؛ وهو يومئذ عامل ليزيد بن عمر بن هبيرة. وكتب أبو سلَمة إلى الحسن بن قحطبة أن يوجّه إلى سَلْم مَن أحبّ من قُوّاده، وكتب إلى سُفيان بن معاوية بعهده على البَصرة، وأمره أن يظهِر بها دَعْوة بني العباس، ويدعو إلى القائم منهم؛ وينفي سلْم بن قتيبة. فكتب سفيان إلى سلْم يأمره بالتحوّل عن دار الإمارة، ويخبره بما أتاه من رأي أبي سلمة؛ فأبى سلم ذلك، وامتنع منه، وحشد مع سفيان جميع اليمانيّة وحلفاءهم من ربيعة وغيرهم، وجنح إليه قائد من قوّاد ابن هبيرة؛ وكان بعثه مدداً لسلْم في الفي رجل من كلْب، فأجمع السير إلى سلْم بن قتيبة، فاستعدّ له سلْم، وحشد معه مَن قدر عليه من قيس وأحياء مضر ومن كان بالبَصْرة من بني أمية ومواليهم، وسارعت بنو أمية إلى نَصْره.

فقدم سفيان يوم الخميس وذلك في صفر؛ فأتى المربد سَلْم، فوقف منه عند سوق الإبل، ووجّه الخيول في سكة المرْبد وسائر سِكَك البصرة للقاء مَنْ وَجه إليه سفيان، ونادى: مَنْ جاء برأس فله خمسمائة درهم، ومن جاء بأسير فله ألف درهم. ومضى معاوية بن سفيان بن معاوية في ربيعة خاصةً، فلقيه خيلٌ من تميم في السكة التي تأخذ إلى بني عامر في سكّة المربِد عند الدار التي صارت لعمر بن حبيب، فطعن رجلٌ منهم فرس معاوية، فشبّ به فصرعه؛ فنزل إليه رجل من بني ضَبّة يقال له عياض، فقتله، وحمل رأسه إلى سَلْم بن قتيبة، فأعطاه ألف درهم، فانكسر سفيان لقتل ابنِه، فانهزم ومَن معه، وخرج من فَوْره هو وأهل بيته حتى أتى القصر الأبيض فنزلوه، ثم ارتحلوا منه إلى كسكَر.

وقدِم على سلم بعد غلبته على البَصْرة جـابر بن تـوبة الكـلابيّ والوليـد بن عتبة الفـراسيّ، من ولد عبد الرحمن بن سَمُرة في أربعة آلاف رجل، كتب إليهم ابن هبيرة أن يصيروا مدداً لسَلْم وهو بالأهواز، فغدا جابر بمَن معه على دور المهلب وسائر الأزْد، فأغاروا عليهم، فقاتلهم مَن بقي من رجال الأزْد قتالاً شديداً حتى كثرت القتلَى فيهم؛ فانهزموا، فسبَى جابر ومَن معه من أصحابه النساءَ، وهدموا الدور وانتهبوا؛ فكان ذلك من فعلهم ثلاثة أيام؛ فلم يزل سَلْم مقيماً بالبصرة حتى بلغه قتلُ ابن هبيرة، فشخص عنها فاجتمع من البصرة من ولد الحارث بن عبد المطلب إلى محمد بن جعفر فولوه أمرهم فوليهم أياماً يسيرة، حتى قدم البصرة أبو مالك عبد الله بن أسيد الخُزاعيّ من قبَل أبي مسلم، فوليّها خمسة أيام، فلما قام أبو عباس ولاها سفيان بن معاوية.

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة بويع لأبي العباس عبد الله بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، ليلة الجمعة لثلاث عشرة مضت من شهر ربيع الآخر؛ كذلك حدّثني أحمد بن ثابت، عمن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر. وكذلك قال هشام بن محمد. وأما الواقديّ فإنه قال: بويع

لأبي العباس بالمدينة بالخلافة في جمادى الأولى في سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

قال الواقديّ: وقال لي أبو معشر: في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة؛ وهو الثَّبت.

خلافة أبي العباس عبد الله بن محمد بن عليّ
ابن عبدالله بن عباس

ذكر الخبر عن سبب خلافته

وكان بدء ذلك ـ فيما ذكر عن رسول الله ﷺ ـ أنه أعلم العباسَ بن عبد المطلب أنه تؤول الخلافة إلى ولدِه، فلم يزل ولدُه يتوقّعون ذلك، ويتحدّثون به بينهم.

وذكر عليّ بن محمد أن إسماعيل بن الحسن حدّثه عن رشيد بن كُريب، أنّ أبا هاشم خرج إلى الشأم، فلقي محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس، فقال: يابن عمّ، إن عندي عِلْماً أنبذه إليك فلا تطلعنّ عليه أحداً؛ إن هذا الأمر الذي يرتجيه الناس فيكم، قال: قد علمتُ فلا يسمعنّه منك أحد.

قال عليّ: وأخبرنا سليمان بن داود، عن خالد بن عجلان، قال: لما خالف ابن الأشعث، وكتب الحجاج بن يوسف إلى عبد الملك، أرسل عبد الملك إلى خالد بن يزيد فأخبره، فقال: أما إذا كان الفَتْق من سِجِسْتَان فليس عليك بأس؛ إنما كنا نتخوّف لو كان من خراسان.

وقال عليّ: أخبرنا الحسن بن رُشيد وجبلة بن فرّوخ التاجيّ ويحيى بن طفيل والنعمان بن سريّ وأبو حفص الأزدي وغيرهم أن الإمام محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس، قال: لنا ثلاثة أوقات: موت الطاغية يزيد بن معاوية، ورأس المائة، وفتق بإفريقيّة، فعند ذلك يدعو لنا دعاة، ثم يُقبل أنصارنا من المشرق حتى تردَ خيولهم المغرب، ويستخرجوا ما كنز الجبّارون فيها. فلمّا قتِل يزيد بن أبي مسلم بإفريقيَة، ونقضت البربر، بعث محمد بن عليّ رجلاً إلى خُراسان، وأمره أن يدعوَ إلى الرضا، ولا يسمّي أحداً.

وقد ذكرنا قبل خبر محمد بن عليّ، وخبر الدّعاة الذي وجههم إلى خُراسان. ثم مات محمد بن عليّ وجعل وصيّه من بعده ابنه إبراهيم؛ فبعث إبراهيم بن محمد إلى خُراسان أبا سلَمة حفص بن سليمان مولى السَّبيع، وكتب معه إلى النقباء بخراسان، فقبِلوا كتبه وقام فيهم، ثم رجع إليه فرّده ومعه أبو مسلم. وقد ذكرنا أمر أبي مسلم قبل وخبره.

ثم وقع في يد مَرْوان بن محمد كتاب لإبراهيم بن محمد إلى أبي مسلم، جواب كتاب لأبي مسلم يأمره بقتل كل مَن يتكلم بالعربيّة بخراسان. فكتب مَرْوان إلى عامله بدمشق يأمره بالكتاب إلى صاحبه بالبَلْقاء أن يسيرَ إلى الحُميمة، ويأخذ إبراهيم بن محمد ويوجّه به إليه. فذكر أبو زيد عمر بن شبّة أن عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن عليّ بن أبي طالب، حدّثه عن عثمان بن عروة بن محمد بن عمار بن ياسر، قال: إني مع أبي جعفر بالحُميمة ومعه ابناه محمد وجعفر، وأنا أرقّصهما، إذ قال لي: ماذا تصنع؟ أما ترى إلى ما نحن فيه! قال: فنظرت فإذا رسل مروان تطلب إبراهيم بن محمد، قال: فقلت: دعْني أخرج إليهم، قال: تخرج من بيتي وأنت ابن عمار بن ياسر! قال: فأخذوا أبواب المسجد حين صلوا الصبح، ثم قالوا للشاميّين الذين معهم: أين إبراهيم بن محمد؟ فقالوا: هوذا، فأخذوه؛ وقد كان مروان أمرهم بأخْذِ إبراهيم، ووصف لهم صفة أبي

العباس التي كان يجدها في الكتب أنه يقتلهم؛ فلما أتوه بإبراهيم، قال: ليس هذه الصّفة التي وصفت لكم، فقالوا: قد رأينا الصفة التي وصفت، فردّهم في طلبه، ونُذروا، فخرجوا إلى العراق هُرّاباً.

قال عمر: وحدّثني عبد الله بن كثير بن الحسن العبديّ، قال: أخبرني عليّ بن موسى، عن أبيه، قال: بعث مَرْوان بن محمد رسولاً إلى الحُميمة يأتيه بإبراهيم بن محمد، ووصف له صفَته، فقدم الرّسُول فوجد الصفة صفة أبي العباس عبد الله بن محمد، فلما ظهر إبراهيم بن محمد وأمِن قيل للرسول: إنما أمِرت بإبراهيم؛ وهذا عبد الله! فلما تظاهر ذلك عنده ترك أبا العباس وأخذ إبراهيم، وانطلق به. قال: فشخصت معه أنا وأناس من بني العباس ومواليهم، فانطلق بإبراهيم، ومعه أمّ ولد له كان بها معجباً، فقلنا له: إنما أتاك رجل، فهلّم فلنقتله ثم ننكفىء إلى الكوفة، فهمْ لنا شيعة، فقال: ذلك لكم، قلنا: فأمهلْ حتى نصيرَ إلى الطريق التي تُخرِجُنا إلى العراق. قال: فسرنا حتى صرنا إلى طريق تتشعّب إلى العراق، وأخرى إلى الجزيرة، فنزلنا منزلاً؛ وكان إذا أراد التعريس اعتزل لمكان أمّ ولده، فأتينا للأمر الذي اجتمعنا عليه، فصرَخنْا به، فقام ليخرج فتعلقت به أم ولده، وقالت: هذا وقت لم تكن تخرج فيه؛ فما هاجك! فالتوى عليها، فأبت حتى أخبرها، فقالت: أنشدك الله أن تقتلَه فتشأم أهلك! والله لئن قتلته لا يُبقي مروانُ من آل العباس أحداً بالحُميمة إلاّ قتله؛ ولم تفارقه حتى حلف لها ألا يفعل، ثم خرج إلينا وأخبرنا، فقلنا: أنت أعلم.

قال عبد الله: فحدّثني ابن لعبد الحميد بن يحيى كاتب مروان، عن أبيه، قال: قلت لمروان بن محمد: أتتّهمني؟ قال: لا، قلتُ: أفيحُطُّك صهرُه؟ قال: لا، قلت: فإني أرى أمره ينبغ عليك فأنكِحْه وأنكح إليه، فإن ظهر كنتُ قد أعلقتَ بينك وبينه سبباً لا يريبك معه، وإن كفيته لم يشنْك صهره. قال: ويحك! والله لو علمته صاحب ذاك لسبقتُ إليه؛ ولكن ليس بصاحب ذلك.

وذكر أن إبراهيم بن محمد حين أخِذ للمضيّ به إلى مَرْوان نعي إلى أهل بيته حين شيّعوه نفسَه، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد، وبالسمع له وبالطاعة، وأوصى إلى أبي العباس، وجعله الخليفة بعده؛ فشخص أبو العباس عند ذلك ومَن معه من أهل بيته؛ منهم عبد الله بن محمد وداود بن عيسى، وصالح وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد بنو عليّ ويحيى بن محمد وعيسى بن موسى بن محمد بن عليّ، وعبد الوهاب ومحمد ابنا ابراهيم وموسى بن داود ويحيى بن جعفر بن تمام، حتى قدموا الكوفة، في صَفَر، فأنزلهم أبو سلمة دار الوليد بن سَعْد مولى بني هاشم في بني أوْد، وكتم أمرهم نحواً من أربعين ليلة من جميع القوّاد والشيعة. وأراد - فيما ذكر - أبو سلمة تحويلَ الأمر إلى آل أبي طالب لما بلغه الخبر عن موت إبراهيم بن محمد؛ فذكر عليّ بن محمد أنّ جبلة بن فرّوخ وأبا السريّ وغيرهما قالا: قدم الإمام الكوفة في ناس من أهل بيته، فاختفوْا، فقال أبو الجهم لأبي سلمة: ما فعل الإمام؟ قال: لم يقدم بعد، فألحّ عليه يسأله، قال: قد أكثرتَ السؤال، وليس هذا وقت خروجه [فكانوا بذلك]، حتى لقي أبو حُميد خادماً لأبي العباس، يقال له سابق الخوارزميّ، فسأله عن أصحابه، فأخبره أنهم بالكوفة، وأنّ أبا سلَمة يأمرهم أن يختفوا، فجاء به إلى أبي الجَهْم، فأخبره خبرَهم، فسرّح أبو الجهم أبا حُميد مع سابق حتى عرف منزلهم بالكوفة، ثم رجع وجاء معه إبراهيم بن سلَمَة (رجل كان معهم)، فأخبر أبا الجهم عن منزِلهم ونزول الإمام في بني أوْد، وأنه أرسل حين قدموا إلى أبي سلَمَة يسأله مائة دينار، فلم يفعل، فمشى أبو الجهم وأبو حُميد وإبراهيم إلى موسى بن كعْب،

وقصُّوا عليه القصّة، وبعثوا إلى الإمام بمائتي دينار، ومضى أبو الجَهْم إلى أبي سلمَة، فسأله عن الإمام، فقال: ليس هذا وقت خروجه؛ لأن واسطاً لم تفتح بعد، فرجع أبو الجهم إلى موسى بن كعب فأخبره، فأجمعوا على أن يلقوا الإمام، فمضى موسى بن كعب وأبو الجهم وعبد الحميد بن رِبْعيّ وسلمَة بن محمد وإبراهيم بن سلمة وعبد الله الطائيّ وإسحاق بن إبراهيم وشَراحيل وعبد الله بن بسام وأبو حُميد محمد بن إبراهيم وسليمان بن الأسود ومحمد بن الحصين إلى الإمام، فبلَغ أبا سلمة، فسأل عنهم فقيل: ركبوا إلى الكوفة في حاجة لهم.

وأتى القومُ أبا العباس، فدخلوا عليه فقالوا: أيّكم عبد الله بن محمد بن الحارثية؟ فقالوا: هذا، فسلموا عليه بالخلافة؛ فرجع موسى بن كعب وأبو الجَهْم الآخرين؛ فتخلفوا عند الإمام، فأرسل أبو سلمة إلى أبي الجهم: أين كنت؟ قال: ركِبتُ إلى إمامي. فركب أبو سَلمَة إليهم، فأرسل أبو الجهم إلى أبي حميد أنّ أبا سلمة قد أتاكم؛ فلا يدخلنّ على الإمام إلّا وحده؛ فلما انتهى إليهم أبو سلمة منعوه أن يدخل معه أحدٌ، فدخل وحده، فسلم بالخلافة على أبي العباس.

وخرج أبو العباس على بِرْذَون أبْلَق يوم الجمعة، فصلّى بالناس؛ فأخبرنا عَمار مولى جبرئيل وأبو عبد الله السُّلميّ أن أبا سلمَة لما سلَّم على أبي العباس بالخلافة، قال له أبو حُميد: علَى رَغْم أنفك يا ماصّ بظر أمّه! فقال له أبو العباس: مَهْ!

وذكر أنّ أبا العباس لما صعِد المنبر حين بويع له بالخلافة، قام في أعلاه، وصعِد داود بن عليّ فقام دونه، فتكلم أبو العباس، فقال: الحمد لله الذي اصطَفى الإسلام لنفسه تكرِمة، وشرَّفه وعظَّمه، واختاره لنا وأيّده بنا، وجعلنا أهله وكهْفَه وحصنه والقوّام به، والذّابين عنه والناصرين له، وألزمَنا كلمة التقوى، وجعلنا أحقّ بها وأهلها، وخصّنا برحِم رسول الله ﷺ وقَرابته، وأنشأنا من آبائه، وأنبتنا من شجرته، واشتقّنا من نَبْعته؛ جعله من أنفسنا عزيزاً عليه ما عَنِتْنا، حريصاً علينا بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يُتْلَى عليهم، فقال عزّ من قائل فيما أنزل من محكم القرآن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1]، وقال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَى﴾[2] وقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[3]، وقال: ﴿مَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَى وَٱلْيَتَامَى﴾[4]، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَى واليتامَى﴾[5] فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا، وأوجبَ عليهم حقنا ومودّتنا، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا تكرمةً لنا، وفضلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم.

وزعمت السبئيّة الضُّلّال، أن غيرنا أحقّ بالرياسة والسياسة والخلافة منا، فشاهت وجوههم! بم ولم أيّها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتِهم، وبصّرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هَلَكتهم، وأظهر بنا الحقّ،

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣.

(٢) سورة الشورى ٢٣.

(٣) سورة الشعراء ٢١٤.

(٤) سورة الحشر ٧.

(٥) سورة الأنفال ٤١.

وأدحض بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً، ورفع بنا الخسيسة، وتمّ بنا النقيصة، وجمع الفُرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهلَ تعاطف وبرّ ومواساة في دينهم ودنياهم، وإخواناً على سرُر متقابلين في آخرتهم؛ فتح الله ذلك مِنّةً ومِنحةً لمحمد ﷺ؛ فلما قبضه الله إليه، قام بذلك الأمر من بعده أصحابه، وأمرُهم شورى بينهم، فحوَوْا مواريث الأمم، فعدّلوا فيها ووضعُوها مواضعها، وأعطوْها أهلها، وخرجوا خِمَاصا منها. ثم وثب بنو حَرْب ومَرْوان، فابتزّوها وتداولوها بينهم، فجاروا فيها، واستأثروا بها، وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، وردّ علينا حقّنا، وتدارك بنا أمّتنا، وولي نصرَنا والقيام بأمرنا، ليمنّ بنا على الذين استُضعفوا في الأرض؛ وختم بنا كما افتتح بنا. وإني لأرجو ألّا يأتيكم الجوْر من حيث أتاكم الخيرُ، ولا الفسادُ من حيث جاءكم الصلاح؛ وما توفيقنا أهلَ البيت إلا بالله. يا أهل الكوفة، أنتم محلّ محبّتنا ومنزل مودَّتنا. أنتم الذين لم تتغيّروا عن ذلك، ولم يَثْنِكم عن ذلك تحامل أهل الجوْر عليكم؛ حتى أدركتُم زمانَنا، وأتاكم الله بدَوْلَتِنا؛ فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا؛ وقد زدتُكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدُّوا، فأنا السفاح المبيح، والثائر المبِير.

وكان موعوكاً فاشتدّ به الوعَك، فجلس على المنبر، وصعد داود بن عليّ فقام دونه على مراقي المنبر، فقال:

الحمد لله شكراً شكراً؛ الذي أهلَك عدوّنا، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه. أيّها الناس، الآن أقشعت حنادس الدّنيا، وانكشف غطاؤها، وأشرقت أرضها وسماؤها، وطلعت الشمس من مطلعها، وبزغ القمر من مبزغه؛ وأخذ القوس باريها، وعاد السهم إلى منزَعه، ورجع الحق إلى نصابه؛ في أهل بيت نبيِّكم، أهل الرأفة والرّحمة بكم والعطف عليكم. أيّها الناس، إنا والله ما خرجْنا في طلب هذا الأمر لنكثِر لُجيْناً ولا عقياناً، ولا نحفرَ نَهْراً، ولا نبنيَ قصراً؛ وإنما أخرجَنا الأنَفَةُ من ابتزازهم حقَّنا، والغَضَبُ لبني عمنا، وما كرَثَنَا من أموركم، وبَهظَنَا من شؤونكم؛ ولقد كانت أموركم ترمِضُنا ونحن على فُرشنا، ويشتدّ علينا سوء سيرة بني أمية فيكم، وخُرْقهم بكم، واستذلالهم لكم؛ واستئثارُهم بفَيْئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم. لكم ذمة الله تبارك وتعالى، وذمة رسوله صلى الله عليه وآله، وذمة العبّاس رحمه الله؛ أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكِتاب الله، ونسير في العامّة منكم والخاصّة بسيرة رسول الله ﷺ. تبًّا تبًّا لبني حَرْب بن أمية وبني مَرْوان! آثروا في مُدّتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة، والدارَ الفانية على الدار الباقية، فركبوا الآثام، وظلموا الأنام، وانتهكوا المحارم، وغَشُوا الجرائم، وجاروا في سيرتهم في العباد؛ وسنّتهم في البلاد التي بها استلذُّوا تسربُل الأوزار، وتجلبب الآصار، ومرحوا في أعنّة المعاصي، وركضوا في ميادين الغيّ؛ جهلاً باستدراج الله، وأمناً لمكر الله؛ فأتاهم بأس الله بياتاً وهم نائمون، فأصبحوا أحاديث، ومُزِّقوا كلّ ممزّق، فبعداً للقوم الظالمين! وأدالنا الله من مروان، وقد غرّه بالله الغَرُور، أرسل لعدوِّ الله في عنانه حتى عثر في فضل خِطامه، فظنّ عدوّ الله أن لن نقدر عليه، فنادى حزبه، وجمع مكايده، ورمى بكتائبه؛ فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله، من مَكْر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله، ومحق ضلالَه، وجعل دائرة السوْء به، وأحيا شرفَنا وعِزّنا، وردّ إلينا حقنا وإرثنا.

أيُّها الناس؛ إن أمير المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً، إنما عاد إلى المنبر بعد الصّلاة؛ إنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره، وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن اسحنفر فيه شدّة الوَعْك؛ وادْعُوا لأمير المؤمنين بالعافية،

فقد أبدلكم الله بمرْوان عدوِّ الرحمن وخليفةِ الشيطان المتبعِ للسفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد صلاحِها بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين، الشابَّ المتكهّل المتمهل، المقتدِي بسلفه الأبرار الأخيار؛ الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها، بمعالم الهدى، ومناهج التقوى.

فعجّ الناس له بالدعاء. ثم قال:

يا أهلَ الكوفة؛ إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقّنا، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان، فأحيا بهم حَقَّنا، وأفلج بهم حجّتنا، وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ما كنتم تنتظرون، وإليه تتشوّقون، فأظهر فيكم الخليفةَ من هاشم، وبيّض به وجوهكم، وأدالكم على أهل الشأم، ونقل إليكم السلطان، وعزّ الإسلام، ومنّ عليكم بإمام منحه العدالة، وأعطاه حسن الإيالة. فخذوا ما آتاكم الله بشكر، والزموا طاعتنا، ولا تُخْدَعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم، وإنّ لكل أهل بيت مصراً؛ وإنكم مصرُنا. ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبدالله بن محمد ـ وأشار بيده إلى أبي العباس ـ فاعلموا أنّ هذا الأمر فينا ليس بخارج منّا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا.

ثم نزل أبو العباس وداود بن عليّ أمامه؛ حتى دخل القصر، وأجلس أبا جعفر ليأخذ البَيْعة على الناس في المسجد، فلم يزل يأخذها عليهم؛ حتى صلى بهم العصر، ثم صلى بهم المغرب، وجنّهم الليل، فدخل.

وذكِر أن داود بن عليّ وابنه موسى كانا بالعراق أو بغيرها، فخرجا يريدان الشُّراة فلقيَهما أبو العباس يريد الكوفة، معه أخوه أبو جعفر عبدالله بن محمد وعبدالله بن عليّ وعيسى بن موسى ويحيى بن جعفر بن تمام بن العباس، ونفر من مواليهم بدَوْمة الجندل، فقال لهم داود: أين تريدون؟ وما قِصّتكم؟ فقصّ عليه أبو العباس قِصّنهم، وأنهم يريدون الكوفة ليظهروا بها، ويظهروا أمرهم، فقال له داود: يا أبا العباس، تأتي الكوفة وشيخ بني مروان؛ مَرْوان بن محمد بحرّان مطلٌّ على العراق في أهل الشأم والجزيرة، وشيخ العرب يزيد بن عمر بن هبيرة بالعراق في حلْبة العرب! فقال أبو الغنائم: من أحبّ الحياة ذلّ، ثم تمثل بقولْ الأعشى:

فمــا ميتَــةٌ إن مِتُّهــا غيــرَ عــاجــز بعــارٍ إذا مـا غــالتِ النفسَ غُــولُهــا

فالتفت داود إلى ابنه موسى فقال: صدق والله ابنُ عمك، فارجع بنا معه نعش أعزّاء أو نمت كراماً، فرجعوا جميعاً، فكان عيسى بن موسى يقول إذا ذكر خروجهم من الحُميمة يريدون الكوفة: إن نفراً أربعة عشر رجلاً خرجوا من دارهم وأهليهم يطلبون مطالبَنا، لعظيمٌ همّهم كبيرة أنفسهم، شديدة قلوبهم.

ذكر بقيَّة الخبر عما كان
من الأحداث في سنة اثنتين وثلاثين ومائة

تمام الخبر عن سبب البيعة لأبي العباس عبدالله بن محمد بن عليّ وما كان من أمره:

قال أبو جعفر: قد ذكرنا من أمر أبي العباس عبدالله بن محمد بن عليّ ما حضرنا ذكره قبلُ، عمّن ذكرنا ذلك عنه؛ وقد ذكرنا من أمره وأمر أبي سلمة وسبب عقد الخلافة لأبي العباس أيضاً ما أنا ذاكره؛ وهو أنه لما بلغ أبا سلمة قتلُ مروان بن محمد إبراهيمَ الذي كان يقال له الإمام، بدا له في الدعاء إلى ولد العباس وأضمر الدّعاء

لغيرهم؛ وكان أبو سلمة قد أنزل أبا العباس حين قدم الكوفة مع مَن قدم معه من أهل بيته في دار الوليد بن سعد في بني أَوْد، فكان أبو سلمة إذا سئل عن الإمام يقول: لا تعجلوا، فلم يزل ذلك من أمره وهو في معسكره بحمّام أعين حتى خرج أبو حُميد، وهو يريد الكُناسة، فلقي خادماً لإبراهيم يقال له سابق الخوارزميّ، فعرفه، وكان يأتيهم بالشأم فقال له: ما فعل الإمام إبراهيم؟ فأخبره أنّ مَرْوان قتله غِيلة، وأن إبراهيم أوصى إلى أخيه أبي العباس، واستخلفه من بعده، وأنه قدم الكوفة ومعه عامّة أهل بيته، فسأله أبو حميد أن ينطلق به إليهم، فقال له سابق: الموعدُ بيني وبينك غداً في هذا الموضع، وكره سابق أن يدلّه عليهم إلا بإذنهم، فرجع أبو حميد من الغد إلى الموضع الذي وعد فيه سابقاً، فلقيه، فانطلق به إلى أبي العباس وأهل بيته، فلما دخل عليهم سأل أبو حُميد: مَن الخليفة منهم؟ فقال داود بن عليّ: هذا إمامكم وخليفتكم ـ وأشار إلى أبي العباس ـ فسلم عليه بالخلافة، وقبّل يديه ورجليه، وقال: مُرنا بأمرك، وعزّاه بالإمام إبراهيم.

وقد كان إبراهيم بن سلمة دخل عسكر أبي سَلمة متنكِّراً، فأتى أبا الجهم فاستأمنه، فأخبره أنه رسول أبي العباس وأهل بيته، وأخبره بمن معه وبموضعهم، وأنّ أبا العباس كان سرّحه إلى أبي سلمة يسأله مائة دينار، يعطيها للجمّال كراءَ الجمال التي قدِم بهم عليها، فلم يبعث بها إليه، ورجع أبو حميد إلى أبي الجَهْم، فأخبره بحالهم، فمشى أبو الجَهْم وأبو حُميد ومعهما إبراهيم بن سلمة، حتى دخلوا على موسى بن كعب، فقصّ عليه أبو الجهم الخبرَ، وما أخبره إبراهيم بن سلمة، فقال موسى بن كعب: عجِّل البعثة إليه بالدّنانير وسرِّحه. فانصرف أبو الجَهْم ودفع الدنانير إلى إبراهيم بن سلمة، وحمله على بَغْل وسرّح معه رجلين، حتى أدخلاه الكوفة، ثم قال أبو الجهم لأبي سلمة، وقد شاع في العسكر أن مروان بن محمد قد قتل الإمام: فإن كان قد قُتِل كان أخوه أبو العباس الخليفة والإمام من بعده؛ فردّ عليه أبو سلمة: يا أبا الجهم، اكفف أبا حميد عن دخول الكوفة، فإنهم أصحاب إرجاف وفساد.

فلما كانت الليلة الثانية أتى إبراهيم بن سلمة أبا الجهم وموسى بن كعب، فبلّغهما رسالة من أبي العباس وأهل بيته، ومشى في القوّاد والشيعة تلك الليلة، فاجتمعوا في منزل موسى بن كعب؛ منهم عبد الحميد بن رِبعيّ وسلمة بن محمد وعبدالله الطائيّ وإسحق بن إبراهيم وشراحيل وعبدالله بن بسام وغيرهم من القوّاد. فأتمروا في الدخول إلى أبي العباس وأهل بيته، ثم تسللوا من الغد حتى دخلوا الكوفة وزعيمهم موسى بن كعب وأبو الجهم وأبو حميد الحميريّ ـ وهو محمد بن إبراهيم ـ فانتهوا إلى دار الوليد بن سعد، فدخلوا عليهم، فقال موسى بن كعب وأبو الجهم: أيّكم أبو العباس؟ فأشاروا إليه، فسلموا عليه وعزّوه بالإمام إبراهيم، وانصرفوا إلى العسكر، وخلّفوا عنده أبا حميد وأبا مقاتل وسلمان بن الأسود ومحمد بن الحصين ومحمد بن الحارث ونهار بن حُصين ويوسف بن محمد وأبا هريرة محمد بن فروخ.

فبعث أبو سلمة إلى أبي الجَهْم فدعاه، وكان أخبره بدخوله الكوفة، فقال: أين كنت يا أبا الجهم؟ قال: كنت عند إمامي، وخرج أبو الجهم فدعا حاجب بن صدّان، فبعثه إلى الكوفة، وقال له: ادخل، فسلِّم على أبي العباس بالخلافة، وبعث إلى أبي حميد وأصحابه: إن أتاكم أبو سلمة فلا يدخل إلا وحدَه؛ فإن دخل وبايع فسبيله ذلك؛ وإلا فاضربوا عنقه؛ فلم يلبثوا أن أتاهم أبو سلمة فدخل وحدَه، فسلم على أبي العباس بالخلافة، فأمره أبو العباس بالانصراف إلى عسكره، فانصرف من ليلته، فأصبح الناس قد لبسوا سلاحَهم،

واصطفّوا لخروج أبي العباس، وأتوْه بالدوابّ، فركب ومَن معه من أهل بيته حتى دخلوا قصر الإمارة بالكوفة يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلَتْ من شهر ربيع الآخر. ثم دخل من المسجد من دار الإمارة، فصعِد المِنبر، فحمِد الله وأثنى عليه، وذكر عظمة الربّ تبارك وتعالى وفضل النبيّ ﷺ، وقاد الولاية والوراثة حتى انتهيَا إليه، ووعد الناس خيراً ثم سكت.

وتكلّم داود بن عليّ وهو على المنبر أسفلَ من أبي العباس بثلاث درجات، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ، وقال: أيّها الناس، إنه والله ما كان بينكم وبين رسول الله ﷺ خليفة إلا عليّ بن أبي طالب وأمير المؤمنين هذا الذي خلفي. ثم نزلا وخرج أبو العباس، فعسكر بحمام أعين في عسكر أبي سلَمة، ونزل معه في حجرته، بينهما ستر، وحاجب أبي العباس يومئذ عبدالله بن بسام. واستخلف على الكوفة وأرضها عمّه داود بن عليّ، وبعث عمه عبدالله بن عليّ إلى أبي عَوْن بن يزيد، وبعث ابن أخيه عيسى بن موسى إلى الحسن بن قَحْطبة، وهو يومئذ بواسط محاصر ابنَ هبيرة، وبعث يحيى بن جعفر بن تمام بن عباس إلى حُميد بن قحطبة بالمدائن، وبعث أبا اليقظان عثمان بن عروة بن محمد بن عمار بن ياسر إلى بسام بن إبراهيم بن بسام بالأهواز، وبعث سلمة بن عمرو بن عثمان إلى مالك بن طريف، وأقام أبو العباس في العسكر أشهراً ثم ارتحل، فنزل المدينة الهاشمية في قصر الكوفة، وقد كان تنكّر لأبي سلمة قبل تحوّله حتى عرف ذلك.

وفي هذه السنة هُزم مروان بن محمد بالزّاب.

ذكر الخبر عن هذه الوقعة وما كان سببها وكيف كان ذلك:

ذكر عليّ بن محمد أن أبا السريّ وجَبَلة بن فرّوخ والحسن بن رشيد وأبا صالح المروزيّ وغيرهم أخبروه أن أبا عون عبد الملك بن يزيد الأزديّ وجّهه قحطبة إلى شهرزُور من نهاوند، فقتل عثمان بن سفيان، وأقام بناحية المَوْصِل، وبلغ مَرْوان أن عثمان قد قُتِل، فأقبل من حرّان: فنزل منزلاً في طريقه، فقال: ما اسم هذا المنزل؟ قال: بَلْوى، قال: بل عَلْوى وبُشرى. ثم أتى رأس العين، ثم أتى الموصل، فنزل على دِجلة، وحفر خندقاً فسار إليه أبو عَوْن، فنزل الزّاب، فوجّه أبو سلمة إلى أبي عون عيينة بن موسى والمنهال بن فتّان وإسحاق بن طلحة؛ كلّ واحد في ثلاثة آلاف: فلما ظهر أبو العباس بعثَ سلمة بن محمد في ألفيْن وعبدالله الطائيّ في ألف وخمسمائة وعبد الحميد بن رِبعيّ الطائيّ في ألفيْن، ووداس بن نَضْلة في خمسمائة إلى أبي عون. ثم قال: مَنْ يسير إلى مروان من أهل بيتي؟ فقال عبدالله بن عليّ: أنا، فقال: سِرْ على بركة الله، فسار عبدالله بن عليّ، فقدم على أبي عون، فتحوّل له أبو عون عن سُرادقه وخلّاه وما فيه، وصيّر عبدالله بن عليّ على شُرْطته حيّاش بن حبيب الطائيّ، وعلى حَرسه نصير بن المحتفز، ووجّه أبو العباس موسى بن كعب في ثلاثين رجلاً على البريد إلى عبدالله بن عليّ، فلما كان لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين ومائة، سأل عبدالله بن عليّ عن مخاضة، فدُلّ عليها بالزّاب، فأمر عيينة بن موسى فعبَر في خمسة آلاف، فانتهى إلى عسكر مَرْوان، فقاتلهم حتى أمسوْا، ورُفعت لهم النيران فتحاجزوا، ورجع عيينة فعبَر المخاضة إلى عسكر عبدالله بن عليّ؛ فأصبح مَرْوان فعقد الجسر، وسرّح ابنه عبدالله يحفر خندقاً أسفلَ من عسكر عبدالله بن عليّ، فبعث عبدالله بن عليّ المخارق بن غِفار في أربعة آلاف، فأقبل حتى نزل على خمسة أميال من عسكر عبدالله بن عليّ، فسرّح عبدالله بن مَرْوان إليه الوليد بن معاوية، فلقي المخارق، فانهزم أصحابُه، وأُسِروا، وقتل منهم يومئذ

عِدّة، فبعث بهم إلى عبدالله، وبعث بهم عبدالله إلى مَرْوان مع الرؤوس، فقال مروان: أدخِلوا عليّ رجلاً من الأسارَى، فأتوْه بالمخارق ـ وكان نحيفاً ـ فقال: أنت المخارق؟ فقال: لا، أنا عبد من عبيد أهل العسكر، قال: فتعرف المخارق؟ قال: نعم، قال: فانظر في هذه الرؤوس هل تراه؟ فنظر إلى رأس منها، فقال: هو هذا، فخلّى سبيله، فقال رجل مع مروان حين نظر إلى المخارق وهو لا يعرفه: لعن الله أبا مسلم حين جاءنا بهؤلاء يقاتلنا بهم!

قال عليّ: حدثنا شيخ من أهل خراسان قال: قال مرْوان [للمخارق]: تعرف المخارق إن رأيته؟ فإنهم زعموا أن في هذه الرؤوس التي أتينا بها، قال: نعم، قال: اعرضوا عليه تلك الرؤوس، فنظر فقال: ما أرى رأسه في هذه الرؤوس، ولا أراه إلاّ وقد ذهب، فخلّى سبيله. وبلغ عبد الله بن عليّ انهزام المخارق، فقال له موسى بن كعب: اخرج إلى مَرْوان قبل أن يصل الفَلّ إلى العسكر، فيظهر ما لقي المخارق. فدعا عبدالله بن عليّ على محمد بن صوْل، فاستخلفَه على العسكر، وسار على ميمنته أبو عون، وعلى ميسرة مَرْوان الوليد بن معاوية، ومع مروان ثلاثة آلاف من المحمرة ومعه الذّكوانية والصَّحصحية والرّاشدية، فقال مروان لما التقى العسكران لعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز: إن زالت الشمس اليوم ولم يقاتلونا كنا الـذين ندفعهـا إلى عيسى بن مريم؛ وإن قاتلونا قبل الزوال؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون. وأرسل مَرْوان إلى عبدالله بن عليّ يسأله الموادعة، فقال عبدالله: كذب ابن زُريق، ولا تزول الشمس حتى أوطِئه الخيل إن شاء الله. فقال مروان لأهل الشأم: قِفوا لا تبدؤوهم بقتال؛ فجعل ينظر إلى الشمس، فحمل الوليد بن معاوية بن مروان وهو ختن مروان على ابنته، فغضب وشتمه. وقاتل ابنُ معاوية أهلَ الميمنة، فانحاز أبو عون إلى عبدالله بن عليّ، فقال موسى بن كعب لعبدالله: مر الناس فلينزلوا، فنودي: الأرض، فنزل الناس، وأشرعوا الرماح، وجَثَوْا على الرّكَب، فقاتلوهم، فجعل أهل الشأم يتأخّرون كأنهم يدفعون؛ ومشى عبدالله قُدماً وهو يقول: يا ربّ، حتى متى نُقْتَل فيك! ونادى: يا أهل خُراسان، يا لثارات إبراهيم! يا محمد، يا منصور! واشتدّ بينهم القتال. وقال مروان لقضاعة: انزلوا، فقالوا: قل لبني سليم فلينزلوا، فأرسل إلى السكاسك أن احملوا، فقالوا: قل لبني عامر فليحمِلوا، فأرسل إلى السَّكون أن احملوا، فقالوا: قل لغطفان فليحملوا، فقال لصاحب شُرَطه: انزل، فقال: لا والله ما كنتُ لأجعلَ نفسي غرَضاً. قال: أما والله لأسوءنّك، قال: وددت والله أنك قدرت على ذلك. ثم انهزم أهلُ الشأم، وانهزم مَرْوان، وقطع الجسر؛ فكان مَنْ غرق يومئذ أكثر ممن قُتِل؛ فكان فيمن غرق يومئذ إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخلوع، وأمر عبدالله بن عليّ فعقد الجسْر عـلى الزّاب، واستخرجوا الغرقَى فأخرجوا ثلاثمائـة، فكان فيمن أخرجوا إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، فقال عبدالله بن عليّ: ﴿ وإِذْ فَرقْنَا بِكُمُ البَحْر فَأَنْجَيناكُمْ وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُم تَنْظُرون﴾[1].

وأقام عبدالله بن عليّ في عسكره سبعة أيام، فقال رجل من ولد سعيد بن العاصي يعيّر مروان:

لَـجَّ الـفِـرارُ بـمـروانٍ فـقـلتُ لَـهُ ... عَـادَ الـظلومُ ظَليمـاً هَمُّـه الهَـرَبُ
أين الفـرارُ وتـركُ الـمُلْكِ إذ ذهبت ... عنـك الهُـوَينَى فـلا دين ولا حَسبُ
فـراشَـةُ الحِلم فِـرْعَـوْنُ العِقـابِ وإنْ ... تَـطْلُبْ نَـداهُ فـكـلبٌ دونـه كَـلِبُ

(١) سورة البقرة ٥٠.

وكتب عبدالله بن عليّ إلى أمير المؤمنين أبي العباس بالفتح، وهرب مروان وحوى عسكر مروان بما فيه، فوجد فيه سلاحاً كثيراً وأموالاً؛ ولم يجدوا فيه امرأةً إلا جارية كانت لعبدالله بن مروان؛ فلمّا أتى العباس كتابُ عبدالله بن عليّ صلى ركعتين، ثم قال: ﴿فلمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَعلَّمه مِمَّا يَشَاءُ﴾[٢]. وأمر لمن شهد الوقعة بخمسمائة خمسمائة، ورفع أرزاقهم إلى ثمانين.

حدثنا أحمد بن زهير، عن عليّ بن محمد، قال: قال عبد الرحمن بن أميّة: كان مَرْوان لما لقيه أهلُ خُراسان، لا يدبّر شيئاً إلا كان فيه الخلل والفساد. قال: بلغني أنّه كان يوم انهزم واقفاً، والناس يقتتلون؛ إذ أمَرَ بأموال فأخرجت، وقال الناس: اصبروا وقاتلوا، فهذه الأموال لكم، فجعل ناسٌ من الناس يصيبون من ذلك المال، فأرسلوا إليه: إنّ الناس قد مالوا على هذا المال، ولا نأمنهم أن يذهبوا به. فأرسل إلى ابنه عبدالله أن سِرْ في أصحابك إلى مؤخّر عسكرك، فاقتل مَنْ أخذ من ذلك المال وامنعْهم؛ فمال عبدالله برايته وأصحابه، فقال الناس: الهزيمة؛ فانهزموا.

حدّثنا أحمد بن عليّ، عن أبي الجارود السُّلميّ، قال: حدّثني رجل من أهل خُراسان، قال: لقيَنا مروان على الزّاب، فحمل علينا أهل الشأم كأنهم جبال حديد، فجثَوْنا وأشرعنا الرماح، فمالوا عنا كأنهم سحابة، ومَنحنا الله أكتافهم، وانقطع الجِسْر ممّا يليهم حين عبروا، فبقيَ عليه رجلٌ من أهل الشأم، فخرج عليه رجل منا، فقتله الشأميّ، ثم خرج آخر فقتله؛ حتى والى بين ثلاثة؛ فقال رجل منا: اطلبوا لي سيفاً قاطعاً، وتُرْساً صلباً، فأعطيناه، فمشى إلى فضربه الشأميّ فاتّقاه بالترس، وضرب رِجْله فقطعها، وقتله ورجع؛ وحملناه وكبَّرنا فإذا هو عبيدالله الكابليّ.

وكانت هزيمة مَرْوان بالزّاب ـ فيما ذكر ـ صبيحة يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلتْ من جمادي الآخرة.

وفي هذه السنة قتِل إبراهيم بن محمد بن عليّ بن عبدالله بن عباس:

ذكر الخبر عن سبب مقتله:

اختلف أهلُ السِّيَر في أمر إبراهيم بن محمد، فقال بعضهم: لم يُقتل ولكنه مات في سجن مَرْوان بن محمد بالطاعون.

ذكر من قال ذلك:

حدّثني أحمد بن زهير، قال: حدّثنا عبد الوهاب بن إبراهيم بن خالد، قال: حدّثنا أبو هاشم مخلّد بن محمد بن صالح، قال: قدم مروان بن محمد الرَّقة حين قدمها متوجهاً إلى الضّحاك بسعيد بن هشام بن عبد الملك وابنيْه عثمان ومرْوان؛ وهم في وَثاقهم معه؛ فسرّح بهم إلى خليفته بحرّان، فحبسهم في حَبْسها، ومعهم إبراهيم بن عليّ بن عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر بن عبد العزيز والعباس بن الوليد وأبو محمد السفيْانيّ ـ وكان يقال له البَيْطار ـ ، فهلك في سجن حَرّان منهم في وباء وقع بحرّان العباس بن الوليد وإبراهيم بن محمد وعبدالله بن عمر. قال: فلمّا كان قبل هزيمة مَرْوان من الزّاب يوم هزمه عبدالله بن عليّ بجمعة، خرج سعيد بن هشام ومَن معه من المحبّسين، فقتلوا صاحب السجن، وخرج فيمن معه، وتخلف أبو محمد السفيانيّ في

---

(١) سورة البقرة ٢٤٩ .

الحبس، فلم يخرج فيمن خرج، ومعه غيره لم يستحلّوا الخروج من الحَبْس، فقتَل أهلَ حَرّان ومَن كان فيها من الغوغاء سعيد بن هشام وشَراحيل بن مسلمة بن عبد الملك وعبد الملك بن بشر التغلبيّ، وبطريق أرمينية الرابعة ـ وكان اسمه كوشان ـ بالحجارة، ولم يلبث مَرْوان بعد قتلهم إلّا نحواً من خمس عشرة ليلة؛ حتى قدم حرّان منهزماً من الزّاب، فخلّى عن أبي محمد ومَن كان في حبسه من المحبّسين.

وذكر عمر أن عبدالله بن كثير العبديّ حدّثه عن علي بن موسى، عن أبيه، قال: هدم مروان على إبراهيم بن محمد بيتاً فقتله.

قال عمرو: وحدثني محمد بن معروف بن سويد، قال: حدّثني أبي عن المهلهل بن صفوان ـ قال عمر: ثم حدّثني المفضّل بن جعفر بن سليمان بعده؛ قال: حدّثني المهلهل بن صفوان ـ قال: كنتُ أخدم إبراهيم بن محمد في الحبس؛ وكان معه في الحبس عبدالله بن عمر بن عبد العزيز وشراحيل بن مسلمة بن عبد الملك فكانوا يتزاورون، وخصّ الذي بين إبراهيم وشَراحيل فأتاه رسوله يوماً بلبن، فقال: يقول لك أخوك: إنّي شربتُ من هذا اللبن فاستطبتُه فأحببتُ أن تشربَ منه، فتناوله فشرب فتوصّب من ساعته وتكسره جسده، وكان يوماً يأتي فيه شراحيل، فأبطأ عليه، فأرسل إليه: جُعِلت فداك! قد أبطأت فما حبسك؟ فأرسل إليه: إني لما شربت اللبن الذي أرسلته إليّ أخلفني، فأتاه شراحيل مذعوراً وقال: لا والله الذي لا إله إلا هو؛ ما شرِبْتُ اليوم لبناً، ولا أرسلت به إليك، فإنا لله وإنا إليه راجعون! احتيل لك والله. قال: فوالله ما بات إلّا ليلته وأصبح من غد ميتاً؛ فقال إبراهيم بن عليّ بن سلمة بن عامر بن هرمة بن هذيل بن الربيع بن عامر بن صبيح بن عديّ بن قيس ـ وقيس هو ابن الحارث بن فهر ـ يرثيه:

قــد كنتُ أحسِبُني جَلداً فَضَعْضَعَني ... قبـرٌ بحَـرَّانَ فيــه عِصْمَــةُ الــدينِ
فيــه الإمــامُ وخيــرُ النــاس كلِّهــمُ ... بين الصفــائــح والأحجــار والــطين
فيــه الإمــامُ الــذي عَمَّتْ مُصيبتُــه ... وعَيَّلَتْ كــلَّ ذي مــال ومِسكيـنِ
فــلا عفـا اللّهُ عن مــروانَ مــظلمــةً ... لـكنْ عفــا الـلّهُ عمَّــن قــال آميـن

وفي هذه السنة قتِل مَروان بن محمد بن مروان بن الحكم.

ذكر الخبر عن مقتله وقتاله من قاتله من أهل الشأم في طريقه وهو هارب من الطلب:

حدّثني أحمد بن زهير، قال: حدّثنا عبد الوهاب بن إبراهيم، قال: حدّثني أبو هاشم مخلد بن محمد، قال: لما انهزم مَرْوان من الزّاب كنتُ في عسكره. قال: كان لمروان في عسكره بالزّاب عشرون ومائة ألف؛ وكان في عسكره ستون ألفاً، وكان في عسكر ابنه عبدالله مثل ذلك، والزّاب بينهم، فلقيه عبدالله بن عليّ فيمن معه وأبي عون وجماعة قوّاد، منهم حُمَيد بن قحطبة؛ فلما هُزموا سار إلى حَرّان وبها أبان بن يزيد بن محمد بن مَرْوان، ابن أخيه عامله عليها، فأقام بها نيِّفاً وعشرين يوماً. فلما دنا منه عبدُالله بن عليّ حمل أهله وولده وعياله، ومضى منهزماً، وخلّف بمدينة حرّان أبان بن يزيد؛ وتحته ابنة لمروان يقال لها أمّ عثمان، وقدم عبدالله بن عليّ، فتلقاه أبان مسوّداً مبايعاً له، فبايعه ودخل في طاعته، فآمنه ومَن كان بحرّان والجزيرة. ومضى مَرْوان حتى مرّ بقِنَّسرين وعبدالله بن عليّ متبع له. ثم مضى من قنّسرين إلى حِمْص، فتلقاه أهلها بالأسواق وبالسمع والطاعة فأقام بها يومَين أو ثلاثة، ثم شخص منها؛ فلما رأوا قِلة مَن معه طمعوا فيه، وقالوا: مرعوب منهزم، فاتّبعوه بعد ما رحل

عنهم؛ فلحقوه على أميال، فلما رأى غَبَرة خيلهم أكمن لهم في واديين قائدين من مواليه، يقال لأحدهما يزيد والآخر مخلّد؛ فلما دنَوا منه وجازوا الكمينين ومضى الذراريّ صافّهم فيمن معه وناشدهم، فأبوا إلا مكاثرته وقتاله، فنشب القتال بينهم؛ وثار الكمينـان من خلْفهم؛ فهزمهم وقتلتْهم خيلُه حتى انتهـوا إلى قريب من المدينة.

قال: ومضى مَرْوان حتى مرّ بدمشق، وعليها الوليد بن معاوية بن مروان؛ وهو ختَن لمروان؛ متزوج بابنة له يقال لها أمّ الوليد، فمضى وخلفه بها حتى قدم عبدُالله بن عليّ عليه، فحاصره أياماً، ثم فتحت المدينة، ودخلها عَنْوة معترضاً أهلها. وقتل الوليد بن معاوية فيمن قُتِل، وهدَم عبدالله بن عليّ حائط مدينتها، ومرّ مروان بالأرْدنّ، فشخص معه ثعلبة بن سلامة العامليّ، وكان عامله عليها، وتركها ليس عليها والٍ، حتى قدم عبدالله بن عليّ فولى عليها، ثم قدم فلسطين وعليها من قبله الرّماحس بن عبد العزيز. فشخص به معه؛ ومضى حتى قدم مصر، ثم خرج منها حتى نزل منزلاً منها يقال له بوصير؛ فبيّته عامر بن إسماعيل وشعبة ومعهما خيل أهل الموصل فقتلوه بها، وهرب عبدالله وعبيدالله ابنا مروان ليلة بُيِّت مروان إلى أرض الحبشة، فلقوا من الحبشة بلاءً وقاتلتهم الحبشة، فقتلوا عبيدالله، وأفلت عبدالله في عدّة ممن معه؛ وكان فيهم بكر بن معاوية الباهليّ، فسلم حتى كان في خلافة المهديّ، فأخذه نصر بن محمد بن الأشعث عامل فلسطين، فبعث به إلى المهديّ.

وأما عليّ بن محمد؛ فإنه ذكر أن بشر بن عيسى والنعمان أبا السريّ ومحرز بن إبراهيم وأبا صالح المروزيّ وعمار مولى جبريل أخبروه أنّ مروان لقي عبد الله بن عليّ في عشرين ومائة ألف وعبد الله في عشرين ألفاً.

وقد خولف هؤلاء في عدد من كان مع عبد الله بن عليّ يومئذ. فذكر مسلم بن المغيرة، عن مصعب بن الربيع الخثعميّ وهو أبو موسى بن مصعب ـ وكان كاتباً لمروان ـ قال: لما انهزم مروان، وظهر عبد الله بن عليّ على الشأم، طلبت الأمانَ فآمنني، فإني يوماً جالس عنده؛ وهو متّكىء إذ ذكر مروان وانهزامه، قال: أشهدتَ القتال؟ قلتُ: نعم أصلح الله الأمير! فقال: حدِّثني عنه؛ قال: قلت: لما كان ذلك اليوم قال لي: احزر القوم، فقلت: إنما أنا صاحب قلم؛ ولستُ صاحب حرب؛ فأخذ يمنة ويسرة ونظر فقال: هم اثنا عشر ألفاً، فجلس عبد الله، ثم قال: ماله قاتله الله! ما أحصى الديوان يومئذ فضلاً على اثني عشر ألف رجل!

رجع الحديث إلى حديث عليّ بن محمد عن أشياخه: فانهزم مروان حتى أتى مدينة الموصـل؛ وعليها هشام بن عمرو التغلبيّ وبشر بن خزيمة الأسديّ، وقطعوا الجسر، فناداهم أهل الشأم: هذا مروان، قالوا: كذبتم، أمير المؤمنين لا يفرّ، فسار إلى بلد، فعبر دجْلة، فأتى حرّان ثم أتى دمشق، وخلّف بهـا الوليـد بْن معاوية، وقال: قاتلهم حتى يجتمع أهل الشأم. ومضى مَرْوان حتى أتى فلسطين، فنزل نهر أبي فُطْرُس، وقد غلب على فلسطين الحكم بن ضَبْعان الجُذاميّ، فـأرسل مَـرْوان إلى عبد الله بن يـزيد بن روح بن زِنبـاع، فأجازه، وكان بيت المال في يد الحكم. وكتب أبو العباس إلى عبد الله بن عليّ يأمره باتباع مروان، فسار عبد الله إلى الموصل، فتلقاه هشام بن عمرو التغلبيّ وبشر بن خزيمة. وقد سوّدا في أهل الموصل، ففتحوا له المدينة، ثم سار إلى حَرّان، وولّى الموصل محمد بن صول؛ فهدم الدّار التي حبس فيها إبراهيم بن محمد، ثم سار من حَرّان إلى منبج وقد سوّدوا، فنزل مَنْبج وولاها أبا حميد المروروذيّ، وبعث إليه أهل قنّسرين ببيعتهم إياه بما أتاه به

عنهم أبو أمية التغلَبيّ. وقدم عليه عبد الصمد بن عليّ، أمده به أبو العباس في أربعة آلاف، فأقام يومين بعد قدوم عبد الصّمد، ثم سار إلى قنّسرين، فأتاها وقد سوّد أهلها، فأقام يومين، ثم سار حتى نزل حِمْص، فأقام بها أيّاماً وبايع أهلها، ثم سار إلى بعلبكّ، فأقام يومين ثم ارتحل؛ فنزل بعين الحرّ، فأقام يومين ثم ارتحل، فنزل مِزّة (قرية من قرى دمشق) فأقام. وقدم عليه صالح بن عليّ مَدَداً، فنزل مرّج عذراء في ثمانية آلاف، معه بسام بن إبراهيم وخفّاف وشعبة والهيثم بن بسام. ثم سار عبد الله بن عليّ، فنزل على الباب الشرقي، ونزل صالح بن عليّ على باب الجابية، وأبو عون على باب كيسان، وبسام على باب الصغير، وحُميد بن قحطبة على باب توما، وعبد الصمد ويحيى بن صفوان والعباس بن يزيد على باب الفراديس ـ وفي دمشق الوليد بن معاوية ـ فحصروا أهل دمشق والبلْقاء، وتعصّب الناس بالمدينة، فقتل بعضهم بعضاً، وقتلوا الوليد، ففتحوا الأبواب يوم الأربعاء لعشر مضين من رمضان سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فكان أوّل مَنْ صعد سور المدينة من الباب الشرقيْ عبد الله الطائيّ، ومن قِبَل باب الصغير بسّام بن إبراهيم، فقاتلوا بها ثلاث ساعات، وأقام عبد الله بن عليّ بدمشق خمسة عشر يوماً، ثم سار يريد فلسطين، فنزل نهر الكُسوة، فوجّه منها يحيى بن جعفر الهاشميّ إلى المدينة، ثم ارتحل إلى الأردنّ، فأتوْه وقد سوّدوا، ثم نزل بَيْسان، ثم سار إلى مَرْج الرّوم، ثم أتى نهر أبي فُطْرُس، وقد هرب مَرْوان، فأقام بفلسطين، وجاءه كتاب أبي العباس؛ أنْ وجّه صالح بن عليّ في طلب مروان، فسار صالح بن عليّ من نهر أبي فطرس في ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين ومائة؛ ومعه ابن فتان وعامر بن إسماعيل وأبو عون، فقدّم صالح بن عليّ أبا عون على مقدّمته وعامر بن إسماعيل الحارثيّ، وسار فنزل الرّمْلة، ثم سار فنزلوا ساحل البحر، وجمع صالح بن عليّ السفن وتجهز يريد مَرْوان، وهو بالفرَماء، فسار على الساحل والسفن حذاءه في البحر؛ حتى نزل العريش.

وبلغ مروان فأحرق ما كان حوله من علَف وطعام وهرب، ومضى صالح بن عليّ فنزل الليل، ثم سار حتى نزل الصعيد. وبلغه أن خيلاً لمرْوان بالساحل يحرقون الأعلاف، فوجّه إليهم قوّاداً، فأخذوا رجالاً، فقدِموا بهم على صالح وهو بالفسطاط، فعبر مَروان النيل، وقطع الجسر، وحرق ما حَوْله، ومضى صالح يتبعه، فالتقى هو وخيل لمرْوان على النيل فاقتتلوا، فهزمهم صالح، ثم مضى إلى خليج، فصادف عليه خيلاً لمروان، فأصاب منهم طرفاً وهزمهم، ثم سار إلى خليج آخر فعبروا، ورأوا رَهَجاً فظنوه مروان، فبعث طليعة عليها الفضْل بن دينار ومالك بن قادم، فلم يلقْوا أحداً ينكرونه، فرجعوا إلى صالح فارتحل، فنزل موضعاً يقال له ذات الساحل؛ ونزل فقدم أبو عون عامرَ بن إسماعيل الحارثيّ، ومعه شعبة بن كثير المازنيّ، فلقوا خيلاً لمروان وافوهم، فهزموهم وأسروا منهم رجالاً، فقتلوا بعضهم، واستحيْوا بعضاً فسألوا عن مروان فأخبروهم بمكانه، على أن يؤمنوهم، وساروا فوجدوه نازلاً في كنيسة في بُوصير، ووافوهم في آخر الليل، فهرب الجند وخرج إليهم مروان في نفر يسير، فأحاطوا به فقتلوه.

قال عليّ: وأخبرني إسماعيل بن الحسن، عن عامر بن إسماعيل قال: لقينا مروان ببوصير ونحن في جماعة يسيرة فشدوا علينا، فانضوينا إلى نخل ولو يعلمون بقلّتنا لأهلكونا، فقلت لمن معي من أصحابي: فإن أصبحنا فرأوْا قلّتنا وعددنا لم ينجُ منا أحد؛ وذكرت قول بكير بن ماهان: أنت والله تقتل مروان؛ كأني أسمعك، تقول «دهيدباجُوانكثان»؛ فكسرت جفن سيفي وكسر أصحابي جفون سيوفهم، وقلت: «دهيدياجوانكثان» فكأنها نار صُبّت عليهم، فانهزموا وحمل رجل على مرْوان فضربه بسيفه فقتله. وركب عامر بن إسماعيل إلى

صالح بن عليّ، فكتب صالح بن عليّ إلى أمير المؤمنين أبي العباس: إنّا اتّبعنا عدوّ الله الجعديّ حتى ألجأناه إلى أرض عدوّ الله شبيهه فرعون، فقتلته بأرضه.

قال عليّ: حدثنا أبو طالب الأنصاريّ، قال: طعن مروان رجلٌ من أهل البصرة ـ يقال له المغود، وهو لا يعرفه ـ فصرعه، فصاح صائح: صُرِع أمير المؤمنين، وابتدروه، فسبق إليه رجل من أهل الكوفة كان يبيع الرمان، فاحتزّ رأسه، فبعث عامر بن إسماعيل برأس مروان إلى أبي عَوْن، فبعث بها أبو عون إلى صالح بن عليّ، وبعث صالح برأسه مع يزيد بن هانىء ـ وكان على شرَطه ـ إلى أبي العباس يوم الأحد، لثلاث بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة،ورجع صالح إلى الفسطاط، ثم انصرف إلى الشأم، فدفع الغنائم إلى أبي عَوْن، والسلاحَ والأموال والرّقيق إلى الفَضْل بن دينار، وخلّف أبا عون على مِصْر.

قال عليّ: وأخبرَنا أبو الحسن الخُراسانيّ، قال: حدّثنا شيخ من بكْر بن وائل، قال: إني لبدير قنًّى مع بكير بن ماهان ونحن نتحدّث؛ إذ مرّ فتًى معه قربتان؛ حتى انتهى إلى دِجلة، فاستقى ماء، ثم رجع فدعاه بكير، فقال: ما اسمك يا فتى؟ قال: عامر، قال: ابن مَنْ؟ قال: ابنُ إسماعيل، من بَلْحارث، قال: وأنا من بَلْحارث، قال: فكن من بني مُسليَة، قال: فأنا منهم، قال: فأنت والله تقتل مَرْوان، لكأني والله أسمعك تقول: «يا جوانكثان دهيد».

قال عليّ: حدثنا الكنانيّ، قال: سمعتُ أشياخنا بالكوفة يقولون: بنو مسلية قتلة مروان.

وقتل مروان يوم قتل وهو ابن اثنتين وستين سنة في قول بعضهم، وفي قول آخرين: وهو ابن تسع وستين، وفي قول آخرين: وهو ابن ثمان وخمسين.

وقتِل يومَ الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة، وكانت ولايته من حين بويع إلى أن قتِل خمس سنين وعشرة أشهر وستة عشر يوماً، وكان يكنى أبا عبد الملك. وزعم هشام بن محمد أن أمه كانت أم ولد كرديّة.

وقد حدثني أحمد بن زهير، عن عليّ بن محمد، عن عليّ بن مجاهد وأبي سِنان الجُهنيّ، قالا: كان يقال: إنّ أم مَرْوان بن محمد كانت لإبراهيم بن الأشتر؛ أصابها محمد بن مروان بن الحكَم يوم قتل ابن الأشتر، فأخذها من ثَقله وهي تتنيّق، فولدت مَرْوان على فراشه، فلما قام أبو العباس دخل عليه عبد الله بن عيَّاش المنتوف، فقال: الحمد لله الذي أبدَلنا بحمار الجزيرة وابن أمَة النَّخَع ابن عمّ رسول الله ﷺ وابن عبد المطلب.

وفي هذه السنة قتل عبد الله بن عليّ مَن قتل بنهر أبي فطرس من بني أمية، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً.

وفيها خلَع أبو الورْد أبا العباس بقنّسرين؛ فبيّض وبيّضوا معه.

ذكر الخبر عن تبيض أبي الورد
وما آل إليه أمره وأمر من بيّض معه

وكان سبب ذلك ـ فيما حدثني أحمد بن زهير ـ قال: حدّثني عبد الوهاب بن إبراهيم، قال: حدّثني أبو هاشم مخالد بن محمد بن صالح، قال: كان أبو الوَرْد ـ واسمه مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابيّ، من أصحاب مَرْوان وقوّاده وفرسانه ـ فلما هُزِم مروان، وأبو الورد بقنَّسرين، قدِمها عبد الله بن عليّ فبايعه ودخل فيما دخل فيه جندُه من الطاعة. وكان ولد مسلمة بن عبد الملك مجاوِرين له ببالِس والناعورة، فقدِم بالس قائد

من قواد عبد الله بن عليّ من الأزارمردين في مائة وخمسين فارساً، فبعث بولد مسلمَة بن عبد الملك ونسائهم، فشكا بعضُهم ذلك إلى أبي الوَرد، فخرج من مزرعة يقال لها زرّاعة بني زفر ـ ويقال لها خُساف ـ في عدّة من أهل بيته؛ حتى هجَم على ذلك القائد وهو نازل في حصن مسلمة؛ فقاتله حتى قتله ومَن معه، وأظهر التبييض والخَلْع لعبد الله بن عليّ، ودعا أهل قنّسرين إلى ذلك، فبيّضوا بأجمعهم، وأبو العباس يومئذ بالحيرة وعبد الله بن عليّ يومئذ مشتغل بحرْب حبيب بن مرّة المرّيّ، فقاتله بأرض البلْقاء والبثنيّة وحُوران. وكان قد لقيه عبد الله بن عليّ في جموعه فقاتلهم وكان بينه وبينهم وقعات؛ وكان من قوّاد مَرْوان وفرسانه. وكان سبب تبييضِه الخوف على نفسه وعلى قومه، فبايعتْه قيس وغيرهم ممن يليهم من أهل تلك الكور؛ البثنية وحُوران. فلما بلغ عبد الله بن عليّ تبييضُهُم، دعا حبيب بن مرّة إلى الصلح فصالحه وآمنه ومن معه، وخرج متوجّهاً نحو قنّسرين للقاء أبي الوَرد، فمرّ بدمشق، فخلف فيها أبا غانم عبد الحميد بن ربعيّ الطائيّ في أربعة آلاف رجل من جنده؛ وكان بدمشق يومئذ امرأة عبد الله بن عليّ أمّ البنين بنت محمد بن عبد المطلب النوفليّة أخت عمرو بن محمد، وأمهات أولاد لعبد الله وثَقَل له. فلما قدِم حِمْص في وجهه ذلك انتقض عليه بعده أهلُ دمشق فبيّضوا، ونهضوا مع عثمان بن عبد الأعلى بن سرادقة الأزديّ. قال: فلقُوا أبا غانم ومَنْ معه، فهزموه وقتلوا من أصحابه مقتلة عظيمة، وانتهبوا ما كان عبد الله بن علـيّ خلّف من ثَقَله ومتاعـه؛ ولم يعرِضـوا لأهله، وبيّض أهل دمشق واستجمعوا على الخلاف، ومضى عبد الله بن عليّ ـ وقد كان تجمّع مع أبي الوَرد جماعة أهل قنّسرين، وكاتبوا مَنْ يليهم من أهل حِمْص وتَدْمر، وقدمهم ألوف، عليهم أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، فرأسوا عليهم أبا محمد، ودعوا إليه وقالوا: هو السفيانيّ الذي كان يذكر وهو في نحو من أربعين ألفاً ـ فلما دنا منهم عبد الله بن عليّ وأبو محمد معسكر في جماعته بمرْج يقال له مرْج الأخرم ـ وأبو الوَرد المتولي لأمر العسكر والمدبّر له وصاحب القتال والوقائع ـ وجّه عبد الله أخاه عبد الصمد بن عليّ في عشرة آلاف من فرسان من معه؛ فناهضهم أبو الوَرد، ولقيَهم فيما بين العسكرين، واشتجر القتل فيما بين الفريقيْن وثبت القـوم، وانكشف عبد الصمد ومَن معه، وقتِل منهم يومئذ ألوف، وأقبل عبد الله حيث أتاه عبد الصمد ومعه حُميد بن قحطبة وجماعة من معه من القوّاد، فالتقوْا ثانية بمرْج الأخرم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانكشف جماعة ممّن كـان مع عبد الله، ثم ثابوا، وثبت لهم عبد الله وحميد بن قحطبة فهزموهم، وثبت أبو الورْد في نحو من خمسمائة من أهل بيته وقومه، فقتلوا جميعاً، وهرب أبو محمد ومَن معه من الكلبيّة حتى لحقوا بتدْمر، وآمن عبد الله أهلَ قنّسرين، وسوّدوا وبايعوه، ودخلوا في طاعته؛ ثم انصرف راجعاً إلى أهل دمشق، لما كان من تبييضهم عليه، وهزيمتهم أبا غانم. فلما دنا من دمشق هرَب الناس وتفرقوا، ولم يكن بينهم وقعة، وآمن عبد الله أهلها، وبايعوه ولم يأخذهم بما كان منهم.

قال: ولم يَزَلْ أبو محمد متغيّباً هارباً؛ ولحق بأرض الحِجَاز. وبلغ زياد بن عبيد الله الحارثيّ عامل أبي جعفر مكانه الذي تغيّب فيه، فوجّه إليه خيلاً، فقاتلوه حتى قُتِل، وأخذ ابنيْن له أسيرين، فبعث زياد برأس أبي محمد وابنيه إلى أبي جعفر أمير المؤمنين، فأمر بتخلية سبيلهما وآمنهما.

وأمّا عليّ بن محمد فإنه ذكر أنّ النعمان أبا السريّ حدّثه وجبلة بن فرّوخ وسليمان بن داود وأبو صالح المروزيّ. قالوا: خلع أبو الورد بقنّسرين، فكتب أبو العباس إلى عبد الله بن عليّ وهو بفُطْرُس أن يقاتلَ أبا الورد، ثمّ وجّه عبد الصمد إلى قنّسرين في سبعة آلاف، وعلى حرسه مخارق بن غفار، وعلى شُرَطه كلثوم بن

شبيب، ثم وجّه بعده ذؤيب بن الأشعث في خمسة آلاف، ثم جعل يوجه الجنود، فلقيَ عبد الصمد أبا الورد في جَمْع كثير، فانهزمَ الناس عن عبد الصمد حتى أتوا حِمْص؛ فبعث عبد الله بن عليّ العباس بن يزيد بن زياد ومروان الجرجانيّ وأبا المتوكل الجرجانيّ؛ كلّ رجل في أصحابه إلى حِمْص؛ وأقبل عبد الله بن عليّ بنفسه، فنزل على أربعة أميال من حِمْص ـ وعبد الصمد بن عليّ بحمص ـ وكتب عبد الله إلى حُميد بن قحطبة، فقدم عليه من الأردنّ، وبايع أهل قنسرين لأبي محمد السفيانيّ زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية وأبو الورد بن . . . ، وبايعه الناس، وأقام أربعين يوماً، وأتاهم عبد الله بن عليّ ومعه عبد الصمّد وحُميد بن قحطبة، فالتقَوْا فاقتتلوا أشدّ القتال بينهم، واضطرهم أبو محمد إلى شِعْب ضيّق، فجعل الناس يتفرّقون، فقال حُميد بن قحطبة لعبد الله بن عليّ: علامَ نقيم؟ هم يزيدون وأصحابنا ينقصون! ناجزهم؛ فاقتتلوا يوم الثلاثاء في آخر يوم من ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين ومائة، وعلى ميمنة أبي محمد أبو الورْد وعلى ميسرته الأصبغ بن ذؤالة، فجرح أبو الوَرْد، فحمل إلى أهله فمات. ولجأ قوم من أصحاب أبي الورْد إلى أَجَمة فأحرقوها عليهم؛ وقد كان أهل حمص نقضوا، وأرادوا إيثار أبي محمد؛ فلما بلغهم هزيمته أقاموا.

وفي هذه السنّة خَلَع حبيب بن مرة المرّيّ وبيّض هو ومن معه من أهل الشأم.

ذكر الخبر عن ذلك:

ذكر عليّ عن شيوخه، قال: بيّض حبيب بن مرّة المريّ وأهل البثنيّة وحَوْران، وعبد الله بن عليّ في عسكر أبي الورْد الذي قتِل فيه.

وقد حدثني أحمد بن زهير، قال: حدّثنا عبد الوهاب بن إبراهيم، قال: حدّثنا أبو هاشم مخلَد بن محمد، قال: كان تبييض حبيب بن مرة وقتاله عبدَ الله بن عليّ تبييض أبي الورْد، وإنما بَيّض أبو الورد وعبد الله مشتغل بحرب حَبيب بن مرة المُريّ بأرض البلقاء أو البثنية وحَوْران، وكان قد لقيه عبد الله بن عليّ في جموعه فقاتله، وكان بينه وبينه وقَعات، وكان من قوّاد مروان وفرسانه؛ وكان سبب تبييضه الخوف على نفسه وقومه، فبايعه قيس وغيرهم ممّن يليهم من أهل تلك الكُور؛ البثنية وحَوْران، فلما بلغ عبد الله بن عليّ تبييض أهل قِنَّسرين، دعا حبيب بن مرّة إلى الصلح فصالحه، وآمنه ومَنْ معه، وخرج متوجهاً إلى قنَّسرين للقاء أبي الورد.

وفي هذه السنة بيّض أيضاً أهل الجزيرة وخلعوا أبا العباس.

ذكر الخبر عن أمرهم وما آل إليه حالهم فيه:

حدَّثني أحمد بن زهير، حدّثنا عبد الوهاب بن إبراهيم، قال: حدّثنا أبو هاشم مخلد بن محمد، قال: كان أهلُ الجزيرة بيّضوا ونقضوا؛ حيثُ بلغهم خروجُ أبي الوَرْد وانتقاض أهل قِنَّسرين، وساروا إلى حَرّان، وبحرّان يومئذ موسى بن كعب في ثلاثة آلاف من الجند، فتشبثَّ بمدينتها، وساروا إليه مبيّضين من كلّ وجه، وحاصروه ومَن معه؛ وأمرُهم مشتت؛ ليس عليهم رأس يجمعهم.

وقدم على تفيئة ذلك إسحاق بن مسلم من أرمينيَة ـ وكان شخص عنها حين بلغه هزيمة مَرْوان ـ فرأسه أهل الجزيرة عليهم. وحاصر موسى بن كعب نحواً من شهرين، ووجَّه أبو العباس أبا جعفر فيمن كان معه من الجنود التي كانت بواسط محاصرة ابن هبيرة، فمضى حتى مرّ بقَرْقيسيَا وأهلها مبيّضون، وقد غلّقوا أبوابها دونه.

ثم قدم مدينة الرَّقة وهم على ذلك، وبها بكار بن مسلم، فمضى نحو حرّان، ورحل إسحاق بن مسلم إلى الرُّهاء ـ وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ومائة، وخرج موسى بن كعب فيمن معه من مدينة حَرّان، فلقُوا أبا جعفر. وقدم بكار على أخيه إسحاق بن مسلم، فوجّهه إلى جماعة ربيعة بدارا وماردين ـ ورئيس ربيعة يومئذ رجل من الحرورّية يقال له بُريكة ـ فصمَد إليه أبو جعفر، فلقيَهم فقاتلوه بها قتالاً شديداً، وقتل بريكة في المعركة، وانصرف بكار إلى أخيه إسحاق بالرُّهاء فخلفه إسحاق بها، ومضى في عُظْم العسكر إلى سُمَيْساط، فخندق على عسكره. وأقبل أبو جعفر في جُموعه حتى قابله بكار بالرّهاء؛ وكانت بينهما وقعات.

وكتب أبو العباس إلى عبد الله بن عليّ في المسير بجنوده إلى إسحاق بسُمَيْسَاط، فأقبل من الشأم حتى نزل بإزاء إسحاق بسُمَيْساط؛ وهم في ستين ألفاً أهل الجزيرة جميعها، وبينهما الفرات، وأقبل أبو جعفر من الرُّهاء فكاتبهم إسحاق وطلب إليهم الأمَان، فأجابوا إلى ذلك وكتبوا إلى أبي العباس، فأمرهم أن يؤمِّنوه ومَن معه، ففعلوا وكتبوا بينهم كتاباً، وثقوا له فيه، فخرج إسحاق إلى أبي جعفر، وتمّ الصلح بينهما؛ وكان عنده ، آثر أصحابه. فاستقام أهلُ الجزيرة وأهل الشأم، وولّى أبو العباس أبا جعفر الجزيرة وأرمينيَة وأذربيجان، فلم يزل على ذلك حتى استخلف.

وقد ذُكِر أن إسحاق بن مسلم العقيليّ هذا أقام بسُمَيْساط سبعة أشهر، وأبو جعفر محاصره، وكان يقول: في عُنقي بَيْعة، فأنا لا أدَعها حتى أعلم أنّ صاحبها قد مات أو قتل. فأرسل إليه أبو جعفر: إنّ مروان قد قتل، فقال: حتى أتيقن، ثم طلب الصلح، وقال: قد علمتُ أن مَرْوان قد قتل، فآمنه أبو جعفر وصار معه، وكان عظيم المنزلة عنده.

وقد قيل: إن عبد الله بن عليّ هو الذي آمنه.

وفي هذه السنة شخص أبو جعفر إلى أبي مسلم بخُراسان لاستطلاع رأيه في قتل أبي سلمة حفص بن سليمان.

ذكر الخبر عن سبب مسير أبي جعفر في ذلك، وما كان من أمره وأمر أبي مسلم في ذلك:

قد مضى ذكرى قبلُ أمرَ أبي سلمَة، وما كان من فعله في أمر أبي العباس ومن كان معه من بني هاشم عند قدومهم الكوفة، الذي صار به عندهم متّهماً؛ فذكر عليّ بن محمد أنّ جبلة بن فرُّوخ قال: قال يزيد بن أسيد: قال أبو جعفر: لما ظهر أبو العباس أمير المؤمنين سَمرنا ذات ليلة، فذكرنا ما صنع أبو سلمة، فقال رجل منا: ما يدريكم، لعلّ ما صنع أبو سلمة كان عن رأي أبي مسلم! فلم ينطق منّا أحدٌ، فقال: أمير المؤمنين أبو العباس: لئن كان هذا عن رأي أبي مسلم إنا لَبِعرَض بلاء؛ إلاّ أن يدفَعه الله عنّا. وتفرّقنا. فأرسل إليّ أبو العباس، فقال: ما ترى؟ فقلت: الرأي رأيُك، فقال: ليس منا أحد أخصَّ بأبي مسلم منك، فاخرج إليه حتى تعلم ما رأيه، فليس يخفى عليك؛ فلو قد لقيتَه، فإن كان عن رأيه أخذنا لأنفسنا، وإن لم يكن عن رأيه طابت أنفسُنا.

فخرجت على وجَل؛ فلما انتهيت إلى الريّ، إذا صاحب الريّ قد أتاه كتاب أبي مسلم: إنه بلغني أن عبد الله بن محمد توجّه إليك، فإذا قدم فأشخصه ساعةَ قدومه عليك. فلما قدمت أتاني عامل الريّ فأخبرني بكتاب أبي مسلم، وأمرني بالرّحيل، فازددت وجَلاً، وخرجت من الرّيّ وأنا حَذرٌ خائف فسرت؛ فلما كنت

بنيسابور إذا عاملُها قد أتاني بكتابِ أبي مسلم: إذا قدم عليك عبدالله بن محمد فأشخصه ولا تَدعه يقيم، فإن أرضك أرض خَوارج ولا آمن عليه. فطابت نفسي وقلت: أراه يُعْنَى بأمري. فسرتُ، فلما كنت من مَرْوَ على فرسخين، تلقّاني أبو مسلم في الناس، فلما دنا مني أقبل يمشي إليّ؛ حتى قبّل يدي، فقلت: اركب، فركب فدخل مَرْو، فنزلت داراً فمكثت ثلاثة أيام، لا يسألني عن شيء، ثم قال لي في اليوم الرابع: ما أقدمك؟ فأخبرته، فقال: فعلها أبو سلمة! أكفيكموه! فدعا مرّار بن أنس الضبيّ، فقال: انطلق إلى الكوفة، فاقتل أبا سلمة حيث لقيته؛ وانته في ذلك إلى رأي الإمام. فقدم مرار الكوفة، فكان أبو سلمَة يسمُر عند أبي العَباس، فقعد في طريقه، فلما خرج قتله فقالوا: قتله الخوارج.

قال عليّ: فحدثني شيخ من بني سليم، عن سالم، قال: صحبتُ أبا جعفر من الرّيّ إلى خُراسان، وكنت حاجبَه، فكان أبو مسلم يأتيه فينزل على باب الدّار ويجلس في الدهليز، ويقول: استأذِنْ لي، فغضب أبو جعفر عليّ، وقال: ويلك! إذا رأيته فافتح له الباب، وقل له يدخل على دابته. ففعلت وقلت لأبي مسلم: إنه قال كذا وكذا، قال: نعم، أعلم، واستأذن لي عليه.

وقد قيل: إنّ أبا العباس قد كان تنكّر لأبي سلمَة قبل ارتحاله من عسكره بالنُّخيلة، ثم تحوّل عنه إلى المدينة الهاشميّة، فنزل قصر الإمارة بها، وهو متنكر له، قد عرف ذلك منه، وكتب إلى أبي مسلم يعلمه رأيه، وما كان همّ به من الغِشّ، وما يتخوّف منه، فكتب أبو مسلم إلى أمير المؤمنين: إن كان اطلع على ذلك منه فليقتله؛ فقال داود بن عليّ لأبي العباس: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فيحتجّ عليك بها أبو مسلم وأهلُ خراسان الذين معك، وحاله فيهم حاله؛ ولكن اكتب إلى أبي مسلم فليبعثْ إليه من يقتله، فكتب إلى أبي مسلم بذلك، فبعث بذلك أبو مسلم مرّار بن أنس الضبيّ، فقدم على أبي العباس في المدينة الهاشميّة، وأعلمه سبب قدومه، فأمر أبو العباس منادياً فنادى: إن أمير المؤمنين قد رضيَ عن أبي سلمة ودعاه وكساه، ثم دخل عليه بعد ذلك ليلةً، فلم يزل عنده حتى ذهب عامّة الليل، ثم خرج منصرفاً إلى منزله يمشي وحده؛ حتى دخل الطاقات، فعرض له مرّار بن أنس ومَن كان معه من أعوانه فقتلوه، وأغلقت أبواب المدينة، وقالوا: قتل الخوارج أبا سلمة. ثم أخرِج من الغد؛ فصلى عليه يحيى بن محمد بن عليّ، ودفن في المدينة الهاشميّة، فقال سليمان بن المهاجر البَجليّ:

إنَّ الـوزيـر وزيـرَ آل مـحـمـد　　　أودَى فـمـن يَـشْـنـاك كـان وزيـرا

وكان يقال لأبي سلمة: وزير آل محمد، ولأبي مسلم: أمين آل محمد. فلما قتِل أبو سلمة وجّه أبو العباس أخاه أبا جعفر في ثلاثين رجلاً إلى أبي مُسلم؛ فيهم الحجاج بن أرطاة وإسحاق بن الفضل الهاشميّ.

ولما قدم أبو جعفر على أبي مسلم سايَره عبيد الله بن الحسين الأعرج وسليمان بن كثير معه، فقال سليمان بن كثير للأعرج: يا هَذا؛ إنا كنّا نرجو أن يتمّ أمركم؛ فإذا شئتم فادعونا إلى ما تريدون، فظنّ عبيد الله أنه دسيس من أبي مسلم، فخاف ذلك. وبلغ أبا مسلم مسايرةُ سليمان بن كثير إياه، وأتى عبيد الله أبا مُسلم، فذكر له ما قال سليمان، وظنّ أنه إن لم يفعل ذلك اغتاله فقتله، فبعث أبو مسلم إلى سليمان بن كَثير، فقال له: أتحفظ قول الإمام لي: مَن اتهمتَه فاقتله؟ قال: نعم، قال: فإني قد اتّهمتك، فقال: أنشدك الله! قال: لا تناشدني الله وأنت منطوٍ على غشّ الإمام؛ فأمر بضرب عنقه. ولم يرَ أحداً ممن كان يضرب عنقه أبو مسلم غيره، فانصرف أبو

جعفر من عند أبي مسلم، فقال لأبي العباس: لستَ خليفةً ولا أمرك بشيء إن تركتَ أبا مسلم ولم تقتله، قال: وكيف؟ قال: والله ما يصنع إلا ما أراد، قال أبو العباس: اسكت فاكتمها.

وفي هذه السنة وجّه أبو العباس أخاه أبا جعفر إلى واسط لحرب يزيد بن عمر بن هبيرة؛ وقد ذكرنا ما كان من أمر الجيش الذين لقوْه من أهل خُراسان مع قَحْطبة، ثم مع ابنه الحسن بن قحطبة وانهزامه ولحاقه بمن معه من جنود الشأم بواسط متحصّناً بها؛ فذكر عليّ بن محمد عن أبي عبد الله السُّلَميّ عن عبد الله بن بدر وزهير بن هنيد وبشر بن عيسى وأبي السريّ أنّ ابن هبيرة لما انهزم تفرّق الناس عنه، وخلّف على الأثقال قوماً، فذهبوا بتلك الأموال فقال له حوثرة: أين تذهب وقد قتل صاحبهم! امض إلى الكوفة ومعك جند كثير، فقاتلهم حتى تقتل أو تظفر، قال: بل نأتي واسطاً فننظر، قال: ما تزيد على أن تمكّنه من نفسك وتقتَل، فقال له يحيى بن حضين: إنك لا تأتي مروان بشيء أحبَّ إليه من هذه الجنود، فالزم الفُرات حتى تقدم عليه؛ وإياك وواسطاً؛ فتصير في حصار، وليس بعد الحصار إلا القتل. فأبى. وكان يخاف مروان لأنه كان يكتب إليه في الأمر فيخالفه؛ فخافه إن قدم عليه أن يقتله، فأتى واسطاً فدخلَها، وتحصّن بها.

وسرّح أبو سلمة الحسن بن قحطبة، فخندق الحسن وأصحابه، فنزلوا فيما بين الزّاب ودِجْلة؛ وضرب الحسن سرادقَه حِيال باب المضْمار، فأوّل وقعة كانت بينهم يوم الأربعاء، فقال أهل الشأم لابن هبيرة: ائذن لنا في قتالهم، فأذن لهم، فخرجوا وخرج ابنُ هبيرة، وعلى ميمنته ابنه داود، ومعه محمد بن نباتة في ناس من أهل خراسان، فيهم أبو العوْد الخراسانيّ، فالتقوْا وعلى ميمنته الحسن خازم بن خزيمة، وابن هبيرة قبالة باب المضمار، فحمل خازم على ابن هُبيرة، فهزموا أهل الشأم حتى ألجؤوهم إلى الخنادق، وبادر الناس باب المدينة حتى غصّ باب المضمار، ورمى أصحاب العرّادات بالعرّادات والحسن واقف. وأقبل يسير في الخيل فيما بين النهر والخندق، ورجع أهل الشأم، فكرّ عليهم الحسن، فحالوا بينه وبين المدينة، فاضطروهم إلى دجلة، فغرِق منهم ناس كثير، فتلقّوه هم بالسفن، فحملوهم، وألقى ابن نباتة يومئذ سلاحه واقتحم، فتبعوه بسفينة فركب وتحاجزوا، فمكثوا سبعة أيام، ثم خرجوا إليهم يوم الثلاثاء فاقتتلوا، فحمل رجل من أهل الشأم على أبي حفص هزار مرد، فضربه وانتمى: أنا الغلام السُّلَميّ، وضربه أبو حفص وانتمى: أنا الغلام العتكّي، فصرعه، وانهزم أهل الشأم هزيمة قبيحة، فدخلوا المدينة، فمكثوا ما شاء الله لا يتتلون إلا رِمياً من وراء الفصيل.

وبلغ ابنَ هبيرة وهو في الحصار أنّ أبا أميّة التغلبيّ قد سوّد. فأرسل أبا عثمان إليه فدخل، منزله على أبي أميّة في قُبّته، فقال: إنّ الأمير أرسلني إليك لأفتّش قبتك، فإن كان فيها سواد علقته في عنقك وحبلا، ومضيت بك إليه؛ وإن لم يكن في بيتك سواد فهذه خمسون ألفاً صلة لك. فأبى أن يدَعه أن يفتش قبّته، فذهب به إلى ابن هبيرة فحبسه، فتكلّم في ذلك معن بن زائدة وناس من ربيعة، وأخذوا ثلاثةً من بني فزارة؛ فحبسوهم وشتموا ابنَ هبيرة، فجاءهم يحيى بن حُضين، فكلّمهم فقالوا: لا نخلي عنهم حتى يخلى عن صاحبنا؛ فأبى ابنُ هبيرة، فقال له: ما تفسِد إلاّ على نفسك وأنت محصور؛ خلّ سبيل هذا الرجل، قال: لا ولا كرامة؛ فرجع ابنُ حضين إليهم فأخبرهم، فاعتزل معن وعبد الرحمن بن بشير العجليّ، فقال ابن حضين لابن هبيرة: هؤلاء فرسانك قد أفسدتهم؛ وإن تماديت في ذلك كانوا أشدَّ عليك ممّن حصرك؛ فدعا أبا أميّة فكساه، وخلى سبيله، فاصطلحوا وعادوا إلى ما كانوا عليه.

وقدم أبو نصر مالك بن الهيثم من ناحية سِجِستان، فأوفد الحسن بن قحطبة وفداً إلى أبي العباس بقدوم أبي نصر عليه، وجعل على الوفد غَيْلان بن عبد الله الخُزاعيّ ـ وكان غيلان واجداً على الحسن لأنه سرّحه إلى رَوْح بن حاتم مدداً له ـ فلما قدم على أبي العباس قال: أشهدُ أنك أمير المؤمنين، وأنك حبلُ الله المتين، وأنك إمام المتقين؛ فقال: حاجتَك يا غيلان؟ قال: أستغفرك، قال: غفر الله لك، فقال داود بن عليّ: وفّقك الله يا أبا فضالة، فقال له غيلان: يا أميرَ المؤمنين، مُنّ علينا برجل من أهل بيتك، قال: أوَ ليس عليكم رجل من أهل بيتي! الحسن بن قحطبة؛ قال: يا أميرَ المؤمنين، مُنّ علينا برجل من أهل بيتك، فقال أبو العباس مثل قوله الأول، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ مُنّ علينا برجل من أهل بيتك ننظر إلى وجهه، وتَقَرّ أعيننا به، قال: نعم يا غيلان؛ فبعث أبا جعفر، فجعل غيلان على شُرَطه فقدم واسطاً، فقال أبو نصر لغيلان: ما أردت لا ما صنعت؟ قال: « به بود » فمكث أياماً على الشُّرَط، ثم قال لأبي جعفر: لا أقوى على الشُّرَط؛ ولكني أدلك على مَن هو أجلد مني، قال: مَنْ هو؟ قال: جَهْوَر بن مَرّار، قال: لا أقدر على عزلك؛ لأنّ أمير المؤمنين استعملك، قال: اكتب إليه فأعلمه، فكتب إليه، فكتب إليه أبو العباس: أن أعمل برأي غَيْلان، فولّى شُرَطه جَهْوراً. وقال أبو جعفر للحسن: ابغني رجلاً أجعله على حرسي، قال: مَنْ قد رضيتُه لنفسي؛ عثمان بن نَهيك، فوُلّيَ الحرس.

قال بشر بن عيسى: ولما قدم أبو جعفر واسطاً، تحوّل له الحسن عن حجرته، فقاتلهم وقاتلوه، فقاتلهم أبو نصر يوماً، فانهزم أهلُ الشأم إلى خنادقهم؛ وقد كمن لهم معن وأبو يحيى الجذاميّ، فلما جاوزهم أهل خراسان، خرجوا عليهم؛ فقاتلوهم حتى أمسوا، وترجّل لهم أبو نصر؛ فاقتتلوا عند الخنادق، ورفعت لهم النيران وابن هبيرة على بُرْج باب الخلّالين، فاقتتلوا ما شاء الله من الليل. وسرّح ابن هبيرة إلى معن أن ينصرف، فانصرف ومكثوا أياماً. وخرج أهلُ الشأم أيضاً مع محمد بن نُباتة ومعن بن زائدة وزياد بن صالح وفرسان من فرسان أهل الشأم، فقاتلهم أهلُ خراسان، فهزموهم إلى دِجْلة، فجعلوا يتساقطون في دِجْلة، فقال أبو نصر: يا أهلَ خراسان « مردمانِ خانئه بيابان هستيدوبرخزيد »، فرجعوا وقد صُرع ابنه، فحماه روح بن حاتم، فمرّ به أبوه، فقال له بالفارسية: قد قتلوك يا بنيّ؛ لعن الله الدنيا بعدك! وحملوا على أهل الشأم فهزموهم حتى أدخلوهم مدينة واسط، فقال بعضهم لبعض: لا والله لا تفلح بعدُ عيشتنا أبداً؛ خرجنا عليهم ونحن فرسان أهلُ الشأم، فهزمونا حتى دخلنا المدينة.

وقتِل تلك العشيّة من أهل خُراسان بكار الأنصاريّ ورجل من أهل خراسان؛ كانا من فرسان أهل خراسان؛ وكان أبو نصر في حصار ابن هبيرة يملأ السفن حطباً، ثم يضرمها بالنار لتحرق ما مرّت به؛ فكان ابن هبيرة يهيّىء حَرّاقات كان فيها كلاليب تجرّ تلك السفن؛ فمكثوا بذلك أحدَ عشر شهراً، فلما طال ذلك عليهم طلبوا الصلح؛ ولم يطلبوه حتى جاءهم خبرُ قتل مروان، أتاهم به إسماعيل بن عبد الله القسريّ، وقال لهم: علام تقتلون أنفسكم، وقد قتل مروان!

وقد قيل: إنّ أبا العباس وجّه أبا جعفر عند مقدمه من خراسان منصرفاً من عند أبي مسلم إلى ابن هبيرة لحربه، فشخص جعفر حتى قدم على الحسن بن قحطبة؛ وهو محاصر ابن هبيرة بواسط، فتحوّل له الحسن عن منزله، فنزله أبو جعفر، فلما طال الحصار على ابن هبيرة وأصحابه تجنّى عليه أصحابه، فقالت اليمانية: لا نُعين

مروانَ وآثاره فينا آثارُه. وقالت النزاريَّة: لا نقاتل حتى تقاتل معنا اليمانيَة؛ وكان إنما يقاتل معه الصعاليك والفتيان؛ وهمّ ابن هبيرة أن يدعو إلى محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن؛ فكتب إليه فأبطأ جوابه؛ وكاتب أبو العباس اليمانيَة من أصحاب ابن هبيرة؛ وأطمعهم. فخرج إليه زياد بن صالح وزياد بن عبيد الله الحارثيان؛ ووعد ابن هبيرة أن يصلحا له ناحية أبي العباس فلم يفعلا؛ وجرت السفراء بين أبي جعفر وبين ابن هبيرة حتى جعل له أماناً، وكتب به كتاباً، مكث يشاور فيه العلماء أربعين يوماً حتى رضيَه ابنُ هبيرة، ثم أنفذه إلى أبي جعفر، فأنفذه أبو جعفر إلى أبي العباس، فأمره بإمضائه؛ وكان رأي أبي جعفر الوفاء له بما أعطاه، وكان أبو العباس، فكتب إليه بأخبارِه كلها، فكتب أبو مسلم إلى أبي العباس: إنّ الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسَد؛ لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة.

ولما تمّ الكتاب خرج ابن هُبيرة إلى أبي جعفر في ألف وثلثمائة من البخارّية؛ فأراد أن يدخل الحجرة على دابته، فقام إليه الحاجب سلّام بن سليم، فقال: مرحباً بك أبا خالد! انزل راشداً؛ وقد أطاف بالحجرة نحو من عشرة آلاف من أهل خراسان، فنزل، ودعا له بوسادة ليجلس عليها، ثم دعا بالقوّاد فدخلوا، ثم قال سلّام: ادخل أبا خالد؛ فقال له: أنا ومن معي؟ فقال: إنما استأذنتُ لك وحدك، فقام فدخل، ووضِعتْ له وسادة، فجلس عليها، فحادثه ساعة، ثم قام وأتبعه أبو جعفر بصرَه حتى غاب عنه؛ ثم مكث يقيم عنه يوماً، ويأتيه يوماً في خمسمائة فارس وثلاثمائة راجل؛ فقال يزيد بن حاتم لأبي جعفر: أيّها الأمير؛ إنّ ابن هبيرة ليأتي فيتضعضع له العسكر؛ وما نقص من سلطانه شيء، فإذا كان يسير في هذه الفرسان والرّجالة، فما يقول عبد الجبار وجهور! فقال أبو جعفر لسلام: قل لابن هُبيرة يدع الجماعة ويأتينا في حاشيته [نحواً من ثلاثين]، فقال له سلّام ذلك، فتغير وجهه، وجاء في حاشيته نحواً من ثلاثين، فقال له سلّام: كأنك تأتي مباهياً! فقال: إن أمرتم أن نمشي إليكم مشينا، فقال: ما أردنا بك استخفافاً، ولا أمرَ الأمير بما أمر به إلا نظراً لك؛ فكان بعد ذلك يأتي في ثلاثة.

وذكر أبو زيد أنّ محمد بن كثير حدّثه، قال: كلَّم ابن هبيرة يوماً أبا جعفر، فقال: يا هناه ـ أو يأيّها المرء ـ ثم رجع، فقال: أيها الأمير؛ إنّ عهدي بكلام الناس بمثل ما خاطبتك به حديث، فسبقني لساني إلى ما لم أرده. وألحّ أبو العباس على أبي جعفر يأمره بقتله وهو يراجعه؛ حتى كتب إليه: والله لتقتلنّه أو لأرسلنّ إليه من يخرجه من حُجرتك، ثم يتولى قتله. فأزمع على قتله، فبعث خازم بن خزيمة والهيثم بن شعبة بن ظهير؛ وأمرهما بختم بيوت الأموال. ثم بعث إلى وجوه مَن معه من القيسيّة والمضرّية، فأقبل محمد بن نباتة وحوثرة بن سُهيل وطارق بن قدامة وزياد بن سويد وأبو بكر بن كعب العُقَيليّ وأبان وبشر ابنا عبد الملك بن بشر؛ في اثنين وعشرين رجلاً من قيس، وجعفر بن حنظلة وهزّان بن سعد.

قال: فخرج سلّام بن سليم، فقال: أين حوثرة ومحمد بن نباتة؟ فقاما، فدخلا، وقد أجلس عثمان بن نهيك والفضل بن سليمان وموسى بن عقيل في مائة في حُجْرة دون حجرته، فُزعت سيوفهما وكتّفا، ثم دخل بشر وأبان ابنا عبد الملك بن بشر، ففُعل بهما ذلك؛ ثمّ دخل أبو بكر بن كعب وطارق بن قدامة، فقام جعفر بن حنظلة، فقال: نحن رؤساء الأجناد، ولِمَ يكون هؤلاء يقدّمون علينا؟ فقال: ممن أنت؟ قال: من بَهْراء، فقال: وراءك اوسع لك، ثم قام هزّان، فتكلم فأخِّر، فقال روح بن حاتم: يا أبا يعقوب، نزعت سيوف القوم،

فخرج عليهم موسى بن عقيل، فقالوا له: أعطيتمونا عهد الله ثم خِسْتم به! إنا لنرجو أن يدرككم الله؛ وجعل ابن نباتة يضرّط في لحية نفسه، فقال له حوثرة: إنّ هذا لا يغني عنك شيئاً؛ فقال: كأني كنت أنظر إلى هذا، فقتِلوا. وأخذت خواتيمهم.

وانطلق خازم والهيثم بن شعبة والأغلب بن سالم في نحو من مائة، فأرسلوا إلى ابن هبيرة: إنا نريد حمْل المال، فقال ابن هبيرة لحاجبه: يا أبا عثمان، انطلق فدلّهم عليه، فأقاموا عند كلّ بيت نفراً، ثم جعلوا ينظرون في نواحي الدّار، ومع ابن هبيرة ابنه داود وكاتبه عمرو بن أيّوب وحاجبه وعدّة من مواليه، وبنيٌّ له صغير في حِجْره؛ فجعل ينكر نظرهم فقال: أقسم بالله إنّ في وجوه القوم لشرّاً، فأقبلوا نحوه، فقام حاجبه في وجوههم، فقال: ما وراءكم؟ فضربه الهيثم بن شعبة على حبل عاتقِه فصرعه، وقاتل ابنه داود فقتِل وقتل مواليه، ونحّى الصبيّ من حِجره، وقال: دونكم هذا الصبي، وخرّ ساجداً فقتل وهو ساجد، ومضوا برؤوسهم إلى أبي جعفر، فنادى بالأمان للناس إلّا للحكم بن عبد الملك بن بشر وخالد بن سلمة المخزوميّ وعمر بن ذرّ، فاستأمن زياد بن عبدالله لابن ذرّ فآمنه أبو العباس، وهرب الحكم، وآمن أبو جعفر خالداً، فقتله أبو العباس، ولم يُجزْ أمانَ أبي جعفر، وهرب أبو علاقة وهشام بن هشيم بن صفوان بن مزيد الفزاريّان، فلحقهما حجر بن سعيد الطائيّ فقتلهما على الزّاب، فقال أبو عطاء السِّنديّ يرثيه:

أَلَا إنَّ عيناً لم تُجدْ يومَ واسِطٍ ... عليك بجاري دمعها لَجَمودُ
عشيّةَ قام النائحاتُ وشُقِّقَتْ ... جُيوبٌ بأَيْدي مأتمٍ وخُدودُ
فإن تُمْس مهجورَ الفِناءِ فربّما ... أقامَ به بعد الوفود وُفودُ
فإنك لم تَبْعُدْ على متعهّدٍ ... بلى كلُّ مَن تحت الترابِ بعيدُ

وقال منقذ بن عبد الرحمن الهلالي يرثيه:

مَنَع العزاءَ حرارةُ الصَّدْرِ ... والحُزن عقدَ عزيمةِ الصَّبرِ
لما سمِعْتُ بوَقعَةٍ شملتْ ... بالشيب لونَ مَفارِق الشعْرِ
أفنى الحُماةَ الغُرَّ أنْ عَرَضَتْ ... دون الوفاءِ حَبائِلُ الغَدرِ
مالت حبائلُ أمرهم بفتًى ... مثل النجوم حَفَفْنَ بالبدرِ
عَاليَ نعيُّهُم فقلت له ... هلّا أُتيتَ بصَيْحةِ الحشرِ!
لله درّك مَنْ زعمتَ لنا ... أن قد حَوَتْه حوادثُ الدهرِ
مَن للمنابر بعد مَهْلَكِهم ... أو مَنْ يَسُدُّ مكارم الفخرِ!
فإذا ذكرتُهُمُ شكا أَلَماً ... قلبي لفَقدِ فوارسٍ زُهْرِ
قَتلى بدِجْلةَ ما يَغُمُّهُمُ ... إلا عُبابُ زواخِرِ البحرِ
فَلتَبْكِ نِسْوَتنا فوارسَها ... خيرَ الحماةِ لياليَ الذُّعرِ

وذكر أبو زيد أن أبا بكر الباهلي حَدّثه، قال: حدثني شيخ من أهل خراسان، قال: كان هشام بن عبد الملك خطب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة ابنته على ابنه معاوية، فأبى أن يزّوجه، فجرى بعد ذلك بين يزيد بن عمر وبين الوليد بن القعقاع كلام؛ فبعث به هشام إلى الوليد بن القعقاع، فضربه وحبسه، فقال ابن

طَيْسلة:

يــا قَـلَّ خيــرُ رجـالٍ لا عقــولَ لهمْ   مَنْ يَعـدلون إلى المحبـوس في حَلَب
إلى امـرىء لـم تُصِبْـهُ الـدّهـر مُعْضِلةٌ   إلا استقَـلَّ بـهـا مُسْـتَـرْخِيَ اللَّببِ

وقيل: إن أبا العباس لما وجّه أبا جعفر إلى واسط لقتال ابن هبيرة، كتب إلى الحسن بن قحطبة: إن العسكر عسكرُك، والقُوّادَ قوّادُك؛ ولكن أحببتُ أن يكون أخي حاضراً، فاسمع له وأطع، وأحسِن مؤازرته. وكتب إلى أبي نصر مالك بن الهيثم بمثل ذلك؛ فكان الحسن المدبر لذلك العسكر بأمر المنصور.

وفي هذه السنة وجّه أبو مسلم محمد بن الأشعث على فارس، وأمره أن يأخذ عمال أبي سلمة فيضرب أعناقهم. ففعل ذلك.

وفي هذه السنة وجه أبو العباس عمّه عيسى بن عليّ على فارس، وعليها محمد بن الأشعث، فهمّ به، فقيل له: إن هذا لا يسوغ لك، فقال: بلى، أمرني أبو مسلم ألا يقدَم عليّ أحد يدّعي الولاية من غيره إلا ضربتُ عنقه. ثم ارتدع عن ذلك لما تخوّف من عاقبته، فاستحلف عيسى بالأيمان المحرجة ألّا يعلو منبراً، ولا يتقلدَ سيفاً إلّا في جهاد؛ فلمَ يل عيسى بعد ذلك عملاً، ولا تقلد سيفاً إلّا في غَزْو. ثم وجه أبو العباس بعد ذلك إسماعيل بن عليّ والياً على فارس.

وفي هذه السنة وجّه أبو العباس أخاه أبا جعفر والياً على الجزيرة وأذْرَبيجان وأرمينيَة، ووجه أخاه يحيى بن محمد بن عليّ والياً على الموْصل.

وفيها عزل عمّه داود بن عليّ عن الكوفة وسوادها، وولّاه المدينة ومكة واليمن واليمامة، وولّى موضعه وما كان إليه من عمل الكوفة وسوادها عيسى بن موسى.

وفيها عَزَل مروانُ ـ وهو بالجزيرة عن المدينة ـ الوليد بن عُروة، وولاها أخاه يوسف بن عروة؛ فذكر الواقديّ أنه قدم المدينة لأربع خلوْن من شهر ربيع الأول.

وفيها استقضى عيسى بن موسى على الكوفة ابن أبي ليلى.

وكان العامل على البصرة في هذه السنة سفيان بن معاوية المهلبيّ. وعلى قضائها الحجاج بن أرطاةَ، وعلى فارس محمد بن الأشعث، وعلى السند منصور بن جمهور، وعلى الجزيرة وأرمينيَة وأذْرَبيجان عبد الله بن محمد، وعلى الموْصل يحيى بن محمد، وعلى كُور الشأم عبد الله بن عليّ، وعلى مصر أبو عون عبد الملك بن يزيد، وعلى خُراسان والجبال أبو مسلم، وعلى ديوان الخراج خالد بن بَرْمك.

وحجّ بالناس في هذه السنة داود بن عليّ بن عبد الله بن العباس.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائة

ذكر ما كان في هذه السنة من الأحداث

فمن ذلك ما كان من توجيه أبي العباس عمّه سليمان بن عليّ والياً على البصرة وأعمالها، وكُور دجلة والبَحْرين وعُمان ومِهْرِجانقَذق، وتوجيهه أيضاً عمه إسماعيل بن عليّ على كُور الأهواز.

وفيها قتَل داود بن عليّ من كان أخذ من بني أميّة بمكة والمدينة.

وفيها مات داود بن عليّ بالمدينة في شهر ربيع الأول؛ وكانت ولايتُه - فيما ذكر محمد بن عمر - ثلاثةَ أشهر.

واستخلف داود بن علي حين حضرته الوفاة على عمله ابنَه موسى؛ ولما بلغت أبا العباس وفاتُه وجّه على المدينة ومكة والطائف واليمامة خاله زيادَ بن عبيدالله بن عبدالله بن عبد المدان الحارثيّ، ووجّه محمد بن يزيد بن عبدالله بن عبد المدان على اليمن، فقدِم اليمن في جمادى الأولى، فأقام زياد بالمدينة ومضى محمد إلى اليمن. ثم وجّه زياد بن عبيدالله من المدينة إبراهيمَ بن حسان السُّلميّ؛ وهو أبو حماد الأبرص - إلى المثنّى بن يزيد بن عمر بن هبيرة وهو باليمامة، فقتله وقتل أصحابه.

وفيها كتب أبو العباس إلى أبي عون بإقراره على مصر والياً عليها، وإلى عبدالله وصالح ابني عليّ على أجناد الشأم.

وفيها توجّه محمد بن الأشعث إلى إفريقية فقاتلهم قتالاً شديداً حتى فتحها.

وفيها خرج شُرَيك بن شيخ المهريّ بخُراسان على أبي مسلم ببخارَى ونقم عليه، وقال: ما على هذا اتّبعنا آل محمد، على أن نسفك الدماء، ونعمل بغير الحقّ. وتبعه على رأيه أكثرُ من ثلاثين ألفاً، فوجّه إليه أبو مسلم زياد بن صالح الخُزاعيّ فقاتله فقتله.

وفيها توجّه أبو داود خالد بن إبراهيم من الوَخْش إلى الخُتّل، فدخلها ولم يمتنع عليه حَنش بن السبل ملكها، وأتاه ناس من دهاقين الخُتّل، فتحصّنوا معه؛ وامتنع بضعهم في الدُّروب والشعاب والقلاع. فلما ألحّ أبو داود على حَنَش، خرج من الحصن ليلاً ومعه دهاقينه وشاكريّته حتى انتهوْا إلى أرض فَرْغانة؛ ثم خرج منها في أرض الترك، حتى وقع إلى ملك الصين؛ وأخذ أبو داود مَنْ ظفر به منهم، فجاوز بهم إلى بَلْخ، ثم بعث بهم إلى أبي مسلم.

وفيها قُتِل عبد الرحمن بن يزيد بن المهلب؛ قتله سليمان الذي يقال له الأسود، بأمان كتبه له.

وفيها وجّه صالح بن عليّ سعيدَ بن عبدالله لغزو الصّائفة؛ وراء الدروب.

وفيها عزِل يحيى بن محمد عن الموصِل، واستعمل مكانه إسماعيل بن عليّ.

وحجّ بالناس في هذه السنة زياد بن عبيدالله الحارثيّ؛ كذلك حدثني أحمد بن ثابت، عمّن حدّثه، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر، وكذلك قال الواقديّ وغيرُه.

وكان على الكوفة وأرضها عيسى بن موسى، وعلى قضائها ابنُ أبي ليلى، وعلى البصرة وأعمالها وكُورِ دجْلة والبحرين وعُمان والعرْض ومهرجا نقذق سليمان بن عليّ، وعلى قضائها عبّاد بن منصور، وعلى الأهواز إسماعيل بن عليّ وعلى فارس محمد بن الأشعث، وعلى السِّنْد منصور بن جمهور، وعلى خراسان والجبال أبو مسلم، وعلى قنّسرين وحِمْص وكور دمشق والأردنّ عبدالله بن عليّ، وعلى فلسطين صالح بن عليّ.

وعلى مصر عبد الملك بن يزيد أبو عون، وعلى الجزيرة عبدالله بن محمد المنصور، وعلى الموصل إسماعيل بن عليّ، وعلى أرمينيَة صالح بن صبيح، وعلى أذربيجان مجاشع بن يزيد.

وعلى ديوان الخراج خالد بن برمك.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائة

ذكر ما كان فيها من الأحداث

ففيها خالف بسام بن إبراهيم بن بسام، وخَلَع، وكان من فرسان أهلِ خراسان. وشخص - فيما ذكر - من عسكر أبي العباس أمير المؤمنين مع جماعة ممّن شايعه على ذلك من رأيه؛ متسترين بخروجهم، ففحص عن أمرهم وإلى أين صاروا، حتى وقف على مكانهم بالمدائن، فوجّه إليهم أبو العباس خازم بن خزيمة، فلما لقي بساماً ناجزه القتال، فانهزم بسام وأصحابُه وقتل أكثرهم، واستبيح عسكره، ومضى خازم وأصحابه في طلبهم، في أرض جوخى إلى أن بلغ ماه، وقتل كلّ مَن لحقه منهزماً، أو ناصبه القتال؛ ثم انصرف من وجهه ذلك؛ فمرّ بذات المطامير - أو بقرية شبيهة بها - وبها من بني الحارث بن كعب من بني عبد المدان؛ وهم أخوال أبي العباس ذَنَبة فمرّ بهم وهم في مجلس لهم - وكانوا خمسة وثلاثين رجلاً منهم ومن غيرهم ثمانية عشر رجلاً، ومن مواليهم سبعة عشر رجلاً - فلم يسلّم عليهم، فلما جاز شتموه؛ وكان في قلبه عليهم ما كان لما بلغه عنهم من حال المغيرة بن الفزع، وإنه لجأ إليهم، وكان من أصحاب بسام بن إبراهيم فكرّ راجعاً، فسألهم عما بلغه من نزول المغيرة بهم؛ فقالوا: مرّ بنا رجل مجتاز لا نعرفه؛ فأقام في قريتنا ليلة ثم خرج عنها، فقال لهم: أنتم أخوال أمير المؤمنين ويأتيكم عدوّه، فيأمن في قريتكم! فهلا اجتمعتم فأخذتموه! فأغلظوا له الجواب، فأمر بهم فضُرِبت أعناقهم جميعاً، وهُدمت دورهم، وانتهبت أموالهم، ثم انصرف إلى أبي العباس؛ وبلغ ما كان من فعل خازم اليمانية، فأعظموا ذلك؛ واجتمعت كلمتُهم، فدخل زياد بن عبيدالله الحارثيّ على أبي العباس مع عبدالله بن الربيع الحارثيّ وعثمان بن نهيك، وعبد الجبار بن عبد الرحمن؛ وهو يومئذ على شُرْطة أبي العباس؛ فقالوا: يا أميرَ المؤمنين؛ إن خادماً اجترأ عليك بأمر لم يكن أحد من أقرب ولد أبيك ليجترىء عليك به؛ من استخفافه بحقّك؛ وقتل أخوالك الذين قطعوا البلاد، وأتوك معتزّين بك، طالبين معروفك؛ حتى إذا صاروا إلى دارك وجوارك، وثب عليهم خازم فضرب أعناقهم، وهدم دورهم، وأنهب أموالهم، وأخرب ضياعهم؛ بلا حدث أحدثوه. فهمّ بقتل خازم؛ فبلغ ذلك موسى بن كعب وأبا الجهم بن عطيّة، فدخلا على أبي العباس، فقالا: بلغنا يا أمير المؤمنين ما كان من تحميل هؤلاء القوم إياك على خازم؛ وإشارتهم عليك بقتله؛ وما هممتَ به من ذلك؛ وإنا نعيذك بالله من ذلك؛ فإنّ له طاعةً وسابقة؛ وهو يُحتمل له ما صنع؛ فإنّ شيعتَكم من أهل خراسان قد آثروكم على الأقارب من الأولاد والآباء والإخوان؛ وقتلوا من خالفكم، وأنت أحقّ من تعمد إساءة مسيئهم؛ فإن كنتَ لا بد مجمعاً على قتله فلا تتولّ ذلك بنفسك، وعرّضه من المباعث لما إن قتل فيه كنت قد بلغت الذي أردت، وإن ظفر كان ظفره لك. وأشاروا عليه بتوجيهه إلى مَن بعُمان من الخوارج إلى الجلندى

وأصحابه، وإلى الخوارج الذين بجزيرة ابن كاوان مع شيبان بن عبد العزيز اليشكريّ، فأمر أبو العباس بتوجيهه مع سبعمائة رجل؛ وكتب إلى سليمان بن عليّ وهو على البصرة يحملهم في السفن إلى جزيرة ابن كاوان وعُمَان فشخص.

وفي هذه السنة شخص حازم بن خزيمة إلى عُمان، فأوقع بمَنْ فيها من الخوارج، وغلب عليها وعلى ما قرُب منها من البلدان وقتل شيبان الخارجيّ.

ذكر الخبر عما كان منه هنالك:

ذُكِر أن خازم بن خزيمة شخص في السبعمائة الذين ضمّهم إليه أبو العباس، وانتخب من أهل بيته وبني عمه ومواليه ورجال من أهل مَرو الرّوذ، قد عرفهم ووثق بهم؛ فسار إلى البَصْرة، فحملهم سليمان بن عليّ، وانضمّ إلى خازم بالبصرة عدّة من بني تميم، فساروا حتى أرسوْا بجزيرة ابن كاوان، فوجّه خازم نضلة بن نعيم النهشليّ في خمسمائة رجل من أصحابه إلى شيبان، فالتقوْا فاقتتلوا قتالاً شديداً، فركب شيبان وأصحابه السفن، فقطعوا إلى عُمّان ـ وهم صُفرّية ـ فلما صاروا إلى عُمان نَصب لهم الجلندَى وأصحابه ـ وهم إباضية ـ فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقُتل شيبان ومَن معه، ثم سار خازم في البحر بمن معه؛ حتى أرسوْا إلى ساحل عُمان، فخرجوا إلى صحراء، فلقيَهم الجلندَى وأصحابه، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكثر القتل يومئذ في أصحاب خازم؛ وهم يومئذ على ضفة البحر، وقتِل فيمن قُتِل أخٌ لخازم لأمه يقال له إسماعيل، في تسعين رجلاً من أهل مَرْو الروذ، ثم تلاقوْا في اليوم الثاني؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً، وعلى ميمنته رجل من أهل مَرْو الروذ، يقال له حميد الورتكانيّ، وعلى ميسرته رجل من أهل مَرْو الرّوذ يقال له مسلم الأرغديّ، وعلى طلائعه نضلة بن نعيم النهشليّ، فقتل يومئذ من الخوارج تسعمائة رجل، وأحرَقوا منهم نحواً من تسعين رجلاً. ثم التقوْا بعد سبعة أيام من مَقْدَم خازم على رأي أشار به عليه رجلٌ من أهل الصُّغْد، وقع بتلك البلاد، فأشار عليه أن يأمر أصحابه فيجعلوا على أطراف أسنتهم المُشاقة ويرووها بالنِّفط، ويُشعِلوا فيها النيران؛ ثم يمشوا بها حتى يضرموها في بيوت أصحاب الجلندَى. وكانت من خشب وخِلاف؛ فلما فعل ذلك وأضرمت بيوتُهم بالنيران وشغلوا بها وبمن فيها من أولادهم وأهاليهم شدّ عليهم خَازم وأصحابه؛ فوضعوا فيهم السيوف وهم غير ممتنعين منهم، وقتِل الجلندَى فيمن قُتِل، وبلغ عدّة مَنْ قتل عشرة آلاف؛ وبعث خازم برؤوسهم إلى البصرة، فمكثتْ بالبصرة أياماً، ثم بعث بها إلى أبي العباس، وأقام خازم بعد ذلك أشهراً؛ حتى أتاه كتاب أبي العباس بإقفاله فقفلوا.

وفي هذه السنة غزا أبو داود خالد بن إبراهيم أهل كسّ فقتل الأخريد ملكها؛ وهو سامع مطيع قدم عليه قبل ذلك بلْخ، ثم تلقاه بكندك مما يلي كسّ؛ وأخذ أبو داود من الأخريد وأصحابه حين قتلهم من الأواني الصينيّة المنقوشة المذهبة التي لم يُرَ مثلها، ومن السروج الصينيّة ومتاع الصين كله من الديباج وغيره، ومن طُرَف الصين شيئاً كثيراً، فحمله أبو داود أجمع إلى أبي مسلم وهو بسمَرْقَنْد، وقتل أبو داود دهقان كسّ في عدّة من دهاقينها واستحيا طاران أخا الأخريد وملّكه على كسّ، وأخذ ابن النجاح وردّه إلى أرضه، وانصرف أبو مسلم إلى مَرْو بعد أن قتل في أهل الصّغْد وأهل بخارى، وأمر ببناء حائط سَمَرْقند، واستخلف زياد بن صالح على الصّغْد وأهل بخارى، ثم رجع أبو داودَ إلى بلخ.

وفي هذه السنة وجه أبو العباس موسى بن كعب إلى الهند لقتال منصور بن جمهور، وفرض لثلاثة آلاف

رجل من العرب والموالي بالبصرة ولألف من بني تميم خاصّة، فشخص واستخلف مكانه على شُرْطة أبي العباس المسيّب بن زُهير حتى ورد السِّنْد، ولقي منصور بن جمهور في اثني عشر ألفاً، فهزمه ومَنْ معه، ومضى فمات عطشاً في الرمال.

وقد قيل: أصابه بطن، وبلغ خليفة منصور وهو بالمنصورة هزيمة منصور، فرحل بعيال منصور وثقله، وخرج بهم في عدّة من ثقاته، فدخل بهم بلاد الخزر.

وفيها توفّي محمد بن يزيد بن عبدالله وهو على اليمن، فكتب أبو العباس إلى عليّ بن الربيع بن عبيدالله الحارثيّ، وهو عامل لزياد بن عبيدالله على مكة بولايته على اليمن فسار إليها.

وفي هذه السنة تحوّل أبو العباس من الحيرة إلى الأنبار ـ وذلك فيما قال الواقديّ وغيره ـ في ذي الحجة.

وفيها عُزِل صالح بن صبيح عن أرمينيَة، وجعل مكانه يزيد بن أسيد.

وفيها عُزل مجاشع بن يزيد عن أذْرَبيجان، واستعمل عليها محمد بن صول.

وفيها ضرَب المنار من الكوفة إلى مكة والأميال. وحجّ بالناس في هذه السنة عيسى بن موسى، وهو على الكوفة وأرضها.

وكان على قضاء الكوفة ابن أبي ليلَى، وعلى المدينة ومكة والطائف واليمامة زياد بن عبيدالله، وعلى اليمن عليّ بن الربيع الحارثيّ، وعلى البصرة وأعمالها وكُور دِجلة والبحرين وعُمان والعرْض ومهرجا نقذق سليمان بن عليّ، وعلى قضائها عباد بن منصور، وعلى السند موسى بن كعب، وعلى خراسان والجبال أبو مسلم، وعلى فلسطين صالح بن عليّ، وعلى مصر أبو عوْن، وعلى موصل إسماعيل بن عليّ، وعلى أرمينيَة يزيد بن أسيد، وعلى أذربيجان محمد بن صول.

وعلى ديوان الخراج خالد بن برمك، وعلى الجزيرة عبدالله بن محمد أبو جعفر وعلى قنّسرين وحِمْص وكور دمشق والأردنّ عبدالله بن عليّ.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائة

ذكر ما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك خروجُ زياد بن صالح وراء نهر بلْخ ، فشخص أبو مسلم من مَرْو مستعدًّا للقائِه ، وبعث أبو داود خالد بن إبراهيم نصرَ بن راشد إلى الترْمذ ، وأمره أن ينزل مدينتَها ، مخافَة أن يبعث زياد بن صالح إلى الحصن والسفن فيأخذها ؛ ففعل ذلك نصر ، وأقام بها أياماً ، فخرج عليه ناس من الراوندية من أهل الطالقان مع رجل يكنى أبا إسحاق ، فقتلوا نصراً ، فلما بلغ ذلك أبا داود بعث عيسى بن ماهان في تتبّع قتَلة نصر ، فتتبعهم فقتلهم ، فمضى أبو مسلم مسرعاً ؛ حتى انتهى إلى آمُل ، ومعه سباع بن أبي النعمان الأزديّ ، وهو الذي كان قدم بعهد زياد بن صالح من قِبَل أبي العباس ، وأمره إن رأى فرصة أن يَثِبَ على أبي مسلم فيقتلَه ، فأخبِر أبو مسلم بذلك ، فدفع سباع بن النعمان إلى الحسن بن الجُنيد عامله على آمُل ، وأمره بحبسه عنده ، وعبَر أبو مسلم إلى بخَارى ، فلما نزلها أتاه أبو شاكر وأبو سعد الشرويّ في قُوّاد قد خلعوا زياداً ، فسألهم أبو مسلم عن أمر زياد ومَنْ أفسده ، قالوا : سباع بن النعمان ، فكتب إلى عامله على آمُل أن يضرب سباعاً مائة سوط ، ثم يضرب عنقه ، ففعل .

ولما أسلم زياداً قـوّاده ولحقوا بأبي مسلم لجأ إلى دِهقان بارْكَث ، فوثب عليه الدهقان ، فضرب عنقه ، وجاء برأسه إلى أبي مسلم ، فأبطأ أبو داود على أبي مسلم لحال الراوندية الذين كانوا خرجوا ، فكتب إليه أبو مسلم : أما بعد فليفرِج رَوْعك ، ويأمن سِربك ، فقد قتل الله زياداً ، فأقْدَم ، فقدم أبو داود ، كسّ ، وبعث عيسى بن ماهان إلى بسام ، وبعث ابن النجاح إلى الإصبهبذ إلى شاوَغَر ، فحاصر الحصن فأما أهل شاوغر فسألوا الصلح ، فأجيبوا إلى ذلك . وأما بسام فلم يصل عيسى بن ماهان إلى شيء منه ؛ حتى ظهر أبو مسلم بستة عشر كتاباً وجدها من عيسى بن ماهان إلى كامل بن مظفّر صاحب أبي مسلم ، يعيب فيها أبا داود ، وينسبه فيها إلى العصبيّة وإيثاره العرب وقومَه على غيرهم من أهل هذه الدعوة ، وأن في عسكره ستة وثلاثـين سُرادقـاً للمستأمنة ، فبعث بها أبو مسلم إلى أبي داود ، وكتب إليه : إنّ هذه كتب العِلْج الذي صَيَّرته عِدْل نفسك ، فشأنَك به . فكتب أبو داود إلى عيسى بن ماهان يأمره بالانصراف إليه عن بسّام ، فلما قدم عليه حبسه ودفعه إلى عمر النغم ؛ وكان في يده محبوساً ، ثم دعا به بعد يومين أو ثلاثة فذكّره صنيعتَه به وإيثاره إياه على ولده ، فأقرّ بذلك ، فقال أبو داود : فكان جزاء ما صنعتُ بك أن سعيتَ بي وأردتَ قتلي ، فأنكر ذلك ، فأخرج كتبه فعرفها ، فضربه أبو داود يومئذ حدّين : أحدهما للحسن بن حمدان . ثم قال أبو داود : أمّا إني قد تركت ذنبَك لك ؛ ولكن الجند أعلم . فأخرج في القيود ، فلما أخرج من السرّادق وثب عليه حرب بن زيـاد وحفص بن دينار مـولى

يحيى بن حُضين، فضرباه بعمود وطَبَرْزِين، فوقع إلى الأرض، وعدا عليه أهل الطالقان وغيرُهم، فأدخلوه في جوالق، وضربوه بالأعمدة، حتى مات ورجع أبو مسلم إلى مَرْو.

وحجّ بالناس في هذه السنة سليمان بن عليّ، وهو على البصرة وأعمالها. وعلى قضائها عبّاد بن منصور.

وكان على مكة العباس بن عبدالله بن معبد بن عباس. وعلى المدينة زياد بن عبيدالله الحارثيّ. وعلى الكوفة وأرضها عيسى بن موسى، وعلى قضائها ابن أبي ليلى، وعلى الجزيرة أبو جعفر المنصور، وعلى مصر أبو عون، وعلى حمْص وقنّسرين وبعلبكّ والغُوطة وحَوْران والجوْلان والأردنّ عبدالله بن عليّ. وعلى البلقاء وفلسطين صالح بن عليّ، وعلى الموصل إسماعيل بن عليّ. وعلى أرمينيَة يزيد بن أسيد، وعلى أذْرَبيجان محمد بن صَوْل، وعلى ديوان الخراج خالد بن برمك.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

ففي هذه السنة قدم أبو مسلم العراق من خُراسان على أبي العباس أمير المؤمنين.

ذكر الخبر عن قدومه عليه وما كان في أمره في ذلك:

ذكر عليّ بن محمد أن الهيثم بن عديّ أخبره والوليد بن هشام، عن أبيه، قالا: لم يزلْ أبو مسلم مقيماً بخراسان، حتى كتب إلى أبي العباس يستأذنه في القُدوم، فأجابه إلى ذلك، فقدم على أبي العباس في جماعة من أهل خُراسان عظيمة ومَنْ تبعه من غيرهم من الأنبار؛ فأمر أبو العباس النّاس يتلقونه، فتلقاه الناسُ، وأقبل إلى أبي العباس، فدخل عليه فأعظمه وأكرمه؛ ثم استأذن أبا العباس في الحجّ فقال: لولا أن أبا جعفر يحجّ لاستعملتُك على الموسم. وأنزله قريباً منه، فكان يأتيه في كلّ يوم يسلم عليه، وكان ما بين أبي جعفر وأبي مسلم متباعداً؛ لأن أبا العباس كان بعث أبا جعفر إلى أبي مسلم وهو بنيسابور، بعد ما صفت له الأمور بعهده على خُراسان وبالبيعة لأبي العباس ولأبي جعفر من بعده؛ فبايع له أبو مسلم وأهل خراسان. وأقام أبو جعفر أياماً حتى فرغ من البيعة، ثم انصرف. وكان أبو مسلم قد استخفّ بأبي جعفر في مقدمه ذلك، فلما قدم على أبي العباس أخبره بما كان من استخفافه به.

قال عليّ: قال الوليد عن أبيه: لما قدم أبو مسلم عن أبي العباس، قال أبو جعفر لأبي العباس: يا أميرَ المؤمنين، أطعْني واقتل أبا مسلم؛ فوالله إنّ في رأسه لغَدْرة، فقال: يا أخي، قد عرفتَ بَلاءَه وما كان منه، فقال أبو جعفر: يا أمير المؤمنين، إنما كان بدولتنا؛ والله لو بعثتَ سنّوراً لقام مقامه. وبلغ ما بلغ في هذه الدولة. فقال له أبو العباس: فكيف نقتله؟ قال: إذا دخل عليك وحادثته وأقبل عليك دخلتُ فتغفلتُه فضربتُه من خلْفه ضربة أتيت بها على نفسه، فقال أبو العباس: فكيف بأصحابه الذين يؤثرونه على دينهم ودنياهم؟ قال: يؤول ذلك كله إلى ما تريد، ولو علموا أنه قد قُتل تفرّقوا وذلّوا، قال: عزمتُ عليك إلّا كففتَ عن هذا، قال: أخاف والله إن لم تتغدّه اليوم يتعشاك غداً، قال: فدونكه، أنت أعلم.

قال: فخرج أبو جعفر من عنده عازماً على ذلك، فندِم أبو العباس وأرسل إلى أبي جعفر: لا تفعل ذلك الأمر.

وقيل: إن أبا العباس لما أذِن لأبي جعفر في قتل أبي مسلم، ودخل أبو مسلم على أبي العباس، فبعث أبو العباس خصيًّا له، فقال: اذهب فانظر ما يصنع أبو جعفر؛ فأتاه فوجده محتبياً بسيفه، فقال للخَصيّ: أجالسٌ

أمير المؤمنين؟ فقال له: قد تهيّأ للجلوس، ثم رجع الخصيّ إلى أبي العباس فأخبره بما رأى منه، فردّه إلى أبي جعفر وقال له: قل له الأمر الذي عزمتَ عليه لا تُنفِذْه فكفّ أبو جعفر.

وفي هذه السنة حجّ أبو جعفر المنصور وحجّ معه أبو مسلم.

ذكر الخبر عن مسيرهما وعن وصفة مقدمهما على أبي العباس:

أما أبو مسلم فإنه ـ فيما ذُكِر عنه ـ لما أراد القدوم على أبي العباس، كتب يستأذنه في القدوم للحجّ، فأذن له، وكتب إليه أن اقدم في خمسمائة من الجُنْد، فكتب إليه أبو مسلم: إنّي قد وترتُ الناس ولستُ آمن على نفسي. فكتب إليه أن أقبِلْ في ألف؛ فإنما أنت في سلطان أهلِك ودولتك، وطريق مكة لا تحتمل العسكر؛ فشخص في ثمانية آلاف فرّقهم فيما بين نيسابور والريّ، وقدِم بالأموال والخزائن فخلّفها بالريّ، وجمع أيضاً أموال الجبل، وشخص منها في ألف وأقبل؛ فلما أراد الدّخُول تلقاه القوّاد وسائر الناس، ثم استأذن أبا العباس في الحجّ، فأذن له، وقال: لولا أنّ أبا جعفر حاجّ لوليتك الموسم.

وأما أبو جعفر فإنه كان أميراً على الجزيرة، وكان الواقديّ يقول: كان إليه مع الجزيرة أرمينيَة وأذربيجان، فاستخلف على عمله مقاتل بن حكيم العكيّ، وقدم على أبي العباس فاستأذنه في الحج؛ فذكر عليّ بن محمد عن الوليد بن هشام عن أبيه أن أبا جعفر سار إلى مكة حاجًّا، وحجّ معه أبو مسلم سنة ست وثلاثين ومائة، فلما انقضى الموسم أقبل أبو جعفر وأبو مسلم، فلما كان بين البستان وذات عِرْق أتى أبا جعفر كتابٌ بموت أبي العباس؛ وكان أبو جعفر قد تقدّم أبا مسلم بمرحلة، فكتب إلى أبي مسلم: إنه قد حدث أمرٌ فالعَجل العجل، فأتاه الرسول فأخبره، فأقبل حتى لحق أبا جعفر، وأقبلا إلى الكوفة.

وفي هذه السنة عقد أبو العباس عبدالله بن محمد بن عليّ لأخيه أبي جعفر الخلافة مِنْ بعده، وجعله وليّ عهد المسلمين، ومن بعد أبي جعفر عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ، وكتب العهد بذلك، وصيّره في ثوب، وختم عليه بخاتمه وخواتيم أهل بيته، ودفعه إلى عيسى بن موسى.

وفيها توفِّيَ أبو العباس أمير المؤمنين بالأنبار يوم لأحد، لثلاث عشرة خلَتْ من ذي الحجة. وكانت وفاته فيما قيل بالجدَريّ.

وقال هشام بن محمد: توفي لاثنتي عشرة ليلة مضت من ذي الحجة.

واختلف في مبلغ سنه يوم وفاته، فقال بعضهم: كان له يوم توفِّيَ ثلاث وثلاثون سنة. وقال هشام بن محمد: كان يوم توفيَ ابن ست وثلاثين سنة، وقال بعضهم: كان له ثمان وعشرون سنة.

وكانت ولايته من لَدُن قُتل مَرْوان بن محمد إلى أن تُوفيَ أربع سنين، ومن لدن بويع له بالخلافة إلى أن مات أربع سنين وثمانية أشهر. وقال بعضهم: وتسعة أشهرْ. وقال الواقدّي: أربع سنين وثمانية أشهر منها ثمانية أشهر وأربعة أيام يقاتل مروان.

وملك بعد مروان أربع سنين. وكان ـ فيما ذُكِر ـ ذا شعرة جَعْدة وكان طويلاً أبيض أقنَى الأنف، حسنَ الوجه واللحية.

وأمه رَيْطة بنت عبيدالله بن عبدالله بن عبد المدان بن الديان الحارثيّ وكان وزيره أبو الجهم بن عطيّة.

وصلى عليه عمه عيسى بن عليّ، ودفنه بالأنبار العتيقة في قصره.

وكان - فيما ذكر - خلَّف تسع جباب، وأربعة أقمصَة، وخمسة سراويلات، وأربعة طيالسة، وثلاثة مطارف خَزّ.

خلافة أبي جعفر المنصور
وهو عبدالله بن محمد

وفي هذه السنة بويع لأبي جعفر المنصور بالخلافة؛ وذلك في اليوم الذي توفيَ فيه أخوه أبو العباس، وأبو جعفر يومئذ بمكة؛ وكان الذي أخذ البيعة بالعراق لأبي جعفر بعد موت أبي العباس عيسى بن موسى، وكتب إليه عيسى يُعلمه بموت أخيه أبي العباس وبالبيعة له.

وذكر عليّ بن محمد، عن الهيثم، عن عبدالله بن عيّاش، قال: لما حضرتْ أبا العباس الوفاة، أمر الناس بالبيعة لعبد الله بن محمد أبي جعفر، فبايع الناس له بالأنبار في اليوم الذي مات فيه أبو العباس. وقام بأمر الناس عيسى بن موسى، وأرسل عيسى بن موسى إلى أبي جعفر وهو بمكة محمد بن الحصين العبديّ بموت أبي العباس، وبالبَيْعة له، فلقيَه بمكان من الطريق يقال له زكيَّة، فلما جاءه الكتاب دعا الناس فبايعوه، وبايعه أبو مسلم، فقال أبو جعفر: أين موضعنا هذا؟ قالوا: زكيَّة، فقال: أمر يَزْكَى لنا إن شاء الله تعالى.

وقال بعضهم: ورد على أبي جعفر البيعة له بعد ما صدر من الحجّ، في منزل من منازل طريق مكة؛ يقال له صُفَيَّة، فتفاءل باسمه، وقال: صَفَتْ لنا إن شاء الله تعالى.

رجع الحديث إلى حديث عليّ بن محمد: فقال علي: حدّثني الوليد، عن أبيه، قال: لما أتى الخبرُ أبا جعفر كتب إلى أبي مسلم وهو نازل بالماء، وقد تقدّمه أبو جعفر، فأقبل أبو مسلم حتى قدم عليه.

وقيل إن أبا مسلم كان هو الذي تقدّم أبا جعفر، فعرف الخبر قبله، فكتب إلى أبي جعفر:

بسم الله الرحمن الرحيم. عافاك الله وأمتَع بك؛ إنه أتاني أمر أفظعني، وبلَغ مني مبلغاً لم يبلغه شيء قطّ، لقيَني محمد بن الحصين بكتاب من عيسى بن موسى إليك بوفاة أبي العباس أمير المؤمنين رحمه الله، فنسأل الله أن يعظم أجرَك، ويُحسن الخلافة عليك؛ ويبارك لك فيما أنت فيه؛ إنه ليس من أهلك أحدٌ أشدّ تعظيماً لحقك وأصفى نصيحةً لك، وحرصاً على ما يسرّك مني.

وأنفذ الكتاب إليه، ثم مكث أبو مسلم يومه ومن الغد، ثم بعث إلى أبي جعفر بالبَيْعة؛ وإنما أراد ترهيب أبي جعفر بتأخيرها.

رجع الحديث إلى حديث عليّ بن محمد: فلما جلس أبو مسلم، ألقى إليه الكتاب، فقرأه وبكى واسترجع. قال: ونظر أبو مسلم إلى أبي جعفر، وقد جزع جزعاً شديداً فقال: ما هذا الجزع وقد أتتك الخلافة؟ فقال: أتخوّف شرّ عبدالله بن عليّ وشيعة عليّ، فقال: لا تخفه؛ فأنا أكفيك أمره إن شاء الله؛ إنما عامة جُندِه ومَن معه أهل خُراسان؛ وهم لا يعصونني. فسُرّيَ عن أبي جعفر ما كان فيه، وبايع له أبو مسلم وبايع الناسُ، وأقبلا حتى قدما الكوفة، وردّ أبو جعفر زياد بن عبدالله إلى مكة، وكان قبل ذلك والياً عليها وعلى المدينة لأبي العباس.

وقيل: إن أبا العباس كان قد عزَل قبل موته زياد بن عبدالله الحارثيّ عن مكة، وولاها العبـاس بن عبدالله بن معبد بن العباس.

وفي هذه السنة قدم عبدالله بن عليّ على أبي العباس الأنبار، فعقد له أبو العباس على الصّائفة في أهل خراسان وأهل الشأم والجزيرة والموصل، فسار فبلغ دلوك، ولم يُدْرِبْ حتى أتته وفاة أبي العباس.

وفي هذه السنة بعث عيسى بن موسى وأبو الجهم يزيدَ بن زيـاد أبا غسـان إلى عبدالله بن عـليّ ببيعة المنصور، فانصرف عبدُالله بن عليّ بمن معه من الجيوش، قد بايع لنفسه حتى قدم حَرّان.

وأقام الحجّ للناس في هذه السنة أبو جعفر المنصور؛ وقد ذكرنا ما كان إليه من العمل في هذه السنة؛ ومن استخلف عليه حين شخص حاجًّا.

وكان على الكوفة عيسى بن موسى، وعلى قضائها ابن أبي ليلى، وعلى البصرة وعملها سليمان بن عليّ، وعلى قضائها عبّاد بن المنصور، وعلى المدينة زياد بن عبيدالله الحارثي، وعلى مكة العباس بن عبدالله بن معبد، وعلى مصر صالح بن عليّ.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائة

ذكر الخبر عما كان في هذه السنة من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك قدُوم المنصور أبي جعفر من مكة ونزولُه الحيرة، فوجد عيسى بن موسى قد شخص إلى الأنبار، واستخلف على الكوفة طَلْحة بن إسحاق بن محمد بن الأشعث، فدخل أبو جعفر الكُوفة فصلّى بأهلها الجمعة يوم الجمعة، وخطبهم وأعلمهم أنه راحل عنهم؛ ووافاه أبو مسلم بالحِيرة، ثم شخص أبو جعفر إلى الأنبار وأقام بها، وجمع إليه أطرافه.

وذكر عليّ بن محمد عن الوليد، عن أبيه، أنّ عيسى بن موسى كان قد أحرز بيوت الأموال والخزائن والدّواوين؛ حتى قدم عليه أبو جعفر الأنبار، فبايع الناس له بالخلافة، ثم لعيسى بن موسى من بعده؛ فسلم عيسى بن موسى إلى أبي جعفر الأمْر؛ وقد كان عيسى بن موسى بعث أبا غَسّان - واسمه يزيد بن زياد، وهو حاجب أبي العباس - إلى عبدالله بن عليّ ببيعة أبي جعفر؛ ذلك بأمرِ أبي العباس قبل أن يموت حين أمر الناس بالبيعة لأبي جعفر من بعده. فقدم أبو غسان على عبدالله بن عليّ بأفواه الدروب، متوجّهاً يريد والروم؛ فلما قدم عليه أبو غسان بوفاة أبي العباس وهو نازل بموضع يقال له دُلُوك، أمر منادياً فنادى: الصلاة جامعة فاجتمع إليه القوّاد والجند، فقرأ عليهم الكتاب بوفاة أبي العباس، ودعا الناس إلى نفسه؛ وأخبرهم أن أبا العباس حين أراد أن يُوجّه الجنود إلى مَرْوان بن محمد دعا بني أبيه؛ فأرادهم على المسير إلى مروان بن محمد، وقال: من انتدب منكم فسار إليه فهو وليّ عهدي، فلم ينتدب له غيري؛ فعلى هذا خرجتُ من عنده، وقتلتُ من قتلت. فقام أبو غانم الطائيّ وخُفاف المرورذيّ في عدّة من قوّاد أهل خُراسان، فشهدوا له بذلك؛ فبايعه أبو غانم وخُفاف وأبو الأصبَغ وجميعُ مَن كان معه من أولئك القوّاد، فيهم حُمَيد بن قَحْطبة وخُفاف الجرجانيّ وعيّاش بن حبيب ومخارق بن غِفار وتُرارخُدا وغيرهم من أهل خُراسان والشام والجزيرة، وقد نزل تلّ محمد، فلما فرغ من البَيْعة ارتحل فنزل حَرّان، وبها مُقاتل العكيّ - وكان أبو جعفر استخلفه لما قدِم على أبي العباس - فأراد مقاتلاً على البيعة فلم يجبْه، وتحصّن منه، فأقام عليه وحصره حتى استنزله من حِصْنه فقتله.

وسرّح أبو جَعفر لقتال عبدالله بن عليّ أبا مسلم؛ فلما بلغ عبدَالله إقبالُ أبي مسلم أقام بحرّان، وقال أبو جعفر لأبي مسلم: إنما هو أنا أو أنت؛ فسار أبو مسلم نحو عبدالله بحَرّان، وقد جمع إليه الجنود والسلاح، وخندق وجمع إليه الطعام والعلوفة وما يصلِحه، ومضى أبو مسلم سائراً من الأنبار؛ ولم يتخلّف عنه من القوّاد أحدٌ، وبعث على مقدمته مالك بن الهيثم الخزاعيّ؛ وكان معه الحسن وحميد ابنا قحطبة، وكان حميد قد فارق عبدالله بن عليّ، وكان عبدالله أراد قتله، وخرج معه أبو إسحاق وأخوه وأبو حُميد وأخوه وجماعة من أهل

خراسان؛ وكان أبو مسلم استخلف على خراسان حيث شخص خالد بن إبراهيم أبا داود.

قال الهيثم: كان حصار عبدالله بن عليّ مقاتلاً العكيّ أربعين ليلة، فلما بلغه مسيرُ أبي مسلم إليه، وأنه لم يظفر بمقاتل، وخشي أن يهجم عليه أبو مسلم أعطى العكيّ أماناً، فخرج إليه فيمن كان معه، وأقام معه أياماً يسيرة، ثم وجّهه إلى عثمان بن عبد الأعلى بن سراقة الأزديّ إلى الرّقة ومعه ابناه، وكتب إليه كتاباً دفعه إلى العكيّ، فلما قدموا على عثمان قتَل العكيّ وحبس ابنيه، فلما بلغه هزيمة عبدالله بن عليّ وأهل الشأم بنصيبين أخرجهما فضرب أعناقهما.

وكان عبدالله بن عليّ خشي ألا يناصحه أهل خراسان، فقتل منهم نحواً من سبعة عشر ألفاً؛ أمر صاحب شُرطَه فقتله؛ وكتب لحميد بن قحطبة كتاباً ووجّهه إلى حلب، وعليها زُفَر بن عاصم وفي الكتاب: إذا قدم عليك حُميد بن قحطبة فاضرب عنقَه، فسار حميد حتى إذا كان ببعض الطريق فكّر في كتابه، وقال: إنّ ذهابي بكتاب ولا أعلم ما فيه لغَرَر، ففكّ الطومار فقرأه، فلما رأى ما فيه دعا أناساً من خاصته فأخبرهم الخبر، وأفشى إليه أمره، وشاورهم، وقال: مَن أراد منكم أن ينجوَ ويهرب فليَسِرْ معي؛ فإني أريد أن آخذ طريق العراق، وأخبرهم ما كتب به عبدالله بن عليّ في أمره، وقال لهم: مَنْ لم يرد منكم أن يحمل نفسه على السير فلا يفشينّ سرّي، وليذهب حيث أحبّ.

قال: فاتّبعه على ذلك ناس من أصحابه، فأمر حميد بدوابّه فأنعلت، وأنعل أصحابه دوابّهم، وتأهبوا للمسير معه، ثم فوّز بهم وبهرَجَ الطريقفأخذعلى ناحية من الرّصافة؛ رصافة هشام بالشأم، وبالرّصافة يومئذ مولى لعبدالله بن عليّ يقال له سعيد البربريّ، فبلغه أنّ حُميد بن قحطبة قد خالف عبدالله بن عليّ، وأخذ في المفازة، فسار في طلبه فيمن معه من فُرسانه؛ فلحقه ببعض الطريق، فلما بصر به حُميد ثنى فرَسه نحوه حتى لقيَه، فقال له: ويحك! أما تعرفني! والله مالك في قتالي من خَيْر فارجع؛ فلا تقتل أصحابي وأصحابك، فهو خير لك. فلما سمع كلامه عرف ما قال له، فرجع إلى موضعه بالرُّصافة، ومضى حُميد ومَن كان معه، فقال له صاحب حَرسه موسى بن ميمون: إن لي بالرُّصافة جارية، فإن رأيتَ أن تأذنَ لي فآتيَها فأوصيها ببعض ما أريد، ثم ألحقك! فأذن له فأتاها، فأقام عندها، ثم خرج من الرُّصافة يريد حُميداً، فلقيه سعيد البربريّ مولى عبدالله بن عليّ، فأخذه فقتله؛ وأقبل عبدالله بن عليّ حتى نزل نَصِيبين، وخندق عليه.

وأقبل أبو مسلم. وكتب أبو جعفر إلى الحسن بن قحطبة - وكان خليفته بأرمينيَة - أن يوافيَ أبا مسلم، فقدم الحسن بن قحطبة على أبي مسلم وهو بالمَوْصِل، وأقبل أبو مسلم، فنزل ناحية لم يعرض له، وأخذ طريق الشأم، وكتب إلى عبدالله: إني لم أومَر بقتالك، ولم أوجَّه له، ولكن أمير المؤمنين ولّاني الشأم؛ وإنما أريدها؛ فقال مَنْ كان مع عبدالله من أهل الشأم لعبدالله: كيف نقيم معك وهذا يأتي بلادنا، وفيها حرمُنا فيقتل من قدر عليه من رجالنا، ويسبِي ذراريّنا! ولكنا نخرج إلى بلادنا فنمنعه حَرَمنا وذراريّنا ونقاتله إن قاتلنا، فقال لهم عبدالله بن عليّ: إنه والله ما يريد الشأم، وما وُجِّه إلا لقتالكم، ولئن أقمتم ليأتينّكم. قال: فلم تطب أنفسُهم، وأبوْا إلا المسير إلى الشأم.

قال: وأقبل أبو مسلم فعسكر قريباً منهم، وارتحل عبدالله بن عليّ من عسكره متوجّهاً نحو الشأم، وتحوّل أبو مسلم حتى نزل في معسكر عبدالله بن عليّ في موضعه، وعوّر ما كان حوله من المياه، وألقى فيها الجيَف.

وبلغ عبدالله بن عليّ نزول أبي مسلم معسكره، فقال لأصحابه من أهل الشأم: ألم أقل لكم! وأقبل فوجد أبا مسلم قد سبقه إلى معسكره، فنزل في موضع عسكر أبي مسلم الذي كان فيه، فاقتتلوا أشهراً خمسة أو ستة، وأهل الشأم أكثر فرساناً وأكمل عُدّة، وعلى ميمنة عبدالله بكار بن مسلم العقيليّ، وعلى ميسرته حبيب بن سويد الأسديّ، وعلى الخيل عبد الصمد بن عليّ، وعلى ميمنة أبي مسلم الحسن بن قحطبة، وعلى الميسرة أبو نصر خازم بن خزيمة، فقاتلوه أشهراً.

قال عليّ: قال هشام بن عمرو التّغلَبيّ: كنت في عسكر أبي مسلم، فتحدّث الناس يوماً، فقيل: أيُّ الناس أشدّ؟ فقال: قولوا حتى أسمع، فقال رجل: أهل خراسان. وقال آخر: أهل الشأم، فقال أبو مسلم: كلّ قوم في دولتهم أشدّ الناس. قال: ثم التقينا، فحمل علينا أصحاب عبدالله بن عليّ فصدمونا صدمةً أزالونا بها عن مواضعنا، ثم انصرفوا. وشدّ علينا عبد الصمد في خيل مجرّدة، فقتل منا ثمانية عشر رجلاً، ثم رجع في أصحابه، ثم تجمعوا فرموْا بأنفسهم: فأزالوا صفّنا وجُلْنَا جَوْلة، فقلت لأبي مسلم: لو حرّكتُ دابتي حتى أشرف على هذا التلّ فأصبح بالناس، فقد انهزموا! فقال: افعل، قال: قلت: وأنت أيضاً فتحرّك دابتك، فقال: إن أهل الحِجَى لا يعطفون دوابهم على هذه الحال، نادِ: يا أهل خُراسان ارجعوا؛ فإن العاقبة لمن اتقى.

قال: ففعلت، فتراجع الناس، وارتجز أبو مسلم يومئذ فقال:

مَنْ كانَ ينوي أهلَه فلا رجَعْ ... فَرَّ مِنَ الموتِ وفي الموتِ وَقَعْ

قال: وكان قد عُمِل لأبي مسلم عريش، فكان يجلس عليه إذا التقى الناس فينظر إلى القتال، فإن رأى خللاً في الميمنة أو في الميسرة أرسل إلى صاحبها: إنّ في ناحيتك انتشاراً، فاتّق ألّا تؤتَى من قِبَلك؛ فافعل كذا، قدّم خيلك كذا، أو تأخّر كذا إلى موضع كذا، فإنما رسله تختلف إليهم برأيه حتى ينصرف بعضهم عن بعض.

قال: فلما كان يوم الثلاثاء - أو الأربعاء - لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ومائة - أو سبع وثلاثين ومائة - التقوْا فاقتتلوا قتالاً شديداً. فلما رأى ذلك أبو مسلم مكَر بهم، فأرسل إلى الحسن بن قحطبة - وكان على ميمنته - أن أعْرِ الميمنة، وضُمَّ أكثرها إلى الميسرة، وليكنْ في الميمنة حماة أصحابك وأشدّاؤهم. فلما رأى ذلك أهلُ الشأم أعرَوْا ميسرتَهم، وانضموا إلى ميمنتهم بإزاء ميسرة أبي مسلم. ثم أرسل أبو مسلم إلى الحسن أن مُرْ أهل القلب فليحملوا مع مَنْ بقي في المينة على ميسرة أهل الشأم، فحملوا عليهم فحطموهم، وجال أهل القلب والميمنة..

قال: وركبهم أهلُ خراسان، فكانت الهزيمة، فقال عبدالله بن عليّ لابن سراقة الأزديّ - وكان معه: يابن سراقة، ما ترى؟ قال: أرى والله أن تصبر وتقاتل حتى تموت؛ فإنّ الفرار قبيح بمثلك، وقبلُ عتبة على مَرْوان، فقلتَ: قبح الله مَرْوان! جزع من الموت ففرّ! قال: فإني آتي العراق، قال: فأنا معك، فانهزموا وتركوا عسكرهم، فاحتواه أبو مسلم، وكتب بذلك إلى أبي جعفر. فأرسل أبو جعفر أبا الخصيب مولاه يُحصي ما أصابوا في عسكر عبدالله بن عليّ، فغضب من ذلك أبو مسلم. ومضى عبدالله بن عليّ وعبد الصمد بن علي؛ فأما عبد الصمد فقدم الكوفة فاستأمن له عيسى بن موسى فآمنه أبو جعفر، وأما عبدالله بن عليّ فأتى سليمانَ بن عليّ بالبصرة، فأقام عنده. وآمن أبو مسلم الناسَ فلم يقتل أحداً، وأمر بالكفّ عنهم.

ويقال: بل استأمن لعبد الصمد بن عليّ إسماعيل بن عليّ.

وقد قيل: إن عبدالله بن عليّ لما انهزم مضى هو وعبد الصمد أخوه إلى رُصافة هشام، فأقام عبدالصمد بها حتى قدِمت عليه خيول المنصور، وعليها جهور بن مرّار العجليّ، فأخذه فبعث به إلى المنصور مع أبي الخصيب مولاه موثَقاً، فلما قدم عليه أمر بصرْفه إلى عيسى بن موسى، فآمنه عيسى وأطلقه وأكرمه، وحباه وكساه.

وأما عبدالله بن عليّ فلم يلبث بالرّصافة إلا ليلة، ثم أدلَج في قواده ومواليه حتى قدم البصرة على سليمان بن عليّ وهو عاملها يومئذ، فآواهم سليمان وأكرمهم وأقاموا عنده زماناً متوارين.

وفي هذه السنة قُتل أبو مسلم.

ذكر الخبر عن مقتله وعن سبب ذلك:

حدّثني أحمد بن زهير، قال: حدّثنا عليّ بن محمد، قال: حدّثنا سلمة بن محارب ومسلم بن المغيرة وسعيد بن أوس وأبو حفص الأزديّ والنعمان أبو السريّ ومحرز بن إبراهيم وغيرهم، أن أبا مسلم كتب إلى أبي العباس يستأذنه في الحجّ - وذلك في سنة ست وثلاثين ومائة - وإنما أراد أن يصلي بالناس. فأذن له، وكتب أبو العباس إلى أبي جعفر وهو على الجزيرة وأرمينيَة وأذْرَبيجان: إن أبا مسلم كتب إليّ يستأذن في الحجّ وقد أذنتُ له؛ وقد ظننتُ أنه إذا قدم يريد أن يسألني أن أولّيَه إقامة الحجّ للناس، فاكتب إليّ تستأذنني في الحج؛ فإنك إذا كنتَ بمكة لم يطمع أن يتقدّمك. فكتب أبو جعفر إلى أبي العباس يستأذنه في الحجّ فأذن له، فوافى الأنبار، فقال أبو مُسلم: أما وجد أبو جعفر عاماً يحجّ فيه غيرَ هذا! واضطغنها عليه.

قال عليّ: قال مسلم بن المغيرة: استخلف أبو جعفر على أرمينيَة في تلك السنة الحسن بن قحطبة. وقال غيره: استعمل رضيعه يحيى بن مسلم بن عُروة - وكان أسود مولًى لهم - فخرجا إلى مكة فكان أبو مسلم يصلح العِقَاب ويكسو الأعراب في كلّ منزل، ويصلُ من سأله، وكسا الأعراب البُتوت والملاحف، وحفر الآبار، وسهل الطرق؛ فكان الصوت له؛ وكان الأعراب يقولون: هذا المكذوب عليه؛ حتى قدم مكة فنظر إلى اليمانيَة فقال لنيزك - وضرب جنبه -: يا نيزكُ، أيّ جند هؤلاء لو لقيهم رجل ظريف اللسان سريع الدمعة!

ثم رجع الحديث إلى حديث الأولين. قالوا: لما صدر الناس عن الموسم، نفر أبو مسلم قبل أبي جعفر، فتقدّمه، فأتاه كتابٌ بموت أبي العباس واستخلاف أبي جعفر، فكتب أبو مسلم إلى أبي جعفر يعزّيه بأمير المؤمنين؛ ولم يهنّئه بالخلافة، ولم يقم حتى يلحقه، ولم يرجع؛ فغضب أبو جعفر فقال لأبي أيوب: اكتب إليه كتاباً غليظاً؛ فلما أتاه كتاب أبي جعفر كتب إليه يهنئه بالخلافة، فقال يزيد بن أسيد السُّلميّ لأبي جعفر: إني أكره أن تجامعه في الطريق والناس جنده؛ وهم له أطوعُ، وله أهيب، وليس معك أحدٌ. فأخذ برأيه، فكان يتأخر ويتقدّم أبو مسلم، وأمر أبو جعفر أصحابَه فقدموا، فاجتمعوا جميعاً وجمع سلاحهم؛ فما كان في عسكره إلّا ستة أذرعٍ، فمضى أبو مسلم إلى الأنبار، ودعا عيسى بن موسى إلى أن يبايع له؛ فأبَى عيسى، فقدم أبو جعفر فنزل الكوفة؛ وأتاه أن عبدالله بن عليّ قد خلع، فرجع إلى الأنبار، فدعا أبا مسلم، فعقد له، وقال له: سِرْ إلى ابن عليّ، فقال له أبو مسلم: إن عبد الجبار بن عبد الرحمن وصالح بن الهيثم يعيبانني فاحبسهما، فقال أبو جعفر: عبد الجبار على شُرَطِي - وكان قبل على شُرط أبي العباس - وصالح بن الهيثم أخو أمير المؤمنين من الرّضاعة، فلم أكن لأحبسهما لظنك بهما؛ قال: أراهما آثَر عندك مني! فغضب أبو جعفر، فقال أبو مسلم: لم أرد كلّ هذا.

قال عليّ: قال مسلم بن المغيرة: كنت مع الحسن بن قحطبة بأرمينيَة فلما وجّه أبو مسلم إلى الشأم كتب أبو جعفر إلى الحسن أن يوافَيه ويسير معه، فقدمنا على أبي مسلم وهو بالموصل فأقام أياماً، فلما أراد أن يسير، قلت للحسن: أنتم تسيرون إلى القتال وليس بك إليّ حاجة، فلو أذنتَ لي فأتيت العراق، فأقمت حتى تقدموا إن شاء الله! قال: نعم؛ لكن أعلِمْني إذا أردتَ الخروج، قلت: نعم، فلما فرغت وتهيأت أعلمتُه، وقلتُ: أتيتُك أودّعك، قال: قف لي بالباب حتى أخرُج إليك، فخرجتُ فوقفتُ وخرج، فقال: إنّي أريد أن ألقي إليك شيئاً لتبلِغَه أبا أيوب، ولولا ثقتي بك لم أخبرْك، ولولا مكان من أبي أيوب لم أخبرْك؛ فأبلغْ أبا أيوب أني قد ارتبتُ بأبي مسلم منذ قدمتُ عليه، إنّه يأتيه الكتاب من أمير المؤمنين فيقرؤه، ثم يلوي شِدقه، ويرمي بالكتاب إلى أبي نصر،فيقرؤوه ويضحكان استهزاء؛ قلتُ: نعم قد فهمت؛ فلقيتُ أبا أيوب وأنا أرى أن قد أتيته بشيء، فضحك، وقال: نحن لأبي مسلم أشدّ تُهمةً منّا لعبدالله بن عليّ إلاّ إنا نرجو واحدةً؛ نعلم أنّ أهل خُراسان لا يحبون عبدالله بن عليّ. وقد قَتَل منهم من قَتَل؛ وكان عبدالله بن عليّ حين خَلَع خاف أهلَ خُراسان، فقتل منهم سبعة عشر ألفاً؛ أمر صاحب شرطته حيّاش بن حبيب فقتلهم.

قال عليّ: فذكـر أبو حفص الأزديّ أن أبا مسلم قاتل عبدالله بن عليّ فهزمه، وجَمَع ما كان في عسكره من الأموال فصيّره في حظيرة، وأصاب عيناً ومتاعاً وجوهراً كثيراً؛ فكان منثـوراً في تلك الحظيـرة؛ ووكّل بهـا وبحفظها قائداً من قُوّاده، فكنت في أصحابه، فجعلها نوائب بيننا، فكان إذا خرج رجل من الحظِيرة فتّشه، فخرج أصحابي يوماً من الحظِيرة وتخلفت، فقال لهم الأمير: ما فعل أبو حفص؟ فقالوا: هو في الحظيرة، قال: فجاء فاطلع من الباب، وفطِنت له فنزعت خُفَّيّ وهو ينظر، فنفضتهما وهو ينظر، ونفضت سراويلي وكُمّي، ثم لبست خفيّ وهو ينظر، ثم قام فقعد في مجلسه وخرجت، فقال لي: ما حبسك؟ قلت: خير، فخلاني، فقال: قد رأيتُ ما صنعتَ فلِمَ صنعتَ هذا؟ قلت: إنّ في الحظيرة لؤلؤاً منثوراً ودراهم منثورة؛ ونحن نتقلب عليها، فخفت أن يكون قد دخل في خُفّي منها شيء، فنزعت خُفّي وجوربيّ؛ فأعجبه ذلك وقال: انطلق، فكنت أدخل الحظيرة مع من يحفظ فآخذ من الدراهم ومن تلك الثياب الناعمة فأجعل بعضها في خفيّ وأشدّ بعضها على بطني، ويخرج أصحابي فيفتَّشُون ولا أفتَّش، حتى جمعت مالاً، قال: وأما اللؤلؤ فإنّي لم أكن أمسّه.

ثم رجع الحديث إلى حديث الذين ذكر عليّ عنهم قصـة أبي مسلم في أول الخبر. قـالوا: ولـما انهزم عبدالله بن عليّ بعث أبو جعفر أبا الخصيب إلى أبي مسلم ليكتب له ما أصاب من الأموال، فافترى أبو مسلم على أبي الخصيب وهمّ بقتله، فكلِّم فيه؛ وقيل: إنما هو رسول، فخلّ سبيلَه. فرجع إلى أبي جعفر، وجاء القوّاد إلى أبي مسلم، فقالوا: نحن ولينا أمر هذا الرجل، وغنِمْنا عسكره، فلم يُسأل عما في أيدينا؛ إنما لأمير المؤمنين مِنْ هذا الخُمْس. فلما قدم أبو الخصيب على أبي جعفر أخبره أنّ أبا مسلم همّ بقتله. فخاف أن يمضيَ أبو مسلم إلى خُراسان، فكتب إليه كتاباً مع يقطين؛ أنْ قد وليتك مصر والشأم؛ فهي خير لك من خراسان، فوجّه إلى مِصر من أحببت، وأقم بالشأم فتكون بقرب أمير المؤمنين؛ فإن أحبّ لقاءك أتيتَـه من قريب. فلما أتـاه الكتاب غضب، وقال: هو يوليني الشأم ومصر، وخراسان لي! واعتزم بالمضيّ إلى خراسان، فكتب يقطين إلى أبي جعفر بذلك.

وقال غير من ذكرت خبره: لما ظفِر أبو مسلم بعسكر عبدالله بن عليّ بعث المنصور يقطين بن موسى،

وأمره أن يحصيَ ما في في العسكر، وكان أبو مسلم يسميه «يك دين»، فقال أبو مسلم: يا يقطين، أمين على الدماء خائن في الأموال! وشتم أبا جعفر، فأبلغه يقطين ذلك. وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مجمِعاً على الخلاف؛ وخرج من وجهه معارضاً يريد خراسان؛ وخرج أبو جعفر من الأنبار إلى المدائن؛ وكتب إلى أبي مسلم في المصير إليه. فكتب أبو مسلم، وقد نزل الزّاب وهو على الرّواح إلى طريق حُلوان: إنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدوّ إلا أمكنه الله منه؛ وقد كنّا نروِي عن ملوك آل ساسان: أنّ أخوف ما يكون الوزراء إذا سكت الدهماء؛ فنحن نافرون من قربك، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيتَ، حريُّون بالسمع والطاعة؛ غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة، فإن أرضاك ذاك فأنا كأحسن عبيدك؛ فإن أبيتَ إلا أن تعطيَ نفسك إرادتَها نقضتُ ما أبرمْت من عهدك، ضنًّا بنفسي. فلما وصل الكتاب إلى المنصور كتب إلى أبي مسلم: قد فهمتُ كتابك؛ وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغَشَشة ملوكهم، الذين يتمنّون اضطراب حَبْل الدولة لكثرة جرائمهم؛ فإنما راحتُهم في انتشار نظام الجماعة؛ فلمَ سوَّيْت نفسك بهم، وأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به! وليس مع الشريطة التي أوجبتَ منك سمع ولا طاعة. وحمّل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكُنَ إليها إن أصْغَيْت إليها، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونـزغاته وبينك؛ فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكدَ عنده، وأقرب من طِبّه من الباب الذي فتحه عليك. ووجه إليه جرير بن يزيد بن جرير بن عبدالله البجليّ؛ وكان واحد أهل زمانه، فخدعه وردّه، وكان أبو مسلم يقول: والله لأقتَلَنّ بالروم؛ وكان المنجمون يقولون ذلك؛ فأقبل والمنصور في الرومية في مضارب، وتلقاه الناس وأنزله وأكرمه أياماً.

وأما عليّ فإنه ذكر عن شيوخه الذين تقدّم ذكرنا لهم أنهم قالوا: كتب أبو مسلم إلى أبي جعفر: أما بعد؛ فإني اتخذت رجلاً إماماً ودليلاً على ما افترضه الله على خلقه؛ وكان في مَحِلّة العلم نازلاً، وفي قرابته من رسول الله ﷺ قريباً؛ فاستجهلني بالقرآن فحرّفه عن مواضعه، طمعاً في قليل قد تعافاه الله إلى خلقه؛ فكان كالذي دُلّيَ بغرور؛ وأمرني أن أجرّد السيف، وأرفع الرحمة، ولا أقبل المعذرة، ولا أقِيل العثرة، ففعلت توطيداً لسلطانكم حتى عرَّفكم الله من كان جهلكم، ثم استنقذني الله بالتَّوْبة؛ فإن يعف عني فقِدْماً عُرِف به ونسِب إليه؛ وإن يعاقبني فيما قدّمت يداي وما الله بظلام للعبيد.

وخرج أبو مسلم يريد خُراسان مراغما مشاقًّا، فلما دخل أرضَ العراق، ارتحل المنصور من الأنْبار، فأقبل حتى نزل المدائن، وأخذ أبو مسلم طريق حُلوان؛ فقال: رُبَّ أمرٍ لله دون حُلوان. وقال أبو جعفر لعيسى بن عليّ وعيسى بن موسى ومَنْ حضره من بني هاشم: اكتبوا إلى أبي مسلم؛ فكتبوا إليه يعظمون أمره، ويشكرون له ما كان منه، ويسألونه أن يتمّ على ما كان منه وعليه من الطاعة، ويحذّرونه عاقبة الغدر، ويأمرونه بالرجوع إلى أمير المؤمنين؛ وأن يلتمس رضاه. وبعث بالكتاب أبو جعفر مع أبي حميد المروروذيّ، وقال له: كلم أبا مسلم بألْيَنَ ما تكلّم به أحداً، ومنّه وأعلمه أني رافعه وصانِع به ما لم يصنعه أحد، إن هو صلح وراجع ما أحبّ؛ فإن أبى أن يرجع فقلْ له: يقول لك أمير المؤمنين: لستُ للعباس وأنا بريء من محمد، إن مضيتَ مشاقًّا ولم تأتني، إن وكلت أمرَك إلى أحد سواي، وإن لم ألِ طلبك وقتالك بنفسي؛ ولو خُضْتَ البحر لخضتُه، ولو اقتحمتَ النار لاقتحمتُها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك. ولا تقولنّ له هذا الكلام حتى تأيس من رجوعه، ولا تطمع منه في خير.

فسار أبو حُميد في ناس من أصحابه ممن يثق بهم؛ حتى قدموا على أبي مسلم بحُلْوان، فدخل أبو حميد وأبو مالك وغيرهما، فدفع إليه الكتاب، وقال له: إنّ الناس يبلّغونك عن أمير المؤمنين ما لم يقله، وخلاف ما عليه رأيه فيك؛ حسداً وبغياً؛ يريدون إزالة النعمة وتغييرَها؛ فلا نفسد ما كان منك؛ وكلّمه. وقال: يا أبا مسلم، إنك لم تزل أمينَ آل محمد؛ يعرفك بذلك الناس، وما ذخر الله لك من الأجر عنده في ذلك أعظم مما أنت فيه من دنياك، فلا تحبطْ أجرَك، ولا يستهوينّك الشيطان، فقال له أبو مسلم: متى كنتَ تكلّمني بهذا الكلام! قال: إنك دعوتَنا إلى هذا وإلى طاعة أهل بيت النبيّ ﷺ بني العباس، وأمرتَنا بقتال مَن خالف ذلك؛ فدعوتنا من أرَضين متفرّقة وأسباب مختلفة، فجمعنا الله على طاعتهم، وألف بين قلوبنا بمحبّتهم، وأعزّنا بنصرنا لهم، ولم نلق منهم رجلاً إلا بما قذف الله في قلوبنا، حتى أتيناهم في بلادهم ببصائر نافذة، وطاعة خالصة؛ أفتريد حين بلغنا غاية منانا ومنتهى أمَلنا أن تُفسد أمرنا، وتفرّق كلمتنا؛ وقد قلت لنا: مَنْ خالفكم فاقتلوه، وإن خالفتُكم فاقتلوني! فأقبَل على أبي نصر، فقال: يا مالك، أما تسمع ما يقول لي هذا! ما هذا بكلامه يا مالك! قال: لا تسمع كلامه، ولا يهولنك هذا منه؛ فلعمري لقد صدقتَ ما هذا كلامه؛ ولَما بعد هذا أشدّ منه؛ فأمض لأمرك ولا ترجِعْ؛ فوالله لئن أتيتَه ليقتلنّك؛ ولقد وقع في نفسه منك شيء لا يأمنك أبداً. فقال: قوموا، فنهضوا، فأرسل أبو مسلم إلى نيزك، وقال: يا نيزك، إني والله ما رأيت طويلاً أعقَل منك، فما ترى، فقد جاءت هذه الكتب، وقد قال القوم ما قالوا؟ قال: لا أرى أن تأتيَه، وأرى أن تأتي الرّيّ فتقيم بها، فيصير ما بين خراسان والرّي لك؛ وهم جندُك ما يخالفك أحدٌ؛ فإن استقام لك استقمتَ له، وإن أبى كنتَ في جندك، وكانت خراسان من ورائك، ورأيت رأيك. فدعا أبا حميد، فقال: ارجع إلى صاحبك، فليس من رأيي أن آتيَه. قال: قد عزمت على خلافه؟ قال: نعم، قال: لا تفعل، قال: ما أريد أن ألقاه؛ فلما آيسه من الرجوع، قال له ما أمره به أبو جعفر، فوجَم طويلاً، ثم قال: قم. فكَسره ذلك القول ورعّبه.

وكان أبو جعفر قد كتب إلى أبي داود ـ وهو خليفة أبي مسلم بخُراسان ـ حيت اتّهم أبا مسلم: إنّ لك إمْرَة خراسان ما بقيتُ. فكتب أبو داود إلى أبي مسلم: إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيّه ﷺ، فلا تخالفنّ إمامك ولا ترجعنّ إلا بإذنه. فوافاه كتابه على تلك الحال؛ فزاده رُعباً وهَمًّا، فأرسل إلى أبي حُميد وأبي مالك فقال لهما: إني قد كنت معتزماً على المضيّ إلى خراسان، ثم رأيت أن أوجّه أبا إسحاق إلى أمير المؤمنين فيأتيني برأيه؛ فإنه ممن أثق به فوجهه، فلما قدم تلقاه بنو هاشم بكلّ ما يحبّ، وقال له أبو جعفر: اصرفه عن وجهه؛ ولك ولاية خراسان؛ وأجازه. فرجع أبو إسحاق إلى أبي مُسلم، فقال له: ما أنكرتُ شيئاً، رأيتهم معظمين لحقك، يرون لك ما يرون لأنفسهم. وأشار عليه أن يرجع إلى أمير المؤمنين، فيعتذر إليه مما كان منه، فأجمع على ذلك، فقال له نيزك: قد أجمعتَ على الرجوع؟ قال: نعم، وتمثّل:

ما للرجال مع القضاءِ مَحَالَةٌ ذَهَبَ القضاءُ بحيلة الأقوامِ

فقال: أمّا إذا اعتزمتَ على هذا فخار الله لك؛ واحفظْ عني واحدة؛ إذا دخلتَ عليه فاقتله ثم بايع لمن شئت؛ فإنّ الناس لا يخالفونك. وكتب أبو مسلم إلى أبي جعفر يخبره أنه منصرف إليه.

قالوا: قال أبو أيوب: فدخلتُ يوماً على أبي جعفر وهو في خِباء شَعر بالروميّة جالساً على مُصلًّى بعد العصر، وبين يديه كتاب أبي مسلم، فرمى به إليّ فقرأته، ثم قال: والله لئن ملأت عيني منه لأقتلنّه، فقلت في

نفسي: إنا لله وإنا إليه راجعون! طلبتُ الكتاب حتى إذا بلغتُ غايتها فصرتُ كاتباً للخليفة، وقع هذا بين الناس! والله ما أرى إنا إن قُتِل يرضى أصحابُه بقتله، ولا يدَعُون هذا حيًّا؛ ولا أحداً ممن هو بسبيل منه؛ وامتنع مني النوم،ثم قلتُ: لعلّ الرّجل يقدَم وهو آمن؛ فإن كان آمناً فعسى أن ينال ما يريد؛ وإن قدم وهو حَذِر لم يقدر عليه إلا في شرّ، فلو التمست حيلة! فأرسلتُ إلى سلمة بن سعيد بن جابر، فقلت له:هل عندك شكر؟ فقال: نعم، فقلت: إن وليتُك ولاية تصيب منها مثل ما يصيب صاحب العراق، تدخل معك حاتم بن أبي سليمان أخي؟ قال: نعم، فقلت ـ وأردت أن يطلع ولا ينكر: وتجعل له النصف؟ قال: نعم، قلت: إنّ كَسْكَر كالت عامَ أوّل كذا وكذا، ومنها العام أضعاف ما كان عام أوّل؛ فإن دفعتُها إليك بقبَالتها عاماً أوّل أو بالأمانة أصبتَ ما تضيق به ذرعا، قال: فكيف لي بهذا المال؟ قلت: تأتي أبا مسلم، فتلقاه وتكلمه غداً، وتسأله أن يجعل هذا فيما يرفع من حوائجه أن تتولاّها أنت بما كانت في العالم الأوّل؛ فإنّ أمير المؤمنين يريد أن يولِّيه إذا قدم ما وراء بابه، ويستريح ويريح نفسه، قال: فكيف لي أن يأذن أمير المؤمنين في لقائه؟ قلتُ: أنا أستأذن لك؛ ودخلت إلى أبي جعفر؛ فحدثته الحديث كله، قال: فادع سلَمة، فدعوته، فقال: إن أبا أيوب استأذن لك، أفتحب أن تلقى أبا مسلم؟ قال: نعم، قال: فقد أذنتُ لك، فأقرئه السلام، وأعلمه بشوقنا إليه. فخرج سلمة فلقيَه، فقال: أميرُ المؤمنين أحسنُ الناس فيك رأياً، فطابت نفسه؛ وكان قبل ذلك كئيباً. فلما قدم عليه سلمة سرّه ما أخبره به وصدّقه، ولم يزل مسروراً حتى قدم.

قال أبو أيوب: فلما دنا أبو مسلم من المدائن أمَر أميرُ المؤمنين الناس فتلقوْه؛ فلما كان عشية قدم، دخلت على أمير المؤمنين وهو في خِباء على مصلًّى، فقلت: هذا الرجل يدخل العشيّة، فما تريد أن تصنع؟ قال: أريد أن أقتله حين أنظر إليه، قلت: أنشدك الله؛ إنه يدخل معه الناس؛ وقد علموا ما صنع؛ فإن دخل عليك ولم يخرج لم آمن البلاء؛ ولكن إذا دخل عليك فأذن له أن ينصرف؛ فإذا غدا عليك رأيت رأيك. وما أردتُ بذلك إلا دفعه بها، وما ذاك إلّا من خوفي عليه وعلينا جميعاً من أصحاب أبي مسلم. فدخل عليه من عشيته وسلم، وقام قائماً بين يديه، فقال: انصرف يا عبدَ الرحمن فأرِحْ نفسك، وادخل الحمام؛ فإن للسفر قَشَفاً، ثم اغدُ عليَّ، فانصرف أبو مسلم وانصرف الناس. قال: فافْترى عليّ أمير المؤمنين حين خرج أبو مسلم؛ وقال: متى أقدر على مثل هذه الحال منه التي رأيته قائماً على رجليه، ولا أدري ما يحدث في ليلتي! فانصرفت وأصبحت غادياً عليه؛ فلما رآني قال: يابن اللخناء؛ لا مرحباً بك! أنت منعتَني منه أمس؛ والله ما غمضتُ الليلة، ثم شتمني حتى خفتُ أن يأمر بقتلي، ثم قال: ادع لي عثمان بن نَهيك، فدعوتُه، فقال: يا عثمان، كيف بلاءِ أمير المؤمنين عندك؟ قال: يا أمير المؤمنين إنما أنا عبدُك؛ والله لو امرتَني أن اتّكِىء على سيفي حتى يخرج من ظهري لفعلت، قال: كيف أنت إن أمرتُك بقتل أبي مسلم؟ فوجَم ساعةً لا يتكلم، فقلت: مالك لا تتكلم! فقال قولة ضعيفة: أقتله؛ قال: انطلِق فجىء بأربعة من وجوه الحرس جُلنْد، فمضى؛ فلما كان عند الرّواق، ناداه: يا عثمان؛ يا عثمان؛ ارجع؛ فرجع، قال: اجلس؛ وأرسِلْ إلى مَنْ تثق به من الحرس؛ فأحضِرْ منهم أربعة، فقال لوصيف له انطلق: فادعُ شبيب بن واج، وادعُ أبا حنيفة ورجلين اخرين؛ فدخلوا، فقال لهم أمير المؤمنين نحواً مما قال لعثمان، فقالوا: نقتله، فقال: كونوا خَلْف الرواق؛ فإذا صفَّقت فاخرجوا فاقتلوه.

وأرسل إلى أبي مسلم رسلاً بعضهم على إثر بعض، فقالوا: قد ركب، وأتاه وصيف، فقال: أتى عيسى بن موسى، فقلت: يا أميرَ المؤمنين، ألا أخرج فأطوف في العسكر، فأنظر ما يقول الناس؟هل ظن أحد

ظَنًّا، أو أتكلم أحد بشيء؟ قال: بلى، فخرجتُ، وتلقاني أبو مسلم داخلاً، فتبسّم وسلمت عليه ودخل، فرجعت؛ فإذا هو منبطحٌ لم ينتظر به رجوعي. وجاء أبو الجهم، فلما رآه مقتولاً قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! فأقبلت على أبي الجهم، فقلت له: أمرتَه بقتله حين خالف، حتى إذا قُتِل قلتَ هذه المقالة! فنبّهت به رجلاً غافلاً، فتكلم بكلام أصلح ما جاءَ منه، ثم قال: يا أمير المؤمنين؛ ألا أردّ الناس؟ قال: بلى، قال: فمرْ بمتاع يحوّل إلى رواق آخر من أروقاك هذه، فأمر بفرُش فأخرجت؛ كأنه يريد أن يهيّيء له رواقاً آخر. وخرج أبو الجهم، فقال: انصرفوا، فإن الأمير يريد أن يقيل عند أمير المؤمنين، ورأوا المتاع ينقَل، فظنوه صادقاً، فانصرفوا ثم راحوا، فأمر لهم أبو جعفر بجوائزهم، وأعطى أبا إسحاق مائة ألف.

قال أبو أيوب: قال لي أمير المؤمنين: دخل عليّ أبو مسلم فعاتبتُه ثم شتمتُه، فضربه عثمان فلم يصنع شيئاً، وخرج شبيب بن واج وأصحابه فضربوه فسقط، فقال وهم يضربونه: العفو، فقلت: يابن اللخناء، العفو والسيوف قد اعتورتْك! وقلت: اذبحوه، فذبحوه.

قال عليّ عن أبي حفص الأزديّ، قال: كنت مع أبي مسلم، فقدِم عليه أبو إسحاق من عند أبي جعفر بكتب من بني هاشم، وقال: رأيتُ القوم على غير ما ترى؛ كلّ القوم يرون لك ما يرون للخليفة، ويعرفون ما أبلاهم الله بك. فسار إلى المدائن، وخلف أبا نصر في ثَقَله، وقال: أقم حتى يأتيك كتابي، قال: فاجعل بيني وبينك آية أعرف بها كتابك، قال: وإن أتاك كتابي مختوماً بنصف خاتم فأنا كتبتُه، وإن أتاك بالخاتم كلّه؛ فلم أكتبه ولم أختمه. فلما دنا من المدائن تلقاه رجل من قوّاده، فسلّم عليه، فقال له: أطعْني وارجع؛ فإنه إن عاينك قتلَك، قال: قد قربتُ من القوم فأكره أن أرجع. فقدم المدائن في ثلاثة آلاف، وخلّف الناس بحُلْوان، فدخل على أبي جعفر، فأمره بالانصراف في يومه؛ وأصبح يريده، فتلقاه أبو الخصيب فقال: أمير المؤمنين مشغولٌ، فاصبر ساعة حتى تدخل خالياً، فأتى منزلَ عيسى بن موسى ـ وكان يحبّ عيسى ـ فدعا له بالغداء. وقال أمير المؤمنين للربيع ـ وهو يومئذ وصيف يخدم أبا الخصيب: انطلِق إلى أبي مسلم؛ ولا يعلم أحدٌ، فقل له: قال لك مرزوق: إن أردتَ أمير المؤمنين خالياً فالعجل، فقام فركب؛ وقال له عيسى: لا تعجَل بالدّخول حتى أدخل معك، فأبطأ عيسى بالوضوء، ومضى أبو مسلم فدخل فقتِل قبل أن يجيءَ عيسى، وجاء عيسى وهو مدرَج في عَباءة، فقال: أين أبو مسلم؟ قال: مُدْرجٌ في الكساء؛ قال: إنا لله! قال: اسكت، فما تمّ سلطانك وأمرُك إلاّ اليوم، ثم رمى به في دجلة.

قال عليّ: قال أبو حفص: دعا أمير المؤمنين عثمان بن نَهيك وأربعة من الحَرس، فقال لهم: إذا ضربت بيديّ إحداهما على الآخرى؛ فاضربوا عدوّ الله، فدخل عليه أبو مسلم، فقال له: أخبرْني عن نَصْلَيْن أصبتَهما في متاع عبدالله بن عليّ، قال: هذا أحدهما الذي عليّ، قال: أرِنيه فانتضاه، فناوله، فهزّه أبو جعفر، ثم وضعه تحت فراشه، وأقبل عليه يعاتبه، فقال: أخبرني عن كتابك إلى أبي العباس تنهاه عن الموات، أردتَ أن تعلّمنا الدّين! قال: ظننتُ أخذه لا يحلّ، فكتب إليّ، فلما أتاني كتابُه علمتُ أن أمير المؤمنين وأهل بيته معدن العلم، قال: فأخبرني عن تقدّمك إيايَ في الطريق؟ قال: كرهتُ اجتماعنا على الماء فيضرّ ذلك بالناس؛ فتقدّمتُك التماس الرّفق، قال: فقولك حين أتاك الخبر بموت أبي العباس لمن أشار عليك أن تنصرف إليّ: نقدم فنرى من رأينا؛ ومضيتَ فلا أنت أقمتَ حتى ألحقك ولا أنت رجعت إليّ! قال: منعنِي من ذلك ما أخبرتُك من طلب

الرِّفق بالناس، وقلت: نقدم الكوفة فليس عليه مني خلاف، قال: فجارية عبدالله بن عليّ أردتَ أن تتخذها؟ قال: لا؛ ولكني خفتُ أن تضيع، فحملتها في قبّة، ووكلتُ بها من يحفظها، قال: فمراغمتك وخروجك إلى خراسان؟ قال: خفتُ أن يكون قد دخلك مني شيء، فقلت: آتي خراسان، فأكتب إليك بعذري؛ وإلى ذلك ما قد ذهب ما في نفسك عليّ، قال: تالله ما رأيتُ كاليوم قطّ، والله ما زدتّني إلا غضباً؛ وضرب بيده، فخرجوا عليه؛ فضربه عثمان وأصحابه حتى قتلوه.

قال عليّ: قال يزيد بن أسيد: قال أمير المؤمنين: عاتبتُ عبدَ الرحمن، فقلت: المال الذي جمعته بحرّان؟ قال: أنفقتُه وأعطيتُه الجند تقويةً لهم واستصلاحاً، قلت: فرجوعُك إلى خراسان مراغماً؟ قال: دعْ هذا فما أصبحتُ أخاف أحداً إلا الله؛ فغضبتُ فشتمته، فخرجوا فقتلوه.

وقال غير من ذكرت في أمر أبي مسلم: إنه لما أرسل إليه يوم قتِل، أتى عيسى بن موسى، فسأله أن يركب معه، فقال له: تقدّم وأنت في ذمتي؛ فدخل مضرب أبي جعفر؛ وقد أمر عثمان بن نَهيك صاحب الحرس، فأعدّ له شبيب بن واج المروروذيّ (رجلا من الحَرَس) وأبا حنيفة حرب بن قيس، وقال لهم: إذا صفقتُ بيديَّ فشأنكم؛ وأذن لأبي مسلم، فقال لمحمد البواب النجاريّ: ما الخبر؟ قال: خير؛ يُعطينني الأمير سيفه، فقال: ما كان يُصنَع بي هذا! وما عليك! فشكا ذلك إلى أبي جعفر، قال: ومَن فعل بك هذا قبحه الله! ثم أقبل يعاتبه: ألستَ الكاتب إليّ تبدأ بنفسك. والكاتب إليّ تخطب أمينة بنت عليّ، وتزعم أنك ابنُ سَليط بن عبدالله بن عباس! ما دعاك إلى قتل سليمان بن كَثير مع أثرِه في دعوتنا؛ وهو أحد نقبائنا قبل أن نُدخلك في شيء من هذا الأمر؟ قال: أرادَ الخلافَ وعصاني فقتلتُه. فقال المنصور: وحاله عندنا حاله فقتلتَه، وتعصيني وأنت مخالف عليّ! قتلني الله إن لم أقتلك! فضربه بعمود، وخرج شبيبٌ وحرب فقتلاه، وذلك لخمس ليال بقين من شعبان من سنة سبع وثلاثين ومائة، فقال المنصور:

زعمتَ أنَّ الدَّينَ لا يُقْتَضَى ... فاسْتَوفِ بالكَيْلِ أبا مُجْرِمِ
سُقِيتَ كأساً كنتَ تَسقِي بها ... أَمَرَّ في الحَلق مِنَ العَلْقَمِ

قال: وكان أبو مسلم قد قَتَل في دولته وحروبه ستمائة ألف صَبْراً. وقيل: إن أبا جعفر لما عاتب أبا مسلم، قال له: فعلتَ وفعلتَ، قال له أبو مسلم: ليس يقال هذا لي بعد بلائي، وما كان منّي؛ فقال: يابن الخبيثة؛ والله لو كانتْ أَمَةٌ مكانك لأجْزَتْ ناحيتها؛ إنما عملتَ ما عملت في دولتنا وبريحنا؛ ولو كان ذلك إليك ما قطعتَ فتيلاً، ألستَ الكاتبَ إليّ تبدأ بنفسك، والكاتبَ إليّ تخطب أمينة بنت عليّ، وتزعم أنك ابنُ سَليط بن عبدالله بن عباس! لقد ارتقيت لا أمّ لك مُرْتَقًى صعباً! فأخذ أبو مسلم بيده يعركها ويقبّلها ويعتذر إليه.

وقيل: إن عثمان بن نَهيك ضرب أبا مسلم أوّل ما ضرب ضربة خفيفة بالسيف؛ فلم يزد على أن قطع حمائل سيفه؛ فاعتقل بها أبو مسلم. وضرب شبيب بن واج رجلَه؛ واعتوَره بقية أصحابه حتى قتلوه، والمنصور يصيح بهم: اضربوا قطع الله أيديكم!

وقد كان أبو مسلم! قال ـ فيما قيل ـ عند أول ضربة أصابته: يا أمير المؤمنين، استبقني لعدوّك قال: لا أبقاني الله إذاً! وأيّ عدوٍّ لي أعدى منك!

وقيل: إن عيسى بن موسى دخل بعد ما قُتِل أبو مسلم، فقال: يا أميرَ المؤمنين، أين أبو مسلم؟ فقال: قد كان ها هنا آنفاً، فقال عيسى: يا أمير المؤمنين، قد عرفتَ طاعته ونصيحتَه ورأيَ الإمام إبراهيم كان فيه؛ فقال: يا أنوَك؛ والله ما أعلم في الأرض عدوًّا أعدى لك منه؛ ها هو ذاك في البِساط، فقال عيسى: إنا لله وإنا إليه راجعون! وكان لعيسى رأي في أبي مسلم، فقال له المنصور: خلع الله قلبك؛ وهل كان لكم مُلْك أو سلطان أو أمر أو نهي مع أبي مسلم!

قال: ثم دعا أبو جعفر جعفر بن حنظلة، فدخل عليه، فقال: ما تقول في أبي مسلم؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن كنت أخذتَ شعرة من رأسه فاقتلْ ثم اقتلْ ثم اقتلْ؛ فقال المنصور: وفَقك الله! ثم أمره بالقيام والنظر إلى أبي مسلم مقتولاً، فقال: يا أميرَ المؤمنين، عُدّ من هذا اليوم لخلافتك. ثم استؤذن لإسماعيل بن عليّ، فدخل، فقال: يا أمير المؤمنين: إنّي رأيتُ في ليلتي هذه كأنك ذبحتَ كبشاً وأني توّطأته برجلي، فقال: نامت عينُك يا أبا الحسن؛ قم فصدّق رؤياك؛ قد قتل الله الفاسق، فقام إسماعيل إلى الموضع الذي فيه أبو مسلم، فتوطّأه.

ثم إنّ المنصور همّ بقتل أبي إسحاق صاحب حَرَس أبي مسلم وقتل ابي نصر مالك ـ وكان على شُرط أبي مسلم ـ فكلّمه أبو الجهم، فقال: يا أمير المؤمنين، جنده جندك، أمرتهم بطاعته فأطاعوه. ودعا المنصور بأبي إسحاق. فلما دخل عليه ولم ير أبا مسلم، قال أبو جعفر: أنت المتابع لعدوّ الله أبي مسلم على ما كان أجمع؛ فكفّ وجعل يلتفت يميناً وشمالاً تخوّفاً من أبي مسلم، فقال له المنصور: تكلم بما أردت، فقد قتل الله الفاسق؛ وأمر بإخراجه إليه مقطّعاً؛ فلما رآه أبو إسحاق خرّ ساجداً، فأطال السجود، فقال له المنصور: ارفع رأسك وتكلم؛ فرفع رأسه وهو يقول: الحمدُ لله الذي آمنني بك اليوم؛ والله ما أمنتُه يوماً واحداً منذ صحبتُه، وما جئتُه يوماً قطّ إلا وقد أوصيتُ وتكفّنتُ وتحنّطتُ؛ ثم رفع ثيابه الظاهرة فإذا تحتها ثِيابُ كَتّان جُدَد، وقد تحنّط. فلما رأى أبو جعفر حاله رحمه، ثم قال: استقبل طاعةَ خليفتك، واحمد الله الذي أراحك من الفاسق. ثم قال له أبو جعفر: فَرِّق عني هذه الجماعة. ثم دعا بمالك بن الهيثم فحدّثه بمثل ذلك، فاعتذر إليه بأنه أمره بطاعته؛ وإنما خدمه وخفّ له الناسُ بمرضاته، وأنه قد كان في طاعتهم قبل أن يعرف أبا مسلم، فقبل منه وأمره بمثل ما أمر به أبا إسحاق من تفريق جند أبي مسلم.

وبعث أبو جعفر إلى عِدّة من قوّاد أبي مسلم بجوائز سنيّة، وأعطى جميع جنده حتى رضُوا، ورجع أصحابه وهم يقولون: بعنا مولانا بالدراهم. ثم دعا أبو جعفر بعد ذلك أبا إسحاق، فقال: أقسِم بالله لئن قطعوا طُنباً من أطنابي لأضربنّ عنقك ثم لأجاهدنّهم. فخرج إليهم أبو إسحاق فقال: يا كلاب انصرفوا.

قال عليّ: قال أبو حفص الأزديّ: لما قُتِل أبو مسلم كتب أبو جعفر إلى أبي نصر كتاباً عن لسان أبي مسلم يأمره بحمل ثقله وما خلّف عنده، وأن يقدم، وختم الكتاب بخاتم أبي مسلم، فلما رأى أبو نصر نقْش الخاتم تامًّا، علم أن أبا مسلم لم يكتب الكتاب، فقال: أفعلتموها! وانحدر إلى هَمذان وهو يريد خراسان، فكتب أبو جعفر لأبي نصر عهدَه على شهرزور، ووجّه رسولاً إليه بالعهد؛ فأتاه حين مضى الرسول بالعهد أنه قد توجّه إلى خراسان، فكتب إلى زهير بن التركيّ ـ وهو على همذان: إن مرّ بك أبو نصر فاحبِسْه، فسبق الكتاب إلى زهير وأبو نصر بهَمَذان، فأخذه فحبسه في القصْر، وكان زهير مولًى لخزاعة، فأشرف أبو نصر على إبراهيم بن

عريف ـ وهو ابن أخي أبي نصر لأمه ـ فقال: يا إبراهيم، تقتل عمّك! قال: لا والله أبداً، فأشرف زهير فقال لإبراهيم: إني مأمور والله، إنه لمن أعزّ الخلق عليّ؛ ولكني لا أستطيع ردّ أمر أمير المؤمنين. ووالله لئن رمى أحدكم بسهم لأرمينّ إليكم برأسه. ثم كتب أبو جعفر كتاباً آخر إلى زهير: إن كنت أخذتَ أبا نصر فاقتله.

وقدم صاحبُ العهد على أبي نصر بعهده فخلّى زهير سبيله لهواه فيه؛ فخرج، ثم جاء بعد يوم الكتابُ إلى زهير بقتله، فقال: جاءني كتابٌ بعهده فخليتُ سبيله.

وقدم أبو نصر على أبي جعفر، فقال: أشرتَ على أبي مسلم بالمضيّ إلى خراسان؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين؛ كانت له عندي أيادٍ وصنائع فاستشارني فنصحتُ له، وأنت يا أمير المؤمنين إن اصطنعتَني نصحتُ لك وشكرتُ. فعفا عنه؛ فلما كان يوم الراونديّة قام أبو نصر على باب القصر، وقال: أنا اليوم البوّاب، لا يدخل أحد القصر وأنا حيٌّ. فقال أبو جعفر: أين مالك بن الهيثم؟ فأخبروه عنه، فرأى أنه قد نصح له.

وقيل: إن أبا نصر مالك بن الهيثم لما مضى إلى همذان كتب أبو جعفر إلى زهير بن التركيّ: إنّ الله دمك إن فاتك مالك؛ فأتى زهير مالكاً، فقال له: إني قد صنعتُ لك طعاماً، فلو أكرمتَني بدخول منزلي! فقال: نعم، وهيّأ زهير أربعين رجلاً تخيَّرهم، فجعلهم في بيتين يُفضيان إلى المجلس الذي هيأه، فلما دخل مالك قال: يا أدهم، عجّل طعامك؛ فخرج أولئك الأربعون إلى مالك، فشدّوه وثاقاً، ووضع في رجليه القيود. وبعث به إلى المنصور فمنّ عليه وصفح عنه واستعمله على الموصل.

وفي هذه السنة ولّى أبو جعفر المنصور أبا داود خالد بن إبراهيم خراسان وكتب إليه بعهده.

وفيها خرج سُنباذ بخُراسان يطلب بدم أبي مسلم.

ذكر الخبر عن سنباذ:

ذُكِر أن سنباذ هذا كان مجوسيّاً، من أهل قرية من قُرى نيسابور يقال لها أهن، وأنه كثر أتباعُه لما ظهر؛ وكان خروجه غضباً لقتل أبي مسلم ـ فيما قيل ـ وطلباً بثأره، وذلك أنه كان من صنائعه، وغلَب حين خرج على نيسابور وقُومِس والرّيّ، وتسمّى فيروز أصبهبذ. فلما صار بالرّيّ قبض خزائن أبي مسلم؛ وكان أبو مسلم خلف بها خزائنه حين شخص متوجهاً إلى أبي العباس؛ وكان عامّة أصحاب سنباذ أهلَ الجبال. فوجّه إليهم أبو جعفر جَهور بن مَرّار العِجْليّ في عشرة آلاف، فالتقوْا بين هَمذان والرّي على طرف المفازة؛ فاقتتلوا، فهُزِم سنباذ، وقتِل من أصحابه في الهزيمة نحوٌ من ستين ألفاً، وسبى ذراريّهم ونساءهم. ثم قُتِل سنباذ بين طبرستان وقومِس؛ قتله لونان الطبريّ، فصير المنصور أصبهبذة طبرستان إلى ولد هُرْمُز بن الفرخان، وتَوّجه.

وكان بين مخرج سنباذ إلى قتْله سبعون ليلة.

وفي هذه السنة خرج ملبَّد بن حرملة الشيباني، فحكّم بناحية الجزيرة، فسارت إليه روابط الجزيرة، وهم يومئذ فيما قيل ألف، فقاتلهم ملبَّد فهزمهم، وقَتَل مَنْ قتل منهم. ثم سارت إليه روابط الموصِل فهزمهم، ثم سار إليه يزيد بن حاتم المهلبيّ، فهزمه ملبَّد بعد قتال شديد كان بينهما؛ وأخذ ملبَّد جارية ليزيد كان يطؤها، وقتل قائدٌ من قوّاده، ثم وجّه إليه أبو جعفر مولاه المهلهل بن صفوان في ألفين من نُخبة الجند، فهزمهم ملبّد، واستباح عسكرهم. ثم وجّه إليه نزاراً (قائداً من قوّاد أهل خراسان)، فقتله ملبَّد، وهزم أصحابه، ثم وجه إليه

زياد بن مشكان في جَمْع كثير، فلقيهم ملبَّد فهزمهم. ثم وجَّه إليه صالح بن صبيح في جيش كثيف وخيل كثيرة وعدّة، فهزمهم. ثم سار إليه حُمَيد بن قحطبة وهو يومئذ على الجزيرة، فلقيه الملبَّد فهزمه، وتحصَّن منه حميدٌ، وأعطاه مائة ألف درهم على أن يكفّ عنه.

وأما الواقديّ فإنه زعم أن ظهور ملبَّد وتحكيمه كان في سنة ثمان وثلاثين ومائة، ولم يكن للناس في هذه السنة صائفة لشَغْل السلطان بحرب سنباذ.

وحجّ بالناس في هذه السنة إسماعيل بن عليّ بن عبدالله بن عباس، كذلك قال الواقديّ وغيره؛ وهو على الموصل.

وكان على المدينة زياد بن عبدالله، والعباس بن عبدالله بن معبد على مكة. ومات العباس عند انقضاء الموسم؛ فضمّ إسماعيل عمله إلى زياد بن عبيدالله؛ فأقرَّه عليها أبو جعفر.

وكان على الكوفة في هذه السنة عيسى بن موسى. وعلى البصرة وأعمالها سليمان بن عليّ، وعلى قضائها عمر بن عامر السُّلَميّ. وعلى خراسان أبو داود خالد بن إبراهيم. وعلى الجزيرة حُميد بن قَحْطبة. وعلى مصر صالح بن عليّ بن عبدالله بن عباس.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائة

ذكر ما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك دخول قسطنطين طاغية الروم مَلطيْة عَنْوة وقهراً لأهلها وهدمه سورها، وعفوُه عمّن فيها من المقاتلة والذّرّية.

ومنها غزو العباس بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس - في قول الواقديّ - الصائفة، مع صالح بن عليّ بن عبدالله، فوصله صالح بأربعين ألف دينار، وخرج معهم عيسى بن علي بن عبدالله، فوصله أيضاً بأربعين ألف دينار، فبنى صالح بن عليّ ما كان صاحب الروم هدمه من مَلَطْيَة.

وقد قيل: إن خروج صالح والعباس إلى ملطْية للغزو كان في سنة تسع وثلاثين ومائة.

وفي هذه السنة بايع عبدالله بن عليّ لأبي جعفر وهو مقيم بالبَصْرة مع أخيه سليمان بن عليّ

وفيها خلع جَهْور بن مرّار العِجليّ المنصور.

ذكر الخبر عن سبب خلعه إياه:

وكان سببُ ذلك - فيما ذُكِر - أن جَهْور لما هزم سنباذ حوى ما في عسكره، وكان فيه خزائنُ أبي مسلم التي كان خلفها بالرَّيّ، فلم يوجّهها إلى أبي جعفر، وخاف فخلَع، فوجّه إليه أبو جعفر محمد بن الأشعث الخُزاعيّ في جيش عظيم، فلقيه محمد، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ومع جَهْور نُخَب فرسان العجم؛ زياد ودلاستاخنج، فهزِم جَهْور وأصحابه، وقُتل من أصحابه خلْق كثير، وأسر زياد ودلاستاخنج، وهرب جَهْور فلحق بأذْرَبيجان فأخذ بعد ذلك باسباذْرُو فقتل.

وفي هذه السنة قتل الملبّد الخارجيّ:

ذكر الخبر عن مقتله:

ذكِر أن أبا جعفر لما هزم الملبّد حميد بن قحطبة، وتحصّن منه حُميد، وجّه إليه عبد العزيز بن عبد الرحمن أخا عبد الجبار بن عبدالرحمن، وضمَّ إليه زياد بن مشكان، فأكمن له الملبّد مائة فارس، فلما لقيَه عبد العزيز خرج عليه الكَمِين؛ فهزموه، وقتلوا عامّة أصحابه. فوجّه أبو جعفر إليه خازم بن خزيمة في نحو من ثمانية آلاف من المروروذيّة. فسار خازم حتى نزل الموصل، وبعث إلى الملبّد بعض أصحابه وبعث معهم الفعلة، فساروا إلى بلد فخندقوا، وأقاموا له الأسواق؛ وبلغ ذلك الملبّد، فخرج حتى نزل ببلد، في خندق خازم؛ فلما بلغ ذلك خازماً خرج إلى مكان من أطراف الموصل حريز فعسكر به، فلما بلغ ذلك الملبّد عَبَر دِجْلة من بلد، وتوجه إلى خازم من

ذلك الجانب يريد الموصل؛ فلما بلغ خازماً ذلك، وبلغ إسماعيل بن عليّ ـ وهو على الموصل ـ أمر إسماعيل خازماً أن يرجع من معسكره حتى يعبُر من جسر الموصل؛ فلم يفعل، وعقد جسراً من موضع معسكره، وعبَر إلى الملبّد، وعلى مقدّمته وطلائعه نَضلَة بن نعيم بن خازم بن عبدالله النهشليّ، وعلى ميمنته زُهير بن محمد العامريّ، وعلى ميسرته أبو حماد الأبرص مولى بني سليم. وسار خازم في القلْب، فلم يزل يساير الملبّد وأصحابه حتى غشيَهم الليل ثم تواقفوا ليلَتهم، وأصبحوا يوم الأربعاء، فمضى الملبَّد وأصحابه متوجّهين إلى كورة حَزّة، وخازم وأصحابه يسايرونهم حتى غشيهم الليل، وأصبحوا يوم الخميس، وسار الملبّد وأصحابه، كأنه يريد الهرب من خازم، فخرج خازم وأصحابه في أثرهم، وتركوا خندقهم، وكان خازم تخندق عليه وعلى أصحابه بالحَسَك، فلما خرجوا من خندقهم كرّ عليهم الملبّد وأصحابه؛ فلما رأى ذلك خازم ألقى الحسَك بين يديه وبين يدي أصحابه، فحملوا على ميمنة خازم وطووْها، ثم حملوا على الميسرة وطَوَوْها، ثم انتهوا إلى القلْب، وفيه خازم، فلما رأى ذلك خازم نادى في أصحابه: الأرضَ، فنزلوا ونزل الملبَّد وأصحابه، وعقروا عامة دوابّهم، ثم اضطربوا بالسيوف حتى تقطعت، وأمر خازم نَضَلة بن نعيم أن إذا سطع الغبار ولم يبصر بعضُنا بعضاً فارجع إلى خيلك وخيل أصحابك فاركبوها، ثم ارمُوا بالنشاب. ففعل ذلك، وتراجع أصحاب خازم من الميمنة إلى الميسرة، ثم رشقُوا الملبَّد وأصحابه بالنشاب، فقُتل الملبَّد في ثمانمائة رجل ممن ترجّل، وقتل منهم قبل أن يترجلوا زهاء ثلاثمائة، وهرب الباقون، وتبعهم نَضلة فقتل منهم مائة وخمسين رجلاً.

وحج بالناس في هذه السنة الفَضْل بن صالح بن عليّ بن عبدالله بن عباس، كذلك قال الواقدي وغيره. وذكر أنه كان خرج من عند أبيه من الشأم حاجًّا، فأدركته ولايته على الموسم والحجّ بالناس في الطريق، فمرّ بالمدينة فأحرم منها.

وزياد بن عبدالله على المدينة ومكة والطائف، وعلى الكوفة وسوادها عيسى بن موسى، وعلى البصرة وأعمالها سليمان بن عليّ، وعلى قضائها سوّار بن عبدالله، وأبو داود خالد بن إبراهيم على خراسان، وعلى مصر صالح بن عليّ.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثلاين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من إقامة صالح بن عليّ والعباس بن محمد بمَلَطْية؛ حتى استتما بناء مَلَطْية، ثم غزوا الصائفة من دَرْب الحديث، فوغَلا في أرض الروم - وغَزَا مع صالح أختاه: أم عيسى ولبابة ابنتا عليّ؛ وكانتا نذرتا إن زال ملك بني أميّة أن تجاهدا في سبيل الله.

وغزا من درب مَلطْية جعفر بن حنظلة البهرانيّ.

وفي هذه السنة كان الفداء الذي جرى بين المنصور وصاحب الرّوم؛ فاستنقذ المنصور منهم أسَراء المسلمين، ولم يكن بعد ذلك - فيما قيل - للمسلمين صائفة إلى سنة ست وأربعين ومائة، لاشتغال أبي جعفر بأمر ابنَيْ عبدالله بن الحسن؛ إلّا أن بعضَهم ذكر أن الحسن بن قحطبة غزا الصّائفة مع عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام في سنة أربعين. وأقبل قسطنطين صاحب الرّوم في مائة ألف، فنزل جَيْحَان، فبلغه كثرة المسلمين فأحجم عنهم؛ ثم لم يكن بعدها صائفة إلى سنة ست وأربعين ومائة.

وفي هذه السنة سار عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مَرْوان إلى الأندلس، فملّكه أهلُها أمرَهم، فولده ولاتها إلى اليوم.

وفيها وسَّع أبو جعفر المسجد الحرام، وقيل إنها كانت سنة خَصِبة فسمِّيت سنة الخصب.

وفيها عُزِل سليمان بن عليّ عن ولاية البصرة، وعمّا كان إليه من أعمالها. وقد قيل إنه عزل عن ذلك في سنة أربعين ومائة.

وفيها ولّى المنصور ما كان إلى سليمان بن عليّ من عمل البصرة سفيان بن معاوية، وذلك - فيما قيل - يوم الأربعاء للنصف من شهر رمضان، فلما عزل سليمان وولِّي سفيان توارى عبدالله بن عليّ وأصحابه خوفاً على أنفسهم؛ فبلغ ذلك أبا جعفر، فبعث إلى سليمان وعيسى ابني عليّ، وكتب إليهما في إشخاص عبدالله بن عليّ، وعزم عليهما أن يفعلا ذلك ولا يؤخّراه، وأعطاهما من الأمان لعبدالله بن عليّ ما رضياه له ووثقا به، وكتب إلى سفيان بن معاوية يعلمه ذلك، ويأمره بإزعاجهما واستحثاثهما بالخروج بعبد الله ومَن معه من خاصّته، فخرج سليمان وعيسى بعبدالله وبعامّة قوّاده وخواصّ أصحابه ومواليه، حتى قدموا على أبي جعفر؛ يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجّة.

وفيها أمر أبو جعفر بحبس عبدالله بن عليّ وبحبس مَن كان معه من أصحابه وبقتل بعضهم.

ذكر الخبر عن ذلك:

ولما قدم سليمان وعيسى ابنا عليّ على أبي جعفر أذِن لهما، فدخلا عليه، فأعلماه حضورَ عبدالله بن عليّ، وسألاه الإذن له. فأنعم لهما بذلك، وشغلهما بالحديث، وقد كان هيّأ لعبدالله بن عليّ محبساً في قصره، وأمر به أن ينصرف إليه بعد دخول عيسى وسليمان عليه، ففُعِل ذلك به؛ ونهض أبو جعفر من مجلسه،فقال لسليمان وعيسى: سارعا بعبدالله، فلما خرجا افتقدا عبدالله من المجلس الذي كان فيه، فعلما أنه قد حُبس، فانصرفا راجعين إلى أبي جعفر، فحِيل بينهما وبين الوصول إليه، وأخذ عند ذلك سيوف مَنْ حضر من أصحاب عبدالله بن عليّ من عواتقهم وحبسوا. وقد كان خُفاف بن منصور حذّرهم ذلك وندِم على مجيئه، وقال لهم: إن أنتم أطعتموني شددنا شدّة واحدة على أبي جعفر؛ فوالله لا يحول بيننا وبينه حائل حتى نأتي علَى نفسه، ونشدّ على هذه الأبواب مصلِتين سيوفنا، ولا يعرض لنا عارض إلّا أفتْنا نفسه حتى نخرج وننجو بأنفسنا، فعصوْه. فلما أخذت السيوفُ وأمر بحبسهم جعل خفاف يضرِط في لحيته، ويتفل في وجوه أصحابه. ثم أمر أبو جعفر بقتل بعضهم بحضرته؛ وبعث بالبقيّة إلى أبي داود خالد بن إبراهيم بخراسان فقتلهم بها.

وقد قيل إن حبس أبي جعفر عبدالله بن عليّ كان في سنة أربعين ومائة.

وحجّ بالناس في هذه السنة العباس بن محمد بن عليّ بن عبدالله بن عباس.

وكان على مكة والمدينة والطائف زياد بن عبدالله الحارثيّ، وعلى الكوفة وأرضها عيسى بن موسى، وعلى البصرة وأعمالها سفيان بن معاوية، وعلى قضائها سوّار بن عبدالله، وعلى خراسان أبو داود خالد بن إبراهيم.

ثم دخلت سنة أربعين ومائة

ذكر ما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان فيها من مهلك عامل خراسان.

ذكر الخبر عن ذلك وسبب هلاكه:

ذكِر أن ناساً من الجند ثاروا بأبي داود خالد بن إبراهيم بخُراسان وهو عامل أبي جعفر المنصور عليها في هذه السنة ليلاً، وهو نازل بباب كُشْماهَن من مدينة مَرْو، حتى وصلوا إلى المنزل الذي هو فيه، فأشرف، أبو داود من الحائط على حرف آجُرّة خارجة، وجعل ينادي أصحابَه ليعرفوا صوتَه، فانكسرت الآجُرّة عند الصّبح، فوقع على سُترة صُفّة كانت قدّام السطح فانكسر ظهره، فمات عند صلاة العصر، فقام عصام صاحب شُرْطة أبي داود بخلافة أبي داود، حتى قدم عليه عبد الجبّار بن عبد الرحمن الأزديّ.

وفيها ولّى أبو جعفر عبدَ الجبار بن عبد الرحمن خراسان فقدمها، فأخذ بها ناساً من القوّاد ذُكِر أنه اتهمهم بالدعاء إلى ولد عليّ بن أبي طالب؛ منهم مجاشع بن حريث الأنصاريّ صاحب بخارى وأبو المغيرة، مولى بني تميم واسمه خالد بن كثير وهو صاحب قوهستان، والحَريش بن محمد الذّهليّ، ابن عمّ داود، فقتلهم، وحبس الجنيد بن خالد بن هريم التغلَبيّ ومعبد بن الخليل المزنيّ بعد ما ضربهما ضرباً مبرّحاً، وحبس عدّة من وجوه قوّاد أهل خراسان، وألحّ على استخراج ما على عمال أبي داود من بقايا الأموال.

وفيها خرج أبو جعفر المنصور حاجًّا، فأحرم من الحِيرة، ثم رجع بعد ما قضى حجه إلى المدينة، فتوجّه منها الى بيت المقدس.

وكان عمّال الأمصار في هذه السنة عمالها في السنة التي قبلها، إلاّ خُراسان فإن عاملها كان عبد الجبار.

ولما قدم أبو جعفر بيت المقدس صلى في مسجدها، ثم سلك الشأم فإن عاملها كان عبد الجبار.

ولما قدم أبو جعفر بيت المقدس صلّى في مسجدها، ثم سلك الشأم منصرفاً حتى انتهى إلى الرَّقة، فنزلها، فأتى بمنصور بن جَعْونة بن الحارث العامريّ، من بني عامر بن صعصعة، فقتله، ثم شخص منها، فسلك الفرات حتى أتى الهاشميّة، هاشميّة الكوفة.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائة

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فمن ذلك خروج الراونديَّة، وقد قال بعضهم: كان أمر الراونديَّة وأمر أبي جعفر الذي أنا ذاكره، في سنة سبع وثلاثين ومائة أو ستّ وثلاثين ومائة.

ذكر الخبر عن أمرهم وأمر أبي جعفر المنصور معهم:

والرّاوندية قوم ـ فيما ذُكِر عن عليّ بن محمد ـ كانوا من أهل خُراسان على رأي أبي مسلم صاحب دعوة بني هاشم، يقولون ـ فيما زعم ـ بتناسخ الأرواح، ويزعمون أن روح آدم في عثمان بن نَهِيك، وأن ربّهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور، وأن الهيثم بن معاوية جبرئيل.

قال: وأتوا قصر المنصور، فجعلوا يطوفون به، ويقولون: هذا قصر ربّنا؛ فأرسل المنصور إلى رؤسائهم، فحبس منهم مائتين، فضغب أصحابهم وقالوا: علام حُبسوا! وأمر المنصور ألّا يجتمعوا، اعـدّوا نعشاً وحملوا السرير ـ وليس في النّعش أحد ـ ثم مرُّوا في المدينة، حتى صاروا على باب السجن، فرموا بالنّعْش، وشدُّوا على الناس ـ ودخلوا السجن، فأخرجوا أصحابهم، وقصدوا نحو المنصور وهم يومئذ ستمائة رجل، فتنادى الناس، وغُلّقت أبواب المدينة فلم يدخل أحد، فخرج المنصور من القصر ماشياً، ولم يكن في القصر دابة، فجعل بعد ذلك اليوم يرتبط فرساً يكون في دار الخلافة معه في قصره.

قال: ولما خرج المنصور أُتِيَ بدابّة فركبَها وهو يريدهم؛ وجاء معن بن زائدة، فانتهى إلى أبي جعفر، فرمى بنفسه وترجّل، وأدخل برْكة قبائه في منطقته، وأخذ بلجام دابة المنصور، وقال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين إلّا رجعت؛ فإنك تُكْفَى. وجاء أبو نصر مالك بن الهيثم فوقف على باب القصر، وقال: أنا اليوم بوّاب، ونودي في أهل السوق فرموْهم وقاتلوهم حتى أثخنوهم، وفُتح باب المدينة، فدخل الناس.

وجاء خازم بن خزيمة على فرس محذوف؛ فقال: يا أمير المؤمنين، أقتلهم؟ قال: نعم، فحمل عليهم حتى ألجأهم إلى ظهر حائط، ثم كرُّوا على خازم فكشفوه وأصحابه، ثم كرّ خازم عليهم فاضطرهم إلى حائط المدينة. وقال للهيثم بن شعبة: إذا كرّوا علينا فاسبِقْهم إلى الحائط، فإذا رجعوا فاقتلهم. فحملوا على خازم، فاطّرد لهم، وصار الهيثم بن شعبة من ورائهم. فقتِلوا جميعاً.

وجاءهم يومئذ عثمان من نَهِيك؛ فكلمهم، فرجع فرموه بنشابة فوقعت بين كتفيْه؛ فمرض أياماً ومات منها، فصلى عليه أبو جعفر، وقام على قبره حتى دُفِن، وقال: رحمك الله أبا يزيد! وصيَّر مكانه على حرسه

عيسى بن نَهيك، فكان على الحرس حتى مات؛ فجعل على الحرس أبا العباس الطوسيّ.

وجاء يومئذ إسماعيل بن عليّ، وقد أغلقت الأبواب، فقال للبواب: افتح ولك ألف درهم؛ فأبى. وكان القعقاع بن ضرار يومئذ بالمدينة؛ وهو على شُرَط عيسى بن موسى، فأبلَى يومئذ؛ وكان ذلك كله في المدينة الهاشميّة بالكوفة.

قال: وجاء يومئذ الرّبيع ليأخذ بلجام المنصور، فقال له معن: ليس هذا من أيامك، فأبلى أبرويز بن المَصْمُغان ملك دُنبَاوَند ـ وكان خالف أخاه، فقدم على أبي جعفر فأكرمه، وأجرى عليه رزقاً؛ فلما كان يومئذ أتى المنصور فكفّر له، وقال: أقاتل هؤلاء؟ قال له: نعم، فقاتلهم؛ فكان إذا ضرب رجلاً فصرعه تأخّر عنه ـ فلما قُتِلوا وصلى المنصور الظهر دعا بالعشاء، وقال: أطلعوا معن بن زائدة، وأمسك عن الطعام حتى جاءه معن؛ فقال لقُثم: تحوّل إلى هذا الموضع، وأجلس معناً مكان قُثَم، فلما فرغوا من العشاء قال لعيسى بن عليّ: يا أبا العباس، أسمعت بأشدّ الرجال؟ قال: نعم، قال: لو رأيتَ اليوم معناً علمتَ أنه من تلك الآساد، قال معن: والله يا أمير المؤمنين لقد أتيتُك وإني لوجِل القلب، فلما رأيتُ ما عندك من الاستهانة بهمْ وشدّة الإقدام عليهم، رأيت أمراً لم أره من خلْق في حرب؛ فشدّ ذلك من قلبي وحملني على ما رأيت مني.

وقال أبو خزيمة: يا أميرَ المؤمنين، إنّ لهم بقيّة، قال: فقد ولّيتك أمرهم فاقتلهم، قال: فأقتل رزاماً فإنه منهم، فعاذَ رِزام بجعفر بن أبي جعفر، فطُلب فيه فآمنه.

وقال عليّ عن أبي بكر الهُذليّ، قال: إني لواقف بباب أمير المؤمنين إذ طلع فقال رجل إلى جانبي: هذا رب العزّة! هذا الذي يطعمنا ويسقينا؛ فلما رجع أمير المؤمنين ودخل عليه الناس دخلتُ وخلا وجهه، فقلتُ له، سمعتُ اليوم عجباً، وحدّثته؛ فنكتَ في الأرض، وقال: يا هذليّ، يدخلهم الله النار في طاعتنا ويَقْتلهم، أحبُّ إليّ مِنْ أن يدخلهم الجنة بمعصيتنا.

وذكر عن جعفر بن عبد الله، قال: حدّثني الفضل بن الربيع، قال: حدثني أبي، قال: سمعت المنصور يقول: أخطأت ثلاث خطيّات وقاني الله شرّها: قتلتُ أبا مسلم وأنا في خرق ومَنْ حولي يقدّم طاعته ويُؤثرها ولو هُتِكت الخرق لذهبتُ ضياعاً، وخرجت يوم الراونديّة ولو أصابني سهم غَرْب لذهبتُ ضياعاً، وخرجت إلى الشأم ولو اختلف سيفان بالعراق ذهبَتِ الخلافةُ ضياعاً.

وذُكر أنّ معن بن زائدة كان مختفياً من أبي جعفر، لما كان منه من قتاله المسوّدة مع ابن هبيرة مرّة بعد مرّة؛ وكان اختفاؤه عند مرزوق أبي الخصيب، وكان علَى أن يطلب له الأمان، فلما خرج الراونديّة أتى الباب فقام عليه، فسأل المنصور أبا الخصيب ـ وكان يلي حجابة المنصور يومئذ: مَنْ بالباب؟ فقال: معن بن زائدة، فقال المنصور: رجل من العرب، شديد النفس، عالم بالحرب كريم الحسب؛ أدخِلْه، فلما دخل قال: إيه يا معن! ما الرأي؟ قال: الرأي أن تنادي في الناس وتأمر لهم بالأموال، قال: وأين الناسُ والأموال؟ ومَنْ يقدم على أن يعرض نفسه لهؤلاء العلوج! لم تصنع شيئاً يا معن؛ الرأيُ أن أخرج فأقف؛ فإنّ الناس إذا رأوْني قاتلوا وأبلَوْا وثابوا إليّ، وتراجعوا، وإن أقمتُ تخاذلوا وتهاونوا. فأخذ معن بيده وقال: يا أمير المؤمنين، إذاً والله تُقتَل الساعة، فأنشدك الله في نفسك!. فأتاه أبو الخصيب فقال مثلها، فاجتذب ثوبه منهما، ثم دعا بدابته، فركب ووثب عليها من غير ركاب ثم سوّى ثيابه، وخرج ومعن آخذ بلجامه وأبو الخصيب مع ركابه فوقف. وتوجّه إليه

رجل فقال: يا معن دونك العِلْج؛ فشدّ عليه مَعن فقتله، ثم والَى بين أربعة، وثاب إليه الناس وتراجعوا؛ ولم يكن إلّا ساعة حتى أفنوْهم، وتغيّب معن بعد ذلك، فقال أبو جعفر لأبي الخصيب: ويلك! أين معن؟ قال: والله ما أدري أين هو من الأرض! فقال: أيظن أنّ أمير المؤمنين لا يغفر ذنبه بعد ما كان من بلائه! أعطه الأمان وأدخله عليّ، فأدخله، فأمر له بعشرة آلاف درهم، وولّاه اليمن، فقال له أبو الخصيب: قد فرّق صلته وما يقدر على شيء، قال: له لو أراد مثل ثمنك ألف مرّة لقدر عليه.

وفي هذه السنة وجه أبو جعفر المنصور ولده محمداً ـ وهو يومئذ وليّ عهد ـ إلى خُراسان في الجنود، وأمره بنزول الرّيّ، ففعل ذلك محمد.

وفيها خلَع عبد الجبار بن عبد الرحمن عامل أبي جعفر على خُراسان؛ ذكر عليّ بن محمد، عمن حدّثه، عن أبي أيوب الخوزيّ، أن المنصور لما بلغه أن عبد الجبار يقتل رؤساء أهل خُراسان، وأتاه من بعضهم كتاب فيه: قد نغِل الأديمُ، قال لأبي أيوب الخزاعيّ: إن عبد الجبار قد أفنى شيعتَنا، وما فعل هذا إلّا وهو يريد أن يخلع، فقال له: ما أيسر حيلته! اكتب إليه: إنك تريد غَزْو الرّوم؛ فيوجهّ إليك الجنود من خُراسان، وعليهم فرسانهم ووجوههم، فإذا خرجوا منها فابعثْ إليهم مَنْ شئت؛ فليس به امتناع. فكتب بذلك إليه، فأجابه: إنّ الترك قد جاشت؛ وإن فرّقت الجنود ذهبت خراسان، فألقي الكتاب إلى أبي أيّوب، وقال له: ما ترى؟ قال: قد أمكنك من قياده، اكتب إليه: إن خراسان أهمّ إليّ من غيرها، وأنا موجّه إليك الجنود من قبَلي. ثم وجّه إليه الجنود ليكونوا بخُراسان؛ فإنْ هَمّ بخلع أخذُوا بعنقه.

فلما ورد على عبد الجبار الكتاب كتب إليه: إنّ خُراسان لم تكن قطّ أسوأ حالاً منها في هذا العام؛ وإن دخلها الجنود هلكوا لضيق ماهم فيه من غلاء السعر. فلما أتاه الكتاب ألقاه إلى أبي أيوب، فقال له: قد أبدى صفحَته، وقد خلَع فلا تناظره.

فوجّه إليه محمد بن المنصور، وأمره بنزول الرّيّ؛ فسار إليها المهديّ، ووجّه لحربه خازم بن خزيمة مقدمةً له، ثم شخص المهدي فنزل نيسابور. ولما توجّه خازم بن خزيمة إلى عبد الجبار، وبلغ ذلك أهل مَرْو الرّوذ؛ ساروا إلى عبد الجبار مِن ناحيتهم فناصبوهُ الحرْب، وقاتلوه قتالاً شديداً حتى هُزِم، فانطلق هارباً حتى لجأ إلى مقطنة، فتوارى فيها، فعبَر إليه المجشر بن مزاحم من أهَل مَرْو الرّوذ؛ فأخذه أسيراً؛ فلما قدِم خازم أتاه به، فألبسه خازم مدرّعة صوف، وحمله على بعير، وجعل وجهه من قِبَل عجُز البعير؛ حتى انتهى به إلى المنصور ومعه ولده وأصحابه؛ فبسط عليهم العذاب، وضُربوا بالسياط حتى استخرج منهم ما قَدَر عليه من الأموال. ثم أمَر المسيّب بن زُهير بقطع يديْ عبد الجبار ورجليْه وضرب عنقه؛ ففعل ذلك المسيّب، وأمر المنصور بتسيير ولده إلى دَهْلك ـ وهي جزيرة على ضفّة البحر بناحية اليمن ـ فلم يزالوا بها حتى أغار عليهم الهند، فسبَوْهم فيما سبَوْا حتى فودُوا بعد، ونجا منهم من نجا، فكان ممن نجا منهم واكتتب في الديوان وصحِب الخُلَفاء عبدُ الرحمن بن عبد الجبار، وبقي إلى أن توفّي بمصر في خلافة هارون، في سنة سبعين ومائة.

وفي هذه السنة فُرِغ من بناء المصيّصة على يدي جبرئيل بن يحيى الخراسانيّ، ورابط محمد بن إبراهيم الإمام بمَلطيْة.

واختلفوا في أمر عبد الجبار وخبره، فقال الواقديّ: كان ذلك في سنة ثنتين وأربعين ومائة، وقال غيره:

كان ذلك في سنة إحدى وأربعين ومائة.

وذكر عن عليّ بن محمد أنه قال: كان قدوم عبد الجبار خراسان لعشر خلوْن من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائة، ويقال لأربع عشرة ليلة، وكانت هزيمته يوم السبت لستّ خلوْن من ربيع الأول سنة ثنتين وأربعين ومائة.

وذكر عن أحمد بن الحارث، أن خليفة بن خياط حدّثه، قال: لما وجّه المنصور المهديَّ إلى الريّ - وذلك قبل بناء بغداد؛ وكان توجيهه إياه لقتال عبد الجبار بن عبد الرحمن، فكفى المهديّ أمْرَ عبد الجبار بمن حاربه وظفر به - كرِه أبو جعفر أن تبطل تلك النفقات التي أنفقت على المهديّ؛ فكتب إليه أن يغزوَ طَبَرستان، وينزل الريّ، ويوجّه أبا الخصيب وخازم بن خزيمة والجنود إلى الأصبهبذ؛ وكان الأصبهبذ يومئذ محارباً للمصمُغان ملك دُنباوند معسكراً بإزائه؛ فبلغه أن الجنودَ دخلت بلاده، وأن أبا الخصيب دخل سارِية، فساء المصمُغان ذلك؛ وقال له: متى صاروا إليك صاروا إليّ؛ فاجتمعا على محاربة المسلمين؛ فانصرف الأصبهبذ إلى بلاده، فحارب المسلمين، وصالت تلك الحروب، فوجّه أبو جعفر عمر بن العلاء الذي يقول فيه بشار:

فقُلْ للخليفة إنْ جئتَهُ ... نَصيحاً ولا خَيْرَ في المُتَّهَمْ
إذا أيْقَظتْك حُروبُ العِدا ... فنَبِّهْ لها عُمَراً ثمّ نَمْ
فَتىً لا يَنامُ على دِمْنَةٍ ... ولا يَشْرَبُ الماءَ إلا بِدَمْ

وكان توجيهه إياه بمشورة أبْرويز أخي المصمُغان، فإنه قال له: يا أميرَ المؤمنين؛ إن عمر أعلم الناس ببلاد طَبَرستان، فوجّهه؛ وكان أبرويز قد عرف عمر أيام سنباذ وأيام الراونديّة، فضمّ إليه أبو جعفر خازم بن خزيمة، فدخل الرُّويان ففتحها، وأخذ قَلْعة الطاق وما فيها، وطالت الحرب، فألحّ خازم على القتال، ففتح طَبَرستان، وقتل منهم فأكثر، وصار الأصبهبذ إلى قلعته، وطلب الأمان على أن يسلم القلعة بما فيها من ذخائره، فكتب المهديّ بذلك إلى أبي جعفر، فوجّه أبو جعفر بصالح صاحب المصلى وعدّة معه، فأحصوْا ما في الحِصْن، وانصرفوا. وبدا للأصبهبذ، فدخل بلاد جِيلان من الدَّيْلم، فمات بها؛ وأخِذت ابنته - وهي أمّ إبراهيم بن العباس بن محمد - وصمدت الجنود للمصمُغان؛ فظفروا به وبالبحترية أم منصور بن المهديّ، وبصيمر أم ولد عليّ بن رَيْطة بنت المصمُغان. فهذا فتح طبرستان الأول.

قال: ولما مات المصمُغان تحوّز أهل ذلك الجبل فصاروا حَوْزِيّة لأنهم توحّشوا كما توحّش حمر الوحش.

وفي هذه السنة عُزِل زياد بن عبيد الله الحارثيّ عن المدينة ومكة والطائف، واستعمل على المدينة محمد بن خالد بن عبد الله القسريّ، فقدمها في رجب. وعلى الطائف ومكة الهيثم بن معاوية العتكيّ من أهل خراسان.

وفيها تُوفِّيَ موسى بن كعب؛ وهو على شرط المنصور، وعلى مصر والهند وخليفته على الهند عيينة ابنه.

وفيها عُزِل موسى بن كعب عن مصر، ووليها محمد بن الأشعث ثم عزل عنها، ووليها نَوْفل بن الفُرات.

وحجّ بالناس في هذه السنة صالح بن عليّ بن عبد الله بن عباس هو على قِنّسرين وحمص ودمشق. وعلى المدينة محمد بن خالد بن عبد الله القسريّ، وعلى مكة والطائف الهيثم بن معاوية، وعلى الكوفة وأرضها عيسى بن موسى، وعلى البصرة وأعمالها سفيان بن معاوية. وعلى قضائها سوّار بن عبد الله، وعلىَ خُراسان المهديّ وخليفته عليها السريّ بن عبد الله، وعلى مصر نَوْفل بن الفرات.

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها خلع عيينة بن موسى بن كعب بالسِّنْد.

ذكر الخبر عن سبب خلعه:

ذُكر أن سبب خلعه، كان أن المسيِّب بن زهير كان خليفة موسى بن كعب على الشُّرَط، فلما مات موسى أقام المسيِّب على ما كان يلي من الشُّرَط، وخاف المسيِّب أن يكتب المنصور إلى عُيَينة في القدوم عليه فيوليه مكانه؛ وكتب إليه ببيت شعر ولم ينسب الكتاب إلى نفسه:

فـأَرضَـكَ أرضَـكَ إن تـأْتـنـا فَـنَـمْ نـومَـةً ليس فـيهـا حُـلُمْ

وخرج أبو جعفر لما أتاه الخبر عن عيينة بخلْعه حتى نزل بعسكره من البصرة عند جسرها الأكبر، ووجّه عمر بن حفص بن أبي صفرة العتكيّ عاملا على السند والهند، محارباً لعيينة بن موسى؛ فسار حتى ورد السند والهند، وغلب عليها.

وفي هذه السنة نقض إصبهبذ طَبَرستان العهد بينه وبين المسلمين، وقتل من كان ببلاده من المسلمين.

ذكر الخبر عن أمره وأمر المسلمين:

ذكر أن أبا جعفر لما انتهى إليه خبر الإصبهبذ وما فعل بالمسلمين، وجّه إليه خازم بن خزيمة وروْح بن حاتم ومعهم مرزوق أبو الخصيب مولى أبي جعفر، فأقاموا على حصنِه محاصرين له ولمن معه في حصنه، وهم يقاتلونهم حتى طال عليهم المقام، فاحتال أبو الخصيب في ذلك فقال لأصحابه: اضربوني واحلقوا رأسي ولحيتي؛ ففعلوا ذلك به، ولحق بالإصبهبذ صاحب الحصن فقال له: إني رُكِب مني أمرٌ عظيم، ضُربتُ وحُلِق رأسي ولحيتي. وقال له: إنما فعلوا ذلك بي تهمةً منهم لي أن يكون هواي معك، وأخبره أنه معه، وأنه دليل له على عورة عسكرهم. فقبل منه ذلك الإصبهبذ، وجعله في خاصّتِه وألطفه؛ وكان باب مدينتهم من حجر يلقى إلقاء يرفعه الرجال، وتضعه عند فتحه وإغلاقه؛ وكان قد وكّل به الإصبهبذ ثقاتِ أصحابه، وجعل ذلك نُوَباً بينهم، فقال له أبو الخصيب: ما أراك وثقت بي، ولا قبلت نصيحتي! قال: وكيف ظننتَ ذلك؟ قال: لتركك الاستعانة بي فيما يعنيك، وتوكيلي فيما لا تثق به إلّا بثقاتك؛ فجعل يستعين به بعد ذلك، فيرى منه ما يحبّ إلى أن وثق به، فجعله فيمن ينوب في فتح باب مدينته وإغلاقه؛ فتولّى له ذلك حتى أنس به. ثم كتب أبو الخصيب إلى رَوْح بن حاتم وخازم بن خزيمة، وصيّر الكتاب في نُشّابة، ورماها إليهم، وأعلمهم أن قد ظفر بالحيلة،

ووعدهم ليلة، سمّاها لهم في فتح الباب. فلما كان في تلك الليلة فتح لهم، فقتلوا مَن فيها من المقاتلة، وسبَوا الذراريّ، وظُفر بالبحتريّة. وهي أم منصور بن المهدي، وأمّها باكند بنت الإصبهبذ الأصمّ ـ وليس بالإصبهبذ الملك؛ ذاك أخو باكند ـ وظفر بشَكْلة أم إبراهيم بن المهديّ، وهي بنت خونادان قَهرمان المصمُغان، فمصّ الإصبهبذ خاتماً له فيه سمّ فقتل نفسه.

وقد قيل: إن دخول رَوْح بن حاتم وخازم بن خزيمة طَبَرستان كان في سنة ثلاث وأربعين ومائة.

وفي هذه السنة بنى المنصور لأهل البصرة قبْلتهم التي يصلون إليها في عيدهم بالحمّان، وولى بناءه سلمة بن سعيد بن جابر؛ وهو يومئذ على الفُرات والأبُلّة من قِبَل أبي جعفر، وصام أبو جعفر شهر رمضان وصلى بها يوم الفطر.

وفيها تُوُفّي سليمان بن عليّ بن عبد الله بالبَصْرَة ليلة السبت لتسع بقين من جمادى الآخرة، وهو ابن تسع وخمسين سنة، وصلّى عليه عبد الصمد بن عليّ.

وفيها عُزِل عن مصر نوفل بن الفرات، ووليها محمد بن الأشعث، ثم عُزِل عنها محمد ووليها نوفل بن الفرات، ثم عزل نَوْفل ووليها حميد بن قحطبة.

وحجّ بالناس في هذه السنة إسماعيل بن عليّ بن عبد الله بن العباس.

وكان العامل على المدينة محمد بن خالد بن عبد الله، وعلى مكة والطائف الهيثم بن معاوية، وعلى الكوفة وأرضها عيسى بن موسى، وعلى البصرة وأعمالها سفيان بن معاوية، وعلى قضائها سوّار بن عبد الله، وعلى مصر حميد بن قحطبة.

وفيها ـ في قول الواقدي ـ ولّى أبو جعفر أخاه العباس بن محمد الجزيرة والثغور وضمّ إليه عدّة من القوّاد، فلم يزل بها حيناً.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

ففي هذه السنة ندب المنصور الناس إلى غزو الديلم.

ذكر الخبر عن ذلك:

ذكِر أن أبا جعفر اتصل به عن الدّيْلم إيقاعهم بالمسلمين وقتلهم منهم مقتلة عظيمة، فوجّه إلى البصرة حبيب بن عبدالله بن راغبان، وعليها يومئذ إسماعيل بن عليّ، وأمره بإحصاء كل مَنْ له فيها عشرة آلاف درهم فصاعداً، وأن يأخذ كلّ من كان ذلك له بالشخوص بنفسه لجهاد الدّيْلم، ووجّه آخر لمثل ذلك إلى الكوفة.

وفيها عزل الهيثم بن معاوية عن مكة والطائف، وولّى ما كان إليه من ذلك السريّ بن عبد الله بن الحارث بن العباس بن عبد المطلب، وأتى السريّ عهده على ذلك وهو باليمامة، فسار إلى مكة، ووجّه أبو جعفر إلى اليمامة قُثَم بن العباس بن عبد الله بن عباس.

وفيها عُزِل حُميد بن قحطبة عن مصر، ووليّها نوفل بن الفرات، ثم عزل نوفل ووليّها يزيد بن حاتم.

وحجّ بالناس في هذه السنة عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبيد الله بن عباس، وكان يومئذ إليه ولاية الكوفة وسوادها.

وكان والي مكة فيها السري بن عبد الله بن الحارث، ووالي البصرة وأعمالها سفيان بن معاوية، وعلى قضائها سوّار بن عبد الله، وعلى مصر يزيد بن حاتم.

وقال محمد: سمعت جدي موسى بن عبد الله، يقول: اللهمّ اطلب حسن بْن زيد بدمائنا. قال موسى: وسمعت والله أبي يقول: أشهد لعرَّفني أبو جعفر حديثاً ما سمعه مني إلا حسن بن زيد.

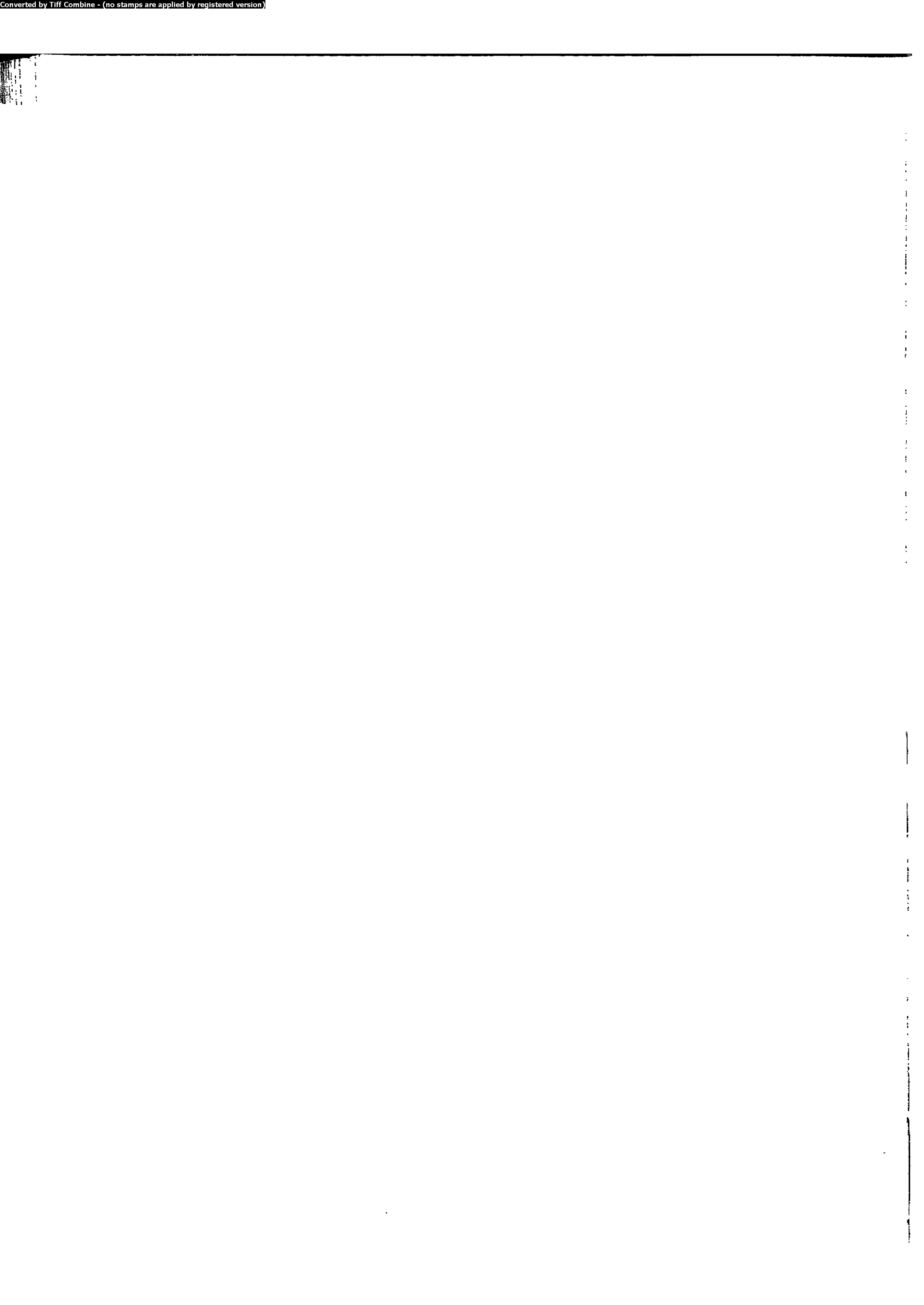
وحدّثني محمد بن إسماعيل، قال: سمعت القاسم بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، قال: أخبرني محمد بن وهب السّلميّ، عن أبي، قال: عرفني أبو جعفر حديثاً ما سمعه مني إلا أخي عبد الله بن حسن وحسن بن زيد، فأشهد ما أخبره به عبد الله؛ ولا كان يعلم الغيب.

قال محمد: وسأل عنه عبد الله بن حسن عام حجّ، فقال له مقالة الهاشميّين، فأخبره أنه غير راضٍ أو يأتيه به.

قال محمد: وحدثتني أمي عن أبيها، قال: قال أبي: قلت لسليمان بن عليّ: يا أخي صهري بك صهري، ورحِمي بك رحمي، فما ترى؟ قال: والله لكأنّي أنظر إلى عبد الله بن عليّ حين حال الستر بيننا وبينه؛ وهو يشير إلينا أن هذا الذي فعلتم بي فلو كان عافياً عفا عن عمّه. قال: فقبل رأيه، قال: فكان آل عبدالله يروْنها صِلةً من سُلَيْمان لهم.

قال أبو زيد: وحدّثني سعيد بن هُرَيم، قال: أخبرني كلثوم المَرائيّ، قال: سمعت يحيى بن خالد بن بَرْمك يقول: اشترى أبو جعفر رقيقاً من رقيق الأعراب، ثم أعطى الرجل منهم البَعير، والرجل البعيرْين، والرجل الذود، وفرّقهم في طلب محمد في ظهر المدينة؛ فكان الرَّجل منهم يرد الماء كالمارّ وكالضالّ، فيَفرّون عنه ويتجسسون.

قال: وحدّثني محمد بن عباد بن حبيب المهلبيّ، قال: قال لي السنديّ مولى أمير المؤمنين: أتدري ما رفع عُقْبة بن سَلْم عند أمير المؤمنين؟ قلت: لا، قال: أوفد عمّي عمر بن حفص وفْداً من السند فيهم عقبة، فدخلوا أبي جعفر، فلما قضوْا حوائجهم نهضوا، فاستردّ عقبة؛ فأجلسه، ثم قال له: مَنْ أنت؟ قال: رجل من جُنْد أمير المؤمنين وخَدمه، صحبت عمر بن حفص، قال: وما اسمك؟ قال: عُقْبة بن سلم بن نافع، قال: ممّن أنت؟ قال: من الأزْد ثم من بني هُناءة، قال: إني لأرى لك هيئة وموضعاً، وإني لأريدك لأمر أنا به معنّى، لم أزل أرتاد له رجلاً، عسى أن تكونه إن كَفيتَنيه رفعتُك، فقال: أرجو أن أصدّق ظنَّ أميرُ المؤمنين فيّ، قال: فأخفِ شخصَك، واستر أمرك، وأتني في يوم كذا وكذا في وقت كذا وكذا؛ فأتاه في ذلك الوقت، فقال له: إن بني عَمّنا هؤلاء قد أبوْا إلاّ كيداً لملكنا واغتيالا له، ولهم شِيعة بخُراسان بقرية كذا، يكاتبونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم وألطاف من ألطاف بلادهم، فاخرج بكساً وألطاف وعَيْن حتى تأتيهم متنكراً بكتاب تكتبه عن أهل هذه القرية، ثم تسبر ناحيتهم؛ فإن كانوا قد نزعوا عن رأيهم فأحْبِبْ والله بهم وأقرِبْ، وإن كانوا على رأيهم علمتُ ذلك، وكنتُ على حذرٍ واحتراس منهم؛ فاشخص حتى تلقَى عبدالله بن حسن متقشّفاً متخشعاً؛ فإن جَبَهك - وهو فاعل - فاصبرْ وعاوده؛ فإن عاد فاصبر حتى يأنس بك وتلين لك ناحيته؛ فإذا ظهر لك ما في قلبه فاعجل عليّ. قال: فشخص حتى قدم على عبدالله، فلقيه بالكتاب، فأنكره ونهره، وقال: ما أعرف هؤلاء القوم؛ فلم يزل ينصرف ويعود إليه حتى قبِل كتابه وألطافه، وأنس به، فسأله عُقْبة الجواب، فقال: أمّا الكتاب فإني لا أكتب إلى أحد، ولكن أنت كتابي إليهم، فأقرِئهم السلام وأخبرهم أن ابنيَّ خارجان لوقت كذا وكذا. قال: فشخص عُقْبة حتى قدم على أبي جعفر، فأخبره الخبر.



قال أبو زيد: حدّثني أيوب بن عمر، قال: حدّثني موسى بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف، قال: ولّى أبو جعفر الفضلَ بن صالح بن عليّ الموسم في سنة ثمان وثلاثين ومائة، فقال له: إن وقعت عيناك على محمد وإبراهيم، ابنيْ عبد الله بن حسن، فلا يفارقانك؛ وإن لم ترهما فلا تسأل عنهما. فقدِم المدينة، فتلقاه أهلُها جميعاً؛ فيهم عبد الله بن حسن وسائر بني حسن إلّا محمد وإبراهيم ابنيْ عبد الله بن حسن. فسكت حتى صدر عن الحجّ، وصار إلى السيّالة، فقال لعبد الله بن حسن: ما منع ابنيْك أن يلقياني مع أهلهما! قال: والله ما منعهما من ذلك رِيبة ولا سوء؛ ولكنهما منهومان بالصّيد واتّباعه، ولا يشهدان مع أهليهما خيراً ولا شرّاً. فسكت الفضلُ عنه، وجلس على دكان قد بني له بالسَّيالة. فأمر عبد الله رعاته فسرّحوا عليه ظهره، فأمر أحدهم فحلَب لَبناً على عسل في عُسّ عظيم، ثم رقى به الدكان، فأوْمأ إليه عبد الله أن اسق الفضلَ بن صالح، فقصد قصده؛ فلما دنا منه صاح به الفضل صَيحةً مغضباً: إليك يا ماصّ بَظْر أمّه! فأدبر الرّاعي، فوثب عبد الله ـ وكان من أرفق الناس ـ فتناول القعبَ، ثم أقبل يمشي به إلى الفضل، فلما رآه يمشي إليه استحيا منه، فتناوله فشرب.

قال أبو زيد: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني أبي، عن أبيه، قال: كان لزياد بن عبيد الله كاتب يقال له حَفْص بن عمر من أهل الكوفة يتشيّع، وكان يثبّط زياداً عن طلب محمد، فكتب فيه عبد العزيز بن سعد إلى أبي جعفر فحدره إليه، فكتب فيه زياد إلى عيسى بن عليّ وعبد الله بن الربيع الحارثيّ فخلّصاه حتى رجع إلى زياد.

قال عليّ بن محمد: قدم محمد البصرة مختفياً في أربعين، فأتَوْا عبدَ الرحمن بن عثمان بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فقال له عبد الرحمن: أهلكتَني وشهرتَني؛ فانزل عندي وفرّقْ أصحابَك، فأبى، فقال: ليس لك عندي منزل؛ فانزل في بني راسب، فنزل في بني راسب.

وقال عمر: حدّثني سليمان بن محمد الساريّ، قال: سمعت أبا هبّار المُزَنيّ يقول: أقمنا مع محمد بن عبد الله بالبَصْرة يدعو الناس إلى نفسه.

قال: وحدثني عيسى بن عبد الله، قال: قال أبو جعفر: ما طمعت في بغية لي قطّ إذا ذكرت مكان بني راسب بالبصرة.

قال: وحدّثني أبو عاصم النّبيل، قال: حدثني ابن جَشِيب اللِّهْبِيّ، قال: نزلتُ في بني راسب في أيام ابن معاوية، فسألني فتىً منهم يوماً عن اسمي، فلطمه شيخ منهم، فقال: وما أنت وذاك! ثم نظر إلى شيخ جالس بين يديه، فقال: أترى هذا الشيخ نزل فينا أبوه أيام الحجاج، فأقام حتى ولد له هذا الولد، وبلغ هذا المبلغ، وهذا السنّ! لا والله ما ندري ما اسمه ولا اسم أبيه، ولا ممن هو!

قال: وحدّثني محمد بن الهذيل، قال: سمعتُ الزّعفرانيّ يقول: قدم محمد، فنزل على عبد الله بن شيبان أحد بني مُرّة بن عبيد، فأقام ستة أيام، ثم خرج فبلغ أبا جعفر مقدمُه البصرة، فأقبل مُغِذًّا حتى نزل الجسر الأكبر، فأردنا عمرا على لِقائه، فأبى حتى غلبناه، فلقيَه فقال: يا أبا عثمان، هل بالبصرة أحد نخافه على أمرنا؟ قال: لا قال: فأقتصرُ على قولك وأنصرف؟ قال: نعم؛ فانصرف، وكان محمد قد خرج قبل مقدَم أبي جعفر.

قال علي بن محمد: حدّثني عامر بن أبي محمد، قال: قال أبو جعفر لعمرو بن عبيد: أبايعتَ محمداً؟

قال: أنا والله لو قلّدتني الأمّة أمورها ما عرفتُ لهما موضعاً.

قال عليّ: وحدّثني أيوب القزّاز، قال: قلت لعمرو: ما تقول في رجل رضي بالصبر على ذهاب دينه؟ قال: أنا ذاك، قلت: وكيف؛ ولو دعوتَ أجابك ثلاثون ألفاً! قال: والله ما أعرف موضع ثلاثة إذا قالوا وفَّوْا، ولو عرفتُهم لكنت لهم رابعاً.

قال أبو زيد: حدّثني عبيد الله بن محمد بن حفص، قال: حدّثني أبي، قال: وجِل محمد وإبراهيم بن أبي جعفر، فأتيا عدَن، ثم سارا إلى السند ثم إلى الكوفة، ثم إلى المدينة.

قال عمر: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدثني الحارث بن إسحاق، قال: تكفّل زياد لأمير المؤمنين بابنيْ عبد الله أن يخرجهما له، فأقرّه على المدينة، فكان حسن بن زيد إذا علم من أمرهما علماً كفَّ حتى يفارقا مكانهما ذلك؛ ثم يخبر أبا جعفر، فيجد الرّسم الذي ذكر، فيصدقه بما رفع إليه؛حتى كانت سنة أربعين ومائة، فحجّ فقسّم قسوماً خصّ فيها آل أبي طالب فلم يظهر له ابنا عبد الله؛ فبعث إلى عبد الله فسأله عنهما، فقال: لا علم لي بهما؛ حتى تغالظا، فأمصّه أبو جعفر، فقال: يا أبا جعفر، بأيّ أمهاتي تُمصّني! أبفاطمة بنت رسول الله ﷺ، أم بفاطمة بنت أسد، أم بفاطمة بنت حسين، أم أمّ إسحاق بنت طلحة، أم خديجة بنت خويلد؟ قال: لا بواحدة منهنّ؛ ولكن بالجرباء بنت قسامة بن زهير ـ وهي امرأةٌ من طيّىء ـ قال: فوثب المسيّب بن زهير، فقال: دعْني يا أميرَ المؤمنين أضرب عنق ابن الفاعلة. قال: فقام زياد بن عبيد الله، فألقى عليه رداءه، وقال: هبه لي يا أمير المؤمنين؛ فأنا أستخرج لك ابنيْه فتخلّصه منه.

قال عمر: وحدثني الوليد بن هشام بن قَحْذم، قال: قال الحزين الدّيليّ لعبد الله بن الحسن ينعَي عليه ولادة الجرباء:

لعَلَّك بـالجَـرْبـاءِ أو بحكـاكـةٍ ... تُفاخِـرُ أُمّ الفَضْـل وابنَـة مِشْـرح
ومـا منهمـا إلا حَصـانٌ نجيبـةٌ ... لهـا حَسَبٌ في قـومهـا مُترجّـحُ

قال عمر: وحدثني محمد بن عبّاد، قال: قال لي السنديّ مولى أمير المؤمنين: لما أخبر عقبة بن سلم أبا جعفر، أنشأ الحجّ وقال لعقبة: إذا صرت بمكان كذا وكذا لقيَني بنو حسن، فيهم عبد الله، فأنا مبجّله ورافعٌ مجلسه وداع بالغداء؛ فإذا فرغنا من طعامنا فلحظتُك فامثل بين يديه قائماً، فإنه سيصرف بصره عنك، فدر حتى تغمز ظهرَه بإبهام رجلك حتى يملأ عينه منك ثم حسبُك؛ وإياك أن يراك ما دام يأكل. فخرج حتى إذا تدفّع في البلاد لقيه بنو حسن، فأجلس عبدَ الله إلى جانبه، ثم دعا بالطعام فأصابوا منه؛ ثم أمر به فرفع، فأقبل على عبد الله، فقال: يا أبا محمد، قد علمتَ ما أعطيتَني من العهود والمواثيق ألاّ تبغيَني سوءاً، ولا تكيد لي سلطاناً، قال: فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين؛ قال: فلحظ أبو جعفر عُقْبة، فاستدار حتى قام بين يديه، فأعرض عنه، فرفع رأسه حتى قام من وراء ظهره؛ فغمزه بأصبعه، فرفع رأسه فملأ عينه منه، فوثب حتى جثا بين يدي أبي جعفر، فقال: أقِلْني يا أميرَ المؤمنين أقالك الله! قال: لا أقالني الله إن أقلتُك، ثم أمر بحبسه.

قال عمر: وحدثني بكر بن عبد الله بن عاصم مولى قُرَيبةَ بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، قال: حدّثني عليّ بن رَباح بن شبيب، أخو إبراهيم، عن صالح صاحب المصلّى، قال: إني لواقفٌ على رأس أبي جعفر وهو يتغدّى بأوْطاس؛ وهو متوجّه إلى مكة، ومعه على مائدته عبدُ الله بن حسن وأبو الكرام الجعفريّ

وجماعة من بني العباس؛ فأقبل على عبد الله، فقال: يا أبا محمد، محمد وإبراهيم أراهما قد استوحشا من ناحيتي، وإني لأحبّ أن يأنسا بي، وأن يأتياني فأصِلَهما وأخلطهما بنفسي - قال: وعبد الله مطرِق طويلا ثم رفع رأسه - فقال: وحقِّك يا أميرَ المؤمنين، فما لي بهما ولا بموضعهما من البلاد علْم؛ ولقد خرجا من يدي؛ فيقول أبو جعفر: لا تفعل يا أبا محمد، اكتب إليهما وإلى من يوصّل كتابك إليهما. قال: فامتنع أبو جعفر ذلك اليوم من عامّة غَداثه إقبالاً على عبد الله، وعبد الله يحلف ما يعرف موضعهما؛ وأبو جعفر يكرّر عليه: لا تفعل يا أبا محمد، لا تفعل يا أبا محمد، لا تفعل يا أبا محمد. قال: فكان شدّة هرب محمد من أبي جعفر أنّ أبا جعفر كان عقد له بمكة في أناس من المعتزلة.

قال عمر: حدثني أيوب بن عمر - يعني ابن أبي عمرو - قال: حدثني محمد بن خالد بن إسماعيل بن أيوب بن سلَمة المخزوميّ، قال: أخبَرني أبي، قال: أخبرني العباس بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس، قال: لما حجّ أبو جعفر في سنة أربعين ومائة أتاه عبد الله وحسن ابنا حسن؛ فإنهما وإياي لعنده؛ وهو مشغول بكتاب ينظر فيه؛ إذْ تكلم المهديّ فلحن، فقال عبد الله: يا أميرَ المؤمنين، ألا تأمر بهذا مَنْ يعدّل لسانه؛ فإنه يغفل غفل الأَمَة! فلم يفهم؛ وغمزتُ عبد الله فلم ينتبه لها، وعاد لأبي جعفر فاحتفظ من ذلك، وقال: أين ابنك؟ فقال: لا أدري، قال: لتأتينّي به؛ قال: لو كان تحت قدميّ ما رفعتهما عنه، قال: يا ربيع قمْ به إلى الحبس.

قال عمر: حدّثني مُوسى بن سعيد بن عبد الرحمن الجُمحيّ، قال: لما تمثّل عبد الله بن حسن لأبي العباس:

ألم تر حوشباً أمسى يبنّي ... بيوتاً نفعها لبني بُقَيْلهْ

لم تزل في نفس أبي جعفر عليه؛ فلما أمر بحبسه، قال: ألست القائل لأبي العباس:

أَلم تَرَ حَوْشباً أمْسَى يُبَنِّي ... بُيُوتاً نَفعُها لبني بُقَيْلهْ

وهو آمن الناس عليك، وأحسنهم إليك صنيعاً!

قال عمر: حدّثنا محمد بن يحيى، قال: حدثني الحارث بن إسحاق عن أبي حُنَيْن، قال: دخلتُ على عبد الله بن حسن وهو محبوس؛ فقال: هل حدث اليوم مِنْ خبر؟ قلت: نعم، قد أمر ببيع متاعك ورقيقِك، ولا أرى أحداً يقدم على شرائه، فقال: ويحك يا أبا حُنين! والله لو خُرِج بي وبناتي مسترقّين لاشتُرينا!

قال عمر: وحدثني محمد بن يحيى، قال: حدّثنا الحارث بن إسحاق قال: شخص أبو جعفر، وعبد الله بن حسن محبوس، فأقام في الحبس ثلاث سنين.

قال عمر: وحدثني عبد الله بن إسحاق بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، قال: حدثني أبو حَرْملة محمد بن عثمان، مولى آل عمرو بن عثمان، قال: حدّثني أبو هبّار المُزنيّ، قال: لما حجّ أبو جعفر سنة أربعين ومائة، حجّ تلك السنة محمد وإبراهيم ابنا عبد الله، وهما متغيبان، فاجتمعوا بمكة، فأرادوا اغتيال أبي جعفر، فقال لهم الأشتر: عبد الله بن محمد بن عبد الله، أنا أكفيكموه، فقال محمد: لا والله لا أقتله أبداً غيلَةً حتى أدعوه؛ قال: فنقض أمرَهم ذلك وماكانوا أجمعوا عليه. ؛ وقد كان دخل معهم في أمرهم

قائد من قوّاد أبي جعفر من أهل خُراسان. قال: فاعترض لأبي جعفر إسماعيل بن جعفر بن محمد الأعرج، فنمّى إليه أمرَهم، فأرسل في طلب القائد فلم يظفرْ به، وظفِر بجماعة من أصحابه، وأفلت الرَّجُل وغلام له بمال زُهاء ألفي دينار كانت مع الغلام، فأتاه بها وهو مع محمد، فقسَمها بين أصحابه. قال أبو هبّار: فأمرني محمد، فاشتريت للرَّجُل أباعر وجهَّزته وحملته في قبّة وقطرته، وخرجت أريد به المدينة حتى أوردتُه إياها. وقدم محمد فضمّه إلى أبيه عبدالله، ووجّهها، إلى ناحية من خُراسان. قال: وجعل أبو جعفر يقتل أصحاب ذلك القائد الذي كان من أمره ما ذكرتُ.

قال عمر: وحدّثني محمد بن يحيى بن محمد، قال: حدّثني أبي عن أبيه، قال: غدوت على زياد بن عبيد الله وأبوجعفر بالمدينة، قال: فقال: أخبركم عجباً مما لقيته اللَّيلة؛ طرقني رسلُ أميرِ المؤمنين نصفَ الليل ـ وكان زياد قد تحوّل لقدوم أمير المؤمنين إلى داره بالبلاط ـ قال: فدّقتْ عليّ رسله، فخرجت ملتحفاً بإزاري؛ ليس عليّ ثوب غيره، فنبهت غلماناً لي وخصياناً في سقيفة الدار، فقلت لهم: إن هدموا الدار فلا يكلمهم منكم أحد؛ قال: فدقوا طويلا ثم انصرفوا، فأقاموا ساعة، ثم طلعوا بجُرْز شبيه أن يكون معهم مثلهم؛ مرّة أو مرّتين، فدقوا الباب بجَرَزَة الحديد، وصيَّحوا فلم يكلمهم أحد، فرجعوا فأقاموا ساعة، ثم جاؤوا بأمر ليس عليه صَبْر؛ فظننت والله أن قد هدموا الدار عليّ، فأمرت بفتحها، وخرجت إليهم فاستحثوني وهمُّوا أن يحملوني، وجعلت أسمع العزاء من بعضهم حتى أسلموني إلى دار مَرْوان، فأخذ رجلان بعضدي، فخرّجاني على حال الدفيف على الأرض أو نحوه؛ حتى أتيا بي حجرة القبّة العظمى؛ فإذا الربيع واقف، فقال: ويحك يا زياد! ماذا فعلت بنا وبنفسك منذ الليلة! ومضى بي حتى كشف سِتر باب القبّة، فأدخلني ووقف خَلْفي بين البابين؛ فإذا الشمع في نواحي القبّة، فهي تزهر، ووصيف قائم في ناحيتها، وأبو جعفر محتَبٍ بحمائل سيفه على بساط ليس تحته وسادة ولا مصلّى، وإذا هو منكسٌ رأسَه ينقر بجرْز في يده. قال: فأخبرني الربيع أنها حاله من حين صلى العَتمة إلى تلك الساعة. قال: فما زلتُ واقفاً حتى إني لأنتظر نداء الصبح، وأجد لذلك فرَجاً؛ فما يكلمني بكلمة، ثم رفع رأسه إليّ، فقال: يا بن الفاعلة، أين محمد وإبراهيم؟ قال: ثم نكس رأسه، ونكت أطْوَل مما مضى له، ثم رفع رأسه الثانية، فقال: يابن الفاعلة، أين محمد وإبراهيم؟ قتلني الله إن لم أقتلك! قال: قلت له: اسمع مني ودعْني أكلّمك، قال: قل له: أنت نفرّتها عنك؛ بعثت رسولا بالمال الذي أمرت بقَسْمِه على بني هاشم؛ فنزل القادسيّة، ثم أخرج سِكينا يحدّه، وقال: بعثني أمير المؤمنين لأذبَح محمداً وإبراهيم، فجاءتها بذلك الأخبار، فهربا. قال: فصرَفني فانصرفتُ.

قال عمر: وحدّثني عبد الله بن راشد بن يزيد ـ وكان يلقب الأكّار، من أهل فَيْد ـ قال: سمعت نصر بن قادم مولى بني محول الحنّاطين: قال: كان عبدويه وأصحابه له بمكة في سنة حجّها أبو جعفر. قال: فقال لأصحابه: إني أريد أن أؤجر أبا جعفر هذه الحربة بين الصَّفا والمروة. قال: فبلغ ذلك عبد الله بن حسن فنهاه، وقال: أنت في موضع عظيم؛ فما أرى أن تفعل. وكان قائد لأبي جعفر يدعى خالد بن حسان، كان يدعى أبا العساكر على ألف رجل، وكان قد مَالأ عبدويه وأصحابه؛ فقال له أبو جعفر: أخبرني عنك وعن عبدويه والعُطارديّ، ما أردتم أن تصعنوا بمكة؟ قال: أردنا كذا وكذا، قال: فما منعكم؟ قال: عبد الله بن حسن، قال: فطمره فلم ير حتى الساعة.

قال عمر: حدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثنا الحارث بن إسحاق، قال: جدّ أبو جعفر حين حبس عبد الله في طلب ابنيه، فبعث عيناً له وكتب معه كتاباً على ألسن الشيعة إلى محمد، يذكرون طاعتهم ومسارعتهم؛ وبعث معه بمال وألطاف، فقدم الرّجل المدينة، فدخل على عبد الله بن حسن، فسأله عن محمد، فذكر له أنه في جبل جُهينة، وقال: امرر بعليّ بن حسن، الرّجل الصالح الذي يدعى الأغرّ؛ وهو بذي الأبر؛ فهو يرشدك. فأتاه فأرشده. وكان لأبي جعفر كاتب على سرّه، كان متشيعاً، فكتب إلى عبد الله بن حسن بأمر ذلك العيْن، وما بُعث له، فقدم الكتاب على عبد الله فارتاعوا، وبعثوا أبا هبّار إلى عليّ بن الحسن وإلى محمد، فيحذّرهم الرجل؛ فخرج أبو هبّار حتى نزل بعليّ بن حسن، فسأله فأخبره أن قد أرشده إليه. قال أبو هبّار: فجئت محمداً في موضعه الذي هو به، فإذا هو جالس في كَهْف، معه عبد الله بن عامر الأسلمي وابنا شجاع وغيرهم، والرجل معهم أعلاهم صوتاً، وأشدّهم انبساطاً؛ فلما رآني ظهر عليه بعض النُّكرة، وجلست مع القوم؛ فتحدّثت مليًّا؛ ثم أصغيت إلى محمد، فقلت: إنّ لي حاجةً، فنهض ونهضت معه، فأخبرته بخبر الرجل، فاسترجع، وقال: فما الرأي؟ فقلت: إحدى ثلاث أيها شئت فافعل؛ قال: وما هي؟ قلت: تَدَعني فأقتل الرجل، قال: ما أنا بمقارف دماً إلّا مكرهاً، أو ماذا؟ قلت: توقِرُه حديداً وتنقله معك حيث انتقلت، قال: وهل بنا فراغ له مع الخوف والإعجال! أو ماذا؟ قلت: تشُدّه وتوثقه وتودعه بعض أهل ثقتك من جهينة؛ قال: هذه إذاً؛ فرجعنا وقد نذِر الرجل فهرب، فقلت: أين الرجل؟ قالوا: قام بركْوة فاصطبّ ماء؛ ثم توارى بهذا الظَّرب يتوضّأ، قال: فجُلنا في الجبل وما حوله؛ فكأنّ الأرض التأمت عليه. قال: وسعى على قدميه حتى شرع على الطريق، فمرّ به أعراب معهم حُمولة إلى المدينة، فقال لبعضهم: فرّغ هذه الغِرارة وأدخلنيها أكن عِدْلا لصاحبتها ولك كذا وكذا، قال: نعم؛ ففرّغها وحمله حتى أقدمه بالمدينة. ثم قدِم على أبي جعفر فأخبره الخبر كلّه، وعميَ عن اسم أبي هبار وكنيته، وعلّق وبراً. فكتب أبو جعفر في طلب وَبر المُزنيّ، فحُمل إليه رجل منهم يدعَى وبراً، فسأله عن قصّة محمد وما حكى له العين؛ فحلف أنه ما يعرف من ذلك شيئاً؛ فأمر به فضرِب سبعمائة سوط، وحُبس حتى مات أبو جعفر.

قال عمر: حدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني الحارث بن إسحاق، قال: ألحّ أبو جعفر في طلب محمد، وكتب إلى زياد بن عبيد الله الحارثيّ يتنجزّه ما كان ضمِن له، فقدم محمد المدينة قَدمةً، فبلغ ذلك زياداً، فتلطّف له وأعطاه الأمان على أن يظهر وجهه للناس معه، فوعده ذلك محمد، فركب مغلّساً، ووعد محمداً سوق الظهر، فالتقيا بها، ومحمد معلنٌ غير مختفٍ، ووقف زياد إلى جنبه، وقال: يأيها الناس؛ هذا محمد بن عبد الله بن حسن، ثم أقبل عليه، فقال: الحقْ بأيّ بلاد الله شئت، وتوارى محمد، وتواترت الأخبار بذلك على أبي جعفر.

قال عمر: حدّثني عيسى بن عبد الله، قال: حدّثني من أصدّق، قال: دخل إبراهيم بن عبد الله على زياد، وعليه دِرع حديد تحت ثوبه، فلمسها زياد. ثم قال: يا أبا إسحاق؛ كأنك اتّهمتَني! ذلك والله ما ينالك مني أبداً.

قال عُمر: حدثني عيسى، قال: حدّثني أبي، قال: ركب زياد بمحمد؛ فأتى بهِ السوق فتصايح أهل المدينة: المهديّ المهديّ! فتوارى فلم يظْهر؛ حتى خرج.

قال عمر: حدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني الحارث بن إسحاق، قال: لمّا أن تتابعت الأخبار على أبي جعفر بما فعل زياد بن عبيد الله، وجّه أبا الأزهر (رجلاً من أهل خُراسان) إلى المدينة، وكتب معه كتاباً، ودفع إليه كتباً، وأمره ألّا يقرأ كتابه إليه حتى ينزل الأعوص، على بريد من المدينة، فلما أن نزله قرأه؛ فإذا فيه تولية عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله المدينة ـ وكان قاضياً لزياد بن عبيد الله ـ وشدُّ زياد في الحديد، واصطفاء ماله، وقبضُ جميع ما وجد له، وأخذُ عمّاله وإشخاصُه وإياهم إلى أبي جعفر. فقدم أبو الأزهر المدينة لسبع ليال بقين من جمادي الآخرة سنة إحدى وأربعين ومائة، فوجد زياداً في موكب له، فقال: أين الأمير؟ فقيل: ركب، وخرجت الرّسل إلى زياد بقدومه، فأقبل مسرعاً حتى دخل دار مَرْوان، فدخل عليه أبو الأزهر، فدفع إليه كتاباً من أبي جعفر في ثُلُث يأمره أن يسمع ويطيع؛ فلما قرأه قال: سمعاً وطاعة، فمرْ يا أبا الأزهر بما أحببت؛ قال: ابعث إلى عبد العزيز بن المطلب. فبعث إليه، فدفع إليه كتاباً أن يسمع لأبي الأزهر؛ فلما قرأه قال: سمعاً وطاعة؛ ثم دفع إلى زياد كتاباً يأمره بتسليم العمل إلى ابن المطلب، ودفع إلى ابن المطلب كتاباً بتوليته، ثم قال لابن المطلب: ابعث إليّ أربعة كبول وحدّاداً، فأتِيَ بها فقال: اشدد أبا يحيى، فشُدّ فيها وقبض ماله ـ ووجد في بيت المال خمسة وثمانين ألف دينار ـ وأخذ عماله، فلم يغادر منهم أحداً؛ فشخص بهم وبزياد، فلما كانوا في طرف المدينة وقف له عماله يسلّمون عليه، فقال: بأبي أنتم! والله ما أبالي إذا رآكم أبو جعفر ما صنع بي! أي من هيئتهم ومرّوتهم.

قال عمر: وحدّثني محمد بن يحيى. قال: حدّثني الحارث بن إسحاق، عن خاله عليّ بن عبد الحميد، قال: شيّعنا زياداً، فسرت تحت محمله ليلة، فأقبل عليّ فقال: والله ما أعرف لي عند أمير المؤمنين ذنباً؛ غير أني أحسبه وجَد عليّ في ابنيْ عبد الله. ووجَد دماء بني فاطمة عليّ عزيزة. ثم مضوا حتى كانوا بالشقراء؛ فأفلت منهم محمد بن عبد العزيز، فرجع إلى المدينة، وحبس أبو جعفر الآخرين. ثم خلّى عنهم.

قال: وحدّثني عيسى بن عبد الله، قال: حدّثني مَنْ أصدّق، قال: لما أنْ وجّه أبو جعفر مبهوتاً وابن أبي عاصية في طلب محمد، كان مبهوت الذي أخذ زياداً، فقال زياد:

أكـلَّفُ ذنبَ قـومٍ لسـتُ منـهـمْ ... ومـا جَنَتِ الشِّمـال على اليـمين

قـال: وحدّثني عيسى بن عبـد الله، قال: حـدّثني عبد الله بن عمـران بن أبي فروة، قـال: كنت أنا والشعبانيّ ـ قائد كان لأبي جعفر ـ مع زياد بن عبيد الله نختلف إلى أبي الأزهر أيام بعثه أبو جعفر في طلب بني حسن، فإني لأسير مع أبي الأزهر يوماً إذْ أتاه آتٍ فلصق به، فقال: إنّ عندي نصيحة في محمد وإبراهيم، قال: اذهب عنا، قال: إنها نصيحة لأمير المؤمنين، قال: اذهبْ عنّا، ويلك قد قتل الخلق! قال: فأبى أن ينصرف، فتركه أبو الأزهر حتى خلا الطريق، ثم بعج بسيفه بطنه بَعْجةً ألقاه ناحية.

ثمّ استعمل أبو جعفر على المدينة محمد بن خالد بعد زياد؛ فذكر عمر أن محمد بن يحيى حدّثه، قال: حدّثنا الحارث بن إسحاق، قال: استعمل أبو جعفر على المدينة محمد بن خالد بعد زياد، وأمره بالجدّ في طلب محمد، وبسط يده في النفقة في طلبه. فأغذّ السير حتى قدم المدينة هلال رجب سنة إحدى وأربعين ومائة، ولم يعلم به أهل المدينة حتى جاءه رسوله من الشُّقرة ـ وهي بين الأعوص والطَّرَف على ليلتين من المدينة ـ فوجد في بيت المال سبعين ألف دينار وألف ألف درهم؛ فاستغرق ذلك المال؛ ورفع في محاسبته أموالاً كثيرة أنفقها في طلب

محمد، فاستبطأه أبو جعفر واتّهمه؛ فكتب إليه أبو جعفر يأمره بكشف المدينة وأعراضها؛ فأمر محمد بن خالد أهلَ الديوان أن يتجاعلوا لمن يخرج؛ فتجاهلوا رباع الغاضريّ المضحك - وكان يداين الناس بألف دينار - فهلكت وتويت، وخرجوا إلى الأعراض لكشفها عن محمد، وأمر القسريّ أهل المدينة؛ فلزموا بيوتهم سبعة أيام، وطافت رسله والجند ببيوت الناس يكشفونها؛ لا يحسون شيئاً، وكتب القسريّ لأعوانه صِكاكاً يتعزّزون بها، لئلا يعرض لهم أحد؛ فلمّا استبطأه أبو جعفر ورأى ما استغرق من الأموال عزله.

قال: وحدّثني عيسى بن عبدالله، قال: أخبرني حسين بن يزيد، عن ابن ضبّة، قال: اشتدّ أمر محمد وإبراهيم على أبي جعفر؛ فبعث فدعا أبا السعلاء بن قيس بن عيلان، فقال: ويلك! أشر عليّ في أمر هذين الرجلين؛ فقد غمّني أمرهما، قال: أرى لك أن تستعمل رجلاً من ولد الزُّبير أو طلحة؛ فإنهم يطلبونهما بذَحْل؛ فأشهد لا يُلبثونهما أو يخرجوهما إليك. قال: قاتلك الله؛ ما أجود رأياً جئت به! والله ما غَبِيَ هذا عليّ؛ ولكني أعاهد الله ألّا أثّئِر من أهل بيتي بعدوّي وعدوّهم؛ ولكني أبعث عليهم صُعيليكاً من العرب، فيفعل ما قلت، فبعث رياح بن عثمان بن حيّان.

قال: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني عبدالله بن يحيى، عن موسى بن عبد العزيز؛ قال: لما أراد أبو جعفر عزل محمد بن خالد عن المدينة ركب ذات يوم؛ فلما خرج من بيته استقبله يزيد بن أسِيْد السُّلَميّ، فدعاه فسايره. ثم قال: أما تدلّني على فتًى من قيس مُقلّ، أغنيه وأشرّفه وأمكّنه من سيد اليمن يلعب به؟ يعني ابن القسريّ؛ قال: بلى، قد وجدته يا أمير المؤمنين، قال: مَنْ هو؟ قال: رياح بن عثمان بن حَيّان المريّ، قال: فلا تذكرنَّ هذا لأحد، ثم انصرف فأمر بنجائب وكسوة ورحال؛ فهيئت للمسير؛ فلما انصرف من صلاة العَتَمة دعا برياح، فذكر له ما بلا من غشّ زياد وابن القسريّ في ابني عبدالله، وولاه المدينة؛ وأمر بالمسير من ساعته قبل أن يصل إلى منزله، وأمره بالجدّ في طلبهما؛ فخرج مسرعاً، حتى قدمها يوم الجمعة لسبع ليال بقين من شهر رمضان سنة أربع وأربعين ومائة.

قال: وحدّثني محمد بن معروف، قال: أخبرني الفضل بن الربيع، عن أبيه، قال: لما بلغ أمر محمد وإبراهيم من أبي جعفر ما بَلغ خرجت يوماً من عنده - أو من بيتي - أريده؛ فإذا أنا برجل قد دنا مني، فقال: أنا رسول رياح بن عثمان إليك، يقول لك: قد بلغني أمر محمد وإبراهيم وإدْهان الولاة في أمرهما؛ وإنْ ولّاني أمير المؤمنين المدينة ضَمنت له أحدهما، وإلّا أظهرهما. قال: فأبلغتُ ذلك أميرَ المؤمنين، فكتب إليه بولايته، وليس بشاهد.

ذكر عمر بن شبّة، عن محمد بن يحيى، عن عبدالله بن يحيى، عن موسى بن عبد العزيز، قال: لما دخل رياح دار مَرْوان، فصار في سقيفتها، أقبل على بعض مَن معه، فقال: هذه دار مروان؟ قالوا: نعم، قال: هذه المحلال المظعان، ونحن أوّل من يظعن منها.

قال عمر: حدّثني أيوب بن عمر، قال: حدّثني الزبير بن المنذر مولى عبد الرحمن بن العوّام، قال: قدم رياح بن عثمان، فقدم معه حاجب له يكنى أبا البختريّ - وكان لأبي صديقاً زمان الوليد بن يزيد. قال: فكنت آتيه لصداقته لأبي - فقال لي يوماً: يا زُبير، إن رياحاً لما دخل دار مروان قال لي: هذه دار مَرْوان؟ أما والله إنها لمِحْلال مظعان؛ فلما تكشف الناس عنه - وعبدالله محبوس في قبة الدار التي على الطريق إلى المقصورة، حبَسه فيها

زياد بن عبيدالله ـ قال لي: يا أبا البَختريّ، خذ بيدي ندخل على هذا الشيخ، فأقبل متّكئاً عليّ حتى وقف على عبدالله بن حسن، فقال: أيّها الشيخ؛ إن أمير المؤمنين والله ما استعملني لرحم قريبة، ولا يدٍ سلفت إليه؛ والله لا لعبتَ بي كما لعبت بزياد وابن القسريّ، والله لأزهقنّ نفسك أو لتأتيني بابنيْك محمد وإبراهيم! قال: فرفع رأسه إليه وقال: نعم، أما والله إنك لأزيْرق قيس المذبوح فيها كما تذبح الشاة. قال أبو البَختريّ: فانصرف رياح والله آخذاً بيدي، أجد برد يده، وإنّ رجليه لتخطّان مما كلّمه، قال: قلت: والله إنّ هذا ما اطّلع على الغيب قال: إيهاً ويلك! فوالله ما قال إلا ما سمع؛ قال: فذُبح والله فيها ذبح الشاة.

قال: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثنا الحارث بن إسحاق، قال: قدم رياح المدينة، فدعا بالقسريّ، فسأله عن الأموال، فقال: هذا كاتبي هو أعلم بذلك مني، قال: أسألك وتحيلني على كاتبك! فأمر به فُوجئَت عنقه، وقنّع أسواطاً، ثم أخذ رزاماً كاتب محمد بن خالد القسريّ ومولاه فبسط عليه العذاب، وكان يضربه في كلّ غبّ خمسة عشر سوطاً، مغلولة يده إلى عنقه من بُكرة إلى الليل؛ يتبع به أفناء المسجد والرّحبة، ودسّ إليه في الرفع على ابن خالد فلم يجد عنده في ذلك مساغاً، فأخرجه عمر بن عبدالله الجذاميّ ـ وكان خليفة صاحب الشُّرَط يوماً من الأيام ـ وهو يريد ضربه، وما بين قدميه إلى قرنه قرحة، فقال له: هذا يوم غبّك، فأين تحبّ أن نجلدك؟ قال: والله ما في بدني موضع لضرب؛ فإن شئتَ فبطون كفي، فأخرج كفّيه فضرب في بطونهما خمسة عشر سوطاً. قال: فجعلت رسل رياح تختلف إليه، تأمره أن يرفع على ابن خالد ويخلّي سبيله، فأرسل إليه: مرْ بالكفّ عني حتى أكتب كتاباً، فأمر بالكفّ عنه، ثم ألحّ عليه وبعث إليه: أن رُحْ بالكتاب العشيّة على رؤوس الناس، فادفعه إليّ. فلما كان العشيّ أرسل إليه فأتاه وعنده جماعة فقال: أيّها الناس؛ إن الأمير أمرني أن أكتب كتاباً، وأرفع على ابن خالد؛ وقد كتبت كتاباً أتنجّى به، وأنا أشهدكم أن كلّ ما فيه باطل. فأمر به رياح فضرب مائة سوط، ورُدّ إلى السجن.

قال عمر: حدّثني عيسى بن عبدالله، قال: حدّثني عمي عبيدالله بن محمد بن عمر بن عليّ، قال: لما أهبط الله آدم من الجنّة رفعه على أبي قُبيس، فرفع له الأرض جميعاً حتى رآها وقال: هذه كلها لك، قال: أيْ ربّ، كيف أعلم ما فيها؟ فجعل له النجوم، فقال: إذا رأيت نجم كذا وكذا كان كذا وكذا. وإذا رأيت نجم كذا وكذا كان كذا وكذا؛ فكان يعلم ذلك بالنجوم. ثم إن ذلك اشتدّ عليه، فأنزل الله عزّ وجل مرآة من السماء يرى بها ما في الأرض حتى إذا ما مات آدم عمَد إليها شيطان يقال له فقطس فكسرها، وبنى عليها مدينة بالمشرق يقال لها جابرت؛ فلما كان سليمان بن داود سأل عنها، فقيل له: أخذها فقطس. فدعاه فسأله عنها، فقال: هي تحت أواسي جابرت، قال: فأتِني بها، قال ومَنْ يهدمها؟ فقالوا لسليمان: قل له: أنت، فقال سليمان: أنت، فأتى بها سليمان، فكان يجبر بعضها إلى بعض ثم يشدّها في أقطارها بسير، ثم ينظر فيها؛ حتى هلك سليمان؛ فوثبتْ عليها الشياطين؛ فذهبت بها وبقيت منها بقية، فتوارثتْها بنو إسرائيل حتى صارت إلى رأس الجالوت؛ فأتِيَ بها مَرْوان بن محمد؛ فكان يحكُّها ويجعلها على مرآة أخرى فيرى فيها ما يكره، فرمى بها وضرب عنق رأس الجالوت، ودفعها إلى جارية له، فجعلتها في كرسفة، ثم جعلتها في حجر؛ فلما استخلف أبو جعفر سأل عنها فقيل له: هي عند فلانة؛ فطلبها حتى وجدها، فكانت عنده؛ فكان يحكُّها ويجعلها على مرآة أخرى فيرى فيها؛ وكان يرى محمد بن عبدالله؛ فكتب إلى رياح بن عثمان: إنّ محمداً ببلاد فيها الأترجّ والأعناب فاطلبه بها. وقد

كتب إلى محمد بعض أصحاب أبي جعفر: لا تقيمنّ في موضع إلاّ بقدْر مسير البريد من العراق إلى المدينة؛ فكان يتنقّل فيراه بالبَيْضاء، وهي من وراء الغابة على نحو من عشرين ميلاً؛ وهي لأشجع. فكتب إليه: إنه ببلاد بها الجبال والقِلاّت؛ فيطلبه فلا يجده. قال: فكتب إليه إنه بجبل به الحبّ الأخضر والقَطِران، قال: هذه رضوى؛ فطلبه فلم يجده.

قال أبو زيد: حدّثني أبو صفوان نصر بن قُديد بن نصر بن سيار، أنه بلغه أنه كان عند أبي جعفر مرآة يَرى فيها عدوّه من صديقه.

قال: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدثني الحارث بن إسحاق، قال: جدّ رياح في طلب محمد، فأخبِر أنه في شِعْب من شِعاب رَضْوى - جبل جهينة، وهي من عمل ينبُع - فاستعمل عليها عمرو بن عثمان بن مالك الجُهنيّ أحد بني جُشم، وأمره بطلب محمد، فطلبه فذُكِر له أنه بشِعْب من رَضْوَى، فخرج إليه بالخيل والرّجال، ففزِع منه محمد، فأحضر شدًّا، فأفلت وله ابن صغير، ولد في خوفه ذلك؛ وكان مع جارية له؛ فهوى من الجبل فتقطّع، وانصرف عمرو بن عثمان.

قال: وحدّثني عبدالله بن محمد بن حكيم الطائيّ، قال: لما سقط ابن محمد فمات ولقي محمد ما لقي، قال:

سنخـرق السّربـال يشكـو الـوَجَى ... تَـنـكُـبُـهُ أطـرافُ مَـرْوٍ حِـدَادْ
شـرّده الـخـوفُ فـأزْرَى بـه ... كـذاك مَـنْ يَكْـرَهْ حَـرَّ الـجِـلادْ
قـد كـان فـي الـمـوت لـه راحـةٌ ... والـمـوتُ حتـمٌ في رقـاب العـبـادْ

قال: وحدّثني عيسى بن عبدالله، قال: حدّثني عمّي عبيدالله بن محمد، قال: قال محمد بن عبدالله: بينا أنا في رَضْوَى مع أمَة لي أمّ ولد، معها بُنيّ لي ترضعه؛ إذا ابن سَنُوطَى (مولى لأهل المدينة)، قد هجم عليّ في الجبل يطلبني؛ فخرجت هارباً،وهربت الجارية. فسقط الصبيّ منها فتقطّع، فقال عبيدالله: فأتِيَ بابن سنوطي إلى محمد بعد حين ظهر، فقال: يابن سنوطي، أتعرف حديث الصبيّ؟ قال: إي والله؛ إني لأعرفه، فأمر به فحُبس؛ فلم يزل محبوساً حتى قتِل محمد.

قال: وحدّثني عبد العزيز بن زياد، قال: حدّثني أبي قال: قال محمد: إني بالحَرّة مصعِد ومنحدر، إذا أنا برياح والخيل، فعدلتُ إلى بئر فوقفت بين قرنَيْها، فجعلت أستقي، فلقيَني رياح صَفْحاً، فقال: قاتله الله أعرابيًّا ما أحسن ذراعه!

قال: وحدّثني ابن زبالة، قال: حدّثني عثمان بن عبد الرحمن الجُهنيّ عن عثمان بن مالك، قال: أذلق رياح محمداً بالطلب؛ فقال لي: اغدُ بنا إلى مسجد الفَتْح ندع الله فيه. قال: فصلّيتُ الصُّبح، ثم انصرفت إليه، فغدوْنا وعلى محمد قميص غليظ ورداءقرقبيّمفتول؛ فخرجنا من موضع كان فيه؛ حتى إذا قريباً التفت، فإذا رياح في جماعة من أصحابه رُكْبان، فقلت له: هذا رياح؛ إنا لله وإنا إليه راجعون! فقال غير مكترث به: امض؛ فمضيت وما تنقلني رجلاي، وتنحّى هو عن الطريق؛ فجلس وجعل ظهره مما يلي الطريق، وسدَل هُدْب ردائه على وجهه - وكان جسيماً - فلما حاذاه رياح التفت إلى أصحابه، فقال: امرأة رأتنا فاستحيتْ. قال:

ومضيتُ حتى طلعت الشمس، وجاء رياح فصعد وصلى ركعتين، ثم انصرف من ناحية بُطْحان، فأقبل محمد حتى دخل المسجد، فصلى ودعا، ولم يزل محمد بن عبدالله ينتقل من موضع إلى موضع إلى حين ظهوره.

ولما طال على المنصور أمرُه؛ ولم يقدر عليه وعبدالله بن حسن محبوس، قال عبد العزيز بن سعيد - فيما ذُكر عن عيسى بن عبدالله، عن عبدالله بن عمران بن أبي فروة - قال لأبي جعفر: يا أميرَ المؤمنين، أتطمع أن يخرج لك محمد وإبراهيم وبنو حسن مخلّون! والله للواحد منهم أهيب في صدور الناس من الأسد. قال: فكان ذلك الذي هاجه على حَبْسهم. قال: ثم دعاه فقال: من أشار عليك بهذا الرأي؟ قال: فليح بن سليمان، فلما مات عبد العزيز بن سعيد - وكان عيناً لأبي جعفر ووالياً على الصدقات - وضع فُليح بن سليمان في موضعه، وأمر أبو جعفر بأخذ بني حسن.

قال عيسى: حدثني عبدالله بن عمران بن أبي فروة، قال: أمر أبو جعفر رياحاً بأخذ بني حسن، ووجّه في ذلك أبا الأزهر المهريّ - قال: وقد كان حبَس عبدالله بن حسن فلم يزل محبوساً ثلاث سنين؛ فكان حسن بن حسن قد نصَل خضابُه تسلياً على عبدالله؛ فكان أبو جعفر يقول: ما فعلت الحادّة؟ قال: فأخذ رياح حسناً وإبراهيم ابنْي حسن بن حسن، وحسن بن جعفر بن حسن بن حسن، وسليمان وعبدالله ابنْي داود بن حسن بن حسن، ومحمداً وإسماعيل وإسحاق ابني إبراهيم بن حسن بن حسن، وعباس بن حسن بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب، أخذوه على بابه؛ فقالت أمه عائشة ابنة طلحة بن عمر بن عبيدالله بن معمر: دعوني أشمّه، قالوا: لا والله؛ ما كنتِ حيةً في الدنيا؛ وعليّ بن حسن بن حسن بن حسن العابد.

قال: وحدّثني إسماعيل بن جعفر بن إبراهيم، قال: حبس معهم أبو جعفر عبدالله بن حسن بن حسن أخا عليّ.

قال: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثنا الحارث بن إسحاق، قال: جهر رياح بشتم محمد وإبراهيم ابنيْ عبدالله، وشتم أهل المدينة. قال: ثم قال يوماً وهو على المنبر يذكرهما: الفاسقين الخالعين الحاربيْن. قال: ثم ذكر ابنة أبي عبيدة أمهما، فأفحش لها، فسبّح الناس وأعظموا ما قال، فأقبل عليهم، فقال: إنكم لاكلنا عن شتمهما، ألصق الله بوجوهكم الذلّ والهوان! أما والله لأكتبنّ إلى خليفتكم فلأعلمنّه غِشّكم وقلة نُصحكم. فقال الناس: لا نسمع منك يابن المحدود؛ وبادروه بالحصى، فبادر واقتحم دار مروان وأغلق عليه الباب، وخرج الناس حتى صفّوا وجاهه، فرموه وشتموه ثم تناهوا وكفّوا.

قال: وحدّثني محمد بن يحيى؛ قال: حدّثني الثقة عندي، قال: حبس معهم موسى بن عبدالله بن حسن بن حسن بن عليّ وعليّ بن محمد بن عبدالله بن حسن بن حسن عند مقدمه من مصر.

قال: وحدّثني عبدالله بن عمر بن حبيب، قال: وجّه محمد بن عبدالله ابنه عليًّا إلى مصر، فدلّ عليه عاملها، وقد همّ بالوثوب، فشدّه وأرسل به إلى أبي جعفر؛ فاعترف له، وسمّى أصحاب أبيه، فكان فيمن سمّى عبد الرحمن بن أبي الموالي وأبو حنين؛ فأمر بهما أبو جعفر فحبِسا، وضرِب أبو حنين مائة سوط.

قال: وحدّثني عيسى، قال: مرّ حسن بن حسن بن حسن على إبراهيم بن حسن وهو يعلف إبلا له؛ فقال: أتعلف إبلك وعبد الله محبوس! أطلق عُقُلَها يا غلام، فأطلقها، ثم صاح في أدبارها فلم يوجد منها واحدة.

قال: وحدّثني عيسى، قال: حدّثني عليّ بن عبدالله بن محمد بن عمر بن عليّ، قال: حضرنا باب رياح في المقصورة، فقال الآذن: مَنْ كان ها هنا من بني حسين فليدخل؛ فقال لي عمّي عمر بن محمد: انظر ما يصنع القوم، قال: فدخلوا من باب المقصورة وخرجوا من باب مرْوان. قال: ثمّ قال: من ها هنا من بني حسن فليدخل؛ فدخلوا من باب المقصورة ودخل الحدّادون من باب مَرْوان، فدعِيَ بالقيود.

قال: وحدّثني عيسى، قال: حدّثني أبي، قال: كان رياح إذا صلى الصُّبح أرسل إليّ وإلى قدامة بن موسى فيحدّثنا ساعة؛ فإنا لعنده يوماً؛ فلما أسفرنا إذا برجل متلفّف في ساجٍ له؛ فقال له رياح: مرحباً بك وأهلا، ما حاجتك؟ قال: جئت لتحبسني مع قومي؛ فإذا هو عليّ بن حسن بن حسن بن حسن، فقال: أما والله ليعرفنّها لك أمير المؤمنين، ثم حبسه معهم.

قال: وحدّثني يعقوب بن القاسم، قال: حدّثني سعيد بن ناشرة مولى جعفر بن سليمان، قال: بعث محمد ابنه عليًّا، فأخِذ بمصر، فمات في سجن أبي جعفر.

قال: وحدثني موسى بن عبدالله بن موسى بن عبدالله بن حسن، قال: حدثني أبي، عن أبيه موسى بن عبدالله، قال: لما حُبِسنا ضاق الحبس بنا، فسأل أبي رياحاً أن يأذن له فيشتري داراً، فيجعل حبسنا فيها، ففعل، فاشترى أبي داراً فنُقلنا إليها، فلما امتدّ بنا الحبس أتى محمد أمه هنداً فقال: إني قد حمّلت أبي وعمومتي مالا طاقة لهم به؛ ولقد هممت أن أضع يدي في أيديهم؛ فعسى أن يخلّي عنهم. قال: فتنكرتْ ولبستْ أطماراً، ثم جاءت السجن كهيئة الرسول، فأذِن لها، فلما رآها أبي أثبتها، فنهض إليها فأخبرته عن محمد، فقال: كلاّ بل نصبر؛ فوالله إني لأرجو أن يفتح الله به خيراً، قولي له: فليدْعُ إلى أمره، وليجدّ فيه، فإن فرَجَنا بيد الله. قال: فانصرفت وتمّ محمد على بغيته.

وفي هذه السنة حمل ولد حسن بن حسن بن عليّ من المدينة إلى العراق.

ذكر الخبر عن سبب حملهم إلى العراق وما كان من أمرهم إذ حُملوا:

ذكر عمر، قال: حدّثني موسى بن عبدالله، قال: حدّثني أبي عن أبيه، قال: لما حجّ أبو جعفر أرسل محمد بن عمران بن إبراهيم بن محمد بن طلحة ومالك بن أنس إلى أصحابنا، فسألهم أن يدفعوا محمداً وإبراهيم ابني عبدالله، قال: فدخل علينا الرجلان وأبي قائم يصلّي، فأبلغاهم رسالته، فقال حسن بن حسن: هذا عمل ابنيِ المشؤومة، أما والله ما هذا برأينا، ولا عن ملأ منا؛ ولا لنا فيه حيلة. قال: فأقبل عليه إبراهيم، فقال: علام تؤذي أخاك في ابنيه وتؤذي ابن أخيك في أمه؟ قال: وانصرف أبي من صلاته؛ فأبلغاه، فقال: لا والله لا أردّ عليكما حرفاً؛ إن أحبّ أن يأذن لي فألقاه فليفعل؛ فانصرف الرجلان فأبلغاه، فقال: أراد أن يسخّرني؛ لا والله لا ترى عينه عيني حتى يأتيَني بابنيه.

قال: وحدّثني ابنُ زبالة، قال: سمعتُ بعض علمائنا يقول: ما سارّ عبدُالله بن حسن أحداً قطّ إلا فتله عن رأيه.

قال: وحدثني موسى بن عبدالله، عن أبيه عن جده، قال: ثم سار أمير المؤمنين أبو جعفر لوجهه حاجًّا، ثم رجع فلم يدخل المدينة؛ ومضى إلى الرَّبذة حتى أتى ثنيْ‌َ رهوتها.

قال عمر: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدثني الحارث بن إسحاق، قال: لم يزل بنو حسن محبوسين عند رياح حتى حجّ أبو جعفر سنة أربع وأربعين ومائة، فتلقّاه رياح بالرَّبَذة، فردّه إلى المدينة، وأمره بإشخاص بني حسن إليه، وبإشخاص محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان ـ وهو أخو بني حسن لأمهم. أمهم جميعاً فاطمة بنت حسين بن عليّ بن أبي طالب ـ فأرسل إليه رياح . وكان بماله ببدْر ـ فحدرهم إلى المدينة، ثم خرج رياح ببني حسن ومحمد بن عبدالله بن عمرو إلى الرَّبَذة، فلما صار بقصر نفيس على ثلاثة أميال من المدينة، دعا بالحدّادين والقيود والأغلال، فألقى كلّ رجل منهم في كَبْل وغُلّ، فضاقت حَلْقتا قيد عبدالله بن حسن بن حسن، فعضَّتَاه فتأوّه؛ فأقسم عليه أخوه عليّ بن حسن ليحوّلنّ حلقتيْه عليه إن كانتا أوسع، فحوّلتا عليه، فمضى بهم رياح إلى الرَّبَذة.

قال: وحدّثني إبراهيم بن خالد، ابن أخت سعيد بن عامر، عن جويرية بن أسماء ـ وهو خال أمه ـ قال: لما حُمِل بنو حسن إلى أبي جعفر أُتيَ بأقياد يقيّدون بها، وعليّ بن حسن بن حسن قائم يصلي. قال: وكان في الأقْياد قيد ثقيل، فكلّما قرب إلى رجل منهم تفادى منه واستعفى. قال: فانفتل عليّ من صلاته، فقال: لشدّ ما جزعتم، شَرْعُه هذا ثم مدّ رجليه فقُيِّد به.

قال: وحدّثني عيسى، قال: وحدّثني عبدالله بن عمران، قال: الذي حدَرهم إلى الربَذة أبو الأزهر.

قال عمر: حدثني ابن زبالة، قال: حدثني حسين بن زيد بن عليّ بن حسين، قال: غدوتُ إلى المسجد، فرأيت بني حسن يُخرَج بهم من دار مرْوان مع أبي الأزهر يُراد بهم الرّبَذة، فانصرفت، فأرسل إليّ جعفر بن محمد فجئته، فقال: ما وراءك؟ فقلت: رأيت بني حسن يُخرج بهم في محامل، قال: اجلس، فجلست، فدعا غلاماً له، ثم دعا ربه دعاء كثيراً، ثم قال لغلامه: اذهب؛ فإذا حُملوا فأتِ فأخبِرْني، فأتاه الرّسول، فقال: قد أقبل بهم. قال: فقام جعفر بن محمد، فوقف من وراء ستر شَعَر يبصر مَن وراءه ولا يبصره أحد؛ فطلع بعبد الله بن حسن في محمَل معادلُه مسوّد، وجميع أهل بيته كذلك. قال: فلما نظر إليهم جعفر هملتْ عيناه حتى جرت دموعه على لحيته، ثم أقبل عليّ فقال: يا أبا عبدالله، والله لا يحفظ لله حرْمة بعد هؤلاء.

قال: وحدّثني محمد بن الحسن بن زبالة، قال: حدثني مصعب بن عثمان، قال: لما ذُهب ببني حسن لقيهم الحارث بن عامر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بالرَّبَذة، فقال: الحمد لله الذي أخرجكم من بلادنا، قال: فاشرأبّ له حسن بن حسن، فقال له عبدالله: عزمتُ عليك إلا سكتّ!

قال: وحدّثني عيسى، قال: حدثني ابن أبرود حاجب محمد بن عبدالله قال: لما حُمل بنو حسن، كان محمد وإبراهيم يأتيان معتمّين كهيئة الأعراب، فيسايران أباهما ويسائلانه ويستأذنانه في الخروج؛ فيقول: لا تعجلا حتى يمكنكما ذلك؛ ويقول: إن منعكما أبو جعفر أن تعيشًا كريمين؛ فلا يمنعْكما أن تموتا كريمين.

قال عمر: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدثني الحارث بن إسحاق، قال: لما صار بنو حسن إلى الرَّبَذة دخل محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان على أبي جعفر، وعليه قميصٌ وساجٌ وإزار رقيق تحت قميصه؛ فلما وقف بين يديه، قال: إيهاً يَاديّوث! قال محمد: سبحان الله! والله لقد عرفتَني بغير ذلك صغيراً وكبيراً، قال: فممّ حملت ابنتُك؟ وكانت تحت إبراهيم بن عبدالله بن حسن بن الحسن ـ وقد أعطيتني الأيمان بالطلاق والعتاق ألا تغشني ولا تمالىء عليّ عدوًّا، ثم أنت تدخل على ابنتك متخضّبة متعطّرة، ثم تراها حاملاً فلا يروعك حملها!

فأنت بين أن تكون حانثاً أو ديُّوثاً؛ وايم الله إني لأهمّ برجْمها. فقال محمد: أما أيماني فهي عليّ إن كنت دخلت لك في أمر غش علمته، وأما ما رميتَ به هذه الجارية، فإن الله قد أكرمها عن ذلك بولادة رسول الله ﷺ إياها؛ ولكني قد ظننت حين ظهر حملها أنّ زوجها ألمّ بها على حين غفلة منا. فاحتفظ أبو جعفر من كلامه، وأمر بشق ثيابه، فشق قميصه عن إزاره، فأشفّ عن عورته، ثم أمر به فضرب خمسين ومائة سوط؛ فبلغت منه كلّ مبلغ، وأبو جعفر يفتري عليه ولا يكني؛ فأصاب سوط منها وجهَه، فقال له: ويحك! اكفف عن وجهي فإنّ له حرمةً من رسول الله ﷺ؛ قال: فأغرى أبو جعفر، فقال للجلاد: الرأس الرأس، قال: فضُرب على رأسه نحواً من ثلاثين سوطاً، ثم دعا بساجور من خشب شبيه به في طُوله ـ وكان طويلاً ـ فشدّ في عنقه، وشُدَّت به يده؛ ثم أخرج به ملبَّباً، فلما طلع به من حجرة أبي جعفر؛ وثب إليه مولى له، فقال: بأبي أنت وأمي ألا ألوثُك بردائي! قال: بلَى جُزيت خيراً؛ فوالله لشُفوف إزاري أشدّ عليّ من الضرب الذي نالني؛ فألقى عليه المولى الثوب، ومضى به إلى أصحابه المحبَّسين.

قال: وحدّثني الوليد بن هشام، قال: حدّثني عبدالله بن عثمان، عن محمد بن هاشم بن البريد، مولى معاوية، قال: كنتُ بالرَّبذة، فأُتِيَ ببني حسن مغلولين، معهم العثمانيّ كأنه خُلق من فضّة، فأقعِدوا، فلم يلبثوا حتى خرج رجل من عند أبي جعفر، فقال: أين محمد بن عبدالله العثماني؟ فقام فدخل، فلم يلبث أن سمعنا وقْع السّياط، فقال أيوب بن سلمة المخزوميّ لبنيه: يا بَنيّ؛ إني لأرى رجلاً ليس لأحد عنده هوادةٌ، فانظروا لأنفسكم؛ لا تسقطوا بشيء. قال: فأخرِج كأنه زنجيّ قد غيَّرت السياطُ لونَه، وأسالت دَمه، وأصاب سوط منها إحدى عينيْه فسالتْ، فأقعِد إلى جنب أخيه عبدالله بن حسن بن حسن، فعطش فاستسقى ماء، فقال عبدالله بن حسن: يا معشر الناس، مَنْ يسقي ابن رسول الله شربة ماء؟ فتحاماه الناس فما سقوْه حتى جاء خُراسانيّ بماء، فسلّه إليه فشرب، ثم لبثنا هُنيهةً، فخرج أبو جعفر في شقّ محمل، معادله الربيع في شقّه الأيمن، على بَغْلة شقراء، فناداه عبدالله: أبا جعفر؛ والله ما هكذا فعلنا بأسرائكم يوم بدر! قال: فأخسأهُ أبو جعفر؛ وتفل عليه، ومضى ولم يعرّج.

وذكِر أن أبا جعفر لما دخل عليه محمد بن عبدالله العثمانيّ سأله عن إبراهيم، فقال: مالي به علْم، فدقّ أبو جعفر وجهه بالجرْز.

وذكر عمر عن محمد بن أبي حرب، قال: لم يزل أبو جعفر جميلَ الرأي في محمد حتى قال له رياح: يا أمير المؤمنين؛ أمّا أهلُ خراسان فشيعتُك وأنصارك، وأما أهل العراق فشيعة آل أبي طالب، وأما أهل الشأم فوالله ما عليّ عندهم إلا كافر، وما يعتدّون بأحد من ولده؛ ولكنّ أخاهم محمد بن عبدالله بن عمرو، ولو دعا أهل الشأم ما تخلف عنه منهم رجل. قال: فوقعت في نفس أبي جعفر، فلما حجّ دخل عليه محمد، فقال: يا محمد، أليس ابنتك تحت إبراهيم بن عبدالله بن حسن؟ قال: بلى؛ ولا عهد لي به إلا بمنًى في سنة كذا وكذا، قال: فهل رأيتَ ابنتَك تختضِب وتمتشط؟ قال: نعم، قال: فهي إذاً زانية، قال: مَهْ يا أمير المؤمنين! أتقول هذا لابنة عمّك! قال: يابن اللخناء، قال: أيّ أمهاتي تلخّن! قال: يابن الفاعلة، ثم ضرب وجهه بالجرْز وحدده؛ وكانت رقية ابنة محمد تحت إبراهيم بن عبدالله بن حسن بن حسن، ولها يقول:

خليليّ من قَيْس دَعـا اللومَ واقعـدا	يَـسُـرُّكـمـا ألاّ أنـامَ وتَـرْقُـدَا
أبيتُ كـأنّـي مُشْـعَـرٌ من تـذكُّـري	رُقَـيَّـةَ جَمْـراً مـن غَضـاً مُتَـوقِّـدَا

قال: وحدّثني عيسى بن عبدالله بن محمد، قال: حدثني سليمان بن داود بن حسن؛ قال: ما رأيتُ عبدَ الله بن حسن جَزِع من شيء مما ناله إلاّ يوماً واحداً؛ فإنّ بعير محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمانَ انبعث وهو غافلٌ، لم يتأهّب له، وفي رجليه سلسلة، وفي عنقه زَمّارة، فهوى، وعلقت الزّمارة بالمحمَل، فرأيته منوطاً بعنقه يضطرب؛ فرأيت عبدالله بن حسن قد بكى بكاء شديداً.

قال: وحدّثني موسى بن عبدالله بن موسى، قال: حدّثني أبي عن أبيه، قال: لما صرنا بالرَّبذة، أرسل أبو جعفر إلى أبي أن أرسِلْ إليّ أحدكم؛ واعلم أنه غير عائد إليك أبداً، ! فابتدره بنو إخوته يعرِضون أنفسهم عليه، فجزاهم خيراً، وقال: أنا أكره أن أفجعهم بكُمْ؛ ولكن اذهب أنت يا موسى، قال: فذهبتُ وأنا يومئذ حديث السنّ، فلما نظر إليّ قال: لا أنعم الله بك عيناً؛ السياطَ يا غلام قال: فضُرِبتُ والله حتى غُشيَ عليّ، فما أدري بالضَّرْب، فرُفعت السياط عني، ودعاني فَقُربت منه واستقربني. فقال: أتدري ما هذا؟ هذا فيض فاض مني، فأفرغتُ منه سَجْلاً لم أستطع ردّه؛ ومن ورائه الموت أو تفتدى منه. قال: فقلت: يا أميرَ المؤمنين؛ والله إن ما لي ذنب؛ وإني لبمعزِل عن هذا الأمر. قال: فانطلقْ فأتني بأخويك، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، تبعثني إلى رياح بن عثمان فيضع عليّ العيون والرّصد، فلا أسلك طريقاً إلا تبعني له رسول، ويعلم ذلك أخواي فيهربان مني! قال: فكتب إلى رياح: لا سلطان لك على موسى، قال: وأرسل معي حرساً أمرهم أن يكتبوا إليه بخبري، قال: فقدمت المدينة، فنزلت دار ابن هشام بالبلاط، فأقمتُ بها أشهراً، فكتب إليه رياح: إنّ موسى مقيم بمنزله يتربّص بأمير المؤمنين الدوائر؛ فكتب إليه: إذا قرأتَ كتابي هذا فاحْدِرْه إليّ، فحدرني.

قال: وحدّثني محمد بن إسماعيل، قال: حدّثني موسى، قال: أرسل أبي إلى أبي جعفر: إني كاتب إلى محمد وإبراهيم؛ فأرسِل موسى عسى أن يلقاهما؛ وكتب إليهما أن يأتياه، وقال لي: أبلغهما عنّي فلا يأتياه أبداً. قال: وإنما أراد أن يفلتني من يده ـ وكان أرقَّ الناس عليّ، وكنت أصغر ولد هند ـ وأرسل إليهما:

يا بُنَيْ أُميَّةَ إني عنكما غانِ ... وما الغنِيَ غيرَ أني مُرْعَشٌ فانِ
يا بُنيْ أُميةَ إلاّ تَرْحَمَا كِبَري ... فإنما أنتما والثُّكْلُ مِثْلانِ

قال: فأقمت بالمدينة مع رسل أبي جعفر إلى أن استبطأني رياح، فكتب إلى أبي جعفر بذلك، فحدَرني إليه.

قال: وحدّثني يعقوب بن القاسم بن محمد، قال: أخبرني عمران بن محرز من بني البَكّاء، قال: خرج ببني حسن إلى الرَّبَذة، فيهم عليّ وعبدالله ابنا حسن بن حسن بن حسن، وأمُّهما حُبابة ابنة عامر بن عبدالله بن عامر بن بشر بن عامر ملاعب الأسنة؛ فمات في السجن حسن بن حسن وعباس بن حسن، وأمّه عائشة بنت طلحة بن عمر بن عبيدالله وعبدالله بن حسن وإبراهيم بن حسن.

قال عمر: حدّثني المدئنيّ، قال: لما خُرِج ببني حسن، قال إبراهيم بن عبدالله بن حسن، قال عمر: وقد أنشدني غير أبي الحسن هذا الشعر لغالب الهَمْدانيّ:

ما ذِكْرَك الدِّمْنَةَ القِفارَ وأهـ ... ـلَ الدارِ إمَّا نأوْكَ أو قربوا
إلاّ سَفَاهاً وقد تفرَّعك الشّـ ... ـيْبُ بلوْمٍ كأنّه العطبُ

ومَـرَّ حـمسـون مِـنْ سِنيـك كمـا ... عَـدَّ لـك الحـاسِبـون إذْ حَسبُـوا
فَـعَـدٍّ ذِكـر الـشبـابِ لَسْـتَ لـه ... ولا إلـيـك الـشَّـبـابُ مُـنـقَـلِب
إني عَـرَتْني الهُمـوم فـاحْتَضَـر الـ ... ـهـمّ وِسـادي فـالـقلبُ مُـنشَـعِبُ
وَاستَخْـرِجَ الـنَّـاس للشَّـقـاءِ وخُـلِّـ ... ـفْـتُ لِـدَهْـرٍ بِـظَهْـرِهِ حَـدَبُ
أعْـوَجَ يَـسْـتَـعْـذِبُ الـلئـامُ بـه ... ويـحْـتَـويـهِ الـكِـرامُ إن سَـرَبـوا
نـفْسـي فَـدَتْ شَيْبَـةً هُـنـاكَ وظُـنْـ ... ـبُـوبـاً بـه مـن قـيـوده نَـدَبُ
وَالسَّـادَةَ الـغُـرَّ مـن بَـنـيـهِ فَـمـا ... رُوقِـبَ فـيـه الإلـهُ والـنَّـسَـبُ
يـا حلَق القَيْـد مـا تَـضمَّنَ من ... حِـلْـم وَبِـرٍّ يَـشُـوبُـهُ حَـسَـبُ
وأُمَّـهـاتٌ مـن الـعَـواتِـكِ أخـ ... ـلصْـنَـكَ بِيضٌ عَـقـائـل عُـرُبُ
كـيْـفَ اعْـتِـذاري إلى الإلـهِ ولـم ... يُشْهَـرن فيـك المَـأثُـورَةُ القُضُبُ!
ولـم أَقُـد غـارَةً مُـلَمْـلَمَـةً ... فيهـا بَنـاتُ الصَّـريـحِ تَـنْتحب
وَالسَّـابِقَـاتُ الجيَـادُ والأَسَـلُ الـذُّ ... بَّـلُ فـيـهـا أَسِـنَّـة ذُرُبُ
حَـتَّى تُـوفِّـي بـنـي نُـتَـيْـلَةَ بـالـ ... ـقِسط بكيـل الصاع الـذي احتَلبُـوا
بـالقَـتْـلِ قَتْـلا وَبـالأسيـرِ الـذي ... في القِـدِّ أَسْـرى مَـصْفُـودَةً سُـلُبُ
أَصْبَـحَ آلُ الـرَّسـولِ أَحْمَـدَ في الـنَّـ ... ـاسِ كـذي عُـرَّةٍ بـه جَـرَبُ
بُـؤْسـاً لـهـم مـا جَـنَـتْ أكـفُّـهُـمُ ... وأيَّ حَـبْـلٍ من أُمَّـة قَـضَـبُـوا!
وأيَّ حَـبْـل خَـانُـوا الـمَـلِيـكَ بـه ... شُـدَّ بِـمِيثَـاقٍ عَـقْـدُهُ الـكَـذِبُ

وذكر عبدُ الله بن راشد بن يزيد، قال: سمعتُ الجرّاح بن عمر وخاقان بن زيد وغيرهما من أصحابنا يقولون: لما قدم بعبدالله بن حسن وأهله مُقيّدين فأشرف بهم على النَّجَف، قال لأهله: أما ترون في هذه القرية مَن يمنعنا من هذا الطاغية؟ قال: فلقيه ابنا أخي الحسن وعليّ مشتمليْن على سيفين، فقالا له: قد جئناك يابن رسول الله، فمرْنا بالذي تريد، قال: قد قضيتُما، ولن تُغنيا في هؤلاء شيئاً فانصرفا.

قال: وحدّثني عيسى، قال: حدّثني عبدالله بن عمران بن أبي فروة، قال: أمر أبو جعفر أبا الأزهر فحبَس بني حسن بالهاشميّة.

قال: وحدّثني محمد بن الحسن، قال: حدّثني محمد بن إبراهيم، قال: أُتِيَ بهم أبو جعفر، فنظر إلى محمد بن إبراهيم بن حسن، فقال: أنت الديباج الأصفر؟ قال: نعم، قال: أما والله يقتلنّك قتلة ما قتلتها أحداً من أهل بيتك، ثم أمر بأسطوانة مبنيّة ففرقت، ثم أدخل فيها فبنى عليه وهو حيّ.

قال محمد بن الحسن: وحدّثني الزُّبير بن بلال، قال: كان الناس يختلفون إلى محمد ينظرون إلى حسنه.

قال عمر: وحدّثني عيسى، قال: حدّثني عبدالله بن عمران، قال: أخبرني أبو الأزهر، قال: قال لي عبدالله بن حسن: ابغِني حجّاماً، فقد احتجتُ إليه، فاستأذنت أميرَ المؤمنين، فقال: آتيه بحجام مجيد.

قال: وحدّثني الفَضْل بن دُكيْن أبو نعيم، قال: حُبس من بني حسن ثلاثة عشر رجلاً، وحُبس معهم

العثمانيّ وابنان له في قصر ابن هبيرة؛ وكان في شرقيّ الكوفة مما يلي بغداد؛ فكان أوّل مَنْ مات منهم إبراهيم بن حسن، ثم عبدالله بن حسن، فدفنَ قريباً من حيث مات؛ وإلا يكن بالقبر الذي يزعم الناس أنه قبرُه؛ فهو قريب منه.

وحدّثني محمد بن أبي حرب، قال: كان محمد بن عبدالله بن عمرو محبوساً عند أبي جعفر، وهو يعلم براءته؛ حتى كتب إليه أبو عَوْن من خُراسان: أخبر أمير المؤمنين أنّ أهل خراسان قد تقاعسوا عنّي وطال عليهم أمر محمد بن عبدالله؛ فأمر أبو جعفر عند ذلك بمحمّد بن عبدالله بن عمرو، فضُرِبَتْ عنقُه، وأرسل برأسه إلى خراسان؛ وأقسم لهم أنه رأس محمد بن عبدالله، وأنّ أمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

قال عمر: فحدّثني الوليد بن هشام، قال: حدّثني أبي، قال: لما صار أبو جعفر بالكوفة، قال: ماأشتفي من هذا الفاسق من أهل بيت فسق، فدعا به، فقال: أزوّجت ابنتك ابنَ عبدالله؟ قال: لا، قال: أفليستْ بامرأته؟ قال: بلى زوّجها إيّاه عمُّها وأبوه عبدالله بن حسن فأجزتُ نكاحه، قال: فأين عهودك التي أعطيتني؟ قال: هي عليّ، قال: أفلم تعلم بخضاب! ألم تجد ريح طيب! قال: لا علم لي، قد علم القوم مالك عليّ من المواثيق فكتموني ذلك كله، قال: هل لك أن تستقيلني فأقيلك، وتحدث لي أيْماناً مستقبلة؟ قال: ما حنثت بأيْماني فتجدّدها عليّ، ولا أحدثت ما أستقيلك منه فتُقيلني؛ فأمر به فضرب حتى مات، ثم احتزّ رأسه؛ فبعث به إلى خُراسان؛ فلما بلغ ذلك عبدالله بن حسن، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! والله إن كنّا لنأمن به في سلطانهم، ثم قد قُتل بنا في سلطاننا.

قال: وحدّثني عيسى بن عبدالله، قال: حدّثني مسكين بن عمرو، قال: لما ظهر محمد بن عبدالله بن حسن، أمر أبو جعفر بضرب عنق محمد بن عبدالله بن عمرو، ثم بعث به إلى خُراسان؛ وبعث معه الرّجال يحلفون بالله إنه لمحمد بن عبدالله بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ. قال عمر: فسألت محمد بن جعفر بن إبراهيم، في أيّ سبب قتل محمد بن عمرو؟ قال: احتيج إلى رأسه.

قال عمر: وحدّثني محمد بن أبي حرب، قال: كان عوْن بن أبي عون خليفةَ أبيه بباب أمير المؤمنين؛ فلما قُتل محمد بن عبدالله بن حسن وجّه أبو جعفر برأسه إلى خُراسان، إلى أبي عَوْن مع محمد بن عبدالله بن أبي الكرام وعَوْن بن أبي عَوْن؛ فلما قدم به ارتاب أهلُ خُراسان، وقالوا: أليس قد قُتل مـرّة وأتينا برأسه! قال: ثم تكشّف لهم الخبر حتى علموا حقيقته؛ فكانوا يقولون: لم يُطّلَع من أبي جعفر على كذبةٍ غيرها.

قال: وحدّثني عيسى بن عبدالله، قال: حدّثني عبدالله بن عمران بن أبي فروة، قال: كنا نأتي أبا الأزهر ونحن بالهاشميّة أنا والشعبانيّ، فكان أبو جعفر يكتب إليه: من عبدالله عبدالله أمير المؤمنين إلى أبي الأزهر مولاه، ويكتب أبو الأزهر إلى أبي جعفر: من أبي الأزهر مولاه وعبده؛ فلما كان ذات يوم ونحن عنده ـ وكان أبو جعفر قد ترك له ثلاثة أيام لا ينوبها؛ فكنّا نخلو معه في تلك الأيام ـ فأتاه كتاب من أبي جعفر، فقرأه ثم رمى به، ودخل إلى بني حسن وهم محبوسون. قال: فتناولتُ الكتاب وقرأته؛ فإذا فيه: انظر يا أبا الأزهر ما أمرتك به في مدلهِ فعجّله وأنفذه. قال: وقرأ الشعبانيّ الكتاب فقال: تدري مَن مدلّه؟ قلت: لا، قال: هو والله عبدالله بن حسن، فانظر ما هو صانع. قال: فلم نلبث أن جاء أبو الأزهر، فجلس فقال: قد والله هلك عبدالله بن حسن، ثم لبث قليلاً ثم دخل وخرج مكتئباً، فقال: أخبرني عن عليّ بن حسن، أيُّ رجل هو؟ قلت: أمصدَّقٌ

أنا عندك؟ قال: نعم، وفوق ذلك؛ قال: قلت: هو والله خير من تقلّه هذه وتظلّه هذه! قال: فقد والله ذهب.

قال: وحدّثني محمد بن إسماعيل، قال: سمعتُ جدّي موسى بن عبدالله يقول: ما كنّا نعرف أوقاتَ الصلاة في الحبس إلا بأحزاب كان يقرؤها عليّ بن حسن.

قال عمر: وحدّثني ابنُ عائشة، قال: سمعتُ مولًى لبني دارم، قال: قلت لبشير الرّحال ما يسرعك إلى الخروج علَى هذا الرجل؟ قال: إنه أرسل إليّ بعد أخذه عبدالله بن حسن فأتيتُه، فأمرني يوماً بدخول بيت فدخلته، فإذا بعبدالله بن حسن مقتولاً، فسقطت مغشيًّا عليَّ، فلما أفقت أعطيت الله عهداً ألّا يختلف في أمره سَيْفان إلا كنتُ مع الذي عليه منهما. وقلت للرسول الذي معي من قِبَله: لا تخبره بما لقيتَ؛ فإنه إن علم قتلني. قال عمر: فحدّثت به هشام بن إبراهيم بن هشام بن راشد من أهل هَمَذان. وهو العباسيّ أن أبا جعفر أمر بقتله، فحلف بالله ما فعل ذلك؛ ولكنّه دسّ إليه مَن أخبره أن محمداً قد ظهرَ فقتِل، فانصدع قلبه، فمات.

قال: وحدّثني عيسى بن عبدالله، قال: قال مَن بقي منهم: إنهم كانوا يسقَوْن؛ فماتوا جميعاً إلا سليمان وعبدالله ابني داود بن حسن بن حسن وإسحاق وإسماعيل ابني إبراهيم بن حسن بن حسن، وجعفر بن حسن، فكان مَن قتل منهم إنما قتل بعد خروج محمد.

قال عيسى: فنظرتْ مولاةٌ لآل حسن إلى جعفر بن حسن، فقالت: بنفسي أبو جعفر! ما أبصره بالرجال حيث يطلِقك وقتل عبدالله بن حسن!

ذكر بقية الخبر عن الأحداث التي كانت في سنة أربع وأربعين ومائة

فمن ذلك ما كان من حمل أبي جعفر المنصور بني حسن بن حسن بن عليّ من المدينة إلى العراق.

ذكر الخبر عن سبب حمله إياهم إلى العراق

حدّثني الحارث بن محمد، قال: حدّثنا محمد بن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: لما ولّى أبو جعفر رياحَ بن عثمان بنَ حيّان المريّ المدينَة، أمره بالجِدّ في طلب محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن وقلة الغفلة عنهما.

قال محمد بن عمر: فأخبرني عبد الرحمن بن أبي الموالي؛ قال: فجدَّ رياح في طلبهما ولم يداهنْ، واشتدّ في ذلك كلّ الشدّة حتى خافا؛ وجعلا ينتقلان من موضع إلى موضع، واغتَمّ أبو جعفر من تبغّيهما؛ وكتب إلى رياح بن عثمان: أن يأخذ أباهما عبدالله بن حسن وإخوته: حسن بن حسن وداود بن حسن وإبراهيم بن حسن، ومحمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان - وهو أخوهم لأمهم فاطمة بنت حسين - في عدّة منهم، ويشدُّهم وَثاقاً، ويبعث بهم إليه حتى يوافوه بالرَّبَذة. وكان أبو جعفر قد حجّ تلك السنة وكتب إليه أن يأخذني معهم فيبعث بي إليه أيضاً. قال: فأدركتُ وقد أهللت بالحجّ، فأخِذْت فطرِحت في الحديد، وعورض بي الطريق حتى وافيتهم بالرَّبذة.

قال محمد بن عمر: أنا رأيتُ عبدالله بن حسن وأهلَ بيته يُخْرَجون من دار مَرْوان بعد العصْر وهم في الحديد؛ فيحملون في المحامل؛ ليس تحتهم وطاء؛ وأنا يومئذ قد راهقتُ الاحتلام، أحفظ ما أرى.

قال محمد بن عمر: قال عبد الرحمن بن أبي الموالي: وأخذ معهم نحو من أربعمائة، من جُهَينة ومُزينة وغيرهم من القبائل؛ فأراهم بالرَّبَذة مكتّفين في الشمس. قال: وسُجنت مع عبدالله بن حسن وأهل بيته. ووافى أبو جعفر الرّبذة منصرفاً من الحجّ، فسأل عبدالله بن حسن أبا جعفر أن يأذن له في الدّخول عليه، فأبى أبو جعفر؛ فلم يره حتى فارق الدنيا. قال: ثم دعاني أبو جعفر من بينهم، فأقعِدت حتى أدخلت ـ وعنده عيسى بن عليّ ـ فلما رآني عيسى، قال: نعم؛ هو هو يا أمير المؤمنين؛ وإنْ أنت شددتَ عليه أخبرك بمكانهم. فسلّمت، فقال أبو جعفر: لا سَلّم الله عليك! أين الفاسقان ابنا الفاسق، الكذابان ابنا الكذاب؟ قال: قلت: هل ينفعني الصدق يا أمير المؤمنين عندك؟ قال: وما ذاك؟ قال: امرأته طالق، وعليّ وعلى، إن كنت أعرف مكانهما! قال: فلم يقبل ذلك مني، وقال: السياط! وأقمت بين العُقابينْ، فضربني أربعمائة سوط؛ فما عقلت بها حتى رفع عني، ثم حُملت إلى أصحابي على تلك الحال، ثم بعث إلى الدّيبَاج محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفّان؛ وكانت ابنته تحت إبراهيم بن عبدالله بن حسن، فلما أدخِل عليه قال: أخبرْني عن الكذّابينْ ما فعلا؟ وأين هما؟ قال: والله يا أميرَ المؤمنين ما لي بهما علم، قال: لتَخبرنّي، قال: قد قلت لك وإني والله لصادق؛ ولقد كنت أعلم علمَهما قبل اليوم؛ وأما اليوم فمالي والله بهما علْم. قال: جَرّدوه، فجُرّد فضربه مائة سوط، وعليه جامعة حديد في يده إلى عنقه؛ فلمّا فرغ من ضربه أخرِج فألبس قميصاً له قُوهيًّا على الضرب، وأتيَ به إلينا؛ فوالله ما قدروا على نزع القميص من لُصوقه بالدم، حتى حلبوا عليه شاة، ثم انتزِع القميص ثم داووه. فقال أبو جعفر: احدروا بهم إلى العراق، فقدِم بنا إلى الهاشميّة، فحبِسنا بها؛ فكان أوّل من مات في الحبس عبدالله بن حسن؛ فجاء السجان فقال: ليخرج أقربُكم به فليصلّ عليه؛ فخرج أخوه حسن بن حسن بن حسن بن عليّ عليهم السلام، فصلّى عليه. ثم مات محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان. فأخِذ رأسه، فبعث به مع جماعة من الشّيعة إلى خراسان؛ فطافوا في كُورخراسان، وجعلوا يحلفون بالله أنّ هذا رأس محمد بن عبدالله بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ؛ يوهمون الناس أنه رأس محمد بن عبدالله بن حسن؛ الذي كانوا يجدون خروجه على أبي جعفر في الرواية.

وكان والي مكة في هذه السنة السريّ بن عبدالله، ووالي المدينة رباح بن عثمان المرّيّ، ووالي الكوفة عيسى بن موسى، ووالي البصرة سفيان بن معاوية.

وعلى قضائها سوّار بن عبدالله، وعلى مصر يزيد بن حاتم.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك خروج محمد بن عبدالله بن حسن بالمدينة، وخروج أخيه إبراهيم بن عبدالله بعده بالبَصْرة ومقتلهما.

ذكر الخبر عن مخرج محمد بن عبدالله ومقتله

ذكر عمر أنّ محمد بن يحيى حدّثه، قال: حدثني الحارث بن إسحاق، قال: لما انحدر أبو جعفر ببني حسن، رجع رياح إلى المدينة، فألحّ في الطلب، وأخْرج محمداً حتى عزم على الظهور.

قال عمر: فحُدّثت إبراهيم بن محمد بن عبدالله الجعفريّ أن محمداً أُخرِج، فخرج قبل وقته الذي فارق عليه أخاه إبراهيم، فأنكر ذلك، وقال: ما زال محمّد يُطلَب أشدّ الطلب حتى سقط ابنه فمات وحتى رهقه الطلب، فتدلَّى في بعض آبار المدينة يناول أصحابه الماء، وقد انغمس فيه إلى رأسه، وكان بدنه لا يخفى عِظَماً؛ ولكنّ إبراهيم تأخّر عن وقته لجُدَريٍّ أصابه.

قال: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني الحارث بن إسحاق، قال: تحدّث أهل المدينة بظهور محمد، فأسرعنا في شراء الطعام حتى باع بعضهم حليّ نسائه؛ وبلغ رياحاً أنّ محمداً أتى المذاد، فركب في جنده يريده وقد خرج قبلَه محمد يريده، ومعه جُبَير بن عبدالله السلَميّ وجُبَير بن عبدالله بن يعقوب بن عطاء وعبدالله بن عامر الأسلميّ؛ فسمعوا سقّاءةً تحدّث صاحبتها أنّ رياحاً قد ركب يطلب محمداً بالمَذاد، وأنه قد سار إلى السوق، فدخلوا داراً لجُهينة وأجافوا بابها عليهم، ومرّ رياح على الباب لا يعلم بهم، ثم رجع إلى دار مَرْوان؛ فلما حضرت العشاء الأخيرة صلى في الدار ولم يخرج.

وقيل: إنّ الذي أعلم رياحاً بمحمد سليمان بن عبدالله بن أبي سَبرة من بني عامر بن لؤيّ.

وذكر عن الفضل بن دُكين، قال: بلغني أنّ عبيدالله بن عمرو بن أبي ذُؤيب وعبد الحميد بن جعفر دخلوا على محمد قبل خروجه، فقالوا له: ما تنتظر بالخروج! والله ما نجد في هذه الأمة أحداً أشأم عليها منك. ما يمنعك أن تخرج وحدك!

قال: وحدّثني عيسى، قال: حدّثني أبي، قال: بعث إلينا رياح فأتيته أنا وجعفر بن محمد بن عليّ بن حسين، وحسين بن عليّ بن حسين بن عليّ، وعليّ بن عمر بن عليّ بن حسين بن عليّ، وحسن بن عليّ بن حسين بن عليّ بن حسين بن عليّ ورجال من قريش؛ منهم إسماعيل بن أيوب بن سلمة بن عبدالله بن

الوليد بن المغيرة، ومعه ابنه خالد، فإنّا لعنده في دار مَرْوان إذ سمعْنا التكبير قد حال دون كلّ شيء، فظنناه من عند الحَرس، وظنّ الحرَس أنه من الدار. قال: فوثب ابن مسلم بن عقبة ـ وكان مع رياح ـ فاتّكأ على سيفه، فقال: أطعني في هؤلاء فاضرب أعناقهم؛ فقال عليّ بن عمر: فكدنا والله تلك الليلة أن نطيح حتى قام حسين بن عليّ، فقال: والله ما ذاك لك؛ إنّا على السمع والطاعة. قال: وقام رياح ومحمد بن عبد العزيز، فدخلا جنبذاً في دار يزيد؛ فاختفيا فيه، وقمنا فخرجنا من دار عبد العزي بن مروان حتى تسوّرنا على كِباً كانت في زقاق عاصم بن عمرو، فقال إسماعيل بن أيوب لابنه خالد: يا بنيّ، والله ما تجيبني نفسي إلى الوثوب، فارفعني، فرفعه.

وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني عبد العزيز بن عمران، قال: حدّثني أبي قال: جاء الخبر إلى رياح وهو في دار مَرْوان أنّ محمداً لخارج الليلة، فأرسل إلى أخي محمد بن عمران وإلى العباس بن عبدالله بن الحارث بن العباس وإلى غير واحد. قال: فخرج أخي وخرجت معه؛ حتى دخلنا عليه بعد العشاء الآخرة، فسلمنا عليه فلم يردّ علينا، فجلسنا فقال أخي: كيف أمسى الأمير أصلحه الله! قال: بخير ـ بصوت ضعيف ـ قال: ثم صمت طويلاً ثم تنبّه، فقال: إيهاً يأهلَ المدينة! أميرُ المؤمنين يطلب بغيتَه في شرق الأرض وغربها؛ وهو ينتفق بين أظهركم! أقسم بالله لئن خرج لا أترك منكم أحداً إلا ضربت عنقه. فقال أخي: أصلحك الله! أنا عذيرك منه، هذا والله الباطل، قال: فأنت أكثر مَنْ ها هنا عشيرة؛ وأنت قاضي أمير المؤمنين، فادعُ عشيرتك. قال: فوثب أخي ليخرج، فقال: اجلس، اذهب أنت يا ثابت، فوثبتُ، فأرسلت إلى بني زُهرة ممن يسكن حَشّ طلحة ودار سعد ودار بني أزهر: أن أحضِروا سلاحكم. قال: فجاء منهم بِشر، وجاء إبراهيم بن يعقوب بن سعد بن أبي وقاص متنكباً قوساً ـ وكان من أرمى الناس ـ فلما رأيتُ كثرتهم، دخلت على رياح، فقلت: هذه بنو زهرة في السلاح يكونون معك، ائذن لهم. قال: هيهات! تريد أن تُدخل عليّ الرجال طروقاً في السلاح، قل لهم: فليجلسوا في الرحبة؛ فإن حدث شيء فليقاتلوا، قال: قلت لهم: قد أبى أن يأذن لكم، لا والله ما ها هنا شيء، فاجلسوا بنا نتحدّث.

قال: فمكثنا قليلاً، فخرج العباس بن عبدالله بن الحارثِ في خيل يعسُّ حتى جاء رأس الثنيَّة، ثم انصرف إلى منزله وأغلقه عليه؛ فوالله إنا لعلى تلك الحال إذْ طَلع فارسان من قبَل الزَّوْرَاء يركضان؛ حتى وقفا بين دار عبدالله بن مُطيع ورحبة القضاء في موضع السقاية. قال: قلنا: شرّ الأمر واللّهِ جدّ. قال: ثم سمعنا صوتاً بعيداً، فأقمنا ليلاً طويلاً، فأقبل محمد بن عبدالله من المذاد ومعه مائتان وخمسون رجلاً، حتى إذا شرع على بني سَلِمة وبُطْحَان، قال: اسلكوا بني سَلِمة إن شاء الله. قال: فسمعنا تكبيراً؛ ثم هدأ الصوت فأقبل حتى إذا خرج من زُقاق ابن حبين استبطن السوق حتى جاء على التَّمارين؛ حتى دخل من أصحاب الأقفاص، فأتى السجن وهو يومئذ في دار ابن هشام، فدّقه، وأخرج مَن كان فيه، ثم أقبل حتى إذا كان بين دار يزيد ودار أويس نظرنا إلى هَوْل من الهوْل.

قال: فنزل إبراهيم بن يعقوب، ونكب كنانته وقال: أرمي؟ فقلنا: لا تفعل، ودار محمد بالرحبة، حتى جاء بيت عاتكة بنت يزيد، فجلس على بابها، وتناوش الناس حتى قتِل رجل سنديّ كان يستصبح في المسجد، قتله رجل من أصحاب محمد.

قال: وحدّثني سعيد بن عبد الحميد بن جعفر، أخبرني جهم بن عثمان، قال: خرج محمد من المذاد على حمار ونحن معه، فولّى خوّات بن بكير بن خوّات بن جبير الرّجالة، وولّى عبد الحميد بن جعفر الحربة، وقال: اكفنيها، فحملها ثم استعفاه منها فأعفاه؛ ووجّهه مع ابنه حسن بن محمد.

قال: وحدّثني عيسى، قال: حدّثني جعفر بن عبدالله بن يزيد بن رُكانة قال: بعث إبراهيم بن عبدالله إلى أخيه بحِمْلَيْ سيوف، فوضعها بالمذاد، فأرسل إلينا ليلة خرج: وما نكون؟ مائة رجل! وهو على حمار أعرابيّ أسود، فافترق طريقان: طريق بُطْحان وطريق بني سَلمة، فقلنا له: كيف نأخذ؟ قال: على بني سلِمة، يسملكم الله؛ قال: فجئنا حتى صرنا بباب مَرْوان.

قال: وحدّثني محمد بن عمرو بن رُتبيل بن نهشل أحد بني يربوع، عن أبي عمرو المدنيّ - شيخ من قريش - قال: أصابتْنا السماء بالمدينة أياماً، فلما أقلعت خرجتُ في غبّها متمطّراً، فانتسأت عن المدينة؛ فإنّي لفي رَحْلي إذ هبط عليّ رجل لا أدري من أين أتى، حتى جلس إليّ، وعليه أطمار له دَرِنة وعمامة رَثّة، فقلت له: مِنْ أين أقبلت؟ قال: من غُنَيمة لي أوصيتُ راعيتَها بحاجة لي، ثم أقبلت أريد أهلي. قال: فجعلت لا أسلك من العلم طريقاً إلا سبقني إليه وكثّرني فيه، فجعلت أعجب له ولما يأتي به، قلت: ممن الرجل؟ قال: من المسلمين، قلت: أجل، فمن أيهم أنت؟ قال: لا عليك؛ ألا تريد؟ قلت: بل عليّ ذلك؛ فمن أنت؟ قال: فوثب وقال:

منخرق الخُفَّيْن يشكو الوجى

الأبيات الثلاثة.

قال: ثم أدبر فذهب؛ فوالله ما فات مدَى بصري حتى ندمت على تركه قبل معرفته؛ فاتبعته لأسأله؛ فكأنّ الأرْض التأمت عليه، ثم رجعتُ إلى رَحْلي، ثم أتيت المدينة فما غبرت إلاّ يومي وليلتي؛ حتى شهدت صلاة الصبح بالمدينة، فإذا رجل يصلّي بنا، لأعرِف صوته، فقرأ: ﴿إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبيناً﴾[1]، فلما انصرف صعد المنبر، فإذا صاحبي، وإذا هو محمد بن عبدالله بن حسن.

قال: وحدّثني إسماعيل بن إبراهيم بن هود مولى قريش، قال: سمعت إسماعيل بن الحكم بن عوانة يخبر عن رجل قد سمّاه بشبيهة بهذه القصة. قال إسماعيل: فحدّثت بها رجلاً من الأنبار يكنى أبا عبيد؛ فذكر أن محمداً - وإبراهيم - وجّه رجلاً من بني ضَبة - فيما يحسب إسماعيل بن إبراهيم بن هود - ليعلم له بعض علم أبي جعفر، فأتى الرّجلُ المسيّبَ وهو يومئذ على الشُّرَط، فمتّ إليه برحِمه، فقال المسيّب: إنه لا بدّ من رفعك إلى أمير المؤمنين. فأدخله على أبي جعفر فاعترف، فقال: ما سمعتَه يقول؟ قال:

شَرَّدَهُ الخَوْفُ فأزرى به ... كذاك من يكرهُ حَرّ الجلاد

قال أبو جعفر: فأبلغه أنا نقول:

وخُطَّةِ ذُلٍّ نجعلُ الموتَ دونها ... نقول لها للموت أهلا ومرحبَا

وقال: انطلق فأبلغه.

---

(١) سورة الفتح ١

قال عمر: وحدثني أزهر بن سعيد بن نافع ـ وقد شهد ذلك ـ قال: خرج محمد في أول يوم من رجب سنة خمس وأربعين ومائة، فبات بالمذاد هو وأصحابه، ثم أقبل في الليل، فدقّ السجن وبيت المال، وأمر برياح وابن مسلم فحُبِسا معاً في دار ابن هشام.

قال: وحدّثني يعقوب بن القاسم، قال: حدّثني عليّ بن أبي طالب، قال: خرج محمد لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة خمس وأربعين ومائة.

وحدّثني عمر بن راشد، قال: خرج لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة، فرأيت عليه ليلة خرج قَلَنْسُوة صفراء مضريّة وجبّة صفراء، وعمامة قد شدّ بها حَقْوَيْه وأخرى قد اعتمّ بها، متوشحاً سيفاً، فجعل يقول لأصحابه: لا تقتلوا، لا تقتلوا. فلما امتنعت منهم الدار، قال: ادخلوا مِن باب المقصورة، قال: فاقتحموا وحرّقوا باب الخَوخة التي فيها، فلم يستطع أحد أن يمرّ، فوضع رزام مولى القسريّ تُرسه على النار، ثم تخطّى عليه، فصنع الناس ما صنع، ودخلوا من بابها، وقد كان بعض أصحاب رياح مارسوا على الباب، وخرج مَن كان مع رياح في الدار من دار عبد العزيز من الحمام، وتعلّق رياح في مشرَبة في دار مَرْوان، فأمر بدرجها فهُدمت، فصعدوا إليه، فأنزلوه وحبسوه في دار مَرْوان، وحبسوا معه أخاه عباس بن عثمان. وكان محمد بن خالد وابن أخيه النذير بن يزيد ورزام في الحَبْس، فأخرجهم محمد، وأمر النذير بالاستيثاق من رياح وأصحابه.

قال: وحدّثني عيسى، قال: حدّثني أبي، قال: حبس محمد رياحاً وابن أخيه وابن مسلم بن عُقْبة في دار مروان.

قال: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني عبد العزيز بن أبي ثابت، عن خاله راشد بن حفص، قال: قال رزام للنذير: دَعْني وإياه فقد رأيتُ عذابَه إيايَ. قال: شأنك وإياه، ثم قام ليخرج، فقال له رياح: يا أبا قيس؛ قد كنتُ أفعل بكم ما كنت أفعل؛ وأنا بسؤددكم عالم. فقال له النذير: فعلتَ ما كنت أهله، ونفعل ما نحن أهله، وتناوله رزام فلم يزل به رياح يطلب إليه حتى كفّ، وقال: والله إن كنتَ لبَطِراً عند القدرة، لئيماً عند البلية.

قال: وحدّثني موسى بن سعيد الجُمحيّ، قال: حبس رياح محمد بن مَرْوان بن أبي سليط من الأنصار، ثم أحد بني عمرو بن عوف، فمدحه وهو محبوس، فقال:

ومـا نَـسِـيَ الـذِّمـامَ كـريـمُ قـيـس	ولا مُلقَى الـرجـالِ إلى الـرجـالِ
إذا مـا الـبـاب قَـعْـقَـعَـةٌ سـعـيـدٌ	هَـدَجـنـا نـحـوه هَـدْجَ الـرِّئـال
دبـيـبَ الـذَّر تُـصْـبـحُ حـين يـمـشي	قِصـارَ الخـطو غيـرَ ذوي اختيـال

قال: حدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني إسماعيل بن يعقوب التيميّ قال: صعد محمد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد أيها الناس؛ فإنه كان من أمر هذا الطاغية عدوّ الله أبي جعفر ما لم يخفَ عليكم؛ من بنائه القبّة الخضراء التي بناها معانداً لله في ملكه، وتصغيراً للكعبة الحرام؛ وإنما أخذ الله فرعون حين قال: ﴿أَنا ربُّكم الأعْلَى﴾[1] وإنّ أحقّ الناس بالقيام بهذ الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين. اللهمّ إنهم قد أحلّوا

---

(١) سورة النازعات ٢٤.

حرامَك، وحرّموا حلالك، وآمنوا من أخفت، وأخافوا من آمنت. اللهمّ فأحصهم عدداً، واقتلهم بدَداً، ولا تغادر منهم أحداً. أيّها الناس إني والله ما خرجت من بين أظهركم وأنتم عندي أهل قُوّة ولا شدّة. ولكني اخترتكم لنفسي؛ والله ما جئت هذه وفي الأرض مصرٌ يعبَد الله فيه إلا وقد أخِذَ لي فيه البيْعة.

قال: وحدّثني موسى بن عبدالله، قال: حدّثني أبي عن أبيه، قال: لما وجّهني رياح بلغ محمداً فخرج من ليلته؛ وقد كان رياحٌ تقدّم إلى الأجناد الّذين معي، إن اطّلع عليهم من ناحية المدينة رجل أن يضربوا عنقي؛ فلما أُتِيَ محمد برياح، قال: أين موسى؟ قال: لا سبيل إليه، والله لقد حدرته إلى العراق. قال: فأرسل في أثره فردّه. قال: قد عهدت إلى الجند الذين معه إن رأوا أحداً مقبلاً من المدينة أن يقتلوه. قال: فقال محمد لأصحابه: مَنْ لي بموسى؟ فقال ابنُ خضير: أنا لك به. قال: فانظر رجالاً؛ فانتخب رجالاً ثم أقبل. قال: فوالله ما راعنا إلّا وهو بين أيدينا؛ كأنما أقبل من العراق، فلما نظر إليه الجند قالوا: رسل أمير المؤمنين، فلما خالطونا شَهروا السلاح، فأخذني القائد وأصحابه، وأناخ بي وأطلقني من وَثاقي، وشخص بي حتى أقدمني على محمد.

قال عمر: حدثني عليّ بن الجعد، قال: كان أبو جعفر يكتب إلى محمد عن ألسن قوّاده يدعونه إلى الظهور، ويخبرونه أنهم معه؛ فكان محمد يقول: لو التقينا مال إليّ القوّاد كلهم.

قال: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني الحارث بن إسحاق، قال: لما أخذ محمد المدينة استعمل عليها عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، وعلى قضائها عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله المخزوميّ، وعلى الشّرَط أبا القلمّس عثمان بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعلى ديوان العطاء عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المِسْوَر بن مخرمة، وبعث إلى محمد بن عبد العزيز: إني كنت لأظنك ستنصرنا، وتقيم معنا. فاعتذر إليه وقال: أفعل؛ ثم انسلّ منه فأتى مكة.

قال: وحدّثني إسماعيل بن إبراهيم بن هود، قال: حدّثني سعيد بن يحيى أبو سفيان الحميريّ، قال: حدّثني عبد الحميد بن جعفر قال: كنت على شُرَط محمد بن عبدالله حتى وجّهني وجهاً، وولي شرَطه الزبيريّ.

قال: وحدّثني أزهر بن سعيد بن نافع، قال: لم يتخلّف عن محمد أحد من وجوه الناس إلّا نفر؛ منهم الضحاك بن عثمان بن عبد الله بن خالد بن حزام وعبد الله بن المنذر بن المغيرة بن عبد الله بن خالد بن حزام، وأبو سلمة بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وخُبيب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير.

قال: وحدّثني يعقوب بن القاسم، قال: حدّثتني جدّتي كلثم بنت وهب، قالت: لما خرج محمد تنحّى أهلُ المدينة، فكان فيمن خرج زوجي عبد الوهاب بن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير إلى البَقيع، فأختبأت عند أسماء بنت حسن بن عبد الله بن عبد الله بن عباس. قالت: فكتب إليّ عبد الوهاب بأبيات قالها، فكتبت إليه:

رَحِمَ اللهُ شباباً قاتلوا يومَ الثنيَّهْ
قاتلوا عنه: بُنيّاتٌ وأحسابٌ نقيَّهْ
فرّ عنهُ الناسُ طُرّاً غيرَ خيلٍ أسديَّهْ

قالت: فزاد الناس:

قَتَلَ الرحمنُ عيسى قاتِلَ النفسِ الزَّكِيَّةْ

قال: وحدّثني سعيد بن عبد الحميد بن جعفر بن عبد الله بن الحكم بن سنان الحكميّ أخُو الأنصار، قال: أخبرني غير واحد أنّ مالك بن أنس استُفتي في الخروج مع محمد، وقيل له: إنّ في أعناقنا بيعةً لأبي جعفر، فقال: إنما بايعتم مكرهين، وليس على كل مكرَه يمين. فأسرع الناس إلى محمد، ولزم مالك بيته.

وحدّثني محمد بن إسماعيل، قال: حدّثني ابنُ أبي مليكة مولَى عبد الله بن جعفر، قال: أرسل محمد إلى إسماعيل بن عبد الله بن جعفر - وقد كان بلغ عُمْراً - فدعاه محمد حين خرج إلى البيعة، فقال: يابن أخي، أنت والله مقتول، فكيف أبايعك! فارتدع الناس عنه قليلا، وكان بنو معاوية قد أسرعوا إلى محمد، فأتته حمادة بنت معاوية، فقالت: يا عمّ، إن إخوتي قد أسرعوا إلى ابن خالهم، وإنك إن قلت هذه المقالة ثبّطت عنه الناس، فيقتل ابن خالي وإخوتي. قال: فأبى الشيخ إلاّ النهي عنه؛ فيقال: إنّ حمّادة عدتْ عليه فقتلته؛ فأراد محمد الصلاة عليه، فوثب عليه عبد الله بن إسماعيل، فقال: تأمر بقتل أبي ثم تصلي عليه! فنحّاه الحرس، وصلى عليه محمد.

قال: وحدّثني عيسى، قال: حدثني أبي، قال: أُتيَ محمد بعبيد الله بن الحسين بن عليّ بن الحسين بن عليّ مغمضاً عينيه، فقال: إن عليّ يميناً إن رأيته لأقتلنّه. فقال عيسى بن زيد: دعني أضرب عنقه، فكفّه عنه محمد.

قال: وحدّثني أيوب بن عمر، قال: حدّثني محمد بن معن، قال: حدّثني محمد بن خالد القَسْريّ، قال: لما ظهر محمد وأنا في حَبْس ابن حيّان أطلقني؛ فلما سمعت دعوته التي دعا إليها على المنبر، قلت: هذه دعوة حقّ؛ والله لأبلِينّ الله فيها بلاء حسناً، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنك قد خرجت في هذا البلد؛ والله لو وُقف على نَقْب من أنقابه مات أهلُه جوعاً وعطشاً؛ فانهض معي؛ فإنما هي عشر حتّى أضربه بمائة ألف سيف. فأبى عليّ؛ فإني لعنده يوماً إذ قال لي: ما وجدنا من حُرّ المتاع شيئاً أجودَ من شيء وجدناه عند ابن أبي فَرْوة، خَتَن أبي الخطيب - وكان انتهبَه - قال: فقلت: ألا أراك قد أبصرتَ حُرّ المتاع! فكتبتُ إلى أمير المؤمنين فأخبرته بقلة مَنْ معه، فعطف عليّ،فحبسني حتى أطلقني عيسى بن موسى بعد قتله إياه.

قال: وحدّثني سعيد بن عبد الحميد بن جعفر، قال: حدثتني أختي بُريكةُ بنت عبد الحميد، عن أبيها، قال: إني لعند محمد يوماً ورجله في حِجْري؛ إذ دخل عليه خَوّات بن بكير بن خوّات بن جُبير، فسلم عليه، فردّ عليه سلاماً ليس بالقويّ، ثم دخل عليه شابٌّ من قريش، فسلّم عليه فأحسن الردّ عليه، فقلت: ما تدع عصبيّتك بعد! قال: وما ذلك؟ قلت: دخل عليك سيد الأنصار فسلم فرددت عليه ردّاً ضعيفاً، ودخل عليك صُعلوك من صعاليك قريش فسلّم فاحتفلت في الردّ عليه! فقال: ما فعلتُ ذاك؛ ولكنّك تفقدتَ مني ما لا يتفقد أحد من أحد.

قال: وحدّثني عبد الله بن إسحاق بن القاسم، قال: استعمل محمد الحسنَ بن معاوية بن عبد الله بن جعفر على مكة، ووجّه معه القاسم بن إسحاق واستعمله على اليمن.

قال: وحدثني محمد بن إسماعيل عن أهله، أن محمداً استعمل القاسم بن إسحاق على اليمن وموسى بن

عبد الله على الشأم، يدعوان إليه؛ فقُتل قبل أن يصلا.

قال: وحدّثني أزهر بن سعيد، قال: استعمل محمد حين ظهر عبد العزيز بن الدراورديّ على السلاح.

قال: وأخبرني محمد بن يحيى ومحمد بن الحسن بن زَبَالة وغيرهما، قالوا: لما ظهر محمد، قال ابن هَرْمة - وقد أنشد بعضهم ما لم ينشد غيرُه لأبي جعفر:

غلبتَ على الخلافة مَن تمنَّى ... ومنَّاه المُضِلُّ بها الضَّلُولُ
فأهلك نفسَه سَفَهاً وجُبْناً ... ولم يُقسَمْ له منها قتيلُ
ووازَرَهُ ذَوُو طَمَعٍ فكانوا ... غُثاءَ السَّيْلِ يجمعه السُّيولُ
دَعَوا إبليسَ إذ كذبوا وجارُوا ... فلم يُصْرِخْهمُ المُغْوِي الخَذول
وكانوا أهلَ طاعتِهِ فولَّى ... وسار وراءَه منهم قبيل
وهُمْ لم يُقصِرُوا فيها بحقّ ... على أثَرِ المُضِلِّ ولم يُطِيلوا
وما الناسُ احْتَبَوْك بها ولكن ... حَبَاك بذلك الملك الجليلُ
تراثُ محمد لكمُ وكنتمْ ... أصولَ الحقِّ إذ نُفِيَ الأُصولُ

قال: وحدّثني محمود بن مَعْمر بن أبي الشدائد الفزاريّ وموهوب بن رشيد بن حيّان الكلابيّ، قال: قال أبو الشدائد لما ظهر محمد وتوجّه إليه عيسى:

أتتك النجائبُ والمُقْرَباتُ ... بعيسى بن موسى فلا تَعْجَلِ

قال: وحدّثني عيسى، قال: كان محمد آدم شديد الأدْمة، أدلم جسيماً عظيماً؛ وكان يلقب القاريّ من أدمْته، حتى كان أبو جعفر يدعوه محمّماً.

قال: وحدّثني عيسى، قال: حدّثني إبراهيم بن زياد بن عنبسة، قال: ما رأيتُ محمداً رَقِيَ المنبر قطّ إلا سمعت بقعقعة من تحته؛ وإني لبمكاني ذلك.

قال: وحدّثني عبد الله بن عمر بن حبيب، قال: حدثني من حضر محمداً على المنبر يخطب؛ فاعترض بَلْغَم في حلقه فتنحنح، فذهب ثم عاد فتنحنح، فذهب ثم عاد فتنحنح، ثم عاد فتنحنح ثم نظر فلم ير موضعاً؛ فرمى بنُخامته سَقْف المسجد فألصقها به.

قال: وحدّثني عبد الله بن نافع، قال: حدّثني إبراهيم بن عليّ من آل أبي رافع، قال: كان محمد تمتاماً، فرأيته على المنبر يتلجلج الكلام في صدره، فيضرب بيده على صَدْره، ويستخرج الكلام.

قال: وحدثني عيسى، قال: حدّثني أبي، قال: دخل عيسى بن موسى يوماً على أبي جعفر، فقال: سرّك الله يا أمير المؤمنين! قال: فيم؟ قال: ابتعتُ وجه دار عبد الله بن جعفر من بني معاوية؛ حسن ويزيد وصالح، قال أتفرح! أما والله ما باعوها إلّا ليثبوا عليك بثمنها.

قال: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني عبد العزيز بن عمران عن محمد بن عبد العزيز عن عبد الله بن الربيع بن عبيد الله بن عبد المدان بن عبيد الله، قال: خرج محمّد بالمدينة، وقد خطّ المنصور مدينته بغداد بالقصب، فسار إلى الكوفة وسرتُ معه، فصيَّح بي فلحقتُه، فصَمتَ طويلاً ثم قال: يابن الربيع، خرج

محمد، قلت: أين؟ قال؛ بالمدينة، قلت: هلك والله وأهلك؛ خرج والله في غير عـدد ولا رجال يـا أميرَ المؤمنين؛ ألا أحدّثك حديثاً حدّثنيه سعيد بن عمرو بن جعدة المخزوميّ؟ قال: كنت مع مَرْوان يوم الزّاب واقفاً، فقال: يا سعيد، مَن هذا الذي يقاتلني في هذه الخيل؟ قلتُ: عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن عباس، قال: أيّهم هو؟ عَرِّفْه، قلت: نعم، رجل أصفر حَسَن الـوجه رقيق الـذراعين، رجـل دخل عليـك يشتم عبد الله بن معاوية حين هزم؛ قال: قد عرفته، والله لوددت أن عليّ بن أبي طالب يقاتلني مكانه؛ إن عليا وولده لا حظّ لهم في هذا الأمر؛ وهذا رجل من بني هاشم وابن عمّ رسول الله ﷺ وابن عباس، معه ريح الشأم ونصر الشأم. يابن جعدة، تدري ما حملني على أن عقدتُ لعبد الله وعبيد الله ابني مروان، وتركتُ عبدَ الملك وهو أكبر من عبيد الله؟ قلتُ: لا، قال: وجدتُ الذي يلي هذا الأمر عبد الله؛ وكان عبيد الله أقربَ إلى عـبدالله من عبد الملك؛ فعقدتُ له. فقال: أنشدك الله! أحدّثك هذا ابن جعدة! قلت: ابنةُ سفيان بن معاوية طالق البتّة إن لم يكن حدثني ما حدثتك.

قال عمر: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني الحارث بن إسحاق، قال: خرج إلى أبي جعفر في الليلة التي ظهر فيها محمد رجل من آل أويس بن أبي سَرْح من بني عامر بن لؤيّ، فسار تسعاً من المدينة، فقدم ليلاً، فقام على أبواب المدينة، فصاح حتى نُذِر به، فأدخِل، فقال له الربيع: ما حاجتك هذه الساعة وأمير المؤمنين نائم! قال: لا بدّ لي منه، قال: أعلِمنا نُعلمْه، فأبى، فدخل الرّبيع عليه فأعلَمه، فقال: سلْه عن حاجته ثم أعلمني؛ قال: قد أبى الرّجُل إلا مشافهتك. فأذن له، فدخل عليه، فقال: يا أميرَ المؤمنين، خرج محمد بن عبد الله بالمدينة، قال: قتلتَه والله إن كنت صادقاً! أخبرني مَنْ معه؟ فسمّى له مَن خرج معه من وجوه أهل المدينة وأهل بيته، قال: أنتَ رأيتَه وعاينتَه؟ قال: أنا رأيته وعاينته وكلمتُه على منبر رسول الله ﷺ جالساً. فأدخله أبو جعفر بيتاً، فلما أصبح جاءه رسول لسعيد بن دينار؛ غلام عيسى بن موسى كان يلي أموال عيسى بالمدينة، فأخبره بأمر محمد، وتواترت عليه أخباره، فأخرج الأويسيّ فقال: لأوطئنّ الرجال عَقِبيك ولأغنينّك؛ وأمر له بتسعة آلاف، لكلّ ليلة سارَها ألفاً.

قال: وحدّثني ابن أبي حرب، قال: لما بلغ أبا جعفر ظهورُه أشفق منه؛ فجعل الحارث المنجّم يقول له: يا أميرَ المؤمنين، ما يجزعك منه! فوالله لو ملك الأرض ما لبث إلا تسعين يوماً.

قال: وحدّثني سهيل بن عقيل بن إسماعيل، عن أبيه، قال: لما بلغ أبا جعفر خبره بادر إلى الكوفة، وقال: أنا أبو جعفر؛ استخرجت الثعلب من جُحْره.

قال: وحدّثني عبد الملك بن سليمان، عن حبيب بن مرزوق، قال وحدّثني تسنيم بن الحـواريّ، قال: لما ظهر محمد وإبراهيم ابنا عبد الله، أرسل أبو جعفر إلى عبد الله بن عليّ وهو محبوس عنده: إنّ هذا الرجل قد خرج؛ فإن كان عندك رأي فأشِرْ به علينا ـ وكان ذا رأي عندهم ـ فقال: إنّ المحبوس محبوس الرأي، فأخرجني حتى يخرج رأيي؛ فأرسل إليه أبو جعفر: لو جاءني حتى يضرب بابي ما أخرجتك؛ وأنا خير لك منه، وهو مُلْك أهل بيتك. فأرسل إليه عبد الله: ارتحل الساعة حتى تأتيَ الكوفة، فاجثم على أكبادهم؛ فإنهم شيعة أهل هذا البيت وأنصارهم، ثم احففْها بالمسالح؛ فمن خرج منها إلى وَجْه من الوجوه أو أتاها من وجه من الوجوه فاضرب عنقه؛ وابعث إلى سَلْم بن قتيبة ينحدر عليك ـ وكان بالرّيّ ـ واكتب إلى أهل الشأم فمرهم أن

يحملوا إليك من أهل البأس والنجدة ما يحمل البريد، فأحسِنْ جوائزهم، ووجّههم مع سلْم. ففعل.

قال: وحدّثني العباس بن سفيان بن يحيى بن زياد، قال: سمعتُ أشياخنا يقولون: لما ظهر محمد ظهر وعبد الله بن عليّ محبوس، فقال أبو جعفر لإخوته: إن هذا الأحمق لا يزال يطلع له الرأي الجيّد في الحرب؛ فادخلوا عليه فشاوروه ولا تُعلموه أني أمرتكم. فدخلوا عليه، فلما رآهم قال: لأمر ما جئتم؛ ما جاء بكم جميعاً وقد هجرتموني منذ دَهْر! قالوا: استأذنّا أميرَ المؤمنين فأذن لنا، قال: ليس هذا بشيء؛ فما الخبر؟ قالوا: خرج ابن عبد الله، قال: فما ترون ابن سلامة صانعاً؟ يعني أبا جعفر - قالوا: لا ندري والله، قال: إنّ البُخل قد قتله، فمروه فليُخرج الأموال، فليُعْط الأجناد، فإن غلب فما أوشك أن يعود إليه مالُه، وإن غُلب لم يقدم صاحبُه على درهم واحد.

قال: وحدّثنا عبد الملك بن شيبان، قال: أخبرني زيد مولى مسمع بن عبد الملك، قال: لما ظهر محمد دعا أبو جعفر عيسى بن موسى، فقال له: قد ظهر محمد فسرْ إليه، قال: يا أمير المؤمنين؛ هؤلاء عمومتك حولك، فادْعهُم فشاورهم، قال: فأين قول ابن هَرْمة:

تـرَوْن امْـرَأً لا يُمْحِض القـومَ سِـرّهُ ... ولا يَنتَجِي الأُدْنَـيْن فيـما يحـاولُ
إذا مـا أتى شيئاً مضى كـالـذي أَبَى ... وإن قـال إني فـاعِـلٌ فهـو فـاعِـلُ

قال: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: نسختُ هذه الرسائل من محمد بن بشير؛ وكان بشير يصححها؛ وحدّثنيها أبو عبد الرحمن من كُتّاب أهل العراق والحكم بن صدقة بن نزار، وسمعت ابن أبي حرب يصحّحها؛ ويزعم أن رسالة محمد لما وردتْ على أبي جعفر، قال أبو أيوب: دعني أجبْه عليها، فقال أبو جعفر: لا بل أنا أجيبه عنها؛ إذ تقارعنا على الأحساب فدعني وإيّاه.

قالوا: لما بلغ أبا جعفر المنصور ظهورُ محمد بن عبد الله المدينة كتب إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين، إلى محمد بن عبد الله: ﴿ إنَّما جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَساداً أن يُقتَّلوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقطَّع أيديهِمْ وأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا من الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزيٌ فِي الدُّنْيا ولَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ الله غَفُورٌ رَحِيم ﴾ [1] ولك عليّ عهد الله وميثاقه وذمّته وذِمّةُ رسول الله ﷺ إنْ تبتَ ورجَعْت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك وجميعَ ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومَن اتّبعكم على دمائكم وأموالكم، وأسوّغك ما أصبت من دم أو مال، وأعطيك ألف ألف درهم، وما سألت من الحوائج، وأنزِلَك من البلاد حيث شئتَ، وأن أطلق مَنْ في حبسي من أهل بيتك، وأن أؤمّن كلّ مَنْ جاءك وبايعك واتبعك، أو دخل معك في شيء من أمرك، ثم لا أتبع أحداً منهم بشيء كان منه أبداً. فإن أردت أن تتوثّق لنفسك، فوجّه إليّ مَنْ أحببتَ يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثق به.

وكتب على العنوان: من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله.

فكتب إليه محمد بن عبد الله:

---

(١) سورة المائدة ٢٣ - ٣٤.

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله المهديّ محمد بن عبد الله إلى عبد الله بن محمد: ﴿ طَسٓمٓ * تِلْكَ آياتُ الكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَونَ بِالحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَونَ عَلَا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَونَ وَهَامَانَ وَجُنودَهما مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [١]. وأنا أعرضُ عليك من الأمان مثلَ الذي عرضْتَ عليّ، فإنّ الحقّ حقُّنا؛ وإنما ادّعيتم هذا الأمر بنا، وخرجتم له بشيعتنا، وحظيتم بفضلنا؛ وإنّ أبانا عليّا كان الوصيّ وكان الإمام؛ فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء! ثم قد علمتَ أنه لم يطلب هذا الأمر أحدٌ له مثل نسبِنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا؛ لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء، وليس يمتّ أحدٌ من بني هاشم بمثل الذي نمتُّ به من القرابة والسابقة والفضل؛ وإنا بنو أمّ رسول الله ﷺ فاطمة بنت عمرو في الجاهليّة وبنو بنته فاطمة في الإسلام دونكم. إن الله اختارنا واختار لنا؛ فوالدنا من النبيين محمد ﷺ، ومن السلف أوّلهم إسلاما عليّ، ومن الأزواج أفضلهنّ خديجة الطاهرة، وأوّل مَنْ صلّى القبْلة، ومن البنات خيرهُنّ فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، ومن المولودين في الإسلام حسن وحسين سيّدا شباب أهل الجنة؛ وإنّ هاشماً ولد عليّاً مرتين؛ وإن عبد المطلب ولد حسناً مرتين وإن رسول الله ﷺ ولدني مرّتين من قِبل حسن وحسين؛ وإني أوسط بني هاشم نسباً، وأصرحُهم أباً، لم تعرّق فيّ العجم، ولم تنازع فيّ أمهاتُ الأولاد؛ فما زال الله يختارُ لي الآباء والأمهات في الجاهلية والإسلام حتى اختار لي في النار؛ فأنا ابن أرفع الناس درجةً في الجنة، وأهونهم عذاباً في النار، وأنا ابن خير الأخيار، وابن خير الأشرار، وابن خير أهل الجنة، وابن خير أهل النار. ولك الله عليّ إن دخلتَ في طاعتي، وأجبت دعوتي أن أؤمنّك على نفسك ومالك؛ وعلى كل أمر أحدثته؛ إلا حَدّاً من حدود الله أو حقّاً لمسلم أو معاهد؛ فقد علمتَ ما يلزمك من ذلك، وأنا أوْلى بالأمر منك وأوفى بالعهد؛ لأنك أعطيتَني من العهد والأمان ما أعطيته رجالاً قبلي؛ فأيّ الأمانات تعطيني! أمان ابن هبيرة، أم أمان عمّك عبد الله بن عليّ، أم أمان أبي مسلم!

فكتب إليه أبو جعفر:

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعدُ، فقد بلغني كلامُك، وقرأتُ كتابَك، فإذا جلُّ فخرك بقرابة النساء؛ لتضلَّ به الجُفاة والغوغاء؛ ولم يجعل الله النساء كالعُمُومة والآباء، ولا كالعَصبة والأولياء؛ لأن الله جعل العمّ أباً، وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا. ولو كان اختيارُ الله لهنّ على قدر قرابتهنّ كانت آمنةُ أقربَهنَّ رحِماً، وأعظمهن حقّاً؛ وأوّل من يدخل الجنة غداً؛ ولكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضى منهم، واصطفائه لهم.

وأما ما ذكرت من فاطمة أمّ أبي طالب وولادتها؛ فإن الله لم يرزق أحداً من ولدها الإسلام لا بنتاً ولا ابناً؛ ولو أن أحداً رُزق الإسلام بالقرابة رُزقه عبد الله أوْلاهم بكلّ خير في الدنيا والآخرة؛ ولكنّ الأمر لله يختارُ لدينه من يشاء؛ قال الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [٢]؛ ولقد بعث الله محمداً عليه السلام وله عُمومة أربعة، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

---

(١) سورة القصص: ١ ـ ٥.

(٢)) سورة القصص ٥٦.

الأَقْرَبِينَ ﴾ (١). فأنذرهم ودعاهم، فأجاب اثنان أحدهما أبي، وأبى اثنان أحدهما أبوك؛ فقطع الله ولايتهما منه؛ ولم يجعل بينه وبينهما إلًّا ولَا ذِمّةً ولا ميراثاً. وزعمتَ أنك ابن أخفّ أهل النار عذاباً وابن خير الأشرار؛ وليس في الكفر بالله صغير، ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير؛ وليس في الشرّ خيار؛ ولا ينبغي لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار، وستردُ فتعلم، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾(٢).

وأما ما فخرت به من فاطمة أمّ عليّ وأنّ هاشماً ولده مرتين، ومن فاطمة أمّ حسن، وأن عبد المطلب ولده مرتين؛ وأن النبي ﷺ ولدك مرتين؛ فخير الأوّلين والآخرين رسولُ الله ﷺ ولم يلده هاشم إلّا مرةً ولا عبد المطلب إلا مرّة.

وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسباً، وأصرحهم أمّاً وأباً؛ وأنه لم تلدك العجَمُ ولم تعرّق فيك أمّهاتُ الأولاد؛ فقد رأيتُك فخرجت على بني هاشم طرّاً؛ فانظر ويحك أين أنْتَ من الله غداً! فإنك قد تعدّيتَ طَوْرك، وفخرت على مَنْ هو خير منك نفساً وأباً وأولاً وآخراً، إبراهيم بن رسول الله ﷺ وعلى والد ولده؛ وما خيار بني أبيك خاصّة وأهل الفضل منهم إلّا بنو أمهات أولاد، وما وُلد فيكم بعد وفاة رسول الله ﷺ أفضلُ من عليّ بن حسين؛ وهو لأمّ ولد؛ ولهو خيرٌ من جدّك حسن بن حسن؛ وما كان فيكم بعده مثلُ ابنه محمد بن عليّ، وجدّتُه أمّ ولد؛ ولهو خيرٌ من أبيك، ولا مثْلُ ابنه جعفر وجدّته أمّ ولد؛ ولهو خيرٌ منك.

وأما قولك: إنكم بنو رسول الله ﷺ؛ فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾، (٣)ولكنكم بنو ابنته؛وإنها لقرابة قريبة؛ولكنها لا تحوز الميراث، ولا ترث الولاية، ولا تجوز لها الإمامة؛ فكيف تورَث بها! ولقد طلبها أبوك بكلّ وجه فأخرجها نهاراً، ومَرّضها سرّاً، ودفنها ليلاً؛ فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما؛ ولقد جاءت السنّة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أن الجدّ أبا الأم والخال والخالة لا يرثون.

وأما ما فخرت به من عليّ وسابقته، فقد حضرتْ رسولَ الله ﷺ الوفاةُ، فأمر غيرَه بالصّلاة، ثم أخذ الناس رجلاً بعد رجل فلم يأخذوه؛ وكان في الستّة فتركوه كلهم دفعاً له عنها، ولم يرَوا له حقّاً فيها؛ أما عبد الرحمن فقدّم عليه عثمان، وقُتِل عثمان وهو له متّهم، وقاتله طلحة والزبير، وأبى سعد بيعَته، وأغلق دونه بابه، ثم بايع معاويةَ بعده. ثم طلبها بكلّ وجه وقاتل عليها، وتفرّق عنه أصحابه، وشكّ فيه شيعتُه قبل الحكومة، ثم حكّم حكَمين رضي بهما، وأعطاهما عهده وميثاقه، فاجتمعا على خلعه. ثم كان حسن فباعها من معاوية بخرَق ودراهم ولحق بالحجاز؛ وأسلم شيعته بيد معاوية ودفع الأمر إلى غير أهله؛ وأخذ مالاً من غير ولائه ولا حِلّه؛ فإنْ كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه. ثم خرج عمّك حسين بن عليّ على ابن مَرْجانة، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه، وأتَوا برأسه إليه، ثم خرجتم على بني أميّة، فقتلوكم وصلّبوكم على جُذوع النخل، وأحرقوكم بالنيران، ونفوْكم من البلدان؛ حتى قُتِل يحيى بن زيد بخُراسان؛ وقتلوا رجالكم وأسروا الصِبْيَة والنساء، وحملوهم بلا وطاء في المحافل كالسّبْي المجلوب إلى الشأم؛ حتى خرجنا

(١) سورة الشعراء ٢١٤.

(٢) سورة الشعراء ٢٢٧.

(٣) سورة الأحزاب ٤٠.

عليهم فطلبنا بثأركم، وأدركنا بدمائكم وأورثناكم أرضهم وديارهم، وسنّينا سلفكم وفضّلناه، فاتخذتَ ذلك علينا حجة.

وظننت أنا إنما ذكرنا أباك وفضّلناه للتقدمة منّا له على حمزة والعباس وجعفر؛ وليس ذلك كما ظننت؛ ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين، متسلَّماً منهم، مجتمَعاً عليهم بالفضل، وابتُلي أبوك بالقتال والحرب؛ وكانت بنو أميّة تلعنه كما تلعن الكفَرة في الصلاة المكتوبة، فاحتججنا له، وذكّرناهم فضله، وعنّفناهم وظلّمناهم بما نالوا منه. ولقد علمتَ أن مكرُمتنا في الجاهلية سقايةُ الحجيج الأعظم، وولاية زمزم؛ فصارت للعباس من بين إخوته؛ فنازعَنا فيها أبوك، فقضى لنا عليه عمر، فلم نزل نليها في الجاهلية والإسلام؛ ولقد قحط أهلُ المدينة فلم يتوسل عمر إلى ربّه ولم يتقرّب إليه إلا بأبينا، حتى نعَشهم الله وسقاهم الغيث، وأبوك حاضرٌ لم يتوسّل به؛ ولقد علمت أنه لم يبق أحدٌ من بني عبد المطلب بعد النبيّ ﷺ غيرُه؛ فكان وارثَه من عمومته، ثم طلب هذا الأمر غيرُ واحد من بني هاشم فلم يَنَلْه إلا ولدُه؛ فالسقايةُ سقايتُه وميراثُ النبيّ له، والخلافة في ولده، فلم يبق شَرَفٌ ولا فضل في جاهلية ولا إسلام في دنيا ولا آخرة إلّا والعباس وارثه ومورّثه.

وأما ما ذكرت من بَدْر؛ فإن الإسلام جاء والعباس يَمون أبا طالب وعياله، وينفق عليهم للأزمة التي أصابته؛ ولولا أنّ العباس أخرِج إلى بدر كارهاً لمات طالب وعَقِيل جوعاً، وللحساجفان عُتْبة وشيبة؛ ولكنه كان من المطعِمين، فأذهب عنكم العار والسبَّة، وكفاكم النَّفقة والمؤونة، ثم فدى عَقِيلا يوم بَدْر؛ فكيف تفخر علينا وقد عُلْناكم في الكفر. وفديناكم من الأسر، وحُزْنا عليكم مكارم الآباء، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء، وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه؛ ولم تدركوا لأنفسكم! والسلام عليك ورحمة الله.

قال عمر بن شبّة: حدثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني الحارث بن إسحاق، قال: أجمع ابن القسريّ على الغدر بمحمد، فقال له: يا أمير المؤمنين، ابعث موسى بن عبد الله ومعه رزاما مولايَ إلى الشأم يدعوان إليك. فبعثهما فخرج رزام بموسى إلى الشأم، وظهر محمد على أن القسريّ كتب إلى أبي جعفر في أمرِه، فحبسه في نفر ممن كان معه في دار ابن هشام التي في قبلة مصلى الجنائز - وهي اليوم لفرج الخصيّ - وورد رزام بموسى الشأم، ثم انسلّ منه، فذهب إلى أبي جعفر، فكتب موسى إلى محمد: إني أخبرك أني لقيت الشأم وأهله، فكان أحسنهم قولا الذي قال: والله لقد مللنا البلاء، وضقنا به ذرعاً؛ حتى ما فينا لهذا الأمر موضع، ولا لنا به حاجَة؛ ومنهم طائفة تحلف: لئن أصبحنا من ليلتنا أو مسّينا من غد ليرفعنّ أمرنا وليدلنّ علينا؛ فكتبت إليك وقد غيبت وجهي، وخفت على نفسي. قال الحارث: ويقال إنّ موسى ورزاما وعبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور توجهوا إلى الشأم في جماعة؛ فلما ساروا بتيْماء، تخلّف رزام ليشتري لهم زاداً، فركب إلى العراق، ورجع موسى وأصحابه إلى المدينة

قال: وحدّثني عيسى، قال: حدثني موسى بن عبد الله ببغداد ورزام معنا، قال: بعثني محمد ورزاما في رجال معنا إلى الشأم، لندعُوَ له؛ فإنا لبدَوْمَة الجندل؛ إذ أصابنا حرٌّ شديد؛ فنزلنا عن رواحلنا نغتسل في غدير، فاستلّ رزام سيفَه، ثم وقف على رأسي، وقال: يا موسى، أرأيتَ لو ضربتُ عنقك ثم مضيت برأسك إلى أبي جعفر؛ أيكون أحد عنده في منزلتي! قال: قلت لا تدع هزلَك يا أبا قيس! شمْ سيفك غفر الله لك. قال: فشام سيفه، فركبنا. قال عيسى: فرجع موسى قبل أن يصل إلى الشأم، فأتى البصرة هو وعثمان بن محمد، فدُلّ

عليهما، فأخذا.

قال: وحدّثني عبد الله بن نافع بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، قال: حدّثني أخي عبد الله بن نـافع الأكبر، قال: لما ظهر محمد لم يأته أبي نافع بن ثابت، فأرسل إليه، فأتاه وهو في دار مَـرْوان، فقال: يـا أبا عبد الله، لم أرك جئتنا! قال: ليس فيّ ما تريد، فألحّ عليه محمد؛ حتى قال: البس السلاحَ يتأسّ بك غيرك، فقال: أيها الرجل؛ إني والله ما أراك في شيء؛ خرجتَ في بلد ليس فيه مال ولا رجال ولا كُراع ولا سلاح؛ وما أنا بمهلك نفسي معك، ولا معين على دمي. قال: انصرفْ؛ فلا شيء فيك بعد هذا. قال: فمكث يختلف إلى المسجد إلى أن قُتِل محمد، فلم يصلّ في مسجد رسول الله ﷺ يوم قُتل إلا نافع وحدَه.

ووجّه محمد بن عبد الله لما ظهر ـ فيما ذكر عمر عن أزهر بن سعيد بن نافع ـ الحسن بن معاوية إلى مكة عاملاً عليها، ومعه العباس بن القاسم ـ رجل من آل أبي لهب ـ فلم يشعر بهم السريّ بن عبد الله حتى دنَوْا من مكة، فخرج إليهم، فقال له مولاه: ما رأيك؟ قد دنونا منهم، قال: انهزِموا على بركة الله، ومَوْعدكم بئر ميمون. فانهزموا؛ ودخلها الحسن بن معاوية. وخرج الحسين بن صَخْر ـ رجل من آل أوَيس ـ من ليلته، فسار إلى أبي جعفر تسعاً فأخبره فقال: «قد أنصف الْقَارة من رَاماها»، وأجازه بثلثمائة درهم.

قال: وحدّثني أيوب بن عمر، قال: حدّثني محمد بن صالح بن معاوية، قال: حدّثني أبي، قال: كنت عند محمد حين عقد للحسن بن معاوية على مكة، فقال له الحسن: أرأيت إن التحم القتال بيننا وبينهم، ما ترى في السريّ؟ قال: يا حسن، إن السريّ لم يزل مجتنباً لما كرهنا، كارهاً للذي صنع أبو جعفر؛ إن ظفرتَ به فلا تقتلْه؛ ولا تحركنّ له أهلا، ولا تأخذنّ له متاعا، وإن تنحّى فلا تطلبنّ له أثراً. قال: فقال له الحسن: يا أميرَ المؤمنين، ما كنت أحسبك تقول هذا في أحد من آل العباس، قال: بلى، إن السريّ لم يزل ساخطاً لما صنع أبو جعفر.

قال: وحدّثني عمر بن راشد مولى عَنْج، قال: كنت بمكة، فبعث إلينا محمد حين ظهر الحسن بن معاوية والقاسم بن إسحاق ومحمد بن عبد الله بن عنبسة يدعى أبا جبرة، أميرهم الحسن بن معاوية، فبعث إليهم السريّ بن عبد الله كاتبه مسكين بن هلال في ألف، ومولى له يدعى مسكين بن نافع في ألف، ورجلا من أهل مكة يقال له ابن فرس ـ وكان شجاعاً ـ في سبعمائة، وأعطاه خمسمائة دينار، فالتقوْا ببطن أذاخر بين الثنيّتيْن وهي الثنيّة التي تهبط على ذي طُوىً، منها هبط النبي ﷺ وأصحابه إلى مكة، وهي داخلة في الحَرم، فتراسلوا؛ فأرسل حسن إلى السريّ أن خلّ بيننا وبين مكة،ولا تُهرقوا الدماء في حرم الله. وحلف الرسولان للسريّ: ما جئناك حتى مات أبو جعفر. فقال لهما السريّ: وعليّ مثل ما حلفتما به؛ إن كانت مضت لي أربعة؛ منذ جاءني رسول من عند أمير المؤمنين، فانظروني أربع ليالي؛ فإني أنتظر رسولاً لي آخر، وعليّ ما يصلحكم، ويصلح دوابكم، فإن يكن ما تقولونه حقّا سلّمتها إليكم؛ وإن يكن باطلا أجاهدكم حتى تغلبوني أو أغلبكم؛ فأبى الحسن، وقال: لا نبرح حتى نناجزك، ومع الحسن سبعون رجلا وسبعة من الخيل، فلما دنوْا منه، قال لهم الحسن: لا يقدَمنّ أحد منكم حتى ينفخ في البوق؛ فإذا نفخ فلتكن حملتُكم حملة رجل واحد. فلما رهِقْناهم وخشي الحسن أن يغشاه وأصحابَه، ناداه: انفخ ويحك في البوق! ووثبوا وحملوا علينا حَمْلة رجل واحد. فانهزم أصحاب السريْ، وقتل منهم سبعة نفر. قال: واطلع عليهم بفرسان من أصحابه وهم من وراء الثنيّة في نفر من

قريش قد خرج بهم، وأخذ عليهم لينصُرُنّه، فلما رآهم القرشيّون قالوا: هؤلاء أصحابُك قد انهزموا، قال: لا تعجلوا، إلى أن طلعت الخيل والرجال في الجبال؛ فقيل له: ما بقي؟ فقال: انهزموا على بركة الله، فانهزموا حتى دخلوا دار الإمارة، وطرحوا أداة الحرْب، وتسوّروا على رجل من الجند يكنى أبا الرزام. فدخلوا بيته فكانوا فيه. ودخل الحسن بن معاوية المسجد، فخطب الناس ونعى إليهم أبا جعفر ودعا لمحمد.

قال: وحدّثني يعقوب بن القاسم، قال: حدّثني الغمر بن حمزة بن أبي رملة، مولى العباس بن عبد المطلب، قال: لما أخذ الحسن بن معاوية مكة، وفرّ السريّ بلغ الخبر أبا جعفر، فقال: لهفِي على ابن أبي العَضَل.

قال: وحدّثني ابن أبي مُساور بن عبد الله بن مساور مولى بني نائلة من بني عبد الله بن مُعيْص، قال: كنت بمكة مع السريّ بن عبد الله، فقدم عليه الحسنُ بن معاوية قبل مخرج محمد ـ والسريّ يومئذ بالطائف وخليفته بمكة ابن سُراقة من بني عديّ بن كعب ـ قال: فاستعدى عتبة بن أبي خداش اللّهْبيّ على الحسن بن معاوية في دَيْنٍ عليه فحبسه، فكتب له السريّ إلى ابن أبي خداش: أما بعد فقد أخطأتَ حظّك، وساء نظرك لنفسك حين تحبس ابنَ معاوية؛ وإنما أصبت المال من أخيه. وكتب إلى ابن سراقة يأمره بتخليته، وكتب إلى ابن معاوية يأمره بالمقام إلى أن يقدَم فيقضي عنه. قال: فلم يلبث أن ظهر محمد، فشخص إليه الحسن بن معاوية عاملاً على مكة، فقيل للسريّ: هذا ابن معاوية قد أقبل إليك، قال: كلّا ما يفعل وبلائي عنده [بلائي]، وكيف يخرج إليّ أهل المدينة! فوالله ما بها دار إلا وقد دخلها لي معروف، فقيل له: قد نزل فجاء. قال: فشخص إليه ابنُ جريج، فقال له: أيها الرجل، إنك والله ما أنتَ بواصل إلى مكة وقد اجتمع أهلُها مع السريّ، أتُراك قاهراً وغاصبها على دارها! قال: يابن الحائك، أبأهل مكة تخوّفني! والله ما أبيت إلا بها أو أموت دونها. ثم وثب في أصحابه، وأقبل إليه السريّ، فلقيه بفخّ، فضرب رجل من أصحاب الحسن مسْكين بن هلال كاتب السريّ على رأسه فشجّه، فانهزم السريّ وأصحابه، فدخلوا مكة، والتفّ أبو الرزام ـ رجل من بني عبد الدار ثم أحد آل شيبة ـ على السريّ، فواراه في بيته، ودخل الحسن مكة. ثم إن الحسن أقام بمكة يسيراً، ثم ورد كتاب محمد عليه يأمره باللحاق به.

وذكر عمر عن عبد الله بن إسحاق بن القاسم، قال: سمعتُ من لا أحصي من أصحابنا يذكر أنّ الحسن والقاسم لما أخذا مكة، تجهّزا وجمعا جمعاً كثيراً، ثم أقبلا يريدان محمداً ونُصرته على عيسى بن موسى؛ واستخلفا على مكة رجلاً من الأنصار؛ فلما كانا بقُدَيْد لقيهما قتْلُ محمد، فتفرّق الناس عنهما، وأخذ الحسن على بَسْقة ـ وهي حرّة في الرمل تدعى بَسْقة قُدَيد ـ فلحق بإبراهيم؛ فلم يزل مقيماً بالبصرة حتى قُتل إبراهيم. وخرج القاسم بن إسحاق يريد إبراهيم؛ فلما كان بيديع من أرض فَدَك، لقيه قتلُ إبراهيم، فرجع إلى المدينة، فلم يزل مختفياً حتى أخذت ابنة عبد الله بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن جعفر، زوجة عيسى بن موسى، له ولإخوته الأمان فظهر بنو معاوية، وظهر القاسم.

قال: وحدّثني عمر بن راشد مولى عنج، قال: لما ظهر الحسن بن معاوية على السريّ أقام قليلا حتى أتاه كتاب محمد يأمره بالشخوص إليه؛ ويخبره أن عيسى قد دنا من المدينة، ويستعجله بالقدوم. قال: فخرج من مكة يوم الأثنين في مطر شديد ـ زعموا أنه اليوم الذي قُتِل فيه محمد ـ فتلقّاه بريدٌ لعيسى بن موسى بأمَج ـ وهو ماء

لخزاعة بين عُفان وقُديد ـ بقتل محمد، فهرب وهرب أصحابه.

قال عمر: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني عبد العزيز بن أبي ثابت عن أبي سيار، قال: كنت حاجبَ محمد بن عبد الله، فجاءني راكبٌ من الليل، قال: قدمتُ من البصرة، وقد خرج بها إبراهيم، فأخذها. قال: فجئتُ دار مَرْوان، ثم جئت المنزل فيه محمد، فدققتُ الباب، فصاح بأعلى صوته: من هذا؟ قلت: أبو سيّار؛ قال: لا حول ولا قوّة إلا بالله؛ اللهم إني أعوذ بك من شرّ طوارق الليل؛ إلا طارق يطرق منك بخير قال: خيرا قلت: خير، قال: ما وراءك؟ قلت: أخذ إبراهيم البَصْرة ـ [قال]: وكان محمد إذا صلى المغرب والصبح صاح صائح: ادعوا الله لإخوانكم من أهل البصرة، وللحسن بن معاوية واستنصروه على عدوّكم.

قال: وحدّثني عيسى، قال: قدِم علينا رجل من أهل الشأم، فنزل دارنا ـ وكان يكنى أبا عمرو ـ فكان أبي يقول له: كيف ترى هذا الرجل؟ فيقول: حتى ألقاه فأسبُره ثم أخبرك. قال عيسى: فلقيه أبي بعد، فسأله فقال: هو والله الرجل كلّ الرجل؛ ولكن رأيتُ شحم ظهره ذراعاً، وليس هكذا يكون صاحبَ الحرب. قال: ثم بايعه بعد، وقاتل معه.

قال: وحدّثني عبد الله بن محمد بن سلْم ـ يدعَى ابنَ البواب مولًى المنصور ـ قال: كتب أبو جعفر إلى الأعمش كتاباً على لسان محمد، يدعو إلى نصرته، فلما قرأه قال: قد خَبرناكم يا بني هاشم؛ فإذا أنتم تحبّون الثريد: فلما رجع الرسول إلى أبي جعفر فأخبره، قال: أشهد أنّ هذا كلام الأعمش.

وحدّثني الحارث، قال: حدّثني ابنُ سعد، عن محمد بن عمر، قال: غلب محمد بن عبد الله على المدينة، فبلغنا ذلك، فخرجنا ونحن شباب؛ أنا يومئذ ابنُ خمس عشرة سنة، فانتهينا إليه؛ وهو قد اجتمع إليه الناس ينظرون إليه؛ ليس يُصَدّ عنه أحد؛ فدنوتُ حتى رأيته وتأملته؛ وهو على فَرَس، وعليه قميص أبيض محشوّ وعمامة بيضاء، وكان رجلاً أحزم؛ قد أثّر الجُدريّ في وجهه، ثم وجّه إلى مكة فأخِذت به، وبيّضوا؛ ووجّه أخاه إبراهيم بن عبد الله إلى البصرة، فأخذها وغلبها وبيّضوا معه.

رجع الحديث إلى حديث عمر. قال عمر: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني الحارث بن إسحاق، قال: ندَب أمير المؤمنين أبو جعفر عيسى بن موسى لقتال محمد، وقال: لا أبالي أيّهما قتل صاحبه، وضمّ إليه أربعة آلاف من الجُنْد، وبعث معه محمد بن أبي العباس أمير المؤمنين.

قال: وحدّثني عبد الملك بن شيبان. عن زيد مولى مسمع، قال: لما أمر أبو جعفر عيسى بن موسى بالشخوص، قال: شاوِرْ عمومتك، فقال له: امض أيها الرجل؛ فوالله ما يراد غيري وغيرك؛ وما هو إلاّ أن تشخص أو أشخص؛ قال: فسار حتى قدم علينا ونحن بالمدينة.

قال: وحدّثني عبد الملك بن شيبان، قال: دعا أبو جعفر بن حنظلة البَهرانيّ ـ وكان أبرصَ طُوالا، أعلم الناس بالحرب، وقد شهد مع مَرْوان حروبه ـ فقال: يا جعفر، قد ظهر محمد، فما عندك؟ قال: وأين ظهر؟ قال: بالمدينة، قال: فاحمد الله، ظهر حيث لا مالَ ولا رجال ولا سلاح ولا كُراع؛ ابعث مولًى لك تثق به فليسِرْ حتى ينزل بوادي القرى؛ فيمنعه مِيرة الشأم، فيموت مكانه جوعاً، ففعل.

قال: وحدّثني عبد الله بن راشد بن يزيد، قال: سمعتُ أصحابنا إسماعيل بن موسى وعيسى بن النّضر وغيرهما يذكرون أنّ أبا جعفر قدّم كَثير بن حُصَيْن العبديّ، فعسكر بفيد، وخندق عليه خندقاً؛ حتى قدم عليه عيسى بن موسى، فخرج به إلى المدينة. قال عبد الله: فأنا رأيتُ الخندق قائماً دهراً طويلاً، ثم عفا ودَرس.

قال: وحدّثني يعقوب بن القاسم، قال: حدّثني عليّ بن أبي طالب ـ ولقيته بصنعاء ـ قال: قال أبو جعفر لعيسى حين بعثه إلى محمد: عليك بأبي العسكر مسمع بن محمد بن شيبان بن مالك بن مسمع، فسرْ به مَعك؛ فإني قد رأيته منعَ سعيد بن عمرو بن جَعدَة بن هبيرة من أهل البصرة؛ وهم محلبون عليه؛ وهو يدعو إلى مَرْوان؛ وهو عند أبي العسكر يأكل المخّ بالطَّبرْزَد، فخرج به عيسى، فلما كان ببطن نخل، تخلّف هو والمسعوديّ بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود حتى قُتِل محمد، فبلغ ذلك أبا جعفر، فقال لعيسى بن موسى: ألَّا ضربت عنقه!

وحدّثني عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن عليّ بن أبي طالب، قال: أخبرني أبي، قال: قال أبو جعفر لعيسى بن موسى حين ودّعه: يا عيسى؛ إنّي أبعثك إلى ما بَيْن هذين ـ وأشار إلى جنبيه ـ فإن ظفرت بالرجل فشِمْ سيفك، وابذل الأمان؛ وإن تغيّب فضمنّهم إياه حتى يأتوك به، فإنهم يعرفون مذاهبه. قال: فلما دخلها عيسى فعل ذلك.

فحدّثني الحارث، قال: حدثنا ابن سعد، قال: قال محمد بن عمر: وجّه أبو جعفر إلى محمد بن عبد الله بالمدينة عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس، ووجّه معه محمد بن أبي العباس أمير المؤمنين وعدّةً من قُوّاد أهل خراسان وجندهم، وعلى مقدّمة عيسى بن موسى حُميد بن قحطبة الطائيّ، وجهّزهم بالخيل والبغال والسلاح والميرة، فلم ينزل، ووجّه مع عيسى بن موسى ابن أبي الكرام الجعفريّ؛ وكان في صحابة أبي جعفر؛ وكان مائلا إلى بني العباس، فوثق به أبو جعفر فوجّهه....

رجع الحديث إلى حديث عمر بن شبّة. قال عمر: وحدّثني عيسى، عن أبيه، قال: كتب أبو جعفر إلى عيسى بن موسى: مَنْ لقيَك من آل أبي طالب فاكتب إليّ باسمه، ومَنْ لم يلقك فاقبض ماله. قال: فقبض عين أبي زياد ـ وكان جعفر بن محمد تغيّب عنه ـ فلما قدم أبو جعفر كلمه جعفر، وقال: مالي، قال: قد قبضه مهدِيُّكم.

قال: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني الحارث بن إسحاق، قال: لما صار عيسى بفَيْد، كتب إلى رجال من أهل المدينة في خِرَقِ الحرير؛ منهم عبد العزيز بن المطّلب المخزوميّ وعبيد الله بن محمد بن صفوان الجمحيّ، فلما وردتْ كتبه المدينة ، تفرّق ناسٌ كثير عن محمد؛ منهم عبد العزيز بن المطلب؛ فأخِذ فرُدَّ، فأقام يسيراً؛ ثم خرج، فرُدّ مرّة أخرى؛ وكان أخوه عليّ بن المطلب من أشدّ الناس من محمد؛ فكلم محمّداً في أخيه حتى كفّه عنه.

قال: وحدّثني عيسى، قال: كتب عيسى بن موسى إلى أبي في حريرة صفراء جاء بها أعرابيٌّ بين خصافي نعله، قال عيسى: فرأيتُ الأعرابيَّ قاعداً في دارنا، وإني لصبيٌّ صغير؛ فدفعها إلى أبي فإذا فيها:

إن محمداً تعاطى ما ليس يعطيه الله، وتناول ما لم يُؤته الله، قال عزّ وجل في كتابه: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ المُلك تُؤْتِي المُلكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١). فعجّل التخلص وأقلّ التربُّص، وادعُ مَنْ أطاعك من قومك إلى الخروج معك.

قال: فخرج وخرج معه عمر بن محمد بن عمر، وأبو عَقِيل محمد بن عبد الله بن محمد بن عَقِيل، قال: ودعوا الأفطس حسن بن عليّ بن أبي طالب إلى الخروج معهم فأبَى، وثبت مع محمد؛ وذُكر خروجهم لمحمد فأرسل إلى ظَهْرهم فأخذه؛ فأتاه عمر بن محمد، فقال: أنت تدعو إلى العَدْل ونفْي الجور؛ فما بال إبلي تؤخذ! فإنما أعددتها لحجّ أو عُمْرة. قال: فدفعها إليه ـ فخرجوا من تحت ليلتهم؛ فلقوا عيسى على أربع ـ أو خمس ـ من المدينة.

قال: وحدّثني أيوب بن عمر بن أبي عمرو بن نعيم بن مهان، قال: كتب أبو جعفر إلى رجال من قريش وغيرهم كتباً، وأمر عيسى: إذا دنا من المدينة أن يبعث بها إليهم فلما دنا بعث بها إليهم؛ فأخذ حرسُ محمد الرسولَ والكتب، فوجد فيها كتاباً إلى إبراهيم بن طلحة بن عمر بن عبيد الله بن معمر وإلى جماعة من رؤساء قريش. فبعث محمد إلينا جميعاً ما خلا ابن عمر وأبا بكر بن سبْرة، فحُبِسنا في دار ابن هشام التي في المصلّى. قال أبي: وبعث إليّ وإلى أخي، فأتِيَ بنا فضُرِبنا ثلثمائة. قال: فقلت له وهو يضربني يقول: أردتَ أن تقتلني! تركتُك وأنت تستتر بحجر وبيت شعر؛ حتى إذا صارت المدينة في يدك، وغلُظ أمرك، قمتُ عليك فبِمَنْ أقوم! أبطاقتي، أم بمالي، أم بعشيرتي! قال: ثم أمر بنا إلى الحبس، وقُيّدنا بكُبول وسلاسل تبلغ ثمانين رطلا، قال: فدخل عليه محمد بن عجلان، فقال: إني ضربتُ هذين الرجلين ضربا فاحشاً، وقيّدتهما بما منعهما من الصلاة. قال: فلم يزالا محبوسيْن حتى قدم عيسى.

قال: وحدّثني محمد بن يحيى قال: حدّثني عبد العزيز بن أبي ثابت، عن عبد الحميد بن جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم، قال: إنا لعند محمد ليلة ـ وذلك عند دُنوّ عيسى من المدينة ـ إذ قال محمد: أشيروا عليّ في الخروج والمقام، قال: فاختلفوا. فأقبل عليّ فقال: أشرْ عليّ يا أبا جعفر، قلت: ألستَ تعلم أنك أقلّ بلاد الله فرساً وسلاحاً، وأضعفها رجالا؟ قال: بلى، قلت: تعلم أنك تقاتل أشدّ بلاد الله رجلاً وأكثرها مالا وسلاحا؟ قال: بلى، قلت: فالرأي أن تسير بمن معك حتى تأتي مصرَ، فوالله لا يردّك رادّ، فتقاتل الرّجل بمثل سلاحه وكُراعه ورجاله وماله. فصاح حُنين بن عبد الله: أعوذ بالله أن تخرج من المدينة! وحدّثه أن النبيّ ﷺ قال: « رأيتُني في درع حصينة فأوّلتُها المدينة ».

قال: وحدثني محمد بن إسماعيل بن جعفر، عن الثقة عنده، قال: أجاب محمداً لما ظهر أهلُ المدينة وأعراضها وقبائل من العرب؛ منهم جُهينة ومُزَينة وسُليم وبنو بكر وأسْلَم وغِفار؛ فكان يقدّم جُهينة؛ فغضبت من ذلك قبائل قيس.

قال محمد: فحدثني عبد الله بن معروف أحد بني رياح بن مالك بن عصيَّة بن خُفاف ـ وقد شهد ذاك ـ قال: جاءت محمدا بنو سُلَيم على رؤسائها، فقال متكلّمهم جابر بن أنس الرياحيّ: يا أميرَ المؤمنين؛ نحن أخوالُك وجيرانُك، وفينا السلاح والكُراع؛ والله لقد جاء الإسلام والخيْل في بني سليم أكثر منها بالحجاز؛ لقد بقي فينا منها ما إن بقي مثلُه عند عربيّ تسكن إليه البادية، فلا تخندق الخندق؛ فإن رسول الله خندق خندقه لما الله أعلم به، فإنك إن خندقتَه لم يحسن القتال رجّالة، ولم تُوَجّه لنا الخيل بين الأزقّة؛ وإن الذين يخندَق دونهم

(١) سورة آل عمران ٢٦.

هم الذين يقاتلون فيها ؛ وإن الذين يخندَق عليهم يحول الخندق دونهم . فقال أحد بني شجاع : خندقَ رسول الله فاقتدِ برأيه ؛ أو تريد أنتَ أن تَدَع رأي رسول الله ﷺ لرأيك! قال: إنه يابن شجاع ما شيء أثقل عليك وعلى أصحابك من لقائهم ؛ ولا شيء أحبّ إليّ وإلى أصحابي من مناجزتهم . فقال محمد : إنما اتّبعنا في الخندق أثر رسول الله ﷺ ، فلا يردّني عنه أحدٌ، فلست بتاركه .

قال: وحدّثني محمد بن يحيى، عن الحارث بن إسحاق، قال: لما تيقّن محمد أن عيسى قد أقبل حَفَر الخندق، خندق النبيّ ﷺ الذي كان حفره للأحزاب .

قال: وحدّثني سعيد بن عبد الحميد بن جعفر، قال: حدّثني محمد بن عِطيّة مولى المطلبيّين، قال: لما حفر الخندقَ ركب إليه وعليه قَباء أبيض ومِنطقة، وركب الناس معه ؛ فلما أتى الموضع نزل فيه ؛ بدأ هو فحفر بيده ؛ فأخرج لبنةً من خَنْدق النبيّ ﷺ ، فكبّر وكبّر الناس معه، وقالوا: أبشر بالنَّصْر ؛ هذا خندق جَدّك رسول الله ﷺ .

قال: وحدثني محمد بن الحسن بن زَبالة، قال: حدّثني مصعب بن عثمان بن مصعب بن عروة بن الزبير، قال: لما نزل عيسى الأعوَص رَقِيَ محمد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن عدوّ الله وعدوّكم عيسى بن موسى قد نزل الأعوص، وإن أحقّ الناس بالقيام بهذا الدين، أبناء المهاجرين الأوّلين والأنصار المواسين .

قال: وحدّثني إبراهيم بن أبي إسحاق العبسيّ - شيخ من غطفان - قال: أخبرني أبو عمرو مؤدب محمد بن عبد الرحمن بن سليمان، قال: سمعت الزبيريّ الذي قتله أبو جعفر - يعني عثمان بن محمد بن خالد - قال: اجتمع مع محمّد جمع لم أر مثله ولا أكثر منه ؛ إني لأحسب أنا قد كنا مائة ألف ؛ فلما قرب عيسى خَطَبَنا، فقال: يأيها الناس ؛ إنّ هذا الرجل قد قرُب منكم في عدد وعُدّة ؛ وقد حللتُكم من بيعتي ؛ فمن أحبّ المقام فليقم، ومن أحبّ الانصراف فلينصرف. فتسللوا حتى بقي في شِرْذمة ليست بالكثيرة .

قال: وحدّثني موهوب بن رشيد بن حيّان بن أبي سليمان بن سمعان ؛ أحد بني قَريط بن عبدالله بن أبي بكر بن كلاب، قال: حدّثني أبي، قال: لما ظهر محمّد جمع الناس وحشرهم، وأخذ عليهم المناقب فلا يخرج أحد؛ فلما سمع بعيسى وحُميد بن قحطبة قد أقبلا، صعِد المنبر، فقال: يأيها الناس ؛ إنّا قد جمعناكم للقتال ؛ وأخذنا عليكم المناقب؛ وإن هذا العدوّ منكم قريب؛ وهو في عدد كثير، والنصر من الله والأمر بيده ؛ وإنه قد بدا لي أن آذن لكم وأفرج عنكم المناقب؛ فمن أحبَّ أن يقيم أقام، ومَنْ أحبَّ أن يظعن ظعن. قال أبي: فخرج عَالمٌ من الناس ؛ كنت فيهم ؛ فلما كنا بالعُرَيض - وهو على ثلاثة أميال من المدينة - لقيَتْنا مقدّمةُ عيسى بن موسى دون الرُّحْبة ؛ فما شبّهت رجالهم إلاّ رجالاً من جراد. قال: فمضينا وخالفونا إلى المدينة .

قال: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني الحارث بن إسحاق، قال: خرج ناس كثير من أهل المدينة بذراريّهم وأهليهم إلى الأعراض والجبال، فأمر محمد أبا القَلمّس، فردّ مَنْ قدر عليه منهم ؛ فأعجزه كثير منهم، فتركهم .

قال: وحدّثني عيسى، قال: حدثني الغاضريّ، قال: قال لي محمد: أعطيك سلاحاً وتقاتل معي؟ قلت: نعم ؛ إن أعطيتَني رمحاً أطعنهم به ؛ وهم بالأعوص وسيناً أضربهم به وهم بهيفا. قال: ثمّ مكث غير كثير، ثم بعث إليّ فقال: ما تنتظر؟ قلت: ما أهون عليك - أبقاك الله - أن أقتَل وتمرّوا ؛ فيقال: والله إن كان لبادنا!

قال: ويحك! قد بيّض أهل الشأم وأهل العراق وخُراسان، قال: قلت: اجعل الدنيا زبدةً بيضاء وأنا في مثل صوفة الدواة، ما ينفعني هذا وعيسى بالأعوص!

قال: وحدّثني عيسى، عن أبيه، عن جدّه، قال: وجّه أبو جعفر مع عيسى بن موسى بابن الأصمّ يُنزله المنازل، فلما قدموا نزلوا على ميل من مسجد رسول الله ﷺ، فقال ابن الأصمّ: ألا إنّ الخيل لا عمل لها مع الرّجالة؛ وإني أخاف إن كشفوكم كشفةً أن يدخلوا عسكرهم. فرفعهم إلى سقاية سليمان بن عبد الملك بالجُرْف ـ وهي على أربعة أميال من المدينة ـ وقال: لا يهرول الرّاجل أكثر من ميلين أو ثلاثة حتى تأخذه الخيل.

قال: وحدّثني عيسى، قال: حدثني محمد بن أبي الكرام، قال: لمّا نزل عيسى طَرَف القَدُوم أرسل إليّ نصفَ الليل، فوجدته جالساً والشمع والأموال بين يديه؛ فقال: جاءتني العيون تخبرني أنّ هذا الرجل في ضعف؛ وأنا أخاف أن ينكشف؛ وقد ظننتُ ألاّ مسلك له إلاّ إلى مكة، فاضمُم إليك خمسمائة رجل؛ فامضِ بهم معانداً عن الطريق حتى تأتيَ الشجرَة فتقيم بها. قال: فأعطاهم على الشّمع، فخرجتُ بهم حتى مررتُ بالبصرة بالبطحاء ـ وهي بطحاء ابن أزهر على ستة أميال من المدينة ـ فخاف أهلها؛ فقلتُ: لا بأسَ عليكم؛ أنا محمد بن عبد الله، هل من سويق؟ قال: فأخرجوا إلينا سويقاً، فشربنا وأقمنا بها حتى قتِل محمد.

قال: وحدّثني محمد بن إسماعيل؛ عن الثقة، قال: لما قرُب عيسى أرسل إلى محمد القاسمَ بن الحسن بن زيد يدعوه إلى الرُّجوع عمّا هو عليه، ويخبره أنّ أمير المؤمنين قد آمنه وأهل بيته، فقال محمد للقاسم: والله لولا أنّ الرّسل لا تقتل لضربتُ عنقك؛ لأني لم أرك منذ كنت غلاما في فرقتين؛ خير وشرّ إلاّ كنتَ مع الشرّ على الخير. وأرسل محمد إلى عيسى: يا هذا؛ إنّ لك برسول الله قرابةً قريبةً، وإني أدعوك إلى كتاب الله وسنة نبيه والعمل بطاعته، وأحذّرك نقمته وعذابه، وإني والله ما أنا بمنصرف عن هذا الأمر حتى ألقى الله عليه؛ فإياك أن يقتلك مَنْ يدعوك إلى الله، فتكون شرّ قتيل، أو تقتله فيكون أعظمَ لوزرك، وأكثر لمآثمك.
فأرسل هذه الرسالة مع إبراهيم بن جعفر، فبلّغه، فقال: ارجعْ إلى صاحبك، فقل له: ليس بيننا إلاّ القتال.

قال: وحدّثني إبراهيم بن محمد بن أبي الكرام بن عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن جعفر، قال: أخبرني أبي، قال: لما قرب عيسى من المدينة، أرسلني إلى محمد بأمانه، فقال لي محمد: علام تقاتلونني وتستحلّون دمي، وإنما أنا رجل فرّ من أن يُقتل! قال: قلت: إنّ يدعونك إلى الأمان، فإن أبَيت إلاّ قتالهم قاتلوك على ما قاتل عليه خير آبائك عليٌّ طلحةَ والزبير؛ على نكث بيعتهم وكيد ملكهم، والسعي عليهم. قال: فأخبرتُ بذلك أبا جعفر، فقال: والله ما سرّني أنك قلت له غير ذلك، وأن لي كذا وكذا.

قال: وحدّثني هشام بن محمد بن عُرْوة بن هشام بن عروة، قال: أخبرني ماهان بن بخت مولى قحطبة، قال: لما صرْنا بالمدينة أتانا إبراهيم بن جعفر بن مصعب طليعة، فطاف بعسكرنا حتى حسّه كله، ثم ولّى ذاهبا. قال: فرعبنا منه والله رعْباً شديداً؛ حتى جعل عيسى وحميد بن قَحْطبة يعجبان فيقولان: فارس واحد طليعةً لأصحابه! فلما ولّى مَدَى أبصارنا نظرنا إليه مقيماً بموضع واحد، فقال حميد: ويحكم! انظروا ما حالُ الرجل؛ فإني أرى دابته واقفا لا تزول؛ فوجّه إليه حميد رجلين من أصحابه، فوجدا دابته قد عثر به؛ فصرعه فقوّس التنور عنقه. فأخذا سلبه، فأتينا بتنور ـ قيل إنه كان لمصعب بن الزبير ـ مُذْهب لم يُرَ مثله قطّ.

قال: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني الحارث بن إسحاق، قال: نـزل عيسى بقصر سليمان بالجُرْف، صَبيحةاثنتي عشرة من رمضان سنة خمس وأربعين ومائة، يوم السبت، فأقام يوم السبت ويوم الأحد وغدا يوم الأثنين، حتى استوى على سَلْع، فنظر إلى المدينة وإلى مَن دخلها وخرج منها، وشحن وجوهها كلها بالخيل والرّجال إلّا ناحية مسجد أبي الجرّاح؛ وهوعلى بُطحان؛ فإنه تركه لخرْوج مَنْ هرب،وبرز محمد في أهل المدينة.

قال: وحدّثني عيسى، قال: حدّثنا محمد بن زيد، قال: قدمنا مع عيسى، فدعا محمداً ثلاثاً: الجمعة والسبت والأحد.

قال وحدّثني عبد الملك بن شيبان، قال: حدثني زيـد مولى مِسمَع، قال: لّما عسكر عيسى أقبل على دابة يمشي حواليه نحو من خمسمائة، وبين يديه راية يُسار بها معه؛ فوقف على الثنيّة ونادى: يا أهل المدينة؛ إن الله قد حرّم دماء بعضنا على بعض؛ فهلمّوا إلى الأمان؛ فمن قام تحت رايتنا فهو آمن، ومَن دخل داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن؛ ومَن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن خرج من المدينة فهو آمن. خلّوا بيننا وبين صاحبنا فإمّا لنا أو له. قال: فشتموه وأقذعوا له، وقالوا: يابن الشاة، يابن كذا، يابن كذا. فانصرف يومه ذاك، وعاد من الغد ففعل مثل ذلك، فشتموه؛ فلما كان اليوم الثالث أقبل بما لم أر مثله قطّ من الخيل والرجال والسلاح؛ فوالله ما لبثنا أن ظهر علينا ونادى بالأمان، فانصرف إلى معسكره.

قال: وحدثني ابراهيم الغَطفانيّ، قال: سمعت أبـا عمرو مؤدّب محمـد بن عبد الـرحمن يحدّث عن الزبيريّ ـ يعني عثمان بن محمد بن خالد ـ قال: لما التقينا نادى عيسى بنفسه: أيا محمد، إن أمير المؤمنين أمرني ألاّ أقاتلك حتى أعرض عليك الأمان، فلك عليَّ نفسك وأهلك وولدك وأصحابك، وتعطَى من المال كذا وكذا، ويقضَى عنك دينك، ويُفعل بك ويفعل! قال: فصاح :محمد الْهُ عن هذا، فوالله لو علمتَ أنه لا يثنيني عنكم فَزَع، ولا يقرّبني منكم طمع ما كان هذا. قال: ولجّ القتال، وترجّل محمد؛ فإني لأحسبه قتَل بيده يومئذ سبعين رجلاً.

قال: وحدّثني عيسى، قال: حدّثني محمد بن زيد، قال: لما كان يوم الأثنين، وقف عيسى على ذُباب، ثم دعا مولى لعبد اللهبن معاويـة كان معـه؛ وكان عـلى مجفّفته، فقـال: خذ عشـرة من أصحابـك؛ أصحاب التجافيف؛ فجاء بهم، فقال لنا: ليقم معه عشرة منكم يا آل أبي طالب. قال: فقمنا معه، ومعنا ابنا محمد بن عمر بن عليّ: عبدالله وعمر، ومحمد بن عبدالله بن عَقِيل، والقاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن عليّ، وعبدالله بن إسماعيل بن عبدالله بن جعفر؛ في عشرة منّا. فقال: انطلقوا إلى القوم، فادعـوهم وأعطوهم أمانا؛ وبقيَ أمان الله. قال: فخرجنا حتى جئنا سوق الحطّابين؛ فدعوناهم فسبُّونا ورشقونا بالنُّبل، وقالوا: هذا ابن رسول الله مَعنا ونحن معه؛ فكلمهم القاسم بن الحسن بن زيد، فقال: وأنا ابنُ رسول الله؛ وأكثر مَن ترون بنو رسول الله؛ ونحن ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وحقْن دمائكم والأمان لكم؛ فجعلوا يسبُّوننا ويرشقوننا بالنبل، فقال القاسم لغلامه: القَطْ هذه النّبل، فلقطها فأخذها قاسم بيده، ثم دخل بها إلى عيسى، فقال: ما تنتظر! انظر ما صنعوا بنا، فأرسل عيسى بن حميد قَحْطبة في مائة.

قال: حدّثني أزهر بن سعد بن نافع، قال: حدّثني أخواي عثمان ومحمد ابنا سعيد ـ وكانا مع محمد ـ

قالا: وقف القاسم بن الحسن ورجل معه من آل أبي طالب عل رأس ثنيّة الوَدَاع، فدعَوْا محمداً إلى الأمان، فسبّهما فرجعا، وأقبل عيسى وقد فرّق القواد فجعل هزار مرد عند حمّام بن أبي الصَّعْبة، وكثير بن حُصَين عند دار ابن أفلَح التي ببقيع الغرْقد، ومحمد بن أبي العباس على باب بني سَلِمة، وفرّق سائر القوّاد على أنقاب المدينة، وصار عيسى في أصحابه على رأس الثنيّة، فرَموا بالنشاب والمقاليع ساعة.

وحدثني أزهر، قال: جعفر محمد ستور المسجد دراريع لأصحابه.

قال: وحدثني عبد الله بن إسحاق بن القاسم، قال: حدّثني عمر؛ شيخ من الأنصار، قال: جعل محمد ظلال المسجد خَفاتين لأصحابه، فأتاه رجلان من جُهينة، فأعطى أحدهما خَفْتانا ولم يعط الآخر، فقاتل صاحب الخفْتان، ولم يقاتل الآخر معه؛ فلما حضرت الحرب أصابت صاحب الخَفْتان نُشابَة، فقتلته، فقال صاحبه:

يـا ربِّ لا تـجـعَـلـني كـمَـنْ خـانْ   وبـاع بـاقـي عَـيْـشِـهِ بِـخَـفْـتـانْ

قال: وحدّثني أيوب بن عمر، قال: حدّثني إسماعيل بن أبي عمرو، قال: أنا لَوقوف علَى خندق بني غِفار؛ إذ أقبل رجل على فَرس؛ ما يُرى منه إلاّ عيناه، فنادى: الأمان، فأعطي الأمان، فدنا حتى لصق بنا، فقال: أفيكم مَنْ يبلِّغ عني محمداً؟ قلت: نعم، أنا، قال: فأبلغْه عني - وحسر عن وجهه؛ فإذا شيخ مخضوب - فقال: قل له: يقول لك فلان التميميّ، بآية أنّي وإياك جلسنا في ظل الصخرة في جبل جُهينة في سنة كذا، اصبر إلى الليل؛ فإن عامة الجند معك. قال: فأتيته قبل أن يَغْدُوَ - وذلك يوم الأثنين في اليوم الذي قُتل فيه - فوجدت بين يديه قِرْبة عسل أبيض قد شُقّت من وسطها، ورجل يتناول من العسل ملء كفّه ثم يغمسه في الماء، ثم يلقمه إياه، ورجل يحزم بطنَه بعمامة؛ فأبلغتُه الرسالة فقال: قد أبلغتَ؛ فقلت: أخواي في يدك، قال: مكانُهما خير لهما.

قال: وحدّثني إبراهيم بن مصعب بن عُمارة بن حمزة بن مصعب بن الزبير، قال: حدّثني محمد بن عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، قال: كانت راية محمد إلى أبي، فكنت أحملها عنه.

قال: وحدّثني عيسى، عن أبيه، قال: كان مع الأفطس حسن بن عليّ بن حسين عَلم أصفر، فيه صورةُ حيّة، ومع كلّ رجل من أصحابه من آل عليّ بن أبي طالب علَم، وشعارهم: أَحَد أَحَد، قال: وكذلك كان شعار النبيّ ﷺ يوم حُنَين.

قال: وحدّثني سعيد بن عبد الحميد بن جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم، قال: أخبرنا جَهْم بن عثمان مولى بني سُلَيم، ثم أحد بني بَهْز، قال: قال لي عبد الحميد بن جَعْفر يوم لَقينا أصحابُ عيسى: نحن اليوم على عدّة أهل بدر يوم لَقُوا المشركين - قال: وكنا ثلثمائة ونيِّفا.

قال: وحدّثني إبراهيم بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس، قال: سمعت أبي يقول: وُلِد عيسى بن موسى في سنة ثلاث ومائة، وشهد حرب محمد وإبراهيم وهو ابن ثلاث وأربعين سنة، وعلى مقدّمته حميد بن قَحْطبة، وعلى مَيمنته محمد بن أبي العباس أمير المؤمنين، وعلى ميسرته داود بن كرّاز من أهل خُراسان، وعلى ساقته الهيثم بن شعبة.

قال: وحدّثني عيسى، عن أبيه، قال: لقي أبو القلمّس محمد بن عثمان، أخا أسد بن المرزبان بسوق

الحطابين، فاجتلدا بسيفيهما حتى تقطّعا ثم تراجعا إلى مواقفهما، فأخذ أخو أسد سيفاً، وأخذ أبـو القلّمس بأثفيّة، فوضعها على قَرَبُوس سَرْجه، وستَرها بدِرْعه، ثم تعاودا، فلما تدانيا قام أبو القلّمس في ركائبه؛ ثم ضرب بها صَدْره فصرعه، ونزل فاحتزّ رأسه.

قـال: وحدّثني محمـد بن الحسن بن زبَالـة، قال: حـدثِني عبدُ الله بن عمـر بن القاسم بن عبـد الله العمريّ، قال: كنا مع محمد، فبرز رجل من أهل المدينة، مولى لآل الزبير يدعى القاسم بن وائل، فدعا للبراز، فبرز إليه رجل لم أرَ مثل كماله وعُدّته؛ فلما رآه ابن وائل انصرف. قال: فوجَدنا من ذلك وجداً شديداً، فإنا لعلى ذلك إذ سمعتُ خَشْف رجل ورائي، فالتفتّ فإذا أبو القلمّس، فسمعتُه يقول: لعن الله أميرَ السفهاء، أن ترك مثل هذا اجترأ علينا! وإن خرج رجل خرج إلى أمر عسى ألّا يكون من شأنه. قال: ثم برز له فقتله.

قال: وحدّثني أزهر بن سعيد بن نافع، قال: خرج القاسم بن وائل يومئذ من الخندق، ثم دعا للبراز، فبرز له هزارمرد، فلما رآه القاسم هابه، فرجع فبرز له أبو القلمّس، فقال: ما انتفع في مثل هذا اليوم بسيفه قطّ، ثم ضربه على حبْل عاتقه فقتله، فقال: خذها وأنا ابن الفاروق، فقال رجل من أصحاب عيسى: قتلت خيراً من ألف فاروق.

قال: وحدّثني عليّ أبو الحسن الحذّاء من أهل الكوفة، قال: حدّثني مسعود الرّحال، قال: شهدت مقتل محمد بالمدينة، فإنّي لأنظر إليهم عند أحجار الزّيت، وأنا مشرف عليهم من الجَبل - يعني سَلْعاً - إذ نظرت إلى رجل من أصحاب عيسى قد أقبل مستلئما في الحديد؛ لا تُرى منه إلّا عيناه، على فرس؛ حتى فَصَل من صفّ أصحابه، فوقف بين الصّفين، فدعا للبراز؛ فخرج إليه رجل من أصحاب محمد، عليه قَباء أبيض، وكُمّه بيضاء، وهو راجل، فكلمه مليًّا، ظننت أنه استرجله لتستويَ حالاهما، فنظرتُ إلى الفارس ثَنَى رجله، فنزل، ثم التقيا فضربه صاحب محمد ضربة على خُوذة حديد على رأسه، فأقعده على استِه وقِيذاً لا حراك به، ثم انتزع الخُوذة، فضرب رأسه فقتله، ثم رجع فدخل في أصحابه، فلم ينشب أنْ خرج من صفّ عيسى آخر؛ كأنه صاحبه، فبرز له الرّجُل الأوّل، فضنع به مثل ما صنع بصاحبه، ثم عاد إلى صفّه وبرز ثالث فدعاه، فبرز له فقتله، فلما قتل الثالث ولّى يريد أصحابه، فاعتوره أصحاب عيسى فرموْه فأثبتوه، وأسرع يريد أصحابه، فلم يبلغهم حتى خرَّ صريعاً فقتلوه دونهم.

وحدّثني عيسى، قال: أخبرني محمد بن زيد، قال: لما أخبرْنا عيسى برميهم إيانا، قال لُحميد بن قَحْطبة: تقدّم، فتقدّم في مائة كلهم راجل غيره معهم النشاب والترسة، فلم يلبثوا أن زحفوا إلى جدار دون الخندق، عليه أناس من أصحاب محمد، فكشفوهم ووقفوا عند الجدار، فأرسل حُميد إلى عيسى بهدْم الجدار. قال: فأرسل إلى فَعَلة فهدموه، وانتهوْا إلى الخندق، فأرسل إلى عيسى: إنا قد انتهينا إلى الخندق. فأرسل إليه عيسى بأبواب بقدرِ الخندق، فعبروا عليها؛ حتى كانوا من ورائه، ثم اقتتلوا أشدّ القتال من بُكْرة حتى صار العصر.

وحدّثني الحارث، قال: أخبرنا ابنُ سعد، قال: قال محمد بن عمر: أقبل عيسى بن موسى بمَنْ معه، حتى أناخ على المدينة، وخرج إليه محمد بن عبد الله ومَنْ معه، فاقتتلوا أياماً قتالا شديداً، وصبَر نفر من جُهينة، يقال لهم بنو شجاع مع محمد بن عبد الله، حتى قُتِلوا وكان لهم غَناء.

رجع الحديث إلى حديث عمر: حدثني أزهر، قال: أمرهم عيسى فطرحوا حقائب الإبل في الخندق فأمر

ببابيْ دار سعد بن مسعود التي في الثنيّة فُطرحا عى الخندق؛ فجازت الخيل، فالتقوْا عند مفاتح خَشْرم، فاقتتلوا حتى كان العصر.

حدثني محمد بن يحيى، قال: حدّثنا عبد العزيز بن أبي ثابت، قال: انصرف محمد يومئذ قبل الظهر حتى جاء دار مَرْوان، فاغتسل وتحنّط، ثم خرج. قال عبد العزيز بن أبي ثابت: فحدّثني عبد الله بن جعفر، قال: دنوتُ منه، فقلت له: بأبي أنت! إنه والله مالك بما رأيتَ طاقة، وما معك أحد يصدُق القتال؛ فاخرج الساعة حتى تلحق بالحسن بن معاوية بمكة؛ فإنّ معه جِلّة أصحابك، فقال: يا أبا جعفر؛ والله لو خرجتُ لقتِل أهل المدينة؛ والله لا أرجع حتى أقتُل أو أقتَل؛ وأنت مني في سعة؛ فاذهب حيث شئت. فخرجت معه حتى إذا جاء دار ابن مسعود في سوق الظهر ركضتُ فأخذت على الزيّاتين، ومضى إلى الثنيّة، وقُتل مَنْ كان معه بالنّشاب وجاءت العصر فصلّى.

حدّثني محمد بن الحسن بن زَبالة، قال: حدّثني إبراهيم بن محمد، قال: رأيت محمداً بين داري بني سعد، عليه جُبّة ممشّقة، وهو على برْذون، وابنُ خُضَير إلى جانبه يناشده الله إلاّ مضى إلى البصرة أو غيرها؛ ومحمد يقول: والله لا تبتلون بي مرتين؛ ولكن اذهب حيث شئت فأنت في حلّ. قال ابن خُضير: وأين المذهب عنك! ثم مضى فأحرق الديوان، وقتل رياحا ثم لحقه بالثنيّة، فقاتل حتى قتِل.

وحدثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، عن محمد بن عمر، قال: خرج مع محمد بن عبد الله بن خُضير؛ رجل من ولد مُصعب بن الزبير؛ فلما كان اليوم الذي قتل فيه محمد، ورأى الخلل في أصحابه، وأنّ السيف قد أفناهم، استأذن محمداً في دخول المدينة فأذن له؛ ولا يعلم ما يريد؛ فدخل على رياح بن عثمان بن حيّان المُرّيّ وأخيه، فذبحهما ثم رجع؛ فأخبر محمداً، ثم تقدّم فقاتل حتى قُتِل من ساعته.

رجع الحديث إلى حديث عمر: حدثني أزهر، قال: حدثني أخي، قال: لما رجع ابن خُضير قتل رياحا وابن مسلم بن عُقْبة.

وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني الحارث بن إسحاق، قال: ذبح ابن خُضير رياحاً ولم يُجْهِز عليه، فجعل يضرب برأسه الجدار حتى مات؛ وقتل معه عباساً أخاه؛ وكان مستقيمَ الطريقة، فعاب الناسُ ذلك عليه؛ ثم مضى إلى ابن القَسْريّ وهو محبوس في دار ابن هشام، فنذِر به فردم بابي الدار دونَه، فعالج البابين، فاجتمع مَنْ في الحبس فسدّوهما، فلم يقدر عليهم؛ فرجع إلى محمد، فقاتل بين يديه حتى قُتِل.

حدّثني مسكين بن حبيب بن محمد، قال: لما جاءت العصر صلاّها محمد في مسجد بني الديل، في الثنيّة، فلما سلّم استسقى، فسقته رَبيحة بنت أبي شاكر القرشية، ثم قالت له: جعلت فداك! انجُ بنفسك، قال: إذاً لا يبقى بها ديكٌ يصرخ؛ ثم مضى فلما كان ببطن مسيل سلْع، نزل فعرقبَ دابته، وعرقب بنو شجاع دوابهم، ولم يبق أحد إلا كسر غِمْد سيفه. قال مسكين: فلقد رأيتني وأنا غلام، جمعت من حَليها نحواً من ثلثمائة درهم؛ ثم قال لهم: قد بايعتموني ولستُ بارحاً حتى أقتَل، فمن أحبّ أن ينصرف فقد أذنتُ له، ثم أقبل على ابن خُضَير، فقال له: قد أحرقتَ الديوان؟ قال: نعم؛ خفت أن يُؤخذ الناس عليه؟ قال: أصبت.

حدّثني أزهر، قال: حدّثني أخَواي، قالا: لقد هزمْنا يومئذ أصحاب عيسى مرتين أو ثلاثا، ولكنا لم نكن

نعرف الهزيمة؛ ولقد سمعنا يزيد بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، يقول، وقد هزمناهم: ويل أمه فَتْحاً لو كان له رجال!

حدثني عيسى، قال: كان مِمّن انهزم يومئذ وفر عن محمد عبدُ العزيز بن عبد اللهبن عبد اللهبن عمر بن الخطاب، فأرسل محمد وراءه، فأتِيَ به، فجعل الصبيان يصيحون وراءه: «ألا باقة بقبقبة»، فكان عبد العزيز. يقول بعد ذلك: إن أشدّ ما أتى عليَّ لصياح الصبيان...

وحدّثني عيسى، قال: حدّثنا مولى لهشام بن عُمارة بن الوليد بن عديّ بن الخِيار، قال: كنا مع محمد، فتقدّم هشام بن عُمارة إليه وأنا معه، فقال: إني لا آمن أن يخذُلك مَن ترى، فأشهد أنّ غلامي هذا حرٌّ لوجه الله إن رمتُ أبداً أو تُقتَل أو أقتَل أو نُغلَب؛ فقلت: فوالله إنّي لمعه إذ وقعت بترسه نشابة، ففلقته باثنتين، ثم خسفت في درْعه، فالتفت إليَّ فقال: فلان! قلت: لبيك! قال: ويلك! رأيتَ مثل هذا قطّ يا فلان! أيما أحبّ إليك؛ نفسي أم أنت؟ قلت: لا بل نفسك، قال: فأنت حرّ لوجه الله، فانطلق هارباً.

وحدّثني متوكل بن أبي الفحوة، قال: حدّثني محمد بن عبد الواحد بن عبد اللهبن أبي فَرْوة، قال: إنّا لعلى ظهر سلْع ننظر، وعليه أعاريب جُهينة، إذ صعد إلينا رجل بيده رُمْح، قد نصب عليه رأس رجل متّصلٌ بحلقومه وكبده وأعْفَاج بطنه، قال: فرأيتُ منه منظراً هائلا، وتطيّرت منه الأعاريب، وأجفلت هاربة حتى أسهلت، وعلا الرّجل الجبل، ونادى على الجبل رطانة لأصحابه بالفارسية «كوهبان»؛ فصعد إليه أصحابه حتى علوْا سلْعا فنصَبُوا عليه راية سوداء، ثم انصبُّوا إلى المدينة، فدخلوها، وأمرت أسماء بنت حسن بن عبيدالله بن عبيدالله بن عباس بن عبد المطلب ـ وكانت تحت عبدالله بن حسين بن عبدالله بن عبيدالله بن عباس ـ بخمار أسود، فنصِب على منارة مسجد رسول الله ﷺ؛ فلمّا رأى ذلك أصحابُ محمد تنادوا: دُخلت المدينة، وهربوا. قال: وبلغ محمّداً دخول الناس من سلْع، فقال: لكلّ قوم جبل يعصمهم؛ ولنا جبل لا نؤتَى إلّا منه.

وحدثني محمد بن إسماعيل، عن الثقة عنده، قال: فتح بنو أبي عمرو الغفاريون للمسوّدة طريقا في بني غفار، فدخلوا منه حيث جاؤوا من وراء أصحاب محمد.

وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدثني عبد العزيز بن عمران، قال: نادى محمد يومئذ حُميد بن قحطبة: إن كنتَ فارساً وأنت تَعْتَدّ ذاك على أهل خُراسان فابرز لي، فأنا محمد بن عبد الله، قال: قد عرفتُك وأنت الكريم ابن الكريم، الشريف ابن الشريف، لا والله يا أبا عبد الله لا أبرز لك وبين يديّ من هؤلاء الأغمار إنسان واحد؛ فإذا فرغتُ منهم فسأبرزُ لك لَعَمْري.

وحدثني عثمان بن مصعب بن عروة بن الزبير، قال: حدّثني رجل من بني ثعلبة بن سعد، قال: كنت بالثنيّة يوم قُتِل محمد بن عبد الله بن حسن ومعه ابن خضير، قال: فجعل ابن قحطبة يدعو ابنَ خَضير إلى الأمان، ويشحّ به عن الموت، وهو يشدّ على الناس بسيفه مترجّلاً، يتمثل:

لا تَسْقِهِ حَزْراً ولا حليبا ... إن لم تجدْه سابحا يَعْبُوبَا
ذا مَيْعَةٍ يَلتَهِمُ الجَبُوبَا ... كالذئب يتلو طَمَعاً قريبا
يبادر الآثارَ أن تئُوبا ... وحَاجبَ الجَوْنةِ أن يغيبا

قال: فخالط الناس، فضربه ضارب على أَلْيَته فخلّها، فرجع إلى أصحابه، فشقّ ثوباً فعصّبها إلى ظهره، ثم عاد إلى القتال، فضربه ضارب على حَجَاج عينه، فأغمض السيف في عينه، وخرّ فابتدره القوم، فحزُّوا رأسه؛ فلما قتِل ترجّل محمد، فقاتل على جِيفته حتى قتل.

وحدثني مخلَد بن يحيى بن حاضر بن المهاجر الباهليّ، قال: سمعت الفضل بن سليمان مولى بني نُمير يخبر عن أخيه ـ وكان قد قتِل له أخ مع محمد ـ قال: كان الخُراسانية إذا نظروا إلى ابن خُضير تنادوْا: «خضير آمد، خضير آمد!»، وتصعصعوا لذلك.

وحدثني هشام بن محمد بن عروة بن هشام بن عروة، قال: أخبرني ماهان بن بخت مولى قَحْطبة، قال: أتِينا برأس ابن خضير؛ فوالله ما جعلنا نستطيع حَمْله لَمّا كان به من الجِراح؛ والله لكأنه باذنجانة مفلّقة، وكنا نضمُّ أعظَمهُ ضمّاً.

وحدثني أزهر بن سعيد، قال: لما نظر أصحاب محمد إلى العلم الأسود على مَنارة المسجد فتّ ذلك في أعضادهم، ودخل حُميد بن قحطبة من زُقاق أشجع على محمد فقتله وهو لا يشعر، وأخذ رأسه فأتى به عيسى، وقتَل معه بشراً كثيراً.

قال: وحدثني أبو الحسن الحذّاء، قال: أخبرني مسعود الرّحال، قال: رأيت محمداً يومئذ باشرَ القتال بنفسه، فأنظر إليه حين ضربه رجلٌ بسيف دون شحمة أذنه اليمنى، فبرك لرُكبتيه وتعاوروا عليه، وصاحَ حُميد بن قحطبة: لا تقتلوه، فكفُّوا، وجاء حميد فاحتزّ رأسه.

وحدثني محمد بن يحيى، قال: حدثني الحارث بن إسحاق، قال: برك محمد يومئذ لركبتيْه وجعل يذبّ عن نفسه ويقول: ويحكم! أنا ابن نبيكم، محرَج مظلوم!

وحدثني محمد بن يحيى، قال، حدثني ابن أبي ثابت؛ عن عبد الله بن جعفر، قال: طعنه ابن قَحطبة في صدره فصرَعه، ثم نزل فاحتزّ رأسه، فأتى به عيسى.

وحدّثني محمد بن إسماعيل، قال: حدّثني أبو الحجاج المنقريّ، قال: رأيتُ محمداً يومئذ وإن أشبه ما خلق الله به لَمَا ذُكِر عن حمزة بن عبد المطلب، يهدّ الناس بسيفه هذاً، ما يقاربه أحد إلا قتله، ومعه سيف، لا والله ما يُليق شيئاً؛ حتى رماه إنسان بسهم كأني أنظر إليه، أحمر أزرق، ثم دهمتْنا الخيل، فوقف إلى ناحية جدار، فتحاماه الناسُ، فوجَد الموت، فتحامل على سيفه فكسره؛ قال: فسمعتُ جدّي يقول: كان معه سيف رسول الله ﷺ ذو الفقار.

وحدّثني هرمز أبو عليّ مولى باهلة، قال: حدّثني عمرو بن المتوكل ـ وكانت أمّه تخدم فاطمة بنت حسين ـ قال: كان مع محمد يوم قتل سيف النبيّ ﷺ ذُو الفقار، فلما أحسّ الموت أعطى سيفه رجلاً من التجار كان معه ـ وكان له عليه أربعمائة دينار ـ فقال له: خذ هذا السيف؛ فإنك لا تلقى به أحداً من آل أبي طالب إلّا أخذه وأعطاك حقك. قال: فكان السيف عنده، حتى ولي جعفر بن سليمان المدينة فأخبِر عنه، فدعا الرجل وأخذ السيف منه، وأعطاه أربعمائة دينار؛ فلم يزل عنده حتى قام المهديّ، ووليَ جعفر المدينة، وبلغه مكانُ السيف؛ فأخذه، ثم صار إلى موسى، فجرّب به على كلب، فانقطع السيف.

وحدّثني عبدُ الملك بن قُريب الأصمعيّ، قال: رأيت الرّشيد أمير المؤمنين بطُوس، متقلداً سيفاً، فقال لي: يا أصمعيّ،ألا أريكذا الفَقار؟ قلت: بلى، جعلني الله فداك! قال: استلّ سيفي، فاستللتُه، فرأيتُ فيه ثمانَ عشرَة فقارة.

وحدثني أبوعاصم النبيل، قال: حدّثني أخو الفضل بن سليمان النُّميريّ قال: كنا مع محمد، فأطاف بنا أربعون ألفاً، فكانوا حولنا كالحرّة السّوداء، فقلت له: لو حملت فيهم لا نفرجوا عنك، فقال: إنّ أمير المؤمنين لا يحمِل، إنه إن حمل لم تكن له بقيّة. قال: فجعلنا نعيد ذلك عليه؛ فحمل، فالتفُّوا عليه فقتلوه.

وحدثني عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سلم ـ ويدعى ابن البوّاب؛ وكان خليفة الفضل بن الربيع يحجب هارون، من أدباء الناس وعلمائهم ـ قال: حدّثني أبي عن الأسلميّ ـ يعني عبد الله بن عامر ـ قال: قال لي محمد ونحن نقاتل معه عيسى: تغشانا سحابة؛ فإن أمطرَتنا ظفرنا، وإن تجاوزتْنا إليهم فانظر إلى دمِي على أحجار الزيت؛ قال: فوالله ما لبثنا أنّ أظلّتنا سحابة فأحالت حتى قلتُ: تفعل، ثم جاوزتنا فأصابت عيسى وأصحابه، فما كان إلا كلا ولا؛ حتى رأيته قتيلاً بين أحجار الزيت.

وحدثني إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن أبي الكرام، قال: قال عيسى لحُميد بن قحطبة عند العصر: أراك قدأبطأت في أمر هذا الرجل، فولّ حمزة بن مالك حرْبه، فقال: والله لو رُمتَ أنت ذاك ما تركتُك؛ أحين قتلتُ الرجال ووجدتُ ريح الفتح! ثم جدّ في القتال حتى قُتِل محمد.

وحدثني جوّاد بن غالب بن موسى مولى بني عِجل، قال: أخبرني حميد مولى محمد بن أبي العباس، قال: اتّهم عيسى حميدَ بن قحطبة يومئذ ـ وكان على الخيل ـ فقال: يا حُميد، ما أراك تبالغ، قال: أتتهمني! فوالله لأضربنّ محمداً حين أراه بالسيف أو أقتل دونه. قال: فمرّ به وهو مقتول؛ فضربه بالسيف ليبرّ يمينه.

وحدّثني يعقوب بن القاسم، قال: حدّثني عليّ بن أبي طالب، قال: قُتِل محمد بعد العصر،يوم الاثنين لأربعَ عشرة ليلة خلتْ من شهر رمضان.

وحدثني أيوب بن عمر، قال: حدّثني أبي، قال: بعث عيسى فدقّ السجن، فحملنا إليه والقتال دائب بينهم؛ فلم نزل مطّرحين بين يديه، حين أتِيَ برأس محمد، فقلتُ لأخي يوسف: إنه سيدعونا إلى معرفته، ولا نعرفه له؛ فإنا نخاف أن نخطىء؛ فلما أتِيَ به قال: أتعرفانه؟ قلنا: نعم، قال: انظرا، أهو هذا؟ قال أبي: فبدرتُ يوسف، فقلت: أرى دماً كثيراً وأرى ضرباً، فوالله ما أثبته، قال: فأطلقنا من الحديد، وبتنا عنده ليلتَنا كلها حتى أصبحنا. قال: ثم ولاّني ما بين مكة والمدينة، فلم أزل والياً عليه حتى قدم جعفر بن سليمان، فحَدرني إليه، وألزمني نفسه.

وحدّثني عليّ بن إسماعيل بن صالح بن ميثم، قال. حدّثني أبو كعب، قال: حضرتُ عيسى حين قَتَل محمداً، فوضع رأسه بين يديه، فأقبل على أصحابه، فقال: ما تقولون في هذا؟ فوقعوا فيه، قال: فأقبل عليهم قائد له، فقال: كذبتم والله وقلتم باطلا. لَما على هذا قاتلناه؛ ولكنه خالف أمير المؤمنين، وشقّ عصا المسلمين؛ وإن كان لصّواماً قوّاماً. فسكت القوم.

وحدثني ابن البوّاب عبد الله بن محمد، قال: حدّثني أبِي، عن الأسلميّ،قال: قدم على ابي جعفر قادم، فقال: هرب محمد، فقال: كذبت! نحن أهلَ البيت لا نفرّ.

وحدّثني عبد الله بن راشد بن يزيد، قال: حدّثني أبو الحجاج الجمّال، قال: إني لقائم على رأس أبي جعفر، وهو مسائلي عن مخرج محمد، إذ بلغه أن عيسى قد هُزِم ـ وكان متّكئاً فجلس ـ فضرب بقضيب معه مصلّاه، وقال: كلاّ، فأين لعب صبياننا بها على المنابر ومشورة النساء! ما أني لذلك بعدُ.

قال: وحدّثني محمد بن الحسن، قال: حدّثني بعض أصحابنا، قال: أصاب أبا القلمّس نُشابة في ركبته، فبقي نصلها، فعالجها فأعياه، فقيل له: دعه حتى يقيح فيخرج، فتركه، فلما طُلب بعد الهزيمة لحق بالحَرّة، وأبطأ به ما أصاب ركبَته، فلم يزل بالنّصل حتى استخرجه ثم جثا لركبتيه ونكب كنانته، فرماهم فتصدّعوا عنه، فلحق بأصحابه فنجا.

وحدّثني محمد بن الحسن، قال: حدّثني عبد الله بن عمر بن القاسم، قال: لما انهزمنا يومئذ كنتُ في جماعة، فيهم أبو القلمّس، فالتفتّ إليه، فإذا هو مستغرب ضحكاً، قال: فقلت: والله ما هذا بموضع ضحك، وخفضتُ بصري؛ فإذا برجل من المنهزمة قد تقطع قميصُه، فلم يبق منه إلا جُرُبّانه وما يستر صدره إلى ثدييه، وإذا عورته بادية وهو لا يشعر؛ قال: فجعلت أضحك لضحك أبي القلمّس.

فحدثني عيسى، قال: حدّثني أبي، قال: لم يزل أبو القلمّس مختفياً بالْفُرْع، وبقي زماناً ثم عدا عليه عبدٌ له، فشدخ رأسه بصخْرة فقتله، ثم أتى أمّ ولد كانت له، فقال: إني قد قتلت سيِّدك، فهلمّي أتزوّجك؟ قالت: رويداً أتصنّع لك، فأمهلها، فأتت السلطان فأخبرته، فأخذ العبدَ فشدخ رأسَه.

حدّثني محمود بن معمر بن أبي الشدائد، قال: أخبَرني أبي، قال: لما دخلتْ خيلُ عيسى من شِعْب بني فَزارة، فقتِل محمد، اقتحم نَفَر على أبي الشدائد فقتلوه، وأخذوا رأسه، فنادت ابنتُه الناعمة بنت أبي الشدائد: وارجالاه! فقال لها رجل من الجند: ومَنْ رجالك؟ قالت: بنو فَزارة، قال: والله لو علمتُ ما دخلتُ بيتك، فلا بأس عليك، أنا امرؤ من عشيرتك مَن باهلة؛ وأعطاها قطعة من عمامته فعلقتها على بابها. قال: وأُتِيَ عيسى برأسه، وعنده ابن أبي الكرام ومحمد بن لُوط بن المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، فاسترجعا وقالا: والله ما بقي من أهل المدينة أحدٌ، هذا رأس أبي الشدائد، فالح بن معمر ـ رجل من بني فزارة مكفوف ـ قال: فأمر منادياً فنادى: مَنْ جاء برأس ضربْنا رأسه.

وحدّثني عليّ بن زادان، قال: حدّثني عبد الله بن برقي، قال: رأيت قائداً من قوّاد عيسى، جاء في جماعة يسأل عن منزل ابن هرمز؛ فأرشدناه إليه. قال: فخرج وعليه قميص رياط، قال: فأنزلوا قائدَهم، وحملوه على بِرْذَوْنه وخرجوا به يزفّونه، حتى أدخلوه على عيسى، فما هاجه.

حدثني قدامة بن محمد، قال: خرج عبد اللهبن يزيد بن هرمز ومحمد بن عجلان مع محمد، فلما حضر القتال، تقلد كلّ واحد منهما قوساً، فظننّا أنهما أرادا أن يُريا الناس أنهما قد صَلَحا لذلك.

وحدّثني عيسى، قال: حدثني حسين بن يزيد، قال: أُتِيَ بابن هرمز إلى عيسى بعد ما قتل محمد، فقال: أيها الشيخ، أما وزعك فقهُك عن الخروج مع من خرج! قال: كانت فتنةٌ شملت الناس، فشملتنا فيهم، قال: اذهب راشداً.

وحدثني محمد بن الحسن بن زَبالة، قال: سمعتُ مالك بن أنس، يقول: كنتُ آتي ابنَ هرمز فيأمر الجارية فتغلق البابَ، وترخِي الستر، ثم يذكر أوّل هذه الأمّة، ثم يبكي حتى تخضلّ لحيته. قال: ثم خرج مع

محمد فقيل له: والله ما فيك شيء، قال: قد علمتُ؛ ولكن يراني جاهل فيقتدي بي.

حدثني عيسى، قال: حدّثني محمد بن زيد، قال: لمّا قُتِل محمدٌ انخرقت السماءُ بالمطر بما لم أر مثله انخراق قطّ منها، فنادى منادي عيسى: لا يبيتنّ بالمدينة أحدٌ من الجند إلا كثير بن حُصَين وجنده، ولحق عيسى بعسكره بالجُرْف؛ فكان به حتى أصبح، ثم بعث بالبشارة مع القاسم بن حسن بن زيد، وبعث بالرأس مع ابن أبي الكرام.

وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني الحارث بن إسحاق، قال: لما أصبح محمد في مصرَعه، أرسلتْ أخته زينب بنت عبدالله وابنته فاطمة إلى عيسى: إنكم قد قتلتم هذا الرجل، وقضيتم منه حاجَتكم، فلو أذنتم لنا فواريناه! فيرسل إليهما: أما ما ذكرتما يا بنتيّ عميّ مما نيل منه فوالله ما أمر ولا علمتُ؛ فوارِياه راشدتين. فبعثتا إليه فاحتُمل، فقيل: إنه حُشي في مقطع عنقه عديله قُطْنا، ودفن بالبَقيع، وكان قبره وِجاه زقاق دار عليّ بن أبي طالب، شارعا على الطريق أو قريباً من ذلك؛ وبعث عيسى بألوية فوُضعَ على باب أسماء بنت حسن بن عبدالله واحدٌ، وعلى باب العباس بن عبدالله بن الحارث آخر، وعلى باب محمد بن عبد العزيز الزهريّ آخر، وعلى باب عبيدالله بن محمد بن صفوان آخر، وعلى باب دار أبي عمرو الغِفاريّ آخرا، وصاح مناديه: مَن دخل تحت لواء منها، أو دخل دارا من هذه الدور فهو آمن؛ ومطرت السماءُ مطراً جَوْداً، فأصبح الناس هادئين في أسواقهم؛ وجعل عيسى يختلف إلى المسجد من الجُرْف، فأقام بالمدينة أياماً، ثم شخص صُبح تسع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان يريد مكة.

حدّثني أزهر بن سعيد، قال: لما كان الغد من قتل محمد أذن عيسى في دفْنه، وأمر بأصحابه فصُلبوا ما بين ثنيّة الوَداع إلى دار عمر بن عبد العزيز. قال أزهر: فرأيتُهم صفين؛ ووكل بخشبة ابن خُضير مَنْ يحرسها، فاحتمله قومٌ في الليل فواروْه، ولم يقدَرْ عليهم، وأقام الآخرون مصلّبين ثلاثاً، ثم تأذّى بهم الناس، فأمر عيسى بهم فألقوا على المفرح من سَلْع، وهي مقبرة اليهود، فلم يزالوا هنالك، ثم ألقُوا في خندق بأصل ذباب.

حدثني عيسى بن عبدالله قال: حدّثتني أمي أم حسين بنت عبدالله بن محمد بن عليّ بن حسين، قالت: قلت لعمّي جعفر بن محمد: إني ـ فديتُك ـ ما أمرُ محمد بن عبدالله؟ [هذا] قال: فتنته يقتل فيها محمد عند بيت روميّ، ويقتل أخوه لأبيه وأمّه بالعراق وحوافر فرسه في ماء.

حدثني عيسى، عن أبيه، قال: خرج مع محمد حمزة بن عبدالله بن محمد بن عليّ ـ وكان عمه جعفر ينهاه؛ وكان من أشدّ الناس مع محَمّد ـ قال: فكان جعفر يقول له: هو والله مقتول، قال: فتنحّى جعفر.

حدّثني عيسى، قال: حدّثنا ابنُ أبي الكرام، قال: بعثني عيسى برأس محمد، وبعث معي مائة من الجند، قال: فجئنا حتى إذا أشرفنا على النّجَف كبّرنا ! قال: وعارم بن إسماعيل يومئذ بواسط محاصِر هارون بن سعد العِجليّ ـ فقال أبو جعفر للربيع: ويحك! ما هذا التكبير! قال: هذا ابن أبي الكرام، جاء برأس محمد بن عبدالله، قال: ائذن له.ولعشرة ممّن معه، قال: فأذِن لي، فوضعتُ الرأس بين يديه في ترس، فقال: من قُتل معه من أهل أبيه؟ قلتُ: لا والله ولا إنسان، قال: سبحان الله! هو ذاك. قال: فرفع رأسَه إلى الربيع، فقال: ما أخبرنا صاحبه الذي كان قبله؟ قال الربيع: زعم أنه قتِل منهم عدد كثير، قلت: لا والله ولا واحد.

حدثني عليّ بن إسماعيل بن صالح بن ميثم، قال: لما قدِم برأس محمد على أبي جعفر وهو بالكوفة، أمر به فطِيف في طبَق أبيض، فرأيته آدم أرْقَط، فلما أمسى من يومه بعث به إلى الآفاق.

وحدثني عبدالله بن عمر بن جبيب من أهل يَنْبُع ، قال: لما أُتِيَ أبو جعفر برؤوس بني شجاع ، قال: هكذا فليكن الناس، طلبتُ محمداً فاشتمل هؤلاء عليه، ثم نقلوه وانتقلوا معه، ثم قاتلوا معه فصبروا حتى قتلوا.

قال عمر: أنشدني عيسى بن إبراهيم وإبراهيم بن مصعب بن عُمارة بن حمزة بن مصعب، ومحمد بن يحيى ومحمد بن الحسن بن زَبالة وغيرهم لعبدالله بن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير يرثي محمداً:

تبكي مُدلّه أن تقنّص حَبْلَهُمْ ... عِيسى وَأقصَدَ صائباً عثمانا
هَلاّ على المَهْديّ وابنَيْ مُصْعَبٍ ... أذْرَيْتَ دَمْعَك ساكباً تَهتانا!
ولِفَقْدِ إبراهيمَ حينَ تَصدَّعَتْ ... عنه الجُموعُ فَواجَهَ الأقرانا
سالَتْ دمُوعك ضَلَّةً قَدْ هِجْتَ لي ... بُرَحاءَ وَجْدٍ تَبْعَثُ الأحزَانا
والله ما وَلَدَ الحواضِنُ مثلَهم ... أمْضَى وأرْفَعَ مَحْتِداً ومكانا
وأشَدَّ ناهِضَةً وأقوَلَ لِلَّتي ... تَنْفِي مَصادِرُ عَدْلِها البهتانا
فهناك لو فَقَّأتَ غيرَ مُشَوَّهٍ ... عَيْنَيْك من جزع عذرتَ علانا
رُزْءٌ لَعَمْرُكَ لو يُصابُ بمثله ... مِسْبَطانُ صدَّع رُزْؤه مِسْبطانا

وقال ابن مصعب:

يا صاحبَيَّ دَعا المَلامة وَاعْلما ... أن لسْتُ في هذا بِألْوَمَ منكما
وَقِفا بقبر ابن النبيّ فسلّما ... لا بأسَ أن تَقِفا به فتُسَلِّما
قبرٌ تَضَمَّنَ خَيْرَ أهْلِ زَمانه ... حَسَباً وطيْبَ سجيّةٍ وتكرُّما
رجلٌ نفى بالعَدْلِ جَوْرَ بِلادِنا ... وعفا عظيماتِ الأمور وأنعَما
لم يَجْتَنِبْ قَصْدَ السبيل ولم يَجُرْ ... عنه، ولم يفتح بفاحشةٍ فما
لو أعظَمَ الحَدَثان شيئاً قبله ... بعد النبيّ به لكنتَ المعظَّما
أو كان أمْتَع بالسلامة قبلَه ... أحداً لكان قصارُه أن يسلَما
ضحَّوا بإبراهيمَ خيرَ ضَحيَّةٍ ... فتصرَّمت أيامُه وتصرَّما
بطلاً يخوض بنفسه غمراتِها ... لا طائشاً رَعِشاً ولا مُسْتَسْلما
حتى مضَت فيه السُّيوفُ ورُبَّما ... كانت حُتُوفُهُمُ السيوفُ ورُبّما
أضحى بنو حَسَن أبيحَ حَريمُهُمْ ... فينا وأصْبحَ نهبُهمْ متقسَّما
ونساؤهم في دورهنّ نوائح ... سَجْعَ الحمام إذا الحَمامُ ترنّما
يتوسَّلون بقتلهم وَيَرَوْنَه ... شَرَفاً عند الإمام ومَغْنَمَا
والله لو شهد النبيُّ محمّدٌ ... صلّى الإله على النبيّ وسلّما
إشْراعَ أمَّتِهِ الأسِنَّةَ لابنِه ... حتى تقطَّر من ظُبَاتِهِمُ دما
حَقًّا لأيْقَنَ أنّهم قد ضَيَّعوا ... تلك القرابةَ واستحلّوا المحرَما

وحدثني إسماعيل بن جعفر بن إبراهيم، قال: حدثني موسى بن عبدالله بن حسن، قال: خرجتُ من منازلنا بسويقة في الليل، وذلك قبل مُخْرَج محمد بن عبدالله ؛ فإذا بنسوة كأنما خرجْن من ديارنا ؛ فأخذتْني عليهنّ

غَيْرة، فإني لأتبعهنّ أنظر أين يَرِدْنَ؛ حتى إذا كنّ بطرف الحُميراءَ من جانب الغَرْس؛التفتت إليّ إحداهنّ، فقالت:

سُـوَيْـقَـةُ بَعْـدَ سـاكـنهـا يَـبَـابُ   لـقـد أمسـتْ أَجَـدَّ بهـا الـخـرابُ

فعرفتُ أنهنّ من ساكني الأرض، فرجعت.

وحدّثني عيسى، قال: لما قتَل عيسى بن موسى محمداً قبض أموالَ بني حسن كلَّها، فأجاز ذلك أبو جعفر.

وحدّثني أيوب بن عمر، قال: لقيَ جعفر بن محمد أبا جعفر، فقال: يا أمير المؤمنين، رُدّ عليَّ قطيعتي عين أبي زياد آكل من سَعفها، قال: إياي تكلم بهذا الكلام! والله لأزهِقنّ نفسَك. قال: فلا تعجلْ عليّ؛ قد بلغت ثلاثاً وستين، وفيها مات أبي وجدّي عليّ بن أبي طالب؛ وعليّ كذا وكذا إن ربتُك بشيء أبداً، وإن بقيتُ بعدك إن رِبْت الذي يقوم بعدك. قال: فرقّ له وأعفاه.

وحدّثني هشام بن إبراهيم بن هشام بن راشد، قال: لم يَرُدّ أبو جعفر عينَ أبي زياد حتى مات فردّها المهديّ على ولده.

وحدّثني هشام بن إبراهيم، قال: لما قُتِل محمد أمر أبو جعفر بالبحر فأقفل على أهل المدينة، فلم يحمَل إليهم من ناحية البحار شيء؛ حتى كان المهديّ فأمر بالبحر ففتح لهم، وأذن في الحمل.

وحدّثني محمد بن جعفر بن إبراهيم، قال: حدّثتْني أمّي أمّ سلمة بنت محمد بن طلحة بن عبدالله بن عبد الرحمن بن أبي بكر زوْجة موسى بن عبدالله، قالت: خاصم بنو المخزومية وعيسى وسليمان وإدريس بنو عبدالله بن حسن بن محمد بن عبدالله بن حسن في ميراث عبدالله، وقالوا: قُتِل أبوكم محمّد فورثه عبدالله؛ فتنازعوا إلى الحسن بن زيد؛ فكتب بذلك إلى أمير المؤمنين أبي جعفر، فكتب إليه: أما بعد؛ فإذا بلغك كتابي هذا فورِّثهم من جدّهم، فإني قد رددت عليهم أموالَهم صلةً لأرحامهم، وحفظاً لقَرابتهم.

وحدّثني عيسى، قال: خرج مع محمد من بني هاشم الحسن ويزيد وصالح بنو معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، وحسين وعيسى ابنا زيد بن عليّ بن حسين بن عليّ بن أبي طالب؛ قال: فحدّثني عيسى، قال: بلغني أن أبا جعفر كان يقول: واعجبًا لخروج ابني زيد بن عليّ وقد قتلنا قاتل أبيهما كما قتله، وصلبناه كما صلبه، وأحرقناه كما أحرقه، وحمزة بن عبدالله بن محمد بن عليّ بن حسين بن أبي طالب، وعـليّ وزيد ابنـا حسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب!

قال عيسى: قال أبو جعفر للحسن بن زيد: كأني أنظر إلى ابنيك واقفينْ على رأس محمد بسيفينْ، عليهما قَباءان. قال: يا أمير المؤمنين، قد كنت أشكو إليك عقوقهما قبل اليوم، قال: أجل فهذا من ذاك. والقاسم بن إسحاق بن عبـدالله بن جعفر بن أبي طـالب، والمرجّي عـليّ بن جعفر بن إسحـاق بن عليّ بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب قال عيسى: قال أبو جعفر لجعفر بن إسحاق: مَن المرجَّي هذا؟ فعل الله به وفعل! قال: يا أمير المؤمنين؛ ذاك ابني، والله لئن شئت أن أنتفي منه لأفعلنّ. ومن بني عبد شمس محمد بن عبدالله بن عمرو بن سعيدبن العاص بن أمية بن عبد شمس.

قال: وحدثني أبو عاصم النّبيل، قال: حدثني عبّاد بن كثير، قال: خرج ابن عجلان مع محمد، وكان

على ثقَله، فلما ولي جعفر بن سليمان المدينة قيّده، فدخلت عليه، فقلت: كيف ترى رأي أهل البصرة في رجل قيّد الحسن؟ قال: سيّئاً والله، قال: قلت: فإن ابن عجلان بهذه كالحسن، ثمَّ، فتركه. ومحمد بن عجلان مولى فاطمة بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس.

وحدّثني سعيد بن عبد الحميد بن جعفر بن عبدالله، أنّ عبيدالله بن عمر بن حفص بن عاصم خرج معه؛ فأتِيَ به أبو جعفر بعد قتل محمد، فقال له: أنت الخارج عليّ مع محمد؟ قال: لم أجد إلّا ذلك أو الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ، قال عمر: هذا وهْمٌ.

قال: وحدثني عبد العزيز بن أبي سلمة بن عبيدالله بن عبدالله بن عمر، قال: كان عبيدالله قد أجاب محمداً إلى الخروج معه؛ فمات قبل أن يخرج، وخرج معه أبو بكر بن عبدالله بن محمد بن أبي سَبْرة بن أبي رُهم بن عبد العُزّي بن أبي قيس بن عبد وُدّ بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤيّ، وخرج معه عبد الواحد بن أبي عون مولى الأزد وعبدالله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسوَر بن مخرمة وعبد العزيز بن محمد الدَّراوَرْديّ وعبد الحميد بن جعفر وعبدالله بن عطاء بن يعقوب مولى بني سباع، وابن سباع من خُزاعة حليف بني زُهرة، وبنو إبراهيم وإسحاق وربيعة وجعفر وعبدالله وعطاء ويعقوب وعثمان وعبد العزيز؛ بنو عبدالله بن عطاء.

وحدّثني إبراهيم بن مُصعب بن عُمارة بن حمزة بن مُصعب بن الزبير. قال: وحدّثني الزُّبير بن خُبيب بن ثابت بن عبدالله بن الزُّبير، قال: إنا لبالمُرّ من بطن إضَم، وعندي زوجتي أمينة بنت خضير؛ إذ مرّ بنا رجل مصعِد من المدينة، فقالت له: ما فعل محمد؟ قال: قُتِل، قالت: فما فعل ابن خُضير؟ قال: قُتل فخرّت ساجدة، فقلت: أتسجدين أنْ قُتِل أخوك! قالت: نعم، أليس لم يفرّ ولم يُؤسَر!

قال عيسى: حدّثني أبي، قال: قال أبو جعفر لعيسى بن موسى: مَن استنصر مع محمد؟ قال: آل الزبير: قال: ومَنْ؟ قال: وآل عمر، قال: أما والله لعن غير مودّة بهما له ولا محبّة له ولا لأهل بيته. قال: وكان أبو جعفر يقول: لو وجدتُ ألفاً من آل الزّبير كلهم محسِن وفيهم مسيء واحدٌ لقتلتهم جميعاً، ولو وجدت ألفاً من آل عمر كلهم مسيء وفيهم مُحسِنٌ واحد لأعفيتُهم جميعاً.

قال عمر: وحدّثني إبراهيم بن مصعب بن عمارة بن حمزة بن مصعب، قال: حدّثني محمد بن عثمان بن محمد بن خالد بن الزّبير، قال: لما قُتِل محمد، هرب أبي وموسى بن عبدالله بن حسن وأنا معهما وأبو هبّار المزنيّ، فأتينا مكة، ثم انحدرنا إلى البصرة، فاكترينا من رجل يدعى حكيماً، فلما وردنا البصرة ـ وذلك بعد ثلث الليل ـ وجدنا الدُّروب مغلَقة، فجلسنا عندها حتى طلع الفجر؛ ثم دخلنا فنزلنا المِرْبَد، فلما أصبحنا أرسلنا حكيماً يبتاع لنا طعاماً؛ فجاء به على رجل أسود، في رجله حديدة، فدخل به علينا فأعطاه جُعْلة، فتسخّط علينا، فقلنا: زده، فتسخّط، فقلنا له: ويلك! أضعف له، فأبى، فاستراب بنا، وجعل يتصفّح وجوهنا. ثم خرج فلم ننشَب أن أحاطت بمنزلنا الخيل، فقلنا لربّة المنزل: ما بال الخيل؟ فقالت: لا بأس فيها، تطلب رجلاً من بني سَعْد يدعى نُميلة بن مُرّة، كان خرج مع إبراهيم. قال: فوالله ما راعنا إلّا بالأسود قد دُخل به علينا، قد غُطّي رأسه ووجهه. فلما دُخِل به كُشف عنه، ثم قيل: أهؤلاء؟ قال: نعم هؤلاء؛ هذا موسى بن عبدالله، وهذا عثمان بن محمد، وهذا ابنه؛ ولا أعرف الرابعَ غير أنه من أصحابهم. قال: فأخِذْنا جميعاً، فدُخل بنا على

محمد بن سليمان فلما نظر إلينا أقبل على موسى، فقال: لا وصل الله رحِمك! أتركتَ البلاد جميعاً وجئتني! فإمّا أطلقتُك فتعرّضتُ لأمير المؤمنين، وإمّا أخذتُك فقطعت رَحِمك. ثم كتب إلى أمير المؤمنين بخبرنا. قال: فجاء الجواب أن احملهم إليّ، فوُجّهنا إليه ومعنا جند، فلما صرنا بالبطيحة وجدنا بها جُنْداً آخر ينتظروننا؛ ثم لم نزلْ نأتي على المسالح من الجُنْد في طريقنا كله، حتى وردنا بغداد، فدُخل بنا على أبي جعفر، فلما نظر إلى أبي قال باهِيه! أخَرجتَ عليّ مع محمد! قال: قد كان ذاك؛ فأغلظ له أبو جعفر؛ فراجعه مليًّا، ثم أمر به فضُربت عنقه. ثم أمر بموسى فضُرِب بالسياط، ثم أمر بي فقُرّبت إليه، فقال: اذهبوا به فأقيموه على رأس أبيه؛ فإذا نظر إليه فاضربوا عنقَه على جيفته. قال: فكلمه عيسى بن عليّ، وقال: والله ما أحسبه بلغ؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، كنتُ غلاماً حدثا غِرًّا أمرني أبي فأطعتُه، قال: فأمر بي فضُربتُ خمسين سوطاً، ثم حبسني في المطبَق وفيه يومئذ يعقوب بن داود، فكان خير رفيق أرافقه وأعطفه، يُطعمني من طعامه، ويسقيني من شرابه، فلم نزل كذلك حتى تُوفِّيَ أبو جعفر، وقام المهديّ وأخرِج يعقوب، فكلمه فيّ فأخرجني.

قال: وحدّثني أيوب بن عمر، قال: حدّثني محمد بن خالد، قال: أخبرني محمد بن عروة بن هشام بن عُروة، قال: إني لعند أبي جعفر، إذْ أتى فقيل له: هذا عثمان بن محمد بن خالد قد دُخِل به، فلما رآه أبو جعفر، قال: أين المال الذي عندك؟ قال: دفعته إلى أمير المؤمنين رحمه الله، قال: ومَنْ أمير المؤمنين؟ قال: محمد بن عبدالله، قال: أبايعتَه؟ قال: نعم كما بايعتَه، قال: يابن اللخناء! قال: ذاكَ مَنْ قامت عنه الإماء، قال: اضرب عنقه، قال: فأخِذ فضربت عنقه.

قال: وحدثني سعيد بن عبد الحميد بن جعفر، قال: حدّثني محمد بن عثمان بن خالد الزُّبيريّ، قال: لما خرج محمد خرج معه رجلٌ من آل كثير بن الصلت، فلما قتِل وهُزِم أصحابه تغيّبوا؛ فكان أبي والكثيريّ فيمن تغيّب، فلبثوا بذلك؛ حتى قدم جعفر بن سليمان والياً على المدينة، فاشتدّ في طلب أصحاب محمد، فاكترى أبي من الكثيريّ إبلاً كانت له، فخرجنا متوجّهين نحو البصرة؛ وبلغ الخبر جعفراً، فكتب إلى أخيه محمد يعلمه بتوجّهنا إلى البصرة، ويأمره بالترصّد لنا والتيقظ لأمرنا ومقدمنا، فلما قدمنا علم محمد بمقدمنا ومكاننا، فأرسل إلينا فأخِذنا، فأتِيَ بنا، فأقبل عليه أبي، فقال: يا هذا، اتّق الله في كَرِيّنا هذا؛ فإنه أعرابيّ لا علم له بنا، إنما أكْرانا ابتغاء الرزق، ولو علمبجريرتنا ما فعل؛ وأنت معرّضه لأبي جعفر؛ وهو مَنْ قد علمت؛ فأنت قاتله ومتحمّل مأثمه. قال: فوَجَم محمد طويلاً، ثم قال: هو والله أبو جعفر، والله ما أتعرّض له، ثم حُمِلنا جميعاً فدخلنا على أبي جعفر؛ وليس عنده أحد يعرف الكثيريّ غير الحسن بن زيد، فأقبل على الكثيريّ، فقال: يا عدوّ الله، أتكري عدوّ أمير المؤمنين، ثم تنقله من بلد إلى بلد، تواريه مرة وتظهره أخرى! قال: يا أميرَ المؤمنين، وما علمِي بخبَره وجريرته وعدواته إياك! إنما أكريتُه جاهلاً به، ولا أحسِبه إلاّ رجلاً من المسلمين، بريء الساحة؛ سلم الناحية؛ ولو علمت حاله لم أفعل. قال: وأكبّ الحسن بن زيد ينظر إلى الأرض، لا يرفع رأسه. قال: فأوعد أبو جعفر الكثيريّ وتهدده، ثم أمر بإطلاقه، فخرج فتغيّب، ثم أقبل على أبي، فقال: هيه يا عثمان! أنتَ الخارج على أمير المؤمنين، والمعينُ عليه! قال: بايعتُ أنا وأنت رجلاً بمكة، فوَفَيتُ ببيعتي وغدرتَ ببيعتك. قال: فأمر به فضربت عنقه.

قال: وحدّثني عيسى، قال: حدّثني أبي، قال: أتِيَ أبو جعفر بعبد العزيز بن عبدالله بن

عمر بن الخطاب، فنظر إليه فقال: إذا قتلتُ مثل هذا من قريش فمن أستبقي! ثم أطلقه، وأتي بعثمان بن محمد بن خالد فقتله، وأطلق ناساً من القرشيّين، فقال له عيسى بن موسى: يا أميرَ المؤمنين، ما أشقَى هذا بك من بينهم! فقال: إن هذا يدي.

قال: وحدّثني عيسى، قال: سمعتُ حسن بن زيد يقول: غدوتُ يوماً على أبي جعفر؛ فإذا هو قد أمر بعمل دكان، ثم أقام عليه خالداً. وأتِيَ بعليّ بن المطلب بن عبدالله بن حنطب، فأمر به فضُرِب خمسمائة سوط. ثم أتِيَ بعبد العزيز بن إبراهيم بن عبدالله بن مطيع فأمر به فجُلِد خمسمائة سوط؛ فما تحرّك واحد منهما، فقال لي: هل رأيتَ أصبر من هذين قطّ! والله إنا لنؤتَى بالذين قد قاسوْا غلظ المعيشة وكدّها، فما يصبرون هذا الصبر، وهؤلاء أهل الخفض والكِنّ والنعمة، قلت: يا أميرَ المؤمنين، هؤلاء قومك أهلُ الشرف والقَدْر، قال: فأعرض عني، وقال: أبيتَ إلا العصبيّة! ثم أعاد عبد العزيز بن إبراهيم بعد ذلك ليضربه، فقال: يا أميرَ المؤمنين، الله الله فينا! فوالله إني لمكبّ على وجهي منذ أربعين ليلة، ما صلّيتُ لله صلاة! قال: أنتم صنعتم ذلك بأنفسكم، قال: فأين العفو يا أمير المؤمنين؟ قال: فالعفو والله إذاً، ثم خلّى سبيلة.

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابنُ سعد، عن محمد بن عمر، قال: كثروا محمداً وألحّوا في القتال حتى قتِل محمد في النصف من شهر رمضان سنة خمسة وأربعين ومائة، وحمِل رأسه إلى عيسى بن موسى، فدعا ابنَ أبي الكرام، فأراه إياه، فعرّفه فسجد عيسى بن موسى، ودخل المدينة، وآمن الناسَ كلهم. وكان مكث محمد بن عبدالله من حين ظهر إلى أن قتل شهرين وسبعة عشر يوماً.

وفي هذه السنة: استخلف عيسى بن موسى على المدينة كَثير بن حُصين حين شخص عنها بعد مقتل محمد بن عبدالله بن حسن؛ فمكث والياً عليها شهراً، ثم قدم عبدالله بن الرّبيع الحارثي والياً عليها من قِبَل أبي جعفر المنصور.

وفي هذه السنة ثارت السودان بالمدينة بعبدالله بن الربيع، فهرب منهم.

ذكر الخبر عن وثوب السودان بالمدينة في هذه السنة والسبب الذي هيّج ذلك

ذكر عمر بن شبة أنّ محمد بن يحيى حدثه، قال: حدّثني الحارث بن إسحاق، قال: كان رياح بن عثمان استعمل أبا بكر بن عبدالله بن أبي سَبْرة على صدَقة أسد وطيّىء فلما خرج محمد أقبل إليه أبو بكر بما كان جبا وشمّر معه، فلما استخلف عيسى كثير بن حصين على المدينة أخذ أبا بكر، فضربه سبعين سوطاً وحدّده وحبسه. ثم قدِم عبدالله بن الرّبيع والياً من قِبَل أبي جعفر يوم السبت لخمس بقين من شوّال سنة خمس وأربعين ومائة، فنازع جنده التجار في بعض ما يشترونه منهم، فخرجت طائفة من التجار حتى جاؤوا دار مَرْوان، وفيها ابنُ الربيع، فشكوْا ذلك إليه، فنهرهم وشتمهم، وطمع فيهم الجند، فتزايدوا في سوء الرأي.

قال: وحدثني عمر بن راشد، قال: انتهب الجند شيئاً من متاع السوق، وغدوْا على رجل من الصّرّافين يدعى عثمان بن زيد، فغالبوه على كيسه؛ فاستغاث فخلّص، مالَه منهم، فاجتمع رؤساء أهل المدينة فشكوْا ذلك إلى ابن الربيع فلم ينكرْه ولم يغيّره، ثم جاء رجل من الجند فاشترى من جزّار لحماً يومَ الجمعة، فأبى أن

يعطيَه ثمنه، وشهر عليه السيف؛ فخرج عليه الجزّار من تحت الوَضَم بشَفْرة، فطعن بها خاصرَته، فخرّ عن دابته، واعتوره الجزّارون فقتلوه، وتنادى السودان عن الجند وهم يروحون إلى الجمعة فقتلوهم بالعُمُد في كلّ ناحية، فلم يزالوا على ذلك حتى أمسَوْا؛ فلما كان الغد هربَ ابن الربيع.

قال: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني الحارث بن إسحاق، قال: نفخ السودان في بُوق لهم؛ فذكر لي بعضُ مَنْ كان في العالية وبعض مَنْ كان في السافلة، أنه كان يرى الأسود من سكّانها في بعض عمله يسمع نفْخَ البوق، فيصغِي له حتى يتيقّنه ثم يوحّش بما في يده، ويأتمّ الصوتَ حتى يأتيه. قال: وذلك يوم الجمعة لسبع بقين من ذي الحجة من سنة خمس وأربعين ومائة، ورؤساء السودان ثلاثة نفر: وثيق ويعقل ورمقة. قال: فغدوْا على ابن الربيع، والناس في الجمعة فأعجلوهم عن الصّلاة، وخرج إليهم فاستطردُوا له؛ حتى أتى السوق فمرَّ بمساكين خمسة يسألون في طريق المسجد، فحمل عليهم بمَنْ معه حتى قتلوهم، ثم مر بأصَيْبِيَة على طَنَف دار، فظنّ أن القوم منهم؛ فاستنزلهم واختدعهم وآمنهم؛ فلما نزلوا ضرب أعناقهم، ثم مضى ووقف عن الحنّاطين، وحمل عليه السودانُ، فأجلى هارباً فاتّبعوه حتى صار إلى البَقِيع، ورهقوه فنثر لهم دارهم؛ فشغلهم بها، ومضى على وجهه حتى نزل ببطن نَخْل، عن ليلتين من المدينة.

قال: وحدّثني عيسى، قال: خرج السّودان على ابن الربيع، ورؤساؤهم: وثيق وحَدْيا وعُنقود وأبو قيس؛ فقاتلهم فهزموه، فخرج حتى أتى بطْن نَخْل فأقام بها.

وحدّثني عمر بن راشد، قال: لما هربَ ابنُ الربيع وقع السودان في طعام لأبي جعفر من سَوِيق ودقيق وزيْت وقَسْب، فانتهبوه، فكان حِمْل الدّقيق بدرهمين، وراوية زيت بأربعة دراهم.

وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني الحارث بن إسحاق، قال: أغاروا على دار مَرْوان ودار يزيد؛ وفيهما طعام كان حُمل للجنْد في البحر، فلم يدَعوا فيهما شيئاً. قال: وشخص سليمان بن فُلَيح بن سليمان في ذلك اليوم إلى أبي جعفر، فقدم عليه فأخبره الخبر.

قال: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني الحارث بن إسحاق قال: وقتل السودان نفراً من الجُنْد، فهابهم الجند حتى أن كان الفارس ليلقي الأسود وما عليه إلا خِرْقتان على عَوْرته ودُرّاعة، فيولّيه دُبُره احتقاراً له، ثم لم ينشب أن يشدّ عليه بعمود من عُمُد السوق فيقتله: فكانوا يقولون: ما هؤلاء السودان إلا سَحرة أو شياطين!

قال: وحدّثني عُثامة بن عمرو السهميّ، قال: حدّثني المسوَر بن عبد الملك، قال: لما حبَس ابن الربيع أبا بكر بن أبي سَبْرة، وكان جاء بجباية طيّىء وأسد، فدفعها إلى محمد، أشفق القرشيّون على ابن أبي سَبْرة، فلما خرج السودان على ابن الربيع، خرج ابن أبي سَبْرة من السجن، فخطب الناس، ودعاهم إلى الطاعة، وصلّى بالناس حتى رجع ابن الربيع.

قال: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني الحارث بن إسحاق، قال: خَرج ابن أبي سَبْرة من السجْن والحديد عليه، حتى أتى المسجد، فأرسل إلى محمد بن عمران ومحمد بن عبد العزيز وغيرهما، فاجتمعوا عنده، فقال: أنشدكم الله وهذه البليّة التي وقعت! فوالله لئن تمتْ علينا عند أمير المؤمنين بعد الفَعْلة الأولى، إنه

لاصطلامُ البلد وأهله، والعبيدُ في السوق بأجمعهم، فأنشدكم الله إلاّذهبتم إليهم فكلمتموهم في الرّجْعة والفيئة إلى رأيكم، فإنهم لا نظام لهم. ولم يقوموا بدعوة؛ وإنما هم قوم أخرجتهم الحميّة! قال: فذهبوا إلى العبيد فكلموهم، فقالوا: مرحباً بكم يا موالينا؛ والله ما قمنَا إلا أنفَةً لكم مما عُمِل بكم، فأيدينا مع أيديكم وأمرُنا إليكم، فأقبلوا بهم إلى المسجد.

وحدّثني محمد بن الحسن بن زَبالة، قال: حدّثني الحسين بن مُصعب، قال: لما خرج السودان وهرب ابن الرّبيع، جئتُهم أنا وجماعة معي، وقد عسكروا في السوق، فسألناهم أن يتفرّقوا، وأخبرناهم أنّا وإياهم لا نقوى على ما نصبو له، قال: فقال لنا وثيق: إنّ الأمر قد وقع بما ترْون؛ وهو غير مبقٍ لنا ولا لكم، فدعونا نشفِكم ونشتفِ أنفسنا، فأبينا، ولم نزل بهم حتى تفرّقوا.

وحدّثني عمر بن راشد، قال: كان رئيسهم وثيق وخليفته يعقل الجزّار. قال: فدخل عليه ابنُ عمران، قال: إلى مَنْ تعهد يا وثيق؟ قال: إلى أربعة من بني هاشم، وأربعة من قُريش، وأربعة من الأنصار، وأربعة من الموالي؛ ثم الأمر شورى بينهم. قال: أسأل الله إن ولاك شيئاً من أمرنا أن يرزقنَا عدلك، قال: قَدْ والله ولاّنيه الله.

قال: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني الحارث بن إسحاق، قال: حضر السُّودان المسجد مع ابن أبي سَبْرة، فرَقِيَ المنبر في كَبْل حديد حتى استوَى في مجلس رسول الله ﷺ، وتبعه محمد بن عمران، فكان تحته، وتبعهم محمد بن عبد العزيز فكان تحتها، وتبعهم سليمان بن عبدالله بن أبي سَبْرة، فكان تحتهم جميعاً؛ وجعل الناس يلغطون لغطاً شديداً، وابن أبي سبرة جالسٌ صامتٌ. فقال ابن عمران: أنا ذاهب إلى السوق، فانحدر وانحدر مَنْ دونه، وثبت ابن أبي سَبْرة، فتكلّم فحثّ على طاعة أمير المؤمنين؛ وذكر أمر محمد بن عبدالله فأبلغ. ومضى ابن عمران إلى السوق، فقام على بَلاسٍ من بُلُس الحنطة، فتكلم هناك، فتراجع الناسُ؛ ولم يصلّ بالناس يومئذ إلا المؤذّن، فلما حضرت العشاء الآخرة وقد ثاب الناس، فاجتمع القرشيّون في المقصورة، وأقام الصلاة محمد بن عمار المؤذّن، الذي يلقّب كساكس، فقال للقرشيين: مَنْ يصلّي بكم؟ فلم يجبه أحدٌ، فقال: ألا تسمعون! فلم يجيبونه، فقال: يابن عمران، ويابن فلان، فلم يجبه أحدٌ، فقام الأصبغ بن سفيان بن عاصم بن عبدالعزيز بن مروان، فقال: أنا أصلي، فقام في المقام، فقال للناس: استووا، فلما استوت الصُّفوف أقبل عليهم بوجهِه، ونادى بأعلى صوته: ألا تسمعون! أنا الأصبغ بن سفيان بن عاصم بن عبد العزيز بن مروان، أصلّي بالناس على طاعة أبي جعفر، فردّد ذلك مرتين أو ثلاثاً، ثم كبّر فصلى، فلما أصبح الناس قال ابن أبي سبرة: إنه قد كان منكم بالأمس ما قد علمتم؛ نهبتم ما في دار عالمكم وطعامَ جند أمير المؤمنين، فلا يبقينّ عند أحد منكم شيء إلا ردّه، فقد أقعدتُ لكم الحكم بن عبدالله بن المغيرة بن موهب؛ فرفع الناسُ إليه ما انتهبُوا، فقيل: إنه أصاب قيمة ألف دينار.

وحدّثني عُثامة بن عمرو، قال: حدثني المسور بن عبد الملك، قال: ائتمر القرشيّون أن يدعوا ابن الربيع يخرج ثم يكلموه في استخلاف ابن أبي سَبْرة على المدِينة، ليتحلّل ما في نفس أميرَ المؤمنين عليه؛ فلما أخرجه السودان، قال له ابن عبد العزيز: أتخرج بغير والٍ استُخلف! ولّها رجلاً، قال: مَنْ؟ قال: قدامة بن موسى، قال: فصيح بقدامة، فدخل فجلس بين ابن الربيع وبين ابن عبد العزيز، فقال: ارجع يا قدامة، فقد وليتك

المدينة وأعمالها، قال: والله ما قال لك هذا مَنْ نصحك، ولا نَظَر لمن وراءه، ولا أراد إلّا الفساد، ولأحقّ بهذا مني ومنه مَنْ قام بأمر الناس وهو جالسٌ في بيته - يعني ابن أبي سبرة - ارجع أيّها الرجل؛ فوالله ما لك عذر في الخروج، فرجع ابن الربيع.

قال وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني الحارث بن إسحاق، قال: ركب ابن عبد العزيز في نفر من قريش إلى ابن الربيع، فناشدوه وهو ببطْن نخل إلّا رجع إلى عمله، فتأبّى. قال: فخلا به ابن عبد العزيز، فلم يزل به حتى رجع وسكن الناس وهدؤوا.

قال: وحدّثني عمر بن راشد، قال: ركب إليه ابن عمران وغيرُه وقد نزل الأعْوَص، فكلّموه فرجع، فقطع يد وثيق وأبي النار ويعقل ومِسْعر.

وفي هذه السنة أسست مدينة بغداد، وهي التي تدعى مدينة المنصور.

ذكر الخبر عن سبب بناء أبي جعفر إياها:

وكان سبب ذلك أنّ أبا جعفر المنصور بنى - فيما ذكر - حين أفضى الأمر إليه الهاشميّة، قبالَة مدينة ابن هُبيرة، بينهما عَرْض الطريق، وكانت مدينة ابن هبيرة التي بحيالها مدينة أبي جعفر الهاشميّة إلى جانب الكوفة. وبنى المنصور أيضاً مدينة بظهر الكوفة سماها الرُّصافة؛ فلما ثارت الرّاوندية بأبي جعفر في مدينته التي تسمّى الهاشميّة؛ وهي التي بحيال مدينة ابن هبيرة، كره سُكناها لاضطراب مَن اضطرب أمرُه عليه من الرّاوندية، مع قرب جواره من الكوفة، ولم يأمن أهلَها على نفسه، فأراد أن يبعُد من جوارهم؛ فذكر أنه خرج بنفسه يرتاد لَها موضعاً يتخذه مسكناً لنفسه وجنده، ويبتني به مدينة، فبدأ فانحدر إلى جَرْجَرَايا ثم صار إلى بغداد، ثم مضى إلى الموصل، ثم عاد إلى بغداد، فقال: هذا موضع معسكر صالحٌ، هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء، يأتينا فيها كلّ ما في البحر، وتأتينا المِيرة من الجزيرة وأرمينيَة وما حَول ذلك، وهذا الفُرات يجيء فيه كلّ شيء من الشأم والرّقّة وما حول ذلك. فنزل وضرب عسكره على الصّراة، وخطّ المدينة، ووكل بكل رُبْع قائداً.

وذكر عمر بن شبّة أنّ محمد بن معروف بن سُويد حدّثه، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثني سليمان بن مجالد، قال: أفسد أهلُ الكوفة جندَ أمير المؤمنين المنصور عليه، فخرج نحو الجبل يرتاد منزلاً، والطريق يومئذ على المدائن، فخرجنا على ساباط، فتخلّف بعضُ أصحابي لرمَد أصابه، فأقام يعالج عينيْه، فسأله الطبيب: أين يريد أميرا المؤمنين؟ قال: يرتاد منزلاً؛ قال: فإنا نجد في كتاب عندنا، أن رجلاً يدعى مقلاصاً، يبني مدينة بين دَجْلة والصّراة تدعى الزَّوْراء، فإذا أسسها وبنى عَرَقاً منها أتاه فَتْق من الحِجاز، فقطع بناءها، وأقبل على إصلاح ذلك الفَتْق، فإذا كاد يلتئم أتاه فَتْق من البصرة هو أكبر عليه منه؛ فلا يلبث الفتقان أن يلتئما، ثم يعود إلى بنائها فيتمّه، ثم يعمّر عمراً طويلاً، ويبقى الملك في عقبه. قال سليمان: فإنّ أميرَ المؤمنين لبأطراف الجبال في ارتياد منزل؛ إذْ قدم عليّ صاحبي فأخبرني الخبر فأخبرتُ به أميرَ المؤمنين، فدعا الرّجل فحدّثه الحديث، فكرّ راجعاً عَوْدَهُ على بدئه، وقال: أنا والله ذاك! لقد سُمِّيتُ مقْلاصا وأنا صبّي، ثم انقطعتْ عني.

وذُكر عن الهيثم بن عديّ، عن ابن عياش، قال: لمّا أراد أبو جعفر الانتقال من الهاشمية بعث روّاداً يرتادون له موضعاً ينزله واسطاً، رافقاً بالعامة والجُنْد، فنُعت له موضع قريب من بارِمّا، وذُكِر له عنه غذاء طيّب، فخرج إليه بنفسه حتى ينظر إليه، وبات فيه، وكرّر نظره فيه، فرآه موضعاً طيباً، فقال لجماعة من

أصحابه؛ منهم سليمان بن مجالد وأبو أيوب الخوزيّ وعبد الملك بن حميد الكاتب وغيرهم: ما رأيُكم في هذا الموضع؟ قالوا: ما رأينا مثله، هو طيّب صالحٌ موافقٌ، قال: صدقتم؛ هو هكذا؛ ولكنه لا يحمل الجندَ والناس والجماعات، وإنما أريد موضعاً يرتفق الناس به ويوافقهم مع موافقته لي، ولا تغلو عليهم فيه الأسعارُ، ولا تشتدّ فيه المؤونة، فإني إن أقمت في موضع لا يجلبَ إليه من البرّ والبحر شيء غَلَت الأسعار، وقلّت المادّة، واشتدَّت المؤونة، وشقَّ ذلك على الناس؛ وقد مررتُ في طريقي على موضع فيه مجتمعة هذه الخصال؛ فأنا نازل فيه، وبائت به؛ فإن اجتمع لي فيه ما أريد من طِيب الليل والموافقة مع احتماله للجند والناس أبتنيه.

قال الهيثم بن عديّ: فخُبِّرت أنه أتى ناحية الجسْر، فعبر في موضع قصر السلام، ثمّ صلى العصر ـ وكان في صَيْف، وكان في موضع القصر بِيعة قَسّ ـ ثم باتَ ليلةً حتى أصبح، فبات أطيب مبيت في الأرض وأرفقَه، وأقام يومه فلم ير إلا ما يحبّ، فقال: هذا موضع أبني فيه؛ فإنه تأتيه المادّة من الفرات ودِجْلة وجماعة من الأنهار، ولا يحمل الجندَ والعامّة ألاّ مثلُه، فخطّها وقـدّر بناءهـا، ووضع أوّل لَبِنـة بيده، وقـال: بسم الله والحمد لله، والأرض لله يورثها من يشاءُ من عباده والعاقبة للمتقين. ثم قال: ابنُوا على بركة الله.

وذُكِر عن بِشْر بن ميمون الشرويّ وسليمان بن مجالد، أنّ المنصور لما رجع من ناحية الجبل، سأل عن خبر القائد الذي حدّثه عن الطبيب الذي أخبره عمّا يجدون في كتبهم من خبر مِقْلاص، ونزلَ الدّيْر الذي هو حذاء قصره المعروف بالخُلْد، فدعا بصاحب الدَّيْر، وأحضر البِطريق صاحب رحا البِطريق وصاحب بغداد وصاحب المخرّم وصاحب الدير المعروف ببستان القسّ وصاحب العتيقة، فسألهم عن مواضعهم، وكيف هي في الحرّ والبرد والأمطار والوحول والبقّ والهوامّ؟ فأخبره كلّ واحد بما عنده من العلم، فوجّه رجالاً من قِبَله، وأمر كلَّ واحد منهم أن يبيتَ في قرية منها، فبات كلُّ رجل منهم في قرية منها، وأتاه بخبرها. وشاور المنصور الذين أحضرهم، وتنحّر أخبارهم؛ فاجتمع اختيارهم على صاحب بغداد، فأحضره وشاوره، وساءله ـ فهو الدّهقان الذي قريته قائمة إلى اليوم في المربّعة المعروفة بأبي العباس الفضل بن سليمان الطوسيّ، وقباب القرية قائم بناؤها إلى اليوم، وداره ثابتة على حالها ـ فقال: يا أميرَ المؤمنين، سألتني عن هذه الأمكنةِ وطيبها وما يُختار منها؛ فالذي أرى يا أمير المؤمنين أن تنزل أربعة طَسَاسيج في الجانب الغربيّ طسّوجَيْن وهما قطربُّل وبادورَيا، وفي الجانب الشرقيّ طَسّوجَيْنْ وهما نهر بوق وكَلْواذَي، فأنت تكون بين نخل وقرب الماء، فإن أجدب طسُّوج وتأخّرت عِمارته كان في الطسّوج الآخر العِمارات، وأنت يا يا أمير المؤمنين على الصَّراة، تجيئك الميرة في السفن من المغرب في الفرات، وتجيئك طرائف مصر والشأم، وتجيئك الميرة في السفن من الصين والهند والبصرة وواسط في دجلة، وتجيئك الميرة من أرمينيَة وما اتصل بها في تامَرّا حتى تصل إلى الزاب، وتجيئك الميرة من الرّوم وآمِد والجزيرة والموصل في دِجلة، وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوّك إلا على جِسْر أو قنطرة؛ فإذا قطعت الجسر وأخربت القناطر لم يصلْ إليك عدّوك، وأنتَ بين دِجْلة والفرات لا يجيئك أحدٌ من المشرق والمغرب إلاّ احتاج إلى العُبور، وأنت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسَّوَاد كله، وأنت قريب من البرّ والبحر والجبل. فازداد المنصور عزمـاً على النزول في الموضع الذي اختاره. وقال له: يا أميرَ المؤمنين؛ ومع هذا فإنّ الله قد منَّ على أمير المؤمنين بكثرة جيوشه وقوّاده وجنده؛ فليس أحد من أعدائه يطمع في الدنوّ منه، والتدبيرُ في المدن أن تتخذ لها الأسوار والخنادق، والحصون، ودجلة والفرات خنادق لمدينة أمير المؤمنين.

وذكر عن إبراهيم بن عيسى أن حماداً التركيّ، قال: بعث المنصور رجالاً في سنة خمس وأربعين ومائة، يطلبون له موضعاً يبني فيه مدينته، فطلبوا وارتادوا، فلم يرض موضعاً، حتى جاء فنزل الدَّيْر على الصَّرَاة، فقال: هذا موضع أرضاه، تأتيه الميرة من الفرات ودِجْلة، ومن هذه الصراة.

وذكر عن محمد بن صالح بن النطاح عن محمد بن جابر، عن أبيه، قال: لما أراد أبو جعفر أن يبني مدينته ببغداد رأى راهباً، فناداه فأجابه، فقال: تجدُون في كتبكم أنه تبنى هاهنا مدينة؟ قال الرّاهب: نعم، يبنيها مِقْلاص؛ قال أبو جعفر: أنا كنت أدعى مِقلاصاً في حداثتي. قال: فأنت إذاً صاحبُها، قال: وكذلك لما أراد أن يبني الرّافقة بأرض الروم امتنع أهل الرّقة، وأرادوا محاربته، وقالوا: تعطّل علينا أسواقنا، وتذهب بمعاشنا، وتضيق منازلنا، فهمّ بمحاربتهم، وبعث إلى راهب في الصَّوْمعة، فقال: هل عندك علم أن يبنى ها هنا مدينة؟ فقال له: بلغني أنّ رجلاً يقال له مقلاص يبنيها، قال: أنا مقلاص؛ فبناها على بناء مدينة بَغْداد، سوَى السّور وأبواب الحديد وخندقٍ منفرد.

وذكِر عن السريّ، عن سليمان بن مجالد، أنّ المنصور وجّه في حشْر الصنّاع والفَعَلة من الشأم والموصل والجبل والكوفة وواسط والبصرة، فأحضرُوا، وأمر باختيار قوم من ذوي الفضل والعَدَالة والفِقْه والأمانة والمعرفة بالهندسة؛ فكان ممّن أحضر لذلك الحجاج بن أرطاة وأبو حنيفة النعمان بن ثابت، وأمر بخطّ المدينة وحفر الأساسات، وضرب اللّبِن وطبخ الآجرّ، فبدىء بذلك؛ وكان أول ما ابتدىء به في عملها سنة خمس وأربعين ومائة.

وذكِر أن المنصور لما عزم على بنائها أحبّ أن ينظر إليها عَيانا، فأمر أن يخطّ بالرّماد، ثم أقبل يدخل من كلّ باب، ويمرّ في فُصلانها وطاقاتها ورحابها، وهي مخطوطة بالرّماد، ودار عليهم ينظر إليهم وإلى ما خطّ من خنادقها؛ فلما فعل ذلك أمر أن يجعل على تلك الخطوط حبّ القطن، وينصب عليه النِّفْط، فنظر إليها والنار تشتعل، ففهمها وعرف رسمها، وأمر أن يحفر أساس ذلك على الرسم، ثم ابتدىء في عملها.

وذُكِر عن حمّاد التركيّ أنّ المنصور بعثَ رجالاً يطلبون له موضعاً يبنى فيه المدينة، فطلبوا ذلك في سنة أربع وأربعين ومائة، قبل خروج محمد بن عبد الله بسنَة أو نحوها، فوقع اختيارهم على موضع بغداد؛ قرية على شاطىء الصراة؛ مما يلي الخُلْد، وكان في موضع بناء الخُلْد دَيْر، وكان في قَرْن الصَّراة مما يلي الخُلْد من الجانب الشرقيّ أيضاً قرية وَديْر كبير كانت تسمّى سوق البقر؛ وكانت القرية تسمى العتِيقة؛ وهي التي افتتحها المثنّى بن حارثة الشيبانيّ، قال: وجاء المنصور، فنزل الدّيرْ الذي في موضع الخُلْد على الصّراة، فوجده قليل البقّ، فقال: هذا موضع أرضاه، تأتيه الميرة من الفُرات ودِجْلة، ويصلح أن تبتني فيه مدينة؛ فقال للراهب الذي في الدير: يا راهب، أريد أن أبني ها هنا مدينة، فقال: لا يكون، إنما يَبني ها هنا مَلِك يقال له أبو الدوانيق؛ فضحك المنصور في نفسه، وقال: أنا أبو الدوانيق. وأمر فخُطّت المدينة، ووكّل بها أربعة قوّاد، كلّ قائد بربع.

وذُكر عن سليمان بن مجالد، أنّ المنصور أراد أبا حنيفة النعمان بن ثابت على القَضاء، فامتنع من ذلك، فحلف المنصور أن يتولّى له، وحلف أبو حنيفة ألاّ يفعل، فولاّه القيام ببناء المدينة وضرب اللَّبِن وعدّه، وأخْذ الرجال بالعمل. قال: وإنما فعل المنصور ذلك ليخرج من يمينه؛ قال: وكان أبو حنيفة المتولّي لذلك، حتى فرغ

من استتمام بناء حائط المدينة مما يلي الخندق، وكان استتمامه في سنة تسع وأربعين ومائة.

وذُكِر عن الهيثم بن عديّ، أن المنصور عرضَ على أبي حنيفة القضاء والمظالم فامتنع، فحلَف ألّا يُقلع عنه حتى يعمل، فأخبر بذلك أبو حنيفة، فدعا بقصبَة، فعدّ اللبن على رجل قد لبَّنه، وكان أبو حنيفة أوّل مَنْ عدّ اللّبِن بالقصب؛ فأخرَج أبا جعفر عن يمينه، واعتلّ فمات ببغداد.

وقيل: إنّ أبا جعفر لما أمر بحفر الخندق وإنشاء البناء وإحكام الأساس؛ أمر أن يجعل عرض السور من أسفله خمسين ذراعاً، وقدّر أعلاه عشرين ذراعاً، وجعل في البناء جوائز قَصَب مكان الخشب، في كل طرقة؛ فلمّا بلغ الحائط مقدار قامة ـ وذلك في سنة خمس وأربعين ومائة ـ أتاه خبر خروج محمد فقطع البناء.

وذكر عن أحمد بن حميد بن جبلة، قال: حدّثني أبي، عن جـدّي جبلة، قال: كانت مدينة أبي جعفر قبل بنائها مزرعة للبغداديّين، يقال لها المباركة، وكانت لستين نفساً منهم، فعوّضهم منها وأرضاهم، فأخذ جدّي قسمة منها.

وذكر عن إبراهيم بن عيسى بن المنصور، أنّ حماداً التركيّ قال: كان حول مدينة أبي جعفر قرىً قبل بنائها؛ فكان إلى جانب باب الشأم قرية يقال لها الخَطابية، على بابَ درْب النُّورة، إلى درب الأقفاص، وكان بعض نخلها في شارع باب الشأم، إلى أيام المخلوع في الطريق، حتى قطع في أيام الفِتنة، وكانت الخطّابية هذه لقوم من الدّهاقين، يقال لهم بنو فَرْوة وبنو قنورا؛ منهم إسماعيل بن دينار ويعقوب بن سليمان وأصحابهم.

وذكِر عن محمد بن موسى بن الفرات أنّ القرية التي في مربّعة أبي العباس كانت قرية جدّه من قِبَل أمّه، وأنهم من دهاقين يقال لهم بنو زُرارى؛ وكانت القرية تسمى الوردانيّة، وقرية أخرى قائمة إلى اليوم مما يلي مربعة أبي فروة.

وذكر عن إبراهيم بن عيسى أن المعروفة اليوم بدار سعيد الخطيب كانت قرية يقال لها شَرفانيّة، ولها نخيل قائم إلى اليوم مما يلي قنطرة إبي الجُون، وأبو الجون من دَهاقين بغداد من أهل هذه القرية.

وذُكِر أن قطيعة الربيع كانت مزارع للناس من قرية يقال لها بناوري من رُستاق الفرْوسيَجَ من بادُوريا.

وذكر عن محمد بن موسى بن الفرات، أنه سمع أباه أو جدّه ـ شك راوي ذلك عنه ـ يقول: دخل عليّ رجل من دهاقين بادُوريا وهو مخرّق الطيْلسان؛ فقلت له: مَنْ خرّق طيلسانك؟ قال: قال: خُرِق والله في زحمة الناس اليوم، في موضع طالما طردت فيه الأرانب والظباء ـ يريد باب الكرخ.

ويقال: إن قطيعة الربيع الخارجة إنما هي أقطاع المهديّ للربيع، وأنّ المنصور إنما كان أقطعه الداخلة.

وقيل: إن نهر طابق كسرويّ، وإنه نهر بابك بن بهرام بن بابك، وأن بابك هذا هو الذي اتّخذ العَقْر الذي عليه قصر عيسى بن عليّ، واحتفر هذا النهر.

وذكر أنّ فُرْضة جعفر إقطاع من أبي جعفر لابنه جعفر، وأن القنطرة العتيقة من بناء الفرس.

وذكر عن حماد التركيّ، قال: كان المنصور نازلاً بالدّير الذي على شـاطىء دجلة بالمـوضع المعـروف بالخُلْد، ونحن في يوم صائف شديد الحرّ في سنة خمس وأربعين ومائة؛ وقـد خرجت فجلستُ مـع الربيـع

وأصحابه، إذ جاء رجل، فجاوز الحرس إلى المقصورة، فأستأذن فإذن المنصور به، وكان معه سلم بن أبي سَلْم، فأذن له فخبّره بخروج محمد، فقال المنصور: نكتب الساعة إلى مصر أن يقطع عن الحَرَمينْ المادة، ثم قال: إنما هم في مثل حَرَجَة، إذا انقطعت عنهم المادّة والميرة من مِصْر. قال: وأمر بالكتاب إلى العباس بن محمد ـ وكان على الجزيرة يخبره بخبر محمد ـ وقال: إني راحل ساعة كتبتُ إلى الكوفة، فأمدّني في كلّ يوم بما قدرتَ عليه من الرّجال من أهل الجزيرة. وكتب بمثل ذلك إلى أمراء الشأم، ولو أن يَرِد عليّ في كل يوم رجل واحد أكثر به مَنْ معي من أهل خراسان، فإنه إن بلغ الخبر الكذّاب انكسر، ثم لم يزل بها حتى انقضت الحرب بينه وبين محمد وإبراهيم، فلما فرغ منهما رجع إلى بغداد.

وذُكِر عن أحمد بن ثابت، قال: سمعتُ شيخاً من قريش يحدّث أنّ أبا جعفر لما فصَل من بغداد، متوجّهاً نحو الكوفة، وقد جاءه البريد بمخرَج محمد بن عبد الله بالمدينة، نظر إليه عثمان بن عُمارة بن حريم وإسحاق بن مسلم العقيليّ وعبد الله بن الربيع المدانيّ ـ وكانوا من صحابته ـ وهو يسير على دابتّه وبنو أبيه حوله. فقال عثمان: أظنّ محمداً خائباً ومن معه من أهل بيته؛ إنّ حَشو ثياب هذا العباسيّ لمكرٌ ونُكر ودهاء؛ وإنه فيما نصب له محمد من الحرب لكما قال ابن جِذْل الطِّعان:

فَكَمْ من غارة ورَعيل خَيْلٍ تداركها وقد حَمِيَ اللِّقاءُ
فردّ مخيلَها حتّى ثناها بأَسْمَر ما يُرَى فِيهِ التواءُ

قال: فقال إسحاق بن مسلم: قد والله سبرتُه ولمست عودَه فوجدته خشناً، وغمزته فوجدته صليباً، وذقته فوجدته مُرّا؛ وأنه ومَنْ حوله من بني أبيه لكما قال ربيعة بن مُكدّم:

سَمَا لِيَ فُرْسانٌ كأنَّ وجوهَهُمْ مصابيح تَبْدُو في الظلام زَوَاهِرُ
يَقُودُهُمُ كبْشٌ أَخُو مُصْمَئِلَّةٍ عَبُوسُ السُّرَى قَدْ لَوَّحْته الهَوَاجِرُ

قال: وقال عبد الله بن الربيع: هو ليث خِيسٍ، ضَيْغم شموس، للأقران مفترس، وللأرواح مختلس؛ وأنه يهيج من الحرب كما قال أبو سفيان بن الحارث:

وَإنَّ لَنَا شيخاً إذا الحربُ شَمَّرتْ بَدِيهَتُهُ الإقْدَامُ قَبْل النوافِرِ

قال: فمضى حتى سار إلى قصر ابن هُبيرة، فنزل الكوفة ووجّهَ الجيوش، فلما انقضت الحرب، رجع إلى بغداد فاستتمّ بناءها.

وفي هذه السنة ظهرَ إبراهيم بن عبد الله بن حسن، أخو محمد بن عبد الله بن حسن بالبصرة؛ فحارب أبا جعفر المنصور. وفيها قتل أيضاً.

ذكر الخبر عن سبب مخرجه وعن مقتله وكيف كان:

فذُكر عن عبد الله بن محمد بن حفص، قال: حدَّثني أبي، قال: لما أخَذ أبو جعفر عبدَ الله بن حسن، أشفق محمد وإبراهيم من ذلك، فخرجا إلى عَدَن، فخافا بها، وركبا البحر حتى صار إلى السِّنْد، فسعى بهما إلى عمر بن حفص، فخرجا حتى قدِما الكوفة وبها أبو جعفر.

وذكر عمر بن شبّة أنّ سعيد بن نوح الضُّبَعِيّ؛ ابن ابنة أبي الساج الضُّبَعيّ، حدّثه قال: حدثتني منة بنت أبي المنهال، قالت: نزل إبراهيم في الحيّ من بني ضُبَيعة في دار الحارث بن عيسى، وكان لا يرى بالنهار، وكانت معه أمّ ولد له؛ فكنت أتحدث إليها، ولا ندري مَنْ هم؛ حتى ظهر فأتيتها، فقلت: إنك لصاحبتي؟ فقالت: أنا هي؛ لا والله ما أقرّتنا الأرض منذ خمس سنين؛ مرّة بفارس، ومرّة بكَرْمان، ومرّة بالحجاز، ومرّة باليمن.

قال عمر: حدثني أبو نعيم الفضل بن دُكين، قال: حدّثني مطهر بن الحارث، قال: أقبلنا مع إبراهيم من مكة نريد البصرة، ونحن عشرة، فصحبَنا أعرابيّ في بعض الطريق، فقلنا له: ما اسمك؟ قال: فلان بن أبي مصاد الكلبيّ، فلم يفارقنا حتى قربنا من البصرة؛ فأقبل عليّ يوماً، فقال: أليس هذا إبراهيم بن عبد الله بن حسن؟ فقلت: لا، هذا رجل من أهل الشأم؛ فلما كنّا على ليلة من البصرة، تقدّم إبراهيم وتخلّفنا عنه، ثم دخلنا من غدٍ.

قال عمر: وحدّثني أبو صفوان نصر بن قُديد بن نصر بن سيار؛ قال: كان مقدم إبراهيم البصرة في أول سنة ثلاث وأربعين ومائة، منصرَف الناس من الحجّ؛ فكان الذي أقدمه وتولّى كِراءه وعادله في محمَله يحيى بن زياد بن حسان النَّبطيّ، فأنزله في داره في بني لَيْث، واشترى له جارية أعجمية سِندّية، فأولدها ولداً في دار يحيى بن زياد؛ فحدّثني ابن قُديد بن نصر؛ أنه شهد جنازة ذلك المولود، وصلى عليه يحيى بن زياد.

قال: وحدّثني محمد بن معروف، قال: حدّثني أبي، قال: نزل إبراهيم بالخيار من أرض الشأم على آل القعقاع بن خُليد العبسيّ، فكتب الفضل بن صالح بن عليّ - وكان على قنّسرين - إلى أبي جعفر في رقْعة أدرجها في أسفل كتابه، يخبره خبرَ إبراهيم، وأنه طلبه فوجده قد سبقه منحدراً إلى البَصْرة؛ فورد الكتاب على أبي جعفر، فقرأ أوّلَه فلم يجد إلاّ السلامة، فألقى الكتاب إلى أبي أيّوب الموريانيّ، فألقاه في ديوانه؛ فلما أرادوا أن يجيبوا الوُلاة عن كتبهم فتح أبان بن صدقة - وهو يومئذ كاتب أبي أيوب - كتاب الفضل؛ لينظر في تأريخه، فأفضى إلى الرُّقْعة؛ فلما رأى أوّلها: « أخْبِرُ أمير المؤمنين »، أعادها في الكتاب، وقام إلى أبي جعفر، فقرأ الكتاب؛ فأمر بإذكَاء العيون ووضع المراصِد والمسالح.

قال: وحدّثني الفضل بن عبد الرحمن بن الفضل، قال: أخبرني أبي قال: سمعت إبراهيم يقول: اضطرّني الطَّلَب بالموصل حتى جلست على موائد أبي جعفر، وذلك أنه قدمها يطلبني، فتحيّرت؛ فلفظَتْني الأرض؛ فجعلت لا أجد مساغاً، ووضع الطلب والمراصد؛ ودعا الناس إلى غَدائه، فدخلت فِيمن دخل، وأكلت فيمن أكل؛ ثم خرجت وقد كفّ الطلب.

قال: وحدّثني أبو نُعيم الفضل بن دُكين، قال: قال رجل لمطهر بن الحارث: مرّ إبراهيم بالكوفة ولقيتَه، قال: لا والله ما دخلها قطّ؛ ولقد كان بالموصل، ثم مرّ بالأنبار، ثم ببغداد، ثم بالمدائن والنِّيل وواسط.

قال: وحدّثني نصر بن قُديد بن نصر، قال: كاتب إبراهيم قوماً من أهل العسكر كانوا يتشيّعون؛ فكتبوا يسألونه الخروج إليهم، ووعدوه الوثوب بأبي جعفر؛ فخرج حتى قدم عسكر أبي جعفر، وهو يومئذ نازل ببغداد في الدَّيْر، وقد خَطّ بغداد، وأجمع على البناء؛ وكانت لأبي جعفر مِرآة ينظر فيها، فيرى عدوّه من صديقه. قال: فزعم زاعمٌ أنه نظر فيها، فقال: يا مسيّب؛ قد والله رأيتُ إبراهيم في عسكري وما في الأرض عدوّ أعدى لي منه، فانظر ما أنت صانع!

قال: وحدّثني عبد الله بن محمد بن البوّاب، قال: أمر أبو جعفر ببناء قنطرة الصَّراة العَتِيقة، ثم خرج ينظر إليها، فوقعت عينُه على إبراهيم، وخنَس إبراهيم، فذهب في الناس، فأتى فامِيّاً فلجأ إليه فأصعده غُرفة له. وجدّ أبو جعفر في طلبه، ووضع الرّصَد بكلّ مكان، فنشب إبراهيم بمكانه الذي هو به، وطلبه أبو جعفر أشدّ الطلب، وخفيَ عليه أمره.

قال: وحدّثني محمد بن معروف، قال: حدّثني أبي ـ وحدّثني نصر بن قُدَيد، قال: حدّثني أبي قال؛ وحدّثني عبد الله بن محمد بن البواب وكَثير بن النّضر بن كثير وعمرو بن إدريس وابن أبي سفيان العَمِيّ؛ واتفقوا على جُلّ الحديث، واختلفوا في بعضه ـ أنّ إبراهيم لما نشب وخاف الرَّصَد كان معه رجل من بني العمّ ـ قال عمر: فقال لي أبو صفوان، يدعى رَوْح بن ثقف، وقال لي ابن البوّاب: يكنى أبا عبد الله، وقال لي الآخرون: يقال له سفيان بن حَيّان بن موسى: قال عمر: وهو جد العمّيّ الذي حدثني ـ قال: قلت لإبراهيم: قد نزل ما ترى، ولا بدّ من التغرير والمخاطرة، قال: فأنت وذاك! فأقبل إلى الربيع، فسأله الإذن، قال: ومَن أنت؟ قال: أنا السفيان العمّيّ، فأدخله على أبي جعفر؛ فلما رآه شتمه، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ أنا أهلٌ لما تقول؛ غير أني أتيتك نازعاً تائباً، ولك عندي كلّ ما تحبّ إن أعطيتني ما أسألك، قال: وما لي عندك؟ قال: آتيك بإبراهيم بن عبد الله بن حسن؛ إني قد بلوته وأهلَ بيته؛ فلم أجد فيهم خيراً، فمالي عندك إن فعلت؟ قال: كلّ ما تسأل؛ فأين إبراهيم؟ قال: قد دخلَ بغداد ـ أو هو داخلها عن قريب ـ قال عمر: وقال لي أبو صفوان، قال: هو بعَبْدَسي، تركتُه في منزل خالد بن نهيك، فاكتب لي جوازاً ولغلام لي ولفُرانق واحملني على البريد. قال عمر: وقال بعضهم: وجِّهْ معي جُنداً واكتب لي جوازاً ولغلام لي آتيك به. قال: فكتب له جوازاً، ودفع إليه جنداً، وقال: هذه ألف دينار فاستعِنْ بها، قال: لا حاجة لي فيها كلّها؛ فأخذ ثلاثمائة دينار، وأقبل بها حتى أتى إبراهيم وهو في بيت، عليه مدرّعة صوف وعمامة ـ وقيل بل عليه قَباء كأقبية العبيد ـ فصاح به: قم؛ فوثب كالفزِع؛ فجعل يأمره وينهاه حتى أتى المدائن، فمنعه صاحب القنطرة بها، فدفع إليه جوازه، فقال: أين غلامك؟ قال: هذا؛ فلما نظر في وجهه، قال: والله ما هذا غلامك؛ وإنه لإبراهيم بن عبد الله بن حسن، ولكن اذهبْ راشداً. فأطلقهما وهرب. قال عمر: فقال بعضهم: ركبا البريد حتى صارا بعَبْدَسي، ثم ركبا السفينة حتى قدما البصرة فاختفيا بها. قال: وقد قيل: إنه خرج من عند أبي جعفر حتى قدم البصرة، فجعل يأتي بهم الدارَ، لها بابان، فيقعد العشرة منهم على أحد البابَين، ويقول: لا تبرحوا حتى آتيَكم، فيخرج من الباب الآخر ويتركهم، حتى فرّق الجند عن نفسه، وبقيَ وحده، فاختفى حتى بلغ الخبر سفيان بن معاوية، فأرسل إليهم فجمعهم، وطلب العمّيّ فأعجزه.

قال عمر: وحدثني ابن عائشة، قال: حدّثني أبي، قال: الذي احتال لابراهيم حتى أنجَاهما منه عمرو بن شداد.

قال عمر: وحدثني رجل من أهل المدائن، عن الحسن بن عمرو بن شدّاد، قال: حدّثني أبي، قال: مرّ بي إبراهيم بالمدائن مستخفياً، فأنزلتُه داراً لي على شاطىء دِجْلة، وسُعي بي إلى عامل المدائن؛ فضربني مائة سَوْط، فلم أقرِر له؛ فلما تركني أتيت إبراهيمَ فأخبرتُه فانحدر.

قال: وحدّثني العباس بن سفيان بن يحيى بن زياد مولى الحجاج بن يوسف ـ وكان يحيى بن زياد ممّن

سُبِي من عسكر قطريّ بن الفجاءة ـ قال: لما ظهر إبراهيم كنت غلاماً ابنَ خمس سنين، فسمعتُ أشياخنا يقولون: إنه مرّ منحدراً يريد البصرة من الشأم؛ فخرج إليه عبد الرحيم بن صفوان من موالي الحجاج، ممن سُبِي من عَسْر قَطَرِيّ؛ قال: فمشى معه حتى عبّره المآصر؛ قال: فأقبل بعضُ مَنْ رآه، فقال: رأيتُ عبدَ الرحيم مع رجل شاطر، محتجز بإزار مُوَرّد، في يده قَوس جُلاَهِق يرمى به؛ فلما رجع عبد الرحيم سُئِل عن ذلك فأنكره، فكان إبراهيم يتنكّر بذلك.

قال: وحدّثني نصر بن قُديد، قال: لما قدم إبراهيم منصرَفه من بغداد، نزل على أبي فَرْوة في كِنْدة فاختفى، وأرسل إلى الناس يندبهم للخروج.

قال عمر: وحدّثني عليّ بن إسماعيل بن صالح بن ميثم الأهوازيّ، قال: حدّثني عبد الله بن الحسن بن حبيب، عن أبيه، قال: كان إبراهيم مختفياً عندي على شاطىء دُجَيْل، في ناحية مدينة الأهواز؛ وكان محمد بن حُصين يطلبه، فقال يوماً: إنّ أمير المؤمنين كتب إليّ يخبرني أنّ المنجّمين يخبرونه أن إبراهيم بالأهواز نازل في جزيرة بين نهرين، فقد طلبتُه في الجزيرة حتى وثقت أنه ليس هناك ـ يعني بالجزيرة التي بين نهر الشاه جُرْد ودجَيْل ـ فقد اعتزمتُ أن أطلبه غدا في المدينة، لعلّ أمير المؤمنين يعني بين دجيل والمسرقان، قال: فأتيتُ إبراهيم، فقلت له: أنت مطلوب غداً في هذه الناحية، قال: فأقمت معه بقيّة يومي، فلما غشيَني الليل، خرجت به حتى أنزلته في أداني دشت أربُك دون الكثّ، فرجعت من ليلتي، فأقمت أنتظر محمداً أن يغدُوَ لطلبه؛ فلم يفعل حتى تصرّم النهار، وقربت الشمس تغرُب، فخرجتُ حتى جئت إبراهيم، فأقبلت به حتى وافينا المدينة مع العشاء الآخرة ونحن على حمارَين؛ فلما دخلنا المدينة فصرنا عند الجبل المقطوع؛ لقينَا أوائل خيل ابن حصين، فرمى إبراهيم بنفسه عن حِماره وتباعد؛ وجلس يبول، وطَوّتني الخيل، فلم يعرّج عليّ منهم أحد؛ حتى صرت إلى ابن حُصين؛ فقال لي: أبا محمد؛ مِن أين في مثل هذا الوقت؟ فقلت: تمسَّيت عند أهلي، قال: ألا أرسل معك مَنْ يبلِّغُك؟ قلت: لا، قد قرُبت من أهل؛ فمضى يطلب، وتوجّهت على سَنِني حتى انقطع آخر أصحابه، ثم كررتُ راجعاً إلى إبراهيم؛ فالتمست حماره حتى وجدتُه، فركب، وانطلقنا حتى بِتْنَا في أهلنا، فقال إبراهيم: تعلم والله لقد بُلت البارحة دماً؛ فأرسِلْ من ينظر، فأتيت الموضع الذي بال فيه، فوجدته قد بال دما.

قال: وحدّثني الفضل بن عبد الرحيم بن سليمان بن عليّ، قال: قال أبو جعفر: غَمُضَ عليّ أمر إبراهيم لّما اشتملت عليه طفوفُ البصرة.

قال وحدثني محمد بن مسْعر بن العلاء، قال: لما قدم إبراهيم البَصْرة، دعا الناس، فأجابه موسى بن عمر بن موسى بن عبد الله بن خازم، ثم ذهب بإبراهيم إلى النضر بن إسحاق بن عبد الله بن خازم مختفياً، فقال للنضر بن إسحاق: هذا رسول إبراهيم، فكلّمه إبراهيم ودعاه إلى الخروج، فقال له النّضر: يا هذا، كيف أبايع صاحبك وقد عَنَد جدّي عبد الله بن خازم عن جده عليّ بن أبي طالب، وكان عليه فيمن خالفه، فقال له إبراهيم: دع سيرة الآباء عنك ومذاهبَهم؛ فإنما هو الدّين؛ وأنا أدعوك إلى حقّ. قال: إني والله ما ذكرتُ لك ما ذكرتُ إلا مازحاً، وما ذاك الذي منعني من نُصرة صاحبك؛ ولكني لا أرى القتال ولا أدينُ به. قال: وانصرف إبراهيم، وتخلّف موسى، فقال: هذا والله إبراهيم نفسه، قال: فبئس لعمر الله ما صنعتَ! لو كنتَ أعلمتني كلّمتُه غير هذا الكلام!

قال: وحدّثني نصر بن قديد، قال: دعا إبراهيم الناس وهو في دار أبي فَرْوة، فكان أوّل مَنْ بايعه نُميلة بن مرّة وعفو الله بن سفيان وعبد الواحد بن زياد وعمر بن سلمة الهجيميّ وعبيد الله بن يحيى بن حُضَين الرّقاشيّ، وندبوا الناس له، فأجاب بعدهم فتيانٌ من العرب؛ منهم المغيرة بن الفزع وأشباهٌ له؛ حتى ظنوا أنه قد أحصى ديوانه أربعة آلاف؛ وشهر أمرُه، فقالوا: لو تحوّلت إلى وسط البصرة أتاك مَن أتاك وهو مُريح؛ فتحوّل ونزل دار أبي مروان مولى بني سليم ـ رجل من أهل نيسابور.

قال: وحدّثني يونس بن نجدة؛ قال: كان إبراهيم نازلاً في بني راسب على عبد الرحمن بن حرب؛ فخرج من داره في جماعة من أصحابه؛ منهم عفو الله بن سفيان وبُرْد بن لبيد؛ أحد بني يَشْكر، والمضاء التغلبيّ والطُّهَويّ والمغيرة بن الفزع ونُميلة بن مرّة ويحيى بن عمرو الهُمانيّ، فمرّوا على جُفْرة بني عَقيل حتى خرجوا على الطُّفاوة، ثم مرّوا على دار كرزم ونافع إبليس، حتى دخلوا دار أبي مروان في مقبرة بني يَشْكر.

قال: وحدّثني ابن عفو الله بن سفيان، قال: سمعتُ أبي يقول: أتيتُ إبراهيمَ يوماً وهو مرعوب؛ فأخبرني أن كتاب أخيه أتاه يخبره أنه قد ظهر، ويأمره بالخروج. قال: فوجَم من ذلك واغتمّ له، فجعلت أسهِّل عليه الأمر وأقول: قد اجتمع لك أمرُك، معك المضاء والطُّهويّ والمغيرة؛ وأنا وجماعة، فنخرج إلى السجن في الليل فنفتحه؛ فتُصبح حين تصبح ومعك عالم من الناس؛ فطابت نفسه.

قال: وحدّثني سهل بن عَقيل بن إسماعيل، قال: حدّثني أبي، قال: لما ظهر محمد أرسل أبو جعفر إلى جعفر بن حنظلة البَهرانيّ ـ وكان ذا رأي ـ فقال: هاتِ رأيك؛ قد ظهر محمد بالمدينة. قال: وجّه الأجنَاد إلى البصرة. قال: انصرفْ حتى أرسل إليك. فلما صار إبراهيم إلى البصرة، أرسل إليه، فقال: قد صار إبراهيم، فقال: إيَّاها خفتُ! بادرْه بالجنود، قال: وكيف خِفتَ البصرة؟ قال: لأن محمداً ظهر بالمدينة، وليسوا بأهل حَرْب، بحسبهم أن يقيموا شأن أنفسهم، وأهل الكوفة تحتَ قدمك، وأهل الشأم أعداء آل أبي طالب؛ فلم يبق إلا البَصْرة. فوجّه أبو جعفر ابني عقيل ـ قائدين من أهل خُراسان من طيّىء ـ فقدما، وعلى البصرة سفيان بن معاوية فأنزلها.

قال: وحدّثني جوّاد بن غالب بن موسى مولى بني عجل، عن يحيى بن بُديل بن يحيى بنُ بديل، قال: لما ظهر محمد، قال أبو جعفر لأبي أيوب وعبد الملك بن حميد: هل من رجل ذي رأي تعرفانه، نجمع رأيه على رأينا؟ قالا: بالكوفة بدُيل بن يحيى ـ وقد كان أبو العباس يشاوره ـ فأرسِلْ إليه، فأرسل إليه، فقال: إنّ محمداً قد ظهر بالمدينة، قال: فاشحن الأهواز جنداً، قال: قد فهمتُ؛ ولكن الأهواز بابُهم الذي يُؤتَوْن منه، قال: فقبل أبو جعفر رأيه. قال: فلما صار إبراهيم إلى البصرة أرسل إلى بُديل، فقال: قد صار إبراهيم إلى البصرة، قال: فعاجله بالجُنْد وأشغِل الأهواز عنه.

وحدّثني محمد بن حفص الدِّمشقيّ، مولى قريش قال: لما ظهر محمد شاور أبو جعفر شيخاً من أهل الشأم ذا رأي، فقال: وجّه إلى البصرة أربعة آلاف من جُند أهل الشأم. فلها عنه، وقال: خَرِف الشيخ؛ ثم أرسل إليه، فقال: قد ظهر إبراهيم بالبصرة، قال: فوجّه إليه جندا من أهل الشأم، قال: ويلك! ومن لي بهم! قال: اكتب إلى عاملك عليها يحمل إليك في كلّ يوم عشرة على البريد؛ قال: فكتب بذلك أبو جعفر إلى الشأم. قال عمر بن حفص: فإنّي لأذكر أبي يعطى الجنَد حينئذ، وأنا أمسك له المصباح، وهو يعطيهم ليلاً، وأنا يومئذ غلام

شابّ.

قال: وحدّثني سَهلُ بن عَقِيل، قال: أخبرني سَلْم بن فرقد، قال: لما أشار جعفر بن حنظلة على أبي جعفر بحدر جند الشأم إليه، كانوا يقدمون أرسالا؛ بعضهم على أثر بعض؛ وكان يريد أن يروّع بهم أهل الكوفة؛ فإذا جنّهم الليل في عسكره أمرهم فرجعوا منكبين عن الطريق، فإذا أصبحوا دخلوا، فلا يشكُّ أهل الكوفة أنهم جند آخرون سوى الأوّلين.

حدّثني عبد الحميد ـ وكان من خَدَم أبي العباس ـ قال: كان محمد بن يزيد من قوّاد أبي جعفر؛ وكان له دابّةٌ شِهْريّ كُمَيت، فربما مرّ بنا ونحن بالكوفة وهو راكبُه، قد ساوى رأسُه رأسَه، فوجّهه أبو جعفر إلى البصرة، فلم يزل بها حتى خرج إبراهيم فأخذه فحبسه.

حدّثني سعيد بن نوح بن مجالد الضُّبَعيّ، قال: وجّه أبو جعفر مجالداً ومحمداً ابني يزيد بن عمران من أهل أبِيوَرْد قائديْن، فقدم مجالد قبل محمد، ثم قدم محمد في الليلة التي خرج فيها إبراهيم، فثبّطهما سُفيان وحبسهما عنده في دار الإمارة حتى ظهر إبراهيم فأخذهما، فقيّدهما؛ ووجّه أبو جعفر معهما قائداً من عَبْد القيس يدعى معْمراً.

حدّثني يونس بن نجدة، قال: قدم على سفيان مجالدُ بن يزيد الضُّبعيّ من قِبَل أبي جعفر في ألْف وخمسمائة فارس وخمسمائة راجل.

حدّثني سعيد بن الحسن بن تَسنيم بن الحَوارَي بن زياد بن عمرو بن الأشرف، قال: سمعتُ من لا أحصي من أصحابنا يذكرون أنّ أبا جعفر شاور في أمر إبراهيم، فقيل له: إن أهل الكوفة له شِيعة، والكوفة قِدْر تفُور؛ أنت طَبقُها، فاخرج حتى تنزلها. ففعل.

حدّثني مسلم الخصيّ مولى محمد بن سليمان، قال: كان أمْرُ إبراهيم وأنا ابن بضع عشرة سنة؛ وأنا يومئذ لأبي جعفر، فأنزلَنا الهاشميّة بالكوفة ونزل هو بالرّصافة في ظهر الكوفة؛ وكان جميع جنده الذين في عسكره نحواً من ألف وخمسمائة؛ وكان المسيّب بن زهير على حَرَسه، فجزّأ الجند ثلاثة أجزاء خمسمائة، خمسمائة، فكان يطوف الكوفة كلَّها في كلّ ليلة، وأمر منادياً فنادى: مَنْ أخذناه بعد عَتَمَة فقد أحلّ بنفسه؛ فكان إذا أخذ رجلاً بعد عَتَمة لفّه في عَباءة وحمله، فبيّته عنده، فإذا اصبح سأل عنه، فإن علم براءته أطلقه، وإلا حبسه.

قال: وحدّثني أبو الحسن الحذّاء، قال: أخذ أبو جعفر الناس بالسوّاد، فكنت أراهم يصبغون ثيابهم بالمداد.

وحدّثني عليّ بن الجعْد، قال: رأيتُ أهلَ الكوفة أيامئذ أخِذُوا بلُبس الثياب السود حتى البقّالين، إنّ أحدهم ليصبغ الثوب بالأنفاس ثم يلبسه.

وحدثني جوّاد بن غالب، قال: حدثني العباس بن سَلْم مولىَ قَحْطبة، قال: كان أمير المؤمنين أبو جعفر إذا اتّهم أحدا من أهل الكوفة بالمَيْل إلى إبراهيم أمر أبي سلماً بطلبه؛ فكان يمهل حتى إذا غَسق الليل، وهدأ الناس، نصب سلّما على منزل الرجل فطرقه في بيته حتى يخرجه فيقتله؛ ويأخذ خاتمه. قال أبو سهل جوّاد: فسمعت جميلاً مولى محمد بن أبي العباس يقول للعباس بن سلم: والله لو لم يورّثك أبوك إلا خواتيم مَن قُتِل من

أهل الكوفة كنت أيسرَ الأبناء.

حدّثني سهل بن عَقيل، قال: حدثني سلم بن فَرْقد حاجب سليمان بن مجالد، قال: كان لي بالكوفة صديق، فأتاني ـ فقال: أيا هذا، اعلم أن أهل الكوفة معِدّون للوثوب بصاحِبكم، فإن قدرت على أن تبوّىء أهلك مكاناً حريزاً فافعل، قال: فأتيتُ سليمان بن مجالد، فأخبرته الخبر؛ فأخبر أبا جعفر ـ ولأبي جعفر عين من أهل الكوفة من الصّيارفة يدعى ابن مقرّن ـ قال: فأرسل إليه، فقال: ويحك! قد تحرّك أهل الكوفة، فقال: لا والله يا أمير المؤمنين، أنا عذيرك منهم، قال: فركن إلى قوله، وأضرب عنهم.

وحدّثني يحيى بن ميمون من أهل القادسيّة، قال: سمعت عدّة من أهل القادسية يذكرون أن رجلاً من أهل خراسان، يكنى أبا الفضل، ويسمّى فلان ابن معقل، وُلِّيَ القادسية ليمنع أهل الكوفة إتيان إبراهيم؛ وكان الناس قد رصدوا في طريق البصرة، فكانوا يأتون القادسيّة ثم العُذَيْب، ثم واديَ السباع، ثم يعدلون ذات اليَسار في البرّ، حتى يقدموا البصرة. قال: فخرج نفرٌ من الكوفة اثنا عشر رجلاً؛ حتى إذا كانوا بوادي السباع لقيَهم رجل من موالي بني أسد، يسمَّى بكراً. من أهل شرَاف، دون واقصَة بميلين من أهل المسجد الذي يدعى مسجد الموالي ـ فأتى ابن معقل فأخبره، فاتّبعهم فأدركهم بخَفّان ـ وهي على أربعة فراسخ من القادسيّة ـ فقتلهم أجمعين.

حدّثني إبراهيم بن سَلْم، قال: كان الفُرافصَة العجليّ قد همّ بالوثوب بالكوفة، فامتنع لمكان أبي جعفر ونزوله بها؛ وكان ابن معاز الأسديّ يبايعُ لإبراهيم فيها سرًّا.

حدّثني عبد الله بن راشد بن يزيد، قال: سمعت إسماعيل بن موسى البَجَليّ وعيسى بن النَّضْر السُّمّانيْن وغيرهما يخبرون أن غَزوانَ كان لآل القعقاع بن ضِرار، فاشتراه أبو جعفر، فقال له يوماً: يا أميرَ المؤمنين؛ هذه سفُن منحدرة من الموصِل فيها مبيِّضةٌ تريد إبراهيم بالبصرة، قال: فضمّ إليه جنداً، فلقيهم بباحَمْشا بين بغداد والموصل فقتلهم أجمعين؛ وكانوا تجاراً فيهم جماعة من العُبّاد من أهل الخير وغيرهم، وفيهم رجل يُدعى أبا العرفان من آل شعيب السّمّان، فجعل يقول: ويلك يا غزوان! ألست تعرفني! أنا أبو العرفان جارك؛ إنما شخصتُ برقيق فبعتُهم؛ فلم يقبل وقتلهم أجمعين وبعث برؤوسهم إلى الكوفة، فنصِبت ما بين دار إسحاق الأزرق إلى جانب دار عيسى بن موسى إلى مدينة ابن هبيرة. قال أبو أحمد عبد الله بن راشد: فأنار رأيتها منصوبةً على كوم التراب.

قال: وحدّثنا أبو عليّ القَدّاح، قال: حدّثني داود بن سليمان ونيبخت وجماعة من القدّاحين، قالوا: كنّا بالموصل، وبها حرْب الراونديّ رابطة في ألفين، لمكان الخوارج بالجزيرة، فأتاه كتاب أبي جعفر يأمره بالقفل إليه؛ فشخص؛ فلما كان بباحَمْشا اعترض له أهلها، وقالوا: لا نَدَعُك تجوزنا لتنصر أبا جعفر على إبراهيم، فقال لهم: ويحكم! إني لا أريد بكم سوءا؛ إنما أنا مارٌّ، دعوى. قالوا: لا والله لا تجوزنا أبدا، فقاتلهم فأبارهم وحمل منهم خمسمائة رأس، فقدم بها على أبي جعفر، وقص عليه قصتهم قال أبو جعفر: هذا أوّل الفتح.

وحدّثني خالد بن خِدَاش بن عَجلان مولى عمر بن حفص، قال: حدّثني جماعة من أشياخنا أنهم شهدوا دفيف بن راشد مولى بني يزيد بن حاتم، أتى سفيانَ بن معاوية قبل خروج إبراهيم بليلة، فقال: ادفع إليّ فوارس آتك بإبراهيم أو برأسه. قال أوَ مالك عمل! اذهب إلى عملك. قال: فخرج دفيف من ليلته فلحق

بيزيد بن حاتم وهو بمصر.

وحدّثني خالد بن خِداش، قال: سمعت عدّة من الأزْد يحدثون عن جابر بن حماد ـ وكان على شُرْطة سفيان ـ أنه قال لسفيان قبل خروج إبراهيم بيوم: إني مررت في مقبرة بني يشكُر، فصيَّحوا بي ورمَوْني بالحجارة، فقال له: أما كان لك طريق!

وحدثني أبو عمر الحوْضيّ حفص بن عمر، قال: مرّ عاقب صاحب شرَط سفيان يوم الأحد قبل ظهور إبراهيم بيوْم، في مقبرة بني يشكُر، فقيل له: هذا إبراهيم يريد الخروج، فقال: كذبتم، ولم يعرِّج على ذلك!

قال أبو عمر الحوضِيّ: جعل أصحاب إبراهيم ينادون سفيان وهو محصور: اذكر بيعتَك في دار المخزوميّين.

قال أبو عمر: وحدّثني محارب بن نصر، قال: مرّ سفيان بعد قتل إبراهيم في سفينة وأبو جعفر مُشرِفٌ من قصره، فقال: إنّ هذا لسفيان؟ قالوا: نعم، قال: والله للعَجب! كيف يفلتني ابن الفاعلة! قال الحوْضيّ: قال سفيان لقائد من قوّاد إبراهيم: أقمْ عندي، فليس كل أصحابك يعلم ما كان بيني وبين إبراهيم.

قال: وحدّثني نصر بن فرقد، قال: كان كَرْزَم السَّدوسيّ يغدو سفيان بخبر إبراهيم ويروح، ويُعْلمه مَنْ يأتيه فلا يعرض له، ولا يتبع له أثرا.

وذكر أن سفيان بن معاوية كان عامل المنصور أيّامئذ على البصرة، وكان قد مالأ إبراهيم بن عبد الله على أمرِه فلا ينصح لصاحبه.

اختلف في وقت قدوم إبراهيم البصرة فقال بعض: كان قدومه إياها أول يوم من شهر رمضان في سنة خمس وأربعين ومائة.

ذكر من قال ذلك:

حدثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد، قال: قال محمد بن عمر: لما ظهر محمد بن عبد الله بن الحسن، وغلَب على المدينة ومكة، وسُلِّم عليه بالخلافة، وجّه أخاه إبراهيم بن عبد الله إلى البصرة، فدخلها في أوّل يوم من شهر رمضان سنة خمس وأربعين ومائة، فغلب عليها، وبيّض بها وبيّض بها أهل البصرة معه، وخرج معه عيسى بن يونس ومُعاذ بن معاذ بن العوّام وإسحاق بن يوسف الأزرق ومعاوية بن هشام، وجماعة كثيرة من الفُقهاء وأهل العلم؛ فلم يزلْ بالبصرة شهر رمضان وشوّالاً، فلما بلغه قتلُ أخيه محمد بن عبد الله تأهَّب واستعدّ، وخرج يريد أبا جعفر بالكوفة.

وقد ذكرنا قول من قال: كان مقدم إبراهيم البصرة في أول سنة ثلاث وأربعين ومائة، غير أنه كان مقيماً بها، مختفياً يدعو أهلها في السرّ إلى البيعة لأخيه محمد، فذكر سهل بن عَقيل، عن أبيه، أنّ سفيان كان يرسل إلى قائدين كانا قدِما عليه من عند أبي جعفر مدداً له قبل ظهور إبراهيم، فيكونان عنده؛ فلما وعده إبراهيم بالخروج أرسل إليهما فاحتبسهما عنده تلك الليلة حتى خرَج، فأحاط به وبهما فأخذهم.

وحُدّثت عن محمد بن معروف بن سويد، قال: حدّثني أبي، قال: وجّه أبو جعفر مجالداً ومحمداً ويزيد؛ قوّاداً ثلاثة كانوا إخوة قبل ظهور إبراهيم، فقدّموا جندهم، فجعلوا يدخلون البصرة تَترى، بعضهم على أثر

بعض، فأشفق إبراهيم أن يكثروا بها، فظهر.

وذكر نصر بن قديد، أنّ إبراهيم خرج ليلة الأثنين لغرّة شهر رمضان من سنة خمس وأربعين ومائة، فصار إلى مقبرة بني يشكر في بضعة عشر رجلاً فارساً، فيهم عبيد الله بن يحيى بن حصين الرّقاشيّ. قال: وقدم تلك الليلة أبو حمّاد الأبرصُ مدداً لسفيان في ألفي رجل، فنزل الرّحبة إلى أن ينزلوا. فسار إبراهيم فكان أوّل شيء أصاب دوابَّ أولئك الجند وأسلحتهم، وصلّى بالناس الغداة في المسجد الجامع، وتحصّن سفيان في الدار، ومعه فيها جماعة من بني أبيه، وأقبل الناس إلى إبراهيم مِنْ بين ناظر وناصر حتى كثروا، فلما رأى ذلك سفيان طلب الأمانَ، فأجيب إليه، فدسّ إلى إبراهيم مطهّر بن جويرية السَّدوسيّ، فأخذ لسفيان الأمان، وفتح الباب، ودخل إبراهيم الدّار؛ فلما دخلها ألقى له حصير في مُقَدَّم الإيوان، فهبّت ريح فقلبته ظهراً لبطن؛ فتطيَّر الناسُ لذلك، فقال إبراهيم: إنا لا نتطيَّر، ثم جلس عليه مقلوباً والكراهة تُرَى في وجهه؛ فلما دخل إبراهيم الدّار خلّى عن كلّ مَنْ فيها ـ فيما ذكر ـ غير سفيان بن معاوية؛ فإنه حبسه في القصر وقيّده قيداً خفيفاً، فأراد إبراهيم ـ فيما ذكر ـ بذلك من فعله أن يُري أبا جعفر أنه عنده محبوس، وبلغ جعفرا ومحمداً ابني سليمان بن عليّ ـ وكانا بالبصرة يومئذ ـ مصيرُ إبراهيم إلى دار الإمارة وحبْسه سفيان، فأقبلا ـ فيما قيل ـ في ستمائة من الرّجالة والفرسان والنّاشبة يريدانه، فوجّه إبراهيم إليهما المضاء بن القاسم الجزريّ في ثمانية عشر فارساً وثلاثين راجلاً؛ فهزمهم المضاءُ. ولحق محمد رجل من أصحاب المضاء فطَعنه في فخذِه، ونادى مناد لإبراهيم: لا يُتْبَع مدبر؛ ومضى هو بنفسه حتى وقف على باب زينب بنت سليمان، فنادى بالأمان لآل سليمان، وألّا يعرِض لهم أحد.

وذكر بكر بن كثير؛ أنّ إبراهيم لما ظهر على جعفر ومحمد وأخذ البصرة، وجَدَ في بيت المال ستمائة ألف، فأمر بالاحتفاظ بها ـ وقيل إنه وجد في بيت المال ألفي درهم ـ فقويَ بذلك، وفرض لكلّ رجل خمسين خمسين؛ فلما غلب إبراهيم على البصرة وجّه ـ فيما ذكر ـ إلى الأهواز رجلاً يُدعى الحسين بن ثَوْلاء، يدعوهم إلى البيْعة، فخرج فأخذ بيعتهم؛ ثم رجع إلى إبراهيم. فوجه إبراهيم المغيرة في خمسين رجلا، ثم اجتمع إلى المُغيرة لّما صار إلى الأهواز تمام مائتي رجل. وكان عامل الأهواز يومئذ من قِبَل أبي جعفر محمد بن الحصين، فلما بلغ ابنَ الحصين دنوُّ المغيرة منه خرج إليه بمَنْ معه، وهم ـ فيما قيل ـ أربعة آلاف، فالتَقَوْا على مِيل من قَصبة الأهواز بموضع يقال له دشت أربُك، فانكشف ابن حصين وأصحابه، ودخل المغيرة الأهواز.

وقد قيل: إنّ المغيرة صار إلى الأهواز بعد شخوص إبراهيم عن البصرة إلى باخَمْرى.

ذكر محمد بن خالد المربعّي، أنّ إبراهيم لما ظهر على البصرة ثم أراد الخروج إلى ناحية الكوفة، استخلف على البصرة نُمَيْلة بن مرّة العبشَميّ، وأمر بتوجيه المغيرة بن الفزع أحد بني بَهْدلة بن عوْف إلى الأهواز، وعليها يومئذ محمد بن الحصين العبديّ، ووجّه إبراهيم إلى فارس عمرو بن شدّاد عاملاً عليها، فمرّ براَمَ هرمز بيعقوب بن الفضل وهو بها، فاستتبعه؛ فشخص معه حتى قدم فارس، وبها إسماعيل بن عليّ بن عبد الله عاملاً عليها من قِبَل أبي جعفر، ومعه أخوه عبد الصّمد بن عليّ، فلما بلغ إسماعيل بن عليّ وعبد الصمد إقبالُ عمرو بن شداد ويعقوب بن الفضل ـ وكانا بإصطْخر ـ بادرا إلى دَارَا بْجِردْ، فتحصّنا بها، فصارت فارس في يد عمرو بن شداد ويعقوب بن الفضل، فصارت البَصْرة والأهواز وفارس في سلطان إبراهيم.

وحدِّثت عن سليمان بن أبي شيخ، قال: لما ظهر إبراهيم بالبصرة، أقبل الحكم بن أبي غَيْلان اليشكريّ

في سبعة عشر ألفاً حتى دخل واسطاً؛ وبها هارون بن حميد الأياديّ من قِبَل أبي جعفر، فدخل هارون تنوراً في القصر حتى أخرِج منه، وأتى أهلُ واسط حفصَ بن عمر بن حفص بن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة، فقالوا له: أنت أولى مِنْ هذا الهجيميّ؛ فأخذها حَفْص، وخرج منها اليشكُريّ، وولّى حفص شُرَطه أبا مقرن الهُجيميّ.

وذكر عمر بن عبد الغفار بن عمرو الفُقَيْميّ، ابن أخي الفضل بن عمرو الفُقيميّ، قال: كان إبراهيم واجداً على هارون بن سعد، لا يكلّمه، فلما ظهر إبراهيم قدم هارونُ بن سعد، فأتى سلم بن أبي واصل، فقال له: أخبرني عن صاحبك، أما به إلينا حاجة في أمره هذا! قال: بلى لعمر الله. ثم قام فدخل على إبراهيم، فقال: هذا هارون بن سعد قد جاءك، قال: لا حاجة لي به، قال: لا تفعل؛ في هارون تزهّد؛ فلم يزل به حتى قبله، وأذن له فدخل عليه؛ فقال له هارون: استكفِني أهمَّ أمورك إليك، فاستكفاه واسطاً، واستعمله عليها.

قال سليمان بن أبي شيخ: حدثني أبو الصعديّ، قال: أتانا هارون بن سعد العجليّ من أهل الكوفة، وقد وجهه إبراهيم من البصرة، وكان شيخاً كبيراً، وكان أشهر مَنْ معه من أهل البصرة الطُّهويّ، وكان معه مِمّن يشبه الطهويّ في نَجْدته من أهل واسط عبد الرحيم الكلبيّ، وكان شجاعاً؛ وكان ممن قدم به ـ أو قدم عليه ـ عبدويه كردام الخراسانيّ. وكان من فرسانهم صدقة بن بكار، وكان منصور بن جُمهور يقول: إذا كان معي صدقة بن بكار فما أبالي مَنْ لقيت! فوجَّه أبو جعفر يقول: إذا كان معي صدقة بن بكار فما أبالي مَنْ لقيت! فوجَّه أبو جعفر إلى واسط لحرب هارون بن سعد عامرَ بن إسماعيل المُسليّ في خمسة آلاف في قول بعضهم، وقال بعضهم: في عشرين ألفاً، وكانت بينهم وقعات.

وذكر عن ابن أبي الكرام، أنه قال: قدمت على أبي جعفر برأس محمد، وعامر بن إسماعيل بواسط محاصرٌ هارون بن سعد، وكانت الحرب بين أهل واسط وأصحاب أبي جعفر قبل شخوص إبراهيم من البصرة، فذكر سليمان بن أبي شيخ، قال: عسكر عامر بن إسماعيل مِنْ وراء النيل، فكانت أول حرب جرت بينه وبين هارون، فضربه عبدٌ سقّاء وجرحه وصرعه وهو لا يعرفه، فأرسل إليه أبو جعفر بظبية فيها صَمْغ عربيّ، وقال: داوِ بها جراحتك، فالتقوْا غير مرّة، فقتِل من أهل البصرة وأهل واسط خلْق كثير؛ وكان هارون ينهاهم عن القتال، ويقول: لو لقي صاحبنا صاحبَهم تبينّ لنا الأمر، فاستبقوا أنفسكم؛ فكانوا لا يفعلون. فلما شخص إبراهيم إلى باخَمْرَى كفّ الفريقان من أهل واسط وعامر بن إسماعيل؛ بعضُهم عن بعض، وتواعدوا على ترك الحرب إلى أن يلتقي الفريقان، ثم يكونوا تبعاً للغالب؛ فلما قتِل إبراهيم أراد عامر بن إسماعيل دخولَ واسط، فمانعه أهلُها الدخول. قال سليمان: لما جاء قتلُ إبراهيم هرب هارون بن سعد، وصالح أهلُ واسط عامر بن إسماعيل على أن يؤمنهم، فلم يثق كثير منهم بأمانه، فخرجوا منها، ودخلها عامر بن إسماعيل، وأقام بواسط فلم يُهجْ أحداً.

وكان عامر ـ فيما ذكر ـ صالح أهلَ واسط على ألّا يقتل أحداً بواسط، فكانوا يقتلون كلّ مَنْ يجدونه من أهل واسط خارجاً منها؛ ولما وقع الصُّلْح بين أهل واسط وعامر بعد قتلِ إبراهيم هرب هارون بن سعد إلى البصرة، فتوفِّيَ قبل أن يبلغها فيما ذكر.

وقيل إن هارون بن سعد اختفَى فلم يزل مختفياً حتى وليَ محمد بن سليمان الكوفة، فأعطاه الأمان،

واستدرجه حتى ظهر، وأمره أن يفرض لمائتين من أهل بيته؛ فهمّ أن يفعل، وركب إلى محمّد، فلقيه ابن عمّ له، فقال له: أنت مخدوع، فرجع فتوارى حتى مات، وهدم محمد بن سليمان داره.

قال: ولم يزل إبراهيم مقيماً بالبصرة بعد ظهوره بها، يفرّق العمال في النواحي ويوجّه الجيوش إلى البلدان؛ حتى أتاه نعيُّ أخيه محمد، فذكر نصر بن قُديد؛ قال: فرض إبراهيم فروضاً بالبصرة، فلما كان قبل الفِطْر بثلاثة أيام، أتاه نعيّ أخيه محمد؛ فخرج بالناس إلى العيد، وهم يعرفون فيه الانكسار، وأخبر الناسَ بقتل محمد؛ فازدادوا في قتال أبي جَعْفر بصيرةً، وأصبح من الغدِ فعسكر، واستخلف نُمَيلَة على البَصْرة، وخلّف ابنه حسنا معه.

قال سعيد بن هريم: حدثني أبي، قال: قال عليّ بن داود: لقد نظرت إلى الموت في وجْه إبراهيم حين خطبنَا يوم الفطر، فانصرفتُ إلى أهلي فقلت: قتِل والله الرجل!

وذكر محمد بن معروف، عن أبيه أن جَعفراً ومحمداً ابني سليمان لما شخصا من البصرة، أرسلاه إلى أبي جعفر ليخبرَه خبر إبراهيم، قال: فأخبرتُه خبرهما، فقال: والله ما أدري كيف أصنع! والله ما في عسكري إلا ألفا رجل؛ فرّقت جندي، فمع المهديّ بالرّيّ ثلاثون ألفاً، ومع محمد بن الأشعث بإفريقيّة أربعون ألفاً والباقون مع عيسى بن موسى؛ والله لئن سلمت من هذه لا يفارق عسكري ثلاثون ألفا.

وقال عبد الله بن راشد: ما كان في عسكر أبي جعفر كثيرُ أحد؛ ما هم إلا سودان وناسٌ يسير؛ وكان يأمر بالحطَب فيحزمَ ثم يوقَد بالليل، فيراه الرائي فيحسِب أن هناك ناساً؛ وما هي إلّا نار تضرَم، وليس عندها أحد.

قال محمد بن معروف بن سويد: حدّثني أبي، قال: لما ورد الخبر على أبي جعفر، كتب إلى عيسى بن موسى وهو بالمدينة: إذا قرأتَ كتابي هذا فأقبل وَدعْ كلّ ما أنت فيه؛ قال: فلم ينشب أن قدم، فوجّه على الناس. وكتب إلى سلْم بن قتيبة فقدِم عليه من الرّيّ، فضمّه إلى جعفر بن سليمان.

فذكر عن يوسف بن قتيبة بن مسلم، قال: أخبرني أخي سلْم بن قتيبة بن مسلم، قال: لما دخلتُ على أبي جعفر قال لي: اخرج؛ فإنه قد خرج ابنا عبد الله، فاعمد لإبراهيم ولا يروعنّك جمعُه؛ فوالله إنهما جملَا بني هاشم المقتولان جميعاً؛ فابسط يدك، وثِقْ بما أعلمتك، وستذكر مقالتي لك. قال: فوالله ما هو إلا أن قُتِل إبراهيم، فجعلت أتذكر مقالته فأعجب.

قال سعيد بن سلم: فاستعمله على ميسرة الناس، وضمّ إليه بشار بن سلم العُقيليّ وأبا يحيى بن خُرَيم وأبا هُراسة سنان بن مخيّس القشيريّ، وكتب سلم إلى البصرة فلحقت به باهلة؛ عُرْبُها ومواليها، وكتب المنصور إلى المهديّ وهو يومئذ بالرّيّ يأمره بتوجيه خازم بن خزيمة إلى الأهواز، فوجّهه المهديّ - فيما ذُكر - في أربعة آلاف من الجند، فصار إليها، وحارب بها المغيرة، فانصرف إلى البصرة، ودخل خازم الأهواز، فأباحها ثلاثا.

وذكر عن الفضل بن العبّاس بن موسى وعمر بن ماهان، أنهما سمعا السنديّ يقول: كنت وصيفاً أيام حرب محمد، أقوم على رأس المنصور بالمذَبّة، فرأيته لما كثف أمر إبراهيم وغلُظ، أقام على مصلى نيّفاً وخمسين ليلة، ينام عليه ويجلس عليه، وعليه جُبّة ملوّنة قد اتّسخ جَيْبها وما تحت لحيته منها؛ فما غيَّر الجُبّة، ولا هجرَ المصلّى حتى فتح الله عليه؛ إلّا أنه كان إذا ظهر للناس علا الجبّة بالسواد، وقعد على فراشه؛ فإذا بطن عاد إلى

هيئته. قال: فأتته ريسانة في تلك الأيام، وقد أهديت له امرأتان من المدينة، إحداهما فاطمة بنت محمد بن عيسى بن طلحة بن عبيد الله والأخرى أمَة الكريم بنت عبد الله من ولد خالد بن أسد بن أبي العيص؛ فلم ينظر إليهما، فقالت: يا أمير المؤمنين؛ إن هاتين المرأتين قد خبثت أنفسهما، وساءت ظنونهما لما ظهر من جفائك لهما؛ فنهرها، وقال: ليست هذه الأيام من أيام النساء؛ لا سبيل لي إليهما حتى أعلم: أرأس إبراهيم لي أم رأسي لإبراهيم!

وذُكِر أن محمداً وجعفر ابني سليمان كتبا إلى أبي جعفر يُعْلمانه بعد خروجهما من البَصْرة الخبر في قطعة جِراب، ولم يقدرا على شيء يكتبان فيه غير ذلك؛ فلما وصل الكتاب إليه؛ فرأى قطعة جِراب بيد الرسول، قال: خلع والله أهل البصرة مع إبراهيم، ثم قرأ الكتاب، ودعا بعبد الرحمن الخُتّليّ وبأبي يعقوب ختن مالك بن الهيثم، فوجّههما في خيل كثيفة إليهما، وأمرهما أن يحبساهما حيث لقياهما، وأن يعسكرا معهما، ويسمعا ويطيعا لهما؛ وكتب إليهما يعجزّهما ويضعفّهما ويوبخهما على طمع إبراهيم في الخروج إلى مِصرٍ هما فيه، واستتار خبره عنهما، حتى ظهر وكتب في آخر كتابه:

أبْــلغْ بــنــي هــاشــمٍ مُــغَــلْغَــلَةً ... فــاستَيْـقِـظُوا إنَّ هــذا فِعْــل نُــوّام

تعــدو الذِّئــاب على من لا كــلاب لــه ... وتَتَّقي مَــرْبِضَ المسْتَنْفِــر الـحــامي

وذكر عن جعفر بن ربيعة العامريّ عن الحجاج بن قتيبة بن مسلم، قال: دخلت على المنصور أيام حرْب محمد وابراهيم، وقد جاءه فتق البَصْرة والأهواز وفارس وواسط والمدائن والسواد، وهو ينكت الأرض بمخْصِرَته ويتمثّل:

ونــصبــتُ نفســي لــلرِّمــاح دَرِيّــةً ... إن الــرئيسَ لمثــل ذاك فعــول

قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، أدام إعزازك ونصرك على عدوّك! أنت كما قال الأعشى:

وإنْ حَــرْبُهُــمْ أوقِــدَتْ بيــنهــمْ ... فــحــرَّت لهم بــعــد إبــرادِهــا

وجــدتَ صَبُــوراً عــلى حَــرِّهــا ... وكــرِّ الحــروب وتــرْدادهــا

فقال: يا حجاج، إنّ إبراهيم قد عرف وُعورة جانبي وصعوبة ناحيتي، وخشونة قرني، وإنما جرّأه على المسير إليّ من البصرة اجتماعُ هذه الكُور المُطلَّة على عسكر أمير المؤمنين وأهل السواد معه على الخلاف والمعصية، وقد رميت كلّ كورة بحجَرها وكلّ ناحية بسهمها، ووجّهت إليهم الشهْم النجْد الميمـون المظفـر عيسى بن موسى، في كثرة من العدد والعُدّة، واستعنت بالله عليه، واستكفيته إياه؛ فإنه لا حول ولا قوة لأمير المؤمنين إلا به.

قال جعفر بن ربيعة: قال الحجاج بن قتيبة: لقد دخلتُ على أمير المؤمنين المنصور في ذلك اليوم مسلّماً، وما أظنّه يقدر على ردّ السلام لتتابع الفُتوق والخُروق عليه والعساكر المحيطة به ولمائةُ ألف سيف كامنة له بالكوفة بإزاء عسكره ينتظرون به صَيْحة واحدة فيثبون؛ فوجدته صقْراً أحوزيّاً مشمّراً، قد قام إلى ما نزل به من النوائب يعرُكها ويمرُسها، فقام بها ولم تقعد به نفسه؛ وإنه لكما قال الأوّل:

نــفْسُ عِـصــامٍ ســوَّدَتْ عــصــامــا ... وعــلَّمــتْــه الــكــرَّ والإقْــدَامــا

وصــيّــرتْــهُ مَــلِكــاً هُمَــامَــا

وذكر أبو عبيدة أنه كان عند يونس الجَرْميّ، وقد وجَّه محمد بن عبد الله أخاه لحرب أبي جعفر، فقال يونس: قدِم هذا يريد أن يزيل ملكًا، فألهَتْهُ ابنة عمر بنُ سَلمة عمّا حاوله، ولقد أهدِيت التيميّة إلى أبي جعفر في تلك الأيام، فتركها بمزجَر الكلب، فما نظر إليها حتى انقضى أمرُ إبراهيم. وكان إبراهيم تزّوج بعد مقدمه البصرةَ بهْكنة بنت عمر بن سلمة، فكانت تأتيه في مصبّغاتها وألوان ثيابها.

فلما أراد إبراهيم الشخوص نحو أبي جعفر، دخل - فيما ذكر بشرُ بن سلم - عليه نُميلة الطُّهَويّ وجماعة من قوّاده من أهل البَصْرة، فقالوا له: أصلحك الله! إنك قد ظهرت على البصرة والأهواز وفارس وواسط، فأقِمْ بمكانك، ووجّه الأجناد، فإن هُزِم لك جند أمددتَهم بجند، وإن هُزِم لك قائد أمددته بقائد، فخِيف مكانُك، واتّقاكَ عدوُّك، وجُبيت الأموال، وثبتتْ وطأتك؛ ثم رأيُك بعد. فقال الكوفيّون: أصلحك الله! إن بالكوفة رجالاً لو قد رأوْك ماتُوا دونك، وإلاّ يرْوك تقعد بهم أسبابٌ شتى فلا يأتونك، فلم يزالوا بـه حتى شخَص.

وذكر عن عبد الله بن جعفر المدينيّ، قال: خرجنا مع إبراهيم إلى باخَمْرَى، فلمّا عسكرنا أتانا ليلة من الليالي، فقال: انطلق بنا نطفْ في عسكرنا. قال: فسمع أصوات طَنابير وغناء فرجع، ثم أتاني ليلة أخرى فقال: انطلق بنا، فانطلقتُ معه، فسمع مثل ذلك فرجع وقال: ما أطمع في نصر عسكر فيه مثل هذا.

وذُكر عن عفان بن مسلم الصفار، قال: لمّا عسكر إبراهيمُ افترض معه رجال من جيراننا، فأتيت معسكَره، فحزَرتُ أنّ معه أقلّ من عشرة آلاف. فأما داود بن جعفر بن سليمان، فإنه قال: أحصيَ في ديوان إبراهيم من أهل البصرة مائة ألف. ووجّه أبو جعفر عيسى بن موسى - فيما ذكر إبراهيمُ بن موسى بن عيسى - في خمسة عشر ألفاً، وجعل على مقدّمته حُميد بن قحطبة على ثلاثة آلاف. فلما شخص عيسى بن موسى نحو إبراهيم سار معه - فيما ذكر - أبو جعفر حتى بلغ نهر البصريّين، ثم رجع أبو جعفر، وسار إبراهيم من معسكره بالماخور من خُرَيبة البصرة نحو الكوفة.

فذكر بعض بني تيم الله عن أوس بن مهلهل القطعيّ، قال: مرّ بنا إبراهيم في طريقه ذلك، ومنزلنا بالقباب التي تدعى قباب أوْس، فخرجتُ أتلقّاه مع أبي وعمّي، فانتهينا إليه وهو على بِرْذون له يرتاد منزلاً من الأرض، قال: فسمعته يتمثّل أبياتاً للقُطاميّ:

أُمـورٌ لـو تـدَبّـرهـا حَـلِيـمٌ ... إذاً لـنَـهَـى وهَـيَّـبَ مـا اسـتَـطَاعـا
ومـعْصِيَـةُ الشـفيـق عليـك مـمّـا ... يـزيـدك مـرةً مـنـه استـمـاعـاً
وخبْـرُ الأمـر مـا استقبلتَ مـنـه ... ولـيـس بـأن تَـتَـبّـعـه اتّـبـاعَـا
ولـكـنَّ الأدِيـمَ إذا تـفـرَّى ... بِـلًى وتـعـيُّـبـاً غـلـب الصَّـنـاعـا

فقلت للذي معي: إني لأسمع كلامَ رجل نادم على مسيره. ثم سار فلما بلغ كرختا قال له - فيما ذكر عن سليمان بن أبي شيخ عن عبد الواحد بن زياد بن لبيد - إن هذه بلادُ قومي، وأنا أعلم بها، فلا تقصد قصْد عيسى بن موسى، وهذه العساكر التي وُجّهتْ إليك، ولكني أسلك بك إن تركتَني طريقاً لا يشعر بك أبو جعفر إلا وأنت معه بالكوفة. فأبى عليه. قال: فإنا معشر ربيعة أصحاب بيات، فدعني أبيّت أصحاب عيسى بياتاً، قال: إني أكره البَيات.

وذُكر عن سعيد بن هريم أنّ أباه أخبره، قال: قلت لإبراهيم: إنك غير ظاهر على هذا الرجل حتى تأخذ الكوفة، فإن صارت لك مع تحصّنه بها لم تقم له بعدها قائمة، ولي بعدُ بها أهَيْلٌ، فدعني أسِرْ إليها مختفياً فأدعو إليك في السرّ ثم أجهر؛ فإنهم إن سمعوا داعياً إليك أجابوه، وإن سمع أبو جعفر الهيْعة بأرجاء الكوفة لم يردّ وجهه شيء دون حُلوان. قال: فأقبل على بشير الرحّال، فقال: ما ترى يا أبا محمد؟ قال: إنا لو وثقنا بالذي تصِف لكان رأياً؛ ولكنّا لا نأمن أن تجيبك منهم طائفة، فيرسل إليهم أبو جعفر خيلاً فيطأ البَريء والنَّطِف والصّغير والكبير؛ فتكون قد تعرّضت لمأثمِ ذلك، ولم تبلغ منه ما أمّلتَ. فقلتُ لبشير: أخرجت حين خرجت لقتال أبي جعفر وأصحابه؛ وأنت تتوقّى قتل الضّعيف والصغير والمرأة والرجل؛ أوَ ليس قد كان رسول الله ﷺ يوجّه السرّية فيقاتل فيكون في ذلك نحو ما كرهت! فقال: إنّ أولئك كانوا مشركين كلهم، وهؤلاء أهلُ ملتنا ودعوتنا وقبلتنا، حكمُهم غير حكم أولئك؛ فأتبع إبراهيم رأيه ولم يأذن له، وسار أبراهيم حتى نزل باخَمْري.

وذكر خالد بن أسيد الباهليّ أنه لما نزلها أرسل إليه سلْم بن قتيبة حكيم بن عبد الكريم: إنك قد أصْحَرْت، ومثلك أنفسُ به عن الموت، فخندِق على نفسك حتى لا تؤتىَ إلا من مأتىً واحد، فإن أنت لم تفعل فقد أعرى أبو جعفر عسكَره، فتخْفِفْ في طائفة حتى تأتيَه فتأخذ بقفاه.

قال: فدعا إبراهيم أصحابَه، فعرض ذلك عليهم، فقالوا: نخندق على أنفسنا ونحن ظاهرون عليهم! لا والله لا نفعل. قال: فنأتيه؟ قالوا: ولِمَ وهو في أيدينا متى أردناه! فقال إبراهيم لحكيم: قد تسمع، فارجع راشداً.

فذكر إبراهيم بن سلم أنّ أخاه حدّثه عن أبيه، قال: لما التقينا صفّ لهم أصحابُنا، فخرجت من صفهم، فقلت لإبراهيم: إن الصّفّ إذا انهزم بعضه تداعَى، فلم يكن لهم نظام، فاجعلهم كراديس، فإن انهزم كُرْدوس ثبت كردوس، فتنادوا: لا، ألا قتال أهل الإسلام يريدون قوله تعالى: ﴿ يُقاتلون في سَبيلهِ صفّاً ﴾ (١).

وذكر يحيى بن شكر مولى محمد بن سليمان، قال: قال المضاء: لما نزلنا باخَمْرَى أتيتُ إبراهيم فقلت له: إن هؤلاء القوم مصبِّحوك بما يسدّ عليك نغرب الشمس من السلاح والكُراع، وإنما معك رجال عُراة من أهل البصرة. فدعني أبيّته، فوالله لأشتّتَنّ جموعه، فقال: إني أكره القَتْل، فقلت: تريد المُلْك وتكره القتل!

وحدّثني الحارث، قال: حدّثني ابن سعد، قال: حدّثنا محمد بن عمر، قال: لما بلغَ إبراهيمَ قتلُ أخيه محمد بن عبد الله، خرج يريد أبا جعفر المنصور بالكُوفة، فكتب أبو جعفر إلى عيسى بن موسى يعلمِه ذلك، ويأمره أن يُقبِل إليه؛ فوافاه رسول أبي جعفر وكتابهُ ـ وقد أحرم بعمرة ـ فرفضها، وأقبل إلى أبي جعفر، فوجّهه في القوّاد والجند والسلاح إلى إبراهيم بن عبد الله، وأقبل إبراهيم ومعه جماعة كثيرة من أفناء الناس؛ أكثر من جماعة عيسى بن موسى، فالتقوْا بباخَمْرى ـ وهي على ستة عشر فرسخاً من الكوفة ـ فاقتتلوا بها قتالاً شديداً، وانهزم حُميد بن قحطبة ـ وكان على مقدّمة عيسى بن موسى ـ وانهزم الناس معه، فعرض لهم عيسى بن موسى يناشدهم الله والطاعة فلا يلوُون عليه، ومرّوا منهزمين. وأقبل حُميد بن قحطبة منهزماً، فقال له عيسى بن موسى: يا حُميد، الله الله والطاعة! فقال: لا طاعةَ في الهزيمة. ومرَّ الناس كلهم حتى لم يبقَ منهم أحد بين يديْ

---

(١) سورة الصف ٤.

عيسى بن موسى، وعسكر إبراهيم بن عبد الله، فثبت عيسى بن موسى في مكانه الذي كان فيه لا يزول، وهو في مائة رجل من خاصتّه وحَشمه، فقيل له: أصلح الله الأمير! لو تنحّيت عن هذا المكان حتى يثوب إليك الناس فتكّر بهم! فقال: لا أزول عن مكاني هذا أبداً حتى أقتَل أو يفتح الله على يدي؛ ولا يقال: انهزم.

وذكر عبد الرحيم بن جعفر بن سليمان بن عليّ أنّ إسحاق بن عيسى بن عليّ حدّثه أنه سمع عيسى بن موسى يحدّث أباه أنه قال: لما أراد أمير المؤمنين توجيهي إلى إبراهيم، قال: إنّ هؤلاء الخبثاء - يعني المنجّمين - يزعمون أنك لاقٍ الرجلَ، وأن لك جولةً حين تلقاه، ثم يفيء إليك أصحابك، وتكون العاقبة لك. قال: فوالله لكان كما قال؛ ما هو إلّا أن التقيْنا فهزمونا، فلقد رأيتُني وما معي إلا ثلاثة أو أربعة؛ فأقبل عليّ مولًى لي - كان ممسكاً بلجام دابتي - فقال: جُعلت فداك! علامَ تقيم وقد ذهب أصحابك! فقلت: فوالله لكان أكثر ما عندي أن جعلت أقول لمن مرّ بي ممن أعرف من المنهزمين: أقرِئوا أهل بيتي مني السلام، وقولوا لهم: إني لم أجد فداءً أفديكم به أعزّ من نفسي، وقد بذلتُها دونكم. قال: فوالله إنا لعلَى ذلك والناس منهزمون ما يلوي أحدٌ على أحد. وصمد ابنا سليمان: جعفر ومحمد لإبراهيم فخرجا عليه من ورائه، ولا يشعر مَنْ بأعقابنا من أصحاب إبراهيم؛ حتى نظر بعضهم إلى بعض؛ وإذا القتال من ورائهم، فكرُّوا نحوه، وعقّبنا في آثارهم راجعين؛ فكانت إياها. قال: فسمعت عيسى بن موسى يومئذ يقول لأبي: فوالله يا أبا العباس؛ لولا ابنَا سليمان يومئذ لافتضحنا؛ وكان مِن صنع الله أنّ أصحابنا لما انهزموا يومئذ اعترضَ لهم نهر ذو ثنيّتين مرتفعتين، فحالتا بينهم وبين الوثوب، ولم يجدوا مخاضة، فكرّوا راجعين بأجمعهم.

فذُكر عن محمد بن إسحاق بن مِهران، أنه قال: كان بباخَمْري ناسٌ من آل طلحة فمخُروها على إبراهيم وأصحابه، وبثقُوا الماء، فأصبح أهل عسكره مرتطمين في الماء. وقد زعم بعضهم أن إبراهيم هو الذي مخرَ ليكون قتاله من وجه واحد؛ فلما انهزموا منعهم الماء من الفرار، فلما انهزم أصحاب إبراهيم ثبت إبراهيم وثبتَ معه جماعة من أصحابه يقاتلون دونه، اختلف في مبلغ عدَدهم، فقال بعضهم: كانوا خمسمائة، وقال بعضهم: كانوا أربعمائة، وقال بعضهم: بل كانوا سبعين.

فحدثني الحارث، قال: حدَّثنا ابن سعد، قال: قال محمد بن عمر: لما انهزم أصحاب عيسى بن موسى وثبت عيسى مكانه، أقبل إبراهيم بن عبد الله في عسكره يدنُو ويدنو غبارُ عسكره؛ حتى يراه عيسى ومَنْ معه؛ فبيناهم على ذلك إذا فارس قد أقبل وكرّ راجعاً يجري نحو إبراهيم، لا يعرّج على شيء؛ فإذا هو حُميد بن قحطبة قد غيّر لأمته، وعصَب رأسه بعصابة صفراء، فكرّ الناس يتبعونه حتى لم يبق أحدٌ ممن كان انهزم إلا كرّ راجعاً، حتى خالطوا القوم، فقاتلوهم قتالاً شديداً حتى قَتل الفريقان بعضهم بعضاً، وجعل حُميد بن قحطبة يرسل بالرؤوس إلى عيسى بن موسى إلى أن أتيَ برأس ومعه جماعة كثيرة وضجة وصياح، فقالوا: رأس إبراهيم بن عبد الله؛ فدعا عيسى بن موسى بن أبي الكرام الجعفريّ، فأراه إياه، فقال: ليس هذا؛ وجعلوا يقتتلون يومهم ذلك؛ إلى أن جاء سهم عائر لا يُدْرَى من رمى به، فوقع في حَلْق إبراهيم بن عبد الله فنحرَه، فتنحّى عن موقفه، فقال: أنزلوني، فأنزلوه عن مركبه، وهو يقول: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ الله قَدَراً مقدوراً ﴾، أردنا أمراً وأراد الله غيره؛ فأُنزِل إلى الأرض وهو مثخَنٌ، واجتمع عليه أصحابه وخاصتّه يحمونه ويقاتلون دونه، ورأى حُميد بن قحطبة اجتماعهم، فأنكرهم فقال لأصحابه: شدّوا على تلك الجماعة حتى تزيلوهم عن موضعهم، وتعلَموا ما

اجتمعوا عليه، فشدُّوا عليهم، فقاتلوهم أشدّ القتال حتى أفرجوهم عن إبراهيم، وخلصوا إليه فحزُّوا رأسه؛ فأتوا به عيسى بن موسى، فأراه ابنَ أبي الكرام الجعفريّ، فقال: نعم؛ هذا رأسه، فنزل عيسى إلى الأرض فسجَد، وبعث برأسه إلى أبي جعفر المنصور، وكان قتْلُه يوم الاثنين لخمس ليال بقين من ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومائة. وكان يوم قُتل ابن ثَمان وأربعين سنة، ومكث منذ خرج إلى أن قتل ثلاثة أشهر إلا خمسة أيام.

وذكر عبد الحميد أنه سأل أبا صلابة: كيف قُتِل إبراهيم؟ قال: إني لأنظر إليه واقفاً على دابّةٍ ينظر إلى أصحاب عيسى قد وَلَّوْا ومنحوه أكتافهم، ونكَص عيسى بدابته القَهْقَرَى وأصحابه يقتلونهم، وعليه قباء زَرَد، فآذاه الحرّ، فحل أزرار قبَائه، فشال الزّرد حتى سال عن ثدييه، وحسر عن لَّبته، فأتته نُشّابة عائرة، فأصابته في لبّته، فرأيته اعتنق فرسه، وكرّ راجعاً، وأطافت به الزيديّة.

وذكر إبراهيم بن محمد بن أبي الكرام؛ قال: حدّثني أبي، قال: لما انهزم أصحاب عيسى تبعتْهم رايات إبراهيم في آثارهم، فنادى منادي إبراهيم: ألا لا تتّبعوا مدبراً؛ فكرّت الرايات راجعةً، ورآها أصحاب عيسى فخالُوهم انهزموا، فكرُّوا في آثارهم؛ فكانت الهزيمة.

وذكر أن أبا جعفر لما بلغته جولةُ أصحاب عيسى عزَم على الرحيل إلى الرّيّ، فذكر سلم بن فرقد حاجب سليمان بن مجالد، أنه قال: لما التقوْا هُزم أصحاب عيسى هزيمة قبيحةً حتى دخل أوائلهم الكُوفة، فأتاني صديق لي كوفيّ، فقال: أيّها الرجل، تعلّمْ والله لقد دخل أصحابك الكوفة؛ فهذا أخو أبي هريرة في دار فلان، وهذا فلان في دار فلان؛ فانظر لنفسك وأهلك ومالك؛ قال: فأخبرت بذلك سليمانَ بن مجالد، فأخبر به أبا جعفر، فقال: لا تكشفنّ من هذا شيئاً ولا تلتفتنّ إليه؛ فإنيّ لا آمن أن يهجم عليّ ما أكره، وأعْدِدْ على كلّ باب من أبواب المدينة إبلاً ودوابّ؛ فإن أتينا من ناحية صرنا إلى الناحية الأخرى. فقيل لسلم: إلى أين أراد أبو جعفر؟ يذهب إن دهمه أمر. قال: كان عزم على إتيان الريّ، فبلغني أن نيبخت المنجّم دخل على أبي جعفر، فقال: يا أميرَ المؤمنين، الظَّفَرُ لك، وسيُقتل إبراهيم، فلم يقبل ذلك منه، فقال له: احبسني عندك، فإن لم يكن الأمر كما قلت لك فاقتلِني، فبينا هو كذلك إذ جاءه الخبر بهزيمة إبراهيم، فتمثّل ببيت معقّر بن أوْس بن حمار البارقيّ:

فألقتْ عَصَاها واستقرّتْ بها النَّوى ... كما قرّ عيناً بالإياب المسافرُ

فأقطع أبو جعفر نيبخت ألفي جريب بنهرجَوْبر؛ فذكر أبو نعيم الفضل بن دكين أن أبا جعفر لما أصبح من الليلة التي أُتِيَ فيها برأس إبراهيم ـ وذلك ليلة الثلاثاء لخمس بقين من ذي القعدة ـ أمر برأسه فنُصب رأسه في السوق.

وذكر أن أبا جعفر لما أُتِيَ برأسه فوُضع بين يديه بكَى حتى قطرت دموعه على خدّ إبراهيم، ثم قال: أما والله إن كنتُ لهذا لكارهاً، ولكنّك ابتليتَ بي وابتليتُ بك.

وذكر عن صالح مولى المنصور أنّ المنصور لما أُتِيَ برأس أبراهيم بن عبد الله وضعَه بين يديه، وجلس مجلساً عامّاً، وأذن للناس، فكان الدّاخل يدخل فيسلّم ويتناول إبراهيم فيسيء القول فيه، ويذكر منه القبيح، التماساً لرضا أبي جعفر، وأبو جعفر ممسكٌ متغيّر لونه؛ حتى دخل جعفر بن حنظلة البهرانيّ، فوقف فسلّم، ثم قال: عظّم الله أجرك يا أمير المؤمنين في ابن عمّك، وغفر له ما فرّط فيه من حقك! فاصفرّ لونُ أبي جعفر وأقبل

عليه، فقال: أبا خالد، مرحباً وأهلاً ها هنا! فعلم الناس أن ذلك قد وقع منه، فدخلوا فقالوا مثل ما قال جعفر بن حنظلة.

وفي هذه السنة خرجت الترك والخَزَر بباب الأبواب فقتلوا من المسلمين بأرمينيَة جماعة كثيرة.

وحجّ بالناس في هذه السنة السريّ بن عبد الله بن الحارث بن العباس بن عبد المطلب. وكان عاملَ أبي جعفر على مكة.

وكان والي المدينة في هذه السنة عبد الله بن الربيع الحارثيّ، ووالي الكوفة وأراضيها عيسى بن موسى، ووالي البصرة سلْم بن قتيبة الباهليّ. وكان على قضائها عبّاد بن منصور، وعلى مصر يزيد بن حاتم.

ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك استتمامُ أبي جعفر مدينتَه بغداد؛ ذكر محمد بن عمر أنّ أبا جعفر تحوّل من مدينة ابن هُبيرة إلى بغداد في صفر سنة ستّ ورأبعين ومائة، فنزلها وبنى مدينتها.

ذكر الخبر عن صفة بنائه إياها:

قد ذكرنا قبلُ السببَ الباعث كان لأبي جعفر على بنائها، والسبب الذي من أجله اختار البُقعة التي بنَى فيها مدينته، ونذكر الآن صفة بنائه إياها.

ذُكر عن رشيد أبي داود بن رَشيد أنّ أبا جعفر شخص إلى الكوفة حين بلغه خروجُ محمد بن عبد الله، وقد هيّأ لبناء مدينة بغداد ما يحتاج إليه من خَشب وساج وغير ذلك؛ واستخلف حين شخص على إصلاح ما أعدّ لذلك مولًى له يقال له أسلم؛ فبلغ أسلم أنّ إبراهيم بن عبد الله قد هزم عسكر أبي جعفر، فأحرق ما كان خَلّفه عليه أبو جعفر من ساجٍ وخشب؛ خوفاً أن يؤخذ منه ذلك؛ إذا غُلب مولاه؛ فلما بلغ أبا جعفر ما فعل من ذلك مولاه أسلم كتب إليه يلومه على ذلك؛ فكتب إليه أسلم يخبر أنه خاف أن يظفر بهم إبراهيم فيأخذه، فلم يقل له شيئاً.

وذُكر عن إسحق بن إبراهيم الموصليّ، عن أبيه، قال: لما أراد المنصور بناء مدينة بغداد، شاور أصحابه فيها؛ وكان ممّن شاوره فيها خالد بن برمك، فأشار بها؛ فذكِرَ عن عليّ بن عصمة أن خالد بن برمك خطّ مدينة أبي جعفر له، وأشار بها عليه؛ فلما احتاج إلى الأنقاض، قال له: ما ترى في نقض بناء مدينة إيوان كسرى بالمدائن وحمل نقضه إلى مدينتي هذه؟ قال: لا أرى ذلك يا أمير المؤمنين، قال: ولِمَ؟ قال: لأنه علَمٌ من أعلام الإسلام، يستدلّ به الناظر إليه على أنه لم يكن ليُزالَ مثل أصحابه عنه بأمر دنيا؛ وإنما هو على أمر دين؛ ومع هذا يا أمير المؤمنين؛ فإن فيه مصلىّ عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه، قال: هيهات يا خالد! أبيتَ إلا الميل إلى أصحابك العجم! وأمر أن يُنقَض القصر الأبيض، فنُقِضت ناحية منه، وحِمل نقضه، فنظر في مقدار ما يلزمهم للنقض والحمل فوجدوا ذلك أكثر من ثمن الجديد لو عُمل، فرُفع ذلك إلى المنصور، فدعا بخالد بن برمك، فأعلمه ما يلزمهم في نقضه وحمله، وقال: ما ترى؟ قال: يا أمير المؤمنين، قدْ كنت أرى قبل ألاّ تفعل، فأما إذا فعلتَ فإني أرى أن تهدم الآن حتى تلحق بقواعده؛ لئلا يقال: إنك قد عجزت عن هدمِه. فأعرض المنصور عن ذلك، وأمر ألاّ يهدم. فقال موسى بن داود المهندس: قال لي المأمون ـ وحدّثني بهذا الحديث: يا موسى إذا بنيتَ لي بناء فاجعله ما يعجز عن هدمه ليبقى طللُه ورسمْه.

وذكر أنّ أبا جعفر احتاج إلى الأبواب للمدينة؛ فزعم أبو عبد الرحمن الهمانيّ أن سليمان بن داود كان بنى مدينةً بالقرب من موضع بناء الحجاج واسطاً يقال لها الزَّنْدورد، واتّخذت له الشياطينُ لها خمسة أبواب من حديد لا يمكن الناس اليوم عملُ مثلها، فنصبها عليها، فلم تزلْ عليها إلى أن بنى الحجاج واسطاً، وخربت تلك المدينة، فنقل الحجاجُ أبوابها فصيّرها على مدينته بواسط، فلمّا بنى أبو جعفر المدينة أخذ تلك الأبواب فنصبها على المدينة؛ فهي عليها إلى اليوم. وللمدينة ثمانية أبواب: أربعة داخلة وأربعة خارجة؛ فصار على الداخلة أربعة أبواب من هذه الخمسة، وعلى باب القصر الخارج الخامس منها، وصيّر على باب خراسان الخارج بابا جيء به من الشأم من عمل الفراعنة، وصيّر على باب الكوفة الخارج بابا جيء به من الكوفة، كان عمله خالد بن عبد الله القسريّ، وأمر باتّخاذ باب لباب الشأم، فعُمل ببغداد، فهو أضعف الأبواب كلها. وبنيت المدينة مدوّرة لئلا يكون الملك إذا نزل وسطَها إلى موضع منها أقرب منه الى موضع، وجعل أبوابها أربعة؛ على تدبير العساكر في الحروب، وعمِل لها سوريْن، فالسور الداخل أطول من السور الخارج، وبنى قصره في وسطها، والمسجد الجامع حول القصر.

وذُكِر أنّ الحجاج بن أرطاة هو الذي خطّ مسجدِ جامعها بأمر أبي جعفر، ووضع أساسه. وقيل إن قبلتها على غير صواب وإنّ المصلّي فيه يحتاج أن ينحرف إلى باب البصرة قليلاً، إن قبلة مسجد الرُّصافة أصوب من قبلة مسجد المدينة؛ لأنّ مسجد المدينة بني على القصر، ومسجد الرّصافة بُني قبل القصر وبُني القصر عليه؛ فلذلك صار كذلك.

وذكر يحيى بن عبد الخالق أنّ أباه حدّثه أن أبا جعفر ولّى كلَّ ربع من المدينة قائداً يتولى الاستحثاث على الفراغ من بناء ذلك الرُّبع.

وذكر هارون بن زياد بن خالد بن الصلت، قال: أخبرني أبي، قال: ولّى المنصور خالد بن الصلت النفقة على رُبع من أرباع المدينة وهي تبنى. قال خالد: فلما فرغتُ من بناء ذلك الرُّبع رفعت إليه جماعة النفقة عليه، فحسبها بيده، فبقي عليّ خمسة عشر درهماً، فحبسني بها في حبس الشرقية أياماً حتى أدّيتُها، وكان اللبِن الذي صُنع لبناء المدينة اللبِنة منها ذراعاً في ذراع.

وذكِر عن بعضهم أنه هدم من السور الذي يلِي باب المحوّل قطعة فوجد فيها لِبنة مكتوباً عليها بمُغْرة وزنها مائة وسبعة عشر رطلاً. قال: فوزنّاها فوجدناها على ما كان مكتوباً عليها من الوزن. وكانت مقاصير جماعة من قوّاد أبي جعفر وكتابه تشرع أبوابها إلى رَحَبة المسجد.

وذكر عن يحيى بن الحسن بن عبد الخالق؛ خال الفضل بن الربيع، أنّ عيسى بن عليّ شكا إلى أبي جعفر، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ إن المشي يشقّ عليّ من باب الرّحبة إلى القصر، وقد ضعفت. قال: فتحمَل في محفّة، قال: إني أستحيي من الناس، قال: وهل بقي أحدٌ يستحيَا منه! قال: يا أمير المؤمنين، فأنزلني منزلة راوية من الروايا، قال: وهل يدخل المدينة راوية أو راكب؟ قال: فأمر الناس بتحويل أبوابهم إلى فُصْلان الطاقات؛ فكان لا يدخل الرّحبة أحد إلاّ ماشياً. قال: ولّما أمر المنصور بسدّ الأبواب ممّا يلي الرحبة وفتحها إلى الفُصْلان صيرت الأسواق في طاقات المدينة الأربع، في كلّ واحد سوقٍ، فلم تزل على ذلك مدّة حتى قدم عليه بِطْريق من بطارقة الرُّوم وافداً! فأمر الرّبيع أن يطوف به في المدينة وما حولها ليرى العمران والبناء، فطاف به

الرَّبيع، فلمّا انصرف قال: كيف رأيتَ مدينتي - وقد كان أصعد إلى سور المدينة وقباب الأبواب؟ قال: رأيتُ بناء حسناً؛ إلاّ أني قد رأيتُ أعداءك معك في مدينتك، قال: ومَنْ هم؟ قال: السوقة، قال: فأضبَّ عليها أبو جعفر، فلما انصرف البطريق أمر بإخراج السوق من المدينة، وتقدّم إلى إبراهيم بن حُبيش الكوفيّ، وضمّ إليه جوّاس بن المسيب اليمانيّ مولاه، وأمرهما أن يبنيا الأسواق ناحية الكرخ، ويجعلاها صفوفاً وبيوتاً لكل صنف؛ وأن يدفعاها إلى الناس. فلما فعلا ذلك حوّل السوق من المدينة إليها، ووضع عليهم الغلة على قدر الذَّرْع؛ فلما كثر الناس بنَوْا في مواضع من الأسواق لم يكن رغب في البناء فيها إبراهيم بن حبيش وجوّاس، لأنها لم تكن على تقديم الصُّفوف من أموالهم؛ فألزموا من الغلة أقلّ مما ألزِم الذين نزلوا في بناء السلطان.

وذكر بعضهم أن السبب في نقل أبي جعفر التجار من المدينة إلى الكَرْخ وما قرب منها مما هو خارج المدينة، أنه قيل لأبي جعفر: إنّ الغرباء وغيرهم يبيتون فيها، ولا يؤمن أن يكون فيهم جَواسيس، ومَنْ يتعرّف الأخبار، أو أن يفتح أبواب المدينة ليلاً لموضع السوق، فأمر بإخراج السوق من المدينة وجعلها للشُّرَط والحرَس، وبنى للتجار بباب طاق الحرَّانيّ وباب الشأم والكرخ.

وذُكِر عن الفضل بن سليمان الهاشميّ، عن أبيه، أنّ سبب نقله الأسواق مِن مدينة السلام ومدينة الشرقيّة إلى باب الكَرْخ وباب الشعير وباب المحوّل؛ أنّ رجلاً كان يقال له أبو زكرياء يحيى بن عبد الله، ولاّه المنصور حِسْبَةَ بغداد والأسواق سنة سبع وخمسين ومائة، والسوق في المدينة؛ وكان المنصور يتبع مَنْ خرج مع محمد وإبراهيم ابنى عبد الله بن حسن، وقد كان لهذا المحتسب معهم سبب، فجمع على المنصور جماعة استغواهم من السفلة، فشغَبوا واجتمعوا، فأرسل المنصور إليهم أبا العباس الطوسيّ فسكّنهم، وأخذ أبا زكرياء فحبسه عنده، فأمره أبو جعفر بقتله، فقتله بيده حاجبٌ كان لأبي العباس الطوسيّ يقال له موسى، على باب الذهب في الرّحبة بأمر المنصور، وأمر أبو جعفر بهدم ما شَخَص من الدُّور في طريق المدينة، ووضع الطريق على مقدار أربعين ذراعاً، وهدم ما زاد على ذلك المقدار، وأمر بنقل الأسواق إلى الكَرْخ.

وذكر عن أبي جعفر أنه لما أمر بإخراج التجار من المدينة إلى الكَرْخ كلمه أبان بن صَدَقة في بقّال، فأجابه إليه على ألاّ يبيع إلا الخلّ والبقْل وحده، ثم أمر أن يجعل في كلّ رُبع بقّال واحد على ذلك المثال.

وذكِر عن عليّ بن محمد أن الفضل بن الربيع، حدّثه أن المنصور لما فرغ من بناء قصره بالمدينة، دخله فطاف فيه واستحسنه واستنظفه، وأعجبه ما رأى فيه؛ غير أنه استكثره ما أنفق عليه. قال: ونظر إلى موضع فيه استحسنه جدّاً، فقال لي: اخرج إلى الرَّبيع فقل له: اخرج إلى المسيّب، فقل له: يحضرني الساعة بنّاء فارهاً. قال: فخرجتُ إلى المسيّب فأخبرته، فبعث إلى رئيس البنائين فدَعاه، فأدخله على أبي جعفر؛ فلمّا وقف بين يديه قال له: كيف عملت لأصحابنا في هذا القصر؟ وكم أخذت من الأجرة لكل ألف آجُرَّة ولبنة؟ فبقي البنّاء لا يقدر على أن يُردّ عليه شيئاً، فخافه المسيّب، فقال له المنصور: مالك لا تكلّمُ! فقال: لا علم لي يا أمير المؤمنين، قال: ويحك! قل وأنت آمن مِنْ كلّ ما تخافه. قال: يا أميرَ المؤمنين، لا والله ما أقف عليه ولا أعلمه. قال: فأخذ بيده، وقال له: تعالى، لاعلّمك الله خيرا! وأدخله الحجرة التي استحسنها، فأراه مجلساً كان فيها، فقال له: انظر إلى هذا المجلس وابْنِ لي بإزائه طاقاً يكون شبيهاً بالبيت، لا تدخل فيه خشباً، قال: نعَم يا أمير المؤمنين، قال: فأقبل البنّاءُ وكل مَنْ معه يتعجّبون من فهمه بالبناء والهندسة، فقال له البنّاء: ما أُحْسِنُ أن أجيء به على

هذا، ولا أقوم به على الذي تريد! فقال له: فأنا أعينك عليه، قال: فأمر بالآجرّ والجصّ، فجيء به، ثم أقبل يحصي جميع ما دخل في بناء الطاق من الآجُرّ والجصّ؛ ولم يزل كذلك حتى فرغ منه في يومه وبعض اليوم الثاني، فدعا بالمسّيب، فقال له: ادفع إليه أجرْه على حسب ما عمل معك، قال: فحاسبه المسيَّب، فأصابه خمسة دراهم؛ فاستكثر ذلك المنصور، وقال: لا أرضى بذلك؛ فلم يزل به حتى نقصه دِرْهماً، ثم أخذ المقادير، ونظر مقدار الطاق من الحجرة حتى عرفه، ثم أخذ الوكلاء والمسيّب بُحملان النفقات، وأخذ معه الأمناء من البنائين والمهندسين حتى عرّفوه قيمة ذلك؛ فلم يزل يحبسه شيئاً شيئاً، وحملهم على ما رفع في أجرة بناء الطاق؛ فخرج على المسيّب مما في يده ستة آلاف درهم ونيّف، فأخذه بها واعتقله، فما برح من القصر حتى أدّاها إليه.

وذكر عن عيسى بن المنصور أنه قال: وجدتُ في خزائن أبي المنصور في الكتب، أنه أنفق على مدينة السلام وجامعها وقصر الذهب بها والأسواق والفُصلان والخنادق وقبابها وأبوابها أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثين درهماً، ومبلغها من الفلوس مائة ألف ألف فَلْس وثلاثة وعشرون ألف فَلْس؛ وذلك أن الأستاذ من البنّائين كان يعمل يومه بقيراط فِضّة، والروزكاري بحبّتين إلى ثلاث حبّات.

وفي هذه السنة عزل المنصور عن البصرةَ سلم بن قتيبة، وولّاها محمد بن سليمان بن عليّ.

ذكر الخبر عن سبب عزله إياه:

ذكر عبد الملك بن شيبان أنّ يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن الهاشميّ، قال: كتب أبو جعفر إلى سلْم بن قتيبة لما ولاه البصرة: أما بعد، فقد كتبتُ إليك آمرك بإفساد تَمْرهم، فكتبتَ تستأذني في أيّةٍ تبدأ به بالبَرْنيّ أم بالشهريز! وعزله وولّى محمد بن سليمان، فقدم فعاث.

وذكر عن يونس بن نجدة، قال: قدم علينا سَلْم بن قتيبة أميراً بعد الهزيمة وعلى شُرطه أبو برقة يزيد بن سلْم، فأقام بها سلْم أشهراً خمسة، ثم عزِل، ووليّ علينا محمد بن سليمان.

قال عبد الملك بن شيبان: هدم محمد بن سليمان لما قدم دار يعقوب بن الفضل، ودار أبي مَرْوان في بني يشكُر، ودار عوْن بن مالك، ودار عبد الواحد بن زياد، ودار الخليل بن الحُصين في بني عديّ، ودار عفو الله بن سفيان؛ وعَقَر نخلهم.

وغزا الصّائفة في هذه السنة جعفر بن حنظلة البهرانيّ.

وفي هذه السنة عُزِل عن المدينة عبد الله بن الربيع، ووُلّيَ مكانه جعفر بن سليمان، فقدمها في شهر ربيع الأول.

وعزِل أيضاً في هذه السنة عن مكة السريّ بن عبد الله، ووليها عبدُ الصمد بن عليّ.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس، كذلك قال محمد بن عمر وغيره.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائة

ذكر الإخبار عن الأحداث التي كانت فيها

فمما كان فيها من ذلك إغارة إسترخان الخوارزميّ في جَمْع من الترك على المسلمين بناحية إرمينيَة وسبيُه من المسلمين وأهلِ الذمّة خلقاً كثيراً، ودخولُهم تفليس، وقتلهم حرب بن عبد الله الراونديّ الذي تنسب إليه الحربية ببغداد. وكان حربُ هذا ـ فيما ذُكِر ـ مقيماً بالموصل في ألفين من الجُنْد، لمكان الخوارج الذين بالجزيرة. وكان أبو جعفر حين بلغه تحزّب الترك فيما هناك وجّه إليهم لحربهم جبرئيل بن يحيى، وكتب إلى حرب يأمره بالمسيرِ معه؛ فسار معه حَرْب، فقتِل حرب وهُزم جبرئيل، وأصيب من المسلمين من ذكرت.

وفي هذه السنة كان مهلك عبد الله بن عليّ بن عباس. واختلفوا في سبب هلاكه، فقال بعضهم ما ذكره عليّ بن محمد النُّوفليّ عن أبيه أن أبا جعفر حجّ سنة سبع وأربعين ومائة بعد تقدمته المهديّ على عيسى بن موسى بأشهر، وقد كان عزل عيسى بن موسى عن الكوفة وأرضها، وولّى مكانه محمد بن سليمان بن عليّ، وأوفده إلى مدينة السلام، فدعا به، فدفع إليه عبد الله بن عليّ سرًّا في جوف الليل، ثم قال له: يا عيسى؛ إنّ هذا أراد أن يزيل النعمة عني وعنك، وأنت وليّ عهدي بعد المهديّ، والخلافة صائرة إليك؛ فخذه إليك فاضرب عنقه، وإياك أن تخور أو تضعف، فتنقض عليّ أمري الذي دَبّرتُ. ثم مضى لوجهه، وكتب إليه من طريقه ثلاثَ مرات يسأله: ما فعل في الأمر الذي أوعز إليه فيه؟ فكتب إليه: قد أنفذتُ ما أمرت به؛ فلم يشكّ أبو جعفر في أنه قد فعل ما أمره به، وأنه قد قتل عبد الله بن عليّ؛ وكان عيسى حين دفعه إليه ستره؛ ودعا كاتبه يونس بن فَرْوَة، فقال له: إنّ هذا الرجل دفع إليّ عمَّه، وأمرني فيه بكذا وكذا. فقال له: أراد أن يقتلك ويقتله، أمرك بقتله سرًّا، ثم يدّعيه عليك علانية ثم يُقيدك به. يقال: فما الرأي؟ قال: الرأي أن تستره في منزلك، فلا نطلِعْ على امره أحداً، فإن طلبه منك علانيةً دفعتَه إليه علانية، ولا تدفعْه إليه سرًّا أبداً، فإنه وإن كان أسرّه إليك؛ فإن أمره سيظهر. ففعل ذلك عيسى.

وقدم المنصور ودسّ إلى عُمومته مَنْ يحرّكهم على مسألته هبةَ عبد الله بن عليّ لهم، ويطمعهم في أنه سيفعل. فجاؤوا إليه وكلموه ورقّقوه، وذكروا له الرّحِم، وأظهروا له رقة، فقال: نعم، عليّ بعيسى بن موسى؛ فأتاه فقال له: يا عيسى؛ قد علمتَ أني دفعت إليك عمّي وعمك عبد الله بن عليّ قبل خروجي إلى الحجّ، وأمرتُك أن يكون في منزلك، قال: قد فعلتُ ذلك يا أمير المؤمنين، قال: فقد كلمني عمومتك فيه، فرأيتُ الصّفح عنه وتخليةَ سبيله؛ فأتنا به. فقال: يا أميرَ المؤمنين، ألم تأمرني بقتله فقتلته، قال: ما أمرتُك بقتله، إنما أمرتك بحبسه في منزلك. قال: قد أمرتَني بقتلِه، قال: له المنصور: كذبت، ما أمرتك بقتله. ثم قال لعمومته:

إنّ هذا قد أقرّ لكم بقتل أخيكم، وادّعى أني أمرته بذلك، وقد كذَب، قالوا: فادفعه إلينا نقتله به، قال: شأنكم به، فأخرجوه إلى الرَّحبة، واجتمع الناس، وشهُر الأمر، فقام أحدهم فشهر سيفه، وتقدّم إلى عيسى ليضربه، فقال له عيسى: أفاعل أنت؟ قال إي والله، قال: لا تعجلوا، ردُّوني إلى أمير المؤمنين، فردّوه إليه، فقال: إنما أردتَ بقتله أن تقتلَني؛ هذا عمُّك حيٌّ سويٌّ، إن أمرتَني بدفعه إليك دفعتُه. قال: ائتنا به، فأتاه به، فقال له عيسى: دبَّرتَ عليّ أمراً فخشيتُه؛ فكان كما خشيت؛ شأنَك وعمَّك. قال: يدخل حتى أرى رأيي. ثم انصرفوا، ثم أمر به فجُعل في بيت أساسه مِلْح، وأجرى في أساسه الماء، فسقط عليه فمات؛ فكان من أمره ما كان. وتوفِّيَ عبد الله بن علي في هذه السنة ودفن في مقابر باب الشأم؛ فكان أول من دفن فيها.

وذُكر عن إبراهيم بن عيسى بن المنصور بن بُرَيْه أنه قال: كانت وفاة عبد الله بن عليّ في الحبس سنة سبع وأربعين ومائة، وهو ابن اثنتين وخمسين سنة.

قال إبراهيم بن عيسى: لما توفّيَ عبد الله بن عليّ ركب المنصور يوماً ومعه عبد الله بن عيّاش، فقال له وهو يجاريه: أتعرف ثلاث خلفاء، أسماؤهم على العين مبدؤها، قتلوا ثلاثة خوارجَ مبدأ أسمائهم العين؟ قال: لا أعرف إلا ما تقول العامّة؛ إنّ عليًّا قتل عثمان - وكذبوا - وعبد الملك بن مروان قتل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وعبد الله بن الزبير وعمرو بن سعيد وعبد الله بن عليّ سقط عليه البيت، فقال له المنصور: فسقط على عبد الله بن عليّ البيت، فأنا ما ذنبي؟ قال: ما قلت إنّ لك ذنباً.

وفي هذه السنة خلع المنصور عيسى بن موسى وبايع لابنه المهديّ، وجعله وليّ عهد من بعده. وقال بعضهم: ثم مِنْ بعده عيسى بن موسى.

ذكر الخبر عن سبب خلعه إياه وكيف كان الأمر في ذلك:

اختُلف في الذي وصل به أبو جعفر إلى خلعه، فقال بعضهم: السبب الذي وصل به أبو جعفر إلى ذلك هو أن أبا جعفر أقرّ عيسى بن موسى بعد وفاة أبي العباس على ما كان أبو العباس ولاّه من ولاية الكوفة وسوادِها، وكان له مكرِماً مجلاًّ، وكان إذا دخل عليه أجلسه عن يمينه، وأجلس المهديّ عن يساره؛ فكان ذلك فعله به؛ حتى عزم المنصور على تقديم المهديّ في الخلافة عليه. وكان أبو العباس جعل الأمر من بعده لأبي جعفر، ثم من بعد أبي جعفر لعيسى بن موسى؛ فلما عزم المنصور على ذلك كلم عيسى بن موسى في تقديم ابنه عليه برفيق من الكلام، فقال عيسى: يا أمير المؤمنين؛ فكيف بالأيمان والمواثيق التي عليّ وعلى المسلمين لي من العتق والطلاق وغير ذلك من مؤكد الأيمان! ليس إلى ذلك سبيل يا أمير المؤمنين. فلما رأى أبو جعفر امتناعَه، تغيّر لونُه وباعده بعض المباعدة، وأمر بالإذن للمهديّ قبله؛ فكان يدخل فيجلس عن يمين المنصور في مجلس عيسى، ثم يؤذَن لعيسى فيدخل فيجلس دون مجلس المهديّ عن يمين المنصور أيضاً، ولا يجلس عن يساره في المجلس الذي كان يجلس فيه المهديّ، فيغتاظ من ذلك المنصور، ويبلغ منه، فيأمر بالأذن للمهديّ ثم يأمر بعده بالإذن لعيسى بن عليّ، فيلبث هنيهة، ثم عبد الصمد بن عليّ، ثم يلبث هنيهة، ثم عيسى بن موسى فإذا كان بعد ذلك قدّم في الإذن للمهديّ على كل حال، ثم يخلط في الآخرين، فيقدِّم بعض مَنْ أخّر ويؤخر بعض مَنْ قدّم ويُوهم عيسى بن موسى أنه إنما يبدأ بهم لحاجة تعرِض ولمذكراتهم بالشيء من أمره؛ ثم يؤذن لعيسى بن موسى من بعدهم، وهو في ذلك كله صامت لا يشكو منه شيئاً، ولا يستعتب. ثم صار إلى أغلظ من ذلك؛ فكان يكون في المجلس معه

بعض ولده، فيسمع الحفْر في أصل الحائط فيخاف أن يخرّ عليه الحائط، وينتثر عليه التراب، وينظر إلى الخشبة من سقف المجلس قد حُفر عن أحد طرفيها لتقلع فيسقط التراب على قلنسوته وثيابه، فيأمر مَنْ معه من ولده بالتحويل، ويقوم هو فيصلّي، ثم يأتيه الإذن فيقوم فيدخل بهيئته والتراب عليه لا ينفضه؛ فإذا رآه المنصور قال له: يا عيسى، ما يدخل عليّ أحد بمثل هيئتك من كثرة الغبار عليك والتراب! أفكلّ هذا من الشارع؟ فيقول: أحسب ذلك يا أمير المؤمنين؛ وإنما يكلمه المنصور بذاك ليستطعمه أن يشكوَ إليه شيئاً فلا يشكو؛ وكان المنصور قد أرسل إليه في الأمر الذي أراد منه عيسى بن عليّ، فكان عيسى بن موسى لا يحمَد منه مدخلَه فيه؛ كأنه كان يغري به. فقيل: إنه دسّ لعيسى بن موسى بعض ما يتلفه؛ فنهض من المجلس، فقال له المنصور: إلى أين يا أبا موسى؟ قال: أجد غمزاً يا أمير المؤمنين، قال: ففي الدار إذاً! قال: الذي أجده أشدّ مما أقيم معه في الدار، قال: فإلى أين؟ قال: إلى المنزل؛ ونهض فصار إلى حَرّاقته، ونهض المنصور في أثره إلى الحَرّاقة متفزّعاً له، فاستأذنه عيسى في المسير إلى الكوفة، فقال: بل تقيم فتعالج هاهنا، فأبى وألحّ عليه، فأذن له. وكان الذي جرّأه على ذلك طبيبه بختيشوع أبو جبرئيل، قال: إني والله ما أجترىء على معالجتك بالحضْرة، وما آمن على نفسي. فأذن له المنصور، وقال له: أنا على الحجّ في سنتي هذه، فأنا مقيم عليك بالكوفة حتى تفيق إن شاء الله.

وتقارب وقتُ الحجّ، فشخص المنصور حتى صار بظهر الكوفة في موضع يدعَى الرّصافة، فأقام بها أياماً، فأجرى هناك الخيل، وعاد عيسى غير مرّة، ثم رجع إلى مدينة السلام ولم يحجّ، واعتلّ بقلة الماء في الطريق. وبلغت العلّة من عيسى بن موسى كلَّ مبلغ؛ حتى تمعّط شعرُه، ثم أفاق من علّته تلك فقال فيه يحيى بن زياد بن أبي حزابة البُرْجُميّ أبو زياد:

أفلَتَ من شَرْبَة الطبيب كما ... أفلَت ظَبْيُ الصّريم من قُتَرهْ
من قانصٍ يُنْفِذُ الفَريصَ إذا ... ركّبَ سَهْمَ الحُتُوف في وتَرهْ
دافَعَ عنكَ المَليكُ صَوْلَةَ لَيْـ ... ـثٍ يُريد الأسْدَ في ذرَى خَمَرهْ
حتى أتانا وفيه داخِلَةٌ ... تُعرفُ في سمعِهِ وفي بَصَرهْ
أزْعَرَ قد طارَ عن مفارِقِهِ ... وحْفُ أثيثِ النّباتِ من شَعَرهْ

وذُكر أنّ عيسى بن عليّ كان يقول للمنصور: أنّ عيسى بن موسى إنما يمتنع من البيعة للمهديّ لأنه يربّص هذا الأمر لابنه موسى، فموسى الذي يمنعه. فقال المنصور لعيسى بن عليّ: كلّم موسى بن عيسى وخوّفه على أبيه وعلى ابنه؛ فكلّم عيسى بن عليّ موسى في ذلك، فأيأسه، فتهدده وحذّره غضب المنصور. فلما وجل موسى وأشفق وخاف أن يقع به المكروه، أتى العباس بن محمد، فقال: أيْ عمّ، إني مكلّمك بكلام، لا والله ما سمعه مني أحدٌ قطّ، ولا يسمعه أحد أبداً؛ وإنما أخرجه مني أليك موضعُ الثقة بك والطمأنينة إليك؛ وهو أمانة عندك؛ فإنما هي نفسي أنثلها في يدك. قال: قل يابنَ أخي؛ فلك عندي ما تحبّه، قال: أرى ما يُسام أبي من إخراج هذا الأمر من عنقه وتصييره للمهديّ؛ فهو يؤذَى بصنوف الأذى والمكروه، فيُتهدّد مرة ويؤخّر إذنه مرّة، وتُهدّم عليه الحيطان مرّة، وتدسّ إليه الحتوف مرّة. فأبي لا يعطى على هذا شيئاً؛ لا يكون ذلك أبداً؛ ولكنّ ها هنا وجهاً، فلعله يعطى عليه إن أعطى وإلاّ فلا، قال: فما هو يابن أخي؟ فإنك قد أصبت ووفّقت، قال: يقبل عليه أمير المؤمنين وأنا شاهد فيقول له: يا عيسى، إني أعلم أنك لستَ تضنّ بهذا الأمر على المهديّ لنفسك؛ لتعالِي سنّك

وقرب أجلِك؛ فإنك تعلم أنه لا مدّة لك تطور فيه؛ وإنما تضنّ به لمكان ابنك موسى؛ أفتراني أَدَعُ ابنَك يبقى بعدك ويبقى ابني معه فيلي عليه! كلاّ والله لا يكون ذلك أبداً؛ ولأثبنّ على ابنك وأنت تنظر حتى تيأس منه، وآمن أن يليَ على ابني. أترى ابنك آثر عندي من ابني! ثم يأمر بي؛ فإما خنِقت وإما شُهر عليّ سيف. فإن أجاب إلى شيء فعسى أن يفعل بهذا السبب؛ فأما بغيره فلا. فقال العباس: جزاك الله يابن أخي خيراً، فقد فديت أباك بنفسك، وآثرت بقاءه على حظك، نعم الرأي رأيت، ونعم المسلك سلكت!

ثم أتى أبا جعفر فأخبره الخبر، فجزى المنصور موسى خيراً؛ وقال: قد أحسن وأجمل، وسأفعل ما أشار به إن شاء الله، فلما اجتمعوا وعيسى بن عليّ حاضر، أقبل المنصور على عيسى بن موسى، فقال: يا عيسى؛ إني لا أجهل مذهبك الذي تضمره، ولا مداك الذي تجري إليه في الأمر الذي سألتك؛ إنما هذا الأمر لابنك هذا المشؤوم عليك وعلى نفسه؛ فقال عيسى بن عليّ: يا أمير المؤمنين، غمزني البوْل، قال: فندعو لك بإناء تبول فيه، قال: أفي مجلسك يا أمير المؤمنين! ذاك ما لا يكون، ولكن أقرب البلاليع مني أدَلّ عليها فآتيها. فأمر من يدلّه، فانطلق. فقال عيسى بن موسى لابنه موسى: قمْ مع عمك، فاجمع عليه ثيابه من ورائه، وأعطه منديلا إن كان معك ينشّف به، فلما جلس عيسى يبولُ جمع موسى عليه ثيابَه من ورائه وهو لا يراه، فقال: مَنْ هذا؟ فقال: موسى بن عيسى، فقال: بأبي أنت وبأبي أبٌ ولدك! والله إني لأعلم أنه لا خير في هذا الأمر بعدكما، وإنكما لأحقّ به؛ ولكن المرء مغرًى بما تعجّل، فقال موسى في نفسه: أمكنني والله هذا من مقاتله؛ وهو الذي يغري بأبي، والله لأقتلنّه بما قال لي، ثم لا أبالي أن يقتلني أمير المؤمنين بعده، بل يكون في قتله عزاء لأبي وسلوٌ عني إن قتلت. فلما رجعا إلى موضعهما قال موسى: يا أميرَ المؤمنين، أذكر لأبي أمراً؟ فسرّه ذلك، وظنّ أنه يريد أن يذاكره بعض أمرهم، فقال: قم، فقام إليه، فقال: يا أبتِ؛ إن عيسى بن عليّ قد قتلك وإيايّ قتلات بما يُبلغ عنا، وقد أمكنني من مقاتله، قال: وكيف؟ قال: قال لي كيت وكيت، فأخبِرُ أمير المؤمنين فيقتله؛ فتكون قد شفيت نفسك وقتلته قبل أن يقتلك وإياي ثم لا نبالي ما كان بعدُ. فقال: أفٌّ لهذا رأياً ومذهباً! ائتمنك عمُّك على مقالة أراد أن يسرَّك بها، فجعلتَها سبباً لمكروهه وتلِفه! لا يسمعنّ هذا منك أحد، وعُدْ إلى مجلسك. فقام فعاد، وانتظر أبو جعفر أن يرى لقيامه إلى أبيه وكلامه أثراً فلم يره، فعاد إلى وعيده الأوّل وتهدده، فقال: أما والله لأعجلنّ لك فيه ما يسوءك ويُوئسك من بقائه بعدك، أيا ربيع، قم إلى موسى فاخنقه بحمائله، فقام الرّبيع فضمّ حمائله عليه، فجعل يخنقه بها خنْقاً رُويداً، وموسى يصيح: اللهَ اللهَ يا أمير المؤمنين فيّ وفي دمي! فإني لبعيد مما تظنّ بي، وما يبالي عيسى أن تقتلني وله بضعة عشر نفراً ذكراً - كلهم عنده مثلي - أو يتقدمني؛ وهو يقول: اشدُد يا ربيع، ائت على نفسه، والرّبيع يوهم أنه يريد تلفَه، وهو يراخِي خناقه، وموسى يصيح، فلما رأى ذاك عيسى قال: والله يا أميرَ المؤمنين ما ظننتُ أنّ الأمر يبلغ منك هذا كله فمر بالكفّ عنه؛ فإني لم أكن لأرجع إلى أهلي؛ وقد قتل بسبب هذا الأمر عبدٌ من عبيدي، فكيف بابني! فها أنا أشهدك أنّ نسائي طوالق ومماليكي أحرار، وما أملك في سبيل الله، تصرف ذلك فيمن رأيت يا أمير المؤمنين؛ وهذه يدي بالبيعة للمهديّ. فأخذ بيعته له على ما أحبّ ثم قال: يا أبا موسى؛ إنك قد قضيتَ حاجتي هذه كارهاً، ولي حاجة أحبّ أن تقضيَها طائعاً، فتغسل بها ما في نفسي من الحاجة الأولى، قال: وما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: تجعل هذا الأمر من بعد المهديّ لك، قال: ما كنتُ لأدخل فيها بعد إذ خرجت منها. فلم يدَعْه هو ومَنْ حضره من أهل بيته حتى قال: يا أميرَ المؤمنين؛ أنت أعلم. فقال بعض أهل الكوفة - ومرّ عليه عيسى في موكبه: هذا هذا الذي كان غداً، فصار

بعد غدٍ.

وهذه القصة ـ فيما قيل ـ منسوبة إلى آل عيسى أنهم يقولونها.

وأما الذي يحكى عن غيرهم في ذلك؛ فهو أنّ المنصور أراد البَيْعة للمهديّ، فكلّم الجُنْد في ذلك، فكانوا إذا رأوْا عيسى راكباً أسمعوه ما كرِه، فشكا ذلك إلى المنصور، فقال للجند: لا تؤذوا ابنَ أخي؛ فإنه جِلْدة بين عينيّ، ولو كنتُ تقدّمت إليكم لضربت أعناقكم؛ فكانوا يكفّون ثم يعودون؛ فمكث بذلك زماناً، ثم كتب إلى عيسى:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى عيسى بن موسى. سلامٌ عليك؛ فإنّي أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد؛ فالحمد لله ذي المنّ القديم، والفضل العظيم، والبلاء الحَسن الجميل، الذي ابتدأ الخلق بعلْمه، وأنفذ القضاء بأمره؛ فلا يبلغ مخلوقٌ كنهَ حقّه، ولا ينال في عظمته كُنْهَ ذكره، يدبِّر ما أراد من الأمور بقدْرته، ويصدرها عن مشيئته؛ لا قاضيَ فيها غيره، ولا نفاذ لها إلا به، يجريها على أذلالها؛ لا يستأمر فيها وزيراً، ولا يشاور فيها معيناً، ولا يلتبس عليه شيء أراده، يمضي قضاؤه فيما أحبّ العباد وكرهوا؛ لا يستطيعون منه امتناعاً، ولا عن أنفسهم دفاعاً، ربّ الأرض ومَنْ عليها، له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين.

ثم إنك قد علمتَ الحال التي كنا عليها في ولاية الظلَمة، كيف كانت قوّتنا وحيلتُنا، لما اجترأ عليه أهل بيت اللعنة فيما أحببنا وكرهنا، فصبرنا أنفسنا على ما دعونا إليه من تسليم الأمور إلى من أسندوها إليه، واجتمع رأيُهم عليه، نُسامِ الخسف، ونوطأ بالعسْف، لا ندفَع ظلماً، ولا نمنع ضيماً، ولا نعطى حقًّا، ولا ننكر منكراً، ولا نستطيع لها ولا لأنفسنا نفعاً؛ حتى إذا بلغ الكتابُ أجلَه، وانتهى الأمر إلى مدّته، وأذن الله في هلاك عدوه، وارتاح بالرّحمة لأهل بيت نبيه ﷺ؛ فابتعث الله لهم أنصاراً يطلبون بثأرهم، ويجاهدون عَدُوّهم، ويدعون إلى حبّهم، وينصرون دولَتهم؛ من أرضين متفرّقة، وأسباب مختلفة، وأهواء مؤتلفة، فجمعهم الله على طاعتنا، وألّف بين قلوبهم بمودّتنا على نصرتنا، وأعزّهم بنصرنا، لم نلق منهم رجلاً، ولم نشهر معهم إلا ما قذف الله في قلوبهم؛ حتى ابتعثهم لنا من بلادهم، ببصائر نافذة، وطاعة خالصة، يلقوْن الظّفَر، ويعودون بالنصر، وينصَرون بالرّعب، لا يلقون أحداً إلا هَزَمُوه، ولا واتراً إلا قتلوه؛ حتى بلغ الله بنا بذلك أقصى مدانا وغاية منانا ومنتهى آمالنا وإظهار حقنا، وإهلاك عدّونا؛ كرامةً من الله جلّ وعزّ لنا، وفضلاً منه علينا، بغير حوْلٍ منا ولا قوّة، ثم لم نَزل من ذلك في نعمة الله وفضلِه علينا، حتى نشأ هذا الغلام، فقذف الله له في قلوب أنصار الدّين الذين ابتعثهم لنا مثل ابتدائه لنا أوّل أمرنا، وأشرب قلوبهم مودّته، وقسم في صدورهم محبّته، فصاروا لا يذكرون إلاّ فضله، ولا ينوّهون إلا باسمه، ولا يعرفون إلاّ حقه، فلمّا رأى أمير المؤمنين ما قذف الله في قلوبهم من مودّته، وأجرى على ألسنتهم من ذكره، ومعرفتهم إياه بعلاماته واسمه، ودعاء العامة إلى طاعته، أيستْ نفس أمير المؤمنين أنّ ذلك أمر تولاّه الله وصنَعه؛ لم يكن للعباد فيه أمر ولا قدرة، ولا مؤامرة ولا مذاكرة؛ للّذي رأى أمير المؤمنين مِن اجتماع الكلمة، وتتابع العامّة؛ حتى ظن أمير المؤمنين أنه لولا معرفة المهديّ بحق الأبوّة، لأفضت الأمور إليه. وكان أمير المؤمنين لا يمنع مما اجتمعت عليه العامّة، ولا يجد مناصاً عن خلاص ما دعوا إليه. وكان أشدّ الناس على أمير المؤمنين في ذلك الأقرب فالأقرب من خاصته وثقاته من حرسه وشرطه؛ فلم يجد

أمير المؤمنين بدًّا من استصلاحهم ومتابعتهم؛ وكان أمير المؤمنين وأهل بيته أحقّ مَنْ سارع إلى ذلك وحرص عليه، ورغب فيه وعرَف فضله، ورجَا بركتَه، وصدق الرّواية فيه، وحمد الله إذا جعل في درّيته مثل ما سألت الأنبياء قبله؛ إذ قال العبد الصالح : ﴿ فَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُني ويَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ واجعَلْهُ ربّ رَضِيًّا ﴾[1] فوهب الله لأمير المؤمنين وليًّا، ثم جعله تقيًّا مباركاً مهديًّا، وللنبيّ ﷺ سميًّا، وسلب مَن انتحل هذا الأسم، ودعا إلى تلك الشبهة التي تحيّر فيها أهلُ تلك النية، وافتتن بها أهلُ تلك الشقوة، فانتزع ذلك منهم، وجعل دائرة السوْء عليهم، وأقرّ الحق قراره، وأعلن للمهديّ مناره، وللدين أنصارَه، فأحبّ أمير المؤمنين أن يعلمك الذي اجتمع عليه رأي رعيّته؛ وكنتَ في نفسه بمنزلة ولدِه، يحبّ مَنْ سترك ورشدك وزيّنك ما يحبّ لنفسه وولده، ويرى لك إذا بلغك مِنْ حال ابن عمّك ما تَرى من اجتماع الناس عليه أن يكون ابتداءُ ذلك من قِبَلك، ليعلم أنصارنا من أهل خُراسان وغيرهم أنك أسرع إلى ما أحبّوا ممّا عليه رأيُهم في صلاحهم منهم إلى ذلك من أنفسهم، وإنّ ما كان عليه من فضل عرفوه للمهديّ، أو أمّلوه فيه، كنتَ أحظَى الناس بذلك، وأسرَّهم به لمكانه وقرابَته، فأقبل نُصح أمير المؤمنين لك، تصلُح وترشد. والسلام عليك ورحمة الله.

فكتب إليه عيسى بن موسى جوابها :

بسم الله الرحمن الرحيم. لعبد الله عبد الله أمير المؤمنين من عيسى بن موسى. سلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله؛ فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فقد بلغني كتابُك تذكر فيه ما أجمعتَ عليه من خلاف الحقّ وركوب الإثم في قطيعة الرّحِم، ونقض ما أخذ الله عليه من الميثاق من العامة بالوفاء للخلافة والعهد لي من بعدك، لتقطع بذلك ما وصل الله من حَبْله، وتفرّق بين ما ألّف الله جمعَه، وتجمع بين ما فرّق الله أمره، مكابرةً لله في سمائه، وحوْلاً على الله في قضائه، ومتابعة للشيطان في هواه، ومَنْ كابر الله صرَعه، ومن نازعه قمعه، ومن ماكره عن شيء خدعه، ومَنْ توكل على الله منعه، ومَنْ تواضع لله رفعه. إنّ الذي أُسِّس عليه البناء، وخُطّ عليه الحِذاء من الخليفة الماضي عهدٌ لي من الله، وأمرٌ نحن فيه سواء؛ ليس لأحد من المسلمين فيه رُخصة دون أحدٍ؛ فإن وجب وفاء فيه فما الأوّل بأحقَّ به من الآخر، وإن حلَّ من الآخر شيء فما حرِّم ذلك من الأوّل؛ بل الأوّل الذي تلا خبره وعرف أثره، وكشف عما ظن به وأمّل فيه أسرع؛ وكان الحقّ أولَى بالذي أراد أن يصنع أوّلاً، فلا يدعوك إلى الأمْن من البلاء اغترارٌ بالله، وترخيص للناس في ترك الوفاء؛ فإن مَنْ أجابك إلى ترك شيء وجب لي واستحلّ مني، لم يحْرج إذا أمكنته الفرصة وأفتتْه الرّخصة أن يكون إلى مثل ذاك منك أسرع، ويكون بالذي أتَيت من ذلك أبخع. فاقبل العاقبة وارضَ من الله بما صنع، وخذ ما أُوتيتَ بقوّة، وكن من الشاكرين. فإن الله جلّ وعزّ زائدٌ مَنْ شكره، وعْداً منه حقًّا لا خُلفَ فيه؛ فمن راقب الله حفظَه، ومن أضمر خِلافه خَذله؛ والله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. ولسنا مع ذلك نأمن مِنْ حوادث الأمور وبَغتات الموت قبل ما ابتدأت به من قطيعتي؛ فإن تعجّل بي أمرٌ كنت قد كُفيت مؤونة ما اغتممت له، وسترتَ قُبح ما أردتَ إظهاره؛ وإن بقيتُ بعدك لم تكن أوغرت صدري، وقطعت رحِمي؛ ولا أظهرت أعدائي في اتّباع أثرك، وقبول أدبك، وعملٍ بمثالك.

وذكرتَ أن الأمور كلها بيد الله؛ هو مدّبرها ومقدّرها ومصدّرها عن مشيئته؛ فقد صدقْتَ؛ إن الأمور بيد

---

[1] سورة مريم : ٥ ـ ٦

الله، وقد حقّ على من عَرَف ذلك ووصفه العملُ به والانتهاءُ إليه. واعلم أنّا لسنا جررنا إلى أنفسنا نفعاً، ولا دفعنا عنها ضرًّا، ولا نلنا الذي عرفتَه بحولنا ولا قوّتنا؛ ولو وُكِلْنا في ذلك إلى أنفسنا وأهوائنا لضعُفت قوّتنا، وعجزت قدرتنا في طلب ما بلغ الله بنا؛ ولكن الله إذا أراد عزماً لإنفاذ أمره، وإنجاز وعده، وإتمام عهده، وتأكيده عَقْده؛ أحكم إبرامَه، وأبرم إحكامه، ونوّر إعلانه، وثبّت أركانه؛ حين أسس بُنيانه؛ فلا يستطيع العباد تأخيرَ ما عجّل، ولا تعجيل ما أخّر؛ غير أن الشيطان عدوٌّ مُضلٌّ مُبين؛ قد حذّر الله طاعتـه، وبيّن عداوته، ينزع بين ولاة الحقّ وأهل طاعته، ليفرّق جمعهم، ويشتّت شملهم، ويوقع العداوة والبغضاء بينهم، ويتبرّأ منهم عند حقائق الأمور، ومضايق البلايا؛ وقد قال الله عز وجل في كتابه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبيٍّ إلَّا إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَان في أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللهُ آياتِهِ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيم ﴾[1]. ووصف الذين اتقوا فقال: ﴿ إذَا مَسَّهم طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإذَا هُمْ مُبْصِرُون ﴾[2]؛ فأعيذ أمير المؤمنين بالله من أن يكون نيّته وضمير سريرته خلاف ما زيّن الله به جلّ وعزّ مَنْ كان قبله؛ فإنه قد سألتْهم ابناؤهم، ونازعتهم أهواؤهم، إلى مثل الذي همَّ به أمير المؤمنين؛ فآثروا الحقَّ على ما سواه، وعرفوا أن الله لا غالبَ لقضائه؛ ولا مانع لعطائه؛ ولم يأمنوا مع ذلك تغيير النِّعم وتعجيلَ النِّقم؛ فآثروا الآجلة، وقبلوا العاقبة، وكرهوا التغيير، وخافوا التبديل؛ فأظهروا الجميل؛ فتمّم الله لهم أمورَهم، وكفاهم ما أهمَّهم، ومنع سلطانهم، وأعزّ أنصارهم، وكرّم أعوانهم، وشرّف بنيانهم؛ فتمّمت النعم، وتظاهرت المنن، فـاستوجبـوا الشكر، فتمّم أمر الله وهم كارهون. والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله.

فلما بلغ أبا جعفر المنصور كتابُه أمسك عنه، وغضب غضباً شديداً، وعاد الجند لأشدّ ما كانوا يصنعون؛ منهم أسِد بن المرزبان وعُقْبة بن سلْم ونصر بن حرب بن عبد الله؛ في جماعة؛ فكانوا يـأتون بـاب عيسى، فيمنعون مَنْ يدخل إليه؛ فإذا ركب مشوْا خلْفه وقالوا: أنت البقرة التي قال الله: ﴿ فَذَبحُـوهَا ومَـا كَادُوا يَفْعَلُون ﴾[1]، فعاد فشكاهم، فقال له المنصور: يابن أخي، أنا والله أخافهم عليك وعلى نفسي؛ قد أشربوا حبَّ هذا الفتى؛ فلو قدّمته بين يديك فيكون بيني وبينك لكفُّوا. فأجاب عيسى إلى أن يفعل.

وذُكر عن إسحاق الموصليّ، عن الربيع، أن المنصور لما رجع إليه من عند عيسى جواب كتابه الـذي ذكرنا، وقّع في كتابه: « اسْلُ عنها تنلْ منها عِوَضاً في الدنيا، وتأمن تبعتَها في الآخرة ».

وقد ذكر في وجه خلع المنصورِ عيسى بن موسى قولٌ غير هذين القولين؛ وذلك ما ذكره أبو محمد المعروف بالأسواريّ بن عيسى الكاتب، قال: أراد أبو جعفر أن يخلَع عيسى بن موسى مِنْ ولاية العهد، ويقدّم المهديّ عليه، فأبى أن يجيبَه إلى ذلك، وأعيا الأمرُ أبا جعفر فيه؛ فبعث إلى خالد بن بَرْمك، فقال له: كلّمه يا خالد؛ فقد ترى امتناعه من البيعة للمهديّ؛ وما قد تقدّمنا به في أمره؛ فهل عندك حيلة فيه، فقد أعيتنا وجوه الحيَل، وضلّ عنا الرأيُ! فقال: نعم يا أمير المؤمنين؛ تضم إليّ ثلاثين رجلاً من كبار الشِّيعة، ممن تختاره. قال: فركب خالد بن برمك، وركبوا معه، فساروا إلى عيسى بن موسى، فأبلغوه رسالة أبي جعفر المنصور، فقال: ما كنتُ لأخلع نفسي وقد جعل الله عزّ وجلّ الأمر لي؛ فأداره خالد بكلّ وجه من وجوه الحذَر والطمع، فأبى عليه،

---

(١) سورة الحج: ٥٢.

(٢) سورة الأعراف: ٢٠١

(٣) سورة البقرة: ٧١.

فخرج خالد عنه وخرجت الشِّيعة بعده، فقال لهم خالد: ما عندكم في أمره؟ قالوا: نبلِّغ أمير المؤمنين رسالته ونخبره بما كان منَّا ومنه؛ قال: لا، ولكنا نخبر أمير المؤمنين أنه قد أجاب، ونشهد عليه إن أنكره، قالوا له: افعل، فإنا نفعل، فقال لهم: هذا هو الصّواب، وأبلغُ أميرَ المؤمنين فيما حاول وأراد.

قال: فساروا إلى أبي جعفر وخالد معهم، فأعلموه أنه قد أجاب، فأخرج التوقيع بالبيعة للمهديّ، وكتب بذلك إلى الآفاق؛ قال: وأتى عيسى بن موسى لما بلغه الخبرُ أبا جعفر منكراً لِما ادُّعِيَ عليه من الإجابة إلى تقديم المهديّ على نفسه، وذكَّره الله فيما قد همّ به. فدعاهم أبو جعفر، فسألهم فقالوا: نشهد عليه أنه قد أجاب؛ وليس له أن يرجع؛ فأمضى أبو جعفر الأمرَ، وشكر لخالد ما كان منه؛ وكان المهديّ يعرف ذلك له، ويصف جزالة الرأي منه فيه.

وذُكر عن عليّ بن محمد بن سليمان، قال: حدّثني أبي، عن عبد الله بن أبي سليم مولًى عبد الله بن الحارث بن نوفل، قال: إني لأسيرُ مع سليمان بن عبد الله بن الحارث بن نوفل، وقد عزم أبو جعفر على أن يقدّم المهديّ على عيسى بن موسى في البيعة، فإذا نحن بأبي نُخَيلة الشاعر، ومعه ابناه وعبداه؛ وكلّ واحد منهما يحمل شيئاً من متاع، فوقف عليهم سليمان بن عبد الله، فقال: أبا نُخَيلَة، ما هذا الذي أرى؟ وما هذه الحال التي أنت فيها؟ قال: كنتُ نازلاً على القعقاع ـ وهو رجل من آل زرارة، وكان يتولى لعيسى بن موسى الشُّرْطة ـ فقال لي: اخرج عنّي؛ فإن هذا الرجل قد اصطنعني؛ وقد بلغني أنك قلت شعراً في هذه البَيْعة للمهديّ، فأخاف إن يبلغه ذلك أن يُلزمني لائمة لنزولك عليّ، فأزعجني حتى خرجتُ. قال: فقال لي: يا عبد الله؛ انطلق بأبي نُخيلة فبوِّئه في منزلي موضعاً صالحاً؛ واستوص به وبِمَنْ معه خيراً. ثمّ خبّر سليمان بن عبد الله أبا جعفر بشعر أبي نُخيلة الذي يقول فيه:

عيسى فَزَحْلَفَها إلى محمدِ ... حتى تُؤدَّى من يد إلى يَدِ
فيكم وتَغْنَى وهي في تزيُّدِ ... فقد رَضِينا بالغلام الأمرَدِ

قال: فلما كان في اليوم الذي بايع فيه أبو جعفر لابنه المهديّ وقدّمه على عيسى، دعا بأبي نُخيلة، فأمره فأنشد الشِّعر؛ فكلمه سليمان بن عبد الله، وأشار عليه في كلامه أن يُجزل له العطية، وقال: إنه شيء يبقى لك في الكتب، ويتحدّث الناس به على الدّهر، ويخلُد على الأيام؛ ولم يزل به حتى أمر له بعشرة آلاف درهم.

وذكر عن حيّان بن عبد الله بن حِبْران الحِمّانيّ، قال: حدثني أبو نُخيلة، قال: قدمتُ على أبي جعفر، فأقمت ببابه شهراً لا أصلُ إليه، حتى قال لي ذات يوم عبد الله بن الربيع الحارثيّ: يا أبا نُخيلة، إنّ أمير المؤمنين مرشّح ابنه للخلافة والعَهد، وهو على تقدِمته بين يدي عيسى بن موسى، فلو قلتَ شيئاً تحثّه على ذلك، وتذكر فضل المهديّ، كنت بالحَرى أن تصيب منه خيراً ومن ابنه، فقلتُ:

دُونَكَ عبدَ الله أهلَ ذاكا ... خلافةَ الله الّتي أعطاكا
أُصفَاك أصفَاك بها أصْفَاكا ... فقد نَظَرنا زمَناً أباكا
ثمّ نظرناك لها إيّاكا ... ونَحْنُ فيهمْ والهَوى هَوَاكَا
نعم، فَنَسْتذْرِيْ إلى ذَرَاكا ... أسندْ إلى محمّدٍ عَصاكا
فابنُك ما اسْتَرْعَيْتَه كَفَاكَا ... فأحفَظُ النّاسِ لها أدْناكَا

فقــد جَفَلَتُ الــرجْــلَ والأَوْرَاكــا وجكْتُ حتى لـم أجِــدْ مَحــاكــا
ودُرْتُ فــي هــذا وذا وذاكــا وكــلُّ قــول قـلتُ فـي ســواكــا
زُورٌ وقــد كــفَّـر هــذا ذاكــا

وقلتُ أيضاً كلمتي التي أقول فيها:

إلى أميــر المؤمنيــن فــاعْمِــدِي سيري إلى بحرِ البحورِ المُزْبِدِ
أنت الــذي يــا ابن سَمِيِّ أحمــدِ ويــابــن بيتِ العــربِ المُشَيَّــدِ
أمسَى وليُّ عهدهــا بــالأسعَــدِ عيسى فــزَحْلِفْهَــا إلى محمــد
من قبلِ عيسى مَعْهَداً عن معهدِ حتــى تــؤدّى مــن يــدٍ إلــى يــدِ
فــيكُم وتغــنَى وهي في تَــزَيُّــدِ فقــد رضينــا بــالغــلامِ الأمــردِ
بــل قــد فــرغنــا غيــرَ أن لم نَشْهَــدِ وغيــر أنَّ العــقــدَ لــم يُــؤكَّــدِ
فلو سمعنــا قَــوْلَــكَ امْــدُدِ امــددِ كــانت لنا كَــدَعْقَــةِ الـوِردِ الصَّــدِي
فــبــادرِ الْبَــيْــعــةَ وِرْدَ الحُــشَّــدِ تَبــيــنُ من يــومــك هــذا أو غــدِ
فــهــو الــذي تمَّ فــمــا من عُــنَّــدِ وزاد مــا شئــتَ فَــزِدْهُ يَــزْدِدِ
ورَدِّهِ مــنــك رداءً يَــرْتَــدِ فــهــو رداءُ الســابــقِ المُــقَــلَّدِ
قــد كــان يُــرْوَى أنهــا كَــأنْ قــدِ عــادت ولــو قــد فَعَلَتْ لم تَــرْدُدِ
فَهْيَ تَــرَامَى فَدْفَــداً عن فَدْفَــدِ حينــاً، فلو قــد حــان وردُ الــوُرَّدِ
وحــان تحويــلُ الغَويِّ المُفْسِــدِ قــال لهــا الله هَــلُمِّــي وارشُــدي
فــأصْبَحَتْ نــازلــةً بــالمعــهــدِ والمحْتِدِ المحتــدِ خيْرِ المحتــد
لم يرْمِ تَــذْمارَ النفوس الحُسَّــدِ بــمــثــلِ قَــرمٍ ثــابــتٍ مُــؤَيَّــدِ
لمــا انْتَحَوْا قَــدْحاً بِــزَنْــدٍ مُصْلِدِ بُلُوا بِمَشْزُورِ القُوى المُسْتحصِــد
يَــزْدَادُ إيقــاظــاً علــى التَّهَــدُّدِ فَــدَاوِلــوا بــاللينِ والــتَّعَــبُّــدِ
صَمْصَــامَــةً تــأكــلُ كــلَّ مِبْــرَدِ

قال: فرويت وصارت في أفواه الخدم، وبلغتْ أبا جعفر، فسأل عن قائلها، فأخبرَ أنها لرجل من بني سَعْد بن زيد مناة، فأعجبه، فدعاني فأدخِلت عليه؛ وإن عيسى بن موسى لعَنْ يمينه، والناس عنده، ورؤوس القوّاد والجند. فلما كنتُ بحيث يراني، ناديت: يا أمير المؤمنين، أدنِني منك حتى أفهمك وتسمع مقالتي فأومأ بيده، فدنيت حتى كنتُ قريباً منه، فلما صرتُ بين يديه قلتُ ـ ورفعتُ صوتي ـ أنشده مِنْ هذا الموضع، ثم رجعت إلى أول الأرجوزة؛ فأنشدتها من أوّلها إلى هذا الموضع أيضاً، فأعدتُ عليه حتى أتيتُ على آخرها، والناس منصتون، وهو يتسارّ بما أنشده، مستمعاً له، فلمّا خرجنا من عنده إذا رجلٌ واضعٌ يده على منكِبي، فالتفتُّ فإذا عقال بن شبّة يقول: أمّا أنت فقد سررْتَ أمير المؤمنين؛ فإن التأم الأمر على ما تحبّ وقلتَ، فلعمري لتصيبنّ منه خيراً. وإن يكن غير ذلك، فابتغِ نفقاً في الأرض أو سلّماً في السماء. قال: فكتب له المنصور بصلة إلى الرّي، فوجّه عيسى في طلبه، فلحق في طريقه، فذبح وسلخ وجهه.

وقيل: قتِل بعد ما انصرف من الريّ؛ وقد أخذ الجائزة.

وذكر عن الوليد بن محمد العنبريّ أنّ سبب إجابة عيسى أبا جعفر إلى تقديم المهديّ عليه كان أن سلْم بن قتيبة قال له: أيّها الرجل بايعْ، وقدّمه على نفسك، فإنك لن تخرج من الأمر؛ قد جعل لك الأمر من بعده وتُرضِي أمير المؤمنين. قال: أوَ تَرَى ذلك؟ قال: نعم، قال: فإنّي أفعل؛ فأتى سلْم المنصورَ فأعلمه إجابة عيسى، فسرّ بذلك وعظُم قدْر سَلْم عنده. وبايع الناس للمهديّ ولعيسى بن موسى مِنْ بعده. وخطب المنصور خطبته التي كان فيها تقديم المهديّ على عيسى، وخطب عيسى بعد ذلك فقدّم المهديّ على نفسه، ووفى له المنصور بما كان ضمن له.

وقد ذكر عن بعض صحابة أبي جعفر أنه قال: تذاكرْنا أمر أبي جعفر المنصور وأمْرَ عيسى بن موسى في البَيْعة وخلْعه إياها من عنقه وتقديمَه المهديّ، فقال لي رجل من القوّاد سماه: والله الذي لا إله غيره؛ ما كان خَلْعُهُ إياها منه إلا برضاً من عيسى وركونٍ منه إلى الدّراهم، وقلة علمه بقَدْر الخلافة، وطلباً للخروج منها؛ أتى يومَ خرج للخلع فخلع نفسه؛ وإني لفي مقصورة مدينة السّلام؛ إذ خرج علينا أبو عُبيد الله كاتب المهديّ، في جماعة من أهل خُراسان، فتكلم عيسى، فقال: إني قد سلّمت ولاية العهد لمحمد بن أمير المؤمنين، وقدّمتهُ على نفسي، فقال أبو عبيد الله: ليس هكذا أعزّ الله الأمير؛ ولكن قُلْ ذلك بحقّه وصدقه؛ وأخبِرْ بما رغبتَ فيه، فأعطِيت، قال: نعم، قد بعتُ نصيبي من تقدمة ولاية العهد منْ عبد الله أمير المؤمنين لابنه محمد المهدي بعشرة آلاف ألف درهم وثلاثمائة ألف بين ولدي فلان وفلان وفلان ـ سمّاهم ـ وسبعمائة ألف لفلانة امرأة من نِسائه ـ سمّاها ـ بطيب نفس مني وحبّ، لتصييرها إليه، لأنه أولى بها وأحقّ، وأقوى عليها وعلى القيام بها؛ وليس لي فيها حقٌّ لتقدمته، قليل ولا كثير؛ فما ادّعيته بعد يومي هذا فأنا فيه مُبطِلٌ لا حقّ لي فيه ولا دعوَى ولا طلبة. قال: والله وهو في ذلك؛ ربما نسي الشيء بعد الشيء فيوقفه عليه أبو عُبيد الله؛ حتى فرغ، حبًّا للاستيثاق منه. وختم الكتاب وشهد عليه الشهود وأنا حاضر؛ حتى وضع عليه عيسى خطَّه وخاتمه، والقوم جميعاً؛ ثم دخلوا من باب المقصورة إلى القَصْر.

قال: وكسا أميرُ المؤمنين عيسى وابنه موسى وغيره من ولدِه كُسوة بقيمة ألف ألف درهم ونيّف ومائتي ألف درهم.

وكانت ولاية عيسى بن موسى الكوفة وسوادها وما حولها ثلاث عشرة سنة؛ حتى عزله المنصور، واستعمل محمد بن سليمان بن عليّ حين امتنع من تقديم المهديّ على نفسه.

وقيل: إنّ المنصور إنما ولّى محمد بن سليمان الكوفة حين ولّاه إياها ليستخف بعيسى؛ فلم يفعل ذلك محمد، ولم يزل معظماً له مبجّلاً.

وفي هذه السنة ولّى أبو جعفر محمدَ بن أبي العباس ـ ابن أخيه ـ البصْرة فاستعفى منها فأعفاه، فانصرف عنها إلى مدينة السلام، فمات بها، فصرخت امرأته البغوم بنت عليّ بن الربيع: واقتيلاه! فضربها رجل من الحَرس بجلويز على عجيزتها، فتعاوره خدمٌ لمحمد بن أبي العباس فقتلوه؛ فطُلّ دمه.

وكان محمد بن أبي العباس حين شخص عن البصرة استخلف بها عُقْبة بن سلم، فأقره عليها أبو جعفر إلى سنة إحدى وخمسين ومائة.

وحجّ بالناس في هذه السنة المنصور.

وكان عامله فيها على مكة والطائف عمّه عبد الصمد بن عليّ. وعلى المدينة جعفر بن سليمان. وعلى الكوفة وأرضها محمد بن سليمان. وعلى البصرة عُقْبة بن سلم. وعلى قضائها سوّار بن عبد الله. وعلى مصر يزيد بن حاتم.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك توجيه المنصور حُميد بن قحطبة إلى إرمينيّة لحرب الترك الذين قَتَلوا حَرْب بن عبد الله، وعاثوا بتَفْليسَ، فسار حُميد إلى إرمينيَة، فوجدهم قد ارتحلوا، فانصرف ولم يلق منهم أحداً.

وفي هذه السنة عسكر صالح بن عليّ بدابق - فيما ذكر - ولم يَغْزُ.

وحج بالنّاس فيها جعفر بن أبي جعفر المنصور.

وكانت ولاة الأمصار في هذه السنة ولاتها في السنة التي قبلها.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين ومائة

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك غَزوة العباس بن محمد الصائفَة أرض الروم، ومعه الحسن بن قَحْطبة ومحمد بن الأشعث، فهلك محمّد بن الأشعث في الطريق.

وفي هذه السنة استتمَّ المنصور بناءَ سُور مدينة بغداد، وفَرَغ من خندقها وجميع أمورها.

وفيها شخص إلى حديثة الموْصل، ثم انصرف إلى مدينة السلام.

وحجّ في هذه السنة بالناس محمد بن إبراهيم بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس.

وفي هذه السنة عُزِل عبد الصمد بن عليّ عن مكة، ووليّها محمد بن إبراهيم.

وكانت عمال الأمصار في هذه السنة العمال الذي كانوا عمالها في سنة سبع وأربعين ومائة وسنة ثمان وأربعين ومائة؛ غير مكة والطائف؛ فإنّ واليهما كان في هذه السنة محمد بن إبراهيم بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس.

ثم دخلت سنة خمسين ومائة

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك خروج أستاذ سيس في أهل هَراة وباذَغيس وسجِسْتان وغيرها من عامّة خُراسان، وساروا حتى التقوْا هم وأهل مَرْو الروذ، فخرج إليهم الأجثم المروزُّوذيّ في أهل مَرْو الرّوذ، فقاتلوه قتالاً شديداً حتى قتِل الأجثم، وكثر القتل في أهل مَرْو الرّوذ، وهزم عدّة من القوّاد؛ منهم معاذ بن مسلم بن معاذ وجبرئيل بن يحيى وحمّاد بن عمرو وأبو النَّجْم السِّجستانيّ وداود بن كَرّاز؛ فوجّه المنصور وهو بالبرذان خازم بن خزيمة إلى المهديّ؛ فولاه المهديّ محاربة أستاذ سيس، وضمّ القوّاد إليه.

فذُكر أن معاوية بن عبيد الله وزير المهديّ كان يوهن أمر خازم، والمهديّ يومئذ بنيسابور، وكان معاوية يخرج الكتب إلى خازم بن خزيمة وإلى غيره من القوّاد بالأمر والنهي، فاعتلّ خازم وهو في عسكره، فشرب الدواء ثم ركب البريد، حتى قدم على المهديّ بنيسابور، فسلّم عليه واستخلاه - وبحضرته أبو عبيد الله - فقال المهديّ: لا عَيْنَ عليك من أبي عبيد الله، فقلْ ما بدا لك؛ فأبى خازم أن يخبرَه أو يكلّمه، حتى قام أبو عبيد الله، فلمّا خلا به شكا إليه أمرَ معاوية بن عبيد الله، وأخبره بعصبيّته وتحامُلِه، وما كان يرد من كُتبه عليه وعلى مَنْ قبله من القواد، وما صاروا إليه بذلك من الفساد والتأمّر في أنفسهم، والاستبداد بآرائهم، وقلّة السمع والطاعة. وأنّ أمر الحرب لا يستقيم إلّا برأس؛ وألّا يكون في عسكره لواء يخفِق على رأس أحد إلّا لواؤه أو لواء هو عقدَه، وأعلمه أنه غير راجع إلى قتال أستاذ سيس ومَنْ معه إلا بتفويض الأمر إليه وإعفائه من معاوية بن عبيد الله؛ وأن يأذن له في حَلّ ألوية القوّاد الذين معه، وأن يكتب إليهم بالسمع له والطاعة. فأجابه المهديّ إلى كلّ ما سأل.

فانصرف خازم إلى عسكره، فعمل برأيه وحلّ لواء مَنْ رأى حلّ لوائه من القوّاد، وعقد لواء لمن أراد، وضمّ إليه مَنْ كان انهزم من الجنود، فجعلهم حشواً يكثر بهم مَنْ معه في أخرَيات الناس، ولم يقدّمهم لما في قلوب المغلوبين من رَوْعة الهزيمة، وكان من ضُمّ إليه من هذه الطبقة اثنين وعشرين ألفاً، ثم انتخب ستة آلاف رجل من الجُنْد، فضمهم إلى اثني عشر ألفاً كانوا متخيّرين؛ وكان بكّارُ بن مسلم العُقَيليّ فيمن انتخب، ثم تعبّأ للقتال وخندق. واستعمل الهيثم بن شعبة بن ظهير على ميمنته، ونهار بن حصين السعديّ على ميسرته؛ وكان بكّار بن مسلم العقيليّ على مقدّمته وتُرارخُدا على ساقته؛ وكان من أبناء ملوك أعاجم خُراسان؛ وكان لواؤه مع الزِّبْرقان وعَلمه مع مولاه بسّام، فمكر بهم وراوغهم في تنقّله من موضع إلى موضع وخندق إلى خندق حتى قطعهم؛ وكان أكثرهم رجّالة، ثم سار خازم إلى موضع فنزله، وخندق عليه، وأدخل خندقه جميع ما أراد، وأدخل فيها جميع أصحابه، وجعل له أربعة أبواب، وجعل على كلّ باب منها من أصحابه الذين انتخب. وهم

أربعة آلاف، وجعل مع بكار صاحب مقدّمته ألفين؛ تكملة الثمانية عشر ألفاً. وأقبل الآخرون ومعهم المروز والفؤوس والزُّبُل، يريدون دفْن الخندق ودخولَه، فأتوا الخندق مِن الباب الذي كان عليه بكار بن مسلم، فشدّوا عليه شدّة لم يكن لأصحاب بكار نهاية دون أن انهزموا حتى دخلوا عليهم الخندق.

فلما رأى ذلك بكّار رمى بنفسه، فترجّل على باب الخندق ثم نادى أصحابه: يا بني الفواجر، مِن قبلي يؤتى المسلمون! فترجّل مَنْ معه من عشيرته وأهله نحو من خمسين رجلا، فمنعوا بابَهم حتى أجلوا القوم عنه، وأقبل إلى الباب الذي كان عليه خازم رجلٌ كان مع أستاذسيس من أهل سجستان، يقال له الحريش؛ وهو الذي كان يدبّر أمرهم؛ فلما رآه خازم مقبلاً بعث إلى الهيثم بن شعبة، وكان في الميمنة ـ أن أخرج من بابك الّذي أنت عليه؛ فخذ غيرَ الطريق الذي يُوصلك إلى الباب الذي عليه بكار، فإنّ القوم قد شغلوا بالقتال وبالإقبال إلينا، فإذا علوت فجزت مبلغ أبصارهم فأتهم من خلفهم. وقد كانوا في تلك الأيام يتوقعون قدوم أبي عون وعمرو بن سلم بن قتيبة من طَخارستان. وبعث خازم إلى بكار بن مسلم: إذا رأيت رايات الهَيْثم بن شعبة قد جاءتْك من خلفك، فكبِّروا وقولوا: قد جاء أهل طَخارستان. ففعل ذلك أهلُ الهيثم، وخرج خازم في القلْب على الحريش السجستاني، فاجتلدوا بالسيوف جلاداً شديداً، وصبر بعضُهم لبعض؛ فبينا هم على تلك الحال إذ نظروا إلى أعلام الهَيْثم وأصحابه، فتنادوْا فيما بينهم، وجاء أهل طخارستان، فلما نظر أصحاب الحريش إلى تلك الأعلام، ونظر مَنْ كان بإزاء بكار بن مسلم إليها، شدّ عليهم أصحاب خازم فكشفوهم، ولقيَهم أصحابُ الهيثم، فطعنوهم بالرماح، ورموْهم بالنُّشاب، وخرج عليهم نهار بن حصين وأصحابه من ناحية الميسرة، وبكارُ بن مسلم وأصحابه من ناحيتهم، فهزموهم ووضعوا فيهم السيوف، فقتلهم المسلمون وأكثروا؛ فكان مَنْ قتل منهم في تلك المعركة نحواً من سبعين ألفاً، وأسروا أربعة عشر ألفاً، ولجأ أستاذسيس إلى جبل في عِدّة من أصحابه يسيرة، فقدّم خازم الأربعة عشر ألف أسير؛ فضرب أعناقهم، وسار حتى نزل بأستاذسيس في الجَبَل الذي كان لجأ إليه، ووافى خازماً بذلك المكان أبو عون وعمرو بن سلم بن قتيبة في أصحابهما؛ فأنزلهم خازم ناحيةً، وقال: كونوا مكانكم حتى نحتاج إليكم. فحصر خازِم أستاذسيس وأصحابَه حتى نزلوا على حكم أبي عَوْن، ولم يرضوْا إلا بذلك، فرضي بذلك خازم، فأمر أبا عون بإعطائهم أن ينزلوا على حكمه، ففعل؛ فلما نزلوا على حكم أبي عون حكم فيهم أن يُوثَق أستاذسيس وبنوه وأهل بيته بالحديد، وأن يُعتق الباقون وهم ثلاثون ألفاً، فأنفذ ذلك خازم من حُكْم أبي عون، وكسا كلّ رجل منهم ثوبين؛ وكتب خازم بما فتح الله عليه، وأهلك عدوّه إلى المهديّ، فكتب بذلك المهديّ إلى أمير المؤمنين المنصور.

وأما محمد بن عمر، فإنه ذكر أن خروج أستاذسيس والحرِيش كان في سنة خمسين ومائة، وأن أستاذسيس هُزم في سنة إحدى وخمسين ومائة.

وفي هذه السنة عزل المنصورُ جعفر بن سليمان عن المدينة، وولاها الحسن بن يزيد بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه.

وفيها تُوفِّيَ جعفر بن أبي جعفر المنصور، الأكبرُ بمدينة السلام، وصلى عليه أبوه المنصور، ودُفن ليلاً في مقابر قريش، ولم تكن للناس في هذه السنة صائفة؛ قيل إن أبا جعفر كان ولّى الصائفة في هذه السنة أَسَيْداً، فلم يدخل بالناس أرض العدوّ، ونزل مرج دابق.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الصمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس.

وكان العامل على مكة والطائف في هذه السنة عبدُ الصمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس ـ وقيل كان العامل على مكة والطائف في هذه السنة محمد بن إبراهيم بن محمد ـ وعلى المدينة الحسن بن زيد العلويّ، وعلى الكوفة محمد بن سليمان بن عليّ، وعلى البصرة عُقْبة بن سلم، وعلى قضائها سَوّار، وعلى مصر يزيد بن حاتم.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائة

ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

فمن ذلك ما كان من إغارة الكُرْك فيها في البحر على جُدَّةَ؛ ذكر ذلك محمد بن عمر.

وفيها ولّى عمر بن حفص بن عثمان بن أبي صفرة إفريقيّة، وعُزِل عن السند وولّى موضعه هشام بن عمرو التغلبيّ.

ذكر الخبر عن سبب عزل المنصور عمر بن حفص عن السِّنْد وتوليته إياه إفريقيّة واستعماله على السِّنْد هشام بن عمرو

وكان سبب ذلك ـ فيما ذكر عليّ بن محمد بن سليمان بن عليّ العباسيّ عن أبيه ـ أنّ المنصور ولّى عمر بن حفص الصُّفْري الذي يقال له هزارمَرْد السِّند ـ فأقام بها حتى خرج محمد بن عبد الله بالمدينة وإبراهيم بالبصرة، فوجّه محمد بن عبدالله إليه ابنَه عبدالله بن محمد الذي يقال له الأشتر، في نفر من الزيديّة إلى البصرة، وأمرهم أن يشتروا مهارة ـ خيل عِتاق بها ـ ويمضوا بها معهم إلى السِّند، ليكون سبباً له إلى الوصول إلى عمر بن حفص، ؛ وإنما فعل ذلك به لأنّه كان فيمن بايعه من قوّاد أبي جعفر، وكان له ميل إلى آل أبي طالب، فقدِموا البصرة على إبراهيم بن عبد الله، فاشتروْا منها مهارةً ـ وليس في بلاد السِّند والهند شيء أنفق من الخيل العتاق ـ ومضوا في البحر حتى صاروا إلى السند، ثم صاروا إلى عمر بن حفص، فقالوا: نحن قوم نخّاسون ومعنا خيل عتاق، فأمرهم أن يعرضوا خيلَهم، فعرضوها عليه، فلما صاروا إليه، قال له بعضهم: أدنِني منك أذكر لك شيئاً، فأدناه منه، وقال له: إنّا جئناك بما هو خير لك من الخيل، وما لك فيه خير الدنيا والآخرة، فأعطِنا الأمان على خَلّتيْن: إما أنك قبلت ما أتيناك به، وإما سترت وأمسكت عن أذنانا حتى نخرج من بلادك راجعين. فأعطاهم الأمان، فقالوا: ما للخيل أتيناك؛ ولكن هذا ابنُ رسول الله ﷺ عبد الله بن محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن، أرسله أبوه إليك، وقد خرج بالمدينة، ودعا لنفسه بالخِلافة، وخرج أخوه إبراهيم بالبصرة وغلب عليها، فقال: بالرَّحب والسعة، ثم بايعهم له، وأمر به فتوارى عنده، ودعا أهل بيته وقوادَه وكبراء أهل البلد للبيْعة، فأجابوه، فقطع الأعلام البيض والأقبِيَة البِيض والقلانس البيض، وهيّأ لبسته من البياض يصعد فيها إلى المنبر، وتهيأ لذلك يوم خميس؛ فلما كان يوم الأربعاء إذا حَرّاقة قد وافت من البصرة، فيها رسول لخُلَيْدة بنت المُعارك ـ امرأة عمر بن حفص ـ بكتاب إليه تخبره بقتل محمد بن عبد الله، فدخل على عبد الله فأخبره الخبر، وعزّاه، ثم قال له: إنّي كنت بايعت لأبيك، وقد جاء من الأمر ما ترى. فقال له: إن أمري قد شُهِر، ومكاني قد عُرف، ودمي في عنقك، فانظر لنفسك أوَدعْ. قال: قد رأيت رأياً؛ ها هنا ملِك من

ملوك السند، عظيم المملكة كثير التَّبَع؛ وهو على شِركه أشدّ الناس تعظيماً لرسول الله ﷺ؛ وهو رجلٌ وفيٌّ، فأرسِل إليه، فاعقِدْ بينك وبينه عقداً، وأوجّهك إليه تكون عنده؛ فلستَ ترام معه. قال: افعل ما شئت؛ ففعل ذلك؛ فصار إليه، فأظهر إكرامه وبَرّه برًّا كثيراً، وتسللت إليه الزيدية حتى صار إليه منهم أربعمائة إنسان من أهل البصائر، فكان يركب فيهم فيصيد ويتنزّه في هيئة الملوك وآلاتهم، فلما قتِل محمد وإبراهيم انتهى خبرُ عبد الله الأشتر إلى المنصور؛ فبلغ ذلك منه، فكتب إلى عمر بن حفص يخبره بما بلغه، فجمع عمر بن حفص قرابته، فقرأ عليهم كتاب المنصور يخبرهم أنه إن أقرّ بالقصّة لم يُنظره المنصور أن يعزله، وإن صار إليه قتله، وإن امتنع حاربه. فقال له رجل من أهل بيته: ألقِ الذَّنْب عليَّ، واكتب إليه بخبري، وخذني الساعة فقيِّدني واحبسني؛ فإنه سيكتب: احمله إليّ؛ فاحملني إليه، فلم يكن ليقدمَ عليَّ لموضعك في السند، وحال أهل بيتك بالبصرة. قال: إني أخاف عليك خلاف ما تظنّ، قال: إن قُتِلت أنا فنفسي فداؤك فإني سخيٌّ بها فداء لنفسك؛ فإن حييت فمن الله. فأمر به فقُيِّد وحبِس، وكتب إلى المنصور يخبره بذلك؛ فكتب إليه المنصور يأمره بحمله إليه؛ فلما صار إليه قدّمه فضرب عنقه، ثم مكث يروّي مَنْ يولِّي السِّند! فأقبل يقول: فلان فلان؛ ثم يعرض عنه، فبينا هو يوماً يسير ومعه هشام بن عمرو التغلبيّ، والمنصور ينظر إليه في موكبه، إذ انصرف إلى منزله، فلما ألقى ثوبه دخل الرّبيع فآذنه بهشام. فقال: أوَ لم يكن معي آنفاً! قال: ذكر أن له حاجةً عرضت مهمة. فدعا بكرسيّ فقعد عليه، ثم أذِن له، فلما مثَلَ بين يديه قال: يا أميرَ المؤمنين؛ إني انصرفت إلى منزِلي من الموكب، فلَقيتْني أختي فلانة بنت عمرو، فرأيت من جمالها وعَقْلها ودينها ما رضيتها لأمير المؤمنين، فجئت لأعرِضها عليه؛ فأطرق المنصور، وجعل ينكُت الأرضَ بخيزُرانة في يده، وقال: اخرج يأتك أمري؛ فلما ولَّى قال: يا ربيع؛ لولا بيت قاله جرير في بني تغلِب لتزوّجت أختَه وهو قوله:

لا تطْلُبَنَّ خئولةً في تَغْلِبٍ ... فالزِّنجُ أكرمُ منهُمُ أخوالا

فأخاف أن تلد لي ولداً، فيعيَّر بهذا البيت، ولكن اخرج إليه، فقل له: يقول لك أمير المؤمنين: لو كانت لك لله حاجة إليّ لم أعدل عنها غير التزويج؛ ولو كانت لي حاجةٌ إلى التزويج لقبلْت ما أتيتَني به؛ فجزاك الله عمّا عَمَدت له خيراً، وقد عوّضتك من ذلك ولاية السِّند. وأمره أن يكاتب ذلك الملك؛ فإن أطاعه وسلَّم إليه عبد الله بن محمد، وإلّا حاربه. وكتب إلى عمر بن حفص بولايته إفريقية. فخرج هشام بن عمرو التغلبيّ إلى السّند فوليها، وأقبل عمر بن حفص يخوضُ البلاد حتى صار إلى إفريقيّة، فلما صار هشام بن عمرو إلى السِّند كره أخذ عبد الله، وأقبل يُرى الناس أنه يكاتب الملك ويرفُق به، فاتصلت الأخبار بأبي جعفر بذلك، فجعل يكتب إليه يستحثُّه، فبينا هو كذلك إذ خرجت خارجة ببعض بلاد السِّند، فوجّه إليهم أخاه سَفَنَّجا، فخرج يجرّ الجيش وطريقه بجنَبات ذلك الملك؛ فبينا هو يسير إذا هو برهجٍ قد ارتفع من موكب، فظنّ أنه مقدّمة للعدوّ الذي يقصد، فوجَّه طلائعَه فرجعت، فقالت: ليس هذا عدّوك الذي تريد؛ ولكن هذا عبد الله بن محمد الأشتر العلويّ ركب متنزهاً، يسير على شاطىء مهران، فمضى يريده، فقال له نُصّاحه: هذا ابنُ رسول الله ﷺ وقد علمتَ أن أخاك تركه متعمداً، مخافة أن يبوء بدمه، ولم يقصدك، إنما خرج متنزِّهاً، وخرجتَ تريد غيره. فأعرض عنه، وقال: ما كنتُ لأدَعَ أحداً يحوزُه، ولا أدع أحداً يحظَى بالتقرّب إلى المنصور بأخذه وقتله. وكان في عشرة، فقصد قصدَه، وذَمَر أصحابه، فحمل عليه، فقاتله عبدُ الله وقاتل أصحابُه بين يديه حتى قُتِل وقُتلوا جميعاً، فلم يُفلِتْ في مهران لَّما قتِل، لئلا يؤخذ رأسه، فكتب هشام بن عمرو بذلك كتاب فَتْح إلى المنصور،

يخبره أنه قصده قصداً. فكتب إليه المنصور يحمَد أمره، ويأمره بمحاربة الملك الذي آوه؛ وذلك أن عبد الله كان اتّخذ جواري، وهو بحضرة ذلك الملك، فأولد منهنّ واحدة محمد بن عبد الله ـ وهو أبو الحسن محمد العلويّ الذي يقال له ابن الأشتر ـ فحاربه حتى ظفر به، وغلب على مملكته وقتله، ووجّه بأمّ ولد عبد الله وابنه إلى المنصور، فكتب المنصور إلى واليه بالمدينة، يخبره بصحّة نسب الغلام، وبعث به إليه، وأمره أن يجمع آل أبي طالب، وأن يقرأ عليهم كتابَه بصحة نسب الغلام، ويسلمه إلى أقربائه.

وفي هذه السنة قدم على المنصور ابنُه المهديّ من خُراسان، وذلك في شوال منها ـ فوفد إليه للقائه وتهنئة المنصور بمقدَمه عامة أهل بيته، مَنْ كان منهم بالشأم والكوفة والبصرة وغيرها، فأجازهم وكساهم وحملهم، وفعل مثل ذلك بهم المنصور، وجعل لأبنه المهديّ صحابةً منهم، وأجرى لكلّ رجل منهم خمسمائة درهم.

وفي هذه السنة ابتدأ المنصور ببناء الرُّصافة في الجانب الشرقيّ من مدينة السلام لابنه محمد المهديّ.

ذكر الخبر عن سبب بنائه ذلك له:

ذكر عن أحمد بن محمد الشَروِيّ، عن أبيه، أنّ المهديّ لما قدم من خُراسان أمره المنصور بالمُقام بالجانب الشرقيّ، وبنَى له الرُّصافة، وعمِل لها سوراً وخندقاً وميْداناً وبستاناً، وأجرى له الماء؛ فكان يجري الماءَ من نهر المهديّ إلى الرُّصافة.

وأما خالد بن يزيد بن وهب بن جرير بن خازم؛ فإنه ذكر أنّ محمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس حدّثه، أن أباه حدّثه، أنّ الرّاونـدية لما شَغَبوا على أبي جعفر وحاربوه على باب الذّهب، دخل عليه قُثَم بن العباس بن عبيد الله بن العباس ـ وهو يومئذ شيخ كبير مُقدّم عند القوم ـ فقال له أبو جعفر: أما ترى ما نحن فيه من الْتياث الجُند علينا! قد خفتُ أن تجتمع كلمتهُم فيخرج هذا الأمر من أيدينا، فما ترى؟ قال: يا أميرَ المؤمنين، عندي في هذا رأيٌ إن أنا أظهرته لك فَسد، وإن تركتَني أمضيته، صلَحت لك خلافتك، وهابك جندك. فقال له: أفتُمضِي في خلافتي أمراً لا تعلمني ما هو! فقال له: إن كنتُ عندك متّهماً على دولتك فلا تشاورْني، وإن كنتُ مأموناً عليها فدعني أُمضِي رأيي. فقال له: فأمضِه. قال: فانصرف قُثَم إلى منزله، فدعا غلاماً له فقال له: إذا كان غداً فتقدّمني، فاجلس في دار أمير المؤمنين؛ فإذا رأيتَني قد دخلتُ وتوسطت أصحابَ المراتب، فخذ بعنان بغلتي، فاستـوقِفْني واستحلفْني بحقّ رسول الله، وحقّ العباس وحقّ أمير المؤمنين لما وقفتُ لك، وسمعتُ مسألتك وأجبتك عنها؛ فإني سأنتهرُك، وأغلِظ لك القول، فلا يهولَنّك ذلك مني، وعاودْني بالمسألة فإنّي سأشتِمك، فلا يروعنّك ذلك، وعاودْني بالقول والمسألة، فإني سأضربك بسوطي، فلا يشقُّ ذلك عليك، فقل لي: أيُّ الحيَّيْن أشرف؟ اليمن أم مضر؟ فإذا أجبتك فخلِّ عنان بغلتي وأنت حُرّ.

قال: فغدَا الغلامُ، فجلس حيث أمره من دار الخليفة، فلما جاء الشيخ فعل الغلام ما أمره به مولاه، وفعل المولى ما كان قاله له، ثم قال له: قل، فقال: أيُّ الحيَّين أشرف؟ اليمن أم مضر؟ قال: فقال قُثَم: مضر كان منها رسول الله ﷺ، وفيها كتاب الله عزّ وجلّ، وفيها بيت الله، ومنها خليفة الله. قال: فامتعضت اليمن إذْ لم يُذكر لها شيء من شَرَفها؛ فقال له قائد من قوّاد اليمن: ليس الأمر كذلك مطلقاً بغير شرفة ولا فضيلة لليمن، ثم قال لغلامه: قمْ بعِنان بغلة الشيخ، فاكبحْها كبحاً عنيفاً تَطَأمَنُ به منه، قال: ففعل الغلام ما أمره به مولاه

حتى كاد أن يُقعيَها على عراقِبها، فامتعضتْ من ذلك مُضر، فقالت: أيفعل هذا بشيخنا! فأمر رجل منهم غلامه، فقال: اقطعْ يد العبد، فقام إلى غلام اليمانيّ فقطع يدَه، فنفر الحيّان، وصرف قُثَم بغلته، فدخل على أبي جعفر، وافترق الجند، فصارت مُضر فرقة، واليمن فرقة، والخُراسانيّة فرقة، وربيعة فرقة، فقال قثم لأبي جعفر: قد فرّقتُ بين جندك، وجعلتهم أحزاباً كلّ حزب منهم يخاف أن يُحدث عليك حدثاً، فتضربه بالحزب الآخر، وقد بقي عليك في التدبير بقيّة، قال: ما هي؟ قال: اعْبُر بابنك فأنزله في ذلك الجانب قصراً، وحوله وحوّل معك من جيشك معه قوماً فيصير ذلك بلداً، وهذا بلداً، فإن فسد عليك أهلُ هذا الجانب ضربتَهم بأهل ذلك الجانب، وإن فسد عليك أهل ذلك الجانب ضربتهم بأهل هذا الجانب، وإن فسدت عليهك مُضر ضربتَها باليمن وربيعة والخراسانيّة، وإن فسدت عليك اليمن ضربتَها بمن أطاعك من مُضر وغيرها.

قال: فقبل أمرَه ورأيه، فاستوى له مُلْكه؛ وكان ذلك سببَ البناء في الجانب الشرقيّ وفي الرصافة وأقطاع القوّاد هناك.

قال: وتولّى صالح صاحب المصلّى القطائع في الجانب الشرقيّ، ففعل كفعل أبي العباس الطوسيّ في فضُول المصلّى القطائع في الجنب الغربيّ، فله بباب الجسر وسوق يحيى ومسجد خُضَير وفي الرّصافة وطريق الزواريق على دِجلة مواضع بناء، بما استوهب من فضل الإقطاع عن أهله، وصالح رجل من أهل خراسان.

وفي هذه السنة جَدّد المنصور البيْعة لنفسه ولابنه محمد المهديّ من بعده، ولعيسى بن موسى من بعد المهديّ على أهل بيته في مجلسه في يوم جمعة؛ وقد عمّهم بالإذن فيه؛ فكان كلُّ مَنْ بايعه منهم يقبّل يده ويد المهديّ، ثم يمسح على يد عيسى بن موسى ولا يقبّل يده.

وغزا الصّائفة في هذه السنة عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد.

وفيها شخص عُقْبة بن سلْم من البصرة واستخلف عليها ابنَه نافع بن عقبة إلى البَحْرين، فقتل سليمان بن حكيم العبديّ وسبى أهلَ البحرين، وبعث ببعض مَنْ سبى منهم وأسارى منهم إلى أبي جعفر، فقتل منهم عِدّة ووهب بقيَّتهم للمهديّ، فمنّ عليهم وأعتقهم؛ وكسا كلّ إنسان منهم ثوبين من ثياب مَرْو.

ثم عزل عُقْبة بن سلْم عن البصرة؛ فذُكِر عن إفريك ـ جارية أسد بن المرزبان ـ أنها قالت: بعث المنصور أسد بن المرزبان إلى عُقبة بن سلم إلى البَحْرين حين قتل منهم مَنْ قتل، ينظر في أمره، فمايله ولم يستقص عليه، وورَى عنه؛ فبلغ ذلك أبا جعفر، وبلغه أنه أخذ منه مالاً، فبعث إليه أبا سويد الخُراساني ـ وكان صديق أسد ـ وأخاه، فلما رآه مقبلاً على البريد فرِح، وكان ناحية من عسكر عُقبة، فتطاول له، وقال: صديقي. فوقف عليه فوثب ليقوم إليه، فقال له أبو سويد «بنشين بنشين»، فجلس فقال له: أنت سامع مطيع؟ قال: نعم، قال: مُدّ يدَك، فمدّ يده فضربها فأطنّها، ثم مدّ رجله، ثم مدّ يده ثم رجله حتى قطع الأربع، ثم قال: مُدّ عنقك فمدّ فضرب عنقه. قالت إفريك: فأخذتُ رأسه فوضعته في حِجْري، فأخذه مني فحمله إلى المنصور. فما أكلتْ إفريك لحماً حتى ماتت.

وزعم الواقديّ أن أبا جعفر ولّى معن بن زائدة في هذه السنة سِجِسْتان.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن إبراهيم بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس.

وكان العامل على مكة والطائف محمد بن إبراهيم، وعلى المدينة الحسن بن زيد، وعلَى الكوفة محمد بن سليمان بن عليّ، وعلى البصرة جابر بن تَوْبة الكِلابيّ، وعلى قضائها سَوّار بن عبد الله، وعلى مِصْر يزيد بن حاتم.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين ومائة

ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

فمن ذلك ما كان من قَتْل الخوارج فيها معنَ بن زائدة الشيبانيّ ببُسْت سِجِسْتان.

وفيها غزا حُميد بن قَحْطبة كابُل، وكان المنصور ولّاه خراسان في سنة ثنتين وخمسين ومائة.

وغزا ـ فيما ذكر ـ الصائفة عبدُ الوهاب بن إبراهيم ولم يُدْرِب.

وقيل إن الذي غزا الصائفة في هذه السنة محمد بن إبراهيم.

وفيها عزل المنصور جابر بن توْبة عن البصرة، وولّاها يزيد بن منصور.

وفيها قتل أبو جعفر هاشم بن الأشتاخَنج، وكان عصى وخالف في إفريقيّة، فحمِل إليه هو وابن خالد المروَرّوذيّ، فقتل ابن الأشتاخَنج بالقادسيّة، وهو متوجّه إلى مكة.

وحجّ بالناس في هذه السنة المنصور؛ فذكر أنه شخص من مدينة السّلام في شهر رمضان، ولا يعلم بشخوصه محمد بن سليمان، وهو عامله على الكوفة يومئذ، ولا عيسى بن موسى ولا غيرهما من أهل الكوفة حتى قرُب منها.

وفيها عزل يزيد بن حاتم عن مصر ووليَها محمد بن سعيد.

وكان عمّال الأمصار في هذه السنة هم العمال في السنة الخالية إلا البَصْرة فإن عاملها في هذه السنة كان يزيد بن منصور، وإلاّ مِصْر فإن عاملها كان في هذه السنة محمد بن سعيد.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك تَجهيز المنصور جيشاً في البحر لحرب الكرك، بعد مقدمه البَصْرة، منصرفاً من مكة إليها بعد فراغه من حَجّه، وكانت الكرك أغارتْ على جُدّة، فلما قدم المنصور البصرة في هذه السنة جهز منها جيشاً لحربهم، فنزل الجسر الأكبر حين قدمها ـ فيما ذكر. وقدْمته هذه البصرة القَدْمة الآخرة.

وقيل إنه إنما قدمها القدمة الآخرة في سنة خمس وخمسين ومائة، وكانت قدمته الأولى في سنة خمس وأربعين ومائة، وأقام بها أربعين يوماً، وبنى بها قصراً ثم انصرف منها إلى مدينة السلام.

وفيها غضب المنصور على أبي أيّوب الموريانيّ، فحبسه وأخاه وبني أخيه: سعيداً ومسعوداً ومُخْلَداً ومحمداً، وطالبهم. وكانت منازلهم المناذر، وكان سبب غضبه عليه ـ فيما قيل ـ سَعْيُ أبان بن صدقة كاتب أبي أيوب إليه.

وفي هذه السنة قتل عمر بن حفص بن عثمان بن أبي صفرة بإفريقيّة، قتله أبو حاتم الإباضيّ وأبو عاد ومن كان معهما من البربر، وكانوا ـ فيما ذُكر ـ ثلاثمائة ألف وخمسين ألفاً، الخيل منها خمسة وثلاثون ألفاً، ومعهم أبو قُرّة الصُّفريّ في أربعين ألفاً، وكان يسلَّم عليه قبل ذلك بالخلافة أربعين يوماً.

وفيها حُمِل عبّاد مولى المنصور وهرثمة بن أعين ويوسف بن علوان من خُراسان في سلاسل، لتعصبّهم لعيسى بن موسى.

وفيها أخذ المنصور الناس بلبس القَلانس الطِّوال المفرطة الطول، وكانوا ـ فيما ذكر ـ يحتالون لها بالقصب من داخل، فقال أبو دلامة:

وكنا نُرَجّى من إمامٍ زيادة ... فزاد الإمامُ المصطفى في القلانِسِ
تَراها على هامِ الرِّجال كأنها ... دِنان يهودٍ جُلِّلَتْ بالبرانِس

وفيها توفِّي عبيد بن بنت أبي ليلى قاضي الكوفة، فاستقضى مكانه شَريك بن عبد الله النَّخَعِيّ.

وفيها غزا الصّائفة معيوف بن يحيى الحَجوريّ، فصار إلى حصن من حصون الروم ليلاً، وأهله نيام، فسبي وأسر مَنْ كان فيه من المقاتلة، ثم صار إلى اللاذقيّة المحترقة، ففتحها وأخرج منها ستة آلاف رأس من السَّبْي سوى الرّجال البالغين.

وفيها ولّى المنصور بكّارَ بن مسلم العُقيليّ على إرمينيَة.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن أبي جعفر المهديّ.

وكان على مكة والطائف يومئذ محمد بن إبراهيم، وعلى المدينة الحسن بن زيد بن الحسن، وعلى الكوفة محمد بن سليمان، وعلى البصرة يزيد بن منصور، وعلى قضائها سوّار، وعلى مصر محمد بن سعيد.

وذكر الواقديّ أن يزيد بن منصور كان في هذه السنة وإلى اليمن من قِبَل أبي جعفر المنصور.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك خروجُ المنصور إلى الشام ومسيره إلى بيت المقدِس وتوجيهه يزيد بن حاتم إلى إفريقيّة في خمسين ألفاً - فيما ذُكِر - لحرب الخوارج الذين كانوا بها، الذين قتلوا عامله عمر بن حفص. وذكر أنه أنفَق على ذلك الجيش ثلاثةً وستين ألف ألف درهم.

وفي هذه السنة عزم المنصور - فيما ذكر - على بناء مدينة الرافقة، فذُكر عن محمد بن جابر، عن أبيه أنّ أبا جعفر لما أراد بناءها، امتنع أهل الرّقة، وأرادوا محاربته، وقالوا: تعطّل علينا أسواقنا وتذهب بمعايشنا، وتضيق منازلنا؛ فهمّ بمحاربتهم، وبعث إلى راهب في الصومعة هنالك، فقال له: هل لك علم بأنّ إنساناً يبني ها هنا مدينة؟ فقال: بلغني أنّ رجلاً يقال له مقلاص يبنيها، فقال: أنا والله مقلاص.

وذكر محمد بن عمر أن صاعقة سقطت في هذه السنة في المسجد الحرام فقتلت خمسة نفر.

وفيها هلك أبو أيوب المورِيانيّ وأخوه خالد، وأمر المنصور موسى بن دينار حاجب أبي العباس الطوسيّ بقطع أيدِي بني أخي أبي أيوب وأرجلهم وضرب أعناقهم؛ وكتب بذلك إلى المهديّ، ففعل ذلك موسى وأنفذ فيهم ما أمره به.

وفيها ولّى عبد الملك بن ظَبْيان النميريّ على البصرة.

وغزا الصائفة في هذه السنة زُفَر بن عاصم الهلاليّ فبلغ الفرات.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن إبراهيم، وهو عامل أبي جعفر على مكة والطائف.

وكان على المدينة الحسن بن زيد، وعلى الكوفة محمد بن سليمان، وعلى البصرة عبد الملك بن أيوب بن ظَبْيان. وعلى قضائها سوّار بن عبد الله وعلى السِّنْد هشام بن عمرو، وعلى إفريقيّة يزيد بن حاتم، وعلى مصر محمد بن سعيد.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة

ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

فمن ذلك افتتاح يزيد بن حاتم إفريقيّة وقتلُه أبا عاد وأبا حاتم ومَنْ كان معهما، واستقامتْ بلاد المغرب، ودخل يزيد بن حاتم القَيْروان.

وفيها وجَّه المنصور ابنَه المهديّ لبناء مدينة الرّافقة، فشخص إليها، فبناها على بناء مدينته ببغداد في أبوابها وفصولها ورحابهاوشوارعها وسوّر سورها وخندقها، ثم انصرف إلى مدينته.

وفيها ـ فيما ذكر محمد بن عمر ـ خندَق أبو جعفر على الكوفة والبصرة، وضرب عليهما سوراً، وجعل ما أنفق على سور ذلك وخندقه من أموال أهله.

وعزل فيها المنصور عبدَ الملك بن أيـوّب بن ظَبْيان عن البصـرة، واستعمل عليهـا الهَيْثم بن معاويـة العتكيّ، وضم إليه سعيد بن دَعْلَج، وأمره ببناء سور لها يُطيف بها، وخندق عليها من دون السّور من أموال أهلها، ففعل ذلك.

وذكِر أن المنصور لما أراد الأمر ببناء سُور الكوفة وبحفر خندق لها، أمر بقسمة خمسة دراهم، على أهل الكوفة، وأراد بذلك علم عددهم؛ فلما عرف عددهم أمر بجبايتهم أربعين درهماً من كل إنسان، فجبُوا، ثم أمر بإنفاق ذلك على سُور الكوفة وحفر الخنادق لها، فقال شاعرهم:

يَالَقَوْمِيَ مَا لَقِينَا * مِنْ أَمِيرِ الْمؤْمِنِينَا
قَسَمَ الخمسة فينَا * وجَبَانا الأَرْبَعِينَا

وفيها طلب صاحب الروم الصُّلح إلى المنصور؛ على أن يؤدّي إليه الجزية.

وغزا الصائفة في هذه السنة يزيد بن أسيد السُّلمِيّ.

وفيها عزل المنصور أخاه العبَّاس بن محمد عن الجزيرة، وغرَّمه مالا، وغضِب عليه وحبسه، فذكر عن بعض بني هاشم، أنه قال: كان المنصور ولّى العباس بن محمد الجزيرة بعد يزيد بن أُسَيد، ثم غضب عليه فلم يزل ساخطاً عليه حتى غضب على بعض عمومته من ولد عليّ بن عبد الله بن عباس أما إسماعيل بن عليّ أو غيره فاعتورَه أهلُه وعمومته ونساؤهم يكلّمونه فيه، وضيَّقوا عليه فرضيَ عنه، فقال عيسى بن موسى: يا أميرَ المؤمنين؛ إن آل عليّ بن عبدالله ـ وإن كانت نعمُك عليهم سابغةً ـ فإنهم يرجعون إلى الحسد لنا؛ فمن ذلك أنك غضبت على اسماعيل بن عليّ منذ أيام، فضيّقوا عليك. وأنت غضبان على العباس بن محمد، منذ كذا وكذا، فما رأيت

أحداً منهم كلّمك فيه. قال: فدعا العباس فرضيَ عنه.

قال: وقد كان يزيد بن أسَيْد عند عزل العباس إياه عن الجزيرة، شكا إلى أبي جعفر العبّاس، وقال: يا أميرَ المؤمنين؛ إن أخاك أساء عزلي، وشتم عِرْضي، فقال له المنصور: اجمع بين إحساني اليك وإساءة أخي يعتدلا، فقال يزيد بن أسَيد: يا أميرَ المؤمنين؛ إذا كان إحسانُكم جزاء بإساءتكم، كانت طاعتنا تفضُّلاً منا عليكم.

وفيها استعمل المنصور على حرب الجزيرة وخراجها موسى بن كعب.

وفي هذه السنة عزل المنصور عن الكوفة محمد بن العباس بن عليّ، في قول بعضهم، واستعمل مكانه عمرو بن زهير أخا المسيِّب بن زهير.

وأما عمر بن شبّة فإنه زعم أنه عزل محمد بن سليمان عن الكوفة في سنة ثلاث وخمسين ومائة، وولاّها عمرو بن زهير الضبّيّ أخا المسيّب بن زهير في هذه السنة. قال: وهو حفر الخندق بالكوفة.

ذكر الخبر عن سبب عزل المنصور محمد بن سليمان بن عليّ.

ذكر أن محمد بن سليمان أُتِيَ في عمله على الكوفة بعبد الكريم بن أبي العوْجاء ـ وكان خال معن بن زائدة ـ فأمر بحبسه. قال أبو زيد: فحدّثني قُثَم بن جعفر والحسين بن أيوب وغيرهما أن شفعاءه كَثُروا بمدينة السلام، ثم ألحُّوا على أبي جعفر، فلم يتكلّم فيه إلا ظَنين، فأمر بالكتاب إلى محمد بالكفّ عنه إلى أن يأتيَه رأيُه، فكلم ابنُ أبي العوجاء أبا الجبَّار ـ وكان منقطعاً إلى أبي جعفر ومحمد ثم إلى أبنائهما بعدهما ـ فقال له: إنْ أخرَّني الأمير ثلاثة أيام فله مائة ألف، ولك أنت كذا وكذا، فأعلم أبو الجبار محمداً، فقال: أذكرتنيه والله وقد كنت نسيته؛ فإذا انصرفت من الجمعة فأذكِرْنيه. فلما انصرف أذكره، فدعا به وأمر بضرب عُنقـه، فلما أيقن أنه مقتول، قال: أما والله لئن قتلتموني لقد وضعتُ أربعة آلاف حديث أحرِّم فيها الحلال، وأحِلّ فيها الحرام؛ والله لقد فطّرتكم في يوم صومكم، وصوّمتكم في يوم فطركم، فضُربت عنقه.

وورد على محمد رسول أبي جعفر بكتابه: إياك أن تحدِث في أمر ابن أبي العوجاء شيئاً، فإنك إن فعلتَ فعلتُ بك وفعلتُ... يتهدّده. فقال محمد للرسول: هذا رأس ابن أبي العوجاء وهذا بدنُه مصلوباً بالكُناسة، فأخبِرْ أمير المؤمنين بما أعلمتك؛ فلما بلَّغ الرسولُ أبا جعفر رسالتَه، تغيّظ عليه وأمر بالكتاب بعزله وقال: والله لهممتُ أن أقيده به، ثم أرسل إلى عيسى بن عليّ فأتاه، فقال: هذا عملك أنت! أشرت بتولية هذا الغلام، فوليتُه غلاماً جاهلاً لا علمَ له بما يأتي؛ يُقدم على رجل يقتله من غير أن يطَّلع رأيي فيه، ولا ينتظر أمري: وقد كتبت بعزله؛ وبالله لأفعلنّ به ولأفعلنّ... يتهدّده، فسكت عنه عيسى حتى سكن غضبُه، ثم قال: يا أميرَ المؤمنين، إن محمداً إنما قتل هذا الرجل على الزّندقة، فإن كان قتلُه صواباً فهو لك، وإن كان خطأً فهو على محمد، والله يا أمير المؤمنين لئن عزلتَه على تفيّة ما صنع ليذهبنّ بالثناء والذكر، ولترجعنّ القالة من العـامّة عليك. فأمر بالكتب فمُزِّقت وأقِرّ على عمله.

وقال بعضهم: إنما عزل المنصور محمد بن سليمان عن الكوفة لأمور قبيحة بلغتْه عنه، اتهمه فيها؛ وكان الذي أنهى ذلك إليه المساور بن سوّار الجَرْميّ صاحب شُرطه، وفي مساور يقول حمّاد.

لحَسْبُــك من عـجيـبِ الـدّهْـرِ أنّي أخــاف وأتّــقــي ســلطانَ جَـرْمِ

وفي هذه السنة أيضاً عزل المنصور الحسن بن زيد عن المدينة، واستعمل عليها عبدَ الصّمد بن عليّ، وجعل معه فُلَيْح بن سليمان مشرفاً عليه.

وكان على مكة والطائف محمَّد بن إبراهيم بن محمد، وعلى الكوفة عمرو بن زهير، وعلى البصرة الهيثم بن معاوية، وعلى إفريقيّة يزيد بن حاتم، وعلى مصر محمد بن سعيد.

ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائة

ذكرَ الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

فمن ذلك ما كان من ظَفَر الهيثم بن معاوية عامل أبي جعفر على البَصْرة بعمرو بن شدّاد عامل إبراهيم بن عبد الله على فارس، فقتِل بالبصرة وصُلِب.

ذكر الخبر عن سبب الظّفَر به:

ذكر عمر أن محمَّد بن معروف حدّثه، قال: أخبرني أبي، قال: ضرب عمرو بن شدّاد خادماً له، فأتى عاملَ البصرة - إما ابن دعْلج، وإما الهيثم بن معاوية - فدلّه عليه، فأخذه فقتله وصلّبه في المرْبَد في موضع دار إسحاق بن سليمان. وكان عمرو مولًى لبني جُمح، فقال بعضهم: ظفر به الهيثم بن معاوية وخرج يريد مدينة السلام، فنزل بقصر له على شاطىء نهر يعرف بنهر معقِل، فأقبل بريد من عند أبي جعفر، ومعه كتاب إلى الهيثم بن معاوية بدفع عمرو بن شداد إليه، فدفعه الهيثم إليه، فأقدمه البصرة، ثم أتى به ناحية الرّحبة، فخلا به يسائله، فلم يظفر منه بشيء يحبّ علمَه، فقطع يديْه ورجليه، وضرب عنقه وصلّبه في مَرْبد البصرة.

وفي هذه السنة عزل المنصور الهيثم بن معاوية عن البصرة وأعمالها، واستعمل سوّار بن عبد الله القاضي على الصلاة، وجمع له القضاء والصّلاة. وولّى المنصور سعيد بن دعْلج شُرَط البصرة وأحداثها.

وفيها تُوُفِّيَ الهيثم بن معاوية بعد ما عزل عن البصرة فجأة بمدينة السلام، وهو على بطن جارية له، فصلّى عليه المنصور، ودفن في مقابر بني هاشم.

وفي هذه السنة غزا الصائفةَ زُفَرُ بن عاصم الهلاليّ.

وحجّ بالناس في هذه السنة العباس بن محمد بن عليّ.

وكان العامل على مكة محمد بن إبراهيم، وكان مقيماً بمدينة السلام، وابنه إبراهيم بن محمد خليفته بمكة؛ وكان إليه مع مكة الطائف. وعلى الكوفة عمرو بن زهير، وعلى الأحداث والجوالي والشُّرط وصدقات أرض العرب بالبصرة سعيد بن دعْلج، وعلى الصلاة بها والقضاء سوّار بن عبد الله، وعلى كُور دجْلة والأهواز وفارس عُمارة بن حمزة، وعلى كِرْمان والسِّنْد هشام بن عمرو، وعلى إفريقيّة يزيد بن حاتم، وعلى مصر محمد بن سعيد.

ثم دخلت سنة سبع وخمسين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك ابتناء المنصور قصرَه الذي على شاطىء دجلة؛ الذي يدعَى الخُلْد، وقسّم بناءه على مولاه الربيع وأبان بن صدَقة.

وفيها قُتل يحيى أبو زكرياء المحتسب؛ وقد ذكرنا قبلُ سببَ قتله إياه.

وفيها حوّل المنصور الأسواق من مدينة السلام إلى باب الكَرْخ وغيره من المواضع، وقد مضى أيضاً ذكرُنا سبب ذلك قبل.

وفيها ولّى المنصور جعفَر بن سليمان على البحرين، فلم يتمّ ولايته، ووجّه مكانه أميراً عليها سعيد بن دعْلج؛ فبعث سعيد ابنَه تميماً عليها.

وفيها عرض المنصور جندَه في السلاح والخيل على عينه في مجلس اتّخذه على شطّ دِجْلة دون قُطْرَبُّل، وأمر أهلَ بيته وقرابته وصحابته يومئذ بلبس السلاح. وخرج وهو لابس درعاً وقلنسُوة تحت البَيْضة سوداء لاطئة مضرّبة.

وفيها توفي عامر بن إسماعيل المسليّ، بمدينة السلام، فصلّى عليه المنصور، ودُفِن في مقابر بني هاشم.

وفيها تُوُفِّي سوّار بن عبد الله وصلّى عليه ابنُ دعلَج، واستعمل المنصور مكانه عبيد الله بن الحسن بن الحصين العنبريّ.

وفيها عقد المنصور الجسر عند باب الشعير، وجرى ذلك على يد حُميد القاسم الصّيْرفيّ، بأمر الربيع الحاجب.

وفيها عُزِل محمد بن سعيد الكاتب عن مصر، واستُعمل عليها مَطر مولى أبي جعفر المنصور.

وفيها وُلّي معبد بن الخليل السِّنْد، وعُزِل عنها هشام بن عمرو، ومعبد يومئذ بخُراسان؛ كتب إليه بولايته.

وغزا الصائفة فيها يزيد بن أسيّد السُّلميّ، ووجّه سناناً مولى البطّال إلى بعض الحُصون، فسبى وغنم.

وقال محمد بن عمر: الذي غزا الصائفةَ في هذه السنة زُفر بن عاصم.

وحّج بالناس في هذه السنة إبراهيم بن يحيى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس.

قال محمد بن عمر: كان على المدينة ـ يعني إبراهيم هذا.

وقال غيرُه: كان على المدينة في هذه السنة عبد الصمد بن عليّ، وكان على مكة والطائف محمد بن إبراهيم، وعلى الأهواز وفارس عُمارة بن حمزة، وعلى كَرْمان والسِّنْد معبد بن الخليل، وعلى مصر مَطر مولى المنصور.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك توجيهُ المنصور ابنَه المهديّ ألى الرّقة وأمرُه إياه بعزْل موسى بن كعب عن الموصِل وتولية يحيى بن خالد بن بَرْمك عليها. وكان سببُ ذلك ـ فيما ذكر الحسن بن وهب بن سعيد عن صالح بن عطية ـ قال: كان المنصور قد ألزم خالدَ بن برمك ثلاثة آلاف ألف، ونذر دمَه فيها، وأجّله ثلاثة أيام بها، فقال خالد لابنه يحيى: يا بنيّ، إني قد أوذيت وطُولبت بما ليس عندي، وإنما يراد بذلك دمي؛ فانصرف إلى حرمتك وأهلِك، فما كنت فاعلاً بهم بعد موتي فافعله. ثم قال له: يا بنيّ، لا يمنعنّك ذلك من أن تلقى إخواننا، وأن تمرّ بعُمارة بن حمزة وصالح صاحب المصلّى ومبارك التركيّ فتعلِمهم حالنا.

قال: فذكر صالح بن عطية أنّ يحيى حدّثه، قال: أتيتهم فمنهم من تجهّمني وبعث بالمال سرّاً إليّ، ومنهم مَنْ لم يأذن لي، وبعث بالمال في أثري. قال: واستأذنتُ على عُمارة بن حمزة، فدخلت عليه وهو في صَحْن داره، مقابل بوجهه الحائط؛ فما انصرف إليّ بوجهه، فسلّمت عليه، فردّ عليّ رَدّاً ضعيفاً، وقال: يابُنيّ؛ كيف أبوك؟ قلت: بخير، يقرأ عليك السلام ويعلمك ما قد لزمه من هذا الغُرْم، ويستسلفك مائة ألف درهم. قال: فما ردّ عليّ قليلاً ولا كثيراً، قال: فضاق بي موضعي، ومادتْ بي الأرضُ. قال: ثم كلّمتُه فيما أتيته له. قال: فقال: إن أمكنني شيء فسيأتيك، قال يحيى: فانصرفتُ وأنا أقول في نفسي: لعن الله كلَّ شيء يأتي من تِيهك وعُجْبك وكبرك! وصرت إلى أبي، فأخبرته الخبر؛ ثم قلت له: وأراك تثق من عُمارة بن حمزة بما لا يوثق به! قال: فوالله إني لكذلك؛ إذ طلع رسولُ عُمارة بن حمزة بالمائة ألف. قال: فجمعنا في يومين ألفيْ ألف وسبعمائة ألف، وبقيت ثلاثمائةألف بوجودها يتمّ ما سعينا له، وبتعذّرها يبطل. قال: فوالله إني لعلى الجسر ببغداد مارّاً مهموماً مغموماً؛ إذ وثب إليّ زاجر، فقال: فرخ الطائر أخبرك! قال: فطويتُه مشغول القلب عنه، فلحقني وتعلّق بلجامي، وقال لي: أنت والله مهموم، ووالله ليُفرِجَنّ الله همّك، ولتمرّنّ غداً في هذا الموضع واللواء بين يديك. قال: فأقبلتُ أعجب من قوله. قال: فقال لي: إن كان ذلك فلي عليك خمسة آلاف درهم؟ قلت: نعم ـ ولو قال خمسون ألفاً لقلت نعم، لبعد ذلك عندي من أن يكون ـ قال: ومضيتُ. وورد على المنصور انتقاضُ الموصل وانتشارُ الأكراد بها، فقال: مَنْ لها؟ فقال له المسيّب بن زهير ـ وكان صديقاً لخالد بن برمك: عندي يا أمير المؤمنين رأي، أرى أنك لا تنتصحه؛ وأنك ستلقاني بالرد، ولكني لا أدَع نصحَك فيه والمشورة عليك به، قال: قل، فلا أستغشّك، قلت: يا أمير المؤمنين ما رميتها بمثل خالد، قال: ويحك! فيصلح لنا بعد ما أتينا إليه! قال:

نعم يا أمير المؤمنين؛ إنما قوَّمتَه بذلك وأنا الضامن عليه، قال: فهو لها والله، فليحضرني غداً. فأحضر، فصفح له عن الثلاثمائة ألف الباقية، وعقد له.

قال يحيى: ثم مررتُ بالزاجر، فلما رآني قال: أنا ها هنا أنتظرك منذ غُدوة، قلت: امض معي، فمضى معي، فدفعتُ إليه الخمسة الآلاف.

قال: وقال لي أبي: أي بُنيّ؛ إن عُمارة تلزمه حقوق، وتنوبه نوائب فأتِه، فأقرئه السلام، وقل له: إن الله قد وهب لنا رأيَ أمير المؤمنين، وصفح لنا عما بقي علينا، وولاّني الموصل؛ وقد أمر بردّ ما استسلفت منك. قال: فأتيته فوجدته على مثل الحال التي لقيتُه عليه، فسلمت فما ردّ السلام عليّ، ولا زادني على أن قال: كيف أبوك؟ قلت: بخير، يقول كذا وكذا، قال: فاستوى جالساً، ثم قال لي: ما كنتُ إلا قسطاراً لأبيك؛ يأخذ مني إذا شاء، ويردّ إذا شاء! قمْ عني لا قمتَ! قال: فرجعتُ إلى أبي فأعلمته، فقال لي أبي: يا بنيّ، هو عُمارة ومَنْ لا يعترض عليه!

قال: فلم يزل خالد على الموصل إلى أن توفِّي المنصور ويحيى على أذرَبيجان، فذكر عن أحمد بن محمد بن سوار الموصليّ أنه قال: ما هِبْنا قطّ أميراً هيبتَنا خالد بن برمكٍ من غير أن تشتدّ عقوبتُه، ولا نرى منه جَبَريّة؛ ولكن هيبة كانت له في صدورنا.

وذكر أحمد بن معاوية بن بكْر الباهليّ، عن أبيه، قال: كان أبو جعفر غضِب على موسى بن كعب ـ وكان عامله على الجزيرة والمَوْصِل ـ فوجّه المهديّ إلى الرَّقة لبناء الرّافقة، وأظهر أنه يريد بيتَ المقدس، وأمره بالمرور والمضيّ على الموصل، فإذا صار بالبلَد أخذ موسى بن كعب فقيَّده، وولّى خالد بن بَرْمك الموصل مكانَه، ففعل المهديّ ذلك، وخلَّف خالداً على الموصِل، وشخص معه أخوَا خالد: الحسن وسليمان ابنا برمك، وقد كان المنصور دعا قبل ذلك يحيى بن خالد، فقال له: قد أردتك لأمر مهمّ من الأمور، واخترتُك لثغر من الثغور؛ فكن على أهبة؛ ولا يعلم بذلك أحد حتى أدعُوَ بك فكتم أباه الخبر؛ وحضر الباب فيمن حضر؛ فخرج الرّبيع، فقال: يحيى بن خالد! فقام فأخذ بيده، فأدخله على المنصور، فخرج على النَّاس وأبوه حاضر واللواء بين يديه على أذرَبيجان، فأمر الناسَ بالمضيّ معه، فمضوا في موكبه، وهنئوه وهنئوا أباه خالداً بولايته، فاتَّصل عملهما.

وقال أحمد بن معاوية: كان المنصور معجباً بيحيى، وكان يقول: ولد الناس ابناً وولد خالد أباً.

وفي هذه السنة نزل المنصورُ قصرَه الذي يعرف بالخُلْد.

وفيها سخِط المنصور على المسيَّب بن زهير وعزلَه عن الشُّرطة، وأمر بحبسه وتقييده، وكان سبب ذلك أنه قتل أبان بن بشير الكاتب بالسِّياط، لأمرٍ كان وجَد عليه فيما كان من شركته لأخيه عمرو بن زهير في ولاية الكوفة وخراجها، وولّى مكان المسيَّب الحكم بن يوسف صاحب الحرب، ثم كلَّم المهديّ أباه في المسَّيب، فرضي عنه بعد حبسه إيَّاه أياماً، وأعاد إليه ما كان يلي من شُرَطه.

وفيها وجَّه المنصور نصرَ بن حرب التميمي والياً على ثغر فارس.

وفيها سقط المنصور عن دابَّته بجَرْجَرَايا، فانشجَّ ما بين حاجبيه؛ وذلك أنه كان خرج لَّما وجّه ابنه المهديّ إلى الرّقة مشيِّعاً له، حتى بلغ موضعاً يقال له جُبّ سُمّاقا، ثم عدل إلى حَوْلايا، ثم أخذ على النَّهروانات

فانتهى ـ فيما ذكر ـ إلى بَثْق من النّهروانات يصبّ إلى نهر دَيَـالَى ، فأقام على سَكْره ثمانية عشر يوماً، فأعياه، فمضى إلى جَرْجَرايا، فخرج منها للنظر إلى ضَيْعة كانت لعيسى بن عليّ هناك، فصُرِع من يومه ذلك عن برذون له دَيْزج، فشُجَّ في وجهه، وقدم عليه وهو بجَرْجَرايا أسارى من ناحية عُمان من الهند، بعث بهم إليه تسنيم بن الحواري مع ابنه محمد، فهمّ بضرب أعناقهم، فساءلهم فأخبروه بما التبس به أمرهم عليه؛ فأمسك عن قتلهم وقسّمهم بين قوّاده ونُوّابه.

وفيها انصرف المهديّ إلى مدينة السلام من الرّقّة فدخلها في شهر رمضان.

وفيها أمر المنصور بمَرَمَّة القصر الأبيض، الذي كان كسر بناه، وأمر أن يغرَّم كلّ مَنْ وُجد في داره شيء من الآجرّ الخُسروانيّ، مما نقضه من بناء الأكاسرة، وقال: وقال: هذا فيء المسلمين، فلم يتّم ذلك ولا ما أمر به من مرمَّة القصر.

وفيها غَزا الصائفةَ معيوف بن يحيى من دَرْب الحدَث، فلقي العدوّ فاقتتلوا ثم تحاجزوا.

وفي هذه السنة حبس محمد بن إبراهيم بن محمد بن عليّ، وهو أمير مكة ـ فيما ذكر ـ بأمر المنصور إياه بحبسهم: ابنَ جريج وعبّاد بن كثير والثوريّ، ثمّ أطلقهم من الحبس بغير إذن أبي جعفر، فغضب عليه أبو جعفر.

وذكر عمر بن شبَّة أن محمد بن عمران مولى محمد بن إبراهيم بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس حدّثه عن أبيه، قال: كتب المنصور إلى محمد بن إبراهيم ـ وهو أمير على مكة ـ يأمره بحبس رجل من آل عليّ بن أبي طالب كان بمكة، ويحبس ابن جُريج وعباد بن كثير والثوريّ، قال: فحبسهم؛ فكان له سُمّار يسامرونه بالليل؛ فلما كان وقت سمَره جلس وأكبّ على الأرض ينظر إليها، ولم ينطق بحرف حتى تفرّقوا. قال: فدنوتُ منه فقلت له: قد رأيتُ ما بك، فما لك؟ قال: عمَدتُ إلى ذي رحِم فحبستُه، وإلى عيون من عيون الناس فحبستُهم، فيقدم أمير المؤمنين ولا أدري ما يكون؛ فلعلّه أن يأمر بهم فيقتلوا، فيشتدّ سلطانه وأهْلِكَ ديني؛ قال: فقلت له: فتصنع ماذا؟ قال: أوثر الله، وأطلِق القوم؛ اذْهَبْ إلى إبلي فخُذْ راحلةً منها، وخذ خمسين ديناراً فأت بها الطالبيّ وأقرئه السلام، وقل له: إنّ ابن عمّك يسألك أن تحلّله من ترويعه إياك، وتركب هذه الراحلة، وتأخذ هذه النفقة. قال: فلما أحسّ بي جعل يتعوّذ بالله من شَرِّي، فلما أبلغتُه قال: هو في حلٍّ ولا حاجة لي إلى الرّاحلة ولا إلى النفقة. قال: قلت إنّ أطيب لنفسه أن تأخذ، ففعل. قال: ثم جئتُ إلى ابن جُريج وإلى سفيان بن سعيد وعباد بن كثير فأبلغتهم ما قال، قالوا: هو في حلّ، قال: فقلت لهم: يقول لكم: لا يَظهرَنّ أحد منكم ما دام المنصور مقيماً. قال: فلما قرب المنصور وجّهني محمد بن إبراهيم بألطاف، فلما أخبِرَ المنصورُ أنّ رسول محمد بن إبراهيم قدم، أمر بالإبل فضرِبت وجوهها.

قال: فلما صار إلى بئر ميمون لقيه محمد بن إبراهيم، فلما أخبر بذلك أمر بدوابِّه فضرِبت وجوهها، فعدل محمَّد، فكان يسير في ناحية. قال: وعدِل بأبي جعفر عن الطريق في الشقّ الأيسر فأنيخ به، ومحمد واقف قُبالته، ومعه طبيب له؛ فلما ركب أبو جعفر وسار، وعديلُه الرَّبيع أمر محمد الطبيب فمضى إلى موضع مناخ أبي جعفر، فرأى نجْوه، فقال لمحمد: رأيتُ نجوَ رجل لا تطول به الحياة؛ فلما دخل مكة لم يلبث أن مات وسلِم محمد.

وفيها شخص أبو جعفر من مدينة السلام، متوجهاً إلى مكة؛ وذلك في شوّال، فنزل ـ فيما ذكر ـ عند قصر

عبْدَوَيْه، فانقضّ في مقامه هنالك كوكب، لثلاث بقين من شوّال بعد إضاءة الفجر، فبقي أثرُه بيِّناً إلى طلوع الشمس، ثم مضى إلى الكوفة، فنزل الرُّصافة، ثم أهلّ منها بالحجّ والعُمرة، وساق معه الهَدْيَ وأشعرَه وقلّده؛ لأيامٍ خلت من ذي القعدة. فلما سار منازل من الكوفة عرضَ له وجعه الذي تُوُفِّيَ منه.

واختُلف في سبب الوجع الذي كانت منه وفاته؛ فذُكر عن عليّ بن محمد بن سليمان النوفليّ، عن أبيه، أنه كان يقول: كان المنصور لا يستمرىء طعامه؛ ويشكو من ذلك إلى المتطبِّبين ويسألهم أن يتخذوا له الجوارشنات؛ فكانوا يكرهون ذلك ويأمرونه أن يُقلّ من الطعام، ويخبرونه أن الجَوارشنات تَهضم في الحال، وتُحدِث من العلّة ما هو أشدّ منه عليه؛ حتى قدم عليه طبيب من أطبَّاء الهند، فقال له كما قال له غيره؛ فكان يتّخذ له سَفوفاً جَوارشناً يابساً، فيه الأفاويه والأدوِية الحارة، فكان يأخذه فيهضم طعامه فأحمده. قال: فقال لي أبي: قال لي كثير من متطببي العراق: لا يموت والله أبو جعفر أبداً إلا بالبَطْن، قال: قلت له: وما علمك؟ قال: هو يأخذ الجوارِشن فيهضم طعامه؛ ويخلق من زئير مَعِدَتِهِ في كلّ يوم شيئاً، وشحم مصارينه، فيموت ببطنه. وقال لي: وقال لي: اضْرب لذلك مثلاً، أرأيت لو أنك وضعت جَرّاً على مَرْفع، ووضعت تحتها آجرّة جديدة فقطرتْ، أما كان قَطْرها الآجرّة على طول الدهر! أو ما علمت أن لكلّ قطرة حدّاً! قال: فمات والله أبو جعفر ـ كما قال ـ بالبطن.

وقال بعضهم: كان بدءُ وجعه الذي مات فيه من حرٍّ أصابه من ركوبه في الهواجر، وكان رجلا محروراً على سنّه، يغلب عليه المرار الأحمر، ثم هاض بطنه، فلم يزل كذلك حتى نزل بستَانَ ابن عامر، فاشتدّ به، فرحل عنه فقصُر عن مكة، ونزل بئر ابن المرتَفع، فأقام بها يوماً وليلة، ثم صار منها إلى بئر ميمون؛ وهو يسأل عن دخوله الحرَم، ويوصي الرّبيع بما يريد أن يوصيَه، وتُوُفِّيَ بها في السَّحَر أو مع طلوع الفجر ليلة السبت لستٍّ خلوْن من ذي الحجّة، ولم يحضره عند وفاته إلا خدَمه والربيع مولاه؛ فكتم الربيع موتَه، ومنع النساء وغيرهنّ من البكاء عليه والصُّراخ، ثم أصبح فحضر أهلُ بيته كما كانوا يحضرون، وجلسوا مجالسهم؛ فكان أول من دُعي به عيسى بن عليّ، فمكث ساعة، ثم أذن لعيسى بن موسى ـ وقد كان فيما خلا يقدَّم في الإذن على عيسى بن عليّ، فكان ذلك مما ارتيب به ـ ثم أذن للأكابر وذوي الأسنان من أهل البيت، ثم لعامَّتهم؛ فأخذ الربيع بيعتَهم لأمير المؤمنين المهديّ ولعيسى بن موسى من بعده، علَى يد موسى بن المهديّ حتى فرغ من بيعة بني هاشم؛ ثم دعا بالقوّاد فبايَعوا ولم ينكل منهم عن ذلك رجلٌ إلا عليّ بن عيسى بن ماهان؛ فإنه أبى عند ذكر عيسى بن موسى أن يبايع له، فلطمه محمد بن سليمان، وقال: ومن هذا العلج وأمصّه، وهمّ بضرب عنقه، فبايع، وتتابع الناس بالبيعة. وكان المسيب بن زهير أوّلَ مَن استثنى في البيعة، وقال: عيسى بن موسى: إن كان كذلك. فأمْضَوْه.

وخرج موسى بن المهديّ إلى مجلس العامة، فبايع مَنْ بقِي من القواد والوجوه، وتوجّه العباس بن محمد ومحمد بن سليمان إلى مكة ليبايع أهلَها بها؛ وكان العباس يومئذ المتكلّم، فبايع الناس للمهديّ بين الركن والمقام، وتفرّق عِدّة من أهل بيت المهديّ في نواحي مكة والعسكر فبايعه الناس، وأخذ في جِهاز المنصور وغسله وكفنه، وتولّى ذلك من أهل بيته العباس بن محمد والربيع والرّيان وعدّة من خَدمه ومواليه، ففرغ من جهازه مع صلاة العصر، وغطّى من وجهه وجميع جسده بأكفانه إلى قُصاص شعره، وأبدى رأسه مكشوفاً من أجل

الإحرام، وخرج به أهل بيته والأخصُّ من مواليه، وصلّى عليه ـ فيما زعم الواقديّ ـ عيسى بن موسى في شِعب الخُوز.

وقيل: إن الذي صلّى عليه إبراهيم بن يحيى بن محمد بن عليّ. وقيل: إنّ المنصور كان أوصى بذلك؛ وذلك أنه كان خليفتَه على الصلاة بمدينة السلام.

وذَكر عليّ بن محمد النوفليّ، عن أبيه، أنّ إبراهيم بن يحيى صلى عليه في المضارب قبل أن يُحمل؛ لأن الربيع قال: لا يصلّي عليه أحد يطمع في الخلافة، فقدّموا إبراهيم بن يحيى ـ وهو يومئذ غلام حَدَث ـ ودفن في المقبرة التي عند ثَنِيَّة المدنيين التي تسمّى كذا، وتسمى ثَنِيَّة المَعْلاة؛ لأنها بأعلى مكة، ونزل في قبره عيسى بن عليّ والعباس بن محمد وعيسى بن موسى، والربيع والرّيان موْلياه، ويقطين بن موسى.

واختلف في مبلغ سنه يوم توفّي، فقال بعضهم: كان يوم توفّيَ ابن أربع وستين سنة.

وقال بعضهم: كان يومئذ ابن خمس وستين سنة.

وقال بعضهم: كان يوم توفّيَ ابن ثلاث وستين سنة.

وقال هشام بن الكلبيّ: هلك المنصور وهو ابن ثمان وستين سنة.

وقال هشام: ملك المنصور اثنتين وعشرين سنة إلا أربعة وعشرين يوماً.

واختُلف عن أبي معشر في ذلك، فحدثني أحمد بن ثابت الرازيّ عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى عنه أنه قال: توفّيَ أبو جعفر قبل يوم التروية بيوم يوم السبت، فكانت خلافته اثنتين وعشرين سنة إلا ثلاثة أيام.

وروى عن ابن بكّار عنه أنه قال: إلا سبع ليال.

وقال الواقديّ: كانت ولاية أبي جعفر اثنتين وعشرين سنة إلا ستة أيام.

وقال عمر بن شبّة: كانت خلافته اثنتين وعشرين سنة غير يومين.

وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن يحيى بن محمد بن عليّ.

وفي هذه السنة هلك طاغية الروم.

ذكر الخبر عن صفة أبي جعفر المنصور

ذُكر أنه كان أسمر طويلاً، نحيفاً. خفيفَ العارضين.

وكان وُلِد بالحُمَيْمة.

ذكر الخبر عن بعض سيره

ذُكر عن صالح بن الوجيه، عن أبيه، قال: بلغ المنصورَ أن عيسى بن موسى قتل رجلًا من ولد نصر بن سيّار، كان مستخفياً بالكوفة، فدُلّ عليه، فضرب عنقه. فأنكر ذلك وأعظمه، وهمّ في عيسى بأمر كان فيه هلاكه، ثم قطعه عن ذلك جهلُ عيسى بما فعل. فكتب إليه:

أما بعد، فإنه لولا نظرُ أمير المؤمنين واستبقاؤه لم يؤخِّرْك عقوبة قتل ابن نصر بن سيّار واستبدادك به بما

يقطع أطماعَ العمال في مثله، فأمسِكْ عمّن ولاك أمير المؤمنين أمره؛ من عربيّ وأعجميّ، وأحمر وأسود، ولا تستبدّنّ على أمير المؤمنين بإمضاء عقوبة في أحد قِبَلَه تباعةٌ، فإنه لا يرى أن يأخذ أحداً بظنّة قد وضعها الله عنه بالتوبة، ولا بحَدَثٍ كان منه في حرب أعقبه الله منها سِلْماً ستر به عن ذي غِلّة، وحجز بـه عن محنة مـا في الصدور؛ وليس ييأس أمير المؤمنين لأحدٍ ولا لنفسه من الله من إقبال مدير؛ كما أنه لا يأمن إدبار مقبل. إن شاء الله والسلام.

وذكر عن عباس بن الفضل، قال: حدّثني يحيى بن سُليم كاتب الفضل بن الربيع، قال: لم يرَ في دارِ المنصور لهوٌ قطّ، ولا شيء يشبه اللّهو واللعب والعبث إلا يوماً واحداً، فإنّا رأينا ابناً له يقال له عبد العزيز أخا سليمان وعيسى ابني أبي جعفر من الطلحيّة، تُوُفِّيَ وهو حَدَث، قد خرج على الناس متنكّباً قوساً، متعمّـماً بعمامة، متردّياً ببُرْد، في هيئة غلام أعرابيّ، راكباً على قعود بين جُوالقيْن، فيهما مُقْل ونعال ومساويك وما يهديه الأعراب؛ فعجب الناس من ذلك وأنكروه. قال: فمضى الغلام حتى عبَر الجسر، وأتى المهديّ بـالرُّصـافة فأهدى إليه ذلك، فقبِل المهدِيّ ما في الجواليق وملأهما دراهم؛ فانصرف بين الجُوالقين؛ فعُلم أنه ضَرْبٌ من عبث الملوك.

وذكر عن حمّاد التركيّ، قال: كنت واقفاً على رأس المنصور، فسمع جلبةً في الدار، فقال: ما هذا يا حمّاد؟ انظر، فذهبتُ فإذا خادم له قد جلس بين الجواري، وهو يضرب لهنّ بالطنبور، وهنّ يضحكنَ، فجئت فأخبرته، فقال: وأيّ شيء الطنبور؟ فقلت: خشبة من حالها وأمرها... ووصفتُها لـه؛ فقال لي: أصبتَ صفته، فما يدريك أنت ما الطنبور! قلت: رأيتُه بخُراسان، قال: نعم هناك، ثم قال: هات نعلي، فأتيته بها فقام يمشي رُويداً حتى أشرف عليهم فرآهم، فلما بصروا به تفرّقوا، فقال: خذوه، فأخِذ، فقال: اضرب به رأسَه، فلم أزل أضرب به رأسَه حتى كسّرتُه، ثم قال: أخرجْه من قصري، واذهب به إلى حمران بالكَرْخ، وقل له يبيعه.

وذكر العباس بن الفضل عن سلاّم الأبرش، قال: كنت وأنا وصيف وغلام آخر نخدم المنصورَ داخلاً في منزله؛ وكانت له حجرة فيها بيت وفُسطاط وفراش ولحاف يخلو فيه، وكان من أحسن الناس خُلُقاً ما لم يخرج إلى الناس، وأشدّ احتمالا لمايكون من عبث الصبيان؛ فإذا لبس ثيابه تغيّر لونُه وتربّد وجهه، واحمرّت عينـاه، فيخرج فيكون منه ما يكون، فإذا قام من مجلسه رجع بمثل ذلك؛ فنستقبله في ممشاه، فربّما عاتبناه.

وقال لي يوماً: يا بنيّ إذا رأيتَنِي قد لبست ثيابي أو رجعت من مجلسي؛ فلا يدنُوَنّ مني أحد منكم مخافة أن أعرّه بشيء.

وذكر أبو الهيثم خالد بن يزيد بن وهب بن جرير بن حازم، قال: حدّثني عبد الله بن محمد ـ يلقب بمنقار من أهل خراسان وكان من عمال الرشيد ـ قال: حدّثني معن بن زائدة، قال: كنّا في الصحابة سبعمائة رجل؛ فكنا ندخل على المنصور في كلّ يوم، قال: فقلت للربيع: اجعلني في آخِر مَنْ يدخل، فقال لي: لستَ بأشرفهم فتكون في أوّلهم، ولا بأخسّهم نسباً فتكونَ في آخرهم؛ وإن مرتبتك لتشبه نسبَك. قال: فدخلتُ على المنصور ذات يوم وعليّ دُرَّاعةٌ فضفاضة وسيف حنفيّ، أقرع بنعله الأرض، وعمامة قد سدلتها من خلفي وقُدّامي. قال: فسلّمت عليه وخرجت، فلمّا صرت عند السِّتر صاح بي: يا معن، صيحة أنكرتها! فقلت: لبيك يا أمير

المؤمنين! قال: إليّ، فدنوت منه، فإذا به قد نزل عن عرشه إلى الأرض، وجثا على ركبتيه، واستلّ عموداً من بين فراشيْن، واستحال لونه وَدرَّت أوداجه، فقال: إنك لصاحبي يوم واسط؛ لا نجوتُ إن نجوتَ مني. قال: قلت يا أمير المؤمنين، تلك نصرتي لباطلهم، فكيف نصرتي لحقك! قال: فقال لي: كيف قلتَ؟ فأعدتُ عليه القول، فما زال يستعيدني حتى ردّ العمود في مستقرّه، واستوى متربعاً، وأسفَر لونه، فقال: يا معن، إنّ لي باليمن هنات، قلت: يا أميرَ المؤمنين ليس لمكتوم رأي، قال: فقال: أنت صاحبي، فجلست، وأمر الربيع بإخراج كلّ مَنْ كان في القصر فخرج، فقال لي: إن صاحب اليمن قد همّ بمعصيتي، وإني أريد أن آخذه أسيراً ولا يفوتني شيء من ماله، فما ترى؟ قال: يا أميرَ المؤمنين، وَلِّني اليمن، وأظهر أنك ضممتني إليه، ومرِ الربيع يُزيح علتي في كلّ ما أحتاج إليه، ويخرجني من يومي هذا لئلا ينتشر الخبر. قال: فاستلّ عهداً من بين فراشيْن، فوقّع فيه اسمي وناولنيه، ثم دعا الربيع، يا ربيع، إنا قد ضممنا مَعْناً إلى صاحب اليمن، فأزِحْ عِلَّته فيما يحتاج إليه من الكُراع والسلاح، ولا يُمسي إلا وهو راحل. ثم قال: ودِّعني، فودّعته وخرجتُ إلى الدِّهليز، فلقيني أبو الوالي، فقال: يا معن، أعززْ عليّ أن تضمّ إلى ابن أخيك! قال: فقلت: إنه لا غضاضة على الرجل أن يَضُمَّه سلطانه إلى ابن أخيه، فخرجت إلى اليمن فأتيت الرّجل، فأخذته أسيراً، وقرأت عليه العهد، وقعدت في مجلسه.

وذكر حمّاد بن أحمد اليمانيّ، قال: حدّثني محمد بن عمر اليماميّ أبو الرُّدينيّ، قال: أراد معن بن زائدة أن يوفِد إلى المنصور قوماً يسلُّون سخيمته، ويستعطفون قلبَه عليه، وقال: قد أفنيت عمري في طاعته، وأتعبتُ نفسي وأفنيت رجالي في حرب اليمن، ثم يسخط عليّ أن أنفقتُ المال في طاعته! فانتخب جماعة من عشيرته من أفناء ربيعة؛ فكان فيمن اختار مُجّاعة بن الأزهر، فجعل يدعو الرّجال واحداً واحداً، ويقول: ماذا أنت قائل لأمير المؤمنين إذا وجّهتُك إليه؟ فيقول: أقول وأقول، حتى جاءه مُجّاعة بن الأزهر، فقال: أعزّ الله الأمير! تسألني عن مخاطبة رجل بالعراق وأنا باليمن! أقصد لحاجتك؛ حتى أتأتّى لها كما يمكن وينبغي، فقال: أنت صاحبي، ثم التفت إلى عبد الرحمن بن عتيق المُزنيّ، فقال له: شُدّ على عَضُد بن عمّك وقدّمه أمامك؛ فإن سها عن شيء فتلافه. واختار من أصحابه ثمانية نفر معهما حتى تمُّوا عشرة، وودّعهم ومضوْا حتى صاروا إلى أبي جعفر، فلما صاروا بين يديه تقدّموا، فابتدأ مُجّاعة بن الأزهر بحمد الله والثناء عليه والشكر، حتى ظنّ القوم أنه إنما قصد لهذا، ثم كرّ على ذكر النبيّ ﷺ، وكيف اختاره الله من بطون العرب، ونشر من فضله؛ حتى تعجّب القوم، ثم كرّ على ذكر أمير المؤمنين المنصور، وما شرّفه الله به، وما قلّده، ثم كرّ على حاجته في ذكر صاحبه. فلما انتهى كلامه، قال المنصور: أمّا ما وصفْتَ من حمد الله، فالله أجلّ وأكبر من أن تبلغه الصفات، وأما ما ذكرت من النبيّ ﷺ فقد فضّله الله بأكثر مما قلتَ، وأما ما وصفتَ به أمير المؤمنين؛ فإنه فضّله الله بذلك، وهو معينه على طاعته إن شاء الله، وأما ما ذكرت من صاحبك فكذَبت ولُؤمتَ، اخرج فلا يُقبل ما ذكرت. قال: صدق أميرُ المؤمنين، ووالله ما كذبتُ في صاحبي. فأُخْرجوا فلما صاروا إلى آخر الإيوان أمر بردّه مع أصحابه، فقال: ما ذكرتَ؟ فكّر عليه الكلام؛ حتى كأنه كان في صحيفة يقرؤه، فقال له مثل القول لأوّل، فأُخرجوا حتى برزوا جميعاً، وأمر بهم فوقفوا، ثم التفت إلى مَنْ حضر من مُضر، فقال: هل تعرفون فيكم مثل هذا؟ والله لقد تكلّم حتى حسدتُه، وما منعني أن أتمّ على ردّه إلا أن يقال: تعصّب عليه لأنه ربَعيّ، وما رأيتُ كاليوم رجلاً أربطَ جأشاً، ولا أظهر بياناً؛ ردّه يا غلام. فلما صار بين يديه أعاد السّلام، وأعاد أصحابه، فقال له المنصور: اقصد

لحاجتك وحاجة صاحبك. قال: يا أميرَ المؤمنين، معن بن زائدة عَبْدك وسيفك وسهمك، رميت بهد عدوّك، فضرب وطعن ورمى، حتى سهل ما حَزُن، وذلّ ما صعُب، واستوى ما كان معوَجّاً من اليمن، فأصبحوا من خَول أمير المؤمنين أطال الله بقاءه! فإن كان في نفس أمير المؤمنين هَنَة من ساعٍ أو واشٍ أو حاسد فأميرُ المؤمنين أولَى بالتفضل على عبده، ومن أفنى عمره في طاعته. فقبل وفادتهم، وقبل العذْر من معن؛ وأمر بصرفهم إليه؛ فلما صاروا إلى معن وقرأ الكتاب بالرضا قبّل ما بين عينيه، وشكر أصحابه، وخلع عليهم وأجازهم على إقدامهم، وأمرهم بالرّحيل إلى منصور، فقال مُجّاعة:

آليتُ في مَجْلسٍ من وائلٍ قَسَماً ... ألا أبيعَك يا مَعْنُ بأطماعِ
يا مَعْنُ إنك قد أوْلَيْتَنِي نِعَماً ... عمَّتْ لُجَيْماً وخَصَّتْ آل مُجّاعِ
فلا أزالُ إليك الدهرَ مُنقَطِعاً ... حتى يُشيد بِهُلكي هَتفَةُ الناعِي

قال: وكانت نِعَمُ معن على مُجّاعة، أنه سأله ثلاث حوائج؛ منها أنه كان يتعشّق امرأة من أهل بيته، سيدة يقال لها زهراء لم يتزوجْها أحد بعد؛ وكانت إذا ذُكر لها قالت: بأيّ شيء يتزوجني؟ أبجُبّته الصوف، أم بكسائه! فلمّا رجع إلى معن كان أوّل شيء سأله أن يزوّجه بها، وكان أبوها في جيش مَعْن، فقال: أريد زهراء، وأبوها في عسكرك أيّها الأمير، فزوّجه إياها على عشرة آلاف درهم وأمهرها من عنده. فقال له معن: حاجتَك الثانية، قال: الحائط الذي فيه منزلي بحجَر وصاحبه في عسكر الأمير، فاشتراه منه وصيّره له؛ وقال: حاجتَك الثالثة؟ قال: تهب لي مالاً. قال: فأمر له بثلاثين ألف درهم، تمام مائة ألف درهم، وصرفه إلى منزله.

وذكر عن محمد بن سالم الخوارزميّ ـ وكان أبوه من قُوّاد خراسان ـ قال: سمعتُ أبا الفرج خال عبد الله بن جبلة الطالقانيّ يقول: سمعت أبا جعفر يقول: ما كان أحوجَني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعفّ منهم، قيل له: يا أميرَ المؤمنين، مَنْ هم؟ قال: هم أركان المُلْك، ولا يصلح المُلْك إلا بهم؛ كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم، إن نقصت واحدة وهيَ؛ أما أحدهم فقاضٍ لا تأخذه في الله لومةُ لائم، والآخر صاحب شُرْطة يُنصف الضعيف من القويّ، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعيّة فإني عن ظلمها غنيّ، والرابع ـ ثم عضّ على أصبعه السبابة ثلاث مرات، يقول في كل مرة: آه آه ـ قيل له: ومَنْ هويا أميرَ المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصّحة.

وقيل: إنّ المنصور دعا بعاملٍ من عمّاله قد كسر خراجه، فقال له: أدّ ما عليك، قال: والله ما أملك شيئاً، ونادى المنادي: أشهد أن لا إله إلا الله، قال: يا أميرَ المؤمنين، هبْ ما عليّ لله ولشهادة أن لا إله إلا الله، فخلّى سبيلَه.

قال: وولّى المنصور رجلاً من أهل الشام شيئاً من الخراج، فأوصاه وتقدّم إليه، فقال: ما أعرفَني بما في نفسك! الساعة يا أخا أهل الشأم! تخرج من عندي الساعة، فتقول: الزم الصّحة؛ يلزمْك العمل.

قال: وولّى رجلاً من أهل العراق شيئاً من خراج السواد، فأوصاه، وتقدّم إليه، فقال: ما أعرفني بما في نفسك! تخرج الساعةَ فتقول: من عالَ بعدها فلا اجتبَر. اخرج عني وامضِ إلى عملك؛ فوالله لئن تعرّضْتَ لذلكِ لأبلغنّ من عقوبتك ما تستحقّه. قال: فولّيا جميعاً وصحّحا وناصحا.

ذكر الصبّاح بن عبد الملك الشيبانيّ، عن إسحاق بن موسى بن عيسى؛ أنّ المنصور ولّى رجلاً من العرب حضرموت، فكتب إليه وإلى البريد أنه يكثر الخروجَ في طلب الصّيد ببزاةٍ وكلاب قد أعدّها، فعزله وكتب إليه: ثكلتْك أمك وعدمتك عشيرتك! ما هذه العِدّة التي أعددتها للنّكاية في الوحش! إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين، ولم نستكفك أمورَ الوحش؛ سلِّم ما كنت تلي من عملنا إلى فلان بن فلان، والحق بأهلك ملوماً مدحوراً.

وذكر الرّبيع أنه قال: أدخِل على المنصور سهيل بن سالم البصريّ، وقد وُلِّيَ عملاً فعزِل، فأمر بحبسه واستئدائه، فقال سهيل: عبدك يا أمير المؤمنين، قال: بئس العبد أنت! قال: لكنك يا أمير المؤمنين، نِعمَ المولى! قال: أمّا لَكَ فلا.

قال: وذكر عن الفضل بن الربيع عن أبيه، أنه قال: بينا أنا قائم بين يدي المنصور أو على رأسه؛ إذ أُتِيَ بخارجيّ قد هزم له جيوشاً، فأقامه ليضرب عنقه، ثم اقتحمته عينه، فقال: يابن الفاعلة، مثلك يهزم الجيوش! فقال له الخارجيّ: ويلك وسوءة لك! بيني وبينك أمس السيف والقتل، واليوم القذف والسبّ! وما كان يؤمنك أن أردّ عليك وقد يئستُ من الحياة فلا تستقيلها أبداً! قال: فاستحيا منه المنصور وأطلقه، فما رأى له وجهاً حولا.

ذكر عبدالله بن عمرو الملحيّ أن هارون بن محمد بن إسماعيل بن موسى الهادي، قال: حدثني عبدالله بن محمد بن أبي أيوب المكيّ، عن أبيه، قال: حدثني عُمارة بن حمزة، قال: كنت عند المنصور، فانصرفت من عنده في وقت انتصاف النهار، وبعد أن بايع الناس للمهديّ، فجاءني المهديّ في وقت انصرافي، فقال لي: قد بلغني أنّ أبي قد عزم أن يبايع لجعفر أخي، وأعطِي الله عهداً لئن فعل لاقتلنّه، فمضيت من فوري إلى أمير المؤمنين، فقتل: هذا أمر لا يؤخّر، فقال الحاجب: الساعةَ خرَجْتَ! قلتُ: أمر حَدث، فأذن لي، فدخلت إليه، فقال لي: هيه يا عمارة! ما جاء بك؟ قلتُ: أمر حدث يا أمير المؤمنين أريد أن أذكره، قال: فأنا أخبرك به قبل أن تخبرني، جاءك المهديّ فقال: كيت وكيت، قلتُ: والله يا أمير المؤمنين لكأنّك حاضر ثالثنا، قال: قل له: نحن أشفق عليه من أن نعرضه لك.

وذكر عن أحمد بن يوسفِ بن القاسم، قال: سمعتُ إبراهيم بن صالح، يقول: كنا في مجلس ننتظر الإذن فيه على المنصور، فتذاكرنا الحجّاج، فمنّا مَنْ حمِده ومنا مَن ذمّه، فكان ممن حمِده معن بن زائدة، وممّن ذمّه الحسن بن زيد، ثم أذن لنا فدخلنا على المنصور، فانبرى الحسن بن زيد، فقال: يا أمير المؤمنين، ما كنت أحسبني أبقى حتى يُذكر الحجّاجُ في دارك وعلى بساطك، فيُثنى عليه. فقال أبو جعفر: وما استنكرت من ذلك! رجل استكفاه قوم فكفاهم؛ والله لوددت أني وجدت مثل الحجاج حتى أستكفيه أمري، وأنزله أحد الحَرمين. قال: فقال له معن: يا أميرَ المؤمنين، إن لك مثل الحجاج عدّة لو استكفيتَهم كَفَوْك، قال: ومَن هم؟ كأنك تريد نفسك! قال: وإن أردتُها فلم أبعد من ذلك، قال: كلاّ لست كذاك، إن الحجاج ائتمنه قومٌ فأدى إليهم الأمانة، وإنّا ائتمنّاك فخُنْتَنا!

ذكر الهيثم بن عدّي، عن أبي بكر الهذليّ، قال: سرت مع أمير المؤمنين المنصور إلى مكة، وسايرتُه يوماً، فعرض لنا رجل على ناقة حمراء تذهب في الأرض، وعليه جُبّة خزّ، وعمامة عدنيّة، وفي يده سوط يكاد يمسّ

الأرض، سريّ الهيئة، فلما رآه أمرني فدعوتُه، فجاء فسأله عن نسبه وبلاده وبادية قومه وعن ولاة الصدقة، فأحسن الجواب، فأعجبه ما رأى منه، فقال: أنشدني، فأنشده شعراً لأوس بن حجر وغيره من الشعراء من بني عمرو بن تميم؛ وحدّثه حتى أتى على شعر لطريف بن تميم العنبريّ، وهو قوله:

إنَّ قَنَاتي لَنَبْعٌ لا يُؤَيِّسُها ... غمزُ الثِّقافِ ولا دُهْنٌ ولا نارُ
متى أَجِرْ خائفاً تأمَنْ مسارحُهُ ... وإنْ أخِفْ آمِناً تَقْلَقْ به الدارُ
إنَّ الأُمورَ إذا أوردتُها صَدَرَتْ ... إنَّ الأُمورَ لها وِرْدٌ وإصدارُ

فقال: ويحك! وما كان طريف فيكم حيث قال هذا الشعر؟ قال: كان أثقلَ العرب على عدوّه وطأةً وأدركهم بثأر، وأيمنهم نقيبة، وأعساهم قناة لمن رام هضمه، وأقراهم لضيفه، وأحوطهم من وراء جاره؛ اجتمعت العرب بعُكاظ فكلّهم أقرّ له بهذه الخلال؛ غير أن امرأ أراد أن يقصّر به، فقال: والله ما أنت ببعيد النُّجْعة، ولا قاصد الرميّة، فدعاه ذلك إلى أن جعل على نفسه ألّا يأكل إلا لحم قَنَص يقتنصه، ولا ينزعَ كلّ عام عن غزوة يُبعد فيها أثره، قال: يا أخا بني تميم؛ لقد أحسنتَ إذ وصفتَ صاحبك ولكني أحقّ ببيتيه منه؛ أنا الذي وَصف لا هو.

وذكر أحمد بن خالد الفُقَيْميّ أن عدّة من بني هاشم حدّثوه أنّ المنصور كان شغلُه في صدر نهاره بالأمر والنهي والولايات والعزْل وشحن الثّغور والأطراف وأمْن السبل والنظر في الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعيّة لطَرْح عالتهم والتلطّف لسكونهم وهدوئهم، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته إلا من أحبَّ أن يسامره، فإذا صلّى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كُتب الثغور والأطراف والآفاق، وشاور سُمّاره من ذلك فيما أرب؛ فإذا مضى ثلثُ الليل قام إلى فراشه وانصرف سُمّاره، فإذا مضى الثلث الثاني قام من فراشه، فأسبغ وضوءه، وصفّ في محرابه حتى يطلع الفجر، ثم يخرج فيصلّي بالناس، ثم يدخل فيجلس في إيوانه.

قال إسحاق: حُدّثت عن عبدالله بن الرّبيع، قال: قال أبو جعفر لإسماعيل بن عبدالله: صفْ لي الناس، فقال: أهل الحجاز مبتدأ الإسلام وبقية العرب، وأهلُ العراق ركن الإسلام ومقاتلة عن الدين، وأهل الشأم حِصْن الأمة وأسنّة الأئمة، وأهل خُراسان فرسان الهَيْجاء وأعنّة الرجال، والتّرك منابت الصخور وأبناء المغازي، وأهل الهند حكماء استغنوْا ببلادهم فاكتفوْا بها عمّا يليهم، والروم أهلُ كتاب وتديّن نحّاهم الله من القرب إلى البعد، والأنباط كان مُلْكهم قديماً فهم لكلّ قوم عبيد. قال: فأيّ الولاة أفضل؟ قال: الباذل للعطاء، والمعرض عن السيئة. قال: فأيّهم أخرق؟ قال: أنهكهم للرعيّة، وأتعبهم لها بالخُرق والعقوبة. قال: فالطاعة على الخوف أبلغ في حاجة الملك أم الطاعة على المحبة؟ قال: يا أميرَ المؤمنين، الطاعة عند الخوف تُسِرّ الغدر وتبالغ عند المعاينة، والطاعة على المحبّة تضمر الاجتهاد وتبالغ عند الغفلة. قال: فأيّ الناس أولاهم بالطاعة؟ قال: أولاهم بالمضرّة والمنفعة. قال: ما علامة ذلك؟ قال: سرْعة الإجابة وبذْل النفس. قال: فمن ينبغي للملك أن يتّخذه وزيراً؟ قال: أسلمُهم قلباً، وأبعدهم من الهوى.

وذكر عن أبي عبيدالله الكاتب، قال: سمعت المنصور يقول للمهديّ حين عهد له بولاية العهد: يا أبا عبدالله، استدِم النعمة بالشكر، والقدرة بالعفو، والطاعة بالتألّف والنصر بالتواضع؛ ولا تنس مع نصيبك من الدنيا نصيبَك من رحمة الله.

وذكر الزبير بن بَكّار، قال: حدثني مبارك الطبريّ، قال: سمعت أبا عبيدالله يقول: سمعت المنصور يقول للمهديّ: لا تبرِم أمراً حتى تفكّر فيه؛ فإنّ فكر العاقل مرآته، تريه حسنه وسيّئه.

وذكر الزبير أيضاً، عن مصعب بن عبدالله، عن أبيه، قال: سمعت أبا جعفر المنصور يقول للمهديّ: يا أبا عبدالله؛ لا يصلح السلطانُ إلاّ بالتقوى، ولا تصلح رعيّته إلا بالطاعة، ولا تعمّر البلاد بمثل العدل، ولا تدوم نعمة السلطان وطاعته إلا بالمال، ولا تَقْدُمُ في الحياطة بمثل نقل الأخبار. وأقدرُ الناس على العفو أقدرهم على العقوبة، وأعجز الناس مَنْ ظلم مَن هو دونه. واعتبر عملَ صاحبك وعلمَه باختباره.

وعن المبارك الطبريّ أنه سمع أبا عبيدالله يقول: سمعتُ المنصور يقول للمهديّ: يا أبا عبدالله، لا تجلس مجلساً إلا ومعك من أهل العلم مَن يحدّثك؛ فإن محمد بن شهاب الزّهريّ قال: الحديث ذكرٌ ولا يحبّه إلا ذُكور الرجال، ولا يُبغضه إلاّ مؤنثوهم؛ وصَدَقَ أخو زُهْرة!

وذُكِر عن عليّ بن مجاد بن محمد بن عليّ، أن المنصور قال للمهديّ: يا أبا عبدالله، مَنْ أحبَّ الحمد أحسن السيرة، ومن أبغض الحمد أساءها، وما أبغض أحدٌ الحمد إلا استذمّ، وما استذمّ إلاّ كرِه.

وقال المبارك الطبريّ: سمعت أبا عبيدالله يقول: قال المنصور للمهديّ: يا أبا عبدالله، ليس العاقلُ الذي يحتال للأمر الذي وقع فيه حتى يخرج منه؛ ولكنه الذّي يحتال للأمر الذي غشيَه حتى لا يقع فيه.

وذكر النقيميّ، عن عتبة بن هارون، قال: قال أبو جعفر يوماً للمهديّ: كم راية عندك؟ قال: لا أدري، قال: هذا والله التّضييع؛ أنت لأمر الخلافة أشدُّ تضييعاً؛ ولكن قد جمعتُ لك ما لا يضرّك معه ما ضيَّعتَ؛ فاتق الله فيما خوّلك.

وذكر عليّ بن محمد عن حفص بن عمر بن حماد، عن خالصة، قال: دخلتُ على المنصور؛ فإذا هو يتشكّى وجع ضِرْسه؛ فلما سمع حسّي، قال: ادخلي؛ فلما دخلت إذا هو واضع يده على صُدغيه، فسكت ساعة ثم قال لي: يا خالصة، كم عندك من المال؟ قلت: ألف درهم، قال: ضعي يدك على رأسي واحلفي، قلت: عندي عشرة آلاف دينار؛ قال: احمليها إليّ، فرجعت فدخلت على المهديّ والخيزُران فأخبرتهما؛ فركلني المهديّ برجله، وقال لي: ما ذهب بك إليه! ما به من وجع؛ ولكني سألته أمس مالاً فتمارض، احملي إليه ما قلتِ؛ ففعلتْ، فلما أتاه المهديّ، قال: يا أبا عبدالله؛ تشكو الحاجة وهذا عند خالصة!

وقال عليّ بن محمد: قال واضح مولى أبي جعفر، قال: قال أبو جعفر يوماً: انظر ما عندك من الثِّياب الخُلْقان فاجمعْها، فإذا علمت بمجيء أبي عبدالله فجئني بها قبل أن يدخل؛ وليكن معها رقاع. ففعلت، ودخل عليه المهديّ وهو يقدّر الرّقاع، فضحك وقال: يا أميرَ المؤمنين، من هاهنا يقول الناس: نظروا في الدينار والدرهم وما دون ذلك ـ ولم يقل: دانق ـ فقال المنصور: إنه لا جديدَ لمن لا يَصلح خلقه، هذا الشتاء قد حضر، ونحتاج إلى كسوة للعيال والولد. قال: فقال المهديّ: فعليّ كُسوة أمير المؤمنين وعياله وولده، فقال له: دونك فافعل.

وذكر عليّ بن مرثد أبو دعامة الشاعر، أن أشجع بن عمرو السلميّ حدّثه عن المؤمَّل بن أُمَيل ـ وذكره أيضاً عبدالله بن الحسن الخوارزمي أن أبا قدامة حدثه أنّ المؤمل بن أميل حدّثه ـ قال: قدمت على المهديّ ـ قال

ابن مرثد في خبره: وهو ولي عهد، وقال الخوارزمي: قدمت عليه الرّي وهو ولي عهد - فأمر لي بعشرين ألف درهم لأبيات امتدحته بها؛ فكتب بذلك صاحب البريد إلى المنصور وهو بمدينة السلام يخبره أن المهديّ أمر لشاعر بعشرين ألف درهم، فكتب إليه المنصور يعذِله ويلومه، ويقول له: إنما كان ينبغي لك أن تعطِيَ الشاعر بعد أن يقيم ببابك سنة أربعة آلاف درهم. قال أبو قدامة: فكتب إليّ كاتب المهديّ أن يوجّه إليه بالشاعر، فطُلب. فلم يُقْدَر عليه، فكتب إليه أنه قد توجّـه إلى مدينة السلام، فوجّه المنصور قائداً من قوّاده، فأجلسه على جسر النهروان، وأمره أن يتصفح الناس رجلاً رجلاً ممّن يمرّ به؛ حتى يظفر بالمؤمّل؛ فلما رآه قال له: من أنت؟ قال: أنا المؤمَّل بن أميَل، من زُوّار الأمير المهديّ، قال: إياك طلبت. قال المؤمل: فكاد قلبي ينصدع خوفاً من أبي جعفر، فقبض عليّ ثم أتى بي بابَ المقصورة، وأسلمني إلى الرّبيع، فدخل إليه الربيع، فقال: هذا الشاعرقد ظفرنا به، فقال: أدخلوه عليّ، فأدخِلت عليه، فسلمت فردّ عليّ السلام، فقلت: ليس ها هنا إلا خير، قال: أنت المؤمَّل بن أميَل؟ قلت: نعم أصلح الله أمير المؤمنين! قال: هيه! أتيتَ غلاماً غِرًّا فخدعْتَه! قال: فقلت: نعم أصلح الله أمير المؤمنين؛ أتيت غلاماً غِرًّا كريماً فخدعتُه فانخدع، قال: فكأنّ ذلك أعجبه، فقال: أنشدني ما قلتَ فيه، فأنشدته:

هــو المــهــديّ إلاّ أن فــيــه ... مَشــابِــهَ صــورة القمَــر المُنِــيرِ
تــشــابَــهَ ذا وذا فَــهُــما إذا مَــا ... أنــارا مُشْكِــلان عــلى البَصِــيرِ
فهــذا في الـظلام سِــراجُ ليلٍ ... وهــذا في الـنهــار ســراجُ نــورِ
ولـكنْ فـضَّــل الــرحمنُ هــذا ... عــلى ذا بــالمنــابِــرِ والسَّــريــرِ
وبــالملك العــزيــز فــذا أَمــيرٌ ... ومــاذا بــالأمــير ولا الــوزيــرِ
ونَقْصُ الشَّهْـر يُخمِدُذا، وهــذا ... منــيرٌ عنــد نقصــانِ الـشهــورِ
فيــابن خـليفــةِ الله المُـصفَّى ... بــه تعلو مُـفــاخَــرةُ الفَـخــورِ
لئـن فُتَّ المُـلوكَ وقــد تَــوافَــوْا ... إليـك من السهُـولَــةِ والـوُعُــورِ
لـقــد سَبَقَ الملوكَ أَبــوكَ حتى ... بَقُــوا من بـين كــابٍ أو حَسِيرِ
وجئتَ وراءَه تجــري حـثـيـثــاً ... ومــا بــك حــينَ تجــري من فُتورِ
فقــال النــاسُ: مــا هــذانِ إلا ... بمــنــزلَــةِ الخَليقِ من الجَــدِيــرِ
لئن سبق الكبــيرُ فــأهــلُ سَبْقٍ ... لــه فَضْــلُ الكبيرِ عــلى الصَّغِــيرِ
وإن بلغ الصغــيرُ مَــدَى كبــيرٍ ... لقــد خُلِق الصغــيرُ من الكبــيرِ

فقال: والله لقد أحسنتَ؛ ولكن هذا لا يساوي عشرين ألف درهم. وقال لي: أين المال؟ قلت: ها هو ذا، قال: يا ربيع انزل معه فأعطه أربعة آلاف درهم؛ وخذ منه الباقي. قال: فخرج الرّبيع فحطّ ثقَلي، ووزن لي أربعة آلاف درهم وأخذ الباقي. قال: فلمّا صارت الخلافة إلى المهديّ، ولّى ابن ثوبان المظالم، فكان يجلس للناس بالرُّصافة فإذا ملأ كساءه رقاعاً رفعها إلى المهديّ، فرفعتُ إليه يوماً رقعة أذكره قصتي، فلما دخل بها ابن ثوبان، جعل المهديّ ينظر في الرقاع؛ حتى إذا نظر في رقعتي ضحك، فقال له ابن ثوبان: أصلح الله أمير المؤمنين! ما رأيتك ضحكت من شيء من هذه الرّقاع إلا من هذه الرقعة! قال: هذه رقعة أعرف سببَها، ردُّوا إليه العشرين الألف الدرهم، فردت إليّ وانصرفتُ.

وذكر واضح مولى المنصور، قال: إني لواقفٌ على رأس أبي جعفر يوماً إذْ دخل عليه المهديّ، وعليه قَبَاء أسود جديد، فسلّم وجلس، ثم قام منصرفاً وأتبعه أبو جعفر بصرَه لحبِّه له وإعجابه به؛ فلما توسّط الرّواق عثر بسيفه فتخرّق سواده، فقام ومضى لوجهه غير مكترث لذلك ولا حافل به، فقال أبو جعفر: ردُّوا أبا عبدالله؛ فرددناه إليه، فقال: يا أبا عبدالله، استقلالا للمواهب، أم بطراً للنعمة، أم قلةَ علم بموضع المصيبة! كأنك جاهلك بمالَك وعليك! وهذا الذي أنت فيه عطاء من الله، إن شكرتَه عليه زادك، فإن عرفت موضع البلاء منه فيه عافاك. فقال المهديّ: لا أعدمنا الله بقاءك يا أمير المؤمنين وإرشادك؛ والحمد لله على نعمه، وأسأل الله الشكر على مواهبه، والخلَف الجميل برحمته. ثم انصرف.

قال العباس بن الوليد بن مزيد: قال: سمعت ناعم بن مزيد، يذكر عن الوضين بن عطاء، قال: استزارني أبو جعفر ـ وكانت بيني وبينه خلالة قبل الخلافة ـ فصرت إلى مدينة السلام، فخلوْنا يوماً، فقال لي: يا أبا عبدالله، مالُكَ؟ قلت: الخبر الذي يعرفه أمير المؤمنين، قال: وما عيالُك؟ قلت: ثلاث بنات والمرأة وخادم لهنّ، قال: فقال لي: أربع في بيتك؟ قلت: نعم، قال: فوالله لردّد عليّ حتى ظننت أنه سيموّلني، قال: ثم رفع رأسه إليّ، فقال: أنت أيسر العرب، أربعة مغازل يدرْن في بيتك.

وذكر بشر المنجِّم، قال: دعاني أبو جعفر يوماً عند العرب، فبعثني في بعض الأمر، فلما رجعت رفع ناحية مصلّاه، فإذا دينار، فقال لي: خذ هذا واحتفظ به، قال: فهو عندي إلى الساعة.

وذكر أبو الجهم بن عطيّة، قال: حدّثني أبو مقاتل الخراسانيّ، ورفع غلام له إلى أبي جعفر أن له عشرة آلاف درهم؛ فأخذها منه، وقال: هذا مالي، قال: ومن أين يكون مالك! فوالله ما وليتُ لك عملاً قطّ، ولا بيني وبينك رحِم ولا قرابة، قال: بلَى، كنتَ تزوّجتَ مولاة لعُيينة بن موسى بن كعب فورّثتْك مالا؛ وكان ذلك قد عصي وأخذ مالي وهو والٍ على السند؛ فهذا المال من ذلك المال!

وذكر مصعب بن سلاّم، عن أبي حارثة النهديّ صاحب بيت المال، قال: ولّى أبو جعفر رجلاً باروسما؛ فلما انصرف أراد أن يتعلّل عليه، لئلا يعطيَه شيئاً، فقال له: أشركتُك في أمانتي، ووليتك فيئاً من فيء المسلمين فخنتَه! فقال: أعيذك بالله يا أميرَ المؤمنين، ما صحبني من ذلك شيء إلّا درهم، منه مثقال صررته في كميّ، إذا خرجت من عندك اكتريت به بغلاً إلى عيالي، فأدخل بيتي ليس معي شيء من مال الله ولا مالك. فقال: ما أظنك إلا صادقاً؛ هلمَّ درهمنا. فأخذه منه فوضعه تحت لِبده؟ فقال: ما مثَلي ومثلُك إلا مثل مجير أم عامر، قال: وما مجير أم عامر؛ فذكر قصة الضبع ومجيرها، قال: وإنما غالظه أبو جعفر لئلا يعطيه شيئاً.

وذُكر عن هشام بن محمد أن قُثَم بن العباس دخل على أبي جعفر، فكلّمه في حاجة، فقال له أبو جعفر: دعني من حاجتك هذه، أخبرني لِمَ سميت قُثَم؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين ما أدري، قال: القُثَم الذي يأكل ويُزِلّ، أما سمعت قول الشاعر:

وللكُبَراءِ أكْلٌ كيف شاؤوا ... وللصُّغَراءِ أكْلٌ واقتِثامُ

وذكر عن إبراهيم بن عيسى أنّ المنصور وهب لمحمد بن سليمان عشرين ألف درهم ولجعفر أخيه عشرة آلاف درهم، فقال جعفر: يا أميرَ المؤمنين، تفضّله عليّ وأنا أسنّ منه! قال: وأنت مثله! إنا لا نلتفت إلى ناحية إلّا وجدنا من أثر محمّد فيها شيئاً، وفي منزلنا من هداياه بقيّة؛ وأنت لم تفعل من هذا شيئاً.

وذكِر عن سوادة بن عمرو السُّلمِيّ، عن عبدالملك بن عطاء ـ وكان في صحابة المنصور ـ قال: سمعتُ ابنَ هُبيرة وهو يقول في مجلسه: ما رأيتُ رجلاً قطّ في حرب، ولا سمعت به في سِلْم، أمكرَ ولا أبدعَ، ولا أشدّ تيقُّظاً من المنصور، لقد حصرني في مدينتي تسعة أشهر، ومعي فرسان العرب، فجهدنا كلّ الجهد أن ننال من عسكره شيئاً نكسره به؛ فما تهيّأ، ولقد حصرني وما في رأسي بيضاء؛ فخرجت إليه وما في رأسي سوداء؛ وإنه لكما قال الأعشى:

يَقومُ على الرَّغْمِ مِنْ قومِه ... فيَعْفو إذا شاءَ أو يَنتَقِمْ
أخو الحرب لا ضَرَعٌ واهنٌ ... ولم يَنْتَعِلْ بنعالٍ خَذِمْ

وذكر إبراهيم بن عبد الرحمن أن أبا جعفر كان نازلاً على رجل يقال له أزهر السمّان ـ وليس بالمحدِّث ـ وذلك قبل خلافته؛ فلما وليَ الخلافة صار إليه إلى مدينة السلام، فأدخِل عليه، فقال: حاجتك؟ قال: يا أميرَ المؤمنين، عليّ دين أربعة آلاف درهم، وداري مستهدَمة، وابني محمد يريد البناء بأهلِه؛ فأمر له باثني عشر ألف درهم، ثم قال: يا أزهر؛ لا تأتنا طالبَ حاجة؛ قال: أفعل. فلما كان بعد قليل عاد، يا أزهر، ما جاء بك؟ قال: جئت مسلّماً يا أمير المؤمنين؛ قال: إنه ليقع في نفسي أشياء؛ منها أنك أتيتنا لِمَا أتيتَنا له في المرّة الأولى؛ فأمر له باثني عشر ألف درهم أخرى، ثم قال: يا أزهر، لا تأتنا طالبَ حاجة ولا مسلّما، قال: نعم يا أمير المؤمنين؛ ثم لم يلبث أن عاد، فقال: يا أزهر، ما جاء بك؟ قال: دعاء سمعته منك أحببت أن آخذه عنك، قال: لا ترده، فإنه غير مستجاب؛ لأني قد دعوت الله به أن يريحني من خلفتك فلم يفعل، وصرفه ولم يعطه شيئاً.

وذكر الهيثم بن عديّ أن ابن عيَّاش حدّثه أنّ ابن هبيرة أرسل إلى المنصور وهو محصور بواسط، والمنصور بازائه: إني خارج يوم كذا وكذا وداعيك إلى المبارزة، فقد بلغني تجبينُك إياي؛ فكتب إليه؛ يابن هبيرة، إنك امرؤ متعدٍّ طورَك، جارٍ في عنان غيِّك، يعدكَ الله ما هو مصدّقه، ويمنّيك الشيطان ما هو مكذّبه، ويقرّب ما الله مباعده؛ فرويداً يتمّ الكتاب أجله؛ وقد ضربتُ مثلي ومثلَك؛ بلغني أن أسداً لقي خنزيراً، فقال له الخنزير: قاتِلني، فقال الأسد: إنما أنت خنزير ولستَ لي بكفء ولا نظير، ومتى فعلتَ الذي دعوتني إليه فقتلتك، قيل لي: قتلتَ خنزيراً؛ فلم أعتقد بذلك فخرا ولا ذِكْراً، وإن نالني منك شيء كان سُبّة عليّ، فقال: إن أنت لم تفعل رجعت إلى السباع فأعلمتُها أنك نكلتَ عني وجبنت عن قتالي، فقال الأسد: احتمال عار كذبك أيسر عليّ من لطخ شاربي بدمك.

وذُكِر عن محمد بن رياح الجوهريّ، قال: ذكر لأبي جعفر تدبير هشام بن عبدالملك في حَرْب كانت له، فبعث إلى رجل كان معه ينزل الرُّصافة ـ رُصافة هشام ـ يسأله عن ذلك الحرب، فقدم عليه فقال: أنت صاحب هشام؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فأخبرني كيف فعل في حرب دبرها في سنة كذا وكذا؟ قال: إنه فعل فيها رحمه الله كذا وكذا، ثم اتبع بأن قال: فعل كذا رضي الله عنه؛ فأحفظ ذلك المنصور، فقال: قم عليك غضب الله! تطأ بساطِي وتترحم على عدوّي! فقام الشيخ، وهو يقول: إن لعدوّك قلادة في عنقي ومنة في رقبتي لا ينزعها عني إلا غاسلي؛ فأمر المنصور بردّه، وقال: اقعد، هيه! كيف قلتَ؟ فقلت: إنه كَفاني الطلب، وصان وجهي عن السؤال، فلم أقف لاعلى بَاب عربيّ ولا أعجمي منذ رأيتُه، أفلا يجب عليّ أن أذكره بخير وأتبعه بثنائي! فقال: بلى، لله أمٌّ نهضت عنك، وليلة أدّتك، أشهد أنك نهيض حُرّة وغراس كريم؛ ثم استمع منه

وأمر له ببرّ، فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما آخذه لحاجة، وما هو إلّا أني أتشرّف بحِبائك، وأتبجّح بصِلتك. فأخذ الصّلة وخرج، فقال المنصور: عند مثل هذا تحسن الصنيعة، ويُوضع المعروف، ويجاد بالمصون، وأين في عسكرنا مثله!

وذكر عن حفص بن غياث، عن ابن عيّاش، قال: كان أهل الكوفة لا تزال الجماعة منهم قد طعنوا على عاملهم، وتظلّموا على أميرهم، وتكلّموا كلاماً فيه طعن على سلطانهم؛ فرُفع ذلك في الخبر، فقال للربيع: اخرج إلى مَنْ بالباب من أهل الكوفة، فقل لهم: إن أميرَ المؤمنين يقول لكم لئن اجتمع اثنان منكم في موضع لأحلقنّ رؤوسهما ولحاهما، ولأضربنّ ظهورهما، فالزموا منازلكم؛ وابقوا على أنفسكم. فخرج إليهم الربيع بهذه الرسالة فقال له ابن عياش: يا شبه عيسى بن مريم، أبلغ أمير المؤمنين عنا كما أبلغتنا عنه، فقل له: والله يا أميرَ المؤمنين ما لنا بالضَّرْب طاقة، فأمّا حلْق اللِّحى فإذا شئت ـ وكان ابن يعشا منتوفاً ـ فأبلغه؛ فضحك، وقال: قاتله الله ما أدهاه وأخبثه!

وقال موسى بن صالح: حدّثني محمد بن عقبة الصيداويّ عن نصر بن حرب ـ وكان في حرس أبي جعفر ـ قال: رُفع إليّ رجلٌ قد جيء به من بعض الآفاق، قد سعى في فساد الدولة، فأدخلته على أبي جعفر، فلما رآه قال: أصْبَغ! قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: ويلك! أما أعتقتُك وأحسنتُ إليك! قال: بلى، قال: فسعيتَ في نقضِ دولتي وإفساد ملكي! قال: أخطأتُ وأمير المؤمنين أولى بالعفو. قال: فدعا أبو جعفر عُمارة ـ وكان حاضراً ـ فقال: يا عُمارة؛ هذا أصبَغ، فجعل يتثبّت في وجهي، وكأنّ في عينيه سوءاً، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: عليّ بكيس عطائي، فأُتِيَ بكيس فيه خمسمائة درهم، فقال: خذها فإنها وَضَحٌ، ويلك، وعليك بعملك ـ وأشار بيده يحرّكها ـ قال عُمارة: فقلت لأصبغ: ما كان عَنَى أمير المؤمنين؟ قال: كنتُ وأنا غلام أعمل الحِبال، فكان يأكل من كسبي. قال نصر: ثم أُتِيَ به ثانية، فأدخلته كما أدخلتُه قبلُ، فلما وقف بين يديه أحدَّ النظر إليه، ثم قال: أصبغ! فقال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فقصّ عليه ما فعل به، وذكره إياه، فأقرّ به، وقال: الحمق يا أمير المؤمنين؛ فقدمه فضرب عنقه.

وذكر عليّ بن محمد بن سليمان النوفليّ، قال: حدّثني أبي، قال: كان خِضابُ المنصور زَعفرانيًّا، وذلك أن شعره كان ليِّناً لا يقبل الخضاب، وكانت لحيته رقيقة؛ فكنت أراه على المنبر يخطُب ويبكي فيسرِع الدمع على لحيته حتى تَكِفَ لقلة الشعر ولِينه.

وذكر إبراهيم بن عبد السلام، ابن أخي السنديّ بن شاهك السنديّ، قال: ظِفر المنصور برجل من كبراء بني أمية، فقال: إني أسألك عن أشياء فاصدُقني ولك الأمان، قال: نعم، فقال له المنصور: منْ أينَ أُتِيَ بنو أميّة حتى انتشر أمرهم؟ قال: من تضييع الأخبار، فأيّ الأموال وجدوها أنفع؟ قال: الجوهر، قال فعِند مَنْ وجدوا الوفاء؟ قال: عند مواليهم، قال: فأراد المنصور أن يستعين في الأخبار بأهل بيته، ثم قال: أضعُ من أقدارهم، فاستعان بمواليه.

وذكر عليّ بن محمد الهاشميّ أنّ أباه محمد بن سليمان حدّثه، قال: بلغني أن المنصور أخذ الدّواء في يوم شاتٍ شديد البرد، فأتيته أسأله عن موافقة الدواء له، فأدخِلت مدخلاً من القَصْر لم أدخله قطّ، ثم صرتُ إلى حُجيرة صغيرة، وفيها بيتٌ واحد ورِواق بين يديه في عَرْض البيت وعَرْض الصحن، على أسطوانة ساجٍ، وقد

سدل على وجه الرّواق بواريّ كما يصنع بالمساجد، فدخلت فإذا في البيت مِسْح ليس فيه شيء غيره إلا فراشه ومرافقه ودِثاره، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، هذا بيت أربأ بك عنه، فقال: يا عمّ، هذا بيت مبيتي، قلت: ليس هنا غير هذا الذي أرى، قال: ما هو إلا ما ترَى.

قال: وسمعته يقول عمّن حدّثه، عن جعفر بن محمد، قال: قيل إنّ أبا جعفر يُعرَف بلباس جُبّة هَرَوِيَّة مرقوعة؛ وأنه يرقّع قميصه، فقال جعفر: الحمد لله الذي لَطف له حتى ابتلاه بفقر نفسه ـ أو قال: بالفقر في مُلْكه.

قال: وحدثني أبي، قال: كان المنصور لا يولّي أحداً ثم يعزله إلا ألقاه في دار خالد البطين ـ وكان منزل خالد على شاطىء دِجلة، ملاصقاً لدار صالح المسكين ـ فيستخرج من المعزول مالاً، فما أخذ من شيء أمر به فعُزل، وكُتِبَ عليه اسم مَنْ أخِذ منه، وعزل في بيت مال، وسمّاه بيتَ مال المظالم، فكثر ما في ذلك البيت من المال والمتاع. ثم قال للمهديّ: إني قد هيّأت لك شيئاً تُرضي به الخلق ولا تغرم من مالك شيئاً، فإذا أنا متّ فادع هؤلاء الذين أخذتُ منهم هذه الأموال التي سميتُها المظالم، فاردد عليهم كلّ ما أخِذ منهم؛ فإنك تستحمد إليهم وإلى العامة؛ ففعل ذلك المهديّ لما ولِيَ.

قال عليّ بن محمد: فكان المنصور ولّى محمد بن عبيدالله بن محمد بن سليمان بن محمد بن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث البلقاء، ثم عزله، وأمر أن يُحمَل إليه مع مالٍ وُجِد عنده، فحُمل إليه على البريد، والفيَ معه ألفا دينار، فحملت مع ثقله على البريد ـ وكان مصلى سُوسَنْجِرْد ومضربة ومرفقة ووسادتين وطستاً وإبريقاً وأشناندانة نحاس ـ فوجد ذلك مجموعاً كهيئته؛ إلا أن المتاع قد تأكّل، فأخذ ألفي الدينار، واستحيا أن يخرج ذلك المتاع، وقال: لا أعرفه، فتركه، ثم ولّاه المهديّ بعد ذلك اليمن، وولّي الرشيد ابنه الملقب ربرا المدينة.

وذكر أحمد بن الهيثم بن جعفر بن سليمان بن عليّ، قال: حدثني صباح بن خاقان، قال: كنت عند المنصور حين أتِيَ برأس إبراهيم بن عبدالله بن حسن، فوُضع بين يديه في تُرس، فأكبّ عليه بعض السيّافة، فبصق في وجهه، فنظر إليه أبو جعفر نظراً شديداً، وقال لي: دقّ أنفه، قال: فضربت أنفه بالعمود ضربة له طُلب له أنف بألف دينار ما وجد، وأخذته أعمدة الحرس، فما زال يُهشَم بها حتى خمِد، ثم جُرّ برجله.

قال الأصمعيّ: حدثني جعفر بن سليمان، قال: قدِم أشعب أيام أبي جعفر بغداد، فأطاف بـه فتيان بني هاشم فغنّاهم، فإذا ألحانه طربةٌ وحلقه على حاله، فقال له جعفر: لمن هذا الشعر؟.

لِمَنْ طَلَلٌ بِذَاتِ الجَيْـ ـشِ أمسى دارِساً خَلَقَا
عَلَوْنَ بظاهِرِ البَيْدا ءِ فالمَحْزُون قد قَلِقَا

فقال: أخذت الغناءَ من معبد؛ ولقد كنت آخذ عنه اللحن، فإذا سئل عنه قال: عليكم بأشعب؛ فإنه أحسن تأديةً له منّي.

قال الأصمعيّ: وقال جعفر بن سليمان: قال أشعب لابنه عبيدة: إني أراني سأخرجك من منزلي وأنتفي منك، قال: ولِمَ يا أبه؟ قال: لأني أكسب خلق الله لرغيفٍ، وأنت ابني قد بلغتَ هذا المبلغ من السنّ، وأنت في

عيالي ما تكسب شيئاً، قال: بلى والله، إني لاكسب؛ ولكن مثل الموزة لا تحمل حتى تموت أمها.

وذكر عليّ بن محمد بن سليمان الهاشميّ؛ أن أباه محمداً حدّثه أن الأكاسرة كان يُطيَّن لها في الصيف سقفُ بيت في كلّ يوم، فتكون قائلة الملك فيه، وكان يؤتى بأطنان القصب والخِلاف طُوالاً غلاظاً، فترصَف حول البيت ويؤتى بقطع الثلج العِظام فتجعل ما بين أضعافها؛ وكانت بنو أميّة تفعل ذلك؛ وكان أوّل من اتخذ الخَيْش المنصور.

وذكر بعضهم: أن المنصور كان يطيَّن له في أول خلافته بيتٌ في الصيف يَقيل فيه؛ فاتخذ له أبو أيوب الخوزيّ ثياباً كثيفة تبلّ وتوضع على سِبايك، فيجد بردها، فاستظرفها، وقال: ما أحسبُ هـذه الثياب إن اتخذت أكثف من هذه إلا حملت من الماء أكثر مما تحمل؛ وكانت أبرد، فاتُخِذ له الخيش، فكان ينصب على قبّة، ثم اتخذ الخلفاء بعده الشرائج، واتّخذها الناس.

وقال عليّ بن محمد عن أبيه: إنّ رجلاً من الرّاونديّة كان يقال له الأبلق، وكان أبرصَ، فتكلم بالغلّو. ودعا بالرّاونديّة إليه، فزعم أن الرّوح التي كانت في عيسى بن مريم صارت في عليّ بن أبي طالب، ثم في الأئمة، في واحد بعد واحد إلى إبراهيم بن محمد، وأنهم آلهة، واستحلّوا الحرُمات؛ فكان الرجل منهم يدعو الجماعة منهم إلى منزله فيُطعمهم ويسقيهم ويحملهم على امرأته؛ فبلغ ذلك أسد بن عبدالله، فقتلَهم وصلَبهم، فلم يزل ذلك فيهم إلى اليوم، فعبدوا أبا جعفر المنصور وصعدوا إلى الخضراء، فألقَوْا أنفسهم، كأنهم يطيرون، وخرج جماعتهم على الناس بالسِّلاح، فأقبلوا يصيحون بأبي جعفر: أنت أنت! قال: فخرج إليهم بنفسه، فقاتلهم فأقبلوا يقولون وهم يقاتلون: أنت أنت. قال: فحُكِي لنا عن بعض مشيختنا أنـه نظر إلى جمـاعة الراونديّة يرمون أنفسهم من الخضراء كأنهم يَطيرون، فلا يبلغ أحـدهـم الأرض إلا وقد تفتّت، وخـرجت روحه.

قال أحمد بن ثابت مولى محمد بن سليمان بن عليّ عن أبيه: إن عبدالله بن عليّ، لما توارى من المنصور بالبصرة عند سليمان بن عليّ أشرف يوماً ومعه بعض مواليه ومولى لسليمان بن عليّ، فنظر إلى رجل له جَمال وكمال، يمشي التّخاجَى، ويجرّ أثوابه من الخُيلاء، فالتفت إلى مولى لسليمان بن عليّ، فقال: من هذا؟ قال له: فلان ابن فلان الأمويّ، فاستشاط غضباً وصفق بيديه عجباً، وقال: إن طريقنا لَنَبك بعد، يا فلان ـ لمولى له ـ انزل فأتني برأسه، وتمثّل قول سَدِيف:

عـلامَ، فيمَ نَتـرُكُ عـبـدَ شمسٍ ... لـهـا فـي كـلِّ راعـيـةٍ ثُـغـاءُ!
فـمـا بـالـرَّمْسِ في حَـرّانَ مـنهـا ... ولـو قُـتِـلَتْ بـأَجْـمَـعِـهـا وفـاءُ

وذكر عليّ بن محمد المدائنيّ أنه قدم على أبي جعفر المنصور ـ بعد انهزام عبد الله بن عليّ وظفر به، وحبسه إياه ببغداد ـ وفد من أهل الشأم فيهم الحارث بن عبد الرحمن، فقام عِدّة منهم فتكلّموا، ثم قام الحارث بن عبد الرحمن، فقال. أصلح الله أمير المؤمنين! إنا لسنا وفدَ مباهاة، ولكنا وفد توبة؛ وإنا ابتلينا بفتنة استفزّت كريمَنا، واستخفّتْ حليمَنا، فنحن بما قدّمنا معترفون، ومّما سلف منّا معتذرون، فإن تعاقبْنا فبما أجرمنا، وإن تعفُ عنا فبفضلك علينا؛ فاصفح عنا إذْ ملكت، وامنن إذ قَدرت، وأحسِنْ إذ ظفرت، فطالما أحسنت! قال أبو جعفر: قد فعلت.

وذكر عن الهيثم بن عديّ عن زيد مولى عيسى بن نهيك، قال: دعاني المنصور بعد موت مولاي، فقال: يا زيد، قلت: لبّيك يا أمير المؤمنين؛ قال: كم خلّف أبو زيد من المال؟ قلت: ألف دينار أو نحوها، قال: فأين هي؟ قلت: أنفقْتها الحرّة في مأتمه. قال: فاستعظم ذلك، وقال: أنفقت الحرّة في مأتمه ألف دينار! ما أعجب هذا! ثم قال: كم خلّف من البنات؟ قلت: ستًّا، فأطرق مليًّا ثم رفع رأسه، وقال: اغدُ إلى باب المهديّ، فغدوت فقيل لي: أمعك بغال؟ فقلت: لم أومر بذلك ولا بغيره؛ ولا أدري لِمَ دعيت! قال: فأعطِيتُ ثمانين ومائة ألف دينار، وأمِرتُ أن أدفع إلى كلّ واحدة من بنات عيسى ثلاثين ألف دينار. ثم دعاني المنصور، فقال: أقبضت ما أمرنا به لبنات أبي زيد؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: اغد عليّ بأكفائهنّ حتى أزوّجهنّ منهم؛ قال: فغدوتُ عليه بثلاثة من ولد العكيّ وثلاثة من آل نهيك من بني عَمهنّ، فزوّج كلّ واحدة منهنّ على ثلاثين ألف درهم، وأمر أن تحمَل إليهنّ صدقاتهنّ من ماله، وأمرني أن أشتري بما أمر به لهنّ ضياعاً، يكون معاشهنّ منها، ففعلت ذلك.

وقال الهيثم: فرّق أبو جعفر على جماعة من أهل بيته في يوم واحد عشرة آلاف درهم، وأمر للرّجل من أعمامه بألف، ولا نعرف خليفة قبله ولا بعده وصلَ بها أحداً من الناس.

وقال العباس بن الفضل: أمر المنصور لعمومته: سليمان، وعيسى، وصالح، وإسماعيل؛ بني عليّ بن عبد الله بن عباس، لكلّ رجل منهم بألف ألف معونةً له من بيت المال. وكان أول خليفة أعطى ألف ألف من بيت المال؛ فكانت تجري في الدواوين.

وذكر عن إسحاق بن إبراهيم الموصليّ، قال: حدّثني الفضل بن الربيع، عن أبيه، قال: جلس أبو جعفر المنصور للمدنيّين مجلساً عامًّا ببغداد - وكان وفد إليه منهم جماعة - فقال: لينتسب كلّ من دخل عليّ منكم، فدخل عليه فيمن دخل شابٌ من ولد عمرو بن حزم، فانتسب ثم قال: يا أميرَ المؤمنين، قال الأحوص فينا شعراً، منعنا أموالنا من أجله منذ ستين سنة، فقال أبو جعفر: فأنشدني، فأنشده:

لا تَأْوِيَنَّ لِحَزمِيٍّ رأيتَ به ... فقراً وإن أُلقِيَ الحَزْمِيُّ في النار
النّاخِسِين بِمَرْوانٍ بذي خُشُبٍ ... والداخلين على عثمانَ في الدار

قال: والشّعر في المدح للوليد بن عبد الملك؛ فأنشده القصيدة، فلما بلغ هذا الموضع قال الوليد: أذكرتني ذنب آل حَزْم، فأمر باستصفاء أموالهم. فقال أبو جعفر: أعدْ عليّ الشعر، فأعاده ثلاثاً، فقال له أبو جعفر: لا جرم، إنك تحتظِيَ بهذا الشعر كما حرمت به، ثم قال لأبي أيّوب: هات عشرة آلاف درهم فادفعها إليه لغنائه إلينا، ثم أمر أن يكتب إلى عماله أن تردّ ضياع آل حزم عليهم، ويُعْطوْا غلاّتها في كل سنة من ضياع بني أمية، وتقسّم أموالهم بينهم على كتاب الله على التناسخ، ومن مات منهم وفِّر على ورثته. قال: فانصرف الفتى بما لم ينصرف به أحد من الناس.

وحدّثني جعفر بن أحمد بن يحيى، قال: حدّثني أحمد بن أسد، قال: أبطأ المنصور عن الخروج إلى الناس والركوب، فقال الناس: هو عليل، وكثروا، فدخل عليه الربيع، فقال: يا أميرَ المؤمنين، لأمير المؤمنين طولُ البقاء، والناس يقولون، قال: ما يقولون؟ قال: يقولون: عليل؛ فأطرق قليلا ثم قال: يا ربيع، ما لنا وللعامّة! إنما تحتاج العامة إلى ثلاث خلال، فإذا فُعل ذلك بها فما حاجتهم! إذا أقيم لهم مَنْ ينظر في أحكامهم فينصف

بعضَهم من بعض، ويُؤمِن سلبَهم حتى لا يخافوا في ليلهم ولا نهارهم، ويسدّ ثغورهم وأطرافهم حتى لا يجيئهم عدوّهم؛ وقد فعلنا ذلك بهم. ثم مكث أياماً، وقال: يا ربيع، اضرب الطبل؛ فركِب حتى رآه العامة.

وذكر عليّ بن محمد، قال: حدّثني أبي، قال: وجّه أبو جعفر مع محمد بن أبي العباس بالزنادقة والمُجّان، فكان فيهم حماد عَجْرد، فأقاموا معه بالبصرة يظهر منهم المُجون؛ وإنما أراد بذلك أن يبغّضه إلى الناس، فأظهر محمد أنه يعشق زينب بنت سليمان بن عليّ، فكان يركب إلى المِربَد، فيتصدّى لها؛ يطمع أن تكون في بعض المناظر تنظر إليه؛ فقال محمد لحمّاد: قل لي فيها شعراً، فقال فيها أبياتاً، يقول فيها:

يـا سـاكنَ المِـرْبَـدِ قـد هِجْتَ لي شَـوْقـاً فـمـا أنفـكُّ بـالـمِـرْبَـدِ

قال: فحدّثني أبي قال: كان المنصور نازلاً على أبي سنتين، فعرفت الخصيب المتطبّب لكثرة إتيانه إياه؛ وكان الخصيب يُظهر النصرانيّة وهو زنديق معطّل لا يبالي مَنْ قتل، فأرسل إليه المنصور رسولاً يأمره أن يتوخّى قتل محمد بن أبي العباس، فاتّخذ سمّاً قاتلاً، ثم انتظر عِلّة تحدث بمحمدا فوجد حرارة، فقال له الخصيب: خذ شربة دواء، فقال: هَيِّئها لي، فهيّأها، وجعل فيها ذلك السمّ ثم سقاه إياها، فمات منها. فكتبت بذلك أمّ محمد بن أبي العباس إلى المنصور تعلمه أنّ الخصيب قتل ابنَها. فكتب المنصور يأمر بحمله إليه؛ فلما صار إليه ضربه ثلاثين سوطاً ضرباً خفيفاً، وحبسه أياماً، ثم وهب له ثلاثمائة درهم، وخلّاه.

قال: وسمعتُ أبي يقول: كان المنصور شَرَط لأمّ موسى الحميرية ألّا يتزوّج عليها ولا يتسرّى، وكتبت عليه بذلك كتاباً أكّدته وأشهدت عليه شهوداً، فعزب بها عشر سنين في سلطانه؛ فكان يكتب إلى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحِجاز يستفتيه، ويحمل إليه الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق فيعرِض عليه الكتاب ليفتيه فيه برُخصة؛ فكانت أمّ موسى إذا علمتْ مكانه بادرتْه، فأرسلت إليه بمال جزيل، فإذا عرض عليه أبو جعفر الكتاب لم يفته فيه برُخصة، حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد؛ فأتته وفاتها بحُلوان، فأهديت له في تلك الليلة مائة بِكْر؛ وكانت أم موسى ولدت له جعفراً والمهديّ.

وذكِر عن عليّ بن الجَعْد أنه قال: لما قدم بختيشوع الأكبر على المنصور من السوس، ودخل عليه في قَصْره بباب الذهب ببغداد، أمر له بطعام يتغذّى به، فلما وضعت المائدة بين يديه، قال: شراب، فقيل له: إن الشّراب لا يُشرب على مائدة أمير المؤمنين، فقال: لا آكل طعاماً ليس معه شراب، فأخبِر المنصور بذلك، فقال: دعوه، فلما حضر العشاء فعل به مثل ذلك، فطلب الشراب، فقيل له: لا يُشرب على مائدة أمير المؤمنين الشراب، فتعشّى وشرب ماء دِجلة، فلما كان من الغد نظر إلى مائه، فقال: ما كنت أحسب شيئاً يُجزي من الشراب، فهذا ماء دِجلة يجزي من الشراب.

وذكر عن يحيى بن الحسن أن أباه حدّثه، قال: كتب المنصور عامله بالمدينة أن بِعْ ثمار الضياع ولا تبعها إلا ممّن نغلبه ولا يغلبنا؛ فإنما يغلبنا المفلس الذي لا مال له، ولا رأي لنا في عذابه، فيذهب بما لنا قِبَله ولو أعطاك جزيلا، وبعْها من الممكن بدون ذلك ممّن ينصفك ويوفيك.

وذكر أبو بكر الهُذليّ أنّ جعفر كان يقول: ليس بإنسان من أسْدِيَ إليه معروف فنسيه دون الموت.

وقال الفضل بن الربيع: سمعت المنصور يقول: كانت العرب تقول: الغَوَى الفادح خير من الـرّي الفاضح.

وذكر عن أبان بن يزيد العنبريّ أن الهيثم القارىء البصريّ قرأ عند المنصور ﴿ولاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾ . . .(١)، إلى آخر الآية، فقال له المنصور، وجعل يدعو: اللهم جنّبني وبنيّ التبذير فيما أنعمت به علينا من عطيّتك.

قال: وقرأ الهيثم عنده: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾(٢) فقال للناس: لولا أنّ الأموال حصن السلطان ودعامة للدين والدنيا وعزّهما وزينتهما مابتّ ليلة وأنا أحرز منه ديناراً ولا درهماً، لما أجد لبذل المال من اللذاذة، ولما أعلم في إعطائه من جزيل المثوبة.

ودخل على المنصور رجل من أهل العلم، فازداده واقتحمه عينُه، فجعل لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده، فقال له: أنّى لك هذا العلم! قال: لم أبخل بعلمٍ علمتُه، ولم أستح من علم أتعلّمه. قال: فمن هناك!

قال: وكان المنصور كثيراً ما يقول: مَنْ فعل بغير تدبير، وقال عن غير تقدير، لم يعدم من الناس هازئاً أو لاحياً.

وذكر عن قحطبة، قال: سمعت المنصور يقول: الملوك تحتمل كلّ شيء من أصحابها إلا ثلاثاً: إفشاء السرّ، والتعرّض للحُرْمة، والقدح في الملك.

وذكر عليّ بن محمد أنّ المنصور كان يقول: سرُّك من دمك، فانظر مَنْ تُمَلِّكه.

وذكر الزبير بن بكّار، عن عمر، قال: لما حُمِل عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزديّ إلى المنصور بعد خروجه عليه، قال له: يا أمير المؤمنين، قِتْلة كريمة! قال: تركتَها وراءك يابن اللَّخناء!

وذكر عن عمر بن شبّة، أنّ قَحطبة بن غُدانة الجشميّ ـ وكان من الصحابة ـ قال: سمعت أبا جعفر المنصور يخطب بمدينة السلام سنة اثنتين وخمسين ومائة. فقال: يا عباد الله، لا تظالموا، فإنها مظلمة يوم القيامة، والله لولا يدٌ خاطئة، وظلم ظالم، لمشيت بين أظهركم في أسواقكم؛ ولو علمت مكان مَنْ هو أحقّ بهذا الأمر مني لأتيتُه حتى أدفعَه إليه.

وذكر إسحاق الموصليّ، عن النضر بن حديد، قال: حدّثني بعض الصحابة أنّ المنصور كان يقول: عقوبة الحليم التعريض، وعقوبة السفيه التصريح.

وذكر أحمد بن خالد، قال: حدثني يحيى بن أبي نصر القرشيّ، أن أباناً القارىء قرأ عند المنصور: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ . . .﴾(٣)، الآية فقال المنصور: ما أحسن ما أدّبنا ربّنا!

قال: وقال المنصور: مَنْ صنع مثل ما صُنع إليه فقد كافأ، ومن أضعف فقد شكر، ومن شكر كان كريماً، ومن علم أنه إنما صنع إلى نفسه لم يستبطىء الناس في شكرهم، ولم يستزدهم من مودّتهم، فلا تلتمس من غيرك شكرَ ما آتيتَه إلى نفسك، ووقّيت به عرضَك. واعلم أن طالب الحاجة إليك لم يكرِم وجهه عن وجهك، فأكرم وجهَك عن ردّه.

---

(١) سورة الإسراء: ٢٦.
(٢) سورة النساء: ٣٧.
(٣) سورة الإسراء: ٢٩.

وذكر عمر بن شبّة أن محمد بن عبد الوهاب المهلبيّ، حدّثه، قال: سمعت إسحاق بن عيسى يقول: لم يكن أحدٌ من بني العباس يتكلّم فيبلغ حاجته على البديهة غير أبي جعفر وداود بن عليّ والعباس بن محمد.

وذكر عن أحمد بن خالد، قال: حدّثني إسماعيل بن إبراهيم الفهريّ، قال: خطب المنصور ببغداد في يوم عَرَفة ـ وقال قوم: بل خطب في أيام منى ـ فقال في خطبته: أيها الناس؛ إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده، وأنا خازنه على فيئه؛ أعمل بمشيئته، وأقسمه بإرادته، وأعطيه بإذنه؛ قد جعلني الله عليه قُفلا، إذا شاء أن يفتحني لأعطياتكم وقَسْم فيئكم وأرزاقكم فتَحني، وإذا شاء أن يُقفلني أقفلني؛ فارغبوا إلى الله أيها الناس، وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم فيه من فضله ما أعلمكم به في كتابه؛ إذ يقول تبارك وتعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام ديناً ﴾[٢] أن يوفقني للصواب ويسدّدني للرشاد، ويلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم، ويفتحني لأعطياتكم وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم، إنه سميع قريب.

وذكر عن داود بن رشيد عن أبيه، أنّ المنصور خطب فقال: الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأومن به وأتوكّل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له... فاعترضه معترض عن يمينه، فقال: أيّها الإنسان، أذكّرك مَنْ ذكرت به... فقطع الخطبة ثم قال: سمعاً سمعاً؛ لمن حفِظ عن الله وذُكر به، وأعوذ بالله أن أكون جبّاراً عنيداً، وأن تأخذَني العزّة بالإثم، لقد ضللتُ إذاً وما أنا من المهتدين. وأنتَ أيها القائل؛ فوالله ما أردتَ بها وجه الله؛ ولكنّك حاولتَ أن يقال: قام فقال فعوقب فصبر، وأهوِنْ بها! ويلك لو هممتُ! فاهتبلها إذ غفرت وإياك وإياكم معشر الناس أختها؛ فإنّ الحكمة علينا نزلتْ، ومن عندنا فصلت؛ فردُّوا الأمر إلى أهله، توردوه موارِدَه، وتُصدروه مصادرَه.... ثم عاد في خطبته، فكأنه يقرؤها من كفه، فقال: وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وذكر عن أبي توبة الرّبيع بن نافع، عن ابن أبي الجوزاء، أنه قال: قمت إلى أبي جعفر وهو يخطب ببغداد في مسجد المدينة على المنبر فقرأت: ﴿ يأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا لِم تَقُولُونَ مَالاَ تَفْعَلُونَ ﴾[١]، فأخِذت فأدخلت عليه، فقال: مَن أنت ويلك! إنما أردتَ أن أقتلك، فاخرج عني فلا أراك. قال: فخرجت من عنده سليماً.

وقال عيسى بن عبد الله بن حميد: حدّثني إبراهيم بن عيسى، قال: خطب أبو جعفر المنصور في هذا المسجد ـ يعني به مسجد المدينة ببغداد ـ فلما بلغ: اتقوا الله حق تقاته، قام إليه رجل، فقال: وأنت يا عبد الله، فاتّق الله حق تقاته.... فقطع أبو جعفر الخطبة، وقال: سمعاً سمعاً، لمن ذكّر بالله؛ هات يا عبد الله، فما تُقى الله؟ فانقطع الرجل فلم يقل شيئاً، فقال أبو جعفر: الله الله أيها الناس في أنفسكم، لا تحملونا من أموركم ما لا طاقة لكم به، لا يقوم رجل هذا المقام إلا أوجعتُ ظهره، وأطلت حبسه. ثم قال: خذه إليك يا ربيع، قال: فوثقنا له بالنجاة ـ وكانت العلامة فيه إذا أراد بالرجل مكروهاً قال: خذه إليك يا مسيّب ـ قال: ثم رجع في خطبته من الموضع الذي كان قطعه، فاستحسن الناس ذلك منه، فلما فرغ من الصلاة دخل القصر؛ وجعل عيسى بن موسى يمشي على هِينته خلْفَه، فأحسّ به أبو جعفر، فقال: أبو موسى؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين،

---

(١) سورة المائدة: ٣.

(٢) سورة الصف: ٢.

قال: كأنك خفتَني على هذا الرجل! قال: والله لقد سبق إلى قلبي بعضُ ذلك؛ إلا أن أمير المؤمنين أكثر علماً، وأعلى نظراً من أن يأتي في أمره إلا الحق، فقال: لا تخفني عليه. فلما جلس قال: عليّ بالرجل، فأُتِيَ به؛ فقال: يا هذا؛ إنك لما رأيتَني على المنبر، قلت؛ هذا الطاغية لا يسعني إلا أن أكلّمه، ولو شغلت نفسك بغير هذا لكان أمثَل لك؛ فاشغلها بظماء الهواجر، وقيام الليل، وتغبير قدميك في سبيل الله؛ أنطه يا ربيع أربعمائة درهم، واذهب فلا تعد.

وذكر عن عبد الله بن صاعد، مولى أمير المؤمنين أنه قال: حجّ المنصور بعد بناء بغداد، فقام خطيباً بمكة، فكان مما حفظ من كلامه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبَادِيَ الصَّالِحُون﴾[1]، أمرٌ مُبْرَم، وقول عدْل، وقضاء فَصْل؛ والحمد لله الذي أفلج حجته، وبعداً للقوم الظالمين؛ الذين اتخذوا الكعبة غَرضاً، والفيء إرثاً، وجعلوا القرآن عضِين؛ لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون، فكم ترى من بئر معطَّلة وقَصْرٍ مشيد؛ أهملهم الله حتى بدّلوا السنة، واضطهدوا العِترة، وعندوا واعتدوْا واستكبروا وخاب كلّ جبار عنيد؛ ثم أخذهم؛ فهل تحسّ منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزاً!

وذكر الهيثم بن عديّ، عن ابن عياش، قال: إن الأحداث لما تتابعت على أبي جعفر، تمثّل:

تفـرَّقت الـظِّبـاءُ عـلى خِـدَاشٍ فمـا يَـدْري خـداشٌ مـا يَصِيـدُ

قال: ثم أمر بإحضار القوّاد والموالي والصحابة وأهل بيته، وأمر حمّادا التركيّ بإسراج الخيل وسليمان بن مجالد بالتقدّم والمسيّب بن زهير بأخذ الأبواب، ثم خرج في يوم من أيامه حتى علا المنبر. قال: فأَزِمَ عليه طويلا لا ينطق. قال رجل لشبيب بن شيبة: ما لأمير المؤمنين لا يتكلم! فإنه والله ممّن يهون عليه صِعاب القول، فما باله! قال: فافترع الخطبة، ثم قال:

مـا لي أُكَفْكِفُ عن سَعْـدٍ ويشْتمني ولـو شتمتُ بني سَعْـدٍ لقـد سكنـوا
جهـلا عـليَّ وجُبْنـاً عن عَـدُوِّهمُ لبئسـت الخَلَّتـان الجَـهْـلُ والجُبُـنُ

ثم جلس وقال:

فـألقيتُ عن رَأسِي القنـاعَ ولم أكـنْ لأَكـشِـفَـهُ إلا لإِحْـدَى الـعـظائـم

والله لقد عجزوا عن أمرٍ قمنا به، فما شكروا الكافي؛ ولقد مهّدوا فاستوعروا وغمطوا الحقّ وغمصوا، فماذا حاولوا! أشرب رنْقاً على غُصصٍ، أم أقيم على ضيم ومضَض! والله لا أكرم أحداً بإهانة نفسي؛ والله لئن لم يقبلوا الحق ليطلبُنّه ثم لا يجدونه عندي؛ والسعيد مَنْ وُعظ بغيره. قدّم يا غلام، ثم ركب.

وذكر الفقيميّ أنّ عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن مولى محمد بن عليّ حدّثه، أن المنصور لما أخذ عبد الله بن حسن وإخوته والنّفر الذين كانوا معه من أهل بيته، صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم صلى على النبي ﷺ، ثم قال:

يا أهل خُراسان، أنتم شيعتُنا وأنصارنا وأهلُ دولتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا مَن هو خير منا، وإنّ أهلَ بيتي هؤلاء من ولد عليّ بن أبي طالب تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافةَ، فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا

(١) سورة الأنبياء : ١٠٥ .

كثير؛ فقام فيها عليّ بن أبي طالب فتلطّخ وحكّم عليه الحَكَمين؛ فافترقت عنه الأمة، واختلفت عليه الكلمة، ثمّ وثبت عليه شيعتُه وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه، ثمّ قام من بعده الحسن بن عليّ؛ فوالله ما كان فيها برجُل؛ قد عرِضت عليه الأموال، فقبلها، فدسّ إليه معاوية؛ إني أجعلك وليَّ عهدي من بعدي، فخدعه فانسلخ له مما كان فيه، وسلّمه إليه، فأقبل على النساء يتزوّج في كلّ يوم واحدة فيطلّقها غداً، فلم يزل على ذلك حتى مات على فِراشه، ثمّ قام من بعده الحسين بن عليّ، فخدعه أهل العراق وأهلُ الكوفة؛ أهل الشِّقاق والنفاق والإغراق في الفتن، أهل هذه المَدَرة السوداء ـ وأشار إلى الكوفة ـ فوالله ما هي بحرب فأحاربها، ولا سلم فأسالمها، فرّق الله بيني وبينها، فخذلوه وأسلموه حتى قتِل، ثم قام من بعده زيد بن عليّ، فخدعه أهل الكوفة وغرّوه؛ فلما أخرجوه وأظهروه أسلموه؛ وقد كان أتى محمد بن عليّ، فناشده في الخروج وسأله ألاّ يقبل أقاويل أهل الكوفة، وقال له: إنا نجد في بعض علمنا، أنّ بعض أهل بيتنا يُصلَب بالكوفة، وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوبَ؛ وناشده عمّي داود بن عليّ وحذّره غدر أهل الكوفة فلم يقبل؛ وأتمّ على خروجه، فقتِل وصُلِب بالكُناسة، ثم وثب علينا بنو أميّة، فأماتوا شرفنا، وأذهبوا عزّنا؛ والله ما كانت لَهم عندنا تِرَة يطلبونها؛ وما كان لهم ذلك كله إلاّ فيهم وبسبب خروجهم عليهم؛ فنفوْنا من البلاد، فصرْنا مرة بالطائف؛ ومرّة بالشأم، ومرّة بالشّراة؛ حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً، فأحيا شرَفنا، وعزّنا بكم أهل خراسان، ودمغ بحقّكم أهلَ الباطل، وأظهر حقنا، وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا ﷺ، فقرّ الحق مقرَّه، وأظهر مناره، وأعزّ أنصاره، وقُطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. فلما استقرّت الأمور فينا على قرارها؛ من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا، وثبوا علينا، ظلماً وحسداً منهم لنا، وبغياً لما فضّلنا الله به عليهم، وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه ﷺ.

جَهْلاً عليّ وجُبْناً عن عدوّهمُ لبئست الخَلّتان الجَهْل والجُبْنُ

فإنيّ والله يا أهلَ خراسان ما أتيت من هَذا الأمر ما أتيت بجهالة، بلغني عنهم بعض السقم والتعرّم، وقد دسست لهم رجالا فقلت: قم يا فلان قم يا فلان، فخذ معك من المال كذا، وحذوت لهم مثالاً يعملون عليه؛ فخرجوا حتى أتوْهم بالمدينة، فدسُّوا إليهم تلك الأموال؛ فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شابّ، ولا صغير ولا كبير إلّا بايعهم بيعةً، استحللت بها دماءهم وأموالَهم وحَلَّت لي عند ذلك بنقضِهم بيعتي، وطلبهم الفتنة، والتماسهم الخروج عليّ؛ فلا يرون أني أتيتُ ذلك على غير يقين. ثم نزل وهو يتلو على دَرَج المنبر هذه الآية: ﴿ وحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قبلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شكٍّ مُريبٍ﴾[1].

قال: وخطب المنصر بالمدائن عند قتل أبي مسلم، فقال:

أيُّها الناس؛ لا تخرجُوا من أنسِ الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تُسرُّوا غشَّ الأئمة، فإنه لم يُسِرّ أحد قطّ منكرةً إلا ظهرت في آثار يده، أو فلتاتِ لسانه، وأبداها الله لإمامه، بإعزاز دينه، وإعلاء حقه. إنا لن نبخسَكم حقوقكم، ولن نبخَس الدّين حقه عليكم. إنه مَنْ نازعنا عُرْوة هذا القميص أجْزَرناه خبيّ هذا الغِمْد. وإن أبا مسلم بايعَنا وبايع الناس لنا، على أنه مَنْ نكث بنا فقد أباحَ دمه، ثم نكث بنا، فحكمنا عليه حكمه على غيره لنا، ولم تمنعنا رعاية الحقّ له من إقامة الحقّ عليه.

---

(١) سورة سبأ: ٥٤.

وذكر إسحاق بن إبراهيم الموصليّ أن الفَضْل بن الرّبيع أخبره عن أبيه، قال: قال المنصور: قال أبي: سمعتُ أبي؛ عليّ بن عبد الله يقول: سادة الدنيا الأسخياء، وسادة الآخرة الأنبياء.

وذِكر عن إبراهيم بن عيسى، أن المنصور غضب على محمد بن جُمَيْل الكاتب ـ وأصله من الرّبذة ـ فأمر ببطحه، فقام بحجَّته، فأمر بإقامته، ونظر إلى سراويله، فإذا هو كتَّان،فأمر ببطحه وضربه خمس عشرة درّة، وقال: لا تلبس سراويل كَتَّان فإنه من السرف.

وذكر محمد بن إسماعيل الهاشميّ، أن الحسن بن إبراهيم حدّثه، عن أشياخه، أن أبا جعفر لما قَتل محمد بن عبد الله بالمدينة وأخاه إبراهيم بيَاخَمْرَى وخرج إبراهيم بن حسن بن حسن بمصر فحمِل إليه، كتب إلى بني عليّ بن أبي طالب بالمدينة كتاباً يذكر لهم فيه إبراهيم بن الحسن بن الحسن وخروجه بمصر، وأنّه لم يفعل ذلك إلا عن رأيهم، وأنهم يدأبون في طلب السلطان، ويلتمسون بذلك القطيعة والعُقوق، وقد عجزوا عن عَدَاوة بني أمية لَمّا نازعوهم السلطان، وضعفوا عن طلب ثأرهم؛ حتى وثب بنو أبيه غضباً لهم على بني أميّة، فطلبوا بثأرهم، فأدركوا بدمائهم، وانتزعوا السلطان عن أيديهم، وتمثّل في الكتاب بشعر سُبيع بن ربيعة بن معاوية اليربوعيّ:

فَلولا دِفاعي عنكُمُ إذ عَجَزْتُمُ ... وبالله أحْمى عنكُمُ وأدافِعُ
لَضَاعَتْ أُمورٌ منكُمُ لا أرى لها ... كفاةً وما لا يَحْفَظُ اللهُ ضائعُ
فَسَمُّوا لنا مَنْ طَحْطَحَ الناسَ عنكمُ ... ومن ذا الذي تُحْنَى عليه الأصابعُ!
وما زال منّا قد عَلمْتمْ عليكُمُ ... على الدهر إفْضالٌ يُرَى وَمنافِع
وما زال منكُمْ أهْلُ غَدْرٍ وجَفْوةٍ ... وبالله مُغْتَرٌّ وللرّحْم قاطعُ
وإن نحن غِبْنا عنكُم وَشَهِدْتُمُ ... وَقائعَ منكمْ ثَمَّ فيها مقانِعُ
وإنا لنَرْعاكم وترعون شأنَكم ... كذاك الأمور؛ خافضاتٌ رَوافِعُ
وهل تَعْلُوَنْ أقدامُ قومٍ صُدورَهمْ ... وهل تعْلُوَنْ فوق السَّنام الأكارِعُ!
وَدَبَّ رِجالٌ للرِّياسَةِ منكُم ... كما دَرَجَتْ تحْتَ الغديرِ الضَّفَادعُ؟

وذكر عن يحيى بن الحسن بن عبد الخالق، قال: كان أرزاق الكتاب والعمّال أيام أبي جعفر ثلاثمائة درهم؛ فلما كانت كذلك لم تزل على حالها إلى أيام المأمون، فكان أوّل مَنْ سنّ زيادة الأرزاق الفضل بن سهل، فأمّا في أيام بني أمية وبني العباس فلم تزل الأرزاق من الثلاثمائة إلى ما دونها، كان الحجّاج يُجري على يزيد بن أبي مسلم ثلاثمائة درهم في الشهر.

وذكر إبراهيم بن موسى بن عيسى بن موسى، أنّ ولاة البريد في الآفاق كلّها كانوا يكتبون إلى المنصور أيام خلافته في كلّ يوم بسعر القمح والحبوب والأُدْم، وبسعْرِ كلّ مأكول، وبكلّ ما يقضي به القاضي في نواحيهم، وبما يعمل به الوالي وبما يرد بيتَ المال من المال، وكلّ حدث، وكانوا إذا صلّوا المغرب يكتبون إليه بما كان في كلّ ليلة إذا صلّوا الغداة؛ فإذا وردت كتبهم نظر فيها، فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك، وإن تغيّر شيء منها عن حاله كتب إلى الوالي والعامل هناك، وسأل عن العلة التي نقلت ذاك عن سعره؛ فإذا ورد الجواب بالعلّة تلطف لذلك برفقه حتى يعود سعره ذلك إلى حاله؛ وإن شكّ في شيء مما قضى به القاضي كتب إليه بذلك؛ وسأل من

بحضرته عن عمله؛ فإن أنكر شيئاً عمل به كتب إليه يوبِّخه ويلومه.

وذكر إسحاق الموصليّ أن الصبّاح بن خاقان التميميّ، قال: حدّثني رجل من أهلي، عن أبيه، قال: ذُكِر الوليد عند المنصور أيام نزوله بغداد وفروغه من المدينة، وفراغه من محمد وإبراهيم ابني عبد الله، فقالوا: لعن الله الملحد الكافر ـ قال: وفي المجلس أبو بكر الهذلي وابن عياش المنتوف والشّرقيّ بن القطاميّ، وكل هؤلاء من الصحابة ـ فقال أبو بكر الهذليّ: حدّثني ابن عمٍّ للفرزدق، عن الفرزدق، قال: حضرت الوليد بن يزيد وعنده ندماؤه وقد اصطبح، فقال لابن عائشة: تغنَّ بشعر ابن الزِّبَعْرَى:

لَيْتَ أشْيَاخي بِبَدْرٍ شَهِدُوا ... جزَعَ الخَزْرَجِ من وقعِ الأسَلْ
وقتلْنا الضِّعْفَ من ساداتِهِم ... وعَدَلْنا مَيْلَ بَدْرٍ فاعْتَدَلْ

فقال ابن عائشة: لا أغنّي هذا يا أمير المؤمنين؛ فقال: غَنِّه وإلا جدعتُ لهَواتِك، قال: فغنّاه، فقال: أحسنت والله! إنه لعلى دينِ ابن الزِّبَعْرَى يوم قال هذا الشعر. قال: فلعنه المنصور ولعنه جلساؤه؛ وقال: الحمد لله على نعمته وتوحيده.

وذكر عن أبي بكر الهذليّ، قال: كتب صاحب إرمينيَة إلى المنصور: إن الجند قد شَغَبوا عليه، وكسروا أقفال بيت المال، وأخذوا ما فيه، فوقّع في كتابه: اعتزل عملَنا مذموماً، فلو عقلت لم يشغبوا، ولو قويت لم ينتهبوا.

وقال إسحاق الموصليّ، عن أبيه: خرج بعضُ أهل العبث على أبي جعفر بِفلسطين، فكتب إلى العامل هناك: دمه في دمك إلا توجّهه إليّ؛ فجدّ في طلبه، فظفر به فأشخِص، فأمر بإدخاله عليه، فلمّا مثل بين يديه، قال له أبو جعفر: أنت المتوثِّب على عُمَّالي! لأنثرنَّ من لحمك أكثر مما يبقى منه على عظمك، فقال له ـ وقد كان شيخاً كبير السنّ ـ بصوت ضعيف ضئيل غير مستعلٍ:

أتَرُوضُ عِرْسَكَ بَعدَ ما هَرِمتْ ... ومِنَ العَناءِ رياضَةُ الهَرِمِ

قال: فلم تتبينَّ للمنصور مقالته، فقال: يا ربيع، ما يقول؟ فقال: يقول:

العَبْدُ عبدُكُمُ والمالُ مالُكُمُ ... فهلْ عذابُك عني اليومَ مُنْصَرِفُ!

قال: يا ربيع، قد عفوتُ عنه؛ فخلّ سبيله، واحتفظ به، وأحسن ولايته.

قال: ورُفع رجل إلى المنصور يشكو عامله أنه أخذ حدًّا من ضيعته، فأضافه إلى ماله، فوقّع إلى عامله في رقعة المتظلم: إن آثرتَ العدل صحبتْك السلامة، فأنصف هذا المتظلّم من هذه الظلامة.

قال: ورفع رجل من العامّة إليه رقعة في بناء مسجد في محلته، فوقّع في رقعته: من أشراط الساعة كثرة المساجد، فزد في خطاك تزدد من الثواب،

قال: وتظلّم رجل من أهل السواد من بعض العمال، في رقعة رفعها إلى المنصور، فوقّع فيها: إن كنت صادقاً فجيء به ملبّبا فقد أذنّا لك في ذلك.

وذكر عمر بن شبّة أنّ أبا الهذيل العلّاف حدّثه، أن أبا جعفر قال: بلغني أن السيّد بن محمد مات

بالكَرْخ - أو قال: بواسط - ولم يدفنوه، ولئن حقّ ذلك عندي لأحرقنّها. وقيل: إن الصحيح أنه مات في زمان المهديّ بكَرْخ بغداد، وأنهم تحامَوْا أن يدفنوه، وأنه بعث بالرّبيع حتى ولي أمره، وأمَره إن كانوا امتنعوا أن يحرق عليهم منازِلهم، فدُفع ربيع عنهم.

وقال المدائنيّ: لما فرغ المنصور من محمد وإبراهيم وعبد الله بن عليّ وعبد الجبار بن عبد الرحمن، وصار ببغداد، واستقامت له الأمور، كان يتمثّل هذا البيت:

تبيت من البلوَى على حدّ مُرهَفٍ ... مراراً ويكْفي الله ما أنت خائفُ

قال: وأنشدني عبد الله بن الربيع، قال: أنشدني المنصور بعد قتل هؤلاء:

وربّ أمورٍ لا تَضِيرُك ضَيْرَةً ... ولِلقلب من مَخشاتِهنّ وَجيبُ

وقال الهيثم بن عديّ: لما بلغ المنصور تفرّقَ ولد عبد الله بن حسن في البلاد هرباً من عقابه، تمثّل:

إنَّ قناتي لَنبْعٌ لا يُؤَيِّسُها ... غَمزُ الثّقاف ولا دُهْنٌ ولا نارُ
متى أجِرْ خائفاً تأْمَنْ مَسارِحُه ... وإن أُخِفْ آمِناً تَقلَقْ به الدارُ
سيرُوا إليَّ وغُضُّوا بعض أعْيُنِكم ... إني لكل امرىءٍ من جاره جارُ

وذكر عليّ بن محمد عن واضح مولى أبي جعفر، قال: أمرني أبو جعفر أن أشتريَ له ثوبيْن ليّنين، فاشتريتهما له بعشرين ومائة درهم، فأتيته بهما، فقال: بكم؟ فقلت: بثمانين درهماً، قال: صالحان، استحِطّه؛ فإنّ المتاح إذا أدخِل علينا ثم رُدّ على صاحبه كسره ذلك. فأخذتُ الثوبين من صاحبهما، فلما كان من الغد حملتُهما إليه معي، فقال: ما صنعت؟ قلت: رددتهما عليه فحطّني عشرين درهما، قال: أحسنتَ؛ اقطع أحدَهما قميصاً، واجعل الآخر رداء لي. ففعلتُ، فلبس القميص خمسة عشر يوماً لم يلبس غيرَه.

وذكر مولًى لعبد الصمد بن عليّ، قال: سمعتُ عبدَ الصَّمد يقول: إنّ المنصور كان يأمر أهلَ بيته بحسن الهيئة وإظهار النعمة وبلزوم الوشيّ والطّيب؛ فإن رأى أحداً منهم قد أخلّ بذلك أو أقل منه، قال: يا فلان، ما أرى وبيص الغالية في لحيتك؛ وإني لأراها تلمع في لحية فلان؛ فيشحذهم بذلك على الإكثار من الطّيب ليتزين بهيئتهم وطيب أرواحهم عند الرّعيّة، ويزيّنهم بذلك عندهم؛ وإن رأى على أحد منهم وشياً طاهراً عضّه بلسانه.

وذكر عن أحمد بن خالد، قال: كان المنصور يسأل مالك بن أدهم كثيراً عن حديث عجلان بن سُهيل، أخي حوثرة بن سُهيل، قال: كنّا جلوساً مع عجلان، إذ مرَّ بنا هشام بن عبد الملك، فقال رجل من القوم: قد مرّ الأحوال، قال: مَن تعني؟ قال: هشاماً، قال: تسمِّي أمير المؤمنين بالنّبَز! والله لولا رحِمك لضربت عنقك، فقال المنصور: هذا والله الذي ينفع مع مثله المحيا والممات.

وقال أحمد بن خالد: قال إبراهيم بن عيسى: كان للمنصور خادم أصفرُ إلى الأدْمة، ماهر لا بأس به، فقال له المنصور يوماً: ما جنسك؟ قال: عربيّ يا أمير المؤمنين، قال: ومنْ أيّ العرب أنت؟ قال: من خَوْلان، سُبيتُ من اليمن، فأخذني عدوٌّ لنا، فجبّني فاسترقَقت، فصرت إلى بعض بني أميّة، ثم صرت إليك. قال: أمّا إنك نعم الغلام، ولكن لا يدخل قصري عربيّ يخْدُم حُرَمي؛ اخرج عافاك الله؛ فاذهب حيث شئت!

وذكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن داود بن معاوية بن بكر ـ وكان من الصحابة ـ أنّ المنصور ضَمّ رجلا من أهل الكوفة، يقال له الفُضيل بن عمران، إلى ابنه جعفر، وجعله كاتبه، وولّاه أمرَه، فكان منه بمنزلة أبي عبيد الله من المسغيّ، وقد كان أبو جعفر أراد أن يبايع لجعفر بعد المهديّ، فنصبت أم عبيد الله حاضنةُ جعفر للفُضيل بن عمران، فسعتْ به إلى المنصور، وأومأت إلى أنه يعبث بجعفر. قال: فبعث المنصور الرّيان مولاه وهارون بن غَزوان مولى عثمان بن نهيك إلى الفُضَيل ـ وهو مع جعفر بحديثة الموصل ـ وقال: إذا رأيتما فُضيلاً فاقتلاه حيث لقيتماه، وكتب لهما كتاباً منشوراً، وكتب إلى جعفر يعلمه ما أمرهما به، وقال: لا تدفعا الكتابَ إلى جعفر حتى تفرُغا من قتله. قال: فخرجا حتى قدِما على جعفر، وقعدا على بابه ينتظران الإذن؛ فخرج عليهما فُضيل، فأخذاه وأخرجا كتاب المنور، فلم يعرِض لهما أحدٌ؛ فضربا عنقه مكانه، ولم يعلم جعفر حتى فرغا منه ـ وكان الفُضيل رجلاً عفيفاً ديِّنا ـ فقيل للمنصور: إنّ الفضيل كان أبرأ الناس مما رُمِيَ به، وقد عجِلتَ عليه. فوجَّه رسولا، وجعل له عشرة آلاف درهم إن أدركه قبل أن يقتَل، فقدم الرسول قبل أن يجفّ دمه.

فذكر معاوية بن بكر عن سويد مولى جعفر، أنّ جعفراً أرسل إليه، فقال: ويلك! ما يقول أمير المؤمنين في قتل رجل عفيف ديِّن مسلم بلا جُرْم ولا جناية! قال سويد: فقلت: هو أمير المؤمنين يفعل ما يشاء؛ وهو أعلم بما يصنع؛ فقال: يا ماصّ بَظْر أمّه، أكلِّمك بكلام الخاصّة وتكلمني بكلام العامة! خذوا برجله فألقوه في دِجْلة. قال فأخِذت، فقلت: أكلّمك، فقال: دعوه، فقلت: أبوك إنما يُسأل عن فُضيل، ومتى يُسْألُ عنه، وقد قتل عمّه عبد الله بن عبد الله بن عليّ، وقد قتل عبد الله بن الحسن وغيره من أولاد رسول الله ﷺ ظلماً، وقتل أهل الدّنيا ممن لا يُحصى ولا يعدّ! هو قبل أن يُسأل عن فضيل جُرذانة تجبّ خصى فرعون قال: فضحك، وقال: دعوه إلى لعنة الله.

وقال قعنَب بن محرز: أخبرنا محمد بن عائد مولى عثمان بن عفان أن حفصاً الأمويّ الشاعر، كان يقال له حفص بن أبي جُمعة، مولى عبّاد بن زياد، وكان المنصور صيّره مؤدباً للمهديّ في مجالسه، وكان مدّاحاً لبني أمية في أيام بني أميّة وأيّام المنصور، فلم ينكِر عليه ذلك المنصورُ، ولم يزل مع المهديّ أيام ولايته العهد؛ ومات قبل أن يلِي المهديّ الخلافة. قال: وكان مما مدح به بني أميّة قوله:

أينَ رَوْقـا عبـد شـمسٍ أيْنَ هُـمْ ... أين أهـلُ البـاع منهم والحَسبْ!
لـم تـكـنْ أيْـدٍ لـهـم عـنـدكُـمُ ... مـا فَعلتمْ آل عبـدِ المـطلبْ!
أيـهـا الـسّـائـل عـنـهـمُ أُولـو ... جُثَث تـلمـعُ من فـوْق الـخشبْ
إنْ تجُـذُّوا الأصـلَ منهمْ سفهـاً ... يـا لَقَـوْمٍ للزمـان المـنقلِبْ!
إنْ فـاحلبُوا مـا شئتُمُ في صَحْنكمْ ... فسَتُسقَـونَ صَـرَى ذاك الحَلبْ

وقيل: إن حفصاً الأمويّ دخل على المنصور، فكلّمه فاستخبره، فقال له: من أنت؟ فقال: مولاك يا أميرَ المؤمنين، قال: مولًى لي مثلك لا أعرفه! قال: مولى خادم لك عبد مناف يا أمير المؤمنين؛ فاستحسن ذلك منه، وعلم أنه مولًى لبني أميّة، فضمّه إلى المهديّ، وقال له: احتفظ به.

ومما رُثي به قول سَلْم الخاسر:

عجباً للذي نَعى الناعيانِ ... كيف فاهَتْ بموته الشَّفَتَانِ!
مَلِكٌ إن غدَا على الدَّهرِ يوماً ... أصبحَ الدَّهرُ ساقطاً للجِرَانِ
لَيْت كفًّا حثَتْ عليه تراباً ... لم تَعُدْ في يمينها ببَنانِ
حين دانَتْ له البلادُ على العَسْـ ... ـفِ وأغضَى من خوفه الثَّقَلانِ
أينَ ربُّ الزَّوْرَاءِ قد قلَّدَتْهُ الـ ... ـمُلكَ، عشرون حجَّةً واثنتانِ
إنَّما المرءُ كالزنادِ إذا ما ... أخذَتْهُ قوادحُ النِّيرانِ
ليس يَثنى هَواه زَجرٌ ولا يَقـ ... ـدَحُ في حَبْله ذوو الأذهانِ
قلَّدَتهُ أعِنَّةُ المُلكِ حتى ... قادَ أعداءَه بغيرِ عِنانِ
يُكْسَرُ الطَّرْفُ دونه وترى الأيـ ... ـدِيَ من خوفِهِ على الأذقانِ
ضمَّ أطرافَ مُلكه ثم أضحَى ... خلْفَ أقصاهُمُ ودونَ الدّاني
هاشِمِيٌّ التَّشميرِ لا يَحْمِلُ الثِّقْـ ... ـلَ على غاربِ الشَّرُودِ الهِدَانِ
ذو أناةٍ ينسَى لها الخائفُ الخَوْ ... فَ وعزمٍ يُلوِي بكلِّ جَنَانِ
ذَهَبَتْ دونه النفوسُ جِذاراً ... غير أنَّ الأرواحَ في الأبدانِ

ذكر أسماء ولده ونسائه

فمن ولده المهديّ ـ واسمه محمد ـ وجعفر الأكبر، وأمّهما أروى بنت منصور أخت يزيد بن منصور الحميريّ؛ وكانت تكنى أم موسى؛ وهلك جعفر هذا قبل المنصور.

وسليمان وعيسى ويعقوب؛ وأمهم فاطمة بنت محمد، من ولد طلحة عبيد الله.

وجعفر الأصغر، أمّه أمّ ولد كرديّة، كان المنصور اشتراها فتسرّاها، وكان يقال لابنها: ابن الكرديّة.

وصالح المسكين، أمّه أم ولد روميّة، يقال لها قالي الفرّاشة.

والقاسم، مات قبل المنصور، وهو ابن عشر سنين، وأمه أم ولد تعرف بأم القاسم، ولها بباب الشأم بستان يعرف إلى اليوم ببستان أمّ القاسم.

والعالية، أمّها امرأة من بني أميّة، زوّجها المنصور من إسحاق بن سليمان بن عليّ بن عبد الله بن العباس. وذكر عن إسحاق بن سليمان أنه قال: قال لي أبي: زوّجتُك يا بنيّ أشرف الناس؛ العالية بنت أمير المؤمنين. قال: فقلت: يا أباه، مَنْ أكفاؤنا؟ قال: أعداؤنا من بني أميّة.

ذكر الخبر عن وصاياه

ذكر عن الهيثم بن عديّ أن المنصور أوصى المهديّ في هذه السنة لما شخص متوجّها إلى مكة في شوّال، وقد نزل قصر عَبْدويه، وأقام بهذا القصر أياماً والمهديّ معه يوصيه، وكان انقضّ في مقامه بقصر عبدويه كوكبٌ، لثلاثٍ بقِينَ من شوّال بعد إضاءة الفجر، وبقي أثره بيِّناً إلى طلوع الشمس، فأوصاه بالمال والسلطان؛ يفعل ذلك كلّ يوم من أيام مقامه بالغَداة والعشيّ، لا يفتر عن ذلك، ولا يفترقان إلّا تحريكاً. فلما كان اليوم الذي أراد أن يرتحل فيه، دعا المهديّ، فقال له: إني لم أدع شيئاً إلا قد تقدمتُ إليك فيه، وسأوصيك بخصال

والله ما أظنك تفعل واحدة منها ـ وكان له سَفَط فيه دفاتر علمه، وعليه قُفل لا يأمن على فتحه ومفتاحه أحداً، يصرّ مفتاحه في كمّ قميصه. قال: وكان حمّاد التركيّ يقدّم إليه ذلك السَّفَط إذا دعا به، فإذا غاب حماد أوخرج كان الذي يليه سلمة الخادم ـ فقال للمهديّ: انظر هذا السَّفَط فاحتفظ به؛ فإنّ فيه علم آبائك، ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة؛ فإن أحزنك أمر فانظر في الدّفتر الأكبر؛ فإن أصبتَ فيه ما تريد، وإلا فالثاني والثالث؛ حتى بلغ سبعة؛ فإن ثقل عليك فالكرّاسة الصغيرة؛ فإنك واجد فيها ما تريد، وما أظنّك تفعل، وانظر هذه المدينة، فإياك أن تستبدل بها؛ فإنها بيتك وعزّك، قد جمعتُ لك فيها من الأموال ما إن كُسِر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذريّة ومصلحة الثّغور؛ فاحتفظ بها، فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً، وما أظنك تفعل. وأوصيك بأهل بيتك، أن تُظهر كرامتهم وتقدّمهم وتكثر الإحسان إليهم، وتعظِّم أمرَهم، وتوطىء الناس أعقابهم، وتوليّهم المنابر، فإنّ عزّك عزُّهم وذكرهم لك، وما أظنك تفعل. وانظر مواليَك، فأحسن إليهم وقرّبهم واستكثر منهم فإنهم مادّتك لشدة إن نزلت بك، وما أظنك تفعل. وأوصيك بأهل خُراسان خيراً، فإنهم أنصارك وشيعتُك الّذين بذلوا أموالهم في دولتك، ودماءهم دونك، ومَنْ لا تخرج محبتك من قلوبهم؛ أن تحسِن إليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم على ما كان منهم؛ وتخلُف مَن مات منهم في أهله وولده، وما أظنّك تفعل. وإياك أن تبني مدينة الشرقية فإنك لا تتم بناءها، وما أظنّك تفعل. وإياك أن تستعين برجل من بني سُليم، وأظنّك ستفعل. وإياك أن تدخل النساء في مشورتك في أمرك، وأظنك ستفعل.

وقال غير الهيثم: إنّ المنصور دعا المهديّ عند مسيره إلى مكة، فقال: يا أبا عبد الله، إني سائر وإني غير راجع؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون! فاسأل الله بركة ما أقدم عليه، هذا كتاب وصيتي مختوماً، فإذا بلغك أني قد متّ، وصار الأمر إليك فانظر فيه، وعليّ دينٌ فأحبّ أن تقضيَه وتضْمَنه، قال: هو عليّ يا أميرَ المؤمنين، قال: فإنه ثلاثمائة ألف درهم ونيّف،ولست أستحلُّها من بيت مال المسلمين، فاضمنها عني، وما يفضي إليك من الأمر أعظم منها. قال: أفعل، هو عليّ. قال: وهذا القصر ليس هو لكَ، هو لي، وقصري بنيتُه بمالي، فأحبّ أن تصيّر نصيبَك منه لإخوتك الأصاغر. قال: نعم، قال: ورقيقي الخاصّة هم لك، فاجعلهم لهم، فإنك تصير إلى ما يُغنيك عنهم، وبهم إلى ذلك أعظم الحاجة. قال: أفعل، قال: أمّا الضّياع، فلست أكلّفك فيها هذا، ولو فعلتَ كان أحبَّ إليّ، قال: أفعل، قال: سلِّم إليهم ما سألتك من هذا، وأنت معهم في الضياع. قال: والمتاع والثياب، سلِّمه لهم، قال: أفعل. قال: أحسنَ الله عليك الخلافة ولك الصُّنْع! اتق الله فيما خَوّلك وفيما خلّفتُك عليه.

ومضى إلى الكوفة، فنزل الرُّصافة، ثمّ خرج منها مهلاّ بالعمرة والحجّ، قد ساق هدَيه من البُدْن، وأشعر وقلّد؛ وذلك لأيام خلتْ من ذي القعدة.

وذكر أبو يعقوب بن سليمان، قال: حدّثتني جَمرة العطّارة ـ عطّارة أبي جعفر ـ قالت: لما عزم المنصور على الحج دعا رَيْطة بنت أبي العباس امرأة المهديّ ـ وكان المهديّ بالريّ قبل شخوص أبي جعفر ـ فأوصاها بما أراد، وعهد إليها، ودفع إليها مفاتيح الخزائن، وتقدّم إليها وأحلفها، ووكّد الأيمان ألاّ تفتح بعض تلك الخزائن، ولا تُطلع عليها أحداً إلا المهديّ؛ ولا هي؛ إلاّ أن يصحّ عندها موته، فإذا صحّ ذلك اجتمعتْ هي والمهديّ وليس

معهما ثالث؛ حتى يفتحا الخزانة. فلما قدِم المهديّ من الريّ إلى مدينة السلام، دفعت إليه المفاتيح، وأخبرتْه عن المنصور أنه تقدّم إليها فيها ألّا يفتحه ولا يُطلع عليه أحداً حتى يصحّ عندها موتُه. فلما انتهى إلى المهديّ موتُ المنصور ووليَ الخلافة؛ فتح الباب ومعه ريْطة؛ فإذا أزجٌ كبير فيه جماعة من قتلاء الطالبيين، وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم؛ وإذا فيهم أطفال ورجال شباب ومشايخ عدّة كثيرة، فلما رأى ذلك المهديّ ارتاع لما رأى، وأمر فحفِرت لهم حفيرة فدُفنوا فيها، وعمِل عليهم دكان.

وذُكر عن إسحاق بن عيسى بن عليّ، عن أبيه، قال: سمعتُ المنصور وهو متوجّه إلى مكة سنة ثمان وخمسين ومائة، وهو يقول للمهديّ عندَ وداعه إياه: يا أبا عبد الله؛ إني وُلدت في ذي الحجّة، ووليت في ذي الحجة، وقد هجس في نفسي أني أموت في ذي الحجة من هذه السنة؛ وإنما حداني على الحجّ ذلك، فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدي؛ يجعل لك فيما كَرَبك وحزَنك مخرجاً - أو قال: فَرجاً ومخرجاً - ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب. احفظ يا بنيّ محمداً ﷺ في أمّته يحفظ الله عليك أمورَك. وإياك والدّم الحرام، فإنه حَوْبٌ عند الله عظيم، وعارٌ في الدنيا لازم مقيم. والزم الحلال؛ فإنّ ثوابَك في الأجل، وصلاحك في العاجل. وأقم الحدود ولا تعتدِ فيها فتبور؛ فإن الله لو علم أنّ شيئاً أصلحُ لدينه وأزجرُ من معاصيه من الحدود لأمر به في كتابه. واعلم أنّ من شدّة غضب الله لسلطانه، أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على مَنْ سعى في الأرض فساداً، مع ما ذخر له عنده من العذاب العظيم، فقال: ﴿ إِنَّما جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً ﴾[1] الآية. فالسلطان يا بنيّ حبْل الله المتين، وعُروته الوثقى، ودين الله القيّم، فاحفظه وحُطْه وحصّنه، وذُبَّ عنه، وأوقع بالملحدين فيه، واقْمَع المارقين منه، واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم والمُثلات بهم؛ ولا تجاوز ما أمر الله به في محكم القرآن. واحكم بالعدل ولا تُشْطِط؛ فإن ذلك أقطعُ للشَّغب، وأحسم للعدوّ، وأنجع في الدواء. وعفّ عن الفيّ، فليْس بك إليه حاجة مع ما أخلِّفه لك، وافتتح عملك بصلةِ الرَّحِم وبرّ القرابة. وإياك والأثَرة والتبذير لأموال الرّعية. واشحن الثغور، واضبط الأطراف، وأمِّن السبل، وخصّ الواسطة، ووسِّع المعاش، وسكِّن العامة، وأدخل المرافق عليهم، واصرف المكاره عنهم، وأعدّ الأموال واخزنها. وإيّاك والتبذير؛ فإنّ النوائب غير مأمونة، والحوادث غير مضمونة؛ وهي من شيَم الزّمان. وأعدّ الرجال والكُراع والجند ما استطعت. وإيّاك وتأخيرَ عمل اليوم إلى غد، فتتدارك عليك الأمور وتضيع. جِدَّ في إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أولا فأولا، واجتهد وشمّر فيها، وأعدد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل. وباشر الأمور بنفسك، ولا تضجر ولا تكسل ولا تفشل، واستعمل حسنَ الظنّ بربك، وأسيء الظن بعمّالك وكتابك. وخذ نفسك بالتيقظ، وتفقّد مَنْ يبيت على بابك، وسهّل إذنَك للناس، وانظر في أمر النزاع إليك، ووكِّل بهم عيناً غير نائمة، ونفساً غير لاهية، ولا تنم فإنّ أباك لم ينمْ منذ وليَ الخلافة، ولا دخل عينه غمض إلّا وقلبه مستيقظ. هذه وصيّتي إليك، والله خليفتي عليك.

قال: ثم ودّعه وبكى كلّ واحد منهما إلى صاحبه.

وذكر عمر بن شبّة عن سعيد بن هريم، قال: لما حجّ المنصور في السنة التي تُوفّيَ فيها شيّعه المهديّ،

---

(١) سورة المائدة: ٣٣.

فقال: يا بنيّ، إني قد جمعتُ لك من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبلي، وجمعت لك من الموالي ما لم يجمعه خليفة قبلي، وبنيت لك مدينة لم يكن في الإسلام مثلها؛ ولست أخاف عليك إلا أحدَ رجلين: عيسى بن موسى، وعيسى بن زيد؛ فأما عيسى بن موسى فقد أعطاني من العهود والمواثيق ما قبلتُه، ووالله لو لم يكن إلا أن يقول قولا لما خفتُه عليك، فأخرجه من قلبك. وأما عيسى بن زيد فأنفِق هذه الأموال واقتل هؤلاء الموالي، واهدم هذه المدينة حتى تظفر به، ثم لا ألومك.

وذكر عيسى بن محمد أنّ موسى بن هارون حدّثه، قال: لما دخل المنصور آخرَ منزل نزلَه من طريق مكة، نظر في صدر البيت الذي نزل فيه، فإذا فيه مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم.

أبا جعفرٍ حانَتْ وَفاتُكَ وانقَضَتْ ... سِنُوك، وأمرُ الله لا بدَّ واقعُ

أبا جعفر هل كاهنٌ أو مُنجّمٌ ... لك اليومَ من حَرّ المَنِيَّةِ مانعُ!

قال: فدعا بالمتولّي لإصلاح المنازل، فقال له: ألم آمرك ألّا يدخل المنزل أحدٌ من الدعّار! قال: يا أميرَ المؤمنين؛ والله ما دخلها أحد منذ فُرِغ منها، فقال: اقرأ ما في صدر البيت مكتوباً، قال: ما أرى شيئاً يا أميرَ المؤمنين، قال: فدعا برئيس الحجَبة، فقال: اقرأ ما على صدر البيت مكتوباً، قال: ما أرى على صدر البيت شيئاً، فأملى البيتين فكُتِبا عنه، فالتفت إلى حاجبه فقال: اقرأ لي آية من كتاب الله جل وعزّ تشوّقني إلى الله عزّ وجلّ، فتلا: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾[1]، فأمر بفكّيْه فوُجِئا. وقال: ما وجدت شيئاً تقرؤه غير هذه الآية! فقال: يا أميرَ المؤمنين، مُحِي القرآن من قلبي غير هذه الآية، فأمر بالرّحيل عن ذلك المنزل تطيُّراً مما كان، وركب فرساً، فلما كان في الوادي الذي يقال له سَقَر ـ وكان آخر منزل بطريق مكة ـ كبا به الفرس، فدقّ ظهره، ومات فدفن ببئر ميمون.

وذكر عن محمد بن عبد الله مولى بني هشام، قال: أخبرني رجل من العلماء وأهل الأدب، قال: هتف بأبي جعفر هاتف من قصره بالمدينة فسمعه يقول:

أما وربِّ السُّكونِ والحَرَكِ ... إنَّ المنايا كثيرةُ الشَّرَكِ

عليكِ يا نفسُ إن أسأتِ وإنْ ... أحْسَنْتِ بالقَصْدِ، كلُّ ذاكَ لَكِ

ما اخْتَلَفَ الليلُ والنهارُ ولاَ ... دارَت نُجومُ السماء في الفَلَكِ

إلا بِنَقْلِ السُّلْطان عن مَلكٍ ... إذا انقضَى مُلكُهُ إلى مَلِكِ

حتى يُصيرَا به إلى مَلِكٍ ... ما عِزُّ سُلطانه بِمُشتَرَكِ

ذاك بديعُ السماءِ والأرض والمُرْ ... سِي الجبالِ المُسخِّرُ الفَلَكِ

فقال أبو جعفر: هذا والله أوان أجَلي.

وذكر عبد الله بن عبيد الله، أنّ عبد العزيز بن مُسلم حدّثه أنه قال: دخلت على المنصور يوماً أسلِّم عليه؛ فإذا هو باهت لا يُحير جواباً، فوثبت لما أرى منه، أريد الانصراف عنه، فقال لي بعد ساعة: إني رأيت فيما يرى النائم؛ كأن رجلا ينشدني هذه الأبيات:

(١) سورة الشعراء: ٢٢٧ .

أأخيَّ أخفِض مِن مُناكا فكأنَّ يَوْمَك قد أتاكا
ولقد أرَاكَ الدَّهرُ مِنْ تَصرِيفِه ما قَدْ أراكَا
فإذا أرَدْتَ النَّاقِصَ الـ ـعبدَ الذَّلِيلَ فأنت ذَاكَا
مُلِّكْتَ ما مُلِّكْتَهُ والأمرُ فيه إلى سِوَاكَا

فهذا الذي ترى من قلقي وَغَمِّي لما سمعت ورأيت. فقلت: خيراً رأيتَ يا أمير المؤمنين. فلم يلبث إلى أن خرج إلى الحجّ فمات لوجهه ذاك.

وفي هذه السنة بُويع للمهدي بالخلافة، وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن عليّ عبد الله بن العباس بمكة؛ صَبيحة الليلة التي تُوفِّيَ فيها أبو جعفر المنصور وذلك يوم السبت لستّ ليال خلونَ من ذي الحجّة سنة ثمان وخمسين، كذلك قال هشام بن محمد ومحمد بن عمر وغيرهما.

وقال الواقديّ: وبويع له ببغداد يوم الخميس لإحدى عشرة بقيت من ذي الحجة من هذه السنة.

وأمّ المهديّ أم موسى بنت منصور بن عبد الله بن يزيد بن شَمَّر الحِميريّ.

خلافةالمهديّ محمد بن عبد الله بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس

ذكر الخبر عن صفة العقد الذي عُقِدَ للمهديّ بالخلافة حين مات والده المنصور بمكة

ذكر عليّ بن محمد النوفليّ أن أباه حدّثه، قال: خرجت في السنة التي مات فيها أبو جعفر من طريق البصرة؛ وكان أبو جعفر خرج على طريق الكوفة، فلقيتُه بذات عرْق، ثم سرت معه فكان كلّما ركب عرضتُ له فسلّمت عليه، وقد كان أدنف وأشفى على الموت، فلما صار ببئر ميمون نزل به، ودخلنا مكة، فقضيتُ عُمرتي، ثم كنت أختلف إلى أبي جعفر إلى مَضْربه، فأقيم فيه إلى قريب من الزّوال، ثم أنصرف ـ وكذلك كان يفعل الهاشميّون ـ وأقبلت علّته تشتدّ وتزداد، فلما كان في الليلة التي مات فيها، ولم نعلم؛ فصليت الصبح في المسجد الحرام مع طلوع الفجر، ثم ركبتُ في ثوبيّ متقلداً السيف عليهما، وأنا أساير محمد بن عون بن عبد الله بن الحارث ـ وكان من سادة بني هاشم ومشايخهم؛ وكان في ذلك اليوم عليه ثوبان مورّدان قد أحرم فيهما، متقلّداً السيف عليهما ـ قال: وكان مشايخ بني هاشم يحبّون أن يُحرِموا في المورّد لحديث عمر بن الخطاب وعبد الله بن جعفر وقول عليّ بن أبي طالب فيه. فلما صرنا بالأبطح لقيَنا العباس بن محمد ومحمد بن سليمان في خيل ورجال يدخلان مكة، فعدلنا إليهما، فسلّمنا عليهما ثم مضينا، فقال لي محمد بن عون: ما ترى حال هذين ودخولهما مكة! قلت: أحسب الرَّجُل قد مات؛ فأرادا أن يحصّنا مكة؛ فكان ذلك كذلك، فبينا نحن نسير، إذا رجل خفيّ الشَّخْص في طِمْرين، ونحن بعد في غَلَس، قد جاء فدخل بين أعناق دابتيْنا، ثم أقبل علينا، فقال: مات والله الرجل! ثم خفيّ عنّا، فمضينا نحن حتى أتينا العسكر، فدخلنا السُّرادق الذي كنا نجلس فيه في كلّ يوم؛ فإذا بموسى بن المهديّ قد صدِّرَ عند عَمُود السرادق؛ وإذا القاسم بن منصور في ناحية السُّرادق ـ وقد كان حين لقينا المنصور بذات عِرْق، إذا ركب المنصور بعيرَه جاء القاسم فسار بين يديه بينه وبين صاحب الشرطة، ويؤمَر الناس أن يرفعوا القصص إليه ـ قال: فلما رأيته في ناحية السرادق ورأيت موسى مصدّراً، علمت أنّ المنصور قد مات. قال: فبينا أنا جالس إذ أقبل الحسن بن زيد، فجلس إلى جنبي، فصارت فخذه على فخذي، وجاء

الناس حتى ملئوا السرادق، وفيهم ابن عيّاش المنتوف؛ فبينا نحن كذلك، إذ سمعنا همساً من بكاء. فقال لي الحسن: أترى الرجل مات! قلت: لا أحسب ذلك؛ ولكن لعله ثقِيل، أو أصابته غَشْية، فما راعنا إلا بأبي العنبر الخادم الأسود خادم المنصور، قد خرج علينا مشقوق الأقبِيَة من بين يديه ومن خَلْفه، وعلى رأسه التراب، فصاح: وا أمير المؤمنيناه! فما بقي في السرادق أحدٌ إلّا قام على رجليه، ثم أهووا نحو مضَارب أبي جعفر يريدون الدّخول، فمنعهم الخدم، ودفعوا في صدورهم. وقال ابن عياش المنتوف: سبحان الله! أما شهدتم موت خليفة قطّ! اجلسوا رحمكم الله. فجلس الناس، وقام القاسم فشقّ ثيابه، ووضع التراب على رأسه، وموسى جالس على حاله. وكان صبيًّا رَطْباً ما يتحلحل.

ثم خرج الرّبيع، وفي يده قِرطاس، فألقى أسفله على الأرض، وتناول طرفه، ثم قرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى مَنْ خلّف بعده من بني هاشم وشيعته من أهل خُراسان وعامة المسلمين ـ ثم ألقى القرطاس من يده، وبكى وبكى الناس، فأخذ القرطاس، وقال: قد أمكنكم البكاء؛ ولكن هذا عهد عهده أمير المؤمنين، لا بدّ من أن نقرأه عليكم، فأنصِتوا رحمكم الله؛ فسكت الناس، ثم رجع إلى القراءة ـ أما بعد: فإني كتبتُ هذا وأنا حيٌّ في آخر يوم من الدّنيا وأوّل يوم من الآخرة وأنا أقرأ عليكم السلام، وأسأل الله ألّا يفتنَكم بعدي، ولا يُلبِسكم شيَعاً، ولا يُذيق بعضكم بأس بعض. يا بني هاشم، ويا أهلَ خراسان. . . ثم أخذ في وصيّتهم بالمهديّ، وإذكارهم البيعةَ له، وحضّهم على القيام بدولته، والوفاء بعهده إلى آخر الكتاب.

قال النوفليّ: قال أبي: وكان هذا شيئاً وضعه الربيع، ثم نظر في وجوه النّاس، فدنا من الهاشميّين، فتناول يد الحسن بن زيد، فقال: قم يا أبا محمد، فبايعْ، فقام معه الحسن، فانتهى به الرّبيع إلى موسى فأجلسه بين يديه، فتناول الحسن يدَ موسى، ثم التفت إلى الناس، فقال: يأيها الناس، إن أمير المؤمنين المنصور كان ضربني واصطفى مالي؛ فكلّمه المهديّ فرضي عني، وكلمه في ردّ مالي عليّ فأبى ذلك، فأخلفه المهديّ من ماله وأضعفه مكان كل عِلْق عِلْقين، فمَن أولى بأن يبايع لأمير المؤمنين بصدر منشرح ونفس طيبة وقلب ناصح منّي! ثم بايع موسى للمهديّ، ثم مسح على يده. ثم جاء الربيع إلى محمد بن عون، فقدّمه للسن فبايع، ثم جاء الرّبيع إليّ فأنهضني؛ فكنت الثالث؛ وبايع الناس؛ فلما فرغ دخل المضارب، فمكث هنيهة ثم خرج إلينا معشر الهاشميّين، فقال: انهضوا، فنهضنا معه جميعاً، وكنا جماعة كثيرة من أهل العراق وأهل مكة والمدينة ممن حضر الحج، فدخلنا فإذا نحن بالمنصور على سريره في أكفانه، مكشوف الوجه؛ فحملناه حتى أتينا به مكّة ثلاثة أميال؛ فكأني أنظر إليه أدنو من قائمة سريره نحمله؛ فتحرّك الريح، فتطيّر شَعْر صدغيه؛ وذلك أنه كان قد وفّر شعره للحلق؛ وقد نصل خِضابه؛ حتى أتينا به حفرته، فدلّيناه فيها.

قال: وسمعت أبي يقول: كان أوّل شيء ارتفع به عليّ بن عيسى بن ماهان؛ أنه لما كان الليلة التي مات فيها أبو جعفر أرادوا عيسى بن موسى على بَيْعة مجدّدة للمهديّ ـ وكان القائم بذلك الربيع ـ فأبى عيسى بن موسى، فأقبل القوّاد الذين حضروا يقرّبون ويتباعدون؛ فنهض عليّ بن عيسى بن ماهان، فاستلّ سيفه، ثمّ جاء إليه، فقال: والله لتبايعنّ أو لأضربنّ عنقك! فلمّا رأى ذلك عيسى، بايع وبايع الناس بعده.

وذكر عيسى بن محمد أنّ موسى بن هارون حدّثه أن موسى بن المهديّ والربيع مولى المنصور وجّها منارة

مولى المنصور بخبر وفاة المنصور وبالبيْعة للمهديّ. وبعثا بعدُ بقضيب النبيّ ﷺ وبُرْدته التي يتوارثها الخلفاء مع الحسن الشروريّ، وبعث أبو العباس الطوسيّ بخاتم الخلافة مع منارة؛ ثم خرجوا من مكة، وسار عبد الله بن المسيّب بن زهير بالحرْبة بين يدي صالح بن المنصور، على ما كان يسير بها بين يديه في حياة المنصور، فكسرها القاسم بن نصر بن مالك؛ وهو يومئذ على شُرْطة موسى بن المهديّ، واندسّ عليّ بن عيسى بن ماهان لما كان في نفسه من أذى عيسى بن موسى. وما صُنع به للراونديّة، فأظهر الطعن والكلام في مسيرهم. وكان من رؤسائهم أبو خالد المرورّوذيّ، حتى كاد الأمر يعظُم ويتفاقم؛ حتى لبس السلاح. وتحرّك في ذلك محمد بن سليمان، وقام فيه وغيره من أهل بيته؛ إلّا أن محمداً كان أحسنَهم قياماً به حتى طفىء ذلك وسكن. وكتب به إلى المهديّ، فكتب بعزل عليّ بن عيسى عن حرَس موسى بن المهديّ، وصيّر مكانه أبا حنيفة حرب بن قيس، وهدأ أمر العسكر، وتقدّم العباس بن محمد ومحمد بن سليمان إلى المهديّ، وسبق إليه العباس بن محمد. وقدم منارة على المهديّ يوم الثلاثاء للنصف من ذي الحجة، فسلّم عليه بالخلافة، وعزّاه، وأوصل الكتب إليه، وبايعه أهل مدينة السلام.

وذكر الهيثم بن عديّ عن الربيع، أنّ المنصور رأى في حجّته التي مات فيها وهو بالعُذَيب - أو غيره من منازل طريقة مكة - رؤيا - وكان الربيع عديله - وفزع منها، وقال: يا ربيع، ما أحسبني إلا ميّتاً في وجهي هذا؛ وأنك تؤكد البيْعة لأبي عبد الله المهديّ، قال الربيع: فقلت له: بل يبقيك الله يا أمير المؤمنين، ويَبْلُغ أبو عبد الله محبّتك في حياتك إن شاء الله. قال: وثقِل عند ذلك وهو يقول: بادر بي إلى حَرم ربي وأمنه، هارباً من ذنوبي وإسرافي على نفسي؛ فلم يزل كذلك حتى بلغ بئر ميمون، فقلت له: هذه بئر ميمون، وقد دخلتَ الحرَم، فقال: الحمد لله، وقضى من يومه.

قال الربيع: فأمرت بالخِيَم فضُربت، وبالفساطيط فهيِّئَتْ، وعمدْت إلى أمير المؤمنين فألبسته الطويلة والدّرّاعة، وسندته، وألقيت في وجهه كِلّة رقيقة يُرَى منها شخصه، ولا يفهم أمره، وأدنيت أهلَه من الكِلّة حيث لا يُعلم بخبره، ويُرى شخصُه. ثم دخلت فوقفت بالموضع الذي أوهمهم أنه يخاطبني، ثم خرجت فقلت: إن أمير المؤمنين مُفيق بمنّ الله، وهو يقرأ عليكم السلام، ويقول: إني أحبّ أن يؤكد الله أمرَكم؛ ويكبت عدوّكم، ويسرّ وليّكم؛ وقد أحببت أن تجدّدوا بيعة أبي عبد الله المهديّ؛ لئلا يطمع فيكم عدوٌّ ولا باغٍ، فقال القوم كلهم: وفّق الله أمير المؤمنين؛ نحن إلى ذاك أسرع. قال: فدخل فوقف، ورجع إليهم، فقال: هلمّوا للبَيْعة، فبايع القوم كلُّهم؛ فلم يبق أحدٌ من خاصّته والأولياء ورؤساء مَنْ حضره إلا بايع المهديّ، ثم دخل وخرج باكياً مشقوق الجيْب لاطماً رأسه، فقال بعض مَنْ حضر: ويلي عليك يابن شاة! يريد الربيع - وكانت أمّه ماتت وهي ترضعه فأرضعته شاة - قال: وحفِر للمنصور مائة قَبْر، ودفن في كلها، لئلا يعرف موضع قبره الذي هو ظاهر للناس، ودفِن في غيرها للخوف عليه.

قال: وهكذا قبور خلفاء ولَد العباس، لا يعرَف لأحد منهم قبر.

قال: فبلغ المهديّ، فلما قدم عليه الربيع قال: يا عبدُ؛ ألم تمنعك جلالة أمير المؤمنين أن فعلتَ به! وقال قوم: إنّه ضربه؛ ولم يصحّ ذلك.

قال: وذكر مَنْ حضر حجّة المنصور، قال: رأيت صالح بن المنصور وهو مع أبيه والناس معه؛ وإنّ

موسى بن المهديّ لقي تُبّاعه، ثم رجع الناس وهم خلَف موسى، وأن صالحاً معه.

وذكر عن الأصمعيّ أنه قال: أوّل مَنْ نعى أبا جعفر المنصور بالبصرة خَلَف الأحمر، وذلك أنّا كنّا في حلقة يونس، فمرّ بنا فسلّم علينا، فقال:

قــد طَــرَّقَت بِبِكــرِهــا أمّ طَبَـقْ

قال يونس: وماذا؟ قال:

تُنَتِّـجـوهــا خيــرَ أضـخَم الـعُنُـقْ مــوتُ الإمــام فِـلقَــةٌ مِنَ الـفِـلَقْ

وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن يحيى بن محمد بن عليّ، وكان المنصور ـ فيما ذكر ـ أوصى بذلك.

وكان العامل في هذه السنة على مكة والطائف إبراهيم بن يحيى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباسي، وعلى المدينة عبد الصمد بن عليّ، وعلى الكوفة عمرو بن زهير الضبيّ أخو المسيّب بن زهير ـ وقيل: كان العامل عليها إسماعيل بن أبي إسماعيل الثقفيّ. وقيل: إنه مولى لبني نصر من قيس ـ وعلى قضائها شريك بن عبد الله النَّخعيّ، وعلى ديوان خراجها ثابت بن موسى، وعلى خُراسان حميد بن قَحْطبة، وعلى قضاء بغداد مع قضاء الكوفة شريك بن عبد الله.

وقيل: كان القاضي على بغداد يوم مات المنصور عبيـد الله محمد بن صَفْـوان الجُمَحيّ وشريـك بن عبد الله على قضاء الكوفة خاصّة. وقيل: إن شريكاً كان إليه قضاء الكوفة، والصلاة بأهلها.

وكان على الشُّرَط ببغداد يوم مات المنصور ـ فيما ذكر ـ عمر بن عبد الرحمن أخو عبد الجبـار بن عبد الرحمن. وقيل كان موسى بن كعب.

وعلى ديوان خراج البصرة وأرضها عُمارة بن حمزة. وعلى قضائها والصلاة عبيد الله بن الحسن العنبريّ، وعلى أحداثها سعيد بن دَعْلَج.

وأصاب الناس ـ فيما ذكر محمد بن عمر ـ في هذه السنة وَباء شديد.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومائة

ذكر ما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك غزوة العباس بن محمد الصّائفة فيها حتى بلغ أنقِرة؛ وكان على مقدّمة العباس الحسنُ الوصيف في الموالي، وكان المهديّ ضمّ إليه جماعة من قُوّاد أهل خُراسان وغيرهم. وخرج المهديّ فعسكر بالبَرَدان وأقام فيه حتى أنفذ العباس بن محمد، ومن قطع عليه البعث معه، ولم يجعل للعباس على الحسن الوصيف ولايةً في عَزْل ولا غيره، ففتح في غزاته هذه مدينة للرّوم ومصمورة معها، وانصرفوا سالمين لم يُصَبْ من المسلمين أحد.

وهلك في هذه السنة حُميد بن قحطبة، وهو عامل المهديّ على خُراسان، فولّى المهديّ مكانه أبا عون عبد الملك بن يزيد.

وفيها ولِّيَ حمزة بن مالك سِجسْتان، ووِلِّيَ جبرئيل بن يحيى سَمَرْقَنْد.

وفيها بنى المهديّ مجسد الرّصافة.

وفيها بنى حائطها، وحفر خندقها.

وفيها عزل المهديّ عبدَ الصمد بن عليّ عن المدينة؛ مدينة الرسول ﷺ عن مَوْجدة، واستعمل عليها مكانه محمد بن عبد الله الكَثيريّ ثم عزله، واستعمل عليها مكانه عبيد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن صفوان الجُمَحِيّ.

وفيها وجّه المهديّ عبد الملك بن شهاب المِسمعيّ في البَحْر إلى بلاد الهند، وفرض معه لألفين من أهل البصرة من جميع الأجناد، وأشخصهم معه، وأشخص معه من المطوّعة الذين كانوا يلزمون المُرابطات ألفاً وخمسمائة رجل، ووجّه معه قائداً من أبناء أهل الشأم يقال له ابن الحُباب المذحجيّ في سبعمائة من أهل الشأم، وخرج معه من مطوّعة أهل البصرة بأموالهم ألف رجل، فيهم - فيما ذكر - الربيع بن صُبيح، ومن الأسواريين والسبابجة أربعة آلاف رجل، فولى عبد الملك بن شهاب المنذر بن محمد الجاروديّ الرجل المطوّعة من أهل البصرة، وولّى ابنه غسان بن عبد الملك الألفي الرّجل الذين من فرض البصرة، وولّى عبد الواحد بن عبد الملك الألف والخمسمائة الرجل من مُطّوعة المرابطات، وأفرد يزيد بن الحباب في أصحابه فخرجوا، وكان المهديّ وجّه لتجهيزهم حتى شخصوا أبا القاسم محرِز بن إبراهيم، فمضوا لوجههم؛ حتى أتوا مدينة باربَد من بلاد الهند في سنة ستين ومائة.

وفيها تُوفِّيَ معبد بن الخليل بالسند، وهو عامل المهديّ عليها، فاستعمل مكانه روح بن حاتم بمشورة أبي عبيد الله وزيره.

وفيها أمر المهديّ بإطلاق مَنْ كان في سجن المنصور، إلا من كان قبلَه تِباعة من دم أو قتل، ومَنْ كان معروفاً بالسعي في الأرض بالفساد، أو مَنْ كان لأحد قِبَله مظلمة أو حقّ، فأطلِقوا، فكان ممّن أطلِق من المَطْبَق يعقوب بن داود مولى بني سُليم، وكان معه في ذلك الحبس محبوساً الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب.

وفيها حوّل المهديّ الحسن بن إبراهيم من المطبق الذي كان فيه محبوساً إلى نُصير الوصيف فحبسه عنده.

ذكر الخبر عن سبب تحويل
المهديّ الحسن بن إبراهيم من المطبق إلى نُصير

ذكر أن السبب في ذلك، كان أن المهديّ لما أمَر بإطلاق أهل السجون. على ما ذكرت، وكان يعقوب بن داود محبوساً مع الحسن بن إبراهيم في موضع واحد، فأطلق يعقوب بن داود، ولم يُطلق الحسن بن إبراهيم، ساء ظنه، وخاف على نفسه، فالتمس مخرجاً لنفسه وخلاصاً، فدسّ إلى بعض ثقاته، فحفر له سَرَباً من موضع مُسامت للموضع الذي هو فيه محبوس، وكان يعقوب بن داود بعد أن أطلِق يُطيف بابن علاثة ـ وهو قاضي المهديّ بمدينة السلام ـ ويلزمه، حتى أنس به، وبلغ يعقوب ما عزم عليه الحسن بن إبراهيم من الهرب، فأتى ابن عُلاثة، فأخبره أن عنده نصيحة للمهديّ، وسأله إيصالَه إلى أبي عبيد الله، فسأله عن تلك النصيحة، فأبى أن يخبره بها، وحذّره فوتَها، فانطلق ابن عُلاثة إلى أبي عبيد الله، فأخبره خبر يعقوب وما جاء به، فأمره بإدخاله عليه؛ فلما دخل عليه سأله إيصاله إلى المهديّ، ليعلمه النّصيحة التي له عنده، فأدخله عليه، فلما دخل على المهديّ شكر له بلاءه عنده في إطلاقه إياه ومَنّه عليه، ثم أخبره أنّ له عنده نصيحة، فسأله عنها بمحضر من أبي عبيد الله وابن عُلاثة، فاستخلاه منهما، فأعلمه المهديّ ثقته بهما، فأبى أن يبوحَ له بشيء حتى يقوما، فأقامهما وأخلاه، فأخبره خبرَ الحسن بن إبراهيم وما أجمع عليه، وأنّ ذلك كائن من ليلته المستقبلة، فوجّه المهديّ مَن يثق به ليأتيه بخبره، فأتاه بتحقيق ما أخبره به يعقوب، فأمر بتحويله إلى نُصير، فلم يزل في حبسه إلى أن احتال واحتيل له، فخرج هارباً، وافتُقِد، فشاع خبره، فطُلب فلم يُظفَر به، وتذكّر المهديّ دلالة يعقوب إيّاه كانت عليه، فرجا عنده من الدّلالة عليه مثل الذي كان منه في أمره، فسأل أبا عبيد الله عنه فأخبره أنه حاضر ـ وقد كان لزم أبا عبيد الله ـ فدعا به المهديّ خالياً، فذكر له ما كان من فعله في الحسن بن إبراهيم أوّلاً، ونصحه له فيه، وأخبره بما حدث من أمره، فأخبره يعقوب أنه لا علم له بمكانه، وأنه إن أعطاه أماناً يثق به ضمِن له أن يأتيَه به، على أن يتمّ له على أمانه، ويصله ويُحسن إليه. فأعطاه المهديّ ذلك في مجلسه وضمنه له. فقال له يعقوب: فالْهُ يا أميرَ المؤمنين عن ذكره، وَدعْ طلبه، فإن ذلك يُوحشه، ودعني وإياه حتى أحتال فآتيَك به؛ فأعطاه المهديّ ذلك. وقال يعقوب: يا أمير المؤمنين، قد بسطتَ عدلَك لرعيّتك، وأنصفتهم، وعممتَهم بخيرك وفضلك، فعظم رجاؤهم، وانفسحت آمالهم؛ وقد بقيت أشياء لو ذكرتُها لك لم تَدَع النظر فيها بمثل ما فعلت في غيرها، وأشياء مع ذلك خلف بابك يُعمل بها لا تعملها، فإن جعلت لي السبيلَ إلى الدخول عليك، وأذنتَ لي في رفعها إليك فعلتُ. فأعطاه المهديّ ذلك، وجعله إليه، وصَيّر سُلَيْماً الخادم الأسود خادم المنصور

سببه في إعلام المهديّ بمكانه كلّما أراد الدخول، فكان يعقوب يدخل على المهديّ ليلاً، ويرفع إليه النصائح في الأمور الحسنة الجميلة من أمر الثغور وبناء الحصون وتقوية الغُزاة وتزويج العزّاب، وفكَاك الأسارى والمحبَّسين والقضاء على الغارمين، والصّدَقة على المتعفّفين، فحظي بذلك عنده، وبما رجا أن يناله به من الظَّفَر بالحسن بن إبراهيم، واتّخذه أخا في الله، وأخرج بذلك توقيعاً، وأثبت في الدواوين، فتسبّب مائة ألف درهم كانت أوّل صلة وصلَه بها، فلم تزل منزلته تنمِي وتعلُو صُعُداً، إلى أن صيّر الحسن بن إبراهيم في يد المهديّ بعد ذلك؛ وإلى أن سقطت منزلتُه، وأمر المهديّ بحبسه، فقال عليّ بن الخليل في ذلك:

عجباً لتصريف الأُمو ... ر مَسَرَّةً وكَراهيَهْ
والدّهرُ يلعبُ بالرِّجا ... لِ له دوائرُ جاريَهْ
رَثّتْ بيعقوب بن دا ... ود حِبَالُ معاويهْ
وعَدَتْ على ابن عُلاثة الـ ... ـقاضِي بَوائقُ عافيهْ
قلْ للوزيرِ أبي عُبيـ ... ـد الله: هلْ لك باقيهْ!
يعقوب ينظُرُ في الأُمو ... ر وأنتَ تنظُر ناحيهْ
أدخلته فعَلا عليـ ... ـك، كذاك شؤمُ النَّاصيهْ

وفي هذه السّنة عزل المهديّ إسماعيل بن أبي إسماعيل عن الكوفة وأحداثها. واختُلف فيمن ولّى مكانه، فقال بعضهم: ولّى مكانَه إسحاق بن الصبّاح الكنديّ ثم الأشعثيّ بمشورة شَريك بن عبد الله قاضي الكوفة. وقال عمر بن شبة: ولّى على الكوفة المهديّ عيسى بنَ لقمان بن محمد بن حاطب بن الحارث بن معمر بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جُمح، فولّى على شُرَطِه بنَ أخيه عثمان بن سعيد بن لقمان. ويقال: إن شريك بن عبد الله كان على الصّلاة والقضاء، وعيسى على الأحداث، ثم أفرد شريك بالولاية، فجعل على شُرَطِه إسحاقَ بن الصباح الكنديّ، فقال بعض الشعراء:

لَسْتَ تَغْدو بأنْ تَكُونَ وَلَوْ نِلْـ ... ـتَ سُهيْلاً صَنيعَةً لِشَرِيك

قال: ويزعمون أن إسحاق لم يشكر لشريك، وأن شريكاً قال له:

صَلّى وَصَامَ لِدُنْيا كان يَأْمُلها ... فَقَدْ أصابَ ولا صلّى ولا صَاما

وذكر عمر أنّ جعفر بن محمد قاضي الكوفة، قال: ضمّ المهديّ إلى شريك الصلاة مع القضاء، وولّى شرَطه إسحاق بن الصباح، ثم ولّى إسحاق بن الصباح الصلاة والأحداث بعد، ثم ولّى إسحاق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل بن محمد بن الأشعث الكوفة، فولى شُرَطه النعمان بن جعفر الكنديّ، فمات النعمان، فولّى على شُرَطِه أخاه يزيد بن جعفر.

وفيها عَزل المهديُّ عن أحداث البصرة سعيد بن دَعلَج، وعزل عن الصلاة والقضاء من أهلها عبيد الله بن الحسن، وولّى مكانها عبد الملك بن أيّوب بنَ ظَبيان النُّميريّ، وكتب إلى عبد الملك يأمره بإنصاف مَن تظلّم من أهل البصرة من سعيد بن دعلج، ثم صُرفت الأحداث في هذه السنة عن عبد الملك بن أيّوب إلى عُمارة رجلاً من أهل البصرة يقال له المِسْوَر بن عبد الله بن مسلم الباهليّ، وأقرّ عبد الملك على الصلاة.

وفيها عُزِل قُثَم بن العباس عن اليمامة عن سخطه، فوصل كتابُ عزله إلى اليمامة، وقد تُوفِّيَ فاستعمل مكانه بشر بن المنذر البجليّ.

وفيها عزل يزيد بن منصور عن اليمن، واستعمل مكانه رجاء بن رَوْح.

وفيها عزل الهَيْثم بن سعيد عن الجزيرة، واستعمل عليها الفضل بن صالح.

وفيها أعتق المهديّ أمّ ولده الخيزران وتزوّجها.

وفيها تزوّج المهديّ أيضاً أم عبد الله بنت صالح بن عليّ، أخت الفضل وعبد الله ابني صالح لأمّهما.

وفيها وقع الحريق في ذي الحجة في السفن ببغداد عند قصر عيسى بن عليّ، فاحترق ناس كثير، واحترقت السفن بما فيها.

وفيها عُزِل مطر مولى المنصور عن مصر، واستعمل مكانه أبو ضمرة محمد بن سليمان.

وفيها كانت حركة من تحرّك من بني هاشم وشيعتهم من أهل خُراسان في خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد، وتصيير ذلك لموسى بن المهديّ؛ فلمّا تبيّن ذلك المهديّ كتب - فيما ذكر - إلى عيسى بن موسى في القُدوم عليه وهو بالكوفة، فأحسّ بالذي يُراد به، فامتنع من القدوم عليه.

وقال عمر: لما أفضى الأمر إلى المهديّ سأل عيسى أن يخرج من الأمر فامتنع عليه، فأراد الإضرار به، فولّى على الكوفة رَوْح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب، فولّى على شُرَطه خالد بن يزيد بن حاتم؛ وكان المهديّ يحبّ أن يحمل رَوْح على عيسى بعض الحمل فيما لا يكون عليه به حجّة؛ وكان لا يجد إلى ذلك سبيلا، وكان عيسى قد خرج إلى ضَيْعة له بالرُّحبة؛ فكان لا يدخل الكوفة إلاّ في شهرين من السنة في شهر رمضان، فيشهد الجُمَع والعيد، ثم يرجع إلى ضَيْعته. وفي أوّل ذي الحجة، فإذا شهد العيد رجع إلى ضَيْعته، وكان إذا شهد الجمعة أقبل من دارِه على دوابه حتى ينتهي إلى أبواب المسجد فينزل على عَتبة الأبْواب، ثم يصلّي في موضعه؛ فكتب رَوْح إلى المهديّ أن عيسى بن موسى لا يشهد الجُمَع، ولا يدخل الكوفة إلاّ في شهرين من السنة؛ فإذا حضر أقبل على دوابّه حتى يدخل رَحَبَة المسجد؛ وهو مصلّى الناس، ثم يتجاوزها إلى أبواب المسجد، فتروث دوابُّه في مصلّى الناس؛ وليس يفعل ذلك غيره؛ فكتب إليه المهديّ أن اتّخذ على أفواه السِّكك التي تلي المسجد خشباً ينزل عنده الناس، فاتّخذ روح ذلك الخشب في أفواه السكك - فذلك الموضع يسمى الخشبة - وبلغ ذلك عيسى بن موسى قبل يوم الجُمعة، فأرسل إلى ورثة المختار بن أبي عبيدة - وكانت دار المختار لزيقة المسجد، فابتاعها وأثمن بها، ثم إنه عمرها واتخذ فيها حمّاماً، فكان إذا كان يوم الخميس أتاها فأقام بها، فإذا أراد الجمعة ركب حماراً فدبّ به إلى باب المسجد فصلّى في ناحية، ثم رجع إلى داره. ثم أوطن الكوفة وأقام بها، وألحّ المهديّ على عيسى فقال: إنك إن لم تجبني إلى أن تنخلع منها حتى أبايع لموسى وهارون استحللتُ منك بمعصيتك ما يستحَلّ من العاصي، وإن أجبتَني عوّضتك منها ما هو أجدى عليك وأعجل نفعاً. فأجابه، فبايَع لهما وأمر له بعشرة آلاف ألف درهم - ويقال عشرين ألف ألف - وقطائع كثيرة.

وأما غير عمر فإنه قال: كتب المهديّ إلى عيسى بن موسى لما همّ بخلعه يأمره بالقدوم عليه، فأحسّ بما يُراد به، فامتنع من القدوم عليه، حتى خيف انتقاضه، فأنفذ إليه المهديّ عمّه العباس بن محمد، وكتب إليه

كتاباً، وأوصاه بما أحبّ أن يبلغه، فقدم العباس على عيسى بكتاب المهديّ ورسالته إليه، فانصرف إلى المهديّ بجوابه في ذلك، فوجّه إليه بعد قدوم العباس عليه محمد بن فرّوخ أبا هريرة القائد في ألف رجل من أصحابه من ذوي البصيرة في التشيّع، وجعل مع كل رجل منهم طبلاً، وأمرهم أن يضربوا جميعاً بطبولهم عند قدومهم الكوفة، فدخلها ليلاً في وجه الصبح، فضرب أصحابه بطبولهم، فراع ذلك عيسى بن موسى رَوْعاً شديداً، ثم دخل عليه أبو هريرة، فأمره بالشخوص، فاعتلّ بالشكوى فلم يقبل ذلك منه، وأشخصه من ساعته إلى مدينة السلام.

وحجّ بالناس في هذه السنة يزيد بن منصور ـ خال المهديّ ـ عند قدومه من اليمن؛ فحدّثني بذلك أحمد بن ثابت، عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى؛ عن أبي معشر. كذلك قال محمد بن عمر الواقديّ وغيره. وكان انصراف يزيد بن منصور من اليمن بكتاب المهديّ إليه يأمره بالانصراف إليه وتوليته إياه الموسمَ وإعلامه اشتياقه إليه وإلى قربه.

وكان أمير المدينة في هذه السنة عبيد الله بن صفوان الجُمحيّ، وعلى صلاة الكوفة وأحداثها إسحاق بن الصباح الكنديّ، وعلى خراجها ثابت بن موسى، وعلى قضائها شريك بن عبد الله، وعلى صلاة البصرة عبد الملك بن أيوب بن ظَبْيان النميريّ، وعلى أحداثها عُمارة بن حمزة؛ وخليفته على ذلك المسوَر بن عبد الله بن مسلم الباهليّ؛ وعلى قضائها عبيد الله بن الحسن. وعلى كُور دجْلة وكُور الأهواز وكُور فارس عُمارة بن حمزة. وعلى السِّند بِسطام بن عمرو، وعلى اليمن رجاء بن روْح. وعلى اليمامة بشر بن المنذر، وعلى خراسان أبو عون عبد الملك بن يزيد، وعلى الجزيرة الفضل بن صالح، وعلى إفريقية يزيد بن حاتم، وعلى مصر محمد بن سليمان أبو ضمرة.

ثم دخلت سنة ستين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من خروج يوسف بن إبراهيم، وهو الذي يقال له يوسف البَرْم بخُراسان منكراً هو ومَن تبعه ممن كان على رأيه على المهديّ - فيما زُعم - الحال التي هو بها وسيرته التي يسير بها، واجتمع معه - فيما ذكر - بَشر من الناس كثير، فتوجّه إليه يزيد بن مزيد فلقيه، واقتتلا حتى صارا إلى المعانقة فأسره يزيد، وبعث به إلى المهديّ، وبعث معه من وجوه أصحابه بعدّة؛ فلما انتهى بهم إلى النّهروان حُمل يوسف البَرْم على بعير قد حُوِّل وجهه إلى ذنَب البعير وأصحابه على بعير، فأدخلوهم الرُّصافة على تلك الحال، فأدخلوه على المهديّ، فأمر هَرْثمة بن أعين فقطع يَدَيْ يوسف ورجْليه، وضرب عنقه وعنق أصحابه، وصلَبهم على جِسْر دِجلة الأعلى، مما يلي عسكر المهديّ، وإنما أمر هرثمة بقتله؛ لأنه كان قتل أخاً لهرثمة بخراسان.

وفيها قدم عيسى بن موسى مع أبي هريرة يوم الخميس لستٍّ خلوْن من المحرّم - فيما ذكر - الفضل بن سليمان فنزل داراً كانت لمحمد بن سليمان على شاطىء دِجْلة في عسكر المهديّ، فأقام أياماً يختلف إلى المهديّ، ويدخل مدخلَه الذي كان يدخله؛ لا يكلَّم بشيء، ولا يرى جفوة ولا مكروهاً ولا تقصيراً به؛ حتى أنس به بعض الأنس، ثم حضر الدار يوماً قبل جلوس المهديّ، فدخل مجلساً كان يكون للربيع في مَقْصورة صغيرة، وعليها باب، وقد اجتمع رؤساء الشِّيعة في ذلك اليوم على خلعه والوثوب عليه؛ ففعلوا ذلك وهو في المقصورة التي فيها مجلس الربيع، فأغلق دونهم المقصورة، فضربوا الباب بجرُزهم وعَمدهم؛ فهشَموا الباب، وكادوا يكسرونه، وشتموه أقبحَ الشَّتْم، وحصروه هنالك؛ وظهر المهديّ إنكاراً لما فعلوا، فلم يردعهم ذلك عن فعلهم؛ بل شدُّوا في أمره؛ وكانوا بذلك هو وهم أياماً، إلى أن كاشفه ذوو الأسنان من أهل بيته بحضرة المهديّ، فأبوا إلّا خلعَه، وشتموه في وجهه؛ وكان أشدّهم عليه محمدبن سليمان.

فلما رأى المهديّ ذلك من رأيهم وكراهتهم لعيسى وولايته؛ دعاهم إلى العهد لموسى، فصار إلى رأيهم وموافقتهم، وألحّ على عيسى في إجابته وإياهم إلى الخروج ممّا له من العهد في أعناق الناس وتحليلهم منه؛ فأبى؛ وذكر أن عليه أيماناً محرّجة في ماله وأهله؛ فأحضر له من الفقهاء والقضاة عِدّة، منهم محمد بن عبدالله بن عُلاثة والزّنجيّ بن خالد المكيّ وغيرهما؛ فأتوْه بما رأوا، وصار إلى المهديّ ابتياع ما له من البيعة في أعناق الناس بما يكون له فيه رضاً وعِوض؛ ممَّا يخرج له من ماله لما يلزمه من الحِنْث في يمينه، وهو عشرة آلاف ألف درهم، وضياع بالزّاب الأعلى وكَسْكَر. فقبل ذلك عيسى، وبقي منذ فاوضه المهديّ على الخلع إلى أن أجاب محتسباً عنده في دار الديوان من الرُّصافة إلى أن صار إلى الرضا بالخلع والتسليم، وإلى أن خُلع يوم الأربعاء لأربع بقِين

من المحرّم بعد صلاة العصر، فبايع للمهديّ ولموسى من بعده من الغد يوم الخميس لثلاث بقِين من المحرّم لارتفاع النهار. ثم أذن المهديّ لأهل بيته، وهو في قبة كان محمد بن سليمان أهداها له مضروبة في صحن الأبواب، ثم أخذ بيعتَهم رجلا رجلا لنفسه ولموسى بن المهديّ من بعده؛ حتى أتى إلى آخرهم. ثم خرج إلى مسجد الجماعة بالرُّصافة فقعد على المنبر، وصعد موسى حتى كأنه دونه. وقام عيسى على أوّل عتبة من المنبر، فحمد الله المهديُّ وأثنى عليه، وصلى على النبيّ ﷺ، وأخبر بما أجمع عليه أهلُ بيته وشيعته وقوّاده وأنصاره وغيرهم من أهل خُراسان من خلع عيسى بن موسى وتصيير الأمر الذي كان عقد له في أعناق الناس لموسى بن أمير المؤمنين؛ لاختيارهم له ورضاهم به؛ وما رأى من أجابتهم إلى ذلك؛ لما رجا من مصلحتهم وأُلفتِهم، وخاف مخالفتهم في نيّاتهم واختلاف كلمتهم، وأن عيسى قد خلع تقدُّمَه، وحللهم مما كان له من البيعة في أعناقهم، وأنّ ما كان له من ذلك فقد صار لموسى بن أمير المؤمنين، بعقد من أمير المؤمنين وأهل بيته وشيعته في ذلك؛ وأن موسى عاملٌ فيهم بكتاب الله وسنة نبيّه ﷺ بأحسن السِّيرة وأعدلها، فبايِعوا معشر مَن حضر، وسارعوا إلى ما سارع إليه غيرُكم؛ فإنّ الخير كله في الجماعة، والشرّ كله في الفرقة. وأنا أسأل الله لنا ولكم التوفيق برحمته، والعمل بطاعته وما يرضيه، وأستغفر الله لي ولكم.

وجلس موسى دونه معتزلاً للمنبر؛ لئلا يحول بينه وبين من صعد إليه، يبايعه ويمسح على يده، ولا يستر وجهه، وثبت عيسى قائماً في مكانه، وقُرىء عليه كتاب ذكر الخلع له، وخروجُه مما كان إليه من ولاية العهد وتحليله جماعة مَن كان له في عنقه بيعة، مما عقدوا له في أعناقهم؛ وأن ذلك من فعله وهو طائعٌ غير مكرَه، راضٍ غير ساخط، محبٌ غير مجبَر. فأقرّ عيسى بذلك، ثم صعد فبايع المهديّ، ومسح على يده، ثم انصرف، وبايع أهل بيت المهديّ على أسنانهم؛ يبايعون المهديّ ثم موسى، ويمسحون على أيديهما؛ حتى فرغ آخرهم؛ وفعل مَنْ حضر من أصحابه ووجوه القوّاد والشِّيعة مثل ذلك، ثم نزل المهديّ، فصار إلى منزله، ووكّل ببيته مَن بقي من الخاصّة والعامّة خاله يزيد بن منصور، فتولّى ذلك حتى فرغ من جميع الناس، ووفّى المهديّ لعيسى بما أعطاه وأرضاه مما خلعه منه من ولاية العهد، وكتب عليه بخلعه إياه كتاباً أشهد عليه فيه جماعة أهل بيته وصحابته وجميع شيعته وكتّابه وجنده في الدّواوين؛ ليكون حجّة على عيسى، وقطعاً لقوله ودعواه فيما خرج منه.

وهذه نسخة الشرط الذي كتبه عيسى على نفسه:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب لعبد الله المهديّ محمد أمير المؤمنين ولولّي عهد المسلمين موسى بن المهديّ، ولأهل بيته وجميع قوّاده وجنوده من أهل خُراسان وعامّة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها؛ وحيث كان كائن منهم، كتبتُه للمهديّ محمد أمير المؤمنين، ووليّ عهد المسلمين موسى بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عليّ؛ فيما جُعل إليه من العهد إذ كان إليّ، حتى اجتمعت كلمة المسلمين، واتّسق أمرهم، وائتلفت أهواؤهم، على الرضا بولاية موسى بن المهدي محمد أمير المؤمنين، وعرفتُ الحظّ في ذلك عليّ والحظّ فيه لي، ودخلتُ فيما دخل فيه المسلمون من الرضا بموسى بن أمير المؤمنين، والبيعة له، والخروج ممّا كان لي في رقابهم من البيعة، وجعلتكم في حِلٍّ من ذلك وسَعة، من غير حرج يدخل عليكم، أو على أحد من جماعتكم وعامة المسلمين، وليس في شيء من ذلك، قديمٍ ولا حديث لي دعوى ولا طلِبة ولا حجّة ولا مقالة ولا طاعة على أحد منكم، ولا على المسلمين ولا بيعة في حياة المهديّ محمد أمير المؤمنين ولا بعده ولا بعد وليّ عهد المسلمين موسى، ولا ما كنت حيًّا حتى أموت. وقد بايعت لمحمد المهديّ أمير المؤمنين ولموسى بن أمير المؤمنين من بعده، وجعلتهما ولعامة

المسلمين من أهل خُراسان وغيرهم الوفاء بما شرطْت على نفسي في هذا الأمر الذي خرجت منه، والتمام عليه. عليّ بذلك عهد الله وما اعتقد أحد من خلقه من عهد أو ميثاق أو تغليظ أو تأكيد على السّمع والطاعة والنصيحة للمهديّ محمد أمير المؤمنين ووليّ عهده موسى بن أمير المؤمنين، في السرّ والعلانية، والقول والفعل، والنّية والشدّة والرّخاء والسرّاء والضرّاء والموالاة لهما ولمن والاهما، والمعاداة لمن عاداهما، كائناً مَن كان في هذا الأمر الذي خرجت منه. فإن أنا نكبت أو غيّرت أو بدّلت أو دَغَلت أو نويْت غير ما أعطيت عليه هذه الإيمان، أو دعوت إلى خلاف شيء مما حملت على نفسي في هذا الكتاب للمهديّ محمد أمير المؤمنين ولوليّ عهده موسى ابن أمير المؤمنين ولعامّة المسلمين، أو لم أفِ بذلك؛ فكلّ زوجة عندي يوم كتبت هذا الكتاب ـ أو أتزوّجها إلى ثلاثين سنة ـ طالق ثلاثاً ألبتة طلاق الحرج وكلُّ مملوك عندي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرارٌ لوجه الله، وكلّ مال ٍ لي نَقْد أو عَرْض أو قرْض أو أرْض، أو قليل أو كثير، تالد أو طارف أو أستفيده فيها بعد اليوم إلى ثلاثين سنة صدقة على المساكين، يضع ذلك الوالي حيث يرى، وعليَّ من مدينة السلام المشيُ حافياً إلى بيت الله العتيق الذي مكة نذراً واجباً ثلاثين سنة، لا كفارة لي ولا مخرج منه؛ إلا الوفاء به. والله على الوفاء بذلك راعٍ كفيل شهيد، وكفى بالله شهيدٌ على عيسى بن موسى بإقراره بما في هذا الشرط أربعمائة وثلاثون من بني هاشم ومن الموالي والصحابة من قريش والوزراء والكتاب والقضاة.

وكتب في صفر سنة ستين ومائة. وختم عيسى بن موسى.

فقال بعض الشعراء:

كَـرِهَ المـوت أبـو مـوسى وقـد ... كـان في المـوت نـجـاءٌ وكَـرمْ
خَـلَعَ المـلكَ وأضـحَـى مُـلبَـساً ... ثـوبَ لـوم ٍ مـا تُـرى منـه القَـدم

وفي سنة ستين ومائة وافَى عبد الملك بن شهاب المسمعيّ مدينة باربد بمن توجّه معه من المطوّعة وغيرهم، فناهضوها بعد قدومهم بيوم، وأقاموا عليها يومين، فنصبوا المنجنيق وناهضوها بجميع الآلة، وتحاشد الناس، وحضّ بعضُهم بعضاً بالقرآن والتذكير، ففتحها الله عليهم عَنْوة، ودخلت خيلُهم من كلّ ناحية؛ حتى ألجؤوهم إلى بدّهم، فأشعلوا فيها النِّيران والنِّفط، فاحترق منهم مَن احترق، وجاهد بعضهم المسلمين، فقتلهم الله أجمعين، واستشهد من المسلمين بضعة وعشرون رجلاً، وأفاءها الله عليهم. وهاج البحر فلم يقدروا على ركوبه والانصراف، فأقاموا إلى أن يطيب، فأصابهم في أفواههم داءٌ يقال له حُمام قُرّ، فمات نحو من ألف رجل، منهم الربيع بن صُبيح. ثم انصرفوا لمّا أمكنهم الانصراف حتى بلغوا ساحلاً من فارس، يقال له بحر حمران، فعصفت عليهم فيه الريح ليلاً، فكسرت عامّة مراكبهم، فغرق منهم بعض ونجا بعض، وقدموا معهم بسبيٍ من سبْيهم ـ فيهم بنت ملك باربد ـ على محمد بن سليمان، وهو يومئذ والي البصرة.

وفيها صُيّر أبان بن صدقة كاتباً لهارون بن المهديّ ووزيراً له.

وفيها عُزل أبو عون عن خُراسان عن سَخْطةٍ، ووليَ مكانه معاذ بن مسلم.

وفيها غزا ثُمامة بن الوليد العبسيّ الصائفة.

وفيها غزا الغمر بن العباس الخثعمي بحر الشأم.

وفيها ردّ المهديّ آل بكرة من نسبهم في ثَقيف إلى ولاء رسول الله ﷺ؛ وكان سبب ذلك أنّ رجلاً من آل أبي بَكْرة رفع ظُلامة إلى المهديّ، وتقرّب إليه فيها بولاء رسول الله ﷺ، فقال المهديّ: إن هذا نسب واعتزاء، ما تقرّون به إلّا عند حاجة تعرض لكم، وعند اضطراركم إلى التقرب به إلينا. فقال الحكَم: يا أمير المؤمنين، مَنْ جحد ذلك فإنا سنقرّ؛ أنا أسألك أن تردّني ومعشر آل أبي بكرة إلى نسبنا من ولاء رسول الله ﷺ، وتأمر بآل زياد بن عبيد فيخرجوا من نسبهم الذي ألحقهم به معاوية رغبةً عن قضاء رسول الله ﷺ: «إن الولد للفراش وللعاهر الحجَر»، فيُرَدُّوا إلى نسبهم من عبيد في موالي ثقيف. فأمر المهديّ في آل أبي بكرة وآل زياد أن يردّ كلّ فريق منهم إلى نسبه، وكتب إلى محمد بن سليمان كتاباً، وأمره أن يُقرأ في مسجد الجماعة على الناس، وأن يردّ آل أبي بكرة إلى ولائهم من رسول الله ﷺ ونسبهم إلى نُفَيع بن مسروح، وأن يردّ على من أقرّ منهم ما أمر بردّه عليهم من أموالهم بالبصرة مع نظرائهم، ممّن أمر بردّ ماله عليه، وألّا يردّ على من أنكر منهم، وأن يجعلي الممتحن منهم والمستبرىء لما عندهم الحكَم بن سمرقند. فأنفذ محمد ما أتاه في آل أبي بكْرة إلّا في أناس منهم غيَبٍ عنهم.

وأما آل زياد فإنّه مما قوّى رأي المهديّ فيهم ـ فيما ذكر عليّ بن سليمان ـ أن أباه حدّثه، قال: حضرت المهديّ وهو ينظر في المظالم إذ قدم عليه رجل من آل زياد يقال له الصغديّ بن سلم بن حرب، فقال له: مَنْ أنت؟ قال: ابن عمّك، قال: أيّ ابن عمي أنت؟ فانتسب إلى زياد، فقال له المهديّ: يابن سميّة الزانية، متى كنتَ ابن عمي! وغضب وأمر به فُوجِئ في عنقه، وأخرِج، ونهض الناس.

قال: فلمّا خرجت لحقني عيسى بن موسى ـ أو موسى بن عيسى ـ فقال: أرَدتُ والله أن أبعثَ إليك، أن أمير المؤمنين التفت إلينا بعد خروجك، فقال: من عنده علم من آل زياد؟ فوالله ما كان عند أحد منا من ذاك شيء، فما عندك يا أبا عبد الله؟ فما زلت أحدثه في زياد وآل زياد حتى صرنا إلى منزله بباب المحوّل، فقال: أسألك بالله والرَّحم لما كتبتَ لي هذا كله حتى أروح به إلى أمير المؤمنين، وأخبره عنك. فانصرفتُ فكتبت، وبعثت به إليه. فراح إلى المهديّ، فأخبره، فأمر المهديّ بالكتاب إلى هارون الرشيد؛ وكان والي البصرة من قبَله يأمره أن يكتب إلى واليها يأمره أن يخرج آل زياد من قريش وديوانهم والعرب، وأن يعرض ولد أبي بَكْرة على ولاء رسول الله ﷺ، فمن أقرّ منهم ترك ماله في يده، ومن انتمى إلى ثَقِيف اصطفى ماله. فعرضهم، فأقرُّوا جميعاً بالولاء، إلا ثلاثة نفر، فاصطُفيت أموالهم.

ثم إن آل زياد بعد ذاك رشَوْا صاحب الديوان حتى ردّهم إلى ما كانوا عليه، فقال خالد النجار في ذلك:

إن زياداً ونافعاً وأبا ... بَكْرَة عندي من أعجب الْعَجَبِ
ذَا قُرَشيٌّ كما يقولُ، وذا ... مولًى، وهذا ـ بزعمه ـ عَرَبي

نسخة كتاب المهديّ إلى والي البصرة في ردّ آل زياد إلى نسبهم

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد؛ فإنّ أحقّ ما حَمَل عليه ولاة المسلمين أنفسهم وخواصّهم وعوامّهم في أمورهم وأحكامهم، العمل بينهم بما في كتاب الله والاتباع لسنّة رسول الله ﷺ، والصبّر على ذلك، والمواظبة عليه، والرضا به فيما وافقهم وخالفهم؛ للذي فيه من إقامة حدود الله ومعرفة حقوقه، واتّباع مرضاته، وإحراز جَزائه وحسن ثوابه، ولما في مخالفة ذلك والصدود عنه وغلبة الهوَى لغيره من الضّلال والخسار في الدنيا والآخرة.

وقد كان من رأي معاوية بن أبي سفيان في استلحاقه زياد بن عبيد عبد آل علاج من ثقيف، وادّعائه ما أباه بعد معاوية عامّة المسلمين وكثير منهم في زمانه، لعلمهم بزياد وأبي زياد وأمه من أهل الرضا والفضل والوَرع والعلم، ولم يَدْعُ معاوية إلى ذلك ورع ولا هدى، ولا اتّباع سنة هادية، ولا قُدوة من أئمة الحق ماضية، إلا الرغبة في هلاك دينه وآخرته، والتصميم على مخالفة الكتاب والسنة. والعُجْب بزياد في جَلَده ونفاذه، وما رجا من معونته وموازرته إياه على باطل ما كان يركن إليه في سيرته وآثاره وأعماله الخبيثة. وقد قال رسول الله ﷺ: « الولد للفراش وللعاهر الحجَر »، وقال: « مَن ادّعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه لا صرفا ولا عدلا.

ولعمري ما وُلد زياد في حجْر أبي سفيان ولا على فراشه، ولا كان عُبيد عبداً لأبي سفيان، ولا سميّة أمةً له، ولا كانا في مُلكه، ولا صارا إليه لسبب من الأسباب. ولقد قال معاوية فيما يعلمه أهل الحفظ للأحاديث عند كلام نَصْر بن الحجّاج بن عُلاط السُّلميّ ومَنْ كان معه من موالي بني المغيرة المخزوميّين وإرادتهم استلحاقه وإثبات دعوته، وقد أعدّ لهم معاوية حجَراً تحت بعض فرشه فألقاه إليهم، فقالوا له: نسوّغ لك ما فعلت في زياد، ولا تسوّغ لنا ما فعلنا في صاحبنا، فقال: قضاء رسول الله ﷺ خير لكم من قضاء معاوية. فخالف معاوية بقضائه في زياد واستلحاقه إياه وما صَنَع فيه وأقدم عليه أمرَ الله جل وعزّ وقضاء رسول الله ﷺ واتّبع في ذلك هواه غربة عن الحقّ ومجانبة له، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِين ﴾[1]، وقال لداود ﷺ وقد آتاه الحكم والنبوّة والمال والخلافة: ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ . . . ﴾[2] الآية إلى آخرها.

فأمير المؤمنين يسأل الله أن يعصم له نفسه ودينَه، وأن يعيذه من غلبة الهوى، ويوفّقه في جميع الأمور لما يحب ويرضى؛ إنه سميع قريب.

وقد رأى أمير المؤمنين أن يردّ زياداً ومَنْ كان من ولده إلى أمّهم ونسبهم المعروف ويلحِقهم بأبيهم عبيد، وأمهم سميّة، ويتّبع في ذلك قول رسول الله ﷺ، وما أجمع عليه الصالحون وأئمة الهدى، ولا يجيز لمعاوية ما أقدم عليه مما يخالف كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وكان أمير المؤمنين أحَقَّ مَنْ أخذ بذلك وعمل به؛ لقرابته من رسول الله ﷺ واتّباعه آثاره وإحيائه سنّته، وإبطاله سنن غيره الزائغة الجائرة عن الحق والهدى، وقد قال الله جلّ وعزّ: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾[3].

فاعلم أن ذلك من رأى أمير المؤمنين في زياد، وما كان من ولد زياد فألحقهم بأبيهم زياد بن عبيد، وأمهم سميّة، وأحملهم عليه، وأظهره لمن قبلَك من المسلمين حتى يعرفوه ويستقيم فيهم؛ فإن أمير المؤمنين قد كتب إلى قاضي البصرة وصاحب ديوانهم بذلك. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وكتب معاوية بن عبيد الله في سنة تسع وخمسين ومائة.

فلما وصل الكتاب إلى محمد بن سليمان وقّع بإنقاذه، ثم كُلّم فيهم، فكفّ عنهم؛ وقد كان كتب إلى عبد

---

(١) سورة القصص: ٥٠.

(٢) سورة ص: ٢٦.

(٣) سورة يونس: ٣٢.

الملك بن أيوب بن ظَبْيان النميريّ بمثل ما كتب به إلى محمد، فلم ينفذه لموضعه من قيس، وكراهته أن يخرج أحد من قومه إلى غيرهم.

وفيها كانت وفاة عبيد الله بن صفوان الجُمَحيّ، وهو والٍ على المدينة، فولّيَ مكانه محمد بن عبد الله الكثيريّ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى عُزِل وولّى مكانه زُفَر بن عاصم الهلاليّ. وولّى المهديّ قضاء المدينة فيها عبد الله بن محمد بن عمران الطَّلْحِيّ.

وفيها خرج عبد السلام الخارجيّ، فقتِل.

وفيها عزِل بِسْطام بن عمرو عن السِّند، واستعمل عليها رَوْح بن حاتم.

وحجّ بالناس في هذه السنة المهديّ، واستخلف على مدينته حين شخص عنها ابنَه موسى، وخلّف معه يزيد بن منصور خال المهديّ وزيراً له ومدبّراً لأمره.

وشخص مع المهديّ في هذه السنة ابنه هارون وجماعة من أهل بيته؛ وكان ممَّن شخص معه يعقوب بن داود، على منزلته التي كانت له عنده؛ فأتاه حين وافى مكة الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن الذي استأمن له يعقوب من المهديّ على أمانه، فأحسن المهديّ صلته وجائزته، وأقطعه مالا من الصّوافي بالحجاز.

وفيها نزع المهديّ كسوة الكعبة التي كانت عليها، وكساها كسوة جديدة؛ وذلك أن حَجَبة الكعبة ـ فيما ذكر ـ رفعوا إليه أنهم يخافون على الكعبة أن تهدم لكثرة ما عليها من الكسوة، فأمر أن يُكشف عنها ما عليها من الكسوة حتى بقيت مجرّدة، ثم طُلِي البيت كله بالخَلُوق، وذُكر أنهم لما بلغوا إلى كسوة هشام وجدوها ديباجاً ثخيناً جيداً، ووجدوا كسوة مَنْ كان قبله عامّتها من متاع اليمن.

وقسم المهديّ في هذه السنة بمكة في أهلها ـ فيما ذكر ـ مالا عظيماً، وفي أهل المدينة كذلك؛ فذكر أنه نُظر فيما قسم في تلك السفرة فوُجد ثلاثين ألف ألف درهم، حُملت معه، ووصلت إليه من مصر ثلاثمائة ألف دينار، ومن اليمن مائتا ألف دينار، فقسّم ذلك كلّه. وفرّق من الثياب مائة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب، ووسّع في مسجد رسول الله ﷺ، وأمر بنزع المقصورة التي في مسجد الرسول ﷺ فنزعت، وأراد أن ينقص منبر رسول الله ﷺ فيعيده إلى ما كان عليه، ويلقى منه ما كان معاوية زاد فيه؛ فذكر عن مالك بن أنس أنه شاور في ذلك، فقيل له: إن المسامير قد سلكت في الخشب الذي أحدثه معاوية، وفي الخشب الأول وهو عتيق، فلا نأمن إن خرجت المسامير التي فيه وزعزعت أن يتكسّر، فتركه المهديّ.

وأمر أيام مقامه بالمدينة بإثبات خمسمائة رجل من الأنصار ليكونوا معه حرساً له بالعراق وأنصاراً، وأجرى عليهم أرزاقا سوى أعطياتهم، وأقطعهم عند قدومهم معه ببغداد قطيعة تعرف بهم.

وتزوّج في مقامه بها برقيّة بنت عمرو العثمانية.

وفي هذه السنة حمل محمد بن سليمان الثلج للمهديّ، حتى وافى به مكة، فكان المهديّ أوّل من حُمل له الثلج إلى مكة من الخلفاء.

وفيها ردّ المهديّ على أهل بيته وغيرهم قطائعهم التي كانت مقبوضة عنهم.

وكان على صلاة الكوفة وأحداثها في هذه السنة إسحاق بن الصباح الكندي، وعلى قضائها شريك.

وعلى البصرة وأحداثها وأعمالها المفردة وكُور دِجلة والبحرين وعُمان وكُور الأهواز وفارس محمد بن سليمان. وكان على قضاء البصرة فيها عبيد الله بن الحسن. وعلى خراسان معاذ بن مسلم، وعلى الجزيرة الفضل بن صالح، وعلى السِّند رَوْح بن حاتم. وعلى إفريقيّة يزيد بن حاتم. وعلى مصر محمد بن سليمان أبو ضمرة.

ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فممّا كان من ذلك خروج حكيم المقنّع بخُراسان من قرية من قرى مَرْو وكان ـ فيما ذكر ـ يقول بتناسخ الأرواح، يعود ذلك إلى نفسه، فاستغوى بشراً كثيراً؛ وقويَ وصار إلى ما وراء النهر، فوجّه المهديّ لقتاله عِدّة من قُوّاده؛ فيهم مُعاذ بن مسلم؛ وهو يومئذ على خُراسان، ومعه عُقْبة بن مسلم وجبرئيل بن يحيى وليث مولى المهديّ، ثم أفرد المهديّ لمحاربته سعيداً الحَرَشيّ، وضمّ إليه، القوّاد؛ وابتدأ المقنّع بجمع الطعام عُدّةً للحصار في قلعة بكشّ.

وفيها ظفر نصر بن محمد بن الأشعث الخزاعيّ بعبد الله بن مروان بالشأم؛ فقدم به على المهديّ قبل أن يولّيَه السِّند، فحبسه المهديّ في المطْبق؛ فذكر أبو الخطاب أن المهديّ أُتي بعبد الله بن مروان بن محمّد ـ وكان يكنى أبا الحكم ـ فجلس المهديّ مجلسا عامًّا في الرّصافة، فقال: مَنْ يعرف هذا؟ فقام عبد العزيز بن مسلم العُقَيليّ، فصار معه قائماً، ثم قال له: أبو الحكم؟ قال: نعم ابنُ أمير المؤمنين، قال: كيف كنت بعدي؟ ثم التفت إلى المهديّ، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، هذا عبد الله بن مروان. فعجب الناس من جُرأته، ولم يعرض له المهديّ بشيء.

قال: ولما حبس المهديّ عبد الله بن مروان احتِيل عليه، فجاء عمرو بن سهلة الأشعريّ فادّعى أن عبد الله بن مروان قتل أباه، فقدّمه إلى عافية القاضي، فتوجّه عليه الحُكْم أن يقادَ به، وأقام عليه البيّنة، فلما كان الحُكْم يبرَم جاء عبد العزيز بن مسلم العقيليّ إلى عافية القاضي يتخطّى رقاب الناس؛ حتى صار إليه، فقال: يزعم عمرو بن سهلة أن عبد الله بن مروان قتل أباه؛ كذب والله ما قتل أباه غيري؛ أنا قتلتُه بأمرِ مروان، وعبدُ الله بن مروان من دمه بريء. فزالت عن عبد الله بن مروان، ولم يعرض المهديّ لعبد العزيز بن مسلم لأنه قتله بأمر مروان.

وفيها غزا الصّائفة ثمامة بن الوليد، فنزل دابق، وجاشت الرّوم وهو مغترّ، فأتت طلائعه وعيونه بذلك، فلم يحفل بما جاؤوا به، وخرج إلى الرّوم، وعليها ميخائيل بسرَعان الناس، فأصيب من المسلمين عِدّة، وكان عيسى بن عليّ مرابطاً بحصن مَرْعش يومئذ، فلم يكن للمسلمين في ذلك العام صائفة من أجل ذلك.

وفيها أمر المهديّ ببناء القصور في طريق مكة أوسع من القصور التي كان أبو العباس بناها من القادسيّة إلى زُبالة، وأمر بالزيادة في قصور أبي العباس، وترك منازل أبي جعفر التي كان بناها على حالها، وأمر باتّخاذ المصانع في كلّ منهل، وبتجديد الأميال والبرَك، وحفر الرّكايا مع المصانع، وولّي ذلك يقطين بن موسى، فلم

يزل ذلك إليه إلى سنة إحدى وسبعين ومائة، وكان خليفة يقطين في ذلك أخوه أبو موسى.

وفيها أمر المهديّ بالزيادة في مسجد الجامع بالبصرة، فزيد فيه من مقدّمه ممّا يلي القبلة، وعن يمينه مما يلي رحبة بني سُليم، وولّي بناء ذلك محمد بن سليمان وهو يومئذ والي البصرة.

وفيها أمر المهديّ بنزع المقاصير من مساجد الجماعات وتقصير المنابر وتصييرها إلى المقدار الذي عليه منبر رسول الله ﷺ، وكتب بذلك إلى الآفاق فعُمل به.

وفيها أمر المهديّ يعقوب بن داود بتوجيه الأمناء في جميع الآفاق، فعمِل به، فكان لا ينفذ للمهديّ كتاب إلى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب بن داود إلى أمينه وثقته بإنفاذ ذلك.

وفيها اتّضعت منزلة أبي عبيد الله وزير المهديّ، وضمّ يعقوب إليه من متفقهة البصرة وأهل الكوفة وأهل الشأم عدداً كثيراً، وجعل رئيس البصريين والقائم بأمرهم إسماعيل بن عُلَيَّة الأسديّ ومحمد بن ميمون العنبريّ، وجعل رئيس أهل الكوفة وأهل الشأم عبد الأعلى بن موسى الحلبيّ.

ذكر السبب الذي من أجله
تغيرت منزلة أبي عبيد الله عند المهديّ

قد ذكرنا سببَ اتّصاله به الذي كان قبلُ في أيام المنصور وضمّ المنصور إياه إلى المهديّ حين وجّهه إلى الرّيّ عند خلْع عبد الجبار بن عبد الرحمن المنصور، فذكر أبو زيد عمر بن شبّة، أنّ سعيد بن إبراهيم حدّثه أن جعفر بن يحيى حدّثه أنّ الفضل بن الرّبيع أخبره، أنّ الموالي كانوا يشنّعون على أبي عبيد الله عند المهديّ، ويسعَوْن عليه عنده؛ فكانت كتب أبي عبيد الله تنفذ عند المنصور بما يريد من الأمور، وتتخلّى الموالي بالمهديّ؛ فيبلّغونه عن أبي عبيد الله، ويحرِّضونه عليه.

قال الفضل: وكانت كتب أبي عبيد الله تصِل إلى أبي تَتْرَى، يشكو الموالي وما يلقى منهم، ولا يزال يذكره عند المنصور ويخبره بقيامه، ويستخرج الكتب عنه إلى المهديّ بالوَصاة به، وترك القبول فيه. قال: فلمّا رأى أبو عبيد الله غلبَة الموالي على المهديّ، وخَلْوَتهم به نظر إلى أربعة رجال من قبائل شتّى من أهل الأدب والعلم، فضمّهم إلى المهديّ، فكانوا في صحابته، فلم يكونوا يَدعون الموالي يتخلّوْن به.

ثم إنّ أبا عبيد الله كلّم المهديّ في بعض أمره إذ اعترض رجل مَن هؤلاء الأربعة في الأمر الذي تكلّم فيه، فسكت عنه أبو عبيد الله، فلم يرادّه، وخرج فأمر أن يحجب عن المهديّ فحجبه عنه؛ وبلغ ذلك من خبره أبي.

قال: وحجّ أبي مع المنصور في السنة التي مات فيها، وقام أبي من أمر المهديّ بما قام به من أمر البيعة وتجديدها على بيت المنصور والقوّاد والموالي؛ فلما قدم تلقّيتُه بعد المغرب، فلم أزل معه حتى تجاوز منزله، وترك دار المهديّ، ومضى إلى أبي عبيد الله، فقال: يا بنيّ، هو صاحب الرجل، وليس ينبغي أن نعامله على ما كنّا نعامله عليه؛ ولا أن نحاسبه بما كان منا في أمره من نصرتنا له. قال: فمضينا حتى أتينا باب أبي عبيد الله؛ فما زال واقفاً حتى صلّيتُ العَتَمة، فخرج الحاجب، فقال: ادخل، فثنى رجلَه وثنيتُ رجلي. قال: إنما استأذنتُ لك يا أبا الفضل وحدَك. قال: اذهب فأخبِره أنّ الفضل معي. قال: ثم أقبل عليّ، فقال: وهذا أيضاً من ذلك!

قال: فخرج الحاجب، فأذن لنا جميعاً، فدخلنا أنا وأبي، وأبو عبيد الله في صدر المجلس، على مصلًّى متكىءٌ على وسادة، فقلت: يقوم إلى أبي إذا دخل إليه، فلم يقم إليه، فقلت: يستوي جالساً إذا دنا، فلم يفعل، فقلت: يدعو له بمصلى، فلم يفعل، فقعد أبي بين يديه على البساط وهو متكىء، فجعل يسائله عن مسيره وسفره وحاله، وجعل أبي يتوقع أن يسأله عمّا كان منه في أمرِ المهديّ وتجديد بيعته، فأعرض عن ذلك، فذهب أبي يبتدئه بذكره، فقال: قد بلَغنا نبأكم، قال: فذهب أبي لينهض، فقال: لا أرى الدُّروب إلّا وقد غُلّقت، فلو أقمت! قال: فقال أبي: إن الدروب لا تغلَق دوني، قال: بلى قد أغلقت. قال: فظنّ أبي أنه يريد أن يحتَبسه ليسكن من مسيره، ويريد أن يسأله؛ قال: فأقيمُ. قال: يا فلان، اذهب فهيّىء لأبي الفضل في منزل محمد بن أبي عبيد الله مبيتاً. فلما رأى أنه يريد أن يخرج من الدّار، قال: فليس تُغْلَق الدروب دوني فأعتزم. ثم قام، فلما خرجنا من الدار أقبل عليّ فقال: يا بنيّ، أنت أحمق، قلت: وما حمقي أنا! قال: تقول لي: كان ينبغي لك ألاّ تجيء، وكان ينبغي إذا جئت فحجبنا ألاّ تقيم حتى صلّيتَ العَتَمَة، وأن تنصرف ولا تدخل؛ وكان ينبغي إذا دخلتَ فلم يقيم إليك أن ترجعَ ولا تقيم عليه؛ ولم يكن الصوابُ إلاّ ما عملتُ كلّه؛ ولكن والله الذي لا إله إلا هو - واستغلق في اليمين - لأخلعنّ جاهي، ولأنفقنّ مالي حتى أبلغ من أبي عبيد الله.

قال: ثم جعل يضطرب بجَهده، فلا يجد مساغاً إلى مكروهه، ويحتال الجدّ إذ ذكر القُشيريّ الذي كان أبو عبيد الله حجبَه، فأرسل إليه فجاءه، فقال: إنّك قد علمت ما ركبك به أبو عبيد الله، وقد بلغ مني كلّ غاية من المكروه، وقد أرغْتُ أمره بجهدي؛ فما وجدت عليه طريقاً، فعندك حيلة في أمره؟ فقال: إنما يؤتَى أبو عبيد الله من أحدِ وجوهٍ أذكرها لك. . . . يقال: هو رجل جاهل بصناعته وأبو عبيد الله أحذق الناس، أو يقال: هو ظَنين في الدّين بتقليده، وأبو عبيد الله أعفّ الناس؛ لو كان بنات المهديّ في حِجره لكان لهنّ موضع، أو يقال: هو يميل إلى أن يخالف السلطان فليس يؤتى أبو عبيد الله من ذلك؛ إلاّ أنه يميل إلى القَدَر بعضَ المَيْل؛ وليس يتسلّق عليه بذاك أن يقال: هو متّهم؛ ولكن هذا كلّه مجتمع لك في ابنه؛ قال: فتناوله الرّبيع، فقبَّل بين عينه، ثم دبّ لابن أبي عبيد الله؛ فوالله ما زال يحتال ويدسّ إلى المهديّ ويتهمه ببعض حُرمِ المهديّ؛ حتى استحكم عند المهديّ الظنَّة بمحمد بن أبي عبيد الله، فأمر فأحضر، وأخرِج أبو عبيد الله. فقال: يا محمد اقرأ، فذهب ليقرأ، فاستعجم عليه القرآن، فقال: يا معاوية ألم تعلمني أنّ ابنك جامع للقرآن؟ قال: أخبرتك يا أميرَ المؤمنين، ولكن فارقني منذ سنين؛ وفي هذه المدّة التي نأى فيها عني نسيَ القرآن، ، قال: قم فتقرّب إلى الله في دمه، فذهب ليقوم فوقع، فقال العبّاس بن محمد: إن رأيت يا أميرَ المؤمنين أن تعفي الشيخ! قال: ففعل، وأمر به فأخرِج، فضربت عنقه.

قال: فاتّهمه المهديّ في نفسه، فقال له الربيع: قتلت ابنَه، وليس ينبغي أن يكون معك، ولا أن تثق به. فأوحش المهديّ؛ وكان الذي كان من أمره وبلغ الربيع ما أرادَ، واشتفى وزاد.

وذكر محمد بن عبد الله يعقوبَ بن داود، قال: أخبرَني أبي، قال: ضرب المهديّ رجلاً من الأشعريّين، فأوجعه، فتعصّب أبو عبيد الله - وكان مولًى لهم، فقال: القتل أحسنُ من هذا يا أمير المؤمنين، فقال له المهديّ: يا يهوديّ، اخرج من عسكري لعنك الله. قال: ما أدري إلى أين أخرج إلاّ إلى النار! قال: قلت: يا أمير المؤمنين، أحْرِ بهذا أن لمثلها يتوقع، قال: فقال لي: سبحان الله يا أبا عبيد الله!

وفيها غزا الغمر بن العبّاس في البحر.

وفيها ولّيَ نَصر بن محمد بن الأشعث السّند مكان رَوْح بن حاتم، وشخص إليها حتى قدمها ثم عُزل، ووُلّيَ مكانه محمد بن سليمان، فوجّه إليها عبدالملك بن شهاب المِسمعيّ، فقدمها على نصر، فبغتَه، ثم أذن له في الشخوص، فشخص حتى نزل الساحل على ستّة فراسخ من المنصورة؛ فأتى نصر بن محمد عهده على السِّند، فرجع إلى عمله؛ وقد كان عبد الملك أقام بها ثمانية عشر يوماً، فلم يعرِض له، فرجع إلى البصرة.

وفيها استقضى المهديّ عافية بن الأزديّ، فكان هو وابن علاثة يقضيان في عسكر المهديّ في الرُّصافة؛ وكان القاضي بمدينة الشرقية عمر بن حبيب العدويّ.

وفيها عَزل الفضل بن صالح عن الجزيرة، واستعمل عليها عبد الصمد بن عليّ.

وفيها استعمَل عيسى بن لقمان على مصر.

وفيها ولّى يزيد بن منصور سَواد الكوفة وحسان الشرَويّ الموصل وبِسطام بن عمرو التغلبي أذرَبيجان.

وفيها عزل أبا أيوب المسمى سليمان المكيّ عن ديوان الخراج، ووُلِّي مكانه أبو الوزير عمر بن مطرّف.

وفيها تُوفِّيَ نصر بن مالك من فالج أصابه. ودفن في مقابر بني هاشم وصلّى عليه المهديّ.

وفيها صرف أبان بن صدقة عن هارون بن المهدي إلى موسى بن المهديّ، وجعل له كاتباً ووزيراً، وجعل مكانه مع هارون بن المهديّ يحيى بن خالد بن بَرْمك.

وفيها عزل محمد بن سليمان أبا ضَمْرة عن مصر في ذي الحجّة المهديّ وولّاها سلمة بن رجاء.

وحجّ بالناس في هذه السنة موسى بن محمد بن عبد الله الهادي، وهو وليّ عهد أبيه.

وكان عامل الطائف ومكة واليمامة فيها جعفر بن سليمان، وعلى صلاة الكوفة وأحداثها إسحاق بن الصبّاح الكندِيّ، وعلى سوادها يزيد بن منصور.

ثم دخلت سنة اثنتين وستين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من مقتل عبد السلام الخارجيّ بِقِنَّسْرين.

ذكر الخبر عن مقتله:

ذكر أن عبد السلام بن هاشم اليَشكريّ هذا خرج بالجزيرة، وكثر بها أتباعه، واشتدّت شوكته، فلقيه من قوّاد المهديّ عِدّة، منهم عيسى بن موسى القائد، فقتله في عدّة ممّن معه، وهزم جماعة من القوّاد، فوجّه إليه المهديّ الجنودَ، فنكب غير واحد من القوّاد، منهم شبيب بن واج المَرْورُّوذيّ، ثم ندب إلى شبيب ألف فارس، أعطى كلّ رجل منهم ألف دِرهم معونة، وألحقهم بشبيب فوافوْه، فخرج شبيب في أثر عبد السلام، فهرب منهم حتى أتى قِنسرين، فلحقه بها فقتله.

وفيها وضع المهديُّ دواوين الأزمّة، وولّى عليها عمر بن بَزِيع مولاه، فولّى عمر بن بَزِيع النّعمانَ بن عثمان أبا حازم زمام خراج العراق.

وفيها أمر المهديُّ أن يجرَى على المجذّمين وأهل السجون في جميع الآفاق.

وفيها ولّى ثُمامة بن الوليد العبسيّ الصّائفة، فلم يتمّ ذلك.

وفيها خرجت الرّوم إلى الحدَث، فهدموا سورها.

وغزا الصّائفة الحسن بن قحطبة في ثلاثين ألف مرتزق سوى المطّوّعة، فبلغ حَمّة أذْرُوليّة، فأكثر التخريب والتحريق في بلاد الروم من غير أن يفتح حصناً، ويلقى جمعاً، وسمّته الروم التنّين. وقيل: إنه إنما أتى هذه الحمّة الحسنُ ليستنقع فيها للوضَح الذي كان به؛ ثم قفل بالناس سالمين. وكان على قضاء عسكره وما يجتمع من الفيء حَفْص بن عامر السُّلَميّ.

قال: وفيها غزا يزيد بن أسَيْد السُّلَميّ من باب قالِيقَلا، فغنم وفتح ثلاثة حصون، وأصاب سَبْياً كثيراً وأسْرى.

وفيها عُزل عليّ بن سليمان عن اليمن، ووَلِّيَ مكانه عبد الله بن سليمان.

وفيها عُزِل سلمـة بن رجاء عن مصر، ووليها عيسى بن لقمان، في المحرّم، ثم عزل في جُمادى الآخرة، ووليَها واضح مولى المهديّ، ثم عزل في ذي القَعْدة ووليَها يحيى الحَرَشيّ.

وفيها ظهرت المحمّرة بجُرْجان، عليهم رجل يقال له عبد القهار، فغلب على جُرجان، وقتل بشراً كثيراً، فغزاه عمر بن العلاء من طَبَرِستْان، فقتل عبد القهار وأصحابه.

وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن جعفر بن المنصور؛ وكان العباس بن محمد استأذن المهديّ في الحجّ بعد ذلك، فعاتبه على ألّا يكون استأذنه قبل أن يولّيَ الموسم أحداً فيوليه إياه، فقال: يا أمير المؤمنين، عمداً أخّرْتُ ذلك لأني لم أرِد الولاية.

وكانت عمال الأمصار عمالها في السنة التي قبلها. ثم إن الجزيرة كانت في هذه السنة إلى عبد الصمد بن عليّ وطَبَرِستان والرُّويان إلى سعيد بن دَعْلَج، وجُرجان إلى مهلهل بن صفوان.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة

ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

فمن ذلك ما كان فيها من هلاك المقنّع؛ وذلك أن سعيداً الحَرَشيّ حصره بكش، فاشتدّ عليه الحصار، فلما أحسّ بالهلكة شرب سُمّاً، وسقاه نساءه وأهله، فمات وماتوا ـ فيما ذكر ـ جميعاً، ودخل المسلمون قلعته، واحتزّوا رأسه، ووجّهوا به إلى المهديّ وهو بحلب.

وفيها قطع المهديّ البعوثَ للصائفة على جَميع الأجناد من أهل خُراسان وغيرهم، وخرج فعسكر بالبَرَدان، فأقام به نحواً من شهرين يتعبّأ فيه ويتهيّأ، ويعطي الجنود، وأخرج بها صِلات لأهل بيته الذين شخصوا معه، فتوُفِّيَ عيسى بن عليّ في آخر جمادى الآخرة ببغداد. وخرج المهديّ من الغد إلى البَرَدان متوجّهاً إلى الصائفة، واستخلف ببغداد موسى بن المهديّ، وكاتبه يومئذ أبان بن صدقة؛ وعلى خاتمه عبد الله بن عُلاثة، وعلى حرسه عليّ بن عيسى، وعلى شُرَطه عبد الله بن خازم، فذكر العباس بن محمد أنّ المهديّ لما وجّه الرشيد إلى الصائفة سنة ثلاث وستين ومائة خرج يشيّعه وأنا معه؛ فلما حاذى قصر مسلمة، قلت: يا أمير المؤمنين، إن لمسلمَة في أعناقنا مِنّةً؛ كان محمد بن عليّ مرّ به، فأعطاه أربعة آلاف دينار، وقال له: يابن عمّ هذان ألفان لدَينك، وألفان لمعونتك، فإذا نفدت فلا تحتشمنا. فقال لما حدثته الحديث: أحضِروا مَنْ ها هنا من ولد مسلَمة ومواليه، فأمر لهم بعشرين ألف دينار، وأمر أن تُجْرَى عليهم الأرزاق، ثم قال: يا أبا الفضل، كافأنا مسلمة وقضينا حقه؟ قلت: نعم، وزدتَ يا أمير المؤمنين.

وذكر إبراهيم بن زياد، عن الهيثم بن عدّي، أن المهديّ أغزى هارون الرشيد بلادَ الرّوم، وضمّ إليه الربيع الحاجب والحسن بن قحطبة.

قال محمّد بن العباس: إنّي لقاعد في مجلس أبي في دار أمير المؤمنين وهو على الحرَس؛ إذ جاء الحسن بن قحطبة، فسلّم عليّ، وقعد على الفراش الذي يقعد أبي عليه، فسأل عنه فأعلمتُه أنه راكب، فقال لي: يا حبيبي أعلمه أني جئت، وأبلغه السلام عني، وقل له: إن أحبّ أن يقول لأمير المؤمنين: يقول الحسن بن قحطبة: يا أميرَ المؤمنين؛ جعلني الله فداك! أغزيتَ هارون، وضممتني والرّبيع إليه، وأنا قريع قوّادك، والربيع قريع مواليك، وليس تطيب نفسي بأن نُخَلِّيَ جميعاً بابك؛ فإمّا أغزيتني مع هارون وأقام الربيع، وإما أغزيتَ الربيع وأقمتُ ببابك. قال: فجاء أبي فأبلغته الرسالة، فدخل على المهديّ فأعلمه، فقال: أحسن والله الاستعفاء؛ لا كما فعل الحجام بن الحجام ـ يعني عامر بن إسماعيل ـ وكان استعفى من الخروج مع إبراهيم فغضب عليه، واستصفى ماله.

وذكر عبد الله بن أحمد بن الوضّاح، قال: سمعت جدي أبا بُديل، قال: أغزى المهديّ الرشيد، وأغزى معه موسى بن عيسى وعبد الملك بن صالح بن عليّ ومولَيَيْ أبيه: الربيع الحاجب والحسن الحاجب؛ فلمّا فصل دخلت عليه بعد يومين أو ثلاثة، فقال: ما خلّفك عن وليّ العهد، وعن أخويْك خاصّة؟ يعني الربيع والحسن الحاجب. قلت: أمر أمير المؤمنين ومقامي بمدينة السلام حتى يأذن لي. قال: فسر حتى تلحق به وبهما؛ واذكر ما تحتاج إليه. قال: قلت: ما أحتاج إلى شيء من العُدّة؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في وَداعه! فقال لي: متى تراك خارجاً؟ قال: قلت من غدٍ، قال: فودّعته وخرجت، فلحقت القوم. قال: فأقبلتُ أنظر إلى الرّشيد يخرج، فيضرب بالصَّوالجة، وأنظر إلى موسى بن عيسى وعبد الملك بن صالح؛ وهما يتضاحكان منه.

قال: فصرت إلى الربيع والحسن ـ وكنّا لا نفترق ـ قال: فقلت: لا جزاكما الله عمّن وجّهكما ولا عمن وُجّهتما معه خيراً؛ فقالا: إيهٍ، وما الخبر؟ قال: قلت: موسى بن عيسى وعبد الملك بن صالح يتضاحكان من ابن أمير المؤمنين، أوَمَا كنتما تقدران أن تجعلا لهما مجلساً يدخلان عليه فيه ولمن كان معه من القوّاد في الجمعة يدخلون عليه ويخلّوه في سائر أيامه لما يريد! قال: فبينا نحن في ذلك المسير إذ بعثا إليّ في الليل. قال: فجئت وعندهما رجل، فقالا لي: هذا غلام الغمر بن يزيد، وقد أصبنا معه كتاب الدولة. قال: ففتحت الكتابَ، فنظرت فيه إلى سِنِي المهديّ فإذا هي عشر سنين. قال: فقلت: ما في الأرض أعجب منكما! أترياان أنّ خبر هذا الغلام يخفى، وأنّ هذا الكتاب يستتر! قالا: كلّا، قلت: فإذا كان أمير المؤمنين قد نقص من سنيه ما نقص، أفلستم أوّلَ مَنْ نعى إليه نفسَه! قال: فتبلّدوا والله، وسُقط في أيديهما، فقالا: فما الحيلةُ؟ قلت: يا غلام عليّ بعنبسة ـ يعني الوراق الأعرابي مولى آل أبي بديل ـ فأُتِيَ به، فقلت له: خطّ مثل هذا الخطّ، وورقة مثل هذه الورقة، وصيّر مكان عشر سنين أربعين سنة، وصيرها في الورقة، قال: فوالله لولا أني رأيتُ العشر في تلك والأربعين في هذه ما شككت أن الخَطّ ذلك الخط، وأن الورقة تلك الورقة.

قال: ووجّه المهديّ خالد بن برمك مع الرّشيد وهو وليّ العهد حين وجّهه لغزو الروم، وتوجّه معه الحسن وسليمان ابنا برمك، ووجّه معه على أمر العسكر ونفقاته وكتابته والقيام بأمره يحيى بن خالد ـ وكان أمر هارون كلّه أليه ـ وصُيِّر الربيع الحاجب مع هارون يغزو عن المهديّ، وكان الذي بين الربيع ويحيى على حسب ذلك؛ وكان يشاورهما ويعمل برأيهما؛ ففتح الله عليهم فتوحاً كثيرة، وأبلاهم في ذلك الوجه بلاءً جميلاً، وكان لخالد في ذلك بسَمَالو أثر جميل لم يكن لأحد؛ وكان منجّمهم يسمى البرمكيّ تبرّكاً به، ونظراً إليه. قال: ولما ندب المهديّ هارون الرشيد لما ندبَه له من الغَزْو، أمر أن يدخل عليه كتّاب أبناء الدّعْوة لينظر إليهم ويختار له منهم رجلاً.

قال يحيى: فأدخلوني عليه معهم، فوقفوا بين يديه، ووقفت آخرهم، فقال لي: يا يحيى، ادنُ، فدنوت، ثم قال لي: اجلس، فجلست فجثوتُ بين يديه، فقال لي: إني قد تصفحت أبناء شيعتي وأهل دولتي، واخترت منهم رجلاً لهارون ابني أضمّه إليه ليقوم بأمر عسكره ويتولى كتابته، فوقعتْ عليك خيرتي له، ورأيتك أوْلَى به؛ إذ كنت مربّيَه وخاصتّه، وقد ولّيتك كتابتَه وأمْرَ عسكره. قال: فشكرتُ ذلك له، وقبّلت يدَه، وأمر لي بمائة ألف درهم معونةً على سفري، فوُجّهت في ذلك العسكر لما وُجِّهت له.

قال: وأوفد الربيعُ سليمانَ بن برمك إلى المهديّ، وأوفد معه وفداً، فأكرم المهديّ وفادته وفضله،

وأحسن إلى الوفد الذين كانوا معه، ثم انصرفوا من وجههم ذلك.

وفي هذه السنة؛ سنة مسير المهديّ مع ابنه هارون، عزل المهديّ عبد الصمد بن عليّ عن الجزيرة، وولّى مكانه زفر بن عاصم الهلاليّ.

ذكر السبب في عزله إياه:

ذُكر أن المهديّ سلك في سَفْرته هذه طريق الموصل، وعلى الجزيرة عبد الصمد بن عليّ، فلما شخص المهديّ من الموصِل، وصار بأرض الجزيرة، لم يتلقَّه عبد الصمد ولا هيّأ له نُزُلاً، ولا أصلح له قناطر. فاضطغن ذلك عليه المهديّ، فلما لقيه تجهّمه وأظهر له جفاءً، فبعث إليه عبد الصمد بألطافٍ لم يرضَها، فردَّها عليه، وازْدَاد عليه سخطاً، وأمر بأخذه بإقامة النُّزُول له، فتعبَّث في ذلك، وتقنَّع، ولم يزل يربي ما يكرهه إلى أن نزل حصن مسلمة، فدعا به، وجرى بينهما كلامٌ أغلظ له فيه القولَ المهديّ، فردّ عليه عبد الصمد ولم يحتمله، فأمر بحبسه وعَزْله عن الجزيرة، ولم يزل في حبسه في سفره ذلك وبعد أن رجع إلى أن رضي عنه. وأقام له العبّاس بن محمد النُّزُل، حتى انتهى إلى حلَب، فأتته البشرى بها بقتل المقنّع، وبعث وهو بها عبد الجبار المحتسب لجلب من بتلك الناحية من الزنادقة. ففعل، وأتاه بهم، وهو بدابق، فقتل جماعة منهم وصلّبهم، وأُتِيَ بكتب من كتبهم فقطِّعت بالسكاكين ثم عرض بها جندَه، وأمر بالرحلة، وأشخص جماعة مَن وافاه من أهل بيته مع ابنه هارون إلى الروم، وشيّع المهديّ ابنَه هارون حتى قطع الدّرْب، وبلغ جيحان، وارتاد بها المدينة التي تسمى المهدّية، وودّع هارون على نهر جيحان. فسار هارون حتى نزل رستاقاً من رساتيق أرض الرُّوم فيه قَلْعة، يقال لها سَمالو، فأقام عليها ثمانياً وثلاثين ليلة، وقد نصب عليها المجانيق، حتى فتحها الله بعد تخريب لها، وعطش وجوع أصاب أهلها، وبعد قتل وجراحات كانت في المسلمين، وكان فتحها على شروط شرطوها لأنفسهم: لا يُقتَلوا ولا يُرحّلوا، ولا يُفرَق بينهم؛ فأعطُوا ذلك، فنزلوا، ووفّى لهم، وقفل هارون بالمسلمين سالمين إلا من كان أصيب منهم بها.

وفي هذه السنة وفي سَفْرته هذه، صار المهديّ إلى بيت المقدس، فصلّى فيه، ومعه العباس بن محمد والفضل بن صالح وعليّ بن سليمان وخاله يزيد بن منصور.

وفيها عزل المهديّ إبراهيمَ بن صالح عن فلسطين، فسأله يزيد بن منصور حتى ردّه عليها.

وفيها ولّى المهديّ ابنَه هارون المغرب كله وأذْرَبيجان وأرمينيَة، وجعل كاتبه على الخراج ثابت بن موسى، وعلى رسائله يحيى بن خالد بن برمك.

وفيها عَزل زُفَر بن عاصم عن الجزيرة، وولّى مكانه عبد الله بن صالح بن عليّ، وكان المهديّ نزل عليه في مسيره إلى بيت المقدس، فأعجِب بما رأى من منزله بسَلَمْية.

وفيها عزل معاذ بن مسلم عن خُراسان وولاها المسيّب بن زهير.

وعزل فيها يحيى الحرَشيّ عن أصبهان، وولّى مكانه الحكم بن سعيد.

وعزل فيها سعيد بن دَعْلج عن طَبَرستان والرُّويان، وولّاهما عمر بن العَلاء.

وفيها عزل مُهلهل بن صفوان عن جُرجان، وولّاها هشام بن سعيد.

وحجّ بالناس في هذه السنة عليّ بن المهديّ.

وكان على اليمامة والمدينة ومكة والطائف فيها جعفر بن سليمان، وعلى الصلاة والأحداث بالكُوفة إسحاق بن الصباح، وعلى قضائها شريك، وعلى البصرة وأعمالها وكور دِجْلة والبحرين وعُمان والفُرَض وكور الأهواز وكُور فارس محمد بن سليمان، وعلى خُراسان المسيّب بن زهير، وعلى السِّند نصر بن محمد بن الأشعث.

ثم دخلت سنة أربع وستين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك غزوة عبد الكبير بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب من دَرب الحدَث، فأقبل إليه ميخائيل البِطْريق - فيما ذكر - في نحو من تسعين ألفاً، فيهم طازاذ الأرمني البطريق، ففشل عنه عبد الكبير ومنع المسلمين من القتال وانصرف، فأكاد المهديّ ضرب عنقِه، فكُلِّم فيه فحبسه في المطبق.

وفيها عزل المهديّ محمد بن سليمان عن أعماله، ووجّه صالح بن داود على ما كان إلى محمد بن سليمان، ووجّه معه عاصم بن موسى الخراسانيّ الكاتب على الخراج، وأمره بأخذ حمّاد بن موسى كاتب محمد بن سليمان وعبيد الله بن عمر خليفته وعماله وتكشيفهم.

وفيها بَنَى المهديّ بعيساباذ الكبرى قصراً من لَبِن، إلى أن أسس قصره الذي بالآجرّ: الذي سماه قصر السلامة؛ وكان تأسيسه إياه يوم الأربعاء في آخر ذي القعدة.

وفيها شخص المهديّ حين أسس هذا القصر إلى الكوفة حاجّاً، فأقام برُصافة الكوفة أيّاماً، ثم خرج متوجِّهاً إلى الحجّ، حتى انتهى إلى العَقَبة، فغلا عليه وعلى مَنْ معه الماء، وخاف ألاّ يحمله ومَنْ معه ما بين أيديهم، وعرضتْ له مع ذلك حُمّى، فرجع من العقبة، وغضب على يقطين بسبب الماء؛ لأنه كان صاحبَ المصانع، واشتدّ على الناس العَطَش في منصرَفهم وعلى ظهرهم حتى أشفَوْا على الهَلَكة.

وفيها تُوفِّيَ نصر بن محمد بن الأشعث بالسند.

وفيها عزل عبد الله بن سليمان عن اليَمن عن سَخْطة، ووجّه مَنْ يستقبله ويفتش متاعه، ويحصي ما معه، ثم أمر بحبسه عند الرّبيع حين قدم، حتى أقرّ من المال والجوهر والعنبر بما أقرّ به، فردّه إليه، واستعمل مكانه منصور بن يزيد بن منصور.

وفيها وجّه المهديّ صالح بن أبي جعفر المنصور من العَقبَة عند انصرافه عنها إلى مكة ليحجّ بالناس، فأقام صالح للناس الحجّ في هذه السنة.

وكان العامل على المدينة ومكة والطائف واليمامة فيها جعفر بن سليمان، وعلى اليمن منصور بن يزيد بن منصور، وعلى صلاة الكوفة وأحداثِها هاشم بن سعيد بن منصور، وعلى قضائها شريك بن عبد الله، وعلى صلاة البصرة وأحداثها وكُور دِجْلة والبحرين وعُمان والفرض وكُور الأهواز وفارس صالح بن داود بن عليّ، وعلى السِّند سطيح بن عمر، وعلى خُراسان المسيّب بن زهير، وعلى المَوْصِل محمد بن الفضل. وعلى قضاء

البصرة عبيد الله بن الحسن، وعلى مصر إبراهيم بن صالح، وعلى إفريقيّة يزيد بن حاتم، وعلى طَبرِستْان والرّويان وجُرجان يحيى الحَرَشيّ، وعلى دَنْبَاوَنْد وقُومِس فراشة مولى أمير المؤمنين، وعلى الرّيّ خلَف بن عبد الله، وعلى سِجِسْتَان سعيد بن دَعْلَج .

ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلكِ غزوة هارون بن محمد المهدّي الصائفة، ووجّهه أبوه - فيما ذكر - يوم السّبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة غازياً إلى بلاد الروم، وضمّ إليه الربيع مولاه، فوغل هارون في بلاد الروم، فافتتح ماجِدة، ولقيته خيول نقيطا قومس القوامسة، فبارزه يزيد بن مزيد، فأرجل يزيد، ثم سقط نقيطا، فضربه يزيد حتى أثخنَه، وانهزمت الرُّوم، وغلب يزيد على عسكرهم. وسار إلى الدُّمُسْتُق بنقُمودية وهو صاحب المسالح، وسار هارون في خمسة وتسعين ألفا وسبعمائة وثلاثة وتسعين رجلاً، وحمل لهم من العَيْن مائة ألف دينار وأربعة وتسعين ألفا وأربعمائة وخمسين ديناراً، ومن الوَرِق أحداً وعشرين ألف ألف وأربعمائة ألف وأربعة عشر ألفاً وثمانمائة درهم. وسار هارون حتى بلغ خليج البحر الذي على القسطنطينية، وصاحب الرُّوم يومئذ أغُسْطه امرأة أليون؛ وذلك أن ابنها كان صغيراً قد هلك أبوه وهو في حجرها، فجرت بينها وبين هارون بن المهديّ الرّسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة وإعطائه الفِدْية، فقبل ذلك منها هارون، وشرط عليها الوفاء بما أعطت له، وأن تقيم له الأدلّاء والأسواق في طريقه؛ وذلك أنه دخل مدخلاً صعباً مخوّفاً على المسلمين، فأجابته إلى ما سأل، والذي وقع عليه الصلح بينه وبينها تسعون أو سبعون ألف دينار، تؤديها في نيسان الأول في كلّ سنة، وفي حزيران، فقبِل ذلك منها، فأقامت له الأسواق في منصرَفه، ووجّهت معه رسولاً إلى المهديّ بما بذلت على أن تؤدّي ما تيّسر من الذهب والفضة والعَرْض، وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاثة سنين، وسُلِّمَت الأسارَى. وكان الذي أفاء الله على هارون إلى أن أذعنت الروم بالجزية خمسة آلاف رأس وستمائة وثلاثة وأربعين رأساً، وقتل من الروم في الوقائع أربعة وخمسون ألفاً، وقتِل من الأسارى صبراً ألفان وتسعون أسيراً. ومما أفاء الله عليه من الدوابّ الذُّلل بأدراتها عشرون ألف دابّة، وذبح من البقر والغنم مائة ألف رأس. وكانت المرتزقة سوى المطّوعة وأهل الأسواق مائة ألف، وبيع البرذَوْن بدرهم، والبغل بأقلّ من عشرة دراهم، والدّرْع بأقلّ من درهم وعشرين سيفاً بدرهم، فقال مروان بن أبي حفصة في ذلك:

أطفْتَ بِقُسْطَنْطِينَةِ الروم مُسْنِداً ... إليها القَنَا حتى اكتسَى الذّلَّ سورها
ومـا رِمْتَها حتى أتـتـك مُلوكُـهـا ... بِجِـزْيتها، والحَـرْبُ تغلِي قـدورُهـا

وفيها عزل خلَف بن عبد الله عن الريّ، وولّاها عيسى مولى جعفر.

وحجّ بالناس في هذه السنة صالح بن أبي جعفر المنصور.

وكانت عمّال الأمصار في هذه السنة هم عمّالها في السنة الماضية؛ غير أن العامل على أحداث البصرة

والصلاة بأهلها كان رَوْح بن حاتم، وعلى كُور دِجْلة والبحرين وعُمان وكَسْكَر وكُور الأهواز وفارس وكرمان كان المعلّى مولَى أمير المؤمنين المهديّ، وعلى السِّند الليث مولى المهديّ.

ثم دخلت سنة ست وستين ومائة

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فمن ذلك فقول هارون بن المهديّ ؛ ومَنْ كان معه من خليج قسطنطينية في المحرم لثلاث عشرة ليلة بقيت منه، وقدمت الروم بالجزية معهم، وذلك ـ فيما قيل ـ أربعة وستون ألف دينار عـدد الروميّـة وألفان وخمسمائة دينار عربية، وثلاثون ألف رطل مَرْعزيّ.

وفيها أخذ المهديّ البيعةَ على قُوّاده لهارون بعد موسى بن المهديّ، وسماه الرّشيد.

وفيها عَزل عبيد الله بن الحسن عن قَضاء البصرة، ووَلَّى مكانه خالد بن طَلِيق بن عمران بن حصين الخُزاعيّ، فلم تُحْمَد ولايته، فاستعفى أهل البصرة منه.

وفيها عزل جعفر بن سليمان عن مكة والمدينة، وما كان إليه من العمل.

وفيها سخط المهديّ على يعقوب بن داود.

ذكر الخبر عن غضب المهديّ على يعقوب

ذكر عليّ بن محمد النوفليّ، قال: سمعت أبي يذكر، قال: كان داود بن طَهْمان ـ وهو أبو يعقوب بن داود ـ وإخوته كتّاباً لنصر بن سيّار، وقد كتب داود قبله لبعض وُلاة خراسان، فلما كانت أيام يحيى بن زيد كان يدسّ إليه وإلى أصحابه بما يسمع من نصر، ويحذّرهم؛ فلما خرج أبو مسلم يطلب بدم يحيى بن زيد ويقتل قَتَلته والمعيّنين عليه من أصحاب نصر، أتاه داود بن طَهْمان مطمئناً لما كان يعلم ممّا جرى بينه وبينه، فآمنه أبو مسلم، ولم يعرِض له في نفسه، وأخذ أمواله التي استفاد أيام نصر، وترك منازله وضِيعَه التي كانت له ميراثاً بمَرْو، فلما مات داود خرج ولده أهلَ أدب وعلم بأيام الناس وسيرهم وأشعارهم ونظروا فإذا ليست لهم عند بني العباس منزلة، فلم يطمعوا في خدمتهم لحال أبيهم من كتابة نصر؛ فلما رأوا ذلك أظهروا مقالة الزيديّة، ودنوْا من آل الحسين، وطمعوا أن يكون لهم دَوْلة فيعيشوا فيها. فكان يعقوب يجول البلاد منفرداً بنفسه، ومع إبراهيم بن عبدالله احياناً، في طلب البيعة لمحمد بن عبد الله، فلما ظهر محمد وإبراهيم بن عبدالله كتب عليّ بن داود ـ وكان أسنّ من يعقوب ـ لإبراهيم بن عبدالله، وخرج يعقوب مع عدّة من إخوته مع إبراهيم؛ فلما قتِل محمد وإبراهيم توارَوْا من المنصور، فطلبهم فأخذ يعقوب وعليًّا فحبسهما في المطبَق أيّام حياته، فلما تُوفِّيَ المنصور منّ عليهما المهديّ فيمن منّ عليه بتخلية سبيله، وأطلقهما. وكان معهما في المطبق إسحاق بن الفضل بن عبد الرحمن ـ وكانا لا يفارقانه ـ وإخوته الذين كانوا محتَبَسين معه، فجرت بينهم بذلك الصداقة. وكان إسحاق بن الفضل بن عبد الرحمن يرى أنّ الخلافة قد تجوز في صالحي بني هاشم جميعاً، فكان

يقول: كانت الإمامة بعد رسول الله ﷺ لا تصلُح إلا في بني هاشم؛ وهي في هذا الدهر لا تصلح إلا فيهم؛ وكان يكثر في قوله للأكبر من بني عبد المطلب؛ وكان هو ويعقوب بن داود يتجاريان ذلك؛ فلما خلَّى المهديّ سبيلَ يعقوب مكث المهديّ برهة من دهره يطلب عيسى بن زيد والحسن بن إبراهيم بن عبد الله بعد هرب الحسن من حبسه، فقال المهديّ يوماً: لو وجدتُ رجلاً من الزيديّة له معرفة بآل حسن وبعيسى بن زيد، وله فقه فأجتلبُه إليّ على طريق الفقه، فيدخل بيني وبين آل حسن وعيسى بن زيد! فدُلّ على يعقوب بن داود، فأُتِيَ به فأدخِل عليه، وعليه يومئذ فَرْوٌ وخُفّا كبْل وعمامة كَرابيس وكِساء أبيض غليظ. فكلّمه وفاتحه، فوجده رجلاً كاملاً،فسأله عن عيسى بن زيد؛ فزعم النّاس أنه وعد الدخول بينه وبينه، وكان يعقوب ينتفِي من ذلك؛ إلاّ أنّ الناس قد رموْه بأن منزلته عند المهديّ إنما كانت للسعاية بآل عليّ. ولم يزل أمره يرتفع عند المهديّ ويعلو حتى استوزره، وفوّض إليه أمر الخلافة؛ فأرسل إلى الزيديّة، فأتى بهم منْ كلّ أوب، وولاهم من أمور الخلافة في المشرق والمغرب كلَّ جليل وعمل نفيس، والدنيا كلها في يديه، ولذلك يقول بشار بن برد:

بَـنـي أُمَـيَّـةَ هُـبُّـوا طـالَ نَـومـكُـمُ ... إنَّ الـخَـليـفَـةَ يـعـقـوبُ بـن داودِ

ضـاعَتْ خـلافَتُكمْ يـا قَـوْمِ فـاطَّلِبـوا ... خَـليـفَـةَ الله بَـيْـنَ الـدُّفّ والـعـود

قال: فحسده موالي المهديّ، فسعوْا عليه.

ومما حظِي به يعقوب عند المهديّ، أنه استأمنه للحسن بن إبراهيم بن عبد الله، ودخل بينه وبينه حتى جمع بينهما بمكّة. قال: ولما علم آل الحسن بن عليّ بصنيعه استوحشوا منه، وعلم يعقوب أنه إن كانت لهم دولة لم يعشْ فيها، وعلم أنّ المهديّ لا يناظره لكثرة السعاية به إليه، فمال يعقوب إلى إسحاق بن الفضل، وأقبل يربّصُ له الأمور وأقبلت السعايات تردُ على المهديّ بإسحاق حتى قيل له: إن المشرق والمغرب في يد يعقوب وأصحابه؛ وقد كاتبهم؛ وإنما يكفيه أن يكتب إليهم فيثوروا في يوم واحدٍ على ميعاد، فيأخذوا الدنيا لإسحاق بن الفضل؛ فكان ذلك قد ملأ قلب المهديّ عليه.

قال عليُّ بن محمد النوفليّ: فذكر لي بعض خدم المهديّ أنه كان قائماً على رأسه يوماً يذبّ عنه، إذ دخل يعقوب، فجثا بين يديه، فقال: يا أميرَ المؤمنين، قد عرفت اضطراب أمر مصر، وأمرتني أن ألتمس لها رجلا يجمع أمرها، فلم أزل أرتاد حتى أصبت لها رجلا يصلح لذلك. قال: ومَنْ هو؟ قال: ابن عمّك إسحاق بن الفضل، فرأى يعقوب في وجهه التغيّر، فنهض فخرج، وأتبعه المهديّ طرفه، ثم قال: قتلني الله إن لم أقتلك! ثم رفع رأسه إليّ وقال: اكتم عليَّ ويلك! قال: ولم يزل مواليه يحرِّضونه عليه ويُوحشونه منه، حتى عزم على إزالة النعمة عنه.

وقال موسى بن إبراهيم المسعوديّ: قال المهديّ: وُصف لي يعقوب بن داود في منامي، فقيل لي أن اتّخذْه وزيراً. فلما راه، قال: هذه والله الخلقة التي رأيتُها في منامي، فاتخذه وزيراً، وحظِيَ عنده غاية الحظوة، فمكث حيناً حتى بنى عيساباذ، فأتاه خادم من خَدَمه ـ وكان حظيًّا عنده ـ فقال له: إن أحمد بن إسماعيل بن عليّ، قال لي: قد بنى متنزَّهاً أنفق عليه خمسين ألف ألف من بيت مال المسلمين، فحفظها عن الخادم، ونسي أحمد بن إسماعيل، وتوهّمها على يعقوب بن داود، فبينا يعقوب بين يديه إذْ لبّبه، فضرب به الأرض، فقال: مالي ولك يا أمير المؤمنين! قال: ألست القائل: إني أنفقت على متنزَّه لي خمسين ألف ألف! فقال يعقوب: والله ما سمعتْه

أذناي، ولا كتبه الكرام الكاتبون؛ فكان هذا أوّل سبب أمره.

قال: وحدّثني أبي، قال: كان يعقوب بن داود قد عرف عن المهديّ خلعاً واستهتاراً بذكر النساء والجماع، وكان يعقوب بن داود يصف من نفسه في ذلك شيئاً كثيراً، وكذلك كان المهديّ، فكانوا يخلُون بالمهديّ ليلا فيقولون: هو على أن يصبح فيثور بيعقوب؛ فإذا أصبح غدا عليه يعقوب وقد بلغه الخبر، فإذا نظر إليه تبسّم، فيقول: إنّ عندك لخيراً! فيقول: نعم، فيقول: اقعد بحياتي فحدِّثني، فيقول: خلوت بجاريتي البارحة، فقالت وقلت، فيصنع لذلك حديثاً، فيحدّث المهديّ بمثل ذلك، ويفترقان على الرضا، فيبلغ ذلك مَنْ يسعى على يعقوب، فيتعجّب منه.

قال: وقال لي الموصليّ: قال يعقوب بن داود للمهديّ في أمر أراده: هذا والله السرف، فقال: ويلك! وهل يحسن السرف إلا بأهل الشرف! ويْلك يا يعقوب، لولا السرف لم يعرَف المكثرون من المقترين!

وقال عليّ بن يعقوب بن داود عن أبيه، قال: بعث إليّ المهديّ يوماً، فدخلت عليه، فإذا هو في مجلس مفروش بفَرْش مُوَرّد متناهٍ في السرور على بستان فيه شجر، ورؤوس الشجر مع صحن المجلس، وقد اكتسى ذلك الشجر بالأوراد والأزهار من الخَوْخ والتفاح، فكلّ ذلك مورّد يشبه فرش المجلس الذي كان فيه، فما رأيت شيئاً أحسَن منه؛ وإذا عنده جارية ما رأيتُ أحسنَ منها، ولا أشطَّ قَواماً، ولا أحسن اعتدالاً، عليها نحو تلك الثياب، فما رأيت أحسن من جملة ذلك. فقال لي: يا يعقوب، كيف ترى مجلسنا هذا؟ قلت: على غاية الحسن، فمتّع الله أمير المؤمنين به، وهنّأه إياه، فقال: هو لك، احمله بما فيه وهذه الجارية ليتمّ سرورك به. قال: فدعوت له بما يجب. قال: ثم قال: يا يعقوب، ولي إليك حاجة، قال: فوثبتُ قائماً ثم قلت: يا أميرَ المؤمنين، ما هذا إلا من موجدة، وأنا أستعيذ بالله من سخط أمير المؤمنين! قال: لا، ولكن أحبّ أن تضمن لي قضاء هذه الحاجة فإني لم أسألكها من حيث تتوهّم، وإنما قلت ذلك على الحقيقة، فأحبّ أن تضمنَ لي هذه الحاجة وأن تقضيَها لي، فقلت: الأمر لأمير المؤمنين وعليّ السمع والطاعة،قال: ـ والله ـ قلت والله ثلاثاً ـ قال: وحياة رأسي! قلت: وحياة رأسك، قال: فضع يدك عليه واحلف به، قال: فوضعت يدي عليه وحلفت له به لأعملنّ بما قال، ولأقضينّ حاجته. قال: فلما استوثق مني في نفسه، قال: هذا فلان بن فلان، من ولد عليّ، أحبّ أن تكفيَني مؤونته، وتريحني منه، وتعجّل ذلك. قال: قلت: أفعل، قال: فخذه إليك، فحوّلته إليّ، وحوّلت الجارية وجميع ما كان في البيت من فرش وغير ذلك، وأمر لي معه بمائة ألف درهم.

قال: فحملت ذلك جملة، ومضيتُ به، فلشدّة سروري بالجارية صيّرتها في مجلس بيني وبينها ستر، وبعثتُ إلى العلويّ، فأدخلته على نفسي، وسألته عن حاله، فأخبرني بها، وبجُملٍ منها، وإذا هو ألبّ الناس وأحسنهم إبانة.

قال: وقال لي في بعض ما يقول: وَيْحك يا يعقوب! تلقى الله بدمي، وأنا رجل من ولد فاطمة بنت محمد! قال: قلت: لا والله، فهل فيك خير؟ قال: إن فعلتَ خيراً شكرتُ ولك عندي دعاء واستغفار. قال: فقلت له أيّ الطرق أحبُّ إليك؟ قال: طريق كذا وكذا، قلتُ فَمنْ هناك ممّن تأنس به وتثق بموضعه؟ قال: فلان وفلان، قلت: فابعث إليهما، وخُذْ هذا المال، وامض معهما مصاحباً في ستر الله، وموعدك وموعدهما للخروج من داري إلى موضع كذا وكذا ـ الذي اتفقوا عليه ـ في وقت كذا وكذا من الليل؛ وإذا الجاريةُ قد حفظت عليّ قولي؛

فبعثتْ به مع خادم لها إلى المهديّ، وقالت: هذا جزاؤك من الذي آثرته على نفسك؛ صنع وفعل كذا وكذا؛ حتى ساقت الحديث كلّه. قال: وبعث المهديّ من وقته ذلك، فشحن تلك الطُّرق والمواضع التي وصفها يعقوب والعلويّ برجاله، فلم يلبث أن جاؤوه بالعلويّ بعينه وصاحبيه والمال، على السجيّة التي حكتها الجارية. قال: وأصبحتُ من غد ذلك اليوم، فإذا رسولُ المهديّ يستحضرني - قال: وكنتُ خاليَ الذرع غيرَ ملقٍ إلى أمر العلَويّ بالاً حتى أدخُل على المهديّ، وأجده على كرسيّ بيده مخصرة - فقال: يا يعقوب، ما حال الرجل؟ قلتُ: يا أمير المؤمنين، قد أراحك الله منه، قال: مات؟ قلت: نعم، قال: والله، ثم قال: قم فضع يدَك على رأسي؛ قال: فوضعت يدي على رأسه، وحلفتُ له به. قال: فقال: يا غلام، أخرج إلينا ما في هذا البيت، قال: ففتح بابه عن العلويّ صاحبيه والمال بعينه. قال: فبقيتُ متحيّراً، وسُقِط في يدي، وامتنع عني الكلام، فما أدري ما أقول! قال: فقال المهديّ: لقد حلَّ لي دمك آثرتُ إراقته، ولكن احبسوه في المطبَق؛ ولا أذكَّر به، فحبِستُ في المطبَق، واتُّخذ لي فيه بئرٌ فدُلِّيت فيها، فكنت كذلك أطولَ مدّة لا أعرف عدد الأيام وأصِبْتُ ببصري، وطال شعري؛ حتى استرسل كهيئة شعور البهائم. قال: فإني لكذلك، إذ دُعي بي فمُضِيَ بي إلى حيث لا أعلم أين هو، فلم أعْدُ أن قيل لي: سلِّم على أمير المؤمنين، فسلمت، فقال: أيّ أمير المؤمنين أنـــا؟ قلت: المهديّ، قال: رحم الله المهديّ، قلت: فالهادي؟ قال: رحم الله الهادي، قلت: فالرّشيد؟ قال: نعم؛ قلت: ما أشكّ في وقوف أمير المؤمنين على خبري وعلّتي وما تناهتْ إليه حالي، قال: أجل، كلُّ ذلك عندي قد عرف أمير المؤمنين، فسَلْ حاجتَك، قال: قلت: المقام بمكّة، قال: نفعل ذلك، فهل غير هذا؟ قال: قلت: ما بقي فيَّ مستَمتع لشيء ولا بِلاغ، قال: فراشداً. قال: فخرجتُ فكان وجهي إلى مكة. قال ابنه: ولم يزل بمكة فلم تطُل أيامه بها حتى مات.

قال محمد بن عبد الله: قال لي أبي: قال يعقوب بن داود: وكان المهديّ لا يشرب النّبيذَ إلاّ تحرّجاً؛ ولكنه كان لا يشتهيه؛ وكان أصحابه: عمر بن بزَيع والمعلّى مولاه والمفضّل ومواليه يشربون عنده بحيث يراهم، قال: وكنت أعِظُه في سَقْيهم النبيذ وفي السماع، وأقول: إنه ليس على هذا استوزرتَني ولا عَلى هذا صحبتك؛ أبعد الصّلوات الخمس في المسجد الجامع، يُشرب عندك النبيذ وتسمع السماع! قال: فكان يقول: قد سمع عبدُ الله بن جعفر، قال: قلت ليس هذا من حسناته؛ لو أنَّ رجلاً سمع في كلّ يوم ذلك يزيده قربة من الله أو بعداً!

وقال محمد بن عبد الله: حدّثني أبي، قال: كان أبي يعقوب بن داود قد ألحّ على المهديّ في حَسْمِه عن السماع وإسقائه النبيذ حتى ضيّق عليه؛ وكان يعقوب قد ضجِر بموضعه، فتاب إلى الله مما هو فيه؛ واستقبل وقدّم النّية في تركه موضعه. قال: فكنت أقول للمهديّ: يا أمير المؤمنين؛ والله لشربةُ خمر أشربها أتوب إلى الله منها أحبّ إليّ مما أنا فيه؛ وإني لأركب إليك فأتمنى يداً خاطئة تصيبني في الطريق، فأعفني ولِّ غيري مَنْ شئت؛ فإني أحبّ أن أسلِّم عليك أنا وولدي؛ ووالله إني لاتفزّع في النوم؛ ولّيتَني أمور المسلمين وإعطاء الجند، وليس دنياك عوضاً من آخرتي. قال: فكان يقول لي: اللهم غفراً! اللهم أصلح قلبه، قال: فقال شاعر له:

فَـدَعْ عنـك يعقــوبَ بنَ داودَ جـانبـاً وأَقْبِــلْ على صَهبــاءَ طَيّبــةِ الـنَّشــرِ

قال: عبد الله بن عمر: وحدّثني جعفر بن أحمد بن زيد العلويّ، قال: قال ابن سلّام: وهب المهديّ لبعض ولد يعقوب بن داود جاريةً، وكان بِضَعف قال: فلمّا كان بعد أيام، سأله عنها، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛

ما رأيتُ مثلها، ما وضعتُ بيني وبين الأرض مطيّةً أوطأ منها حاشا سامع. فالتفت المهديّ إلى يعقوب، فقال له: من تراه يَعْني؟ يعنيني أو يعنيك؟ فقال له يعقوب: من كلّ شيء تحفظ الأحمقَ إلا من نفسه.

وقال عليّ بن محمد النوفليّ: حدّثني أبي، قال: كان يعقوب بن داود يدخلُ على المهديّ فيخلو به ليلاً يحادثه ويسامره؛ فبينما هو ليلةً عنده؛ وقد ذهب من الليل أكثرُه، خرج يعقوب من عنده، وعليه طيلسان مصبوغ هاشميّ؛ وهو الأزرق الخفيف؛ وكان الطّيْلسان قد دق دقًّا شديداً فهو يتقعقع، وغلام آخذ بعنان دابّة له شهباء، وقد نام الغلام، فذهب يعقوب يسوّي طيلسانَه فتقعقع، فنفر البِرْذونُ، ودنا منه يعقوب، فاستدبره فضربه ضربة على ساقه فكسرها، وسمع المهديّ الوجبَة، فخرج حافياً؛ فلما رأى ما به أظهر الجزع والفَزَع، ثم أمر به فحمِل في كرسيّ إلى منزله، ثم غدا عليه المهديّ مع الفجر؛ وبلغ ذلك الناس، فغدَوْا عليه، فعاده أياماً ثلاثة متتابعة، ثم قعد عن عيادته، وأقبل يرسل إليه يسأله عن حاله؛ فلما فَقد وجهه، تمكن السعاة من المهديّ، فلم تأتِ عليه عاشرة حتى أظهر السّخط عليه، فتركه في منزله يعالج، ونادى في أصحابه: لا يوجد أحدٌ عليه طيلسان يعقوبيّ، وقلنسوة يعقوبية إلّا أخذِت ثيابُه. ثم أمر بيعقوب فحبِس في سجن نصر.

قال النوفليّ: وأمر المهديّ بعزْل أصحاب يعقوب عن الولايات في الشّرق والغرب، وأمر أن يؤخذ أهلُ بيته، وأن يُحبَسُوا ففعل ذلك بهم.

وقال عليّ بن محمد: لما حبِس يعقوب بن داود وأهل بيته، وتفرّق عماله واختفوْا وتشرّدوا، أذكِر المهديّ قصّته وقصة إسحاق بن الفضل، فأرسل إلى إسحاق ليلا وإلى يعقوب، فأتِيَ به من محبسه، فقال: ألم تخبرني بأنّ هذا وأهل بيته يزعمون أنّهم أحق بالخلافة منا أهلَ البيت؛ وأن لهم الكبر علينا! فقال له يعقوب: ما قلتُ لك هذا قطّ، قال: وتكذّبني وتردّ عليّ قولي! ثم دعا له بالسِّياط فضربه اثني عشر سوطاً ضرباً مبرّحاً، وأمر به فرُدّ إلى الحبس.

قال: وأقبل إسحاق يحلِف أنه لم يقُلْ هذا قطّ، وأنه ليس من شأنه. وقال فيما يقول: وكيف أقول هذا يا أمير المؤمنين، وقد مات جدّي في الجاهلية وأبوك الباقي بعد رسول الله ﷺ ووارثه! فقال: أخرجوه، فلما كان من الغد دعا بيعقوب، فعاوده الكلام الذي كلمه في ليلته، فقال: يا أميرَ المؤمنين، لا تعجل عليّ حتى أذكّرك، أتذكر وأنت في طارمة على النّهر؛ وأنت في البستان وأنا عندك؛ إذ دخل أبو الوزير - قال عليّ: وكان أبو الوزير خَتَنَ يعقوب بن داود على ابنة صالح بن داود - فخبّرك هذا الخبر عن إسحاق؟ قال: صدّقت يا يعقوب، قد ذكرتُ ذلك، فاستحى المهديّ، واعتذر إليه من ضربه، ثم ردّه إلى الحبس، فمكث محبوساً أيام المهديّ وأيام موسى كلّها حتى أخرجه الرّشيد بميله كان إليه في حياة أبيه.

وفيها خرج موسى الهادي إلى جُرجان، وجعل على قضائه أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم.

وفيها تحوّل المهديّ إلى عيساباذ فنزلها، وهي قصر السلامة، ونزل الناس بها معه، وضرب بها الدنانير والدراهم.

وفيها أمر المهديّ بإقامة البَريد بين مدينة الرسول ﷺ وبين مكّة واليمن؛ بغالاً وإبلا؛ ولم يقم هنالك بريدٌ قبل ذلك.

وفيها اضطربت خُراسان على المسيِّب بن زهير، فولّاها الفضل بن سليمان الطوسيّ أبا العباس، وضمّ إليه معها سِجِسْتان، فاستخلف على سِجِسْتان تميم بن سعيد بن دَعْلَج بأمر المهديّ.

وفيها أخذ داود بن روح بن حاتم وإسماعيل بن سليمان بن مجالد ومحمد بن أبي أيوب المكي ومحمد بن طيفور في الزّندقة، فأقرّوا، فاستتابهم المهديّ وخلّى سبيلَهم، وبعث بداود بن روْح إلى أبيه روح؛ وهو يومئذ بالبَصْرة عاملا عليها، فمنّ عليه، وأمره بتأديبه.

وفيها قدم الوضّاح الشرَويّ بعبد الله بن أبي عبيد الله الوزير ـ وهو معاوية بن عبيد الله الأشعريّ من أهل الشأم ـ وكان الذي يسعى به ابن شَبَابة وقد رُمِيَ بالزندقة. وقد ذكرنا أمره ومقتله قبل.

وفيها ولّى إبراهيم بن يحيى بن محمد على المدينة؛ مدينة رسول الله ﷺ، وعلى الطائف ومكة عبيد الله بن قُثَم.

وفيها عزل منصور بن يزيد بن منصور عن اليَمَن، واستعمل مكانه عبد الله بن سليمان الربَعيّ.

وفيها خَلّى المهديّ عبد الصمد بن عليّ من حبسه الذي كان فيه.

وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن يحيى بن محمد.

وكان عامل الكوفة في هذه السنة على الصلاة وأحداثها هاشم بن سعيد، وعلى صلاة البصرة وأحداثها رَوْح بن حاتم، وعلى قضائها خالد بن طَليق، وعلى كور دِجلة وكَسْكر وأعمال البصرة والبَحْرين وكور الأهواز وفارس وكرمان المعلى مولى أمير المؤمنين؛ وعلى خراسان وسجستان الفضل بن سليمان الطوسيّ، وعلى مصر إبراهيم بن صالح، وعلى إفريقيّة يزيد بن حاتم، وعلى طَبَرستان والرُّويان وجُرْجان يحيى الحَرَشيّ. وعلى دَنْباوند وقُومِس فَراشة مولى المَهديّ، وعلى الريّ سعد مولى أمير المؤمنين.

ولم يكن في هذه السنة صائفة؛ للهُدْنة التي كانت فيها.

ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة

ذكر الأحداث التي كانت فيها

فمن ذلك ما كان من توجيه المهديّ ابنَه موسى في جَمْع كثيف من الجُنْد، وجهاز لم يُجهَّز - فيما ذكر - أحد بمثله، إلى جُرجان لحرب وَنْداهُرْمُز وشَرْوِين صاحبيْ طبرستان، وجعل المهديّ حين جهز موسى إليها أبان بن صدقة على رسائله، ومحمد بن جُميل على جنده، ونُفَيعاً مولى المنصور على حجابته، وعليّ بن عيسى بن ماهان على حرسه، وعبد الله بن خازم على شُرَطه؛ فوجّه موسى الجنود إلى وانداهرمز وشروين، وأمّر عليهم يزيد بن مَزْيد، فحاصرهما.

وفيها تُوُفِّيَ عيسى بن موسى بالكوفة، ووليّ الكوفة يومئذ رَوْح بن حاتم، فأشهد روحُ بن حاتم على وفاته القاضيَ وجماعة من الوجوه، ثم دُفن. وقيل إن عيسى بن موسى توفِّيَ وروح على الكوفة، لثلاث بقِين من ذي الحجة، فحضر رَوْح جنازته، فقيل له: تقدّم فأنت الأمير، فقال: ما كان الله ليَرى روحاً يصلّي على عيسى بن موسى؛ فليتقدّم أكبر ولده، فأبوا عليه وأبى عليهم، فتقدم العباس بن عيسى، فصلّى على أبيه. وبلغ ذلك المهديّ، فغضب على روح، وكتب إليه:

قد بلغني ما كان من نُكوصك عن الصّلاة على عيسى؛ أبنفسك، أم بأبيك، أم بجدِّك كنت تصلي عليه! أو ليس إنما ذلك مقامي لو حضرتُ. فإذ غبتُ كنتَ أنت أولى به لموضعك من السلطان!

وأمر بمحاسبته؛ وكان يلي الخراج مع الصّلاة والأحداث.

وتوفِّي عيسى والمهديّ واجدٌ عليه وعلى ولده؛ وكان يكره التقدّم عليه لجلالته.

وفيها جدّ المهديّ في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم، وولّى أمرهم مر الكلواذيّ، فأخذ يزيدَ بن الفيض كاتب المنصور، فأقر - فيما ذكر - فحبس، فهرب من الحبس، فلم يقدَر عليه.

وفيها عزل المهديّ أبا عبيد الله معاوية بن عبيد الله عن ديوان الرسائل، وولاّه الربيع الحاجب، فاستخلف عليه سعيد بن واقد؛ وكان أبو عبيد الله يدخل على مرتبته.

وفيها فشا الموت، وسعال شديد ووباء شديد ببغداد والبصرة.

وفيها تُوفِّيَ أبان بن صدقة بجُرجان، وهو كاتب موسى على رسائله، فوجّه المهديّ مكانه أبا خالد الأحول يزيد خليفة أبي عبيد الله.

وفيها أمر المهديّ بالزيادة في المسجد الحرام؛ فدخلت فيه دور كثيرة. وولّى بناء ما زيد فيه يقطين بن

موسى، فكان في بنائه إلى أن توفِّيَ المهديّ.

وفيها عُزل يحيى الحرشيّ عن طبرستان والرُّويان؛ وما كان إليه من تلك الناحية، وولِّيَها عمر بن العلاء، ووُلِّيَ جُرجان فرَاشة مولى المهديّ، وعزل عنها يحيى الحَرَشيّ.

وفيها أظلمت الدنيا لليالٍ بَقين من ذي الحجّة، حتى تعالى النهار.

ولم يكن فيها صائفة، للهدنة التي كانت بين المسلمين والرّوم.

وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن يحيى بن محمد وهو على المدينة، ثم توفِّي بعد فراغه من الحَجّ وقدومه المدينة بأيام، ووُلِّيَ مكانه إسحاق بن عيسى بن عليّ.

وفيها طُعن عقبة بن سلم الهُنائيّ بعيساباذ، وهو في دار عمر بن بزيغ؛ اغتاله رجل، فطعنه بخنجر، فمات فيها.

وكان العامل على مكّة والطائف فيها عبيد الله بن قُثَم، وعلى اليمن سليمان بن يزيد الحارثيّ، وعلى اليمامة عبد الله بن مُصعب الزُّبيريّ، وعلى صلاة الكوفة وأحداثها رَوْح بن حاتم، وعلى صلاة البصرة وأحداثها محمد بن سليمان، وعلى قضائها عمر بن عثمان التيميّ، وعلى كورِ دِجْلة وكَسْكَر وأعمال البصرة والبحرين وعُمان وكُور الأهواز وفارس وكَرْمان المعلّى مولى المهديّ.

وعلى خراسان وسِجِسْتان الفَضْل بن سليمان الطوسيّ.

وعلى مصر موسى بن مصعب. وعلى إفريقية يزيد بن حاتم.

وعلى طبرستان والرُّويان عمر بن العلاء، وعلى جرجان وَدنْباوند وقُومِس فراشة مولى المهديّ، وعلى الرّيّ سعد مولى أمير المؤمنين.

ثم دخلت سنة ثمان وستين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من نقض الرّوم الصّلح الذي كان جرى بينهم وبين هارون بن المهديّ الذي ذكرناه قبلُ وغدرِهم؛ وذلك في شهر رمضان من هذه السنة؛ فكان بين أول الصلح وغدر الروم ونكثهم به اثنان وثلاثون شهراً؛ فوجّه عليّ بن سليمان وهو يومئذ على الجزيرة وقنّسرين يزيد بن بدر بن البطّال في سَرِيّة إلى الرّوم فغنموا وظفروا.

وفيها وجّه المهديّ سعيداً الحَرَشيّ إلى طبرستان في أربعين ألف رجلٌ.

وفيها مات عمر الكلواذيّ صاحب الزنادقة، ووُلِّيَ مكانه حمدَوَيْه، وهو محمد بن عيسى من أهل مَيْسان.

وفيها قتل المهديّ الزنادقة ببغداد.

وفيها ردّ المهديّ ديوانه وديوان أهل بيته إلى المدينة ونقله من دمشق إليها.

وفيها خرج المهديّ إلى نهر الصّلة أسفل واسط - وإنما سُمِّي نهر الصِّلة فيما ذكر لأنه أراد أن يُقطِع أهل بيته وغيرهم غَلّته؛ يصلهم بذلك.

وفيها ولّى المهديّ عليّ بن يقطين ديوان زمام الأزمّة على عمر بن بزيع.

وذكر أحمد بن موسى بن حمزة، عن أبيه، قال: أوّل مَنْ عمل ديوان الزّمام عمر بن بزيع في خلافة المهديّ؛ وذلك أنّه لمّا جُمعت له الدواوين تفكّر؛ فإذا هو لا يضبطها إلاّ بزمام يكون له على كلّ ديوان؛ فاتخذ دواوين الأزمّة، وولّي كل ديوان رجلاً، فكان واليه على زمام ديوان الخراج إسماعيل بن صُبيح؛ ولم يكن لبني أمية دواوين أزّمة.

وحجّ بالناس في هذه السنة عليّ بن محمد المهديّ الذي يقال له ابن رَيْطة.

ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة

ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

فممّا كان فيها من ذلك خروج المهديّ في المحرّم إلى ماسَبَذان.

ذكر الخبر عن خروجه إليها:

ذكر أن المهديّ كان في آخر أمره قد عزم على تقديم هارون ابنه على ابنه موسى الهادي، وبعث إليه وهو بجُرجان بعض أهل بيته ليقطع أمر البيعة، ويقدّم الرّشيد فلم يفعل، فبعث إليه المهديّ بعضَ الموالي، فامتنع عليه موسى من القدوم، وضرب الرّسول، فخرج المهديّ بسبب موسى وهو يريده بجُرجان فأصابه ما أصابه.

وذكر الباهليّ أن أبا شاكر أخبره ـ وكان من كتّاب المهديّ على بعض دواوينه ـ قال: سأل عليّ بن يقطين المهديّ أن يتغدّى عنده، فوعده أن يفعل، ثم اعتزم على إتيان ماسَبَذان؛ فوالله لقد أمَر بالرحيل كأنه يُساق إليها سوقاً، فقال له عليّ: يا أميرَ المؤمنين؛ إنك قد وعدتني أن تتغدّى عندي غداً، قال: فاحمل غَدَاءك إلى النَّهرَوان. قال: فحمله فتغدّى بالنّهروان، ثم انطلق.

وفيها توفّي المهديّ.

ذكر الخبر عن سبب وفاته:

اختُلف في ذلك، فذكر عن واضح قَهرمان المهديّ قال: خرج المهديّ يتصيّد بقرية يقال لها الرّذّ بماسَبَذان، فلم أزل معه إلى بعد العصر، وانصرفت إلى مضربي وكان بعيداً من مضربه ـ فلما كان في السَّحَر الأكبر ركبت لإقامة الوظائف، فإني لأسير في بريّة، وقد انفردت عمّن كان معي من غلماني وأصحابي؛ إذ لقيني أسود عريان على قَتَد رَحْل، فدنا مني؛ ثم قال لي: أبا سهل، عظّم الله أجرك في مولاك أمير المؤمنين! فهممتُ أن أعلوَه بالسّوط، فغاب من بين يديّ؛ فلما انتهيتُ إلى الرِّواق لقيني مسرور، فقال لي: أبا سهل، عظم الله أجرك في مولاك أمير المؤمنين! فدخلت فإذا أنا به مسجّى في قبّة، فقلت: فارقتكم بعد صلاة العصر؛ وهو أسرّ ما كان حالاً وأصحّه بدناً، فما كان الخبر؟ قال: طردت الكلابُ ظبياً، فلم يزل يتبعها، فاقتحم الظبي باب خربة، فاقتحمت الكلاب خلفه، واقتحم الفرس خلف الكلاب، فدُقّ ظهرُه في باب الخرِبة، فمات من ساعته.

وذكر أن عليّ بن أبي نعيم المروزيّ، قال: بعثتْ جارية من جواري المهديّ إلى ضَرة لها بلِبَأ فيه سمّ؛ وهو قاعد في البستان، بعد خروجه من عيساباذ، فدعا به فأكل منه، ففرِقت الجارية أن تقول له: إنه مسموم.

وحدّثني أحمد بن محمد الرازيّ، أن المهديّ كان جالساً في عُلّيّة في قصر بماسَبَذان، يُشرف من منظرة فيها

على سفله، وكانت جاريته حَسَنة، قد عمدت إلى كُمَّثراتين كبيرتين، فجعلتهما في صِينيَّة، وسمّت واحدة منهما وهي أحسنهما وأنضجهما في أسفلها، وردّت القِمَع فيها، ووضعتها في أعلى الصينيَّة - وكان المهديّ يعجبه الكُمّثري - وأرسلت بذلك مع وصيفة لها إلى جارية للمهديّ - وكان يتخطّاها - تريد بذلك قتلها، فمرّت الوَصيفة بالصينيَّة التي فيها تلك الكُمّثري، تريد دفعها إلى الجارية التي أرسلتها حَسَنة إليها، بحيث يراها المهديّ من المنظرة، فلما رآها ورأى معها الكمثري؛ دعا بها، فمدّ يده إلى الكُمْثراة التي في أعلى الصينيّة وهي المسمومة، فأكلها، فلما وصلت إلى جوفه صرخ: جوفي! وسمعت حَسَنة الصوت، وأخبرت الخبر، فجاءت تلطُم وجهها وتبكي، وتقول: أردت أن أنفرد بك، فقتلتك يا سيّدي! فهلك من يومه.

وذكر عبدالله بن إسماعيل صاحب المراكب، قال: لما صرنا إلى ماسَبَذان دنوتُ إلى عنانه، فأمسكت به وما به علّة؛ فوالله ما أصبح إلا ميّتاً، فرأيتَ حَسَنة وقد رجعت؛ وإن على قُبّتها المسوح، فقال أبو العتاهية في ذلك:

رُحْـنَ في الـوَشْيِ وأَصْبَـحْـ ... ـنَ عـليـهـنَّ المُسُـوحُ
كـل نَـطَّاحٍ مِـنَ الـدَّهْـ ... ـرِ لـه يـومٌ نَـطوحُ
لَسْتَ بـالبـاقي ولـو عُـمِّـ ... ـرْتَ مـا عُـمّـرَ نـوحُ
فَـعَـلى نـفـسِـكَ نُـحْ إن ... كـنـتَ لا بُـدَّ تَـنُـوحُ

وذكر صالح القارىء أنّ عليّ بن يقطين، قال: كنّا مع المهديّ بماسَبَذان فأصبح يوماً فقال: إني أصبحت جائعاً، فأتِيَ بأرغفة ولحم بارد مطبوخ بالخلّ، فأكل منه ثم قال: إني داخلٌ إلى البَهْو ونائم فيه، فلا تنبّهوني حتى أكون أنا الذي أنتبه، ودخل البهو فنام، ونمنا نحن في الدار في الرِّواق؛ فانتبهنا ببكائه؛ فقمنا إليه مسرعين، فقال: أما رأيتم ما رأيت؟ قلنا: ما رأينا شيئاً، قال: وقف على الباب رجل، لو كان في ألف أو في مائة ألف رجل ما خفِيَ عليّ، فأنشد يقول:

كـأنِّي بهـذا القَصْـرِ قـد بادَ آهِـلُهْ ... وأوحَش مـنـه رَبْـعُـهُ ومـنـازلُـهْ
وصـار عميدُ القـومِ مِنْ بعدِ بهجـةٍ ... ومُـلكٍ إلـى قـبـرٍ عـليـه جـنـادلـه
فـلم يَـبْـقَ إلا ذكـرُهُ وحَـديـثُـهُ ... تُـنـادي عـليـه معْـوِلاتٍ حـلائلُهْ

قال: فما أتت عليه عاشرة حتى مات.

وكانت وفاته - فيما قال أبو معشر والواقديّ - في سنة تسع وستين ومائة، ليلة الخميس لثمان بقِين من المحرّم؛ وكانت خلافته عشر سنين وشهراً ونصف شهر.

وقال بعضهم: كانت خلافته عشر سنين وتسعة وأربعين يوماً؛ وتوفِّيَ وهو ابن ثلاث وأربعين سنة.

وقال هشام بن محمد: ملَك أبوعبدالله المهديّ محمد بن عبدالله ثمان وخمسين ومائة، في ذي الحجّة لستّ ليالٍ خلوْن منه؛ فملك عشر سنين وشهراً واثنين وعشرين يوماً، ثم توفِّيَ سنة تسع وستين ومائة، وهو ابن ثلاث وأربعين سنة.

ذكر الخبر عن الموضع الذي دفن فيه ومَنْ صلّى عليه

ذُكر أن المهديّ توفّيَ بقرية من قرى ماسَبَذان، يقال لها الرُّذّ؛ وفي ذلك يقول بَكّار بن رَبَاح:

أَلَا رحمةُ الرحمنِ في كلِّ ساعَةٍ ... على رِمَّةٍ رَمَّتْ بِماسَبَذانِ
لقد غَيَّبَ القبرُ الذي تمّ سُودَدا ... وَكفَّينِ بالمعروفِ تَبْتَدِرانِ

وصلّى عليه ابنُه هارون؛ ولم توجد له جنازة يُحمَل عليها، فحُمل على باب، ودفن تحت شجرة جَوْز كان يجلس تحتها.

وكان طويلاً مُضَمَّر الخَلْق، جَعْداً. واختُلف في لونه، فقال بعضهم: كان أسمر، وقال بعضهم: كان أبيض.

وكان في عينه اليمنى ـ في قول بعضهم ـ نُكتة بياض. وقال بعضهم: كان ذلك بعينه اليسرى.

وكان وُلد بإيذَج.

ذكر بعض سِير المهديّ وأخباره

ذُكر عن هارون بن أبي عبيدالله، قال: كان المهديّ إذا جلس للمظالم، قال: أدخِلوا عليّ القضاة؛ فلو لم يكن ردِّي للمظالم إلا للحياء منهم لَكَفى.

وذكر الحسن بن أبي سعيد، قال: حدّثني عليّ بن صالح، قال: جلس المهديّ ذات يوم يعطي جوائز تقسم بحضرته في خاصّته من أهل بيته والقوّاد؛ وكان يُقرأ عليه الأسماء، فيأمر بالزيادة؛ العشرة الآلاف والعشرين الألف، وما أشبه ذلك، فعُرِض عليه بعض القوّاد، فقال: يُحَطّ هذا خمسمائة، قال: لم حطَطْتني يا أمير المؤمنين؟ قال: لأني وجّهتُك إلى عدوٍّ لنا فانهزمت. قال: كان يسرّك أن أقتل؟ قال: لا، قال: فوالذي أكرمك بما أكرمك به من الخلافة لو ثَبَتُّ لقتِلت، فاستحيا المهديّ منه، وقال: زده خمسة آلاف.

قال الحسن: وحدّثني عليّ بن صالح، قال: غضب المهديّ على بعض القوّاد ـ وكان عَتَب عليه غير مرة ـ فقال له: إلى متى تذنب إليّ وأعفو؟ قال: إلى أبدٍ نسيء، ويبقيك الله فتعفو عنا؛ فكررها عليه مرات، فاستحيا منه ورضي عنه.

وذكر محمد بن عمر، عن حفص مولى مُزينة، عن أبيه، قال: كان هشام الكلبيّ صديقاً لي، فكنّا نتلاقى فنتحدث ونتناشد؛ فكنت أراه في حالٍ رَثّة وفي أخلاق على بغلة هزيل والضرُّ فيه بيِّن وعلى بغلته؛ فما راعني إلاّ وقد لقيني يوماً على بغلة شقراءَ من بغال الخلافة، وسَرْج ولجام من سروج الخلافة ولُجُمها، في ثياب جياد ورائحة طيِّبة، فأظهرتُ السرور، ثم قلت له: أرى نعمة ظاهرةً، قال لي: نعم، أخبرك عنها، فاكتم؛ فبينما أنا في منزلي منذ أيام بين الظهر والعصر؛ إذ أتاني رسول المهديّ فسرت إليه، ودخلت عليه وهو جالس خالٍ ليس عنده أحد؛ وبين يديه كتاب، فقال: ادنُ يا هشام، فدنوتُ فجلست بين يديه، فقال: خذ هذا الكتاب فاقرأه. ولا يمنعك ما فيه مما تستفظعه أن تقرأه. قال: فنظرت في الكتاب؛ فلما قرأت بعضَه استفظعتُه، فألقيته من يدي، ولعنت كاتبه، فقال لي: قد قلت لك: إن استفظعتَه فلا تُلقِه؛ اقرأه بحقي عليك حتى تأتي على آخره! قال: فقرأته فإذا كتاب قد ثلبه في كاتبه ثلْباً عجيباً، لم يبقِ له فيه شيئاً، فقلت: يا أميرَ المؤمنين، مَنْ هذا الملعون

الكذاب؟ قال: هذا صاحب الأندلس، قال: قلت: فالثلب والله يا أمير المؤمنين فيه وفي آبائه وفي أمهاته. قال: ثم اندرأت أذكر مثالبهم، قال: فسُرَّ بذلك، وقال: أقسمت عليك لما أمللت مثالبهم كلها على كاتب. قال: ودعا بكاتب من كتاب السرّ، فأمره فجلس ناحية، وأمرني فصرت إليه، فصدّر الكاتب من المهديّ جواباً، وأمللتُ عليه مثالبهم فأكثرت؛ فلم أبْقِ شيئاً حتى فرغتُ من الكتاب، ثم عرضتُه عليه، فأظهر السرور، ثم لم أبرح حتى أمر بالكتاب فخُتِم، وجُعل في خريطة، ودُفع إلى صاحب البريد، وأمر بتعجيله إلى الأندلس. قال: ثم دعا بمنديل فيه عشرة أثواب من جِياد الثياب وعشرة آلاف درهم، وهذه البغلة بسرجها ولجامها، فأعطاني ذلك، وقال لي: اكتم ما سمعت.

قال الحسن: وحدّثني مِسوَر بن مساور، قال: ظلمني وكيل للمهديّ، وغصبني ضَيْعةً لي، فأتيت سلّاما صاحب المظالم، فتظلمت منه وأعطيته رقعة مكتوبة، فأوصل الرّقعة إلى المهديّ، وعنده عمُّه العباس بن محمّد وابن عُلاثة وعافية القاضي. قال: فقال لي المهديّ: ادنُهْ، فدنوت، فقال: ما تقول؟ قلت: ظَلَمتَني، قال: فترضى بأحد هذين؟ قال: قلت: نعم، قال: فادنُ مني، فدنوت منه حتى التزقت بالفراش، قال: تكلّم، قلت: أصلح الله القاضي! إنه ظلمني في ضيعتي هذا، فقال القاضي: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: ضيعتي وفي يدي، قال: قلت: أصلح الله القاضي! سَلْهُ؛ صارت الضيعة إليه قبل الخلافة أو بعدها؟ قال: فسأله: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: صارت إليّ بعد الخلافة. قال: فأطلِقها له، قال: قد فعلت، فقال العبّاس بن محمد: والله يا أمير المؤمنين لَهذا المجلس أحبّ إليّ من عشرين ألف ألف درهم.

قال: وحدّثني عبدالله بن الربيع، قال: سمعتُ مجاهداً الشاعر يقول: خرج المهديّ متنزّهاً، ومعه عمر بن بزيع مولاه، قال: فانقطعنا عن العسكر، والنّاس في الصيد، فأصاب المهديّ جوع، فقال: ويحك! هل من شيء؟ قال: ما من شيء، قال: أرى كوخاً وأظنّها مبقلة، فقصدنا قصدَه، فإذا نَبَطِيّ في كوخ ومبقلة، فسلّمنا عليه، فردّ السلام، فقلنا له: هل عندك شيء نأكل؟ قال: نعم عندي رُبَيْثاء وخبز شعير، فقال المهديّ: إن كان عندك زيت فقد أكملتَ، قال: نعم، قال: وكرّاث؟ قال: نعم، ما شئت وتمر. قال: فعدا نحو المبقلة، فأتاهم ببقْل وكُرّاث وبصل، فأكلا أكلاً كثيراً، وشبِعا، فقال المهديّ لعمر بن بزيع: قل في هذا شعراً، فقال:

إنَّ مَنْ يُطْعِمُ الرُّبَيثاءَ بالزَّيـ ... ـتِ وخُبزَ الشعيرِ بالكُرّاثِ
لحقيقٌ بصَفْعَةٍ أو بثِنْتَيْـ ... ـنِ لِسوءِ الصَّنيعِ أوْ بِثَلاثِ

فقال المهديّ: بئس ما قلت، ليس هكذا..

لحقيقٌ بِبَدْرَةٍ أوْ بِثِنتَيْـ ... ـنِ لحسْنِ الصَّنِيعِ أوْ بِثَلاثِ

قال: ووافى العسكر والخزائن والخدَم فأمر للنَّبطيّ بثلاث بِدَر وانصرف.

وذكر محمد بن عبدالله، قال: أخبرني أبو غانم، قال: كان زيد الهلاليّ رجلاً شريفاً سخيًّا مشهوراً من بني هلال؛ وكان نقشُ خاتمه: «أفلح يا زيد مَن زَكّا عمله»، فبلغ ذلك المهديّ، فقال زيد الهلاليّ:

زَيْدُ الهِلَالِيّ نقش خاتمه ... أفْلَح يا زيدُ من زكا عمَلُهْ

قال: وقال الحسن الوصيف: أصابتنا ريح في أيام المهديّ حتى ظننّا أنها تسوقنا إلى المَحْشر، فخرجتُ أطلب أميرَ المؤمنين، فوجدته واضعاً خدَّه على الأرض، يقول: اللهمّ احفظ محمداً في أمّته، اللهمّ لا تُشمت بنا أعداءنا من الأمم، اللهمّ إن كنت أخذت هذا العام بذنبي فهذه ناصيتي بين يديك؛ قال: فما لبثنا إلا يسيراً حتى انكشفت الريح وانجلى ما كنا فيه.

وقال الموصلي: قال عبدالصمد بن عليّ: قلت للمهديّ: يا أمير المؤمنين، إنا أهل بيت قد أشرب قلوبُنا حبَّ موالينا وتقديمهم؛ وإنك قد صنعت من ذلك ما أفرطتَ فيه؛ قد ولَّيتَهم أمورك كلَّها، وخصصتهم في ليلك ونهارك، ولا آمن تغيير قلوب جندك وقوّادك من أهل خُراسان، قال: يا أبا محمد، إنّ الموالِيَ يستحقّون ذلك؛ وليس أحدٌ يجتمع لي فيه أن أجلس للعامّة فأدعُوَ به فأرفعه حتى تحكّ ركبتُه ركبتي، ثم يقوم من ذلك المجلس، فأستكفيه سياسةَ دابتي، فيكفيها، لا يرفع نفسهُ عن ذلك إلاّ مواليّ هؤلاء، فإنهم لا يتعاظمهم ذلك؛ ولو أردت هذا من غيرهم لقال: ابن دولتِك والمتقدّم في دعوتك، وابن مَنْ سبق إلى بيعتك، لا أدفَعه عن ذلك.

قال عليّ بن محمد: قال الفضل بن الربيع: قال المهـديّ لعبدالله بن مـالك: صـارِعْ مولاي هـذا، فصارَعه؛ فأخذ بعنقه، فقال المهديّ: شدّ، فلما رأى ذلك عبدُالله أخذ برجله فسقط على رأسه فصرعه. فقال عبدالله للمهديّ: يا أميرَ المؤمنين، قمتُ من عندك وأنا أحبّ الناس إليك، فلم تزَلْ عليّ مع مولاك. قال: أما سمعت قول الشاعر:

وَمَــوْلَاكَ لا يُهْضَمْ لَــديْــكَ فَــإنمــا ... هضيمةُ مولى القوم جَدْعُ المناخِرِ

قال أبو الخطاب: لما حضرت القاسمَ بن مجاشع التميميّ - من أهل مَرْو بقرية يقال لها باران - الوفاةُ أوصى إلى المهديّ، فكتب: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ والْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الحكيم * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإسلامُ... ﴾[1]، إلى آخر الآية. ثم كتب: والقاسم بن مجاشع يشهدُ بذلك، ويشهدُ أنَّ محمداً عبده ورسوله ﷺ، وأن عليّ بن أبي طالب وصيُّ رسول الله ﷺ ووارث الإمامة بعده. قال: فعُرِضت الوصيّة على المهديّ، فلما بلغ هذا الموضع رمى بها ولم ينظر فيها. قال أبو الخطاب: فلم يزل ذلك في قلب أبي عبيدالله الوزير؛ فلما حضرته الوفاة كتب في وصيته هذه الآية.

قال: وقال الهيثم بن عديّ: دخل على المهديّ رجلٌ، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ إن المنصور شتمني وقذف أمّي؛ فإما أمرتني أن أحِلَّه؛ وإلاّ عوّضتَني واستغفرت الله له. قال: ولِمَ شتمك؟ قال: شتمتُ عدوّه بحضرته؛ فغضب، قال: ومَنْ عدوّه الذي غضب لشتمه؟ قال: إبراهيم بن عبدالله بن حسن، قال: إن إبراهيم أمسّ به رَحِماً وأوجب عليه حقًّا، فإن كان شتمك كما زعمتَ، فعن رَحِمِه ذبّ، وعن عِرْضه دفع؛ وما أساء من انتصر لابن عمه. قال: إنه كان عدوًّا له، قال: فلم ينتصر للعداوة؛ وإنما انتصر للرَّحِم؛ فأسكت الرجل، فلما ذهب ليولّي، قال: لعلك أردت أمراً فلم تجد له ذريعة عندك أبلغَ من هذه الدعوى! قال: نعم، قال: فتبسّم وأمر له بخمسة آلاف درهم.

قال: وأتِيَ المهديّ برجل قد تنبَّأ، فلما رآه، قال: أنت نبيّ؟ قال: نعم، قال: وإلى مَنْ بُعثت؟ قال:

---

(١) سورة آل عمران: ١٨ - ١٩.

وتركتموني أذهب إلى من بعثت إليه! وُجّهت بالغداة فأخذتموني بالعشيّ، ووضعتموني في الحبس! قال: فضحك المهديّ منه، وخلى سبيله.

وذكر أبو الأشعث الكنديّ، قال: حدّثني سليمان بن عبدالله، قال: قال الرّبيع: رأيت المهديّ يصلّي في بهو له في ليلة مُقْمرة؛ فما أدري أهو أحسن، أم البهو، أم القمر، أم ثيابه! قال: فقرأ هذه الآية: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[١]، قال: فتمّ صلاته والتفت إليّ فقال: يا ربيع، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: عليّ بموسى، وقام إلى صلاته، قال: فقلت: مَنْ موسى؟ ابنه موسى، أو موسى بن جعفر، وكان محبوساً عندي! قال: فجعلت أفكّر، قال: فقلت: ما هو إلا موسى بن جعفر، قال: فأحضرته، قال: فقطع صلاته، وقال: يا موسى، إني قرأت هذه الآية: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقطِّعوا أَرحَامَكم﴾[١]، فخفت أن أكون قد قطعتُ رَحِمك، فوَثِّقْ لي أنك لا تخرج عليّ. قال: فقال: نعم، فوثّق له وخلّاه.

وذكر إبراهيم بن أبي عليّ، قال: سمعت سليمان بن داود، يقول: سمعت المهديّ يحدثنا في محراب المسجد على اللحن اليتيم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِن الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾[٢]، في سورة النّساء.

وذكر عليّ بن محمد بن سليمان، قال: حدّثني أبي، قال: حضرتُ المهديّ وقد جلس للمظالم، فتقدّم إليه رجل من آل الزبير؛ فذكر ضيعة اصطفاها عن أبيه بعضُ مُلوك بني أميّة، ولا أدري: الوليد، أم سليمان! فأمر أبا عبيدالله أن يُخرِج ذِكْرَها من الديوان العتيق، ففعل، فقرأ ذكرها على المهديّ؛ وكان ذلك أنها عُرضت على عِدّة منهم لم يروا ردّها؛ منهم عمر بن عبد العزيز. فقال المهديّ: يا زبيريّ، هذا عمر بن عبد العزيز؛ وهو منكم معشر قريش كما علمتم لم يَرَ ردها، قال: وكلّ أفعال عمر تُرضَى؟ قال: وأيّ أفعاله لا تُرضَى؟ قال: منها أنه كان يفرِض للسّقط من بني أمية في خِرَقِه في الشّرف من العطاء، ويفرض للشيخ من بني هاشم في ستين. قال: يا معاوية أكذلك كان يفعل عمر؟ قال: نعم؛ قال: اردُدْ على الزُّبيريّ ضيعتَه.

وذكر عمر بن شبّة أن أبا سلمة الغِفاريّ حدّثه، قال: كتب المهديّ إلى جعفر بن سليمان وهو عامل المدينة أن يحمل إليه جماعة اتُّهموا بالقَدَر فحمل إليه رجالاً؛ منهم عبدالله بن أبي عبيدة بن محمد بن عمّار بن ياسر، وعبدالله بن يزيد بن قيس الهذليّ، وعيسى بن يزيد بن دأب الليثيّ، وإبراهيم بن محمد بن أبي بكر الأساميّ؛ فأدخِلوا على المهديّ، فانبرى له عبدالله بن أبي عبيدة من بينهم؛ فقال: هذا دين أبيك ورأيه؟ قال: لا، ذاك عمي داود. قال: لا، إلا أبوك، على هذا فارَقنا وبه كان يدين. فأطلقهم.

وذكر عليّ بن محمد بن سليمان النوفليّ، قال: حدّثني أبي، عن محمد بن عبدالله بن محمد بن عليّ بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، قال: رأيتُ فيما يرى النائم في آخر سلطان بني أمية، كأني دخلت مسجدَ رسول الله ﷺ، فرفعت رأسي، فنظرت في الكتاب الذي في المسجد بالفسيفساء فإذا فيه: ممّا أمر به أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك؛ وإذا قائل يقول: يمحُو هذا الكتاب ويَكتب مكانه اسمَه رجل من بني هاشم يقال له

(١) سورة محمد: ٢٤.

(٢) سورة النساء: ٥١.

محمد. قال: أنا محمد، وأنا من بني هاشم؛ فابن مَنْ؟ قال: ابن عبدالله، قلت: فأنا ابن عبدالله، فابن مَنْ؟ قال: ابن محمد، قلت: فأنا ابنُ محمد، فابن مَنْ؟ قال: ابن عليّ، قلت: فأنا ابن عليّ، فابن مَنْ؟ قال: ابن عبدالله، قلت: فأنا ابن عبدالله؛ فابن مَنْ؟ قال: عباس؛ فلو لم أكن بلغت العبّاس ما شككت أني صاحب الأمر. قال: فتحدّثتُ بهذه الرؤيا في ذلك الدّهر ونحن لا نعرف المهديّ؛ فتحدّث النّاس بها حتى وليَ المهديّ، فدخل مسجد رسول الله ﷺ، فرفع رأسه فنظر فرأى اسم الوليد، فقال: وإني لأرى اسم الوليد في مسجد رسول الله ﷺ إلى اليوم، فدعا بكرسيّ فأُلقِيَ له في صحن المسجد وقال: ما أنا ببارح حتى يُمحى ويكتَب اسمي مكانَه. وأمر أن يحضر العُمّال والسلاليم وما يحتاج إليه، فلم يبرح حتى غيِّر وكتب اسمه.

وذكر أحمد بن الهيثم القُرَشيّ، قال: حدّثنا عبدالله بن محمد بن عطاء، قال: خرج المهديّ بعد هَدْأةٍ من الليل يطوف بالبيت، فسمع أعرابيّة من جانب المسجد وهي تقـول: قومي مقْتِـرون، نبتْ عنهم العيون، وفدحتهم الديون، وعضّتهم السِّنون؛ بادت رجالهم، وذهبت أموالهم، وكثر عيالهم؛ أبناء سبيل، وأنضاء طريق؛ وصية الله ووصية الرسول؛ فهل من آمرٍ لي بخير، كلأه الله في سفره، وخلَفه في أهله! قال: فأمر نُصيراً الخادم، فدفع إليها خمسمائة درهم.

وذكر عليّ بن محمد بن سليمان، قال: سمعتُ أبي يقول: كان أوّل مَن افترش الطبريّ المهديّ؛ وذلك أنّ أباه كان أمره بالمقام بالرّيّ، فأهْدِيَ إليه الطبريّ من طَبرِستان، فافترشه، وجعل الثلج والخلاف حوله؛ حتى فُتح لهم الخَيْش، فطاب لهم الطبريّ فيه.

وذكر محمد بن زياد، قال: قال المفضّل: قال لي المهديّ: اجمع لي الأمثال مّما سمعتَها من البدو، وما صحّ عندك. قال: فكتبت له الأمثال وحروبَ العرب مما كان فيها؛ فوصلني وأحسن إليّ.

قال عليّ بن محمد: كان رجل من ولد عبد الرحمن بن سَمُرة أراد الوثوب بالشأم، فحمِل إلى المهديّ فخلى سبيلَه وأكرمه، وقرّب مجلسه. فقال له يوماً: أنشِدْني قصيدة زُهير التي هي على الراء، وهي:

لِـمَنِ الـدِّيَـارُ بِـقُـنَّـةِ الحِـجْـرِ

فأنشده، فقال السَّمُريّ: ذهب والله من يقال فيه مثل هذا الشعر؛ فغضب المهديّ واستجهله، ونحّاه ولم يعاقبه، واستحمقه الناس.

وذكر أنّ أبا عون عبد الملك بن يزيد مرض، فعاده المهديّ؛ فإذا منزل رثّ وبناء سوء؛ وإذا طاق صُفّته التي هو فيها لبِن. قال: وإذا مضربة ناعمة في مجلسه، فجلس المهديّ على وسادة، وجلس أبو عون بين يديه، فبرّه المهديّ، وتوجّع لعلّته. وقال أبو عون: أرجو عافية الله يا أمير المؤمنين؛ وألا يميتني على فراشي حتى أقتَل في طاعتك؛ وإني لواثق بألاّ أموت حتى أبْليَ الله في طاعتك ما هو أهله؛ فإذا قد رُوِّينا. قال: فأظهر له المهديّ رأيا جميلا، وقال: أوصني بحاجتك، وسَلْني ما أردت، واحتكم في حياتك ومماتك؛ فوالله لئن عجز مالُك عن شيء توصي به لأحتملنّه كائناً ما كان؛ فقل وأوصِ. قال: فشكر أبو عون ودعا، وقال: يا أميرَ المؤمنين؛ حاجتي أن ترضى عن عبد الله بن أبي عون، وتدعوَ به، فقد طالت موجِدتك عليه. قال: فقال: يا أبا عون، إنه على غير الطريق، وعلى خلاف رأينا ورأيك؛ إنه يقَع في الشّيْخيْن أبي بكر وعمر، ويسيء القول فيهما. قال: فقال أبو عون: هو والله يا أميرَ المؤمنين على الأمر الذي خرجنا عليه، ودعونا إليه؛ فإن كان قد بدا لكم فمرُونا بما أحببتم

حتى نُطيعَكم. قال: وانصرف المهديّ، فلما كان في الطريق قال لبعض مَنْ كان معه من ولده وأهله: ما لكم لا تكونون مثل أبي عون! والله ما كنت أظنُّ منزله إلا مبنيًّا بالذهب والفضة؛ وأنتم إذا وجدتم درهماً بنيتم بالسّاج والذهب.

وذكر أبو عبد الله، قال: حدّثني أبي، قال: خطب المهديّ يوماً، فقال: عباد الله؛ اتقوا الله؛ فقام إليه رجل، فقال: وأنت فاتّقِ الله؛ فإنك تعمل بغير الحق. قال: فأخِذ فحُمل، فجعلوا يتلقّوْنه بنعال سيوفهم؛ فلما أدخِل عليه قال: يابن الفاعلة، تقول لي وأنا على المنبر: اتق الله! قال: سوْءة لك! لو كان هذا من غيرك كنتُ المستعدِي بك عليه، قال: ما أراك إلا نَبطيًّا، قال: ذاك أوكد للحجّة عليك أن يكون نَبَطيّ يأمرك بتقوى الله. قال: فرئيَ الرّجل بعد ذلك؛ فكان يحدّث بما جرى بينه وبين المهدي. قال: فقال أبي وأنا حاضره، إلا أني لم أسمع الكلام.

وقال هارون بن ميمون الخُزاعيّ: حدّثنا أبو خزيمة البادغيسيّ، قال: قال المهديّ: ما توسّل إليّ أحد بوسيلة، ولا تذرّع بذريعة هي أقرب من تذكيره إياي يداً سلفتْ مني إليه أتبعها أختها، فأحسن ربّها؛ لأن منع الأواخر يقطع شكر الأوائل.

قال: وذكر خالد بن يزيد بن وهب بن جرير، أن أباه حدّثه، قال: كان بشار بن برد بن يَرْجُوخ هجا صالح بن داود بن طهمان ـ أخا يعقوب بن داود ـ حين وُلّيَ البصرة، فقال:

هُمُ حَمَلوا فـوقَ المنابـر صـالحـاً ... أخـاكَ فَضَجَّت مِنَ أخيـك المنـابـرُ

فبلغ يعقوب بن داود هجاؤه، فدخل على المهديّ، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ إنّ هذا الأعمى المشرِك قد هجا أمير المؤمنين، قال: ويلك! وما قال؟ قال: يعفيني أمير المؤمنين من إنشاده ذلك، قال: فأبى عليه إلا أن ينشده، فأنشده:

خـليـفـةٌ يَـزْنـي بِـعَـمّـاتِـهِ ... يَلعَبُ بـالـدَّبُّـوقِ والصَّـولجَـانْ

أَبْـدَلَـنـا اللهُ بـه غـيـرَهُ ... وَدَسَّ مـوسى في حِـرِ الخيـزُرانْ

قال: فوجّه في حمله، فخاف يعقوب بن داود أن يقدم على المهديّ، فيمتدحه فيعفو عنه، فوجّه إليه من يلقيه في البَطِيحة في الخرّارة.

وذكر عبد الله بن عمر: حدّثني جدّي أبو الحيّ العبسيّ، قـال: لما دخـل مَرْوان بن أبي حفصـة على المهديّ، فأنشده شعره الذي يقول فيه:

أنّـى يكـونُ وليس ذاك بكـائـنٍ ... لِبَني البنـاتِ وراثَـةُ الأعمـامِ

فأجازه بسبعين ألف درهم، فقال مروان:

بسبعين ألفـاً راشَني مـن حِبَـائِـهِ ... وما نالها في الناس من شـاعر قبلي

وذكر أحمد بن سليمان، قال: أخبرني أبو عدنان السُّلميّ، قال: قال المهديّ لعُمارة بن حمزة: من أرقّ الناس شعراً؟ قال: والبة بن الحُباب الأسديّ، وهو الذي يقول:

ولـهــا وَلا ذَنــبٌ لــهــا حُــبٌّ كــأطْــرافِ الــرِّمــاحِ
فـي الـقــلـب يَقــدَحُ والــحشــا فــالـقـلـبُ مـجــروحُ الـنَّــواحـي

قال: صدقت والله، قال: فما يمنعك من منادمته يا أمير المؤمنين، وهو عربيٌّ شريف شاعر ظريف؟ قال: يمنعني والله من منادمته، قوله:

قـلتُ لـسـاقـيـنـا عـلى خَـلْوةٍ أَدْنِ كـذا رأسَـكَ مِـنْ رأسي
ونَمْ عـلى وجهـك لي سـاعـةً إني امـرءٌ أنـكِـحُ جُـلاَّسي

أفتريد أن يكون جلاّسه على هذه الشريطة!

وذكر محمدُ بن سلاّم أنه كان في زمان المهديّ إنسان ضعيف يقول الشعر إلى أن مدح المهديّ. قال: فأدخِل عليه فأنشده شعراً يقول فيه: «وَجَوَارٍ زَفَرَات»، فقال له المهديّ: أي شيء زفرات؟ قال. وما تعرفها أنت يا أمير المؤمنين؟ قال: لا والله، قال: فأنت أميرُ المؤمنين وسيِّد المسلمين وابن عمّ رسول الله ﷺ لا تعرفها، أعرفها أنا! كلّا والله.

قال ابن سلاّم: أخبرني غير واحد أن طُريح بن إسماعيل الثقفيّ دخل على المهديّ فانتسب له، وسأله أن يسمع منه، فقال: ألست الذي يقول للوليد بن يزيد:

أنـت ابنُ مُسْـلنـطح الـبِـطاحِ ولَـمْ تُـطرَقْ عـلـيـك الـحِـنـيُّ والـولَـجُ

والله لا تقول لي في مثل هذا أبداً، ولا أسمع منك شعراً، وإن شئت وصلتك.

وذُكر أنّ المهديّ أمر بالصوم سنة ست وستين ليستسقي للناس في اليوم الرابع، فلما كان في الليلة الثالثة أصابهم الثلج، فقال لَقيط بنُ بُكَير المحاربيّ في ذلك:

يـا إمـامَ الـهـدى سُقِينا بِـك الغَيْـ ـثَ وزالـتْ عَـنَّـا بِـك الـلأْواءُ
بِتَّ تُعْنَى بـالحفظِ والـنـاسُ نُـوَّا مٌ عـلـيـهـم مِـنَ الـظَّلامِ غِـطاءُ
رَقَـدُوا حـيثُ طـال لـيلُكَ فـيهـمْ لَـك خـوفٌ تَـضَـرُّعٌ وبـكـاءُ
قـد عَنتـكَ الأُمـورُ منهم عـلى الغفـ ـلة مِـنْ مَـعْشَرٍ عَـصَـوا وأَسـاؤوا
وسُـقِيـنـا وقـد قُحِـطنـا وقـلنـا سـنـةٌ قـد تَـنَـكَّـرَتْ حـمـراءُ
بِـدُعـاءٍ أخلصتَـهُ فـي سـوادِ الـ ـلـيـلِ لِلَّهِ فـاستُجيب الـدعـاءُ
بثلوجٍ تُـحيَـا بـهـا الأرض حتى أصبَحَت وهْـيَ زهـرَةٌ خـضـراءُ

وذكر أن الناس في أيام المهديّ صاموا شهر رمضان في صميم الصيف، وكان أبو دلامة إذ ذاك يطالب بجائزة وعدها إياه المهديّ، فكتب إلى المهديّ رقعة يشكو إليه فيها ما لقي من الحرّ والصوم، فقال في ذلك:

أدْعُـوكَ بـالـرَّحِم التي جَمَعَتْ لنـا في القـربِ بين قـريبِنـا والأبْعَـدِ
إلاَّ سـمعـتَ وأنت أكـرمُ مَـنْ مَـشَى مِنْ مُنشـدٍ يَـرجـو جـزاء المُنشَـدِ
حَـلَّ الـصيـامُ فـصمتُـهُ مُتَـعَبِّـدا أرجـو ثـوابَ الـصـائم الـمُتعـبِّـدِ
وَسَجـدتُ حتى جَبْهَتي مشجُـوجَـةٌ مـمَّـا أكلَّفُ مِـنْ نـطاح المسجـد

قال: فلمّا قرأ المهديّ الرُّقعة دعا به، فقال: أيّ قرابة بيني وبينك يا بن اللخناء! قال: رَحِم آدم وحوّاء. فضحك منه وأمر له بجائزة.

وذكر عليّ بن محمد، قال: حدّثني أبي، عن إبراهيم بن خالد المُعَيْطيّ قال: دخلت على المهديّ ـ وقد وُصف له غنائي ـ فسألني عن الغناء وعن علمي به، وقال لي: تُغنّي النواقيس؟ قلت: نعم والصليب يا أمير المؤمنين! فصرفني؛ وبلغني أنه قال: مُعيطيّ، ولا حاجة لي إليه فيمن أدنيه من خلوتي ولا آنس به.

ولمعبد المغني النواقيس في هذا الشعر:

سَلاَ دارَ لَيلى هل تُجيبُ فَتَنطقُ ... وأنّى تَرُدُّ القولَ بَيْداءُ سَمْلَقُ
وأنّى تَرُدُّ القول دارٌ كأنها ... لِطُول بلاها والتّقادُم مُهْرَقُ

وذكر قَعْنب بن محرز أبو عمرو الباهليّ أنّ الأصمعيّ حدّثه، قال: رأيت حَكَماً الوادي حين مضى المهديّ إلى بيت المقدس، فعرض له في الطريق، وكان له شُعيرات، وأخرج دُفًّا له يضربه، وقال: أنا القائل:

فَمَتَى تَخرُجُ العرو ... سُ فقد طال حبْسُها
قد دنا الصبحُ أو بدا ... وَهْيَ لَم تَقض لُبْسَها

فتسرّع إليه الحرَس فصيّح بهم: كُفُّوا، وسأل عنه فقيل: حكَم الوادي، فأدخله إليه ووصله.

وذكر عليّ بن محمد أنه سمع أباه يقول: دخل المهديّ بعضَ دوره يوماً فإذا جارية له نصرانيّة، وإذا جيبُها واسع وقد انكشف عما بين ثدييها؛ وإذا صليب من ذهب معلّق في ذلك الموضع؛ فاستحسنه، فمدّ يده إليه فجذبه، فأخذه، فولولت على الصليب، فقال المهديّ في ذلك:

يوم نازَعتُها الصّليبَ فقالتْ ... وَيْح نفسِي أما تُحِلّ الصليبا!

قال: وأرسل إلى بعض الشعراء فأجازه، وأمر به فغنى فيه، وكان معجباً بهذا الصوت.

قال: وسمعت أبي يقول: إنّ المهديّ نظر إلى جارية له عليها تاج فيه نرجس من ذهب وفضة، فاستحسنه فقال:

يا حبّذا النرجس في التاج

فأُرتِجَ عليه، فقال: مَنْ بالحضرة؟ قالوا: عبد الله بن مالك، فدعاه، فقال: إني رأيت جارية لي فاستحسنتُ تاجاً عليها فقلت:

يا حبذا النرجس في التاج

فتستطيع أن تزيد فيه؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين؛ ولكن دَعْني أخرج فأفكّر، قال: شأنَك، فخرج وأرسل إلى مؤدّب لولده فسأله إجازته، فقال:

على جَبينٍ لاحَ كالعاجِ

وأتمها أبياتاً أربعة، فأرسل بها عبد الله إلى المهديّ، فأرسل إليه المهدي بأربعين ألفاً، فأعطى المؤدّب منها أربعة آلاف، وأخذ الباقي لنفسه، وفيها غناء معروف.

وذكر أحمد بن موسى بن مضر أبو عليّ، قال: أنشدني التوّزيّ في حَسَنة جاريته:

أرى ماءً وبي عَطَشٌ شديدٌ ... وَلكِنْ لا سبيلَ إلَى الوُرُودِ
أما يَكْفِيك أنَّكِ تَمْلِكيني ... وَأنَّ النَّاسَ كلَّهُمُ عَبِيدي
وأنَّكِ لو قطعْتِ يَدي ورِجْلِي ... لَقُلْتُ مِنَ الرِّضا أحسَنْتِ زِيدي

وذكر عليّ بن محمد، عن أبيه، قال: رأيتُ المهديّ وقد دخل البَصْرة من قبَل سكّة قريش، فرأيته يسير والبانوقة بين يديه، بينه وبين صاحب الشُّرطة، عليها قَباء أسود، متقلدة سيفاً في هيئة الغلمان. قال: وإني لأرى في صدرها شيئاً من ثدييها.

قال عليّ: وحدّثني أبي، قال: قدم المهديّ إلى البصرة، فمرّ في سكّة قريش، وفيها منزلنا؛ وكانت الولاة لا تمرُّ فيها إذا قدم الوالي، كانوا يتشاءمون بها ـ قلّ والٍ مَرّ فيها فأقام في ولايته إلا يسيراً حتى يُعزل ـ ولم يمرّ فيها خليفة قطّ إلا المهديّ، كانوا يمرُّون في سكّة عبد الرحمن بن سَمُرة، وهي تساوي سِكّة قريش، فرأيت المهديّ يسير، وعبدالله بن مالك على شُرَطه يسير أمامه، في يده الحربة، وابنته البانوقة تسير بينه وبين يديه وبين صاحب الرُّطة في هيئة الفتيان، عليها قَباء أسود ومنطقة وشاشيّة، متقلدة السيف، وإني لأرى ثدييها قد رَفعا القَباء لنهودهما.

قال: وكانت البانوقة سمراء حَسَنة القدّ حلوة. فلما ماتت ـ وذلك ببغداد ـ أظهر عليها المهديّ جزعاً لم يُسمع بمثله، فجلس للنّاس يعزّونه، وأمر ألّا يحجب عنه أحَدٌ، فأكثر النّاس في التعازي، واجتهدوا في البلاغة، وفي الناس مَنْ ينتقد هذا عليهم من أهل العلم والأدب، فأجمعوا على أنهم لم يسمعوا تعزية أوجز ولا أبلغ من تعزية شبيب بن شيبة؛ فإنّه قال: يا أميرَ المؤمنين، اللهُ خيرٌ لها منك، وثواب الله خيرٌ لك منها، وأنا أسأل الله ألاّ يحزُنَك ولا يفتنك.

وذكر صباح بن عبد الرحمن، قال: حدّثني أبي، قال: تُوفِّيت البانوقة بنت المهديّ، فدخل عليه شبيب بن شيبة، فقال: أعطاك الله يا أميرَ المؤمنين على ما رُزئت أجراً، وأعقبك صبراً، لا أجهد الله بلاءك بنقمة، ولا نزع منك نعمةً؛ ثوابُ الله خيرٌ لك منها، ورحمة الله خير لها منك؛ وأحقّ ما صُبِر عليه ما لا سبيلَ إلى ردّه.

خلافة الهادي

وفي هذه السنة بويع لموسى بن محمّد بن عبد الله بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس بالخلافة، يوم تُوفِّيَ المهديّ، وهو مقيم بجُرجان يحارب أهل طَبَرِسْتان؛ وكانت وفاة المهديّ بماسَبَذان ومعه ابنه هارون، ومولاه الرّبيع ببغداد خَلفه بها؛ فذُكر أن الموالي والقُوّاد لما تُوفِّيَ المهديّ اجتمعوا إلى ابنه هارون، وقالوا له: إن عَلِم الجند بوفاة المهديّ لم تأمن الشَّغْب، والرّأي أن يُحمل، وتُنادِي في الجند بالقَفَل حتى تواريَه ببغداد. فقال هارون: ادعوا إليّ أبي يحيى بن خالد البرمكيّ ـ وكان المهديّ ولّى هارونَ المغرب كلَّه؛ من الأنبار إلى إفريقية، وأمر يحيى بن خالد أن يتولّى ذلك؛ فكانت إليه أعماله ودواوينه يقوم بها ويخلُفه على ما يتولى منها إلى أن تُوُفِّيَ ـ قال: فصار يحيى بن خالد إلى هارون، فقال له: يا أبتِ، ما تقول فيما يقول عمر بن بزيع ونُصير والمفضّل؟

قال: وما قالوا؟ فأخبره، قال: ما أرى ذلك، قال: ولِمَ؟ قال: لأن هذا ما لا يخفى، ولا آمن إذا علم الجند أن يتعلّقوا بمحمله، ويقولوا: لا نُخلّيه حتى نعطَى لثلاث سنين وأكثر، ويتحكّموا ويشتطُّوا؛ ولكن أرى أن يُوارَى رحمه الله ها هنا؛ وتوجِّهَ نُصيراً إلى أمير المؤمنين الهادي بالخاتم والقضيب والتهنئة والتعزية؛ فإنّ البريد إلى نُصير؛ فلا يُنكِر خروجه أحدٌ إذ كان على بريد الناحية، وأن تأمر لمن معك من الجند بجوائز؛ مائتين مائتين، وتنادي فيهم بالقُفول؛ فإنهم إذا قبضوا الدّراهم لم تكن لهم همّة سوى أهاليهم وأوطانهم؛ ولا عَرْجة على شيء دون بغداد. قال: نفعل ذلك. وقال الجند لما قبضوا الدراهم: بغداد بغداد! يتبادرون إليها، ويبعثون على الخروج من ماسَبَذان؛ فلما وافوْا بغداد، وعلموا خبر الخليفة، ساروا إلى باب الرّبيع فأحرقوه، وطالبوا بالأرزاق، وضجُّوا. وقدم هارون بغداد، فبعثت الخيزران إلى الرّبيع وإلى يحيى بن خالد تشاورهما في ذلك؛ فأما الرّبيع فدخل عليها، وأما يحيى فلم يفعل ذلك لعلمه بشدّة غَيْرة موسى.

قال: وجُمعت الأموال حتى أُعْطِيَ الجند لسنتين، فسكتوا؛ وبلغ الخبر الهادي، فكتب إلى الرّبيع كتاباً يتوعّده فيه بالقتل، وكتب إلى يحيى بن خالد يَجْزيه الخير، ويأمره أن يقوم من أمر هارون بما لم يزل يقوم به، وأن يتولّى أموره وأعماله على ما لم يزل يتولاّه. قال: فبعث الرّبيع إلى يحيى بن خالد ـ وكان يودّه، ويثق به، ويعتمد على رأيه: يا أبا عليّ، ما ترى؟ فإنه لا صبر لي على جرّ الحديد. قال: أرى ألاّ تبرح موضِعَك، وأن توجِّه ابنك الفضل يستقبله ومعه من الهدايا والطرَف ما أمكنك؛ فإني لأجرو ألاّ يرجع إلاّ وقد كفيت ما تخاف إن شاء الله. قال: وكانت أمّ الفضْل ابنه بحيث تسمع منهما مناجاتهما؛ فقال له: نصحك والله. قال: فإني أحبّ أن أوصي إليك؛ فإني لا أدري ما يحدث. فقال: لست أنفرد لك بشيء، ولا أدع ما يجب، وعندي في هذا وغيره ما تحبّ؛ ولكن أشرِك معي في ذلك الفضل ابنَك وهذه المرأة؛ فإنها جَزْلة مستحقّة لذلك منك. ففعل الربيع ذلك، وأوصى إليهم.

قال الفضل بن سليمان: ولما شغَب الجند على الرّبيع ببغداد وأخرجوا مَنْ كان في حبسه، وأحرقوا أبواب دوره في الميدان، حضر العباس بن محمد وعبد الملك بن صالح ومحرز بن إبراهيم ذلك؛ فرأى العبّاس أن يُرْضَوْا، وتطيب أنفسهم، وتفرّق جماعتهم بإعطائهم أرزاقهم؛ فبذل ذلك لهم فلم يرضوْا، ولم يثقوا مما ضُمِن لهم من ذلك؛ حتى ضمنه محرز بن إبراهيم، فقنعوا بضمانه وتفرّقوا، فوَفَى لهم بذلك، وأعطوا رزق ثمانية عشر شهراً؛ وذلك قبل قدوم هارون. فلما قدم ـ وكان هو خليفة موسى الهادي ـ ومعه الربيع وزيراً له، وجّه الوفود إلى الأمصار، ونعى إليهم المهديّ، وأخذ بيعتَهم لموسى الهادي، وله بولاية العهد من بعده؛ وضبط أمرَ بغداد. وقد كان نُصير الوصيف شخص من ماسَبَذان من يومه إلى جُرجان بوفاة المهديّ والبيعة له؛ فلما صار إليه نادى بالرّحيل، وخرج من فَوْره على البريد جواداً ومعه من أهل بيته إبراهيم وجعفر، ومن الوزراء عبيد الله بن زياد الكاتب صاحب رسائله، ومحمد بن جميل كاتب جنده. فلما شارف مدينةَ السلام استقبله النّاس من أهل بيته وغيرهم، وقد كان احتمل على الربيع ما كان منه وما صنع من توجيه الوفود وإعطائه الجنود قبل قدومه؛ وقد كان الرّبيع وجّه ابنه الفضل؛ فتلقّاه مما أعدّ له من الهدايا؛ فاستقبله بهمَذان، فأدناه وقرّبه، وقال: كيف خلّفْتَ مولاي؟ فكتب بذلك إلى أبيه، فاستقبله الرّبيع، فعاتبه الهادي، فاعتذر إليه، وأعلمه السبب الذي دعاه إلى ذلك، فقبله، وولاّه الوزارة مكان عبيد الله بن زياد بن أبي ليلَى، وضمّ إليه ما كان عمر بن بَزيع يتولاّه من الزّمام، وولّى محمد بن جميل ديوان خراج العراقيْن، وولّى عبيد الله بن زياد خراج الشأم ومَا يليه، وأقرّ على

حَرَسه عليّ بن عيسى بن ماهان، وضمّ إليه ديوان الجند، وولى شُرَطه عبد الله بن مالك مكانَ عبد الله بن خازم، وأقرّ الخاتم في يد عليّ بن يقطين.

وكانت موافاة موسى الهادي بغداد عند منصرَفه من جُرجان لعشرٍ بقين من صفَر من هذه السنة، سار - فيما ذكر عنه - من جرجان إلى بغداد في عشرين يوماً، فلما قدمها نزل القصر الذي يسمى الخُلْد؛ فأقام به شهراً، ثم تحوّل إلى بستان أبي جعفر، ثم تحول إلى عيساباذ.

وفي هذه السنة هلك الربيع مولى أبي جعفر المنصور.

وقد ذكر عليّ بن محمد النوفليّ أن أباه حدثه أنه كانت لموسى الهادي جارية، وكانت حظيّةً عنده، وكانت تحبُّه وهو بجُرْجان حين وجّهه إليها المهديّ، فقالت أبياتاً، وكتبت إليه وهو مقيم بجرجان، منها:

يا بَعيدَ المَحَلِّ أمـ ... ـسى بجرجانَ نازلا

قال فلما جاءته البَيْعة وانصرف إلى بغداد؛ لم تكن له همّة غيرها، فدخل عليها وهي تغنّي بأبياتها، فأقام عندها يومه وليلته قبل أن يظهر لأحد من الناس.

وفي هذه السنة اشتدّ طلب موسى الزنادقة، فقتل منهم فيها جماعة؛ فكان ممّن قتل منهم يزيدان بن باذان كاتب يقطين، وابنه عليّ بن يقطين من أهل النَّهروان؛ ذُكر عنه أنه حجّ فنظر إلى الناس في الطّواف يُهَرْولون، فقال: ما أشبّههم إلا ببقر تدوس في البَيْدَر. وله يقول العلاء بن الحداد الأعمى:

أيا أمينَ اللهِ في خَلقِهِ ... ووارثَ الكعبةِ والمِنبَرْ
ماذا تَرَى في رجلٍ كافرٍ ... يُشَبِّهُ الكعبةَ بالبَيْدَرْ
ويَجعلُ الناسَ إذا ما سَعَوْا ... حُمُراً تَدوسُ البُرَّ والدَّوْسَرْ!

فقتله موسى ثم صلبه، فسقطت خشبتُه على رجل من الحاجّ فقتلتْه وقتلتْ حماره. وقُتِل من بني هاشم يعقوب بن الفضل.

وذكر عن عليّ بن محمد الهاشمي، قال: كان المهديّ أُتِيَ بابنٍ لداود بن عليّ زنديقاً وأُتِيَ بيعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب زنديقاً، في مجلسين متفرقين، فقال لكل واحد منهما كلاماً واحداً، وذلك بعد أن أقرّا له بالزندقة، أما يعقوب بن الفضل فقال له: أُقِرُّ بها بيني وبينك؛ فأمّا أن أظهِر ذلك عند الناس فلا أفعل ولو قرضتني بالمقاريض، فقال له: ويلك! لو كُشفت لك السموات، وكان الأمر كما تقول، كنتَ حقيقا أن تغضب لمحمد، ولولا محمد ﷺ مَنْ كنت! هل كنت إلا إنساناً من الناس! أما والله لولا أني كنْت جعلت لله عليَّ عهداً إذا ولاّني هذا الأمر ألاّ أقتل هاشميّاً لما ناظرتك ولقتلتُك. ثم التفت إلى موسى الهادي، فقال: يا موسى، أقسمت عليك بحقي إن وليت هذا الأمير بعدي ألاّ تناظرهما ساعة واحدة. فمات ابن داود بن عليّ في الحبس قبل وفاة المهديّ؛ وأما يعقوب فبقي حتى مات المهديّ. وقدم موسى من جُرجان فساعة دخل، ذكر وصيّة المهديّ، فأرسل إلى يعقوب من ألقى عليه فراشاً، وأقعِدت الرجال عليه حتى مات. ثم لها عنه ببيعته وتشديد خلافته؛ وكان ذلك في يوم شديد الحرّ، فبقي يعقوب حتى مضى من الليل هدء، فقيل لموسى: يا أميرَ المؤمنين؛ إن يعقوب قد انتفخ وأروَح. قال: ابعثوا به إلى أخيه

إسحاق بن الفضل، فخبّروه أنه مات في السجن. فجُعل في زورق وإتِيَ به إسحاق، فنظر فإذا ليس فيه موضع للغسل، فدفنه في بستان له من ساعته، وأصبح فأرسل إلى الهاشميّين يخبرهم بموت يعقوب ويدعوهم إلى الجنازة، وأمر بخشبة فعملت في قدّ الإنسان فغشيت قطنا، وألبسها أكفاناً، ثم حملها على السرير، فلم يشكّ مَن حضرها أنه شيء مصنوع.

وكان ليعقوب ولد من صُلْبه: عبد الرحمن والفضل وأورى وفاطمة، فأمّا فاطمة فوجدت حُبلى منه، وأقرّت بذلك.

قال عليّ بن محمد: قال أبي: فأدخِلت فاطمة وامرأة يعقوب بن الفضل ـ وليست بهاشمية، يقال لها خديجة ـ على الهادي ـ أو على المهديّ من قبْل ـ فأقرّتا بالزندقة، وأقرّت فاطمة أنها حامل من أبيها، فأرسل بهما إلى رَيْطة بنت أبي العباس، فأرتها مكتحِلتين مختضِبتين، فعذلتْهما، وأكثرت على الابنة خاصّة، فقالت: أكرَهني، قال: فما بال الخضاب والكحل والسرور؛ إن كنت مكرهة! ولعنتهما. قال: فخُبِّرت أنهما فَزِعتا فماتتا فزَعاً، ضُرب على رأسِيهما بشيء يقال له الرعبوب. ففزعتا منه، فماتتا. وأما أروى فبقِيَتْ فتزوّجها ابن عمها الفضل بن إسماعيل بن الفضل؛ وكان رجلا لا بأس به في دينه.

وفيها قدم وندا هرمز صاحب طَبَرستان إلى موسى بأمان، فأحسن صلَته، وردّه إلى طَبَرِسْتان.

ذكر بقية الخبر
عن الأحداث التي كانت سنة تسع وستين ومائة

ومما كان فيها خروجُ الحسين بن عليّ بنِ الحسن بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب المقتول بفَخّ.

ذكر الخبر عن خروجه ومقتله:

ذكر عن محمد بن موسى الخوارزميّ أنه قال: كان بين موت المهديّ وخلافة الهادي ثمانية أيام. قال: ووصل إليه الخبر وهو بجُرجان، وإلى أن قدم مدينة السّلام إلى خروج الحسين بن عليّ بن الحسن، وإلى أن قتل الحسين، تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً.

وذكر محمد بن صالح، أنّ أبا حفص السُّلمِيّ حدّثه، قال: كان إسحاق بن عيسى بن عليّ على المدينة، فلما مات المهديّ، واستخلف موسى، شخص إسحاق وافداً إلى العراق إلى موسى، واستخلف على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

وذكر الفضل بن إسحاق الهاشميّ أن إسحاق بن عيسى بن عليّ استعفى الهاديّ وهو على المدينة، واستأذنه في الشُّخوص إلى بغداد، فأعفاه، وولّى مكانه عمر بن عبد العزيز. وأنّ سبب خروج الحسين بن عليّ بن الحسن كان أن عمر بن عبد العزيز لما تولى المدينة ـ كما ذكر الحسين بن محمد عن أبي حفص السُّلميّ ـ أخذ أبا الزفت الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن ومسلم بن جندُب الشّاعر الهذليّ وعمر بن سلاّم مولى آل عمر على شراب لهم، فأمر بهم فضرِبوا جميعاً، ثم أمر بهم فجُعل في أعناقهم حبال وطِيف بهم في المدينة، فكلّم فيهم، وصار إليه الحسين بن عليّ فكلمه، وقال: ليس هذا عليهم وقد ضربتهم، ولم يكن لك أن تضربهم؛ لأنّ أهل العراق لا يروْن به بأساً، فلمَ تطوف بهم! فبعث إليهم وقد بلغوا البلاط فردّهم، وأمر بهم إلى الحَبْس،

فحبِسوا يوماً وليلة، ثم كلِّم فيهم فأطلقهم جميعاً؛ وكانوا يُعرَضون، ففُقد الحسن بن محمد، وكان الحسين بن عليّ كفيله.

قال محمد بن صالح: وحدّثني عبد الله بن محمد الأنصاريّ أن العُمَريّ كان كَفَّل بعضهم من بعض؛ فكان الحسين بن عليّ بن الحسن ويحيى بن عبد الله بن الحسن كفيلين بالحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن؛ وكان قد تزوّج مولاةً لهم سوداء ابنة أبي لَيث مولى عبد الله بن الحسن؛ فكان يأتيها فيُقيم عندها، فغاب عن العرض يوم الأربعاء والخميس، والجمعة، وعرضهم خليفةُ العمريّ عشيَّة الجمعة، فأخذ الحسين بن عليّ ويحيى بن عبدالله؛ فسألهما عن الحسن بن محمد؛ فغلَّظ عليهم بعضَ التغليظ، ثم انصرف إلى العمريّ فأخبره خبرهم، وقال له: أصلحك الله! الحسن بن محمد غائب مذ ثلاث، فقال: ائتني بالحسين ويحيى؛ فذهب فدعاهما، فلمّا دخلا عليه، قال لهما: أين الحسن بن محمد؟ قالا: والله ما ندري؛ إنما غاب عنا يوم الأربعاء، ثم كان يوم الخميس؛ فبلغنا أنه اعتلّ، فكنّا نظن أنّ هذا اليوم لا يكون فيه عرْض؛ فكلمهما بكلام أغلظ لهما فيه، فحلف يحيى بن عبد الله ألاّ ينام حتى يأتيَه به أو يضرب عليه باب داره؛ حتى يعلم أنه قد جاءه به فلما خرجا قال له الحسين: سبحان الله! ما دعاك إلى هذا؟ ومن أين تجد حسناً! حلفتَ له بشيء لا تقدر عليه. قال: إنما حلفتُ على حسن، قال: سبحان الله! فعلى أيّ شيء حلفت! قال: والله لا نمتُ حتى أضرب عليه باب داره بالسيف. قال: فقال حسين: تَكسر بهذا ما كان بيننا وبين أصحابنا من الصلة، قال: قد كان الذي كان فلا بدّ منه.

وكانوا قد تواعدوا على أن يخرجوا بمنًى أو بمكة في الموسم ـ فيما ذكروا ـ وقد كان قوم من أهل الكوفة من شيعتهم ـ وممن كان بايع الحسين ـ متمكنين في دار، فانطلقوا فعملوا في ذلك من عشيّتهم ومن ليلتهم، حتى إذا كان في آخر الليل خرجوا. وجاء يحيى بن عبد الله حتى ضرب باب دار مَرْوان على العمريّ، فلم يجده فيها، فجاء إلى منزله في دار عبد الله بن عمر فلم يجده أيضاً فيها، وتوارى منهم، فجاؤوا حتى اقتحموا المسجد حين أذّنوا بالصبح؛ فجلس الحسين على المنبر وعليه عمامة بيضاء؛ وجعل الناس يأتون المسجد؛ فإذا رأوهم رجعوا ولا يصلُّون، فلما صلّى الغداة جعل الناس يأتونه، ويبايعونه على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ للمرتضى من آل محمد. وأقبل خالد البربريّ؛ وهو يومئذ على الصوافي بالمدينة قائد على مائتين من الجند مقيمين بالمدينة، وأقبل فيمَن معه، وجاء العمريّ ووزير ابن إسحاق الأزرق ومحمد بن واقد الشرويّ؛ ومعهم ناس كثير؛ فيهم الحسين بن جعفر بن الحسين بن الحسين على حِمار، واقتحم خالد البربري الرّحبة، وقد ظاهر بين درعين، وبيده السيف، وعمود في منطقته، مصلِتاً سيفَه، وهو يصيح بحسين: أنا كسكاس، قتلني الله إن لم أقتلك! وحمل عليهم حتى دنا منهم؛ فقام إليه ابنا عبد الله بن حسن: يحيى وإدريس، فضربه يحيى على أنف البيْضة فقطعها وقطع أنفه، وشرقت عيناه بالدّم فلم يبصر، فبرك يذّبب عن نفسه بسيفه وهو لا يبصر، واستدار له إدريس من خلفه فضربه وصرَعه، وعَلَواه بأسيافهما حتى قتلاه، وشدّ أصحابهما على درعيْه فخلعوهما عنه، وانتزعوا سيفه وعموده، فجاؤوا به، ثم أمروا به فجُرّ إلى البلاط، وحملوا على أصحابه فانهزموا. قال عبد الله بن محمد: هذا كله بعيني.

وذكر عبد الله بن محمد أن خالداً ضرب يحيى بن عبد الله، فقطع البُرْنس، ووصلت ضربته إلى يد يحيى فأثّرت فيها، وضربه يحيى على وجهه، واستدار رجل أعور من أهل الجزيرة فأتاه من خَلْفه، فضربه على رِجْليه، واعتوروه بأسيافهم فقتلوه.

قال عبد الله بن محمد: ودخل عليهم المسوّدة المسجد حين دخل الحسين بن جعفر على حماره، وشدّت المبيّضة فأخرجوهم، وصاح بهم الحسين: ارفقوا بالشيخ - يعني الحسين بن جعفر - وانتُهب بيت المال، فأصيب فيه بضعة عشر ألف دينار، فضلت من العطاء - وقيل: إن ذلك كان سبعين ألف دينار كان بعث بها عبد الله بن مالك، يفرض بها من خُزاعة - قال: وتفرّق الناس، وأغلق أهل المدينة عليهم أبوابَهم؛ فلما كان من الغد اجتمعوا واجتمعت شيعة ولد العباس، فقاتلوهم بالبلاط فيما بين رحبة دار الفضل والزّوراء، وجعل المسوّدة يحملون على المبيّضة حتى يبلغوا بهم رحبة دار الفضل، وتحمل المبيّضة عليهم حتى يُبلغ بهم الزّوراء. وفشت الجراحات بين الفريقين جميعاً، فاقتتلوا إلى الظهر، ثم افترقوا، فلما كان في آخر النهار من اليوم الثاني يوم الأحَد، جاء الخبر بأنّ مباركاً التركيّ ينزل بئر المطّلب، فنشط الناس، فخرجوا إليه فكلّموه أن يجيء فجاء من الغد حتى أتى الثّنيّة، واجتمع إليه شيعة بني العباس ومن أراد القتال، فاقتتلوا بالبلاط أشدّ قتال إلى انتصاف النهار، ثم تفرّقوا. وجاء هؤلاء إلى المسجد، ومضى الآخرون إلى مبارك التركيّ، إلى دار عمر بن عبد العزيز بالثنيّة يقيل فيها، وواعد الناس الرّواح، فلما غفلوا عنه، جلس على رَوَاحله فانطلق، وراح الناس فلم يجدوه، فناوشوهم شيئاً من القتال إلى المغرب، ثم تفرّقوا، وأقام حسين وأصحابه أياماً يتجهّزون. وكان مقامهم بالمدينة أحد عشر يوماً، ثم خرج يوم أربعة وعشرين لستٍّ بقين من ذي القعدة، فلما خرجوا من المدينة عاد المؤذنون فأذنوا؛ وعاد الناس إلى المسجد، فوجدوا فيه العظام التي كانوا يأكلون وآثارهم، فجعلوا يدعون الله عليهم، ففعل الله بهم وفعل.

قال محمد بن صالح: فحدّثني نصير بن عبد الله بن إبراهيم الجُمَحيّ، أن حسيناً لما انتهى إلى السوق متوجّهاً إلى مكة التفت إلى أهل المدينة، وقال: لا خلف الله عليكم بخير! فقال الناس وأهل السوق: لا بل أنت؛ لا خلف الله عليك بخير، ولا ردّك! وكان أصحابه يُحدِثون في المسجد، فملؤوه قذراً وبولا؛ فلما خرجوا غسل الناس المسجد.

قال: وحدّثني ابن عبد الله بن إبراهيم، قال: أخذ أصحاب الحسين ستورَ المسجد، فجعلوها خَفاتِين لهم، قال: ونادى أصحابُ الحسين بمكة: أيّما عبدٍ أتانا فهو حرّ؛ فأتاه العبيد، وأتاه عبد كان لأبي؛ فكان معه؛ فلما أراد الحسين أن يخرج أتاه أبي فكلّمه، وقال له: عمَدتَ إلى مماليك لم تملكْهم فأعتقتَهم، بم تستحلّ ذلك! فقال حسين لأصحابه: اذهبوا به، فأيّ عبدٍ عرَفه فادفعوه إليه؛ فذهبوا معه، فأخذ غلامه وغلامين لجيرانٍ لنا.

وانتهى خبر الحسين إلى الهادي، وقد كان حجّ في تلك السنة رجال من أهل بيته؛ منهم محمد بن سليمان بن عليّ والعباس بن محمد وموسى بن عيسى، سوى من حجّ من الأحداث. وكان على الموسم سليمان بن أبي جعفر، فأمر الهادي بالكتاب بتولية محمد بن سليمان على الحرب، فقيل له: عمُّك العباس بن محمد! قال: دعوني، لا والله لا أخدَع عن ملكي؛ فنفذ الكتاب بولاية محمد بن سليمان بن عليّ على الحرب، فلقيَهم الكتاب وقد انصرفوا عن الحجّ. وكان محمد بن سليمان قد خرج في عدّةٍ من السلاح والرجال؛ وذلك لأن الطريق كان مخوفاً معوراً من الأعراب؛ ولم يحتشد لهم حسين؛ فأتاه خبرهم، فهمْ بصوبه، فخرج بخدَمه وإخوانه. وكان موسى بن عليّ بن موسى قد صار ببطْن نخل، على الثلاثين من المدينة، فانتهى إليه الخبر ومعه إخوانه وجواريه، وانتهى الخبر إلى العباس بن محمد بن سليمان وكاتبهم، وساروا إلى مكة فدخلوا، فأقبل محمد بن سليمان، وكانوا أحرموا بعُمْرة. ثم صاروا إلى ذي طُوًى؛ فعسكروا بها، ومعهم سليمان بن أبي

جعفر؛ فانضمّ إليهم من وافَى في تلك السنة من شِيعة ولد العباس ومواليهم وقُوّادهم. وكان الناس قد اختلفوا في تلك السنة في الحجّ وكثروا جدًّا. ثم قدّم محمد بن سليمان قدامه تسعين حافراً ما بين فَرس إلى بغل، وهو على نجيب عظيم، وخلفه أربعون راكباً على النجائب عليها الرِّحال وخلْفهم مائتا راكب على الحمير، سوى مَن كان معهم من الرّجالة وغيرهم، وكثروا في أعين الناس جدًّا وملؤوا صدورهم فظنّوا أنهم أضعافهم، فطافوا بالبيت، وسعَوْا بين الصَّفا والمرْوة، وأحلّوا من عمرتهم، ثم مضوا فأتوا ذا طُوًى ونزلوا، وذلك يوم الخميس. فوجّه محمد بن سليمان أبا كامل ـ مولًى لإسماعيل بن عليّ ـ في نيِّف وعشرين فارساً؛ وذلك يوم الجمعة فلقيهم. وكان في أصحابه رجل يقال له زيد، كان انقطع إلى العبّاس، فأخرجه معه حاجًّا لما رأى من عبادته، فلما رأى القوم قَلَب ترسه وسيفه، وانقلب إليهم؛ وذلك ببطن مرّ، ثم ظفروا به بعد ذلك مشدّخاً بالأعمدة؛ فلما كان ليلة السبت وجّهوا خمسين فارساً، كان أوّل مَنْ ندبوا صباح أبو الذّيال، ثم آخر ثم آخر؛ فكان أبو خلوة الخادم مولى محمد خامساً، فأتوا المفضّل مولى المهديّ، فأرادوا أن يصيِّروه عليهم، فأبى وقال: لا، ولكن صيِّروا عليهم غيري وأكون أنا معهم، فصيّروا عليهم عبد الله بن حُميد بن رُزين السمرقنديّ ـ وهو يومئذ شابّ ابن ثلاثين سنة ـ فذهبوا وهم خمسون فارساً؛ وذلك ليلة السبت. فدنا القوم، وزحفت الخيل، وتعبّأ الناس؛ فكان العباس بن محمد وموسى بن عيسى في الميسرة، ومحمد بن سليمان في الميمنة؛ وكان معاذ بن مسلم فيما بين محمد بن سليمان والعباس بن محمد، فلما كان قبل طلوع الفجر جاء حسين وأصحابه فشدّ ثلاثة من موالي سليمان بن عليّ ـ أحدهم زنجويه غلام حسان ـ فجاؤوا برأس فطرحُوه قُدام محمد بن سليمان ـ وقد كانوا قالوا: مَنْ جاء برأس فله خمسمائة درهم ـ وجاء أصحاب محمد فعَرْقَبوا الإبل، فسقطت محاملها. فقتلوهم وهزموهم؛ وكانوا خرجوا من تلك الثّنايا، فكان الذين خرجوا ممّا يلي محمد بن سليمان أقلّهم، وكان جلُّهم خرجوا مما يلي موسى بن عيسى وأصحابه؛ فكانت الصدمة بهم؛ فلما فرغ محمد بن سليمان ممّن يليه وأسْفروا، ونظروا إلى الذين يلون موسى بن عيسى؛ فإذا مجتمعون كأنهم كبّة غَزْل، والتفّت الميمنة والقلب عليهم، وانصرفوا نحو مكّة لا يدرون ما حال الحسين؛ فما شعروا وهم بذي طُوًى أو قريباً منها إلا برجل من أهل خراسان، يقول: البشرى البشرى! هذا رأس حُسين، فأخرجه وبجبهته ضربة طولاً، وعلى قفاه ضربة أخرى، وكان الناس نادوا بالأمان حين فرغوا، فجاء الحسن بن محمد أبو الزّفت مغمِضاً إحدى عينيه، قد أصابها شيء في الحرب، فوقف خلف محمد والعباس، واستدار به موسى بن عيسى وعبد الله بن العباس. فأمر به فقتِل، فغضب محمد بن سليمان من ذلك غضباً شديداً. ودخل محمد بن سليمان مكة من طريق والعباس بن محمد من طريق، واحتُزّت الرؤوس؛ فكانت مائة رأس ونيِّفاً؛ فيها رأس سليمان بن عبد الله بن حسن وذلك يوم التروية، وأخذت أخت الحسين، وكانت معه فصيرت عند زينب بنت سليمان، واختلطت المنهزمة بالحجّاج، فذهبوا، وكان سليمان بن أبي جعفر شاكياً فلم يحضر القتال، ووافى عيسى بن جعفر الحجّ تلك السنة؛ وكان مع أصحاب حسين رجلٌ أعمى يقصّ عليهم فقتِل، ولم يقتَل أحد منهم صبراً.

قال: الحسين بن محمد بن عبد الله: وأسر موسى بن عيسى أربعة نفر من أهل الكوفة، ومولى لبني عجْل وآخر.

قال محمد بن صالح: حدّثني محمد بن داود بن عليّ، قال: حدّثنا موسى بن عيسى، قال: قدمتُ معي بستّة أسارى فقال لي الهادي: هيه! تقتل أسيري! فقلت: يا أميرَ المؤمنين، إني فكرت فيه فقلت: تجيء عائشة

وزينب إلى أمّ أمير المؤمنين، فتبكيان عندها وتكلّمانها، فتكلّم له أمير المؤمنين فيطلقه. ثم قال: هاتِ الأسرى، فقلت: إني جعلت لهم العهد والمواثيق بالطلاق والعَتاق، فقال: ائتني بهم، وأمر باثنين فقتلا، وكان الثالث منكراً، فقلت: يا أميرَ المؤمنين؛ هذا أعلم الناس بآل أبي طالب؛ فإن استبقيتَه دَلّك على كل بغية لك، فقال: نعم والله يا أميرَ المؤمنين؛ إني أرجو أن يكون بقائي صنعاً لك. فأطرق ثم قال: والله لإفلاتُك من يدي بعد أن وقعتَ في يدي لشديد؛ فلم يزل يكلّمه حتى أمر به أن يؤخّر، وأمره أن يكتب له طلبته، وأمّا الآخر فصفح عنه، وأمر بقتل عذافر الصيرفيّ وعليّ بن السابق القلّاس الكوفيّ، وأن يصلَبا، فصلبوهما بباب الجسر، وكانا أُسِرا بفخّ. وغضب على مبارك التركيّ، وأمر بقبض أمواله وتصييره في ساسة الدوابّ، وغضب على موسى بن عيسى لقتله الحسن بن محمد، وأمر بقبض أمواله.

وقال عبد الله بن عمرو الثلجيّ: حدّثني محمد بن يوسف بن يعقوب الهاشميّ، قال: حدّثني عبد الله بن عبد الرحمن بن عيسى، قال: أفلت إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب من وقعة فَخّ في خلافة الهادي، فوقع إلى مصر، وعلى بريد مصر واضح مولى لصالح بن أمير المؤمنين المنصور، وكان رافضيًّا خبيثاً، فحمله على البريد إلى أرض المغرب، فوقع بأرض طَنْجة بمدينة يقال لها وَليلة، فاستجاب له مَنْ بها وبأعراضها من البربر، فضرب الهادي عنق واضح وصلَبه.

ويقال: إنّ الرّشيد الذي ضرب عنقه، وأنه دس إلى إدريس الشماخ اليماميّ مولى المهديّ، وكتب له كتاباً إلى إبراهيم بن الأغلب عامله على إفريقيَّة، فخرج حتى وصل إلى وليلة وذكر أنه متطبّب، وأنه من أوليائهم، ودخل على إدريس فأنس به واطمأنّ إليه؛ وأقبل الشّماخ يريه الإعظام له والميل إليه والإيثار له فنزل عنده بكلّ منزلة. ثم إنه شكا إليه علّةً في أسنانه، فأعطاه سنوناً مسموماً قاتلا، وأمره أن يستنّ به عند طلوع الفجر لليلته؛ فلما طلع الفجر استنّ بالسنون، وجعل يردّه في فيه، ويكثّر منه، فقتله. وطُلب الشّمّاخ فلم يُظفر به، وقدم على إبراهيم بن الأغلب فأخبره بما كان منه، وجاءته بعد مقدمه الأخبار بموت إدريس؛ فكتب ابن الأغلب إلى الرّشيد بذلك، فولّى الشّمّاخ بريد مصر وأجاره، فقال في ذلك بعض الشعراء ـ أظنه الهنازيّ:

أَتظنّ يا إدْريسُ أنّكَ مُفْلِتٌ ... كيْدَ الخليفةِ أوْ يُفيدُ فِرارُ
فَليُدْرِكَنّكَ أوْ تحِلَّ بِبَلْدَةٍ ... لا يَهْتَدِي فيها إلَيكَ نهارُ
إنّ السُّيوفَ إذا انتضاها سُخْطُهُ ... طالتْ وقَصَّرَ دُونها الأعمارُ
مَلِكٌ كأنَّ المَوْتَ يَتْبَعُ أمْرَهُ ... حتى يقالَ: تُطيعُهُ الأقدارُ

وذكر الفضل بن إسحاق الهاشميّ أن الحسين بن عليّ لما خرج بالمدينة وعليها العُمَريّ لم يزل العمريّ متخفِّياً مقامَ الحسين بالمدينة، حتى خرج إلى مكة. وكان الهادي وجّه سليمان بن أبي جعفر لولاية الموسم، وشخص معه من أهل بيته ممن أراد الحجّ العباس بن محمد وموسى بن عيسى وإسماعيل بن عيسى بن موسى في طريق الكوفة، ومحمد بن سليمان وعدّة من ولد جعفر بن سليمان على طريق البصرة، ومن الموالي مبارك التركي والمفضل الوصيف وصاعد مولى الهادي ـ وكان صاحب الأمر سليمان ـ ومن الوجوه المعروفين يقطين بن موسى وعبيد بن سقطين وأبو الوزير عمر بن مطرّف؛ فاجتمعوا عند الذي بلغهم من توجّه الحسين ومَنْ معه إلى مكة، ورأّسوا عليهم سليمان بن أبي جعفر لولايته؛ وكان قد جُعل أبو كامل مولى إسماعيل على الطلائع، فلقوه بفخ،

وخلّفوا عبيد الله بن قُثَم بمكة للقيام بأمرها وأمر أهلها؛ وقد كان العباس بن محمد أعطاهم الأمان على ما أحدثوا، وضمن لهم الإحسان إليهم والصلة لأرحامهم؛ وكان رسولهم في ذلك المفضّل الخادم، فأبوْا قبول ذلك، فكانت الوقعة، فقتل مَنْ قتل، وانهزم الناس، ونودي فيهم بالأمان، ولم يُتّبع هارب؛ وكان فيمن هرب يحيى وإدريس ابنا عبد الله بن حسن؛ فأما إدريس فلحق بتاهَرْت من بلاد المغرب، فلجأ إليهم فأعظموه؛ فلم يزل عندهم إلى أن تُلُطِّف له، واحتيل عليه، فهلك، وخلَفه ابنه إدريس بن إدريس؛ فهم إلى اليوم بتلك الناحية مالكين لها، وانقطعت عنهم البعوث.

قال: المفضل بن سليمان: لما بلغ العمريَّ وهو بالمدينة مقتلُ الحسين بفخّ وثب على دار الحسين ودور جماعة من أهل بيته وغيرهم ممّن خرج مع الحسين، فهدمها وحرَّق النخل، وقبض ما لم يحرقه، وجعله في الصوافي المقبوضة. قال: وغضب الهادي على مبارك التركيّ لِما بلغه من صدوده عن لقاء الحسين بعد أن شارف المدينة، وأمر بقبض أمواله وتصبيره في سياسة دوابه، فلم يزل كذلك إلى وفاة الهادي، وسخط على موسى بن عيسى لقتله الحسن بن محمد بن عبد الله أبي الزفت؛ وتَرْكه أن يقدم به أسيراً،فيكون المحكّم في أمره، وأمَرَ بقبض أمواله، فلم تزل مقبوضة إلى أن تُوفِّيَ موسى. وقدم على موسى ممن أسِر بفَخّ الجماعة، وكان فيهم عذافر الصيرفيّ وعليّ بن سابق القلّاس الكوفيّ، فأمر بضرب أعناقهما وصلْبهما بباب الجسر ببغداد؛ ففُعل ذلك. قال: ووجّه مهرويه مولاه إلى الكوفة، وأمره بالتغليظ عليهم لخروج مَنْ خرج منهم مع الحسين.

وذكر عليّ بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، قال: حدّثني يوسف الْبَرْم مولى آل الحسن ـ وكانت أمّه مولاة فاطمة بنت حسن ـ قال: كنت مع حسين أيام قدم على المهديّ، فأعطاه أربعين ألف دينار، ففرّقها في الناس ببغداد والكوفة، ووالله ما خرج من الكوفة وهو يملك شيئاً يلبسه إلا فروا ما تحته قميص وإزار الفراش؛ ولقد كان في طريقه إلى المدينة؛ إذا نزل استقرض من مواليه ما يقوم بمؤونتهم في يومهم.

قال عليّ: وحدثني السريّ أبو بشر، وهو حليف بني زهرة، قال: صلّيتُ الغداة في اليوم الذي خرج فيه الحسين بنعليّ بن الحسن صاحب فخّ، فصلّى بنا حسين، وصعد المنبر منبر رسول الله ﷺ، فجلس وعليه قميص وعمامة بيضاء قد سدَلها من بين يديه ومن خلْفه، وسيفه مسلول قد وضعه بين رجليه؛ إذ أقبل خالد البربريّ في أصحابه؛ فلمّا أراد أن يدخل المسجد بدَرَه يحيى بن عبد الله، فشدّ عليه البربريّ، وإني لأنظر إليه، فبدَره يحيى بن عبد الله، فضربه على وجهه، فأصاب عينيه وأنفه؛ فقطع البيضة والقلنسوة، حتى نظرتُ إلى قَحْفه طائراً عن موضعه، وحمل على أصحابه فانهزموا. ثم رجع إلى حسين، فقام بين يديه وسيفه مسلول يقطر دماً؛ فتكلّم حسين، فحمد الله وأثنى عليه، وخطب الناس، فقال في آخر كلامه: يأيها الناس، أنا ابن رسول الله في حرم رسول الله، وفي مسجد رسول الله، وعلى منبر نبيّ الله، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ فإن لم أفِ لكم بذلك فلا بيعةَ لي في أعناقكم. قال: وكان أهل الزيارة في عامهم ذلك كثيراً، فكانوا قد ملؤوا المسجد؛ فإذا رجل قد نهض، حسن الوجه، طويل القامة، عليه رداءٌ ممشّق، أخذ بيد ابن له شابّ جميل جَلْد، فتخطّى رقاب الناس؛ حتى انتهى إلى المنبر، فدنا من حسين، وقال: يابنَ رسول الله، خرجتُ من بلد بعيد وابني هذا معي، وأنا أريد حجّ بيت الله وزيارة قبر نبيّه ﷺ، وما يخطر ببالي هذا الأمر الذي حدث منك؛ وقد سمعتُ ما

قلتَ، فعندك وفاء بما جعلت على نفسك؟. قال: نعم، قال: ابسط يدَك فأبايعك، قال: فبايعه، ثمَ قال لابنه: ادن فبايَعْ. قال: فرأيتُ واللهرؤوسهما في الرؤوس بمِنًى، وذلك أني حججت في ذلك العام.

قال: وحدّثني جماعة من أهل المدينة أنّ مباركاً التركيّ أرسل إلى حسين بن عليّ: والله لأن أسقط من السماء فتخطفني الطير، أو تهوى بي الريح في مكان سحيق، أيسر عليّ من أن أشوكك بشوكة، أو أقطع من رأسك شعرة؛ ولكن لا بدّ من الإعذار؛ فبيّتْني فإني منهزم عنك. فأعطاه بذلك عهدَ الله وميثاقه. قال: فوجَّه إليه الحسين ـ أو خرج إليه ـ في نفر يسير، فلما دنوْا من عسكره صاحوا وكبّرُوا، فانهزم أصحابه حتى لحق بموسى بن عيسى.

وذكر أبو المِضْرَحيّ الكلابيّ، قال: أخبرني المفضّل بن محمد بن المفضّل بن حسين بن عبيد الله بن العباس بن عليّ بن أبي طالب، أنّ الحسين بن عليّ بن حسن بن حسن، قال يومئذ في قوم لم يخرجوا معه ـ وكان قد وعدوه أن يوافوه، فتخلّفوا عنه ـ متمثّلاً:

من عَاذَ بالسّيْفِ لاَقى فُرْصَةً عجَباً ... مَوْتاً على عجل أو عاش منتصِفا
لا تَقرَبوا السَّهلَ إنَّ السَّهل يُفسِدُكم ... لَن تُدْركوا المجدَ حتى تضربُوا عُنفا

وذكر الفضل بن العباس الهاشميّ أن عبدالله بن محمد المنقريّ حدّثه عن أبيه، قال: دخل عيسى بن دأب على موسى بن عيسى عند مصرَفه من فَخّ، فوجده خائفاً يلتمس عذراً مِن قتل مَن قتل، فقال له: أصلح الله الأمير! أنشدك شعراً كتبَ به يزيد بن معاوية إلى أهل المدينة يعتذر فيه من قتل الحسين بن عليّ رضي الله عنه؟ قال: أنشدني، فأنشده، فقال:

يـا أيّها الراكبُ الغادِي لِـطِيّتِهِ ... على عُذافِرَةٍ في سَيْرِها قُحَمُ
أبلغْ قرَيشاً على شَحْط المَزارِ بها ... بيْني وبيْنَ الحُسْين اللّهُ والرَّحِمُ
وَمَوْقِفٍ بِفِناءِ البيْتِ أنْشُدُهُ ... عهْدَ الإلهِ ومَا تُرعَى له الذِّمَمُ
عنَّفتُم قومكم فخراً بأمِّكُمُ ... أمٌّ حَصَانٌ لعَمْري بَرَّةٌ كَرَمُ
هي التي لا يُداني فَضلَها أَحَدٌ ... بنتُ النبيِّ وَخيْرِ الناسِ قَدْ علموا
وفَضلها لكُمُ فضلٌ وغيْرُكُم ... مِنْ قَومكمْ لَهُمُ مِن فضلها قِسَمُ
إنـي لأعلَمُ أو ظنـا كعالِمِهِ ... والظنّ يَصْدُقُ أحياناً فيَنْتَظِمُ
أن سوفَ يَتْرُككمْ ما تطلبونَ بها ... قتْلَى تهاداكُم العِقبان والرَّخَمُ
يا قَومَنا لا تُشِبّوا الحَربَ إذ خَمَدَت ... ومَسِّكوا بِحبالِ السِّلْمِ واعْتَصِموا
لا تركَبوا البَغْيَ إنَّ البغْيَ مَصْرَعَةٌ ... وَإنَّ شاربَ كأسِ البغْيِ يتَّخِمُ
فَقدْ جرَّبَ الحَرْبَ مَن قَدْ كان قبلكمُ ... مِنَ القرونِ وقَد بادتْ بها الأُمَمُ
فأنْصفوا قومكم لا تهلَكوا بـذَخاً ... فرُبَّ ذي بَذخٍ زَلّتْ بِهِ القَدَمُ

قال: فسرِّيَ عن موسى بن عيسى بعض ما كان فيه.

وذكر عبدالله بن عبد الرحمن بن عيسى بن موسى أنّ العلاء حدّثه أن الهاديَ أمير المؤمنين لمّا ورد عليه خلعُ أهلَ فخّ خَلا ليله يكتب كتاباً بخطّه، فاغتمّ بخلوته مواليه وخاصّته، فدسُّوا غلاماً له، فقالوا: اذهب حتى تنظر

إلى أيّ شيء انتهى الخبر، قال: فدنا من موسى، فلما رآه قال: ما لك؟ فاعتلّ عليه، قال: فأطرق ثم رفع رأسه إليه، فقال:

رَقَـدَ الأُلَى ليس السُّرَى مِنْ شَـأْنِهِمْ   وكـفَـاهُـمُ الإِدْلاجَ مـن لـم يَـرْقُـدِ

وذكر أحمد بن معاوية بن بكر الباهليّ؛ قال: حدّثنا الأصمعيّ، قال: قال محمد بن سليمان ليلة فخّ لعمرو بن أبي عمرو المدنيّ - وكان يرمي بين يديه بين الهدفين: ارم، قال: لا والله لا أرمي ولَدَ رسول الله ﷺ؛ إني إنّما صحِبتك لأرمي بين يديك بين الهدَفيْن ولم اصطحبك لأرمي المسلمين.

قال: فقال المخزوميّ: ارْمِ، فرمى فما مات إلا بالبَرَص.

قال: ولما قتِل الحسين بن عليّ وجاء برأسه يقطين بن موسى، فوُضِع بين يدي الهادي، قال: كأنكم والله جئتم برأس طاغوت من الطواغيت! إن أقلّ ما أجزيكم به أن أحرمكم جوائزكم. قال: فحرمهم ولم يعطهم شيئاً.

وقال موسى الهادي: لما قُتل الحسين متمثّلاً:

قـدْ أنـصَـف الـقـارَةَ مَـنْ رامـاهـا   إنـا إذا مـا فئـةٌ نـلقـاهـا

نـرُدُّ أولاهـا عـلى أخـراهـا

وغزا الصائفة في هذه السنة معيوف بن يحيى من دَرْب الراهب، وقد كانت الرُّوم أقبلت مع البطريق إلى الحدَث؛ فهرب الوالي والجند وأهل الأسواق، فدخلها العدو، ودخل أرض العدوّ معيوف بن يحيى، فبلغ المدينة أشنة، فأصابوا سبايا وأسارى وغنموا.

وحجّ بالناس في هذه السنة سليمان بن أبي جعفر المنصور.

وكان على المدينة عمر بن عبد العزيز العمريّ، وعلى مكة والطائف عبيدالله بن قُثَم، وعلى اليمن إبراهيم بن سَلْم بن قتيبة، وعلى اليمامة والبحرين سُويد بن أبي سُويد القائد الخراسانيّ، وعلى عُمان الحسن بن تسنيم الحواريّ.

وعلى صلاة الكوفة وأحداثها وصدقاتها وبِهْقُبَاذ الأسفل موسى بن عيسى، وعلى صلاة البصرة وأحداثها محمد بن سليمان، وعلى قضائها عمر بن عثمان، وعلى جرجان الحجّاج مولى الهادي، وعلى قومِس زياد بن حسان، وعلى طَبَرِسْتان والرُّويان صالح بن شيخ بن عُميرة الأسديّ، وعلى أصبهان طيفور مولى الهادي.

ثم دخلت سنة سبعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك وفاة يزيد بن حاتم بإفريقيّة فيها، ووليَها بعده رَوْح بن حاتم. وفيها مات عبدالله بن مروان بن محمد في المطبَق.

وفيها توفِّيَ موسى الهادي بعيساباذ. واختُلف في السبب الذي كان به وفاته، فقال بعضهم: كانت وفاته من قُرْحة كانت في جوفه. وقال آخرون: كانت وفاته من قِبَل جوارٍ لأمِّه الخيزُران؛ كانت أمرتهنّ بقتله لأسباب نذكر بعضها.

ذكر الخبر عن السبب الذي من أجله كانت أمرتهنّ بقتله:

ذكر يحيى بن الحسن أن الهاديَ نابذَ أمه ونافرها؛ لمّا صارت إليه الخلافة، فصارت خالصةُ إليه يوماً، فقالت: إن أمّك تستكسيك، فأمر لها بخزانة مملوءة كِسوة. قال: ووُجد للخيزران في منزلها من قراقر الوشي ثمانية عشر ألف قُرْقر. قال: وكانت الخيزران في أوّل خلافة موسى تفتات عليه في أموره، وتسلك به مسلك أبيه من قبله في الاستبداد بالأمر والنهي، فأرسل إليها ألا تخرجي من خفَر الكفاية إلى بذاذة التبذُّل؛ فإنه ليس من قَدْر النساء الاعتراض في أمر الملك؛ وعليكِ بصلاتك وتسبيحك وتبتُّلك؛ ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك. قال: وكانت الخيزُران في خلافة موسى كثيراً ما تكلّمه في الحوائج؛ فكان يجيبها إلى كلِّ ما تسأله حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته، وانثال النّاس عليها، وطمعوا فيها؛ فكانت المواكب تغدو إلى بابها؛ قال فكلَّمتْه يوماً في أمرٍ لم يجد إلى إجابتها إليه سبيلاً، اعتلّ بعلة، فقالت: لا بدّ من إجابتي، قال: لا أفعل، قالت: فإني قد تضمّنت هذه الحاجة لعبدالله بن مالك. قال: فغضب موسى، وقال: ويل على ابن الفاعلة! قد علمتُ أنه صاحبها؛ والله لاقضيتها لك، قالت: إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً، قال: إذاً والله لا أبالي. وحميَ وغضب. فقامت مغضَبة، فقال: مكانك تستوعي كلامي والله، وإلاّ فأنا نفيٌّ من قرابتي من رسول الله ﷺ لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قُوّادي أو أحد من خاصّتي أو خدمي لأضربنّ عنقه؛ ولأقبضنّ ماله؛ فمن شاء فليلزم ذلك. ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كلّ يوم! أما لكِ مغزل يشغلك، أو مصحف يُذكرك، أو بيت يصونك! إياك ثم إياك، ما فتحتِ بابك لمليّ أو لذميّ. فانصرفت ما تعقل ما تطأ؛ فلم تنطق عنده بحُلْوة ولا مُرّة بعدها.

قال يحيى بن الحسن: وحدّثني أبي، قال: سمعت خالصة تقول للعباس بن الفضل بن الربيع: بعث موسى إلى أمّه الخيزُران بأرزّةٍ، وقال: استطبتُها فأكلتُ منها، فكلي منها. قالت خالصة: فقلت لها: أمسكي

حتى تنظري، فإني أخاف أن يكون فيها شيء تكرهينه، فجاؤوا بكلب فأكل منها، فتساقط لحمه؛ فأرسل إليها بعد ذلك: كيف رأيتِ الأرزّة؟ فقالت: وجدتها طيّبة، فقال: لم تأكلي؛ ولو أكلتِ لكنتُ قد استرحتُ منك، متى أفلح خليفة له أمّ!

قال وحدّثني بعضُ الهاشميين؛ أنّ سبب موت الهادي كان أنه لمّا جدّ في خلع هارون والبيعة لابنه جعفر، وخافت الخيزُران على هارون منه، دسّت إليه من جواريها لمّا مرض مَنْ قتله بالغمّ والجلوس على وجهه، ووجّهت إلى يحيى بن خالد: إنّ الرجُلَ قد تُوُفِّيَ، فاجدْد في أمرك ولا تقصرٌ.

وذكر محمد بن عبد الرحمن بن بشار أنّ الفضل بن سعيد حدّثه، عن أبيه، قال: كان يتصل بموسى وصولُ القوّاد إلى أمّه الخيزُران، يؤمّلون بكلامها في قضاء حوائجهم عنده، قال: وكانت تريد أن تغلب على أمره كما غلَبت على أمر المهديّ؛ فكان يمنعها من ذلك ويقول: ما للنساء والكلام في أمر الرجال! فلما كثر عليه مصيرُ من يصير إليها من قواده، قال يوماً وقد جمعهم: أيما خير؟ أنا أو أنتم؟ قالوا: بل أنت يا أمير المؤمنين؛ قال: فأيما خيرٌ، أمّي أوأمهاتكم؟ قالوا: بل أمّك يا أمير المؤمنين، قال: فأيّكم يحبّ أن يتحدّث الرجال بخبر أمه، فيقولوا: فعلتْ أمّ فلان، وصنعت أم فلان، وقالت أم فلان؟ قالوا: ما أحد منا يحبّ ذلك، قال: فما بالُ الرجال يأتون أمي فيتحدّثون بحديثها! فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها ألبتَّةَ، فشقّ ذلك عليها فاعتزلتْه، وحلفتْ ألّا تكلمه؛ فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة.

وكان السبب في إرادة موسى الهادي خلْع أخيه هارون حتى اشتدّ عليه في ذلك وجدّ ـ فيما ذكر صالح بن سليمان ـ أنّ الهاديَ لما أفضت إليه الخلافة أقرّ يحيى بن خالد على ما كان يلِي هارون من عمل المغرب؛ فأراد الهادي خلعَ هارون الرشيد والبيْعة لابنه جعفر بن موسى الهادي، وتابعه على ذلك القوّاد؛ منهم يزيد بن مزيد وعبدالله بن مالك وعليّ بن عيسى ومَنْ أشبههم؛ فخلعوا هارون، وبايعوا لجعفر بن موسى، ودسُّوا إلى الشيعة؛ فتكلموا في أمره، وتنقّصوه في مجلس الجماعة، وقالوا: لا نرضى به، وصعب أمرهم حتى ظهر؛ وأمر الهادي ألّا يسارَ قدّامَ الرشيد بحربة، فاجتنبه الناس وتركوه؛ فلم يكن أحدٌ يجترىء أن يسلّم عليه ولا يقربه.

وكان يحيى بن خالد يقوم بإنزال الرّشيد ولا يفارقه هو وولده ـ فيما ذكر. قال صالح: وكان إسماعيل بن صُبيح كاتب يحيى بن خالد، فأحبّ أن يضعه موضعاً يستعلم له فيه الأخبار، وكان إبراهيم الحَرّانيّ في موضع الوزارة لموسى، فاستكتب إسماعيل، ورفع الخبر إلى الهادي، وبلغ ذلك يحيى بن خالد، فأمر إسماعيل أن يشخص إلى حرّان، فسار إليها؛ فلما كان بعد أشهر سأل الهادي إبراهيم الحرانيّ: مَنْ كاتبك؟ قال: فلان كاتب، وسمّاه، فقال: أليس بلغني أن إسماعيل بن صُبيح كاتبك؟ قال: باطل يا أمير المؤمنين؛ إسماعيل بحرّان.

قال: وسُعِيَ إلى الهادي بيحيى بن خالد، وقيل له: إنه ليس عليك من هارون خلاف؛ وإنما يفسده يحيى بن خالد، فابعث إلى يحيى، وتهدَّدْه بالقتل؛ وارمِه بالكفر؛ فأغضب ذلك موسى الهادي على يحيى بن خالد.

وذكر أبو حفص الكرمانيّ أنّ محمد بن يحيى بن خالد حدّثه، قال: بعث الهادي إلى يحيى ليلاً، فأيس من نفسه، وودَّع أهله، وتحنّط وجدّد ثيابه، ولم يشكّ أنه يقتله؛ فلمّا أدخِل عليه، قال: يا يحيى، ما لي ولك! قال:

أنا عبدُك يا أميرَ المؤمنين؛ فما يكون من العبد إلى مولاه إلا طاعته. قال: فلِمَ تدخل بيني وبين أخي وتفسده عليّ! قال: يا أميرَ المؤمنين، مَنْ أنا حتى أدخل بينكما! إنما صيرني المهديّ معه، وأمرني بالقيام بأمره، فقمت بما أمرني به، ثم أمرتَني بذلك فانتهيت إلى أمرك. قال: فما الذي صنع هارون؟ قال: ماصنع شيئاً، ولا ذلك فيه ولا عنده. قال: فسكن غضبُه. وقد كان هارون طاب نفساً بالخلع، فقال له يحيى: لا تفعل، فقال: أليس يترك لي الهنيء والمريء، فهما يسعانني وأعيش مع ابنة عمي! وكان هارون يجدُ بأمّ جعفر وجْداً شديداً، فقال له يحيى: وأين هذا من الخلافة! ولعلك ألاّ يُتْرَك هذا في يدك حتى يخرج أجمَع؛ ومنعه من الإجابة.

قال الكرمانيّ: فحدّثني صالح بن سليمان، قال: بعث الهادي إلى يحيى بن خالد وهو بعيساباذ ليلاً، فراعه ذلك، فدخل عليه وهو في خَلْوة، فأمر بطلب رجل كان أخافه، فتغيّب عنه؛ وكان الهادي يريد أن ينادمه ويمنعه مكانه من هارون، فنادمه وكلّمه يحيى فيه، فآمنه وأعطاه خاتم ياقوت أحمر في يده، وقال: هذا أمانة، وخرج يحيى فطلب الرّجل، وأتى الهادي به فسرّ بذلك.

قال: وحدّثني غير واحد أنّ الرجل الذي طلبه كان إبراهيم الموصليّ.

قال صالح بن سليمان: قال الهادي يوماً للربيع: لا يدخل عليّ يحيى بن خالد إلا آخر الناس. قال: فبعث إليه الرّبيع، وتفرّغ له. قال: فلما جلس من غد أذن حتى لم يبق أحد، ودخل عليه يحيى، وعنده عبد الصمد بن عليّ والعبّاس بن محمد وجلّةُ أهله وقُوّاده، فما زال يُدنِيه حتى أجلسه بين يديه، وقال له: إني كنت أظلمك وأكفرك، فاجعلني في حلّ، فتعجبّ الناس من إكرامه إياه وقوله؛ فقبّل يحيى يده وشكر له، فقال له الهادي: مَن الذي يقول فيك يا يحيى:

لـو يَـمَسُّ البَـخِيـلُ راحـةَ يـحـيـى ... لَـسَـخَـتْ نَـفْـسُـه بِـبَـذْلِ الـنَّـوالِ

قال: تلك راحتُك يا أمير المؤمنين لا راحة عبدك!

قال: وقال يحيى للهادي في الرّشيد لمّا كلمه فيه: يا أميرَ المؤمنين؛ إنك إن حملت الناس على نكْث الأيمان هانت عليهم أيمانهم؛ وإن تركتَهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر منْ بعده كان ذلك أوكدَ لبيعته، فقال: صدقت ونصحت؛ ولي في هذا تدبير.

قال الكِرمانيّ: وحدثني خزيمة بن عبدالله، قال: أمر الهادي بحبس يحيى بن خالد على ما أراده عليه من خلْع الرشيد، فرفع إليه يحيى رقعة: إنّ عندي نصيحة، فدعا به، فقال: يا أميرَ المؤمنين، أخْلِني، فأخلاه، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ أرأيت إن كان الأمر ـ أسأل الله ألاّ نبلغه، وأن يقدّمنا قبله ـ أتظنّ أنّ الناس يسلِمون الخلافة لجعفر؛ وهو لم يبلغ الحُلُم، ويرْضَوْن به لصلاتهم وحَجّهم وغزوهم! قال: والله ما أظنّ ذلك، قال: يا أميرَ المؤمنين، أفتأمن أن يسموَ إليها أهلك وجِلّتهم مثل فلان وفلان، ويطمع فيها غيرهم، فتخرج من ولد أبيك؟ فقال له: نبَّهتَني يا يحيى ـ قال: وكان يقول: ما كلَّمتُ أحداً من الخلفاء كان أعقلَ من موسى ـ قال: وقال له: لو أن هذا الأمر لم يعقَد لأخيك، أما كان ينبغي أن تعقِده له، فكيف بأن تحلّه عنه، وقد عقده المهديّ له! ولكن أرى أن تُقِرّ هذا الأمر يا أميرَ المؤمنين على حاله؛ فإذا بلغ جعفر، وبلغ الله به، أتيتَه بالرّشيد فخلع نفسه، وكان أول مَنْ يبايعه ويعطيه صفقة يده. قال: فقبل الهادي قوله ورأيَه، وأمر بإطلاقه.

وذكر الموصليّ عن محمد بن يحيى، قال: عزم الهادي بعد كلام أبي له على خلْع الرشيد، وحَمَله عليه جماعة من مواليه وقوّاده؛ أجابه إلى الخلْع أو لم يُجِبْه، واشتد غضبه منه، وضيِّق عليه. وقال يحيى لهارون: استأذنه في الخروج إلى الصَّيْد، فإذا خرجتَ فاستبعد ودافع الأيام، فرفع هارون رقعة يستأذن فيها، فأذن له؛ فمضى إلى قصر مقاتل، فأقام به أربعين يوماً حتى أنكر الهادي أمرَه وغَمّه احتباسُه، وجعل يكتب إليه ويصرفُه، فتعلّل عليه حتى تفاقم الأمر، وأظهر شتمه، وبسط مواليه وقوّادُه ألسنتَهم فيه؛ والفضل بن يحيى إذ ذاك خليفة أبيه، والرّشيد بالباب؛ فكان يكتب إليه بذلك، وانصرف وطال الأمر.

قال الكِرمانيّ: فحدّثني يزيد مولى يحيى بن خالد، قال: بعثت الخيزران عاتكة ـ ظئراً كانت لهارون ـ إلى يحيى، فشقّت جبينها بين يديه، وتبكي إليه وتقول له: قالت لك السيدة: اللّهَ اللّهَ في ابني لا تقتله، ودعه يجيب أخاه إلى ما يسأله ويريده منه، فبقاؤه أحبّ إليّ من الدنيا بجُمْع ما فيها. قال: فصاح بها، وقال لها: وما أنت وهذا! إن يكن ما تقولين فإني وولدي وأهلي سنقْتَلُ قبله، فإن اتُّهمت عليه فلست بمتّهم على نفسي ولا عليهم. قال: ولّما لم ير الهادي يحيى بن خالد يرجع عما كان عليه لهارون بما بذَل له من إكرام وإقطاع وصلة، بعث إليه يتهدّده بالقتل إن لم يكفّ عنه. قال: فلم تزل تلك الحال من الخوْف والخطر، وماتت أم يحيى وهو في الخُلْد ببغداد؛ لأن هارون كان ينزل الخُلْد، ويحيى معه، وهو وليّ العهد، نازل في داره يلقاه في ليله ونهاره.

وذكر محمد بن القاسم بن الرّبيع، قال: أخبرني محمد بن عمرو الروميّ، قال: حدّثني أبي، قال: جلس موسى الهادي بعد ما ملك في أوّل خلافته جلوساً خاصًّا، ودعا بإبراهيم بن جعفر بن أبي جعفر وإبراهيم بن سلْم بن قُتيبة والحرّانيّ، فجلسوا عن يساره، ومعهم خادم له أسود يقال له أسلَم، ويكنى أبا سليمان؛ وكان يثِق به ويقدّمه؛ فبينا هو كذلك، إذ دخل صالح صاحب المصلَى، فقال: هارون بن المهديّ، فقال: ائذن له، فدخل فسلم عليه، وقبّل يديْه، وجلس عن يمينه بعيداً من ناحية، فأطرق موسى ينظر إليه، وأدمن ذلك، ثم التفت إليه، فقال: يا هارون، كأني بك تحدّث نفسك بتمام الرؤيا، وتؤمِّل ما أنت منه بعيد، ودون ذلك خَرْط القتاد؛ تؤمِّل الخلافة! قال: فبرك هارون على ركبتيه، وقال: يا موسى؛ إنك إن تجبّرتَ وُضعتَ، وإن تواضعتَ رُفعتَ؛ وإن ظَلَمْت خُتِلت؛ وإني لأرجو أن يفضي الأمر إليّ؛ فأُنْصِف مَنْ ظلمتَ، وأصِل مَنْ قطعتَ، وأصيِّر أولادك أعلى من أولادي، وأزوّجهم بناتي، وأبلغ ما يجب من حقّ الإمام المهديّ. قال: فقال له موسى: ذلك الظنّ بك يا أبا جعفر؛ ادن مني، فدنا منه، فقبّل يديه، ثم ذهب يعود إلى مجلسه، فقال له: لا والشيخ الجليل، والملك النبيل ـ أعني أباك المنصور ـ لا جلستَ إلّا معي، وأجلسه في صدر المجلس معه، ثم قال: يا حَرّانيّ، احمل إلى أخي ألف ألف دينار؛ وإذا افتتح الخراج فاحمِلْ إليه النصف منه، واعرضْ عليه ما في الخزائن من مالنا، وما أخِذ من أهل بيت اللعنة؛ فيأخذ جميع ما أراد. قال: ففعل ذلك. ولما قام قال لصالح: أدنِ دابته إلى البساط. قال عمرو الروميّ: وكان هارون يأنس بي، فقمت إليه فقلت. يا سيّدي، ما الرؤيا التي قال لك أمير المؤمنين؟ قال: قال المهديّ: أريت في منامي كأني دفعت إلى موسى قضيباً وإلى هارون قضيباً، فأورق من قضيب موسى أعلاه قليلاً؛ فأما هارون فأوروق قضيبه من أوله إلى آخره. فدعا المهديّ الحكَم بن موسى الضمريّ ـ وكان يكنى أبا سفيان ـ فقال له: عبِّر هذه الرؤيا، فقال: يملّكان جميعاً، فأما موسى فتقلّ أيامه، وأما هارون فيبلغ مدى ما عاش خليفة؛ وتكون أيامُه أحسن أيام، ودهره أحسن دهر. قال: ولم يلبثْ إلاّ أياماً يسيرة، ثم اعتل موسى ومات، وكانت علّته ثلاثة أيام.

قال عمرو الروميّ: أفضت الخلافة إلى هارون، فزوّج حمدونة من جعفر بن موسى، وفاطمة من إسماعيل بن موسى؛ ووَفّى بكلّ ما قال؛ وكان دهرُه أحسن الدهور.

وذُكر أنّ الهاديَ كان قد خرّج إلى الحديثة؛ حديثة الموصل؛ فمرض بها، واشتدّ مرضُه، فانصرف. فذكر عمرو اليشكريّ ـ وكان في الخدم ـ قال: انصرف الهادي من الحديثة بعد ما كتب إلى جميع عمّاله شرقاً وغرباً بالقدوم عليه؛ فلما ثقُل اجتمع القوم الذين كانوا بايعوا لجعفر ابنه، فقالوا: إن صار الأمر إلى يحيى قتَلَنا ولم يستبْقنا، فتآمروا على أن يذهب بعضهم إلى يحيى بأمر الهادي، فيضرب عنقه. ثم قالوا: لعلّ أمير المؤمنين يُفيق من مرضه، فما عُذْرنا عنده! فأمسكوا. ثم بعثت الخيزُران إلى يحيى تعلِمه أنّ الرجل لمّا به، وتأمره بالاستعداد لما ينبغي؛ وكانت المستوليةَ على أمر الرشيد وتدبير الخلافة إلى أن هلك؛ فأحضِر الكتّاب وجُمعوا في منزل الفضل بن يحيى، فكتبوا لليلتهم كتباً من الرشيد إلى العمّال بوفاة الهادي، وأنهم قد ولّاهم الرشيد ما كانوا يلُون؛ فلما مات الهادي أنْفذوها على البُرُد.

وذكر الفضل بن سعيد، أنّ أباه حدّثه أنّ الخيزُران كانت قد حلفتْ ألّا تكلم موسى الهادي، وانتقلت عنه، فلما حضَرْته الوفاة، وأتاها الرّسول فأخبرها بذلك، فقالت: وما أصنع به؟ فقالت لها خالصةُ: قومي إلى ابنك أيّتها الحرّة؛ فليس هذا وقت تعتّب ولا تغضّب. فقالت: أعطوني ماءً أتوضّأ للصلاة، ثم قالت: أما إنّا كنا نتحدّث أنه يموت في هذه الليلة خليفةٌ، ويملك خليفة، ويولَد خليفة؛ قال: فمات موسى، وملَك هارون، وولد المأمون.

قال الفضل: فحَدّثت بهذا الحديث عبدالله بن عبيدالله، فساقه لي مثل ما حدثنيه أبي، فقلت: فمن أين كان للخيزُران هذا العلم؟ قال: إنها كانت قد سمعت من الأوزاعيّ.

ذكر يحيى بن الحسن أنّ محمد بن سليمان بن عليّ حدثه، قال: حدثتْني عمّتي زينب ابنة سليمان، قالت: لما مات موسى بعيساباذ، أخبرتْنا الخيزُران الخبر، ونحن أربع نسوة؛ أنا وأختي وأمّ الحسن وعائشة، بُنيّات سلمان، ومعنا رَيْطة أمّ عليّ، فجاءت خالصة، فقالت لها: ما فعل الناس؟ قالت: يا سيدتي، مات موسى ودفنوه؛ قالت: إن كان مات موسى، فقد بقي هارون، هات لي سَويقا، فجاءت بسَويق، فشربت وسقتنا، ثم قالت: هات لساداتي أربعمائة ألف دينار، ثم قالت: ما فعل ابني هارون؟ قالت: حلف ألّا يُصلّيَ الظهرَ إلا ببغداد. قالت: هاتوا الرّحائل، فما جلوسي هاهنا؛ وقد مضى! فلحقته ببغداد.

ذكر الخبر عن وقت وفاته
ومبلغ سنه وقدر ولايته ومَنْ صلى عليه

قال أبو معشر: تُوفّيَ موسى الهادي ليلة الجمعة للنصف من شهر ربيع الأول؛ حدّثنا بذلك أحمد بن ثابت، عمّن ذكره، عن إسحاق.

وقال الواقديّ: مات موسى بعيساباذ للنصف من شهر ربيع الأول.

وقال هشام بن محمد: هلك موسى الهادي لأربع عشرة ليلة خلتْ من شهر ربيع الأول ليلة الجمعة في سنة سبعين ومائة.

وقال بعضهم: تُوفِّيَ ليلة الجمعة لستة عشر يوماً منه؛ وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر.

قال هشام: ملك أربعة عشر شهراً، وتوفِّيَ وهو ابن ستّ وعشرين سنة.

وقال الواقديّ: كانت ولايته سنة وشهراً واثنين وعشرين يوماً.

وقال غيرهم: تُوفِّيَ يوم السبت، لعشر خَلَتْ من ربيع الأول - أو ليلة الجمعة - وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وكانت خلافته سنة وشهراً وثلاثة وعشرين يوماً، وصلى عليه أخوه هارون بن محمد الرشيد. وكان كنيته أبا محمد، وأمه الخيْزُران أم ولد، ودفن بعيساباذ الكُبرى في بُستانه.

وذكر الفضل بن إسحاق أنه كان طويلاً جسيماً جميلاً أبيض، مشرَباً حُمرة؛ وكان بشفته العليا تقلُّص، وكان يلقب موسى أَطْبق؛ وكان ولد بالسِّيرَوان من الريّ.

ذكر أولاده

وكان له من الأولاد تسعة؛ سبعة ذكور وابنتان. فأما الذكور فأحدهم جعفر - وهو الذي كان يرشحه للخلافة - والعباس وعبدالله وإسحاق وإسماعيل وسليمان وموسى بن موسى الأعمى؛ كلهم من أمهات أولاد. وكان الأعمى - وهو موسى - ولد بعد موت أبيه. والابنتان؛ إحداهما أم عيسى كانت عند المأمون، والأخرى أمّ العباس بنت موسى، تلقَّب نُوتة.

ذكر بعض أخباره وسِيَره

ذكر إبراهيم بن عبد السلام، ابن أخي السنديّ أبو طوطة، قال: حدّثني السِّنديّ بن شاهك، قال: كنت مع موسى بجُرجان، فأتاه نعيّ المهديّ والخلافة، فركب البريد إلى بغداد؛ ومعه سعيد بن سَلْم، ووجّهني إلى خُراسان؛ فحدثني سعيد بن سَلْم، قال: سرْنَا بين أبيات جُرجان وبساتينها، قال: فسمع صوتاً من بعض تلك البساتين من رَجُل يتغنَّى، فقال لصاحب شرطته: عليَّ بالرّجل الساعة، قال: فقلت يا أمير المؤمنين، ما أشبه قصّة هذا الخائن بقصّة سليمان بن عبد الملك! قال: وكيف؟ قال: قلت له: كان سليمان بن عبد الملك في متنزَّهٍ له ومعه حُرَمه؛ فسمع من بستان آخر صوت رجل يتغنَّى، فدعا صاحبَ شرطته، فقال: عليّ بصاحب الصوت؛ فأُتِيَ به؛ فلما مثل بين يديه، قال له: ما حَمَلك على الغناء وأنت إلى جنبي ومعي حُرَمي! أما علمت أن الرّماك إذا سمعت صوت الفحل حنّت إليه! يا غُلام جُبَّه؛ فجُبَّ الرجل. فلما كان في العام المقبل رجَع سليمان إلى ذلك المتنزه، فجلس مجلسه الذي فيه، فذكر الرجل وما صنع به، فقال لصاحب شُرطته: عليّ بالرجل الذي كنا جَببناه، فأحضره، فلما مَثَل بين يديه، قال له: إمّا بِعْتَ فوفّيناك، وإما وهبتَ فكافأناك، قال: فوالله ما دعاه بالخلافة، ولكنَّه قال له: يا سليمان؛ اللّه اللّهَ! إنك قطعت نسلي، فذهبت بماء وجهي، وحرمتَني لذّتي، ثم تقول: إمَّا وهبتَ فكافأناك، وإما بعت فوفيْناك! لا والله حتى أقف بين يديِ الله. قال: فقال موسى: يا غلام، ردّ صاحب الشرطة، فردّه، فقال: لا تعرض للرجل.

وذكر أبو موسى هارون بن محمد بن إسماعيل بن موسى الهادي؛ أنّ عليّ بن صالح حدّثه؛ أنه كان يوماً على رأس الهادي وهو غلام - وقد كان جفا المظالم عامَّةً ثلاثة أيام - فدخل عليه الحَرّانيّ، فقال له: يا أميرَ المؤمنين؛ إن العامة لا تنقاد على ما أنتَ عليه، لم تنظر في المظالم منذ ثلاثة أيام؛ فالتفت إليّ، وقال: يا عليّ، ائذن للناس، عليّ بالجفَلى لا بالنّقَرى، فخرجت من عنده أطير على وجهي. ثم وقفت فلم أدر ما قال لي، فقلت:

أراجع أميرَ المؤمنين، فيقول: أتحجبني ولا تعلم كلامي! ثم أدركني ذهني، فبعثت إلى أعرابيّ كان قد وفد، وسألته على الجَفَلى والنَّقَرى، فقال: الجَفَلى جُفالة، والنقرى ينقِّر خواصّهم. فأمرت بالستور فرفِعت وبالأبواب ففتِحت، فدخل الناس على بَكْرة أبيهم، فلم يزل ينظر في المظالم إلى الليل؛ فلما تقوّض المجلس مثلت بين يديه، فقال: كأنك تريد أن تذكر شيئاً يا عليّ، قلت: نعم يا أميرَ المؤمنين؛ كلّمتني بكلام لم أسمعه قبل يومي هذا، وخفت مراجعتَك، فتقول: أتحجبني وأنت لم تعلم كلامي! فبعثت إلى أعرابيّ كان عندنا، ففسّر لي الكلام؛ فكافئه عني يا أميرَ المؤمنين، قال: نعم مائة ألف درهم تحمَل إليه، فقلت له: يا أمير المؤمنين؛ إنه أعرابيّ جِلْف، وفي عشرة آلاف درهم ما أغناه وكفاه، فقال: ويلك يا عليّ! أجود وتبْخَل!

قال: وحدّثني عليّ بن صالح، قال: ركب الهادي يوماً يريد عيادة أمّه الخيزُران من علّة كانت وجدتْها، فاعترضه عمر بن بزيع، فقال له: يا أميرَ المؤمنين؛ ألاَ أدلُّك على وجه هو أعودَ عليك من هذا؟ فقال: وما هو يا عمر؟ قال: المظالم لم تَنظر فيها منذ ثلاث، قال: فأومأ إلى المطرِّقة أن يميلوا إلى دار المظالم، ثم بعث إلى الخيزران بخادم من خدمه يعتذر إليها من تخلُّفه، وقال: قل لها إن عمر بن بزيع أخبرنا منْ حقّ الله بما هو أوجب علينا من حقّك، فملنا إليه ونحن عائدون إليك في غد إن شاء الله.

وذكر عن عبدالله بن مالك، أنه قال: كنتُ أتولّى الشُّرْطة للمهديّ، وكان المهديّ يبعث إلى ندماء الهادي ومغنّيه، ويأمرني بضربهم؛ وكان الهادي يسألني الرِّفْق بهم والترفيهَ لهم؛ ولا ألتفت إلى ذلك، وأمضي لما أمرني به المهديّ. قال: فلمّا ولي الهادي الخلافة أيقنت بالتلَف؛ فبعث إليّ يوماً، فدخلت عليه متكفناً متحنّطاً؛ وإذا هو على كرسيّ، والسيف والنِّطع بين يديه، فسلّمت، فقال: لا سلم الله على الآخر! تذكر يوم بعثت إليك في أمر الحَرَّانيّ، وما أمر أمير المؤمنين به من ضَرْبه وحبسه فلم تجبني؛ وفي فلان وفلان ـ وجعل يعدد ندماءه ـ فلم تلتفت إلى قولي، ولا أمري! قلت: نعم يا أمير المؤمنين، أفتأذن لي في استيفاء الحجّة؟ قال: نعم، قلت: ناشدتك بالله يا أمير المؤمنين، أيسرّك أنك ولّيتَني ما ولّاني أبوك، فأمرتَني بأمر، فبعث إليّ بعضُ بنيك بأمر يخالف به أمرك، فاتّبعت أمرَه وعصيتُ أمرك؟ قال: لا، قلت: فكذلك أنا لك، وكذا كنت لأبيك. فاستدناني، فقبّلت يديه، فأمر بخِلَع فصبّت عليّ، وقال: قد ولّيتُك ما كنتَ تتولاه، فامض راشداً. فخرجت من عنده فصرت إلى منزلي مفكراً في أمري وأمره، وقلت: حَدَثٌ يشرب، والقوم الذين عصيته في أمرهم ندماؤه ووزراؤه وكتّابه؛ فكأني بهم حين يغلب عليهم الشراب قد أزالوا رأيَه فيّ، وحملوه من أمري على ما كنت أكره وأتخوّفه. قال: فإنّي لجالس وبين يديّ بنيّةٌ لي في وقتي ذلك، والكانون بين يديّ، ورقاق أشطُره بكامَخ وأسخّنه وأضعه للصّبْية؛ وإذا ضجة عظيمة، حتى توهمت أن الدنيا قد اقتلعت وتزلزلت بوقع الحوافر وكثرة الوضاء، فقلت: هاه! كان والله ما ظننتُ، ووافاني من أمره ما تخوّفت؛ فإذا الباب قد فتح، وإذا الخدم قد دخلوا، وإذا أمير المؤمنين الهادي على حمار في وسطهم؛ فلمّا رأيته وثبتُ عن مجلس مبادراً، فقبّلت يده ورجله وحافرَ حماره، فقال لي: يا عبدَالله، إني فكرت في أمرك، فقلت: يسبق إلى قلبك أنّي إذا شربت وحولي أعداؤك، أزالوا ما حسُن من رأيي فيك، فأقلقَك وأوحشَك، فصرتُ إلى منزلك لأونسَك وأعلِمك أنّ السخيمة قد زالت عن قلبي لك، فهات فأطعِمني مما كنتَ تأكل، وافعل فيه ما كنت تفعل؛ لتعلم أنّي قد تحرّمت بطعامك، وأنست بمنزلك؛ فيزول خوفُك ووحشتُك. فأدنيت إليه ذلك الرّقاق والسكُرّجة التي فيها الكامخ، فأكل منها ثم قال: هاتوا الزَّلَّة التي أزللتها لعبدالله من مجلسي. فأدخلت إليّ أربعمائة بغْل مُوقرة دراهم، وقال: هذه زُلّتُك، فاستعِنْ بها على

أمرك، واحفظ لي هذه البغال عندك؛ لعلي أحتاج إليها يوماً لبعض أسفاري، ثم قال: أظلك الله بخير، وانصرف راجعاً.

فذكر موسى بن عبدالله أن أباه أعطاه بستانه الذي كان وسط داره، ثم بنى حوله معالف لتلك البغال؛ وكان هو يتولّى النظر إليها والقيام عليه أيام حياة الهادي كلها.

وذكر محمد بن عبدالله بن يعقوب بن داود بن طهمان السُّلميّ، قال: أخبرني أبي، قال: كان عليّ بن عيسى بن ماهان يغضب غضب الخليفة، ويرضى رضا الخليفة؛ وكان أبي يقول: ما لعربيّ ولا لعجميّ عندي ما لعليّ بن عيسى؛ فإنه دخل إلى الحبس وفي يده سوط، فقال: أمرني أمير المؤمنين موسى الهادي أن أضربَك مائة سوط، قال: فأقبل يضعه على يدي ومنكبي؛ يمسُّني به مسًّا إلى أن عدّ مائة، وخرج. فقال له: ما صنعت بالرّجل؟ قال: صنعتُ به ما أمرتَ. قال: فما حاله؟ قال: مات، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! ويلك! فضحتَني والله عند الناس؛ هذا رجل صالح، يقول الناس: قتَل يعقوب بن داود! قال: فلما رأى شدّة جزعه، قال: هو حيّ يا أمير المؤمنين لم يمُتْ، قال: الحمد لله على ذلك.

قال: وكان الهادي قد استخلف على حجابته بعد الربيع ابنَه الفضل، فقال له: لا تحجب عني الناس؛ فإن ذلك يزيل عنّي البركة، ولا تُلق إليّ أمراً إذا كشفتُه أصبتُه باطلاً؛ فإن ذلك يوقع الملك، ويضرّ بالرّعيّة.

وقال موسى بن عبدالله: أُتِيَ موسى برجل، فجعل يقرّعه بذُنوبه ويتهدده، فقال له الرجل: يا أميرَ المؤمنين، اعتذاري مما تُقرّعُني به رَدٌّ عليك، وإقراري يوجب عليّ ذنباً؛ ولكني أقول:

فإن كنتَ ترجو في العُقوبةِ رحمةً ... فلا تَزْهَدَنْ عندَ المُعافاة في الأجر

قال: فأمر بإطلاقه.

وذكر عمر بن شبّة أن سعيد بن مسلم كان عند موسى الهادي، فدخل عليه وفد الرّوم وعلى سعيد بن سلم قَلَنْسُوة ـ وكان قد صَلعَ وهو حدَث ـ فقال له موسى: ضع قلنسُوتك حتى تتشايخ بصلعتك.

وذكر يحيى بن الحسن بن عبد الخالق أنّ أباه حدّثه، قال: خرجت إلى عيساباذ أريد الفَضْل بن الربيع، فلقيتُ موسى أمير المؤمنين وهو خليفة؛ وأنا لا أعرفه؛ فإذا هو في غُلالة على فَرَس، وبيده قناة لا يدرك أحداً إلا طعنه. فقال لي: يابن الفاعلة! قال: فرأيت إنساناً كأنّه صنم، وكنت رأيته بالشأم، وكان فخِذاه كفخذي بعير، فضربت يدي إلى قائم السيف، فقال لي رجل: ويلك! أمير المؤمنين، فحرّكت دابتي ـ وكان شِهْريًّا حملني عليه الفضل بن الربيع، وكان اشتراه بأربعة آلاف درهم ـ فدخلت دار محمد بن القاسم صاحب الحرس، فوقف على الباب، وبيده القناة، وقال: اخرج يابن الفاعلة! فلم أخرج، ومرّ فمضى. قلت للفضل: فإني رأيتُ أمير المؤمنين؛ وكان من القصّة كذا وكذا، فقال: لا أرى لك وجهاً إلا ببغداد؛ إذا جئتُ أصلِّ الجمعة فالقَنِي، قال: فما دخلت عيساباذ حتى هلك الهادي.

وذكر الهيثم بن عروة الأنصاريّ أن الحسين بن معاذ بن مسلم ـ وكان رضيع موسى الهادي ـ قال: لقد رأيتُني أخلو مع موسى، فلا أجد له هيبةً في قلبي عند الخلوة، لما كان يبسطني. وربّما صارعني فأصرعه غير هائب له، وأضرب به الأرض، فإذا تلبّس لبسة الخلافة ثم جلس مجلس الأمر والنهي قمتُ على رأسه؛ فوالله ما أملك

نفسي من الرِّعدة والهَيْبة له.

وذكر يحيى بن الحسن بن عبد الخالق أنّ محمد بن سعيد بن عمر بن مِهْرَان، حدّثه عن أبيه، عن جدّه، قال: كانت المرتبة لإبراهيم بن سلْم بن قتيبة عند الهادي، فمات ابنٌ لإبراهيم يقال له سلم، فأتاه موسى الهادي يعزِّيه عنه على حمار أشهب، لا يُمنع مُقبلٌ ولا يُردّ عنه مُسَلِّم؛ حتى نزل في رِواقه، فقال له: يا إبراهيم، سَرّك وهو عدوّ وفتنة، وحَزَنك وهو صلاة ورحمة. فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما بقي منّي جزء كان فيه حزن إلّا وقد امتلأ عزاء. قال: فلما مات إبراهيم صارت المرتبة لسعيد بن سلْم بعده.

وذكر عمر بن شبّة أن عليّ بن الحسين بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب كان يلقب بالجزريّ، تزوج رُقيّة بنت عمرو العثمانية - وكانت تحت المهديّ - فبلغ ذلك موسى الهادي في أوّل خلافته، فأرسل إليه فجهَّله وقال: أعياك النساء إلا امرأة أمير المؤمنين، فقال: ما حرّم الله على خلقه إلّا نساء جدّي ﷺ؛ فأما غيرُهنّ فلا ولا كرامة. فشجّه بمِخْصَرة كانت في يده، وأمر بضربه خمسمائة سوط، فضُرب، وأراده أن يطلّقها فلم يفعل، فحمِل من بين يديه في نِطَع فألقِيَ ناحية؛ وكان في يده خاتم سريّ فرآه بعضُ الخدم وقد غُشيَ عليه من الضرب، فأهوى إلى الخاتم، فقبض على يد الخادم فدقّها، فصاح. وأتى موسى فأراه يدَه، فاستشاط وقال: يُفعل هذا بخادمي، مع استخفافه بأبي، وقوله لي! وبعث إليه: ما حملك على ما فعلت؟ قال: قُل له وسَلْه ومُرْه أن يضع يده على رأسك وليصدُقك. ففعل ذلك موسى. فصدّقه الخادمُ، فقال: أحسن والله، أنا أشهدُ أنه ابنُ عمّي؛ لو لم يفعل لانتفيتُ منه. وأمر بإطلاقه.

وذكر أبو إبراهيم المؤذّن، أنّ الهاديَ كان يثب على الدابّة وعليه درعان، وكان المهديّ يسمّيه رَيْحانتي.

وذكر محمد بن عطاء بن مقدِّم الواسطيّ، أن أباه حدّثه أنّ المهديّ قال لموسى يوماً - وقد قُدّم إليه زنديق، فاستتابه، فأبى أن يتوب، فضرب عُنُقه وأمر بصلْبه: يا بنيَّ، إن صار لك هذا الأمر فتجرّد لهذه العصابة - يعني أصحاب ماني - فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن، كاجتناب الفواحش والزّهد في الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومسّ الماء الطّهور وترك قتل الهوامّ تحرّجاً وتحوُّباً، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين: أحدهما النور والآخر الظلمة، ثم تُبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبوْل وسرقة الأطفال من الطُرق، لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النّور؛ فارْفع فيها الخشب، وجَرِّد فيها السيف، وتقرّب بأمرها إلى الله لا شريك له؛ فإني رأيتُ جدَّك العباس في المنام قلّدني بسيفين، وأمرني بقتل أصحاب الاثنين. قال: فقال موسى بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر: أما والله لئن عشتُ لأقتلنّ هذه الفرقة كلّها حتى لا أترك منها عيناً تطرُف.

ويقال: إنه أمر أن يهيّأ له ألف جِذْع، فقال: هذا في شهر كذا، ومات بعد شهرين.

وذكر أيوب بن عِنانة أن موسى بن صالح بن شيخ، حدّثه أن عيسى بن دأب كان أكثرَ أهل الحجاز أدباً وأعذَبهم ألفاظاً؛ وكان قد حَظِيَ عند الهادي حُظوةً لم تكن عنده لأحد؛ وكان يدعو له بمتّكأ، وما كان يفعل ذلك بأحدٍ غيره في مجلسه. وكان يقول: ما استطلتُ بك يوماً ولا ليلة، ولا غبت عن عيني إلّا تمنّيتُ ألا أرى غيرَك. وكان لذيذ المفاكهة طيّب المسامرة، كثير النادرة، جيد الشعر حسن الانتزاع له. قال: فأمر له ذات ليلة بثلاثين ألف دينار؛ فلما أصبح ابنُ دأب وجّه قَهْرمانه إلى باب موسى، وقال له: الْقَ الحاجب، وقُلْ له: يوجّه

إلينا بهذا المال، فلقي الحاجب، فأبلغه رسالته؛ فتبسم وقال: هذا ليس إليّ، فانطلقْ إلى صاحب التوقيع ليُخرج له كتاباً إلى الديوان، فتدّبرهُ هنا ثم تفعلُ فيه كذا وكذا. فرجع إلى ابن دأب فأخبره، فقال: دعْها ولا تعرض لها، ولا تسأل عنها. قال: فبينا موسى في مستشرَف له ببغداد، إذْ نظر إلى ابن دأب قد أقبل، وليس معه إلّا غلام واحد! فقال لإبراهيم الحرّاني: أما ترى ابن دأب؛ ما غيَّر من حاله، ولا تزين لنا؛ وقد بَرَرْناه بالأمس ليُرَى أثرُنا عليه! فقال له إبراهيم: فإن أمرني أميرُ المؤمنين عرضت له بشيء من هذا؛ قال: لا، هو أعلم بأمره؛ ودخل ابن دأب، فأخذ في حديثه إلى أن عرّض له موسى بشيء من أمره، فقال: أرى ثوبك عسيلاً، وهذا شتاء يُحتاج فيه إلى الجديد الليّن، فقال: يا أميرَ المؤمنين، باعي قصير عمّا أحتاج إليه، قال: وكيف وقد صرفنا إليك من برّنا ما ظننا أن فيه صلاح شأنك! قال: ما وصل إليّ ولا قبضتُه، فدعا صاحب بيت مال الخاصة، فقال: عجِّل له الساعة ثلاثين ألف دينار، فأحضِرت وحُملت بين يديْه.

وذكر عليّ بن محمد، أنّ أباه حدّثه عن عليّ بن يقطين، قال: إني لعند موسى ليلة مع جماعة من أصحابه؛ إذ أتاه خادم فسارَّه بشيء، فنهض سريعاً، وقال: لا تبرحُوا، ومضى فأبطأ، ثم جاء وهو يتنفّس، فألقى بنفسه على فِراشه يتنفّس ساعة حتى استراح، ومعه خادم يحمل طبقاً مغطًّى بمنديل، فقام بين يديه، فأقبل يُرعَد، فعجبنا من ذلك. ثم جلس وقال للخادم: ضَعْ ما معك، فوضع الطَّبَق، وقال: ارفع المِنْديل، فرفعه فإذا في الطَّبق رأسَا جاريتين؛ لم أر والله أحسن من وجوههما قطّ ولا من شعورهما، وإذا على رؤوسهما الجوهر منظوم على الشعر، وإذا رائحة طيِّبة تفوح، فأعظمنا ذلك، فقال: أتدرون ما شأنهما؟ قلنا: لا، قال: بلغنا أنهما تتحابّان قد اجتمعتا على الفاحشة، فوكلتُ هذا الخادم بهما يُنهي إليّ أخبارهما، فجائني فأخبرني أنهما قد اجتمعتا، فجئت فوجدتهما في لحافٍ واحد على الفاحشة فقتلتهما، ثم قال: يا غلامُ، ارفع الرأسين قال: ثم رجع في حديثه كأن لم يصنع شيئاً.

وذكر أبو العباس بن أبي مالك اليماميّ أنّ عبدالله بن محمد البواب، قال: كنت أحجب الهادي خليفةً للفضل بن الربيع، قال: فإنه ذات يوم جالسٌ وأنا في داره، وقد تغدّى ودعا بالنبيذ، وقد كان قبل ذلك دخل على أمه الخيزُران، فسألته أنْ يوليَّ خاله الغِطريف اليمن، فقال: أذكِريني به قبل أن أشرب، قال: فلما عزم على الشرب وجّهَتْ إليه منيرةَ - أو زهرةَ - تذْكِره، فقال: ارجعي فقولي: اختاري له طلاَق ابنته عُبيدة أو ولاية اليمن، فلم تفهم إلا قوله: «اختاري له» فمرّت، فقالت: قد اخترتُ له ولاية اليمن، فطلّق ابنته عُبيدة، فسمِع الصياح، فقال: ما لكم؟ فأعلمْته الخبر، فقال: أنت اخترت له، فقالت: ما هكذا أدّيْتْ إليّ الرسالة عنك. قال: فأمر صالحاً صاحب المصلى أن يقف بالسيف على رؤوس الندماء ليطلقوا نساءهم، فخرج إليّ بذلك الخدَم ليعلموني ألاّ آذن لأحد. قال: وعلَى الباب رجل واقف متلفع بطيلسانه، يراوح بين قدميه، فغنّ لي بيتان، فأنشدتهما وهما:

خليليَّ مِنْ سَعْدٍ أَلِمَّا فَسَلِّما ... على مريمٍ، لا يُبْعِدِ اللَّهُ مَرْيما
وقُولاَ لها: هَذا الفِراقُ عَزَمْتِهِ ... فهلْ مِنْ نوالٍ بَعْد ذاك فيُعلَما!

قال: فقال لي الرجل المتلفع بطيلسانه: فنَعلما، فقلت: ما الفرق بين «يعلما» و«نعلما»؟ فقال: إن الشعر يصلحه معناه ويفسده معناه، ما حاجتنا إلى أن يعلم الناس أسرارنا! فقلت له: أنا أعلم بالشعر منك، قال:

فلمن الشعر؟ قلت: للأسود بن عُمارة النوفليّ، فقال لي: فأنا هو؛ فدنوتُ منه فأخبرته خبرَ موسى، واعتذرت إليه من مراجعتي إياه. قال: فصرف دابّته، وقال: هذا أحقّ منزل بأن يترك.

قال مصعب الزبيريّ: قال أبو المعافى: أنشدت العباس بن محمد مديحاً في موسى وهارون:

يا خَيْزُرانُ هَناكِ ثمَّ هَناكِ ... إنَّ العبادَ يَسوسُهُمْ إبناكِ

قال: فقال لي: إني أنصحك، قال اليمانيّ: لا تذكر أمي بخير ولا بشرّ.

وذكر أحمد بن صالح بن أبي فنن، قال: حدّثني يوسف الصيقل الشاعر الواسطيّ، قال: كنا عند الهادي بجُرجان قبل الخلافة ودخوله بغداد، فصعد مستشرفاً له حسناً؛ فغُنِيَ بهذا الشعر:

واسْتَقَلَّتْ رجالُهُمْ ... بالرُّدَيْنيِّ شُرَّعا

فقال: كيف هذا الشعر؟ فأنشدوه، فقال: كنت أشتهي أن يكون هذا الغناء في شعر أرقّ من هذا، اذهبوا إلى يوسف الصيقل حتى يقول فيه، قال: فأتوني فأخبَروني الخبر، فقلت:

لا تَلُمْني أنَ اجزَعا ... سيِّدي قد تَمَنَّعا
وابَلائي إن كان ما ... بَيْنَنا قد تَقَطَّعا
إنَّ موسى بفضلِه ... جَمَعَ الفَضْلَ أجمَعا

قال: فنظر فإذا بعير أمامه، فقال: أوقِروا هذا دراهم ودنانير، واذهبوا بها إليه. قال: فأتوني بالبعير مُوقَراً.

وذكر محمد بن سعد، قال: حدّثني أبو زهير، قال: كان ابن دأب أحظَى الناس عند الهادي، فخرج الفضلُ بن الربيع يوماً، فقال: إنّ أمير المؤمنين يأمر مَن ببابه بالانصراف؛ فأما أنت يابنَ دأب فادخل، قال ابن دأب: فدخلت عليه وهو منبطح على فراشه؛ وإن عَيْنَيْه لحمراوان من السَّهر وشرب الليل، فقال لي: حدثني بحديث في الشراب، فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، خرجتْ رَجْلة من كنانة ينتجعون الخمر من الشأم، فمات أخ لأحدهم، فجلسوا عنده قبره يشربون، فقال أحدهم:

لا تُصَرِّدْ هامَةً مِن شَرْبِها ... أسقِهِ وإنْ كان قَبِرْ
أسقِ أوصالاً وهاماً وصَدًى ... قاشعاً يَقْشَعُ قَشْعَ المُبْتَكَرْ
كان حُرًّا فهَوَى فيمن هَوَى ... كُلّ عُودٍ وفُنونٍ منكَسِرْ

قال: فدعا بدواة فكتبها، ثم كتب إلى الحرّاني بأربعين ألفَ درهم، قال: عشرة آلاف لك، وثلاثون ألفاً للثلاثة الأبيات. قال: فأتيت الحرّانيّ، فقال: صالحْنا على عشرة آلاف، على أنّك تحلف لنا ألا تذكرها لأمير المؤمنين، فحلفت ألاّ أذكرَها لأمير المؤمنين حتى يبدأني، فمات ولم يذكرها حيث أفضت الخلافة إلى الرشيد.

وذكر أبو دِعامة أن سَلْم بن عمرو الخاسر مدح موسى الهادي، فقال:

بعيسابادَ حُرٌّ مِن قريشٍ ... على جَنباتِهِ الشَّرْبُ الرِّواءُ
يَعوذُ المُسلمونَ بِحَقْوَتَيْهِ ... إذا ما كان خَوفٌ أو رجاءُ

وبـالمَـيْـدانِ دُورٌ مُشْـرِفـات ... يُـشَـيِّـدهُـنَّ قَـوم أدعـيـاءُ
وكم من قـائـلٍ إني صحيحٌ ... وتـأبـاهُ الخـلائـقُ والـرُّواءُ
لـه حسبٌ يَضَنُّ بـه ليبقَى ... ولـيس لِمَـا يضَـنُّ بـه بَقَـاءُ
عـلى الضَّبيِّ لُـؤْمٌ ليس يَخْفَى ... يُغَـطِّيـهِ فيَنْكَشِفُ الـغـطاءُ
لَعَمْـرِي لَوْ أقامَ أبـو خَـدِيجٍ ... بنـاءَ الـدَّارِ مـا انهَدَمَ البِنـاءُ

قال: وقال سَلْم الخاسر لما تولّى الهادي الخلافة بعد المهديّ:

لَقَـدْ فَـازَ مُـوسَى بـالْخِـلاَفَـةِ والْهُـدَى ... ومَـاتَ أَمـيـرُ المـؤمنيـنَ مُـحَـمَّـدُ
فمـاتَ الَّـذِي عمَّ الـبـرِيَّـةُ فقْـدُهُ ... وَقَـامَ الـذِي يكفيـكَ مَنْ يُتَفَـقَّـدُ

وقال أيضاً:

تَخْفَى المُلوكُ لمُـوسى عنـدَ طلعتِـهِ ... مثـلَ النُّجومِ لقَـرنِ الشمسِ إذْ طَلَعَـا
ولـيس خَـلقٌ يَـرَى بـدراً وطـلعَـتَـهُ ... مـنَ الـبَـرِيَّـةِ إلاَّ ذَلَّ أو خَـضَـعَـا

وقال أيضاً:

لـولا الخليفـةُ مُـوسَى بَعْـدَ والِـدِهِ ... مَـا كَـانَ للنَّـاسِ مِنْ مَهْـدِيّهِمْ خلَفُ
ألا تـرَى أمَّـةَ الأُمِّـيِّ واردَةً ... كـأنَّهَـا من نَـوَاحِي البَحْـرِ تَغتـرفُ
مِـنْ راحَـتَيْ مَـلِكٍ قـد عَـمَّ نـائـلهُ ... كـأنَّ نـائـله مِـنْ جـودِهِ سَـرَفُ

وذكر إدريس بن أبي حفصة أن مَرْوان بن أبي حفصة حدّثه، قال: لما ملك موسى الهادي دخلتُ عليه فأنشدته:

إنْ خُـلِّدَتْ بـعـد الإمـامِ مُـحَـمَّـدٍ ... نَفْسِي لمَـا فَـرِحَتْ بِـطُولِ بَقَـائِهَـا

قال: ومدحت فقلت فيه:

بِسَبْعِينَ ألفـاً شـدَّ ظَهْـرِي وَرَاشَنِي ... أبُـوكَ وَقَـدْ عـايَنتُ مِنْ ذاك مَشْهَـدا
وَإنِّـي أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـنَ لَـوَاثِقٌ ... بـألَّا يُـرَى شـرْبي لَـدَيْـكَ مُصَـرَّدا

فلما أنشدته قال: ومَنْ يبلغ مدى المهديّ! ولكنا سنبلغ رضاك. قال: وعاجلتْهُ المنيّة فلم يعطني شيئاً، ولا أخذتُ من أحد دِرْهماً حتى قام الرشيد.

وذكر هارون بن موسى الفَرَوِيّ، قال: حدّثني أبو غُزِّيَة، عن الضحاك بن معن السُّلَميّ، قال: دخلت على موسى فأنشدته:

يـا مَـنـزِلَيْ شَجْـو الْفـؤادِ تكـلَّمَـا ... فَلَقَـدْ أرَى بكـمـا الـرَّبـابَ وكُلْثُمـا
مـا منـزلانِ على الـتَّقـادُمِ والـبِلى ... أبكَى لِمـا تَحْتَ الجـوانِـحِ مِنْكُمَـا
رُدَّا الـسَّـلامَ عـلى كَـبـيـرٍ شـاقـهُ ... طَـلَلانِ قَـدْ دَرسـا فهـاجَ فَـسَلِّمَـا

قال: ومدحته فيها، فلما بلغت:

سَبْط الأنامل بالفَعال أخالُه أنْ ليْسَ يَتركُ في الخزائنِ دِرْهَمَا

التفت إلى أحمد الخازن، فقال: ويحك يا أحمد! كأنّه نظر إلينا البارحة، قال: وكان قد أخرج تلك الليلة مالاً كثيراً ففرّقه.

وذُكِر عن إسحاق الموصليّ ـ أو غيره ـ عن إبراهيم، قال: كنّا يوماً عند موسى، وعنده ابن جامع ومُعاذ بن الطبيب ـ وكان أوّل يوم دخل علينا مُعاذ؛ وكان مُعاذ حاذقاً بالأغاني، عارفاً بقديمها ـ فقال: مَنْ أطربني منكم فله حُكمه؛ فغنّاه ابنُ جامع غِناءً فلم يحرّكه، وفهمتُ غرضه في الأغاني، فقال هات يا إبراهيم، فغنّيتُه:

سُليمَى أجْمَعتْ بينَا فأينَ نقولُها أينا!

فطرب حتى قام من مجلسه، ورفع صوته، وقال: أعِد، فأعدتُ، فقال: هذا غرضي فاحْتَكِمْ، فقلت: يا أميرَ المؤمنين، حائط عبد الملك وعينه الخرّارة، فدارت عيناه في رأسه حتى صارتا كأنهما جَمْرتان، ثم قال: يابن اللّخناء، أردت أن تُسمع العامة أنك أطربتَني وأنّي حكّمتك فأقطعتك! أما والله لولا بادرةُ جهلك التي غلبتْ على صحيح عقلك لضربتُ الذي فيه عيناك. ثم أطرق هُنيهة، فرأيت ملكَ الموت بيني وبينه ينتظر أمرَه. ثم دعا إبراهيم الحرّانيّ فقال: خذ بيَد هذا الجاهل فأدخله بيت المال، فليأخذ منه ما شاء، فأدخلني الحرّانيّ بيتَ المال، فقال: كم تأخذ؟ قلت: مائة بَدْرة، قال: دعني أؤامره، قال: قلت: فثمانين، قال: حتى أؤامره، فعملت ما أراد، فقلت: سبعين بدرةً لي، وثلاثين لك، قال: الآن جئت بالحق، فشأنَك. فانصرفتُ بسبعمائة ألف وانصرف ملك الموت عن وجهي.

وذكر عليّ بن محمد، قال: حدّثني صالح بن عليّ بن عطيّة الأضخم عن حَكَم الواديّ، قال كان الهادي يشتهي من الغناء الوسَط الذي يقلّ ترجيعُه، ولا يبلغ أن يستخفّ به جدًّا. قال: فبينا نحن ليلة عنده، وعنده ابنُ جامع والموصليّ والزبير بن دَحْمان والغَنويّ إذ دعا بثلاث بُدور وأمرَ بهنّ فوُضِعن في وسط المجلس، ثم ضمَّ بعْضَهُنّ إلى بعض، وقال: مَنْ غناني صوتاً في طريقي الذي أشتهيه، فهنّ له كلهنّ. قال: وكان فيه خُلُق حسن؛ كان إذا كره شيئاً لم يوقِّفْ عليه، وأعرض عنه. فغناه ابنُ جامع، فأعرض عنه، وغنّى القوم كلهم؛ فأقبل يعرض حتى تغنّيت، فوافقت ما يشتهي؛ فصاح: أحسنت أحسنت! اسقوني، فشرب وطرب، فقمت فجلست عل البُدور، وعلمت أني قد حَويتها، فحضر ابنُ جامع، فأحسن المحضر، وقال: يا أميرَ المؤمنين، هو والله كما قلتَ؛ وما منّا أحد إلا وقد ذهب عن طريقك غيرُه، قال: هي لك، وشرب حتى بلغ حاجَته على الصوت، ونهض، فقال: مُروا ثلاثة من الفرّاشين يحملونها معه، فدخل وخرجنا نمشي في الصحن منصرفين، فلحقني ابنُ جامع، فقلت: جُعلت فداك يا أبا القاسم! فعلتَ ما يفعل مثلُك في نسبك؛ فانظر فيها بما شئت. فقال: هنأك الله، وَدِدْنا أنا زِدناك. ولحقَنا الموصليّ، فقال: أجزنا، فقلت: ولِمَ لمْ تحسن محضرك! لا والله ولا درهماً واحداً.

وذكر محمد بن عبدالله، قال: قال لي سعيد القارىء العلاّف ـ وكان صاحبَ أبان القارىء: إنه كان عند موسى جلساؤه، فيهم الحرّاني وسعيد بن سلم وغيرُهما؛ وكانت جارية لموسى تسقيهم؛ وكانت ماجنةً، فكانت تقول لهذا: يا جلِفيّ؛ وتعبث بهذا وهذا؛ ودخل يزيد بن مزيد فسمع ما تقول لهم، فقال لها: والله الكبير؛ لئن قلتِ لي مثل ما تقولين لهم لأضربنّك ضربة بالسيف، فقال لها موسى: ويلك! إنه والله يفعل ما يقول؛ فإياك.

قال: فأمسكت عنه ولم تعابثه قطّ. قال: وكان سعيد العلّاف وأبان القارىء إبا ضيّين.

وذكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن داود الكاتب، قال: حدّثني ابن القداح، قال: كانت للربيع جارية يقال لها أمَة العزيز، فائقة الجمال، ناهدة الثّديين، حسنة القوام، فأهداها إلى المهديّ، فلما رأى جمالها وهيئتها، قال: هذه لموسى أصلح، فوهبها له؛ فكانت أحبَّ الخلق إليه، وولدت له بنيه الأكابر. ثم إنّ بعض أعداء الربيع قال لموسى: إنه سمع الرّبيع يقول: ما وضعتُ بيني وبين الأرض مثل أمَة العزيز، فغار موسى من ذلك غَيْرَةً شديدة، وحلف لَيَقْتُلَنّ الربيع، فلما استخلف دعا الرّبيع في بعض الأيام، فتغدّى معه وأكرمه، وناوله كأساً فيها شراب عسل؛ قال: فقال الربيع: فعلمت أنّ نفسي فيها، وأني إن رددتُ الكأس ضَرب عنقي؛ مع ما قد علمت أن في قلبه عليّ من دخولي على أمه، وما بلغه عني، ولم يسمع مني عذراً. فشربتها. وانصرف الرّبيع إلى منزله، فجمع ولده، وقال لهم: إني ميِّت في يومي هذا أو من غد، فقال له ابنه الفضل: ولم تقول هذا جعلت فداك! فقال: إنّ موسى سقاني شربة سمّ بيده، فأنا أجد عملَها في بدني، ثم أوصى بما أراد، ومات في يومه أو من غده. ثمّ تزوج الرشيد أمة العزيز بعد موت موسى الهادي، فأولدها عليّ بن الرشيد.

وزعم الفضل بن سليم بن إسحاق الهاشميّ أنّ الهادي لما تحوّل إلى عيساباذ في أوّل السنة التي ولي الخلافة فيها، عزل الرّبيع عما كان يتولّاه من الوزارة وديوان الرسائل، وولّى مكانه عمر بن بزيع، وأقرّ الربيع على الزمام؛ فلم يزل عليه إلى أن تُوُفِّيَ الربيع، وكانت وفاته بعد ولاية الهادي بأشهر؛ وأوذن بموته فلم يحضر جنازته، وصلى عليه هارون الرشيد؛ وهو يومئذ وليّ عهد، وولّى موسى مكان الربيع إبراهيم بن ذكوان الحرانيّ، واستخلف على ما تولاه إسماعيل بن صُبيح، ثم عزله واستخلف يحيى بن سليم، وولّي إسماعيل زمام ديوان الشأم وما يليها.

وذكر يحيى بن الحسن بن عبد الخالق، خال الفضْل بن الربيع، أنّ أباه حدّثه، أن موسى الهادي قال: أريد قتل الربيع؛ فما أدري كيف أفعل به! فقال له سعيد بن سلم: تأمر رجلاً باتّخاذ سكين مسموم، وتأمره بقتله، ثم تأمر بقتل ذلك الرجل. قال: هذا الرّأي، فأمر رجلاً فجلس له في الطريق، وأمره بذلك، فخرج بعض خلفاء الربيع، فقال له: إنّه قد أمر فيك بكذا وكذا، فأخذ في غير ذلك الطريق، فدخل منزله، فتمارض، فمرض بعد ذلك ثمانية أيام؛ فمات مِيتة نفسه. وكانت وفاته سنة تسع وستين ومائة؛ وهو الربيع بن يونس.

خلافة هارون الرشيد

بُويع للرّشيد هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس بالخلافة ليلة الجمعة الليلة التي تُوُفِّيَ فيها أخوه موسى الهادي. وكانت سنّه يوم ولَي اثنتين وعشرين سنة. وقيل كان يوم بُويع بالخلافة ابنَ إحدى وعشرين سنة. وأمّه أم ولد يمانية. جُرَشيّة يقال لها خَيزُران، وولد بالرّيّ لثلاث بقِينَ من ذي الحجة سنة خمس وأربعين ومائة في خلافة المنصور. وأما البرامكة فإنها - فيما ذُكِر - تزعم أنّ الرشيد وُلِد أول يوم من المحرم سنة تسع وأربعين ومائة؛ وكان الفضل بن يحيى ولد قبله بسبعة أيام، وكان مولد الفضل لسبع بقين من ذي الحجة سنة ثمان وأربعين ومائة، فجعلت أمّ الفضل ظئراً للرشيد؛ وهي زينب بنت منير، فأرضعت الرّشيد بلِبان الفضل، وأرضعت الخيزُران الفضل بلِبان الرّشيد.

وذكر سليمان بن أبي شيخ أنه لمّا كان الليلة التي تُوفِّيَ فيها موسى الهادي أخرج هَرْثمةُ بن أعين هارون الرشيد ليلاً فأقعده للخلافة، فدعا هارونُ يحيى بن خالد بن برمك ـ وكان محبوساً، وقد كان عزم موسى على قتله وقَتْل هارون الرشيد في تلك الليلة ـ قال: فحضر يحيى، وتقلّد الوزارة، ووجّه إلى يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب فأحضره، وأمره بإنشاء الكُتب؛ فلما كان غداةَ تلك الليلة، وحضر القوّاد قام يوسف بن القاسم، فحمِد الله وأثنى عليه وصلى على محمد ﷺ، ثم تكلم بكلام أبلغ فيه، وذكر موت موسى وقيام هارون بالأمر من بعده، وما أمر به للنّاس من الأعطيات.

وذكر أحمد بن القاسم، أنه حدّثه عمّه عليّ بن يوسف بن القاسم هذا الحديث، فقال: حدّثني يزيد الطبريّ مولانا أنه كان حاضراً يحمل دواة أبي يوسف بن القاسم، فحفِظ الكلام. قال: قال بعد الحمد لله عزّ وجلّ والصلاة على النبيّ ﷺ:

إن الله بمنّه ولطفه منَّ عليكم معاشر أهل بيت نبيّه بيت الخلافة ومعدن الرسالة، وأتاكم أهل الطاعة من أنصار الدّوْلة وأعوان الدّعوة، من نِعَمِه التي لا تحصى بالعدد، ولا تنقضي مدى الأبد، وأياديه التامّة، أنْ جمع أُلفتكم وأعلى أمرَكم، وشدّ عَضُدكم، وأوهن عدوّكم، وأظهر كلمة الحقّ، وكنتم أوْلى بها وأهلها، فأعزّكم الله وكان الله قويّاً عزيزاً؛ فكنتم أنصارَ دين الله المرتضى والذابِّين بسيفه المنتضَى؛ عن أهل بيت نبيِّه ﷺ. وبكم استنقذهم من أيدي الظَّلمة، أئمة الجوْر، والناقضين عهد الله، والسافكين الدّمَ الحرام، والآكلين الفيء، والمستأثرين به؛ فاذكروا ما أعطاكم الله من هذه النِّعمة، واحذروا أن تغيّروا فيغيِّر بكم. وإن الله جلّ وعزّ استأثر بخليفته موسى الهادي الإمام، فقبضه إليه، وولّى بعده رَشيداً مرضيّاً أمير المؤمنين رؤوفاً بكم رحيماً، من محسنكم قبولا، وعلى مسيئكم بالعفو عطوفاً؛ وهو ـ أمتعه الله بالنعمة وحفظ له ما استرعاه إياه من أمر الأمة، وتولاّه بما تولى به أولياءه وأهلَ طاعته ـ يعِدُكم من نفسه الرّأفة بكم، والرحمة لكم. وقسْم أعطياتكم فيكم عند استحقاقكم، ويبذل لكم من الجائزة مما أفاء الله على الخلفاء مما في بيوت الأموال ما ينوب عن رزق كذا وكذا شهراً، غير مقاصّ لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم، وحاملٌ باقِي ذلك؛ للدّفْع عن حريمكم، وما لعلّه أن يحدث في النواحي والأقطار من العُصاة المارقين إلى بيوت الأموال؛ حتى تعودَ الأموال إلى جِمامها وكثرتها، والحال التي كانت عليها؛ فاحمدوا الله وجدّدوا شكراً يوجب لكم المزيد من إحسانه إليكم؛ بما جدّد لكم من رأي أمير المؤمنين، وتفضّل به عليكم، أيّده الله بطاعته. وارغبوا إلى الله له في البقاء؛ ولكم به في إدامة النعماء، لعلكم ترحمون. وأعطُوا صَفْقة أيمانكم، وقوموا إلى بَيْعتكم، حاطكم الله وحاط عليكم، وأصلح بكم وعلى أيديكم، وتوّلاكم ولاية عباده الصالحين.

وذكر يحيى بن الحسن بن عبد الخالق، قال: حدثني محمد بن هشام المخزوميّ، قال: جاء يحيى بن خالد إلى الرّشيد وهو نائم في لِحاف بلا إزار؛ لمّا تُوفِّيَ موسى، فقال: قمْ يا أمير المؤمنين، فقال له الرّشيد: كم تروّعني إعجاباً منك بخلافتي! وأنت تعلم حالي عند هذا الرجل؛ فإنْ بلغه هذا، فما تكون حالي! فقال له: هذا الحرّانيّ وزير موسى وهذا خاتمه. قال: فقعد في فراشه، فقال: أشرْ عليّ، قال: فبينما هو يكلّمه إذ طلع رسول آخر، فقال: قد وُلد لك غلام، فقال: قد سمَّيتُه عبد الله، ثم قال ليحيى: أشر عليّ، فقال: أشير عليك أن تقعد لحالك على إرمينيَة، قال: قد فعلت؛ ولا والله لا صليت بعيساباذ إلاّ عليها، ولا صلّيت الظهر إلا ببغداد؛ وإلا

ورأس أبي عصمة بين يديّ. قال: ثم لبس ثيابه، وخرج فصلّى عليه، وقدَّم أبا عصمة، فضرب عنقه، وشَدّ جُمّته في رأس قناة، ودخل بها بغداد؛ وذلك أنه كان مضى هو وجعفر بن موسى الهادي راكبين. فبلغا إلى قنطرة من قناطر عيساباذ، فالتفت أبو عصمة إلى هارون، فقال له: مكانك حتى يجوز وليّ العهد، فقال هارون: السمع والطاعة للأمير؛ فوقف حتى جاز جعفر؛ فكان هذا سبب قتل أبي عصمة.

قال: ولما صار الرشيد إلى كرسيّ الجسر دعا بالغوّاصين، فقال: كان المهديّ وهَب لي خاتماً شراؤه مائة ألف دينار يسمّى الجَبَل، فدخلتُ على أخي وهو في يدي؛ فلما انصرفتُ لحقني سليم الأسود على الكرسيّ، فقال: يأمرُك أمير المؤمنين أن تعطيني الخاتم، فرميت به في هذا الموضع. فغاصوا، فأخرجوه، فسُرّ به غاية السرور.

قال محمد بن إسحاق الهاشميّ: حدّثني غير واحد من أصحابنا، منهم صبّاح بن خاقان التميميّ، أن موسى الهادي كان خلع الرشيد وبايع لابنه جعفر؛ وكان عبدُ الله بن مالك على الشُّرَط، فلما تُوُفِّيَ الهادي هجم خزيمة بن خازم في تلك الليلة، فأخذ جعفراً من فراشه؛ وكان خزيمة في خمسة آلاف من مواليه معهم السلاح، فقال: والله لأضربنَّ عنقك أو تخلَعها، فلما كان من الغدِ، ركب الناس إلى باب جعفر، فأتى به خزيمة، فأقامه على باب الدار في العُلوّ، والأبواب مغلقة، فأقبل جعفر ينادي: يا معشرَ المسلمين، منْ كانت لي في عنقه بيعة فقد أحللتُه منها؛ والخلافة لعمِّي هارون؛ ولا حقّ لي فيها.

وكان سببُ مشي عبد الله بن مالك الخُزاعيّ إلى مكّة على اللّبود؛ لأنه كان شاور الفقهاء في أيْمانه التي حلَف بها لبيعة جعفر، فقالوا له: كلُّ يمين لك تخرج منها إلا المشي إلى بيت الله؛ ليس فيه حيلة. فحجّ ماشياً. وحظي خزيمة بذلك عند الرّشيد.

وذُكر أن الرشيد كان ساخطاً على إبراهيم الحرانيّ وسلاّم الأبرش يوم مات موسى، فأمر بحبسهما وقبْض أموالهما، فحبِس إبراهيم عند يحيى بن خالدفي دارِه، فكلّم فيه محمدُ بن سليمان هارونَ، وسأله الرضا عنه وتخليةَ سبيله، والإذن له في الانحدار معه إلى البصرة، فأجابه إلى ذلك.

وفي هذه السنة عزل الرّشيد عمرَ بن عبد العزيز العُمَريّ عن مدينة الرّسول ﷺ؛ وما كان إليـه من عملها، وولّى ذلك إسحاق بن سليمان بن عليّ.

وفيها وُلِد محمد بن هارون الرشيد، وكان مولده ـ فيما ذكر أبو حفص الكرمانيّ عن محمد بن يحيى بن خالد ـ يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلتْ من شوال من هذه السّنَة، وكان مولد المأمون قبله في ليلة الجمعة النّصف من شهر ربيع الأول.

وفيها قلّد الرشيد يحيى بن خالد الوزارَة، وقال له: قد قلّدتُك أمر الرّعيّة، وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعملْ مَنْ رأيتَ،واعزل مَنْ رأيت، وأمض الأمور على ما ترى. ودفع إليه خاتمه؛ ففي ذلك يقول إبراهيم الموصليّ:

أَلَمْ تـرَ أن الشَّمْس كـانتْ سَقيمـةً	فلمّـا ولِي هـارونُ أَشْـرَقَ نُـورُهـا
بيُمـنِ أَمِيـن اللهِ هـارونَ ذي النَّـدَى	فهـارونُ وَاليهـا وَيَحْـيى وزيـرُهـا

وكانت الخيزُران هي الناظرة في الأمور، وكان يحيى يعرض عليها ويصدُر عن رأيها.

وفيها أمر هارون بسهْم ذوي القربى، فقسّم بين بني هاشم بالسّويّة.

وفيها آمن مَنْ كان هارباً أو مستخفياً، غير نفر من الزنادقة؛ منهم يونس بن فروة ويزيد بن الفيض.

وكان مّمن ظهر من الطالبيين طَبـاطَبا؛ وهـو إبراهيم بن إسمـاعيل، وعـليّ بن الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن.

وفيها عزل الرَشيد الثغور كلها عن الجزيرة وقنّسرين، وجعلها حيّزاً واحداً وسميت العواصم.

وفيها عمرت طَرَسُوس على يدي أبي سُليم فرَج الخادم التركيّ ونزلها الناس.

وحجّ بالناس في هذه السنة هارون الرّشيد من مدينة السّلام، فأعطى أهل الحَرَمَيْن عطاء كثيراً، وقسم فيهم مالاً جليلاً.

وقد قيل: إنه حجّ في هذه السنة وغزا فيها، وفي ذلك يقول داود بن رَزِين:

بِـهـارونَ لاحَ النُّـورُ فـي كـلِّ بَـلْدَةٍ ... وَقـامَ بِـهِ في عَـدْلِ سيـرتـهِ النَّهْـجُ

إمام بِـذاتِ اللهِ أَصْـبَـحَ شُـغْـلُهُ ... وَأكـثـرُ مـا يُعْـنَى بِهِ الـغـزْوُ وَالحَـجُّ

تضيقُ عُيـونُ النـاس عَن نُـورِ وجْهـهِ ... إذا مـا بَـدا للنّـاسِ مَنْـظَرُهُ البَلْجُ

وَإنَّ أمـيـنَ اللهِ هـارونَ ذا الـنَّـدَى ... يُنيـلُ الذي يَـرْجوهُ أَضعـافَ ما يَـرْجو

وغزا الصائفة في هذه السنة سليمان بن عبد الله البَكائيّ.

وكان العامل فيها على المدينة إسحاق بن سليمان الهاشميّ، وعلى مكة والطائف عبيد الله بن قُثَم، وعلى الكوفة موسى بن عيسى، وخليفته عليها ابنه العباس بن موسى، وعلى البصرة والبحـرين والفُرَض وعُمـان واليمامة وكُور الأهواز وفارس محمد بن سليمان بن عليّ.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين ومائة

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك قدوم أبي العباس الفضل بن سليمان الطوسيّ مدينةَ السلام منصرِفاً عن خُراسان، وكان خاتمُ الخلافة حين قدم مع جعفر بن محمد بن الأشعث، فلما قدم أبو العباس الطوسيّ أخذه الرّشيد منه، فدفعه إلى أبي العباس، ثمّ لم يلبث أبو العباس إلّا يسيراً حتى تُوُفِّيَ، فدفع الخاتم إلى يحيى بن خالد، فاجتمعت ليحيى الوزارتان.

وفيها قتل هارون أبا هُرَيرة محمد بن فرّوخ ـ وكان على الجزيرة ـ فوجّه إليه هارون أبا حنيفة حَرْب بن قيس، فقدم به عليه مدينة السّلام، فضرب عنقه في قصر الخُلْد.

وفيها أمر هارون بإخراج مَنْ كان في مدينة السلام من الطالبيّين إلى مدينة الرسول ﷺ، خلا العباس بن الحسن بن عبد الله بن عليّ بن أبي طالب، وكان أبوه الحسن بن عبد الله فيمن أشخِص.

وخرج الفضل بن سعيد الحَروريّ فقتله أبو خالد المَرْوَرُّوذيّ.

وفي هذه السنة كان قدوم رَوْح بن حاتم إفريقيّة، وخرجت في هذه السنة الخيزُران إلى مكة في شهر رمضان، فأقامت بها إلى وقت الحجّ فحجّت.

وحجّ بالنّاس في هذه السنة عبد الصمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس.

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك شخوص الرّشيد فيها إلى مَرْج القلعة مرتاداً بها منزلا ينزله.

ذكر السبب في ذلك:

ذكر أن الذي دعاه إلى الشخوص إليها أنه استثقل مدينة السلام، فكان يسميها البُخار، فخرج إلى مَرْج القلعة، فاعتلّ بها، فانصرف، وسُمّيت تلك السفرة سَفْرة المرتاد.

وفيها عزل الرّشيد يزيد بن مزيد عن إرمينيَة، وولّاها عبيد الله بن المهديّ.

وغزا الصائفة فيها إسحاق بن سليمان بن عليّ.

وحجّ بالناس في هذه السنة يعقوب بن أبي جعفر المنصور.

وفيها وضع هارون عن أهل السواد العُشْر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك وفاة محمد بن سليمان بالبصرة، لليال بقين من جمادى الآخرة منها.

وذُكِر أنّه لما مات محمد بن سليمان وجّه الرشيد إلى كلّ ما خلّفه رجلاً أمره باصطفائه، فأرسل إلى ما خلّف من الصّامت من قبَل صاحب بيت ماله رجلاً؛ وإلى الكسوة بمثل ذلك، وإلى الفُرُش والرّقيق والدوابّ من الخيل والإبل، وإلى الطِّيب والجوهر وكلّ آلة برجلٍ من قِبَل الذي يتولّى كلّ صنف من الأصناف، فقدِموا البَصْرة، فأخذوا جميع ما كان لمحمد ممّا يصلح للخلافة، ولم يتركوا شيئاً إلا الخُرْثِيّ الذي لا يصلح للخلفاء، وأصابوا له ستّين ألف ألف، فحملوها مع ما حُمِل، فلما صارت في السُّفنُ أخبِر الرشيد بمكان السُّفن التي حملت ذلك؛ فأمر أن يُدخل جميعُ ذلك خزائنه إلا المال؛ فإنه أمر بصكاك فكتُبت للنُّدماء، وكتبت للمغنّين صِكاك صغار لم تُدَرْ في الديوان، ثم دفع إلى كلّ رجل صَكّاً بما رأى أن يَهَبَ له، فأرسلوا وكلاءهم إلى السفن، فأخذوا المال على ما أمر لهم به في الصِّكاك أجمع؛ لم يدخل منه بيتَ ماله دينار ولا درهم، واصطفى ضياعه؛ وفيها ضيعة يقال لها يَرَشيد بالأهواز لها غلّة كثيرة.

وذكر عليّ بن محمد، عن أبيه، قال: لما مات محمد بن سليمان أصيب في خِزانة لباسه مذ كان صبيّاً في الكُتّاب إلى أن مات مقادير السنين؛ فكان من ذلك ما عليه آثار النِّقْس. قال: وأخرج من خِزانته ما كان يُهدَى له من بلاد السِّند ومُكران وكِرْمان وفارسَ والأهواز واليمامة والرّيّ وعُمان؛ من الألطاف والأدْهان والسّمك والحبوب والجبن، وما أشبه ذلك، ووجِد أكثره فاسداً. وكان من ذلك خمسمائة كَنْعَدةَ ألقيَتْ من دار جعفر ومحمد في الطريق؛ فكانت بلاءً. قال: فمكثنا حيناً لا نستطيع أن نمرّ بالمِرْبد من نَتْنها.

وفيها تُوفِّيت الخيزُران أمّ هارون الرشيد وموسى الهادي.

ذكر الخبر عن وقت وفاتها:

ذكر يحيى بن الحسن أن أباه حدّثه، قال: رأيتُ الرّشيد يوم ماتت الخيزُران، وذلك في سنة ثلاث وسبعين ومائة، وعليه جُبة سعيديّة وطيلسان خِرَقٌ أزرق، قد شُدّ به وسطُه، وهو آخذ بقائمة السرير حافياً يعدُو في الطين؛ حتى أتى مقابر قُريش فغسل رجليه، ثم دعا بخُفّ وصلّى عليها، ودخل قبرها، فلما خرج من المقبرة وُضع له كرسيّ فجلس عليه، ودعا الفضل بن الربيع، فقال له: وحق المهديّ ـ وكان لا يحلف بها إلا إذا اجتهد ـ إني لأهمّ لك من الليل بالشيء من التولية وغيرها، فتمنعني أمي فأطيع أمرها، فخذ الخاتم من جعفر.

فقال الفضل بن الربيع لإسماعيل بن صُبَيح : أنا أجلّ أبا الفضل عن ذلك؛ بأن أكتب إليه وآخذه؛ ولكن إن رأى أن يبعث به!

قالَ وولى الفضل نفقات العامة والخاصة وبادُوريا والكُوفة، وهي خمسة طساسيج ، فأقْبَلَتْ حاله تنمى إلى سنة سبع وثمانين ومائة .

وقيل إن وفاة محمد بن سليمان والخيزُران كانت في يوم واحد .

وفيها أقدم الرشيد جعفَر بن محمد بن الأشعث من خُراسان، وولّاها ابنَه العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث .

وحجّ بالناس فيها هارون؛ وذُكِر أنه خرج محرِماً من مدينة السلام .

ثم دخلت سنة أربع وسبعين ومائة

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان بالشأم من العصبيَّة فيها.

وفيها ولَّى الرَّشيد إسحاقَ بن سليمان الهاشميّ السِّند ومُكران.

وفيها استقضى الرشيد يوسف بن أبي يوسف، وأبوه حيّ.

وفيها هلك رَوْح بن حاتم.

وفيها خرج الرشيد إلى باقِرْدَى وبازَبْدَى، وبنى بباقِرْدَى قصراً، فقال الشاعر في ذلك:

بِقَــردى وبــازَبْــدَى مَصيفٌ ومَـرْبَــعٌ ... وعَــذْبٌ يُحــاكِي السلسبيــلَ بَــرودُ

وبَغــدادُ، مـا بَغــدادُ، أمّـا تُــرابُهــا ... فَـخُــرْءٌ، وأمــا حَــرّهــا فَـشَــديــدُ

وغزا الصّائفةَ عبدُ الملك بن صالح.

وحجّ بالناس فيها هارون الرشيد، فبدأ بالمدينة، فقسم في أهلها مالاً عظيماً، ووقع الوباء في هذه السنة بمكة، فأبطأ عن دخولها هارون، ثم دخلها يوم التَّرْوِية، فقضى طوافه وسعيَه ولم ينزل بمكة.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك عقْد الرشيد لابنه محمد بمدينة السلام من بعده ولايةَ عهد المسلمين وأخذه له بذلك بيعة القوّاد والجند، وتسميته إياه الأمين، وله يومئذ خمس سنين، فقال سلْم الخاسر:

قــد وفّــقَ اللهُ الـخـلـيـفـةَ إذ بـنـى   بَـيتَ الـخليفـةِ لِـلـهـجَـانِ الأزهَـرِ
فـهــو الخليفـةُ عـن أبيـه وجـدِّهِ   شَـهـداً عليـه بِـمنـظرٍ وبـمـخـبـرِ
قـد بـايَـعَ الثقـلان في مهْـدِ الهُدى   لـمحـمّـدِ بن زُبَـيْـدَةَ ابنَـةِ جعفـرِ

ذكر الخبر عن سبب بيعة الرشيد له:

وكان السبب في ذلك ـ فيما ذكر رَوْح مولى الفضل بن يحيى بن خالد ـ أنه رأى عيسى بن جعفر قد صار إلى الفضْل بن يحيى، فقال له: أنشِدك الله لما عملت في البيعة لابن أختي ـ يعني محمد بن زبيدة بنت جعفر بن المنصور ـ فإنه ولدٌ لك وخلافته لك؛ فوعده أن يفعل، وتوجّه الفضل على ذلك؛ وكانت جماعة من بني العباس قد مدّوا أعناقَهم إلى الخلافة بعد الرشيد؛ لأنه لم يكن له وليّ عهد؛ فلما بايع له، أنكروا بيعتَه لصغر سنّه.

قال: وقد كان الفضل لما تولّى خُراسان أجمع على البيعة لمحمد؛ فذكر محمد بن الحسين بن مصعب أن الفضْل بن يحيى لّما صار إلى خُراسان، فرّق فيهم أموالا، وأعطى الجند أعطياتٍ متتابعات، ثم أظهر البيعة لمحمد بن الرشيد؛ فبايع الناس له وسماه الأمين، فقال في ذلك النَّمَريّ:

أَمَستْ بمـروَ على التوفيقِ قـد صَفَقَتْ   على يدِ الفضل أيـدِي العُجْم والعربِ
بـبيعـةٍ لِـولِّي الـعهـد أحـكَـمَـهـا   بـالنّصح منه وبـالإشفـاقِ والحـدَبِ
قَـدْوكّد الفضـلُ عقـداً لا انتِقـاضَ لـه   لمصــطفًى من بني العبـاسِ مُنتَخَبِ

قال: فلما تناهى الخبرُ إلى الرّشيد بذلك، وبايع له أهل المشرق، بايع لمحمد، وكتب إلى الآفاق، فبويع له في جميع الأمصار، فقال أبان اللاحقي في ذلك:

عَـزَمْتَ أميـر المؤمنين على الـرُّشْـدِ   برَأيٍ هُدىً، فـالحمدُ لله ذِي الحمـدِ

وعزل فيها الرشيد عن خراسان العباس بن جعفر، وولاها خاله الغِطريف بن عطاء.

وفيها صار يحيى بن عبد الله بن حسن إلى الدّيْلم، فتحرّك هناك.

وغزا الصائفة فيها عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح فبلغ إقريطيّة.

وقال الواقدّي: الذي غزا الصائفة في هذه السنة عبد الملك بن صالح، قال: وأصابهم في هذه الغزاة برد قَطَع أيديهم وأرجُلهم.

وحجّ بالناس فيها هارون الرشيد.

ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائة

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من تولية الرّشيد الفضل بن يحيى كُور وطبَرستان ودُنْباوند وقُومِس وإرمينيَة وأذْرَبيجان .

وفيها ظهر يحيى بن عبدالله بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب بالدَّيلم .

ذكر الخبر عن مخرج يحيى بن عبدالله وما كان من أمره

ذكر أبو حفص الكِرمانيّ ، قال : كان أوّل خبر يحيى بن عبدالله بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب أنه ظهر بالدّيْلم ، واشتدّت شوْكته ، وقويَ أمرُهُ ، ونزع إليه الناس من الأمصار والكُور ، فاغتمّ لذلك الرّشيد ، ولم يكن في تلك الأيام يشرب النبيّذ ، فندب إليه الفضلَ بن يحيى في خمسين ألف رجل ، ومعه صناديد القوّاد ، وولّاه كور الجبال والرَّيّ وجُرجان وطَبَرِستان وقومِس ودُنْباوند والرُّويان ، وحُملت معه الأموال ، ففرّق الكور على قوّاده ، فولَّى المثنّى بن الحجاج بن قتيبة بن مسلم طَبَرستان ، وولّى عليّ بن الحجاج الخُزاعيّ جُرجان ، وأمر له بخمسمائة ألف درهم ، وعسكر بالنَّهرين ، وامتدحه الشعراء ، فأعطاهم فأكثر ، وتوسل إليه الناس بالشعر ، ففرَّق فيهم أموالاً كثيرة . وشخص الفضلُ بن يحيى ، واستخلف منصور بن زياد بباب أمير المؤمنين ، تجري كتبه على يديه ، وتنفذ الجوابات عنها إليه ، وكانوا يثقون بمنصور وابنه في جميع أمورهم ، لقديم صحبته لهم ؛ وحرمته بهم ، ثم مضى من معسكره ، فلم تزل كتب الرشيد تتابع إليه بالبِرّ واللُّطف والجوائز والخلَع ؛ فكاتب يحيى ورفَق به واستماله ، وناشده وحذّره ، وأشار عليه ، وبسط أملَه . ونزل الفضل بطالَقان الريّ ودَسْتَبي بموضع يقال له أشبّ ، وكان شديدَ البرد كثير الثلوج ؛ ففي ذلك يقول أبان بن عبد الحميد اللاحقيّ :

لَـدُورُ أمْسَ بـالـدُولا ب حيـث السَّيـبُ يَـنـعـرجُ
أحـبُّ إلـيَّ مِـنْ دور أشَـبٌ إذا هـمُ ثَـلجُـوا

قال : فأقام الفضل بهذا الموضع ، وواتَر كتبه على يحيى ، وكاتب صاحب الدّيْلم ، وجعل له ألف ألف درهم ، على أن يسهّل له خروج يحيى إلى ما قبله ، وحملت إليه ، فأجاب يحيى إلى الصّلح والخروج على يديه ، على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطّه على نسخة يبعث بها إليه . فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد ، فسَرّه وعظُم موقعه عنده ، وكتب أماناً ليحيى بن عبدالله ، وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجِلّة بني هاشم ومشايخهم ، منهم

عبد الصمد بن عليّ والعباس ابن محمد ومحمد بن إبراهيم وموسى بن عيسى ومَنْ أشبههم ، ووجّه به مع جوائز وكرَامات وهدايا ، فوجّه الفضل بذلك إليه ، فقدم يحيى بن عبدالله عليه ، وورد به الفضل بغداد ، فلقيه الرّشيد بكلّ ما أحبّ ، وأمر له بمال كثير ، وأجرى له أرزاقاً سنيّة ، وأنزله منزلاً سريّاً بعد أن أقام في منزل يحيى بن خالد أياماً ، وكان يتولّى أمرَه بنفسه ، ولا يَكِلُ ذلك إلى غيره ، وأمر الناس بإتيانه بعد انتقاله من منزل يحيى والتسليم عليه ، وبلغ الرشيد الغايةَ في إكرام الفضل ؛ ففي ذلك يقول مَرْوان بن أبي حفصة :

ظَفِرتَ فلا شَلَّتْ يدٌ بَرْمَكيَّةٌ ... رَتَقْتَ بها الفَتْقَ الذي بين هاشِم
على حين أَعْيَا الراتقينَ التِئامُهُ ... فكَفُّوا وقَالُوا لَيسَ بالمتلائم
فأَصْبَحْتَ قد فازَتْ يداك بخُطَّةٍ ... من المجدِ باقٍ ذكرها في الْمَوَاسِم
وما زالَ قِدْحُ المُلكِ يَخْرُجُ فائزاً ... لكمْ كلَّما ضُمَّتْ قِداحُ المُساهِمِ

قال : وأنشدني أبو ثُمامة الخطيب لنفسه فيه :

للفضل يومُ الطَّالَقَانِ وقبلَهُ ... يومٌ أناخَ بهِ على خاقانِ
ما مثلُ يَوْمَيْهِ اللَّذيْن تَواليَا ... في غَزْوَتَيْن تَوَالتَا يَوْمَان
سَدَّ الثغُور وَردَّ أُلفَةَ هاشِمٍ ... بعدَ الشَّتاتِ ، فَشَعْبُها مُتَدَان
عصمَتْ حكومَتُهُ جَماعةَ هاشِمٍ ... مِنْ أَنْ يُجَرِّد بينها سَيْفَان
تِلْكَ الْحُكومةُ لَا التي عن لَبْسِها ... عَظُمَ النَّبا وتفرّقَ الحكَمانِ

فأعطاه الفضل مائة ألف درهم ، وخلع عليه ، وتغنّى إبراهيم به .

وذكر أحمد بن محمد بن جعفر ، عن عبدالله بن موسى بن عبدالله بن حسن بن حسن ، قال : لما قدِم يحيى بن عبدالله من الدّيْلم أتيتُه ، وهو في دار عليّ بن أبي طالب ، فقلت : يا عمّ ، ما بعدك مُخْبِر ولا بعدي مُخْبَرٌ ؛ فأخبِرْني خبرَك ، فقال : يا بن أخي ، والله إن كنت إلّا كما قال حُيَيّ بن أخطب :

لعمْرِكَ ما لام ابنُ أخطَب نفسَهُ ... ولكنّهُ من يَخذُلِ اللّهُ يُخذَل
لجَاهَدَ حتى أَبلغَ النفس حَمْدَها ... وقلقلَ يَبغي العِزَّ كلَّ مقلقَل

وذكر الضبّيّ أن شيخاً من النوفليّين ، قال : دخلنا على عيسى بن جعفر ، وقد وُضِعت له وسائد بعضها فوق بعض ؛ وهو قائم متكىء عليها ؛ وإذا هو يضحك من شيء في نفسه ، متعجّباً منه ، فقلنا : ما الذي يُضحك الأمير أدام الله سروره ! قال : لقد دخلني اليوم سرورٌ ما دخلني مثله قطّ ، فقلنا : تمم الله للأمير سروره ، وزاده سروراً . فقال : والله لا أحدّثكم به إلا قائماً - واتكأ على الفرش وهو قائم - فقال : كنت اليومَ عند أمير المؤمنين الرّشيد ، فدعا بيحيى بن عبدالله ، فأُخرِج من السجن مكبَّلاً في الحديد ، وعنده بكّار بن عبدالله بن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير - وكان بكّار شديدَ البغض لآل أبي طالب ، وكان يبلّغ هارون عنهم ، ويسيء بأخبارهم ، وكان الرّشيد ولاه المدينة ، وأمره بالتضييق عليهم - قال : فلما دُعِيَ بيحيي قال له الرّشيد : هيْهْ هيْهْ ! متضاحكاً ؛ وهذا يزعم أيضاً أنا سممناه ! فقال يحيى : ما معنى يزعم ؟ ها هُو ذا لساني - قال : وأخرج لسانه أخضرَ مثل السِّلق - قال : فتربّد هارون ! واشتدّ غضبُه ، فقال يحيى : يا أمير المؤمنين ؛ إن لنا قرابة ورحِماً ، ولسنا بتُرْكٍ ولا ديْلم ، يا أمير المؤمنين ؛ إنّا وأنتم أهلُ بيت واحد ، فأذكّرك اللهَ وقرابتَنا من

رسول الله ﷺ ! علام تحْبسني وتعذّبني ؟ قال : فرقّ له هارون ؛ وأقبل الزّبيريّ على الرّشيد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لا يغرّك كلام هذا ؛ فإنه شاقٌّ عاصٍ ؛ وإنما هذا منه مكر وخُبْث ؛ إنّ هذا أفسد علينا مدينتنا ، وأظهر فيها العصيان . قال : فأقبل يحيى عليه ؛ فوالله ما استأذن أمير المؤمنين في الكلام حتى قال : أفسد عليكم مدينتكم ! ومَنْ أنتم عافاكم الله ! قال الزّبيريّ : هذا كلامه قدّامك ؛ فكيف إذا غاب عنك ! يقول : ومَنْ أنتم ! استخفافاً بنا . قال : فأقبل عليه يحيى ، فقال : نعم ، ومَنْ أنتم عافاكم الله ! المدينة كانت مهاجرَ عبدالله بن الزّبير أمْ مهاجرَ رسول الله ﷺ ؟ ومَنْ أنت حتى تقول : أفسد علينا مدينتنا ! وإنما بآبائي وآباء هذا هاجر أبوك إلى المدينة . ثم قال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنما الناس نحن وأنتم ؛ فإن خرجنا عليكم قلنا : أكلتم وأجعتمونا ولبستم وأعريتمونا ، وركبتم وأرجلتمونا ؛ فوجدنا بذلك مقالاً فيكم ، ووجدتم بخروجنا عليكم مقالاً فينا ؛ فتكافأ فيه القول ، ويعود أمير المؤمنين على أهله بالفَضْل . يا أمير المؤمنين ، فلمَ يجترىء هذا وضرباؤه على أهل بيتك ؛ يسعى بهم عندك ، إنه والله ما يسعى بنا إليك نصيحةً منه لك ؛ وإنه يأتينا فيسعى بك عندنا عن غير نصيحة منه لنا ؛ إنما يريد أن يباعد بيننا ، ويشتفي من بعض ببعض . والله يا أميرَ المؤمنين ؛ لقد جاء إليّ هذا حيث قُتِل أخي محمد بن عبدالله ؛ فقال : لعن الله قاتله ! وأنشدني فيه مرثيةً قالها نحواً من عشرين بيتاً ، وقال : إن تحرّكتَ في الأمر فأنا أوّل مَنْ يبايعك ، وما يمنعك أن تلحق بالبصرة ، فأيدينا مع يدك !

قال : فتغيّر وجه الزُّبيريّ واسودّ ، فأقبل عليه هارون ، فقال : أيّ شيء يقول هذا ؟ قال : كاذب يا أميرَ المؤمنين ، ما كان ممّا قال حرف . قال : فأقبل على يحيى بن عبدالله ، فقال : تروِي القصيدةَ التي رثاه بها ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أصلحك الله ! قال : فأنشدها إياه ، فقال الزّبيريّ : والله يا أميرَ المؤمنين الذي لا إله إلا هو - حتى أتى على آخر اليمين الغَمُوس - ما كان مما قال شيء ؛ ولقد تقوّل عليّ ما لم أقل . قال : فأقبل الرّشيد على يحيى بن عبدالله ، فقال : قد حلَف ، فهل من بيّنة سمعوا هذه المرثية منه ؟ قال : لا يـا أمير المؤمنين ؛ ولكن أستحلفه بما أريد ، قال : فاستحلفْه ، قال : فأقبل على الزبيريّ ، فقال : قل : أنا بريء من حوْل الله وقوّته موكّل إلى حولي وقوّتي ، إن كنت قلتُه . فقال الزبيريّ : يا أميرَ المؤمنين ، أيّ شيء هذا من الحلف ! أحلف له بالله الذي لا إله إلاّ هو ، ويستحلفني بشيء لا أدري ما هو ! قال يحيى بن عبدالله : يا أميرَ المؤمنين ، إن كان صادقاً فما عليه أن يحلف بما أستحلفه به ! فقال له هارون : احلِفْ له ويلك ! قال : فقال : أنا بريء من حول الله وقوّته موكّل إلى حولي وقوّتي ؛ قال : فاضطرب منها وأرعِد ، فقال يا أميرَ المؤمنين ، ما أدري أيّ شيء هذه اليمين التي يستحلفني بها ، وقد حلفت له بالله العظيم أعظم الأشياء ! قال : فقال هارون له : لتحلفنّ له أو لأصدّقنّ عليك ولأعاقبنّك ، قال : فقال : أنا بريء من حول الله وقوته ؛ موكّل إلى حولي وقوّتي إن كنت قلته . قال : فخرج من عند هارون فضربه الله بالفالج ، فمات من ساعته .

قال : فقال عيسى بن جعفر : والله ما يسرّني أن يحيى نقصه حرفاً ممّا كان جرى بينهما ، ولا قصّر في شيء من مخاطبته إياه .

قال : وأما الزبيريّون فيزعمون أن أمرأته قتلته ؛ وهي من ولد عبد الرحمن بن عوف .

وذكر إسحاق بن محمد النَّخعيّ أن الزبير بن هشام حدّثه عن أبيه ، أن بكّار بن عبدالله تزوّج امرأةً من

ولد عبد الرحمن بن عوف ، وكان له من قلبها موضع ، فاتّخذ عليها جارية ، وأغارها ؛ فقالت لغلامين له زِنجيينّ : إنه قد أراد قتلَكما هذا الفاسق ـ ولاطَفَتْهما ـ فتعاوناني على قتله ؟ قالا : نعم ، فدخلتْ عليه وهو نائم ، وهما جميعاً معها ، فقعدا على وجهه حتى مات . قال : ثم إنها سقتهما نبيذاً حتى تهوّعا حول الفراش ، ثم أخرجتهما ووضعت عند رأسه قنّينة ؛ فلما أصبح اجتمع أهلُه ، فقالت : سكر فقاء فشرق فمات . فأخذ الغلامان ، فضُربا ضرباً مبرّحاً ، فأقرّا بقتله ، وأنّها أمرتهما بذلك ؛ فأُخرجت من الدار ولم تُوَرّثْ .

وذكر أبو الخطاب أنّ جعفر بن يحيى بن خالد حدّثه ليلة وهو في سمره ، قال : دعا الرّشيد اليومَ بيحيى بن عبدالله بن حسن ، وقد حضره أبو البختريّ القاضي ومحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي يوسف ، وأحضر الأمان الذي كان أعطاه يحيى ، فقال لمحمد بن الحسن ؛ ما تقول في هذا الأمان ؟ أصحيح هو ؟ قال : هو صحيح ، فحاجّه في ذلك الرشيد ، فقال له محمد بن الحسن : ما تصنع بالأمان ؟ لو كان محارباً ثم وُلّي كان آمناً . فاحتملها الرشيد على محمد بن الحسن ، ثم سأل أبا البختريّ أن ينظر في الأمان ، فقال أبو البختريّ : هذا منتقَض من وجه كذا وكذا ، فقال الرشيد : أنت قاضي القضاة ؛ وأنت أعلم بذلك ؛ فمزّق الأمان ؛ وتفل فيه أبو البختريّ ـ وكان بكّار بن عبدالله بن مصعب حاضراً المجلس ـ فأقبل على يحيى بن عبدالله بوجهْهِ ، فقال : شققتَ العصا ، وفارقت الجماعة ، وخالفت كلمتنا ، وأردت خليفتنا ، وفعلت بنا وفعلت . فقال يحيى : ومَنْ أنتم رحمكم الله ! قال جعفر : فوالله ما تمالك الرشيد أن ضحك ضحكاً شديداً . قال : وقام يحيى ليمضي إلى الحبس ، فقال له الرّشيد : انصرف ، أما تروْن به أثر علة ! هذا الآن إن مات قال الناس : سَمّوه . قال يحيى : كلاّ ما زلتُ عليلاً منذ كنت في الحبس ، وقبل ذلك أيضاً كنت عليلاً . قال أبو الخطاب : فما مكث يحيى بعد هذا إلا شهراً حتى مات .

وذكر أبو يونس إسحاق بن إسماعيل ، قال : سمعتُ عبدالله بن العباس بن الحسن بن عبيدالله بن العباس بن عليّ ، الذي يعرف بالخطيب ، قال : كنتُ يوماً على باب الرّشيد أنا وأبي ، وحضر ذلك اليوم من الجُنْد والقُوّاد ما لم أر مثلهم على باب خليفة قبله ولا بعده ، قال : فخرج الفضل بن الربيع إلى أبي ، فقال له : ادخل ، ومكث ساعة ثم خرج إليّ ، فقال : ادخل ، فدخلتُ ، فإذا أنا بالرّشيد معه امرأة يكلمها ، فأومأ إليّ أبي أنه لا يريد أن يدخل اليوم أحد ، فاستأذنتُ لك لكثرة مَنْ رأيتُ حضر الباب ؛ فإذا دخلتَ هذا المدخل زادك ذلك نُبْلاً عند الناس . فما مكثنا إلا قليلاً حتى جاء الفضل بن الربيع ، فقال : إن عبدالله بن مصعب الزبيريّ يستأذن في الدخول ، فقال : إني لا أريد أن أدخل اليوم أحداً ، فقال : قال : إنّ عندي شيئاً أذكره . فقال : قل له يَقُلْه لك ، قال : قد قلت له ذلك ، فزعم أنه لا يقوله إلاّ لك ، قال : أدخِلْه . وخرج لِيُدخله ، وعادت المرأة وشغل بكلامها ، وأقبل عليّ أبي ، فقال : إنّه ليس عنده شيء يذكره ؛ وإنما أراد الفضل بهذا ليوهم مَنْ على الباب أنّ أمير المؤمنين لم يدخلنا لخاصّة خُصِصنا بها ، وإنما أدخلنا لأمرٍ نُسأل عنه كما دخل هذا الزبيريّ .

وطلع الزّبيريّ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، ها هنا شيء أذكره ، فقال له : قل ، فقال له : إنه سرٌّ ، فقال : ما من العباس سرّ ، فنهضت ، فقال : ولا منك يا حبيبي ، فجلست ، فقال : قُلْ ، فقال : إني والله قد خفت على أمير المؤمنين من امرأته وبنته وجاريته التي تنام معه ، وخادمه الذي يناوله ثيابه وأخصّ خلق الله به

من قوّاده ، وأبعدهم منه . قال : فرأيتُه قد تغيّر لونه ، وقال : مماذا ؟ قال : جاءتني دعوة يحيى بن عبدالله بن حسن ، فعلمت أنها لم تبلغني مع العدواة بيننا وبينهم ، حتى لم يُبْقَ على بابك أحداً إلا وقد أدخله في الخلاف عليك . قال : فتقول له هذا في وجهه ! قال : نعم ، قال الرشيد : أدخِلْه ، فدخل ، فأعاد القول الذي قال له ، فقال يحيى بن عبدالله : والله يا أمير المؤمنين لقد جاء بشيء لو قيل لمن هو أقلّ منك فيمن هو أكبر مني ، وهو مقتدر عليه لما أفلت منه أبداً ، ولي رحم وقرابة ، فلم لا تؤخرّ هذا الأمر ولا تعجّل ، فلعلك أن تكفي مؤنتي بغير يدك ولسانك ، وعسى بك أن تقطع رحِمك من حيث لا تعلمه ! أباهِلُه بين يديك وتصبر قليلاً . فقال : يا عبدالله ، قم فصلِّ إن رأيت ذلك ، وقام يحيى فاستقبل القبلة ، فصلّى ركعتين خفيفتين ، وصلى عبدالله ركعتين ، ثم برَك يحيى ، ثم قال : ابْرُك ، ثم شبّك يمينَه في يمينه ، وقال : اللهمّ إن كنت تعلم إني دعوتُ عبدالله بن مصعب إلى الخلاف على هذا ـ ووضع يده عليه ، وأشار إليه ، فاسحتْني بعذاب من عندك وكِلْني إلى حوْلي وقوّتي ، وإلا فكِله إلى حَوْله وقوّته ، واسحته بعذاب من قبَلك ، آمين ربَّ العالمين . فقال عبدالله : آمين ربَّ العالمين ، فقال يحيى بن عبدالله لعبد الله بن مصعب : قل كما قلت ، فقال عبدُ الله : اللهمّ إن كنت تعلم أن يحيى بن عبدالله لم يدعُني إلى الخلاف على هذا فكِلْني إلى حولي وقوّتي واسحتني بعذاب من عندك ، وإلا فكله إلى حوله وقوته ، واسحته بعذاب من عندك . آمين رب العالمين !

وتفرّقا ، فأمر بيحيى فحبس في ناحية من الدار ؛ فلما خرج وخرج عبدالله بن مصعب أقبل الرشيد على أبي ، فقال : فعلتُ به كذا وكذا ، وفعلتُ به كذا وكذا ، فعدد أياديه عليه ، فكلّمه أبي بكلمتين لا يُدفع بهما عن عصفور ، خوفاً على نفسه ، وأمرنا بالانصراف فانصرفنا . فدخلت مع أبي أنزعُ عنه لباسَه من السّواد ـ وكان ذلك من عادتي ـ فبينما أنا أحلّ عنه منطقته ؛ إذ دخل عليه الغلام ، فقال : رسولُ عبدالله بن مصعب ، فقال : أدخِلْه ، فلما دخل قال له : ما وراءك ؟ قال : يقول لك مولاي ، أنشدك الله ألّا بلغتَ إليّ ! فقال أبي للغلام : قل له : لم أزل عند أمير المؤمنين إلى هذا الوقت ، وقد وجهّتُ إليك بعبدالله ، فما أردتَ أن تلقيَه إليّ فألقه إليه ، وقال للغلام : اخرج فإنه يخرج في أثرك ، وقال لي : إنّما دعاني ليستعين بي على ما جاء به من الإفك ، فإن أعَنْتُه قطعت رحِمي من رسول الله ﷺ ، وإن خالفتَه سعى بي ؛ وإنما يتدرّق الناس بأولادهم ، ويتّقون بهم المكاره ، فاذهب اليه ؛ فكلّ ما قال لك فليكنْ جوابك له : أخبرُ أبي ؛ فقد وجّهتك وما آمن عليك ، وقد كان قال لي أبي حين انصرفنا ـ وذاك أنا احتبسنا عند الرّشيد : أمّا رأيتَ الغلام المعترض في الدّار ! لا والله ما صُرِفْنا حتى فرغ منه ـ يعني يحيى ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ! وعند الله نحتسب أنفسنا فخرجت مع الرسول ، فلما صرْتُ في بعض الطريق وأنا مغموم بما أقدُم عليه ، قلت للرسول : ويحك ! ما أمْرُه ! وما أزعجه بالإرسال إلى أبي في هذا الوقت! فقال : إنّه لما جاء من الدار ، فساعة نزل عن الدابة صاح : بطني بطني !

قال عبدالله بن عباس : فما حفلتُ بهذا الكلام من قول الغلام ، ولا التفت إليه ، فلما صرنا على باب الدرب ـ وكان في درب لا منفذَ له ـ فتح البابين ؛ فإذا النِّساء قد خرجْنَ منشورات الشعور محتزِمات بالحبال ، يلطمن وجوههنّ وينادين بالوَيْل ، وقد مات الرجل ، فقلت : والله ما رأيتُ أمراً أعجبَ من هذا ! وعطفت دابّتي راجعاً أركض لم أركض مثله قبله ولا بعده إلى هذه الغاية ، والغلمان والحشَم ينتظرونني لتعلُّق قلب الشيخ بي ، فلما رأوْني دخلوا يتعادَوْن ، فاستقبلني مرعوباً في قميص ومنديل ، ينادي : ما وراءك يا بنيّ ؟ قلت : إنه قد مات ، قال : الحمد لله الذي قتله وأراحك وإيّانا منه ، فما قطع كلامه حتى ورد خادم الرّشيد

يأمر أبي بالركوب وإيّاي معه . فقال أبي ونحن في الطريق نسير : لو جاز أن يُدَّعى ليحيى نبوّة لادّعاها أهلُه ، رحمة الله عليه ، وعند الله نحتسبه ! ولا والله ما نشكّ في أنه قد قتل . فمضينا حتى دخلنا على الرّشيد ؛ فلما نظر إلينا قال : يا عباس بن الحسين ، أما علمت بالخبر ؟ فقال أبي : بلَى يا أمير المؤمنين ، فالحمد لله الذي صرعه بلسانه ، ووقّاك الله يا أمير المؤمنين قَطْع أرحامِك . فقال الرشيد : الرجل والله سَليم على ما يحبّ ، ورفع الستر ، فدخل يحيى ، وأنا والله أتبينُ الارتياع في الشّيخ ، فلما نظر إليه الرشيد صاح به : يا أبا محمد ، أما علمت أن الله قد قتل عدّوك الجبار ! قال : الحمدُ لله الذي أبان لأمير المؤمنين كذب عدّوه عليّ ، وأعفاه من قطع رحمه ، والله يا أمير المؤمنين ، لو كان هذا الأمر مما أطلبه وصلحُ له وأريده فكيف ولَسْتُ بطالب له ولا مُريده ، ولو لم يكن الظفر به إلاّ بالاستعانة به ، ثم لم يبق في الدنيا غيري وغيرك وغيره ما تقوّيت به عليك أبداً ! وهذا والله من إحدى آفاتك ـ وأشار إلى الفضل بن الربيع ـ والله لو وهبتَ له عشرة آلاف درهم ؛ ثم طمع منّي في زيادة تمرة لباعَك بها . فقال : أمّا العباسيّ فلا تقل له إلا خيراً ، وأمر له في هذا اليوم بمائة ألف دينار ، وكان حبسه بعض يوم . قال أبو يونس : كان هارون حبَسه ثلاث حبسات مع هذه الحبسة ، وأوصل إليه أربعمائة ألف دينار .

وفي هذه السنة ، هاجت العصبيّة بالشأم بين النزاريّة واليمانية ، ورأس النِّزارية يومئذ أبو الهيذام .

ذكر الخبر عن هذه الفتنة :

ذُكر أن هذه الفتنة هاجت بالشأم وعامل السلطان بها موسى بن عيسى ، فقتل بين النزارّية واليمانية على العصبيّة من بعضهم لبعض بشرٌ كثير ، فولّى الرشيدُ موسى بن يحيى بن خالد الشأم ، وضمّ إليه من القوّاد والأجناد ومشايخ الكتّاب جماعة . فلما ورد الشأم أحِلّتْ لدخوله إلى صالح بن عليّ الهاشميّ ، فأقام موسى بها حتى أصلح بين أهلها ، وسكنت الفتنة ، واستقام أمرُها ، فانتهى الخبر إلى الرّشيد بمدينة السلام ، وردّ الرّشيد الحكم فيهم إلى يحيى ، فعفا عنهم ، وعمّا كان بينهم ، وأقدمهم بغداد ، وفي ذلك يقول إسحاق بن حسان الخُزيميّ :

مَـنْ مُـبْـلِغ يـحـيـى ودون لـقـائِـه	زأراتُ كـلِّ خـنـابِسٍ هَـمْـهـامِ
يـا راعيَ الإِسْـلامِ غـيـرَ مُـفَـرِّطٍ	في لِيـن مُـغْـتَـبَطٍ وَطِيـبِ مَـشـامِ
تَعـذَى مَشـارِبـهُ وتُسْقَى شـربـةً	وَيَـبِـيـتُ بـالـرَّبَـوات والأَعـلام
حتى تَـنـخـنـخَ ضارِباً بِجـرَانِـهِ	ورَسَـتْ مَـراسِـيـه بـدار سـلام
فـلـكـلِّ ثَـغـر حـارِسٌ مـن قـلبِـه	وَشُـعـاعُ طَـرفٍ مـا يُـفَـتِّـرُ سـام

وقال في موسى غيرُ أبي يعقوب :

قـد هـاجَت الشـأمُ هَيْجاً	يُـشـيـب راسَ وَلـيـدهْ
فَـصُـبَّ مـوسى عـلـيـهـا	بـخـيـله وجُـنُـودِهْ
فَـدانَـتِ الـشـأمُ لَـمّـا	أتى نـسـيـجَ وَحـيـدهْ
هـو الجـوادُ الـذي	بُـذَّ كـلُّ جُـودٍ بـجـودِهْ
أعـداهُ جـودُ أبـيـه	يحـيـى وجـودُ جُـدوده

فجادَ مُوسَى بن يحيى ... بطارفٍ وتليده
ونالَ موسى ذرَى المجـ ... ـدِ وَهوَ حَشوُ مُهُودِه
خصصْتُهُ بمديحي ... مَنشورِهِ وقصيدِهْ
مِنَ البرامكِ عودٌ ... له فأكرمْ بِعُودِه
حَوَوْا على الشعرِ طُرًّا ... خفيفِهِ ومَديدِهْ

وفيها عزل الرشيد الغطريف بن عطاء عن خُراسان، وولّاها حمزة بن مالك بن الهيثم الخُزاعيّ، وكان حمزة يلقب بالعروس.

وفيها ولّى الرشيد جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك مصر، فولّاها عمر بن مِهران.

ذكر الخبر عن سبب
تولية الرشيد جعفراً مصر وتولية جعفر عمر بن مهران إياها

ذكر محمد بن عمر أنّ أحمد بن مهران حدّثه أنّ الرّشيد بلغه أن موسى بن عيسى عازم على الخلْع - وكان على مصر - فقال: والله لا أعزله إلا بأخسّ مَنْ على بابي. انظروا لي رجلاً، فذكر عمر بن مِهْران - وكان إذ ذاك يكتب للخيزران، ولم يكتب لغيرها، وكان رجلاً أحوَل مشوَّه الوجه، وكان لباسه لباساً خسيساً، أرفعُ ثيابه طيلسانُه، وكانت قيمته ثلاثين درهماً، وكان يشمِّر ثيابه ويقصِّر أكمامه، ويركب بغلا وعليه رَسَنٌ ولجام حديد، ويُردف غلامه خلفه - فدعَا به، فولّاه مصر؛ خراجَها وضياعَها وحَرْبَها. فقال: يا أمير المؤمنين، أتولّاها على شريطة، قال: وما هي؟ قال: يكون إذني إليّ، إذا أصلحتُ البلاد انصرفتُ. فجعل ذلك له، فمضى إلى مصر، واتّصلت ولاية عمر بن مهران بموسى بن عيسى؛ فكان يتوقّع قدومه، فدخل عمر بن مهران مصرَ على بغل، وغلامه أبو دُرّة على بغل ثقل، فقصد دار موسى بن عيسى والنّاسُ عنده، فدخل فجلس في أُخْرَيات الناس، فلما تفرّق أهلُ المجلس، قال موسى بن عيسى لعمر: ألك حاجة يا شيخ؟ قال: نعم، أصلح الله الأمير! ثم قام بالكتب فدفعها إليه، فقال: يقدم أبو حفص، أبقاه الله! قال: فأنا أبو حفص، قال: أنت عمر بن مهران؟ قال: نعم، قال: لعن الله فرعون حين يقول: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾[1]، ثم سلّم له العمل ورحَل، فتقدّم عمر بن مِهران إلى أبي دُرّة غلامه، فقال له: لا تقبل من الهدايا إلا ما يدخل في الجِراب، لا تقبل دَابّة ولا جارية ولا غلاماً؛ فجعل الناس يبعثون بهداياهم، فجعل يردّ ما كان من الألطاف، ويقبل المال والثياب، ويأتي بها عمر؛ فيوقّع عليها أسماء مَنْ بعث بها، ثم وضع الجباية؛ وكان بمصر قومٌ قد اعتادوا المطْل وكَسْر الخراج، فبدأ برجل منهم، فلوّاه، فقال: والله لا تؤدي ما عليك من الخراج إلّا في بيت المال بمدينة السلام إن سلمت، قال: فأنا أؤدي، فتحمّل عليه، فقال: قد حلفتُ ولا أحنث، فأشخصه مع رجلين من الجند - وكان العمّال إذ ذاك يكاتبون الخليفة - فكتب معهم إلى الرشيد: إنّي دعوت بفلان بن فلان، وطالبته بما عليه من الخراج؛ فلواني واستنظرني، فأنظرته ثم دعوته، فدافع ومال إلى الإلطاط، فآليت ألا يؤدِّيَه إلا في بيت المال بمدينة السلام، وجملة ما عليه كذا وكذا، وقد أنفذته مع فلان بن فلان وفلان بن فلان، من جند أمير المؤمنين، من قيادة فلان بن فلان؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب إليّ بوصوله فعل إن شاء الله تعالى.

(١) سورة الزخرف: ٥١.

قال: فلم يلوه أحدٌ بشيء من الخراج، فاستأدى الخراج، النّجم الأول والنجم الثاني، فلما كان في النّجم الثالث، وقعت المطالبة والمطْل، فأحضر أهل الخراج والتّجار فطالبهم، فدافعوه وشكوْا الضِّيقة، فأمر بإحضار تلك الهدايا التي بُعث بها إليه، ونظر في الأكياس وأحضر الجِهْبذ؛ فوزن ما فيها وأجزاها عن أهلها، ثم دعا بالأسفاط، فنادى على ما فيها، فباعها وأجزى أثمانها عن أهلها، ثم قال: يا قوم، حفظت عليكم هداياكم إلى وقت حاجتكم إليها، فأدُّوا إلينا ما لنا؛ فأدّوْا إليه حتى أغلق مال مصر؛ فانصرف ولا يُعلم أنه أغلق مال مصر غيره، وانصرف، فخرج على بغل، وأبو درّة على بغل ـ وكان إذنه إليه.

وغزا الصائفةَ في هذه السنة عبدُ الرحمن بن عبد الملك، فافتتح حصناً.

وحجّ بالناس في هذه السنة سليمان بن أبي جعفر المنصور، وحجت معه ـ فيما ذكر الواقديّ ـ زُبيدة زوجة هارون وأخوها معها.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك عَزْل الرشيد - فيما ذكر - جعفرَ بن يحيى عن مصر وتوليته إياها إسحاق بن سليمان، وعزْله حمزة بن مالك عن خُراسان، وتوليته إياها الفضل بن يحيى؛ إلى ما كان يليه من الأعمال من الرَّيّ وسجِستان.

وغزا الصائفةَ فيها عبد الرزاق بن عبد الحميد التَّغْلَبيّ.

وكان فيها - فيما ذكر الواقديّ - ريح وظلمة وحُمرة ليلة الأحد لأربع ليال بقين من المحرّم، ثم كانت ظلمة ليلة الأربعاء، لليلتين بقيتا من المحرَّم من هذه السنة؛ ثم كانت ريح وظلمة شديدة يوم الجمعة لليلة خلت من صفر.

وحجّ بالناس فيها هارون الرشيد.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك وثوب الحَوْفيَّة بمصر؛ من قيس وقضاعة وغيرهم بعامل الرشيد عليهم إسحاقَ بن سليمان، وقتالهم إياه، وتوجيه الرّشيد إليه هرثَمَة بن أعينَ في عدّة من القواد المضمومين إليه مدداً لإسحاق بن سليمان؛ حتى أذعن أهل الحَوْف، ودخلوا في الطاعة، وأدّوْا ما كان عليهم من وظائف السّلطان ـ وكان هرثمة إذ ذاك عامِلَ الرشيد على فِلسطين ـ فلما انقضى أمر الحَوْفيَّة صرف هارون إسحاق بن سليمان عن مصر، وولّاها هرثمة نحواً من شهر، ثم صَرفه وولّاها عبد الملك بن صالح.

وفيها كان وثوب أهل إفريقيّة بعبدويه الأنباريّ ومَنْ معه من الجند هنالك، فقتِل الفضل بن رَوْح بن حاتم، وأخرِج مَن كان بها من آل المهلّب، فوجه الرشيد إليهم هرثمة بن أعين، فرجعوا إلى الطاعة.

وقد ذكر أن عبدويه هذا لمّا غلب على إفريقيّة، وخلع السلطان، عظم شأنه وكثر تبعُه، ونزع إليه الناس من النواحي، وكان وزير الرشيد يومئذ يحيى بن خالد بن برمك، فوجّه إليه يحيى بن خالد بن برمك يقطين بن موسى ومنصور بن زيّاد كاتبه؛ فلم يزل يحيى بن خالد يتابع على عبدويه الكتب بالترغيب في الطاعة والتخويف للمعصية والإعذار إليه والإطماع والعِدَة حتى قبل الأمان، وعاد إلى الطاعة وقدم بغداد، فوفى له يحيى بما ضمِن له وأحسن إليه، وأخذ له أماناً من الرشيد، ووصله ورأسه.

وفي هذه السنة فوّض الرشيد أمورَه كلها إلى يحيى بن خالد بن برمك.

وفيها خرج الوليد بن طريف الشاري بالجزيرة، وحكّم بها، ففتك بإبراهيم بن خازم بن خزيمة بنَصيبين، ثم مضى منها إلى إرمينيَة.

وفيها شخص الفضل بن يحيى إلى خُراسان والياً عليها، فأحسنَ السِّيرة بها، وبنى بها المساجد والرِّباطات، وغزا ما وراء النهر، فخرج إليه خاراخره ملك أشروسَنة؛ وكان ممتنعاً.

وذكر أن الفضل بن يحيى اتّخذ بخراسان جنداً من العجم سماهم العباسيّة، وجعل ولاءهم لهم، وأن عدّتهم بلغت خمسمائة ألف رجل، وأنه قدم منهم بغداد عشرون ألف رجل، فسمُّوا ببغداد الكَرَنبيَّة، وخلّف الباقي منهم بخُراسان على أسمائهم ودفاترهم؛ وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة:

مـا الفضـلُ إلا شهـاب لا أُفولَ لـه ... عندَ الحروب إذا ما تَأفُـلُ الشُّهُبُ

حَـامٍ على مُلكِ عـزّ سَهْمُـهـمُ ... مِنَ الـوراثـةِ في أيـديـهـمُ سببُ

أمستْ يَدٌ لبني ساقِي الحجيج بها … كتائبٌ ما لها في غيرهم أَرَبُ
كتائبٌ لبني العباسِ قد عَرَفَت … ما أَلَّفَ الفضلُ منها العجْمُ والعرَب
أَثبَت خمس مئين في عِدادِهم … من الألوفِ التي أحْصَت لك الكتب
يُقارعون عن القومِ الذين همُ … أولى بأحمَدَ في الفرقان إن نُسِبوا
إن الجوادَ ابن يحيى الفضلَ لاورقٌ … يبقى على جُود كفَّيهِ ولا ذهبُ
ما مرّ يوم له مُذ شد مِئْزَرَهُ … إلّا تَمَوَّلَ أقوام بما يَهبُ
كم غايةٍ في الندى والبأسِ أحرَزَها … للطّالبينَ مدَاها دونها تَعَبُ
يعطِي اللُّهَى حِينَ لا يُعطِي الجَوَاد وَلا … يَنْبو إذا سُلَّتِ الْهِندِيَّةُ القُضُب
وَلا الرِّضا والرِّضا لله غايَتُه … إلى سِوى الحَقِّ يَدْعوهُ وَلا الغَضَبُ
قَدْ فاضَ عُرْفُك حتى ما يُعادِلُه … غَيْثٌ مُغِيثٌ وَلا بَحرٌ له حَدَبُ

قال: وكان مرْوان بن أبي حفصة قد أنشد الفضلَ في معسكره قبل خروجه إلى خراسان:

أَلم تَرَ أَنَّ الجودَ مِنْ لَدْن آدَمٍ … تَحَدَّرَ حَتى صارَ في راحَةِ الفَضلِ
إذا ما أَبو العَبّاس راحت سماؤهُ … فيا لكَ مِنْ هَطْلٍ ويَا لكَ مِنْ وَبْلِ
إذا أمُّ طِفلٍ راعَها جوعُ طِفلِها … دَعَتْهُ بإسْمِ الفَضلِ فاستَعصَمَ الطفل
ليحْيَا بكَ الإسلامُ إنّكَ عِزُّهُ … وَإنَّكَ مِن قَومٍ صغيرُهُمُ كَهْلُ

وذكر محمد بن العباس أن الفضل بن يحيى أمر له بمائة ألف درهم، وكساه وحمله على بغلة. قال: وسمعته يقول: أصبتُ في قَدْمتي هذه سبعمائة ألف درهم. وفيه يقول:

تخَيَّرْتُ للمدْح ابنَ يحيى بنْ خالدِ … فحَسْبي وَلم أظلِمْ بأَنْ أتَخيَّرا
له عادَةٌ أنْ يَبْسُطَ العَدْلَ والنَّدَى … لِمَن ساسَ من قحطانَ أوْ مَنْ تَنَزّرا
إلى المِنبَرِ الشرقيِّ سارَ وَلم يزَلْ … له وَالدٌ يَعلو سَريراً وَمِنبَرَا
يُعَدُّ وَيحيى البَرْمكيّ وَلا يُرَى … لَدَى الدَّهْرِ إلا قائداً أو مُومَّرا

ومدحه سلْم الخاسر، فقال:

وَكيفَ تخافُ مِن بؤسٍ بدارٍ … تَكَنَّفَها البَرامِكَةُ البُحُورُ
وقَوْمٌ مِنهُمُ الفَضلُ بْنُ يحيى … نَفيرٌ مَا يُوازنُهُ نَفيرُ
لهُ يومانِ: يَوْم ندىً وبأْسٍ … كأنَّ الدَّهْرَ بينَهُما أسيرُ
إذا ما البَرْمَكِيُّ غدَا ابنَ عَشرٍ … فَهِمَّتُهُ وَزيرٌ أوْ أَميرُ

وذكر الفضل بن إسحاق الهاشميّ أن إبراهيم بن جبريل خرج مع الفضل بن يحيى خُراسان وهو كاره للخروج، فأحفظ ذلك الفضلَ عليه. قال إبراهيم: فدعاني يوماً بعد ما أغفلني حيناً، فدخلت عليه؛ فلما صرت بين يديْه سلّمت، فلما ردّ عليّ، فقلت في نفسي: شرّ والله ـ وكان مضطجعاً، فاستوى جالساً ـ ثم قال: ليفرخْ روْعك يا إبراهيم، فإنّ قدرتي عليك تمنعني منك؛ قال: ثم عقد لي على سجِسْتان، فلما حملت خراجها،

وهبه لي وزادني خمسمائة ألف درهم. قال: وكان إبراهيم على شُرَطه وحَرَسه، فوجّهه إلى كابُل، فافتتحها وغنم غنائم كثيرة.

قال: وحدّثني الفضل بن العباس بن جبريل ـ وكان مع عمه إبراهيم ـ قال: وصل إلى إبراهيم في ذلك الوجه سبعة آلاف ألف، وكان عنده من مال الخراج أربعة آلاف ألف درهم، فلما قدم بغداد وبنى داره في البغيّين استزار الفضلَ ليرَيه نعمته عليه، وأعدّ له الهدايا والطُّرَف وآنية الذهب والفضة، وأمر بوضع الأربعة الآلاف ألف في ناحية من الدار.

قال: فلما قعد الفضل بن يحيى قدّم إليه الهدايا والطُّرَف، فأبى أن يقبل منها شيئاً، وقال له: لم آتك لأسلُبَك، فقال: إنها نعمتك أيها الأمير. قال ولك عندنا مزيد، قال: فلم يأخذ من جميع ذلك إلا سوطاً سِجزيّاً، وقال: هذا من آلة الفرسان، فقال له: هذا المال من مال الخراج، فقال: هو لك، فأعاد عليه، فقال: أما لك بيت يسعه! فسوّغه ذلك، وانصرف.

قال: ولما قدم الفضل بن يحيى من خُراسان خَرج الرّشيد إلى بستان أبي جعفر يستقبله، وتلقّاه بنو هاشم والناس من القوّاد والكتّاب والأشراف، فجعل يصلُ الرجل بالألف ألف وبالخمسمائة ألف، ومدحه مرْوان بن أبي حفصة، فقال:

حَمِدنا الذي أَدَّى ابْنُ يَحيىَ فَأَصْبَحَتْ ... بِمَقْدمِهِ تجري لنا الطَّيْرُ أَسْعُدا
وما هَجَعَتْ حتى رَأَتْهُ عُيونُنا ... ومَا زِلنَ حتى آبَ بالدَّمْعِ حُشَّدا
لقَدْ صَبَحَتْنا خَيلُهُ وَرجالُهُ ... بأَرْوَعَ بَذَّ الناسَ بأساً وَسُودَدَا
نفى عَن خُراسانَ العَدُوَّ كما نَفى ... ضُحَى الصبْح جِلْبابَ الدجَى فَتَعَرَّدَا
لقَدْ راعَ من أَمسى بمَرْوَ مسيرُهُ ... إلينَا، وقالوا شَعْبُنا قد تبَدّدا
عَلَى حين أَلقَى قُفْلَ كلِّ ظلامَةٍ ... وَأَطْلَقَ بالعَفْوِ الأسيرَ المقَيَّدَا
وأفْشَى بِلاَ مَنٍّ مع العَدْلِ فيهمُ ... أَيادِي عُرْفٍ باقِياتٍ وَعُوَّدا
فأَذهَبَ رَوْعاتِ المخاوفِ عنْهُمُ ... وَأَصْدَرَ باغي الأَمْنِ فيهِمْ وَأَورَدا
وَأَجْدَى على الأيتام فيهمْ بِعُرفِهِ ... فكانَ مِنَ الآباءِ أَحْنَى وَأَعْوَدا
إذا الناسُ رَامُوا غايَةَ الفَضل في النَّدَى ... وَفِي البأْس أَلفَوْها مِنَ النَّجْم أَبْعَدا
سما صاعِداً بِالفَضل يحيى وخالدٌ ... إلى كلِّ أَمر كانَ أَسْنَى وَأَمْجَدا
يَلين لِمَنْ أَعطى الخَليفَةَ طاعَةً ... ويُسْقِي دمَ العاصِي الحسامَ المهنّدَا
أَذلَّتْ معَ الشّرْكِ النّفاقَ سُيوفُهُ ... وَكانَتْ لأهلِ الدّين عِزّاً مُؤَبَّدا
وَشدَّ القُوَى مِن بَيْعةِ المُصْطفى الذي ... على فضلِهِ عَهْدَ الخليفَةِ قُلِّدَا
سميُّ النَّبيِّ الفاتحِ الخاتِم الذي ... بِهِ اللهُ أَعطى كلَّ خَيْرٍ وَسَدَّدا
أَبَحْتَ جِبالَ الكابُلِيِّ ولم تَدَعْ ... بِهِنَّ لِنيرانِ الضَّلالَةِ مُوقَدا
فأَطْلَعَتها خَيْلا وطِئنَ جُموعَهُ ... قَتِيلا وَمأْسوراً وَفَلًّا مُشَرَّدا
وعادَت على ابنْ البَرْم نَعمَاكَ بعدَما ... تحَوَّبَ مخذولا يَرَى المَوت مُفردا

وذكر العباس بن جرير، أن حفص بن مسلم - وهو أخو رزام بن مسلم، مولى خالد بن عبد الله القسريّ - حدّثه أنه قال: دخلت على الفضل بن يحيى مقدَمه خُراسان، وبين يديه بِدَرٌ تُفرّق بخواتيمها، فما فُضّت بَدْرة منها، فقلت:

كفى اللهُ بالفضل بن يحيى بن خالدٍ وَجُودِ يدَيهِ بَخْلَ كلِّ بخيل

قال: فقال لي مرْوان بن أبي حفصة: وددت أنّي سبقتك إلى هذا البيت، وأن عليّ غرم عشرة آلاف درهم.

وغزا فيها الصّائفة معاوية بن زُفَر بن عاصم، وغَزا الشّاتية فيها سليمان بن راشد، ومعه البيد بِطْريق صَقلّية.

وحجّ بالناس فيها محمد بن إبراهيم بن محمد بن عليّ، وكان على مكة.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك انصرافُ الفضل بن يحيى عن خُراسان واستخلافُه عليها عمرو بن شُرَحبيل.

وفيها ولّى الرشيدُ خراسانَ منصورَ بن يزيد بن منصور الحِميريّ.

وفيها شَرِيَ بخُراسان حمزة بن أترك السجستانيّ.

وفيها عَزَل الرّشيد محمدَ بن خالد بن بَرْمك عن الحجبة، وولّاها الفضل بن الربيع.

وفيها رجع الوليد بن طريف الشاري إلى الجزيرة واشتدّت شوكته، وكثر تبعه، فوجَّه الرّشيد إليه يزيد بن مزيد الشيبانيّ، فراوغه يزيد، ثم لقيه وهو مغترّ فوق هيت، فقتله وجماعة كانوا معه، وتفرّق الباقون، فقال الشاعر:

وائــلٌ بَــعْـضُــهــا يـقــتــلُ بَعْضــاً ... لا يفُــلُّ الـحــديــدَ إلَّا الـحــديــدُ

وقالت الفارعة أخت الوليد:

أيـا شجَـرَ الخـابـورِ مـا لـك مُـورقـاً ... كــأنـكَ لم تجــزَع على ابن طَـريفِ

فَـتًى لا يُـحِبّ الـزّادَ إلَّا مِـنَ التُّـقـى ... وَلا الـمــالَ إلا مِـن قـنــاً وسُـيــوفِ

واعتمر الرّشيدُ في هذه السنة في شهر رمضان، شكراً لله على ما أبلاه في الوليد بن طريف، فلمّا قضى انصرف إلى المدينة، فأقام بها إلى وقت الحجّ، ثم حجّ بالناس، فمشى من مكّة إلى منىً، ثم إلى عرفات، وشهد المشاهد والمشاعر ماشياً، ثم انصرف على طريق البصرة.

وأما الواقديّ فإنه قال: لما فرغ من عُمرته أقام بمكة حتى أقام للناس حجّهم.

ثم دخلت سنة ثمانين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك، العصبيّة التي هاجت بالشأم بين أهلها.

ذكر الخبر عما صار إليه أمرها:

ذُكر أن هذه العصبيَّة لما حدثت بالشأم بين أهلها، وتفاقم أمرُها، اغتمّ بذلك من أمرهم الرّشيد، فعقد لجعفر بن يحيى على الشأم، وقال له: إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا، فقال له جعفر: بل أقِيك بنفسي؛ فشخص في جِلَّة القوّاد والكُراع والسِّلاح، وجعل على شُرَطه العباس بن محمد بن المسيّب بن زهير، وعلى حَرَسه شبيب بن حُميد بن قحطبة، فأتاهم فأصلح بينهم؛ وقتل زواقيلهم، والمتلصّصة منهم، ولم يَدَعْ بها رُمحاً ولا فرساً، فعادوا إلى الأمن والطمأنينة؛ وأطفأ تلك النائرة، فقال منصور النمَريّ لما شخص جعفر:

لقَدْ أُوقِدَت بالشأم نيران فِتْنَةٍ ... فهَذا أوانُ الشأم تُخمدُ نارُها

إذا جاشَ مَوْجُ البحر مِنْ آل بَرْمكٍ ... عليها، خَبَتْ شُهْبانها وشَرارُها

رماها أميرُ المؤمنينَ بجعفرٍ ... وَفيهِ تَلاقَى صَدْعها وانجبارُها

رَماها بميمونِ النَّقيبةِ ماجِد ... تَراضَى به قَحْطانُها وَنِزارُها

تَدَلَّتْ عَليهمْ صَخْرة بَرْمكيَّةٌ ... دَمُوغٌ لهامِ الناكِثينَ انحدارُها

غَدوْتَ تُزجّى غابَةً في رُؤوسها ... نُجومُ الثريَّا والمنايا ثِمارُها

إذا خَفقَتْ رَاياتها وتَجرَّسَتْ ... بها الرِّيحُ هال السَّامعينَ انْبهارُها

فقولوا لأهل الشأم: لا يَسْلُبَنَّكُم ... حجاكُمْ طَويلاتُ المُنَى وَقِصارها

فإنَّ أميرَ المُؤمنينَ بنفسِه ... أتاكُمْ وإلا نَفْسَهُ فَخِيارُها

هو المَلِكُ المأمولُ لِلْبرِّ والتُّقى ... وَصَوْلاتُه لا يُسْتَطاعُ خِطارُها

وزيرُ أميرِ المؤمنينَ وسَيْفُهُ ... وَصَعْدَتُه والحَرْبُ تَدْمى شِفارُها

وَمَنْ تُطَو أسْرَارُ الخَليفَةِ دونَهُ ... فَعِندَكَ مَأْواها وَأَنْتَ قَرارُها

وَفَيْتَ فلَمْ تَغدِرْ لقَوْم بِذِمَّةٍ ... وَلمْ تَدْنُ مِنْ حالٍ يَنالكَ عارُها

طَبيبٌ بإحياءِ الأمورِ إذا التَوَتْ ... مِنَ الدَّهْر أعناقٌ، فأنتَ جُبارُها

إذا ما ابنُ يحْيى جعفرٌ قَصَدَت لَهُ ... مُلِمّاتُ خَطْبٍ لم تَرُعْهُ كِبارُها

لقدْ نَشأت بالشَّأمِ مِنك غمامَةٌ ... يُؤمَّلُ جَدواها وَيُخشَى دَمارُها

فطوبَى لأهلِ الشأمِ يا وَيلَ أُمّها ... أتاها حيَاها، أو أتاها بَوارُها
فإن سالموا كانَتْ غمامَةَ نائلٍ ... وغيثٍ، وإلا فالدِّماءُ قِطارُها
أبوكَ أبو الأملاكِ يَحْيى بنُ خالدٍ ... أخو الجُود والنُّعمى الكِبارِ صغارُها
كأيّنْ تَرَى في البَرمكيِّينَ مِنْ نَدىً ... وَمِنْ سابقاتٍ ما يُشَقُّ غبارُها
غَدا بنجومِ السَّعْدِ مَنْ حلَّ رَحلَه ... إلَيك، وَعزَّتْ عصْبَةٌ أنْتَ جارُها
عَذيري مِنَ الأقدارِ هلْ عَزَماتُها ... مُخَلِّفَتي عن جعفرٍ وَاقتسارُها
فعيْنُ الأسَى مَطروفَةٌ لفراقِهِ ... ونَفسي إليه ما يَنامُ آدِّكارُها

وولّى جعفر بن يحيى صالح بن سليمان البلقاء وما يليها، واستخلف على الشأم عيسى بن العكيّ وانصرف، فازداد الرشيد له إكراماً. فلما قدم على الرّشيد دخل عليه ـ فيما ذُكر ـ فقبّل يديه ورجليه، ثم مَثَل بين يديه، فقال: الحمدُ لله يا أمير المؤمنين الذي آنس وحشتي، وأجاب دعوتي، ورحِم تضرّعي، وأنْسأ في أجلي، حتى أراني وجه سيِّدي، وأكرمني بقربه، وامتنّ عليّ بتقبيل يده، وردّني إلى خِدمته؛ فوالله إن كنت لأذكر غيبتي عنه ومخرجي، والمقادير التي أزعجتني؛ فأعلم أنها كانت بمعاصٍ لحقتْني وخطايا أحاطت بي؛ ولو طال مُقامي عنك يا أمير المؤمنين ـ جعلني الله فداك ـ لخفت أن يذهب عقلي إشفاقاً على قربك، وأسفاً على فراقك، وأن يعجل بي عن إذنك الاشتياقُ إلى رؤيتك؛ والحمد لله الذي عصمني في حالِ الغيبة، وأمتعني بالعافية، وعرّفني الإجابة ومسّكني بالطاعة، وحال بيني وبين استعمال المعصية؛ فلم أشخص إلاّ عن رأيك، ولم أقدم إلاّ عن إذنك وأمرك؛ ولم يخترْمني أجلي دونك. والله يا أميرَ المؤمنين ـ ولا أعظم من اليمين بالله ـ لقد عاينتُ ما لو تُعرَض لي الدنيا كلُّها لاخترت عليها قربَك، ولما رأيتها عوضاً من المقام معك. ثم قال له بعقب هذا الكلام في هذا المقام: • إنّ الله يا أميرَ المؤمنين ـ لم يزل يبليك في خلافتك بقدْر ما يعلم من نيتك، ويريك في رعيتّك غاية أمنيّتك، فيصلح لك جماعتَهم، ويجمع ألفتهم، ويلمّ شَعثَهم؛ حفظاً لك فيهم، ورحمةً لهم؛ وإنما هذا للتمسُّك بطاعتك، والاعتصام بحبل مرضاتك؛ والله المحمود على ذلك وهو مستحقُّه. وفارقتُ يا أمير المؤمنين أهل كور الشأم وهم منقادون لأمرك، نادمون على ما فرط من معصيتهم لك، متمسّكون بحبلك، نازلون على حُكمك، طالبون لعفوك، واثقون بحلْمك، مؤمّلون فضْلك، آمنون بادرتَك، حالُهم في ائتلافهم كحالهم كانت في اختلافهم، وحالُهم في ألفتهم كحالهم كانت في امتناعهم، وعفو أمير المؤمنين عنهم وتغمُّده لهم سابق لمعذرتهم، وصلة أمير المؤمنين لهم، وعطفه عليهم متقدّم عنده لمسألتهم.

وايم الله يا أميرَ المؤمنين لئن كنتُ قد شخصتُ عنهم، وقد أخمد الله شرارهم وأطفأ نارهم، ونفى مُرّاقهم، وأصلح دهماءهم، وأولاني الجميلَ فيهم، ورزقني الانتصار منهم؛ فما ذلك كله إلا ببركتك ويُمْنك، وريحك ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة، وتخوّفهمِ منك، ورجائهم لك. والله يا أمير المؤمنين ما تقدّمتُ إليهم إلاّ بوصيتك، وما عاملتهم إلا بأمركَ، ولا سرت فيهم إلا على حدٍّ ما مثّلته لي ورسمتَه، ووقفتَني عليه؛ ووالله ما انقادوا إلاّ لدعوتك، وتوحّد الله بالصنْع لك، وتخوّفهم من سطوتكَ. وما كان الذي كان مني ـ وإن كنت بذلت جهدي، وبلغت مجهودي ـ قاضياً ببعض حقك علي؛ بل ما ازدادت نعمتُك عليّ عظماً؛ إلا ازددتُ عن شكرك عجزاً وضعفاً، وما خلق الله أحداً من رعيّتك أبعَد من أن يُطمع نفسه في قضاء حقك مني، وما ذلك إلاّ أن أكون باذلاً مهجتي في طاعتك، وكلّ ما يقرّب إلى موافقتك؛ ولكني أعرف من أياديك عندي ما لا أعرف

مثلها عند غيري؛ فكيف بشكري وقد أصبحتُ واحدَ أهل دهري فيما صنعتَه فيَّ وبي! أم كيف بشكري وإنما أقوى شكري بإكرامك أياي! وكيف بشكري ولو جعل الله شكري في إحصاء ما أوليتني لم يأت على ذلك عدّي وكيف بشكري وأنت كهفي دون كلّ كهف لي! وكيف بشكري وأنت لا ترضَى لي ما أرضاه لي! وكيف بشكري وأنت تجدّد من نعمتك عندي ما يستغرق كلّ سلف عندك لي! أم كيف بشكري وأنت تُنسيني ما تقدّم من إحسانك إليّ بما تجدده لي! أم كيف بشكري وأنت تقدمني بطوْلك على جميع أكفائي! أم كيف بشكري وأنت وليِّي! أم كيف بشكري وأنت المكرِم لي! وأنا أسأل الله الذي رزقني ذلك منك من غير استحقاق له؛ إذا كان الشكْر مقصّراً عن بلوغ تأدية بعضه، بل دون شِقص من عُشر عشيره، أن يتولى مكافأتك عنّي بما هو أوسعُ له، وأقدرُ عليه، وأن يَقضيَ عني حقَّك، وجليل مِنَّتك؛ فإن ذلك بيده، وهو القادر عليه!

وفي هذه السنة أخذ الرّشيد الخاتم من جعفر بن يحيى؛ فدفعه إلى أبيه يحيى بن خالد.

وفيها ولّى جعفَر بن يحيى خُراسان وسِجستان، واستعمل جعفرٌ عليهما محمد بن الحسن بن قحطبة.

وفيها شخص الرّشيد من مدينة السلام مريداً الرَّقة على طريق الموصل، فلما نزل البَرَدان، ولّى عيسى بن جعفر خُراسان، وعزل عنها جعفر بن يحيى؛ فكانت ولايـة جعفر بن يحيى إياها عشرين ليلة.

وفيها وُلِّيَ جعفر بن يحيى الحرَس.

وفيها هدَم الرَّشيد سُور المَوْصل بسبب الخوارج الذين خرجوا منها، ثم مضى إلى الرَّقة فنزلَها واتّخذها وطناً.

وفيها عُزِل هَرْثمة بن أعينَ عن إفريقيّة، وأقفله إلى مدينـة السلام، فـاستخلفه جعفـر بن يحيى على الحرَس.

وفيها كانت بأرض مصر زلزلة شديدة، فسقط رأسُ منارة الإسكندرية.

وفيها حكم خُراشة الشيبانيّ وشَرِيَ بالجزيرة، فقتله مسلم بن بكار بن مسلم العُقيليّ.

وفيها خرجت المحمِّرة بجُرجان، فكتب عليّ بن عيسى بن ماهان أنّ الذي هيّج ذلك عليه عمرو بن محمد العمركيّ، وأنه زنديق، فأمر الرشيد بقتله فقتِل بمرو

وفيها عزل الفضل بن يحيى عن طبرستان والرُّويان، وولّى ذلك عبدالله بن خازم. وعزل الفضل أيضاً عن الرّيّ، وولِيَها محمد بن يحيى بن الحارث بن شخَير، وولّى سعيد بن سلْم الجزيرة.

وغزا الصائفة فيها معاوية بن زفر بن عاصم.

وفيها صار الرشيد إلى البَصْرة مُنصرَفه من مكة، فقدمها في المحرّم منها، فنزل المحدّثة أياماً، ثم تحوّل منها إلى قصر عيسى بن جعفر بالخُرَيبة، ثم ركب في نهر سَيْحان الذي احتفره يحيى بن خالد؛ حتى نظر إليه، وسَكر نهر الأُبُلّة ونهر معقِل، حتى استحكم أمر سَيْحان، ثم شخص عن البصرة لاثنتي عشرة ليلة بقيتْ من المحرم، فقدم مدينةَ السلام، ثم شخص إلى الحيرة، فسكنها وابتنى بها المنازل، وأقطع مَنْ معه الخِطط، وأقام نحواً من أربعين يوماً، فوثب به أهلُ الكوفة، وأساؤوا مجاورته، فارتحل إلى مدينة السلام، ثم شخص من مدينة السلام إلى الرَّقة، واستخلف بمدينة السلام حين شخص إلى الرّقة محمداً الأمين، وولّاه العراقين.

وحجّ بالناس في هذه السنة موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فكان فيها غزو الرشيد أرضَ الروم، فافتتح بها عنوةً حصن الصّفْصاف، فقال مَرْوان بن أبي حفصة:

إنَّ أميرَ المؤمنينَ المصطفَى ... قد تركَ الصّفصافَ قاعاً صَفصفا

وفيها غزا عبد الملك بن صالح الرّوم، فبلغ أنقرة وافتتح مَطْمورة.

وفيها تُوفِّيَ الحسن بن قحطبة وحمزة بن مالك.

وفيها غلبت المحمّرة على جُرجان.

وفيها أحدث الرشيد عند نزوله الرّقة في صدور كتبه الصّلاةَ على محمد ﷺ.

وحجّ بالناس في هذه السنة هارون الرشيد، فأقام للناس الحجّ، ثم صدر معجّلاً. وتخلف عنه يحيى بن خالد ثم لحقه بالغَمْرة فاستعفاه من الولاية فأعفاه، فردّ إليه الخاتم، وسأله الإذن في المُقام فأذن له، فانصرف إلى مكة.

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فكان فيها انصراف الرشيد من مكة ومسيرُه إلى الرّقة، وبيعتُه بها لابنه عبدالله المأمون بعد ابنه محمد الأمين، وأخذُ البيعة له على الجند بذلك بالرّقة، وضمّه إياه إلى جعفر بن يحيى، ثم توجيهُه إياه إلى مدينة السلام، ومعه من أهل بيته جعفر بن أبي جعفر المنصور وعبد الملك بن صالح، ومن القوّاد عليّ بن عيسى، فبُويع لَهُ بمدينة السلام حين قدمها، وولاه أبوه خُراسان وما يتصل بها إلى هَمَذان، وسمّاه المأمون.

وفيها حُملت ابنة خاقان ملك الخَزر إلى الفَضْل بن يحيى، فماتت ببَرْذعة، وعلى إرمينيَة يومئذ سعيد بن سلْم بن قُتيبة الباهليّ، فرجع منْ كان فيها من الطراخنة إلى أبيها، فأخبروه أن ابنته قُتلت غِيلة، فحنق لذلك، وأخذ في الأهبة لحرب المسلمين.

وانصرف فيها يحيى بن خالد إلى مدينة السّلام.

وغزا فيها الصائفةَ عبدُ الرحمن بن عبد الملك بن صالح، فبلغ دفسوس مدينة أصحاب الكهف.

وفيها سَملت الرّوم عينيْ ملكِهم قسطنطين بن أليون، وأقرّوا أمه ريني، وتلقّب أُغَسْطة.

وحجّ بالنّاس فيها موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومائة

ذكر الخبر عن الأحْداث التي كانت فيها

فمن ذلك خروج الخَزر بسبب ابنة خاقان من باب الأبواب وإيقاعهم بالمسلمين هنالك وأهل الذّمة، وسبيُهم - فيما ذكر - أكثر من مائة ألف. فانتهكوا أمراً عظيماً لم يُسمع في الإسلام بمثله، فولّى الرشيد إرمينيَة يزيد بن مزيد مع أذْرَبيجان، وقوّاه بالجند؛ ووجّهه، وأنزل خزيمة بن خازم نصيبين ردءاً لأهل أرمينيَة.

وقد قيل في سبب دخول الخزر إرمينيَة غيرُ هذا القول؛ وذلك ما ذكره محمد بن عبدالله، أنّ أباه حدّثه أنّ سبب دخول الخَزر إرمينيَة في زمان هارون كان أن سعيد بن سلْم ضرب عُنق المنجم السُّلَميّ بفأس، فدخل ابنه بلاد الخَزَر، واستجاشهم على سعيد، فدخلوا إرمينيَة من الثّلْمة، فانهزم سعيد، ونكحوا المسلمات، وأقاموا فيها - أظنُّ - سبعين يوماً، فوجّه هارون خزيمة بن خازم ويزيد بن مزيد إلى إرمينيَة حتى أصلحا ما أفسد سعيد، وأخرجا الخزر، وسُدّت الثُّلْمة.

وفيها كتب الرّشيد إلى عليّ بن عيسى بن ماهان وهو بخُراسان بالمصير إليه؛ وكان سبب كتابه إليه بذلك؛ أنه كان حُمل عليه، وقيل له: إنه قد أجمع على الخلاف، فاستخلف عليّ بن عيسى ابنَه يحيى على خُراسان، فأقرّه الرّشيد، فوافاه عليّ، وحمل إليه مالاً عظيماً، فردّه الرّشيد إلى خُراسان من قِبَل ابنه المأمون لحرب أبي الخصيب، فرجع.

وفيها خرج بنَسَا من خُراسان أبو الخصيب وُهيب بن عبدالله النسائيّ مولَى الحرِيش.

وفيها مات موسى بن جعفر بن محمد ببغداد ومحمد بن السماك القاضي.

وفيها حجّ بالناس العبّاس بن موسى الهادي بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عليّ.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين ومائة

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

ففيها قدم هارون مدينةَ السلام في جُمادى الآخرة منصرفاً إليها من الرَّقة في الفُرات في السفن، فلما صار إليها أخذ الناس بالبقايا.

ووليَ استخراجَ ذلك - فيما ذكر - عبدُالله بن الهيثم بن سام بالحبس والضرب، ووليَ حماد البربريّ مكة واليمن، ووليَ داود بن يزيد بن حاتم المهلّبيّ السند، ويحيى الحرشيّ الجبل، ومهرويه الرازيّ طبرستان، وقام بأمر إفريقيّة إبراهيم الأغلب، فولّاها إياه الرّشيد.

وفيها خرج أبو عمرو الشاري فوجّه إليه زهير القصاب فقتله بشَهْرَزُور.

وفيها طلب أبو الخصيب الأمان، فأعطاه ذلك عليّ بن عيسى، فوافاه بمَرْو فأكرمه.

وحجّ بالناس فيها إبراهيم بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عليّ.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من قتل أهل طبرستان مَهْرُوَيه الرازيّ وهو واليها، فولّى الرشيد مكانه عبدَالله بن سعيد الحَرَشيّ.

وفيها قتل عبد الرحمن الأبناويّ أبانَ بن قحطبة الخارجيّ بمرْج القلعة.

وفيها عاث حمزة الشاري بباذَغيس من خُراسان، فوثب عيسى بن عليّ بن عيسى على عشرة آلاف من أصحاب حَمْزة فقتلهم، وبلغ كابُل وزابُلستان والقُنْدهار، فقال أبو العذافر في ذلك:

كادَ عيسى يكونُ ذا القَرْنَيْنِ بَلَغَ المشرقَيْنِ والمغربَيْنِ
لَمْ يَدَعْ كابُلاً ولاَ زابُلِسْتا نَ فما حَوْلها إلى الرُّخَّجَيْنِ

وفيها خرج أبو الخصيب ثانية بنَسا، وغلب عليها وعلى أبِيوَرْد وطُوس ونَيْسابور، وزحف إلى مَرْو، فأحاط بها، فهزِم، ومضى نحو سرخْس، وقويَ أمرُه.

وفيها مات يزيد بن مزيد ببَرْذعة، فوُلِّيَ مكانه أسد بن يزيد.

وفيقا مات يقطين بن موسى ببغداد.

وفيها مات عبد الصمد بن عليّ ببغداد في جمادى الآخرة، ولم يكن ثُغِر قطّ؛ فأدخل القبر بأسنان الصبيّ، وما نقص له سنّ.

وشخص فيها الرّشيد إلى الرّقة على طريق الموصل.

واستأذنه فيها يحيى بن خالد في العُمْرة والجوار، فأذن له، فخرج في شعبان، واعتمر عمرة شهر رمضان، ثم رابط بجُدّة إلى وقت الحجّ، ثم حجّ. ووقعت في المسجد الحرام صاعقة فقتلت رجلين.

وحجّ بالناس فيها منصور بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عليّ.

ثم دخلت سنة ست وثمانين ومائة

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

ففيها كان خروجُ عليّ بن عيسى بن ماهان من مَرْو لحرب أبي الخصيب إلى نَسا، فقتله بها، وسبى نساءه وذراريّه، واستقامت خُراسان.

وفيها حبس الرّشيد ثُمامة بن أشرس لوقوفه على كذبه في أمر أحمد بن عيسى بن زيد.

وفيها مات جعفر بن أبي جعفر المنصور عند هَرْثمة. وتُوُفّي العباس بن محمد ببغداد.

وحجّ بالناس فيها هارون الرشيد؛ وكان شخوصه من الرّقة للحجّ في شهر رمضان من هذه السنة، فمرّ بالأنبار، ولم يدخل مدينة السلام؛ ولكنه نزل منزلاً على شاطىء الفرات يدعى الدّارَات، بينه وبين مدينة السلام سبعة فراسخ، وخلّف بالرّقة إبراهيم بن عثمان بن نَهيك، وأخرج معه ابنيه: محمداً الأمين وعبدالله المأمون؛ وليّيْ عهده؛ فبدأ بالمدينة، فأعطى أهلها ثلاثة أعطِية؛ كانوا يقدمون إليه فيعطيهم عطاء، ثم إلى محمد فيعطيهم عطاءً ثانياً، ثم إلى المأمون فيعطيهم عطاء ثالثاً، ثم صار إلى مكة فأعطى أهلَها، فبلغ ذلك ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار.

وكان الرّشيد عقد لابنه محمد ولاية العهد ـ فيما ذكر محمد بن يزيد عن إبراهيم بن محمد الحَجَبيّ ـ يوم الخميس في شعبان سنة ثلاث وسبعين ومائة، وسماه الأمين، وضمّ إليه الشأم والعراق في سنة خمس وسبعين ومائة، ثم بايع لعبدالله المأمون بالرّقة في سنة ثلاث وثمانين ومائة، وولاّه من حدّ همَذان إلى آخر المشرق، فقال في ذلك سَلْم بن عمرو الخاسر:

بـايَـعَ هـارونُ إمـامُ الهُـدَى ... لِـذِي الحِجى والخُلُقِ الفـاضِـلِ
المـخـلِف المُـتـلفِ أمـوالَـهُ ... والضـامِن الأثقـالَ للحـامـلِ
والعـالِم الـنـافـذِ في عـلـمِـهِ ... والحـاكِمِ الفـاضِـل والعـادِل
والـرَّاتِق الفـاتِق حلفَ الهـدى ... والقـائِـل الصـادِقِ والفـاعِـلِ
لِخَـير عـبـاس إذا حُـصِّـلوا ... والمُفْضِـل المجدي عـلى العـائـلِ
أبَـرُّهـمْ بـرًّا وأولاهُـمُ ... بـالعُـرفِ عند الحـدثِ النـازل
لِمُشبـهِ المنـصـورِ في مـلكـه ... إذا تـدَجَّتْ ظُلمَـةُ البـاطـل
فتَمَّ بـالمـأمـونِ نـورُ الهـدى ... وانكشَفَ الجَهـلُ عن الجاهـلِ

وذكر الحسن بن قريش أن القاسم بن الرشيد، كان في حِجْر عبد الملك بن صالح، فلما بايع الرشيدُ لمحمد والمأمون، كتب إليه عبد الملك بن صالح:

يـا أيُّهـا المـلِكُ الَّـذِي ... لـو كـان نـجـماً كـان سَعْـدا
اعْـقِـدْ لـقـاسِـمَ بـيـعَـةً ... واقـدَحْ لـه في المُـلكِ زَنْـدا
الـلّهُ فـرْدٌ واحـدٌ ... فـاجـعـل ولاةَ العـهـدِ فـرْدَا

فكان ذلك أول ما حضّ الرشيد على البيعة للقاسم. ثم بايع للقاسم ابنه، وسماه المؤتمن، وولاّه الجزيرة والثغور والعواصم، فقال في ذلك:

حُـبّ الخـليفـةِ حُـبٌّ لا يَـدِينُ بِـهِ ... مَنْ كـان لله عـاصٍ يَعْمَـلُ الفِـتَنـا
الـلّهُ قَـلَّدَ هـارونـاً سِـيـاسَـتَـنـا ... لَمّـا اصـطفـاهُ فـأَحْيَـا الـدِّينَ والسنَنـا
وَقَـلَّدَ الأرضَ هـارونُ لـرأفَـتِـهِ ... بـنَـا أمـيـنـاً ومـأمُـومـاً ومؤتَـمَـنـا

قال: ولما قسم الأرض بين أولاده الثلاثة، قال بعض العامة: قد أحكم أمر الملك، وقال بعضهم: بل ألقى بأسَهُم بينهم، وعاقبةُ ما صنع في ذلك مخوفةٌ على الرّعية، وقالت الشعراء في ذلك، فقال بعضهم:

أقـولُ لـغمَّـةٍ في الـنفس مـني ... وَدَمْـعُ الـعَـين يَـطَّرِدُ اطِّـرادَا
خُـذِي لِلْهـوْلِ عُـدّتَـهُ بحـزْمٍ ... سنَلْقَى مـا سَيَمْنَعُـكِ الـرُّقَـادا
فـإنَّـكِ إنْ بَـقيـتِ رأيـتِ أمـراً ... يُـطِيـلُ لـكِ الكـآبـةَ والسهـادا
رَأى المـلـكُ المُهـذَّبُ شرَّ رأيٍ ... بقِسْـمَـتِـهِ الخـلافـة والـبـلادا
رأى مـا لـوْ تَـعَـقَّـبَـهُ بـعِـلمٍ ... لبَيَّضَ مـن مَفـارِقِـه الـسَّـوادا
أرادَ بـه لـيَـقـطَعَ عـن بَـنيـه ... خـلافَهُمُ ويَـبـتـذِلـوا الـودادا
فقـد غَـرَسَ العـداوةَ غـيرَ آلٍ ... وأورثَ شَـمْـلَ أُلفَـتِهِمْ بَـدادا
وَألقَـحَ بَيْنَهُمْ حـرْبـاً عَـوانـاً ... وسَـلَّس لاجتنـابهِـمُ الـقـيـادا
فـوَيْـلٌ لِـلرَّعـيَّـةِ عـن قـلـيـل ... لقـد أهدى لهـا الكُرَبَ الشِّـدادا
وألْـبَسَـهَـا بـلاءً غـيـر فـانٍ ... وألـزمهـا التَّضَعْضُـعَ والفسـادا
سَتجْـري من دمـائِهُـم بحُـورٌ ... زواخِـرُ لا يَـروْنَ لهـا نـفـادَا
فـوِزْرُ بـلائـهـمْ أبـداً عـلـيـه ... أغـيًّـا كـانَ ذلـك أمْ رشـادا

قال: وحجَّ هارون ومحمد وعبدالله معه وقواده ووزراؤه وقضاته في سنة ست وثمانين ومائة، وخلّف بالرّقة إبراهيم بن عثمان بن نَهيك العكيّ على الحرَم والخزائن والأموال والعسكر، وأشخص القاسم ابنه إلى مَنْبج، فأنزله إياها بمن ضمّ إليه من القوّاد والجند، فلما قضى مناسكه كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين، أجهد الفقهاء والقضاة آراءهم فيهما، أحدهما على محمّد بما اشترط عليه من الوَفاء بما فيه من تسليم ما وَليَ عبدُ الله من الأعمال، وصيَّر إليه من الضيّاع والغَلاّت والجواهر والأموال، والآخر نسخة البَيْعة التي أخذها على الخاصّة والعامّة والشروط لعبد الله على محمد وعليهم، وجعل الكتابين في البيْت الحرام بعد أخذه البيعة على محمد، وإشهاده عليه بها الله وملائكته ومَنْ كان في الكعبة من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقُوّاده ووزرائه وكتابه

وغيرهم.

وكانت الشهادة بالبَيْعة والكتاب في البيت الحرام، وتقدّم إلى الحَجَبة في حفظهما، ومنَع من أراد إخراجهما والذهاب بهما، فذكر عبدُالله بن محمد ومحمد بن يزيد التميميّ وإبراهيم الحجبيّ، أنّ الرشيد حضر وأحضر وجوه بني هاشم والقُوّاد والفقهاء، وأدخِلوا البيت الحرام، وأمر بقراءة الكتاب على عبدالله ومحمد، وأشهد عليهما جماعة مَنْ حضر، ثم رأى أن يعلّق الكتاب في الكعبة، فلما رُفع ليُعلّق وقع، فقيل إنّ هذا الأمر سريع انتقاضه قبل تمامه. وكانت نسخة الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب لعبدالله هارون أمير المؤمنين، كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين، في صحة من عقله، وجوازٍ من أمره، طائعاً غير مكرَه. إن أمير المؤمنين ولّاني العهدَ من بعده، وصيّر البيعة لي في رقاب المسلمين جميعاً، وولّى عبدَالله بن هارون العهدَ والخلافةَ وجميع أمور المسلمين بعدي، برضاً مني وتسليم، طائعاً غير مكرَه، وولّاه خُراسان وثغورَها وكُورَها وحربَها وجندَها وخراجَها وطرزها وبَريدها، وبيُوت أموالها، وصدقاتها وعُشْرها وعشورها، وجميع أعمالها، في حياته وبعده. وشرطتُ لعبدالله هارون أمير المؤمنين برضاً مني وطيب نفسي، أنّ لأخي عبدالله بن هارون عليّ الوفاء بما عَقَد له هارون أمير المؤمنين من العهد والولاية والخلافة وأمور المسلمين جميعاً بعدي، وتسليمَ ذلك له؛ وما جعل له من ولاية خُراسان وأعمالها كلّها، ومَا أقطعه أمير المؤمنين من قَطيعة، أو جعل له من عُقدة أو ضيْعة من ضياعه، أو ابتاع من الضّياع والعُقَد، وما أعطاه في حياته وصحته من مال أو حليٍ أو جوهر، أو متاع أو كسوة، أو منزل أو دوابّ، أو قليل أو كثير؛ فهو لعبدالله بن هارون أمير المؤمنين، موفَّراً مسلّماً إليه. وقد عرفت ذلك كله شيئاً شيئاً.

فإن حدث بأمير المؤمنين حدَثُ الموت، وأفضت الخلافة إلى محمد ابن أمير المؤمنين، فعلى محمد إنفاذ ما أمره به هارون أمير المؤمنين في تولية عبدالله بن هارون أمير المؤمنين خُراسان وثغورها ومَنْ ضمّ إليه من أهل بيت أمير المؤمنين بقرَمَاسين؛ وإن يمضِي عبدالله ابن أمير المؤمنين إلى خُراسان والرّيّ والكُور التي سماها أمير المؤمنين حيث كان عبدالله ابن أمير المؤمنين من مُعسكر أمير المؤمنين وغيره من سلطان أمير المؤمنين وجميع مَنْ ضم إليه أمير المؤمنين حيث أحبّ، من لدُن الرّيّ إلى أقصى عمل خُراسان. فليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحوّل عنه قائداً ولا مقوداً ولا رجلاً واحداً ممن ضُمَّ إليه من أصحابه الذين ضمّهم إلى أمير المؤمنين، ولا يحوّل عبدَالله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولّاه إياها هارون أمير المؤمنين من ثُغور خُراسان وأعمالها كلّها، ما بين عمل الرّيّ مما يلي همذان إلى أقصى خراسان وثغورها وبلادها؛ وما هو منسوب إليها، ولا يشخِصه إليه، ولا يفرق أحداً من أصحابه وقوّاده عنه، ولا يولي عليه أحداً، ولا يبعث عليه ولا على أحد من عُمّاله وولاة أموره بُنداراً، ولا محاسباً ولا عاملاً، ولا يدخل عليه في صغيرٍ من أمره ولا كبير ضرراً، ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله برأيه وتدبيره، ولا يَعرض لأحد ممن ضمّ إليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحابته وقُضاته وعمّاله وكتابه وقُوّاده وخدَمه ومواليه وجنده؛ بما يلتمس إدخال الضرر والمكروه عليهم في أنفسهم ولا قراباتهم ولا مواليهم، ولا أحد بسبيل منهم، ولا في دمائهم ولا في أموالهم ولا في ضياعهم ودورهم ورباعهم وأمتعتهم ورقيقهم ودوابّهم شيئاً من ذلك صغيراً ولا كبيراً، ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه، وبترخيصٍ له في ذلك وإدهانٍ منه فيه لأحد من ولد آدم، ولا يحكم في أمرهم ولا أحد من قضاته ومن عماله وممّن كان بسببٍ منه بغير حكم عبدالله ابن أمير المؤمنين ورأيه ورأي قضاته.

وإن نزع إليه أحد ممن ضمّ أمير المؤمنين إلى عبدالله ابن أمير المؤمنين من أهل بيت أمير المؤمنين وصِحابته وقوّاده وعماله وكتّابه وخدمه ومواليه وجنده، ورفض اسمه ومكْتَبَه ومكانه مع عبدالله ابن أمير المؤمنين عاصياً له أو مخالفاً عليه؛ فعلى محمدابن أمير المؤمنين ردّه إلى عبدالله ابن أمير المؤمنين بصغَرٍ له وقَمَاء حتى ينفذ فيه رأيَه وأمرَه.

فإن أراد محمدابن أمير المؤمنين خلعَ عبدالله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده، أو عزلَ عبدالله ابن أمير المؤمنين عن ولاية خُراسان وثُغورها وأعمالها، والذي من حدّ عملها مما يلي هَمَذان والكور التي سماها أمير المؤمنين في كتابه هذا أو صرْف أحد من قواده الذين ضمَّهم أمير المؤمنين إليه ممن قدِم قَرْماسين، أو أن ينتقصه قليلاً أو كثيراً مما جعله أمير المؤمنين له بوجه من الوجوه، أو بحيلة من الحيل؛ صغرت أو كبرت؛ فلعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المومنين، وهو المقدّم على محمد ابن أمير المؤمنين، وهو وليّ الأمر بعد أمير المؤمنين والطاعة من جميع قواد أمير المؤمنين هارون من أهل خُراسان وأهل العطاء وجميع المسلمين في جميع الأجناد والأمصار لعبدالله ابن أمير المؤمنين، والقيامُ معه، والمجاهدةُ لِمَنْ خالفه، والنصر له والذبّ عنه؛ ما كانت الحياة في أبدانهم. وليس لأحدٍ منهم جميعاً من كانوا، أو حيث كانوا، أن يخالفَه ولا يعصيه، ولا يخرج من طاعته، ولا يطيع محمد ابن أمير المؤمنين في خلع عبدالله بن هارون أمير المؤمنين وصرْف العهد عنه من بعده إلى غيره، أو ينتقصه شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون في حياته وصحته، واشترط في كتابه الذي كتبه عليه في البيت الحرام في هذا الكتاب. وعبدالله ابن أمير المؤمنين المصدّق في قوله، وأنتم في حلٍّ من البيعة التي في أعناقكم لمحمد ابن أمير المؤمنين هارون إن نَقَص شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون، وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن ينقادَ لعبدالله ابن أمير المؤمنين هارون ويسلِّم له الخلافة.

وليس لمحمد ابن أمير المؤمنين هارون ولا لعبدالله ابن أمير المؤمنين أن يخلعَا القاسم ابن أمير المؤمنين هارون، ولا يقدّما عليه أحداً من أولادهما وقراباتهما ولا غيرهم من جميع البريّة؛ فإذا أفضت الخلافة إلى عبدالله ابن أمير المؤمنين، فالأمر إليه في إمضاء ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده، أو صرف ذلك عنه إلى مَنْ رأى من ولده وإخوته، وتقديم مَنْ أراد أن يقدم قبله، وتصيير القاسم ابن أمير المؤمنين بعد مَن يقدم قبله، يحكم في ذلك بما أحبّ ورأى.

فعليكم معشرَ المسلمين إنفاذ ما كتب به أمير المؤمنين في كتابه هذا، وشرط عليهم وأمر به، وعليكم السّمع والطاعة لأمير المؤمنين فيما ألزمكم وأوجب عليكم لعبدالله ابن أمير المؤمنين، وعهد الله وذمّته وذمّة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمم المسلمين والعهود والمواثيق التي أخذ الله على الملائكة المقرّبين والنبيين والمرسلين، ووكّدَها في أعناق المؤمنين والمسلمين، لَتَفُنَّ لعبدالله أمير المؤمنين بما سمّى، ولمحمد وعبدالله والقاسم بني أمير المؤمنين بما سمّى وكتب في كتابه هذا، واشترط عليكم وأقررتم به على أنفسكم؛ فإن أنتم بدّلتم من ذلك شيئاً، أو غيّرتم، أو نكثتم، أو خالفتم ما أمركم به أمير المؤمنين، واشترط عليكم في كتابه هذا، فبرئت منكم ذمّة الله وذمّة رسوله محمد ﷺ وذمم المؤمنين والمسلمين، وكلّ مالٍ هو اليوم لكلّ رجل منكم أو يستفيده إلى خمسين سنة فهو صدقة على المساكين، وعلى كل رجل منكم المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة خمسين حِجَّة، نذراً واجباً لا يقبل الله منه إلا الوفاء بذلك؛ وكلّ مملوك لأحد منكم ـ أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنة ـ حرّ، وكلّ امرأة له فهي طالق ثلاثاً ألبتة طلاق الحرَج، لا مثنوية فيها. والله عليكم بذلك كفيل وراعٍ، وكفى بالله حسيباً.

نسخة الشرط الذي كتب عبدالله ابن أمير المؤمنين بخط يده في الكعبة

هذا كتاب لعبدالله هارون أمير المؤمنين، كتبه له عبدالله بن هارون أمير المؤمنين، في صحّةٍ من عقله، وجوازٍ من أمره، وصدقِ نيّة فيما كتب في كتابه هذا، ومعرفة بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين. إن أمير المؤمنين هارون ولّاني العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانه بعد أخي محمد بن هارون، وولّاني في حياته ثغورَ خُراسان وكورها وجميع أعمالها، وشرط على محمد بن هارون الوفاءَ بما عقد لي من الخلافة وولاية أمورِ العباد والبلاد بعده، وولاية خراسان وجميع أعمالها، ولا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين، أو ابتاع لي من الضياع والعُقَد والرِّباع أو ابتعت منه من ذلك، وما أعطاني أمير المؤمنين من الأموال والجوهر والكِساء والمتاع والدوابّ والرّقيق وغير ذلك، ولا يعرض لي ولا لأحد من عمّالي وكتّابي بسبب محاسبة، ولا يتّبع لي في ذلك ولا لأحد منهم أبداً، ولا يُدخل عليّ ولا عليهم ولا على مَنْ كان معي ومن استعنتُ به من جميع الناس مكروهاً؛ في نفس ولا دمٍ ولا شعر ولا بشر ولا مال، ولا صغير من الأمور ولا كبير. فأجابه إلى ذلك، وأقرّ به وكتب له كتاباً، أكّد فيه على نفسه ورضِيَ به أميرُ المؤمنين هارون وقبِله، وعرف صدق نيّته فيه. فشرطتُ لأمير المؤمنين وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد وأطيع ولا أعصيه، وأنصحه ولا أغشّه، وأوفي ببيعته وولايته، ولا أغدر، ولا أنكُث، وأنفِذُ كتبَه وأموره، وأحسن موازرته وجهاد عدوّه في ناحيتي، ما وفَى لي بما شرط لأمير المؤمنين في أمري، وسمَّى في الكتاب الذي كتبه لأمير المؤمنين، ورضي به أميرُ المؤمنين، ولم يتّبعني بشيء من ذلك، ولم ينقض أمراً من الأمور التي شرطها أمير المؤمنين لي عليه.

فإن احتاج محمد ابن أمير المؤمنين إلى جند، وكتب إليّ يأمرني بإشخاصه إليه، أو إلى ناحية من النواحي، أو إلى عدوٍّ من أعدائه؛ خالفه أو أراد نقصَ شيء من سلطانه أو سلطاني الذي أسنَده أمير المؤمنين إلينا وولّانا إياه؛ فعليّ أن أنفذ أمره ولا أخالفه، ولا أقصّر في شيء كتب به إليّ. وإن أراد محمد أن يوَلّيَ رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعدي؛ فذلك له ما وفَى لي بما جعله أمير المؤمنين إليّ واشترطه لي عليه، وشرط على نفسه في أمري، وعليّ إنفاذ ذلك والوفاء له به؛ ولا أنقص من ذلك ولا أغيّره ولا أبدّله، ولا أقدّم قبله أحداً من ولَدِي، ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين؛ إلّا أن يولِّيَ أمير المؤمنين هارون أحداً من ولده العهد من بعدي؛ فيلزمني ومحمداً الوفاء له.

وجعلتُ لأمير المؤمنين ومحمد عليّ الوفاء بما شرطت وسمّيت في كتابي هذا، ما وَفَى لي محمد بجميع ما اشترط لي أمير المؤمنين عليه في نفسي، وما أعطاني أمير المؤمنين من جميع الأشياء المسمّاة في هذا الكتاب الذي كتبه لي، وعليّ عهد الله وميثاقه وذمّة أمير المؤمنين وذمّتي وذمم آبائي وذمم المؤمنين وأشدّ ما أخذ الله على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين، من عهوده ومواثيقه، والأيمان المؤكّدة التي أمر الله بالوفاء بها، ونهى عن نقضها وتبديلها؛ فإن أنا نقضتُ شيئاً مما شرطت وسمّيت في كتابي هذا أو غيّرت أو بدّلت، أو نكثت أو غدرت، فبرئتُ من الله عز وجل من ولايته ودينه، ومحمد رسول الله ﷺ، ولقيتُ الله يوم القيامة كافراً مشركاً؛ وكلّ امرأة هي لي اليوم أو أتزوّجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً ألبتة طلاق الحرَج؛ وكلّ مملوك هو لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله؛ وعليّ المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكّة ثلاثين حِجّة، نذراً واجباً عليّ في عنقي حافياً

راجلاً؛ لا يقبل الله منّي إلا الوفاء بذلك، وكلّ مال لي أو أملكه إلى ثلاثين سنة هَدْي بالغ الكعبة؛ وكلّ ما جعلت لأمير المؤمنين وشرطت في كتابي هذا لازم لا أضمر غيره، ولا أنوي غيره.

وشهد سليمان ابن أمير المؤمنين وفلان وفلان. وكتب في ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة.

نسخة كتاب هارون بن محمد الرشيد إلى العمال

بسم الله الرحمن الرحيم. أمّا بعد فإنّ الله وليّ أمير المؤمنين ووليّ ما ولّاه، والحافظ لما استرعاه وأكرمه به من خلافته وسلطانه، والصانع له فيما قدّم وأخّر من أموره، والمنعم عليه بالنّصر والتأييد في مشارق الأرض ومغاربها، والكالىء والحافظ والكافي من جميع خلْقه؛ وهو المحمود على جميع آلائه،المسؤول تمامَ حُسْنِ ما أمضى من قضائه لأمير المؤمنين، وعادتِه الجميلة عنده، وإلهامَ ما يرضى به، ويوجب له عليه أحسن المزيد من فضله. وقد كان من نعمة الله عزّ وجلّ عند أمير المؤمنين وعندك وعند عوامّ المسلمين ما تولّى الله من محمّد وعبدالله ابني أمير المؤمنين، من تبليغه بهما أحسنَ ما أمّلت الأمة، ومدّت إليه أعناقها، وقذف الله لهما في قلوب العامة من المحبّة والمودّة والسكون إليهما والثّقة بهما، لعماد دينهم، وقِوام أمورهم؛ وجمع ألفتهم، وصلاح دَهْمائهم، ودفع المحذور والمكروه من الشّتّات والفرقة عنهم؛ حتى ألقَوْا إليهما أزمّتهم، وأعطوْهما بيعتَهم وصفَقات إيمانهم، بالعهود والمواثيق ووكيد الأيمان المغلّظة عليهم. أراد الله فلم يكن له مردّ، وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته، ولا صَرْفٍ له عن محبّته ومشيئته، وما سبق في علمه منه. وأميرُ المؤمنين يرجو تمامَ النّعمة عليه وعليهما في ذلك وعلى الأمّة كافة؛ لا عاقبَ لأمر الله ولا رادَّ لقضائه، ولا معقِّبَ لحكمه.

ولم يزل أميرُ المؤمنين منذ اجتمعت الأمة على عَقْد العهد لمحمدابن أمير المؤمنين من بعد أمير المؤمنين ولعبد الله ابن أمير المؤمنين من بعد محمد ابن أمير المؤمنين، يُعمل فكرَه ورأيه ونظرَه ورويّته فيما فيه الصلاح لهما ولجميع الرعيّة والجمع للكلمة، واللمّ للشعث، والدّفْع للشتات والفرقة، والحسْم لكيْد أعداء النِّعَم؛ من أهل الكفر والنفاق والغلّ والشِّقاق، والقطع لآمالهم من كلّ فرصة يرجون إدراكَها وانتهازها منهما بانتقاص حقهما. ويستخير الله أمير المؤمنين في ذلك، ويسأله العزيمةَ له على ما فيه الخِيَرة لهما ولجميع الأمة، والقوّة في أمر الله وحقه وائتلاف أهوائهما، وصلاح ذات بينهما، وتحصينهما من كَيْد أعداء النِّعم، وردّ حسدهم ومكرهم وبغيهم وسعيهم بالفساد بينهما.

فعزم الله لأمير المؤمنين على الشخوص بهما إلى بيت الله، وأخذ البيعة منهما لأمير المؤمنين بالسمع والطاعة والإنفاذ لأمره، واكتتاب الشّرْط على كلّ واحد منهما لأمير المؤمنين ولهما بأشدّ المواثيق والعهود، وأغلظ الأيمان والتّوكيد، والأخذ لكلّ واحد منهما على صاحبه بما التمس به أمير المؤمنين اجتماعَ ألفتهما ومودّتهما وتواصلهما وموازرتهما ومكانفتهما على حسن النظر لأنفسهما ولرعيّة أمير المؤمنين التي استرعاهما، والجماعة لدين الله عزّ وجلّ وكتابه وسنن نبيِّه ﷺ، والجهاد لعدوّ المسلمين؛ من كانوا وحيث كانوا، وقطْع طمع كل عدوّ مظهر للعداوة، ومسرّ لها، وكلّ منافق ومارق، وأهل الأهواء الضالّة المضلّة من تكيد بكيْد تُوقعه بينهما، وبدَحْس يُدحس به لهما، وما يلتمس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء دينه من الضرب بين الأمة، والسّعي بالفساد في الأرض، والدعاء إلى البدَع والضّلالة؛ نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورعيته وأمّة نبيه محمد ﷺ ومناصحةً لله ولجميع المسلمين، وذبًّا عن سلطان الله الذي قدّره، وتوحّد فيه للذي حمّله إياه، والاجتهاد في كلّ ما فيه قُرْبة إلى

الله، وما ينال به رضوانه، والوسيلة عنده.

فلما قدِم مكّة أظهر لمحمد وعبدالله رأيه في ذلك، وما نظر فيه لهما، فقبلا كلّ ما دعاهما إليه من التوكيد على أنفسهما بقبوله، وكَتبا لأمير المؤمنين في بَطْن بيت الله الحرام بخطوط أيديهما، بمَحْضَر ممّن شهد الموسم من أهل بيتِ أمير المؤمنين وقوّاده وصحابته وقضاته وحَجَبة الكعبة وشهاداتهم عليهما كتابين استودعهما أمير المؤمنين الحَجَبة، وأمر بتعليقهما في داخل الكعبة.

فلما فرغ أمير المؤمنين من ذلك كلّه في داخل بيت الله الحرام وبطْن الكعبة، أمر قضاته الذين شهدوا عليهما، وحضروا كتابهما، أن يعلموا جميع مَنْ حضر الموسم من الحاجّ والعُمّار ووفود الأمصار ما شهدوا عليه من شرْطهما وكتابهما، وقراءة ذلك عليهم ليفهموه ويعُوه، ويعرفوه ويحفظوه، ويؤدُّوه إلى إخوانهم وأهل بلدانهم وأمصارهم، ففعلوا ذلك، وقرِىء عليهم الشّرْطان جميعاً في المسجد الحرام، فانصرفوا. وقد اشتهر ذلك عندهم، وأثبتوا الشهادة عليه، وعرفوا نظر أمير المؤمنين وعنايته بصلاحهم وحقن دمائهم، ولمّ شعثِهم وإطفاء جَمْرة أعداء الله؛ أعداء دينه وكتابه وجماعة المسلمين عنهم، وأظهروا الدعاء لأمير المؤمنين والشّكر لما كان منه في ذلك.

وقد نسخ لك أمير المؤمنين ذينك الشرطين اللذين كتبهما لأمير المؤمنين ابناه محمد وعبدالله في بطْن الكعبة في أسفل كتابه؛ هذا فاحمَد الله عزّ وجلّ على ما صنع لمحمد وعبدالله وليّي عهد المسلمن حمداً كثيراً، واشكره ببلائه عند أمير المؤمنين وعند وليّي عهد المسلمين وعندك وعند جماعة أمة محمد ﷺ كثيراً.

واقرأ كتاب أمير المؤمنين على مَن قِبلك من المسلمين، وأفهمهم إيّاه وقُمْ به بينهم، وأثبته في الديوان قِبلك وقبَل قوّاد أمير المؤمنين ورعيته قِبَلك واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك، إن شاء الله وحسبنا الله ونعم الوكيل وبه الحول والقوّة والطول.

وكتب إسماعيل بن صَبيح يوم السبت لسبع ليال بَقِين من المحرّم سنة ست وثمانين ومائة.

قال: وأمر هارون الرشيد لعبدالله المأمون بمائة ألف دينار، وحملت له إلى بغداد من الرّقة.

قال وكان الرّشيد بعد مقتل جعفر بن يحيى بالعُمْر، صار إلى الرّقة، ثم قدم بغداد؛ وقد كانت توالتْ عليه الشكاية من عليّ بن عيسى بن ماهان من خُراسان وكثر عليه القوْل عنده، فأجمع على عَزْله من خُراسان، وأحبّ أن يكون قريباً منه. فلما صار إلى بغداد شخص بعد مدّة منها إلى قَرْمَاسِين، وذلك في سنة تسع وثمانين ومائة، وأشخص إليها عدّة رجال من القضاة وغيرهم، وأشهدهم أنّ جميع ماله في عسكره من الأموال والخزائن والسّلاح والكُراع وما سواه أجمع لعبدالله المأمون، وأنه ليس فيه قليل ولا كثير بوجْه ولا سبب، وجدّد البيعة له علَى مَنْ كان معه، ووجّه هَرثمة بن أعينَ صاحب حَرَسه إلى بغداد، فأعاد أخذ البيعة على محمد بن هارون أمير المؤمنين وعلى مَنْ كان بحضرته لعبدالله والقاسم على النّسخة التي كان أخذها عليه الرّشيد بمكة، وجعل أمر القاسم في خلعه وإقراره إلى عبدالله إذا أفضت إليه الخلافة؛ فقال: إبراهيم الموصليّ في بيعة هارون لابنيه في الكعبة:

خيْرُ الأُمورِ مَغَبَّةً ... وأَحَقُّ أمرٍ بالتَّمامِ
أمْرٌ قضى إحكامه الرّ ... حمانُ في البَيْتِ الحَرَامِ

ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومائة

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك قتل الرشيد جعفر بن يحيى بن خالد وإيقاعه بالبرامكة.

ذكر الخبر عن سبب قتله إياه وكيف كان قتله وما فعل به وبأهل بيته:

أما سبب غضبه عليه الذي قتله عنده، فإنه مختلَف فيه، فمن ذلك ما ذكر عن بختيشوع بن جبريل، عن أبيه أنه قال: إني لقاعد في مجلس الرشيد، إذ طلع يحيى بن خالد - وكان فيما مضى يدخل بلا إذن - فلما دخل وصار بالقُرْب من الرّشيد وسلّم ردّ عليه ردًّا ضعيفاً، فعلم يحيى أن أمرهم قد تغيّر.

قال: ثم أقبل عليَّ الرشيد، فقال: يا جبريل، يدخل عليك وأنت في منزلك أحدٌ بلا إذنك! فقلت: لا، ولا يطمع في ذلك. قال: فما بالُنا يُدْخَل علينا بلا إذن! فقام يحيى، فقال: يا أميرَ المؤمنين، قدّمني الله قبلَك؛ والله ما ابتدأتُ ذلك الساعة، وما هو إلاّ شيء كان خصّني به أمير المؤمنين، ورفَع به ذكري؛ حتى إنْ كنتُ لأدخل وهو في فراشه مجرداً حيناً وحيناً في بعض إزاره؛ وما علمت أنّ أمير المؤمنين كره ما كان يحبّ؛ وإذْ قد علمتُ فإنّي أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن، أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك. قال: فاستحيا - قال: وكان من أرقّ الخلفاء وجهاً - وعيناه في الأرض، ما يرفع إليه طرفه، ثم قال: ما أردتُ ما تكره؛ ولكنّ الناس يقولون. قال: فظننت أنه لم يسنح له جواب يرتضيه فأجاب بهذا القول ثم أمسك عنه، وخرج يحيى.

وذُكر عن أحمد بن يوسف أنّ ثُمامة بن أشرس؛ قال: أوّل ما أنكر يحيى بن خالد من أمره، أن محمد بن الليث رفع رسالة إلى الرشيد يعظه فيها، ويذكر أن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئاً، وقد جعلتَه فيما بينك وبين الله؛ فكيف أنت إذا وقفت بين يديه، فسألك عمّا عملت في عباده وبلاده، فقلت: يا ربّ إني استكفيتُ يحيى أمورَ عبادك! أتراك تحتجّ بحجّة يرضى بها! مع كلام فيه توبيخ وتقريع. فدعا الرّشيد يحيى - وقد تقدم إليه خبر الرسالة - فقال: تعرف محمد بن الليث؟ قال: نعم، قال: فأيّ الرجال هو؟ قال: متّهم على الإسلام، فأمر به فوضع في المطبَق دهراً؛ فلمّا تنكّر الرشيد للبرامكة ذكره فأمر بإخراجه، فأحضِر، فقال له بعد مخاطبة طويلة: يا محمد، أتحبّني؟ قال: لا والله يا أميرَ المؤمنين، قال: تقول هذا! قال: نعم، وضعتَ في رجليَ الأكبال، وحُلتَ بيني وبين العيال بلا ذنب أتيت، ولا حدث أحدثت، سوى قولِ حاسد يكيد الإسلام وأهلَه، ويحب الإلحادَ وأهله؛ فكيف أحبُّك! قال: صدقت، وأمر بإطلاقه، ثم قال: يا محمد، أتحبني؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين؛ ولكن قد ذهب ما في قلبي، فأمر أن يعطَى مائة ألف درهم، فأحضِرَت، فقال: يا محمد، أتحبني؟ قال: أما الآن فنعم، قد أنعمت عليّ، وأحسنت إليّ. قال: انتقم الله ممّن ظلمك، وأخذ لك بحقّك ممّن بعثني

عليك. قال: فقال الناس في البرامكة فأكثروا، وكان ذلك أوّل ما ظهر من تغيّر حالهم.

قال: وحدّثني محمد بن الفضْل بن سفيان، مولى سليمان بن أبي جعفر، قال: دخل يحيى بن خالد بعد ذلك على الرّشيد، فقام الغلمان إليه، فقال الرّشيد لمسرور الخادم: مُر الغلمان ألّا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار. قال: فدخل فلم يقم إليه أحدٌ، فاربدّ لونه. قال: وكان الغلمان والحجاب بعد إذا رأوْه أعرضوا عنه. قال: فكان ربّما استسقى الشربة من الماء أو غيره، فلا يسقونه، وبالحرَى إن سقوْه أن يكون ذلك بعد أن يدعوَ بها مراراً.

وذكر أبو محمد اليزيديّ - وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم - قال: مَنْ قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن حسن فلا تصدّقه؛ وذلك أنّ الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه، ثم دعا به ليلة من الليالي فسأله عن شيء من أمره، فأجابه، إلى أن قال: اتّق الله في أمري، ولا تتعرَّض أن يكون خصمك غداً محمد ﷺ؛ فوالله ما أحدثتُ حدثاً، ولا أويت محدِثاً. فرقّ عليه، وقال له: اذهب حيث شئت من بلاد الله. قال: وكيف أذهب ولا آمن أن أوخذَ بعد قليل فأردّ إليك أو إلى غيرك! فوَجّه معه مَنْ أدّاه إلى مأمنه. وبلغ الخبرُ الفضلَ بن الربيع، من عين كانت له عليه من خاصّ خدمه، فعلا الأمرَ، فوجده حقًّا، وانكشف عنده؛ فدخل على الرّشيد فأخبره، فأراه أنه لا يعبأ بخبره. وقال: وما أنت وهذا لا أمّ لك! فلعلّ ذلك عن أمري؛ فانكسر الفضل؛ وجاءه جعفر فدعا بالغدَاء فأكلا، وجعل يلقّمه ويحادثه، إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال: ما فعل يحيى بن عبدالله؟ قال: بحاله يا أميرَ المؤمنين في الحبْس الضيّق والأكبال. قال: بحياتي! فأحجم - جعفر - وكان من أدقّ الخلق ذهناً، وأصحّهم فكراً - وهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره، فقال: لا وحياتِك يا سيِّدي ولكن أطلقته وعلمتُ أنه لا حياة به ولا مكروه عنده. قال: نِعمَ ما فعلتَ؛ ما عدوتَ ما كان في نفسي. فلما خرج أتبعه بصرَه حتى كاد أن يتوارَى عن وجهه، ثم قال: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك! فكان من أمره ما كان.

وحدّث إدريس بن بدر، قال: عرض رجل للرشيد وهو يناظر يحيى، فقال: يا أميرَ المؤمنين، نصيحة؛ فادعُ بي إليك، فقال لهرثمة: خذ الرجل إليك، وسلْه عن نصيحته هذه، فسأله، فأبَى أن يخبرَه وقال: هي سرّ من أسرار الخليفة، فأخبر هرثمَة الرشيد بقوله، قال: فقل له لا يبرح الباب حتى أفرغ له، قال: فلما كان في الهاجرة انصرف مَنْ كان عنده، ودعا به، فقال: أخْلِني، فالتفت هارون إلى بنيه، فقال: انصرفوا يا فتيان؛ فوثبوا وبقي خاقان وحُسين على رأسه؛ فنظر إليهما الرّجُل، فقال الرّشيد: تَنَحيّا عنّي، ففعلا، ثم أقبل على الرّجل، فقال: هات ما عندك، فقال: على أن تؤمّنني! قال: على أن أؤمنك وأحسن إليك. قال: كنت بحلوان في خانٍ من خاناتها، فإذا أنا بيحيى بن عبد الله في دُرّاعة صوف غليظة وكساء صوف أخضر غليظ، وإذا معه جماعة ينزلون إذا نزل، ويرحلون إذا رحل، ويكونون منه بصدد يوهمون مَنْ رآهم أنهم لا يعرفونه وهم من أعوانه، ومع كلّ واحد منهم منشور يأمن به إن عُرِض له. قال: أوَتعرف يحيى بن عبد الله؟ قال: أعرفه قديماً، وذلك الذي حقّق معرفتي به بالأمس، قال: فصِفه لي، قال: مربوع أسمر رقيق السمرة، أجلح، حسن العينين، عظيم البطن. قال: صدقتَ؛ هو ذاك. قال: فما سمعتَه يقول؟ قال: ما سمعتُه يقول شيئاً؛ غير أني رأيته يصلّي، ورأيت غلاماً من غلمانه أعرفه قديماً جالساً على باب الخان، فلمّا فرغ من صلاته أتاه بثوبٍ غسيل، فألقاه في عنقه ونزع جبّة الصوف، فلما كان بعد الزّوال صلى صلاة ظننتُها العصر، وأنا أرمقه؛ أطال في

الأوليينْ، وخفف في الأخريَين، فقال: لله أبوك! لجاد ما حفظت عليه، نعم تلك صلاة العصر؛ وذاك وقتُها عند القوم، أحسن الله جزاءك، وشكر سعيَك! فمن أنت؟ قال: أنا رجل من أعقاب أبناء هذه الدّوْلة، وأصْلي من مَرْو، ومولدي مدينة السلام، قال: فمنزلك بها؟ قال: نعم؛ فأطرق مليًّا، ثم قال: كَيف احتمالُك لمكروه تُمتحن به في طاعتي! قال: أبلغُ من ذلك حيث أحبَّ أمير المؤمنين، قال: كن بمكانك حتى أرجعَ. فطفَر في حجرة كانت خلف ظهره، فأخرج كيساً فيه ألفا دينار، فقال: خذ هذه، ودعني وما أدبّر فيك، فأخذها، وضمّ عليها ثيابه، ثم قال: يا غلام، فأجابه خاقان وحسين، فقال: اصفعا ابنَ اللخناء، فصفَعاه نحواً من مائة صَفْعة، ثم قال: أخرِجاه إلى مَنْ بقيَ في الدار، وعمامتُه في عنقه، وقولا: هذا جزاء من يسعى بباطنة أمير المؤمنين وأوليائه! ففعلا ذلك؛ وتحدّثوا بخبره؛ ولم يعلم بحال الرجل أحد، ولا بما كان ألقى إلى الرشيد؛ حتى كان من أمر البرامكةما كان.

وذكر يعقوب بن إسحاق أنّ إبراهيم بن المهديّ حدثه. قال: أتيتُ جعفر بن يحيى في داره التي ابتناها، فقال لي: أمَا تعجب من منصور بن زياد؟ قال: قلت فبماذا؟ قال: سألتُه: هل ترى في داري عيباً؟ قال: نعم؛ ليس فيها لِبنة ولا صُنوبرة، قال إبراهيم: فقلت: الذي يعيبها عندي أنك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم، وهو شيء لا آمنه عليك غداً بين يدي أمير المؤمنين، قال: هو يعلم أنه قد وصلني بأكثر من ذلك وضعف ذلك، سوى ما عرّضني له. قال: قلت: إن العدوّ إنما يأتيه في هذا من جهة أن يقول: يا أميرَ المؤمنين، إذا أنفق على دار عشرين ألف ألف درهم، فأين نفقاته! وأين صِلاته! وأين النوائب التي تنوبه! وما ظنّك يا أمير المؤمنين بما وراء ذلك! وهذه جملة سريعة إلى القلب، والموقف على الحاصل منها صعب. قال: إن سمع منّي قلتُ: إن لأمير المؤمنين نعماً على قوم قد كفروها بالسّتر لها أو بإظهار القليل من كثيرها؛ وأنا رجلٌ نظرت إلى نعمته عندي، فوضعتها في رأس جبل، ثم قلت للناس: تعالَوْا فانظروا.

وذكر زيد بن عليّ بن حسين بن زيد أنّ إبراهيم بن المهديّ حدثه أن جعفر بن يحيى، قال له يوماً - وكان جعفر بن يحيى صاحبَه عند الرشيد، وهو الذي قرّبه منه: إني قد استربت بأمر هذا الرجل - يعني الرشيد - وقد ظننتُ أن ذلك لسابق سبق في نفسي منه، فأردتُ أن أعتبر ذلك بغيري، فكنت أنت؛ فارمق ذلك في يومك هذا، وأعلمني ما ترى منه. قال: ففعلتُ ذلك في يومي؛ فلما نهض الرّشيد من مجلسه كنتُ أوّل أصحابه نهض عنه، حتى صرت إلى شجرٍ في طريقي، فدخلتها ومَنْ معي، وأمرتهم بإطفاء الشمع، وأقبل الندماء يمُرّون بي واحداً واحداً، فأراهم ولا يروْني؛ حتى إذا لم يبق منهم أحد؛ إذا أنا بجعفر قد طلع، فلما جاوز الشجر قال: اخرج يا حبيبي، قال: فخرجت، فقال: ما عندك؟ فقلت: حتى تعلمني كيف علمتَ أني ها هنا؛ قال: عرفت عنايتَك بما أعني به، وأنك لم تكن لتنصرف أو تعلمني ما رأيت منه؛ وعلمتُ أنك تكره أن تُرَى واقفا في مثل هذا الوقت، وليس في طريقك موضع أستر من هذا الموضع، فقضيتُ بأنك فيه، قلت: نعم؛ قال: فهاتِ ما عندك، قلت: رأيت الرّجل يهزل إذا جدْدتَ، ويجدّ إذا هزلتَ. قال: كذا هو عندي، فانصرف يا حبيبي. قال: فانصرفت.

قال: وحدّثني عليّ بن سليمان أنه سمع جعفر بن يحيى يوماً يقول: ليس لدارنا هـذه عيب؛ إلا أن صاحبها فيها قليل البقاء - يعني نفسه.

وذكر عن موسى بن يحيى، قال: خرج أبي إلى الطّواف في السنة التي أصيب فيها، وأنا معه من بين ولده، فجعل يتعلّق بأستار الكعبة، ويردّد الدعاء، ويقول: اللهمّ ذنوبي جمّة عظيمة لا يحصيها غيرُك، ولا يعرفها سواك. اللهمّ إن كنت تعاقبني فاجعل عقوبتي في الدنيا؛ وإن أحاط ذلك بسمعي وبصري، ومالي وولدي، حتى تبلغ رضاك، ولا تجعل عقوبتي في الآخرة.

قال: وحدّثني أحمد بن الحسن بن حرب، قال: رأيتُ يحيى وقد قابل البيت، وتعلق بأستار الكعبة، وهو يقول: اللهمّ إن كان رضاك في أن تسلبَني نعمتك عندي فاسلبني، اللهمّ إن كان رضاك في أن تسلبَني أهلي وولدي فاسلبني؛ اللّهمّ إلا الفضل. قال: ثم ولّى ليمضي؛ فلما قرب من باب المسجد كرّ مسرعاً، ففعل مثْل ذلك، وجعل يقولُ: اللهمّ إنه سمِجٌ بمثلي أن يرغب إليك ثم يستثني عليك... اللهم والفضل. قال: فلما انصرفوا من الحجّ نزلوا الأنبار، ونزل الرشيد بالعُمْر ومعه وليّا العهد؛ الأمين والمأمون، ونزل الفضل مع الأمين، وجعفر مع المأمون، ويحيى في منزل خالد بن عيسى كاتبه، ومحمد بن يحيى في منزل ابن نوح صاحب الطّراز، ونزل محمد بن خالد مع المأمون بالعُمر مع الرشيد، قال: وخلا الرشيد بالفضل ليلاً، ثم خلع عليه وقلّده، وأمره أن ينصرف مع محمد الأمين، ودعا بموسى بن يحيى فرضِيَ عنه وكان غضب عليه بالحيرة في بدأته، لأن عليّ بن عيسى بن ماهان اتهمه عند الرشيد في أمر خُراسان وأعلمه طاعة أهلها له، ومحبّتهم إياه، وأنه يكاتبهم ويعمل على الانسلال إليهم والوثوب به معهم؛ فوقر ذلك في نفس الرّشيد عليه وأوحشه منه؛ وكان موسى أحد الفرسان الشجعان، فلما قدح عليّ بن عيسى فيه أسرع ذلك في الرّشيد، وعمل فيه القليل منه، ثم ركب موسى دَيْنٌ، واختفى من غرمائه، فتوهّم الرشيد أنه صار إلى خراسان؛ كما قيل له، فلما صار إلى الحيرة في هذه الحجّة وافاه موسى من بغداد، فحبسه الرشيد عند العباس بن موسى بالكوفة؛ فكان ذلك أول ثلمة ثُلموا بها؛ فركبت أمّ الفضل بن يحيى في أمره؛ ولم يكن يردّها في شيء، فقال: يضمنه أبوه فقد رُفع إليّ فيه، فضمنه يحيى ودفعه إليه، ثم رضي عنه، وخلع عليه، وكان الرشيد قد عتب على الفضل بن يحيى، وثقل مكانه عليه لتركه الشّرب معه؛ فكان الفضل يقول: لو علمتُ أن الماء ينقص من مروءتي ما شربته؛ وكان مشغوفاً بالسماع. قال: وكان جعفر يدخل في منادمة الرشيد؛ حتى كان أبوه ينهاه عن منادمته، ويأمره بترك الأنس به، فيترك أمرَ أبيه، ويدخل معه فيما يدعوه إليه.

وذكر عن سعيد بن هريم أنّ يحيى كتب إلى جعفر حين أعيتْه حيلته فيه: إني إنما أهملتك ليعثر الزّمان بك عثرة تعرف بها أمرك؛ وإن كنت لأخشى أن تكون التي لا شوَى لها. قال: وقد كان يحيى قال للرشيد: يا أمير المؤمنينَ، أنا والله أكره مداخلة جعفر معك، ولست آمن أن ترجع العاقبة في ذلك عليّ منك، فلو أعفيته واقتصرت به على ما يتولاّه من جسيم أعمالك، كان ذلك واقعاً بموافقتي، وآمن لك عليّ. قال الرّشيد: يا أبت ليس بك هذا؛ ولكنك إنما تريد أن تقدّم عليه الفضل.

وقد حدثني أحمد بن زهير - أحسِبه عن عمّه زاهر بن حرب - أنّ سبب هلاك جعفر والبرامكة أن الرّشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباسة بنت المهديّ، وكان يُحضرهما إذا جلس للشرب؛ وذلك بعد أن أعلم جعفراً قلّة صبره عنه وعنها، وقال لجعفر: أزوّجكُها ليحل لك النظر إليها إذا أحضرتها مجلسي، وتقدّم إليه ألا يمسَّها، ولا يكون منه شيء مما يكون للرجل إلى زوجته؛ فزوّجها منه على ذلك، فكان يُحضرهما مجلسه إذا

جلس للشرب، ثم يقوم عن مجلسه ويخليهما، فيثْمُلان من الشراب، وهما شابّان، فيقوم إليها جعفر فيجامعها، فحملت منه وولدت غلاماً، فخافت على نفسها من الرّشيد إن علم بذلك، فوَجّهت بالمولود مع حَواضِنَ له من مماليكها إلى مكّة، فلم يزل الأمر مستوراً عن هارون، حتى وقع بين عباسة وبين بعض جواريها شرّ، فأنهت أمرَها وأمر الصبيّ إلى الرشيد، وأخبرته بمكانه؛ ومع مَن هو من جواريها، وما معه من الحلْي الذي كانت زيّنته به أمه؛ فلما حجّ هارون هذه الحَجّة، أرسل إلى الموضع الذي كانت الجارية أخبرته أن الصبيّ به مَنْ يأتيه بالصبي وبِمَنْ معه من حواضنه، فلمّا أحضِروا سأل اللواتي معهنّ الصبيّ، فأخبرنَه بمثل القصة التي أخبرْته بها الرافعة على عبّاسة، فأراد ـ فيما زُعم ـ قتلَ الصبيّ، ثم تحوّب من ذلك.

وكان جعفر يتّخذ للرشيد طعاماً كلما حجّ بعُسفان فيقريه إذا انصرف شاخصاً من مكة إلى العراق؛ فلما كان في هذا العام، اتّخذ الطعام جعفر كما كان يتخذه هنالك، ثم استزاره فاعتلّ عليه الرشيد، ولم يحضر طعامه، ولم يزل جعفر معه حتى نزل منزله من الأنبار؛ فكان من أمره وأمر أبيه ما أنا ذاكره إن شاء الله تعالى.

ذكر الخبر عن مقتل جعفر

ذكر الفضل بن سليمان بن عليّ أن الرشيد حجّ في سنة ست وثمانين ومائة وأنه انصرف من مكة، فوافى الحِيرة في المحرّم من سنة سبع وثمانين ومائة عند انصرافه من الحجّ، فأقام في قصر عون العِبادىّ أياماً، ثم شخص في السّفن حتى نزل العُمْر الذي بناحية الأنبار، فلما كان ليلة السبت لانسلاخ المحرّم، أرسل مسروراً الخادم ومعه حمّاد بن سالم أبو عصمة في جماعة من الجند، فأطافوا بجعفر بن يحيى ليلاً، ودخل عليه مسرور وعنده ابن بختيشوع المتطبّب وأبو زكّار الأعمى المغنّي الكلوذانيّ، وهو في لهوه، فأخرجه إخراجاً عنيفاً يقوده، حتى أتى به المنزل الذي فيه الرّشيد، فحبسه وقيّده بقيد حمار، وأخبر الرشيد بأخذه إياه ومجيئه به، فأمر بضرب عنقه، ففعل ذلك.

وذكر عن عليّ بن أبي سعيد أن مسروراً الخادم، حدّثه قال: أرسلني الرشيد لآتيه بجعفر بن يحيى لمّا أراد قتله، فأتيته وعنده أبو زكّار الأعمى المغنّي وهو يغنّيه:

فـلا تَـبْعَـد فـكـلُّ فـتًـى سيـأْتـي ... عـلـيـه الـمـوتُ يَـطرُق أو يُـغـادِي

قال: فقلت له: يا أبا الفضل، الذي جئتُ له من ذلك قد والله طرقك، أجبْ أمير المؤمنين. قال: فرفع يديْه، ووقع على رجليّ يقبلهما، وقال: حتى أدخل فأوصي، قلت: أما الدّخول فلا سبيل إليه، ولكن أوْصِ بما شئت، فتقدّم في وصيّته بما أراد، وأعتق مماليكه، ثم أتتني رسلُ أمير المؤمنين تستحثّني به، قال: فمضيتُ به إليه فأعلمته، فقال لي وهو في فراشه: ائتني برأسه، فأتيت جعفراً فأخبرته، فقال: يا أبا هاشم، اللهَ اللهَ! والله ما أمرك بما أمرك به إلا وهو سكران؛ فدافعْ بأمري حتى أصبح أؤامِره فيّ ثانية، فعدت لأؤامره، فلما سمع حسّي، قال: يا ماصّ بَظْر أمّه، ائتني برأس جعفر! فعدتُ إلى جعفر، فأخبرته، فقال: عاوده في ثالثة، فأتيته، فحذفني بعمود ثم قال: نُفيت من المهديّ إن أنت جئتَني ولم تأتني برأسه، لأرسلنّ إليك مَنْ يأتيني برأسكَ أولا، ثم برأسه آخراً. قال: فخرجت فأتيته برأسه.

قال: وأمر الرشيد في تلك الليلة بتوجيه من أحاط بيحيى بن خالد وجميع ولده ومواليه، ومن كان منهم

بسبيل، فلم يفلت منهم أحد كان حاضراً، وحوّل الفضل بن يحيى ليلا فحُبس في ناحية من منازل الرّشيد، وحُبس يحيى بن خالد في منزله، وأخذ ما وجد لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك، ومنع أهل العكسر من أن يخرج منهم خارج إلى مدينة السلام أو إلى غيرها، ووجّه من ليلته رَجَاء الخادم إلى الرَّقة في قبض أموالهم وما كان لهم؛ وأخذ كل ما كان من رقيقهم ومواليهم وحشمهم، وولاه أمورهم، وفرّق الكتب من ليلته إلى جميع العمَّال في نواحي البلدان والأعمال بقبض أموالهم، وأخذ وكلائهم. فلمّا أصبح بعث بجُثَّة جعفر بن يحيى مع شعبة الخفتانيّ وهَرْثَمَة بن أعْيَنَ وإبراهيم بن حميد المَرْوَرُّوذيّ، وأتبعهم عدّةً من خدمه وثقاته؛ منهم مسرور الخادم إلى منزل جعفر بن يحيى، وإبراهيم بن حميد وحسين الخادم إلى منزل الفضل بن يحيى، ويحيى بن عبد الرحمن ورشيد الخادم إلى منزل يحيى ومحمد بن يحيى، وجعل معه هرثمة بن أعين، وأمر بقبض جميع ما لهم، وكتب إلى السنديّ الحرشيّ بتوجيه جيفة جعفر إلى مدينة السلام، ونصْب رأسه على الجسر الأوسط وقطْع جثّته، وصلْب كلّ قطعة منها على الجسر الأعلى والجسر الأسفل. ففعل السنديّ ذلك، وأمضى الخدم ما كانُوا وجّهوا فيه، وحمل عدة من أولاد الفضل وجعفر ومحمد الأصغار إلى الرّشيد، فأمر بإطلاقهم، وأمر بالنداء في جميع البرامكة: ألاّ أمان لمن آواهم إلا محمد بن خالد وولده وأهله وحشمه؛ فإنه استثناهم؛ لما ظهر من نصيحة محمد له، وعَرَفَ براءته ممَّا دخل فيه غيرُه من البرامكة. وخلّى سبيل يحيى قبل شخوصه من العُمْر، ووكَّل بالفضل ومحمد وموسى بني يحيى، وبأبي المهديّ صهرهم حَفظةً من قِبل هَرْثمة بن أعين، إلى أن وافَى بهم الرّقة، فأمر الرشيد بقتل أنس بن أبي شَيْخ يوم قدِم الرّقة، وتولَّى قتله إبراهيم بن عثمان بن نهيك، ثم صلب. وحُبِس يحيى بن خالد مع الفضل ومحمد في دَير القائم، وجعل عليهم حفظة من قِبل مسرور الخادم وهَرْثمة بن أعين، ولم يفرّق بينهم وبين عدّة من خدمهم، ولا ما يحتاجون إليه، وصيّر معهم زُبيدة بنت مُنير أمّ الفضل وَدنانير جارية يحيى وعدَّة من خَدَمهم وجواريهم. ولم تزل حالهم سهلة إلى أن سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح، فعمّهم بالتثقيف بسخطه، وجُدّد له ولهم التّهمة عند الرّشيد، فضيّق عليهم.

وذكر الزبير بن بكار أنّ جعفر بن الحسين اللِّهبِيّ حدثه أن الرشيد أُتِيَ بأنس بن أبي شيخ صبح الليلة التي قتل فيها جعفر بن يحيى، فدار بينه وبينه كلام، فأخرج الرشيد سيفاً من تحت فراشه، وأمر أن تضرَب عنقه، وجعل يتمثَّل ببيت قيل في قتل أنس قبل ذلك:

تَـلَمَّظَ السَّـيْفُ مـن شـوْق إلـى أنسٍ ... فَـالسيـف يَلحَظُ والأقـدارُ تَـنْـتَـظِرُ

قال: فضرب عنقَه، فسبق السيف الدم، فقال الرشيد: رحم الله عبد الله بن مصعب. وقال الناس: إن السيف كان سيف الزبير بن العوام.

وذكر بعضهم أن عبد الله بن مُصعب كان على خَبر الناس للرشيد، فكان أخبره عن أنس أنه على الزندقة، فقتله لذلك، وكان أحد أصحاب البرامكة.

وذكر محمد بن إسحاق أنّ جعفر بن محمد بن حكيم الكوفيّ، حدّثه قال: حدّثني السنديّ بن شاهك، قال: إني لجالسٌ يوماً، فإذا أنا بخادم قد قدم على البريد، ودفع إليَّ كتاباً صغيراً، ففضضته، فإذا كتاب الرشيد بخطه فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم: يا سنديّ، إذا نظرت في كتابي هذا، فإن كنت قاعداً فقم، وإن كنت قائماً فلا

تقعد حتى تصير إلي. قال السنديّ: فدعوت بدوابي، ومضيت. وكان الرشيد بالعُمر؛ فحدّثني العباس بن الفضل بن الربيع، قال: جلس الرّشيد في الزوّ في الفرات ينتظرك، وارتفعت غبْرةٌ، فقال لي: يا عباس، ينبغي أن يكون هذا السنديّ وأصحابه! قلت! يا أمير المؤمنين، ما أشبهه أن يكون هو. قال: فطلعت. قال: السنديّ: فنزلت عن دابتي، ووقفت، فأرسل إليّ الرشيد فصرت إليه، ووقفت ساعة بين يديه، فقال لمن كان عنده من الخدم: قوموا، فقاموا فلم يبقَ إلّا العباس بن الفضل وأنا، ومكث ساعة، ثم قال للعباس: اخرج ومُرْ التخاتج المطروحة على الزوّ، ففعل ذلك، فقال لي: ادنُ مني، فدنوت منه فقال لي: تدري فيمَ أرسلت إليك؟ قلت: لا والله يا أمير المؤمنين، قال: قد بعثت إليك في أمر لو علم به زرّ قميصي رميتُ به في الفرات، يا سنديّ مَنْ أوثق قوّادي عندي؟ قلت: هرثمة، قال: صدقت، فمن أوثق خدمي عندي؟ قلت: مسرور الكبير، قال: صدقت، امض من ساعتك هذه وجدّ في سيرك حتى توافي مدينةَ السلام، فاجمع ثقات أصحابك وأرباعك، ومُرهم أن يكونوا وأعوانهم على أهبة فإذا انقطعت الرِّجَل، فصرْ إلى دور البرامكة، فوكل بكلّ باب من أبوابهم صاحب ربع، ومرْه أن يمنع مَنْ يدخل ويخرج ـ خلا باب محمد بن خالد ـ حتى يأتيَك أمري. قال: ولم يكن حرّك البرامكة في ذلك الوقت. قال السنديّ: فجئت أركض، حتى أتيت مدينة السلام، فجمعت أصحابي، وفعلت ما أمرني به. قال: فلم ألبث أن أقدم عليّ هرثمة بن أعين، ومعه جعفر بن يحيى على بغلٍ بلا أكاف، مضروب العنق، وإذا كتاب أمير المؤمنين يأمرني أن أشطره باثنين؛ وأن أصلبه على ثلاثة جسور. قال: ففعلت ما أمرني به.

قال محمد بن إسحاق: فلم يزل جعفر مصلوباً حتى أراد الرشيد الخروج إلى خُراسان، فمضيت فنظرت إليه، فلما صار بالجانب الشرقيّ على باب خزيمة بن خازم، دعا بالوليد بن جُشم الشاري من الحبْس، وأمر أحمد بن الجنيد الخُتّليّ ـ وكان سيّافه ـ فضرب عنقه، ثم التفت إلى السنديّ، فقال: ينبغي أن يحرق هذا ـ يعني جعفراً ـ فلما مضى، جمع السنديّ له شوكاً وحطباً وأحرقه.

وقال محمد بن إسحاق: لما قتل الرّشيد جعفر بن يحيى، قيل ليحيى بن خالد: قتل أمير المؤمنين ابنَك جعفراً، قال: كذلك يُقتَل ابنُه، قال: فقيل له: خربت ديارك، قال: كذلك تُخرَب دورهم.

وذكر الكرمانيّ أن بشاراً التركيّ حدّثه أن الرشيد خرج إلى الصيد وهو بالعُمْر في اليوم الذي قتل جعفراً في آخره؛ فكان ذلك اليوم يوم جمعة، وجعفر بن يحيى معه، قد خلاَ به دون ولاة العهد؛ وهو يسير معه، وقد وضع يده على عاتقه؛ وقبل ذلك ما غلّفه بالغالية بيد نفسه؛ ولم يزل معه ما يفارقه حتى انصرف مع المغرب، فلما أراد الدخول ضمَّه إليه، وقال له: لولا أني على الجلوس الليلة مع النّساء لم أفارقك، فأقم أنت في منزلك، واشرب أيضاً واطرب، لتكون أنت في مثل حالي، فقال: لا والله ما أشتهي ذلك إلّا معك، فقال له: بحياتي لما شربت؛ فانصرف عنه إلى منزله؛ فلم تزل رُسل الرشيد عنده ساعة بعد ساعة تأتيه بالأنفال والأبخرة والرياحين؛ حتى ذهب الليل. ثم بعث إليه مسروراً فحبس عنده وأمر بقتله وحَبْس الفضل ومحمد وموسى، ووكّل سلاماً الأبرش بباب يحيى بن خالد، ولم يعرض لمحمد بن خالد ولا لأحدٍ من ولده وحشَمه.

قال: فحدثني العباس بن بزيع عن سلّام، قال: لمّا دخلت على يحيى في ذلك الوقت ـ وقد هُتكت الستور وجُمع المتاع ـ قال لي: يا أبا سلمة؛ هكذا تقوم الساعة! قال سلّام: فحدثت بذلك الرشيد بعدما

انصرفت إليه ؛ فأطرق مفكّراً .

قال وحدثني أيوب بن هارون بن سليمان بن عليّ ، قال : كان سكني إلى يحيى ، فلما نـزلوا الأنبـار خرجت إليه فأنا معه في تلك العشيَّة التي كان آخر أمره ، وقد صار إلى أمير المؤمنين في حَرّاقته ، فدخل إليه من باب صاحب الخاصّة ، فكلّمه في حوائج الناس وغيرها من إصلاح الثغور وغزو البحر ، ثم خرج ، فقال للناس : قد أمر أمير المؤمنين بقضاء حوائجكم ، وبعث إلى أبي صالح يحيى بن عبد الرحمن يأمره بإنفاذ ذلك ، ثم لم يزل يحدّثنا عن أبي مسلم وتوجيه معاذ بن مسلم حتى دخل منزله بعد المغرب ، ووافانا في وقت السَّحَر خبرُ مقتل جعفر وزوال أمرهم . قال : فكتبت إلى يحيى أعزّيه ، فكتب إليّ : أنا بقضاء الله راض ، وبالخيار منه عالم ، ولا يؤاخذ الله العباد إلا بذنوبهم ، وما ربك بظلام للعبيد . وما يعفو الله أكثر ، ولله الحمد .

قال : وقتل جعفر بن يحيى في ليلة السبت أول ليلة من صفر سنة سبع وثمانين ومائة وهو ابن سبع وثلاثين سنة ، وكانت الوزارة إليهم سبع عشرة سنة ـ وفي ذلك يقول الرّقاشيّ :

أيا سَبْتُ يا شـرَّ السُّبـوتِ صَبيحـةً ... ويـا صفَـرُ المَشؤومُ مـا جئتَ أشـأما

أتى السَّبْتُ بـالأمْـرِ الـذي هَـدَّ ركنَنا ... وفي صَفَـرٍ جـاءَ البـلاءُ مُصَـمّمـاً

قال : وذُكر عن مسرور أنه أعلم الرّشيد أن جعفراً سأله أن تقع عينه عليه ، فقال : لا ، لأنه يعلم إن وقعت عيني عليه لم أقتله .

قال : وفيهم يقول الرّقاشيّ ، وقد ذكر أن هذا الشعر لأبي نواس :

ألآنَ استـرحنا واستـراحت رِكـابُنـا ... وأمَسـكَ من يُجْدِي ومن كـان يَجْتَدِي

فَقُـلْ لِلمَـطَايـا قـد أمِنتِ من السُّـرَى ... وطَيِّ الفيـافي فَـدْفَـداً بعـدَ فَـدفَـدِ

وقُـلْ للمنَـايـا : قـد ظَفِـرتِ بجَعْفـرٍ ... ولـن تَـظفَـري من بعـدِه بمُسَـوَّدِ

وقُـلْ للعـطايـا بَعـدَ فضـلٍ تَعَـطلِي ... وقُـلْ للرزايـا كـلَّ يـومٍ تجَـدَّدي

ودُونَـكِ سيفـاً بـرمكيّـاً مُهَـنَّـداً ... أصيبَ بسيفٍ هـاشمـيٍّ مُهَـنَّـدِ

وفيهم يقول في شعر له طويل :

إن يغـدُرِ الـزَّمَنُ الخؤون بنـا فَقـدْ ... غَـدَرَ الـزَّمَـان بـجعفـرٍ ومُحَـمَّـدِ

حَـتَّى إذا وضـح الـنهـارُ تـكشَّـفَـتْ ... عن قتـلِ أكْـرَمِ هَـالـكٍ لم يُلحَـدِ

والـبِـيضُ لـوْلا أنَّـهَـا مـأمُـورةٌ ... مـا فُـلَّ حـدُّ مُـهَـنَّـدٍ بـمـهـنَّـد

يـا آلَ برمَـكَ كَمْ لكُمْ من نـائِـلٍ ... ونَـدىً ، كَعَـدِّ الـرَّمـلِ غيْـرَ مُصَـرَّدِ

إنَّ الخليفَـةَ ـ لا يُشَـكُّ ـ أخـوكُـمُ ... لـكـنَّـه فـي بـرمَـكٍ لـم يُـولَـدِ

نـازعـتـمـوه رضـاعَ أكـرمِ حُـرَّةٍ ... مخلـوقَـةٍ مـن جَـوْهـرٍ وزبـرجـدِ

مَـلِكٌ لـه كـانـت يـدٌ فَـيَّـاضَـةٌ ... أبـداً تَـجـودُ بـطـارفٍ وبـمُـتـلَدِ

كـانـت يـداً للجـودِ حـتى غـلَّهـا ... قَـدَرٌ فـأضحى الجـود مغلولَ اليـدِ

وفيهم يقول سيف بن إبراهيم :

هوَت أنجُمُ الجَدوَى وشَلَّت يدُ النَّدَى وغاضَت بُحورُ الجودِ بعدَ البرامِكِ
هوت أنجمٌ كانت لأبناءِ برمكٍ بها يعرِفُ الحادي طريقَ المسالِك

وقال ابن أبي كريمة :

كلُّ مُعيرٍ أُعيرَ مَرتَبَةً بعدَ فتى برمكٍ على غَرَرِ
صالَت عليه من الزمان يدٌ كان بها صائلاً على البَشَرِ

وقال العطويّ أبو عبد الرحمن :

أَمَا والله لولاَ قولُ واشٍ وعَينٌ للخليفة لا تنامُ
لطُفْنَا حَوْلَ جِذعكَ واستلَمْنا كما للنَّاس بالحَجرِ اسْتلامُ
علَى الدنيا وسَاكِنِها جميعاً وَدَوْلَةِ آل برمكٍ السَّلامُ

وفي قتل جعفر قال أبو العتاهية :

قُولاَ لمنْ يَرْتَجِي الحياةَ أمَا في جَعْفرٍ عِبرَةٌ وَيَحياهُ!
كانَا وَزيرَيْ خليفةِ الله ها رونَ هَمَا ما هما خليلاهُ
فذاكُم جعفرٌ برُمَّتِهِ في حالِقٍ رَأسُهُ ونصفاهُ
والشيخُ يحيى الوزيرُ أصبحَ قد نحَّاهُ عن نفْسِه وَأقصاهُ
شُتِّتَ بعدَ التجميعِ شملُهُمُ فأصْبَحُوا في البلادِ قد تاهُوا
كذاكَ مَن يُسْخِطِ الإلَهَ بما يُرضي به العبدَ يَجزِهِ اللّهُ
سبْحانَ من دانَتِ الملوكُ له أشهدُ أن لا إلهَ إلا هُو
طُوبَى لمن تابَ بعدَ غِرَّتِه فتابَ قبلَ المماتِ، طُوبَاهُ!

قال : وفي هذه السنة هاجت العصبيّة بدمشق بين المضريَّة واليمانية ، فوجَّه الرشيد محمد بن منصور بن زياد فأصلح بينهم .

وفيها زُلزلت المَصِّيصة فانهدم بعض سورها ، ونضب ماؤهم ساعة الليل .

وفيها خرج عبد السلام بآمِد ، فحكّم ، فقتله يحيى بن سعيد العُقَيْليّ .

وفيها مات يعقوب بن داود بالرَّقّة .

وفيها أغزى الرشيد ابنه القاسم الصائفة ، فوهبه لله ، وجعله قرباناً له ووسيلة ، وولاه العواصم .

وفيها غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح وحبسه .

ذكر الخبر عن سبب غضبه عليه وما أوجب حبسه :

ذكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل أنّ عبد الملك بن صالح كان له ابن يقال له عبد الرحمن ، كان من رجال الناس ، وكان عبد الملك يكنى به ، وكان لإبنه عبد الرحمن لسان ، على فأفأة فيه ، فنصب لأبيه

عبد الملك وقُمامة ، فسعيا به إلى الرشيد ، وقالا له : إنه يطلب الخلافة ويطمع فيها ، فأخذه وحبسه عند الفضل بن الربيع ؛ فذكر أن عبد الملك بن صالح أُدخل على الرشيد حين سخط عليه ، فقال له الرّشيد : أكفراً بالنعمة ، وجحوداً لجليل المنّة والتكرمة ! فقال : يا أميرَ المؤمنين ، لقد بؤتُ إذاً بالندم ، وتعرّضت لاستحلال النِّقم ؛ وما ذاك إلا بغيُ حاسد نافسني فيك مودّة القرابة وتقديم الولاية . إنّك يا أمير المؤمنين خليفة رسول الله ﷺ في أمته ، وأمينُه على عِترته ، لك فيها فرض الطاعة وأداء النصيحة ، ولها عليك العدْل في حكمها والتثبّت في حادثها ، والغفران لذنوبها . فقال له الرشيد : أتَضع لي من لسانك ، وترفع لي من جنانك ! هذا كاتبك قُمامة يخبر بغلّك ، وفساد نيتك ، فاسمع كلامه ، فقال عبد الملك : أعطاك ما ليس في عقده ؛ ولعله لا يقدر أن يعضهني ولا يبهتني بما لم يعرفه مني . وأحضِر قُمامة ، فقال له الرشيد : تكلّم غير هائب ولا خائف ، قال : أقول : إنه عازم على الغدْر بك والخلاف عليك ، فقال عبد الملك : أهو كذاك يا قمامة ! قال قمامة : نعم ، لقد أردتَ ختْل أمير المؤمنين ، فقال عبد الملك : كيف لا يكذِب عليّ من خلفي وهو يبهتني في وجهي ! فقال له الرّشيد : وهذا ابنك عبد الرحمن يخبرني بعتوّك وفساد نيّتك ، ولو أردت أن أحتجّ عليك بحجة لم أجد أعدل من هذين لك ، فبم تدفعهما عنك ؟ فقال عبد الملك بن صالح : هو مأمور ، أو عاقّ مجبور ، فإن كان مأموراً فمعذور ، وإن كان عاقاً ففاجر كفور ؛ أخبر الله عز وجل بعداوته ؛ وحذّر منه بقوله : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾[1] .

قال : فنهضَ الرشيد ، وهو يقول : أمّا أمرك فقد وَضح ؛ ولكني لا أعجِّل حتى أعلم الذي يُرضي الله فيك ؛ فإنه الحكم بيني وبينك . فقال عبد الملك : رضيتُ بالله حكَماً ، وبأمير المؤمنين حاكماً ؛ فإني أعلم أنه يُؤثر كتابَ الله على هواه ، وأمرَ الله على رضاه .

قال : فلما كان بعد ذلك جلس مجلساً آخر ، فسلّم لما دخل ، فلم يردّ عليه ، فقال عبد الملك : ليس هذا يوماً أحتجّ فيه ، ولا أجاذب منازعاً وخصماً . قال : ولِمَ؟ قال : لأنّ أوله جرى على غير السنّة ؛ فأنا أخاف آخره قال : وما ذاك؟ قال: لم تردّ عليّ السلام، أنصفْ نَصفة العوام. قال: السلام عليكم، اقتداء بالسنة، وإيثاراً للعدل، واستعمالاً للتحية. ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر، فقال وهو يخاطب بكلامه عبد الملك:

أريدُ حَياتَهُ ويُريدُ قتلي . . . البيت .

ثم قال : أما والله لكأني أنظُر إلى شؤبوبها قد همع ، وعارضها قد لمع ؛ وكأني بالوعيد قد أورى ناراً تَسْطع ، فأقلع عن براجم بلا معاصم ورؤوس بلا غلاصم ؛ فمهلاً ، فَبِي والله سهِّل لكم الوعْر ، وصفا لكم الكدر ، وألقت إليكم الأمورُ أثناء أزمَّتها ، فنذارِ لكم نذار ، قبل حلول داهية خبَوط باليد ، لبوط بالرجْل . فقال عبد الملك : اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاّك ، وفي رعيته التي استرعاك ؛ ولا تجعل الكفر مكان الشكر ، ولا العقاب موضع الثواب ، فقد نخلتُ لك النصيحة ، ومحضتُ لك الطاعة ، وشددت أواخِيَ ملكك بأثقل من رُكْنيْ يَلمْلَم ، وتركتُ عدوّك مشتغلاً . فاللّهَ اللّهَ في ذي رحِمك أن تقطَعه ، بعد أن بللتَه بظلّ أفصح الكتابُ لي بعضَهِ ، أو ببغي باغ ينهس اللحم ، ويالَغُ الدم ، فقد والله سهّلت لك الوعور ، وذلّلت لك

---

(١) سورة التغابن : ١٤ .

الأمور ، وجمعت على طاعتك القلوب في الصدور ؛ فكم من ليل تمام فيك كابدْتُه ، ومقام ضيّق قمته ؛ كنت كما قال أخو بني جعفر بن كلاب :

وَمَقامٍ ضَيِّقٍ فَرّجتُه ... بِبَناني وَلِساني وَجَدَلْ
لو يقومُ الفيلُ أو فَيّالُهُ ... زَلّ عن مِثلِ مقامي وزَحَلْ

قال : فقال له الرشيد : أما والله لولا الإبقاء على بني هاشم لضربت عنقك .

وذكر زيد بن عليّ بن الحسين العلويّ ، قال : لمّا حبس الرشيد عبد الملك بن صالح ، دخل عليه عبد الله بن مالك ـ وهو يومئذ على شُرطه ـ فقال : أفي إذن أنا فأتكلم ؟ قال : تكلم ، قال : لا ، والله العظيم يا أميرَ المؤمنين ، ما علمتُ عبدَ الملك إلا ناصحاً ، فعلام حبستَه ! قال : ويحك ! بلغني عنه ما أوحشني ولم آمنه أن يضرب بين ابنيَّ هذين ـ يعني الأمين والمأمون ـ فإن كنتَ ترى أن نطلِقه من الحبس أطلقناه . قال : أمّا إذْ حبستَه يا أميرَ المؤمنين ، فلست أرى في قرب المدة أن تطلقه ؛ ولكن أرى أن تحبسه محبساً كريماً يشبه محبس مثلِك مثلَه . قال : فإني أفعل . قال : فدعا الرّشيد الفضلَ بن الربيع ، فقال : امضِ إلى عبد الملك بن صالح إلى محبسه ، فقل له : انظر ما تحتاج إليه في محبسك فأمُرْ به حتى يقام لك ، فذكر قصته وما سأل .

قال : وقال الرّشيد يوماً لعبد الملك بن صالح في بعض ما كلَّمه : ما أنت لصالح ! قال : فلمن أنا ؟ قال : لمروان الجعديّ ، قال : ما أبالي أيّ الفحْلين غلب عليّ، فحبسه الرّشيد عند الفضل بن الربيع ؛ فلم يزل محبوساً حتى تُوُفّيَ الرّشيد ، فأطلقه محمد ، وعقد له على الشأم ، فكان مقيماً بالرّقة وجعل لمحمد عهد الله وميثاقه : لئن قتِل وهو حيّ لا يعطي المأمون طاعةً أبداً .. فمات قبل محمد ، فدُفن في دار من دور الإمارة ، فلما خرج المأمون يريد الروم أرسل إلى ابن له : حوّل أباك من داري ، فنُبشَتْ عظامه وحُوّلت . كان قال لمحمد : إن خفتَ فالجأ إليّ ، فوالله لأصوننك .

وذكر أن الرشيد بعث في بعض أيامه إلى يحيى بن خالد : إن عبدالملك بن صالح أراد الخروج ومنازعتي في الملك ، وقد علمتَ ذلك ، فأعلمني ما عندك فيه ، فإنك إن صدقتني أعدتُك إلى حالك ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما اطّلعت من عبد الملك على شيء من هذا ؛ ولو اطّلعت عليه لكنت صاحبه دونك ؛ لأن ملكك كان ملكي ؛ وسلطانك كان سلطاني ، والخير والشرّ كان فيه عليّ ولي ، فكيف يجوز لعبد الملك أن يطمَع في ذلك مني ! وهل كنتُ إذا فعلْتُ ذلك به يَفعل بي أكثر من فعلك ! أعيذك بالله أن تظنّ بي هذا الظنّ ، ولكنَّه كان رجلاً محتملاً ، يسرّني أن يكون في أهلك مثله ، فوليتَه ، لما أحمدت من مذهبه ، وملت إليه لأدبه واحتماله .
قال : فلما أتاه الرسول بهذا أعاد إليه ، فقال : إن أنت لم تقرّ عليه قتلتَ الفضل ابنك ، فقال له : أنت مسلّط علينا فافعل ما أردت ؛ على أنه إن كان من هذا الأمر شيء فالذنب فيه لي ، فبمَ يدخل الفضل في ذلك ! فقال الرسول للفضل : قم ؛ فإنه لا بدّ من إنفاذ أمر أمير المؤمنين فيكَ ؛ فلم يشكّ أنه قاتله ، فودّع أباه ، وقال له : ألستَ راضياً عني ؟ قال : بلى ، فرضي الله عنك . ففرّق بينهما ثلاثة أيام ؛ فلما لم يجد عنده من ذلك شيئاً جمعهما كما كانا .

وكان يأتيهم منه أغلظ رسائل ، لمّا كان أعداؤهم يقرِفونهم به عنده ، فلما أخذ مسرور بيد الفضل كما أعلمه ، بلغ من يحيى ، فأخرج ما في نفسه ، فقال له : قل له : يُقتَل ابنُك مثله . قال مسرور : فلما سكن

عن الرشيد الغضب ، قال : كيف قال ؟ فأعدت عليه القول ، قال : قد خفت والله قولَه ؛ لأنه قلَّما قال لي شيئاً إلا رأيتُ تأويله .

وقيل : بينما الرّشيد يسير وفي موكبه عبد الملك بن صالح ، إذ هتف به هاتف وهو يُساير عبد الملك ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، طأطىء من إشرافه وقصِّر من عنانه ، واشدُدْ من شكائمه ؛ وإلّا أفسد عليك ناحيته . فالتفت إلى عبد الملك ، فقال : ما يقول هذا يا عبد الملك ؟ فقال عبد الملك : مقال باغ ودسيس حاسد ؛ فقال له هارون : صدقت ، نَقَصَ القوم ففضلتَهم ، وتَخَلَّفُوا وتقدّمتَهم ؛ حتى برز شأوك فقصّر عنه غيرُكَ ؛ ففي صدورهم جمَرات التخلّف وحزازات النقص . فقال عبد الملك : لا أطفأها الله وأضرمها عليهم حتى تورثهم كمداً دائماً أبداً .

وقال الرشيد لعبد الملك بن صالح وقد مرّ بمنبج ، وبها مستقرّ عبد الملك : هذا منزلك ؟ قال : هو لك يا أمير المؤمنين ، ولي بك ، قال : كيف هو ؟ قال : دون بناء أهلي وفوق منازل منْبج ، قال : فكيف ليلها ؟ قال : سَحَرٌ كله .

وفي هذه السنة دخل القاسم بن الرشيد أرضَ الروم في شعبان ، فأناخ على قُرّة وحاصرها ، ووجّه العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث ، فأناخ على حصن سنان حتى جهدوا ، فبعثت إليه الروم تبذُل له ثلاثمائة وعشرين رجلاً من أسارى المسلمين ، على أن يرحل عنهم ؛ فأجابهم إلى ذلك ؛ ورحَل عن قرّة وحصْن سنان صلحاً .

ومات عليّ بن عيسى بن موسى في هذه الغزاة بأرض الروم ، وهو مع القاسم .

وفي هذه السنة نقضَ صاحب الرّوم الصّلح الذي كان جرى بين الذي قبله وبين المسلمين ، ومنع ما كان ضمنه الملك لهم قبله .

ذكر الخبر عن سبب نقضهم ذلك :

وكان سبب ذلك أن الصلح كان جرى بين المسلمين وصاحب الروم وصاحبتهم يومئذ ريني - وقد ذكرنا قبل سبب الصلح الذي كان بين المسلمين وبينها - فعادت الرّوم على ريني فخلعتْها ، وملّكت عليها نقفور . والروم تذكر أن نقفور هذا من أولاد جَفْنة من غسان، وأنه قبل الملك كان يلي ديوان الخراج ، ثم ماتت رِينيَ بعد خمسة أشهر من خلع الروم إياها ، فذكر أن نقفور لما ملك واستوسقت له الرّوم بالطاعة ، كتب إلى الرشيد :

من نقفور ملك الروم ، إلى هارون ملك العرب ، أما بعد ؛ فإن الملكة التي كانت قبلي ؛ أقامتك مقام الرّخّ ، وأقامت نفسها مقام البَيْدق ، فحملتْ إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها ، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهنّ ، فإذا قرأت كتابي فارددْ ما حصل قِبَلك من أموالها ، وافتدِ نفسك بما يقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك .

قال : فلما قرأ الرّشيد الكتاب ، استفزّه الغضب حتى لم يمكن أحداً أن ينظر إليه دون أن يخاطبَه ؛ وتفرّق جلساؤه خوفاً من زيادة قول أو فعل يكون منهم ؛ واستعجم الرأي على الوزير من أن يشير عليه أو يتركه يستبدّ برأيه دونَه ، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم . من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ؛ قد قرأت كتابك يابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون أن تسمعه . والسلام .

ثم شخص من يومه ، وسار حتى أناخ بباب هِرَقْلَة ، ففتح وغنِم ، واصطفى وأفاد ، وخرّب وحرّق ، واصطلم . فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤدّيه في كلّ سنة ، فأجابه إلى ذلك ، فلما رجع من غزوته ، وصار بالرّقة نقض نقفور العهد ، وخان الميثاق . وكان البرد شديداً ، فيئس نقفور من رَجعته إليه ، وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه ، فما تهيأ لأحد إخباره بذلك إشفاقاً عليه وعلى أنفسهم من الكرّة في مثل تلك الأيام ، فاحتيل له بشاعر من أهل جُدّة يكنى أبا محمد عبد الله بن يوسف - ويقال : هو الحجاج بن يوسف التيميّ ، فقال :

نَقَضَ الذي أعْطَيْتَهُ نِقْفُورُ ... وعليْهِ دائرةُ الْبَوارِ تَدورُ
أَبْشِرْ أميرَ المؤمنين فإنه ... غُنْمٌ أتاكَ بِهِ الإلهُ كبيرُ
فلقَدْ تَباشَرَتِ الرَّعيَّةُ أنْ أتى ... بالنَّقْضِ عَنْهُ وافِدٌ وَبشيرُ
وَرَجَتْ يمينَكَ أنْ تعجِّلَ غَزوَةً ... تشفي النفوسَ مكانُها مَذْكورُ
أعْطاكَ جِزْيَتَهُ وطأْطأ خَدَّهُ ... حَذَرَ الصَّوارمِ والرَّدَى مَحْذورُ
فأجرْتَه مِن وَقْعِها وكأنَّها ... بأكفِّنا شُعَلُ الضِّرامِ تَطِيرُ
وَصَرَفْتَ بالطُّولِ العساكِرِ قافِلا ... عنْهُ وَجارُك آمِنٌ مَسْرورُ
نِقْفُورُ إنَّك حينَ تَغْدِرُ إنْ نأى ... عنكَ الإمامُ لَجَاهِلٌ مَغْرُورُ
أظننْتَ حين غَدَرْتَ أنكَ مُفْلِتٌ ... هبلَتْكَ أمكَ ما ظنَنْتَ غُرورا!
ألقاكَ حَيْنُكَ في زواجِرِ بَحْرِه ... فَطَمَتْ عليكَ مِنَ الإمامِ بُحورُ
إنَّ الإمامَ على اقْتِسارِكَ قادِرٌ ... قَرُبَتْ دِيارُكَ أمْ نأَتْ بِكَ دُورُ
ليسَ الإمام وَإنْ غَفَلنا غافِلا ... عمَّا يَسوسُ بِحَزْمِهِ ويُدِيرُ
مَلِكٌ تجَرَّد للجِهَادِ بِنَفسِهِ ... فَعَدُوُّهُ أبَداً بِهِ مَقْهورُ
لا نصح ينفع من يغشّ إمامه ... والنصح من نصحائه مشكور
يا مَنْ يُرِيدُ رضا الإلهِ بسَعْيِه ... والله لا يَخفَى عليْهِ ضَميرُ
نُصْحُ الإمامِ على الأنامِ فَرِضَةٌ ... وَلأهلِها كَفَّارَةٌ وَطَهورُ

وفي ذلك يقول إسماعيل بن القاسم أبو العتاهية :

إمامَ الهُدَى أصْبَحْتَ بالدِّينِ مَعْنِيًّا ... وأصبحتَ تسْقِي كلَّ مُسْتمطِرٍ رِيًّا
لك اسْمانِ شُقَّا مِنْ رَشادٍ وَمِنْ هُدًى ... فأنْتَ الذي تدعى رَشيداً ومَهْدِيًّا
إذا ما سَخِطْتَ الشَّيءَ كانَ مُسَخَّطاً ... وإنْ تَرْضَ شيئاً كانَ في الناس مَرْضِيّا
بَسَطتَ لنا شَرْقاً وَغَرْباً يَدَ العُلا ... فأوْسَعْتَ شَرقِيًّا وَأوْسعْتَ غَرْبِيًّا
ووشَّيتَ وجْه الأرضِ بالجُودِ والنَّدَى ... فأصبح وَجْهُ الأرضِ بالجودِ مَوْشيًّا
قَضَى اللهُ أنْ يَصْفُو لهارونَ مُلكُهُ ... وَكانَ قَضاءُ اللهِ في الخَلقِ مَقضِيًّا
تحَلَّبَتِ الدنيا لهارونَ بالرِّضا ... فأصْبَحَ نِقْفُورٌ لهارونَ ذِمّيًّا

وقال التيميّ:

لَجَّتْ بِنَقْفُورَ أسبابُ الرَّدَى عَبَثًا ... لمَّا رَأَتْهُ بِغِيلِ الليثِ قَدْ عَبِثا
ومَنْ يَزُرْ غِيلَهُ لا يَخْلُ مِنْ فَزَعٍ ... إنْ فاتَ أنيابَهُ والمِخْلَبَ الشَّبِثا
خانَ العُهودَ وَمَنْ يَنكُثْ بها فعَلَى ... حَوْبائِهِ، لا على أعدائِهِ نكثا
كانَ الإمامُ الذي تُرْجَى فواضِلهُ ... أذاقَهُ ثمرَ الحِلْمِ الذي وَرِثا
فرَدَّ أُلفَتَهُ مِنْ بَعدِ أنْ عَطَفتْ ... أزواجُهُ مَرِهاً يَبْكينَهُ شعِثا

فلما فرغ من إنشاده، قال: أوَ قد فعل نقفور ذلك، وعلم أن الوزراء قد احتالوا له في ذلك، فكرّ راجعاً في أشدّ محنة وأغلظ كلفة، حتى أناخ بفنائه، فلم يبرح حتى رضي وبلغ ما أراد، فقال أبو العتاهية:

ألا نادَتْ هِرَقلَةُ بالخَرابِ ... مِنَ المَلِكِ المُوَفَّقِ بالصوابِ
غدا هارونُ يَرْعُدُ بالمنايا ... ويَبْرُقُ بالمُذَكَّرَةِ القِضابِ
وَرَاياتٍ يَحِلّ النَّصْرُ فيها ... تَمُرّ كأنَّها قِطَعُ السَّحابِ
أميرَ المؤمنينَ ظفِرتَ فاسلَمْ ... وأبشِرْ بالغنيمَةِ وَالإيابِ

وفيها قُتل - في قول الواقديّ - إبراهيم بنُ عثمان بن نَهيك. وأما غير الواقديّ؛ فإنه قال: في سنة ثمان وثمانين ومائة.

ذكر الخبر عن سبب مقتله:

ذُكر عن صالح الأعمى - وكان في ناحية إبراهيم بن عثمان بن نَهيك - قال: كان إبراهيم بن عثمان كثيراً ما يذكر جعفر بن يحيى والبرامكة، فيبكي جزعاً، عليهم، وحبًّا لهم، إلى أن خَرج من حدّ البكاء، ودخل في باب طالبي الثأر والإحَن، فكان إذا خلا بجواريه وشرب وقويَ عليه النبيذ، قال: يا غلام، سيفي ذا المنيّة - وكان قد سمى سيفه ذا المنيَّة - فيجيئه غلامه بالسيف فينتضيه، ثم يقول: واجعفراه! واسيّداه! والله لأقتلنّ قاتلك، ولأثأرنّ بدمك عن قليل! فلما كثر هذا من فعله، جاء ابنه عُثمان إلى الفضل بن الربيع، فأخبره بقوله، فدخل الفضل فأخبر الرشيد، فقال: أدخله، فدخل، فقال: ما الذي قال الفضل عنك؟ فأخبره بقول أبيه وفعله، فقال الرشيد: فهل سمع هذا أحدٌ معك؟ قال: نعم خادمه نوال، فدعا خادمه سرًّا فسأله، فقال: لقد قال ذاك غير مرّة ولا مرتينْ، فقال الرّشيد: ما يحلّ لي أن أقتل وليًّا من أوليائي بقول غلام وخَصيّ، لعلهما تواصَيا على هذه المنافسة؛ الابن على المرتبة، ومعاداة الخادم لطول الصحبة، فترك ذلك أياماً، ثم أراد أن يمتحن إبراهيم بن عثمان بمحنة تُزيل الشكّ عن قلبه، والخاطر عن وهمه، فدعا الفضلَ بن الربيع، فقال: إني أريد محنةَ إبراهيم بن عثمان فيما رفع ابنه عليه؛ فإذا رُفع الطعام فادع بالشراب، وقل له: أجب أميرَ المؤمنين فينادمك؛ إذْ كنت منه بالمحلّ الذي أنت به، فإذا شرب فاخرج وخلِّني وإياه، ففعل ذلك الفضل بن الربيع؛ وقعد إبراهيم للشراب، ثم وثب حين وثب الفضل بن الربيع للقيام، فقال له الرشيد: مكانك يا إبراهيم، فقعد، فلما طابت نفسه، أومأ الرّشيد إلى الغلمان فتنحّوْا عنه، ثم قال: يا إبراهيم، كيف أنت وموضع السرّ منك؟ قال: يا سيّدي إنما أنا كأخصّ عبيدك، وأطوع خدمك؛ قال: إنّ في نفسي أمراً أريد أن أودعَكه، وقد ضاق صدري به، وأسهرتُ به ليلي، قال: يا سيدي إذاً لا يرجع عني إليك أبداً، وأخفيه عن جنبي أن يَعلمه،

ونفسي أن تذيعه. قال: ويحك! إني ندمت على قتل جعفر بن يحيى ندامةً ما أحسِن أن أصفَها؛ فوددت أني خرجت من مُلْكِي وأنه كان بقي لي؛ فما وجدت طعم النوم منذ فارقتُه، ولا لذّة العيش منذ قتلته! قال: فلما سمعها إبراهيم أسبل دمعه، وأذرى عبرته، وقال: رحم الله أبا الفضل، وتجاوز عنه! والله يا سيـدي لقد أخطأتَ في قتله، وأوطِئت العَشْوة في أمره! وأين يوجد في الدنيا مثله! وقد كان منقطع القرين في الناس أجمعين ديناً. فقال الرشيد: قم عليك لعنة الله يا بن اللخناء! فقام ما يعقل ما يطأ، فانصرف إلى أمه، فقال: يا أمّ، ذهبت والله نفسي، قالت: كلاّ إن شاء الله، وما ذاك يا بنيّ؟ قال: ذاك أنّ الرشيد امتحنني بمحنة والله؛ ولو كان لي ألف نفس لم أنجُ بواحدة منها. فما كان بين هذا وبين أن دخل عليه ابنه ـ فضربه بسيفه حتى مات ـ إلا ليالٍ قلائل.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبيد الله بن العباس بن محمد بن عليّ.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك غَزْو إبراهيم بن جبريل الصّائفَة، ودخوله أرضَ الروم من درب الصَّفْصاف، فخرج للقائه نِقْفور، فورَدَ عليه من ورائه أمرٌ صرفه عن لقائه، فانصرف، ومرّ بقوم من المسلمين، فجرح ثلاث جراحات، وانهزم. وقتِل من الرّوم - فيما ذكر - أربعون ألفاً وسبعمائة، وأخذ أربعة آلاف دابة.

وفيها رابط القاسم بن الرشيد بدَابِق.

وحجّ بالناس فيها الرشيد، فجعل طريقه على المدينة، فأعطى أهلها نصف العطاء؛ وهذه الحجّة هي آخر حَجّة حجّها الرشيد؛ فيما زعم الواقديّ وغيره.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من شخوص هارون الرشيد أمير المؤمنين فيها إلى الرّيّ.

ذكر الخبر عن سبب شخوصه إليها وما أحدث في خرجته تلك في سفره:

ذُكر أنّ الرشيد كان استشار يحيى بن خالد في تولية خُراسان عليّ بن عيسى بن ماهان، فأشار عليه ألاّ يفعل، فخالفه الرّشيد في أمره، وولاّه إياها، فلما شَخَص عليّ بن عيسى إليها ظلم الناس، وعَسر عليهم، وجمع مالا جليلا، ووجّه إلى هارون منها هدايا لم يُرَ مثلها قطّ من الخيل والرقيق والثياب والمسك والأموال، فقعد هارون بالشّماسيّة على دكان مرتفع حين وصل ما بعث به عليّ إليه، وأحضرت تلك الهدايا فعرضت عليه، فعظمت في عينه، وجلّ عنده قدرُها، وإلى جانبه يحيى بن خالد، فقال له: يا أبا عليّ؛ هذا الذي أشرْتَ علينا ألا نولّيه هذا الثغر، فقد خالفناك فيه، فكان في خلافك البركة ـ وهو كالمازح معه إذ ذاك ـ فقد ترى ما أنتج رأينا فيه، وما كان من رأيك! فقال: يا أميرَ المؤمنين، جعلني الله فداك! أنا وإن كنت أحبّ أن أصيب في رأيي وأوفّق في مشورتي، فأنا أحبّ من ذلك أن يكون رأى أمير المؤمنين أعْلى، وفراسته أثقب، وعلمه أكثر من علمي، ومعرفته فوق معرفتي؛ وما أحسن هذا وأكثره إن لم يكن وراءه ما يكره أمير المؤمنين، وما أسأل الله أن يعيذه ويُعفيه من سوء عاقبته ونتائج مكروهه، قال: وما ذاك؟ فأعلمه، قال: ذاك أني أحسب أنّ هذه الهدايا ما اجتمعتْ له حتى ظلم فيها الأشراف، أخذ أكثرها ظلماً وتعدّياً؛ ولو أمرني أمير المؤمنين لأتيته بضعفها الساعة من بعض تجار الكرْخ، قال: وكيف ذاك؟ قال: قد ساومْنا عوناً على السّفَط الذي جاءنا به من الجوْهر، وأعطيناه به سبعة آلاف ألف، فأبى أن يبيعه، فأبعثُ إليه الساعة بحاجتي فآمره أن يردّه إلينا؛ لنعيد فيه نظرنا؛ فإذا جاء به جَحدْناه، وربحنا سبعة آلاف ألف، ثم كنا نفعل بتاجرين من كبار التجار مثل ذلك. وعلى أنّ هذا أسلمُ عاقبة، وأستر أمراً من فعل عليّ بن عيسى في هذه الهدايا بأصحابها، فأجمعُ لأمير المؤمنين في ثلاث ساعات أكثرَ من قيمة هذه الهدايا بأهْون سعي، وأيسر أمر، وأجمل جباية؛ ممّا جمع عليّ في ثلاث سنين.

فوقرت في نفس الرشيد وحفظها، وأمسك عن ذكر عليّ بن عيسى عنده، فلما عاث عليّ بن عيسى بخُراسان ووتر أشرافها، وأخذ أموالهم، واستخفّ برجالهم، كتب رجال من كبارئها ووجوهها إلى الرشيد، وكتبتْ جماعة من كورها إلى قَراباتها وأصحابها، تشكو سوءَ سيرته، وخبْث طعمته، ورداءة مذهبه، وتسأل أميرَ المؤمنين أن يبدّلها به من أحبّ من كفاته وأنصاره وأبناء دولته وقوّاده. فدعا يحيى بن خالد، فشاوره في أمر عليّ بن عيسى وفي صرفه، وقال له: أشر عليّ برجل ترضاه لذلك الثغر يُصلِح ما أفسد الفاسق، ويرتق ما فتق

فأشار عليه بيزيد بن مَزْيد، فلم يقبل مشورته.

وكان قيل للرشيد: إن عليّ بن عيسى قد أجمع على خلافِك، فشخص إلى الريّ من أجل ذلك، منصرفَه من مكة، فعسكر بالنّهروان لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى، ومعه ابناه عبد الله المأمون والقاسم، ثم سار إلى الرّيّ، فلما صار بقَرْمَاسِين أشخص إليه جماعة من القُضاة وغيرهم، وأشهدهم أنّ جميع ما له في عسكره ذلك من الأموال والخزائن والسلاح والكُراع وما سوى ذلك لعبد الله المأمون، وأنه ليس له فيه قليل ولا كثير. وجدّد البيعة له على مَنْ كان معه، ووجّه هَرْثمة بن أعينَ صاحب حرسه إلى بغداد، فأعاد أخذَ البَيْعة على محمد بن هارون الرشيد وعلى مَنْ بحضرته لعبد الله والقاسم، وجعل أمر القاسم في خلعه وإقراره إلى عبد الله؛ إذا أفضت الخلافة إليه. ثم مضى الرشيد عند انصراف هرثمة إليه إلى الريّ، فأقام بها نحواً من أربعة أشهر؛ حتى قدم عليه عليّ بن عيسى من خراسان بالأموال والهدايا والطُّرف، من المتاع والمسك والجوهر وآنية الذهب والفضة والسلاح والدوابّ، وأهدى بعد ذلك إلى جميع مَنْ كان معه من ولده وأهل بيته وكتابه وخَدمه وقوّاده على قَدْر طبقاتهم ومراتبهم، ورأى منه خلاف ما كان ظنّ به وغير ما كان يقال فيه. فرضي عنه، وردّه إلى خراسان، وخرج وهو مشيِّع له؛ فذُكِر أن البيعة أخذت للمأمون والقاسم بولاية العهد بعد أخويْه محمد وعبد الله، وسُمِّيَ المؤتمن حينَ وجّه هارون هرثمة لذلك بمدينة السلام يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلتْ من رجب من هذه السنة، فقال الحسن بن هانىء في ذلك:

تبارَكَ مَنْ ساسَ الأمورَ بِعِلْمِهِ ... وفَضّلَ هاروناً على الخُلفاءِ
نزالُ بخَيْرٍ ما انطَوَيْنا على التُّقى ... ومَا سَاسَ دنيانا أبو الأُمناءِ

وفي هذه السنة - حين صار الرّشيد إلى الريّ - بعث حسيناً الخادم إلى طَبَرستان، فكتب له ثلاثة كتب؛ من ذلك كتاب فيه أمان لشَرْوين أبي قارن، والآخر فيه أمان لونْداهرمز، جدّ مازيار، والثالث فيه أمان لمرزبان بن جستان، صاحب الدَّيْلم. فقدِم عليه صاحبُ الدَّيْلم، فوهب له وكساه وردّه. وقدم عليه سعيد الحَرَشيّ بأربعمائة بطل من طبرستان، فأسلموا على يد الرشيد، وقدم ونداهرمز، وقبل الأمان، وضمن السمع والطاعة وأداء الخراج، وضمن على شَرْوين مثل ذلك؛ فقبل ذلك منه الرشيد وصرفه، ووجّه معه هرثمة فأخذ ابنه وابن شَرْوين رهينة. وقدم عليه الرَّيّ أيضاً خزيمة بن خازم، وكان والي إرمينيَة، فأهدى هدايا كثيرة.

وفي هذه السنة ولّى هارون عبد الله بن مالِك طبرستان والريّ والرُّويان ودُنْباوند وقُومِس وهَمَذان. وقال أبو العتاهية في خَرْجة هارون هذه - وكان هارون وُلِد بالريّ:

إنَّ أَمينَ اللّهِ في خلْقِهِ ... حَنَّ به البِرُّ إلى مَوْلِدهْ
ليُصْلحَ الرَّيَّ وأقطارَها ... ويُمطِرَ الخيْرَ بهَا مِنْ يَدِهْ

وولّى هارون في طريقه محمد بن الجنيد الطريقَ ما بين هَمَذان والريّ، وولّى عيسى بن جعفر بن سليمان عُمَان، فقطع البحر من ناحية جزيرة ابن كاوان، فافتتح حصناً بها وحاصر آخر، فهجم عليه ابن مخلد الأزديّ وهو غارٌّ، فأسره وحمَله إلى عُمان في ذي الحجة، وانصرف الرَّشيد بعد ارتحال عليّ بن عيسى إلى خُراسان عن الرّيّ بأيام، فأدركه الأضحى بقصر اللُّصوص فضحّى بها، ودخل مدينة السلام يوم الأثنين، لليلتين بقيتا من

ذي الحجّة، فلما مرّ بالجسر أمر بإحراق جُثّة جعفر بن يحيى، وطوى بغداد ولم ينزلها، ومضى من فَوْره متوجّهاً إلى الرّقة، فنزل السَّيْلحين.

وذُكِر عن بعض قوّاد الرشيد أنّ الرشيد قال لما ورد بغداد: والله إنّي لأطوِي مدينةً ما وُضِعَتْ بشرق ولا غرب مدينة أيمن ولا أيسر منها؛ وإنها لوطني ووطن آبائي، ودار مملكة بني العباس ما بقُوا وحافظوا عليها؛ وما رأى أحدٌ من آبائي سوءاً ولا نكبة منها، ولا سيء بها أحد منهم قطّ، ولنعم الدّار هي! ولكنّي أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق والبغض لأئمة الهدى والحبّ لشجرة اللعنة - بني أمية - مع ما فيها من المارقة والمتلصّصة ومخيفي السبيل؛ ولولا ذلك ما فارقتُ بغداد ما حييت ولا خرجت عنها أبداً.

وقال العباس بن الأحنف في طيّ الرشيد بغداد:

ما أنخنا حتى ارْتَحَلنا فما نَفْـ ـرِقُ بيْنَ المناخ والارْتحالِ
ساءَلونَا عن حالِنا إذْ قَدِمْنَا فَقَرنَّا وَدَاعَهُمْ بالسؤال

وفي هذه السنة كان الفداء بين المسلمين والرّوم، فلم يبق بأرض الروم مسلم إلا فودي به - فيما ذكر - فقال مروان بن أبي حفصة في ذلك:

وفُكّتْ بِكَ الأسرَى التي شُيّدَتْ لها محابِسُ ما فيها حَمِيمٌ يَزورُها
على حِين أعيَا المسلمينَ فِكاكُها وقالوا: سُجُونُ المُشرِكينَ قبورُها

ورابطَ فيها القاسم بدَابِق.

وحجّ بالناس فيها العبَّاس بن موسى بن عيسى بن موسى.

ثم دخلت سنة تسعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمنْ ذلك ما كان من ظهور رافع بن ليث بن نصر بن سيّار بسَمرْقَند، مخالفاً لهارون وخلعه إياه، ونزعه يده من طاعته.

ذكر الخبر عن سبب ذلك:

وكان سبب ذلك ـ فيما ذُكر لنا ـ أنّ يحيى بن الأشعث بن يحيى الطائيّ تزوّج ابنة لعمّه أبي النعمان، وكانت ذاتَ يسار، فأقام بمدينة السلام، وتركها بسَمَرْقَنْد، فلما طال مقامه بها، وبلغها أنه قد اتخذ أمهاتِ أولاد، التمست سبباً للتخلص منه، فعيّ عليها، وبلغ رافعاً خبرُها، فطمع فيها وفي مالها، فدسّ إليها مَنْ قال لها: إنه لا سبيلَ لها إلى التخلص من صاحبها؛ إلا أن تشرك بالله، وتحضر لذلك قوماً عدولا، وتكشف شعرَها بين أيديهم، ثم تتوبُ فتحلّ للأزواج؛ ففعلت ذلك وتزوّجها رافع. وبلغ الخبر يحيى بن الأشعث، فرُفع ذلك إلى الرّشيد، فكتب إلى عليّ بن عيسى يأمره أن يفرّق بينهما، وأن يعاقب رافعاً ويجلده الحدّ، ويقيّده ويطوف به في مدينة سَمَرْقند مقيَّداً على حمار؛ حتى يكون عظةً لغيره. فدرأ سليمان بن حميد الأزديّ عنه الحدّ، وحملَه على حمار مقيّداً حتى طلقها، ثم حبسه في سجن سَمرْقنْد، فهرب من الحبْس ليلاً من عند حُميد بن المسيح، وهو يومئذ على شُرَط سَمَرْقند ـ فلحق بعليّ بن عيسى ببلْخ، فطلب الأمان فلم يجبه عليّ إليه، وهمّ بضرب عُنقه، فكلّمه فيه ابنه عيسى بن عليّ، وجدّد طلاق المرأة، وأذن له في الانصراف إلى سَمَرْقند، فانصرف إليها، فوثب بسليمان بن حميد؛ عامل عليّ بن عيسى فقتله. فوجّه عليّ بن عيسى إليه ابنه، فمال الناس إلى سباع بن مسعدة، فرأّسوه عليهم، فوثب على رافع فقيّده، فوثبوا على سباع، فقيّدُوه ورأسوا رافعاً وبايعوه، وطابَقه مَنْ وراء النهر، وافاه عيسى بن عليّ، فلقيه رافع فهزمه، فأخذ عليّ بن عيسى في فَرْض الرجال والتأهب للحرب.

وفي هذه السنة غزا الرشيد الصائفة، واستخلف ابنه عبد الله المأمون بالرقة وفوّض إليه الأمور، وكتب إلى الآفاق بالسّمْع له والطاعة، ودفع إليه خاتم المنصور يتيمّن به؛ وهو خاتم الخاصّة، نقشه: «الله ثقتي آمنت به».

وفيها أسلم الفضل بن سهل على يدِ المأمون.

وفيها خرجت الروم إلى عين زَرْبة وكنيسة السّوْداء، فأغارت وأسرت، فاستنقذ أهل المصِّيصة ما كان في أيديهم.

وفيها فتح الرشيد هرقلة، وبثّ الجيوش والسرايا بأرض الروم؛ وكان دخلها - فيما قيل - في مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرتزق؛ سوى الأتباع وسوى المطوّعة وسوى من لا ديوان له، وأناخ عبد الله بن مالك على ذي الكلاع ووجّه داود بن عيسى بن موسى سائحاً في أرض الروم في سبعين ألفاً، وافتتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودَبْسة، وافتتح يزيد بن مخلد الصَّفْصاف وملَقوبية - وكان فتح الرشيد هرقلة في شوّال - وأخربها وسبى أهلها بعد مقام ثلاثين يوماً عليها، وولّى حُمَيد بن مَعيوف سواحل بحر الشأم إلى مِصْر، فبلغ حُميد قُبْرُس، فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفاً، فأقدمهم الرّافقة، فتولّى بيعهم أبو البختريّ القاضي، فبلغ أسقفّ قُبرس ألفي دينار.

وكان شخوص هارون إلى بلاد الروم لعشر بقين من رجب؛ واتخذ قلنسوة مكتوباً عليها « غاز حاجٌ »، فكان يلبسها، فقال أبو المعالي الكلابيّ:

فَـمـنْ يَـطْـلبْ لـقـاءَكَ أو يُـرِدْهُ ... فَـبِـالـحَـرَمـيْنِ أو أقصى الـثـغـورِ
فـفِي أرْضِ الـعَـدُوِّ عـلى طِـمِـرٍّ ... وفي أرضِ الـتَّـرفُّـهِ فَـوْقَ كُـورِ
ومـا حـازَ الثغـورَ سِـواكَ خَـلْقٌ ... مِـنَ المُـتـخـلِّفـينَ عـلى الأُمـورِ

ثم صار الرّشيد إلى الطُّوَانة، فعسكر به، ثم رحل عنها، وخلّف عليها عقبة بن جعفر، وأمره ببناء منزل هنالك، وبعث نقفور إلى الرشيد بالخَرَاج والجزية، عن رأسه ووليّ عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار؛ منها عن رأسه أربعة دنانير؛ وعن رأس ابنه استبراق دينارين. وكتب نقفور مع بطريقين من عظماء بطارقته في جارية من سَبْي هِرَقلة كتابا نسخته:

لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم، سلام عليكم، أما بعد أيها الملك، فإنّ لي إليك حاجة لا تضرّك في دينك ولا دنياك، هيّنة يسيرة؛ أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرَقلة، كنت قد خطَبتُها على ابني، فإن رأيتَ أن تسعفني بحاجتي فعلت. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

واستهداه أيضاً طِيباً وسرادقا من سُراداقاته؛ فأمر الرشيد بطلب الجارية، فأحضرَت وزُيِّنت وأجْلِست على سرير في مضربه الذي كان نازلاً فيه، وسلِّمت الجارية والمضرَب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسول نقفور، وبعث إليه بما سأل من العطر، وبعث إليه من التمور والأخبصة والزّبيب والترياق، فسلّم ذلك كله إليه رسول الرشيد، فأعطاه نقْفور وقْر دراهم إسلامية على برذون كُميت كان مبلغه خمسين ألف درهم، ومائة ثوب دِيباج ومائتي ثوب بُزْيون، وأثني عشر بازياً، وأربعة أكلب من كلاب الصّيد، وثلاثة براذين. وكان نقفور اشترط ألّا يخرب ذا الكلاع ولا صمله ولا حصن سنان، واشترط الرّشيد عليه ألا يعمّر هرقلة، وعلى أن يحمل نقفور ثلاثمائة ألف دينار.

وخرج في هذه السنة خارجيّ من عبد القيس يقال له سيف بن بكر، فوجّه إليه الرشيد محمد بن يزيد بن مَزْيد، فقتله بعين النُّوَرة.

ونقض أهل قُبرس العَهد، فغزاهم معيوف بن يحيى فسبى أهلَها.

وحجّ بالناس فيها عيسى بن موسى الهادي.



فهرس موضوعات المجلد الرابع











